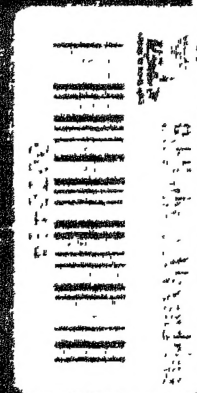


تاريخ الحضارات العالم

٦

القسم
التاسع عشر

منشورات توتنيان
بيروت - لبنان



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون أمينة متحف غيمية

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون أمينة متحف غيمية

٣

القرون الوسطى

إدوار بربوي أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و أرنست لابروس
أستاذ في السوربون أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيروب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد السادس

تاريخ الحضارات العام

القرن التاسع عشر

تأليف

رؤير شيرب

أستاذ فخري في الدراسات العليا

دكتوراه دولة في الآداب

نقله الى العربية

فريد م. داغر

يوسف أسعد داغر

منتورات عويدات

بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٧

مدخل

لكل شيء أثره ... وعلى هذا فالكل أو لا شيء .
فالكشف عن الحقيقة التاريخية كاملة غير منقوصة يقتضي
له التقصي واقتفاء ما تركت من أثر ملحوظ أينما وقع
وبأي شكل ظهر ، مهما صغر أو دق .

مبشله

وإن شئت فقل القرن التاسع عشر . وإذا ذاك قنطاً أمام نواظرتنا
هذه المناوين الغرارة التي يشير إليها مارك بلوك عندما يستعرض
أماننا هذا التشويش أو الاضطراب الذي يلزم « تصنيفاتنا الزمنية » . بعد هذا ، هل يقف
راوية ما من أمثال هيرودوتس مثلاً ، عند « سرد ما حدث أو جرى » دون أن يرد هذه
الأحداث إلى أطرها التاريخية ومفارقاتها المميزة ؟ فإذا لم يورِ ماجريات التاريخ وفقاً للتسلسل
الزمني حسب تماقب الملوك وقوالي السيطرات السياسية أو الحربية ، فسيستمر ، في الضعف
الايمن ، عاملاً في إقامة الحدود ووضع الصوى بين هذه العهود التاريخية المعروفة لدينا باسم :
التاريخ القديم ، والأجيال الوسطى ، والعصر الحديث والزمن المعاصر . ولكن أي معنى بعد
لهذه الأدوار والأطوار ، وأي مدلول لهذه المصطلحات والمسميات ؟ ففي نظر ليتريه ، التاريخ
المعاصر « يدون وقائع الزمن الذي عاش فيه الناس وجرت حوادثهم » بينما يمتد العصر الحديث
من حقبة الانبعاث الأدبي في القرن السادس عشر إلى يومنا هذا . ومع ذلك فقد جرت التقاليد
منذ عهد سحيق ، وهي تقاليد وأعراف لم تُنسخ بعد ، على جعل سنة ١٧٨٩ ، حداً فاصلاً لهذه
الحقبة . ومثل هذا الاضطراب في المسميات الزمنية يشوب الحقب التاريخية الأخرى . فإذا ما
جعلنا من عام ١٧١٥ نهاية القرن السابع عشر ، فمن المعقول أن نجعل من عام ١٨١٥ الحد النهائي
للقرون الثامن عشر . ففي التسليم بمثل هذا التقسيم الزمني ، لم يعد القرن التاسع عشر ليتفق وحدود
الاصطلاح المسيحي للأزمنة التاريخية ، كما أنه لا تقاطع هنالك ولا حدود في ديمومة التطور وحركة
النشوء . فالأمر ، والحالة هذه ، لم يعد ليتعدى الاصطلاح على حقبة هي خير ما يتفق وتربط
الحوادث لتماسكها وفقاً للفهوم الأوروبية للتاريخ .

لا مراء قط انهم توصلوا الى مقررات هامة في هذه المفاوضات التي دارت في مؤتمرات باريس وڤينا وغنت. ومع ان التعاند لم ينقطع قط بين مفهوم النظام القديم والايديولوجيا الجديدة التي طلعت علينا منذ عام ١٧٨٩ ، فباستطاعة اوروبا التي أعاد اليها نظامها « هذا العالم المتدين » ، كما جاء على لسان مترنيخ بالحرف الواحد ، ان تتنفس الصعداء ، وأن تنعم بسلام دائم . وقد استشعرت البورجوازية الفوائد الجسام التي سيعود عليها بها الاقتصاد الصناعي المتطور ، الحر ، في تكامله المتصاعد . فليس بعد ما يعمق او يحدد من استثناء الحركة التجارية وانبساطها عبر البحار والقارات . وستجد انكلترا بنوع خاص نفسها في وضع لم تعرف خيراً منه لتفرض على الناس ما تفتح من السلع والبضائع .

واندلعت عام ١٩١٤ حرب أكلول ، ضروس ، جعلت الحضارة الاوروبية على قاب قوسين وأدنى من الانهيار والهلاك ، في هذا الانقلاب الجذري الذي لف العالم لفاً فكان نذيراً بطلوع عهد جديد على البشرية جمعاء .

فأوروبا ، ولا شك في ذلك ، هي روح العالم وريحانته في هذا العصر . ومع ذلك ، فالسابق الذي سجلته لها في المضمار الحضاري ، مهما بلغ من مداه ورحبه وُبعد مراحلها ، لم يكن بأمن من كل منافسة او مزاحمة . فقد كشفت اميركا الفتية في صحبة موصولة لبروموتيه ، عن سر نهضة عارمة سريعة الخطى ، كما ان بلداً ودولاً اخرى اخذ يدب في ثناياها ريس نشاط وتنمطى بين جوارحها هزة طافرة .

فالقرن الثامن عشر الذي كان عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل اوروبا تسير في طليعة الركب الحضاري . فهل كتب لهذه القارة ، في حلبة الزمن ، ان يكون القرن التاسع عشر ، عصرها المجلي وذروة التطور عندها ؟

القسم الأول

بين الاستمرار والتغيرات المحتملة
في مطلع العصر

خصائص هذا العصر ومميزاته برزت واتضح شينا فشيناً . فأغاط العيش وطرق التفكير التي سيطرت وراجت بعد حقبة الثورة والعهد النابوليوني لم تكن ، ولم يكن لها ان تكون جديدة بالنسبة للغرب . فتنحير الفلاح المشدود الى الارض لم يكن امراً مشكوكاً فيه وحسب لدى قسم كبير من دول اوروبا ودويلاتها ، بل ان طرائق العمل ووسائل استثمار الارض سجلت تقدماً بطيئاً . لم يطلع علينا بعد ١٨١٥ كما لم يحدث قبل ١٧٨٩ « ثورة صناعية » ، إذ نحن أمام تطور يتسم بالبطء في كل ما يتصل بتقنية الانتاج ووسائل النقل والانتقال ، ولا تزال اكتشافات القرن الثامن عشر هي التي تفيض بنعماتها على القرن اللاحق . فالأفكار التي صدمتها بعنف التصدعات السياسية وما صاحبها ولازمها من هزات اجتماعية وارتجاجات سياسية ، بقيت عرضة لهواجس الحيرة والفرود والتشكك ، وما زالت المشاعر المتعاطية في تفاعل وانفعال . فالصراع لا يزال على أشده بين النظام التقليدي والروح التحررية التي جاشت بها البورجوازية ؛ والقلق الذي يبعثه في النفوس مرأى الفقر المدقع المسيطر على الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ينحسر عن أعمال نافقة او عن نظريات خداعة ، برأفة ، والطريقة الثورية التي شرعها احتلال الباستيل ودسكها تستمر وتستأسد ، والتحاليف المقدس الملكي والارستوقراطي يستهدف دوماً الأخذ بهذه الاساليب التي سيطرت على دبلوماسية بلاطات الملوك . فاذا ما هيأت سنوات حكم لويس الرابع عشر الاخيرة وثورات انكلترا وانتفاضاتها ، طلوع القرن الثامن عشر ، فحضوره يتعثل في معظم المجالات والنشاطات . ألم يُرسِ أسس الاستقلال الاميركي الذي رحبت مغاييسه واتسمت جنبااته ما بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ؟ ألم يوح بالحملة المستمرة المضادة للرق ؟ ومع ذلك فننقوذ اوروبا ولا سيما انكلترا ، لا يزال يتعاطم ويتجسم أكثر فأكثر ، كما ان شخصية اميركا برزت بصورة أجلى . وبالرغم من تحكم وضع اقتصادي لم يكن مؤاتياً ، فالبورجوازية المدنية اخذت تستبد بالسلطة في هذه البلدان بالذات التي تستبد بها وتسيطر عليها عوامل المال والتجارة والصناعة . والمعارك العنيفة التي خاضتها البرولينازيا الكادحة عكست من جهتها شكيمه رأس المال وسيطرته الغاشمة . فانتصب في وجه الطبقة الظافرة المتحركة طبقة اخرى اخذت تحاول إثبات وجودها بشق طريقها واحتلالها محلاً مرموقاً تحت الشمس . وفي الوقت ذاته طلع على العالم اكتشاف تقني جديد يتمثل بدخول البخار في خدمة الغرب ، وبفضل هذا الكشف العلمي العظيم عرف الغرب ان يفيد ، الى حد بعيد من خدمات ووسائل يسر استعمالها ، لم يقم في الامس الغابر ، من ظن بها خيراً ، ولا من رأى بها نفعاً . وهكذا تستطيع اوروبا استئناف السير حثيثاً وهي على مثل ما نرى من نشاط زاهر وعافية ، للسيطرة على العالم وبسط نفوذها ، في الوقت الذي انصرف فيه الاميركيون ، من جهتهم ، لبسط سيطرتهم على اميركا .

الفصل الأول

سكان أوروبا

تضخم عدد سكان العالم ، خلال القرن الثامن عشر ، إذ ارتفع هذا العدد من النمو المطرد ٦٠٠ مليون حوالي عام ١٧٠٠ الى ٩٠٠ مليون في مطلع القرن اي في سنة ١٨٠٠ . وقد عرفت اوراسيا ان تحافظ من جهتها على تفوقها العددي . صحيح ان اميركا الشمالية عدت ، إذ ذاك ، ٦ ملايين نسمة بعد ان ضمت مليوناً واحداً من السكان فسجلت بذلك اكبر معدل في الزيادة ، بينما بلغ عدد سكان ما تبقى من العالم الجديد ١٩ مليوناً بعد ان كان في حدود ١٢ مليوناً . أما افريقيا فقد بقيت على وضعها المعروف تقريباً أي في حدود المائة مليون . وبالمقابل بلغت آسيا ٥٧٥ مليون نسمة بعد ان كانت ٣٣٠ ، وأوروبا ١٨٧ مليوناً بعد ان كانت ١١٨ مليوناً . وهكذا فقد أربى معدل الزيادة في أوروبا على معدل النمو في آسيا (١) .

وهذا النمو المتصاعد لم يتوقف ولم يخف كما انه لم تتغير كثيراً نسبة التوزيع الديموغرافي في النصف الاول من القرن التاسع عشر. هنالك في العالم زهاء ١٢٠٠ مليون حوالي عام ١٨٥٠ . فاذا ما عرفت اميركا ان تحتفظ بأكبر معدل في هذا النمو السكاني ، إذ ارتفع عدد السكان فيها من ٦ ملايين الى ٢٥ مليوناً، فقد سجلت آسيا ٧٦٠ مليوناً وأوروبا ٢٦٦ مليوناً . وهكذا نرى كيف ان معدل النمو ازداد في أوروبا . وقد يتأتى معدل الزيادة أعلى من ذلك بكثير اذا ما اخذنا بعين الاعتبار حركة الارتمال الأوروبي الى الولايات المتحدة الاميركية (اي ما يقارب ١٠ في المائة من سكان عام ١٨٥٠) .

وقد طرأ ما غيّر من معدل توزيع السكان داخل المجموعة الأوروبية . فالخمس والثلاثون مليون فرنسي ، عام ١٨٥٠ ، لم يكن ليزم عدداً إلا ٥٧ مليون روسي . والدويلات الالمانية (باستثناء النمسا) تعادل لوحدها هذا الرقم ، بينما ارتفع عدد سكان إيطاليا من ١٨ مليوناً الى ٢٥ مليوناً ، كما نلاحظ زيادة مرموقة في معدل نمو السكان في الجزر البريطانية إذ ارتفع رقمهم

(١) راجع في هذا الصدد الجدول البياني لتعداد السكان في اول الفصل الرابع من القسم الثاني من هذا الكتاب.

من ٩ ملايين ، في عام ١٧٠٠ ، الى ١٦ مليوناً ، عام ١٨٠٠ ، والى اكثر من ٢٧ مليوناً ، بينهم ٨ ملايين ونصف في ايرلندا . والسبق الفرنسي في هذا المضمار أصابه التمثل ، فالتأخر لعدة تناقص المواليد ، بينما يرتفع معدل نمو السكان في البلدان الاخرى . فبينما يبلغ معدل النمو في فرنسا ، عام ١٨٠٠ ، ٣٢ في الالف ، تحافظ انكلترا على مثل هذا المعدل ، عام ١٨٥٠ ، ويبلغ في المانيا ٤٠ في الالف و ٤٣,٣ بالالف في الولايات المتحدة الاميركية .

قابل معدل المواليد العالي معدل عالٍ في الوفيات . ان الامل بحياة المعدل العالي في الوفيات
طويلة الامد ضعيف أينما كان ، فالسواد الاعظم من السكان هم من
الأوبئة الفتاكة والطاعون الاحداث . ان ٤٤٪ من سكان فرنسا ، عام ١٨١٥ ، لهم من السن اقل من عشرين سنة والذين تجاوز سنهم الـ ٦٠ لا يمثلون سوى ٧٪ لا غير . فاذا ما انخفض معدل الوفيات قليلاً في غربي اوروبا والبلدان السكندنافية ، فالظروف الاقتصادية السيئة تحول دون أي تحسن في هذا المجال وتقف حجرة عثرة في اي امل يتحسن الوضع . لا بد من ان نتذكر هنا ان السواد الاعظم من الاوروبيين لا قدرة عندهم على مقاومة المرض ولا مناعة عندهم بالنظر لمسام عليه من نقص في التغذية ولأن موقفهم من المرض ليس خيراً من الآسيويين والافريقيين . ففي مدينة ليل ، عام ١٨٣٠ ، لا يتجاوز معدل سن نصف الاحداث بينهم ، خمس سنوات ، بينما لم يزد معدل مدى الحياة في مدينة ملهوز على ٢٢ سنة . ويكفي ان تجذب الارض سنة واحدة او ان تجذب غلالها حولاً واحداً حتى يتهاوى المساكين والبائسون بعشرات الالوف .

فاللقاح الذي اكتشفه جنتر ساعد كثيراً على التحكم بسير الجدري ، والبرص اعتمد في أشباه الجزر الجنوبية والسكندنافية ، بينما بقيت حمى البرداء على فتكها الذريع في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والتدرن الرئوي المتلبس أشكال مرض السل ومظاهره المألوفة بقي يحصد الناس دوغماً رحمة او شفقة .

فالتيفوس والوباء والطاعون هي اكثر الأوبئة الوافدة التي خشي الناس شرها الوخيم . فالتيفوس ، كالطاعون ، مرتقه القذارة وانعدام الوسائل الصحية ، فهو يمشعش في الزرائب وفي الاوساط التي تعاني من سوء التغذية ، او تذهب فريسة لويلات الحرب وقتكها الذريع . فقد تميزت اواخر الحروب النابوليونية بمجاعة تيفوس فتكت دوغماً رحمة بالمانيا ، وبقي هذا المرض الوبيل الخبيث ينتقل من محل الى آخر في جميع ارجاء اوروبا ، معلنًا عن قدومه واستشاطته بهجمات فتاكة تقضي على ٢٠,٠٠٠ في بلجكا ، خلال الازمة التي استحكمت بها بين ١٨٤٦-١٨٤٧ ، وينزل بالمحاربين في الشرق ، عام ١٨٢٩ ، ولا سياً في حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) من ويلاته ضحايا لا تحصى ولا تعد . وقد عرفت اوروبا ، بين ١٨١٠ - ١٨٣٢ ، ان تنفادى واقدة الوباء الذي نشأ بين سكان السلطنة العثمانية . وقد اتضح للجميع بالاختبار ان اقتراس الجرذان الاغبر للجرذان الاسود والتهامه له فيه ما يخفف من انتشار هذه الجائحة .

ان الطاعون ضيف طارىء ثقيل ، يزرع الرعب أينما حلّ وقام ويسمر الخوف في القلوب والنفوس . فوافدته الكبرى اجتاحت أوروبا في اثر حملة الروس على ارمينيا وعلى ايران وأثناء الدور الاول من الصراع الدامي الذي نشب بين مصر وتركيا . فالعدوى سهّل انتقالها خلال الحملات والاشتباكات الحربية ، التي قامت بين الروس والبولنديين ، عام ١٨٣٣ ، عقب وصول بعض السفن الموبوءة الى سواحل البرتغال ، بحملة جنوداً وعتاداً لحساب دون يدرو ، ووافدة الوباء لم تتجاوز استراخان عام ١٨٢٣ ، إلا انها اتجهت بعدد ١٨٣٠ ، شطر أوروبا فاشتدت عليها وطأتها مدة سبع سنوات ومنها امتدت الى الجزائر^(١) . فقد بلغ عدد الضحايا الذين خلفتهم وراءها في فرنسا مائة الف ، بينهم ١٦٥٠٠ في باريس نفسها ، و ١٤٠٠ في برلين ، و ٢٠٠٠ في فيينا و ١٠٠٠ في الزويج ، و ٦٧٠٠ في لندن . والمدن التي تناقلت عليها وطأة الجائحة ، فرّ أهلها بأنفسهم الى الريف . فبما له من خوف مريع . فبم يستطیع الناس ويتعالمجون ؟ هل يفيد في مسبب الموت الزؤام ، البزومت والكالور والكينيا وحمامات البخار . وعندما اصدر حاكم مقاطعة السين اوامره بنقل الاوساخ والتفایات بالعربات ، راح الزبالون بسد ان حرمهم هذا القرار من لقمة العيش ، يشعلون النار في عدد من هذه العربات ، كما راح خصوم لويس فيليب ، يستغلون لحاسيهم الخاص ، الاضطرابات التي نشبت في العاصمة ، كما راحوا يسمون الخواطر ، بالشوائع المفرضة والاقايل زاعمين مرددين ان كزيير يريه يسم الشعب بالتواطؤ مع الاطباء والكهنة . ولم يلبث الناس ان راحوا يتخاطفون النعوش والتوابيت وصناديق الموتى . ومع كزيير برييه غابت وجوه : شعبليون الابن وكوفييه وسادي كرلو .

والرياح الموبوءة الفاسدة اخذت ، بسين ١٨٤٧ و ١٨٥١ ، تهب من سباسب آسيا وفلواتها الموحشة في الحين الذي اخذت تستحكم في الرقاب ازمة اقتصادية حادة . ولما كان الشعب البلجيكي ضعيفا وهنا لكثرة ما يعاني من ضنك العيش وسوء التغذية فقد رأت فيه الجائحة مرتقا خصبا وقتكت فيه فتكا ذريعا ، فحصلت من بين صفوفه ٣٣٤٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد الضحايا ، في لندن ضعف عددهم عام ١٨٣٧ ، كما ان امبراطورية القيصرية الروس سجلت لوحدها اكثر من ٦٠٠٠٠٠٠ ضحية ، وحصلت هذه الوافدة في باريس ، بين ١٦٤٠٠٠ و ١٧٤٠٠٠ قريسة ومجرات على الجنرال بوجو ، ملاذ المجتمع ومعقله الحصين ، كما يقول فيه لويس فويو . واشتد الوباء بالاكتر في الاحياء المدقمة الفقر ، كما يؤكد ارمان دي ميلون . وكان الجيش النمساوي أداة نقل هذه الوافدة الى ايطاليا ، ومن مرسلها انتقلت الى الجزائر . وقد سلكت الطريق ذاته عام ١٨٥٥ ، فاناخت هذه المرة بكلكلها الثقل على بلدان الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، كما

(١) انظر الى الخريطة ص ٧٤ - ٧٥ ، وزيادة في المعلومات يحسن مراجعة البحث الاستقصائي الذي قام به السيد لويس شفالبيه بعنوان : « الكوليرا أولى وافدات القرن التاسع عشر » المنشور في مجلة مكتبة جمعية الثورة ، عام ١٨٤٨ (الذي صدر عام ١٩٥٨)

سارت في ركاب الفرق الفرنسية في حروبها في شبه جزيرة القرم ، وانتقلت عن طريق النازحين الى اميركا . وقد عرفت اوروبا في آخر الامر كيف تتقي هذا الشر الوخيم .

فلماذا ينجب الناس مثل هذا العدد من الولد اذا كانت قسمتهم الفقر المدقع مع ملطوس ضده . والموت الخاطف وحياة ملؤها الفصص ؟ هذا السؤال كثيراً ما طرحه على نفسه القس ملطوس في كتابه الموسوم : « بحث حول مبدأ السكان ، الذي صدر عام ١٧٩٨ » ، والذي احدث صدوره دويماً عظيماً^(١) . فعندما راح يهاجم نظرية النشوء والارتقاء ، هذه النظرية التي قال بها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلموا ، 'حسب عليه هجومه هذا شجباً للقانون الانكليزي المتعلق بالفقراء ، هذا القانون الذي حيد تكاثر النسل لدى طبقة المعوزين ، مشيراً بذلك الى ناموس المتواليات الهندسية ، بيتاً « وسائل التغذية » لا يمكن ان تتطور وتزداد بأسرع من « المتواليات الرياضية » . وقد تنطج للرد عليه غودون ، فراح يؤكد ان البؤس والفقر انما ينشأ عن تفاوت في توزيع مصادر الثروة الطبيعية او عن سوء في هذا التوزيع ، وعن تمرکز الملكية العقارية وحصنها في ايدي عدد قليل من الملاكين . وقد وقف هذا الموقف المناهض للملطوس هذا القبيل من الناس الذين راحوا يتمنون ردة عكسية للحد من حرية التصرف المتواليات ، في نظر بسموندي ، « للدول الثرية ، حيث ظاهرة البؤس والفقر العام تسير جنباً الى جنب والثراء المادي » . وقد حرص ماركس ولا سيا انفاذ على تجريح نظرية ملطوس ودحضها ، الذي ينزل العامل منزلة حيوان الجر ، تأميناً للانتاج ، ويذهب بالحكم عليه بالموت جوعاً ، والعيش اعزب طوال حياته . وعلى عكس هذا تماماً راح المتحررون من علماء الاقتصاد ، يرحبون بمبدأ يقتنافي والاصلاح الاجتماعي . من الواجب ، وأيم الحق ، تشجيع الناس على الاقتصاد وحملهم على التوفير ، بدلاً من التكاثر والانسال بكثرة ، كما يؤكد جان باتيست ساي المعروف بشدة تفاؤله والذي لم ينفِ قط « ان جانباً من الناس يموتون من العوز والتضور جوعاً حتى بين الشعوب التي تنعم بالازدهار المادي » . وراح دونيه ، عام ١٨٣٣ يوصي بقطع المساعدات الانسانية عن كل الأسر التي لا يزيد عدد الاولاد عندها ، على ولد واحد . وجان ستيوارت ميل لا يتورع قط عن « النظر الى الأسر العديدة الأولاد والبنين نظرة الازدراء والاحتقار التي يحتفظ بها للمدمنين على تعاطي المسكرات او لغير ذلك من الموبقات الجسدية » . وتألفت في انكلترة عصابة خاصة تعرف بمصبة ملطوس اخذت على نفسها مناهضة الانسان والأسر الولود بين البائسين .

وهكذا انفتح باب الجدل والنقاش على مصراعيه . فهل يقضي العصر للملطوس او عليه ؟

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٥٩٩ و ٦١٧ (الطبعة المروية) .

الفصل الثاني

العناية بالأرض في أوروبا أنماط الحياة القديمة والتطور

« كل مخلوق بشري أوتي القدرة على إنتاج كمية تزيد على حاجته من الغذاء » - غودوين: (نظرات حول السكان - ١٨٣٠)

لم يكن في مقدور « الثورة الصناعية » ان تزيل عن أوروبا ، وهي الطابع السائد في أوروبا
بعد عند عتبة القرن التاسع عشر ، الطابع الريفي الذي لازمها منذ لا يزال طابع القرية والأرض
عهد سحيق . ومهما كان من الدفع الرأسمالي في انكلترا ، فالتوازن لم ينقطع ، لدى سكان الجزيرة ، بين الثروة العقارية (Landed Interest) وبين الثروة النقدية (Moneyed Interest) لجهة الأخيرة منها . أما في فرنسا ، التي دخلت في ظل إعادة الشرعية الى الحكم ، فالقرية تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية ، وهي نسبة تجاوزت هذا الحد في معظم دول القارة . فإن كان الإنسان لا يزال يعمل في معاشه على عمله في الأرض والسعي لتأمين ما فيه كفافه ، فقد بقي الخوف من المجاعة هاجسه اليومي الذي لم يبارحه إلا في السنوات التي تجود بالمواسم الطيبة والغلل المشجعة ، حتى المدن التي كان شأنها متواضعاً على الأجمال فقد وجدت نفسها غارقة في محيط ريفي قميش معه في مقايضة موصولة وتبادل لا ينقطع .

حرص الأوروبيون الذين همهم ، في الدرجة الأولى ، تأمين أود الاقتصاد الريفي
العيش ، على ان يجنوا من غلال الأرض ومحاصيلها المتنوعة ما يؤمن لا يزال على طابعه التقليدي
معاشهم العادية . مغبوبة هي الأرض التي تكفي نفسها وتفي بفرائضها المرسومة ومباركة المواسم التي تليح لأصحابها ترفير بعض الغلال ، بعد ان يسدد المزارع ما عليه من رسوم وأتاوات وضرائب وعوائد .

فالمساحات المخصصة لإنتاج الحبوب لم تكن ابداً ، فائضة عن الحاجة ، إذ المهم في هذه الحياة تأمين حاجة المراء من الحنطة . فالمحاصيل الزراعية في البلد الام تكفي عام ١٨٤٠ ،

مجاجات ٩٠٪ من البريطانيين . فإن قصر موسم الشوفان شال موسم القمح . ومع ذلك بقي خبز القمح ورغيف القمح من الامور الكالية او الترفيفية . والشوفان والشعير والذرة دخلت أكثر فأكثر في تكوين الرغيف والطلبية والمصيدة . أفليست كعكة الحلوى او قرص الحلوى في سكوثلندا من القرطم ؟

وتربية الماشية تأتي بالرديف المؤمل والمنصر المساعد ، وهي تربية تعمل ، الى حد كبير ، على انتاج الحقل أكثر منها عملية استثمار . فانه تولي صاحبها القوة وتوفر له حاجته من اللبن واللحم ، اذا ما كانت تقوم على تربية الخنزير وتعتمد على السباد الطبيعي . وهذه السائمة التي تميش قطعانها بصعوبة كلية ، على المراعي والقصيل الجاف والتي تفتقر احيانا للملح ، هي عرضة ، من حين الى آخر ، لجوائح وأوبئة تصيب الماشية ، فتفتك بها حتى الفناء ، باستثناء الوباء البقري منها . ومع ذلك فالخروف ، يسرح في الجنوب ويمرح في مراعي واسعة يغشاها دورياً مع مواسم الظمن . والماعز الذي يعرفونه عادة ببقرة الفلاح يقضي على الخضرة في الارض بعد ان يقضمها قضمًا من الاساس .

والأهمية التي اتخذتها زراعة البطاطا بحيث أصبحت الركن الركين في نظام التغذية تعبر من نفسها عن حرجة الوضع ، كما انها دليل على قلة الطمأنينة للمواسم الزراعية وتقلباتها المحتملة . فما من شك قط ان السهول الساحلية الرطبة لم تكن تكفي لتأمين ما فيه أود العيش للسكان الآخذ عددهم بالازدياد لولا التمويل على المحاصيل الاخرى في البلاد ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان ايرلندا لم تقفر من السكان منذ عهد بعيد .

وفي اماكن ونواح كثيرة ، لم يكن الجهد البشري ، حقق بعد ، السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة . فقد يقنع الفلاح باستئجارها الموقت مستعيناً على ذلك بوسائل بدائية تؤول الى حرق الاعشاب بعد كشطها ، وعزق التربة وحياتها والتسميد ، كما اخذ العمل بذلك كله مناطق عديدة من الاردن . ومما تكن دورة الارض الزراعية فهناك دوماً ارض بور . وأمام فقدان السباد الحيواني ، كثيراً ما عمد الفلاح الى الزبال او السباد الاخضر . وكثيراً ما يقنع بعزق الارض على الطريقة الصينية ، اذا لم يتوفر له ما يلزم ، من حيوانات الجر والفلاحة وكثيراً ما جرد البزار الرديء او المتأخر عن اوانه ، والعزق الناقص ، الى مواسم سيئة . فالأعمال الزراعية يقتضي لها جهود شاقة ووقت طويل وسواعد مقتولة . فالبزار يتم باليد ، وهي حركة مبرورة تبقى عماد الموسم الزراعي الى اواخر القرن . فالحصاد يجري بالمنجل ، والدراسة بالخباط او النورج تجره الأبقار . فالصور الفرعونية لعملية الحصاد لا تجرح انظار الصغار .

هذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب ولا سيما الحنطة يبقى دوماً ^{الازمات الزراعية} عرضة لتقلبات بحيرة اساسها اصلاً ضعف معدل انتاجية الارض ، وهذه التقلبات التي تطرأ على الحد الاعلى في المحصول ، وقصور وسائل النقل وبطئها . وهكذا أصبحت سوق الحبوب سريعة الحساسية الى حد بعيد . وهذه التقلبات السريعة كثيراً ما تقع خلال فترة من

ركود الاسعار او هبوطها ، هذا الهبوط الذي يطبع بميسم خاص ، عام ١٨١٧ وما بعده ، وهو ركود عقب حقبة طويلة من ارتفاع الاسعار استطالت الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١) .

ومع الاستقرار ، انعكس الوضع وانقلب ، إذ يكفي ظهور موسم عاقل واحد لتطل الازمة برأسها من جديد . فعندما برزت ازمة عام ١٨١٦ ، ارتفع ثمن الهكتولتر من القمح في فرنسا ، من ٢٢ الى ٣٤ حتى بلغ ٤٦ فرنكاً في بعض الاماكن . وراح الناس ينزلون باللائمة على المحتكرين ، كما راحوا بالتالي يطالبون بالمصادرة . وقد تجلّى الهيجان ، إذ ذاك ، بأعمال سرقة الطحين ومحاولات تمرد بالقوة . وكما حدث في عهد لويس السادس عشر ، راحت الحكومة تعفي القمح من رسم الدخولية ، وتعطي مساعدات لمستوردي الحبوب ، وفتحت ابواب المشاغل الحيرية . ومنذ ١٨٢٥ ، اخذت البلاد تشكو من فقدان البطاطا مما سبب زيادة جديدة في اسعار المواد الغذائية ، ولا سيما في اسعار الحبوب ، فعادت الاضطرابات وسيطر الهيجان في مطلع عهد ملكية تموز ، وجرت اعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب غير المباشرة ؛ فإذا ما هبطت الاسعار عقب ذلك هدوء الاحوال . وعندما عادت الاسعار الى الارتفاع من جديد ، عام ١٨٣٢ ، عاد الهيجان يطل ثانية ليعكر صفو الامن . فندرة المواد الغذائية اوجدت مناخاً لا ينسجم واستتباب الامن في البلاد ، عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .

وقلة المواد الغذائية وفقدانها كانت اصلاً وراء الانتفاضة الثورية التي وقعت عام ١٨٤٨ ، إذ قلت البطاطا في الاسواق بعد ان فتكت بها حشرة مهلكة . ففي الحين الذي لاقى فيه مئات من الألوف في ايرلندا حتفهم جوعاً وتضوراً (الأمر الذي سبب مهاجرة أكثر من مليون نسمة من سكانها) طرأ موسم جفاف اجذبت معه مواسم الحبوب في هذه المقاطعات الواقعة بين السين والرين فتعرض لمجاعة شديدة سكان منطقة واسعة تقع على سواحل البحر الابيض المتوسط . وهكتولتر القمح الذي كان سعره يتراوح بين ١٨ - ٢٣ فرنكاً قفز فجأة الى ٤٣ فرنكاً . كما أن سعر الخبز تضاعف من جهة ثانية ، هو الآخر . فالانعكاسات والردات هي واحدة مما شجع جول فاليس على أن يضع كتاباً حول فتنة انتفاضية في فرنسا في مقاطعة الاندر ، صدر بعنوان « البلوزات » . وكانت من جراء حركة ارتفاع الاسعار والاستيراد ، أن ضعفت السيولة بين أيدي الناس وأوصلت الازمة الى القطاع الصناعي . وعند أقل بادرة تساهل من قبل القوى الساهرة على حفظ النظام ، كانت الجماهير المحتاجة في كل مكان تعمل على اسقاطها والتخلص منها ولو الى أمد قصير .

(١) راجع الكشف البياني ، الشكل ٤ في الفصل ٦

هنالك كما يبدو تطورات ملحوظة بدت ثلاثينها منذ القرن
نتائج « الثورة الزراعية » الثامن عشر .

ذو النج البريطانى
راح أرمو يونسغ يؤكد عالياً ان طريقة تعاقب المزروعات
الملقية ، الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية ، هي القاعدة الاولى والركن المعول عليه
في النظام الزراعي المتبع في انكلترا . ويؤكد نورفولك بالفعل : ان الدورة الزراعية
الرابعة من شأنها ان تقضي على الارض البور وان تزيد الارض خصباً بمزجها التربة بالنباتات
والحشائش والمواد العلفية الغنية بعنصر الازوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمدته « الثورة
الزراعية » . وعلى هذا فان اضافة بعض انواع الفصيلة الصليبية كاللفت والكرنب والسلجم
وبعض الحشائش الريفية التي تتكاثر بالبذار كالفصة والبرسيم والحلفا يجب ان تعتبر من افضل
الطرائق العلمية التي استنبطها العصر الحديث . وقد اخذ بطريقة التحويل الزراعي وتطبيقها
كبار المزارعين الانكليز . بينما عارض المزارعون ، في فرنسا ، اقتباس هذه الطريقة
لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صفار الملاكين والمزارعين ، في فرنسا ، مثلاً .
ومع ذلك فقد راحت اراض عديدة معروفة بطيب تربتها ، بين المانش ومقاطعة بوهيميا
او في سهل نهر البو ، تحاول ررع الشمندر السكري بينما اخذت أماكن اخرى تعاقب بين
زراعة السلجم ، وبين زراعة الحبوب والبطاطا ، ومثل هذه البقول تجدها سوقاً رائجة في
المدن المكتظة بالسكان . وراحت زراعة الكرمة في الغرب تتقهقر أمام الاقبال المتزايد على
زراعة التفاح . بعد ان ثبت بالتجربة ان التربة والمناخ في المقاطعات الجنوبية هي أكثر ملاءمة
لها . كذلك حشيشة الدينار اخذت مناطق زراعتها تنحدر من الشمال الغربي ، نحو وادي الرين
ومقاطعتي بورغوني والبافير .

وقد عولوا في علف الماشية ، على بعض الحبوب . فراح العاملون في تربية الماشية في
انكلترا يعنون ، على الاخص ، بتأصل عروقها واستيلاد انواع جديدة بالمصالبة . فقد همهم
أن يحصلوا على عرق من الابقار يعطي المزيد من اللحم او الحليب . كما راحوا يستولدون
عروقاً جديدة من الغنم الجيد الصوف . وهكذا استطاعوا ان يسجلوا لهم تقاليد محترمة يعمل
بها في مجال تربية الماشية . من ذلك مثلاً ، النوع المعروف عندهم بـ *Durham Shorthorned*
القصير القرن . كذلك صرف المزيد من الاهتمام والعناية بنظام السقاية والري استوحيت اصوله
من الاساليب المستعملة في الاراضي الاسبانية *huertas* المروية المشهورة بخصب زراعتها .
وكانت من بعض نتائج هذه الطريقة ظهور مروج ومراع هامة في انكلترا وفي بعض
بلدان القارة .

وأخذت اوروبا تجري تجارب تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الغنم والبقر . فبعد ان
كان الحروف من عرق المارينوس يعد في فرنسا مليون ونصف المليون ، عام ١٨١٥ ارتفع
عدده في عام ١٨٤٠ الى ٨ ملايين رأس . وقبل أن تدخل بلدان جديدة مضمار تربية الماشية ،

أقبلت أوروبا القارية على هذا النوع من الاستثمارات ، بصورة غريبة بحيث أن المانيا عدت ٢٠ مليون رأس ، منها ٨ ملايين في بروسيا .

وبذلوا كذلك المزيد من الاهتمام والعناية لرفع الإنتاج في الأراضي الخاصة بزراعة الحبوب بعد أن ظهر للجميع فائدة تسميدها بالكلس وتخصيبها . ومع أنه أصبح في الامكان التعويل ، أكثر فأكثر ، على السماد الحيواني ، فقد راحت شركات استثمارية بريطانية ، تعنى باستعمال العظام المسحوقة لهذه الغاية حتى أن أحداها أخذت تستعمل تربة بعض الحقول التي كانت ميداناً لأحدى المعارك النابوليونية الكبرى . وأخذ الغوانو *Guano* يلعب ، بعد عام ١٨٤٠ ، دوراً بارزاً في عملية تسميد الأراضي الزراعية ، ومثل هذه المادة تتوفر بكثرة في بلدان اميركا الجنوبية المطلة على شواطئ المحيط الهادي . كذلك جاء بفائدة كبيرة الاختراع الذي تم على يد ليبينغ *Liebig* ومكنه من صنع مخصبات صناعية تُستمد من الكيمياء الصناعة .

وبما استدعى اهتماماً أكبر وجهداً مبرراً هي الأراضي التي عرف الانسان ان يستخلصها من البحر . فقد طرأ تحسين كبير على طريقة تصريف المياه تدريجياً بواسطة قساطل متخذة من الطوب والقرميد ، وهي الطريقة التي اقترح العمل بها السكتلاندي سمث عام ١٨٢٣ . وقد عرف بيل *Peel* ان يحدث حولها دعاية للترويج لها ، وذلك باعتماده لها في مزرعته الواسعة في ستافوردشير بانتظار الانابيب التي اوصى عليها في معامل هوايتيبيد في برستن . ونظام تصريف المياه مع نظام سقاية دقيقة مكن من زراعة واستثمار السهل البادائي . وهكذا امكن ادخال تحسينات ملحوظة على الأراضي الواطية في يوركشير ولنكولنشير، وسهل فوريز ، وبطائح سولوني والمستنقعات القائمة في المانيا الشمالية .

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط الزراعي ، عمليات تجفيف الأراضي الواطية وانشاء المزارع مكانها . وبهذا تم للانكليز الاستيلاء على *Fens* ، كما اخذ الفرنسيون يجففون مستنقعات *Moers* . وتمكن الهولنديون على الاخص ، بين ١٨١٥ - ١٨٧٥ ، من استخلاص اراض من البحر مساحتها ٥٨٠٠٠ هكتار ، مقابل ٢٥٠٠٠ هكتاراً تم استخلاصها منذ عام ١٦٧٥ ، وبذلك تم ضم مقاطعات كيغراس ، وانسابولونا ، وأزالوا بحر هارلم ، وراحوا فيما بعد يعملون على تجفيف ونزع مياه مستنقعات مياه توماس وبولينا ، بعد ان استبدلوا المضخات التي تعمل على الهواء بأخرى تعمل على البخار . وفي الوقت ذاته ، استمر العمل في بناء سدود ماركنتير ، واحياء اراضي مستنقعات البواتو ، وثبتت كشبان الرمل في مقاطعة كسفوني . وهكذا اتسعت شطآن أوروبا المطلة على الاطلسي وأمكن تثبيتها .

وهذا الجهد لا يعني قط إغفال ما للأدوات الزراعية من قيمة والانتقاص من شأنها بعد التحسين الملحوظ الذي طرأ عليها قبل اكتشاف البخار . ولم تلبث أنواع المحاربت الانكليزية المحسنة ،

على اختلافها ، من طراز Bibble و Howard و Mathieu ان غزت القارة واكتسحت اسواقها وذاع استعمالها في مختلف البلدان الاوروبية .

ومع ذلك فهذه النجاحات التي حققتها الهندسة الزراعية لم تكن بحاسمة قط . فالتجارب والمشاريع الفردية التي قام بها في هذا المجال أمثال ماثيو دي دومبال وإيفار ، الذي كانت في فرنسا ، ما كانه آرثر بونغ في انكلترا ، لم تلق التشجيع المرجى من قبل السلطات في باريس . فالأساليب والطرق الفنية الانكليزية وجدت لها استجابة اكبر بين كبار الملاكين في بروسيا ، وأصبحت المدارس الزراعية تعتمد عليها كل من Thuermer و Thuer . وطبق بسمارك في مزارعه الواسعة ، في كنيفوف ، الارشادات والاقتراحات التي أوصى بها الاخير منها ، كذلك اخذ بأسباب التجدد وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة وأساليبها كبار الملاكين في الامبراطورية النمساوية ، وفي ايطاليا ايضا امثال كافور ، وفي روسيا .

كل من تطلع ، عام ١٨٥٠ ، الى الارياف ، في كل من فرنسا وانكلترا رأى الفرق والتباين بين ما كانت عليه مناظر الريف والحدائق بين البلدين ، وكلها تشهد بالسبق الذي سجلته الزراعة الانكليزية في هذا المضمار . كذلك جاء الفرق كبيرا بين اسطبلات الخيل في مقاطعة نورمنديا ومقاطعة اليموزين . ويتضح من البيانات والحسابات الدقيقة التي وضعها ليونس دي لافيري انه يلزم فرنسا ثلاثة ارباع القرن من الجهد والتطور الزراعي لتصبح في المستوى الذي بلغته جارتها في هذا المضمار .

عندما انتهى كبار الملاكين في انكلترا ، عام ١٨٤٥ من إقامة بريطانيا العظمى وكبار الملاكين السياجات وعلمية التصوين حول ممتلكاتهم العريضة ، كانت قد صدر ، قبل ذلك ، منذ عام ١٧٠٠ ، نحو من ٤٠٠٠ قانون او قرار ، تطالب بشكل او بآخر اصحاب الاملاك إحاطة أملاكهم الواسعة بالأسوار والسياجات اللازمة . وهكذا أقيع لهؤلاء الملاكين الاستيلاء على جانب كبير من الاراضي في انكلترا .

هنالك زهاء ٢٠٠٠ من كبار الملاكين كانوا يملكون اكثر من ثلث مساحة الاراضي الزراعية في انكلترا ، ولا يزال تحت تصرف البعض منهم اليوم ، من هذه الاملاك الشاسعة ما يربو على ١٠٠،٠٠٠ والبعض على ٤٠٠،٠٠٠ هكتار ، وهي ممتلكات تضم لعمرى جانباً كبيراً من الاراضي الموات والمراعي . ورغبة من الارستوقراطية العقارية البريطانية في رفع وارداتها ، راحت تحاول لتجعل من اراضيها وممتلكاتها استثمارات زراعية ناجحة . ان آل بدفورد مثلاً ، استطاعوا ، بعد ان عنوا بتصريف مياه المستنقعات من بعض ممتلكاتهم ، وإحياء الكثير من الاراضي الموات ، ان يؤمنوا لهم دخلاً سنوياً من مواسمهم الزراعية تجاوز مليونين ونصف ^(١) . فأملك الكونت

(١) الاشارة هنا للفرنك الفرنسي وفقاً لقيمتها الفعلية في شهر حرمينال من العام الثوري الحادي عشر .

ليستر الذي عرف بمعارضته لنظام الدورة الزراعية ، والتي بلغت مساحتها ١٢٠٠٠٠ هكتار ، وقيمتها خمسة ملايين ، في عام ١٧٧٦ ، ارتفعت اسعارها الى ٢٥ مليوناً ، عام ١٨٤٠ . فالأملك الواسعة تولى اصحابها ومالكها سودداً ونفوذاً عظيمين . فالبورجوازي الكبير بيل لا يخرج عن كونه ابن درابتن مانور او صرح درايتن .

ففي انكلترا نحو من ٢٠٠٠٠٠٠ من هذا الصروح التي تبدو ببساطتها من الداخل وتشرف بارتفاعها على المروج السندسية والغابات . وجود هذه الحدائق والمروج التي تكثر فيها اسباب القنص والصيد تضفي على مالكيها شخصية تفردة ، كما انها تيسر له ولضيوفه وزلائه ما يبعث في نفوسهم البهجة إذ تمكنهم من الانصراف لرياضة الخيل والالعاب الرياضية . فعلى مقربة من مدينة شيفلد التي تفسحها الجبلية والضوضاء كما تفتش جوها سحابة دائمة من الدخان الكثيف ، يقوم قصر دوق ديفونشير المتيف الذي يحاكي بحاله وروعة ومناظره ، قصر فرساي من قريب بمياه الهادرة ومساقط مياهه وأحواضه وفستقاته المزدانة بالتأثيل ، وبديفئته الفنية التي عولوا عليها لتجهيز معرض لندن ، عام ١٨٥١ ، بما يلزم . ويحتشد الأسياد من كبار الملاكين بالمئات في حفلات الصيد المرحية فينصرفون لصيد الثعلب وما اليه من طرائد الطير والوحش التي تحوم في الغابات والمرقمات الفخمة .

فالجهاز الاداري في المنطقة يقع تحت تصرف الطبقة المالكة بما لديها من قوى الشرطة وأجهزة العدل حتى ورجال الاكليروس تنوعاً بما توليه الملكية العقارية لاصحابها من شرف وسؤدد . وهذا الرهط الكبير من كبار اصحاب العقارات الكبرى يعرف ان يؤمن له ريعاً كبيراً مما على سطح الارض او في بطنها ، يسام الى حد كبير في تأمين ما يؤول الى تطوير المدينة ومرافق الصناعة في البلاد . ويملك كل من اللورد وستمنستر وبدفورد ، جانباً هاماً من لندن يتكون من أطياف وعقارات طائفة ، ويقومان فيها بمعاملات وأعمال تجارية واسعة ، وإيجارات مع رهن وبنيات العديد من المباني والعمارات التجارية لاستثمارها . ويعمل لورد دورهام ولورد لندندري في تجارة الفحم الحجري وتسويقه ويملك كثيرون من كبار الملاكين المصانع والمعامل . ما من شركة تجارية ولا من مصرف مالي إلا وله عائدات محترمة من ريع العقارات التي يملكها ، وهذا الريع هو في انكلترا أعلى منه في القارة بفضل قوانين الحبوب (Corn Laws) التي تحظر دخول الحنطة الأجنبية الى البلاد . في مقدورها ان نلاحظ شيئاً من التناظر بين القوانين المتعلقة بأقامة السياجات (Enclosure Acts) وبين تقييم سعر الحبوب . ففي الحين الذي كان فيه علماء الاقتصاد وآدم سميث ينظرون الى الدخل او الريع العقاري نظراً الى هبة او عطية من الله رأى ملطوس في هذا الريع نتيجة حتمية للضغط الديموغرافي في البلاد . وها هو ريكاردو يشجب ربيعة القلة والعوز ، هذه الثمرة للحيازة الحائنة . ويتساءل كوبدن المتفائل مستوضحاً ما اذا كان باستطاعة كبار الملاكين في البلاد ان يبرّضوا ، باستمرار ، سكان المدن للمجاعة . ولذا حتمت المجاعة التي وقعت عام ١٨٤٠ *Hungry Forties* على اصحاب الاملاك الكبيرة ، القيام بتنازلات ملحوظة بهذا الشأن .

ومن جهة اخرى ، كان المزارع في انكلترا افضل وضعاً من زميله في القارة ، إذ إنه يملك منزلاً يورجوازيًا يضم غرفة الاستقبال وينعم في سويمات فراغه بالمطالعة والرسم ويبحث زوجته لتبتاع من المدينة ما ترغب في شرائه من ألبسة وزينة . هنالك ، بالمقابل برونتاريا هي دوماً عرضة لتقلبات سوق العمل ، كما يوجد في البلاد ، طبقة من اصحاب الفقر المدقع ، كما يدل على ذلك هذا العدد المرتفع من هؤلاء العمال المسجلة اسماؤهم في بيت العمل *Workhouse* ، إذ تتراوح نسبتهم بين ١٠ و ١٥ ٪ من سكان الناحية ، وهي حالة فقرية يزيد من يؤس اصحابها وتعاسيتهم التطورات السريعة التي اخذ بأسبابها رأس المال الصناعي ورأس المال الزراعي ، إذ جرت الاول الخراب على الحرف اليدوية في الريف كما استأثر الثاني بالسيطرة على الارض . فالاصلاح الزراعي الذي أجري عام ١٨٣٤ لم يحدث اي تغيير يذكر ولم يحوّر شيئاً من المبادئ التي كرست ديمومة هذا الشكل من القوضى الاجتماعية في البلاد . وبالرغم من المساعدة التي قدمها هذا الاصلاح للرعايات التي لم يعد بإمكانها مزيد المساعدة للمعوزين والبائيسين ، فهو لم يمنع المساعدة عن هذه الأسر إلا ليجعل العمل الانزامي أشد اسراً وأنكد عيشاً .

بحق الفتح وباسم القوة سطر كبار الملاكين على ايرلندا هذه الجزيرة الفلاح الايرلندي
وما يعانيه من يؤس ومذلة الواقعة الى الغرب من انكلترا . فسواء أقام فيها صاحب الارض او في مدينة بلفاست او في دبلين او مكث في انكلترا ، فهو لا يستثمر منها سوى قسم ضئيل من رأس ماله وهو على يقين بأنه سيجد دوماً فيها السواعد المقتولة . فالسكان الذين يتناسلون فيها بسرعة يتوزعون بين ٧٠٠,٠٠٠ مزرعة (مقابل ٢٠٠,٠٠٠ في بريطانيا العظمى) معظمهم لا تزيد مساحة مزرعته على هكتارين وتبقى شبه ضائعة لا تقع عليها عين بين ممتلكات تتناوح مساحة الواحدة منها بين ٦٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ هكتار . فالمرابع او المزارع الضعيف الجانب يشده الى الارض عقد مشروط لا يستطيع معه ممارسة المزرعة التي يعمل فيها لأخرى إلا بعد إنذار صاحب الارض برغبته تلك بستة اشهر ، عملاً بالعرف المتبع (*rundale* او *runrig*) الذي يجعل القريسة بأجمعها متضامنة متكافلة معاً في أداء المفروض عليها من الفلة او *Conacre* المرتبط دوماً بأمل الحصول على موسم طيب ، تسديداً ووفاء لعوائد باهظة . فهو لا يتمتع حتى بهذه الطمأنينة التي تتوفر لرقيق الارض . فهو يستدين ليؤمن بذارته والعشر المترقب عليه نحو الكنيسة ، سواء أكان من أتباع الكنيسة الانكليكانية او لا ، والضرائب العقارية التي زادت فداحة منذ الحروب الاخيرة . ولما كان دخله لا يمثل إلا ثلث المحصول القائم ، كانت على ملتزم الارض ان يتدبر امره بالاستدانة بفوائد عالية وبيع قسم من حصته . وكان من جراء هذا التصرف ان فقدت البلاد مواردها لا سيما اذا ما عرفنا ان مساحة الارض المخصصة لزراعة المواد الغذائية أخذت تتناقص امام إقامة المراعي والمروج . والبطاطا وحدها هي المعول عليه في تأمين أوّد الاسرة والخنزير الذي يحتل قسماً من المطبخ في الزريبة فيأخذ الفلاح الايرلندي يحوب الارض بحثاً عن عمل (هنالك اكثر من ٦٠٠,٠٠٠ يبقون عاطلين عن العمل اكثر من

نصف السنة) وإلا اضطر ان يتبلغ عيشه الضئيل في منزله الموحد يصطلي، على الرديء من الفحم
بنتازعه عاملا الاستسلام واليأس .

زد على ذلك الاضطرابات الزراعية التي كثيرا ما رافقتها حرب دينية وصراع مستميت ضد
اجنبي طارئ استباح باحة البلاد مما لم يترك للانكليز سوى فترات قليلة من الهدوء النسبي
وراحة البال . فبعد الهيجان الذي احتدم أواره عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤ ، والفتنة الدامية التي
قامت بين ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ، وهذه الفوضى التي استبدت بالبلاد بين ١٨١٠ - ١٨١٤ ، والمجاعة
التي أنشبت أطافرها ، عام ١٨٢٢ ، كل ذلك جر البلاد الى اضطرابات دامية تخللت الازمة التي
نشبت عام ١٨٣١ أصبحت معه الجزيرة مسرحا لأعمال العنف والحرائق والجرائم السياسية . ولم
يعد الأمن الى نصابه إلا بعد حوادث ١٨٤٦ - ١٨٤٨ المفجعة التي أدت ليس الى إفقار الريف
فحسب بل الى ثورة دامية .

بعد عودة البلاد الى الشرعية وجد ملوك آل بوربون عندهم طبقة من
في فرنسا مجتمع
من صغار الملاكين المتواضعين
يتألف في كثير من المناطق من مزارعين ومرايعين وعمال مياومين .
فبعد ان صدمت آمالهم في ما عللوا النفس به وتوقعوا من تقسيم ، استمسك اكثرهم حرمانا
بالأعراف المعمول بها مجتمعيا ، هذه الأعراف التي شجبتها ونددت بها عاليا التشريعات الفردية
والاقتصادية . وعندما راحت حكومة تموز تفكر بإلغاء حق رعي الماشية في المراعي الخاصة
ووقف العمل بما تمتعوا به من حق المرور ، والمباشرة بإحياء الاراضي المشاعية وتعميرها ، أثارت
المجالس البلدية امامها احتمال قيام هيجانات شعبية في البلاد . وقد استقر في روعها انه من الافضل
الاخذ بنظام تأجير الارض بدلا من توزيعها . وقد صدر بذلك ، عام ١٨٥٠ ، قانون يبين وسائل
تطبيقه ووضعه موضع التنفيذ .

هنالك أملاك ساروا في استثمارها وفقا لأصول الزراعة الحديثة كما حدث احيانا منذ القرن
الثامن عشر ، وظهر للحال الفرق بينها وبين الاملاك التي ساءت العناية بها فبارت بالتالي مواسمها
وفانت غلالها . ويلحظ ستانداال في « مذكرات سائح » تحول بعض اصحاب الاملاك الذين قالوا
بالشرعية ، الى العناية بالارض . وراح بعض البورجوازيين وبعض اصحاب الاراضي من النبلاء ،
خذأ منهم بالنظام الانتخابي المعمول به ، يتحكمون بمجتمع ريفي تسوده الفردية والتشتت .
الأملاك العقارية هي متواضعة الحجم ، اجمالا ، باستثناء بعض المقاطعات حيث المزارع الكبرى
بقيت تدار وفقا للتقاليد المرعية ، وحيث المستأجر يفتقر للنقد والاسيولة لتأمين ما يطعم فيه من
ارباح واستقرار . فهل كان فورييه يفلو عندما يؤكد لنا ، عام ١٨٢٩ ان هنالك في ارجاء مقاطعة
بيكارديا ، فلاحين ومزارعين لا فراش عندهم في هذه الأكواخ القرابية التي يعيشون فيها ، فهم
يتخذون لهم فراشا من الاوراق اليابسة التي تعبت فيها الهوام والحشرات . ويتساءل نويل

بارفيه ، عام ١٨٤١ ، ما اذا كان وضع الفلاحين العاملين في سهول Beauce يختلف كثيراً عن وضع آبائهم وجدودهم ، إذ كان طعامهم دون ما يحتاجون اليه بكثير ، إذ لم يكن غذاؤهم اليومي سوى الخبز الاسود الناشف بعد ان كانوا يؤمنون لنا خبزاً ابيض شهياً - وبعض البقول ، وشيئاً من الجبنة مع الماء بالقدر الكافي ، هذا الماء الذي ينقص احياناً ، في فصل الصيف بعد ان تجف البرك والغدران وتنزح الينابيع والآبار ، بينما لا يذوقون من انواع اللحم غير دهن الخنزير ضمن ورقة الملفوف ، مع العلم ان الحصة السنوية للفرد الواحد من القمح واللحم قد ارتفعت ، من عهد لافوازييه الى سنة ١٨٤٠ ، من هكتولتر وربع و ١٨ كيلو من اللحم الى هكتولتر و ٣/٤ من القمح و ٢٢ كيلو من اللحم ، بالإضافة الى كمية اكبر من البطاطا والخضراوات والحليب وأحياناً النبيذ . والنظام الاقتصادي الذي حرص ابن الريف دوماً على التمسك به هو ان يكفي نفسه بنفسه وان يبيع كل ما يعطيه مردوداً أطيب ، وهي عقلية رجل مقتصد مه الوحيد ان يتمكن من زيادة املاكه مهما كلفه الامر من حرمان ، وتحمل من غصص ومضض ، مع العلم انه لن يتمكن دوماً من تقادي الوقوع في الدين . وهذا هو بالذات ما حمل برودون ان يرى في عمليات الرهن التي كثيراً ما تعرض له ابن الريف ، المشكلة الكبرى ، هذه المشكلة التي رأى فيها ماركس انه حلت محل الرسوم السيادية .

وهكذا مهما بدا من امر هذه المفارقات الاقليمية القائمة ، فالريف الفرنسي بقي مستمسكاً بالأعراف والتقاليد التي أقصرت سكانه على العيش الحقيير . فهم يصرفون اوقاتهم في المباحكات والانتقاص من خدمة المعلمين ورسالتهم ويسلمون بالخدمات التي يؤديها الطب ، ويعولون كثيراً على الاطباء الدجالين ، ويخشون جانب النبلاء ويستسلمون بكليتهم للأطفال ، لمباهج الأعياد الوطنية وأفراحها ، ويتكبرون هنا ، للخوري الذي يقوم على خدمتهم الروحية ، ويحلقونه هنالك ، محتفظين من المسيحية بمعظم ما لها من مظاهر وثنية ، عارضين صورة العذراء مريم الى جانب صورة نابوليون . وبالرغم من ثورة ١٧٨٩ التي حررتهم من العشر والحقوق الاقطاعية ومنحتهم تلقائياً الحق القانوني دون الحق الفعلي بالاستملاك واقتناء الاراضي ، فالعالم الذي يعيش فيه هذا الريفي الفرنسي هو ، من الوجهة المادية والعسكرية ، يحاكي من قريب ، العالم الذي عرفه وغمره في العهد البائد . فهو لن يتخلص ، من الوجهة الديموغرافية بسهولة ، من عقابيل الازمة التي اخذت بتلابيبه بين ١٨٤٦ - ١٨٤٨ .

انكفاء النظام السيادي في المناطق
الواقعة بين البحر الشمالي وجبال الالبين
على اثر الفتوحات الفرنسية ، استمرت حركة تحرير
الفلاحين في احتدامها الصاعد وان لم تأت هذه الحركة
واحدة قدراً وفعماً ، في كل مكان في البلاد الواطية
ومقاطعات الرين وسويسرا وإيطاليا الشمالية . فقد ألغيت في كل من هذه الاقطار تقريباً الحقوق
السيادية كما اخذ يخنفي فيها تدريجياً ، رق الارض ، وسهلت بالتالي امام الاهلين حقوق التملك

ومعاملات توزيع الأرض ، مع ما نرى الى جانب هذا كله ، من بوادر حركة رجعية وردة عكسية بعد عام ١٨١٥ .

ففي البلاد الواطية حيث بقيت الكنيسة وطبقة النبلاء محافظتين على امتيازاتها ، استحوذت البورجوازية على حصص كبيرة من الاراضي بينما بقي مستثمرو الارض من مستأجرين ومكثرين على عسرهم المالي المعروف . ففي السهول الفلمنكية حيث لا يزيد معدل مساحة الارض التي يتصرف بها الفلاح او المزارع على ثلاثة هكتارات ، يوجد نحو من ٣٠٠،٠٠٠ من الشغيلة المياومين ، بحيث ان نصف عدد سكان الريف لا يستطيعون العيش إلا باحتراف الحياكة وصناعة النسيج . فقد كانت السنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٨ ، وبالأعلى هذا القطر الذي اصطلحت عليه ، في آن واحد ، أزمة خانقة من هذه الأزمات التي حلت ببضاعة النسيج ، ومرض زراعي فتك بزراعة البطاطا ، بينما كان سكان مقاطعتي البرابنت والهينو في وضع يحسدون عليه .

أما في سويسرا ، فالجتمعات الريفية تعيش متحررة ، متمسكة بأعرافها وتقاليدها ، بينما يزرع المزارعون العاملون في المرتفعات ، تحت سيطرة كبنار الملاكين في المدن الذين لا يزالون متمسكين بأعراف السخرة وضريبة العشر ، فلن يكتب الفوز التام لحركة التحرر هذه إلا بعد جهود الديموقراطية الريفية وتضحياتها السخية في أعقاب سنة ١٨٤٨ .

أما في المانيا حيث لا تزال نرى بعض واحات تزرع تحت وطأة رق الأرض ، فالحرية مثقال جانبها ، والأمل السيادة لم تعد تمثل شيئاً يذكر اذا ما قيست بنظام اكتراء الاراضي الزراعية . فليس فيها من يفكر بالتخلي عن الاجراءات التي تم وضعها تحت تأثير الثورة الفرنسية . فقد صدر في مقاطعة ورتمبرغ مرسوم يقضي بإلغاء رق الأرض ، واستبدلت السخرات الاعباطية بأعمال سخرة محددة ، مشروطة ، كما ان التشريعات التي صدرت في مقاطعة بادن يشرت شراء او اقتناك الرسوم المتوجبة كما أصبح إلغاء السخرة ، بعد عام ١٨٣٠ ، امراً واقعياً في هذه الغراندوقية . ومع ذلك فالفلاح يقاسي كثيراً من حرمانه من الارض ومن الربا الفاحش مع الرهن ، بحيث ان ثورات الفلاحين ، في المانيا الجنوبية ، عام ١٨٤٨ ، اتجهت ضد اليهود وضد كبار الملاكين من النبلاء ورجال الكنيسة .

فالسواد الأعظم من سكان الريف ، الى الجنوب من الالب ليسوا بأسعد حالاً ، بالرغم من زوال الرسوم الاقطاعية . فنظام استثمار الارض وتأجيرها على أساس المرابعة ، هو النظام الذي لا يزال متبعاً في هذه المرتفعات ، والارض غير المروية الواقعة في سهول البو بينما نرى المزارعين والعمال المياومين العاملين في سهول لومبرديا ومقاطعة البندقية وفي دوقيات مودين وبارم هم عرضة لأبشع الاستغلال من قبل اصحاب الاملاك الجشعين وأرباب الأسر الكبيرة ، الذين يعيشون عيشة الترف والقصف على مقربة من هذه الاكواخ المتخذة من اغصان الشجر ومن اللبن المجفف . وبالرغم من تبججه بالتضلع من أفانين الزراعة وأصولها . فان هيولوبولد دي توسكانا

الذي يزور مزارعه معتمراً قبعة من القش ولا بساً قماطه أبعد من ان يفكر في تلطيف وضع هؤلاء المراهبين والعمال الميامين ، بعض الشيء . وهذه المستحذات التي اخذ بها وقبناها قرناء رجال الاقتصاد ، من بينهم مثلاً ، كمبل بنسو دي كافور ، كانت اعجز من ان تدخل تمسينات سريعة على وضع الطبقات الكادحة .

ساد الى الشرق من نهر الايلب ، الى الجنوب من جبال الابنين
 الاطيان الضخمة على حدود اوروبا
 في توسكانا والبيرانييس نظام الاطيان والممتلكات الضخمة .
 الشرقية وفي شبه الجزر المطلة
 فرق الارض هو النظام المسيطر هنا وهناك في هذه المقاطعات
 على البحر الابيض المتوسط
 المتصلة بروسيا والبلقان .

ففي شبه الجزيرة الايبيرية ومملكة نابولي اصبح الخطر يهدد وضع النبلاء والاكليروس تحت تأثير مفارقة غريبة تتمثل في هذا التنافس الانكليزي الفرنسي . فراح الفلاحون الذين عرفوا بكرههم للاجنبي وبتعصبهم الشديد يتصرفون تصرف سكان مقاطعة الفاندييه . واذا لم يعد آل بوربون ، في ايطاليا ، بعد عودة الشرعية في فرنسا ، فالبوربون في اسبانيا ، قوضوا من الاساس ، بحركة جذرية ، العمل الاصلاحى الذي بوشر به في عهد الملك جوزف او جرى الاخذ به عن طريق الكورتيس بتوجيه منه .

وكانت هذه الممتلكات الواسعة Latifondi تمتد من جبال الابنين الوعرة المسالك حتى السهول الساحلية التي ساء تصرف مياهها . فقد اخذت في مقاطعة بولوني ٧٢٪ من مجموع مساحة الولاية ، نصفها للنبلاء والنصف الآخر لأصحاب الطبقة البورجوازية . ويصور لنا امارتين ، سنة ١٨٣٢ ما كان عليه « وضع الشواطىء البحرية في مقاطعات روماني وكالابريا والاراضي الواقعة في جوار مستنقعات يونتين وبطانيها ، من فقر واستيحاء » . هنا ارستوقراطية زاهية متفطرة تتخفف من مشاغل الارض والعناية بها تاركة امرها لمتهمدين عامين ، لتستسلم للعبث والهبوط والاستمتاع بمشاهدة التمثيل وسباق الخيل ، وهناك بروليتاريا بائسة ، كادحة قوامها مزارعون ومرايعون وعمال مياومون ، تؤلف معيناً لا ينضب من شذاذ الآفاق ومرتعاً للمعوزين .

والاحصاء الذي أجري عام ١٧٨٧ ، سجل ملائكا واحداً بين ٣٥ شخصاً . فقاطعات البشك تخلو من كبار الملاكين ، هذه المقاطعة التي كانت تفاخر بما فيها من معمرين يعملون في استثمار الارض ، ومثلها مقاطعة النافار ومقاطعة كتالوني حيث راج نوع من الايجار الموهون يكاد يؤلف شبه ملك للفلاحين . فسهول فالنسيا تتقاسمها آلاف الحصص الصغيرة التي لا تتجاوز مساحة الواحدة منها بضع دونمات ، بينما يخيم ، على ولايتي غاليسيا واستوريا حيث يسيطر توزيع الاراضي المرهقة بحقوق الارتفاق ورق الارض ، البؤس والشقاء وما يحملان في ثناياها من ويلات . فالمازارع المرتبط بالارض بعلاقة واهية يرزح تحت وطأة الاعشار ، كما ان الفلاح القشتلاني يتضور ، من جهته ، جوعاً فوق قطعة ارض تزرع قمحاً يبقى نصفها بوراً . والمياوم الاندلسي يفادر المدينة

وما اعتاد عليه فيها من بطالة لينصرف للعمل مرتين في السنة ، وذلك في اوان الحصاد او لتقليم الكرم وقطف العنب . ونقابة العاملين في تربية الاغنام (*La Mesta*) ، تحول دون زراعة الارض وتعميرها واحياءها لتؤمن لقطعان الغنم ، المراعي اللازمة وفقاً لمتطلبات الظمن . والكنيسة من جهتها ، تعمل على منع الفلاح من التملك ، هذا الفلاح الذي يتسكع في مهاري الجبل والخرافات ، ليكون ابدأ على استعداد لتأمين الاعمال الوحشية ، هذا الفلاح الذي يصوره لنا غويا في « ويلات الحرب » يقنع بشرحة لحم وكسرة خبز اسود او ببصلة او كراثة او بحبة بندورة او بحز بطيخ مع قليل من النبيذ اذا ما اسعفت الحال . فاذا ما تمت عام ١٨٣٥ مصادرة املاك الكنيسة ، فلا يستفيد من العملية غير الملاكين العقاريين والبورجوازية .

أما في روسيا ، فالمعارضة التقليدية المتمثلة في كلايست وآدم مولر ، والمتمركزة حول الملاك الاقطاعي الكبير لودفيغ فون دي ماروتز ، أوجست خيفة من ان تفقد الخدمات التي كان رب الارض يفرضها على المستأجر ، ليحسن استثمار الارض التي هي باستلامه ، هذه الارض التي يحاول مالكيها ان يوسعها ويزيد من نطاقها بضم قطع اليها ، الامر الذي يعيد الى الازمان عملية التسييج التي اخذوا بها في انكلترا . فالأطيان الواسعة آخذة فيها بالازدياد والانتعاش وعرفت ان تؤمن لها ايدأ عاملة احتياطية ، تكلف اقل من الاولى ، كما انها تسعى في تأمين المزيد من الاصلاحات الزراعية . إلا ان اتجاه أوروبا الوسطى نحو رأسمالية عقارية من النمط السائد في انكلترا لم يكن ليتحقق إلا على انقاض النظام القديم . فرق الارض لن يزول في هذه المناطق التي يروها نهر الدانوب قبل عام ١٨٤٨ . وهذا ما سبب تأخر البلدان الدائرة في فلك آل هابسبورغ . هنالك بعض كبار الملاكين امثال تششني يدعون عالياً للأخذ بالأساليب والمناهج الانكليزية ، فتنصب في وجههم طبقة النبلاء الصغرى ، مما هو في مصلحة فيينا العليا التي عرفت ان تقيد من هذه الانقسامات إبقاء منها لوضع كان لا بد ان يقضي في نهاية المطاف الى خرابها فهلاكها .

لا نعرف بلداً احسن استغلال الطغيان المستبد مثل روسيا القيصرية التي
القرى الروسية الكبرى فرضت عبوديتها على الفلاح . ففي الوقت الذي اتسع فيه العمل بنظام
الحاكمة لرق الارض رق الارض ، اشتد في تلك البلاد ساعد المجتمع الفردي (*Le Mir*)
بحيث اصبح باستطاعة القيصر ان يعهد اليه بحماية الرسوم والعوائد والضرائب المترتبة .

مما لاشك فيه قط ان علم الاقتصاد الريفي عرف ان يحتذب اليه بمض ذوي الاملاك الواسعة ، امثال آل غالتزين وآل سامرين وآل مورافيف الذين لم يقتهم قط الاطلاع على النظريات الانكليزية والفرنسية والالمانية الحديثة فيما يتعلق بخير الاساليب الخاصة باستثمار الارض . فالاصلاح الزراعي الذي قامت به بروسيا بين ١٨٠٧ - ١٨١١ ، كان له اثره البالغ على طبقة النبلاء البلطقيين من دم الماني ، هذه الطبقة التي كانت تباع محاصيلها الزراعية لتجار مدينة ريفا ، بفضل اعمال ونشاط هذا المربع الذي كان يحسن تسميد الارض بكشط سطحها مع ما عليه من احشاش يحرقها تخصيباً للارض وإلامات عليها جوعاً .

فالمعمل المأجور يعود على صاحبه بربح اكبر اذا ما تم في المجال الصناعي الذي تأذى كثيراً من رق الارض وعبودية الفلاح . وانتشرت بين الناس فكرة تقول ان العمل المأجور يربح اقل مما يربحه العمل الحر . فاذا كان الفلاح او المزارع يطمع في المزيد من الحرية فلرغبته بالخلاص مما يمانيه من أعمال السخرة وما يزرع تحته من عوائد الارض وأثاوتها ، والعمل على تحرير المجتمع الفردي ، لا ان يضطر لقضاء يومه كادحاً يعمل في حقل سيد الارض . ومع ذلك ، فمتدما راح القيصر يلقي بعد التجربة التي قام بها في ليفونيا ، رق الارض ، في الولايات البلطيقية ، فقد رمى من حركته الاصلاحية هذه الى تسهيل تحويل سواعد القرويين الذين جرى تحريرهم ، للعمل في ممتلكات البارونات . ففي بولونيا ، لم يتدخل القيصر نيقولا لوضع حد لمساوىء النظام ، إلا لغاية واحدة ، هي تقليص اظافر النبلاء الذين وضعوا انفسهم في موضع سيء خلال الثورة التي نشبت ، عام ١٨٣١ . فبعد ان سلموا واقتنع بأن رق الارض ، كما يجري العمل به آنذاك هو شر واضح ، فالتعرض له الآن وتعديل هذا النظام يفضي الى شر اكبر . ومع ان الاضطرابات المستمرة التي زاد عدد الفتن التي قامت خلالها على ٥٥٥ فتنة ، بين ١٨٣٦ - ١٨٥٥ ، باعتراف الادارة ذاتها حملته على التسليم ببعض التنازلات ، فهذه التنازلات لم يغب منها سوى الفلاحين العاملين في املاك التاج ، مع العلم ان القائمين بالحركة الاصلاحية يترددون جداً في حركتهم هذه . « فجمعية الجنوب » برئاسة يستل قواجه احتمال القسام بتغييرات جذرية ، بينها « جمعية الشمال » ترفض تحت تأثير نيكيتا مورافيف ، التسليم والاخذ بمبدأ التقسيم .

وايحازاً للوضع يمكننا ان نقول بأن اسباب التذمر آخذة بالازدياد والارتفاع . ففي السموات التي يحود فيها محصول وتطيب الفلال ، تمجز السوق الداخلية فيها من تصريف الانتاج واستهلاكه فتسقط الاسعار . أما في السنوات المعجاف فالهجرة تطل بقرنها على الابواب . فالجواهر الريفية تتسكع في البؤس ، ويروح الملاكون المعروف سوادهم بالكسل والعمود وهمم الاكتراث ، يستدينون إشباعاً لمطالبهم التي يعجز ربيع الارض عن اشباعها . وهكذا نرى الامبراطورية تتجه نحو ازمة حادة إلا اذا حلت في الوقت المناسب ، المعضلة الزراعية الآخذة بالحناق ، وذلك بإلغاء رق الارض والقضاء على النظام السيادي فيها ، مشجعة بالأحرى الدعوة للرأسمالية العقارية . فالظروف المعارضة يمكن ان تقنع النبلاء بأن في اتخاذ مثل هذا التدبير ، وهذا التدبير وحده ، الخلاص ، شريطة ان تنجح هذه المحاولة الاصلاحية الهامة دون ان يلحق أذى بالنظام السياسي والاجتماعي المعمول به في البلاد .

الفصل الثالث

الثقنيات الجديدة في الصناعة والنقل

جاش عصر الانوار برغبة شائعة نحو المعرفة ففاض صيفاً في الاجتات
مير العلم بين جبل وآخو
الرياضية وتوغل الى نظرية علمية لتفسير نشأة الكون وسير أبعاد
النجوم في متاهاتها وأبعادها السحيقة ، واستثمر البحار المترامية الاطراف ، وأنشأ علم النبات
ودشن عهد الكيمياء وسخر الكهرباء للترفيه عنه واستنبط المحرك البخاري ووقف ملياً منمماً
النظر في ماهية الاجيال الطالمة كما اعرض جانباً عن الآداب الكلاسيكية . صحيح ان الحروب
الدولية لم تساعد كثيراً على تطوير الاتصالات التي هيأت اسبابها الشعبية الدولية ، غير ان
الحواجز الضرورية جعلت العلماء في بقطة واستنفار حتى اذا ما عاد السلام الى نصابه والامن الى
محرابه ، تجددت الاتصالات . فاذا ماراح شاتوبريان ومدام دي ستال يقومان بتشوير « الطغمة
الرياضية » ، واذا ما رأى لامارتين في العلوم الرياضية غلاً وقيداً للفكر البشري ، فقد عرف
غوته ، من ناحيته ، ان يحافظ على هدوئه وربطة جاشه ، وغاص « كونت » الى ما فوق أذنه في
الفلسفة الوضعية بعد ان اولى العلم المقام الاول ووضعه في رأس النظام الفلسفي .

أما العمل وظروفه وأوضاعه فلم يطلع عليه شيء جديد . فقد بقيت باريس جذوة هذه
المعاهد الكبرى التي أسسها المؤتمرون الوطني (الكنتفسيون) والتي راحت تنافس بنجاح ما قام
فيها من ركائز ومؤسسات سابقة وطيدة تعمل في خدمة العلم ، امثال : كولييج دي فرانس
وأكاديمية العلوم والسوربون شيخة الجامعات . أما في انكلترا ، فقد تقدمت الركب وسارت
في الطليعة هذه المؤسسات المتمتعة باستقلالها فتقدمت على جامعتي اكسفورد وكمبريدج . وابطاليا
لا تزال تتمتع بكنوز فنونها التي تفيض نعومة وعدوبة ودقة . وهذه « الجمهوريات العلمية » التي
طلعت في سماء اوروبا الوسطى ، تمثلت على خير وجه في هذه الجامعات التي نعمت بنصرة
الامراء المستنيرين ومؤازرتهم ، حتى ان روسيا نفسها ساهمت بهذا النشاط الفكري العارم .
وقد اوشكت تأزف ساعة هذا الجامعي الذي يدرس كل شيء في أثناء طلبه للعلم ، بعد ان قل
عدد نصراء العلم في صفوف الارستوقراطية . فالروح تهب حيث تشاء ، والتفاعل الفكري
وتبادل المعلومات ساعد ادفر على اكتشاف السيارات نبتون بواسطة مرصد جامعة كمبريدج ، في

الوقت الذي راح فيه لوفريه يعين بالأرقام مكان هذا الكوكب وموضعه بحيث اخذ عدد من علماء الفلك امثال غوس الالماني ولوبتشفسكي الروسي وبولييه المجري بدعوة كل لنفسه فضل السبق الى وضع هندسة غير إقليدية هي الهندسة الإهليجالية .

عرفت العلوم الاخرى ، من جهتها ان تفيد من الانجازات البعيدة الاخر التي حققتها العلوم الرياضية في تطورها الصاعد . فقد تعاون لابلاس ولافوازيه فيما بينهما وتعرضا في الابحاث التي وضعها للعديد من المشكلات والقضايا العلمية . وامير الذي تميز بفضوله العلمي وبروح طلمة لاتي ولا ينطفيء لها غليل انطلق من الاختبار العلمي الذي قام به دورستد حول زيفان الابرة المغنطيسية ، فوضع هذه الظاهرة قاعدتها المعروفة . وغوس ارتبط اسمه بالتحليل العلمي وبالهندسة المتناهية الصغر والرياضيات العليا وحساب الاحتملات والميكانيكا الفلكية والجيويديسيا . هنالك لعمري نوايغ بين العلماء انصرفوا للرياضيات النظرية ، امثال ايبيل الذي كشف عن قواعد واسس حساب التكامل ، وايفارست غالوا الذي وضع نظرية الفئات والاحتماس ، قيات الاول بائسا ، كما قتل الثاني في حادث مبارزة . وفي اثر المعطيات العملية لحساب المتناهي الصغر التي تم الكشف عنها في الحقبة الكلاسيكية على يد نيوتن وليبنز بعد أولير وفوريه ولوجاندر ، وضع غوشيه مبادئ الدالة التحليلية والمعادلة التفاضلية وبما يتمكن ريمان من وضع الاساس الحقيقي للدالة الجبرية بعد ان اقترح فرضية هندسية جديدة غير اقليدية .

كل الانجازات العلمية التي حققتها العلوم التجريبية تتصف بطابع علمي صرف . ومناهضة منه لنظرية نبوت حصول الابتعاث البصري ، راح فرسئل يؤيد النظرية الروحوية التي كان لاح لويجنز بعض ملابحها الاولى . واذ ذاك اخذ بيو وأراغو ودافيد بروست يرضعون للملأ ظاهرة استقطاب الضوء . وبفضل حاشدة (بطارية) فولطا ، اخذ اورستيل يفسر عملية زيفان الابرة المغنطيسية ، تم تمكن امير من ان يضع اسس الكهربائية المغنطيسية ، اساس الملف اللولبي والمغنت الكهربائي والتلغراف البرقي . وعلى عكس ذلك ، كتب لفرادي ان يكشف عن امرار ظاهرة اخرى هي الحث ، اساس الدينامو . وبالاتفاق مع جاكوبي فقد توصل الى اكتشاف الكيمياء الكهربائية المتعددة التطبيق في مجال صناعة التعدين : كالفلطنة والتذهيب والتفضيض ، وصب امهات احرف الطباعة والكليشيات في الطباعة والحفر المباشر : ففي الحين الذي كان يعمل فيه كل من انطوان بكريل ودانيال على تحسين حاشدة فولطا ، نرى سيبك يتصرف لدرس مؤثرات الكهرباء ، الحرارية التي سبق لادوم ، ان وضع قوانينها .

كشف لافوازيه ولاپلاس وفي ازم فوريه عن نظرية الحرارة التحليلية ، هذه الحرارة التي تجلت مظاهرها بشكل قوة حية جزيئية . فالعلماء غاي لوساك وبيا وبرتوليه وبروست بما فيهم دالتن وقانون الانساب المتعددة وافوغادرو الذي كشف عن ثقل الجزئي ، بقوا عند هذا الحد .

لا شك في ان رامفورد ودافني هما اول من ظننا بالعلاقة الموجودة بين الحرارة والعمل . ويعود لسادي كارنو احد اولاد لازار كارنو ، الفضل في اثبات التكافؤ بينهما ، في بحث وضعه من قبل لم يكثر له احد . فكان اساس الديناميكا الحرارية التي لفتت اليها أنظار ووبرت ماير وجول في الابحاث التي وضعها في هذا المجال . فالحافطة على الطاقة واندثارها او انحلالها ، والميكانيكا التطبيقية اتخذت اساساً لها هذه الابحاث .

ومنذ لافوازييه اخذت الكيمياء المعدنية تكشف تباعاً عن اسرارها الدفينة ونواميسها . كذلك اخذت الكيمياء العضوية تحسر هي الاخرى عن اسرارها ، عندما تمكن شفرويل من ان يستخرج الشحوم على اختلافها من الحوامض الدهنية ومن الفليسرين ، كما استخرج بلوكتيه وكافنتو القلويات من المواد النباتية . فالمعارك القلبية احتدمت حول نواميس العلم الجديد فراح دالتن لأول مرة يقول بالنظرية الذرية وبسطها وراح القائلون بالتكافؤ الذري يهاجمون بعضهم بعضاً : جان باتيست دوماس والذريون وعلى رأسهم برزيليوس الذي قال بنظرية « ثنائية » في التفاعلات الكيميائية والكهربائية التي تصعبها ، ولم تلبث ان سالت نظرية التعادل او التكافؤ ، هذه النظرية التي نهض بها جرهاردت ، ورتز وكيكولييه بينا راح بوتليروف يوضح النظرية الايسومترية او نظرية التقايس والنظرية التجزئية .

وقامت معارك اخرى في مجالات العلوم الطبيعية . فقد سبق لديدرو وبوفون ان استشعرا نظرية الارتقاء والتطور كما ان روسو راح يشدد ، من جهته على ناموس الانتقاء الطبيعي او بقاء الاصلح ، وهي نظريات ادخلت الشك والارتباب على عقيدة خلق الكون ، وبالتالي الديومية او الاستقرار كعقيدة دينية . وراح احد تلاميذ بوفون هولامارك يثير جدلاً حامياً عندما وضع عام ١٨٠٩ كتابه المعنون : « فلسفة علم الحيوان » حيث اخذ يعرض نظرياته وآراءه حول تطور الانواع وتغيرها زارعاً الارتباب في نظرية الثبوت او نظرية الاستمرار التي يبدو ان لينيه قال بها ، وعالم . وفي بحث له مشهور حول « تصنيف الثدييات » اخذ كوفيه الذي يعد من مؤسسي علم التصنيف المقارن وعلم الاحاث او البانتولوجيا ، ينشر عام ١٨١٢ ، كتابه الموسوم : « خطاب حول جوائح الكرة الارضية » ، وذلك ليفسر لنا عن طريق الكوارث الطبيعية ، كيفية ضياع الانواع البائدة وزوالها . فمودة هذه الانواع الى الحياة من جديد لا يمكن ان يكون الالهة من الله . فقد سلخوا بوقوع هذه الكوارث او الجوائح الجيولوجية - وهو قول يؤيده كوفيه - الا انهم رفضوا الاخذ بالنظرية « البركانية » التي تقول بالظهور التدريجي للشرة الارضية البرانية التي تبني القول بها ليبل فيما بعد . واذاك اصطدم كوفيه بصديقه جوفروا سانت هيلار الذي تبني في كتابه « الفلسفة التشريحية » النظرية التي تقول بسلم الكائنات . فأطارت هذه القضية ضجة حملت اكاديمية العلوم على التدخل في النقاش العلمي . وقسام غوتييه يكتب عام ١٨٣٠ لايكرومان بعد ان تبادر الى اذنه انه يتم بقضية *Les Trois Glorieuses* ، يلفت نظره الى ان

« المناقشة تدور على ما هو اهم من ذلك بكثير » . الا ان كوفيه عاد فانتصر بعد الموقف الرسمي الوطني الذي وقفه وانتصر معه ، الى حين ، خصوم نظرية النشوء والارتقاء التي تبنتها مقالتها الفلاسفة الطبيعيون وغوتيه نفسه .

ففي الوقت الذي توطدت فيه ابحاث بيضا حول علم التشريح اطلت علينا نظرية الكائنات المتناهية الصغر بفضل المجهر الذي ساهم في اختراعه اسرة دولوند ، فاذا بالعلم امام كشوف جديدة واسرار جديدة . فما هي لعمرى هذه المادة التي يدعوها هوغو فون موهل : البروتوبلازما ؟ فالحلية لا تتولد الا من الحلية كما يؤكد فيرشوف Virchow ، بعد هارفي وشليدن وشوان ، وعلى هامش الجدل الذي قام حول نظرية النشوء تبدو العلوم الحياتية على اتم استعداد للانتقال الى مرحلة جديدة مهمة جداً .

ومهما يكن من الامر فالتاريخ الطبيعى علم يأخذ بمجامع القلب . وعندما راح جو فروا يقدم للملك شارل العاشر في سان كلو ، ظرافة اهداها اليه محمد علي ، اظهرت الجماهير حماسة عارمة افاد منها المتحف الوطني . ويستوحى كونت تعاليم بلانفيل خصم كوفيه اللود ليشيد نظريات علم الاجتماع . وسانت بوف ينتطح من جهته لوضع التاريخ الطبيعى للعقل البشري ، وبأخذ اسكندر همبولدت بوضع كتابه : « الكون » الذي جاء شبه موسوعة في العلوم الطبيعية .

عشاً نحاول ان نعرف بالضبط الوقت الذي استطاعت فيه الآلة ان كشوف الهندسة الصناعية تحدث فيه تغييراً واقعياً في ظروف الحياة واحوالها في الغرب ، فالعقل المتعدد - الفنون ، الثقيف يداعب احلاماً معسولة ، وفي هذا يكتب كونت قائلاً : « مما لا شك فيه قط ان طبقة المهندسين ستبقى العامل المباشر الذي لا يد منه لتأمين التحالف بين العلماء ورجال الصناعة ، هذا التحالف الذي سيرفع البنيان الاجتماعى الجديد » . هنالك على ما يبدو شيء من الاستعجال لدى انبياء العصر الذي ينعون متأسفين هدر القدرات العقلية والطاقت الفكرية كما يأسفون الاسف الشديد لهذا السير المشوش والتحالف للمنطق الذي يسيره التقدم البشرى

ففي السنة التي مات فيها واط - ١٨١٩ - لم تكن الآلة التي استنبطها استطاعت بعد ان تقضي على مطاحن الماء والهواء ، كما ان الساقية لا تزال هي التي تتحكم بالمكان الذي يصلح لاقامة منسج الحياة . وبالرغم من هذا كله فظهور كشف البخار سيمقى العلامة المميزة لهذه « الثورة الصناعية » التي رأت النور في القرن الثامن عشر والتي كانت عصب القرن التاسع عشر بطوله وهذا البخار ليس بالواقع سوى الماء الغالي ، مهما كان الوقود المستخدم لرفع حرارة هذا الماء الذي استحال الى حالة الغليان بدلاً من ان يكون سائراً يتدحرج فوق الحصى . وقد بذلوا قصارى العناية لادخال تحسينات على طريقة واط ليفيدوا منها الى الحسد الاقصى ، فطلعت علينا المارجل ذات الموقد الداخلى . وفي سنة ١٨٢٩ خرج علينا آل ستيفنسن بقاطرتهم الاولى :

الصاروخ (*The Rocket*) على الشكل الاسطواني وجاءت النتيجة ترفع الطاقة التي يولدها الاحتراق الى المشر . ومن جهة اخرى كان الناس خارج انكلترا يفتقرون جداً للأشخاص الفنيين المتخصصين بصنع هذه القاطرات وتركيبها . وقد عرفت انكلترا ان تحافظ طويلاً على السبق الذي سجلته في هذا المضمار اذ كان لديها عام ١٨٣٠ نحواً من ١٥٠٠٠ من الآليات البخارية بينما لا يتوفر منها لفرنسا سوى ٣٠٠٠ ولبروسيا ١٠٠٠ .

فقد عرفت هذه الجزيرة ان تزوج بين فوائد الحديد والفحم الحجري لسد حاجات الصناعة المعدنية التي فاقت بكثير المستوى الذي سجلته هذه الصناعة في دول القارة . فقد اخذت ترسل الاخصائيين المهنيين لآعمال التنقيب والحفر . وكان حفر الدهاليز واستخراج الفلزات لا يزال يقوم على سواعد العمال . ولم يلبث ان حل التنقيب المعدني محل الآجر او الطوب . واخذت آلات البحر التجارية تجر العربات الى سطح الارض محمولة على روافد من الخشب نُضت عليها قضبان من الحديد عرفت باسم *Rails* ، كما تم تحسين ملحوظ في طرق الضخ واساليبه الفنية . وأُطل على العالم في انكلترا المصباح الذي وضع تصميمه الكيميائي همفري دافني فجاء هذا الاختراع ضماناً نسبية ضد انفجار غبار الفحم ومع ذلك ترددوا كثيراً في التعمق والتوغل في بطن الارض . فقد اقتصر التنقيب عن الفحم والمعادن في المقاطعة الريفية على الحفر عند سفح التلال . وفي سنة ١٨٣٣ فقط تجرأوا على فتح عرق في قلب الارض على عمق ٥٤ متراً .

وصناعة الصب التي تستعمل كوك الفحم لم تكن من المستجدات ولا عملية نزع الكربون بواسطة تسوية الحديد (*Puddlage*) ، وهي عملية تقتضي العامل جهداً شاقاً (اذ كان عليه ان يحرك الصب المصهور بواسطة مسعر من الحديد يعرف باسم *Rungard*) . وهذه الطرائق الميكانيكية التي عرف الانكليز ان يدخلوا عليها ، في القرن الثامن عشر تحسينات ملحوظة زادت كثيراً من فعاليتها ، أولتهم اسبقية ظاهرة في مجالات الصناعة على انواعها . فعتلات الحديد ، ثمنها في فرنسا ضعفاً ثمنها ونصف في انكلترا . وتمكن الانكليزي ولكنسن من استعمال الكوك وقوداً في المعامل التي انشئت لصب الحديد في الكروزو عام ١٧٨٢ . اما بلجيكة فلم يرق فيها مثل هذا القرن ، قبل عام ١٨٢٢ ، وقام واحد منها في سانت انجلبرت عام ١٨٣٢ ، وفي الروهر عام ١٨٤٧ . وجروا على الطريقة ذاتها في عملية تسوية الحديد . فالكوك قيد الاستعمال في نيويدي ، عام ١٨٢٤ ، وعند ستوم في الروهر عام ١٨٣١ ، وفي سيليزيا بعد ذلك بخمس سنوات . واذا كانت صناعة الزجاج تخلت عن وقود الخشب لتقبل على المواعد ذات الشعرية ، فصناعة الخزفيات الانكليزية اعتمدت طريقة ودجود الفنية التي يعود وضعها الى عام ١٧٦٠ هذه الطريقة التي ضمنت للخزفيات الانكليزية الرواج ايها كانت .

وتمركزت حول حرفة الخزاف ، مهنة التجار هذه المهنة التي يجب ان تراعي مقتضيات دولاب الطاحونة او نول الحياكة . الا ان الآلة البخارية تأثرت من عدم توفر الدقة في تركيب الدواليب . ولذا اخذوا يفكرون بالفوائد التي تعود على الصناعة بصنع آلة متحركة توصل العلم الى صنعها بعد قرن من المحاولات والتجارب ، بعد استلهاهم اجهزة الساعة والمواد التي توفرها صناعة الخشب . فقد خطرت لـ « براماه » من قبل ، صورة عن المكبس المائي كما وضع ولكنسن صورة لمثقب يستعمل في صنع المدافع ، ومودسكي صنع دولاباً معدنياً لقلوزة البراغي وفارة للتجارة ، كما اخترع مارك إيزمبار برنزل المنشار المستدير . وتمكن فيريرن الذي اخترع مكوكاً من المدن للنسيج ان يدخل تحسينات ملحوظة على مثقب إشعاعي . وتوصلوا بين سنة ١٨٣٨ - ١٨٤٢ الى اختراع المدقة الحديدية التي تعمل على البخار وتستطيع ان تقوم بتركيب لحام اكبر القطع المعدنية وأدقها على السواء . وكان من نتائج اختراع هذه الادوات المتنوعة ان مهدت السبيل لظهور العديد من المهندسين الميكانيكيين امثال فرنسوا كافيه .

وقد حقق النول الميكانيكي انتصاراته الاولى اذ ساعد كثيراً على تسهيل اعمال الحياكة والنسيج الخاصة بصنف حديث من الحيطان مأخوذة من مادة القطن . ففي الوقت الذي تمكن فيه الاميركي ايلي هويتني ان يخترع عام ١٧٩٣ محلج القطن الذي حمل معه الثروة والازدهار بانشاء ما يعرف بحزام القطن في بلاده ، فقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا بسر صنع الادوات الخاصة بصناعة النسيج والحياكة . وبمساعدة احد الهاربين المدعو ديكسون ، مكن رسلر احد سكان مدينة ملموز المدعو شلبرجيه من ان يبني مصنعاً يعنى بصنع آلات النسيج . وقد أدخلت تحسينات على فن طباعة الاقمشة على يد برو ، وعلى نول الحياكة نفسه على يد السويسري بودمير الذي استوطن بولطن وعلى يد احد سكان ملموز المتشارك مع كوكلي هو هيلمان ، هذا النول الذي اخترعته كارترايت من قبل والذي يعمل بالبخار . كذلك هنالك تحسينات لحقت طبع الاقمشة باختراع اسطوانة نحاسية ، كما ان المكوك المذهب كان باعثاً على ازدهار هذه الصناعة في نوتنغهام قبل ان يتم ادخالها بالحيلة الى فرنسا . كذلك شاع استخدام آلة *Jacquard* في صناعة التخريم او الدانتلا التي بعثت النشاط الصناعي في مدينة كاليه . وصناعة الكتان نفسها عرفت بدورها انقلاباً ثورياً بفضل المكوك الذي اخترعه سكان مدينة كغنت المدعو بوفانس ثم ادخل عليه كروكس ولاسيا جيرارد فيما بعد تحسينات ملحوظة . وقد سجل مطلع القرن في عداد الانجازات العلمية التي سجلها اختراع الانوال الخاصة بنسيج التريكو والصداري بدون خياطة والتطريز الآلي ، ناهيك عن المشبك الذي اضاف على المنسوجات الحرارية المصنوعة في ليون ما امتازت به من نعومة ودقة ومتانة . ولكي نتبين اهمية هذا التطور التقني يجب ان نتيقن ان حائكا ميكانيكياً يعمل في صناعة القطن اصبح ينتج سبعة اضعاف ما كان ينتجه حائك آخر يعمل باليد .

من المستجدات في الكشف العلمية آلة الخياطة الآلية التي اخترعها خياط متواضع لللبسة هو تيمونيه . وكان من بعض نتائج هذا الاختراع ان أحدث ثورة في مصنوعات الالبسة وعمل على ترويج ما يعرف بـ *Sweating system* . وقد ادخل فيها بعد هو وسنجر في الولايات المتحدة تحسينات هامة حيث آلة تركيب الالعب وآلة خياطة الوجه والنعل مكنت صناعة الاحذية من تأمين الانتاج بالجملة .

ومما يلفت النظر في هذا التطور التقني العظيم هو ان المواد الأولية في التغذية بقيت خاضعة لوسائل العمل التقليدي . فاستخدام الآلة في مجال الزراعة هو في اول مراحلها . فالحاصدة الميكانيكية التي اخترعها الاميركي ماك كورميك لم تفرض نفسها على الاستعمال الا بعد مدة طويلة . ومطاحن الماء والهواء ستبقى قيد الاستعمال على نطاق واسع ولمدة طويلة ، والخباز لا يزال يستعمل يديه في توضيب العجين وتهية الخبز ، كما في السابق ، مع انه عام ١٨١١ اختراع معجن آلي لا يزال غير متقن ، والكرام لا يزال يستعمل رجله في عصر العنب او المصرة ، وتخمير الشعير لصنع الجعة يقتضي له عناية كبيرة . والوسيلة المثلى لحفظ اللحوم تبقى التمليح والتدخين ، والالبان لا يمكن حفظها وصيانتها الا بشكل جبنة ، يجب استهلاكها بسرعة ومحلياً والا تعرضت للفساد سريعاً . وقد اشار أبير الى الوسائل التي تضمن مكافحة الفساد والتعفن عن طريق الحرارة العالية التي تسبب التعقيم ، ولم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه استخدام التبريد الاصطناعي . فصناعة سكر الشمندر وحدها تتطور بسرعة بفصل الطريقة التي توصل الى استنباطها اشار بفضل تكريره بالحامض الكبريتي وبإزالة لونه بواسطة المادة السوداء عن طريق استعمال مداخل اسطوانية الشكل تمتص العصير .

لم نلاحظ من ناحية اخرى اي تقدم يطرأ على فن البناء ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عام ١٨٢٤ سيمنت بورتلاند الذي يلتصق ببطء ، ولا في مجال التدفئة . ولما كانت بريطانيا مهتمة بتصريف محصولها من الفحم الحجري فقد جرت محاولات لصنع وجاقات ومدافئ من ذوات الموقد المسيج ، واجهزة قوزيع البخار المائي على المنازل .

والاستصباح بواسطة الغاز المستخرج من حطب الوقود ومن الفحم الحجري لعدم وجود الغاز الطبيعي الذي اخذ الاميركيون بضبطه واستغلاله في بلادهم ، شق طريقه نحو الاستعمال منذ التجارب الاولى التي قام بها لوبون وموردوخ . وقد راحت لندن قباهي باريس وقدر عليها بسبقها لها على استعمال الغاز في التنوير والاضاءة العامة . وسيمضي نصف قرن قبل ان تتمكن منازل البورجوازيين ، في المدن الفرنسية من تقدير نعمة التمتع بالغاز في كل ادوار المنازل . والمصطلح عليه هو عادة قنديل زيت الكولزا المستخرج من بزر السلجم بعد ان ادخل عليه أرغان بعض التحسينات بعد ان راح كنيكه يتبجح بانسه صاحب الفضل في اختراعه ، وقد ادخلت عليه تحسينات فيما بعد على يد جيرار وفرانشو ، كما ان الناس بقوا يعملون على استعمال

الشعندان الحقيير المعروف . وستحل الشمعة في نهاية الامر محل الشعندان التي نرى في اسمها شيئاً من اثر الجزائر التي كانت قد سكان البندقية بشمع العسل الذي اخذ يدخل ممزوجاً بصنع الشموع مع مادة الشمع . وقد سبق لشفرويل ان اشار الى الدور الذي يمكن للحامض الستيارى لعبه في هذا المجال . وقد توصلوا فيما بعد الى تأمين نوع من التصبن والى صنع فتيلة صالحين للاستعمال . ومن الاجهزة الاساسية في الملاحة البحرية المنائر التي يعمل فيها قنديل من طراز أرغان ، هذا القنديل الذي استطاع رمفورد تزويده بعدة فتائل متراكزة والتي تضاعفت طاقة الضوء فيها بواسطة جهاز عدسية وعاكسة فريسل .

وليست اقل اهتماماً بالملاحظة والتقدير العالي التطورات التي امكن للفرب ادخالها على صناعة الكتاب والجريدة والصورة ، رغبة منه في الترويج لها ونشرها على الملأ . فقد درجوا الى الآن ، على استعمال الورق المصنوع من الياف القنب والكتان بعد مزج عجين الورق بالهلام (وهي طريقة اكتشفها لويس روبرت في مصانع ديدون في أسون ، اذ ان الآلة الخاصة بصنع رب الورق لم تكن معروفة الا في انكلترا) . وسكب احرف الطباعة وصبها كان يتم بواسطة قوالب امهات الحروف او باليد . كذلك أدخلت تحسينات على حبر الطباعة وعلى فن صنع الكليشيهات ، وهي طريقة مكنت من توفير النسخ باعداد غير محدودة . كذلك تمكن اللورد ستانوب من اختراع نموذج لا مثيل له من امهات الحروف .

وتمكن اللورد ستانوب نفسه من اختراع مكبس من المعدن ترك بعيداً وراءه المكبس الذي كان اخترعه غوتنبيرغ وحل عام ١٨١٠ محل الآلة التي وضعها كونيغ السكسوني بالاشتراك مع الطباع اللندني بنسلي . وقد كان سبق لجون والتر مدير جريدة التيمس ووصف لكونيغ طريقة الدفع الميكانيكي التي اترسمت صورتها لنيكلسن مدير جريدة الجورنال الفلسفي عندما وقع نظره على الاسطوانات الطابعة للاقمشة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، جرى طباع هذه الجريدة الكبرى في لندن لأول مرة على طابعة تعمل بقوة البخار المحركة للآلات . وبعد ذلك بقليل اخترع كونيغ مكبساً يعمل على عجلتين كما اخترع روسليه ، عام ١٨٣٧ ، مكبساً ذا رد فعل . ومهما يكن ، فالطابعة كانت تركز مسطحة على ارضية من المرمر . وكان لابد من الانتظار الى سنة ١٨٤٦ حتى يتمكنوا من تركيبها على الاسطوانات نفسها . وهذا الشكل الاسطواني هو الذي سبهي السبيل للتركيب الطابعة المعروفة بالروقاتيف بحيث اصبح ميسوراً ، منذ ذلك الحين ، سحب ٨٠٠٠ نسخة في الساعة بدلاً من ١١٠٠ نسخة عام ١٨١٤ وبذلك أطل على العالم عهد الدورية ذات الانتشار الواسع .

فلا عجب قط ان تفيد صناعة الكتب من هذا التطور العظيم الذي طرأ على فن الطباعة . ولم يلبث ان تمكن الذوق الفني في الطباعة على انواعها واستبد بالانتاج الفكري . ففي باريس نشطت اعمال النشر في دار النشر ديدو وازدهرت . وصناعة الحفر التي اصبح الآن بإمكانها

استنساخ الصور والرسوم انتشرت وعم استعمالها بسرعة على اشكال متنوعة ، كالحفر على الخشب وفقاً لطريقة بويك ، والحفر على الحجر أو الطباعة الحجرية التي توصل اليها الممثل المسرحي سنيفلدر . وافتتح الباب على مصراعيه امام الجورنال المصور الذي عُرف باسم مغازين . كذلك عرفت طباعة العملة الورقية ان تفيد هي الاخرى من هذا الاختراع (وبذلك عرف جاكوب بركنز الاميركي ان يعقد الامور في وجه مزوري النقد) ، وهواية جمع الطوابيع البريدية ستطلع بعد حين لتوفر للعاملين على تكوين المجموعات الفنية ، اللذة والفائدة معاً .

وفي سنة ١٨٢٩ ، اخترع برايل بالتعاون مع فوكو الكتابة النافرة لتعليم العميان ومكفوفي النظر .

لم تنقطع العناية طول القرن الثامن عشر بتحسين شبكة الطرقات ذروة السرعة في وسائل النقل وتطورها بشكل يسهل الاتصالات والانتقال . ونحن لا نقصد هنا التأكيد بان الطرقات التي كان يسلكها الانسان ماشياً على الاقدام او ممتطياً ضهوة احد الحيوانات او راكباً احدى العربات كانت في وضع يركن الانسان اليه . فمن الحوادث الحرة بالذكر مثلاً ان تبوفيل غوتيه ، في الرحلة التي قام بها الى اسبانيا عام ١٨٤٠ كان يشكو من ان العربة التي أقلته لم تكن لتستطيع التقدم الا بفضل قبضة من الممال تسير في ركابه ، اذ « كانوا يعملون على التخفيف من حدة كره العجلات في المنحدرات والمعطفات الخطرة » والسهر على متانة السرج واستقراره ، وسلامة الازمة ولارسنة والقدرة على كبح البغل الحرون الجفول . وبالفعل لم يمكن في اسبانيا ، اذ ذاك من الطرقات الموصوفة « معبدة » ما يتراوح طوله بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ كلم . ثم شقها خلال خمسين سنة ولم يتوفر شيء من هذا في صقلية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وجادة موسكو في بطرسبرغ لم ينجز شقها الا في سنة ١٨٣٤ ، وعلى عكس ذلك تماماً كانت شبكة الطرقات الفرنسية التي بلغ طولها ٣٠٠٠٠ كلم ، قامت السياسة التي اوحى بناءها على مطالب وطنية واعتبارات سياسية والرغبة في الظهور والتأثير في الخارج ، وكانت الرئيسية منها بالتجاء المانيا وسويسرا وايطاليا الشالية . وعلى هذا الشكل وتلك السياسة سارت الدولة البروسانية ، رغبة منها في تيسير العمل بالوحدة الجمركية (Zollverein) . اما في مملكة البلاد الواطية ، فقد نشطت الشركات والهيئات البلدية فيها للنهوض بطرقها . وفتحت سويسرا من جهتها طريق الفريزون وجبل سان غوقار .

ولعل ما هو اصعب وأشق من هذا كله هو صيانة هذه الطرق . فقد راح كل من ناقبيه وبكوف ينصحان عبثاً بكشط الطريق بعد كل مطرة ، بينما راح بولونسو ولامورانديير يوصيان باستخدام المداحل الضاغطة التي فكروا بفائدة استعمالها منذ عام ١٧٨٠ . وعلى عكس الطرق الفرنسية التي كانت 'تمد' اذ ذاك ، اجمل واحسن الطرق في العالم كله ، كانت الطسرق في انكلترا تتمتع بسمعة عاطلة لما كانت عليه من ضيق وتزعج وتقاطيع الحواجز . أفلم يكتب يونغ عن الطرقات التي تنطلق من لندن بالتجاء

اطراف البلاد ، بأنها على الوضع الذي تركها لله فيه بعد الطوفان ؟ اذ كان شق هذه الطرق وصيانتها تقع على شركات عميلة (*turnpike trusts*) قوامها اعيان المنطقة ووجوهها ، تقوم بحباية رسوم الدخولية واستيفاء عوائد عميلة . ومع ذلك اخذت شبكة الطرق فيها بالامتداد والاتساع اذ بلغ طول هذه الشبكة ٣٢,٠٠٠ كلم عام ١٨٣٠ وارتفع الى ٥٠,٠٠٠ كلم عام ١٨٥٠ . وقد تطورت على الاخص الوسائل التقنية في شق الطرق : اذ غلب عليها بتأثير بلفورده السطح المقبب للطريق بحيث يسمح هذا الشكل بتصريف المياه المتسربة ، كما اوصى مالك آدم في هذه الابحاث التي عقدها وحث فيها على الاهتمام بطرق البلاد ، برصف الطرق بالحصى فيسهل دحل الطريق كما يسهل بالتالي تأمين الشكل المقبب لها . وطريقة (تمهيب) الطريق التي دخلت الى بلجيكا عام ١٨٣٠ ، لم تنتشر في فرنسا الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والامير كيون ، رغبة منهم في التغلب على مشكلة المسافات ، أخذوا ، على الاجمال ، بهذه الطريقة الفنية ، عام ١٨٤٠ ، وبذلك جعلوا صالحة للسير هذه المسالك السيئة *corduroy roads* كما كانوا يصفونها لمشايبتها كثيراً شريط الحمل والتي لم تكن تفضل قط الطرقات المعروفة في الغرب باسم *Plank roads* التي اتبعوا في شقها الطريقة الروسية اذ فرشوها او بالاحرى دقوها بالواح الخشب من جذوع الشجر .

وكما في السابق ، فالطريق يسير عليها جمهرة من المشاة ومن اصحاب الحرف وعمال المناجم بينما الموسرون يمتطون خيولهم او يدرجون في عرباتهم ، في الوقت الذي تأخذ فيه الطرقات العامة بالانتظام . فالخافطة البريطانية تتمتع بسمعة طيبة . فهي تقطع الـ ٦٠٠ كلم التي تفصل بين لندن وأدنبره في ٢٤ ساعة ، اما عربة *Quick silver* فلا يقتضي لها اكثر من ٤ ساعات ونصف لقطع المسافة بين لندن وبرايث ، وبعد ١٨٣٠ تقطع المسافة بين لندن وبرمنجهام بسرعة ٢٣ كلم في الساعة . اما في الشق المقابل من خليج المانش ، فالانتقال بالعربة من باريس الى مدينة رين ٤ ايام ، والى مدينة ليون ٦ ايام و١٢ يوماً الى ستراسبورغ ، في عهد الامبراطورية . ومدة الوقت تهبط الى النصف بين ١٨١٥ و ١٨٤٠ ، اذ كانت العربة تقطع ٦ كلم في الساعة بدلاً من ٣ ، وهي عربة ضخمة ثقيلة زنتها ٤ اطنان وتشحن من ١٦ - ١٨ راكباً في حجراتها الاربع من درجات مختلفة . ومنذ عهد الديركتوار كانت عربة البريد التي تؤمن نقل البريد تنقل ايضاً من ٣ - ٤ ركاب فكانت عربة خفيفة تجرها ٤ جياذ وتقطع ١٠ كلم في الساعة حوالي عام ١٨١٥ ، ثم ارتفع المعدل الى ١٥ كلم عام ١٨٤٠ ، وتبلغ بوردو وليون وستراسبورغ في ٤٠ ساعة ، تسير « كهبوب الريح » كما يكتب هوغو ، اذ ذاك . فاذا كانت الرحلة لا تعوزها المناظر الشيقة امثال : السائق الطروب الهازل ، والكسول احياناً وغالباً السكران ، وفرقة السوط ينهال على اقفية الخيل ، والموسيقى عند الانطلاق ، وحدث ما ليس بالحسيبان من المفاجآت ، ووقوع الحوادث المثيرة . فقد كان من مميزات ومفارقاتها غالباً : المقاعد الضيقة

ارتجاجات لا نهاية لها ، والمهزلة هنا ، والحر هناك ، تارة يفوضون في الوحل وطوراً يفشاهم الغبار ، وأسرة لا يمكن الاطمئنان إليها في هذه الخانات المشبوهة ، يقطع النظر عما تتمرر له العربات أحياناً من تحطم المجلات . فإذا كانت المسافة أصبحت تقطع بوقت أقل ، فظروف السفر لم تتغير هي كثيراً .

ففي الوقت الذي سجل فيه النقل ارتفاعاً في معدل الواردات بفضل ازدياد النشاط التجاري ، فقد سجلت اسعار النقل فيه هبوطاً محسوساً . فكانت كلفة الرحلة من باريس الى بوردو في عهد لويس الرابع عشر ، ١٢٤ ليرة ، فإذا بها تهبط الى ١٠٨ فرنكات ، في عهد نابليون والى ٧٤ فرنكاً عام ١٨١٠ . غير ان الجر العادي للطن الواحد كان يكلف ٢٠ سنتيماً عام ١٨٤٨ بينما كان بمعدل ٣٣ سنتيماً عام ١٨١٠ ، اما الجر السريع وشحن البضائع فقد كان اكثر كلفة . فالبضائع لا تسير بسرعة اذ كان الشحن من باريس الى مدينة ليل يقتضي له ٤ ايام . ويقتضي ١٤ يوماً من باريس الى مرسلية ، ولما كانت كلفة نقل الرسالة مرتبطة بوزنها وثقلها كان على قاطن باريس ان يدفع ٢٠ سنتيماً عن تحرير يبعث به الى فرساي ، وفرنكاً و ١٠ سنتيمات الى مرسلية ، فيما كان على قاطن لندن ان يدفع فرنكاً و ٤٠ سنتيماً على رسالة من لندن الى ادنبرة . ومع ذلك ، فالبريد كان يوزع ١٠٠ مليون رسالة ، في فرنسا حوالي عام ١٨٤٠ ، مقابل ٣٠ مليون رسالة في عهد الوزير تورغو . وبعد ان ادخل رولاند هل تعديلات على تشريع قديم ، عمل على تبني رسم موحد هو بنس واحد (١٠ سنتيم) ، كما ان الجمهورية الثانية وضعت من جهتها رسماً موحداً مقداره ٢٠ سنتيماً الامر الذي افصى الى زيادة غير متوقعة في عدد الرسائل المتبادلة .

كل هذا والطريق تخدم في الدرجة الاولى ، المدن الرئيسية : فهي تتجاهل مصالح النواحي والملحقات اذ كان يترتب على ذوي العلاقة في المقاطعات والاقاليم ان يسهموا متضامنين في ما يصون طرق المواصلات في الناحية ، وقد صدر في فرنسا عام ١٨٣٦ ، قانون اناط العناية بالطرق الرئيسية بمأموري الطرق لا سيما تلك التي تربط بين المناطق ، فجعلتها على هاتق البلديات . ولن تلبث حركة السير ان اعتمدت طرقات ثانوية في الوقت الذي اخذت فيه سكة الحديد تستأثر تدريجياً بطرق المواصلات الرئيسية .

لما كان نقل البضائع والاحمال الثقيلة يكلف غالباً على حمى الاقبال على المعرات والاقنية المائية الطرق البرية ، فقد استأثر النقل النهري بالاهتمام واستبد بالحواطر ، واصبح من الوسائل التي لا ندحة عنها ولا بد من التعويل عليها امام هذا التطور الذي طرأ على صناعة التعدين واستغلال المناجم واستثمارها . ولذا يادر الانكليز الى ربط مصاب أنهرهم الكبيرة بالمراكز الصناعية الرئيسية . فقد تم فتح قناة Severn كما ان مشروع Shropshire Union ضاعف نشاط الـ Trunk الكبير وبالرغم من وجود ٢٨ هاوساً على طول

القناة الكاليدونية، فقد استغني عن المرور على مقربة من جزر الاركاد المحفوفة بالمخاطر. وهبطت بالتالي كلفة النقل بين ليفريدول ومنشستر الى سبعة امثالها، كما ان سعر الاسهم في هذا المشروع الاستثماري ارتفع عشرين ضعفاً. الا ان عدم وجود اي اتفاق بين الشركات ينظم المقاييس والرسوم سبب هبوطاً سريعاً عند ظهور الخط الحديدي.

والشرعية التي عادت الى آل بوربون افادت كثيراً من تقليد مرعي الاجراء كما افادت من الغاء رسم الدخولية على ايدي الثورة. فقد اشترى النظام الجديد الاقنية وثمر عن ساعد الجدل لانجاز المشروعات التي كان بوشر بها في عهد لويس السادس عشر، وفي عهد لويس فيليب برزت بوضوح شبكة الترعة المائية التي شئت الاحواض المائية، بعضاً الى بعض. صحيح ان شبكة الاقنية كانت غير كاملة وتفتقر كثيراً للتجانس فيما بينها: فقد امتنع على سفينة شحن قادمة من الفلاندر مثلاً المرور عبر قناة الاردن، كما ان الكباري القائمة على نهر الرون في مدينة ليون وقفت حائلاً دون الملاحة بين نهري الساون والرون. الا ان دخول البخار كقوة محرركة ذهب بكل هذه العوائق.

جاء في توصية لفرفة تجارة ستراسبورغ ان «على نهر الرين ان يؤلف اداة وصل بين كل الشعوب». فقد كان شحن بضاعة من درسدن الى مبورغ يكلف اكثر من نقلها بين مرقاً نهر الايلب ومدينة نيوبورك. فقد سبق لمؤتمر فيينا (١٨١٥) ان دعا الدول الواقعة على مجرى الرين للتعاون فيما بينها للقيام بتحسينات على مجراه. وقد ظهرت السفينة البخارية لتعمل في وقت مبكر بين مدينتي روتردام وكولوني، ولم تعدم ان شقت طريقها الى ستراسبورغ. ولم يباشروا في تنظيم مجرى هذا النهر الا في عام ١٨٥١. وقد حدثت رغبة جامحة بكل المرافىء الواقعة على سواحل البلاد الواطية الى اجتذاب الحركة التجارية ونشبت على اثر ذلك منافسة حادة فيما بينها زادها حدة وتقيداً دخول السكة الحديدية الحلبة. فبينما راحت روتردام تتحرر من حوائل الزويدرزة بالمجازها قناة البحر الشمالي الكبرى، كان حوض نهر الموز يحاول تيسير اتصاله بمرقا انفرس بين لسيج وشارلروا، وبين هذه الاخيرة وبروكسل. وراحت بروسيا والدول المجاورة لها تطلق حرية النقل التجاري على نهر الايلب. وقد عقد اتفاق روسي - بروسي يرسم خطة تؤمن قيام اشغال بقصد تحسين الملاحة على نهر القستول، في الوقت الذي كانت فيه فيينا تخطط هي الاخرى، للاستفادة من نهر الدانوب. وقوصل نيلز أركسون عن طريق قناة ترولهاتن الى تفادي شلالات غونالف فيستر بذلك وصول الخشب والحديد السويدي الى مضيق كاتينغات.

اما في روسيا والولايات المتحدة الاميركية المعروفتان بمساحتها الشاسعة فقد ألفت البحيرات والانهر الضخمة فيها طرق مواصلات طبيعية مهمة للغاية، مع ما هي عليه من حاجة ملحة لاصلاح مجاريها ولربطها ببعضاً ببعض بشبكة متجانسة من الاقنية والترع. فالسابق القصير الامد الذي

سجلته الامبراطورية المصرية في هذا المجال ، لم يسد طويلا امام هذه الانجازات الضخمة التي تحققت في العالم الجديد . فقد بقي نهر الدون والدينير منعزلين . وقامت شركة روسية للسفن التجارية تعمل على نهر الفولغا وكاما ، واذا كان نهر النيفا يتصل ببحيري لادوغا واويناغا وقالقولغا بقي منفصلا عن خليج فنلندا الى عام ١٨٥٠ . كل هذا يبقى قافيا زهيدا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانيات الضخمة والطاقت الواسعة التي ستحظى بها السفافة القديمة . وعلى عكس ذلك هنالك شعور عارم في اميركا بوجود ربط نهر الميسيسيبي وروافده العديدة باحواض المحيط الاطلسي الساحلية ، وهذه بالبحر الداخلي القائم عند حدود كندا . فقد ألقت مواعين الشحن الهبوط من نهرى الاوهايو والميسيسيبي حتى اورليان الجديدة ، حاملة اليها من السهول والمرج الفيعاء ، الحبوب ولحم الخنزير المملح ، كان سكان الولايات الشرقية يشدون الرجال لنقلها برا على عربات النقل البدائية ، راسمة في سيرها دورة هائلة . واختصاراً منهم للمسافات وتقاديا للوانع الحائلة والمقبات القائمة ، راحوا يضعون الخطط لانشاء ما يلزم من الترع والاقنية الموصلة ، عندما خطر لفولتن التصعيد في نهر الهدسون على السفينة التجارية الجديدة « كليرمونت » التي تم بناؤها في يرمينغهام . وضربت الممول الاولى التي بوشر بها عام ١٨١٧ ، ايذانا بشق الخندق الذي سيمتد الى بحيرة ايريه والبالغ طوله ٦٠٠ كلم . الذي تم الفراغ منه بعد جهود وشاقة استمرت سبع سنوات بكاملها ، وكلفت ٤٥ مليوناً من الدولارات سيسمح بوصول ٣٠٠,٠٠٠ طن ، عام ١٨٢٥ ومليونى طن ، عام ١٨٦٠ . وعن طريق هذه القناة ارسلت شيكاغو اول شحنة لها من الحبوب . والطون الذي كان نقله يكلف ٥٠٠ فرنك هبطت كلفة نقله الى ١٠ فرنكات في اقل من عشر سنوات وهكذا جاءت حركة النقل التجاري هذه تكرر اسبقية مرفأ نيويورك في مضمار التجارة في العالم الجديد . ومنذ ذلك الحين قامت منافسة حارة بين الولايات الاميركية والمدن الكبرى الواقعة على الاطلسي ، اذ راحت كل من هذه الولايات والمدن تحاول جاهدة الوصول الى احواض الغرب حيث عدد كبير من الاقنية كان على وشك ان يؤلف شبكة متجانسة من هذا الترع المائية . مما لا شك فيه قط ان هذه التصاميم الموضوعة لم يحالفها النجاح . فشبكة بنسلفانيا التي تألفت من قناتين تربط بينهما جادات منحدره السطح تحتازها العربات المشحونة ، لم تتجاوز لنشبورغ ، الامر الذي حمل بلطيمور على تفضيل سكة الحديد . ومع ذلك ، فالولايات المتحدة التي ترك لنا ميشال شغاليه باعجاب كلي وصفاً دقيقاً لمحاربتها المائية القابلة للملاحة النهرية ، بلغ طول شبكتها هذه ٧٠٠٠ كلم عام ١٨٣٥ ، وبذلك هيأت اسباب تغلب البخار . وهذا الحماس لم يلبث ان خمد وانطفأت جذوته بسرعة امام طلوع البخار في انكلترا بالذات .

من اليسير ان يتصور المرء ان استخدام الانثان للبخار وتسخيره له كوسيلة ظهور سكة الحديد من وسائل النقل الحديث كان ثورة طارئة . فقد عاش والحق يقال جيل كامل من الناس تنازعهم عاملا الامل والشك حول مستقبل القطار والخط الحديدي . فما عسى ان تكون عليه يا ترى ، سكة الحديد ، هذه السكة التي تتألف من خطين متوازيين من الخشب ،

ثم خطين من السب واخيراً من الحديد ظهرها في اواخر القرن الثامن عشر، احسن المعدنون واصحاب المناجم ، في انكلترا ، استخدامه لنقل عربات الفحم . ولكن هل يكفي ان يلتصق الجانث بالحط الحديدى حتى لا تبقى العربة تتأرجح في مكانها ؟ ليس من عنصر حاسم في الامر منذ العربة التي صنعها كونيوث قبل ان يخترع ستيفنسن عربة *Puffing Billy* عام ١٨١٤. فقد شهد عام ١٨١٤ نهاية عظمة غابوليون كما شهد ظهور القاطرة التي تجر ثنائي عربات وزن معاً ٣٠ طناً بسرعة ٧ كلم في الساعة ^(١) وهي آلة باهظة التكاليف كما يقولون ولا تصلح من جهة ثانية الا لنقل الفحم لمسافة قصيرة . فهي عبارة عن فكرة خطرت لمعدن فتقت بها غيكلته زولاً عند مقتضيات المنجم . وعندما خطر للمركيز دي لور سالوس ، عام ١٨٢٣ ان ينشىء له خطاً حديدياً ينقل عليه وقود الفحم من سانت اتيان الى منطقة اللوار، لم يفكر بغير الخيل والجير كأداة لجر العربات . ومع ذلك ، قام جورج ستيفنسن ، عام ١٨٢٥ بتجربته الحاسمة على خط دارلنغتون ستوكتن للتدليل على الخدمات التي تؤديها القاطرة . وتمت التجربة في ٢٧ ايلول امام حماس جميع الذين شاهدوها . فقد استطاعت ثلاث قاطرات تعمل على البخار ، قوة الواحدة منها ٥٠ حصاناً - كما تروي الخبر جريدة التيمس - ان تنقل ١٣ عربة محملة بالبضائع وغير ذلك من المواد المختلفة ، على خط حديدي مرتفع الصعيد . فقد وصلوا هذه العربات وعربة اخرى تحمل السلطات والمدعوين والمساهمين، بقاطرة نقالة عرفت باسم *Exptience* . وتألف القطار من ٣٤ عربة بينها عربة تحمل فرقة الموسيقى تصدح بانغامها الشجية، بينما كان يرفرف على احدى العربات ، علم كتب عليه : « خطر فردي لقاء منفعة عامة » وعند انطلاق اشارة معينة اخذ القطار يتحرك فراححت الجماهير تهتف هتاف الفرح . وراح بعض الفرسان الخيالة يحاولون إستباق القطار الا انهم لم يلبثوا ان شعروا بانه فاتهم كثيراً . فالمسافة التي كان الانحدار فيها قوياً بلغت سرعة القطار معها ٢٦ ميلاً (٤٠ كلم) في الساعة . وفي سنة ١٨٣٠ ، فاز ستيفنسن وابنه روبرت بالجائزة ضد ادكسون ، وهي جائزة وضما تجار لانكشير لمن يفوز بالسبق بين ليفربول ومنشستر . فقد جرت قاطرتهم ١٢ طناً بسرعة ٢٢ كلم في الساعة. فالحدث لم يقل اهمية عن حادث *les trois glorieuses* في المدى التاريخي .

فينا كان الشباب المتحمس في فرنسا يدفع المهندسين ومعظمهم من خريجي البوليتكنيك ومن انصار السان السيمونية ، ويطالبون بالسكك الحديدية ، نراه يصطدم هنا بتنكر البعض للفكرة كما تلقى الفكرة هنالك عدم رضى الآخرين ، كما اصطدمت بمعارضة الذين رأوا في هذا المشروع ، اذا ما خرج الى حيز الوجود ، مساً بمصالحهم ، ويتعللون بفلاء الحديد ، رأينا الفكرة ذاتها تقوّر برضى الرأي العام الانكليزي كما انها تولت منزل الرضى من الامير كيين . وفي إثر إيفانس فكر ستيفانسان ان يربط بين الهندسون وبحيرة ايريه باختراع يدخل فيه الحط الحديدى

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ، ص ٩٦ (من الطبعة العربية) .

والآلة البخارية ، فيكون ذلك افضل من وصلها بقناة مائية . وقد كان نجاح التجربة أن حمل بعض رجال الاعمال في بنسلفانيا على شراء قاطرة من انكلترا . وها هي بلطيمور تندفع بكليتها في الامر فتستخدم اول ما استخدمت الحصان والشرع ، فالقاطرة فازت في السنة التالية . وانهالت الاموال على المساهمين فسهل هذا الاقبال مد فروع الخط الى واشنطن ، ومنشستر . وفي الوقت ذاته سارت الآلة البخارية على خط شارلستن - هيمبورج . ولما كانت السفينة الشراعية تسبب مشاكل وتثير المتاعب فقد كتب النجاح لاحسن صديق او رفيق الذي باستطاعته ان يقطع ٣٤ كلم في الساعة جاراً وراءه أربع عربات والذي انتهت رحلته بانفجار عقب ان جلس السائق الزنجي على الصّام ليمنع البخار من الصغير . قالقاطرة *Old Ironsider* التي صنعها بلدوين وتلك المسماة *Thumb* التي جرى صنعها في احواض وست بوينت اصبحتا حديث القوم . وبالرغم من بعض الحوادث المبكية المضحكة التي رافقت تجربتهما ، فقد رسمتا مصير هذه الوسيلة الجديدة من وسائل النقل . ومنذ ذلك الحين ، سارت الولايات المتحدة في الطليعة وتخطت أوروبا بمراحل ، فمن ٦٥ كلم للاولى مقابل ٣١٦ في أوروبا (منها ٢٧٩ لانكلترا) عام ١٨٣٠ ارتفعت الولايات المتحدة الى ٤٥٠٩ مقابل ٣٥٣٤ لأوروبا ، عام ١٨٤٠ - وبعد ذلك بعشر سنوات يصبح لدى الولايات المتحدة ١٤,٤٠٠ كلم من الخطوط الحديدية قيد الاستعمال وتأخذ في الامتداد والتغلغل في الداخل . صحيح ان هذه الشبكة ليست بعد كلها متجانسة فيما بينها . فتفاوت البعد بين الخطوط يختلف بين خط وخط وشعبة وشعبة وعملية التفريغ وانزال الشحن المعد للفنادق تفرض على القطار التوقف ليلاً بعض الوقت . ومع ذلك فقد راحوا يقطعون المسافة بين بوسطن ونيويورك بربع وعشرين ساعة بدلاً من ٨٠ ساعة . وفي سنة ١٨٥٤ كانت خمسة خطوط تجتاز جبال الابلاش . وهكذا يبدو واضحاً ان الولايات المتحدة الشالية حققت لها اسبقية ملحوظة في اعتمادها على الخطوط الحديدية .

ففي أوروبا العميقة لا يزالون بعيدين البعد كله عن هذه الانجازات البنيّة الطموحة النيرة التي يقترح ميشال شفالیه الاخذ بها والاقبال عليها ممثلة « بشبكة البحر المتوسط » ، اي القيام بشق قناة مائية تربط كل الخليج الواقعة في أوروبا على سيف هذا البحر بأهم المراكز الصناعية والمدن الكبرى . فالطريق والنهر هما قوتان . وجاءت ردة الفعل وفقاً لطبيعة ومزاج ومصالح كل بلد من هذه البلدان المعنية بهذا الامر . فمن جهة الجنوب والشرق نرى انهما يفتقران كلياً لرؤوس الاموال اللازمة كما يفتقران للفنيين والتقنيين . فها هي ايطاليا التي تنبأ لها أزغليو بأن انشاء السكة الحديدية فيها « سيخيط الجزمة » لا تملك ، عام ١٨٤٦ ، سوى بعض شعبات من هذه الخطوط (خط ميلانو - مونز ، وخط بادو - البندقية ، وخط ليفورنو - بيزا ، يقطع النظر عن خط مقاطعة كنبانيا ، هذا الخط الذي انشأه قردينان دي نابولي للذقة الخاصة وجهاز كل محطة تقع عليه بكنيسة صغيرة ، وحظر السير عليه ليلاً وایام الاعیاد) . اما هنغاريا فستبقى طويلاً لا تملك غير الخط الدائري الذي يلتف حول بودابست (بعد ان كانوا يرددون فيها القول بان .

كل من ينظر الى القطار في سيره على الخط يصاب بالجنون . وفي روسيا كان على القيصر ان يضرب بمرض الحائط المخاوف التي جاشت بها نفوس «المصايين بمرض العصر» يعارضون فكرة بناء خط موسكو - بطرسبورغ . ومن جهة اخرى تحافظ انكلترا على سبقها في هذا المضمار وعلى التقدم الذي سجلته على كل جيرانها . فهي البلد الوحيد الذي يتمتع بشبكة حديدية تربط ما بين مدنها الرئيسية وحواضر البلاد الكبرى . وقد اقبلت بشيء من الهوس الجنوني على بناء هذه الشبكة التي استمر العمل فيها من ١٨٤٠ - ١٨٤٧ بالرغم من المناقشة الحادة التي ابداهها اصحاب العربات ومعارضة بعض الشركات المالية ولا سيما معارضة *Turnpike Trusts* وكل من يعتاش من صناعة الجر ، وبالرغم من المضاربات على الاراضي . ان و . شابلن الذي كان في حيازته عام ١٨٣٦ نحو من ٣٠٠٠ عربة نقل و ١٥٠٠٠٠ حصان جر رأى انه من الایسر والاسهل نقل الطرود البريدية بالقطار الحديدي ، وقبل ان يتأسس شركة خط لندن والجنوب الغربي . وقد احدث انشاء خط حديدي بين بروكسل ومالين تحولاً في الرأي العام الذي اخذ يعطف على الفكرة بعد ان تنكر لها فاخذ يظهر الاقتراح الجريء الذي كان يرمي الى انشاء خط حديدي يربط ما بين انقرس - كولوني وهو مشروع تقدم به الوزيران روجيه ولوبو . وقد تعللوا في معارضتهم لهذا المشروع بأنه يجر الخراب على اصحاب عربات النقل ويدهك الارض الصالحة للزراعة ويدخل الرعب على الماشية والحيوانات ويحفظها . فبعد سنة ١٨٤٣ ، قام في هذه المملكة الصغيرة من الخطوط الحديدية ما يوازي ما كان منها في فرنسا . وكان من حسن وضع شبكتها ان اجتذبت اليها كل الحركة التجارية في اوروبا الريفية . اما البلاد الواطية التي تخلفت عن جارتها في هذا السبق ، فلا عجب قط ان تفقد جانباً من الارباح التي كانت تعود اليها من الحركة التجارية وحركة النقل التي كانت تتجه اليها .

كبير جداً عدد رجال المال والاعمال والاقتصاد ورجال الادارة في المانيا الذين ادركوا كما يجب ، الفوائد والمنافع التي يحملها الى المانيا المتقسمة على نفسها سياسياً وعلى الاتحاد germاني الذي قام فيها التخلف عن الركب في هذا المجال . ولكن كيف العمل وقد راح الاطباء يؤكدون ان السرعة التي يتعرض لها المسافرين تعرضه لفقد بصره وبالتالي للعمى ، كما ان بعض المصالح الفردية الخاصة وفقدان الثقة التي يجب ان تقوم بين الدويلات الالمانية وقلة رؤوس الاموال ، كل هذه التعللات قامت وانتصبت في وجه القائلين بالتطور في هذا المجال والقائلين بوجوب الاخذ باسبابه . ففي عام ١٨٣٥ فقط ، وتحت ضغط ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة قوبنجن وبفضل المبادرة التي اخذها شارير ، عمدة نورمبرغ ، تم انشاء فرع خط نورمبرغ - فورث . وقد وجه البروفسور ليست نفسه ، نداء الى سكان مقاطعة ساكس دعاء « البراءة الكبرى » للخطوط الحديدية ، يهيبهم الى معاضدة خطة تطوير المواصلات الحديدية واخذ يجمع اشتراكات المساهمين بقصد بناء خط يربط بين ليبزيغ ودرسدن ، هذا الخط الذي جرى تدشينه باحتفال عظيم ، اقيمت فيه اقواس النصر واشتركت فيه اجواق الفتيات . وراحت كل مدينة

تطالب بوصلها وربطها بجاراتها أو بأقرب نهر منها ، وكل واحدة ترغب في ان تصبح عقدة مواصلات . الا ان الحكومات المستبدة كانت في حذر من هذه المشروعات الخاصة : اذ ان القانون البروسيانى كان يقيم مراقبة شديدة على كل مشاريع الاستثمارات وراحت بعض الدويلات الالمانية تحتفظ لنفسها مسبقاً بحق استثمار الخطوط الحديدية فيها . فمن المفارقات الحسرية بالملاحظة ان تلعب السلطات العامة في المانيا هذه التي تفتقر اصلاً الى حكومة مركزية دوراً اكبر من الدور الذي قامت به الحكومة الفرنسية . اذ لم تعتم ان اصبح لديها ٥٠٠٠ كلم من الخطوط الحديدية مقابل ٣٠٠٠ في فرنسا وهي شبكة تتألف من خط رئيسي يربط بين اكس لاشابل وبوزين ، ماراً بهانوفر وبرلين ويقطع الانهر الكبيرة في شمالي البلاد . ومن هذا الخط تتشعب فروع نحو برين وهامبورغ كانت قيد الانشاء . ولما كان الرين الأوسط لا يفي تماماً بالفرض فقد تم وصل فرانكفورت بمدينة بال ، كما ان بروسيا ارتبطت بالنمسا واتصلت بها عن طريق سيليزيا وبوابة مورافيا .

وطالت فترة التردد في فرنسا وانتصب فيها جبهتان : المجددون التقدميون الجريثون ، والنظاميون الرجعيون . من هنا السان سيمونيون ومهندسو الكباري والطرق ، ومن هناك رجال المال المتحفظون وفريق النبلاء الحذرون ، والمثقفون على انفسهم ذوي المواقف المتزعزع ، وحكومة لويس فيليب الذي يتأرجح بين الأخذ باقتراحات له غران ومارتن دي نور ، وبين تحفظات المجلس الوطني وتردده . فلم يكن الى سنة ١٨٤٢ سوى بعض فروع قائمة . وعشياً يحاول كل من اميل بيرار في جريدة « الناسيونال » وفلاشا في جريدة « الدستور » وشارل دي فريبه في جريدة « الكريدي » وشفاليه في جريدة « الدنيا » امتداح سياسة الانشاءات العامة ويحثون رجال الاقتصاد على وجوب تبنيها . صحيح ان جيمس دي روتشيلد اقتنع في نهاية الامر ليغامر بتنفيذ خط يربط بين باريس وسان جرمن ، تحت اسم الباريسيين وبصرهم ، تأمناً لما فيه الترفيه والتسرية عنهم . وقد ساهم الجيش الفرنسي ببناء جسر أنيير . وجرى تدشين الخط باحتفال كبير ، عام ١٨٣٧ وعند افتتاح خط نيم - بوكير راح احدهم يقرظ شعراً فوائد القاطرة ، منشداً :

ما احلى القاطرة اللعوب اللامعة
يداعب عرف شذاها التسيم العليل
مري يا عربة الجود والكرم
مخرقة من ارضنا السهل والجبل
دخانك الاقتم هو خير بذار
يفيض الخصب من الاثلام والبركات

وهذا الحماس يتجاوب مع نشوة الطرب يهز مشاعر ميشليه وهو في القطار من لندن الى ليفربول فيقول : خمسون فرسخاً بأربع ساعات . ليس ما يستطيع وصف هذه السرعة الجنونية

التي لمجتاز معها كأننا مع قصة من قصص الخيال ، هذه المناظر الغناء ، نحن لا نعدو ، نحن نظير فوق الحقول المنبسطة وفوق الصخور والبطاح ، نمر سراعاً فوق الكباري المطلقة والقناطر التي تذكرنا بما نحمله من فن وملاحة ، في كل لحظة والتفافة ، بهذه المباني الاتروسكية والرومانية . نحن نعوم فوق المهايوي والاغوار .

اما في فرنسا فالمسافات رحبة هي وشاسعة ، واصحاب رؤوس الاموال يفضلون ريعاً تكفله الحكومة ، بينما اكثر المشاريع الاستثمارية تعيش فيها عيشاً نباتياً . وراح ارغو يحذر الناس من « هذه الاحلام التي يملقونها على قضيبين من الحديد » . ففي عهد حكومة غيزو فقط ، وبفضل حركة ازدهار قصيرة الامد ، صدر قانون ١٨٤٢ الذي اوجب على الدولة معاضدة المشروعات الخاصة ومؤازرتها ، انما تحت مراقبتها الرسمية واشرافها الفعلي . فتأسست في البلاد شركات جديدة ، واخذت الاسهم المالية تترى في حى من المضاربات ، وقامت ورشات احتدمت بالنشاط . فالازمة التي استبدت بالبلاد شلت الاعمال لا بل عطلتها تماماً . فالذهاب من باريس الى ليون ، عام ١٨٤٨ كان يضطر المسافر ان يستقل القطار الى كوبي ، ليعود فيستقله من جديد من ميلون الى تروى واخيراً من ديجون الى شالون . ولكن لا مندوحة له من ركوب القارب او العربة بين كورباي وميلون - وتروى وديجون ، وبين شالون وليون . ومع ان ركوب القطار يكلف ٢٥ سنتيماً للكلم الواحد مقابل ٦٠ للعربة ، فالعربات تسير اسرع وتسير تواتراً .

ففي ديوانه الشعري *Les Destinées* ، تننّى ريشة فينيي بشيء من الشك المقيم عندما يقول :

هذا الثور الحديدي الذي يدخن ويلهث ويخجور
فأي عاصف فيه يُطلق هذا الاعشى الهائج ؟

عالم القرن الثامن عشر البطء في المواصلات بالاختراعات من التلغراف البصري الى التلغراف البرقي الجديدة يكشف فيها عن اسرار القوى الطبيعية ، ويأتي بها علاجاً اولياً نشرأ لافكاره وبنأ لها بالسرعة المرتجاة . فالاهتمام بتوفير وسائل الاتصال والاعلام عن بُعد لا يزال يستبد بالخواطر حتى بعد ان اكتشف الانسان التلغراف البرقي . ففي سنة ١٨٣٨ فقط ، اعتمدت الحكومة الروسية طريقة شاب للاتصال السريع بين فرسوفيا وبطرسبورغ ، هذه الطريقة التي كان لها في فرنسا اذ ذاك ٥٠٠ محطة فمكنتها الاتصال بين باريس وطولون في اقل من ١٥ دقيقة واتفق عام ١٨٣٧ ان كان الانكليزي هويستون ، والالزاسي ستانهايل الاستاذ في جامعة ميونيخ ، والاميركي مورس ، ان تقدموا في وقت واحد تقريراً بشهادة اختراع جهاز خاص بالمخابرات السريعة عن طريق استخدام شاحنة فولتا بعد التجارب التي قام بها غوس وويبر حول المغنطيسية الكهربائية فاستنبط هويستون طريقة المخططات للتغلب على عنصر المسافة وعامل المقاومة ، بينما راح ستانهايل يقترح الاخذ بالشبكة الوحيدة

تكون الارض فيها سلك رجوع ، في الوقت الذي استنبط مورس طريقة جديدة مبسطة جداً تتألف من علامات ترسم على لفافة من الورق . فبدلاً من تسجيل الاشارات الرمزية تسجل البرقية نفسها . واستطاع مورس ان يتبادل البرقيات بين واشنطن وبلطيمور عام ١٨٤٤ . ولم يمس كبير وقت حتى راح كل من برنار وولف بالاشتراك مع ارنست ورنر سيانس ثم رويستر المعروف بصداقته لفوس يستخدمون طريقته هذه في هذه الوكالة للاخبار التي انشأوها . اما التلغراف البصري فقد احتفظوا به في مصالح الجيش والبحرية .

ازدهار السفن الشراعية وبدء العمل بالبخار
كانت تنقلات الانسان على البخار حتى الآن مرتبطة الى حد بعيد بمزاج الارياح والاهواء التي حاول جهده ان يكبحها او يتحكم بها بشكل او آخر . والعمل في السفن الشراعية كان مليئاً بالمخاطر والمشقات اذ تقتضي القائمين به والناهضين باعبائه واحكامه ، الكثير من المهارة والجرأة ورباطة الجأش . فعلى من يرتضي حياة البحر مهنة له وحرقة ان يقلع بفراش خشن وحجرة ضيقة ، ضئيلة النور ضعيفة الازالة ، فاسدة الهواء كثيراً ما تقع منها رائحة العطن ويعيث فيها الجردان ويعيث بها الهوام . اما طعامه فقوامه المعجنات والملححات والتبلع غالباً بماه مز أجاج . فهو ابدأ عرضة للأمراض تترصده المخاطر بين الصخور ومهاوي البحر واغواره . وتطل عليه من سطحه واعماقه ، فيسير على بركات الرحمن مستوثقاً بالظروف والامكانات الآنية ، ويقلع ملؤه النشاط كلما سمحت له الظروف وافتر له القدر ببسمة الامل . فوكالات السفر البحرية اخذت بتنظيم اسفار في مواعيد محددة بين نيويورك وليفرول ، شهرية في بدء الامر ثم نصف شهرية بعد حين ، كما قامت وكالات اخرى في لندن والهافر تنظم السفر الى شواطئ الهندسون ، في رحلة يقتضي لها من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع ، ذهاباً من الشرق الى الغرب ، ومن ٣٠ - ٤٠ يوماً إياباً في الاتجاه الماكس ، والمهم في هذا كله تأمين الطمأنينة والسلامة اكثر من الوقت .

وبالرغم من هذا كله فقد قطع الاوروبي مسافات شاسعة فوق البحار يخترق عباها قبل ان يتاح له السيطرة على القارات والتحكم بالمسافات . فبعد ان اعتمدوا في اواخر القرن الثامن عشر السدسية sextant في تحديد خطوط الطول وقياس ارتفاع الاجرام السماوية وابمادها اكثر من اعتمادهم على الاسطرلاب ، استطاع الميقت او الكرونومتر بعد التحسينات التي ادخلها عليه كل من بريغيه وابرهيم لويس ان يسجل تطورات عظيمة في قياس الوقت بدقه كلية . ولن يلبث رجل البحر حتى يرى تحت تصرفه خرائط مفصلة لرحلات فصلية مرتكزة على رصد مهب الارياح . اما البركار فلن يصيح في مأمن من الاضطرابات التي تحدثها الحجوم المدنية الواقعة على مقربة منه الا بعد لأي من الزمن .

فكيف السبيل والحالة هذه الى استبدال السفينة الشراعية بأداة للفلاحة تكون اسرع واكثر ايماءً للطمأنينة ؟ وفكرة استخدام البخار كمحرك في الملاحة وجدت لها رواجاً اكبر

بعد نجاح تجربة السفينة التي تعمل على القراشات في المياه الداخلية التي قاموا بها في العالم الجديد . وكانت نقطة الانطلاق هذه التجارب والاختبارات التي قام بها جوفروا دبانس على نهري الساون والسين ولاسيما التجربة التي قام بها فلتن على سفينة *Clermont* في خليج هدسون . هنالك عام ١٨١٥ نحو مائة بيروسكاف (وهو الاسم الاول للسفن البخارية) تعمل على الحطب كوقود لها لوفرة هذه المادة ورخص ثمنها بينما ارتفع هذا العدد عام ١٨٣٠ ، الى ٥٠٠ بيروسكاف . وهكذا طلع علينا الـ *steamboat* مهداً السبيل لظهور الـ *steamer* . ولكن هل باستطاعة المركب البخاري الذي اطلقه دل وثمان على الكلايد ان يستجيب لمقتضيات رحلة بحرية طويلة ؟ فقد ارادوه للملاحة القريبة من الشواطئ ، ول اجتياز البحار الضيقة كبحر إيرلندا مثلاً . فليس من الغريب قط ولا ما يدعو للعجب ان تجتاز « السافاناه » شمالي المحيط الاطلسي عام ١٨١٩ ، بخمسة وعشرين يوماً ، فلا تصل الى مرفأ ليفربول الا بعد ان استعانت بالشرع . وقد ذهبوا بها الى كرونستادت الا انها لم تجذب بشيء اهتمام الاميرالية الروسية ، فاضطرت للتكول راجعة الى اميركا مستعينة في ذلك بالقولوع مرة اخرى . فقد برهنت التجربة على ان المعجل الذي يحرك القراشات لا يعطي النتيجة المطلوبة ، اذ ان حركة السفينة من الاسفل الى المقدمة تكشفه تارة وتقطيه طوراً . ومن جهة اخرى ، ان تمشق المعجلات الذي يتحكم بالآلات يفقد السفينة الكثير من قوة الدفع بعد ان يفقدها الرجل ذو المربعات قسماً كبيراً منها . فهي من جهة ثانية لا تصلح كسفينة حربية اذ انها هدف سهل المنال لرماية العدو . اما اذا ما عادت سفينة الفنكس بسرعة ٩ عقد تضيع في فرنسا على الاهلين خبر سقوط مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ ، فالسفن التجارية لم تكن لتخلو اذ ذاك من محاذير سيئة . اما كان يقتضي لها من وقود الفحم ما يملأ كل الفراغ المخصص فيها للشحن ؟ والسفينة انتربرايز وصلت كلكوتا عام ١٨٢٥ بعد رحلة استغرقت ١١٣ يوماً ، منها ٨ ايام قضتها تنار الماء والوقود في مدينة الكاب . والى هذا كان لا بد من ان يحسب المرء حساب اخطار الحرائق والانفجارات الطارئة ، وهي اخطار لم تكن نادرة الوقوع على خطوط الملاحة . فالسفر في عرض الاوقيانوس ، بدون انقطاع او توقف ، على ظهر سفينة تشحن الفحم ليس باقل خطر من رحلة يخططون الى القمر تنطلق من ليفربول ، كما يؤكد ذلك العالم الرياضي لاردنير ، عام ١٨٣٥ . فليس من غرابة قط ، والحالة هذه ، ان يتردد نواجذة البحر ، قبل الاقدام على تعريض اموالهم للخطر .

ومع هذا لم تمر ثلاث سنوات حتى وقعت التجربة التاريخية المشهورة التي قامت بها السفينة سيربوس والسفينة الاخرى *Great Western* اللتان عرفتا كيف تستفيدا من البخار والشرع معاً ، اذ قطعتا الاوقيانوس ، بين ليفربول ونيويورك ، الاولى في ١٦ يوماً ونصف والثانية في ١٣ يوماً ونصف . وعلى الاثر يتعهد البحار السكتلندي صموئيل كوفارد بنقل البريد على اربع سفن بخارية اولاهما بريتانيا التي قطعت المسافة بين ليفربول وبوسطن بـ ١٧ يوماً محققة بذلك الاقتراح الذي تقدم به المهندس إيزمبير كنغدوم برونيل ، الى شركة *Great Western Rail Way*

بمد خطها حتى اميركا وذلك باستخدامها سفن بخارية في اسفار مطردة .

واخيراً هل في مكتنة السفينة البخارية لعمري ان تستغني الى الابد عن الاشرعة التي تحتاج الى ايد عاملة كثيرة ؟ فقد اتجهت السفانة نحو تحقيق هذا المطلب باستعمالها المروحة القائمة على مبدأ برغي ارخيدس ، هذا المبدأ الذي خطر لبعضهم ، منذ القرن الثامن عشر استعماله وتطبيقه ، والذي قام باخراجه الى حيز الوجود في وقت واحد تقريباً احد بناء السفن في بولوني هوسوفاج ، ومزارع انكليزي هو بتيت ممث واركنسن نفسه ، بين ١٨٣٢ - ١٨٤٤ . وستم ١٥ سنة قبل ان يعم استخدام هذا المحرك الحزوني او الدوامية . كذلك سيتم بالبطء نفسه من حيث التطبيق والافادة من خدماته ، الاختراع الذي وضعه هول عندما وضع المكشّف السطحي الذي يرفع من حرارة الرجل ويزيد كثيراً من طاقتها الآلة المزودة التي ستوفر الكثير من الوقود لن تظهر للوجود قبل عام ١٨٦٠ .

وفي غضون ذلك تعرف السفينة الشراعية ان تدافع عن نفسها بنجاح بفضل عناية الامير كين انفسهم وتقوهم الذي عرفوا اثناء حروبهم عام ١٧٩٣ و ١٨١٤ ، ان يفيدوا الى حد بعيد ، مما لديهم من احراج وغابات كثيفة ظليلة . وزادوا ثلاثة اضعاف من حجم اسطولهم فجاءوا في المرتبة الثانية بعد انكلترا ، كما انهم راحوا يقلبون النظر في كيفية التغلب على اسطول الملك جورج من حيث السرعة واستباقه ، وذلك بتنعيم شكل السفينة دون ان يلحقوا اي ضرر او اي همن بمئاتها . وفي هذا السبيل اخذوا يبنون سفناً شراعية يزيد طولها ٦ او ٧ اضعاف عرضها ويجهزونها بعدد اكبر من الصواري يباعدون فيها بينها . وهكذا طلع علينا نوع جديد من السفن من طراز *Clipper* وهو نوع ادق قيادة لعمري وان كانت سعته دون سعة الطراز المعروف بـ *Brick* ، تسير برشاقة وسرعة ناشرة ٤٠٠٠ متر مربع من الاشرعة ، لها من الطاقة ما يساعدها على اجتياز المحيط الاطلسي من الشرق الى الغرب بـ ١١ يوماً لتعود اياً بـ ٤٠ يوماً . قبلت سرعة السفينة *Lightning* عام ١٨٥٥ نحواً من ٣٣ كلم في الساعة اي ١٨ عقدة ، وهي سرعة لن تتخطها السفينة التجارية الا بعد مرور ٢٥ سنة . والذي جعل منها بحق ملكة السفن الشراعية ورجح جانبها الى حين واولاها الافضلية على منافستها هو قدرتها على القيام بالرحلات الطويلة . الا انه بالنظر لاعمال وتهريب الافيون الى الصين في اعقاب ١٨٢٥ والاتجار الحر بالشاي الهندي بعد ان الفت انكلترا عام ١٨٣٣ ، الحكر الذي تمتعت به شركة الهند الانكليزية ، واكتشاف مناجم الذهب في كل من أستراليا وكاليفورنيا ، اوجب التمويل على سفينة الـ *Clipper* واستخدامها في هذه الرحلات الطويلة ، من كلا جانبي اميركا ، من جهة بين اميركا وآسيا ، ومن اخرى بين اوروبا نفسها والقارات الاخرى . فنذ سنة ١٨٢٦ دشنت السفينة *red rover* الاتجار بالافيون مع كالكوفا وهونغ كونغ . وفي سنة ١٨٤٥ انطلقت سفينة « قوس قزح » من نيويورك لتبلغ كنتون بعد ٩٣ يوماً . وفي سنة ١٨٤٩ قطعت السفينة الشراعية *Oriental* المسافة بين هونغ كونغ ولندن بمثل هذه المدة من الزمن . والسباق على الاتجار

بالشاي بين الشركات الانكليزية والاميركية استمر الى ان فازت انكلترا بالسبق على منافستها بعد عام ١٨٥٠ . وتمكنت السفينة *Cap hornier* من ربط شمالي الاطلسي وكاليفورنيا بثلاثة اشهر بدلاً من ستة اشهر او سبعة اشهر لتدور حول الطرف الجنوبي للعالم الجديد في طريق رجوعها من ملبورن التي تأتيا متبعة طريق الكاب ورأس الرجاء الصالح . قالفوانو والنترات المتوفر بكثرة على سواحل جبال الاندس يصل اوروبا بالطريق ذاته .

وهكذا صانت الـ *Clipper* شرف السفينة الشراعية من الهوان والاستخفاف ، فالبخار لم يكسب بعد قصب السبق . ففي عام ١٨٥٠ يبلغ حجم السفن الشراعية ١٠ ملايين طن بينما ليس منها للسفن البخارية غير ٧٥٠ الف طن . ومها يكن ، فحجم الاسطول البريطاني يتضاعف ، وسيكون تحت تصرف الاوروبيين ، عام ١٨٧٠ نحو من ١٤ مليون برميل مقابل ٣ او ٤ ملايين ، عام ١٨١٥ .

الدفع الرأسمالي والبورجوازي

« فقد اتخذوا لهم من وكالهم معبداً ومن معبديهم كرسياً للاعتراف ومن مفكرتهم قوراة ومن مستودع بضائهم مصل . فاجراس المصق تفرع عندهم السلام الملائكي ، والذهب الرثان اصبح مبرودهم ، والاعتماد المالي دينهم ودينائهم » .

(هنري هاين : رسائل من برلين)

سارت التكنولوجيا قدماً الى الامام . فهل توفر لهم حبة نسيطر عليها حاجة ملحة للنقد الاسواق التجارية ما يطمع المجتمع بتحقيقه من اهداف تسمى الوسائل التقنية الى تحقيقها . وكما حدث في القرن الثامن عشر ، عهد اشتداد الحاجة للنقد والسيولة ، نرى ان انتاج المعادن الثمينة اخذ بالهبوط ، اذ لم يعد هذا الانتاج ليتجاوز ٢٠٠٠٠٠ كيلو من الذهب قبل سنة ١٨٤٠ ، بينما ارتفع هذا الانتاج ، بين ١٨٤٠ - ١٨٥٠ الى ٥٥٠٠٠٠ كيلو ، ليسجل بين ١٨٥١ - ١٨٥٥ انتاجاً يقدر بـ ٢٠٠٠٠٠٠ كيلوغرام . وحركة ارتفاع الاسعار التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر توقفت تماماً بعد اعادة السلام واستتبابه تماماً في القارة . فاذا ما عدنا تتلمى النظر في الكشوف البيانية^(١) ونحلل ارقامها لاحظنا هبوطاً ملحوظاً يستمر حتى عام ١٨٥٠ .

رافق حركة الاستثمارات هذه نزعة الى احداث تخفيض في الاجور بعد ان توفرت في معظم البلدان ، اليد العاملة ، وهي نزعة تأرجحت بين فرض الحماية الجمركية وبين النزعة الى التوسيع

(١) راجع الكشف البياني ، من ص ٨٨ . كذلك من المستعب الرجوع الى الكشوف البيانية الاخرى المنشورة في المجلد الخامس من تاريخ الحضارات العام ، ٥٩٣ - ٥٩٥ (الطبعة العربية) .

في الحرية التجارية . فإذا كان رأس المال يدر ربحاً صافياً فلم يكن مع ذلك ليخرج من صناديقه بسهولة . ولعل خير من يرسم لنا صورة واقعية عن الوضع السائد اذ ذاك هو هذه الشخصيات التي يمثلها الاب غراندييه لبلزاك ، والبخيل في رواية « اجراس كورنفيل » ، ولا سيما شخصية مردستون وشقيقته في رواية دافيد كوبرفيلد ، ورواية السير رالف نيكلباي لديكسن ، حيث نرى غوبسك يقرض بفائدة ٥. و ١٠٠ ٪ . وعند اقفل بادرة او اشارة خطر تظهر في وضع شركة تجارية او مصرف مالي ، يتهافت الناس على المصرف ويندفعون لسحب ودائعهم . فالحلم قبل كل شيء في دنيا الاعمال ، هو تاريخ الاستحقاق وشهرة ومكانة اقوى المحلات التجارية وارسخها ، فتصبح تحت رحمة مدين لا يستطيع وفاء ديونه . ولذا كثيراً ما يلجأ ارباب المال والاعمال الى استعمال القوة والاكراه ، والسجن يؤلف عندهم سبباً مصلتاً فوق رأس الدائن العاجز بعد ان انزله الشارع منزلة السارق .

الدول : مصاعبها المالية ومشكلاتها
من الامور التي لها دلالتها في فرنسا ، بعد اعادة الملكية ورجوع الشرعية اليها ، الرغبة في عصر موازنة الدولة وتشغيلها ، على اعتبار ان كل اتفاق لا كبير مبرر له بلحق الضرر بالوضع المالي العام الذي تنسكع فيه البلاد . ففي بريطانيا العظمى نفسها ، بلغ من ضعف الثقة بالوضع المالي بحيث ان التغطية الذهبية للبنك الاهلي فيها ، عجزت مرتين عن منع الذعر يدب بين الاهلين كما عجزت عن منع حوادث افلاس بالجملة .

ومن جهة اخرى ، فالرجوع الى التعامل من جديد بالنقد المعدي كان من شأنه ان يسبب هبوطاً في الاسعار . فالسوق يرتاح الى الطمأنينة ويؤثرها على التوسع في حركة الاعمال .

فالتداول بالاسنياء ، ترك في فرنسا ذكريات مريرة استمرت طويلاً في الخواطر والاذهان . فثلثا قيمة القسيمة لم يتجاوز الالف فرنك ، والقسائم ذوات الخمسين فرنكاً ، لم تدفع قيمتها قبل ١٨٦٥ . والبنك الاهلي في روسيا فرض عليه نظام شديد ووضع تحت مراقبة شديدة من قبل الدولة البروسيانة حتى انه لم يتمتع بحق حسم السندات المالية الا في سنة ١٨٤٦ وكذلك بحق التسليف . فحكومات النمسا وروسيا واسبانيا وادارة صفار الامراء الايطاليين كلهم في عصر مالي وحاجة ملحة للنقد .

ان اجبار المصارف في الولايات المتحدة الاميركية على دفع السندات بالعملة المعدنية أثار صعوبات كثيرة بين وزارة المال وبين خصومها من كبار المزارعين في الولايات الجنوبية ، والرواد في الغرب ، و صفار الملاكين في الشرق الشبالي الذي راحوا يشكون من قداحة الضرائب ورسوم الايجارات المحددة بالعملة المعدنية . وعندما راح جاكسون ، عام ١٨٣٦ ، نزولاً عند ثورة الشعب وتحقيقاً لطالبه ، يتجاوز امتيازات البنك الاهلي ، حدثت في البلاد ازمة عنيفة امتدت عقابيلها الى جميع ارجاء اوروبا .

يحيد ستندال الملاحظة ويعبر بعمق عندما يقول : المصرف هو كبار رجال المال والحكومات رأس الدولة . فالبورجوازية حلت محل حي سان جرمين ، واصبح المصرف بالتالي بالنسبة للطبقة البورجوازية ما كانته طبقة النبلاء بالنسبة للشعب ، فقد طلعت على البلاد اوليفارشية مالية لم يعد في وسع الحكومات تجاهلها والاعضاء من شأنها ، معظم اعضاها ينتمون للطائفة الانجيلية . وقد اخذوا بشيرون الى هذه الفئة ، منذ عام ١٨١٥ ، باسم كبار رجال المال ، وانخرط في صفوفها بعض اصحاب المصارف من اليهود الالماني ، امثال هابن . وقد تمتع اصحاب هذه الاقلية بسمعة مالية قوية واخذوا يتحكمون بمصرف فرنسا الذي رأى النور تحت جناح وحماية المالي الكبير بيريفو من سكان نيوشاتل . وقام في لندن آل بيرنغ ، هذا البيت المالي الذي يعود اصله الى ابن قسيس في مدينة بريمن هو فرنسيس بيرنغ ، مدير شركة الهند والذي بدأ مسعفة لبيت في المشاريع التي نهض بها . وبعده طلع اسكندر الذي اصبح فيها بعد اللورد آشبرن الذي آل اليه الاشراف ، بين ١٨١٥ - ١٨١٨ ، على الاعمال المالية الضخمة التي جرت في هذه الفترة ، ثم دخل شريكاً مع آل هوب في امستردام وباريس . وقد تمكن احد حفدته هو اللورد نورثبروك ان يتولى مقدرات وزارة الخزانة ثم وزارة المالية . وقد تحمل افراد هذه الفئة بالفطنة والحدق وحسن الاطلاع وهي كلها من هذه الصفات التي ميزت كبار رجال المال اذ ذاك . فقد اتقنوا الى حد بعيد ، معاملات الكومسيون (الوساطة) في كل ما يتصل بشراء وبيع السفاتج والسندات المالية واسهم المعادن الثمينة لحساب الغير ، كما تمت لهم في الوقت ذاته خبرات واسعة في الاعمال التجارية الكبيرة ، كما هي حال آل ايشبورن في مدينة بريسو الذين هيمنوا على مصانع نسيج الكتان وتجارة البن ، كما ان آل هتزمان اصحاب مصانع الاصواف ، انشأوا لهم شركة للتأمين ، كما ان انطوان برليه أسس مع شقيقه كزيمير مصرفاً له ، وامتلك مصانع لتكرير السكر ومعامل للنسيج ، ومسبكاً للحديد والصب في شاير ، كذلك تعاطى تجارة غاز الانارة .

لم تسجل الاسواق المالية حتى عام ١٨٣٠ تطوراً كبيراً . فالمصافق او البورصات التي نشطت اذ ذاك ولا سيما بورصة الاسهم المالية في لندن لا تتداول بسوى قسم ضئيل من الاسهم العائدة لبعض المحلات الصناعية ، فالاعمال التي تستأثر بالانتباه والنشاط هي المعاملات العائدة للقروض التي تجريها الدول والتي كانت يرغب فيها كثيراً اصحاب رؤوس الاموال ومحوز رضاهم . فالمصارف الكبرى تلعب هنا بالفعل دور المصالح الادارية في تأمين الخدمات العامة .

لاحظ جنتز مستشار مترنيخ ورفيقه في مؤتمر فيينا ، بما له من شدة الفراسة ذرة آل روتشيلد . ان آل روتشيلد يتمتعون بفرصة مدهشة وموهبة بمنازة يتبنون معها احسن الحلول المعارضة يختارون الافضل بين حلين جيدين . . فقد كان المؤتمر المذكور فرصة طيبة عرضت امام هذه الاسرة التي كتب لها ان تبرز وتلمع من بين هذه

البيانات المالية الكبرى التي كتب لها ان تلعب بمقدرات الدول في القرن التاسع عشر .

يعود اصل هذه الاسرة البعيد الى الطائفة الاسرائيلية في مدينة فرانكفورت حيث كانت جدتها الاول أمشل - ماير يتعاطى بنجاح ، اعمال الصرافة ويدرر بكل جدارة اعمال منتخب هس كامل ومصالحه المديدة . وقد رزقه الله خمسة اولاد عرفوا بـ « سادة فرانكفورت الخمسة » ، تسلم اكبرهم المدعو أمشل ادارة اعمالهم في فرانكفورت بينما استقر اخوه سلومون في فيينا واتجه اخوهم الثالث ثاثان ، وهو اكفؤم وألبقهم الى لندن ، بينما توجه جاكوب او جيمس الى باريس ، واتخذ اصغرهم كارل مقراً له في نابولي . واعتاد هؤلاء الاخوة ان يعقدوا - كل سنة في المدينة الامبراطورية الحرة ، اجتماعاً لهم يستعرضون فيه سير العمل في محلاتهم على ضوء بيانات وكشوف دقيقة ، ودراسة الاوضاع العارضة . وسواء أصبحت عملية مضاربة مالية ضخمة قاموا بها بمناسبة معركة واترلو التاريخية ام كذبت ، فقد كرست هذه العملية شهرتهم وجعلتهم اشد اطلاعاً على بواطن الامور وخفاياها ، من رؤساء الدول وملوكها . فقد أصبح آل روتشيلد المولدين الاوائل لدول الحلف وشركائهم . ويقوم سر النجاح الذي اصابوه ، بتأمينهم نقل مبالغ ضخمة قد تكون صورية او وهمية ، بين انكلترا وشركائهم ، في ظروف صعبة ، خطيرة من الحرب القائمة ، في وقت كان نقل مبالغ ضخمة من المال لمسافات بعيدة ، محفوفاً بالاعطال . قاتخذوا لهم شعاراً ان دل على شيء فعلى ما جاشت به نفوسهم من اعتداد وطموح بعيد وهو شار تألف من الكلمات الثلاث اي : إتفاق ، مهارة ، نزاهة .

وهكذا لم يبق في وسع الملوك الاستغناء عن خدماتهم . ومعظم عمليات القروض الكبرى التي وقعت بعد عام ١٨٢٠ تمت على ايديهم وبواسطتهم . وكافأهم الامبراطور فرنسوا باعطائهم لقب بارون . ولما كان من المهم جداً لديهم ان يسود الامن بين الدول والشعوب بحيث ينصرفون هم لاعمالهم التجارية والمالية بطمأنينة ، فقد حرصوا جهدهم على تأمين اسباب التفاهم بين الملوك والامراء . ففي الوقت الذي كانوا فيه يُتهمون بتحسين وضع ابناء ملتهم في العقيدة والدين الذين كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهادات ، فقد راحوا يعملون على توطيد اسباب النظام بعد ان عاد السلام الى اوروبا . وكيف لا تقلق خواطرم وتجزع نفوسهم على فرواتهم الطائفة بعد ان اصبحت اسطورية ومضرب الامثال بين الناس ؟ فقد راحوا يستثمرون اموالهم في مشروعات عديدة على شاكلة آل فوجرز قديماً . فقد حازوا على مناجم الزئبق في ادريا كما راح ثاثان يعمل لتأمين سيطرته على مناجم ألمادبن في الوقت الذي كان فيه سلومون الذي يسيطر على مناجم واقران فنكوفتش للصب يعمل على تأسيس شركة لويد النمساوية للسفار البحرية . كذلك عنوا بتجارة الشاي والتبغ . وامتلكوا لهم اماكن للراحة والاستجمام والترفيه عن النفس ، وابتنوا لهم دارات وقصوراً جميلة يقيمون فيها الحفلات الواسعة ويستقبلون عليه القوم بكل مظاهر البذخ والأبهة . وقد عرف ثاثان وابنه ليونيل ان يتفلا في صميم الارستوقراطية البريطانية ، بحيث راحت مدينة لندن تنتخب عام ١٨٤٧ ليونيل ممثلاً لها في مجلس العموم . إلا انه لم يتمكن

من القيام بالمهمة الملقاة عليه والمشاركة بأعمال المجلس . واعادت البلدية انتخابه من جديد عام ١٨٥٨ ، وجرى تعديل نص القسم لاجله ليتمكن من القيام بواجباته كمضو في المجلس . وكارل الذي اصبحت شخصاً مرغوباً به في نابولي ، عرف ان يكسب ثقة الادارة البابوية . فقد قدم له البابا يده ليقبلها وعلق على صدره الاوسمة البابوية . اما جيمس البارون الذي كان اصعب الشعر ، احمر الوجه والذي كان يتكلم الفرنسية بلهجة المانية ظاهرة ويقع من الالام والمآدب السخية ما يدهش الناس لما فيها من بذخ واسراف ، فقد راق له ان يلعب دور نصير الادب والادباء والفنانين . فقد اخذ على عهده موازنة ميربير - كما اخذ تحت جناح حمايته برليوز وهابن ، وسلف بلزاك ما يحتاج اليه من مال بعد ان قدم له مؤلفاته واخذ يجمع الآثار الفنية .

ومع انه دخل في خدمة آل روتشيلد صحفيون آمنوا لهم كل اسباب الدعاوة وعضدوا مشاريعهم - من ذلك انهم عرفوا كيف يصطنعون جنائز ويؤمنون مواليتهم - فالنجاح الذي حققوه لم يؤلف مع ذلك تياراً موالياً للسامية . كان آل روتشيلد مضرب الامثال في الفنى والثراء اذ كانوا يقولون : هو في غنى روتشيلد ، قول يردده الناس بشيء من الاعجاب الذي يشوبه الحسد أو الفيرة فقد تضرعت عام ١٨٣٠ ، حياتهم للخطر . وفي سنة ١٨٤٨ اضرت النيران في قصرهم الصغير في غابة فنسين على مقربة من باريس كما ان سلومون اضطر للنجاة بنفسه والهرب من قصره الواقع في فيينا بعد ان هاجمه الثوار . وكان باستطاعة توسيل وهو من القائلين بمذهب فورييه الفلسفية ان يصرح عام ١٨٤٤ وان يكتب وينشر عام ١٨٤٧ ، رسالة بعنوان : « اليهود هم ملوك العصر » جاء فيها قوله : « ما من احد يعترف ويقدّر اكثر مني ، ما للامة اليهودية ، من عبقرية وموهبة عالية . فليس من ملك في فرنسا غير اليهود . فاليهودي هو الذي يملك عندنا ويحكم . فاليهودي الانكليزي والهولندي والجنيفي يؤلف اليوم اسباط اسرائيل الاربعة ، اسرائيل الذي يدهي انه شعب الله المختار ، هذا الشعب الضاري ، المفترس الذي يعيش على الخطف والربا الفاحش ، والذي ينهش في جسم البشرية نهش النور للجيوف » .

ارستوقراطية المال الخدرة هذه ، تهزها الى الاعماق نظرية السان سيمونية
الشعور بالحاجة الى توزيع
التي راحت تطالب بتوزيع أفضل للثروة بين الناس . والحال ، فالتجارة
احسن في الشورة
والصناعة لا تزدهران إلا ضمن تسهيلات خاصة تؤمن لها النجاح في
عمليات الحسم والتسليف .

وقد جاء فريداً في باب اقدم البلاد الواطية على تأسيس الشركة العامة لتشجيع الصناعة الوطنية بحيث يمكن اعتبار هذه الشركة أول مصرف نشأ في القارة لتشجيع الاعمال المالية . فقد اصبحت مشروعات لافيت في فرنسا بالفشل ، فجاءت محاولاته هذه نذيراً بطولع محاولات بيرار في عهد الامبراطورية الثانية .

وهذا النهج الجديد في الاعمال المصرفية لقي قبولاً في انكلترا التي اصدرت قانوناً خاصاً

يلتجع انشاء شركات مساهمة للقطع ادارتها مشتركة بين رجال الصناعة والتجارة ، مهمتها تسهيل وتيسير الاعمال التجارية الكبرى . وسيمضي وقت طويل قبل ان تتمكن هذه الشركات من القضاء على ما اكتنف اعمالها ونشاطاتها الاولى من التشكيك والظننة .

فالشركات المعروفة بـ *Commandite* او شركات التوصية المساهمة هي في طريقها للظهور ، في ظروف اكثر ملاءمة تتيح لها الازدهار ، مفسحة الطريق امام الشركات المغفلة التي تمثل طرازاً او طوراً جديداً من اطوار ازدهار رأس المال ، وهي شركات توقع طلوعها بعد حين بمض بعيد في النظر في الشؤون المالية .

كان المالي الفرنسي نيكرو يعلق اهمية كبرى على هذه القوة محالة سيطرة رأس المال على الرأي العام . الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة
الجديدة الطالعة التي كان يحلو له ان يسميها « الملك المجهول »
الرأي العام . فقد استقر في روع الجميع ان المطبوعة ، على اختلاف لبوسها ، ولا سيما الصحيفة الدورية هي التي تساعد على خلق هذا الرأي العام وتكوينه . فاذا ما اخضعت الحكومة الصحيفة للتمتعة والكفالة المالية استطاعت ان تؤثر عليها وان تخضعها لحضانة رأس المال وكفالاته . ويلاحظ مونتلمبير بكثير من الحذق والبصيرة ، وقد كان من كبار الصحفيين في زمانه ، ان الدولة تجهل كيف تربح المعارك بدون التضحية بمجنودها ولا تعرف ان تؤمن نشر الجرائد في البلاد دون ان تبذل فلوسها . ولذا كان عدد الدوريات قليلاً ومحدوداً ، كما انها كانت تسحب اعداداً محدودة تكلفها غالباً . فالتناس كانوا اذ ذاك يذهبون للمقاهي لقراءة الجريدة ، ولذا أخذت هذه المقاهي تشترك بالجرائد اجتذاباً منها لزبائن جدد . فالرأي العام كان متمطشاً للاطلاع والمعرفة .

لا شك قط في ان الطابعة الميكانيكية كانت خير وسيلة وأفضل اداة في يد جون ولتر ، مدير جريدة التيمس ، اتاحت له عملية تضعيف النسخ بسرعة اكبر . ولما تبين لهذا الرائد ، على ضوء الاختبار ، بان البريد بطيء جداً في حركاته وتنقلاته بحيث لا يفي بالفرض ، فقد خطر له ان ينشئ مراسلين . فأنشأ في هذا السبيل ادارة خاصة ادخل عليها البحار توماس فلتشر وغهورن تحسينات جمة عرفت عندهم بالبريد القاري أو « بريد الهند » . وأخذت تظهر اذ ذاك وكالات للاخبار لم تلبث ان اتسعت شبكتها وامتدت في جميع الانحاء ، غابنها جمع الاخبار والانباء . انشئت اولى هذه الوكالات عام ١٨٣٥ بناء على اقتراح تقدم به شارل هافاس الذي ربط بين باريس ولندن وبروكسل ، بشبكة من المواصلات السريعة مستخدماً لها حمام الزاجل ثم الخط الحديدي واخيراً التلغراف البرقي . . وحذا حذوه في هذا المضمار رويتر احد مستخدميهم وكذلك وولف ، هذا في برلين وذاك في لندن . وفي الوقت ذاته راوحا يكثر من الاعلات بقصد الدعاية بحيث احتل قسم الاعلان في جريدة التيمس ، كل يوم ، ٦٠ حقلاً أو عموداً ، وهكذا اطل علينا الاعلان الصحفي والنبا التجاري . فهنا يكمن على ما نرى ،

سر الصحيفة الرخيصة . واخذت التيسر تنشر كل يوم مئات الاعلانات التجارية الدقيقة ، وبذلك غطت النفقات الباهظة التي تتكبدها في سبيل جمع الانباء وتأمين الاخبار الجديدة المشوقة ، ودفع أجور المقالات العلمية والادبية التي كانت تستكتبها بعض الاقلام الشهيرة التي تتابع نشرها . وفي اميركا اخذ بنجمين داي يبيس جريده بسعر سنتين للمدد الواحد ، مشتباً الاعلانات التجارية بين الاخبار المشوقة . وراح غوردون بنيت يصدر جريدة المورنسنغ هيرالد التي عينت مراسلين لها في الخارج يمدونها بالاخبار ، مشددة على الحوادث المختلفة التي تثير الاهتمام .

وبعد ذلك بقليل اطل اميل دوجاردن وتمكن ، بعد محاولات شتى ، من اصدار جريدة يومية جمل اشترائها السنوي ٤٠ فرنكاً بدلاً من ٨٠ ، وهكذا ظهرت جريدة « الصحافة » كما ظهرت في الحين ذاته جريدة « الجيل » بمساعدة أحد الممولين يدعى دوتاك ، فامتسع على دوجاردن التفاهم وبالتالي التعاون معه . فاذا كان الفضل في رواجها يعود أصلاً للاعلان والدعاوة فقد كان من نشرها الروايات المسلسلة المشوقة اثره البعيد في الترويج لها . وبعد النقد الذي قوبل به النهج الجديد من جانب بعض الكتاب ، أخذ بعض حملة الاقلام الذين يتمتعون بشهرة واسعة امثال بلزاك وجورج صاند يساهمون في التحرير . وراح الكسندر دوماس واوجين سويؤمنان لها شهرة واسعة . وازدادت جريدة *Débats* انتشاراً بين الناس وبيعاً بنشرها سلسلة رواية « اسرار باريس » ، كما راحت جريدة الدستور تنشر على الطريقة ذاتها رواية اليهودي التائه ، وبذلك عولت الجريدة اكثر فاكثرت على الاعلان وزادت انتشاراً وأمنت بالتالي ارباحاً كبيرة . ووقعت جريدة الديبا والدستور اتفاقاً مع الشركة العامة للاعلان ، هذه الشركة التي ألفها بعض أتباع سان سيمون ، امثال دو فريبه وبيراير واراس - دو فور .

وراح بلزاك يضع على لسان احد شخوص رواياته ، بشيء من الغلو هذا الكلام : « كل الجرائد جبانة ، مداحية ، وكاذبة ، لا اخلاق لها ، سفاكة . فهي مقتسلة الافكار والنظريات والناس وبذلك نجحها وازدهارها » .

فلاستثمارات الفردية والعائلية تشكل النظام المسيطر الآن . فنحن في بين تجار وصناع عصر المسؤولية غير المحددة وفقاً للقوانين المعمول بها . فالمشروعات هي في الغالب بنت المبادرة الشخصية الجريئة ولذا تعرضت لمخاطر كثيرة .

فنظام التاجر الصناعي لا يزال هو المعمول به الآن على الغالب . فالتاجر يبيع السلع التي تخرج من مصنعه ويتصرف على هواه بما يتوفر له من رؤوس الأموال ، وهو مطلع على متطلبات الاسواق ومستلزماتها ويؤمن بنفسه المواد الأولية ليد عاملة متوفرة ، عرفت بمهارتها اليدوية تتمتع بما تم له من صنعة ، بتقدير الجميع واحترامهم .. وقد لوحظ جيداً ان هذا النظام العائلي استمر الأخذ به والنهج على منواله في صناعة الحياكة . فالجائلك العامل في منزله أو بيته سيصمد

طويلاً في وجه مزاحمة المعمل له بالرغم من البؤس والشح والتقتير الذي يزرع تحته . والمشفل العائلي ، سيصمد هو الآخر في وجه المصنع حيث العمل اخذ يتجه نحو المركزية . ولعمل خير مثل نضربه على هذا النمط من النشاط الذي يجعل الصناعة مرتبطة بالتجارة تابعة لها ، هو المصنع الليوني (في مدينة ليون) اذ يبدو لنا صاحب المصنع تاجراً أو من كبار التجار احياناً ، يزرع النشاطات في مصنعه ويقتنيها بين معلمي الكار ورؤساء الورش يحري عليهم الرزق والمرقات كلاً بحسب درجته من الفن والصنعة والتقنية . والنشاطات التي يضطر للتخلي عنها هذا النظام الصناعي العائلي هي التي تتمثل في الحياكة والنساجة . إلا أنه يبقى محتفظاً بالنشاطات التكميلية كصنع الملابس التحتانية والقبعات وما أشبه . وسيعرف هذا النشاط في الصناعة باسم « النظام المرق » .

ومع ذلك فقد برز في المجال التجاري نشاطات جديدة كتجارة الفرادي او الفرق وتجارة الجملة التي جاءت وسطاً بين الصناعة والتاجر الصغير وهكذا أطلقت علينا بيوتات تجارية كبيرة تعنى بالاستيراد او بالتصدير . وفئة الوسطاء والملاء زادت كثيراً من نشاط الحركة التجارية . كذلك ظهر للوجود « العميل الرحالة » . فها هو كويدين يقطع كل يوم ٤٠ كيلومتراً يعمل في سني حدائته عميلاً في صناعة الموسلين ، وقسمات هذا العميل خلدها بلزك في الصورة التي وضعها « لنوديسار » : « اشهور » .

فاذا ما طمحت التجارة بالجملة لتوفير السلع والبضائع لاصحاب الدكاكين والباعة بالفرق ، فقد أخذ الدكان والاعمال التي تتم فيه يرتدي طابع محل تجاري له شأنه . فقد زالت من الوجود معالم تاجر الفرادي الصغير والدكان المتواضع الحقير أمام ما اصطالحوا على تسميته بالمخزن الكبير ، هذا الطراز الجديد من المحلات التجارية التي تعمل على إرضاء زبائنهم وتلبية رغائبهم وفقاً لامتزجتهم وأهوائهم . فمن الرواد في هذا المجال نرى في باريس البقال باريسو الذي حذا لابليل جاردنيير وتخصص ببيع ملابس النساء الداخلية ، ثم اعتزل العمل في وقت مبكر بعد أن جمع ثروة لا تقل عن ٣ ملايين . والسعي وراء « الجديد » والرغبة في حيازته ، ساعد على ظهور مخازن كبيرة ، منها مثلاً المحل التجاري المعروف بـ (*Les Deux Magots*) ، ومخزن (*Le Bonhomme Richard*) والمخزن المعروف بـ (*Les Trois Quartiers*) . وقد رأت الجريدة الهزلية شاريفاري في هذا الطراز من المحلات التجارية ، ما أطلقت عليه اسم المخازن العملاقة وراحت تعطي عنها بصورة هزلية رسوماً وصوراً معقدة . وبتمتصه ببيع المصنوعات من الجلس الممتاز ، وباحترامه الوزن الدقيق الى اقصى حد استطاع البقال بونرو أن يحقق له شهرة واسعة في هذا المجال ، جاء ينافسه ايها فيا بعد صاحب محلات بوتين الذي باشر بإنشاء مراكز فرعية للتموين في الملحقات .

عاد عدد كبير من اصحاب المصانع لابناء طبقة النبلاء . فأبناء هذه الطبقة في انكلترا

يؤمنون على عدد كبير من المؤسسات الصناعية . وعلى هذا فسن أيضاً في بروسيا إنشاء طبقة (Junkertum) . وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تطوير ما يعرف بنظام القبارك . ففي معظم الحالات نحن أمام عامل يدوي متواضع يستثمر لحسابه الخاص طريقة جديدة استحدثها ، أو اختراعاً اكتشفه ، وتحت تصرفه المال اللازم لاستثماره بأشراف أو اشراك أحد أرباب المال . فيها هو سلفه ينعون يتعاون معه الكويكر بيازالري المقيم في ارلنغن ؛ وما هو ماسون صانع الريش والاقلام في منشستر يستثمر الاختراعات التي تمت على يد الكنفن في عمليات التفضيض والتذهيب . وصنع وليم كوكريل لحساب سيمونيس وبيولييه في فرفيه ، آلات الحلاجة والحياكة التي شوهدت لأول مرة على القارة . واطاف احد اولاده المدعو جون الى مصانعه العديدة في سيرانغ حوالي عشرين معملًا وزعها على بلجيكا وفرنسا والمانيا وبولونيا . ووجين شيدر ، حفيد أحد القواد من تلاميذ الفوج الاول الذي تخرج من مدرسة الفنون العليا (البولتكنيك) كان رقيق الحال لما دُعي لاستلام ادارة مسابك بازاي الواقعة على مقربة من سيدان ، واستطاع مع شقيقه أدولف أن يبعث النشاط في معامل كروزو بعد أن أصيبت بالحدود . وقد عملا فيما بعد في مصرف سيار الذي كان شريك قوصية في شركة شيدر وشركاه . وتمكن فرنسوا وندل من اعادة النشاط الى معامل ديانج ، وذلك بفضل مؤازرة أحد الطرفين في ميلبورز وتطبيق الطريقة الانكليزية في عملية تسويق الحديد . كذلك كانوا مهندسين آل موني ودوريان وتالابو الذين استعانوا بالاموال الموضوعة تحت تصرفهم لاستثمار ثقافتهم الفنية .

نحن هنا أمام معين لا ينضب من أرباب الصناعة عرفوا بنشاطهم وجهادهم وكفاحهم في مواجهة مسؤولياتهم الواعية . وهذا المصنع الموجود في محيط ريفي يؤلف مؤسسة مفققة على نفسها . فهي ملك سيدها ورئيسها ، يوجهها كما يوجه عقاراً بديره على هواه ، لا تترك ابويته للسلطات العامة أي باب لتتدخل في اموره الا فيما يتعلق بالحفاظة على النظام والامن الداخليين وضبط العامل ، وذلك بما لها من أسوار عالية هي أشبه ما يكون بسجن يبرز كقلمة تسيطر عليها الاقطاعية الصناعية .

الاقتصاد : تطوره ومشكلاته
حماية الصناعة
بالمعنى : المتبع ، فقد استمر الانتاج وحركة المبادلات التجارية في نموها
بالرغم من التغييرات التي طرأت على النظام السياسي والنهج
الصاعد .

فالانتاج تضاعف على الاجمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ . ففي انكلترا وحدها زاد انتاجها من الحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل ، كما زاد انتاجها من الفحم أربعة أضعاف عما كان عليه عام ١٧٨٩ . وزاد انتاج فرنسا من الفحم والصب والحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٨١٥ . ونلاحظ حدوث مثل هذه الزيادة لدى كل من بروسيا وروسيا . أما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالتطور الذي تم عندها خلال هذه الحقبة هو جدير بكل

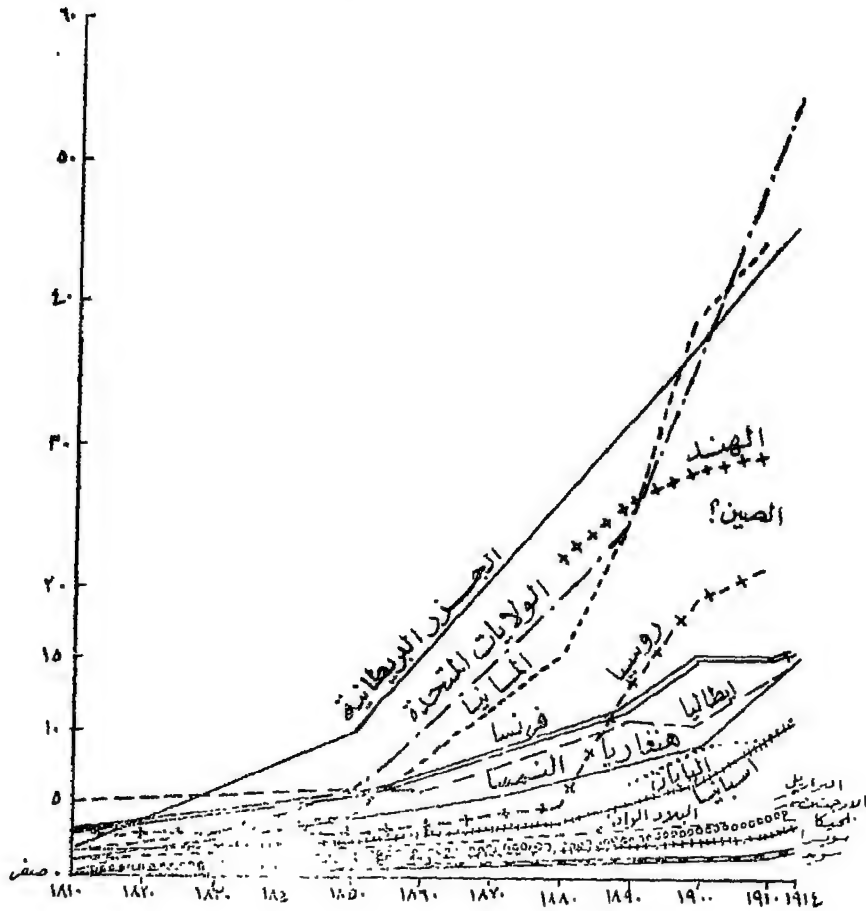
اهتمام وتقدير . فقد زاد انتاج الفحم عندها عشرة أضعاف ، كما ان انتاجها من الحديد زاد ١٢ ضعفاً . وقطاع النسيج الذي يأتي في طليعة القطاعات الاخرى في تلك البلاد بنشاطه ، زاد بالنسبة ذاتها .

ومع هذا ، فالتقدم يبدو أدنى مما حققه القرن الثامن عشر في هذا المضمار ، ومن التطور الذي تم فيها بعد . فقد تطورت الحركة التجارية في الدول الغربية ٤٠٠٪ بين ١٧١٧ و ١٧٥٠ بينما تطور هذه الحركة بين ١٨١٥ - ١٨٥٠ لا يتعدى قط ١٥٠٪ . والسبب في ذلك هو ان الاستهلاك لم يتطور بسرعة أكبر . فالسوق الريفية ، وهي عنصر هام في الموضوع ، لها قدرة محدودة على الشراء في وقت لم تكن الطاقة الانتاجية فيه كافية لتلبية الطلب . اما العمال أو الشغيلة فهم في وضع زري ، على الاجمال . فرب العمل يتشدد كثيراً تجاههم مع أن الوضع المسيطر اذ ذاك لم يكن ليخلو من مخاطر تهدده . فالعالم الرأسمالي يعاني أزمت عديده ليس ريفية فحسب بل أيضاً يشكو انكماش الاسواق المالية .

ومها بلغ من تفاؤل علماء الاقتصاد الاحرار من تلاميذ آدم سميث ، فلا يمكن تجاهل الصعوبات الكامنة . فقد نفى الاقتصادي الاميركي جون ستوارت مل عام ١٨٤٨ : « الركود الشامل الذي يعاني منه الوضع » . وقد سبق لسيمونندي فصرح : « بأن هذا هو الوضع نفسه في كل الازمنة » ، وأن الازمة هي نتيجة محتومة لهذا التطور الذي بلغه الرأسمال الاقتصادي ، هذا النشاط من الاقتصاد الذي شجبه المدرسة التي تطالب بنظام عُرف فيما بعد بالنظام الاشتراكي .

ولذا راحت المصالح الكبرى تتجه بأنظارها نحو الدولة . وفي هذا السبيل أصدرت انكلترا بعد عام ١٨١٥ ، قوانين الجبوت تسييجاً منها حول ما يعرف عندهم (*The Landed interest*) محافظة منها على ريع الأرض والدخل العقاري . أما في فرنسا فالتحالف القائم بين البورجوازية وبين كبار الملاكين حل الحكومة على اتخاذ سياسة حماية شديدة . وفي الولايات المتحدة الاميركية ، لا يتطور النظام المعروف بـ (*Factory System*) الا في ظل تعريفات حماية تفرض رسوماً عالية . وعلماء الاقتصاد في بروسيا الذين وضعوا الاتحاد المجركي المعروف *Zollverein* ، انما رمسوا من وراء تشكيكه الى ايجاد سوق وطنية تشبهاً برجال عام ١٧٨٩ . وبما له من مغزى خاص ، الموقف الذي وقفه لست الذي راح يضع عام ١٨٢٧ ، بعد أن تبين نظام الحماية ، الذي تعيش فيه الولايات المتحدة في ظله ، وهو نظام شمل قارة بأسرها ، كتابه المعنون : « محاولة اقامة نظام اقتصادي سياسي جديد » تدليلاً على حسناته لمجموعة من الولايات تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها . ان مثل هذا النظام الاقتصادي الوطني هو سليل هذه الروح التجارية التي جاشت بها نفوس الملوك والامراء ، هذه الروح التي جرى التعبير عنها عام ١٨٤١ ، خير تعبير ، في الكتاب الموسوم : « النظام الاقتصادي الوطني » وقد راق الكتاب في عيني الامبراطور نقولا الاول فأمر بنقله مع الكتاب السالف الذكر الى الروسية .

هذه السياسة القطرية او الانانية القائمة على الحماية الجمركية
التجارة الحرة وتطورها السياسي كانت قسيء في الصميم الى الرأسمالية الفتية التي تنبض
بالتفاؤل . ولما كان تلاميذ آدم سمث منطقيين مع انفسهم توجب عليهم التسليم بقانون توزع
العمل بحيث يشمل العالم اجمع . ان معاهدة ايدن - رينفال الموقعة عام ١٧٨٦ ، تركت وراءها



الشكل ٢ - عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المائة الم
(وفقاً لإحصاء بيرر العام المتفق)

في فرنسا ذكريات مريرة . فقد رأى فيها كل الذين قالوا بان القلق الذي يشعر به العالم لا يمكن
التغلب عليه لعدم تمتع التجارة بسياسة حرة واسعة ، درساً مفيداً وعبرة لمن يمتدبر . فقد اخذت
انكلترا الخطوة الاولى في هذا المجال ، انكلترا التي كانت اول من عانى من نتائج سياسة
الحماية الجمركية . فاصحاب المصانع من التجار في تلك الجزيرة ، ايقنوا صادقين بانهم يسيطرون

البلاد الى سياسة تؤدي الى رفع اسعار الحيز والى الاضطرابات الاجتماعية فيها . فقد وقعوا الى جانب انصار بيل وهسكنس اللذين عملا على التخفيف من تأثير قانون الملاحة واجازا للجانب الاتجار مع المستعمرات على شرط المعاملة بالمثل ، وحولا حظر الحبوب الى مراقبة متحركة الدرجات تشبها منها بالقانون الفرنسي . واخذ كويدين وسكان منشستر بشن حملة شديدة ادت بالبلاد الى انتهاج سياسة تؤمن حرية التجارة والتخفيف من الرسوم الجمركية ، وهو تصرف لم يلبث ان انتقلت عدواه الى بلدان اخرى ونهجوا نهجه في الخارج .

هذا لا يعني قط ان حرية التجارة ربحت القضية وكتب لها النصر ، ومثل هذا الأمر لن يتحقق ابداً بصورة كاملة . وعندما نشر بستيلا ، عام ١٨٥٠ كتابه المعنون : « المؤتلفات الاقتصادية » الذي نادى فيه بسياسة حرية التجارة المطلقة ، راح العالم الاقتصادي الاميركي كاري يصدر ، هو الآخر كتابه الموسوم : « انسجام المصالح » ويطالب على طريقة ليست بتضامن القوى الانتاجية القائمة في بلد واحد . فدنيا الاعمال تتحرك دوماً بين طريقتين او مذهبين تضمن لها احدهما الطمأنينة المؤقتة بينما تفتح الاخرى امامها منافذ جديدة وانطلاقات اوسع .

مدن الامس ومدن الغد
ففي نظام اقتصادي من هذا النوع ، المدينة هي التي لها الكلمة القطع والرأي الاول . من الطبيعي ان تطورها السريع مربوط الى حد بعيد بالسياسة الاقتصادية التي تنتهجها البلاد . فالتطور الذي عرفته الوظيفة التجارية والمركزية الصناعية الى حد ما ، عاد على المدينة بفوائد جزيلة عادت عليها بالخير دون ان نسقط مسن حسابنا التقدم الذي لا يمكن تجاهله والذي اصاب المصالح العامة وتناول المهن الحرة . الا ان حركة التكييف فيها جاءت على غير ما يرام . فقد بقي مظهرها الخارجي على ما عهدناه من قبل والملامح الجديدة التي اقتبستها تمت لها بسرعة وبشكل تعوزه اللياقة والبراعة .

ايانا ، مع ذلك ، والظن بسيطرة المدينة . فالنمو الذي حققته المدينة في انكلترا حري بكل تقدير واهتمام . هنالك في انكلترا ، بقطع النظر عن المدن السبع - باستثناء لندن - التي تجاوز عدد السكان في كل منها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، ١٨ مدينة أخرى بدلاً من سبع ، تجاوز عدد السكان في كل واحدة منها ٥٠,٠٠٠ ، فالعاصمة قفز عدد سكانها من ٩٨٨,٠٠٠ الى ٢,٢٦٣,٠٠٠ نسمة . وغلاسكو من ٧٧,٠٠٠ الى ٣٢٩,٠٠٠ نسمة . وبرمنغهام من ٧١,٠٠٠ الى ٢٣٢,٠٠٠ نسمة . ومنشستر وضاحيتها سالفورد من ٩٥,٠٠٠ الى ٤٠١,٠٠٠ نسمة . أما في الولايات المتحدة فقد قفز عدد سكان مدينة نيويورك من ٨٠,٠٠٠ الى ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا من ٤٠,٠٠٠ الى ١٢٠,٠٠٠ نسمة ، بينما مدينة اورليانز الجديدة وسنستاتي وبوسطن وبلطيمور لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠,٠٠٠ نسمة . أما البر الاوروي ، فالنمو المدني ليس فيه ما يصدم الحواس اذ أن هذا النمو اقتصر على المواسم دون سواها بينما لا تتطور روما وبعض المراكز الصناعية سوى القليل . فباريس التي تضاعف عدد سكانها اذ انه قفز من ٥٤٨,٠٠٠ الى

١٦٠٥٣٠٠٠ ، تأتي بعيداً في الطليعة . فالمدينة التي يتراوح عدد سكانها اجمالاً بين عشرة آلاف وثلاثين ألفاً تتوفر لها النسبة التي تلائم مثل هذا المجتمع البشري كما تتفق ووسائل الانتقال والتنقل الرئيسية التي تنعم بها وهي السير على الاقدام .

أما من حيث النشاط التجاري والصناعي فلم يأت بأي إثر ملحوظ للتطور . فالحياة في المدينة هي استمرار في وثيرة واحدة واطار واحد يتسم بالجمود الملازم لطابعه القديم . وعلى هذا تبدت المدن الاسبانية لتيوفيل غوتيه ساحرة فاقنسة لا تتحرك . فمدينة بورغوس الفخورة حيث الصعلوك يتدفق بمباهته بوقار بحيث تحاله امبراطوراً متجلبباً بالارجوان، ومدينة فالادوليه « التي بإمكانها أن تستوعب ٢٠٠،٠٠٠ نسمة ، لا تعد غير ٢٠،٠٠٠ نسمة ، فتبدو نظيفة ، هادئة ، جميلة تبشرنا طوالها بقرب الشرق . ومدير يد نفسها ببيوتها المبنية من روافد الخشب والقرميد أو من قوالب الشيد ، ومدينة طليطلة حيث المنازل لها مظاهر الدير والسجن والحصن وأحياناً الحرم ، بعد أن تعرف أن الاسلام مر من هنا ، وغرناطة التي تبدو موزعة بين الطراز العربي والطراز الغوطي ، حيث « قباب الكنائس قواكب مآذن الجوامع » ، بينما تبدو قرطبة اكثر طابعاً افريقياً من أي بلد آخر في الاندلس كلها . ففي هذه الرحلة يقوم بها غوتيه عام ١٨٤٠ الى الاندلس لا نرى فيها شيئاً ينبئ من قريب أو بعيد بطابع القرن التاسع عشر البورجوازي والعمالي .

فالمدينة القديمة تحشر نفسها داخل اسوار نصف متهمة تتراكم فيها الحوانيت والدكاكين كما تتراكم منازل السكن فيها بعضاً فوق بعض . فهي تستوعب من السكان اقصى ما تستطيع استيعابه ، ولم يوضع لها أية خطة أو تخطيط ينظم امتدادها وتوسعها في المستقبل . والحد الفاصل بين المدينة والريف يرفرف فوق قرية أودسكرة برزت من الارض استجابة لمقتضيات النقل . فمدن برمنهمام ومنشستر وليفربول تثير الدهش في نفس المسافر بعد أن يرى كيف أن نواتها القديمة توارت بين ما نشأ فيها من أرباض وضواح واسعة لم تلبث أن غلبت عليها الجدة بما تم لها من اتساع وبما توفر فيها من خدمات تؤمنها مؤسسات مدنية ، كما يشهد ميشليه على ذلك : فالطريق بين روشدايل وليفربول أصبحت كناية عن شارع طويل تقوم على جوانبه بيوت ومساكن تتعادل ارتفاعاً وعرضاً ولوناً . وهذا المآثل أو التشاكل لا يلبث أن يبعث في النفس السأم والملل . « بينما مدينة ليدس ، اكبر مدن النسيج في انكلترا تفتشر بشكل مدرج المرتفعات المظلة على النهر كأنها تزهد في السهل لا تنزل اليه الا لماماً ، فتبدو وكأنها فقير لخل وقد ارتفعت مداخنها الضخمة في الجو أشبه ما تكون بسملات فرعونية تنفث دخانها الاسود فينعمد قباباً قائماً يغطي كاتدرائيتها » .

فانكلترا هي البلد الوحيد في اوروبا تقريباً حيث نرى المساكن في لندن وفي بعض المدن الصناعية مبنية بالقرميد ومن طراز ال Cottage ، ينبئك منظرها الخارجي عن طلوع العصر

الصناعي في البلاد. والمعامل لا تقوم في الريف بل بالقرب من الاحياء القديمة على الغالب، وأحياناً تختلط بها، كلما قام في احيائها مساحات تتسع لبناء المصنع أو المشغل، كما انه من مصلحة الدكاكين والمخازن أن تقوم في حركة المرور. ومن بعض نتائج هذا الوضع أن البورجوازية وأبناء طبقة الشعب يبقون على مقربة بعضهم من البعض. فلا يتمتعون كثيراً عن أماكن عملهم، مع العلم أن هذا التمرکز يجد فقراء الحال بينهم على السكنى في مأو واكواخ يكاد لا ينفذ الى داخلها الهواء ولا النور. ومع ذلك فمن النادر جداً أن تخلو مدينة ما من احياء جميلة فخمة المباني يبدو على ساكنيها الثراء، درجوا على اعدادها وتبثتها منذ أواخر الاجيال الوسطى أو بفضل هبات أو وقوفات تعود الى القرن الثامن عشر؛ إذ أن جانباً من البورجوازية الثرية والارستوقراطية تسكن قصوراً خاصة بها أقيمت لهم على جنبات الشوارع الرئيسية، حولها ساحات واسعة مسورة يتألف من مجموعها احياء وحارات رتيبة، تكشف بمظهرها هذه الفوضى والضوضاء المخيمة على الاحياء الشعبية، وعلى الاحياء التجارية. وقد تكاثرت عدد الاثرياء الذين راحوا يبنون لهم منازل كبيرة تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاه. ومع ذلك هنالك نزعاً تبدو في انكسرت أشد منها في أي بلد آخر على القارة، الى اقامة مبان سكنية للاستثمار، لم تلبث أن تصبح الطابع الذي يميز المدن الحديثة.

فقد جمعت لندن بين حي المدينة، محور رجال المال والاعمال، وبين حي وستمنستر بحي تجاري يعج بالنشاط ووسعت مرفأها وأرصفتها الى ما وراء جسر البرج وغطت السهل المترامي أمامها بالوف المنازل المائلة شكلاً كما شغلت مساحات واسعة من الريف.

أما باريس فبالرغم من أن المزارعين أقاموا حولها نطاقاً من المزارع والبساتين قبل أن ترتفع في ضواحيها التعصينات العسكرية التي أمر الرئيس تيير بإقامتها فلا تزال مدينة سحر وقتنة، مقصد كل من لم يرها، واليها تنبج الانظار، تحمل الخير والشر (وفقاً للأقدار والحظوظ) الى ساكنيها، وتخلف الأسف والغصة في قلب من يفادرها بعد أن سكنها ردهاً من الدهر. فالسكان يزدادون كثافة في القلب والملازمة، وفي ضاحية سانت انطوان. فإذا ما راح ذوو اليسر والثروة من أبناءها يطلبون الهواء الطلق باتجاه الغرب، راح الشغيلة من سكانها يبحثون قريباً من مكان عملهم. وهكذا راح فريدريك سوليه يصف لنا كيف ان سكان المدينة يندفعون بكليتهم ايام الاحاد وفي عطلاتهم، الى الخارج بحثاً عن الهواء النقي، مخترقين الابواب والمنافذ.

الا ان معظم المدن لا تزال تبدي طابعها الريفي لما عليه من صغر الحجم. فقد كتبت جريدة برمنغهام عام ١٨٢١ تصف لنا كيف ان الناس في الريف يقفون مشدوهين أمام منظر الواجهات وهم متراصون، يخشون ان يقوموا تحت عربات الجر وعربات النقل التي تتخطى الارصفة غالباً نظراً لما كانت عليه الشوارع من ضيق، بينما الجزائرون وتجار الخيل يسامون في جدل لا ينتهي، الفلاحين والمزارعين بشأن قطعان الماشية التي تقص بها الازقة. وتحتل الجانب الأكبر من حادة

الطريق ، مع ما عليها من أسراب الدجاج ، وقطعان الخنازير غادية رائحة بحرية ، تلمسه بينما يتدافع صبيان الأزقة ويتراشقون بالبيض الفاسد وكتل الوحل والزبل ، هذا يكدش رغبته ممسكاً به بين يديه بينما الكلاب في نباح لا ينقطع حبله والمستعطفون يملأون الشوارع . وما أن ينهمر المطر مدراراً حتى تستحيل الأزقة والشوارع بركاً من الوحل والمقاصات . فالوحل يغطي برمنهام كما يغطي غرينوبل ، هذه المدينة « التنتة » كما ينتمتها ستندال . ومثل هذا الوضع يجعل برودون يتململ قائلاً : « ترى جيداً انه يكفيني ما تعثرت به طوال حياتي من أحوال ليون ! يا لها من مدينة قدرة ! عسى ألا يتحول عدم الاكتراث بهندامي ، هذه التهمة التي يلصقونها بي ، الى اتهامي بالاوساخ . فكيف النجاة من هذه الحماة ، ومن هذه الاقدار التي لا حصر لها ؟ ليس في المدينة من دورات مائية جارية : فالماء ينقل على الظهور واكتاف الجمالين ، وليس من مجارير لتصريف القاذورات والمياه الملوثة . فالقذارة والمرض يسيران دوماً جنباً الى جنب » .

وعندما تكون المدينة صغيرة ، تشرم وكان الريف يسحقها سحقاً . فما هي سيدان ، هذه المدينة القديمة ، المحصنة التي ماتكاد تعطى فيها إشارة اطفاء النور حتى تقفل منها الابواب . هي عبارة عن شبكة من الأزقة الضيقة المعتمة حيث تكثر الحفر والاخاديد المليئة بالمياه الآسنة تقفح منها الروائح الكريهة ، سكانها عمال وشغيلة يعملون في صناعة النسيج ، يروحون عن نفوسهم في هذه الاحياء والحارات المحيطة بالبلدة او يعتنون بحداثتهم وبساتينهم . لنضرب مثلاً على ذلك بلدة سان ديزيه التي كان لها من السكان ، عام ١٨٤٦ نحو ٧٠٠٠ نسمة ، ١٣٪ منهم يعملون في زراعة الكرمة ، و ١٩٪ عمال مياومون ، و ٧٪ يعملون في الحدادة . فالكرامون يقطنون أكواخاً في ضاحية جيني ، ثم يليهم باتجاه الوادي البحارة والمعتاشون من البحر . كما يسكن في ضاحية نو الحوذية وسائقو العربات وصانعوها ، والبيطريون والمنجدون والحمالون والباعة الجواله . ويقوم مقابلهم ببناء السفن والشخاتير بينما يتوزع الحدادون على مربعات سكنية لا يزيد عدد سكان المربع الواحد ، على مائة نسمة . أما ابناء البورجوازية ، فقد سيطروا على الشوارع القائمة في وسط المدينة ، بينهم بعض اصحاب الدكاكين ، وبعض الحمامين والملاكين . وهذا الحلي هو أحسن بناء الا انه قليل السكان اذ لا يوجد فيه اكثر من ١٧٠٠ شخص لا غير .

ومدن العالم الجديد لا ماضي لها ولا تقاليد ، ليس فيها ما يلفت النظر سوى اتساعها ورحبها ، « فشوارع مدن الاتحاد ، كبيرة كانت أو صغيرة ، تبدو مستقيمة الزوايا وعريضة . ولشوارع فيلادلفيا عرض كبير يستلفت الانتباه ، تنتصب الاشجار من كلا جانبيها ، كما يروي خبر ذلك عاملان فرنسيان . « هنالك منازل عديدة ، مغطاة واجهاتها بالمرمر الابيض ، والحركة في هذه المدن ناشطة قوية . ترى في نيويورك الى جانب العربات التي تجرها الجياد ، حافلات تسير على خطوط حديدية ، تتسع الواحدة لأكثر من ١٠٠ راكب بكل ارتياح . صحيح ان عدداً كبيراً من هذه المدن يبدو حقير المنظر . ففي شوارع بوسطن وازقتها كانت قطعان الخنازير الى وقت

قريب تسرح فيها وتمرح وتكفل بالقضاء على النفايات والاساخ المتراكمة في مدن الغرب التي تبدو وكأنها ورش لا حدود لها ولا سدود . الا ان هذه المدن كالفطر ، تنمو بسرعة كلية ، وتبشر بضخامتها الهندسية بقرب طلوع هندسة المدن الحديثة .

البورجوازي في
عهد الملك لويس فيليب
قالبورجوازية ماضية في تصعيدها . فهي التي تفرض الذوق وتعطي القياس في كل بلدان الغرب . وبما هو حري بالملاحظة ان الشعب فرض ذوقه في كل ما يتعلق بالهتدام واللباس . فالسروال هو الذي يتحكم بالذوق والجملة في طريقها الى الزوال . فالبورجوازي يتميز عن السوق بالريدنقوت وزيه وقبعته ، بينما يرتدي الاخير سترة . وهذا البورجوازي ينتعل السكرينة أو البابوج الخفيف او حذاء ناعم يضع حول عنقه عقدة كبيرة . « اما سيدة المجتمع الراقى ، فهي تتفنن في تأمين الانسجام والتناغم في كل ما يتصل بلباسها وزينتها بجارة منها للذوق الرومنطقي . فهي تحلم دوماً بالفلساتين المطفطة الاكام والاردان وتكثر من استخدام الداتيللا والشرايط ، ولا تستغني عن أكام الفرو ، كما انها تتفنن في عقص شعرها وتقصيه وتحلته . فالهتدام الخارجي هو الذي يدل على هوية صاحبه : « أخواجا » هو أم « عقيلة » أم « كريمة » من ابناء العصر ؟

قالمال وحده العنصر الذي يحدد مركز الفرد ومكانه في هذه البورجوازية وداخلها . قالمال وحده يوليه المركز الاجتماعي والاحترام اللائق . في قمة السلم الاجتماعي نرى أرباب البذخ من اصحاب المصارف ، كما يحتل الدرصة السفلى منه البقال او العطار « الحشو الذي لا بد منه ولا غنى عنه للحياة الاجتماعية » كما يسميه بلزاك . ويتوزع بين مختلف درجات السلم كل من تعاطى التجارة أو حاز عقاراً له طابع صناعي . وهكذا ترى القوم في بلدي بارمن وارفيلد ، كما يؤكد المجلس « غارقين بين الارقام والاعداد في عمليات حسابية لا تنتهي بحماس ، وتكالبل لا نظير لها . وفي ساعات معينة ، في المساء يخرجون لقضاء السهرة فيلتهون بلعب الورق ، ويبحثون في امور السياسة العارضة ويدخنون ليعودوا الى منازلهم عند الساعة التاسعة ليلا » .

عاملان يوليان المرء أهميته وشأنه : الوظيفة العامة والمهنة الحرة . ففي بسلدان مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، ليس ما يحدد من اطماع الفرد او يصد من طموحه ومن تطلعه الى المراكز الكبرى في خدمة الدولة . غير ان ابناء طبقة النبلاء من كلا جانبي المانش يكافحون للاحتفاظ بالمراكز العليا : في الجيش والملك الدبلوماسي . ففي أوروبا الوسطى وروسيا ، لا ترقى العامة من الناس الى مراتب الادارة الا بفضل إنعام خاص من أولي الامر او بفضل مواهب وكفاءات خاصة تفرّد صاحبها وتميزه . الا ان ابواب القضاء مفتوحة على مصرعيها امام ابناء البورجوازية . فالطبيب سواء وجد في المدينة او في الريف ، هو في مستوى النبيل منزلة ومقاماً يتبادل مع اصحاب العقارات الكبيرة . « فقد اصبح — كما يؤكد بلزاك — من دعائم الحضارة والمجتمع » . ان ما يحمله في الصدر من علم يوليه شأنًا عالياً ينهض بأطماعه السياسية .

فالعيش على النهج البورجوازي ، يقتضي له منزلاً تتوفر فيه كل التسهيلات ووسائل تأمين التعليم والتربية للاولاد ، وتأمين بائنة للبنات ، هذا فيما يختص بالرجال . اما عند المرأة ربة المنزل ، فإن لزور وان تزار . هنالك درجات متفاوتة في الوضع الاجتماعي . ففي مدينة نانت مثلاً كانوا يقسمون المجتمع عام ١٨٣٥ الى ٨ طبقات او درجات في السلم البورجوازي وفقاً لنهج الحياة ، اعلاها مرتبة من يبلغ ريعه السنوي ١٢٠٠٠ فرنك ، يستطيع معه ان يدفع ١٠٠٠ - ١٢٠٠ فرنك ايجاراً في السنة لمنزله ، وعنده عربة وحوذي واسطبل . اما من تراوح ريعه السنوي بين ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ فرنك فهو من صغار البورجوازيين . باستطاعة البعض ان يرتادوا المدن المائية ويختلفوا الى المسابح التي اخذت تظهر هنا وهناك ، كما ان البعض الآخر يقطع بارتباد المتنزهات القائمة على مقربة منهم . والكل يتوق لارتباد دور التمثيل ودور اللهو . ان معظم اصحاب معامل النسيج وكبار التجار في مدينة ليل من آل سكريف وآل ماقون مثلاً ، لهم صروحهم وداراتهم الباذخة . وبعد انسحابهم من حياة العمل نرى اشخاصاً امثال سكولبييه - بتور واغاش دميد يحيون حياة بذخ اصحاب القصور .

وبفضل الدور الذي مثله تيير في مجالات الصحافة والادب والسياسة ، ارتقى حتى اصبح وزيراً للملك لويس فيليب ، وهي وظيفة كانت تدر عليه مرتباً يتراوح بين ١٠٠ الف و ١٢٠ الف فرنك في السنة . وقد در عليه كتابه « تاريخ الثورة » مبلغ ٥٠ الف فرنك ودخل عضواً في مجلس ادارة جريدة « الدستور » وبذلك عاد اليه قسم من الارباح . وعندما تزوج عام ١٨٣٣ انفق على فرش داره عشرة آلاف فرنك . وكان معه نقداً ٦٠ ألف فرنك وملك قصراً في شارع سان جورج باعها فيما بعد بمائة الف فرنك كما ملك منزلاً في مدينة اكس . وقد كلف جهاز عروسه عشرين الف فرنك وجلبت معها بائنة تقدر بثلاثمائة الف فرنك قدر في السنة ريعاً صافياً قيمته ١٥ الف فرنك . وتراه يشتري الخيل والعربات ويجمع التحف والكتب النادرة ويسافر محوطاً بمظاهر الابهة ويتعاطى المضاربة بالمقارات .

وهذا النموذج الممثل بجوزف برودوم وجيروم باتورو وقيصر بيروتي الذي كان يمثل الاناقة ويتحدث عن الشرف وينادي بالانسانية المثالية والذي كان يزعم انه يخشى الشعب ، يدعي انه من الشعب ويتبجح بأنه يتكلم باسم الشعب ، هو نفسه سبب نفرة وامتناعاً لهؤلاء الذين يهتمونه في ذوق الغني والتبجح بنزاهة الضمير والوجدان ، وهزؤون من رضاه عن نفسه . وهذا النموذج المثالي يبدو على أنه في هذه الصورة التي وضعها الرسام انغر لبرتني الاب مؤسس جريدة الديبا . فصوره لنا غارقاً في كرسيه الكبير ويداه مسبلتان على ركبتيه ، ساغماً بأنظاره ، معتدلاً بنفسه وستبرز لنا صورته من جديد بعد عام ١٨٤٨ ينصب ويحجد ، ويشيد قريتاغ بذكراه في كتابه المعروف *Droit et avoir* .

في فجر هذا العصر الصناعي الذي تتجه اليه البورجوازية بخطى حثيثة ، تطلع علينا الرومنطيقية ، لتحرر قوى الاستقلال بعد ان عقلها النقد الاجتماعي وكتبها عندما استعطر شأنه .

الفصل الخامس

الحركة الرومنطيقية وعودة الشرعية الى أوروبا

أي متى ظهرت ، يا ترى ، الحركة الرومنطيقية التي تجلت بوضوح
وبرزت على أمتها في مستهل القرن التاسع عشر ؟ هل منذ عام ١٧٧٧ ،
بعد ان شن كلنجر ، في هذه السنة بالذات ، هجموه على المذهب العقلي ،
في مأساته الموسومة : « *Sturm und Drang* » (عاصفة وصراع) التي ينم عنوانها عن زخم
التيار واندفاعه الشديد ، او منذ عام ١٧٧٣ ، تاريخ وصول « غلوك » الى باريس ؟ فقد تحلى غلوك
عن التهج الايطالي وسار على طريق « رامو » راميا من وراء ذلك الى اخضاع الموسيقى للشعر
وادخال الطبيعة في المأساة الموسيقية . وقد مهد رامو في مسرحيته *Les Indes Galantes* لطاوع
برليوز كما انه جاء بالدليل على ان مؤلفات موزارت تنتزى بالزي الجديد الذي رسمه وتوطد
في النفوس .

ففي الحقبة التي تلت العاصفة الثورية والنابوليونية مباشرة ، برز للعيان من جهة ، الشعور
بالقلق ، ومن جهة أخرى التمرد على الحياة الرتيبة التي تشوبها الروح البورجوازية . ولذا بدا
هذا الشعور متشائماً على شيء من مظاهر التدين ، ومن الحنين الى الوطن المألوف . فقد اخذ من
الشمومية النزعة نحو النظام الاجتماعي ، وقد فُتِنَت الشبيبة البورجوازية بهذه النزعة الجديدة
واقبلت عليها بشغف ، فجاءت الاستجابة عندها وفقاً لمشاعلها الخاصة ، وبذلك أصبحت الروح
ذات نزعة متحررة ووطنية الاتجاه ، تتجه تحت تأثير العاطفة ، شيئاً فشيئاً ، نحو مثالية من
الاخوة الديموقراطية جاءت بلسماً خففت نوعاً ما من أوصاب البروليتارية وآلامها . وهكذا لن
تلبث المثالية ان التقت بالتفاؤلية التي ميزت العصر الماضي . فهي في نظر ستندال الذي عايشها :
« هامل لا يبصر ولا يسمع في خدمة مستقبل غامض » .

وصف دليكلوز في يومياته : الابداعية (الرومنطيقية) « بالخواه»
 بين الاتباعية والابداعية :
 مع العلم ان هذه الحركة انطلقت تحت مظاهير الاتباعية او
 وضع غوته وبيتهوفن من بعده
 الكلاسيكية وتطورت تحت جناحيها . والفنانان دافيد وأنفر

ليسا بمنفردين . فالجماهير التي وقفت مشدوة امام قتال « تاليه هوميروس » والتي قابلت بتصفيق
 حاد طامئا يحتفظ بمثل هذه الحماسة لراشيل . الا ان الفكرة التي ارتسمت في الازهان عن التاريخ
 القديم برزت اقل مطابقة للصورة المألوفة او الصورة التقليدية . وقد اطلت علينا رؤى عن
 الحضارتين الاغريقية والرومانية ، ألصق بالتاريخ واعلق بالواقع التاريخي واخذت تبدو شيئاً
 فشيئاً الصورة الادبية التي علقت في الخواطر عن بشرية خالدة . وبما له دلالة خاصة بهذه الحركة
 هو اكتشاف شكسبير بعد جهل العالم له ، فأنزله فولتير منه منزلة خاصة ، واسأده لسنغ
 عالياً وعرجه شيفل وتيك وادخله كرامزين الى روسيا فأدخل القبضة على روح بوشكين . وقصة
 فوست التي دخلت المسرح على يد مارلو احد معاصري شكسبير ، حملت لسنغ على معالجتها
 وتدبرها قبل ان اصبحت موضوع اهتمام غوته .

فالتحولات التي خضع لها فوست انما تدل على تطور الفكرة عند غوته . فصورة فوست
 البدائية رمزت اليها صورة بروموتية المتحمس في رواية *Sturm - Drang* ، الى آخر تجسد من
 تجسدهاته العديدة الحولية الطابع والصفة مروراً بفوست المناضل الذي يهوي الى الارض .
 ففي هذه القصة رمز للبحث عن الحقيقة ، عن طريق الثورة أولاً ، ثم عن طريق التكامل
 المتناغي للقوى العقلية المنسجمة . فبدع فوست وخالفه هو هذا الاديبي الاولمبي الخلاق الذي
 يهيم من 'عل' على الظروف والصروف ويتحكم بها بحيث تتم له المطابقة ويحصل التسيب بين
 افكاره وبين الوظائف التي شغلها في بلاط ويار ، وهذا التجريد الموسوعي العقلاني الذي يسمى
 وراء البحث العلمي محمولا على اجنحة التفاؤل البشري . فهو يطري الى ابعد حد هذه الحرية التي
 يجود ابطاله بأرواحهم دونها ، هؤلاء الابطال الممثلون : غوتز واغمونت وفوست ، ويؤمن
 ايماناً عميقاً برسالة الشاعر . وسيبقى في نهاية الامر الشاعر الكلاسيكي الامثل في الادب الالماني ،
 بما له من انشاء جزل ولغة سامية .

بتمتع بيتهوفن بشخصية لا ترام ، كما يقول فيه غوته نفسه . فقد توفرت له خصائص
 وسمات مفردة : عنفوان شباب لم يلبث ان استحال نزعة قوية تدفعه نحو العظمة الوقور ،
 ومفهوم اكمل للآثر الفني بوصفه منجاة من عاطفة الحب المشبوبة ، والسعي الرصين بحثاً عن
 الوحدة وراء التناقض ، بين القوى الخيرة ، وقوى الشر ، هذا التناقض الارستوقراطي الطابع
 هنا ، والشعبي الجماهيري ، هناك ، الذي يذكرنا بأبحاث جان جاك روسو في انماليته الاجتماعية
 في ما جمع بينها ووجد من قالب كلاسيكي ، والكلاسيكية الموسيقية الحقة التي عمر بها الجو الذي
 استنشقه باخ وهندل . فالمعجزة البيتهوفنية تقوم في ان سيد يون نفخ روحاً جديدة في الانعام دون

‘ن يبدل بشيء في الفنون . فبعد ان وسع من الاركسة وابعثه على المعزف كوسيلة اولى في الانشاء والتنظيم ، وعن طريق ادخاله الحزن أو الشجى في التعبير الشخصي ، فتح الباب على مصراعيه امام المدرسة الابداعية الرومنطيقية . فالكمال الفني الذي بلغه موزارت قد يُدخِل اليأس على نفوس الشباب . اما السمو الفني الذي حققه بيتهوفن ، فيبعث النشاط والتجدد بعد ان حرر الفن من ربة التقاليد .

يحلل لهذا الرومنطيقى ان يلفت اليه الانظار بطريقة أو بأخرى من الرومنطيقى وحلمه الدفين طرائقه الغريبة كالمظهر الخارجى والذوق ، والمزاج ، والطبع . فهندامه او زيّه « مدرّوس الى اقصى حد » كما يقول فيه تيوفيل غوتيه . فقد سبق لليون غوزلان ووضع لنا عنه صورة هذه بعض قسماها المميزة : بزة رسمية ، سوداء اللون مزرّرة مما اقصل بالبطن حتى الشريان السباتي ، وياقة فضفاضة مسترخية ، الى سحنة ممتعة اللون ، مستديرة ، عليها شيء من اللامبالاة ، لون وجهه يتم عن القلق المنبىء بموت قريب ، اذ عليه ان يحى حياة ملؤها العنف والنضال او يزول من الوجود . وبالفعل فاللورد بيرون ، هذا اللورد الذي صدمه الواقع فجاء مزيجاً من المرارة والقحة عبر عن الطريقة الرئيسية التي لا تتوقع شيئاً من البشر ، وذلك قبل ان يحود بنفسه بكبر في مدينة مسولونغي ؛ وساندور بتوفي يقتل في ساعة الوغي ، في معركة سجسار ، عام ١٨٤٩ ، وحوادث البراز تحترق بشكل مبكر حياة بوشكين وله من العمر ٣٧ سنة ، كما تودي بحياة ليرمونتيف وهو ابن ٢٧ سنة ، وغالوا ، هذا العالم صاحب الفكر الرياضي ، يموت وهو ابن ٢١ سنة . وها هو كليست يقتل عشيقته ثم يحطم رأسه امام جثمانها ؛ وجيرار دي نرفال يشق نفسه في احد الازقة ؛ والممثل نورتي يقذف بنفسه من النافذة خلاصاً من الحياة . واذا اتفق وقام ، انتهت حياته بالجنون ، او الادمان على الكحول ، امثال لينو وشومان وبو ، فهناك غيرهم امثال توفاليس وشيلي وكيتس وليوباردي وشوبرت وشوبان وديلاكروا وابيل تتخاطفهم حوادث المرض والعوز والبؤس واليأس . كم هو كبير عدد هؤلاء الامراء في هذا العصر الذين يبدون كريشة في مهب الريح ، على شاكلة شارل البير ، وفريدريك غلبوم الرابع ، ولويس الاول ملك بافاريا ، بينا لويس نابليون المصاب « بالنومشة » يعيش في احلامه ويؤمن بطالع نجمه .

ولما كان الفرد هو قسطاس نفسه وله نمطه الخاص في العيش ، راحت روح الثورة تدفعه للوقوف في وجه الاعراف والتقاليد المعمول بها فزقاقية اللغة وريشة ديلاكروا الثمة ، وموسيقى برليوز « الهيبية » المفزعة ، البركانية الافر ، كلها ذرائع ووسائل لاستشاطة البورجوازي وإثارتة . فيرون يستشيط غيظاً ضد التصنع والتزمت المقالي ، ورياء اللغة ، ودجل التعبير ، وبوشكين لا يتورع عن ابراز معانيه ونقائصه ، واوروز دويين ، باروننة دوديفان تحتسي ال Punch وتدخن السيكار ، وتظهر ثارة بلباس الغندور المتألق الانيق ،

وطوراً بلباس البوهيمي . « يعجبني ذوو الطبايع والفرائز الشاذة » ، واني لواحد منهم »
يصارحنا بلزك في مساراته جورج صائد .

من يستطيع على شاكلة برليوز ، ان يسمر الملح بواسطة موسيقاه الرهيبة ، في نفوس مستمعيه ، ومن يستطيع على شاكلة جريكو ، ان يجمع جثث الموتى في رسمه ، ليؤلف لنا هذه القطعة الموسيقية المعروفة بـ « طوف المدوزة » ، هؤلاء بالذات يذهبون فريسة التأمل والتفكير . هذا ما يمتدحه نوفاليس بخواء النفس وهذا هو المهلّس عند هوفمان وتيك ، وهذه هي رائحة الضباب الذي يغشى المقابر ، مطلب غسبار - دافيد - فريدريك ، ومنظر المستنقع الآسن ومنجم الفحم الذي يجتذب اليه أنيت دي دروست - هولشف ؛ هذا هو لويس سولر الذي يجد لذته ومتعته المفضلة « واقفاً امام قبر » او في دير حيث يسود الصمت والسكون او امام صرح قديم منعزل ، على ضوء « قمر ممتع اللون » ، هذا القمر الذي يوحى لاندرسن اقاصيص غريبة عذبة . فالصورة التي خلفها لنا هوغو تعبر عن اللحظة التي تجيش في صدر من يرزح تحت الكابوس او ما يوحى الشعور بالضغط المرهق . معبود كورو ، رسام المناظر المشهور ، هو ان تكتحل عيناه بهذا الوشاح المهفّف الذي يتألف من هذا الضباب الفضي ، الذي يترك الاشياء قلقة ، لا تستقر على وضع او حال . هنالك من ينقطع للرحلة والسفر بروح طليعة او بروح ماول كما ان البعض يؤثر المشاهد الهادئة التي تكثر بين الناس داخل أسرم ، ومعظمهم يحاول ان يجد في الطبيعة سلواه وعزاءه . فاذا ما رهب فينبي برودة هذه الام الشرسة الطبايع ، واذا ما نغم عليها ليوباردي لامبالاتها وعدم اكترائها لهذه البشرية البائسة ، واذا ما غاص لامرّتين في احشائها واذا ما نظر اليها ميشليه كما هي على علاقتها ، يعجزها ويجرحها ، وهو يقول : ما من شيء في الطبيعة لا يثير في الانفعالات ، فأنا اكرهها واعبدها سواء بسواء ، كما امقت المرأة واعبدها . ولما كان الزواج يقيد صاحبه ويفرض عليه شيئاً من العبودية ، فأنا احتقره واسخر منه ، فالاتحاد البورجوازي يجب الا يقوم الا على العاطفة التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، وها هو غريلبرسر وهيبيل يجعلان من المرأة بطلّة مسرحياتهم التي ذكرنا عن قريب بمسرحية راسين .

هذه الشعوبية المستنيرة ، الارستوقراطية الطبايع ، والطبقة البورجوازية البيئة وأدوات التعبير العليا اللتان اتخذتا من فرنسا موطناً لها ومستقراً ، لم تختفيا قط من الوجود . فالصالونات ونوادي المجتمع الراقى ونصراء الادب والفنانين من الامراء ، لم تتمكن الثورة الكبرى من القضاء عليها او ان تستأصل شأفتها من البلاد . فاذا ما سلمنا جدلاً بأن فرنسا خسرت كثيراً في هذه العملية ، فسيطرها الفكرية لم تتأثر كثيراً من هذه المغامرة الكبرى . من المعروف باتفاق الآراء ، ان باريس هي مدينة الذوق الرفيع ومقياس الشهرة الواسعة . الا ان الظروف لم تعد تماماً كما كانت من قبل . فقد مرت بسماء فرنسا عاصفة هوجاء ، والمستقبل يبدو عندها وكأنه على كف عفريت . ومن جهة اخرى ، فالخطل الذي ذهب اليه المغامرة النابوليونية

والحركة يعقوبية التي سبقها ، تسببت في ردة فعل هوجاء ضد الروح الفرنسية ، كما عاد كل ذلك على القومية الفرنسية بمثل هذا الحسف .

ولذا فليس بعجيب قط ان يصاب في الصميم هذا الاتساق أو الانسجام «الفلسفي» الذي طبع النماذج الفرنسية وميزها في القرن الثامن عشر . وعندما كان المهندسون والنقاشون ، والرسامون ، والمذوقون يقومون بعملية الخلق والابداع كل في فنه ، كانوا كلهم يستوحون النماذج الفرنسية ويستلهمونها . ولذا لا نرى في الفن هندسة ورومنطيقية . فالارستوقراطي والبورجوازي الذي يبتني له منزلا يستوحي ما وقع تحت انظاره من نماذج قائمة ، عندما لا يرغبون في بعث الطراز القوطي . فالرغبة الجنونية بتقليد كل ما هو انكليزي فرشت بلدان القارة بالحدائق والجنان التي تبدي طابع الجزيرة المزدانة بالخرائب أو الآثار الزيفة . وهكذا زالت من الوجود النقوش والمحفورات — باستثناء «رود» الذي يؤلف وحده خروجا على القاعدة . ولذا راح العاملون في النقش ، يتجهون على الغالب ، نحو الموضوعات التي يعالجها النقاشون عادة ، مثال ذلك الرسام باري المتخصص برسم الحيوانات والذي لقب بحق «ميكالو انجلو الكواسر» ، وأفيد انجيه المتخصص برسم الاشخاص ، ودانتان الابن المتخصص بالرسم الهزلي أو الكاريكاتور . ففي الوقت الذي يتوارى فيه فن الرسم التشكيلي عن المسرح ، يطل علينا فن التصوير على مسند ويزدهر بشكل لم يكن ليتوقعه احد .

وهذا النوع الذي يألف كما يجب ، والهوى أو الرغبة ، كما يطابق معارض الصالونات والمتاحف ، والذي يصف بدقة كلية ، هذه اللخبطة العجيبة ، وهذه القوضى الماكرة المتقلبة باستمرار ، هذه القوضى التي «توحي القبضة» كما يؤكد بلزاك ، وتوحي السهاجات البشرية ، والملع ، أو توحي هذه الطبيعة الذاتية أو الغنائية الموحشة أو المعبرة عن سرائر النفس الدفينة ، فن شخصي يستمد كل قوته من اللون . ولذا كانت عناية أنفر بالرسم على نسبة صدق محاورته للريشة الشملة .

كذلك تتوفر للموسيقى وسائل هائلة لتعبر عن انفعالات النفس وتثير الاخيلة . فهي تنبعث وتجدد بالتأليف بين هذه الانغام والتعبير عن المبادئ والقواعد التي يقوم عليها ائتلاف الانغام وانسجامها . فهي تتوخى التنويع وتهدف للتأثير على القلب أكثر من تأثيرها على العقل . وهكذا يطل على الناس عهد المعرفة الذي له من الايقاع المدوي ما لا يتوفر بعضه لليبانو القديم . فكبار صانعي المعازف امثال ايرارد وبلايل عملوا على انتشاره وجعله في كل منزل ، وفي متناول البورجوازية الحديثة العهد . فالمعزف هو الآلة الموسيقية الفضلى لدى شومان وشوبان وليست . وجل ما يريده الموسيقاريون الكبار أو يطعمون فيه من القيثارة مع بغاني ، ومن الفيولونسيل والباي مع الآخرين ، هو الخلق الفني . وساكس ، رب الآلات الموسيقية النحاسية النافعة ، كما يسميه مايربير ، جدد الحياة وبعث النشاط في آلات النفخ وزاد عليها اختراعه الكبير

مثلاً بالسكسفون .

فاذا ما ابرز الكونسرتو موهبة النبوغ الموسيقي ، فقد عقدوا الامل على القصائد الرومنطيقية المعروفة بـ *Leids* والتي تلائم تماماً بين النغم واللفظة لكي تعبر عن اعتمق خوارج النفس البشرية ومشاعرها الدفينة . فموسيقى الحجرات الخلفة التي تتجه من عدد معين من المستمعين تأتي ادنى مرتبة من المسرح الفئائي الذي طلم علينا بمهده الذهبي ، هذا المسرح الذي يمسك في سبيله ، العديد من المؤلفين واضعي نصوص الاوبرا . هذا المسرح الذي يفتقر عن *Belcanto* وعن رقص جميل ميزته الكبرى قربه من افهام الجماهير : من هذه التواريخ المفردة روائع ويبر المسماة *Frelschuty* عام ١٨٢١ ، و *Le muette de sorici* أحد آثار اوبرا ، ١٨٢٣ ، ومقطوعة « روبر المقريت » من تأليف ميبير بيير عام ١٨٣١ ، و« اليهودية » من وضع هاليقي عام ١٨٣٥ .

والمرحبة الرومنطيقية هي من نفس المعين والمصادر . فالماطفة الجماعية تعتمد الحركة والشمارات المثيرة وبكل ما يثير الحنان والشفقة . فالماطفة الجماعية تجسد فيها كما يجد المؤلف نفسه ما ينفعها . فهاهو هوغو يباشر معركة هرثاني التي يكتب له فيها الفوز عام ١٨٣٠ ، كما ان مسرحيته « سقوط البورغراف » التي صدرت عام ١٨٤٣ جاءت تعلن للأ ان ساعات الرومنطيقية الكبرى قد ولت ومضت . من المفيد ان نلاحظ هنا ان في الوقت الذي تفقد فيه الاستدارة البيانية ، ما لها من سحر وقتنة ، كان الشعر الفئائي او الوجداني قد اعطى معظم روائحه الادبية هذا الفن الذي يفرغ المرثاة الفئائية ، في القصيدة الفلسفية ، والذي عرف كيف يمازج بين المسارة والسرمد الملحمي . فمزلته من الادب منزلة الرسم من الفنون التشكيلية ، لا حد لصوره وصيغه واشكاله كما لا حد قط لموضوعاته ، ويعبر بصورة ذاتية او شخصية ، أكان ذلك تعبيراً عن المشاعر الدفينة او تعبيراً صادقاً عن فكرة او خاطرة وجدانية .

فالرومنطقي ، بما له من اسلوب بياني فخم يحول دون ابراز الحقيقة عنده ، بما لها من قوة ، سواء اراد تحلية الامور او تسويدها ، يستعمل بكل ما اوتي من قوة ، حتى ولو لم يكن شاعراً ، هذا الاسلوب التقني الجديد ، اعراباً عن سخريته وتهكمه . ففي الوقت الذي يتباح فيه لشارليه ولرافيه الترويج لشخصية « الجندي المؤمن » ولشخصية « المريف الصغير » ، سلسطين نوتويل قدويق مؤلفات هوغو وغوته واسكندر دو ماس وتجليتها بالصور والرسوم ، ولديكروا تحلية فوست لغوته ، عرفت الطباعة الحجرية (الليثوغرافيا) ان تؤمن لها ازدهار التصوير الهزلي .

ففي الوقت الذي اتاح فيه فن الفكاهة عند الانكليز خلال شخصية بكوريك لديكنز ، وجعله نموذجاً لا يقل شهرة بشيء عن شخصية روبر ماكيه ، كما ابدعت الفكاهة الاميركية شخصية نيكربكر لواشطنون ارون ، نرى بلزاك من ناحيته ، يضع امامنا ، شخصيات ذات مفارقات متعاضدة متضاربة ، فيهوي بالسوط على عابدي المال ، كما نرى سانت لوف يمد حملة النقد المعاصر بالنقد

الدقيق الذي كان بمثابة مرآة تنعكس على صفحتها ، كل المدرسة الرومنطيقية .

للتاريخ مدلول يعمل عميقاً في ربط الحاضر بالماضي . فقد سبق
ورمنطيقية رجعية المفعول للقرن الثامن عشر ان وضع تفسيراً عقلانياً للتطور البشري
دون ان يذكر بشيء المسألة التي طرحها بوسويه . فقد شدد كل من فيكو وهردر على هذه القوة
التي توجه العالم ، حلولية هي عند الاول ، عضوية وخاصة بكل شعب ، عند الثاني ، اي ردة
مجموعية للاعقلانية^(١) الى ان وقعت اذ ذاك الهزة العنيفة عام ١٧٨٩ التي استبدت بالفكر
والمفكرين امثال بورك وجوزف دي مستر وبوالد الذين تسلموا بدليل الديمومة ، حجة
الكنايس والارستوقراطية . والتاريخ الذي يسير في ركاب العناية الربانية والسلطات المنوط
بها امر المحافظة على الامن ، يتبنى هو نفسه فكرة الاستمرار والديمومة ، وبذلك ربط نفسه بهذه
الاصول الرصينة .

وقد تكفلت المعرفة الواسعة والبحث عن العنصر الجمالي او الصورة الذهنية ، بالباقي . ليس
من وجوب قط لرذل او التنكر لما جاء به اليونان واللاتين : فالنزعة الانسانية جاءت والحق
يقال ، مثيرة ، مبهجة . ففي الحين الذي راح فيه نيبهور يكشف عما للتقليد الشعبي الشفهي من
قوة عند تيت ليف ، نرى الاعجاب بالهيلينية يثير الهمم ويحرك المشاعر . ومع ذلك فالحركة
الاستشرافية التي طلست علينا ، والاعمال الوحشية المرعبة ، ونبش معالم الحضارة في كل من مصر
وابران والهند ، كل ذلك وسع كثيراً من آفاق المعرفة البشرية ، حتى هذه النظريات الحدسية
المتعلقة بالأصل او العرق الآري للشعوب الغربية ، هذه النظريات التي راودت الازهار
اذ ذاك ، لم تأت بأي فائدة للتراث الكلاسيكي لشعوب حوض البحر المتوسط .
فالدروس التي استفدناها من آسيا وافريقيا اختبارات اكثر وشعوراً اعمق بالتقاليد . أفلم ينزع
ديلاكروا الى ان يرى في الاسلام تكملة للحضارة الهيلينية او حصيلة هذا القرن الذي تم بين
الشرق والغرب ؟

فالكشف العظيم هو الكشف من الاجيال الوسطى . وسار شليف في اعقاب لسنغ عندما
هتف قائلاً : « ليل الاجيال الوسطى ؟ ليكن ، انما هو دليل متلازم بالنجوم الزواهر . انها
لحقة عجيبة مدهشة ، كل ما فيها مشوق وأخاذ ، فاضلة ، ساذجة خضبة بالمعجزات والخوارق ،
ليس اصغرهما لعمري هذه التقوى المسيحية المستبدة بالنفوس ، وعندما يروح شاقوبريان يتغنّى
في كتابه « نبوغ المسيحية » بعودة الايمان الى البلاد على يد ابن الثورة وجنديها ، يحقق هذا
كله بوصفه ارستوقراطياً عباً للجمال . اما هؤلاء الناصريون ، هؤلاء الرسامون ، المأخوذون
بالجمال الديني ، فقد تبناوا الحياة الرهبانية . هم من المانيا هذه التي ينمتها ماكتوش بوصفه لها :
« المعتمه بصورة ميتافيزيقية » ، حيث لاقت الروح التقوية رواجاً عظيماً . وهذه الاقاصيص

(١) انظر تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٨٦ (الطبعة العربية) .

الاسطورية ، اقايص البطولة ، كالساغا السكنديناوية والرواية البطولية الاسبانية المعروفة بـ *romancero* ، ولا سيما الالمانية منها ، وفوست وغيرها من هذه القصص الشعبي المعروف باسم *Maerchen* واغنية رولان ، لاقت او ستلاقي شهرة منقطعة النظير ، بحيث تكاثرت وانتشرت الى حد بعيد اقايص الابوكريفا او المزيفة . وفي الوقت ذاته عرفت الروايات التاريخية ازدهاراً رائعاً . فقد أمدنا ولتر سكوت بانتظام مدهش بأقايص رسمت نهجاً خاصاً احتذوه في كل مكان وكان له اتباع ومريدون في كل قطر وصقع : روايات بطولة تبهير بألوانها الزاهية اظهرت ، على الاجمال ، احترامها للتقاليد والاعراف الشعبية . وهذا القصص التاريخي ، امد الى هذا كله ، المسرح بمادة خصبة استلهمها من قبل كل من شكسبير ، وكالديرون ولوب ودي فيفا .

وقد كان هذا الجو جد مؤات للمؤرخ الطلمة اذ جاءت القصة تستند الى الوثيقة التاريخية وتنهض على الدليل الاثري . فقامت على الاثر جمعيات علمية ، في كل مكان تقريباً ، تولت تصنيف النصوص وتحقيقها ، وحاولت فك ما تحمل من رموز في خطوطها وردھا الى اصولها من ذلك مثلا الجمعية الخاصة بدراسة التاريخ الالماني التي رأت النور على يد المؤرخ شتاين عام ١٨١٩ ، ومدرسة القراطيس او معهد الوثائق الذي تأسس في باريس عام ١٨٢٢ ، وهذه الكشوف العلمية السقي حققها غيزو . وعلى هذا الاساس وضع اوغسطين تيري وميشليه تاريخ الاجيال الوسطى بمد ان تفننا في التوفيق بين مراعاة اللون المحلي وبين التفاصيل الدقيقة ، محافظة منها على احترام المصادر ونصاعة التعبير .

والاجيال الوسطى هذه تبدت صورتها لكل واحد كما تبدت على صحيفة مراكه . فهي تمثل في نظر سيمونندي عهد الاستقلال الذاتي المدن ، كما رأى فيها فيلنوف بارجمونت عهد السلطة السلسلة التي نفر منها سيمونندي . ولم يلبث ان رأى فيها كل شعب صورة لما يرجو ولما يطمع اليه . فهذه الرومنطيقية الابداعية ذات المفعول الرجعي ألبسوها لباساً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى وثورياً . فما من مكان قط استشرى فيه هوس الاصول التاريخية المتوسطة بسين افراد الشعب كله مثل المانيا اذ راحوا فيها يستبدلون الـ *Aufklärung* بالروح القومية الموعودة نافرين من هذه الشعوبية العقلانية ومن الروح التحررية البورجوازية . فمنذ عام ١٧٩٩ واجه نوفاليس هذه المعضلة الثنائية : اوروبا المسيحية ، فعلها باختيار او بتحقيق الامبراطورية المقدسة بشكل جديد تحت اشراف الكنيسة ، الخيرة ، الملازمة للطبيعة البشرية ، حتى اذ ما كاد يتوارى ، اشتد التيار بعده ، عنيفاً ، غلاباً مطالباً باعادة الميرخية او الملكية الشرعية . ومع ان المدرسة الشعرية في انكلترا تطورت باكرأ ، رافعة لواء الثورة ومنادية بسلطان الحب ، فقد ترك ودسورث عليها طابع الروح المحافظة المهذبة ، كما كانت لذة سكوت الخاصة ان يبعث التجدد والحياة في بريطانيا العظمى التقليدية المحافظة في الصميم . من دعاة الشرعية ومؤيديها ، هوغو في دواوينه ولامرتين في تأملاته ، اذ راح كلاهما يتغنى ، عام ١٨٢٥ ويشيد عاليلاً

بتكريس شارل الماسر ، وبلزاك نفسه يتجه آنذاك نحو الشرعية . بعد عام ١٨٣٠ . ومع انهما من اقحاح الوطنيين الايطاليين ، راح منزوني يضع : « الاناشيد المقدسة » ، فاتحاً بذلك نقاشاً حاداً مع سيسموندي حول الدور الذي لعبته الكنيسة في ايطاليا ، كما راح سلفيو باليكو يروي علينا بكلمات تنتزى بالرضوخ وروح الاستسلام المسيحي ، قصة اعتقاله . والكل يتفادى او يحاول ان يتفادى هذه البورجوازية الواقعة تحت تأثير عبودية المعجل الذهبي .

راحت المثالية الفلسفية تقدم هي الاخرى ، خدماتها لقضية هيفل واستبدادية الدولة الشرعية ، كما راح كل من غوتييه وكانت وفخت يستجيب عالياً للاتجاه الذي اتخذته الثورة الفرنسية . فقد بقي غوتييه ، على الاقل اميناً للشال الجمهوري كما راح فخت بدوره يرسم لنا نظريته عن الدولة مترفاً لها بحق الاكراه وحق الركون اليه . ومن هذه الثنائية التي قال بها كدنت والتي اعترف فيها بقدرة العقل على معرفة مظاهر الاشياء دون كنهها يفضي بنا الى القول بالأحدية الغائبة ولو بصورة ذاتية .

واذ ذاك طلع علينا هيفل الذي راح يقول بمثالية مطلقة مناقضاً بذلك تعاليم القرن الثامن عشر . فمعاً ينطق ديناميكي هو الديالكتيكية الجدلية ، فالافكار المتحركة توجد الواقع وتخلقه وتدفع بالكائن دوماً ليتجاوز باستمرار وضع وجوده . ولذا فالمطلق عنده هو وحده الذي له وجوده الخاص وينزع دوماً للتحيز بفضل فكرة الدولة المثلى الملكية الطابع من اساسها ، هذا الشكل السياسي الوحيد الذي باستطاعته وحده ، التوفيق بين الحرية والسلطة . اما الفرد هذه الفكرة المجردة التي لا قوام لها ولا كيان فلا وجود له قط بذاته . فالدولة هي تجسيد لله على الارض لها وحدها الحق بالسيادة المطلقة والاستئثار بها .

وبعد ان دعي هيفل عام ١٩١٩ للتدريس في جامعة برلين راح يثبت ان الصورة المثلى لهذه الدولة هي الدولة البروسانية . فقد « اخذ هذا الفرغمي المتوجه بأنظاره نحو الماضي ببر ، بطريقته الخاصة ، الشرعية التقليدية . وقد كان لا بد لنظريته هذه عملاً بمبدأ رجوع الامور الى نقطة الانطلاق ، من ان تؤول الى راديكالية واضحة ، فقد انتصب في وجه الابداعية الرجعية ، هيفلية محافظة او متزمتة ، كما قام في وجه ابداعية مستقبلية ، هيفلية ثورية .

وهذا الصراع العملاق الذي وضع وجهاً لوجه ، هنا النظام عودة النظام في اوربوا الى الشرعية الاوروبي القديم وامتداداته الاستعمارية ، وهناك القوى البورجوازية الجديدة والجاهلية ، استمر قائماً . فقد اتصل بشبه الجزيرة الايبيرية التي اعلنت الثورة وامتد الى اوربوا نفسها حيث انصار الحرية ومؤيدوها استمروا ماضين في كفاحهم . فالانتصار الذي حققه الملوك في ساحة القتال ذهب جزافاً كما ان قرارات مؤتمر فيينا بقيت حبراً على ورق وكلمات فارغة ، اذا لم يقم في اوربوا نظام دائم يفرضه القاثون بالثورة المعاكسة هو نظام ديني ملكي ارستوقراطي .

الشرعية الدينية ان قيام شعور ديني رومنتيقي لدليل على وجود بقطة دينية .
فارتدادات فريدريك شلغل وستولبرغ وهولر، واعتناق آل راتسبون اليهود للكنائكة ، واعتناق ستاهل البروتستانتية ، يشير بوضوح لا يدع مجالاً للشك الى مافي المسيحية من قوة جذب واغراء . فنوادي مونستر ومونيخ لها روادها الكثيرون . ففي الوقت الذي راح فيه هنفستنبغ المدافع الاكبر عن اللوثرية الاصلية ، يهاجم المذهب العقلي بعنف ، دوت في جميع ارجاء فرنسا صرخة انذار واستنفار اطلقها كل من لامينيه في كتابه « محاولة حول اللامبالاة في امور الدين ، وجوزف دي مستر في كتابه الموسوم : « حول البابا » مشيدين بالدور الذي يمكن للبابوية ان تلعبه في هذا المجال . ويحاول الاب بليس ، سيراً منه على خطى بوسويه ، الكشف عن « التغيرات » التي لحقت بالكنائس ، والمسلل الانجيلية . فاذا ما عاد الكاثوليك ، ولو متأخراً ، الى الدراسات الكتابية التي تخلوا عنها فترة الاوساط البروتستانتية والعقلانية ، فقد برزت الدعوة للتعليم وفي اوساط النخبة الفكرية ، بعودة بيوس السابع الى روما وباعادة الرهبنة اليسوعية الى الوجود ، (كما ان الاب لاكوردير سيقوم بتجديد الرهبنة الدومنيكية في فرنسا) . وقد تكاثف عدد الرهبانيات التربوية والتأملية والخريرية ، ولا سيما الجمعيات التي تعنى منها بشؤون المرأة . فنحن امام حركة عارمة من ازدهار الجمعيات الخيرية ، والكتب الجيدة والدراسات القومية وجمعيات القديس يوسف للدفاع عن المسيحية . وبما هو ابرز من هذا كله ، اعمال الارشاليات الدينية التبشيرية التي نشطت لنشر المسيحية ، وحمل الصليب الى البلدان التي لم تعرف شيئاً عنه ولا عن المصلوب شيئاً ، كما انها اخذت توزع على المؤمنين الاشياء التقوية وتقوم بالكراسة بالانجيل من مكان الى مكان آخر .

ومع تسليم الادارة الرومانية في روما بفوائد الادارة العلمانية فقد اضطرت للخضوع لهذا التيار الذي يؤيده المزمتمون الذين فازوا باقرار التشريع القديم ، والنزول عند « اصلاحات البارونات » ، وديوان التفتيش والى توصيات « مجمع الايمان » الذين نجحوا ، في مجمع الكرادلة عام ١٨٢٣ ، وانتخبوا عام ١٨٣٠ للكرسي الرسولي ، احد ابناء الرهبنة « الكاملدولية » المعروف بتزمته في امور الدين وتقسفه ، هو البابا غريغوريوس الرابع عشر . فبعد ان كرر حرم المذاهب الفلسفية والجمعيات السرية ، فلم يتورع قط في توجيه اللوم الى رؤساء الحكومات لما هم عليه من فتور ديني ، طالباً اليهم مؤازرتهم بمبحث يتعاون التاج والهيكل . الا ان المفاوضات التي بوشر بها لعقد معاهدة دينية (كنيكورداتو) بين الكرسي الرسولي والدول الاخرى ، هذه المفاوضات التي تتسم دوماً بالدقة وتحف بها المخاطر والصعوبات لم تلتته الى ما يرضي مطالب الكرسي الرسولي .

فالكرسي الرسولي يضع نفسه في موضع حرج عندما يطالب الكنيسة الكاثوليكية بامتيازات ومنافع بعد ان يرفض منح مثلها للكنائس الاخرى . فهو يتجاوز عن السماح لليهود

باتقامة حي لهم في روما ، كما يتجاوز عن تركهم تحت رحمة الدول عرضة للاضطهاد في دول
اوروبا الوسطى (مع العلم ان الكاثوليك لا يتمتعون بحرية اكبر في روسيا) ، في الوقت الذي راح
فيه يطالب سويسرا والبلاد الواطية وبروسيا بالمزيد من الحرية للكاثوليك . وباسم الكاثوليك
يعارض بشدة قانون الشهادة في انكلترا كما يعارض بشدة امتيازات الكنيسة الانكليكانية في
ايرلندا . وبفضل هذا الجو من التساهل استطاع اوكنيل والرابطة الكاثوليكية ان يحققا
معاً الانتصار الذي حققاه عام ١٨٢٦ ، مسجلين بذلك المرحلة الاولى من مراحل سحب اعتراف
الدولة بالكنيسة ، كما ان الكاثوليك الاحرار في فرنسا طلبوا من الحكومة ان تقتيد بأحكام
دستور عام ١٧٨٩ الخاص بحرية التعليم فيها . وما عسانا ان نقول ، من جهة اخرى عن هؤلاء
المؤمنين والكنيسة الذين راحوا ، في كل من ايطاليا وكرواتيا وهنغاريا والامارات الرومانية
يسهمون سراً وعلاوية ، باحركات التحررية التي تقوم بها الاقليات في هذه المناطق في سعيها نحو
الحرية . أدلم ينعت وزير الدولة «الباني» ، قبيل اندلاع الثورة البلجيكية «مرعب» التحالف الذي
تم بين الكاثوليك والاحرار ضد الملك غليوم الاول البروتستانتي ! ومع ذلك فهذه الهتافات التي
تنطلق من حناجر الجماهير التي تجمعها وحدة العقيدة او الوحدة القومية والحرية ، قبيل عام
١٨٤٨ ، موجهة ضد البابا بيوس التاسع أتاحت لترنيخ ان يقول فيها : « توقعت كل شيء ما عدا
قيام بابا متحرر » . كل ذلك سراب غرار يمكن تمييزه .

ففي الوقت الذي تطل فيه على المجتمعات الكلفينية في فرنسا « يقظة » انجيلية وتكتل في
بروسيا الكنائس الوثنية والاصلاحية ، يقترح فيه المفكر السويسري فينه الكبير على اوروبا ،
الاحتذاء بالنولايات المتحدة الاميركية . وقد لقي اقتراحه استجابة لدى غيزو ولدى بعض
الفئات في فرنسا وجنيف ولاسيا في اسكتلندا . وكان المسيحيان النبلان موتلبير وتوكفيل
معجبين جداً بالديموقراطية الاميركية حيث اخذت جميع الطوائف الدينية تتنافس فيما بينها
بعد ان نعمت البلاد بفصل الدين عن الدولة . وفي انكلترا حيث راح جماعة يطالبون في اثر
ولبرفورس واشلي وتوماس ارنولد مع اتباع الكنيسة العريضة الاخذ باصلاحات تحررية ، كما قام
من جهة ثانية فريق مناهض للكنيسة العليا عرفوا باسم « المتسامحين » كانوا من غلاة الطائفة الطقسية
يطالبون برفع ولاية الدولة للكنيسة الرسمية ، فانتهاوا في تطورهم الديني عند نهج بيوزي الذي لم
يكتب لطريقته الاكتمال ، والبعض منهم عند نهج نيومان والرجوع بالتالي الى الكتلكة . ان
روح الكفاح الذي جاشت بها بعض الطوائف الدينية المنشقة (لا سيما ملة المتوديست منها)
تبلورت عن عدائها العنيف للبابوية ، هذا العداء الذي لم يكن ليزه شدة الا النفرة من المذهب
اللاعقلاني .

وهكذا بالنسبة لوضعها الداخلي ، وفي عجزها عن الصمود في وجه الاندفاع للطالبة بالحرية
لم تستطع المسيحية في اوروبا ان تؤلف لمدة طويلة ، ضماناً للنظام الذي يدعو للمحافظة
على النهج .

أفلم يخطر ، مع ذلك ، للقيصر اسكندر الاول ان يؤمن الوحدة بين السلام الاوروبي عن طريق المسيحيين عندما راح يقترح على الحلفاء ، وضع الحلف المقدس تحت حماية شرعية النظام الملكي « الثالث الاقدس غير المنفصل » ؟ وماذا بهم ان تأتوا الموافقة ، كما أتت المبادرة من صفوف بعض المتصوفين او ادعياء التقوى ، وان يكون غوته رأى في هذا الاقتراح « خير محاولة وامثلها جرت لخير البشرية جمعاء » هذه الحركة « الطنانة الجوفاء » ، كما يصفها مترنيخ ، والتي لم يرَ فيها سياسيو تلك الحقبة ، سوى المقاصد البعيدة وتحقيق السيطرة السقي راودت القيصر ، من خلال صليبية اوروبية جديدة ضد الاتراك .

والحال ، ان العدو الذي يجب وضعه تحت الانظار هو « تتين الثورة » . ان الخير الاكبر الذي حلم ميشاق عام ١٨١٤ بتحقيقه ، هو « تأمين الراحة والهدوء لاوروبا عن طريق اقامة توازن عادل بين دولها » ، اذ كان المنتصرون عاجزين كما انهم غير راغبين في اعادة اوروبا الى حدودها الجغرافية التي كانت لها عام ١٧٨٩ ، فالحق العام هو نتيجة موافقتهم ، وبعبارة اخرى هو هذه الشرعية التي تؤلف بالنسبة للنظام القديم ، ما تمثله طبقة الاشراف المستحدثة بالنسبة لطبقة النبلاء الاصلية . فالقضية لا تخرج عن كونها قضية اتفاق بين الدول المنتصرة الاربع التي انضمت اليها فرنسا البورجوازية لتؤمن معاً النظام الحقيقي ، اي توازناً يأتي في صالح هذه « السلطة الخامسة الادبية » .

وسلطت هذا الديركتوار الاوروبي تبقى غامضة ، مبهمة ، ولذا كان لا بد من التشاور وتبادل الرأي فيما بينها كلما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا اصبح مترنيخ رجل المؤتمرات اذ راح من مؤتمر فيينا الى مؤتمر فيرونا ثم الى مؤتمر مونيخ - غراتز يحاول توطيد اسس الوئام السائد بين الملوك .

الا ان هذه المؤتمرات تبقى دوغما جدوي تذكر اذ لم يكن هنالك من قوة بوليسية او حربية تعضدها او تسندها . وبالفعل فقد كان الكونت سدلنتسكي بمثابة كلب نيوفاوندلند الحارس للامبراطورية النمساوية ، بعد ان عهدت اليه ، عام ١٨١٧ مهام دقيقة قام بمسؤولياتها مدة ثلاثين سنة أولته حق الاشراف المزعج على المانيا برمتها وعلى ايطاليا متقصياً اثر اللاجئين السياسيين ومتعقباً لحركاتهم وسكناتهم في ارض غربتهم في كل من سويسرا وفرنسا . فقد عرفت هذه البلدان نظاماً من الاستثناءات القضائية منها هذه المحاكم التي قامت في عهد لويس الثامن عشر وفي عهد اعادة الشرعية في فرنسا للمرة الثانية والمعروفة بـ « المجلس العدلي » التي لا تقبل احكامها اية مراجعة امام اي قضاء ، والمحاكم الاستثنائية التي قامت في كل من نابولي ومودينا وتورينو ، في عقب الثورات التي طلعت على تلك المدن سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وعقوبة الشنق في اسبانيا اثناء الحركة الرجعية التي شجرت عام ١٨٢٣ - ١٨٢٤ . فالشرطة البوليسية والمراقبة تحد من حرية الكلام وتحكم افواه الجامعات والصحافة ، وتجور على المسرح . ففي فرنسا بين

١٨١٥ - ١٨٣٠ ، ما من مسرحية تمثلت قبل ان يتم فحصها بالتدقيق فيها جملة جملة ، ثم راح النظام الملكي الجديد المعلن في تموز يفرض غرامة مالية على المتجاوزين لقرارات الحكومة . وقد صدر عام ١٨٣٧ امر في ميلانو يمنع تمثيل رواية بوليوكت لكورتاني ، مع انه جرى استبدال كلمة « المسيحيين » فيها باتباع الزرادشتية . وانكلترا نفسها خضعت ، ولو لأمد وجيز لنظام خاص عرف عندهم بنظام القوانين الستة هذه القوانين التي اقرتها ، عام ١٨١٨ ، حكومة المحافظين في عهد ليفربول ، اضيف الى هذا كله التدخل المسلح من قبيل كل من فرنسا في اسبانيا ، والنمسا في ايطاليا ، وروسيا في بولونيا .

وهذا النظام الملكي والحفاظة عليه يتوقف الى حد بعيد ، على الموقف السلبي المفروض بالقوة او المقبول به من سكان الريف ، مع الملاحظة هنا متانة موقف الحكومات المحافظة في هذه البلدان حيث تسيطر الملكية المقارية الضخمة . ففي الوقت الذي راح فيه القانوني الالماني الشهير سافيني يؤكد حق العرف ويعليه على الحق الطبيعي والقائلون بأن الملكية حق إلهي هي ، ومعظمهم من النبلاء ويشيدون عالياً بفضائل السلم الاجتماعي المسلسل ، تولى طبقة الاشراف ولاءها للملوك : فكلما الحزبين : الاحرار والمحافظين ، يقفان موقفاً عدائياً من السلطة الشخصية ، في بريطانيا العظمى . وفي فرنسا يقف المتطرفون موقف المدافعين عن حقوق المؤسسات التمثيلية ويعطون انفسهم ملكيين أكثر من الملك . وفي اسبانيا الوسطى يستمر الخنوف على اشدّه بين البيروقراطية الملكية وبين المجالس التمثيلية . وفي كل مكان يبقى صامداً في موقفه لا يتزعزع ، من يتمتع بامتيازات مالية او قضائية ، او عسكرية . ولعل ما هو افضل من ذلك ، هنالك عدد من كبار النبلاء يتبجحون بالحرية ويؤيدون مطالب القوميات . مما لا شك فيه قط ان الخوف من الاضطرابات والاستمساك بعرى السلام حملاً البورجوازية على تبني اعادة الشرعية والوقوف الى جانبها . فاذا لم يكن للدول من حليف افضل غير المصرف (ارباب المال) فالهم الاكبر الذي يقض مضجع الحكومات الدستورية هو ان يُعترف بشرعيتها . فالملك لويس فيليب يتمسك باصرار بالتأييد التقليدي . وبفضل ماله من محدّد كريم ، استطاع ليوبولد ساكس كوبورج ان يدخل بارتياح مصف الاسرة المالكة .

كان من العسير على القوى الاجتماعية المحافظة ان تتغلب على هذه الخصومات او العداوات المستعصية التي كثيراً ما كانت الباعث الحقيقي لهذا الصراع الذي كثيراً ما يقوم بين الدول . فنظام الحكومات الخمس يفضي بأصحابها الى الجمود الموصول بينما سياسة الوضع القائم التي ترسمها فيينا وارقتستها قاعدة لها ، وجدت في وجهها الى جانب هذه الاطماع التي جاشت بها نفوس بعض الامراء ، النزعات القومية التي لا تزال تتفاعل وتتطور بالرغم من كل شيء .

الفصل السادس

الحركات القومية والقضية العمالية في أوروبا الروح التحررية والأبداعية المتفائلة.

جاء في كتاب بيوناروتي : « مؤامرة في سبيل المساواة »
« ليست الحرية سوى القدرة المحدودة على التملك »
(مؤامرة في سبيل المساواة ، المعروفة بمؤامرة
بابوف ، ١٨٢٨) .

بقي الحزب الثوري حتى عام ١٨٣٠ ، كما يؤكد كورنو ، يشد بنواجزه مستمسكاً
بالأحرار بنظريات وافكار القرن الثامن عشر ، كما ان تركه يتركه يؤكد هو الآخر ، من جانبه :
بأن تاريخنا (تاريخ فرنسا) بين ١٧٨٩ - ١٨٣٠ ، اذا ما نظرنا اليه عن بُعد ، نظرة شاملة ،
ليس سوى مشهد صراع عنيف قائم بين النظام القديم بما له من تقاليد وذكريات ، وآمال
ورجالات ، يتمتعون خير تمثيل ، في طبقة الارستوقراطية ، وبين فرنسا الجديدة بقيادة الطبقة
الوسطى . وجماعة الثورة هذه ليست سوى طبقة الأحرار . وقد حدد غيزو الطبقة الوسطى :
« هذه الطبقة التي لا يعيش افرادها على المراتب والاجر ، والتي ينبض الفكر عندها وتجدش
الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ ، والتي تستطيع ان تخصص جانباً ملحوظاً من
وقتها لبحث القضايا العامة ، اي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات
الماضية ، وبين هذه الطبقة المنصرفه للعمل اليدوي » .

وهذه الروح المنحرفة ، قوام الشرعية وعدة الشرعية الدينية على الاخص ، تقترح نظاماً هو
خير الانظمة وافضلها ، والهدف الاسمي لحقبة تاريخية طويلة من حقبة التاريخ امتدت الف سنة ،
هو الملكية الدستورية التي يوجهها اعيان البلاد : الذين جرى انتخابهم من بين المواطنين الذين تتوفر لهم
عن طريق الثروة التي تمت لهم ، ومنعمة التعليم التي صقلت نفوسهم ، الامكانيات السياسية . فالجمهورية
التي رشح دعائها صاحب الفضل واشنطون ، لها بالطبع المعجبون بها والقادرون لفضلها . غير

ان معظم اصحاب الفكر الحر يفضلون عليها نظام الملكية : « فلولم يكن من نظام ملكي ، يقول كازيمير يرييه ، لبط النظام الى درك الديمقراطية ، وبذلك تكون البورجوازية قد اضعفت سيادتها . والحال يجب ان تتمتع البورجوازية بهذه السيادة لاسباب مبدئية ، لأنها أكفأ الجميع . »

واذا كان بروز البورجوازية له ما يبرره ويزكيه ، فهي تعتبر نفسها والحالة هذه ، تتمتع بصورة طبيعية بالحرية لان لديها من الاستنارة ما يجعلها تدرك جيداً ان سعادة المجلس البشري تتوقف قبل كل شيء ، على التمتع بالحرية الفردية التي تأتلف مع تطور الجسم البشري ويؤمن سلامة المقتنيات . ولهذا الاسباب ، فالأفضل هو النظام الانتخابي او التمثيلي القائم على اساس دافعي الضرائب والصالح للوقوف معاً في وجه الفتن الجماهيرية والثورة المعاكسة .

فالروح التحررية حتى الرومانية منها ، تشجب الملكية القائمة على حق الهي وترفض كذلك التسليم بأي سلطة للاديان والكنائس وستجردها مما تتمسك به من حقوق الاحوال الشخصية ، وتملن الزواج ولا تقبل بخدمات الكاهن او خدام الدين في التعليم الا لقرض ادبي واخلاقي . وهذا العداء للاكليروس ، يقابله لا سيما في البلدان الكاثوليكية الدعاوة الدينية . ق بين ١٨١٧ - ١٨٢٩ ، اصدرت دور النشر ٣١٦٠٠٠ نسخة من مؤلفات فولتير ، و ٢٤٠٠٠٠ نسخة من مؤلفات روسو . وقد ادت هذه المناقشة الحادة في قضايا الدين ، والدهاية أو الدعاية المضادة لها ، الى حروب اهلية ، في كل من سويسرا والدول الايبرية .

والى هذا ، فمن آدم سميت وجان بابست راي الى جون ستيوارت مل ، راح علم الاقتصاد السياسي بعد ان انقلب الى الكلاسيكية ، يضع القواعد الذهبية التي تنهض عليها المصلحة الشخصية القائمة على تفهم صحيح للامور والارضاع ، وعلى المناقشة الحرة . وهذا يعني حتماً الاقتصاد الحر الا فيما يتعلق بمصالح الدولة التي تمتاز بمصالح البورجوازية .

الحركة الرومنطيقية والقوميات من مفهوم الحرية والصفات المعقودة عليها ، القدرة على إثارة وتحريك الشعور والهيا . فبيرانجييه يجعلها ، في فرنسا عروس قصائده واغانيه الشعبية ، وهكذا سكريب في مفكراته واوبر في موسيقاه . ففي صفوفها وعداد الناهضين بها ، نرى الحداة المتفنين بها ورجال الاقتصاد الى جانب العاملين في الدعوة لها والفلاسفة والمؤرخين والمناضلين حيالها . فهي تعتمد ، الى حد بعيد ، على اصوات الناخبين في الانتخابات العامة واءضاء الجمعيات السرية وحياتاً على الثوار والمحاربين في الشوارع . ففسي وضع من هذا النوع الموصوف ، التحررية انما تعني الكفاح ضد السلطة الشخصية قارة ، وطوراً الصمود في وجه الاجنبي الدخيل ، هذا الصمود الذي كثيراً ما يصطبغ بالمطالب الوطنية او القومية .

فالثورات الاميركية والفرنسية كانت في الاساس ردات فعل شعبية ، في وجه الحق الملكي

الالهى القديم . وهل يصلح لمعري التلويع وحده بحقوق الانسان مبرراً لهذه الرغبة الجماعية التي تهيب بالامم الى النهوض بعد ان يجيش في عروقها الحياة ؟ فيكون يمد هذه القوة في الكون ، في الامة الـ *Volksgeist* عند هرذر ، اما فخت فيشدد من جهته على الـ *Urvolk* بينما يراها هيتلر في الفكرة ذاتها التي يعمل التاريخ على تحقيقها . وما عسانا ان نصف به هذه المؤازرة المؤاتية تشد ازر الحركة اتفاقاً يقدمها احدهم هو شارل الليبر فريسة الاوهام والهواجس والظنون ، هذا التلميذ الاتم لجوزف دي مستر ، او يتبرع بها آخر من صف فريدريك غليوم الرابع ، هذا الفنان السقيم المزمو بالامبراطورية المقدسة ؟

والى هذا ، فمهما كان من سحر الفتوحات الفرنسية التي لا يمكن لمؤرخ ، مهما اعماه التعصب وضيق الصدر ان يتجاهلها ، ومن هذا الاثر المدوي الذي تركته في النفوس والقلوب الاجساد التي سجلها الامبراطور الكبير ، هذه الاجساد الآخذة ذكرياتها بالانتشار والذبوع ، فلا مجال لتكران عنصر المفاجأة - العنصر الاسطوري ، في التاريخ بحيث لا يمكن للمؤرخ ان يحمل قط الاثر العظيم الذي تركه التوسع الفرنسي في القارة ، فساعد على بعث المطالب الوطنية المتعددة بين الشعوب التي وقعت ضمن هذا الفتح . ففرنسا لا تزال ، حتى في سنة ١٨٣٠ ، تعطي اشارة الانطلاق والتقدم الى الامام . الا ان بيكر يضع عام ١٨٤٠ في وجه التشيد الوطني الفرنسي « المرسلiaz » ، التشيد الالمانى *Wacht um Rhein* واذا بنشيد هوفمان دي فالمرسلين : « المسانيا فوق الجميع ، بدوي عالياً مطالباً بألمانيا واحدة موحدة :

من الموز الى النيمن

من الاديج الى البلت

فمن هذا الريفي السلافي الذي يشدو متعنياً ويرقص معبراً عن تعلقه الشديد بهذا الماضي المجيد ، الى هذا العالم الالمانى الذي يكتشف بقبضة ويفهرس ويفسر ويشرح بشغف هذه النصوص والوثائق التي تشهد عالياً بخلود ثقافته الوطنية ، ثم عمل عظيم ساعد كثيراً ، شيئاً فشيئاً ، على ابراز سمات ارض هذه الجماعات التي تجيش في صدورهم الرغبة في الظهور والتجلي وعلى اثبات ما أوتيت من نشاط زاهر وما فيها من العضلات المفتولة . وهذه المطالب الوطنية تتجند في سبيل تحقيقها اجيال متعاقبة من الكفاءات والطاقات المشحونة المتعددة الالوان ، فتوحي الشعر وتحرك الاطباع السياسية وتسخر الموسيقى ، وتجنبد الغناء ، والرسم ، والتصوير والنقش والحفر ، وتستغل القانون والاقتصاد السياسي . وكل شعب من هذه الشعوب يهيم بليلاه ويفني على هواه .

فالهورى او الغرض قلما يعمل في قلب هذه الشعوب التي لم يكن لديها من سبب يحملها على التذمر من هذه القرارات التي اتخذت عام ١٨١٥ . فالكبرياء التي يجعل جون بول (انكلترا) يتيه عجباً وهو المعروف بكرمه لكل ما هو فرنسي ، لا قبل لها بهذه المطالب التي تعلن عنها

ايرلندا الفتاة ، كما ان السويد لا يمكن ان تنضم او ان تتقبل اي فكرة رمسي لنسخ المشاركة بينها وبين النرويج ، والدانمارك ليست على استعداد للاصغاء الى اي مطلب الماني رمسي لاسترداد مقاطعتي شلسويغ وهولشتاين . ولم تكن هولندا احسن استعداداً للتسليم بانفصال بلجيكا عنها . وايطاليا تتحرك وتقوم جنباتها تحت تأثير الحركة الانتفاضية التحررية التي اطلقتها جمعية الفحاميين السرية . الا ان قيام الدولة البابوية عليها جعلتها تواجه مشكلة وجدان ، فراحت الرومنطيقية القومية تبث في شبه الجزيرة « *Italia fara da se* » ايطاليا فخورة بذاتها . فخورة لعمري الا ان لا اثر لها ولا شأن ، وكثيراً ما أطل عليها النهار بفجر اليم . والحركة الالمانية المتأرجحة بين بروسيا والنمسا وعدد من الامراء من الصف الثاني ، والتي تتقاذفها البروتستانتية والكاثوليكية والمتراجعة بين الاتحاد المجركي والسوق النمساوية ، والمشعة بروح التقليدية القضائية تحمل بتحويل هذا الـ *Bund* العاجز ، المستضعف الى رايج تجهل تماماً ما اذا كان سيأتي على نطاق المانيا العظمى او المانيا الصغرى . واطل البعث السلافي على العالم على اثر اتصاله بالعلم الالمانى ، كحركة رجعية قامت في وجه الروح الالمانية المستبطرة ، رافعاً لوائى العلم والفن ، مستعيناً على تحقيق اغراضه الوطنية . بالفيلولوجيا غارة ، والشعر طوراً ، هذا الشعر الذي يرقص على انغام موسيقى جياشة . فليس افضل من شوبين على لعب دور السفير المتجول الذي يبعث الاسى ايها حل ، وينشر الشجى في قلب شعب خذلت اقداره فتعس . الا ان وقوع القوميات السلافية في اورب الوسطى تحت سيطرة عدد من الدول القومية جعلها في حيرة من امرها لا تعرف ما اذا كانت تستجيب للدعوة الصقلية : قصيرة كانت ام ثورية ، او انها تنضم تحت جناح شقيقتهم الكبرى روسيا التي تقلق منها البال وتشتغل الحاطر .

واوروبا الفتاة هذه ، سواء رهبوا امرها او رغبوا فيها ، ذات الملامح الغامضة تستبد بقلوب السياسيين ، وتشغل بال الدبلوماسيين ، فتغزو الادب وتروحي الفنون . فقد بذلت دماً غالياً ذكياً من هذه الاضاحي والشهداء تقدمهم قرابين على هيكل الفداء ، وقام من بينها الابطال يناضلون ويكافحون في سبيل الرؤى الحلوة والاحلام المعسولة ، فنزح بنوها بالألوف . وقد احسنت باريس وقادتهم . فما هو متشافتش يفنينا ايجاد بولونيا ويصف لنا اخلاق وعادات واعراف بولونيا هذه ، المضطهدة والمهينة الجناح والتي لا تُغلب مع ذلك ولا تُقهر . وهامو هاين حفي بهذه الصداقة والضيافة بعد ان وفرتها له المدينة المضيافة غيب ان تفهمته واكتنته سره ، هذا الانسان الثقيف الذي تخيفه غرائز ما وراء الرين الحربية ، واخوة « حلف الشعوب المقدس » ، الذي يحبي بيرنجيه طلوعه ، والذي يحتفظ فيه كل من كينه وميشليه لالمانيا هردر بمركز ممتاز . يا لها من فكرة جبارة !

من لا يعلق قلبه وغفله بحب هذه الامة الكبيرة كما يتصورها ميشليه ويشيد بها ؟ نودجي ، مثالي ، على كل حال ، كتابه الضخم « تاريخ فرنسا » الذي انتهى من وضعه ، بطله الاول

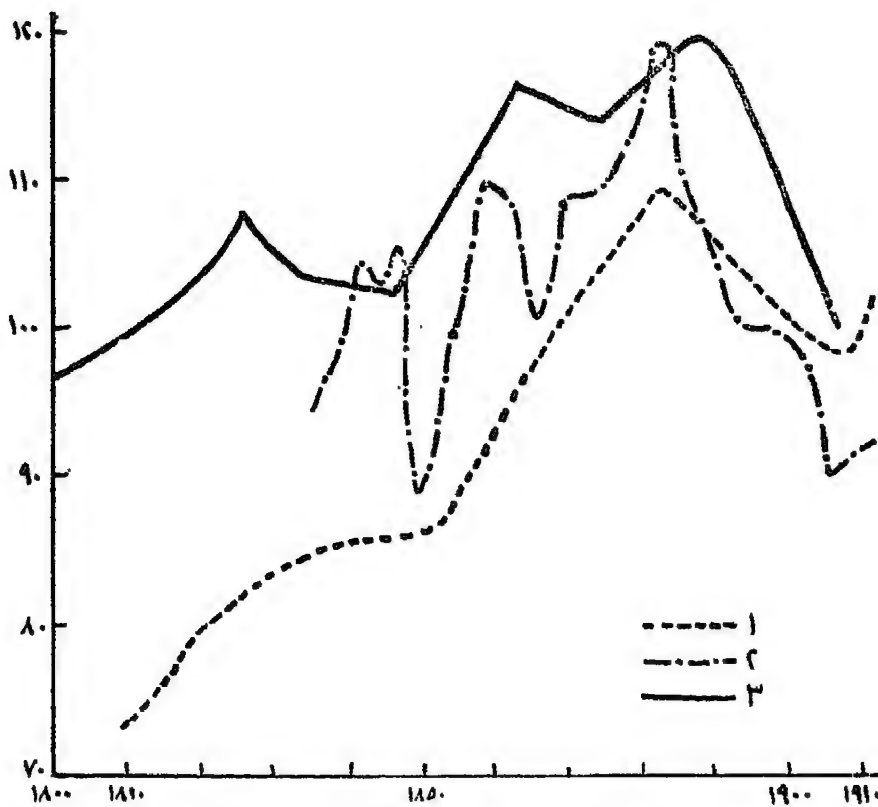
والأخير هو الشعب الفرنسي ، وليس غير الشعب الفرنسي بنزواته وغضبه ، بأفراحه وأفراحه بأحزانه ومباهجه ، هذا الشعب المجاهد الصابر ، الحبيب الى قلوب ابنائه .

اخذ البعض يتساءل عما اذا كان الوطن يمر اي انتباه هؤلاء
الذين يعملون في تحصيل أودم على سواعدهم وقوام البدنية .
فالريف لا يزال يحتضن عدداً كبيراً من اصحاب الحرف الصغيرة
الذي ليس بوسعهم ان يستغني عنهم فحسب ، بل انه في الريف ايضاً اشياء كثيرة تُصنَّع فيه
لها أدواتها وعدتها يقتضي لها الكثير من الوقت والعناء والمراس الطويل لتدر على صاحبها دخلاً
متواضعاً يدخل المسرة الى نفسه ويعتبره مسعفاً في تحمل اعباء الحياة . ومن الامور التي استأثرت
بالانتباه والملاحظة وضع عمال النسيج ، هؤلاء العمال الذين يعملون معزولين ، فرادى في القرى
والدساكر ، وضع يأتي دون وضع العمال في المدن المتمركزين في المصانع والعمال ، يخلدوت
التقاليد التي سجلتها مصنوعاتهم الفنية من الابنوسيات والبروزيات والحرفيات والزجاجيات
والمنقوشات فبرزوا نخبة مختارة من رجال الفن والصناعة . وهذا العامل ليس أسوأ وضعاً من
وضع زميله او رصيفه عامل النسيج في انكلترا وفي مقاطعات الفلاندر او رينانيا او سيليزيا .
الا اننا نرى في بعض الاوساط التي تتمركز حولها العمال ، في المناجم مثلاً او في مصانع حياكة
الاجواخ او معامل صناعة الحديد ان العامل الذي يتناول اجره من صاحب المعمل تفلقه مزاحمة
الآلة له وتزيد من البد العاملة بكثرة . ويلاحظ احد علماء الاقتصاد والاحرار هو ادولف
بلانكي ، عام ١٨٤٨ « ان الصناعة اخذت تتمركز حول معامل ضخمة هي اشبه ما تكون
بقشلاقات او سرايات او اديار ، يتكدس العمال فيها بالمئات ، وحياتنا بالآلوف ، يعملون في
مختبرات يصرد فيها النور والهواء تصريداً ، يرتبط فيها العمل بالآلة ، فيبقى مثلها ، عرضة
للحادثان ولتقلبات العرض والطلب » .

فمع تباين ظروف العيش تبايناً ملحوظاً بين بلد وبلد ، وبين حرفة وحرفة ومهنة ومهنة ،
فمن الثابت على العموم هو ان هذه الظروف لم يطرأ عليها أي تحسن يذكر في القسم الأول من
هذا القرن ، بينما تكاليف العيش السنوية لدى الاسرة العاملة في فرنسا مثلاً كانت دوماً بارتفاع
مطرود الى عام ١٨٢٥ وما تكاد تنتهي إلى اقرار حتى تأخذ بالهبوط فيها بعد^(١) . فمعدل كلفة
الحياة يرتفع اكثر بكثير من معدل الاجر الحقيقي الذي يدفع للعامل ، فمرتب عامل المنجم
الذي كان ١٠٠ عام ١٨٩٢ ، كان ٣٦ عام ١٨٠٥ ، و ٤٢ عام ١٨٣٠ و ٤٩ عام ١٨٥٠ . وقد
حدث هبوط في قطاع النسيج لا يمكن تجاهله او نكرانه . فمن ٨٠ عام ١٨٠٠ هبط الى ٦٥
عام ١٨٢٠ ، والى ٤٠ عام ١٨٢٧ ، والى ٤٥ عام ١٨٥٠ . والأدلة كثيرة تشهد غالباً على ما في
هذا القطاع من تفاوت وتناقض ومفارقات . فالعامل في مصانع كروس - روس في مدينة

(١) راجع الكشوف البيانية المثبتة في الصفحات (٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠) .

ليون الذي يعمل في صناعة الحرير ، هبط أجره الى النصف في هذه الأزمة - أزمة الهبوط - التي وقعت بين ١٨٢٤ - ١٨٣٠ . فذينة المناديل في مدينة روان ، يتراوح ثمنها ، حسب

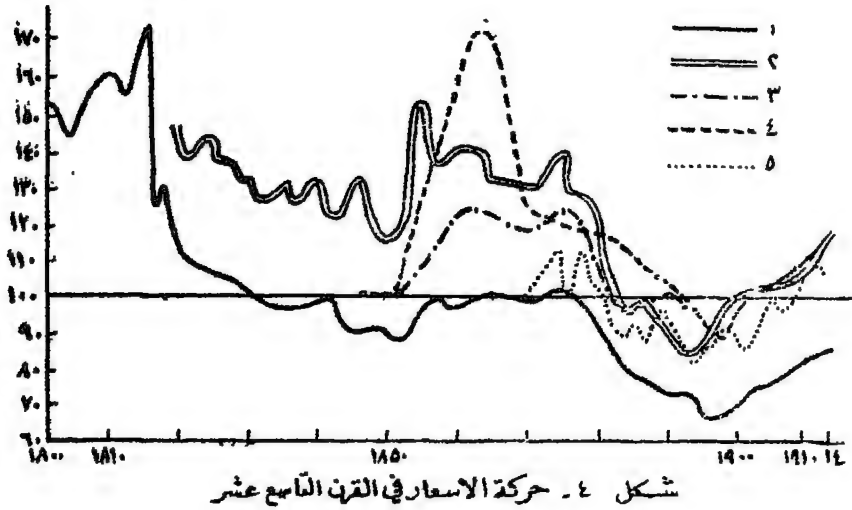


شكل ٣ - نفقات عائلة عاملة في فرنسا

١ - عائلة بدورت اولاد ٢ - عائلة من ٩ اشخاص في باريس - ٣ - عائلة من ٤ اشخاص
(مأخوذ من الاحصاء العام في فرنسا . والدليل ١٠٠ وضع على اساس سنة ١٩٠٥ للحالة الاولى ، وعلى اساس سنوات ١٨٩٥ - ١٩٠٠ للحالة الثانية ، وعلى اساس سنة ١٩٠٨ للحالة الثالثة .

عرض المنديل من ٥ - ٣٠ فرنكا ، عام ١٨١٥ ، بينما هبط ثمنها الى سعر يتراوح بين ٥ فرنك ونصف و ٤ فرنكات ونصف عام ١٨٣٠ . اما في انكلترا ، فعامل النسيج الذي يعمل في بيته ، كان ربحه في الاسبوع ، عام ١٨٤٠ يتراوح بين ٧-٩ شلن بينما بلغ ربحه ٣٠ شلن حوالي ١٨٣٠ . والرقم القياسي عند سويربيك يشير الى هبوط في هذه الحقبة ، في اسعار البضائع والسلع . فالرقم القياسي هو ٩٣ لفترة ما بين ١٨٣٨ - ١٨٤٧ ، بينما كان ١١١ في السنوات بين ١٨١٨ -

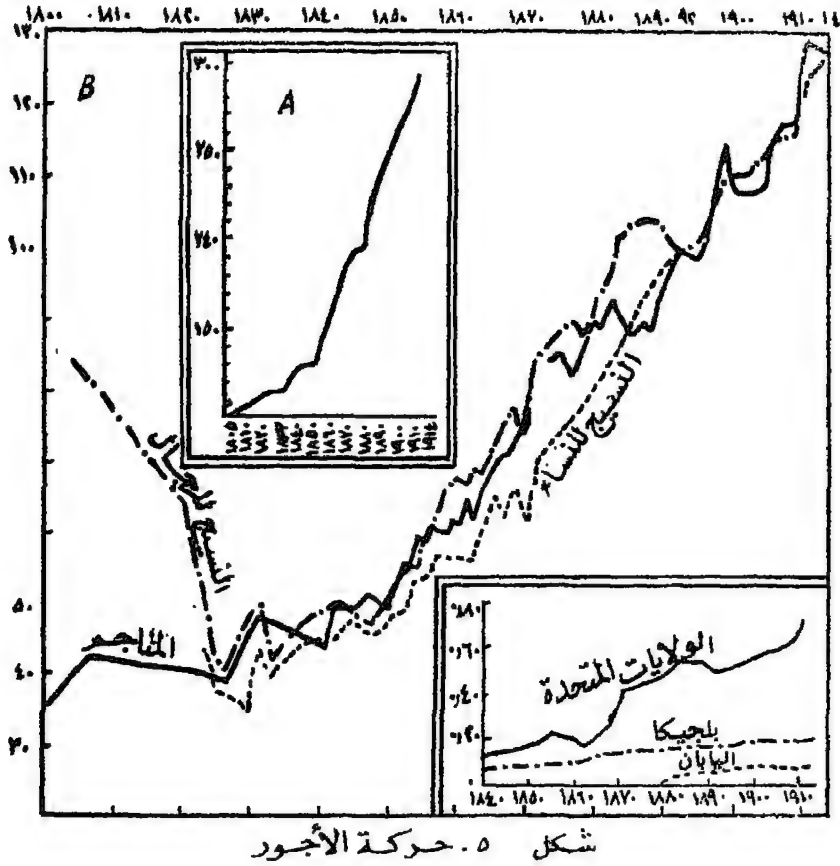
١٨٢٧، فكان باستطاعة العامل المذكور ان يحصل على الكمية نفسها من دقيق الثريد والمصيدة، بينما يحصل على نصف هذه الكمية من دقيق القمح ومن الزبدة . اما اللحم ، اما الجملة فلا اثر لها على مائدته .



- ١ - وفقاً لدليل ملبرتنغ وسوربيك : سعر الجملة البريطاني (معدل ١٠٠ : ١٨٦٦ - ٧٧) .
- ٢ - سعر الجملة الفرنسي وفقاً للإحصاء العام في فرنسا (معدل ١٠٠ : ١٩٠٠ - ١٩٠١) .
- ٣ - وفقاً لمعدل ستانلي جونز : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ - ١٨٥٠) .
- ٤ - وفقاً لجداول الايكونوميست : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ - ١٨٥٠) .
- ٥ - اسعار الجملة الايطالية : وفقاً لجداول فورماتي : الانتاج في ايطاليا (معدل ١٠٠ : ١٨٧٠) .

حري بالملاحظة هنا هذا العدد من المطبوعات التي اخذت تطل علينا منذ عام ١٨٣٠ واصفة البؤس الذي تتردى فيه الطبقة الكادحة . ان تحديد الحياة عند العامل في مدينة فانت : « ان تحبى هو ان لا تموت » كما يؤكد لنا ذلك الدكتور غيبان عام ١٨٣٥ . وهذا الوصف يشدد بالاختصاص على الظروف القاسية التي تكتنف العمل : حرارة مرققة او واطية ، عدم توفر النور ضيق المبنى ، ورطوبة المكان ، مضار المواد المستعملة وأذاها في صحة العامل ، اختلاط الجنسين والاعمار . ويلاحظ ادولف بلانكي « ان الامالات في مصانع كروس - روس تبيع الواحدة منهن ٣٠٠ فرنك في السنة ، بمعدل ١٤ ساعة عمل في اليوم الواحد على انوال تكون معها العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجليها ويديها معاً في هذه الحركة الدائمة المتواصلة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون » . وفي احد معامل النسيج في مدينة أنتسي ، جاء في احدى العرائض المؤرخة عام ١٨٤٨ ما يلي : « هنالك مراقبون لا

وجدان لهم ولا ضمير ، يسيمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل ، الفسوة الفاحشة بحيث ان عدداً كبيراً مهماً يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح . ولكن اي زريبة يجد العامل عند خروجه من العمل ؟ قليلون جداً أرباب العمل الذين يعنون ببناء منازل لائقة للسكن يركن



- A - دليل الأجور في فرنسا ، المعدل ١٨٠٦ : ١٠٠ (وفقاً للإحصاء العام في فرنسا)
 B - الأجور في فرنسا في المتاجم وصناعة النسيج ؛ معدل ١٨٩٢ : ١٠٠ (وفقاً للجداول التي وضعها ف. سميان تحت عنوان : الاجر والتطور الاجتماعي والنقد) .
 C - الأجور بالساعة في حياكة المنسوجات القطنية (وفقاً للجداول التي وضعها ف. فان هوت ، بعنوان : تطور صناعة النسيج في بلجيكا وفي العالم) .

اليها العمال . فاقبوا او الكهف ينتظروهم في مدينة ليل وفي ليفربول ، والزريبة في هوائشابل ورنس وروان ، والبيت الحطرب العالي الجدران النتن الساحة في ليون . وفي الداخل فراش من

القص قد عرف الشرشف أو الحرام غطاء في الليل ، حيث يستلقي رازحين ، ثمين ، شخصان أو ثلاثة ، يصعب عليك وصفه ، أو التعرف اليه ، مما وقعت عليه انظار ادولف بلانكي في روان وشاهده مارتن فادولدى البنائين العاملين في معمل كروز ، في باريس ، أو هذا المراقب على زرائب عمال الحياكة الفلمنكيين . فخلال المجاعة التي اشتدت وطأتها عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ، يأخذ العمال بنيش جيف الخيل ويتناهشون في تخاطفهم الكلاب والمهرة ، ويلاحظ عدد من المسافرين ان العامة في انكلترا تفتخ سعنيتها من كرع كؤوس مشروب الجن ، كما ان شعرها وسخ قدر . وكثيراً ما يصادف ادولف بلانكي في روحاته وغدواته في روان اولاداً : وشاخوا وهم بعد احداث ... ضمرت اجسادهم وقصرت قامتهم بحيث لا يستطيع المراء ان يتبين ، ولو بصورة تقريبية ، اعمارهم كما يجد في مدينة ليل « صبية احدثت ظهورهم وتقوست اجسامهم ، وشوهت اعضاؤهم ، معظمهم عرايا ليس ما يستترون به ، وقد فشت بينهم الامراض على اختلاف انواعها : كمرض الخنازير والزهرى والتدرن الرئوي وراحت تعصدهم حصداً بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بقاء البنات من الموارد العادي التي يعولن عليها عادة .

فمن اصل ٣ مواليد في باريس واحد منها يولد سفاحاً ، وواحد من ٥ في مدينة ميلهوز ، عام ١٨٢٧ ، ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل . ويروي لنا آشيل بينو « أن معظم العمال يشاهدون اولادهم يموتون دون ان يبالوا بشيء واحياناً بكل ارتياح » ، كما ان البعض منهم يعتبر نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا ما وجد عملاً له ، الا ان بينهم من يهرب من العمل ويتفاداه . وعلى كل فالاستعطون والمتشردون الذين لا حرفة لهم ولا عمل تقص بهم الازقة والطرق كما في الماضي . ان عفاظة الاور-والوار كانت تضم ، عام ١٨٣٣ ، نحو ١٦٠٥١٦ معوزاً بينهم ٨٨٦٩ من المستعطين . وفي عام ١٨٣٩ ، ارتفع عدد من يلتمس الصدقة الى ١١٠٦٧٧ ، وفي سنة ١٨٤٥ ، كان من المطلوب مد يد المساعدة وتأمين الاسعافات (١١٣) من اصل ٦٨٥٢ في مدينة نوجان - له - روترو . وفي عام ١٨٣٨ ، هنالك في محافظة الشمال ١٦٣٠٠٠ عامل من اصل ٢٢٤٠٠٠ مسجلة اسماءهم في سجلات الاحسان والاسعاف . وفي كتابه : « بين الماضي والحاضر » يرينا كارليل انكلترا تحتنتق بالغنى والثراء الفاحش ، بينما هنالك مليونان في اصلاحيات الاحداث ، و ١٠٠٠٠٠٠ من المعوزين الجياح . « هنالك طيف بشع يرزح على صدر اوروبا هو طيف الشيوعية » . كما يؤكد ماركس في بيانه ، عبداً عن خطر الاملاق والفقر المدقع .

فالشعور بعدم الاطمئنان والخوف من الوقوع فريسة البؤس
تنظيم المال
الاضطرابات العمالية المغيبة
لاعجز من ان تحمل العامل على الاخلاص للاستكانة والركون الى
الدعة والسكون . ففي المانيا حيث التحمس بالروح النقابية او
المنية لا يزال عميقاً في النفوس ، فقد اتخذ اصحاب الحرف القديمة الطراز من هذا الشعور

«تكتاة» لهم لتنظيم صفوفهم وللصمود في وجه القانون الذي ينظم المنافسة الحرة في مجال العمل . وقد بقيت قوية وطيدة ، هذه الرابطة او الجمعيات المهنية ، مثل : رابطة ابناء سليمان المعروف اعضاؤها باسم « Gavots » ، ورفاق العمل ، ودورة فرنسا وغيرها التي مها باينت بينها المصالح الخاصة لا تزال مع ذلك تشدها عاطفة من التضامن والتعاضد بين ابناء المهنة الواحدة ، والعمل على توجيههم التوجيه الصحيح .

وفي وسط هذه الجمعيات والأخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي من اهدافها الرئيسية السعي للتخفيف من الاضرار والاذى التي يتعرض لها ابناء المهنة : كحوادث العمل ، والمرض والبطالة ، وذلك عن طريق الصناديق الخيرية التي تغذيها التبرعات . وقد عدت باريس وحدها في عهد عودة الشرعية الى البلاد ، ١٣٢ جمعية مهنية ضمت ١١٤٠٠٠ عضو بينهم ٢٦٠٠ من عمال المطابع الا ان هذه الجمعيات تفتح ابواب عضويتها على الاخص للعمال الذين تمت لهم الخبرات الفنية وبعض المهارات بعد ان توفرت لهم درجة ما من التعليم ابقظت فيهم روحاً اقتصادية . واولى التعاونيات التي ظهرت في الولايات المتحدة و في انكلترا جاءت وفقاً للأورينية هذا المذهب الذي قام وفقاً لنظريات Owen في الوقت الذي طلعت في فرنسا إحدى هذه التعاونيات باسم « الرواد المنصفون » التي اتخذت اساساً لنشاطها المبادئ التي قال بها وعلم روشدال ، كما قامت تعاونية اخرى على اساس المبادئ التي قالت بها المدرسة البوشيزيانية التي كانت تطالب بإدارة حكيم . والاتحاد النقابي الوطني الكبير الذي بني عليه أوين آمالاً كبيرة ، والذي اصيب بالتسخر والانحلال من كثرة المطالب والاهداف التي وضعها نصب اعينه . فلم يحن بعد طلوع عهد النقابية حتى السلبية منها والنفعية .

فالعمال وأصحاب المهن مقتنعون جميعهم بالضرر والاساءة التي تسببها لهم الآلة . فالآلة هي عدوهم الاولى وخصمهم الكبير ومنافستهم الجديدة . فمن انكلترا حيث عم استعمال الآلة في اوائل القرن التاسع عشر ، اطلت على دنيا العمال نزعاً لتحطيم الماكينات في المصانع . فالعامل او الانسان الذي يعتمد كلياً على سواعده وقوته البدنية لكسب معاشه يقف ، وهذا امر طبيعي ، في وجه كل قوة اخرى تزاحمه او تقف حائلاً دون تأمين معيشته ، او التي تسبب في تخفيض اجره او مرتبه . ولذا تكاثرت حوادث تحطيم الماكينات والآلات في كل من فرنسا وبلجيكا وبريتانيا وسويسرا نفسها . فقد انطلقت الحركة من مدينة فرقييه في آب عام ١٨٣٠ ، مطالبة « بتحطيم الماكينات » . وعمال المطابع الذين تمردوا ضد الملك شارل العاشر في تموز ١٨٣٠ ، راحوا يطالبون بعد ذلك بسنة ، بالتخلي عن المطابع الآلية .

فالعهد عهد غليان يلف الريف والمدينة على السواء . وقد انضم عمال الكرمة في مدينة بيزنسون الى المظاهرات احتجاجاً على توحيد الرسوم ، عام ١٨٣٠ . والثورات البلجيكية التي نشبت في السنوات ١٨٤٥ - ١٨٤٦ في المقاطعة الفلمنكية عمت المجتمعات الريفية كما عمت مدينة

غُنت . وهذه الفتن والاضطرابات التي تكرر وقوعها لا يقوم بها العمال الفحامون في مناجم
اتزين او اللوار او الفحامون في المناطق الانكليزية ، بل ايضاً اصحاب الحرف والعمال المياومون
العاملون في المرافق الزراعية . وهكذا نرى العمال يسكنون عن العمل ويضربون في ولايات
البيامونت ولبارديا والبندقية ، في الاشهر الاولى من سنة ١٨٤٨ . وقد برزت الحركة تظاهرة
في الشوارع على شاكلة مظاهرات الشوارع في الثورة الكبرى . فالعمال والصناع ينضمون الى
اصحاب الدكاكين والحازن والمستودعات والى جماعات البورجوازيين في الفتن التي وقعت عام
١٨٣٠ و ١٨٣٢ ، و ١٨٣٤ ، وفي شباط ١٨٤٨ ويشورون لشؤونهم الخاصة عام ١٨٣١ وفي
حزيران ١٨٤٨ .

قمعت السلطة الفتنة التي نشبت في ليون عام ١٨٣١ بعد ما لاحظ المعاصرون ما للعائدات
من خطر وشأن . فقد كتب سان مارك جيراردن حول هذه الحادثة في جريدة الديبا قائل : ان
الفتنة التي نشبت في ليون اظهرت للناس امراً خفياً هو هذا الصراع الداخلي في مجتمعتنا والقائم
بين طبقة الملاكين وطبقة الفقراء المعوزين . . . وراح يشهر بـ « هؤلاء البرابرة » ، من نوع خاص
الذين « يشكلون خطراً » على هذا المجتمع « والقائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضها » .
وهذه الكلمات ردد صداها ماركس في كتابه : « بؤس الفلسفة » حيث جاء « فالبريه أطلت
برأسها من جديد وطلعت هذه المرة علينا من احشاء حضارتنا واصبحت من اجزاها المقيمة » .
وهذا لا يعني قط ان نظرية سياسية جديدة هي التي تحفز العمال في صناعة الحرير ، هؤلاء
« المنبوذين » كما يصفهم لامرتين ، بل هذه النقابة التي دعا الى تأسيسها مفلو الورش والمصانع
للحد من تعنت تجار الحرير والتي تعمل من وراء العمال وتعتبرهم رفاق عمل . الا ان جل ما
يطلبه هؤلاء العمال المتمسكون بتقاليدهم المريعة هو رفع اجورهم . « نحن نجاهد ونكافح
لتأمين خبزنا اليومي ، ولتوفير العمل لنا ، كما يصرحون . ولما كانوا يخشون عاقبة الحركات التي
يقومون بها ، نراهم يتراجعون عن موقفهم ويفسحون بذلك المجال للجنود لاسترجاع المدينة التي
سيطروا عليها مدة من الزمن . فقد اسفرت هذه الحركة عن سقوط اكثر من الف بين قتييل
وجريح ، الا ان اثنين حكم عليهما بالشنق بعد ان قبض عليهما الثوار وهما متلبسان بحريمة
التهب والسلب . ومن الملاحظ انه لم تقع حوادث عنف على اصحاب الممتلكات الخاصة
او العامة

وباستطاعة المجلس ان يشدد فيما بعد قائلاً : « ان الصراع الطبقي بين البروليتاريا
والبورجوازية برز الى الصنف الاول في تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدماً وتطوراً » .

واذ خشي محافظ الرون ان يرموه بتهمة الضعف ، رفع الى اولى
حرية العمل والنضال دونها الأمر تقريراً مسهباً جاء فيه : هنالك بين ٦٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠
من العمال كانوا بالفعل يتضورون بؤساً . فلم يكن بالامكان مقابلة مظاهراتهم السلمية اعراباً عن

مطالبهم المشروعة بإطلاق النار عليهم الا اذا كنا بالفعل ننوي اقناءهم بالجملة . فقد بلغ من شدة خوف اصحاب الاملاك ، في باريس ، عام ١٨٣٤ ان راح تير يعلن عالياً : « لا مكان للرحمة قط ، كما راح الجنرال بوجو يصرح بدوره : « يجب قتل الجميع ، لا رحمة على الاطلاق . كونوا بدون شفقة ... يجب القضاء على ٣٠٠٠ من العصاة » . واذا ذلك توقفت مذابح شارع ترانسونين . وقد جاءت حركة القمع ، عام ١٨٤٨ ، أشد منها واقوى .

فالمحافظة على النظام انما تعني التسييج حول العمل ومنع او حظر كل ما يمس او يوقفه . فالتشريعات الاجتماعية التي صدرت اذ ذاك في اي مكان ، انزلت الاعتصاب بمنزلة الجناية ، كما ان اي اخلال بالقوانين التي توصي باحترام الملكية وصيانتها كان جزاؤه التوقيف ، وربما السجن مع الاشغال الشاقة . وقد تناولت احكام من هذا النوع ، بضعة آلاف في السنة الواحدة .

فاجتمع غير ملزم بمساعدة من وقع فريسة العوز ، وتوفير ما يؤمن أوده دون ان يقوم بأي عمل . ولهذا استمرت انكلترا في اخذها بنظام فرض الاصلاحات على المخالفين . فالحركة الاصلاحية التي ادخلت على « سجن البؤساء المعدمين » ، عام ١٨٣٤ هي من بعض نتائج المساعي الحميدة التي قام بها المتأفرون بتعاليم بنتهام ، والمنشقون عن الكنيسة الانكليكانية في انكلترا والاحرار من اتباع الـ *Broad Church* وبعض اعضاء حزب المحافظين الاجتماعيين زاد صعوبة عملية الاختيار بين العمل الاجباري ، والتشغيل في المدينة والمهاجرة . وهكذا نستطيع ان نتفهم اليوم بصورة ادق تعلق المحافظين الالمان بالروح التعاونية النقابية القديمة ، هذه الروح التي عرفت كيف تصمد في وجه الاجراءات الاصلاحية التي حصلت بين ١٨٠٧ - ١٨١٢ والتي روي اكثر من مرة جعلها الزامية .

اما في فرنسا حيث القوانين المعمول بها تحول دون بعث الروح النقابية ، فقد راح بعض من الكاثوليك يقرحون ، بعد ان قينوا المعجز الذي يشل عمل المؤسسات الخيرية الفرنسية ، الاخذ بطريقة التحكم وتشكيل مجالس نقابية مختلطة وانشاء تعاونيات . « علينا ان نشجع العامل على استكمال تهذيبه خلقياً وعلى اكتساب طبائع اكثر انسانية وذلك عن طريق تقوية وسائل التملك والحياة عنده وانشاء توفيرات له » . هذا ما كتبه زوبير الكلفيني ومن رجال الاعمال في الألزاس . ففي كل مكان ترتفع الدعوة مطالبة بالادخار والتوفير .

وقد عدت انكلترا نفسها مجددة الحظ اذ انها تقدمت غيرها من الدول في وضع قوانين العمل في المصانع ، هذه القوانين التي خولت العمال حق الاحتكام لدى السلطات العامة عندما يتجاوز ارباب العمل حقوق الحريات المعطاة لهم ، وهي قوانين ترمي لحماية الولد . وبالرغم من انشاء هيئة تفتيش خاصة بالعمل ، كثيراً ما عبثوا بالنصوص المتعلقة بسن تشغيل الاولاد ومدى يوم العمل وضرروا بها عرض الحائط ، ولا سيما الامتناع عن تشغيلهم ليلاً ، فيفضي المفتش او المراقب مأمور الشرطة عن المخالفات . وصدر قانون جديد ، حدد بموجبه يوم العمل للولد

بست ساعات ونصف ، و ١٢ ساعة للنساء اللواتي حظر عليهن العمل في المناجم منذ عام ١٨٤٢ ، كما انه علا بأحكام الوثيقة ، نشطت الدعاية لاصدار قانون يجعل ساعات العمل في اليوم عشر ساعات فقط . واتخذت بروسيا الاجراءات الاولى للتسييج حول مصلحة العمال الصغار ، الا انها جاءت غير واقية بالمرام . اما في فرنسا فاذا ما وقفت المؤسسات التشريعية الى جانب ارباب العمل لعدم وجود دائرة خاصة تعنى بالتفتيش ، فلم يكن هذا الموقف ليملي عليها وجوب التصرف في مصلحتهم . ولذا فقد اقرت الجمهورية الثانية قانون العمل بـ ١٢ ساعة عمل في اليوم .

احلال المدرسة محل المصنع ، سياسة تتفق ومتطلبات التقنية والاخلاقية . ففيزو البرتستاني يلتقي هنا مع مطالب النحل الانكليكانية البريطانية . ولذا راح يقترح عام ١٨٣٣ المباشرة بتعليم مدرسي يتولاه اعيان من رجال الدين والدنيا . « لتحسين وضع العمال يجب قبل كل شيء تنقية نفوسهم وتوطيدها وتنويرها » . وراح مسيحي آخر مشهور هو مونتلبير ، يعلق على هذه القضية قائلا : « هنالك شيء ما تم في فرنسا مع تقدم التعليم العام : هو الحركة الاجرامية » .

علا مراة فيه قط ان الجريمة الاجتماعية تلاقى السخط في
الرومنطيقية الاجتماعية
اصحاب الضمائر الحية ، وتهيج المشاعر في القلوب الحساسة .
والنباء المدينة الفاضلة

وهذا الشعور الغامض في اعماق النفس يستحيل ، شيئاً فشيئاً عاطفة انسانية عارمة كما ان الرومنطيقية الوطنية تستخدم جذوتها امام التهمة التي يرمون بها الوطنيين من انهم سيقبون غير مبالين ببناء الوطن . فالجمعية والهيئات العاملة في حقن الاصلاح الاجتماعي كثيرة هي ، ولكل واحدة شعاراتها وتعاليمها ومراسمها ، وكلها تنطق باسم المسيحية وتنزل الله على الارض وترسم لنا صورة للسيد المسيح متحريلاً بلباس الثوار ، يزي ابن البروليتاريا . فعلى البشارة الجديدة ان تملتن ويكرز بها بانتظار اليوم العظيم . فبعد اعلان حقوق الانسان وبعد اعلان ابناء الشعب ، والبيان الصادر عن *Les Egaux* ، يطل علينا قانون ايمان السان سيمونيين وبيان الفورياريين المعنون : « الديمقراطية المسالمة » الى جانب الكتاب الذي اصدره برودون بعنوان : « ما هي الملكية ؟ » الذي يخاطب فيه الطبقة الرابعة على شاكلة الاب سيس في تساؤله : « ما هي الطبقة الثالثة ؟ » ريثما يطلع علينا البيان الشيوعي والبيان المعروف ببيان الستين وبيان الدولية الاولى .

والشعراء الفنانون ، كل منهم مؤمن برسالته . فقد جمع احد رجال المال المعروفين هو اولند رودريغس من اتباع السان سيمونيين ، عام ١٨٤١ ، تحت عنوان : « قصائد العمال الاجتماعية » نخبة من قصائد عامل القبعات كلود دسبو ، وقصائد الساعاتي لويس فستو ، والاسكافي دي لاوانت ، وعاملة التطريز اليزا فلوري ، والشاعر الغنائي بيرانجييه قدم لهم ديوانه الشعبي : « حورية القوافي » ، ووضع لامنيه على شرفهم « كتاب الشعب » ، وهوغو يطمئنهم من جهته

ويؤكد لهم قائلاً : « نحن كلنا عمال ، حتى الله نفسه . والفكر عندكم يجهد فوق ما يجهد اليد وقصب » . ولو كوفت دي ليل ينشر في جريدة « لافانج » العديد من القصائد ، والموسيقار ليست يضع للمعزف قطعة بسميها « ليون » ويقدمها للمال في صناعة الحرير ، تخليداً لثورتهم ولامرتين يكرس لهم احدى مؤلفاته (*Harmonies*) ويمتدح عالياً في مجلس النواب الممثل الوحيد لطبقة الحظ العاقر .

هنالك عدد كبير من الكتاب في المانيا الفتاة ، امثال بورن ، وهروينغ وفريليغرات يعبرون عن مثل الجماهير الشعبية ومطالبها ، والبؤس الذي يرسف فيه العمال اوحى الى توماس هود « انشودة القمص » كما اوحى لاليوت « قوافي قانون التمتع » ، ولديكنز اروع المشاهد التي تهز المشاعر ، بعنوان : « الازمنة المصيبة » ولندزرائيلي روايته المشهورة « *Sybil* » التي تصور صفحاتها بالالوان والتي تدور حول واجبات الطبقة الارستوقراطية ، اذ من اولى واجبات هذه الطبقة مد يد رفيقة للبائس ضد البورجوازي الذي لا شفقة عنده ولا رحمة . واستطاع هرزن من ان ينشي بكنسكي عن مثاليته الفن للفن بحيث يكن المزيد من العطف على الشعب « اسوة بمارات » . وراح ايرقفوس ينادي بتحرير اليهود ، والغناء النظام الاقطاعي في هنتاريا ، وتصوير المجتمعات التي يخيم عليها البؤس اتخذ هو الآخر انجماً مثيراً ، بينما حرص الطليعميون في الحركة الرومنطيقية على لباس الاخلاق المالية شكلاً مثالياً . وعلى مثل هذا النهج سار ماين في كتابه : « رحلة الى هارز » . لم يكن المطلوب منهم وضع خطة شاملة للاصلاح الا انهم وضعوا اصبعهم على الداء .

وهذه المرأة التي يشتد التعلق اليها والتي لا تزال مضطهدة ومزدرة في المجتمع ، تمهر بدقة عن مطالبها الرئيسية . فلاخوات برونتيه سلقن بالسنة حداد ما تخفيه التقاليد المرعية من رياء . وتروي لنا فلورا تريستان ، هذه المرأة السفاح التي عرفت زواجا مشؤوماً ، قصة حياة بائسة . ويشده السان سيمونيون على وجوب تحرير شريكة الرجل وقرينته . ويطالب كتاب معروفون امثال جورج صائد ودانيال سترن غير مباينين هذه الهازئين وعذل العاذلين ، بحق المرأة في التعلم وحققها كمواطنة . وتقدمت نوادي السيدات وجمعياتها ، عام ١٨٤٨ بطلب المساواة بالزواج الحر المبني على الحب المتبادل .

وقد رؤي ، تحريراً للرجل ، ان يصار الى تنظيم المجتمع من جديد . وهكذا قامت حركة رجعية ضد التحررية الطبيعية تمثلت في هذه النظريات والآراء حول التعاون والتعاقد . والسان سيمونيون يوصون باستخدام الدولة في هذا السبيل بمد ان يحدوها من شكلها السياسي ، كما يستخدمها لويس بلان لتحقيق الجمعيات المالية ، الا ان اوين ينصح ابناء البروليتاريا بان يتدبروا امرهم بيدهم وان يحكوا جلدكم بظفرهم ؛ ومدرسة فورييه لا تعتمد الا على التجميع الواعي او التلقائي ، كما يوصي برودون من جهاته بالاعتماد على تبادل الخدمات . ومعظم هذه

المذاهب الاجتماعية كما يبدو اما انها لا تعلق اية اهمية على الآلة او الماكينة ، واما انها تمسك بوضوح النزعة العمالية . فهي تتمنى ، على العموم سعادة هائلة في احضان الطبيعة . وانبياء المستقبل السعيد هؤلاء المسالمون ، يرمون الى انقاذ البشرية من الاضطرابات ومن تشتت القوى جزافاً بشكل لا يقل بشيء عن رغبتهم في انقاذها من البشاعة . فسارت سيمون يشجب « استثمار الانسان للانسان » وهو اصطلاح يتبناه الكتاب ويمضي مثلاً في الارض ، ويدعو كلا من المهندس والصير في العامل الى التعاون العام للتغلب على البؤس . وهذه الشيوعية التي نادى أوين وكايه والتي تفتقر عن بسمة الامل لا تقل رضى عن الديوقراطية المسألة التي نادى بها أتباع فوربيه ، عدوة العنف . ومقابل « الانسجيمات الشعرية » للامرتين ، والانسجيمات الاقتصادية لبستيا ، يجب ان نذكر الانسجيمات الاجتماعية التي قال بها اصحاب هذه النظريات . فراح البعض يصفهم بأنهم غير واقعيين او عمليين ، اذ انهم كما يقول فيهم المجلس : « لا مندوحة لهم من التعويل على العقل لوضع اسس بنائهم الاجتماعي الجديد » . فالخط الذي رسموه يلتقي بتوماس مور عبر فلاسفة القرن الثامن عشر .

من بين هذه النداءات التي طلعت علينا ، هذا النداء الذي ماركس وردة الفعل التي قام بها أحدث اكبر واضخم دوي في العالم والذي اطلقه ماركس بعنوان : « نداء الحزب الشيوعي » بعد ان تعاون على وضعه في اواخر عام ١٨٤٧ ، كل من كارل ماركس وفريدريك انجلز ، كلاهما عضو في هذا الفريق الثوري الالماني ، من سكان مقاطعة رينانيا ، العامل في المنفى . كان فانيهما ابن عامل يعمل في صناعة النسيج ، نشر بحثاً بعنوان : « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » ، عقب اقامته القصيرة في منشستر درس خلالها التنظيم الذي كانت عليه الصناعة في تلك البلاد . « فقد ظهر له - كما يؤكد لنا - بأن الامور الاقتصادية التي لم يعرفها التاريخ ، حتى ذاك ، أي وزن وكاد يهملها بالمرة ، تؤلف ، أقسه في عالمنا الحديث ، قوة تاريخية حاسمة هي اساس الصراع القائم اليوم بين الطبقات » . اما الاول منها ، فهو سليل اسرة بورجوازية من اصل يهودي وعلى مذهب هيفل الفلسفي ، خرج من نقده للمثالية التي قال بها هيفل ، الى نقد الاقتصاد السياسي . فبعد ان احتفظ من الفلسفة الهيفيلية بالنهج الديالكتيكي الذي يحسب حساباً كبيراً للحقيقة المتغيرة وانتهى للقول بفلسفة مادية غير اخلاقية ولا فردية - كما يقول النفعيون - بل تاريخية ، اي انها ترى في العلاقات الاجتماعية القائمة نتيجة احتياجات انسانية وذرائعها المتحركة . وبعد ان اتخذ موقفاً له المبدأ القائل : « بأن ليس ضمير الانسان هو الذي يحدد نهجه في هذا الوجود ، بل ان النهج الذي يسير عليه الانسان هو الذي يحدد ضميره » ، راح يؤكد مع الجناح اليساري للهيفيلية ، ان الانسان هو الذي يخلص في فكرة الله وليس الله هو الذي يخلق الانسان . وهكذا وصل الى فكرة تحول الانسان . وهذا التحول ليس في وسع الانسان منعه الا بتغلبه على المتناقضات الحاصلة من صراعه مع الطبيعة ، وبتجاوزه .

المستمر للظروف الخاصة التي تكتنف حياته . فاذا ما رأى نفسه ، في آخر المطاف مضطراً ليعطن في بيانه « بأن تاريخ المجتمع البشري برمته ، لم يكن حتى يومنا هذا سوى تاريخ طبقاته المتصارعة فيما بينها » ، فلأن هذه الطبقات تتكيف وهذه الفئات الاجتماعية هي التي تتصارع فيما بينها ، وصولاً منها للتحكم بوسائل الانتاج . ففي مجتمعا البشري اليوم يقوم صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الاقطاعية ، كل منها تعتمد نظاماً اقتصادياً خاصاً بها . فبمجرد استيلائها على الملكية العقارية ، تولف البورجوازية ، بالضرورة ، طبقة غصاة او منازعة ، بينما تروح البروليتاريا تسعى بالضرورة ، هي الاخرى ، تأميناً لحريتها ، للقضاء على هذه الخصومة التي تسببت بانشاء البروليتاريا . وقد تبين ماركس في الدولة الحديثة ذريعة او آلة في خدمة الطبقة المسيطرة . ففي تحطيمه لها تحرير بالتالي ، للانسان . الا ان الفرد لا يمكن ان يتحرر الا ضمن طبقته وبواسطتها . نحن هنا امام غائية انسانية يرمى معها ان يبلغ الفرد البشري قفصه الكامل في مجتمع لا اثر للطبقات فيه . ففي البروليتاريا مناط هذا الامل المأمول . ومع اسقاطها مبدأ العدالة ، فالماركسية لا تتمرى ، والحالة هذه ، من كل مثالية .

ومها جاءت فكرة ماركس ونظريته الفلسفية ، اصيلة فهي تتصل بنظريات ريكاردو حول الدخل والربح والاجر ، ونظريات سيسمونيدي حول تجريد الرأسمالي لصاحب الاجر ، من كل شيء . فهي تميد الى الازمان اقوال بيكور الذي كثيراً ما ردد بأن الآلة تقضي الى الحشد في الصناعة ، وهذا الاخير الى وجوب وضع آلة الانتاج تحت ملكية المجتمع وسيطرته . فأمام ما نرى من مفارقات البذخ والبؤس في البلدان الأكثر تطوراً في اقتصادياتها التي تنهض على التبادل التجاري الحر ، نرى بالإضافة الى ذلك ، هذا الاقتصاد يحيش بعوامل وتفاعلات ثورية من جراء تصادم المجتمعات الديمقراطية والراييكالية ، واليعقوبية والوثائقية . فلا يمكن فصمها عن هذه الحركة الدولية التي تعمل ضد النظام القائم الذي اتخذ محاوره الكبرى في كل من لندن وبروكسل ولا سيما باريس . فقد كان لاقامة ماركس في باريس ومكثه الطويل فيها ، تأثير عميق على بنياته السياسي .

تجر العجلة الصناعية التي تزداد سرعة يوماً بعد يوم وبشكل لا يقاوم (ميشليه ، ١٨٣٤) وزاءها القوى الديمقراطية التي تعتمد الروح التحررية في صراعها ضد النظام القديم ، وادهى ما تخشاه هو ان يتم طلووعها . وهكذا تسببت البورجوازية في بعث الطبقة الرابعة ، وليس من يدري قط ما اذا كان بالامكان تأمين الاتفاق فيما بينها ، وفي اي مكان ، في هذه الشعوب التي تعتمد النظام النيابي او التمثيلي .

الديمقراطيون والثوريون
الراييكالية والوثائقية

ليست الديمقراطية في الظاهر سوى فرد تشبع بالروح التحررية ويسلم بالاقتراع العام . «صوت الشعب هو من صوت الله» ، هتف الشاعر ، وعيناً يتحدث لمرتين عن القفز في المجهول ،

فهم لا يسمعه الا التسليم بأن الامر قضي به على هذا الشكل . يتحدثنا كورميين عن « الايمان بسيادة الشعب » . ولكن هذه الرمزية ، يعترف ارستوقراطيون مشهود لهم بالاطلاع الواسع امثال شاتوبريان وقوكفيل ، بما لها من قوة وسحر ، لنهوضها على المنطق واعتمادها عليه . فالاقتراع الشعبي المستنير المثقف ، من شأنه ان يقي ، في اضعف الايمان ، من العنف ، وان يطأ طىء برأسه امام الكفاءات .

فهما بلغ من غموض النظام الجمهوري ، فالماصرون الذين عاشوا تجربته المريرة يعيدون الى الازهان ، ذكر الحوادث الكالحة التي حدثت عام ١٧٩٣ . اما في ايطاليا والمانيا ، فحفظ هذين البلدين منها مربوط بقدرتهما على تحقيق وحدة الامة . كذلك شأن اي انسان يرد الحروب الى خناقات الملوك بعضهم مع بعض ، يتمنى من الصميم طلوع عهد الجمهورية العامة .

أما فرنسا ، فالبلبله السائدة فيها يغذيها هذا الوضع الديموقراطي الخاص القائم على النظرية النابوليونية . صحيح ان روبسبير وسان جوست ، هما الآخران ، انصارها ومريدوها . غير ان نابوليون فهو يتمتع في البلاد بشيء ما يشبه ما يكون بالعبادة وقد رسخت على الأصل واعرقت بين صفوف صفار القوم على الاخص . ففي حالة وقوع اي اضطراب ، فالوريث الشرعي لهذه الاسطورة التي تأخذ بمجامع القلوب يبرز للجميع كالنقذ الوحيد للنظام ، هذا النظام الذي يراه قادراً على الخلق والتجديد . فاللبس والغموض يفيدانه ويزيدان من الحنين اليه والتلهف عليه . « عد نابوليون ، وانزل قصرك وكن ابناً باراً للجمهورية » ، هذا ما كانت تردده احدى الاغنيات الشعبية ، عام ١٨٤٨ .

فاذا لم يقم في انكلترا ما يمس بمقاطعة الولاء للنظام الملكي ، هذا النظام الذي وطد اركانه وشدد من دعائمه حكم الملكة فكتوريا السديد وادارتها الرشيدة ، فالقلق الاجتماعي المسيطر على البلاد يضع وجهاً لوجه هذا النصف مليون من اثرياء القوم هنالك ، اصحاب الامتيازات والاعفاءات ، مع هذه الملايين الثمانية من الفقراء المعوزين . فقد ساد تلك البلاد مزاج خاص من الراديكالية المتصلة بحبل وثيق بالبيوريتانية المتزمتة التي يتردد على لسانها القول المأثور : العمل صلاة ، شعار ديموقراطية الاكفاء أمام الله . وبفضل الحالة الفقيرة الآخذة بالاحتدام ، تستبد بالأفكار اكثر فأكثر ، فكرة الصراع الاجتماعي المكشوف الذي يدعو اليه علانية فرغوس او كنور ، وفرونتير اوبريان ، وكلاهما ايرلنديان ، ومن ابناء ايرلندا المنحدرين ، راج الاخير يترجم الى الانكليزية كتاب بيونارثوتي عن بابوف ، فربط بين براءة الشعب التي تطالب بالاقتراع العام ، والفاء طبقة اللوردات ، وبين وثيقة اعلان حقوق الانسان التي صدرت في فرنسا عام ١٧٩٣ . غير ان الصدام العنيف المتوقع لم يحدث وذلك لاضطرار زعماء الوثيقة للتسليم بأن كويدين وبيل بكسبهما معركة الرغبة بسعر رخيص ، اقاما الدليل على ان امام النظام الرأسمالي دور كبير يجب ان يلعبه . فالجلس الذي وضع آنذاك كتابه حول الطبقة

العاملة في أنكلترا ، وماركس عضو العصبة الشيوعية فكراً عميقاً بنتائج موقفهما هذا . وهكذا ختما بيانها بالدعوة الى تضامن البروليتاريا في جميع أنحاء العالم هما بحاجة لمناصرة الثورة وللوقوف الى جانب الثوار في القارة . فاذا ما راح الراديكاليون في فرنسا على طريقة لودري - رولن ، يشجبون بحماس ، اكثر مما جرى في المانيا ، الاشتراكية (استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة ، عام ١٨٣٧) فلم يتورعوا عن التحدث عن الجمهورية الديمقراطية والاشتراكية . ومهما يكن ، هنالك في باريس اوغست بيانكي وانصاره ، وكلهم شيوعيون ملحدون ، يعتقدون بوجود مؤامرة انتقاذ . والحال فقد لعب فيليبو بيوناروتي ، حتى ساعته الاخيرة ، دوراً بارزاً ، اذ كان بمثابة اداة وصل بين جمعية الفحاميين والبيانكيين والوثائقيين ، وبين البعوثيين والبابوفيين من انصار الثورة الفرنسية ، وبين دعاة البعوثية الجديدة وانصار البابوفية الجديدة الذين أخذوا يعمون اكثر فأكثر ، القطيعة القائمة بين البورجوازية والبروليتاريا .

في عهد سيطرة الحلف المقدس ، راحت المنظمات والفئات
عهد الجميات السرية والدسائس
السرية التي وضعت نصب اعينها تقويض السلطات القائمة
وفورات الشوارع في اوروبا الغربية
وهدمها ، تنظم صفوفها في الحففة . وقد رمت من وراء
نشاطها السري هذا الى توفير عنصر المفاجأة ، وبفتة أطلت الفتنة برأسها ان لم تقل حركات
الانقلابات العسكرية . انها أمر ضروري ولا شك ، ولكنها مزاج خاص ايضاً . فالرومنطيقية
تتعشق الظلام والانقلابات العسكرية .

فاذا لم يكن من الراجح ، الظن بأن مؤامرة ماسونية كانت وراء ثورة عام ١٧٨٩ ، فليس ما
يؤيد الادعاء كذلك بأن الماسونية هي التي بينت للحركات الثورية التي وقعت بعد الثورة
الحكبرى بأربعين او بستين سنة . فقد اقامت لها علاقات صريحة مع الحكومات منذ اليوم
الذي تقدمت منها بطلب التسامح الفعلي . فهي ثورية المسلك والطابع ، في هذه الاقطار
الواقعة الى الجنوب من اوروبا ، تحديداً منها هذه النظم الملكية الكنسية او المستبدية التي
تنتصب في وجهها وتسد عليها الطريق . فقد جعلت فلسفة الانوار منها في روسيا ، حركة
محافظة تحترم النظام الجاري الاخذ به . وما لا شك فيه مع ذلك ان الثورة الموصوفة *décabriste*
التي انطلقت عام ١٨٢٥ ، سببها المباشرة اخلاق المحافل الماسونية عام ١٨٢٢ ، بعد ان استمرت
البابوية ، منذ القرن الثامن عشر على شعب الماسونية بعنف كلي وتحريمها . ولذا استمر
الصراع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية . وهذه المنظمات او الجماعات التي نفتها كل من
البابوات اقليمس الثاني عشر ، وبندكتوس الرابع عشر ، بـ « ضارة » ، تؤدي ليس فقط باستقرار
الدول وهدوءها ، بل تؤلف خطراً شديداً على النفوس ، .

ففي البراءة الرسولية التي اصدرها البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٢٦ ، « يلاحظ ان من هذه

الجمعيات الماسونية القديمة التي لم يفتقر لها نشاط قط ، طلعت علينا عدة جمعيات سرية أشد كراهية منها ومقتاً . فيذكر منها منظمة « الفحامين » التي « وضعت نصب اعينها قلب الحكومات الشرعية والقضاء على الكنيسة » . رأت جمعية الفحامين هذه النور في مملكة نابولي واستطاعت ان تقيم لها شبكة من الفروع غطت كل ايطاليا وامتدت الى كل من فرنسا واسبانيا . وقد عرفت ان تكتسب لها اعضاء كثيرين بين افراد جيش نابوليون . حاولت هذه المنظمة عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ تنظيم فتنة ضد الشرعية في فرنسا . وبالمقابل نشطت دعاية قوية في الاوساط العسكرية ، في كل من بولونيا وروسيا . واثارت بمناسبة وفاة القيصر اسكندر الاول فتنة (*décabriste*) . الا انه انطلقاً من ١٨٣٠ ، اقتصرت الانقلابات العسكرية على اسبانيا . وحدها . والمطالب الشرعي بالعرش النابوليوني ، حاول عبثاً مرتين مفادرة جزيرة ألبا .

ففي هذه الجمعيات ذات النزعة الجمهورية التي تكاثرت وجودها ، لا تزال روح الفحامين تغمرها وتسيرها . فالغاية المتوخاة من الدس والتبئيس الاهداد لانقلابات جديدة . وكلما توارى المنصر العسكري عن الانظار بتواري « قدامى » الحروب المظفرة ، ازداد بالتالي اقبال العناصر المستنيرة واطعاء المهن الحرة وحق العمال على الانخراط في هذه الجمعيات التي جاشت في نفوس اعضائها فكرة الجمهورية الديمقراطية والاجتماعية .

ولما كانت اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات هي التي تستأثر بالسلطة ، كان يكفي على ما يبدو لاسقاطها ، مهاجمتها على حين غرة . « فيوم » الثورة ، حيث يصفى الوضع في بضعة ساعات - هو عبارة عن حرب في شوارع العاصمة . فخطط المدينة تستجيب جيداً لمهاجمة جيش نظامي يضطر للتناور والتحرك بين الاحياء والحارات والمنازل المرتفعة ، وهو اعجز من ان ينتشر او ان يستعمل بنجاح المدفع ، بينما يسمى الثوار من جهتهم ، الى تحويل هذه المنازل الى حصون مرتجلة يطلقون النار منها على افراد الجيش بنجاح او على الواقفين امام الشرفات او على السطوح .

والمهم في هذه الفتنة ، المتاريس التي تقام في الشوارع . فأمر اقامتها يسير اذ يتخذ منها الثائر ملجأ يطمئن اليه ويخلق منه مركز دفاع جديد لا يمكن القضاء عليه بنيران البنادق ، فيبعد من تقدم صفوف الجند الذين يحاولون اجبار الحي على التسليم ، كما يساعد الثوار على الالتفاف حول المباني الحكومية للاستيلاء عليها . ووضع حد للفتنة المشتعلة المسلحة يقتضي الجيش المزيد من الضحايا ، الا اذا ضعفت المقاومة امام عناد الثائرين وصمودهم . ففي الحالة الاولى تطلع علينا المذابح الهائلة ، في باريس عام ١٨٤٨ ، ومعارك فيينا في تشرين الاول ١٨٤٨ . ثم يتدخل عنصر التهدة على طريقة هوسمان وينتهي الامر بسيطرة المدفع . اما في حال نجاح محاولة الانقلاب هذه ، تأتي الخسارة في الارواح اقل . وتتوقف اعمال القتل مع توقف الحرب واعمال المقاومة . ان قمع الفتنة وانكسارها قد يؤدي الى هدر دماء كثيرة ، ويزج الالوف في السجون ، كما

أن عدد الذين يأخذون بالنزوح الى الخارج ومفادرة البلاد فسيثضاعف يوماً بعد يوم .

تهجرون قبلنا هذه الارض اللعينة
بعد ان يقف الله فيها الى جانب الاقوياء
حيث الفقير يرسف في السرداب عبداً وترذل ذريته
وحيث المجاعة لا تستطب الا بالموت الزوام

(لويس مينار « تحية الثوار » حزيران ١٨٤٨)

الثورات الاوروبية ١٨٣٠ - ١٨٤٨ نابليون .
فعمد الثورات الذي اطل علينا عام ١٧٨٩ ، لم ينته بانتهاء

فالحزة العنيفة الاولى التي تعرضت لها مقررات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وقعت ١٨٢٠ -
١٨٢١ ، وهي هزة تعرضت لها بالاحرى مقاطعات الجنوب المتخلفة في تطورها ، ولم يلبث ان
قمع التدخل العسكري هذه الفتن التي قامت في شبه الجزيرة الاسبانية والاطالية على اكتاف
اقلية ضعيفة العدد والعدد . الا ان الثورة التي انطلقت في اليونان طال حبلها وانتهت بالفوز
بفضل اطماع الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة ، امثال روسيا وانكلترا وفرنسا .

اما الثورات التي شبت عام ١٨٣٠ - ١٨٣١ ، وفي سنة ١٨٤٨ - ١٨٥٠ ، فقد ارتفع لها
عالياً فاكثوت اوروا بنيرانها اللافتة . ولم يبق في مأمن منها غير الامبراطورية الروسية .
والسلطنة العثمانية التي لم تنج من الحريق ومن سقوطها فريسة بيد محمد علي ، صاحب مصر ، الا
بفضل دسائس الدول الكبرى . وبما لا مراء فيه هو ان التوقيت المتزامن لم يكن من الدقة
بحيث تستقيم له اسباب النجاح . فاسبانيا والبرتغال اللتان لم تعرفا الاستقرار طويلا عرفتا
فترات من الاضطرابات الداخلية . والاتحاد السويسري استطاع ان يقضي على الاقلية القديمة
قبل وقوع الاصطدام العنيف عام ١٨٤٨ .

«وما هي الثورة الفرنسية تتأجج نيرانها من جديد وتندلع - كما يصرح توكفيل عام ١٨٤٨ -
بعد ان تماثل الوضع وتشابهت الظروف ، ودكتاتورية السلامة العامة لم تظهر الا لفترة قصيرة .
وبصورة استثنائية ، في كل من روما والبندقية ، وبودابست . واتفق كذلك ان الدفع
الرومنطقي هبط وانحط بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها وانكشف الحلم عن خيبة امل مريرة
وتحطمت الجهود . وعلى كل فقد علمنا ثميدور ان لا ينتظر طويلا ، فارترافع اللهب لحظة
ويخف ، فتضطرب المجالس الدستورية للاخذ بتسويات غرارة ، والحصون التي وقعت في
ايدي الثوار لم تلبث ان افلتت من ايديهم ، كما ان القوميات الثائرة سرعان ما يصيبها البهر
وعسر التنفس .

وعندما برزت بلجكا للوجود انهارت بولونيا ، من جهتها . ففي غربي البلاد بورجوازية

مستثيرة ، بينما في الشرق ارسنوقراطية عقارية هي اعجز واضعف من ان تعصف في وجه نفوذ الملكية المتشعبة بالكثير من الامتيازات. فعلى مكيفيكس ان يحسب الف حساب لتزارتورسكي . والثورة في بلجكا انطلقت ضد جوزف الثاني ، قبل عام ١٧٨٩ وجاء زوال جمهورية كراكوفيا قبيل عام ١٨٤٨ ، تكريسا لاقتسام بولونيا نهائيا ، هذا الاقتسام الذي شرعوا به في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وبعد ان فتنتها النزعة التحررية ، لم تماشى البورجوازية التيار الاصلاحى الاجتماعى الا بمقدار ما تكنه هذه الاصلاحات من احترام للملكية الخاصة وتوطد اصولها . فالفناء عبودية الارض يؤلف لعمري اجراء من اهم الاجراءات التي طلع بها علينا القرن . فالمؤتمر الوطنى في فرنسا اعطى المثل الصالح في هذا المضمار ، فسارت على النهج ذاته بريطانيا العظمى ، كما ان الجمهورية الثانية جاءت تدعم قرار الجمهورية الاولى وتشدد عليه . والتقاليد التي كرسها ثورة عام ١٧٨٩ ، قضت بتحرير الفلاح من جميع العبوديات الاقطاعية ، وثورة ١٨٤٨ التي رفعت بعيدا حتى حدود روسيا ، عبودية الارض والرسوم السيادية ، جعلت اوروبا الوسطى ، في وضع مطابق لوضع دول الغرب من هذه الناحية . الا ان الخوف المستحوز على العامل يرغم على اتخاذ موقف معاكس ، كل هؤلاء الذين يرون فيه ، ناقلا للفوضى ، والموصل الى الجماعية . وهذا الهاجس الكبير الذي جثم على صدر سنة ١٧٨٩ ، واستحوذ على الفلاح والبورجوازي الفرنسي خلال ازمة المواد الغذائية الحادة ، كان من بعض نتائجه ان ذلك معالم العهد القديم من الاساس ، والازمة الاقتصادية التي اشتدت حلقاتها بين ١٨٢٦ - ١٨٣٢ ، عرفت ان توحدا ثارة ، وان تقم الواحدة ضد الاخرى طورا البورجوازية والبروليتاريا دون ان تحرك طبقة الفلاحين طبعا . أما أزمة ١٨٤٥ - ١٨٤٨ ، فبالرغم من انها شجعت سكان الريف في بلدان اوروبا الوسطى على التحرر ، فقد عجزت عن تحريك الطبقة الثالثة (طبقة الشعب) وفشلت بالتالي في ما رمت اليه من ذلك النظام القديم دوغا رجعة ، بينما اثار في فرنسا موجة جديدة من الهلع الكبير ، الذي اثاره « المطالبون باقتسام الثروة » و « الحر » . « ضاع كل شيء » في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٤٩ ، كما زعم بلزاك ، « ويبدو انكم يا سيد اراغو لم تذوقوا ابدأ طعم البؤس » ، اجابه احد ثوار حزيران . وقال بوجو لثبير عام ١٨٤٩ : « يا لهم من وحوش ضارية . كيف يسمح الله للامهات ان يتصرفن على هذا الشكل ! هؤلاء لعمري الاعداء الحقيقيون وليس الروس او النمساويون ! » . وبالفعل فالعامل نفسه يتورع كثيرا في تصرفه عندما يتصرف للطبقة المحروقة ، اذ ليس من غريزة توجهه الى ما فيه ضمانه مباشرة ، وهو حق في العمل يلوح به عاليا على رؤوس الأشهاد ، بينما يحل تماما ، وهو امام البورجوازي الذي يبادر في الحال الى خلع قبعته عندما يقف امام الجندي ، كيف يفك القيود التي تكبله ، ولن يلبث ان يرى نفسه بين احتمالين لا ثالث لهما : اما الموت واما الرضوخ والاستسلام .

« أفضل عندي بكثير ٩٣ على ٤٨ ، كان هوغو يصرح وهو في طريق الاغتراب والنفى . أفضل
الف مرة رؤية الجبارة يتمرغون في الحواء على رؤية المففلين الاغبياء يتخبطون في حثاتهم » .
حكم قاس لعمرى ، انما يعبر احسن تعبير عن المرارة التي تنغص حياة هؤلاء المثاليين ، ثمانية
واربعين ساعة التي قلى هزيمتهم . درس قاس لعمرى هؤلاء الديموقراطيين والاشتراكيين الذين
يضطرون للتطلع الى المستقبل ، بعد ان يتفحصوا بدقة الامكانات المتوفرة ، كما فيه عبر ايضا
للكنيسة الكاثوليكية نفسها التي يترتب عليها تجديد رسالتها بصورة اوضح . الا ان هناك
بعض الافتراضات تفرض نفسها بعد لم يعد بالامكان الركون الى أوهام الرومنطيقية ، والتعويل
عليها بالكلية .

الفصل السابع

بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم الدفع الاستعماري الجديد بعد فترة من السهول

هنا نصبنا علم الحرية ، وهنا امتحان لدرجات الناس على
حكم انفسهم بأنفسهم .
(رولت هويتان في كتابه : « حشد القوى - ١٨٤٦ »)

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم
في العالم الجديد

بدت على نظم اوروبا الاستعمارية في اميركا عوارض التفسخ
والانحلال ، وذلك نتيجة حتمية لهذه المنافسة الحادة التي
اقامت الدول الاوروبية الكبرى بعضاً على بعض ، من جهة ،
ومن جهة ثانية ، نتيجة النظام الاستعماري نفسه الذي كان موضع نقد وقذمر .
وهذه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على « الاستثناء » انتهت الى الفشل التام في
هذه الاقطار التي تمذر على البرق الابيض فيها التفكير ، والسمي الى رفع كثافة السكان بين
الملونين . فقد قام في وجه هذه السياسة معارضة شديدة من قبل المعمرين الاوروبيين في هذه
الاقطار التي ألفوا فيها العنصر الاقوى . وبما لا شك فيه قط ان قيام الولايات المتحدة الاميركية
وتحقيقها الاستقلال الناجز ، بعث الامل وحرك الهمم بين الاقوام المطالبة بحقوقها الطبيعي في
الحياة ، كما ان مبادئ ثورة عام ١٧٨٩ ، ونفوذ فرنسا الادبي وسيطرتها كان له الاثر البعيد
في ما وراء المحيط . ففكرة التحرر تفلقت بين شعوب المستعمرات وابقظت فيهم البوعسي
ورغبة صادقة في التحرر السياسي تخلصاً من ربة القيود الاقتصادية التي احكمت قرضها
البلد الام (١) .

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٣٤٤ و ٥٩٠ (الطبعة العربية) .

فاذا ما اعتبرنا ، من جهة ، ثورة اميركا اللاتينية ، مرحلة حاسمة في القضاء على الاستعمار المستحكم في بلدانها والقائم على « الاستثناء » ، فقد لمب مع ذلك الانكليز ، في هذا المجال دوراً بارزاً . ففي حروبها ضد نابوليون ، اضطرت بريطانيا للرد على الحصار البري المعلن ضدها لانتهاج سياسة اقتصادية اكثر انطلاقة لتتجه من اسواق العالم الجديد . فقد ظهر لها بوضوح ، بعد عام ١٨١٥ ماعليه الاسواق الاوروبية من ضيق ، كما قام في وجهها سياسة من الحماية الجمركية كان لها صدها في حمل الولايات المتحدة الاميركية على رفع رسومها الجمركية ، كما ان الازمة التي نشبت في المملكة المتحدة حملت هذه الجزيرة القائم نشاطها على التجارة ، على تحرير اسواق قارة بأسرها واستخلاصها من سياسة « الاستثناء » التي اخضعتها لها دول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي الوقت ذاته راح اسطول صاحب الجلالة يمارس في المحيط الاطلسي حق الزيارة (او حق التفتيش) وهو حق اعترفت له به المعاهدات الدولية المعقودة عام ١٨١٥ ، مكافحة منها لاعمال النخاسة . كذلك ان نشاط حركة الهجرة بين البيض وانشاء مستعمرات إسكان « لاسيا البريطانية » ، اوجب البحث عن بديل جديد او صيغ جديدة في ادارة وحكم هذه المقاطعات النائية حيث يغلب العنصر الاوروبي ، بحيث ان افضى استقلال الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي بلدان اميركا اللاتينية ، الى نظرية جديدة او نهج جديد في الاستعمار هو نهج الحكم الذاتي الذي عرف ان وفق بين مطالب البلد الام ومصالح مستعمراتها عبر البحار .

في عام ١٨١٥ ، كادت الشرعية تعود بكامل مستلزماتها الى
تحرير اميركا اللاتينية
حروب الاستقلال
دول شبه الجزيرة الايبيرية والى ممتلكاتها الواسعة في القارة
الاميركية ، ولما كانت قوى الثورة في هذه المقاطعات سيئة
التسلح ، ومشتتة تتوازعها اراض شاسعة ، فقد باءت المحاولات التحريرية التي قامت فيها بالفشل ،
مع العلم ان البريطانيين المنهمكين بحروبهم مع فرنسا ومع الولايات المتحدة الاميركية ، لم يكن
في وسعهم قط التدخل في هذه الثورات ومعاضدتها بصورة ناجحة .

فكيف تغيرت الحال بأخرى وانقلب الرضع غيره يا ترى ؟ فالصعوبات التي اعترضت سبيل الثورة وارتهنت نجاحها بقيت لعمري قائمة ، كانهزال مراكز الثورة بعضها عن بعض بما يبعد بينها من مسافات شاسعة تغشى الحشائش والاعشاب والغابات الملتفة في غرناطة الجديدة ، او تفترشها السهول المرتفعة الجرداء المترامية الاطراف بين البيرو والشيلي ، سهول اولبيا الواقعة بين الشيلي ولابلا وسلسلة جبال الاندس الشاهقة الارتفاع حيث تكثر الفيض والبطائح والمستنقعات ، والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها الثورة من جانب كبير من الطبقات الموجهة التي لم تسقط من حسابها احتمال قيام الهند بحركة تأثرية ، وتأرجح الكنيسة وتردها اذ كانت قتميب التسبب بزال سلطة تقليدية صديقة ، والخصومات العنيفة والمنافسات الحادة التي جاش بها زعماء الحركة ففترقوا معها مشارب ومطالب اذ توقعوا ان تنصدي لحركتهم التحريرية قوات

أشد تدريباً ، وأكفأ تسليحاً وقيادة مما تم لهم من هذا كله ، وعدم توفر أية صناعة لديهم
تستطيع مبدئياً بالسلاح وقزويدم بالعتاد الحربي الذي لا بد منه لتسليح فرق المتطوعة من
ابناء الريف واضطرارهم للتحويل ، قبل كل شيء ، على الاسعافات التي قد تصلهم من الخارج .
ومع ذلك ، وبالرغم من هذه النواقص ، هنالك امكانيات تتوفر الآن لم تكن متوقعة من قبل
غذت فيهم الامل بالفوز والنجاح ، تمثلت في حركة القمع العنيفة التي قامت بها السلطة الحاكمة
فولدت في النفوس احقاداً مشبوبة وبغضاً ازرق وضغائن عنيفة ، كما امكن ان يعملوا ، من جهة
اخرى ، على تدخل الدول البحرية الكبرى التي تهيمن اساطيلها على البحار ومؤازرتها بصورة
اوسع ، وفعالية اكبر وواقع ،

واشتدت روابط التعاضد والتضافر بين طلاب الحرية وناشديها من كلا جانبي المحيط ، كما
اشتدت روابط التضامن بين الاميركيتين الشمالية والجنوبية . فالثورة التي ارفع لهيبها في
لشبونة ، عام ١٨٢٠ اجبرت الملك جان السادس على مغادرة البرازيل والعودة الى البرتغال ،
تاركاً جماع السلطة فيها لابنة دون بدرو . كما ان الثورة الاخرى التي نشبت في قادش اربكت
فردينان السابع وشلت فيه كل حركة . غير ان استئثار الاحرار بالسلطة ، في شبه الجزيرة
الايبيرية ، ولو لآمد وجيز ، شجع الكنيسة في تلك المستعمرات النائرة ، على الوقوف الى
جانب حزب الاستقلال ، فساندت ثورة إيتوربيد في المكسيك . وتقديراً للمعاذير التي يثيرها
اعلان الجمهورية في الربو ، راح كبار الملاكين ينادون بدون بدرو ، امبراطوراً على البلاد ، بينما
تطرح بريطانيا بكل ثقلها في كفة الميزان التي يرفرف فوقها خط الثورة ، ولم يصعب
عليها وجود المفاخرين والمسكريين المسلحين الذين يتطوعون لتنفيذ المهام التي سيمهد بها اليهم .

ومنذ عام ١٨١٩ ، استقبلت واشنطن ممثلاً لبوليفار بعد ان سبق لها واعترفت بجمهورية
كولمبيا الكبرى والمكسيك .

اظهرت الولايات المتحدة كل استعداد لديها لتقدم لها كل ما يحتاجان اليه من مساعدات
مالية وعناد حربي . وبعد ان احتجبت حكومتها لندون ضد تدخل فرنسا وضد مؤازرتها لفردينان
السابع ، اقترحت على الاميركيين اصدار تصريح مشترك بتأييد استقلال الجمهوريات الجديدة .
فاذا لم يشأ مونرو الارتباط بأي وعد صريح ، فقد ساعد التصريح الذي اذاعه عام ١٨٢٣ ، في
توطيد هذه الجمهوريات الناشئة ، كما رأى كاننغ ، من جهته ، ان يعترف بالامر للرائع . ففي
سنة ١٨٢٤ ، حدث في أياكوشو انهيار آخر مركز للقوامة الاسبانية في تلك البلاد ، ولم يبق
لمدريد سوى جزيرتي كوبا وبويرتو ريكو . اما تحقيق مثل هذه النتائج المحسوسة ، فقد تم
بعد سبع سنوات من الجهاد العنيف والحروب الدامية ، كانت محكاً قاسياً لشجاعة هؤلاء
الثوار المطالبين بالاستقلال ، ولقوة احمالهم ولمهارتهم تحت قيادة زعيم ارثجيل ارجمبالا هو الزعيم
(كوديلو) الذي اعطى كل طاقاته .

وقد لمع في هذا الصراع المحتدم اسمان ، وبرزت شخصيتان هما : بوليفار وسان مارتن ، كلاهما من مواليد المعمرين الاغنياء ، متميلان من الفنون الجميلة واعجاب تاريخهم القديم . برز اولهما في كركاس وطلع الثاني في بونس ايرس . كلاهما على اطلاع واسع على امور اسبانيا لاقتهاهما رداً من الدهر في اسبانيا . فالشاب الفنزويلي ذو العاطفة المشوبة والذي فقد زوجته وهو ابن ٢١ سنة ، طوف في جميع اطراف اوروبا وقبس من التجربة والحبرة ما حنكه في العمل الذي ندب نفسه له ، متوجهاً بأنظاره نحو الاجنبي ولا سيما نحو الانكلوسكسون ، بعد ان تبين ما هم عليه من قوة وبأس وبعد أثر ، يعلو قامته رأس جاش بعظام المقاصد ، جذاب ، شديد الفتنة ، له القدرة على ان يحير ورائه الهنود دون ان ينفر منه كبار الملاكين . وقد أوتي من قوة الاحتمال وطول الأناة ما لا يتوفر بعضه للقليل ، مع ما تعرض له من مسببات اليأس وبواعث القنوط . فقد عرف ان يفرض النظام وروح الانضباط على افراد جيشه ، الا انه عجز باعتباره زعيماً مؤقتاً ، ان يؤلب حوله كل القوى الراغبة في الاستقلال .

ومع رغبتها الصادقة بتجريد اسبانيا والبرتغال من كل مستعراتهما ، فقد حرصت الدول السكندينية ، مع ذلك على ألا تشجع كثيراً قيام اميركا لاتينية موحدة . وبوليفار الذي كان يخشى كثيراً وطأة او ضغط وحدة سياسية من هذا العيار ، نزع في الصميم الى انشاء اتحاد فدرالي شبيه بهذا الاتحاد الذي تم في اليونان قديماً على يد فيلبس المقدوني . فكانت مدينة كورنثس مركزاً له . ولكن هيئات ان تلعب بنأما دور كورنثس ، اذ ان كولومبيا الكبرى ليست بمقدونيا ، ورومان هذا العصر القابعون في جزيرتهم ، في المحيط الاطلسي ، حريصون على زرع بذور التفرقة والانشقاق .

وهكذا برزت اميركا اللاتينية لدى وفاة المنفذ الاكبر (لبيب اتور) سوقاً ضخمة مشرعة الأبواب امام سادة البحار وارباب التجارة والاعمال ، لم تلبث ان ازدادت تفسخاً ، كما ان الفوضى استحال فيها مرضاً عضالاً .

في الوقت الذي عجزت فيه اميركا اللاتينية ان تحررها ، من توسع الولايات المتحدة وامتدادها تشكيل اتحاد فدرالي فيها ، اخذت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب المفظرة التي خاضتها ضد انكلترا بين ١٨١٢ - ١٨١٤ ، تلسع وتمتد جغرافياً بسرعة مذهلة حتى انها أطلت في الغرب على مشارف المحيط الهادي ، وما ان طلعت سنة ١٨٥٠ حتى كانت حدودها من هذه الناحية بارزة للعيان ، واضحة ، واقتسام اميركا الشمالية الذي بقسي مرجحاً لا يستقر تماماً على وضع معين واحد اوحد ، مستقيم ، انتهى الى وضع ثابت . فالروس اقتطعوا لأنفسهم المقاطعة المعروفة بالاسكا التي كونت عبر مضيق بهرينغ استطالة طبيعية لسيبيريا ، والقسم الذي كان اسبانياً لعهد قريب ، اقتصر الآن على المقاطعات الواقعة حول المنطقة

الاستوائية بعد ان اقتطع الاميركيون الاراضي الواسعة التي ألقت قسماً من المكسيك في الشمال. وجاءت معاهدة اوريفون توزع بصورة حبية القسم الاكبر من هذه الغارة بين بريطانيا والاتحاد الاميركي . ومع انه لم يخطر لسياسي واشنتون اذ ذاك ، ان يضموا خطة شاملة يستشرفون فيها صوى تطورهم الصاعد في المستقبل والعمل على تحقيقها ، فقد جاءت ، مع ذلك ، عوامل عديدة كالاسكان والحاجة المستمرة الى اراض جديدة ومحاربة الهنود واستئصال شأفتهم ، والرغبة الخفية في التحرر من الضغط البريطاني وحتى من الروس في الشمال ، والحد من الامتداد اللاتيني ، وغير ذلك من ظروف عارضة ، ساعدت على تجميع هذه الرغائب وتحقيقها . الا انه جال في رأس أولي الامر من الاميركيين ، افكار توسعية برزت بوضوح من خلال الازدهار التجاري الذي نعم به الاتحاد الاميركي وبناء اساطيل تجارية وحربية ضخمة ، سام ، انهاك اوروبا بحروبها المتصلة ، على تحقيقها . وهكذا قامت ضد الشركات الروسية والانكليزية ، ولا سيما ضد الشركة المعروفة بشركة خليج هدسون الاميركية للفراء ، بإدارة ألماني مهاجر يدعى استور كان خير من يمثل مصالح الجمهورية الفنية ، هذه المصالح التي راحت اميركا تدافع عنها ، محذرة بلسان رئيسها مونرو ، من مقاصد الروس واهدافهم التوسعية ، وبإخراج بريطانيا شيئاً فشيئاً من هذه الشراكة في السلطة على مقاطعات الاوريفون .

صحيح ان الاستيلاء على هذه الاراضي جاء متقطعاً . فقد ترك تحقيق مراحل الاستيطان والاسكان الزراعي والراعي والتعديني ، مساحات شاسعة غير مشغولة . فالابيض يتطور على حساب الهندي الاخر بعد ان يسلبه ارضه التي يظمن اليها ويتحرك فيها على هواه ، هذه المنطقة التي لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار لما يحف بها من مخاطر ، فيضرب خيامه في ارض معادية ، في هذه المنطقة المتحركة المتنقلة التي يعرفها الاميركي بالحدود ، والتي شهدت صراعاً خفياً ، لا يرحم ولا يلين منذ القرن الثامن عشر ، لا ينتهي الا في اواخر القرن التاسع عشر . والقائمون بهذا الصراع الخفي الفامض هم على الغالب ، رواد مغامرون في بحشهم هن الاصفر الرآن ، وقد اجتذب سناؤه من بعيد هذه الألوف المؤلفة من سال لعابهم على بريقه ولعائنه ، فتركوا لنا في سعيهم اليه وتكالبهم عليه حوادث لها وصف رائع في هذه القصص والروايات التي تركها لنا فنيمنور كوبر و واشنتون ايرفن .

وفي اثر هؤلاء يهبط العطاش الظامثون الى الاستقلال ، الى الوحدة ، هؤلاء الهزازون الذين يمشون في هذه الحيرة الحمومة ، بانتظار المدينة الفاضلة ، المثل ، رمز المدينة السايوية ، بميدن عن الخطيئة والخطاة ، بمزل عن الشركين الضالين . ولعل ابرز هذه الجماعات ، جماعة المورمون الذين يهبطون ضواحي البحيرة المالحة الكبيرة ، حيث يؤسسون لهم مملكة القديسين : صهيون الجديدة . وهذا الغرب البعيد يفتن بسحره الاخاذ ، هؤلاء الاوروبيين الذين اخذوا يرون في اميركا ارض الميعاد الجديدة التي عليها يتوقف تحقيق هذه المثل الخيالية التي راودت افكار

وخيال اقباع هذه الجماعات الدينية التي طلعت جديداً ، امثال الـ *Owénistes* في نيو هارموني من اعمال ولاية انديانا ، والـ *Icariens* في مدينة نوفو ، من اعمال ولاية أليوني ، وفي تكساس ايضاً فئة الـ *Sociétaires* ، واخيراً وليس آخراً اصحاب بدعة الـ *Mennonites* كما يتوارد على حوض نهر المسيسيبي ، بأعداد تأخذ دوماً بالارتفاع والاتساع ، البريطانيون والاييرلنديون ، والالمان والسكندنافيون الذين غادروا بلادهم تحت وطأة البؤس والمسكنة او تحت عوامل الضغط السياسي الذي كثيراً ما تعرضوا له .

واميركا الفتاة هذه التي بوقت انسانيتها بخشونة وغلظ اقصرتها على تربية الماشية والأعمال الزراعية على نطاق واسع ، في هذه المروج والسهول المترامية الاطراف ، ذات التربة المعطاء والاقليم القاسي . فما يكاد المعمر يطل بقامته الفارعة الطول من وراء جبال الابلاش الملتفة الأحرار ، حتى يفضي به المطاف الى سهول جرداء ، حيث تغمره وحشة مخيفة ، عليه ان يتدبر امره بأي حل وحال . ولما كان لا مال عنده ، كان عليه ان يستلف ويستدين ليؤمن حاجته من البذار معولاً على الموسم لتسديد دينه . وهذا الغرب البعيد النائي الذي يصلح الطباع ويوحى الى ساكنيه الشعور بالمساواة ، ويحرك روح المغامرة في النفس ، يدور بالفعل ، في فلك الولايات الشرقية مع انه يمد المؤخرة بالكثير من حاجاتها للحبوب واللحوم ، وهكذا تنظر الى الساحل المنبسط امام المحيط الهادي نظرتها الى مستمرة نائية . كان الاتحاد الاميركي يضم عام ١٨٥٠ نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد سكانه عام ١٨٢٠ ، تسعة ملايين لا غير . فكان خط العرض ، المار بمدينة تسيرغ المحور الذي يمر فيه العمود الفقري للسكان ، بمثابة محور الانتاج الصناعي يقع في بلطيمور وضواحيها . فشبكة الخطوط الحديدية جمعت بين شيكاغو وسان لويس قبل عام ١٨٥٢ ، ومع ان الولايات الأطلسية اخذت تتحسس بهذه الروح الاستقلالية التي جاش بها الغرب ، فلم تكن على استعداد قط للتخلي عن سيادتها وسيطرتها .

وهذه الجمهورية الفتية تلفت النظر بمؤسساتها ونظمها الوطيدة . روح واشنطن وجيفرسون فيها هو ميشال شيفاليه يقف مشدوهاً امام الانجازات المادية التي حققتها ، والطاقت الاقتصادية التي تتوفر لها . فتوكفيل يرى في هذه الاوضاع التي تمت لها دليلاً قاطعاً على متانة هذه الديمقراطية ورسوخها ، وبشيراً بمستقبل زاهر عظيم . فهل نجحت يا ترى الحرية على التأقلم في هذه الديار دون ان يطراً عليها أي زيغ او انحراف أو ان تصاب بأي سوء ؟

فالتطور الديموغرافي الذي أخذت بأطرافه لا يمكن رده الآن الى هجرة كثيفة واسعة . فالنازحون اليها بين ١٨٢٠ - ١٨٤٥ يزيد عددهم قليلاً على المليون . ففي عام ١٨٥٠ ، نرى مهاجراً واحداً يدخل البلاد مقابل ٩ ولادات . فالشعور الاميركي الاصيل يستبد قوياً بالسكان الذين اخذت نفوسهم تحيش بروح اميركية صرفة .

وهذه الأوساط الاجتماعية التي استقر عليها وضع هذه الأمة الجديدة هي التي تتولى التوجيه في البلاد وتستأثر بإدارتها . فسكان الريف في هذه الولايات المعروفة بأنكلترا الجديدة وفي بنسلفانيا من ذراري البيوريتيين المزمتمين في أمور الدين والمتوديسات الذين جاؤوا البلاد من قبل بكثير ، قد حافظوا على بساطة النفس في اخلاقهم ومعاييرهم ، فانقطعوا للأعمال اليدوية ينتجون شيئاً من كل شيء ، واتخذوا من قراءة الكتاب المقدس عادة لهم واستمسكوا بروح الديموقراطية المحافظة .

اما على الساحل حيث تكثرت الخلجان العميقة ومصببات الأنهر العريضة ، فقد قامت بوجوازية ناشطة انقطعت للمشاريع والانشاءات البحرية والأعمال التجارية الواسعة : كتجارة الرق وتجارة الروم وصيد السمك ، وكلها أعمال عادت على اصحابها بثروات واسعة استثمروها في تجارة الشاي والتوابل فالحرير وانشأوا دور صناعة ضخمة لبناء السفن ، امننت للاتحاد ربحاً من الدهر ، أقوى اسطول تجاري شرعي في العالم ، واست لها صناعة ضخمة للنسيج والحديد تبشر بمستقبل عظيم . وهؤلاء الأغنياء الحديثو النعمة الفوا في البلاد طبقة من النبلاء توطدت علاقاتها مع الانكليز واقتبست الكثير مما طلعت به الحضارة البريطانية وشمعت بأنفها على الملكية وطبقة النبلاء في البلد الأم سابقاً . وقد تجملت ثقافتها بنفسها على الوجه الاتم . فهذه المثالية التي يمثلها خير تمثيل أمرسون ، هذا الوزير التوحيدى المذهب والطريقة التي صرح عنها عام ١٨٣٧ قائلا : « طال اصفاءنا لهواتف أوروبا وموحياتها . فقد حان الأوان لأن نمشي على أرجلنا وان نعمل بأيدينا وان نمبر عن خواجلنا وهواجسنا وافكارنا » .

وهذا التطور الصناعى الذي حققه شعب انكلترا الجديدة ونيويورك وبنسلفانيا ولتد في نفوس القوم هناك عقلية اقتصادية سيطرت على العقول . فمنذ عام ١٧٩٠ ، اقيم في مدينة بتسبرغ مصب كبير للعديد ، وارتفع عام ١٧٩١ أول مصنع في البلاد للنسيج في ولاية رود ايلاند وفي سنة ١٨١٠ ، استعملت لويل احد مساقط نهر مريماك لتوليد القوة المحركة ، فأنشأت في هذا السبيل شركة خاصة اشترت الارض وشيدت عليها مصنعاً وبنت مدينة ، فبلغ انتاج العمل ٣٨٤٠٠٠ نول لحل القطن عام ١٨٤٠ . الا ان عدم توفر اليد العاملة وقلة كفاءتها وغلأها جعل المصنع المذكور يعمل اكثر فأكثر على الآلة . كما ان ارباب العمل المذكور اتخذوا الطريقة الابوية في معاملتهم للعامل . وهكذا نرى في لويل ٥٠٠٠ امرأة ينزلن بنسبونات يقوم على ادارتها ارامل تدفع اجورهن من حسومات يقتطعها ارباب العمل ، مع تأمين الوسائل الصحية والتقيد بأوقات الخدمة الدينية في مواعييدها المعينة . وعيناً قامت نقابات عمالية مطالبة بتطبيق العمل على القاعدة التي تقول من الستة الى الستة بدلاً من شروق الشمس الى مغيبها ، وعيناً يخطب فرنسيس رايت نصير المرأة وأحد انصار فلسفة أوين حول صراع الطبقات امام حشود من حزب العمال . إلا ان ارباب العمل أصبحوا آذانهم امام هذه المطالبات متعللين بحرية العمل وراحوا يسعون للتحكم

بالأسواق الداخلية . كان باستطاعة الاثرياء ان يؤمنوا حاجاتهم من انكلترا ، امسا الاصناف المحلية الصنع فيجب ان تخضع لنظام التعرفة ، بعد ان صدر بذلك عام ١٨١٨ قانون كان بالنسبة للسفن الأجنبية بمثابة قانون الملاحة في انكلترا . وهذه السياسة المستوحاة من مبدأ مونرو يمكن اعتبارها بمثابة استقلال البلاد الاقتصادي .

ومن حسنات قانون الجمارك هذا ان ادى الى تغذية ميزانية الاتحاد ، كما أتاح للحكومة فرصة لتأمين وضع سليم لمالية الدولة . وقد برز ، في الشمال ، نفوذ رجال المال وذلك بإنشاء البنك الوطني وانتهاج سياسة تخفيض النقد المتداول في البلاد ، وهي سياسة سببت الكثير من المتاعب والازعاج للدينين والمتعهدين في الغرب . وقد غصت سجون بوسطن بالمشات من الموقوفين لتأخيرهم عن تسديد ما يستحق عليهم من ديون . وراح الجنوب الذي كان يعتمد في معاشه على محصول التبغ والقطن يتذمر من فداحة نظام التعرفة الجمركية فألف شيناً من التحالف بين صفار الملاكين وكبار المزارعين ضد هذه الاوليفارسية المالية والصناعية كان من بعض نتائجه ان حمل الى الحكم انصار جاكسون الديموقراطيين ، عام ١٨٢٨ .

من الامور المتعارفة في الولايات المتحدة أن للحكم هناك قاعدتين يقوم عليهما تتمثلان في هذا الفريق من اصحاب الاعمال في الشمال ، وارتستوقراطية كبار الملاكين في الجنوب ، هذه الارتستوقراطية التي امدت البلاد حتى الآن ، بالقسم الاكبر من السياسيين الذين جلبوا الاستقلال الى البلاد وشكلوا الاتحاد ، امثال واشنطن ورجال فرجينيا ، بينهم : جيفرسون وماديسن ومونرو الذين تعاقبوا ، مع آل ادامز من سكان بنسلفانيا ، على رئاسة الاتحاد الأميركي .

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي الذي لا ينصرف فيه الأبيض للعمل في الأرض ببله ارادته قام في البلاد نظام اقتصادي اساسه الزراعة نهض على مزدروعات واسعة امتدت من ضفاف نهر البوقوماك حتى بلغت مشارف خليج المكسيك ، قوامه اليد العاملة والملكية العقارية الكبيرة وهو نظام لم يلبث أن اكتمح بنسلفانيا على يد فريق من الهولنديين والمهتزين (الكويكرز) ، وامتد الى ولايتي ماريلاند وفرجينيا اللتين تألف منهما ما يعرف هناك بـ « نطاق التبغ » . فلم يكن من النادر قط في هذه الولايات أن نرى بين اصحاب الأطيان الكبيرة ، من يملك ٢٠٠,٠٠٠ هكتار واكثر . الا ان جمعيات المزارعين كان معظمها يتألف ، في كارولينا وفرجينيا على الأخص ، من الملاكين المتوسطين الذين تتراوح الثروة العقارية لدى الواحد منهم من ١٠٠ — ٣٠٠ هكتار بحيث ان ١٠,٠٠٠ أسرة فقط كان للواحدة منها ٥٠ عبداً من أرقاء الزوج . هنالك لعمري طبقة من فقراء البيض تتألف من الـ *Crakers* ومن الـ *Sandhillers* أفرادها اميون كسالى ، يسكنون الزرائب ويكونون بفضاً ازرق للزواج . وكان هؤلاء الزوج يقطنون ، على

الغالب زرائب واكواخ ضيقة ويحبون على العمل بين ١٦ و ١٨ ساعة في اليوم الواحد، وضعهم في فرجينيا أرقى منه في أية ولاية أخرى ، وسمي جداً في مزارع الأرز في ولاية كارولينا ، يعيشون حياة الحرمان والبؤس متسكعين في جهل مدقع ، ومع ذلك عُرفوا النكتة وخفة الدم ، يهون الغناء على الطريقة الأفريقية الشعبية (الجاز) ، كما عرفوا ان يفوزوا خلال خدمتهم ، بثقة اسياهم ، يراعى جانب الزلمية الموضع التي فرضت نفسها . فاذا ما كان الدين يوصي ابناء حام بالخضوع والخنوع ، فاللامبالاة التي تقرأ على سيئاتهم تخفي وراها الكثير من المشاعر الدفينة . الا ان الغاء النخاسة وتحرير عدد كبير من الزوج ادخل في روع البعض ان تجارة الرق تلفظ انفاسها الاخيرة . الا ان اختراع هويتني للمحلاج في عملية حلج القطن واشتداد الحاجة الى الزوج ، في كل من اوروبا وانكلترا الجديدة ، بعث المزيد من النشاط في هذه التجارة . واقبل الجنوب على تنشيط زراعة القطن ، وعمرى بشيء من الهوس الجنوبي من اشجارها الاراضي التي تطل على مشارف خليج المكسيك حيث غلبت زراعة القطن الطويل التولة ، والقطن القصير التولة . وكلها زراعات يقتضي لها الكثير من اليد العاملة . وبالرغم من تزايد اليد العاملة ونموها المتصاعد فقد عجزت ، مع ذلك ، عن الوفاء بمطالب زراعة القطن وحاجتها للعامل بعد أن اخذ الانتاج يتضاعف كل عشر سنوات . وقد ركن المزارعون الى اسواق النخاسة لتأمين حاجتهم من اليد العاملة من الزوج ، مما ادى الى ارتفاع اسعارهم حتى ان بعض البلدان راحت تنظم عملية تربية « ماشية الملونين » دون ان يؤمنوا أمور تغذيتهم بالقدر الكافي ، واستطاع تجار النخاسة في كوبا وغيرها أن يؤمنوا لهم ارباحاً طائلة ، كما ان التشريع اخذ ينزع الى الحد من تحرير العبيد والحؤول ما امكن دون هربهم من المزارع .

فالمزارع يقطن عادة منزلاً رحباً له شرفات عالية تقوم على حفا في الأعمدة وينعم بأثاث وثير هو على الغالب من صنع انكليزي ، متخرج على العموم من جامعة هارفرد او أية جامعة أخرى وتمت له ثقافة عالية ، ويستسلم للذة المطالمة في اوقات فراغه ويستقبل في منزله عدداً كبيراً من الأصدقاء ، ويهوى الصيد والقنص وسباق الخيل ومشاهدة مصارعة الديكة ، ويقيم الولائم الفنية ، ويشترك بإدارة الناحية ، كما يُعهد اليه عادة بإدارة الشرطة ، كما يتولى الاشراف على العمال في مزرعاته ، ويهجه أن لا يمتثل إلا لصوت الانسانية ولطالبها الحق ؛ إلا أن وضعه مرتبط الى حد بعيد بتقلبات المواسم والاسعار ، اذ كثيراً ما كان يحيا في مستوى يفوق امكاناته المادية ، ولذا كثيراً ما رأى نفسه بحاجة للاستدانة والاستلاف من التاجر الذي اعتاد شراء محصوله من القطن أو التبغ . ولما كان كثير الاعتداد بمنزلته ، فقد تألم كثيراً في قرارة نفسه من هذه التبعية التي اقصر عليها أرباب الثروة وأصحاب رؤوس الامال في الولايات الشبالية .

والدستور الذي عمل به منذ عام ١٧٨٩ ، جاء مطابقاً للروح الذي جششت في صدور

أصحاب اليسار والدعة ، ويتفق تماماً مع ذهنية بلاد تتعدد فيها الملل والنحل ، لا يحسن أتباعها الانقطاع الى عاداتهم ومناسك عقيدتهم الدينية الا في ظل التسامح الديني . فقد أعجب تركفيل بالطريقة التي تتوزع معها السلطات العامة في البلاد التي جاءت وفقاً لما فصله مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» وبالنشاط الذي تزخر فيه المجتمعات البلدية هنالك ، وهذا الورع المدني الذي يبعثه في النفس مخافة الله والاحتكام الى المحكمة العليا عند طغيان الهيئات السياسية وخروجها على القانون. صحيح ان الشكل الاتحادي تغلب ، في نهاية الامر على صيغة التحالف ، وكل ما لا يدخل بشكل او بآخر في اختصاصات مجلس الكونغرس او حكومة الاتحاد ، يبقى ضمن اختصاصات الولايات او الشعب . فالنزعان الاتحادي والجمهورية اخفقتا تماماً ، في هذه الفترة التي سيطرت فيها المشاعر الطيبة . فالتسويات النافعة والمفيدة أنيط امرها بهذه المؤسسات التي تعمل بطوعية ومرونة ، منها على الأخص التسوية الحبية التي تميز بها حل مشكلة الميسوري ، هذا الحل الذي تم وضعه ، عام ١٨٢٠ ، وضمن المستقبل وأمنه ، وأجل البت بقضية ما اذا كان سيعول على العبد او اليد العاملة الحرة في بلاد الغرب . وقد خشي على النظام من أن يؤول انتخاب جاكسون للرئاسة ، الى الاخلال بحبل الأمن في البلاد ، بعد ان وصل الى الرئاسة الاولى على اكتاف حلف من المتدمرين كرس الاخذ بالنظام المعروف *Spoil System* هذا الرئيس الذي جيء به من الغرب ، ووضع حداً لسلسلة حكام فرجينيا وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال ، وخفض رسوم الجمارك . الا ان الحزب الديمقراطي وانصار الرجوع الى «عهد المشاعر الطيبة» - الاحرار - قاموا بتنازلات متبادلة . فالى عام ١٨٥٠ ، تاريخ الاتفاق الذي تم بشأن كاليفورنيا ، استمر الاندفاع نحو الغرب حتى حدود المحيط الهادي ، على حساب المكسيك ومصالحه الحيوية ، دون ان تثير قضية الرق في البلاد اي اضطرابات يخشى منها . وقد خرج الاتحاد من هذه المشكلات اقوى وارسخ وضعاً . فبعد مع انكلترا معاهدة تضمن حياد قناة يمتل انشاؤها عبر قناة بناما . وهكذا اصبح الاتحاد دولة كبرى محترمة الجانب . وتمت لها عام ١٨٦٠ ثروة زادت ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه عام ١٨٠٠ ، كما ان دخلها القومي زاد ستة اضعاف .

فالنظام الاستعماري الذي ساروا عليه في البلدان الحارة ارتكز
ضربة تنزل بالاستعمار القديم: الفناء الرق
ليس على شد المستعمرة بالبلد الام شداً وطيداً فحسب ، بل
ايضاً على استثمار اليد العاملة الملونة فيها ، فعملوا عليها في استثمار
الارض واستغلالها الى اقصى حد . والحال فقد فام في القرن الثامن عشر تياران ضد الرق ، من
هنا فلسفة الانوار باسم حقوق الانسان ، تبنتها معظم الملل والمجتمعات الدينية في انكلترا من
مثوديست والجيلين وكويكرز ، وبعض الكاثوليك ، وفقاً لبعض تعاليم المسيحية فراحوا
يهاجون نظاماً مضاداً في الصميم الاخلاق ، ومن ههنا ، الاقتصاديون المتحرروا النزعة الذين

راحوا ينتقدون شكلاً من أشكال العمل لا يفسح مجالاً لأي محرك أو مشوق للربح الشخصي . وراحت هذه النظريات المشبعة بالروح الانسانية ، وهذه الحجة التي تقوم على الواقع تصدم بشدة مصالح بعض الفئات الخاصة والتقاليد القوية المعمول بها في البلاد . ففي الوقت الذي راح فيه دستور الاتحاد الاميركي يحدد بحكمة باللغة ، عام ١٨٠٨ ، كتاريخ اقصى لتحريم الرق ، كان قانون إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية الذي اصدره المؤتمر الوطني في فرنسا ، قد بقي حبراً على ورق ، اذ ان بونابرت ابطل هذا القانون ، عام ١٨٠٢ ، مما سبب فقدان جزيرة سان دومينيك الى الابد . والقرار الذي اتخذته جيفرسون عام ١٨٠٧ تنفيذاً للوعد الذي قطعه الدستور الاميركي ، والدعاوة الناشطة التي قام بها ولبرفوس وبعض اصدقائه في هذه الفئات الدينية ، حملت مجلس العموم البريطاني على اتخاذ قرار يحظر النخاسة والاتجار بالرق ، كما ان كستلريغ ثال من بعض الدول الكبرى المثلة في مؤتمر فيينا قراراً بتحريم هذه التجارة الوحشية ، وهو قرار اعيد إقراره من جديد في معاهدة اكس لاشابل وفي معاهدة فيرونا . ونابوليون ، خلال فترة المائة يوم ، ولويس الثامن عشر في معاهدة باريس الاولى قطعاً على نفسها مثل هذا التعهد . الا ان تطبيق الوعود والاتفاقات شيء وقطعاً آخر ، لا سيما وقد اشتد الطلب ، في العالم الجديد على الزوج ، إثر التطور الذي عرفته مزدروعات القطن والسكر . فقد استقبلت جزيرة كوبا اكثر من ١٠٠ الف رق من الزوج بين ١٨١٠ - ١٨٢٠ ، واستوردت البرازيل منهم اكثر من ٤٠٠٠٠٠ اسير زنجي في السفن التي ترفع العلم الفرنسي ، حسبما جاء في تقرير قيادة العمارة البريطانية ^(١) .

وقد اثارت قضية حق تفتيش السفن مشاكل حادة بين بريطانيا العظمى ومعظم الدول الاخرى التي ابت عليها القيام بهام المراقبة البحرية . ففرنسا والولايات المتحدة تسلمان بمثل هذا الحق على اساس المعاملة بالمثل على ان تتم المراقبة بالاشتراك معاً . ولم ترضخ اسبانيا لهذا القانون الا عام ١٨٣٥ ، بعد وفاة الملك فردينان ، والبرتغال عام ١٨٣٩ ، تحت التهديد بمطاردة السفن التابعة له ، والبرازيل عام ١٨٥٠ ، في اثر ظهور الاسطول البريطاني امام شواطئه . فبالاضافة الى المعاهدات ال ٢٦ التي تم وضعها ودخلت دور التنفيذ ، يجب ان ننوه هنا بهذه المعاهدات الثنائية الاخرى التي عقدتها بريطانيا مع رداما ملك مدغشقر ومع سلطان مسقط ، بغية إحكام نطاق المراقبة في المحيط الهندي .

بما لا شك فيه قط ان النخاسة لا يمكن ان تنقطع حركتها تماماً ، بل تبقى عصبى شيء من النشاط الخفي طالما لم يقرر بعد إلغاء الرق بصورة رسمية قاطعة . أقلم تحذر الجمعيات المطالبة بإلغاء الرق من ان نظام المراقبة والتفتيش الجاري الاخذ به من شأنه ان يحمل تجار النخاسة على

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٣١٦ من الطبعة العربية .

ممارسة تجارتهم هذه بصورة انقطع واكثر فظاظه من ذي قبل .

ونشطت على الاثر دعاية قوية مطالبة بإلغاء الرق ، اختلفت نتائجها وقاين مفعولها بين بلد وآخر .

فالوقف الذي ستقفه الولايات المتحدة من هذه القضية ، سيكون حاسماً . الا ان تحرير العبيد وعقهم لقي فيها معارضة قوية من قبل كبار المزارعين لم يترحموا عنها قيد أنملة . صحيح ان الرق يحيد الكثيرين ممن يشجعون عليه في اوساط عديدة . فأمام السياسيين واطراف رجال الاعمال الذين يترددون متأرجحين في مواقفهم ويخشون الانقسام الذي يلوح اكثر الجنوبيين حاسة بالاجواء اليه ؛ وامام موقف المساواة الذين يستشهدون بنصوص التوراة التي تعترف باستعباد سلالة حام ، فقد وجدت جماعات الكويكرز والانجيليين والمعدانيين ، وحتى الكاثوليك انفسهم امام شعور عارم يأخذ بالازدياد كل يوم ، اكثر فأكثر بين صفار التجار واصحاب المخازن والمهمل والمعمرين في الغرب حيث لا يرون فائدة تذكر من عمل الارقاء . فمع شجب الكويكرز لاعمال العنف والقسر ، فقد راحوا مع ذلك ينصحون باعتماد اسلوب مقاطعة المواد الاستهلاكية التي يؤمن انتاجها انصار الرق و « من لف لفهم » . فقام من يقترح اعادة الزواج الى افريقيا وطنهم الاصلي . وفي هذا السبيل أسست مدينة فريتون ومونروفيا . ولن تلبث ليبيريا ان اصبحت جمهورية مستقلة ، كما اطلت علينا مدينة ليرفيل . وفي سنة ١٨٣١ ، قابلت اميركا ثورات اوروبا ، بالنداء الذي اذاعه منضد الحروف ، الاميركي غاريسون في جريدة « لبراتور » ، وبالثورة الدامية التي قادها الزنجي نات ترنر فجعلت الجنوب يرتعد هلعاً . ومنذ ذلك الحين اخذت المشاعر بالهيجان . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يمكن اعتباره تهديداً مباشراً للرق . هنالك مصالح عديدة يهددها اصدار قانون بإلغاء الرق وتحريره . ولم يقتنع الجنوب بمواجهة الدعاية ضد الرق بدعاية معاكسة ، ورفع التوراة في وجه التوراة . فسقط انتصرت عام ١٨٤٨ سياسة السيطرة والتحكم التي كان يمثلها في تكساس . وبعد ذلك بسنتين فرض الاتفاق الذي اعلنت بموجبه كاليفورنيا ولاية جديدة ، والمكسيك الجديدة ، قضاء حراً ، وجوب اعادة الزواج الفارين الى اسيا دهم الاول . وهكذا فالمصير القاتم بقي جائئاً على صدر الولايات المتحدة يشل منها الحركة وليس من يستطيع التنبؤ بموعده زحزحته او رفعه .

حل عام ١٨٤٨ ، وفي السابع والعشرين من نيسان من هذه السنة ، قررت الجمهورية الثانية في فرنسا ، إلغاء الرق في كل الاراضي والممتلكات التابعة لها . كان لا بد من ثورة شباط ليتمكن شولسر من الحصول على قرار التحرير .

فاذا ما سبق الفرنسيون الدانمارك وهولندا على دروب تحرير الرق ، فلم يكن الاسبانيون في جزر الانتيل ، ولا البرازيل ، من جهتها ، على استعداد بعد للسير على النهج ذاته . وعلى

عكس هاتين الدولتين ، ما هي انكلاترا نفسها تطلق الاشارة الاولى في هذا المضمار . فالصعوبات الاقتصادية التي قامت في تلك البلاد في اعقاب عام ١٨١٥ اجبرت انصار كاننغ القائلين بالنظرية النفعية ، على معاضدة وجهة نظر الفريق المعار لهم في الرأي ، هذه النظرية التي اعتنقها بدورهم انصار ربنثام وتوصل في نهاية الامر المحافظون والاحرار الى التعاون فيما بينهم ، وتم تبني قانون عام ١٨٣٣ الذي يتحول بموجبه الارقاء الى عمال متدربين كما واجه امكانية التمييز على اصحابهم المتضررين في هذا القانون . وقد ادى هذا الاجراء الى تعقيد الامور في جزيرة جامايكا التي كانت تعاني الصعاب ، وفي مستعمرة الكاب ايضا . فبدلاً من ان يرضخ سكان هذه المستعمرات لاحكام القانون الجديد ويحرروا اليد العاملة الملوثة التي تعمل في خدمة كبار الملاكين ، فضل المعمرون في تلك البلاد ، وجلهم من اصل هولندي ، مغادرة المستعمرة . وقد اعطي السكان الحرية التامة برفض المواطنة او باعطائها لمن يحري تحريرهم من الارقاء بحيث ان الالفاء النهائي للرق ارتبط الى حد بعيد باصلاح النظام الاستعماري في تلك البلاد .

نشأ في اميركا الشمالية ، وفي النصف الجنوبي من الكرة
الاتجاه نحو امبراطورية
الارضية مناطق ضخمة للسكان لدى البريطانيين ، تعوض
بريطانية متحررة
عليهم الخسارة التي فقدوها من ثورة الولايات المتحدة ونيلها
استقلالها التام في اواخر القرن الثامن عشر . ولما كان قد صرف النظر عن نظام الاستثناءات
الذي برهن الاختبار عن عدم جدواه ، فقد روي استعمال حلول جديدة تتفق ومستلزمات
الوضع الجديد والمزاج الانكلوسكسوني المعروف بنزعة الفردية . فهذا التوسع ليس فيه ما
يضير قط اذ انه يحمل الخير كله للبشرية جمعاء ، اذ يفضي الى تطوير هذه الاقطار البكر بالسرعة
والحرية المطلوبتين . فالحرية الاقتصادية تجر وراءها الحكم الذاتي .

وتوالى الهجرة من الجزر البريطانية ، معتدلة اذا ما قيسست بالزخم الذي اتسمت به حركة
النزوح في منتصف القرن التاسع عشر ، الا انها جاءت اقوى وانشط من اية حركة مماثلة في اي
بلد اوروبي آخر . فمع ان السواد الاعظم من النازحين يتجهون شطر الولايات المتحدة ، فقد
تزايد سنة بعد سنة ، عدد الذين قصدوا البلدان التي يرفرف فوقها علم صاحب الجلالة البريطاني .
فالازمة التي اخذت بخناق البلاد ، في اعقاب ١٨١٥ وتسريح الجند من الخدمة العسكرية ،
غذى هذا التيار الذي تضخم من جراء تأزم ظروف العيش واشتدادها على ابناء الطبقة الفقيرة .
فقد ركب البحر مهاجراً ، عام ١٨٤٣ ، نحو من ٦٥٠٠٠ ، وقد ارتفع العدد الى ٢٦٠٠٠٠ ،
عام ١٨٤٧ ، ثم الى ٣٠٠٠٠٠ عام ١٨٤٨ ، حتى بلغ معدل من يغادر البلاد ١٠٠٠ شخص في
اليوم الواحد . وهكذا اطلت علينا في خريطة هذه البلدان الشاسعة ، ولايات جديدة ، عمرها
البريطانيون . وحركة الهجرة هذه نشطت باتجاه الكاب واتجاه كندا وبرزت في مقاطعة الناقل
وكولومبيا البريطانية وتضخمت في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية في اوستراليا ومقاطعة اوستراليا

الجديدة الغربية ثم في مقاطعة أستراليا الجنوبية ، ومقاطعة فكتوريا ومنها انفصلت بزيلانده الجديدة . هذه الانشاءات الاستعمارية الجديدة أثارَت مشاكل جديدة ارتبطت بعضها بالأرض والبعض الآخر بالنظم السياسية .

فمنذ القرن الثامن عشر تمتعت الملكية العقارية ، في بريطانيا بامتيازات متحررة من كل قيد وشرط تخالف تماماً ما عرف من الامتياز الاقطاعي المعروف بأسبانيا ، باسم *Encomienda* وهو امتياز يعطى مدى الحياة . وقد لوحظ شيء من بعدة الأراضي المقتطعة لبعض الشركات الخاصة في هذه المستعمرات القائم انشاؤها على براءة ملكية ، او في تلك المستعمرات التي يقطعها التاج البريطاني . ولن تتم المضاربات المالية ان استبدت بها فتأخر من جراء ذلك نموها . وقد كانت قوة الجذب في الولايات المتحدة اقوى منها في هذه المستعمرات واشد ، اذ كان العمل الحر فيها يعطي مردوداً اطيب . ولذا عمدوا الى وضع تخطيط عام قام على ثلاث عناصر يجب توفرها معاً : هي الأرض ورأس المال والعمل . وفي سنة ١٨٣٣ ، نشر ويكفيلد كتابه المشهور بعنوان : « انكلترا واميركا » عرض فيه بصورة جلية واضعة النظام الذي ارتبط باسمه . فقد قدم الدليل على صحة هذا النظام وحسن جدواه اذ اسس منذ سنة ١٨٣٠ ، شركة أستراليا الجنوبية . ثم جاء بتجربة اخرى في زيلانده الجديدة حيث ارتدت هذه الشركة طابعاً دينياً . وفي عام ١٨٤٢ صدر قانون يعرف بقانون *Torrens* فرض القيام بعملية مسح شاملة للأراضي البور ، وحدد منها سعر الفدان الواحد .

وقد وصل الى أستراليا بين ١٨٣٠ - ١٨٥٠ ، اكثر من ٢٠٠,٠٠٠ مهاجر انكليزي بينهم عدد كبير عجز عن دفع ثمن الأراضي المقتطعة لهم ، فعملوا في خدمة مربى الماشية او في المدن . اما في الكاب فقد ادى بيع الأراضي بالمزاد والغاء نظام الرق فيها الى مشاكل وصعوبات مع البويرز ، بعد ان تعذر عليهم ايجاد مراعى قفى بالظمن بمواشيهم وعجزهم عن توفير اليد العاملة مما اضطرهم للاتجاه شمالاً الى مقاطعة فالده . اما في المستعمرات الكندية حيث قام نظام الأراضي المحمية الخاصة بالاكليروس والتاج ، فقد كالم من العسير فيها توزيع الأراضي بحرية .

ومها يكن من الامر فنظام مستعمرات الاسكان اقتضى الاعتراف للمستعمرة بصلاحيات ومسؤوليات عليها ان تقوم بها وتتحمل اعباءها . فمنذ عام ١٧٩١ ، اعترفت انكلترا في اعقاب تحرير الولايات المتحدة ونيلها الاستقلال الناجز ، لمقاطعتي كندا العليا وكندا السفلى ، بانشاء نظام تمثيلي في كل منها . وفي الكاب ، بالرغم من المنافسة الحادة القائمة بين البريطانيين ، وبين البويرز ، اضطرت السلطات هنالك لمسايرة الاهلين والعمل على ارضائهم ، بالاعتراف لهم شيئاً فشيئاً ، بامتيازات معينة ، بعد ان برهنوا عن ارادة قوية في التوسع باتجاه مقاطعة الفالده . وقد قال آخر الأمر هؤلاء الذين اغتصبوا الأراضي (*The Squatters*) في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية المعروفين بفرديتهم ، شيئاً من أوليات النظام التمثيلي .

اما الحادث الخطير فهو هذه الازمة التي اخذت بخنات كندا وادت فيها الى تطبيق برنامج دورهام ، عام ١٨٣٩ . ولما كانت اكثر المستعمرات البريطانية المكتظة بالسكان وموضوع اشتباه القومية الاميركية ومرامي اطماعها التوسعية ، ونظراً لهذه الاقلية الفرنسية القوية التي تمتعت فيها بنظام تمثيلي ، اجتازت كندا فترة من الاضطرابات الحادة . فالقانون الدستوري الذي صدر عام ١٧٩١ وقضى بفصل كندا العليا عن كندا السفلى ، امن السيطرة في البلاد لارستوقراطية عقارية ، او تجارية ، واعترف ، في الوقت ذاته بمركز ممتاز للكنيسة الانكليكانية فيها . وقد اهاج مثل هذا الاجراء ، المزارعين وعمال الارض من الكاثوليك واتباع بعض الطوائف البروتستانتية . فالفوا من بينهم معارضة انتصبت في مجالس الاقليات . فالاضطرابات التي وقعت عام ١٨٣٧ ، اقامت لندن واقعدتها . فبينما مال اللورد بروغهام وبعض اعضاء الحزب الراديكالي الى منح كندا استقلالها ، راح اللورد دورهام ، من ناحيته ، يقوم بتحقيق دقيق حول الموضوع ووضع عند انتهاء تحقيقه تقريراً كان صدوره حدثاً تاريخياً في تلك البلاد ، اذ اقترح بأن تتمتع كلا الولايتين بالحكم الذاتي ، لكل منهما مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس اداري معين وحاً كم له اختصاص رئيس وزراء . وهذه المؤسسات المنقولة عن النظام البريطاني جرى توسيعها فيما بعد لتشمل الولايات البحرية في ايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، كما انها طبقت فيما بعد ، على كل من الكاب واوستراليا .

وهكذا اطلت علينا هذه الامبراطورية المتحررة ، في هذا الوقت الذي سيطر على الانكليز النظام الانتخابي القائم على اساس الضريبة وسياسة حرية التجارة .

فاذا ما توقف للاخذ بالسياسة الاستعمارية القديمة ، من جهة عودة الى التوسع والتبسط في كل من الغرب وفي النصف الجنوبي من قارتنا الارضية ، فقد سيطرت هذه السياسة واعتمدت اساساً واتخذت قاعدة ، تمسوا عليها من جهة الشرق . وهذا الانحراف زامن فترة بسط النفوذ البريطاني على الهند برمتها ، لم يفت الاجيال الماضية معرفة شيء مما يتصل : بطريق الكاب وشعوب البربر القاطنة في المغرب ومصر ، والسلطنة العثمانية الآخذة بالانحلال والتفكك ، واستثمار هذه الارخبيلات الآسيوية الواقعة الى الجنوب من آسيا والى الجنوب من الهند ، وما للعالم الاصغر من فتنة وسحر ، وما الى ذلك كله مما يتصل بالقضية الشرقية التي ألف الاوربيون شؤونها . وهكذا قامت الملائق التجارية وتوطدت واخذت الاطماع الاستعمارية تبرز وتنفج .

فلم تكن الحركة التجارية بحاجة لأكثر من وكالات تجارية واسكلة بحرية على طول الشواطىء الافريقية التي تسير واياها في رحلة طويلة من هذا النوع . فلما كانت مدينة السكاب للهولنديين وجزيرة موريس للفرنسيين ، فقد فرض البريطانيون سيطرتهم بشدة على هذا الطريق السلطاني . فالقسم الداخلي هو موضوع اهتمام بعض الرحالة المستكشفين ، وهو ميدان رحب

لأسواق النخاسة والاتجار بالرق . فالاهتمام تركز حول مسالك البحر المتوسط . فمئذ الحملة الفرنسية على مصر ، راحت الدول الكبرى ، محافظة منها على مصالحها الحيوية ، تضع الخطط التي تخدم مصالحها في الغرب وتنهض بها على الوجه الأكمل . فقد خطر لميشال شفالیه ان يوصل الى مصر ، شبكة الخطوط الحديدية . وعندما انتظم سير بريد الهند البري خطر للمهندس (انفانتين) القيام بمشروع ضخم هو فتح قناة السويس . وعلنت الحرب بشدة على القرصنة ورجالها ، فراح الاسطول الانكليزي يقصف بشدة مدينتي الجزائر وطرابلس وقام اسطولهم بمظاهرة بحرية وعرض القوى ضد الداي الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، عام ١٨٣٠ ، تضع حداً لحكمه وإدارته . وفي حادثتين تركز الاهتمام بمصر واشترأت اليها الانظار : هنا رغبة في توطيد الجهود التي يبذلها محمد علي باشا لخلق دولة قوية له على ضفاف النيل ، وهناك من جهة ثانية فريق يخشى كثيراً من بروز اسرة مالكة طموحة ويوجس شراً من سيطرتها على هذا الملتقى الدولي الهام . فكل الفريقين يراقب عن كثب وضع المضائق والمرات المائية الهامة ، فتشهد القسطنطينية طوراً جديداً من هذا الصراع العنيف الناشب بين روسيا وانكلترا ، للسيطرة على هذه الممرات التي تعد من اهم مفاتيح البحر المتوسط .

ان عدم التسليم بالانتقاص من هيبة الدولة وضرورة السير الى الامام لترسيخ نفوذ الدولة ، كل هذه الاعتبارات تفسر لنا البطء والصعوبات التي رافقت عملية فتح الجزائر وهي عملية جاءت بنت الحاضر ولم يخطط لها من قبل . فالتصرف الفرنسي في هذه الناحية من الناحية الافريقية الشالية يشبه الى حد بعيد ، مسلك انكلترا وتصرفها ، في الناحية الجنوبية . فنظراً للمسافات الشاسعة ، ولقيام هذا الجدار الذي يؤلفه البويرز في وجه تقدم الانكليز شمالاً ، اقتضى التغفل الانكليزي في هذه الافطار الجنوبية طوال القرن بكامله ، بينما إخضاع الشعب الجزائري كاد يفرغ منه في الوقت الذي سقطت الملكية في فرنسا ، في تموز .

واهم من هذا كله واوسع ، هذه الأهداف التي رسمتها انكلترا من حروبها الطويلة في الهند . فهي امام كتلة بشرية من ٢٠٠ مليون نسمة تختلف عنهم عرقاً وأصلاً وفصلاً ولغة وديناً ونمط عيش ، ليس فيهم ما يجمع او يوحد ، وامامهم غاز طامع فيهم يرى نفسه بعيداً عن قواعده ، قليل العدد والعدد ، انما تجيش نفسه بالجرأة والاقدام ، مبطن بديبلوماسية مراوغ . وهنا ، كما في الجزائر ، فقد حل تدريجياً محل الاحتلال المحدود اشراف عام على البلاد بأجمعها . صحيح أن وضع امراء الهند ساعدوا جزئياً على تأمين نجاح هذه المغامرة الضخمة . وهكذا استطاع خلفاء كورنواليس ولسلي من هاستنغز الى اوكلاند الى ألبورو أن ينفذوا من الهند الرطبة الى الهند الجافة ، وأن يبسطوا نفوذهم حتى مشارف ايران ، وأن يحتلوا السواحل الجبلية الممتدة من الخليج الفارسي حتى بورما . فالهدف الأساسي لسياسة لندن الدولية في هذه المنطقة هو إخضاع أمراء هذه المقاطعة أو تلك لسيطرتها والتحكم بشغورها ومسالكتها . فاذا

كان لابد من ضمان حرية الطرق الموصلة بين أوروبا والشرق الأدنى ، استلزم ذلك وجوب السيطرة التامة على المحيط الهندي مما أدى الى احتلالهم لسنغافورة وإضائق مالقا ، وإضيق عدن من جهة الغرب ، ومما يثابة جبل طارق . فسنغافورا ومالقا يتحكمان الى حد بعيد بشواطئ الهند الصينية وبالإمبراطورية الهولندية في الانسولاند والممتلكات الأسبانية في الفلبين . ففسي الوقت الذي تنصرف فيه البلاد الواطية لحروبها الاستعمارية رامية منها لبسط سيطرتها على سواحل الصومطرة بعد ان أعيدت هذه اليها ، راحت بريطانيا العظمى تسمى لبسط سيطرتها على أسواق الشرق الأقصى . وانتهزت مناسبة حرب الأفيون ، فاحتلت هونغ كونغ وارغمت الصين على فتح منافذها للغرب . فبعد ان تحولت تجارة الحرير والشاي باتجاه البحر ، فلن تلبث ان وقعت ضمن الشبكة التجارية التي يشرف عليها الإنكليز .

وفي هذا الوقت بالذات توفد الإمبراطورية الروسية تجار الفراء عندها الى آلاسكا فتهدد بذلك الأمير كين في عقر دارهم في المحيط الهادي ، كما تدفع ببعض القوزاق على الطريق السرية التي يسلكها تجار الشاي ، باتجاه واحات آسيا الوسطى . صحيح ان بيروفسكي يفتش تماما في محاولته الوصول الى خيوة وسط الصحراء ، فقد استطاع مورافيف العاموري ان يظهر امام ساحلين . وقام نيفلسكي بتأسيس مدينة نيقولايفسك ، فبلغ لب إنكلترا لهذه الانجازات . ومع ذلك صمدت مقاطعة القفقاس طويلا امام الفتح الروسي ، واذا ما تمكن الروس من تطويق هذه المنطقة الجبلية واستطاع الجيش الروسي النفاذ الى قلب مقاطعة جورجيا راذربيجان ، فستبقى المنطقة الجبلية على عصيانها وتمردها ، مدة طويلة ، وهنا ، كما في الجزائر ، وكما في الهند وماليزيا ، يحاول العالم الاسلامي ان يصمد ويواجه القوة بالقوة .

ففي الوقت الذي حارل بعضهم فيه استشراق المستقبل امام روسيا وإنكلترا ، تحافظ أوروبا الغربية من وراء إنكلترا على سبقها ، هذا سبق الذي يؤلف لها خير حافز لاستثمار موارد العالم الغنية .

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسع الأوروبيين العالمي

في السنة ١٨٥٠ ، بدأ النظام الاوربي ، الناتج عن معاهدات سنة ١٨١٥ ، وكأنه قد عاد الى نصابه ، وفي السنة عينها ، زال خطر الحرب الاهلية الى حين في الولايات المتحدة بفضل التسوية الكاليفورنية ، وانما ، منذ السنة ١٨٥٤ ، بينما بلغت أزمة الرق ذروة حدتها في العالم الجديد ، اندلعت الحرب - للمرة الاولى خلال القرن التاسع عشر - بين الدول الكبرى في العالم القديم ، فابتدأت بذلك اعمال حربية لن تنتهي الا في السنة ١٨٧١ . انهار النظام الاقليمي المقرر في مؤتمر فيينا والهيمنة العسكرية الفرنسية ، وحقت كل من ألمانيا وإيطاليا وحدتهما ، وسيطر الربيع البسماركي بدوره على أوروبا البرية الجديدة التي عرفت ، منذئذ ، السلام المسلح . اما الحرب الانفصالية فقد حررت مستقبل اميركا الانكلوساكسونية مما يعترض سبيله .

توطدت اركان الولايات المتحدة ، وعرفت أوروبا انقساماً لم تعرفه من قبل : وقد بدأ ، منذئذ وكان مصير هذه الاخيرة يتردد حائراً .

ولكن الحقيقة على غير ما يبدو ، اذ ان قوى القارة الصغيرة ما زالت سائرة قدماً في غوها الحثيث . فاستمرت حركة توسع بريطانيا العظمى التي لم تدخل طرفاً في حروب القوميات ؛ وما لبثت فرنسا أن دخلت دور النفاذ بسرعة ، فساورتها رغبة متزايدة في اثبات وجودها خارج أوروبا ؛ وما زالت الكتلة الروسية تنوء بثقلها على آسيا ؛ ولن تلبث ان تبرز « السياسة العالمية » التي اختطتها الامبراطورية الالمانية المتميزة بقوة هائلة . ولعل الحضارة الاوروبية اُسُمت حينذاك اشعاعاً فائق القوة .

الفصل الأول

المنعطف الحرج خلال القرن الحروب القومية في أوروبا والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة (١٨٥٤ - ١٨٧١)

تميزت السنوات ١٨٥٣ - ١٨٧١ بمزيد من الاضطرابات . من حرب القرم الى الحرب الفرنسية
الالمانية ، حرب الانفصال و انقلاب
الوضع في البر الاوربي لمصلحة المانيا
شواطئ البحر الاسود . فقد حالف نابليون الجديد
انكلترا ، وهاجم بيجوش روسيا . ولكن نتيجة حرب القرم
هذه لم تكن هزيمة للامبراطورية القيصرية وقيام ازمة داخلية فيها فحسب ، بل عجلت التوسع
الاوربي شطر الشرق واندلاع الحروب القومية في اوروبا نفسها في آن واحد : فمن جهة شعر
مهزومو سيستوبول ، الذين ابعدوا مرة اخرى عن المتوسط ، بحاجة الى الاندفاع نحو آسيا
الوسطى والشرقية زاد من حدتها نشاط عمل فرنسا وانكلترا على الطرق البحرية المؤدية الى
آسيا الجنوبية . ومن جهة ثانية ، برزت حركات الشعوب بسرعة في المانيا وايطاليا والدول
الداخلية بسبب انزعاج النمسا واعداء الامبراطورية الفرنسية الثانية لمقررات مؤتمر فيينا الاقليمية .
فأدى ذلك ، بدون انقطاع تقريبا ، الى الحرب الايطالية في السنة ١٨٥٩ ، وحرب دوغيتي شلسفيغ
وهولشتاين في السنة ١٨٦٤ ، والحربين النمساوية - البروسية والنمساوية - الايطالية في السنة ١٨٦٦ :
فبدلت خريطة اوروبا تبداً كلياً ، ولم تنج ملكية آل هابسبورغ الا بشئونة نمساوية - هنغارية .

عقب هذا الهيجان في العالم القديم هيجان في العالم الجديد . فحين تخلخل التوازن غير الثابت
في شمال الولايات المتحدة وجنوبها بارتفاع عدد سكان الشمال ونمو اقتصاده ارتفاعاً ونمواً لا

بقاومان ، انتهى الجنوب الى تقرير الانفصال ، فكانت الحرب الاهلية التي نشبت في السنة ١٨٦١ نزاعاً مسلحاً بين فئتين اجتماعيتين تكاملتا وتضامنتا زمناً طويلاً ، وانتهى الامر بينهما الى هداه ازرق . لا شك في ان لمذهب إلغاء الرق ، الذي زاد انتشاراً منذ السنة ١٨٥٠ ، واحرز الغلبة في الانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٦٠ بنجاح لنكولن ، أثره الكبير في تصدع الاتحاد ، ولكن الازمة المالية الاقتصادية - أزمة ١٨٥٧ - قد شددت اصحاب المزارع في موقفهم الحذر من رأسمالي الشمال ، بخلفها تيار حماية الصناعة الوطنية في الاوساط الصناعية . اجل انها حرب اجتماعية ، ولكنها حرب ضارية ، استطال عهدها ، لا نظير لها آنذاك في ما اسفرت عنه من تقتيل وتخريب .

أما اذا خرج منها الاتحاد اكثر قوة ، فان ضعفه العابر قد شجع مع ذلك بعض مطامع الدول الاستعمارية القديمة . وان الغزوة الفرنسية للمكسيك ، التي يعتقد البعض بأنها « الفكرة الكبرى » التي راودت حكم نابليون الثالث ، قد جرت على مقربة من اميركا الماجزة عن فرض مبادئ « مونرو » . فهل هي فكرة لاتينية يا ترى ؟ أم هل هي نظرة الى المنطقة البرزخية بين الاطلسي والمحادي في الوقت الذي تعد فيه المدة لفتح ترعة السويس ؟ ولكن القصد قد تصدع بناؤه منذ ان رفضت اسبانيا ، شأن انكلترا ، التورط حتى النهاية ، وحاولت عبثاً انتزاع الجزر « الأندلس » الفنية « الفواو » . فان حكومة لندن ، التي عملت بوحى الاختباء ، آفرت منح كندا نظام الممتلكات . فكانت نتيجة المفامرة الفرنسية تقهقراً للنفوذ الاوروبي في نصف الكرة هذا .

بعد أن صدّ في المكسيك ، فكتير نابليون الثالث بالأعاضة مما قاله في المناطق الريفانية . ولكن عداه المتأخر للوحدة الالمانية ، بُعيد « سادوا » ، قد جعله وجهاً لوجه امام بروسيا فكانت له « سيدان » بمثابة « واترو » لنابليون الاول .

في السنتين ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، استكملت الدولتان الايطالية والالمانية عناصر وحدتها ، الاولى بالاستيلاء على روما ، والثانية بسحق فرنسا التي خسرت الازراس وجزءاً من اللورين بعد ان كانت استردت السافوا ونيس . اجل لن تتجدد الحروب الكبرى طيلة نصف قرن لأن المانيا الجديدة بحاجة للاستراحة . ولكن اهواء الشعوب لم تهدأ ، وهو السلم الذي عبر عنه بالسلم المسلح ما سيميز العلاقات الدولية في اوروبا حتى السنة ١٩١٤ .

حاول بعضهم تقدير كلفة هذه الحروب : مليار ونصف
بعض الظاهر الاقتصادية والاجتماعية
المليار للحرب الايطالية ، ومثلها لحرب السنة ١٨٦٦ ؛ وبين
العهد الحربي
١٣ و ١٥ ملياراً للحرب الفرنسية الالمانية ، وقاربة ٣١
ملياراً لحرب الانفصال . وما ان سدد تمويض المليارات الخمسة حتى استعادت الموازنة الفرنسية توازنها مرة اخرى . الا ان الاقتصاديين النمساوي والروسي قد تأفروا اكثر من الاقتصاد

الفرنسي، وامضت حكومة الولايات المتحدة زهاء ١٥ سنة في محو آثار عجز مالي عميل الوطأة . وعلى اي حال ليس رأس المال ما تحمل هذا العبء في هذه الجهة من المحيط الاطلسي او تلك : فهي رسوم الاستهلاك والرسوم الجبركية ما وفر النصيب الاكبر من الواردات الاضافية التي يتوجب على جمهور السكان أن يؤمنوها ؛ اما تضخم الاوراق النقدية « ذات الظهر الأخضر » فقد سهلت المضاربة وانتقال الثروات الى اميركا .

رافقت الحروب ارتفاع في الأسعار ، كما حدث بين السنة ١٧٨٩ و ١٨١٥ . ارتفعت نسبة الكسب الرأسمالي : ارباح الصيرافة عن طريق القروض (اصدر منها « ارلنغر » واجداً في اوروبا لحكومة جنوبي الولايات المتحدة ، ولكن ثلث القيمة خصص لتجهيز السفن التي لم تسلم) ، ارباح الميارة (مورغان ، كرلجي ، روكفلر ، وامايبكر ، فاركوهار ، هاركنس في الولايات المتحدة) هاركنس ببيع الروم والوسكي ، وفاركوهار ببيع الماهل لنقل الجرحى) ؛ ارباح مصانع الآلات الحربية والذخائر : كروب في اسن ، وشيدر في الكروزو ، واورسترونغ وفيكرز في انكلترا ، والاسوجي نوبل في روسيا ، و « دي بون دي نومور » في اميركا (زود هذا الاخير الطرفين المتحاربين في حرب القرم) رمنفتون وهوتشكيس اللذان لجأ « غمبتا » الى خدماتهما . وحلقت الكيمياء وصناعة استخراج المعادن نجاحات سريعة .

تميزت النزاعات المسلحة التي ادمت اوروبا بقصر مدتها وسرعة
مميزات الحروب وعدد الحرب
تقرر مصيرها لأن القوى بمعظمها تتجابه منذ الاصطدامات
في منتصف القرن
الاول . اجل حافظ معظم الدول على الجيش التقليدي المحترف ، وبقيت القوى المتقابلة في جبهة القتال محدودة العدد نسبياً . الا أن الجيش الوطني البروسي قد ارتفع عدد أفراده منذ الاصلاح الذي فرضه بسمارك في السنة ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ؛ وقد هزم هذا الجيش على التوالي جنود الامبراطورية الثانية والفرق التي ارجلتها حكومة الدفاع الوطني عائدة في تنظيمها الى أساليب السنة ١٧٩٣ .

أما في الولايات المتحدة ، فقد جرت حرب فاهكة ، حرب شاملة يلعب الاربعاء فيها الدور الاول في النهاية ؛ ولكنها تستلزم وقتاً طويلاً واستهلاكاً عظيماً في الرجال والعتاد ؛ وما زال اختصاصيو « وست بوينت » المحترفون يأنفون من ارسال الجيوش بأعداد كبرى الى جبهة القتال ، فكانت النتيجة ان الشمال أحرز السيطرة بقوة النار وبالعدد على السواء .

ان فترة السلم الطويلة التي عقيبت السنة ١٨١٥ لم تكن موافقة للظواهر بتعاليم عسكرية جديدة . وتأمل المعنيون بالأمر في مآثر كبار القادة من أمثال فردريك الثاني و نابوليون : فاكتفى « جوميني » الذي أخضع كل شيء للعقل المفكر ، بعدد صغير من القواعد الثابتة ونادى بتوفير القوى ؛ ونادى « كلوسفتر » ، الذي خص المبادرة بنصيب اكبر ، بأهمية القوى المعنوية ، وتربط السياسة والحرب ، وتراعي دور القطار الحديدي . أما عملياً فان الجيش النمساوي كان

يذهب الى المعركة كما الى لعبة شطرنج ، والجيش الفرنسي ، الذي فاتته عادة العمليات الواسعة ، لم يستخلص من حملاته على الجزائر سوى دروس شجاعته و « حسن تصرف » . وعاش العسكريون البروسيون ، بعد ليبزيغ وواترلو ، في مناخ الثقة الجافة نفسه الذي عاشوا فيه بعد انتصارات فردريك ، قتلوا طريقهم قبل ان يسيروا على خطى « مولتكه » الذي انضج عوزه في بدء حياته وبعض خيبة الآمال في تركيا ، وخدمه مبدأ جمع كافة المهندسين في فرقة واحدة - مما يسهل احداث رحلات كبرى على بعض الاستقلال - فاختار استراتيجية على طريقة كلوسفتر ، وعين من ثم على رأس الجيش أركان حرب يعرفون كيف يتحملون مسؤولياتهم ، وفضل على « المركز الحسن » الذي يسمى وراءه المشاة ، المناورة التي وسع من أجلها دور المدفعية .

استمرت المنافسة بين الرماية والدرع ، ففي سيستوبول وحول ريشموند شلت حركة المهاجم زمناً طويلاً أمام الخطوط المحصنة ، ولم يحاول الالمان الاستيلاء على متر بالقوة ، كما أن باريس قاومت طيلة خمسة أشهر . ولكن الاسلحة الهجومية حققت بعض التقدم : فان ابتكار كبسولة التفجير ، والطلقة النحاسية ، والرصاص المستديرة - المخروطية الشكل ، كان بمثابة انتقال من البندقية الزنادية الى السلاح المفرض الذي يحشى من المؤخرة ، من نوع « درايز » المعتمد في الجيش البروسي ، أو من نوع « شاسبو » الذي اختاره الجيش الفرنسي . وإذا كان المدفع المسدس ومدفع الرصاص - رشاش الكولونيل « دي رقي » - اللذان ابتكرا في أميركا ، أثار في فرنسا ، في السنة ١٨٧٠ ، آمالاً ليس لها ما يبررها ، فان المدفع المفرض ، الذي انكب على دراسته الكولونيل « تروي دي بوليو » والذي يطلق قذيفة مقوسة المقدمة تعرف بالقنبلة ، قد احتل مركز المدفع الصقيل الذي يطلق القذائف المألأى والمستديرة ، ولكن الحشو من المؤخرة واستبدال الشبه بالفولاذ لن يعتمد الا شيئاً فشيئاً .

وتنافس الدرع والقذيفة على البحر أيضاً . فقد كان حدثاً هاماً ابتكار مدفع « بكسان » لاطلاق القنابل ، الذي جعل السفينة الحشبية عرضة للتدمير ، وهو هذا المدفع ما أتاح للروس تدمير الاسطول التركي في « سينوب » . زه على ذلك أن « فولتن » قد ابتكر القذيفة النافسة التي استخدمها المدافعون عن « كرونستات » وسيستوبول ، وبني الجنوبيون لقذفها اول سفينة تسير تحت الماء . ولكن الاختراع المضاد له قيمته الكبرى أيضاً . فقد سبق لفولتن واركون ان فكرا بتصفيح هياكل السفن . ثم ظهرت السفن المعدنية والآلات البخارية في السنة ١٨٥٠ : فوق « غوياس » الى تعويسم خمس مدفعية استخدمت في القرم ، ثم حققت « دوريان » في السنة ١٨٥٩ ، السفينة الحربية المدرعة مستعينا بتصاميم « ديبوي دي لوم » اطلق عليها اسم (Gloire) المجد ؛ ولكن الانكليز ما لبثوا ان حققوا سفينة حربية تنافسها هي « المحارب » . ولم يمض وقت قصير حتى حققت في الولايات المتحدة السفينة (Monitor) التي صممها اركسون للشالين ، فكانت لا تترى بسهولة ولا تقاوم الامواج بقوة ، ولكنها كانت

مدرعة بصفائح حديدية سميكة جعلتها تقف بالمرصاد (Merrimac) سفينة الجنوبيين الحشوية المزودة بمهاز معدني في طرف مقدمتها ، وتكيل لها الضربات الواحدة تلو الأخرى . فخشيت بريطانيا العظمى فترة من الزمن على زوال هيمنتها ، فبنت بسرعة سلسلة من « المدرعات » التي زودها « ارمسترونغ » بالابراج .

بيد ان النجاحات التقنية لم تكن من التقدم بحيث تتجاوز الخسائر في الارواح خسائر حروب الثورة والامبراطورية تجاوزاً يذكر . فان معركة « ريزونفيل » وسان - بريفال اللتين تعتبران اهم المعارك الدامية في السنة ١٨٧٠ قد اسفر كل منهما عن ٣٣٠٠٠ ضحية ؛ والحال ، اسفرت واغرام عن ٤٠٠٠٠ قتيل وواترلو عن ٥٠٠٠٠ . وبالإمكان اضافة الوفيات المعزوة للأمراض . فتقدر ضحايا حرب القرم بمجموعها بـ ٨٠٠٠٠٠ شخص تقريباً ، وحرب السنة ١٨٧٠ بـ ٦٠٠٠٠٠٠ وحرب الانفصال بـ ١٣٢٠٠٠٠ .

ولكن الشاعر لا يريد ان يفقد الامل :

« لا ! لا ! ليس مصير الانسانية

أن تجلس بلا حراك عند عتبة المدافن الباردة ... »

(فكتور هوغو ، « السنة الرهيبة »)

الفصل الثاني

عصر الايمان المطلق بإمكانات العالم

« تنسك بمقيدة التقدم تنسك المؤمن بمقيدته ... »

(غاشور)

كانت حرب الانفصال حدثاً عابراً في مرحلة ارتقاء تميز بسرعته ، فلم تضعف رسالة الغرب عند الاميركي شعوره بأنه معدة لدور عظيم ؛ ولكن المنازعات القومية قد عجزت هي ايضاً عن صرف الاوروبي عن اعتقاده بأنه يحمل مشعل « الحضارة » . ولا يشك « فورييه » في ان مفهوم الحضارة نفسه لا ينطبق على « الفترة الخاصة من الحياة الاجتماعية التي بلغتها الامم الاوروبية » . ويسخر « ماكولي » من أولئك الذين يرغبون في تثقيف الهندي وفقاً لمفاهيمه الخاصة : « حين نعلم فلسفة سليمة وندافع عن الحقيقة في التاريخ ، نكون كمن يكتب بالاموال العامة لعلم فلان من شأنه اثاره الضحك في مدرسة للفتيات الانكليزيات ، او لقصة ملوك يبلغون ثلاثين قدماً ارتفاعاً ويتولون الحكم آلاف السنين ، او لجغرافية لا ذكر فيها الا لبحور من الزبدة أو من السائل الحلو الكثيف الذي يبقى بعد تباور السكر » . والسبب في ذلك ان تفوق الثقافة الغربية لا يمكن ان يكون موضوع جدل . وقد قال « برودون » في هذا المعنى : « ان قدسية الانسان مصنوعة ، وما علينا ، نحن العرق المتفوق بالنسبة للاعراق المتخلفة ، سوى رفعها الينا ، ومحاولة تحسينها ، وتقويتها ، وتثقيفها ، وتثريتها . ورأى « بول لروا-بوليو » ، وهو صهر « ميشال شيفالييه » القائل قول « سان - سيمون » ، ان ما يتوجب على « الشعوب المصرية » هو « عدم التخلي عن نصف الكرة الارضية لأناس جهة وعجزة » . واستند « تيودور روزفلت » ، على غرار معاصره غليوم الثاني ، الى الرسالة التقليدية المتوجبة على هذا الشطر من البشرية الذي يطلق عليه الرابان « ا . ت . ماهان » اسم « واحة الحضارة في صحراء البربرية » ، وتمنى من صميم فؤاده « استملاك الاعراق العادمة الاهلية ، لمصلحته . ورأى ماركس من جهة ثانية ان مهمة ارشاد المجتمعات وقيادتها تعود الى البروليتاريا المتسورة ، أي بروليتاريا البلدان المتطورة .

مسألة الثقافة
فالأمر الهام من ثم هو المعرفة ، هو التربية التي قال عنها فولتير انها « المنبع
الخصب لكل نظام وهدوء وسعادة » .

ان نقطة الانطلاق هي محاربة الامية ، ذاك العيب المحزني . لقد اسهمت المطبعة والمدرسة
في ذلك . وما كانت الثانية لتعطي ثمارها لولا التقدم الذي احرزته الاولى . ولكن اذا رغب
الانسان في القراءة والكتابة - اذ أن الكتاب والصحيفة والاعلان آخذة كلها بالانتشار والرسالة
تنقل بسر منخفض - فليس معقولاً ان يطلب من التعليم الابتدائي فوق ما يستطيع اعطائه ،
ومهما يكن من فضل هذه الثقافة الأساسية ، فهي لا تعدّ المهنة . من هنا نشأ الميل الى تعليم مهني
لا يفصل فصلاً كبيراً بين النظرية والتطبيق العملي ، ويوسع في الوقت عينه افق الكتاب المدرسي .
ولكن تادراً ما قهرت الصعوبة ، فقد استمر التفريق بين من يتوجب عليه تأمين قوته وبين من
يستطيع متابعة تحصيله العالي ، وقد ساعدت على هذا التفريق التمييزات الاجتماعية السائدة .

ولكن ما هي قيمة تعلم آداب قديمة يتذوقها أبناء الارستوقراطية والبورجوازية في الكليات
والجامعات ؟ هل في الثقافة الكلاسيكية القديمة ، التي أرضت اهواء النخبة ، استجابة دائمة
للحاجات ؟ لذلك كان للقرن التاسع عشر ايضاً مجادله بين الاقدمين والمعاصرين . فقد قال
أراغو من اعلى منبره : « لا يصنع سكر الشمندر بالكلام الحلو ؛ ولا يستخرج الانسان من ملح
البحر بالآليات الشعرية » ، بينما دافع لامرتين عن قضية « الحقائق الاخلاقية التي تأتينا عن
طريق الدروس الادبية » . فهل ان الآداب هي والعلوم على طرفي نقيض ؟ ان مستلزمات القرن
واقع ثابت ، والاختيار متفاوت الحرية - بحسب الأمزجة القومية - أتاح التسويات بين الانظمة
الفكرية المختلفة . ومهما يكن من أمر فالحقول العلمي اتسع بسرعة . ولم يبق سوى تدبير
التوفيقات الضرورية بين المختبر والمصنع : تحققت المحالفة بعض الشيء بين الفني والعالم ؛ وهي
المانيا التي ارشدت الى الطريق في اوروبا . واذا ما زال ممكناً ان يكون الخترع في الغالب ممتناً
وضيحاً ، فقد اصبح الاختراع ، اكثر فأكثر ، ثمرة الدرس . ولكن العائلات صاحبة الامتيازات
لم تفقد مكانتها . فعائلة « هرشل » وعائلة « ستروف » تمثلان وحدهما مائة سنة من علم الفلك .
وقد سيطر اسم عائلة « كاندول » زمناً طويلاً على تاريخ علم النبات . وفرضت عائلة « بكريل »
نفسها في حقول علم الطبيعة منذ منتصف القرن . واكبت عائلة « لينورمان » بكل نجاح على علم
الآثار . ويمثل الاخوة « سيمنس » العشرة جيلاً من الفنيين يثير الاعجاب والدهشة : فقد اعطوا
مثلاً تادراً في نجاح وتوسيع تطبيقات العلم على الصناعة .

ازدادت ثقة العلم بنفسه اكثر فأكثر ، فأوضح اسلوبه وتنظيمه .
نحو الروح العلمية : الامر الوضعي
لقد خلف مذهب العقلين الكرتزياني الذي استند الى بصيرة
العقل مذهب عقلي يرتكز ارتكازاً أساسياً الى الاختبار . يضاف الى ذلك من جهة ثانية أن
القرن قد نبذ نبذاً نهائياً المنطق الصوري الذي علمته الفلسفة الكلامية والذي ليس ابتداءً ،

وأرسخت البرهنة على الاستدلال الحسابي الذي يفتح الطريق باستمرار امام الاكتشاف . وقد جمع « جون ستيورات ميل » قواعد الاستنبات بواسطة المعطيات المقننة . وبينما أخضع «غالوا» الحساب نفسه للاختراع ، لم يبق « كلود برنار » على الاختراع الا ليضعه في خدمة الاختبار ، مقاومة منه للمنطق الكرتزياني الذي أخضع الاختبار للتصور الذهني : ليس للفكر ان يخضع الاختبار امام متطلبات فكرة تتكون ببصيرة العقل ؛ اذا كان هنالك بصيرة عقلية عرافية ، فان الاختبار يستدعي بصيرة عقلية رقابية . وليس من الصعب استشفاف ما ينطوي عليه هذا الموقف من خصب وامكانات . فهو ما سيوفر لعلوم الطبيعة عدّة فكرية طيّعة وبعيدة الغور . ولكن مذهب ماركس المادي الجدلي قد اقترح كذلك، انطلاقاً من الواقع، نظرة «ديناميكية» على العالم تنطبق على تصرف البشر . زد على ذلك ان علماء الرياضيات قد قدموا النتيجة بمسند اليوم على اقامة البرهان .

لا ريب في ان المذهب الوضعي قد ابتنى من العلم أن يعين بوضوح صفاته المميزة ومداه وحدوده . ومن حيث هو يدّعي تحديد « الحالة النهائية الحقيقية للعقل البشري » ، فقد عين للعلم موقعه بالنسبة لعلم المقولات والنظريات المنطبقة على مفهوم الغائية ، وأسند اليه مهمة اكتشاف السنن النهائية للظواهر باستخدام البرهنة والملاحظة معاً ، واقترح عليه ، كمثّل أعلى ، جمع كافة آرائنا حول الكون في مجموعة واحدة من الحقائق المترابطة ترابطاً عادم الانفصال ، وطلب اليه اخيراً خدمة التقدم البشري قبل أي شيء آخر ، فربط بذلك الدروس العلمية بعلم الطبيعة الاجتماعي أو علم الاجتماع .

لاحظ « كورنو » ان الرياضيات اتجهت « اتجاهاً تغلب عليه الصفة النظرية معرفة الكون حين كان القرن يبدي مزبداً من الاهتمام بالناحية العملية » . فما زالت موضوع الساعة التوابيع والاعداد والجماهير الحسابية ، تلك المسائل الكبرى التي أكبّت على ايضاحها « ويرستراس » و « هرميت » و « كرونكر » والعديد غيرهم من حجب اسماءهم لمعان اسم « هنري بوانكاريه » . فلم يكتف هذا الاخير ، في المجلدات الثلاثين والبيانات الكثيرة التي نشرها ، بإيجاز مجهود سابقه ، كأن يعود الى توابيع « فوكس » مثلاً ويطبّقها على الهندسة الاوقليدية ، بل تناول في ابحاثه المعادلات التفاضلية ، والكميات الصغرى ، وحساب التكامل ، ومسألة الاجسام الثلاثة (سبق للآلية النيوتونية ، ان حلت مسألة الجسمين) ، واهتم بالعلاقات بين الظواهر الكهربائية والظواهر الضوئية . وان « ريمان » الذي ابتدع هندسة غير اوقليدية قد وجد نفسه منساقاً ، منذ السنة ١٨٥٤ الى اقتراح فضاء ذي أربعة ابعاد ، والشعور شعور بعيداً بالنسبية . وقد وضع المعالم على هذه الطريق الاخيرة كل من « هاملتون » بنظرية الجمل الجبرية الخيالية ، و« كايلى » وسيلفستر بنظرية التوابيع .

وهكذا فتح علم الرياضيات امام علم الطبيعة آفاقاً غير منتظرة . ولكن ذلك لم يمنع الانسان من ان يروض الوقت ، ووقته ، لاجل راحته وتسهيل اعماله : حدد ساعة وسطاً واختار

من ثم خط طول أصلياً (هو خط طول « غرينوتش ») ، ورسم اقساماً هامة مغزلية الشكل لتحديد الوقت وتوحيده في مختلف الدول ، وسينشئ مكتباً دولياً للساعة . وتحت قباب المراصد ، التي ارتفع عددها ارتفاعاً مطرداً ، وزودت بالمراقب الجبارة ، وأجهزة التصوير ، ثم المناظر الطيفية ، رسم خريطة السماء بصبر وطول أناة ، وثابر على اكملها بالكواكب التي حقق هويتها وأوضح طبيعتها وإبعادها وحركاتها . ثم عين « فيزو » سرعة الضوء بواسطة عجلة مفرضة ، وبرهن « فوكو » ، الذي أكب على البحث نفسه ، ان الارض تدور حول محورها بواسطة رقاص جعله يتذبذب بعد ان علقه بخيط تحت قبة « بانتيون » . ثم سار فن التحليل الطيفي قدماً بفضل « كيرشوف » و « بونسن » و « هونغز » و « ميار » (مولد علم الطبيعة الفلكي) . واصاب « ماكسويل » بتفسيره ان الضوء نتيجة موجات مغنطيسية وكهربائية مشتركة . ودنت الساعة التي سيحقق فيها « هرتز » الموجات الكهربائية . فبدت الموجات منذئذ وكأنها تؤلف مجموعاً ضخماً ، ابتداء من الموجات وراء البنفسجية التي لا تتجاوز بعض اجزاء مثوية من المليمترات حتى موجات « هرتز » التي تبلغ ألوف الكيلومترات . أفليس في هذه الظواهر الضوئية والتموجية والكهربائية والكيميائية دليل وحدة هي وحدة العكون نفسها ؟ .

في بيان نشره في برلين في السنة ١٨٤٧ ، طرح « هلمهولتز » مسألة ذاك الشيء المبهم الذي يظهر في الآلة البخارية والكهرباء والنور نفسه : مسألة الطاقة . والحال ، فان « ماير » و « جول » و « كلوزيوس » ، و « كارنو » من قبلهم ، قد عينوا سنن علم القوة الحرارية ، التي طبقت على درس الغازات فقادت « ماكسويل » و « بولتزمان » الى النظرية الحركية ، وفي الحقل العملي ولدت الضغط والتدوير صناعة التبريد .

زمانا « مرسلين برتلو » والورد « كلفن » :
المدرسة الآلية

بعد صياغة سنن دوام وتلف الطاقة ، بقي هنالك اخضاع المادة العضوية نفسها لقواعد الطاقة الآلية . وقد توصل اليها الكيميائيون فعلاً ، ولو بعد مجادلات عنيفة : ألم ينبىء « دوما » بأن الكيمياء ستصبح قادرة على مجازاة الطبيعة الحية ؟ فبعد مرور عشرين سنة ، جاء تحليل كلورور الالومين على يد « سانت كلير - ديفيل » ، وتركيب الكحول الخشبي انطلاقاً من عناصره على يد مرسلين برتلو ، يحكيان لما قاله . وهكذا فان بعض الاجسام ، التي كانت تبدو ثابتة ، قد تحولت ، في بعض الظروف الحرارية ، الى عناصرها ، فلحق مدلول التوازن غير الثابت بسنن علم القوة الحرارية . وفي السنة ١٨٦٣ تحقق تركيب الاستيلين انطلاقاً من عناصره بمجرد تدخل الشرر الكهربائي . ثم جاء على التوالي دور البنزين والنفثالين والشحوم . وأيد « برتلو » تأكيد الدانمركي « تومسن » بأن الحرارة المتكونة بالتفاعل الكيميائي قابلة القياس ، فقام علم حراري كيميائي الى جانب علم القوة الحرارية .

كَلِّفَ بالاختبار وامتنع بقدرة العلم القاهرة ، فتخيل بفضل العلم مستقبلاً عظيماً جداً

للإنسانية . وجد على غرار « نوبل » في اتفاق المتفجرات ، ولكنه انتج الـ « اوزون » صناعيا ووفر لمعاصريه وسيلة تقييم الماء وتحليل للسنة ٢٠٠٠ غذاء قوامه صفائح آزوتية : آمن بالتقدم للامحدود واسهم في وضع الكيمياء في خدمة التدمير . انه لوجه عادم المثل والنظير . وقد وصف « ميشليه » كتابه « الكيمياء المضوية المبغية على التركيب » وكأنه « المسلج الذهبي » في هذا الفرع الذي بلغ اشده .

ان « ملك الكيمياء » هذا - كما اسماه « جول لوميتير » ، الذي استقبله في الاكاديمية الفرنسية - قد مات في السنة ١٩٠٧ ، سنة وفاة اللورد كلفن ، الممثل العظيم الاخير للايمان المطلق بامكانات العلم . كان « وليم تومسن » عبقرى عمليا اكثر منه نظريا ، فاكتشف المبدأ الذي سبقه « كارنو » الى اكتشافه ، وحسن خصوصا اجهزة كهربائية كثيرة ، وادار عملية اتزال السلك البحري الاول عبر الاطلسي ، وكتب العديد من المقالات والبيانات ورأس جمعيات علمية كثيرة في بريطانيا العظمى وسواها . احيط بالتكريم وأغدقت عليه الدرجات الرفيعة ولكنه لم يتوار عن مسرح هذه الحياة قبل ان يشهد هبوط المذهب الآلي الذي دافع عنه اكثر من اي عالم آخر .

بعد مبالغة « كوفيه » وجوفروا سانت - ايلير ، « بدا النصر وكأنه معرفة الحياة والانواع حليف مذهب ديمومة الانواع ونظرية التبدلات الفجائية . الا ان بعض معطيات الجيولوجية وزمن ما قبل التاريخ وعلم الاحاث قد امالت العديد من الطبيعيين الى مذهب التحول الذي قال به « لامارك » .

والحال ، اصدر شارل داروين ، في السنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ ، « يوميات ابحاثه » الذي دوّن فيه ملاحظاته خلال سفرته البحرية في المياه الجنوبية : فقد لفت انتباهه الاختلافات في النوع الواحد بين جزيرة واخرى . لقد سبق له ان عرف الجيولوجي « ليال » ، المناوىء للمذهب الذي ينسب التبدلات التي حصلت على الارض الى الفيضانات والزلازل ، كما قرأ مؤلفات « مالتوس » . ارتأى ان الصراع من اجل الحياة ظاهرة عامة تتم بواسطتها عملية انتقاء طبيعية . واصل استقصاءه ، وفي السنة ١٨٥٩ اصدر كتاب « منشأ الانواع » الذي بيع منه ١٢٥٠ نسخة في فترة قصيرة ونقل الى ست لغات .

كان الانتباه متجها آنذاك الى الانواع الضخمة من الحيوانات المنقرضة : الزحاف الاريش ، والطير الانتب . وقد وضع « اوسبورن » بياناً بانسال الهر منذ الدور الجيولوجي الثالث . ولكن ماذا عن اصول الانسان ؟ فهل ستكتشف يوماً بقايا « بشر سابقين للطوفان » كما انبأ بذلك « بوشيه دي برت » ؟ في الواقع عثر فجأة على جد انسان نيندرتال في السنة ١٨٥٢ ؛ ثم جاءت الاكتشافات الحاسمة في منطقة « بيريفور » ، في « اورينياك » و« غريمالدي » . ولم يخش بعضهم من اقامة نسب بين القرد والانسان .

قام في الوقت نفسه ، منذ ان حقق « بوهل » جبلة خلايا الاجسام الحية ، نقاش حاد حول

تركيب الخلية ودورها ، وهما موضوعان هاما عنى بهما التقليديون ، المناوئون لمبدأ التطور والتناسل الذاتي . فبينما كان الداروينيون يرفضون التناسل الذاتي ، تمتع بعض العلماء من امثال « باستور » و « كلود برنار » عن السير وراءهم حتى النهاية . ولكن « هكسلي » شدد على اوجه التجانس بين الانسان والقردة في السنة نفسها (١٨٦٤) التي ندد فيها البابايوس التاسع عشر برقيم مشهور ، وما لبث « فريتز مولر » ، بعده بوقت قصير ، ان ربط بين علم تخلق الجنين والانتقاء الطبيعي . افترض هكسلي ان المادة المضوية الاصلية موجودة في قعر البحار ، بينما طبق « هكل » ، الذي ربط نظرية الخلايا بمذهب داروين ، سنة « بار » المعروفة بسنة نشأة الحياة ، على المجلس البشري . وقال الفيلسوف « هربرت سبنسر » نفسه بمذهب تحويلي ينطبق على حقل المعرفة بأكملته ابتداء من تمثل السديم حتى القول بصيرورة اجتماعية متنافسة .

كان سبنسر من اولئك الذين لا يعتقدون بصراع الانواع اعتقادهم بأثر البيئة . وقد نقل آنذاك « هيات » و « كوب » من اميركا لاماركية حديثة حملت « لوب » على الطلوع بنظرية التفاعلات بين المادة الحية والظواهر المحيطة بها . اما « موريتز فاغنر » فقد قال بتجمع الانواع المتشابهة بدلا من الانتقاء الطبيعي ، بينما استند « هوغو دي فريز » الى السنن التي وضعها الراهب النمساوي « غريغور مندل » ، وعاد ، تحت اسم التحولية ، وعن طريق التناسل ، الى نظرية التحولات الفجائية . فجلى من ثم ان مواقع الداروينية قد ضمت منذ ان قامت بهجومها القوي -

الصراع من اجل الصحة
كلود برنار والثورة الباستورية

مهما كان من امر النظريات حول اصل الانواع وتطورها ، فقد ولد شيئا قشينا ، بفضل علم الوظائف وعلم الحياة ، طب جديد قدمت له الجراحة مؤازرة قيمة . أتاحت الملاحظة العلمية للانسان معرفة جسمه والعوامل المرضية التي تواجهه معرفة فضلى : فساعدته بقوة على تخفيف الام وبعث الآمال المتزايدة في الحياة .

ومهما كان من اختبارية الطب حتى في منتصف القرن - فهو ما زال ينعت الحمى التيفية والزحار بالأمراض « العفوية » - فانه قد استفاد من اعمال « لايناك » و « بروسه » و « اندرال » و « برايت » الذين قطع علم الامراض المعضوية بفضلهم المرحلة الهامة اعداداً لعلم الاعراض المرضية الصحيح . ولكن الجراحة ما زالت تقاسي من جهل طرائق استئصال الجراثيم وتأمين المتاعة .

على الصعيد العلمي ، يجب انتظار « كلود برنار » لاحراز تقدمات حاسمة . اثبت تلميذ « ماجندي » هذا وجوده للمرة الاولى في السنة ١٨٤٩ ببيان حول كيفية هضم الشعوم ، ولا سيما باكتشاف وظيفة الكبد السكرية التي تسيطر على عملية التغذية كلها . وبعد ان اففى به الامر الى ان يرى في السكر الوقود الذي يحترق في الانسجة ويأتي به الدم مع الاوكسجين ، وان ينسب الى الاحصاب الاشراكية دور منظم حركة الدم ، ويدرس فعل السموم في الاعضاء ،

نشر كتابه «دروس في علم الوظائف الاختباري وتطبيقه على الطب» ، ثم «مدخل الى درس الطب الاختباري» الذي كان بمثابة الجليل لعالم الطبيعيات والعالم بصورة عامة ، والذي اولى فيه الافتراض والاستقلال أهمية كبرى ، وأوصى بمناقضة الآراء السابقة ، وأراد اسناد الطب الى سنن ، شأنه في ذلك شأن علم الطبيعة . وحين أدركته المنية في السنة ١٨٧٨ ، كانت قد توصل بالفعل الى اثبات وحدة النطاقين الحيواني والنباتي ، واعتاق علم الوظائف من الاختبار وعلم المعقولات ، وتحقيق احد آمال «اوغست كونت» . ان هذا الانسان الذي تميز بهيئة مهيبة وطيبة قلب وطلاقة وجه ، قد استأهل اليه الناس وأشع من حوله اشعاعاً قوياً . خلفه في «كلية فرنسا» «برون - سيكار» الذي نجح في مواصلة درس الافرازات الداخلية ، فدفع من ثم بدرس الغدد دفعة الى الامام . وتخصص احد تلامذته «بول برت» في فحص الوظائف الحسية وظواهر التنفس ، قبل ان يتفرغ للديموقراطية الجمهورية ويلقى حتفه في «تونكين» .

الا ان امنية كلود برنار الاولى كانت تحرير الطب من ضلاله المعتاد . وقد اكب احد الكيميائيين من جهته على تحقيقها . كان «لويس باستور» قد تقدم في السنة ١٨٥٧ ببيان حول الاختار الكحولي ؛ وقد خلص فيه الى وجود الحماض والمواد القابلة للاختار معاً ، والعلاقة بين تعفن الضمة - وهي جرثومة قوسية - وحياتها بدون هواء . اجل لقد سبق لـ «ليبينغ» وأعلن وجود مثل هذا الدور ، ولكن باستور قد اظهر علمياً كيفية حدوثه . ثم انتقل الناس الى التساؤل عما اذا كانت الاجهزة العضوية المجهرية لا تهاجم الكائنات الحية . وقد صادف أن أصيب دود القز بمرض مجهول ، فاكشف باستور جسيمات بالغة الصغر تنتقل بواسطة البيوض ، هي البكتريات . وقد اثبت الجراح السكتلندي «ليستر» آنذاك ان الفساد الذي يحول دون شفاء الجروح مرده هذه الجراثيم التي اتقاها بالتطهير او تأمين المذاعة ضد العفونة . عند ذاك توفق الدكتور «كوخ» من «برسلو» الى زرع جرثومة الفحم التي اكتشفها «دافين» ، و «ابرت» ، والتي كانت تفتك فتكاً بالمواشي . درس باستور بيانه ولاحظ اتفاقاً ان جرثومة هيضة الدجاج ، تمنع الدجاجة ضد المرض اذا ما لقحت بها ، ثم لقح بالفحم ، في السنة ١٨٨١ ، خمسين خروفاً بعد ان طعم ٢٥ من بينها بنسبة خفيفة من الجرثومة (وفاقاً للطريقة التي اتبعها «جنر» في اعداد لقاحه ضد الجدري) ؛ فلاحظ الجمهور ان الحرفان غير الملقحة وحدها قد ماتت . انه لاكتشاف على جانب كبير من الاهمية : فلن تلعب الامراض بعد اليوم الى الاعتلال بلاميز ؛ لقد امسك بالجراثيم ؛ وروقت اعمالها ، وحوصرت بحيث امكنت محاربتها في معركة مباشرة وناجمة . وقد بلغ مجد باستور ذروته حين شفى ، في السنة ١٨٨٥ ، ولدأ عضه كلب كليب .

قضى باستور عشرين سنة في المهادلات الحادة قبل ان يتغلب على المقاومات والآراء المقبولة قبل التحقيق . ولكنه انتصر في النهاية ، وقد استعد جيش من التلامذة للحوار معه في مقاتلة الجراثيم والطفيليات . فان احدهم «توبليه» قد توفي في الاسكندرية حيث كان مكباً على

دراسة هيضة وبائية ؛ وتوفى آخره ، هو « شامبرلان » ، الى إحكام مطهرة بالبخار المضغوط ومصفاة مائية صحية ؛ وتخصص بعضهم في الكيمياء الزراعية : « رولين » ، « فان تيفم » ، « اميل ديكلو » الذين استكشفوا بتدقيق الحقول المختلفة التي تمش فيها النباتات ولحقوا بـ « شلوسنغ » و « مونتر » و « فينو غزادسكي » في بحثهم عن بكتريات المسالم النباتي : فحققوا اكتشافا عظيما حين اثبتوا ان الاختمار سبب تكون الآزوت في التربة .

في هذه الاثناء واصل سوامم تحقيق هوية اصاغر الجراثيم - كـ « كوخ » مثلا الذي اكتشف جرثومة مرض السل ، بعد ان درس الفحم ، ثم اكب على دراسة جراثيم الهيضة والملاريا ومرض النوم والبرص ، الى ان ادر كته النهضة فتوفي هو نفسه بعد اصابته بمرض السل - فعمت معالجة الامراض السارية معالجة وقائية . وقد احرز تقدم جديد بالمعالجة المصلية التي توفى اليها « شارل ريشيه » فدرس بذلك الطريقة الدوائية ؛ ثم طبق « اميل رو » و « فون بيرنغ » الطريقة على مرض الذباح (دفتريا) الذي حقق « كلبس » هوية جرثومته في السنة ١٨٨٣ ، وركب مصله في السنة ١٨٩٤ ؛ ومن جهة ثانية امتدت حماية المعالجة الكيميائية ضد الفساد التعفني الى حالة الامراض المتسببة عن الاوليات .

اتسع حقل الابحاث امام الغربي ، الاخذ في السيطرة على العالم ، كلما وجد وجها لوجه امام الادواء والابوة في المناطق الحارة . نشط منذ زمن بعيد في معالجة الملاريا والقضاء عليها في الحوض المتوسطي : في السنة ١٨٨٠ لاحظ « لافران » الحيوانات الدموية في قسطنطينة ؛ وجاء بعده « روثال روس » ، الطبيب في جيش الهند ، يعين بعوضة الاجمية كناقلة للملاريا فعاربها بنجاح في كوبا وباناما ومصر ؛ ثم اهتم الاطباء الايطاليون المتخصصون في معالجة الملاريا ، الذين شق « غراسي » الطريق امامهم ، بتطهير مناطق المستنقعات في بلادهم وجعلها صحية . وشن الهجوم على الهواء الاصفر حين حقق « فنلاي » الطبيب الكوبي ، هوية جرثومته . واكتشفت جرثومة الطاعون الدبلي في « كانتون » في السنة ١٨٩٤ بفضل « يرسين » ، تلميذ معهد باستور ، والياباني « كيتاساتو » . واوضح « سيموند » ان الجرذ الاسود ينقله الى الانسان . وحقق الدكتور « فورد » من غامبيا وبعثة « بروس » هوية الحشرة التي تسبب مرض النوم . وسوف يبرهن « نيقول » و « كونت » و « كونساي » في السنة ١٩٠٩ ، ان القمل هو ما ينقل الحمى النمشية . وقد وضعت الابحاث في الجغرافيا الطبية والطفيليات ترشد الى مراكز الاعداء بين سكان المناطق الحارة .

الا ان العرق الابيض لم يستطع التغلب على عدة امراض خطيرة ، بالاضافة الى انه نقل بعضها احيانا . فقد تفشت الامراض الجنسية بفعل الخوف من الاقرار بها . ووصف الاطباء ظواهرها و اشاروا الى معالجتها بالزئبق . واكتشف « نيسر » جرثومة السيلان الابيض في السنة ١٨٧٩ ؛ وانما يجب انتظار السنة ١٩٠٥ حتى يتوفى « شوندين » و « هولمن » الى عزل جرثومة الداء الزهري ، والسنة ١٩٠٦ حتى يكتشف له « واسرمن » الدواء الشافي - بانتظار معالجته

بالزيموت . وبدا السرطان اكثر غموضاً ايضاً . واذا كان علم الأمراض الرئوية قد اكتشف جراثيم الالتهابات الرئوية ، فان تشخيص التصوير بالاشعة ليس كل شيء ، وليس للمطهرات والمصل مفعول اكيد . أما السل ، وهو المرض الاجتماعي الناجم عن البؤس والتعب ، فقد استلزم حماية ترتبط بظروف فضلى للعمل طال انتظارها ؛ يضاف الى ذلك ان المعالجة الجراحية لا ترقى الى ابعد من السنة ١٩٠٨ ، تاريخ تجميع الهواء في الصدر الذي اعتمدته «فور لانيني» . وقد اخذ الاطباء يستشفون استشفافاً بعيداً دور نقص بعض المواد في الجسم ودور الاضطرابات الغددية ؛ ولم تدرس الامراض الوراثية فعلاً الا منذ اكتشاف السنن المتبدلية (نسبة الى «مندل») حوالي السنة ١٩٠٠ .

بيد ان طرائق المعالجة قد تحسنت تحسناً مستمراً . فمقابل طريقة معالجة الداء بضده التي بقيت رالجة ، كان لطريقة معالجة الداء بمثل خواصه من الدواء انصارها من الاتباع المتحمسين الذين آثروا تخفيف الادوية بالمزج تخفيفاً مفرطاً . وقد اثبت كلود برنار ولا سيما برون - سيكار اهمية المعالجة بواسطة السوائل الحيوانية . ثم برزت المعالجة الكيميائية في اعقاب الدروس التي قام بها « اهرش » . ثم نادى « ارسونفال » بالمعالجة بالعوامل الطبيعية ، ثم أدى تطبيق الموجات الحرارية على المعالجة الى تعزيز فعالية المعالجة بالماء وبمياه الينابيع في الينابيع نفسها التي سهلتها وسائل النقل الجديدة . الا ان التردد على ينابيع المياه المعدنية قد استلزم ، بالإضافة الى مستوى حياتي مرتفع ، معرفة علم خصائص المياه ونواميسها معرفة يقضى . لا بل برزت معالجة مناخية حقيقية في اعقاب ابحاث « پول برت » و « جوردانيه » حول نتائج انخفاض الضغط الجوي في الجبال ، كما اتضحت اهمية الاشعاعات الشمسية والجفاف والبرد .

تميزت انطلاقة الجراحة بمزيد من الجرأة ايضاً وهي في ذلك مدينة بالكثير للمطهرات . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان باستور قد فضل استعمال المواد المطهرة ، وقد اتضح فيما بعد ان تفضيله كان في محله . وتوجب كذلك ادخال ألم المريض في حساب المعالج : وهم بعض الاميركيين من اشار باستعمال روح الحوامض الممزوج بالكحول او اول او كسيد الآزوت ؛ وقد نشر احدهم ، سبسون ، في السنة ١٨٤٧ ، بياناً حول اهمية الكلوروفورم (البنج) التخديرية . فأصبح باستطاعة الجراح ، منذئذ ، اجراء عملياته بأمان . وهكذا بات استئصال الزائدة الدودية عملية سهلة في السنوات ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، في حال ان اصابة هذا العضو بالتهاب حاد قد اعتبر حتى ذاك التاريخ احد اعظم الامراض فتكاً بالانسان . وخطت جراحة الاعصاب خطواتها الاولى بفضل نظرية طلع بها « بروكا » في السنة ١٨٦١ حول تعيين وظائف مختلف اقسام الدماغ . واستفاد علم جراحة العين من الاكتشافات التي توفى فيها هلمهولتز ، ولا سيما «غراف» الذي فكر بإزالة السادة بعملية دائرية . وبفضل النجاحات التي احرزتها تقنية علم الامراض النسائية ، سار في طريق الزوال سبب غير نادر من اسباب الوفاة : استخدم الطريق المهبطي حتى السنة ١٨٩١ ، تاريخ اعطاء الافضلية للطريق الجوفي بفضل طاولة عمليات « ترندلنبورغ »

وأجرى « بور » و « سانجر » العملية القيصرية بنجاح ، ولم يستفد من التوليد من تقدم استعمال المواد المطهرة فحسب ، بل من التحسينات المدخلة على ملقط الجنين أيضاً .

وهناك حقل من ادق الحقول لم يمد وقفاً على الاختبار والرأي المقبول قبل التحقيق : أعني به حقل الأمراض العقلية . فبعد ان احرز علم فراسة الدماغ نجاحاً فضولياً نراه يدخل في طور اختباري ، بحيث لم يعد المجانين موضوع تدابير امن وسلامة فحسب : فان « فالتين مانيات » و « اميل كرنلين » ومدرسة « ادنبرا » قد توسلوا ، من اجلهم ، الى الفاء الاقتسار . وقد رأت النور بعض الظرائق الدوائية ولمع في طب الامراض العقلية اطبائ مشهورون . وأخذ أحدهم « لومبروزو » ، على نفسه اثبات قيام العلائق المتتومة بين النظام الوظيفي الطبقي والاجرام . ولا ريب في أن نظريته حول المجرمين منذولادتهم ، التي شرحتها في مؤلفه الهام ، « الانسان المجرم » (١٨٧٥) ، قد أثارت مجادلات عنيفة : ولكنه نشر في السنة ١٨٨٨ « الانسان المبقر » ، الذي جمع فيه بين علم الوظائف وعلم النفس . ورأى بعضهم ان الكائن البشري يأتمر بكليته بالمراكز العصبية التي يرتبط بها الفكر نفسه .

ما عساها تكون قيمة العلم اذا لم يتع هذا الاخير معرفة كيفية المعرفة التاريخية والاجتماعية التطور البشري وسببته ؟ لقد جمل « كونت » من درس الظواهر الاجتماعية قبة بناء الفلسفة الوضعية . وارتكز الجدل الماركسي الى حركة الحقل التاريخي . وبالإضافة الى أن توسع آفاق هذا الاخير قد أثار فضولاً متزايداً والى انه قد امسى سلاحاً سياسياً ، فليس من شك في ان مذهب العقليين المؤمنين بإمكانات العلم الشاملة قد حرك الحاجة الى تفسير الاحداث تفسيراً افضل . فحدث من ثم في الوقت نفسه تعمق في البحث وتوسع في الحقل التاريخي . وقد بدت المهمة مزدوجة : يجب اثبات الواقع بواسطة العلم الواسع في التاريخ ، ولكن العقل البشري يرغب في استخلاص العام من الخاص . وقد كتب « فوستيل دي كولانج » ما يلي : « ان يوما واحداً نقضيه في التأليف يجب أن تقابله سنوات نقضها في التحليل » . واكد فوستيل هذا نفسه ان التاريخ « ليس فناً بل علماً بحتاً » ، بينما رأى « رينان » ان « التاريخ فن وعلم سواء بسواء » . وأنجز عمل توضيحي عظيم في حقل الوثائق سهلت نجاحات العلوم المساعدة ، لا سيما علم الكتابات وعلم الآثار ، ولكن أسرى الآراء العقائدية والآراء المقبولة قبل التحقيق قد استسلموا أبدأ للبل الى رسم لوحات عريضة . وهكذا فان « تين » الذي ادرك مهمته خير ادراك لم يتخل يوماً عن العمل المنسق النظامي ، وليس كتابه « أصول فرنسا المعاصرة » سوى دفاع عن نظريته . كما ان فوستيل دي كولانج ، المشهور بتدقيقه ، قد استخلص من الديانة المنزلية دون غيها مؤسسات « المدينة القديمة » . ولم يزل « سيل » ولا « سوريل » تشابك المعطيات التي قدخل في تفسير الثورة الفرنسية . بيد أن المؤرخين اتجهوا شيئاً فشيئاً شطر الموضوع المحدد أو المجموعة التي يجب أن تكون عملاً جماعياً .

لم تستخلص أهمية العوامل الاقتصادية الا ببطء كلي . وكان « ليست » و « شمولر » في طليعة من قولوا هذا الاستخلاص ؛ ولكن يجب انتظار آخر القرن حتى تظهر الماركسية في هذا الحقل نظرية مقبولة للبحث . اما التاريخ فقد برهن هن جرأته في معالجة مسألة الاصول الدينية . اجل ان التاريخ قد طبق في نقد التوراة الطرائق نفسها التي استخدمها في كشف حقيقة نشأة روما او المسألة الهوميروسية . الا ان الباحث الذي تحوم حوله شبهة العداء لحقائق إيمان حسي يأخذ على حاله مهمة غاية في الدقة . فقد سبق لكتاب « حياة يسوع » ، الذي نشره شتراوس في السنة ١٨٣٥ ، ان أثار مجادلات حادة . ثم جاءت مؤلفات « فورباخ » و « برونو بوير » التي اعتبرت باعثة للشقاق : هل تصمد الفصول الاولى من سفر التكوين امام اكتشافات ما قبل التاريخ الطبيعي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان « حياة يسوع » التي لطفها رينان وأبعد عنها كل ما هو اسطوري ، قد أثارت ردة فعل عنيفة وكلفت مؤلفها منبره في كلية فرنسا . فقد وقف رجال الاكليروس موقفًا دفاعيًا قويًا وانشغل الكثيرون منهم بإثبات التوافق بين تأكيدات العلم واقوال الكتب . ولكن ذلك لم يحل دون اتساع اهوة بين المؤمنين المتمسكين بالرواية التقليدية وبين الوضعيين والعقلانيين والفائلين بحرية التدين الذين اعتبروا انفسهم احراراً في مناقشة الاناجيل كما هم احرار في مناقشة اية شهادة أخرى .

بينما كان التاريخ متجهًا ، ولو ببعض الصعوبة ، شطر التعريف بماضي الانسان في جميع مظاهره ، كان علم الاجتماع يبحث عن نهج واسلوب . كان رأي ماركس ان التركيب يجب ان يرتكز الى الجدول وقوة الصراع بين الطبقات ؛ أما هيربرت سبنسر فقد اعتقد بوضع قواعد مذهب تطويري يكون نتيجة تكيف المجتمعات تدريجياً على البيئة . ثم جاء « دورخايم » يقاوم المدرسة الآلية التي يمثلها « باريتو » و « والراس » والمدرسة المعنية بعلم طبائع الانسان التي يمثلها « جايس فرايزر » - وهو من سار على خطى « فردريك ماكس مولر » باهتمامه بتفسير الاساطير - ، والمدرسة المعنية بعلم النفس التي يمثلها « تارد » و « فوبيه » ، فحاول بقوة وضع الشروط التي قد تتيح لعالم الاجتماع القيام بعمل علمي حقاً ؛ وقد نشر كتابه « قواعد الأسلوب الاجتماعي » في السنة ١٨٩٥ ، فكان له بدوره صدهاء العظيم .

لاحظ « كورنو » زوال الميل الى الحقيقة الفلسفية البحتة .
 الايمان بإمكانات العلم والعلم
 فالواقع الاختباري قد فرض نفسه فرضاً على الانتباه . واذا
 الاخلاقي النفمي
 صدق كلود برنار ، فان العقل البشري قد تفرغ منذ اليوم الى
 « دراسة الظواهر الطبيعية في واقع الأشياء الموضوعي » . زد على ذلك ان رينان قد اعلن منذ
 السنة ١٨٤٨ : « العلم دين ؛ العلم وحده قادر على تمكين الانسان من حل المسائل الازلية التي
 تفرس طبيعته حلها بالحاح » . ولكن الاختبارية النفعية تنتهي عند « جون ستيوارت ميل » الى
 إدبار مماثل امام علم المعقولات . وان مذهب الطبيعة المؤمن بإمكانات العلم الشاملة قد حمل « تين »
 على رد النشاط الدماغي الى تصادم الذرات العقلية . ورأى اتباع المذهب الظاهري من امثال

« بان » و « جايمس ميل » ان الوجدان ليس سوى توارد افكار وصور (ولن يرى اتباع الظاهرية الحتمية ، من امثال « مودسلي » و « مكسلي » ، في الوجدان ، سوى مجرد وميض قوسفوري دماغي) . وعاد « بوختر » و « فوغت » و « مولسكوت » الى صيغ « كاباني » (الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، مثلاً) ، وقد عاصرت بياناتهم تحقيقات علم الوظائف . واقتتح « ووندت » في ليبزغ مختبراً لعلم النفس ، واسس « فشنر » علم النفس الطبيعي ، وربط « ريبو » بين علم النفس وعلم وظائف الجهاز العصبي . فتبخر كل مفهوم سام او لم يعد سوى وهم خادع .

ولكن نشاط الفرد ، مهما بلغ من ارتباطه بعلم الوظائف ، لا يفسر تفسيراً مقبولا الا على الصعيد الاجتماعي . ان هذا الوجدان الاجتماعي متفاوت الطوعية ، يشكل الترياق الواقعي من الحتمية المطلقة المستحيلة ، عند ماركس كما عند سبنسر ، وعند جون ستوربات ميل كما عند « رينوفيه » . ومن جهة ثانية ليست الحرية في نظر هذا الاخير ، كما في نظر « كانت » ، سوى مبدأ اساسي مسلم به من مبادئ العقل العملي . وأعطى « هككل » مذهب الواقع الواحد الذي قال به معنى فلسفة البهجة الخلاقة ، وأبان « ووندت » بحلاء هيمنة الارادة .

يتضح من ثم ان الايمان بإمكانات العلم الشاملة عارم بالنشاط والقوة الفاعلة . ومادياً كان أم مشبعاً بالنفعية ، فانه لا يبتعد عن علم المقولات السامي الا ليكتفي بالواقع . وسيمعن « وليم جايمس » ان « الفكر حقيقي لانه نافع » وانه نافع لانه حقيقي ، كما سيظهر مذهب العملية ايضاً كعلم اخلاقي موضوعه العمل .

الفصل الثالث

استكشاف الأرض وانتشار المثل الأوروبية

انطلق الانسان الغربي بفرح وبهجة الى فتح الكرة الارضية . وان ما دفعه معرفة الارض وتمثيلها دفعاً الى امتطاء المغامرة هو الهوى والشجاعة والكلف بالرسالة والعلم ، لا سيما وان عالم المجهول ما زال واسعاً جداً .

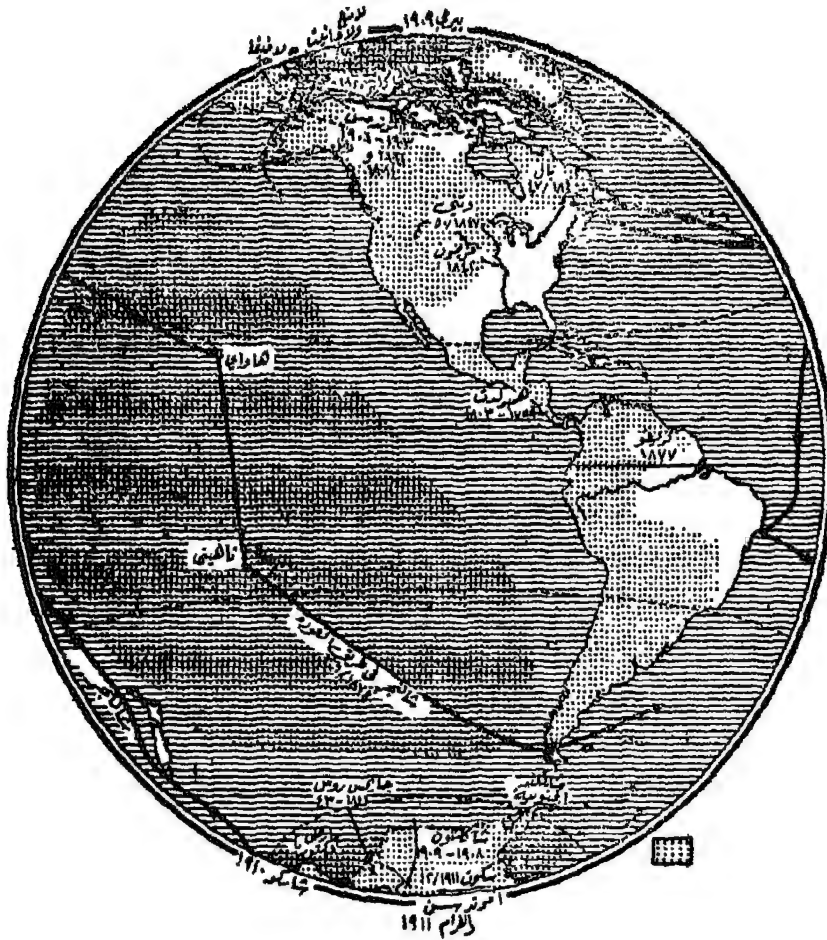
غذت الرغبة الحارة في المعرفة مجموعات المؤلفات وروايات السفر ومكتب الارشادات والتعليقات . فقد بيع ه ملايين عدد يومياً من « اخبار لندن المصورة » التي ظهرت في السنة ١٨٤٢ . وقد عرفت « مغامرات روبنسون كروزويه » نجاحاً مطرداً منقطع النظير ؛ ونقلت الى كافة لغات اوروبا ، فأوجدت الكثيرين من امثال روبنسون ، السويسري ، والاميركي ، و « روبنسون البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة » ، و « امثال روبنسون الحقيقيين » ، ولا سيما مقناة « اوفنباخ » الهزلية . واشتهر عدد من ارباب القصة الاجنبية : « ماريات » ، مؤلف « مغامرات بيتر سمبل » ، والاميركي « ملفيل » ، والسكتلندي « ستيفنسون » ، و « لوتي » ، الملاح المحترف الذي تذوق جمال الكون اثناء تجواله فيه تذوق الفنان المتوحد . وأوجد « جول فيرن » القصة الجغرافية . فتجول هو ايضاً في العالم ، دون أن يفادر مكتبه ، وجمع بين السبق العلمي ومشاهدة المناظر والمجتمعات مشاهدة صحيحة ، وخلق اشخاصاً يستهون الفتيان ، ك « فيلباس فوخ » الذي يدور حول العالم في ثمانين يوماً ، والقبطان « نيمو » الذي يسير على خطاه ٢٠٠٠٠ عقدة تحت البحار ، والقبطان هاتراس الذي انتصر على القطب الشمالي ؛ وهي الماسة الاسطورية ؛ « نجم الجنوب » ، ما لفت انتباهه ، في السنة ١٨٦٧ ، الى افريقيا الجنوبية ؛ أما فكرة الدوران حول العالم فقد أوحى بها اليه ، في السنة ١٨٧٢ ، اعلان لوكالة كوك . وسوف يتولى دور الراوي الفرح في « كتب الغابة المتلبدة » احد قرائه ، روديارد كبلنج ، الذي كان ، من جهة ثانية ، صديقاً لابن « توماس كوك » .

لم يعد قط من مدرسة خلو من خريطة قارات العالم الخمس وخريطة الوطن الأم . وإذا وفر الأطلس تمثيلاً أكثر دقة ، فإن الأداة العلمية المثلى ، التي جاءت ثمرة عملية مسح وقياس ارتفاع استغرقت وقتاً طويلاً ، هي الخريطة الطبوغرافية : وهكذا فإن المسقط المخروطي الشكل الذي صححه « بون » قد استخدم في رسم خريطة بقياس ١/٨٠٠٠٠ حلت في فرنسا محل خريطة « كاسيني » .

اسهم علم طبيعة الأرض ، والجيولوجية ، والجغرافية الطبيعية اسهاماً متوازياً ، ان لم يكن تضافرياً ، في معرفة الكرة الأرضية . فقد أمكن وزن هذه الأخيرة وقياسها . أجل ، لقد تعاقبت النظريات حول طبيعة القشرة الأرضية ، فحلت الواحدة محل الأخرى ؛ ولكن تفسير نواتج الأرض بات اذ ذاك أكثر ارضاء واقناعاً حين نشر « سويس » الفينتي في السنوات ١٨٨٣ - ١٨٨٨ ، بروح شاعر وعالم واسع الاطلاع ، كتابه « وجه الأرض » . وقد صرح « كورتلين » آنذاك ايضاً : « لا أقرأ من المؤلفات الخيالية سوى القشرة الجوية أحياناً » ؛ ولكن علم المناخ الذي اتقنه نمساوي آخر ، هو « هان » ، قد أثبت في العهد نفسه تقريباً ، ان دور التيارات الهوائية الكبرى وأنواع الطقس المختلفة قد سجل نتائج قيمة مهدت لها دؤوس مهندس البحرية الأميركية « موري » ودروس « لوفرييه » .

هي حاجات الملاحية بصورة خاصة ما يحذر بنا ان نعزو اليها النجاحات الجديدة المحققة في علم البحار . فبين السنة ١٨٢٠ والسنة ١٨٥٠ أدت اسفار « ديون دورفيل » و « ويلكس » الى رد القارة الجنوبية أبعد الى الجنوب . وبلاستناد الى المعلومات التي دونها « موري » في خريطة جميلة للتيارات البحرية ، أو في « توجيهاته الملاحية » القيمة ، ابتكر « بروك » مرجاساً سهلاً لتحديد الاعماق البحرية ، واتاح البخار كذلك سهولة استخدام الملفات لانهزال اجهزة المراقبة واخراجها . ولعل اهم حدث هو الرحلة التي قامت بها بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٧٦ ، السفينة « شالنجر » التي عادة بمعلومات وفيرة جداً اوردها لجنة برئاسة « ويفيل طومسون » في ٥٠ مجلداً . وفي السنة ١٨٨٥ سَير « البير الاول » امير موناكو بعثته العلمية الاولى . وفي السنة ١٨٩٩ ، تألف في كوبنهاغن مجلس دولي دائم لاستكشاف البحر .

حوالي السنة ١٨٦٠ اشير في الخرائط الى الاراضي المجهولة في القسم الاكبر الاستكشافات البرية من افريقيا وفي آسيا الوسطى والجزيرة العربية و « امازونيا » . وما زال تكون الجبال وحياض الانهار يخفي مفاجآت كثيرة ، والاستكشافات البرية تسفر ابداء عن وقوع ضحايا كثيرة . فركوب مخاطر الصحارى الشاسعة الاطراف ومناطق النواحي المرجية يقتضي صوفية حقيقية وجلداً غير اعتيادي . وهو الجبل الافغاني القادر على البقاء ١٣ يوماً بدون تجمع الماء ، ما استطاع وحده اجتياز الصحراء الاوسترالية ؛ ولم يقلح « لابرين » في اجتياز الصحراء الافريقية الكبرى الا بمعونة جنود من قبيلة « شامبا » يتطون الجمال ؛ كما ان « برازا » ، على الرغم من رغبته في الظهور بظهر المسالم ، قد اصطحب ٣٠ بحاراً ورتيباً ، و ٣٠٠ بحار



شكل ٦ - اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر

سنغالي ، ١٢٠٠ جفاف او كندي او ادمي وقرابة الف حمال باتشي وبابوندي وخمسة زوارق بخارية ووجهز مستودعا في « ليرفيل » وانشأ ٢١ محطة ومركزا عسكريا بين الشاطئ والكونغو . زد على ذلك ان امر المهمة الحامل توقيع احد الملوك لم يكن شيئا يستهان به : فقد استحصل « ناشيفال » على مثل هذا الامر من ملك بروسيا لتقديمه الى الشيخ عمر في « بورنو » ، وقصد « جوزف هاليفي » هارب مدينة ملكة سبا القديمة « مرتديا زيا اسرائيليا » ومزودا بكتاب توصية من حاخام صنعاء ؛ وتذكر « بالغراف » - على غرار « كايه » في الصحراء الافريقية - بزي اسلامي ليتمكن من دخول صنعاء عاصمة الوهابيين . ولم يهمل كذلك امر المال والبضائع . فكشفت القارات اسرارها .



كانت هنالك مسألتان في افريقيا : مسألة الانهار الكبرى التي تصلح دون غيرها لربط ساحل بآخر عبر السباسب والاحراج ، ومسألة الصحراء الافريقية الكبرى التي تمتد بين المتوسط والمناطق السودانية . يضاف الى ذلك مسألة النخاسة ، لان النخاس يحرص على ان يضل المسافرون المسالك ، ويحرك الزعماء البلدين ، ويقاوم بالحيلة ، وحتى بالعنف ، كل دخول يرتدي طابع العداء للرق . ففي منتصف القرن نجح « بارت » و « ديفريه » و « رولف » و « ناشيفال » ، ببذل جهود خارقة ، في اجتياز الصحراء وبلوغ الساحل النيجيري و « تشاد » . واسدل في الوقت نفسه الستار الذي كان يخفي الشبكة المائية في المنطقة الاستوائية : اهتدى ليفنغستون الى ينابيع الزامبيز وينابيع الكونغو ؛ اما ستانلي الذي انطلق للبحث عنه فقد

قام بجولة كبرى في المنطقة الكونغولية . وفي السنة ١٨٨٠ بدأت عملية تقاسم الاراضي .

لم يكن قلب آسيا اسهل منالا . بينما كان الروسيان « تشرمكي و » بوجفلسكي « يدخلان الاراضي المرتفعة في الشرق الاقصى السيبيري ، كان «ريشتوفن» يتجول في اصقاع الصين ويصفها . ولكن المائق الخيف كان « سطح العالم » الواسع الذي توفق فيه بوجفلسكي الى اكتشافات هامة ، اعني بها يتابع الـ « يانغ تسي » و « تاريم » و « لوبنور » ؛ ولم يستطع لا « مانتغ » ولا الابوان المازريان « هوك » و « غاييه » مشاهدة « لاسا » الا باخفاء شخصيتهم ؛ ولم يحقق غيرهم هذه الامنية . فقد الف الارتفاع حاجزاً : واذا استطاع هواة تسلق الجبال اقتحام اعلى القمم سموخا في اوربا ، فان قمم آسيا قد تحدث جراً الانسان الابيض .

القطب يجتذب كالمغناطيس ؛ ومثال القبطان « هاتراس » ليس من نسج الخيال . فتح القطبين سارت السفن التجارية أولاً على خطى كوك في البعارة الجنوبية ، فبعد صيد الحوت اعظم الملاحين جرأة الى أبعد من القواعد المأهولة . وبرزت الرغبة كذلك ، في عهد مبكر ، في اكتشاف مجاز بين الاطلسي والهادي شمالي اميركا وآخر الى الشمال من العالم القديم . ولكن الصعوبة قامت في وجوب تضييق فصل الشتاء في مناطق يمتد فيها الليل بين أربعة وستة أشهر ، ومقاومة الجبال الجليدية التي قد تتداخل وتسحق السفينة : فهكذا انتهى في ظروف فظيعة الاميريكي « لونغ » ومن معه على السفينة « جانيت » خلال رحلة الى المجاز الشمالي الشرقي ؛ وفي هذا التاريخ نفسه تقريباً عرفت بعثة « غريلي » النهاية نفسها في « غرينلند » حيث عثر على جثث مرعبة ابتكرت اعضاؤها العلوية والسفلية ، بسبب دفع الجوع ببعضهم الى أكل لحوم البشر . فمست الحاجة من ثم الى التجهز بأدوات خاصة والتزود بغذاء ملائم . وليست البعثة الى القطب بما يلائم الشماليين فحسب ، فهي توجب ارتداء البسة شعوب المناطق المتجمدة والتدهن بالشحوم . وفي أواخر القرن ، كان « نانسن » و « بيرري » و « اموندسن » قد تلقوا درساً من الاختبار ، فلم يتركوا شيئاً للمصادفة : بنى « نانسن » السفينة « فرام » القادرة على مقاومة ضغط الجليد وتزود بمؤن تكفي لمدة خمس سنوات وفكر حتى ببعض اسباب اللهو ؛ وتعلم بيرري تقنية الاسكيمو الذين ادخلهم في خدمته وامتنحن رجاله ومعداته على جليد الارض الغرينلندية .

بعد أن تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ، بقي التقدم ، ما أمكن التقدم ، فوق الامواج المتلاطمة باتجاه القطب الجنوبي . وفي سبيل تحديد موقع القطب المغنطيسي الجنوبي ، وضع ويلكس وروس رسماً تقريبياً لحدود القارة المتجمدة الجنوبية الحقيقية وتعرفوا الى براكينها وخلجانها الواسعة . ثم توقفت النجاحات : اذ اقتصروا العمل على صيد الحوت والاستيلاء على الجزر والارخبيلات الصغرى المتناثرة في مياه المحيط المتجمد الجنوبي .

يرد هذا التوقف الى أن مسألة مجازي الشمالي الغربي والشمال الشرقي كانت اشد استهواء . فقد عند البريطانيين في بذل الجهود لاكتشاف الاول ، وانتهى « مالك كلور » ، الذي انطلق للبحث عن بعثة « فرانكلن » المفقودة ، الى الدوران حول القارة الاميركية من الشرق الى الغرب . ثم

لجميع « فانسن » ، و « اموندسن » من بعده ، في اجتياز « غرينلند » . أما مجاز الشمال الشرقي ، فقد توصل « نوردينسكجولد » الى عبوره بالسفينة « فيغا » بعد أن امضى الشتاء في الجليد على بعض المسافة من مضيق « بيرنغ » . عند ذلك دفعهم « بحر القطب الطليق » بالسفينة « تجتھوف » ، ثم بالسفينة « جانيت » ، نحو الشمال ؛ ولكن حوض البحر المتجمد الشمالي لم يستكشف إلا في أعقاب حيدان مركب « فانسن » ، « فرام » ، عن طريقه طيلة ثلاث سنوات ، فاستفاد المهندس الاميركي « بيرى » من ذلك وسار تكراراً على رأس بعثات قربته شيئاً فشيئاً الى القطب الشمالي الذي توفى الى بلوغه في السنة ١٩٠٩ بواسطة مزائج تجرها الكلاب .

كان القطب الجنوبي أكثر بعداً وأشد وعورة ، ولكن المستكشفين ما لبثوا أن بلغوه هو ايضاً . لقد تعددت المحاولات بين السنة ١٨٩٧ والسنة ١٩٠٥ ؛ فان شاكلتون قد اقترب من الهدف وبلغ نقطة ترتفع أكثر من ٣٠٠٠ متر وتبعد عنه أقل من ٢٠٠ كيلومتر ، ولكنه افتقر في النهاية الى المؤن ؛ وأخيراً ظفر اموندسن النرويجي ببلوغه في السنة ١٩١١ ، بينما لاقى سكوت حتفه في عاصفة ثلجية .

ولكن ما هي بالضبط الشعوب المختلفة التي يتألف منها الجنس البشري ؟ لقد وقع معرفة الكون مدلول العرق موقع الرضى من الرومنطيين الذين تكلموا عن العسرق الفرنجي والعرق الكلتي والعرق الجرمانى ؛ فالعرق يفسر كل شيء ، وحتى السلوك الفكري ؛ وسوف يبت « غوبينو » فكرة وجود عرق آري ، هو أنبل الأعراق البيضاء ومعد للمهام الهضابة . وقد قام نقاش حاد بين القائلين بوحدة النوع والقائلين بتعدد الانواع . لا بل لم يعرف ما اذا كان يحذر الكلام عن علم طبائع الانسان أم عن علم خصوصيات الشعوب . وكان مقدراً للصوفية العنصرية ، بفعل تشوش الآراء ، أن تقضي ، في أواخر القرن ، الاهواء القومية والتوسعية الاستعمارية .

الا أن هذه النظرية الساذجة قد صادفت مقاومة شديدة تولاهما اولئك الذين ارتأوا ، كـ « ميشليه » مثلاً ، ان البيئة والحياة المشتركة أعظم أهمية من الدم أو شكل الرأس في تشكيل الشعوب والأمم . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن « كارل ريتز » ، الذي يبدو الممهد الحقيقي لجغرافية بشرية تفسيرية ، قد حاول ، منذ السنة ١٨١٧ ، وصف البلدان وسكانها وصفاً يستهدف اثبات تبادل الارتباط . وفي هذا الاتجاه سار من بعده « برغوس » و « بيترمن » و « ركلو » . وبينما يقترح « راتزل » ، المتشبع بالنظريات الحتمية ، درس العلاقات القوية بين الدول وسياستها وبين المعطيات الطبيعية ، تشبث « فيدال دي لا بلاش » و « ماكندر » بالتوسع في مدلول طريقة الحياة الناجم عن تعاون صادق بين النوع والطبيعة قادر على تفسير التعداد الفائق في طرائق التكيف ، ومن ثم تفسير التهاجج البشرية . ونزولاً عند طلب « لافيس » ، وعلى طريقة ميشليه ، سوف يقدم « فيدال دي لا بلاش » ، لكتاب مفصل في « تاريخ فرنسا » من وضع مجموعة من المؤرخين ، بـ « لوحة جغرافية » متنوعة الألوان .

دور اللغة في انتشار الثقافة الأوروبية
نظر الغربي الى الاداة والنسيج والطريق والخط الحديدي ،
وحتى الى المسكن ، كما الى وسائل عمل في الاجزاء الأخرى من
العالم ، ولكنه لمس الحاجة الى افهام غيره فوائده وجوده . واذا وجد موافقاً أن يتعلم بالضرورة
لغات تختلف كل الاختلاف عن لغته ، فقد بدت له أفضلية انتشار لغات تنقل بسهولة تأثيره
وحالته النفسية . وقد رأى سابقة تثير الانتباه في قوة انتشار اللغتين الاسبانية والبرتغالية في
العالم الجديد .

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نتعقب ذلك الهجوم اللغوي الذي قام به المهاجر
والمستمر والتاجر ومعلم المدرسة والمرسل ، بواسطة الصحافة والبيان والكتاب - وكتاب
التوراة بصورة خاصة . وهكذا فان اللغة الفرنسية ، التي احتفظت بمركزها في جزيرتي هابتي
وموريس ، قد احرزت تقدماً مطرداً في كندا وأفريقيا الشمالية (حيث اقتبست بعض المفردات
عن العربية) والشرق الأدنى وحتى الشرق الأقصى . ولكن كم كان اشعاع اللغة الانكليزية أعظم
قوة : فان الأماكن الكثيرة التي تحمل اسم فكتوريا وادوارد وجورج في العالم لدليل على عظمة
البريطانيين العالمية ؛ وإنما تقاومت الشعوب بواسطة اللغة الانكليزية في الهند ؛ واللغة الانكليزية
ملككت سيدة في كافة الطرق البحرية . إلا أن الاتصالات بين الشعوب قد خلقت لغات مشتركة
غربية : ففي « لوزيانا » عرفت البقاء لغة عامية فرنسية - زنجية ، « غامبو » ، وفي آسيا
الشرقية يتكلم الجمال والعامل والتاجر لغة عامية تعرف بالـ « بدجن الانكليزي » . ومن الصعوبة
بمكان احياناً كتابة لغة بالاحرف اللاتينية أو الانتقال من كتابة الى أخرى (ان مثل الـ « كوك
نفو » في فيتنام مثل استثنائي على وجه العموم) . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة
المستعمرة آثرت في المستعمرات تنشئة البلدين عن طريق لغتها الخاصة : فالطريقة البريطانية
المعتمدة في الجامعات الهندية تمكس الاساليب السائدة في اوغسيفورد وكمبريدج ، ولم يتم
الهولنديون إلا في عهد متأخر بـ « مدرسة شعبية » تعلم فيها اللغة الماليزية واللغة الجاوانية .

اعتبر الأوروبي والأميركي اللذان حركتها الحرارة الدينية ان الحملة الصليبية لم
انتشار المسيحية تتوقف قط . لذلك فان المذاهب التي تنتسب للمسيح قد نمت نمواً مطرداً ؛ زد
على ذلك ان العالم الجديد الذي 'بشر فيه بالانجيل واستعمر في آن واحد قد زاد من الحيوية
المسيحية . اما دعوة الرسالة ، التي عرفت فترة من التوقف ، فقد نمت مجدداً يساندها الاستعمار
الذي ساندته هي بدورها .

برزت قوة الارثوذكسية ، التي ساندتها اجهزة الدولة الروسية ، في ما بين الشرق الأدنى
وآسيا الشرقية . بيد ان علينا في الدرجة الأولى تقدير الأهمية التي ارتدتها تقوية الكاثوليكية
في مركزها . فان ما فقدته الكنيسة الرسولية الرومانية في ايطاليا ، في المجال الزمني ، أمام
تيار الحركة القومية ، قد حاولت بنجاح الاستعاضة عنه في المجال الروحي بتحديد مركزها بدقة
ليس من الاتحاد فحسب ، بل من المبادئ المصرية أيضاً . الم يؤكد الجمع الفاتيكاني في السنة ١٨٧٠

ان خليفة القدس بطرس «يمتلك»... المعصية التي اراد المخلص الالهي ان يقلدها كنيسة في تحديد العقيدة حيال الايمان والاخلاق؟ وبفضل الوحدة وتسلسل السلطان حقق العمل الكاثوليكي، آنذاك نتائج قيمة خارج اوروبا. فقد سبق لييوس السابع ان احيا جمعية اليسوعيين واعاد إنشاء جمعية الرسالات في الخارج. واستفاد خلفاؤه من الظروف (ضعف الامبراطورية التركية، واحتلال الجزائر، والتدخل في الصين) لاحداث نيابات واسقفيات رسولية جديدة. وقد جمعت جمعية نشر الايمان وحدها ٢٦٨ مليوناً، تبرع الفرنسيون بـ ١٧٤ منها، بين السنة ١٨٢٢ والسنة ١٨٩١. فاستطاع ييوس التاسع ولاون الثالث عشر تقسيم اوقيانيا، وافريقيا، وآسيا من ارمينا الى اليابان، الى دوائر كنسية. وقد برزت أسماء شخصيات شهيرة: الأب «هوك»، وصاحبها السيادة «اوغار»، «رسول الكونغو»، «ولافيجري»، مؤسس الآباء البيض، والأب «دي فوكو» الذي كان ناسكاً اكثر منه مبشراً الى كل حال. وبينما لم يكن هناك أكثر من ٣٠٠ مرسل خارج أوروبا في السنة ١٨١٥، نرى عدهم يرتفع الى ٦١٠٠ في السنة ١٩٠٠، بصرف النظر عن جوقات المربين. فسارت الهند في الطليعة لجهة عدد الاهتمامات، تليها الهند الصينية والصين، والشرق الأدنى منطقة ثالثة من حيث الاهمية، متقدما على افريقيا. اما اذا اخذنا عدد السكان بعين الاعتبار، فاننا نرى ان النجاح المحرز في بعض الجزر كان اكبر منه في البلدان المذكورة. ولعل المهتدين بلغوا بين ٤ و ٥ ملايين تقريباً.

اعتمدت البروتستانتية على مستعمرات التوطين الكبرى التي اسسها الهولنديون - في الكاب - ولاسيا البريطانية؛ ثم اشعت الولايات المتحدة بدورها بكل غير. فاسفرت «يقظة» القرن الثامن عشر عن ولادة مؤسسات كبرى للنشر المسيحية المصلحة: الجمعية المعمدانية التبشيرية، وجمعية لندن التبشيرية، اللتين تأسست على غرارهما منظمات عديدة لا تقل عنها غير تبشيرية متقدمة. ففي السنة ١٩٠٠ كانت ٢٤٩ جمعية بروتستانتية تتولى أمر الاتفاق على ١٦٠٠٠ مبشر، كما ان جمعية الكتاب المقدس باعت أو وزعت ٤ ملايين انجيل طبعته بـ ٣٥٠ لغة؛ وتراوح عدد المهتدين بين اربعة ملايين وأقل من ثلاثة (بحسب المؤلفين)، وتوزع بين الهند، وافريقيا الجنوبية واندونيسيا، وجزر المناطق الحارة، والصين. وكانت المكاسب هنا أيضاً اكبر منها في المستعمرات الصغيرة الخاضعة لوصاية ادارية شديدة.

ليس من ينكر فائدة التدخل السياسي للدفاع عن الايمان. أجل قد يحدث أحياناً ان تتأذى الارسلات من التدابير التي تتخذها بعض الحكومات بحق بعض الجمعيات. ولكن عداء الجمهورية الفرنسية الثالثة للاكليروس لم يعتبر يوماً مادة من مواد التصدير. لا بل غالباً ما اتخذت من الدفاع عن المصالح الدينية حجة لتبرير توسعيتها الاستعمارية. ولذلك غالباً ما نرى قضية الانجيل تحتل في نظر البلديين بقضية الاجنبي الذي يريد السيطرة عليهم.

يضاف الى ذلك ان الشكل التجاري الذي ارتداه التبشير الديني قد اغاظ هؤلاء البلديين. فقد اشتهر العديد من المهتدين الصينيين باسم «المسيحيين من اجل الارز». ولم ينس اليابانيون

يوما « الأقرام بالحرير والبندقية » الذي استخدمه اليسوعيون لابتئالهم . وهو الطبيب المبشر ،
 القس « شارل غثلوف » ، من ركب السفينة كترجمان في خدمة شركة « جاردن وماتسون »
 لبيع الأفيون من الصينيين في السنة ١٨٣٢ ، بعد ان قبض منها مساعدة مالية . ودخل الأب
 « فيناز » اليسوعي « تافافريف » في السنة ١٨٥٥ متتكرأ برفقة عميل مصنع فرنسي للأسلحة .
 ولا شك ، في رأي « ستانلي » ، ان الأفريقيين جميعهم ، اذا ما اخذنا همجيتهم بعين الاعتبار ،
 يفضلون التاجر على المرسل المبشر ؛ بيد ان هذا الأخير سيلعب في افريقيا الشرقية دوراً اعظم من
 دور الاول ؛ اذ ان الكتاب المقدس يجب ان يسبق بالة البضائع ؛ في حال ان العكس هو ما
 حدث في افريقيا الغربية .

تناسقت المناقشات بين الرسائل من جهة ثانية مع الخلافات بين الدول . فقد استمر النزاع
 حول الاماكن المقدسة تتخلله حوادث مفاجئة في أغلب الاحيان ؛ وقام هذا النزاع في الهند بين
 الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الاكلبروس البرتغالي في « غوا » والرساليات الكاثوليكية
 الفرنسية ، وفي الصين بين العازريين في « مكاو » واليسوعيين ، وبين هؤلاء والآباء
 الانكلوساكسونيين ، وفي « هاواي » بين الاميركيين والبريطانيين ؛ وفي مدغشقر لم تخف المنافسة
 بين الكاثوليك والبروتستانت الحصومة الفرنسية الانكليزية .

فمن الوهم الخادع من ثم الاستنتاج بان المسيحية قد حققت مكاسب حاسمة . وبصرف النظر
 عن مقاومة متباينة العنف قابلتها بها السلطات التقليدية في الشرق الأقصى ، يجب الاعتراف بان
 الاسلام قد صمد في كل مكان ، لا بل حقق نجاحات ذات قيمة في افريقيا وروسيا في آسيا دونها
 نجاحات المسيحية .

كتب لاون الثالث عشر الى صاحب السيادة « لافيجري » ما يلي :
 انتشار الروح الانسانية ؛ واني اكبر علو الهمة الذي تبرهنون عنه حيثما اقتضى ذلك خلاص
 مواصلة مكافحة النخاسة البشر . . ولعكن هذا العمل الروحي لا ينفصل عن المحبة التي تستهدف
 التخفيف من الآلام الارضية وتقتل بدورها بصراع العلهانيين من اجل الانسانية .

كانت مكافحة المرض مع التعليم مهمة الرسائل الرئيسية ، دينية كانت هذه الرسائل
 ام غير دينية . فان « بنات المحبة » اللواتي اسس جمعيتهن القديس « منصور دي بول » قد انشأت في
 الجزائر والشرق الادنى ومدغشقر والصين ملاجئ للاطفال ودور ايتام ومستوصفات وادرن
 مستشفيات دخلت في عدادها مستشفيات البرص احياناً . وكان الكثيرون في الهند ، من بين
 المبشرين البروتستانت ، أطباء وممرضين ؛ ولما كانوا متزوجين ، فقد سعوا الى ازالة عادة تعدد
 الزوجات ورفع مستوى المرأة . وكان تحسين الصحة وحفظها ، في نظر الاوروبيين والاميركيين ،
 احد حقوقهم الاولى في اقرار السكان المحليين بفضلهم .

اعتبروا ان للاستعمار ما يبرره اذا ما نجح في استئصال احدى افظع آفات عالم المناطق الحارة
 طفياناً ، اعني بها النخاسة . فكان عليهم ، والحق يقال ، اقفال هذه السوق الكبرى ، بسبب

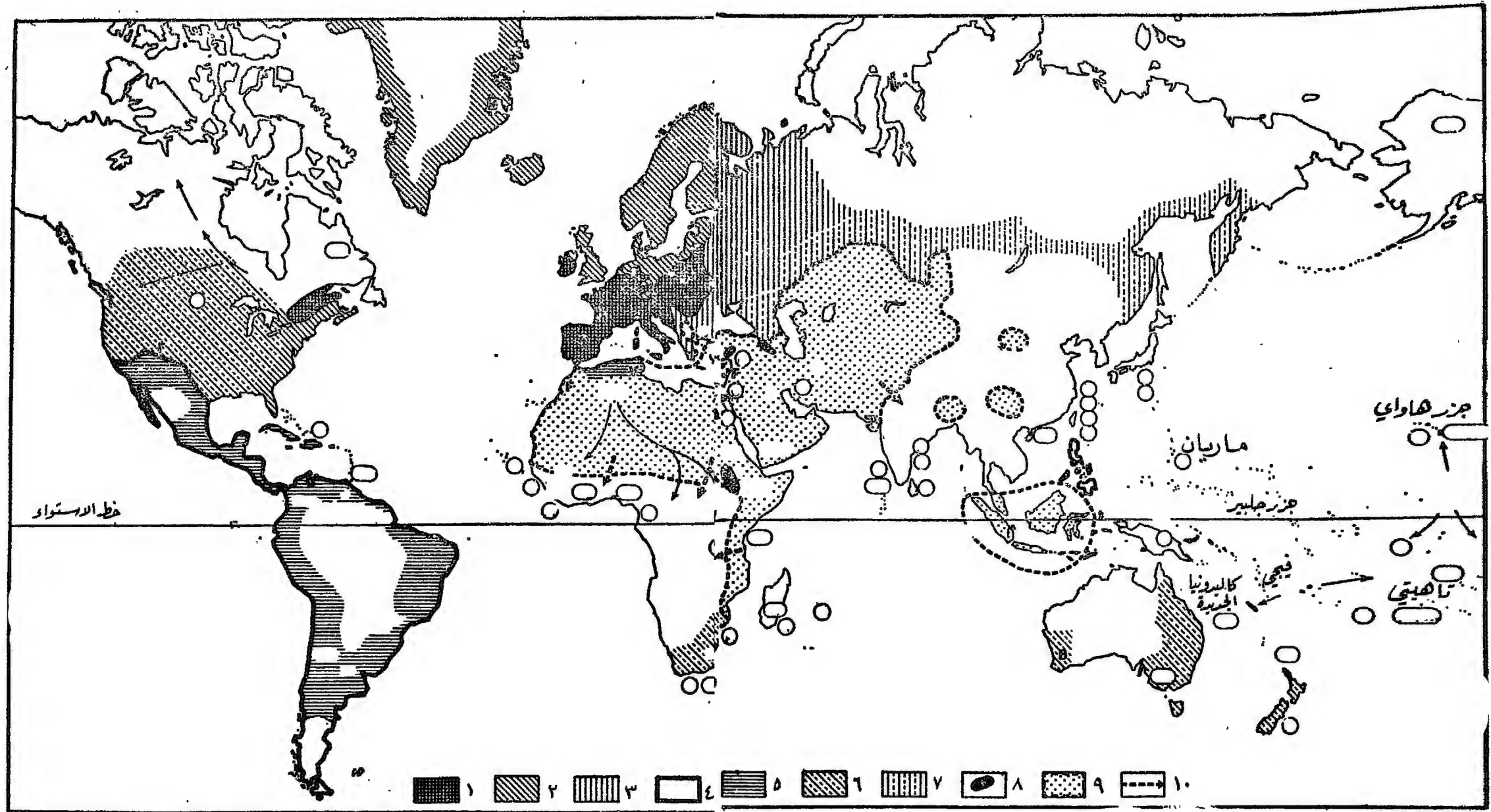
فمهدهم ايها في ممارسهم في العالم الجديد. ولكن ما هو السبيل الى استنزاف التبع الذي يقضيها ان لم يكن بمراقبة القارة الافريقية بكليتها ؟

كان المستكشفون والمبشرون يعملون بالآفة ، ويفتدون بعض المساكين ويعتقونهم . ولكن عملية استئصالها كانت تستلزم بوليساً دولياً وحملات عسكرية منظمة . الا ان « الجمعية الدولية الافريقية » التي اخذت على عاتقها فتح ابواب افريقيا امام الحضارة عقدت في « بروكسل » في السنة ١٨٧٦ جلسات ظهر فيها « ليوبولد » ملك بلجيكا بمظهر « المحسن الى الزنوج » ، ولكنها ما لبثت ان تحولت عن هدفها الى استثمار رابح يخدم مصالح الملك . ولن يحدث شيء حاسم قبل سنة ١٨٨٠ .

في هذه الاثناء مارست انكلترا الضغط على سلطاني زنجبار ومسقط للحيلولة دون النخاسة بين شاطئ المحيط الهندي ؛ واستحصلت من جمهورية افريقيا الجنوبية على وعد بتلطيف حالة الزنوج ؛ وعاتبته خديوي مصر واستحثته للتدخل في « دارفور » . ولكن النخاسين ، بعد ان اقصوا عن المحيط الهندي ، صمموا اكثر فأكثر بالمقاومة على الاحتفاظ بالطرق التي يسلكونها بين السودان والبحر الاحمر . وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدول المجتمعة في برلين ، في السنة ١٨٨٤ - ٨٥ ، بدولة « الكونغو المستقلة » موجبة عليها مكافأة النخاسة ، سقطت الخرطوم في ايدي الثورة المهدية ، وربما بدأ موت « غوردون » باشا ، الذي كان يعتبر فارساً من فرسان المسيح ، في قرن لا يعير الفروسية اهتماماً يذكر ، تحديداً لاوروبا المسيحية المناهضة للنخاسة . فمقد في بروكسل في السنة ١٨٨٩ مؤتمر جديد واجه اتحاد تدابير قانونية ، ولكن النخاسين لم يزولوا من السودان الا بعد سحق الدراويش على يد كشنر في السنة ١٨٩٨ ، وسحق ملك « اويدياي » ، « رباح » ، على يد الجيوش الفرنسية في السنة ١٩٠٠ .

لا ريب في واقع العاطفة الانسانية التي املت هذه المكافأة . ولن يستوقفنا هنا سوى النضاج المنقطع النظير الذي احرزه كتاب « كوخ العم توما » من تأليف السيدة « بيشر ستو » الذي نقل الى معظم اللغات الغربية وطبع اكثر من ٥٠٠ طبعة وصيغ حق بابجدية العميان . ولا نستطيع كذلك ان ننتع بالمראה كلمة التهدة التي ترد باستمرار في كتابات المستعمرين حين يملن هؤلاء عزمهم على وضع حد للحروب الداخلية ، والجرائم الطائفية الطابع ، والاتاوات المرفقة التي تفرضها الاقطاعات البلدية . فقد استهدفت اتفاقية بروكسل في السنة ١٨٨٥ واتفاقية برلين في السنة ١٨٩٠ اتحاد حق دولي حقيقي ، بتنظيم الفتح وتوصية الفاتح بتحسين مصير السكان والغاء النخاسة وتجارة الاسلحة وبيع الكحول . وفي السنة ١٨٨٨ اصدر لاون الثالث عشر رقيقاً اثنى فيه على مباداهات الكريدينال لافيجري .

كان من شأن هذا العطف الكريم ، في اعتقادنا ، تقرير الوصاية التي توجب ممارستها على حضارة متفوقة . فهو قد وفر عليها الاستناد الى حق الاقوى ، لا سيما وأنه اتفق كل الاتفاق والارادة ، الصادقة ايضاً ، في استثمار الكرة الارضية استثماراً أبعد بصيرة .



شكل ٢ - الانتشار المسيحي

١ - بلدان كاثوليكية أو ذات أغلبية كاثوليكية في أوائل القرن ٢٠ - بلدان بروتستانتية أو ذات أغلبية بروتستانتية في أوائل القرن ٢٠ - بلدان أرثوذكسية في أوائل القرن ٢٠ - بلدان أمريكية أو آسيوية كانت الكاثوليكية الدين الرسمي فيها في أوائل القرن ٢٠ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (أكثرية كاثوليكية) - مناطق انتشرت فيها المسيحية (أكثرية بروتستانتية) - مناطق انتشرت فيها المسيحية (أكثرية أرثوذكسية) - مسيحيون أقبال وأمن - مناطق يسيطر فيها الإسلام - مكاسب الإسلام.

ارتفاع عدد السكان ونزوحات الأوروبيين الكبرى

كان ارتفاع عدد سكان الارض في النصف الاول من القرن
الثاني عشر اسرع منه في القرن الثامن عشر ؛ وقد برزت هذه
الظاهرة بروزاً أوضح بعد السنة ١٨٥٠ . فاذا سلطنا بأن عدد سكان الارض كان ٥٠٠ مليون
في السنة ١٦٥٠ و ٧٠٠ مليون في السنة ١٧٥٠ ، فاننا نرى المعدد يرتفع الى ضعفه بين السنة
١٦٥٠ ومستهل القرن التاسع عشر ، بينما هو يتضاعف مرة ثانية بين السنة ١٧٥٠ والسنة ١٨٨٠ .
كما نرى ان معدل الارتفاع في النصف الاول من القرن التاسع عشر أعلى منه في النصف الاول من كل
من القرنين السابقين ، الا في آسيا . وعلى الرغم من ان سكان آسيا قد تجاوزوا ابدأ نصف سكان
الارض ، فان هيمنة هذه القارة قد ضعفت . وكذلك فان اميركا لم تحتل بعد سوى مركز
وضيح على الرغم من تقدمها الملحوظ . أما الكتلة الأوروبية الآسيوية فقد جمعت بمفردها ثلاثة
ارباع السكان . ولكن ما يستوقف انتباهنا بصورة خاصة هو سكان أوروبا : كان اكثر من خمس
سكان الارض في السنة ١٨٠٠ ، فارتفع الى اكثر من الربع بقليل في السنة ١٩٠٠ . فاذا اعتبرنا
ان هذا العدد قد بلغ ضعفه على الاقل خلال القرن التاسع عشر ، وان مساحة أوروبا تأتي في
المرتبة الرابعة بين القارات الخمس - وفي المرتبة الاخيرة ، اذا لم تدخل فيها روسيا - فاننا
ندرك الطاقة الديموغرافية التي تنطوي عليها .

يجب الانسى ، بالاضافة الى ذلك ، ان اوراسيا انما نمت بذاتها . فان افريقيا قد استقبلت
اكثر مما اعطت ، والامريكتين لم تقدموا اي عنصر للهجرة ؛ كما لم تقدم اوقيانيا اي عنصر ايضاً .
والحال ، نحن نرجح ان الذين هاجروا آسيا اقل عدداً من أولئك الذين هاجروا أوروبا . ففي
السنة ١٩٠٠ ، يجب ان نضيف الى ال ٤٠٠ مليون أوروبي كل البيض الذين جاؤوا الى القارات
الاخرى من أوروبا او انحدروا من ارومة اوروبية : لذلك فان ابناء أوروبا قد مثّلوا آنذاك

ثلث الجنس البشري^(١) .

(١)

عدد السكان بالملايين	١٨٥٠	١٩٠٠	
١٨٧	٢٦٦	٤٠١	اوروبا
٥٧٥	٧٦٠	٩٠٠	آسيا
١٠٠	١٠٠	١٢٠	افريقيا
٦	٢٥	٨١	اميركا الجنوبية
١٩	٣٣	٦٣	اميركا الوسطى واميركا الجنوبية
٤	٢	٦	اوقيانيا

٨٨٩ ١١٨٦ ١٥٧١
نقلا عن تقديرات ويلكوكس وسانديبارغ

نسبة توزيع السكان	١٨٥٠	١٩٠٠	
٢٠٠٩	٢٢٠٣	٢٥٠٥	اوروبا
٦٤٠٦	٦٤٠١	٥٧٠٢	آسيا
١١٠١	٨٠٣	٧٠٦	افريقيا
٠٠٥	٢٠٦	٥٠٢	اميركا الشمالية
٢٠٦	٢٠٥	٤	اميركا الوسطى واميركا الجنوبية
٠٠٣	٠٠٢	٠٠٥	اوقيانيا

كثافة السكان	١٨٥٠	١٩٠٠	
١٨٠٧	٢٦٠٦	٤٠٠١	اوروبا
١٣٠٧	١٧	٢١٠٣	آسيا
٣	٣٠١	٤	افريقيا
٠٠٢	١٠١	٣٠٤	اميركا الشمالية
١	١٠٢	٣٠٤	اميركا الجنوبية واميركا الوسطى
٦٠٧	٨٠٧	١٢	معدل الكثافة

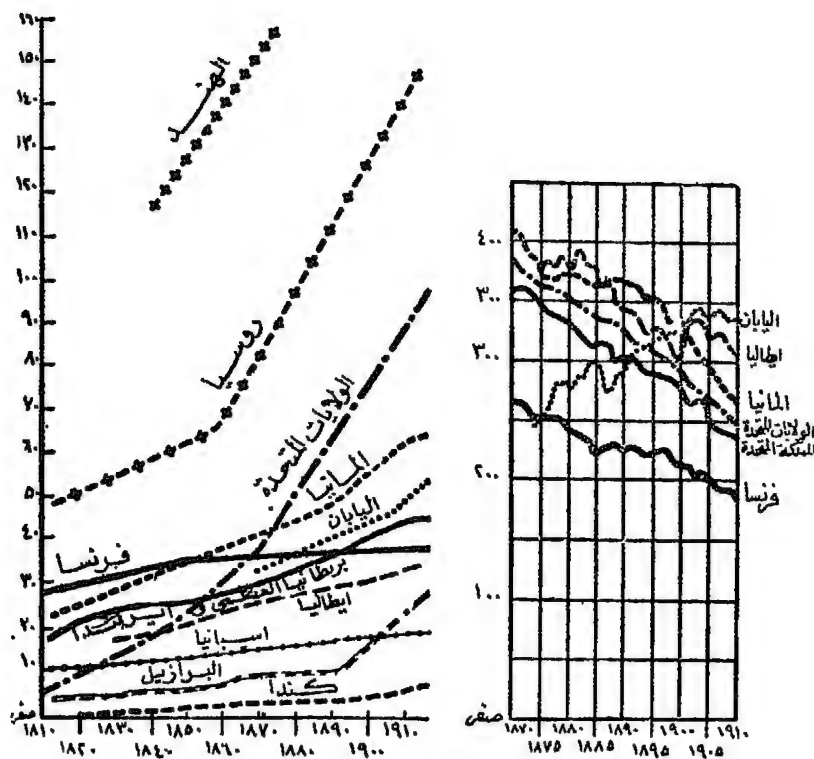
(نقلا عن سانديبارغ)

نسبة الزيادة	١٨٥٠-١٨٥٠	١٨٥٠-١٨٥٠	١٨٥٠-١٧٥٠	
٣٤	٤٣	٥٠	٥٠	اوروبا
٢٨٠٥	٣٣	١٨	١٨	آسيا
١٤٥	٣٠٠	٢٠	٢٠	افريقيا
٥١	٧٣	٩٢	٩٢	اميركا الشمالية
٥١	٧٣	٩٢	٩٢	اميركا الجنوبية واميركا الوسطى
٥١	٧٣	٩٢	٩٢	اوقيانيا

(بكل تحفظ للفترة ١٧٥٠ - ١٨٥٠)

الزيادة السنوية ٠.٧.٧ . بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٨٥٠ : ٠.٨٢٣ . بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠

كان لنزوحات السكان التي حدثت ابتداء من السنة ١٨٥٠ أثرها البعيد في المعاصرين. ولا ريب في ان ارتفاع عدد السكان في اوربا قد كان لها محركا ودافعا ، واستحث تطورها التقني والاقتصادي ، ووجد فيها تيارات هجرة أتاحت بعض التوافق بين العرض والطلب في سوق العمل ، وسهلت على العموم نشأة المدن الكبرى ، ولا سيما مراكز الصناعة الكبرى والتجارة الناشطة. ولكن المقايضات الداخلية لم تكن كافية ، فنزح عدد كبير من الاوروبيين عن اوطانهم ، نزوحا مؤقتا او نهائيا ، رغبة منهم في تحسين مصيرهم .



شكل رقم ٨ - السكان ونسبة الولادات

الى اليسار : سكان بعض البلدان بملايين النسب (نقلا عن احصاء « بيرو » العام)
الى اليمين : نسبة الولادات لا ... ١٠ نسمة (نقلا عن « هوبر » ، « بول » ، « بوفر » : « سكان فرنسا » وعن احصاء « بيرو »)

وما كانت هذه الهجرة لتتحقق في القرن الثامن عشر . فان ظروفاً مؤاتية كثيرة - انخفاض كلفة وسائل النقل ، وعدم قابلية المدن لاستيعاب كافة النازحين عن الارياض ، وحرية المهاجر في التوجه الى مناطق واسعة خالية من السكان والاستيطان فيها - قد توفرت في الوقت الذي

بدت فيه تقديرات « مالتوس » وشبكة التحقق في كل مكان تقريباً ، بين الاطلسي والمتوسط ، وحتى الاورال في وقت لاحق قريب . فكان هذا الوقت هو البرهة السريمة الزوال: فبالامس اعتبرت الروح التجارية نزوح الرعية مضرة باقتصاد الامير ، وغداً ستفرض الوطنية قيوداً اما على الخروج واما على الدخول عبر الحدود . ومنذ السنة ١٨٤٦ ، نادى « ثورنتون » ، تلميذ « مالتوس » ، بهجرة « على نطاق واسع » في كتابه « تضخم عدد السكان وعلاجه » . فنشطت الدعاة ، دون ابي عثق ، في اغراء الساكنين ؛ واخذت بعض الجمعيات الدينية وشركات الملاحة على عاتقها امر النقل والايواء ، ورضيت الحكومات ، وقولت بعض دول ما وراء البحار دعاة تشويقية . ولم يكن مهما ان يتم السفر في ظروف صعبة (فقد زعم بعضهم ان ١٥٠٠٠ من اصل ٩٠٠٠٠ مسافر من بريطانيا العظمى قد ماتوا في الطريق او بعد انزالهم الى البر في السنة ١٨٤٧) ، اذ ان اليقين من وجود اراض وعمل مضمون كان حافزاً قوياً للمعوزين . اما أولئك الذين ارغمتهم الازمات السياسية او الاضطهاد الديني على الجلاء او الانتفاء فكانوا اقلية ضئيلة (عدة آلاف من الفرنسيين بعد السنة ١٨٤٨ ، وعدة آلاف من سكان الازراس واللورين بعد السنة ١٧٨٠) : فالمليون يهودي شرقي الذين دخلوا العالم الجديد بعد السنة ١٨٨٠ قد فروا من البؤس ومن الاضطهاد الروسي (« بوغروم ») على السواء . وقد سبق لـ « ميشليه » في السنة ١٨٣٥ ان شاهد ذلك جيداً في ليفربول : « جاء الآن دور المهاجرين الساكنين الذين يدفعون دفعاً الى ظهر السفينة . انهم لقطيع بشري بائس . . . لا مفر من أن يسافروا . صفار الحماكة يتصورون جوعاً في جوار منشستر » . هذه هي هجرة الكادحين .

تراوح عدد المهاجرين ، حتى السنة ١٨٤٠ ، بين ٣٠ و ٤٠ الف شخص في السنة : اي ١٥٠٠٠٠٠ منذ السنة ١٨٠١ ؛ وكان جلمهم من الصناعيين اليدويين الذين افقرهم المصنع والمصنع . ثم ارتفع هذا العدد في السنة الواحدة ، بقفزة اولى ، الى ٢٠٠٠٠٠ وحتى الى ٣٠٠٠٠٠ ؛ ويرد ذلك الى خطورة ازمة ١٨٤٥ - ١٨٤٨ ، والغاء القداية في اوروبا الوسطى - الذي حرر الفلاح من ارتباطه بالارض - ، والاندفاع وراء السذهب في كاليفورنيا واوراليا : وهم البريطانيون والاييرلنديون والالمان خصوصاً من هاجروا باعداد كبيرة ؛ فان ٨٠٪ من مجموع المهاجرين بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٥٠ ، و ٥٠٪ حتى السنة ١٨٧٥ ، انتسبوا الى انكلترا واورلندا وحدهما . ويقدر عدد المهاجرين بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٨٠ بـ ١٣ مليوناً . ثم مرت فترة توقف نسبي في السنوات ١٨٥٧ - ١٨٧٥ التي توافقت انطلاقاً صناعية هلموسة في اوروبا والحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولكن التدفق تجدد وتعاظم مرة اخرى بعد السنة ١٨٨٠ : فنزح عن اوروبا ١٣ مليوناً خلال عشرين سنة فقط ؛ نسبة اقل من البريطانيون والنسبة نفسها من الايرلنديين والالمان ، يضاف اليهم السكندنافيون ؛ اما الجدة الكبرى فهي بدء هجرة سكان اوروبا الجنوبية والشرقية : البرتغاليون والاسبانيون اولاً ، ثم رعايا فرنسوا - جوزيف والقيصر .

سجلت الجغرافية من ثم انقلاباً عظيماً بلغت الانتباه فيه
حركة انتقال الشعوب
والشعوب الجديدة الأوروبية المنشأ
واقمان هامان : فمن جهة اخذ شطر كبير من اليهود يحتاج
الاطلسي بحيث أصبحت اميركا ، بعد روسيا ، موطن اكبر
عدد منهم في العالم ؛ يضاف الى ذلك ان شعوبا صغيرة عدة - كالارلنديين والبرتغاليين - كادت
تتوزع مناصفة بين ديار الاغتراب وارضى الجدود ؛ ومن جهة ثانية ، امتدت شبكة المجتمعات
المنظمة تنظيماً اوروبياً الى القارة الاميركية كلها تقريباً ، واستراليا وزيلندا الجديدة ،
ومناطق افريقية معتدلة المناخ ، وحتى الى بعض مناطق آسيا . فأسهم المهاجرون في استعمار
الكرة الارضية ونشروا في الوقت نفسه الحضارة الأوروبية ، بحيث ان وجه هذه العوالم
الأوروبية الجديدة ، الذي لم يكن مماثل كل المائلة لوجه أوروبا القديمة ، قد أعاده الى الذكرى ،
على الرغم من ذلك ، بصورة مؤثرة جداً .

فتح المحاصيل الكبرى الحيوانية والنباتية

طلبت أوروبا من العالم مساعدته على التغذية والاكتساء .

ان التقنيات الصناعية لم تضعف فروع الاقتصاد الاساسية بل قوتها ودفعت
النقص والصيد بها الى الامام .

فان ردة الفعل الدفاعية ضد الحيوانات المؤذية قد افضت الى ما يشبه القضاء عليها في الغرب ،
ولكن حيوانات المناطق الاخرى كانت كذلك مطمح حرصاء لا يعرفون للشفقة معنى . فغذت
الجبال المرتفعة والاراضي المتجمدة حول القطبين الاسواق العالمية بالفراء ؛ وفي المناطق الحارة
طورد الظي والغزال ولا سوا الفيل في عملية استثمار استباححت كل تجاوز ووحشية . ولا عجب
من ثم اذا انقرضت بعض الانواع ، واذا ما توجب ، للمحافظة على الحيوانات المهمة ، ايجاد
احتياطي طبيعي او اللجوء الى تربية الحيوان (تولت افريقيا الجنوبية تربية النعامه) . وقد
بلغ من الحاح الطلب ان صناعة الفراء قد اكتسبت خبرة واسعة في فن استخدام كل قنيص
موبر .

وعلى الرغم من ان الانسان لم يعد يلتقيد بالصوم ، فانه قد مال اكثر فأكثر الى طلب غذائه من
البحر . وقد تحسنت عدته لتحقيق مطلبه ، بينما كشفت المياه عن اسرار حياتها العضوية . فان
البخار والمروحة وهيكمل السفينة الحديدي قد اتاحت بناء سفينة الصيد التي كان باستطاعتها ،
اذا ما زودت بالمحروقات الكافية ، اطالة رحلة الصيد وتعقب السمكة عن كشب وحتى
معالجتها محليا . وقد برسر في السنة ١٨٧٥ استخدام الشبكة التي تجر تحت سطح المياه . وبفضل
التبريد ، بات باستطاعة السفينة المزودة بالجليد توسيع نطاق عملياتها . وقد ولد مرفأ « غريمسي »
في السنة ١٨٥٨ وجهاز « بالخط الحديدي المركزي الكبير » الذي سارت عليه قطارات نقل

لأسماء الأولى . وبرز نشاط ملحوظ في البحر الضيقة والساحلية ، وعلى شواطئ أوروبا الشمالية الغربية ، وأميركا الشمالية في الغرب والشرق على التوالي ، وآسيا الشرقية . فأثار هذا النشاط منازعات بين الفرنسيين والإنكليز حول مياه « الأراضي الجديدة » الفنية بالاسم ، وبين الإنكليز والأميركيين في مياه « بيرنج » ، فأقر مؤتمر عقد في لاهاي قانوناً دولياً للصيد ، كما استهدفت إحدى الاتفاقيات حماية الأنواع المهددة بالانقراض .

كان الحوت في عداد هذه الأنواع . فقد جد الصيادون في أثره إلى أن زال من نصف الكرة الشمالي منذ السنة ١٨٥٠ . فتحول الصيد إلى المحيط المتجمد الشمالي حيث قام به التروميجيون بمهارة فائقة وولع عظيم . وقد روى « ملفيل » هذه اللحمة في « موي ديك » .

تحولت حياة أهل البحر : فطال غياب الصياد ، وامسى أقل استقلالاً ، وازدهرت المشاريع الرأسمالية بفضل معدات تميزت بمزيد من الفعالية .

قضت المجتمعات المعاصرة على قسم كبير من احتياطي الأشجار الحرجية في استخدام الشجرة أوروبا الغربية ، وجر الاستثمار إلى الإفراط في قطع الأشجار في جنوبي الولايات المتحدة وشرقيها . وكانت الكميات المتوفرة في تناقص مستمر حين تكاثر استخدام الأشجار على الرغم من اللجوء إلى الفحم الحجري .

ثم جاء دور الأحراج الواسعة في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي التي لم تشكل بعد من الاعتمادات البشرية : فقدت اسكندينايفيا وفنلندا وكندا دولاً منتجة كبرى . فقدمت شركة « خليج هودسون » خشب البناء بصورة خاصة حتى منتصف القرن وزودت مصانع السفن بخشب الصنوبر ، ثم جاء عهد الألواح الخشبية الطويلة المقطوعة من جذوع ضرب من أشجار الصنوبر وعهد الأشجار التي لم تعر أية أهمية حتى ذلك التاريخ . فوظفت رؤوس أموال جديدة في مشاريع هامة كثيرة كـ « شركة الورق الدولية » التي ابتاعت ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد امتلك اللورد « نورثكليف » صاحب صحيفة « دايلي مايل » ٦٠٠٠٠٠ هكتار في جزيرة « الأرض الجديدة » وبني في « غراند فولز » مصانعه الورقية الخاصة .

لم تكن أحراج المنطقة الحارة أقل فتنة وسحراً بأشجارها الثمينة . إلا أن أميركا الجنوبية والهند واندونيسيا قد تقدمت على أفريقيا في هذا المجال بفضل وسائل النقل . فبينما استخرج العفص من شجرة الـ « كبراكو » في الأرجنتين ، استخرجت الكينا والكوكا من أشجار جبال « انديس » . وعاد « لاكوندامين » باسم المطاط الذي لن يستخدم صناعياً إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ ومنذ السنة ١٨٧٠ ، انتشرت حمى الذهب الأسود في الأحراج الأمازونية : فجبال جامعو صمغ المطاط في الأحراج المظلمة لتأمين طلبات الزين الموصين الذين نقلوا المحاصيل المجموعة عن طريق الأنهر . وستبلغ هذه الحمى ذروتها في السنة ١٩١٢ .

مكاسب مشاجر المناطق الحارة
 ما زال القرب مفتتاً بالمطور التي وفرتها له المنساجق الرطبة
 المرتفعة الحرارة : وإذا كان استقطار الفحم المعدني قد وفرت له
 صباغات صناعية مزاجم قرمزية غواتالا ونيلج الصين والهند، فإنه ما زال يتجه نحو الطبيعة الفنية
 بالنباتات للحصول على الجاذبة والقرنفل والارجية . فوسع زراعة الخشخاش المنوم التي وفرت له
 ارباحاً طائلة ، واستخلص من الكوكا احدى لذاته الحفية . وادخل في سلسلة الزراعات المتقنة
 عالم التوابل : اشجار القرفة ، واشجار الونيلية ، واشجار الفلفل واشجار القرنفل ، التي كانت
 تنمو ، كما يقضى لها النمو ، بناية البلديين الكسالى . ولم يأبه للضرر الذي سيلحق بأشجاره
 الزيتية الخاصة ، فطلب من الهند زيت السلجم لمصباحه واستعمله في غذائه كما استعمل الفول
 السوداني وزيت البلح وجوز الهند ، والسمسم ، واستخدم الحروع للتداوي والتصوير . ووسع
 كذلك صناعة المنسوجات التي أتت من المصادر عينها : قنّب سيام الذي اسماه «حرير كانتون» ،
 والرافيا ، وقنّب مانيل أو «اباكا» ، والقنّب المكسيكي ، والقنّب الهندي بنوع خاص . واتجه
 أكثر من أي يوم مضى شطر الشرقي الأدنى والأقصى في طلب الخز أو الحرير الخام بعد انتشار
 مرض التفلفل الطفيلي الذي اصاب دود القز في مقراته نفسها ؟

يبد أن ما اراد توسيعه واخصابه في الدرجة الأولى هو زراعة القطن . فان الخبازيات النهمة
 قد انتشرت في أكثر من مليون كيلومتر مربع حين افتقرت بعض المراكز الصناعية الرئيسية في
 أوروبا الى المادة الخام بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية . ومهما يكن من
 أهمية نهضة وانطلاقة زراعة القطن الأمريكي - الذي لن يتنافس قطن آخر - فان صاحب المصنع
 في «لانكاشاير» أو «ميلبور» أو «شميتز» لن يستطيع الاكتفاء بمون واحد . لذلك تم
 الاتفاق على انتاج القطن ، حيث سمحت الحرارة بذلك ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المياه ،
 والقرية التي يجب ان تكون مخصبة ، والسواعد التي يجب أن تكون كثيرة : فسيُنتج من ثم في
 ارض «بيرا» ، السودان ، وادي «غانج» ، وعلى جنبات النيل وداريا - بواسطة الري - ثم في
 البرازيل وجزر الانتيل الانكليزية الصغرى والصين ، وأخيراً في المكسيك و «كوينسلند»
 ونيجريا و «اوغاندا» . وفي اوائل القرن لم يغط النسيج النباتي الأول سوى ١٢٪ من حاجات
 البشر ، بينما هو غطى أكثر من ٥٠٪ في اواخره .

ولم يكن توسيع زراعة اشجار الشاي والبن والكافور اقل الحاحاً في المناطق الحارة ، لا
 سيما وان الاشربة المصنوعة من ثماره كانت مرغوبة جداً . فان الاحتكار الصيني القديم ، الذي
 غذى تجارة رابحة عن طريق كانتون وآسيا الوسطى منذ ان زرع البريطانيون في اسام وسيلان ،
 والهولنديون في جزر ال «انسولند» ، شجرة الشاي التي حسنو انواع محصولها . على ان آسيا لم
 تفقد مرتبتها الممتازة . فان البن ، الحبشي الاصل ، الذي احتكره العرب تحت اسم «مخا»
 قد وجد في اميركا ارضه المختارة . فقد اعتنى به الهولنديون في جاوا والانكليز في سيلان ، ومن
 جاوا انتقل الى «غويانا» ، بينما استورده الفرنسيون الى «ماسكارانيه» والانتيل ، وزرع البرتغاليون

شجرته بدورهم في منطقة « برنامبوك » و « باهيا » ؛ ثم بلغ « ساو باولو » التي وافقته تربتها الحمراء ، ومناخها ؛ وانتقل أخيراً إلى أرض كولومبيا « المعتدلة » والمزارع الفنزويلية ، وتلاق منحدرات الـ « كورديلير » ، وغزا اميركا الوسطى . إلا أن البرازيل انزلت منه إلى الاسواق قدراً من الأكياس لم يعد انتاجه معه عملية رابحة . فليس من اقتصاد أوهى من هذا الاقتصاد المرتبط بالطلب الغربي . ولكن اقتصاد الكاكاو ليس بالاقتصاد الأفضل : فإن الأكوادور تدين له بما تدين كولومبيا أو ساو باولو للبن . وكان الكاكاو شرباً مفتخراً في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد عرفه هنود اميركا ، فانتقل من ثم إلى اسبانيا . ولكنه احتل فجأة مرتبة رفيعة حين أنزل السويسريان « بيتر » و « لندت » ، الشوكولاتة إلى الاسواق ، فوظفت رؤوس الأموال في مفارص البرازيل وفنزويلا والاكوادور ؛ ثم انتقلت شجرة الكاكاو إلى مستعمرة الشاطئ الذهبي حيث أغرى البريطانيون الزوج بانتاج عائلي . وبفضل ذلك لاحت في أفق القارة الأفريقية ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، زراعة لن تقل شأنها عن زراعة شجرة الشاي في آسيا وشجرة البن في اميركا .

ولكنها لن تستطيع مزاحمة هذه الأخيرة طويلاً على المرتبة الأولى في تجارة الموز . أجل لقد عني المستعمرون الاتيليون بأشجار الموز التي تظلل اشجار الكاكاو والبن ؛ ولكن موز « كاناري » كان موضوع تقدير اعظم . فتبدل الوضع في أواخر القرن حين ابتاعت بعض الشركات الاميركية — وعلى رأسها « شركة الثمار المتحدة » — اراضي واسعة جداً في اميركا الوسطى ؛ يضاف إلى ذلك ، من جهة ثانية ، أن أحد فروع هذه الشركات ، « الدرز اند فيفز » ، قد احتكرت تجارة الموز مع الكاناري .

ليست ثمرة الموز سوى واحدة من الثمار الكثيرة التي دخلت الثمار والبقول على الخوان في الثوب أوروبا واميركا الشمالية حديثاً . وقد تنوع الغذاء من ثم ، بصورة عامة ، تنوعاً وفيراً ، ولا سيما في المدن . ولم تأت الكبيات الكبرى من الثمار والبقول التي طالبت بها المدن من الأرياف المحافظة على الطرائق التقليدية فحسب ، بل من بعض الأراضي التي اكتشفت ، بفضل هذه الزراعة ، مصدر ثروة لم تحلم به قط . ويجدر التذكير هنا باستفادة هولندا وبريطانيا الساحلية و « كورنواي » الانكليزية وبعض المناطق المتوسطية من زراعة بواكير الثمار . فإن هنالك ، إلى جانبي خطي السرطان والجدي ، مستعمرات اتقنت انتاج النبيذ والزبيب والزيتون والبواكير المختلفة الكثيرة . أما مناطق زراعة شجرتي التين والبلح فكانت محاذية لهذه الأراضي وأبعد نحو الصحراء . وقد اتسعت كذلك اتساعاً عظيماً أراضي زراعة الحمضيات : ففي السنة ١٨٦٠ أبحرت سفينة تجارية من فالنس ، وأفرغت في لندن شحنتها الكاملة من البرتقال . وفي السنة ١٨٨٣ وصل خط حديدي بين كاليفورنيا الجنوبية وشرقي الولايات المتحدة . وما لبثت كاليفورنيا وفلوريدا والاتيل ومستعمرة الـ « كاب » وأستراليا واليابان أن انتجت التفاح الذهبي على غرار البلدان المتوسطية القديمة .

ارتفعت نسبة استهلاك السكر ارتفاعاً كبيراً. فلم يعد البريطاني ليكتفي
 الثلاثين والحرب بين
 الشمندر وقصب السكر
 بثلاثة كيلوغرامات للشخص الواحد كما في أوائل القرن، بل أصبح بحاجة
 الى ٤٠ ٤ واستهلك الفرنسي منه ٢٣ بدلاً من ٢ ٤ واستهلك المانيا ٧
 ملايين قنطار في سنة ١٩٠٠ مقابل مليون واحد حوالي السنة ١٨٥٠. ولئن قلبت الولايات المتحدة
 ان تولف سوق البسج الاولى لهذا الصنف . اجلى ان في ذلك لدليل يشار : ولكن ما بلغت
 الانتباه من جهة ثانية ان هذه المادة الغذائية قد رغب فيها سكان المناطق الشمالية اكثر من
 سكان المناطق الجنوبية ، وابن المدينة اكثر من الفلاح . لذلك لم يعد قصب السكر ليكتفي بعد
 السنة ١٨٥٠ ، فانتزع الشمندر مركزه ، بعد ان احرز نجاحات ملموسة : ولكنه تأخر عابر
 منيت به المناطق الحارة ، عند الغاء النخاسة ، امام أوروبا واميركا الشمالية اللتين صممتا الثورة
 الزراعية واستتا المزيد من معامل السكر في كنف الحماية الجمركية . ولكن الاشياء عادت الى
 حالها بعيد الثورة الكوبية التي وافقت في الزمان فترة تدن في الزراعة : وقد افضى الى ذلك
 المجهود الذي بذله في آن واحد الهولنديون في جاوا، والبريطانيون في الهند وجامايكا وموريس ،
 والبرازيليون في بلادهم، واليابانيون في فورموزا، ولاسيا الخطوة التي خطتها كوبا ، وبورتوريكو،
 الى الامام في كنف الولايات المتحدة . ثم اوجدت الاتفاقات الدولية المساواة بين الزراعتين ،
 فتوزع قصب السكر والشمندر ، مناصفة تقريباً ، انتاجاً استهلك الغرب ثلاثة ارباعه .

كان الجسد بالامس يعني الحاجة الى الحيز. ومن جهة ثانية قابلت التجمعات
 البشرية المناطق التي كانت فيها الحبوب مرتكز الغذاء . ولذلك كانت معركة
 الارز في آسيا ومعركة الحنطة في أوروبا معركتين حيويتين في نظر المجتمعات
 المرتفعة عدداً ؛ ولكن كانت هنالك معركة الذرة الصفراء عند الهنود الاميركيين ومعركة
 الذرة البيضاء والجاورس في افريقيا . وقد اشار « ماتيو دي دومبال » الى الصيغة التي توافق
 أوروبا الضيقة : « ان الاهراء الحقيقية لليسار هي الدورات الزراعية المتتعة . ولكن الزراعة
 الوفيرة الانتاج متمذرة في المساحات الواسعة التي يجب ان « تصنم فيها الارض » اولاً . فهي
 المساحة الصالحة للحرث ما يعول عليه حين يكون المقصود فتح الارض البكر
 بواسطة المحراث .

انه لظاهرة عظيمة تقدم جبهة مستصلحة الاراضي عبر المروج او السباسب من الشرق نحو
 الغرب في اميركا الشمالية ، ونحو الشرق عبر سيبيريا ، ومن الشواطئ نحو الداخل في المناطق
 الجنوبية . ومن الطبيعي ان الامكانيات وطرائق المعيشة قد اختلفت بين فريق وآخر :
 فشتان بين « المزارع » الاميركي الذي استفاد من الخط الحديدي والآلة الزراعية ، وبين الفلاح
 الروسي المشدود الى عادات جدوده في اعتماد الزراعة الجماعية . اما وجه التشابه فهو ضعف
 الانتاج الذي يعمض عنه ضعف الاستهلاك محلياً ؛ بحيث اعطت اراضي زراعة الحبوب فائض
 انتاج بيع بمظمه في الاسواق العالمية . 'اضف الى ذلك ان الطرائق والتقنيات قسدا افادت من

الاختبار : فقد شوهد قمح شتوي ، هو القمح « التركي الاحمر » ، يزرع في اراض واسعة بين « كنساس » و « داكوتا » و قمح ربيعي ، هو « مزمار الاحمر » الفاليسي المنشأ ، يغزو « اونتاريو » و « مانيتوبا » و « ميناسوتا » و « داكوتا » ثم بلغت اراضي زراعة القمح في تقدمها المناطق نصف الصحراوية التي وافقت ، بفضل « الزراعة البعلية » ، نوعاً من الحنطة اعظم قدرة على مقاومة الجفاف والبرد ، هو « المركيز » ، الذي استحصل عليه بتجهيز « المزمار الاحمر » والقمح الهندي . اما في الهند فقد وجه الانكليز جهودهم شطر البنجاب والسند حيث ساعد الري على انتاج قمح ربيعي .

بيد ان اعظم نجاح هو نجاح اميركا الشمالية التي افادت من تنظيم تجاري متين مركّز الى الاهراءات ، ووسائل نقل سريعة ، وصناعة طحينية متقدمة . فقد خصصت لزراعة الحبوب ، بما فيها زراعة الذرة الصفراء ، مساحة ٧٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة ، و ٧ في كندا ، فتوفر ٥ ملايين طن من طحين الحنطة في السنوات ١٨٩٠ - ١٩٠٠ . وبات « مينيا پولس » و « شيكاغو » و « وينبيغ » تؤمن الحُبْز ١٠٠ مليون نسمة . اما الارجنتين واستراليا والهند فقد اسهمت ، بامكاناتها المتواضعة ، في تسليم اوروبا الغربية ما تحتاج اليه ، اي ١٢ مليون طن بالاضافة الى ما كانت تسلمها اياه اوروبا الشرقية على غير نظام .

تقهقرت امام القمح الحبوب المعروفة منذئذ بالثالوية ، لان الحُبْز الابيض كان دليل حضارة متقدمة .

ولا يخلو من المغزى كذلك التقدم البطيء في انتاج الارز الذي لم يمره الغرب اهتماماً يذكر . ولكن الغرب قد توفق ، يجعل بورما تلعب دور مموت الجماهير الآسيوية الشاكية من التغذية الناقصة ، الى ان يتحكم بتكوين شطر هام من هذه البشرية .

ان المروج والسباسب التي يسهل اعدادها لزراعة الحبوب تصلح لتربية نجاحات تربية المواشي . لذلك نرى ان تربية المواشي ارتبطت بالزراعة في البلدان الاوروبية التي زاولت الزراعة منذ القدم . اما فتح الارض البكر فغالبا ما تم بواسطة القطيع الذي يمكن ان يكون موضوع مضاربة مائعة .

هذه هي حال الحبوب الذي انكفأ في اوروبا الغربية والوسطى امام النباتات المفيدة المغذية ، ووافق المساحات الجافة الشاسعة في الغرب الاميركي والسهل الروسي ونصف الكرة الجنوبي . وتمطينا استراليا على ذلك مثلاً عظيماً . فان الحدث الرئيسي بالنسبة لها ليس انزال ٧٥٠ كمكوماً من لفظهم المجتمع في خليج (سدي) بامرة « ارثور فيليب » في ٢٦ ك ١٧٨٨ ، بل انزال ٢٩ خروفاً . ففي السنة ١٨٢١ ارسلت بالات الصوف الاولى الى انكلترا ، وفي السنة ١٨٦٠ ارتفع عدد الاغنام الى ٢٠ مليون رأس ، والى ١٠٠ مليون في السنة ١٨٩٠ . وعلى الرغم من الجفاف الريب الذي حصل في السنة ١٩٠٢ ، ومن جرد الارانب للارض ، الذين اضراروا

كثيراً بعد ذلك بهذا العدد الضخم من الأغنام ، فإن صحة المثل الاسباني السائر تتحقق في هذه القارة القليلة السكان : « اقدم الخروف من ذهب ، والأرض التي تظهر فيها آثار اقدمه تتحول الى ذهب » . فبات بمقدور العالم ، الذي لم يستهلك قط أكثر من ١٠٠.٠٠٠ طن صوفاً في اوائل القرن أن يستخدم ١٣٠٠٠.٠٠ طن حوالي السنة ١٩٠٠ ، فاصبح الانفصال نهائياً بين المناطق المنتجة والمراكز الصناعية .

وهناك واقع آخر كان من شأنه تشجيع تربية المواشي ، اعني به أهمية اللحوم والاجبان في تغذية المجتمعات الجديدة . لا ريب في أن مجهود أوروبا الشمالية الغربية ، التي حسنت فيها المراعي التي تروها امطار كافية ، قد تكلل بالنجاح : فعلى غرار الزراعة ، ارتدت تربية الأبقار والغنم طابع التصميم على انتاج عظيم . ولكن النشاط الزراعي في البلدان الجديدة ، التي توفرت لها المراعي الطبيعية الواسعة والحبوب المغذية ، قد تقدم كل مجهود . فان « منطقة الأبقار » ، حيث اعتمدت في تربية المواشي الطريقة البدوية ، مع ما استلزمته من رعاة بقر وحراس (Gauchos) ، ليست سوى المرحلة الأولى من النشاط في هذا الحقل ؛ ثم جاء دور المحطات الثابتة ، او مزارع التسمين ، التي غدت صناعة المملبات ؛ ثم اخذت ترتسم انطلاقة الحليب : فقد دخلت كندا وزيلندا الجديدة وأستراليا الى جانب الولايات المتحدة في منافسة الشمال الغربي الأوروبي في قيمة المنتوجات ، وقد سهلت الذرة الصفراء ومصالة الحليب ، بالإضافة الى ذلك ، نمو تربية الحنازير ، ونجاح الـ « مارغارين » (مزيج حليب وشحم حيواني حقه « ميج - مورييس ») وشحم الخنزير . ولم يكن أقل شأناً كذلك تقدم تربية الطيور والدواجن ، بفضل الانتقاء التزاوجي وبسبب طلب متعاظم للحوم والبيض . أما النحل فقد اصبح موضوع استثمار أكثر تنظيماً قياسياً : فبعد « ريو مور » ، جاء هوبير و « دزيرزون » اللذان اكتشفا التناسل الذاتي لدى العائلات البيضاء ، و « لانقستروث » و « دادان » اللذان ابتكرا القفران ذات النحت المتحركة . كان الغذاء الحيواني المنشأ لا يزال نادراً ومتوسطاً في القرن الثامن عشر : فلا مجال من ثم للتقليل من أهمية التبدل الذي حدث في هذا النطاق ، اذا ما اردنا فهم ارتفاع مستوى المعيشة العام في الغرب منذ منتصف القرن اللاحق .

الا ان الانسان قد تأثر ، على الرغم من ذلك ، بالنتائج غير انتشار الفريين ونتائجه غير المقصودة المرتقبة التي اسفرت عنها اتصالاته . وقد لاحظنا ان استيراد على الانواع النباتية والحيوانية اصواف المناطق الجنوبية كان كافياً لانتشار أكثر من خمسية نوع نباتي جديد حول مراكز صناعة الجوخ في جنوبي فرنسا . ويفسر شراء الحبوب من الشرق الأوروبي دخول بعض انواع نباتات البورات الى فرنسا . وقد انتقلت من العالم الجديد الى أوروبا آفة الارمداد التي فتكت منذ السنة ١٨٤٧ بالكرمة المتوسطية القديمة ، بينما قاومتها الانواع الاميركية مقاومة فضلى . وانطلاقاً من نصف الكرة الغربي ، انتشرت كذلك آفة العفونة وقمل الشجر المثمر . وكان الصرصور الذهبي قد تردد الى الباذنجانيات البرية في الولايات المتحدة قبل

أن يفتك فيها بالبطاطا ، وظهر في أوروبا مرتين بين السنة ١٨٧٦ و ١٨٨٠ . واللف داء الكرمه كذلك الجفون الأوروبية التي زرعت في اميركا قبل أن ينتقل الى أوروبا ويحدث فيها الكارثة التي لم تعالج إلا جزئياً بعملية تطعيمها . وظهر داء اوراق البن العربي في سيلان ، ثم انتشر في أقل من عشرين سنة في كافة البلدان الواقعة حول المحيط الهندي ، وتسرب أخيراً الى قلب افريقيا . أما الدوري النهم فقد دخل اميركا بعيد السنة ١٨٥٠ ثم أستراليا حيث جاء الأرنب بدوره يحدث اضراراً أكثر مثولاً للعيان ايضاً . واذا استُصوب في بوهيميا لإدخال الجرذ المستك الذي ابتغاه الكنديون من أجل جلده الفروي ، فإنه من جهة ثانية قد تكاثر تكاثراً خطراً في موطنه الجديد .

الفصل السادس

العبقريّة الصناعيّة في أوج إنتاج الفحم الحجري وعند ظهور الفولاذ

« وأسفاه ! ان المطحنة التي تدور ، تدور ثم تقوت » .
(« فيرمارن » ، « الامسيات »)
« ايما الفزاة القساء القلوب ، انما اتم آتون لتحرمونني من
شعلة عروقي ... »
(« غودر » ، « اغنية للفحم الحجري »)

سارت الحضارة الصناعيّة بخطى حثيثة بعد السنة ١٨٥٠ :
فارتسم حينذاك الخلاف في اوروبا بين بلدان الحصان البخاري
وبلدان حصان الجر ، وتوصل الاميركي الشالي حقاً الى
استثمار ثروات قارته ، وحقق الغرب في العالم تفوقاً مادياً ساحقاً .

ترويض القوى الطبيعيّة وسيطرة
الفحم الحجري

لم تتغل المياه قط عن وظيفتها كقوة فاعلة . فبالاضافة الى الخدمات الضرورية التي ما
زالَت تؤديها ، من غسل نسيج وثقية سفار وتوفير الانبجاس القوي المضغوط الذي يستخدمه
المنجم للتحليل ، نراها تحرك آلات الرفع وتقضي مضخة « ابولد » المبنية عن المركز وتيسح
تركيب المصعد وتولد الكهرباء بواسطة العنف . واذا ما تدنى شأن المطحنة الهوائية والسفينة
الشراعية ، فان الهواء المضغوط قد حرك كذلك المعاصر والمثاقب وامن المتانة لفرمة
« وستنكهوس » .

اجل ان البخار ، الذي هو وليد الماء على كل حال ، قد استقطب العديد من المعجبين ، كما
ان لمخترعاته قد اخضعت المراتبين . الا ان المهندس والعالم قد أخذوا منذئذ يبحثان عن محرك

أعظم فاعلية : اما بواسطة الهواء الساخن كما توخاه « اريكسون » و « فرانكو » ، واما بواسطة الغاز كما ارتأى « هوغون » ، وكما ارتأى بعده « لنوار » و « اوتو » و « لانجن » ، واما بواسطة محروق سائل ايضا . ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق تحقيقاً نهائياً ، وقد عجزت الكهرباء نفسها التي اثبتت قدرتها على اضاءة فضلى ، عن توفير قوة دافعة كافية . فالجهل ما زال واسعاً امام الفحم الحجري .

امتد المنجم ونشر الدخان ولوث الاراضي المجاورة الهائلة ؛ وجمع البشر بمئات الالوف في هذه « البلدان السوداء » حيث اخضعهم لعمل شاق مضن ؛ وغالباً ما تسبب بالموت واثار الاحقاد ، ولكنه عرف كيف يستميل الناس اليه . وتعمق الدهليز بفضل المطرقة القارضة والمنقب (منقب « كافي » حوالي السنة ١٨٢٠ ، ومنقب « سومايه » بعد ذلك بعشر سنوات) ، وبفضل اجهزة فضلى للتدعيم والضخ والتهوية والافراغ (بواسطة سلة مزودة بفرملة ابتكرت في السنة ١٨٥١) . وسهلت الآلات استنزاف المياه والقفل والغربة ؛ ولكنها لم تخفف الجهد اللازم لقطع الاشجار ودحرجتها واعدادها للتخشب ولردم الحفر . فتضاعف الانتاج تضاعفاً متبايناً جداً . ولكن نسبة الاستهلاك ارتفعت ارتفاعاً عظيماً جداً . فتنوع استعمال الفحم : استخدم وقوداً في المدن ، ثم مست الحاجة اليه في القاطرة وفي صناعة الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسير العديد من الانوال ، وحدث ثورة في صناعة الورق والزجاج ، ووجد معمل السكر الشمندري ؛ وكرر فأعطى غاز الانارة الذي حل محل الزيوت والنفط ؛ والقار الذي استخرج منه البنزين والاقليلين ، ومواد تلوينية كثيرة ؛ وحوامض الفينول على انواعها التي استخدمت في الطب الدوائي وصناعة الجلود ، واملاح حمض البكريك القابلة للانفجار .

يقدر العارفون ان استخراج الفحم قد انتقل من ٩ ملايين طن حوالي السنة ١٧٩٠ الى ٩٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه ارتفع حق ٣٠٠ في السنة ١٨٨٠ وناهز ال ١٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ . وقد كتبت صحيفة التايمس يوماً : « ان الاماكن الغنية بالفحم الحجري امست وكأنها حجر الفلاسفة المعاصر ... » ورأى فردريك سيمنس في الفحم « قياس كافة الاشياء » ، وسيذهب « مكسيميليان هاردن » الى ابعد من ذلك بإعلانه : « لا خلاص بدون الفحم » . فقيست القوة منذ ذلك التاريخ بالوحدات الحرارية التي يولدها الوقود المعدني . ومهما يكن من الامر فان سلاح المحارب وقلم الدبلوماسي يجب ان يحسباً حساباً لمول عامل المنجم . ومنذ السنة ١٨٧٠ انتجت مناجم ال « رور » ضعفي ما تنتجه مناجم فرنسا . وعلى نقيض هذه الاخيرة ، تجمعت داخل حدود البلدان المنتشرة بين ال « أبالاش » وال « دونتس » اغنى طبقات الفحم الحجري في نصف الكرة الارضية الشمالي : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، المانيا ، ولا سيما بريطانيا العظمى التي تقدمت غيرها في الاستثمار واستفادت من تسهيلات كبرى لعقد الصفقات .

كانت الاولوية البريطانية ساحقة في السنة ١٨٥٠ (٥٦ مليون طن) ؛ ولن تزول الا قبيل

السنة ١٩٠٠ ، حين احتلت الولايات المتحدة بدورها المرتبة الاولى . ولكن بريطانيا العظمى احتفظت ، حتى بعد هذا التاريخ ، بالسيطرة على الاسواق من حيث نسبة المبيعات : واذا هي تراجعت بعض التراجع في اوروبا الوسطى امام المنافسة الالمانية ، فانها ما زالت تزود الموانىء البحرية بالوقود . فكانت نتيجة وجود الفحم الانكليزي في كل مكان الوجود الانكليزي في كل مكان ايضاً : وان لندن التي توفرت لها هذه الامكانية العظيمة قد سيطرت في كل مكان ايضاً .

في القرن التاسع عشر انطلق عصر الحديد . فقصد تحققت ارباب صناعة الحديد والفولاذ انتصارات تقنية تثق بنفسها وبالمستقبل : بناء الجسور المعدنية

الكبرى في « بروكن » و « فورث » و « غارابيت » - وقد بنى هذا الاخير « ايفل » ، « رجل الحديد » ، رجل البرج - ، وبناء هذا البرج الساحر نفسه فوق معرض السنة ١٨٨٩ . وغزا المعدن المروض حياة الغربي ودخل في كافة ادواته المألوفة . فالريشة بقيت ريشة حتى ولو صنعت من الفولاذ ، واستمرت المرأة في حمل حلي المشد وان لم تكن حلى حوت حقيقية .

تحتمت هزيمة الفحم الحشبي الذي كان يفذي « الكور الكاثولاني » ؛ لقد انتقلت السيطرة الى الفحم الحجري المقطر : انه لتحول بطيء لمعمر ، اخترقه في أماكن عديدة نوعية المنتوجات المحققة حتى ذاك التاريخ والمصالح المشتركة القائمة بين الحدادين واصحاب الاحراج . وازدادت طاقة المصاهر بفضل اكيار « كوبر » : فقد بني منها ما انتج ٥٠٠ طن في اليوم الواحد ، وحتى ٩٠٠ طن في الولايات المتحدة . وتحسن التصفيح الذي تناول الفولاذ ايضاً .

وكان انتاج الفولاذ المستوفي كافة الشروط هدف الطرائق التقنية التي مثلت ثورة حقيقية في صناعة الحديد والفولاذ خلال القرن . فقد اعطت بعض المعادن الحديدية غير الخالصة فولاداً سائحاً عن طريق التكرس في مصهر مزود بمرايا عاكسة للنور ؛ وأنتج في أميركا فولاد عرف بالفولاذ المزوج بالكربون ؛ وتحقق الفولاذ « الدجاجة » في « بتسبورغ » في السنة ١٨٤٠ ، والفولاذ السائح في السنة ١٨٥٣ . وفي هذه الاثناء فكر « هنري بسمر » الذي كان قد هوى تعطيل الطوايع البريدية واستخراج عصير قصب السكر واختراع مضخة مبعدة عن المركز ، بتحويل الحديد المصبوب تحويلاً مباشراً الى فولاد سائح بواسطة تيار هوائي مضغوط ؛ وكان محوله هذا يبعد كربون الحديد المصبوب السائح فلا يبقى الا الاستعاضة عن الكربون بواسطة حديد مصبوب مزوج بالمنغنيز او الكبريت . وكان ذلك في السنة ١٨٥٦ . فاستقبل الاختراع في البدء استقبالا حماسياً ، ثم تقلب الارتياح ، فاضطر بسمر لان ينشئ بنفسه في « شفيدل » مصنعاً للفولاذ بحسب نظريته . وما لبثت فوائده طريقتيه ان برزت شيئاً فشيئاً ، مع انها لم تنطبق على المعدن غير الخالص المزوج بالفوسفور واستازمت مادة خساً نقية جداً .

ثم ابتكرت طريقة اخرى : هي طريقة اذابة الحديد المصبوب مع الحديد اللدن . وكلت

هذا الاختيار قديم العهد : وقد سبق لـ « ريمور » و « هاسنفران » ان اشارا اليه . فقد عاد اليه « لويس لوشاتليه » في السنة ١٨٥٦ بواسطة كور مزود بالمرايا يحترق فيه الكربون احتراقاً بطيئاً ، ومن شأنه إتاحة استخدام نفايات الحديد وقراضاته . ولكن العملية لم تتجسج لنجاحاً تاماً إلا في السنة ١٨٦٤ حين استخدم الاخوان « اميل » و « بيير مارتين » كوراً زودت جدرانها باوكسيد السليسيوم ومولداً للغاز من صنع « فردريك سيفنس » . قم انتاج الفولاذ بشق درجائه وبكيات كبرى . وانتقل استخراج المعدن الغير الخالص من ٤ ملايين طن إلى ١٨ مليوناً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ .

في هذه الأثناء تحسنت السقاية وتعلم الناس الاستفادة من المعادن غير الخالصة المزوجة بالفوسفور . وكان « غرونر » قد اثبت أن القاعدة الكيميائية وحدها قادرة على تثبيت الجسم المزوج بالفوسفور والخالي من الماء ؛ ولكن لما كان جدار الكور مزوداً باوكسيد السليسيوم ، فان القاعدة كانت تحلل هذا الأوكسيد . والحال وجد للسائلة حلال في السنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ : فمن جهة فكر « توماس » و « جلكرست » بتليس الحمول بكميات الكلس المزوج والمفتيز ؛ ومن جهة ثانية اعتمد « بورسيل » و « فالران » تليسياً مائلاً لكور « مارتين » ، فقفز الاستخراج قفزة جديدة ، وبلغ ٢٧ مليون طن في السنة ١٨٩٠ و ٤١ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

تسبب هذا التطور السريع في التقنيات في انتقال المشاريع من مكان الى آخر . فقد مكنت المؤسسات الصغرى من قبل موزعة هنا وهناك على مقربة من الاحراج والمياه . ثم برزت الحاجة الملحة الى حديد وفحم حجري يتوفران معاً . ففي انكلترا مثلاً تجمعت المصانع في « مدلندس » ومنطقة « غلاسكو » الغنية بالحديد ؛ ولكن منجم الفحم الحجري لا يلبث أن ينزف ولا يكفي : فتنتقل المصانع نحو البحر الذي تأتي عن طريقه المعادن غير الخالصة من البلدان الأخرى ، وتستخرج هذه المعادن كذلك من الطبقات الجوراسية بين « كيلفلند » و « غلوسستر » ؛ ولكن هذه المعادن لم تكن كثيرة الانتاج بسبب امتزاجها بالفوسفور . بيد أن طريقة توماس لم تحل دون فقدان الجزيرة أولويتها ، لا سيما وقد سُلِّم فيها بأفضلية طريقة مارتين . وتأخرت بلجيكا كذلك تأخراً نسبياً لأن الحديد قد نَزَفَ فيها . وأحدق الخطر بفرنسا التي انقذها منجم اللورين الصغير . ولكن هذا المنجم الأخير لم يكف المانيا ، فكان أن الصناعات الحديدية والفولاذية الكبرى في انكلترا وألمانيا قد استوردت حاجاتها من بلدان لا تستخدم كل ما تستخرجه من المعدن غير الخالص (فرنسا ، اسوج ، اسبانيا) أو تصدره بكمليته (الجزائر) . وفي روسيا ، تأخر الأورال نسبياً أمام تقدم الـ (دونتس) . وفي الولايات المتحدة باتت بتسبورغ عاصمة صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، وحتى في السنة ١٩٠٠ ، اجتذب اليها كرنجي ، المالك فيها سعيداً ، معدن « ماركيت » الاديبي اللون بفضل فتح قناة « سولت - سانت - ماري » .
إلا أن المؤسسات العاملة لحساب البحرية قد اقتربت من الاطلسي ، والجنوب أخذ يتجهز شيئاً فشيئاً ، وقامت مدن الحديد والفولاذ في السهول الكبرى بعد اكتشاف أهمية المناجم الحديدية

في منطقة البعير ، دون أن يؤدي ذلك الى تخفيض انتاج هذا المركز العظيم . فأكّد كرنجى حينذاك أن الولايات المتحدة « سوف تستطيع سد حاجات العالم بأجمعه » .

كان الفولاذ من ثم امتزاج حديد و كربون . أما صناعة انواع تنوع المعادن غير الحديدية والاملاح الفولاذ الخاصة فقد استلزمت معادن غير حديدية كثيرة كان بعضها جديداً ، كالتونفستين والمنغنيز والتىكل .

صنع الشبهان من امتزاج النحاس والحارصين ، وحل محل الورق المقوى في صناعة اسطوانة الخرطوشة ؛ وبفضل لدائته استخدم في صناعة اثابيب المصاييح وصناعة الصنابير ؛ ومائل الجوهرات وارقدى مظهر البرونز المذهب . ومن حيث ان النحاس مادة حسنة الايصال فقد استخدم في مصانع التقطير والتحميص ومعامل السكر ؛ ودخل في خدمة الكهرباء . أما الزئبق فقد استخدم في اذابة المعادن الأخرى وأضفى على المتفجرات خاصيات فاعلة ، واستعين به لمعالجة المصابين بالداء الزهري . وأمنت علب المحفوظات ازدهار الحديد الابيض (التلك) الذي ليس سوى حديد ملبس بطبقة رقيقة من القصدير . واستخدم البورق لبرنقة الزجاج وطلي الخزف الصيني والتصوير . وتمت كذلك تقنيات خاصة سيقوم لها التحليل بالجرى الكهربائي عوناً كبيراً ؛ وهو هذا التحليل ، بصورة خاصة ، ما سوف يحقق آمال « وهار » و « بونسن » و « سانت كلير ديفيل » ، باتاحته تحليل الألومين . ولكن اذا استثمرت أوروبا ثرواتها خير استثمار ، فانها لا تستطيع مقارنة مواردها من النحاس والرصاص والتىكل بموارد اميركا ؛ وليست جزر (كاسيتريد) المعاصرة من بعد قائمة على مقربة من شواطئها بل في ارخبيل الـ « سوند » .

بين الاملاح ما زال ملح الطعام ، القوي والمدر للبول ، والضروري للانسان والحيوان ، يستخرج من الملاحات الساحلية ومناجم الملح . وليست هذه المادة ما اقتقرت اليها أوروبا . ولكن الحاجة مست الى املاح أخرى في الزراعة ومن أجل خصائصها الصناعية . فأوجد « ليبينغ » في « جيسن » و « جان باتيست دوماء » و « جليبير » و « لوز » من بعدهما ، الكيمياء الزراعية ، مع ان المزارعين ما زالوا يفضلون الأسمدة العضوية على انواعها : الدمن والاشنة ومقذوقات البحر والقوانو . وقد غذى هذا الأخير ، الذي ليس سوى فوسفات كلسي تكون من دبق الطيور ، تجارة كبرى خلال نصف قرن في كافة ارخبيلات المنطقة الحارة ، لا سيما وأن استثمار جزر « شنشا » في « بيو » قد استمر منذ السنة ١٨٣٠ حتى السنة ١٨٧٥ . ثم اكتشفت أهمية املاح الفوسفات الموجودة في بعض الصخور اما بشكل عقد أو بعر الشيطان ، واما بشكل حجارة طيشورية فوسفورية . وفي الوقت نفسه لفت الانتباه إلى شواطئ اميركا الجنوبية نفسها ملح البارود الذي صنع منه عمال المناجم بارودهم والذي كان من شأنه انتاج سماد ازوتي من النوع الجيد . وبسرعة ذاعت شهرة هذه الاملاح ، فاستفاد الشيليون من الحرب المعروفة بحرب الباسيفيكي في ١٨٧٩ - ١٨٨١ وانتزعوا من « بيو » و « بوليفيا » المناطق الغنية بنترات السوديوم في جوار صحراء « اتاكاما » . ومن جهة ثانية وفر الملح الطبيعي المعروف بالـ « كاينيت »

والمركب من سلفات المغنيزيوم وكلورور البوتاسيوم ، الاثنان للزراعة الأوروبية المتقدمة ، ثم توفى « جوزف فوغت » ، اثناء بحثه عن الفحم الحجري في السنة ١٩٠٤ ، الى اكتشاف كلورور البوتاسيوم الطبيعي في الازراس العليا .

امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف كانت نتيجة توسع المناجم أن الغرب امتلك مواد خاماً وفيرة ومتنوعة جداً تطلبتها عبقريته الصناعية وتفتحت في تحويلها . وقد سلكت في ذلك طريقين .

فان الكيمياء قد اشتركت اشتراكاً فعالاً في المعركة من أجل الحياة وغدت عاملاً قوياً من عوامل الموت . حاربت الأمراض التي تصاب بها الانواع النباتية كالكرمة ، وحفظت المأكولات (حين حقق « شارل تلييه » - بعد « جاكوب بركنس ») - التبريد الاصطناعي بواسطة روح الحوامض الخشبية والكلورور الكلسي ، قامت السفينة « البراد » في السنة ١٨٧٦ برحلتها الأولى ذهاباً وإياباً بين اميركا الجنوبية وأوروبا ؛ وحسنت عملية التخدير واشتركت في اعداد الجمعة . وساعدت على مزج الحور بسوائل أخرى وعلى غشها أيضاً ؛ ووسعت نطاق الانبيق والكحول التي تعاطم استهلاكها تعاطفاً خفيفاً ، والتي صلحت ، اذا ما أفسدت ، للتدفئة والاثارة والصبغة وصناعة البرنيق على اختلاف انواعه . ومن بين فروعه الأولى انتاج الحامض الكبريتي الذي لعب دوراً رئيسياً في صناعة الأمدة الفوسفاتية والقلى والمواد الملونة والطور والمتفجرات ، والذي صنع بواسطته الحامض الأزوتي والحامض الكلوري . يضاف إلى ذلك أن صناعة القلى قد تجددت بالطريقة المرتكزة الى محلول النشادر التي احكمها « سولفاي » و « شلوسنغ » : وأن هذا الملح قد أعطى ماء (جافيل) بامتزاجه بالكلور؛ وصلح للتبييض اذا ما أضيف اليه كبريت أو كربونات؛ واذا ما أضيف اليه السيكربونات سهل الهضم واختار المعجن واشترك في تركيب معجون « بوردو » لمكافحة طفيليات الحدائق ، واذا ما أضيف اليه حامض البور أصبح مطهراً واستخدم في صناعة الجلود الرقيقة . واذا ما عرف الكيمياء كيف يحسّن توشية النسائج (انتقلت التوشية من لونين في النسائج الهندية والنسائج القنبية في السنة ١٨١٣ الى ٨ بفضل « كوشلين » في السنة ١٨٥٦ والى ٨٥ في السنة ١٩٠٠) ، فانه لن يلبث أن يبتكر العديد من الألوان بفضل « رونج » و « باير » . ولكنه بانتظار ذلك سينتكر ، بمجرد إضافة الكافور الذي يخفف من الخصائص التفجيرية التي يتميز بها السلولوز الازوتي ، والسلولويد الذي صنعت منه الامشاط واطواق القمصان واطراف الاكمام (هذه هي البياضات الاميركية) ، والذي حل محل القشرة والندء والذي استخدمه « ايستمن » في صنع الأفلام الفوتوغرافية . ثم ان تثبيت الصور بواسطة الاملاح السريعة التأثير بالنور قد أحرزت نجاحات عظيمة جداً .

اودع الانسان فكره الورق اكثر فاكثر يوماً بعد يوم . فجاءت الكيمياء عوناً له بواسطة المعجون الخشبي الذي عالج به الكلور والقلى والاثنان والنشادر . وفكر « مونفولفليه » بنحش الزيزفون؛ وفي السنة ١٨٦٠ ، عند الساعة الخامسة مساءً ، خرجت « الصحيفة الاميركية الشمالية » من المطبعة

بينما قطعت شجرة الحور التي ضحي بها من اجلها في الساعة العاشرة من صبيحة النهار نفسه .

« ولكن الانسان يحارب الاحراج الهائلة ... »

(د اغان واثيد « ا » فيكتور دي لابراد »)

قبل الولاة الفوسفورية ، مثل الثغاب خير نجاحاته في اشمال النار : جمع بين مفاعيل الكبريت والفوسفور وبين الخشب ، بعد ان اقترحه « رومر » و « بريشل » في النمسا ، فحسنته « لوندستروم » و « جونكوبنغ » . فبدأ القرن الثامن عشر ، الذي لجأ ابدأ الى ضرب الصوانة بمعدن لاشمال الصوفان وكأنه ، بالمقارنة ، اقرب الى العصور الاولى . وكان غاز الازارة موضوع رضى لسكان المدن ، فتقدم تقدماً حثيثاً سهله ليس صنبور « اوير » فحسب بل مضرم « بونسن » ايضاً . وتوجب على الشمعة الشمعية ان تحسب حساباً للاسيتيلين ولا سيما للمصباح البترولي الذي بدا عملياً واقتصادياً . وفرض الهيدر كاربور نفسه بصورة مفاجئة في اعقاب احكام الاجهزة المزودة بالفتيل التي يصعد فيها الزيت بفعل الخاصية الشعرية ؛ ولكن لنجاحه تفسيره في نجاحات استخراجهم وتقطيره : فان حمى البترول التي انتابت امير كاغداة الاستبار الذي اجري في السنة ١٨٥٩ في « تيطوسفيل » على يد الكولونيل درايبك - الاندفاع نحو « اوهايو » - قد رفعت الانتاج من ٣٠٠٠ هكتوليتري في السنة الاولى الى قرابة ٤ ملايين منذ السنة ١٨٦٥ . وبينما تأسست شركات قوية لاستثمار هذا المصدر غير المرتقب للثروة ، واجه بعضهم الطاقة الحرارية ، وبالتالي مصدر القوة الفاعلة ، التي قد يوفرها هذا الوقود السائل اذا ما ابتكر محرك موافق .

تباشير الكهرباء الجديدة
لا شك في ان المستقبل يخفى في طياته تهديداً للبترول كعامل اذارة بفعل لمجاعات الكهرباء . فان « بلانتيه » قد اخترع المركب ، و « غروف » فكر بأول مصباح كهربائي ، و « رايت » استحصل على شهادة اختراع قوس كهربائي توفى « فوكو » الى تطبيقه عملياً بعد حين : كان كل ذلك مجرد تباشير . ولكن الجدة المشجعة تحققت في السنة ١٨٦٩ حين وفر « غرام » بدينمه تياراً قادراً على تغذية المصدر الضوئي . ثم حقق « جابلوشكوف » شمعة من الفحم المركوم . اما المصباح الكهربائي الاول المضيء في الفراغ فيجب نسبته الى « سوان » . ولكنه لم يضىء سوى برهة قصيرة . فأخذ اديسون يبحث آنذاك عن خيط ثابت ؛ وفي سبيل الحصول عليه اوفسد البعثات الى كافة الجهات ، وبعد ان امتحن الخيط القطني ونشارة الصنوبر وشعر اللحية ، استقر اختياره على نوع من الخيزران الياباني . ثم جاءت السنة ١٨٧٩ : فاحدث الاكتشاف ضجة كبرى . وقامت اول شبكة توزيع منذ السنة ١٨٨٢ في نيويورك ؛ ثم أنشئ صف انوار في مقدم اوبرا باريس ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، كان بالامكان مقارنة اضاءة « مبنى عام بمعدل ١٦ شمعة في المتر المربع باضاءة « رواق المرايا » التي لم تعط سوى ٢٥ فقط . ولكن الشوط لم يبد خاسراً ، لا بالنسبة للغاز الذي كان اقل كلفة ولا للمصباح البترولي الذي كان اكثر ملائمة للمساكن الوضيعة والارياض .

جهاز « برجيس » اول شلال مائي في السنة ١٨٦٩ فولدت الكهرباء المحققة شعوراً قوياً بأن

التيار الذي سينتج سيكون وفيراً . وجاء التلغراف والهاتف الكهربائيان نمطين ثوريين لنقل الفكر . وشق التحليل بالجرى الكهربائي ، في الوقت نفسه ، الطريق أمام تحويلات عظيمة في المادة : وبحسب الطريقة التي اشار اليها « ارنست - ورنر سيمنس » ، استخدم « هول » في اميركا و « كيليان » في المانيا و « هير » في فرنسا فرنًا لاذابة معدن الالومينيوم بواسطة القوس الكهربائي ؛ ثم طلع « مواسان » بصناعة الكربوراكلسي ومركبات الحديد والمعادن الاخرى . ولان يلبث الشرر ، الذي يشعل امتزاجاً غازياً قابلاً للاحتراق ، ان يولد المحرك المني على هذه الظاهرة : وهكذا فان الكهرباء ستسهم ، بمغالطة غريبة ، في فتح آفاق وامكانات جديدة امام البترول .

لقد افضى كل شيء الى انتصار الآلة التي بدت وكأنها لا تعرف الكلل وتفتوق
المجرم الآلي على الانسان تفوقاً كبيراً بالسرعة وبمزيد من الاتقان والدقة في اغلب الاحيان .
ففي السنة ١٧٧٦ كان عشرة اشخاص ينتجون ٤٨٠٠٠ دبوس : فجاءت الآلة ، بعد مرور
مئة سنة ، تنتج ١٨٠ دبوساً في الدقيقة اي ما يعادل مليونين بالنسبة لهؤلاء العمال العشرة . وفي
الولايات المتحدة انتج عامل النسيج ٩٦٠٠ يردة من النسيج القطني في السنة ١٨٤٠ خلال ١٣ ساعة
عمل في اليوم ؛ وفي السنة ١٨٨٠ بات ينتج ٣٠٠٠٠ يردة خلال عشر ساعات عمل في اليوم . وبينما
كانت امهر عاملات صناعة الجوارب تنجز بين ١٥٠ و ٢٠٠ عقدة في الدقيقة ، انجز النول المستقيم
٥٤٠٠ ، والنول الآلي ٤٥٠٠٠ ، والنول المستدير ذو الابر المتصلة حتى ٤٨٠٠٠٠ . وبواسطة آلة
« ماك كورميك » الحاصدة التي يحركها حصانان ، جمع المزارع الاميركي سنابل سبعة هكتارات
بينما لم يستطع فلاحان اوروبيان ، في الوقت نفسه ، حصد اكثر من هكتار واحد .

تطلبت الآلة وقتاً للعمل منظماً بكل دقة . وباستطاعتنا تحديد السنوات ١٨٥٠ - ٦٠
تاريخاً لانطلاق صناعة الساعات منسقة ، وهو فيليبس من احكم زنبرك الرقاص في
السنة ١٨٦١ .

« ايها الساعة ! الاله الناحس ، والخيف ، والمديم الاحساس ... »
« بودليير »

حققت الآلة اكثر الاشغال دقة ، فانتشرت انتشاراً عظيماً ، سواء في اعمال الخشب
(آلات النجر والنشر والتفريز والتلمين) ام في اعمال المعادن (المخارط ، والمثاقب ، والمناشير
المتصلة الاطراف ، والمثاقب اللولبية) . وقد احكم « هوبتورث » دقتها بعد « مودسلي » ،
و « كليان » .

حافظ القطن ، بين النسائج ، على تقدمه التقني . فاعتمدت آلات غازلة جديدة ، نول
« روبرتس » الذي عمل آلياً ، والنول المستمر الحركة الذي ابتكره « بار كورتيس »
و « مادسلي » . وارتفع عدد الصنائير في النول الواحد من ٣٠٠ او ٤٠٠ الى ١٢٠٠ . وازدادت
كذلك سرعة المكوك في الحياكة . وبشر النول الآلي ، الذي ابتكره الاميركي « نورثروب » ،

بتغييرات هامة جداً : فالحمة تستبدل آلياً حين ينقطع احد الخيوط ، وبإستطاعة حائك واحد ان يراقب لآلتين فقط او اربع الآت بل حتى ٤٠ و ٥٠ آلة. أجل ، لن تعرف آلة « نورثروب » في اوروبا قبل السنة ١٩١٤ . ولكن الانتاج في الساعة قد تحسن في كل مكان (ارتفع خلال قرن في بريطانيا من ١٠ الى ١٠٠ في الغزل ومن ٤ الى ١٠٠ في الخياكة) . وزودت صناعة الغسل بآلات تؤمن عمليات التقصير والمضمة والتنشيف والتنظيف الكيميائي . وكانت آلة التطريز مصدر ثروة لـ « سان غال » ؛ كما ان آلة « بوناز » للخياطة والتطريز ، التي اخترعت في السنة ١٨٦٣ ، قد استعملت لصنع الالبسة والاثاث ، ونول « موشليه » واقترى تخريم النسيج الدقيق . فانتشرت آلة الخياطة انتشاراً سريعاً وتحسنت ، تحسناً مطرداً ، فاحتلت المركز الاول في صنع الالبسة . واستخدمت الآلات في خياطة القفايز وتثبيت العقب وخياطة الساق وجمع وجه الحذاء والنعل . وتوفرت لصناعة القراء اجهزة كذلك وتصل .

واذا ما زال الحجر ينحت باليد ، فان الانسان قد استخدم آلات لرفع الاثقال ؛ وجلب الى مراكز عمله القراميد والآجر والابواب المصنوعة كلها آلياً بواسطة الطواحين الهارسة والكسارات المبهمة عن المركز والمحارط . وفي صناعة الزجاج وفرت الناقلات الآلية على العامل الاقتراب من الفرن ؛ وقضت الآلة النافخة على طريقة استخدام القصب المثقوب الذي كان ينفخ فيه بالنفث .

وجاء انتصار الآلة كاملاً في صناعة الورق . فقد استخدم « مونفولففيه » ، في هرس الخرق الرثة ، الآلة العاجنة المخترعة في اميركا ؛ واكتملت اجهزة صناعة الورق بالة تقطيع الخرق وآلة رفع المعجون ومنظم الحركة وجهاز التصفية والمساح . وكان الحدث الاكبر في حقول الطباعة ظهور الآلة الدائمة الحركة التي احكمت شيئاً فشيئاً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥ بفضل استخدام الصفائح المستديرة والوسيلة التي تطبع الوجه والظهر : فبينما لم يطبع سوى ٨٠٠٠ طلحية في الساعة وعلى الوجه فقط في السنة ١٨٤٥ اصبح بالامكان طبع ٩٦٠٠٠ طلحية من ١٢ صفحة في السنة ١٩٠٠ ؛ ولم تؤمن الآلة الاسطوانية الدائمة الحركة طلي الطلاحي فحسب ، بل جمعها حزماً من ٥ و ١٠ و ١٥ طلحية بحسب المراد .

والى السنة ١٨٦٧ يعود تحقيق الآلة الكاتبة الاولى على يد الاميركيين « شولز » و « دنسمور » اللذين اشترى (رمنفون) شهادتهما . ولكن طموح الآلة بلغ حد منافسة آلات الطرب نفسها أو اقله حد تسجيل الاصوات : وهذا كان الهدف من الحساكي (الفونوغراف) الذي ابتكره اديسون في السنة ١٨٧٧ .

فهل كان من أمل في تحقيق نتائج على مثل هذه الأهمية في انتاج المواد الغذائية يا ترى ؟ انه لجلي أن الآلة الزراعية أعجز من أن تنظم هذا الانتاج على غرار الآلة المستخدمة في الصناعة ، ولكن من شأنها تلافي نقصان السواعد والمساعدة على فتح مساحات جديدة ما كانت الزراعة بدونها لتلتزمها من الطبيعة الغامرة . وهكذا فقد اهتمت إلى أرضها المختارة في اميركا

الشالية حيث نستطيع ملاحظة تقدمها في عهدين ثلاثينين : عهد الآلة الحاصدة ابتداء من السنة ١٨٥٥ ، وقد عقب عهد المحراث الحديدي ، ثم عهد الحاصدة الرابطة . ويجب هنا ان نعترف لـ « مالك كورميك » بفضل الأول في تحقيق حركة اسنان المنشار تناوبياً . وقد سهلت المسلفة استخدام المبذر الآلي فعدت قندحرج وتدور وتهرس ، بينما جمع المحراث في هيكله حتى أربعة أجهزة حارثة . وأتاحت الآلة الدارسة ، الكندية الأصل ، التي ادارها فريق من ستة رجال ، درس ١٥٠ هكتولتراً بينما لم يستطع الرجل الواحد درس أكثر من ٣ بواسطة المدقة . وفي صناعة الطحين التجاري تخلى الرحاعن مركزه لمسحق مستدير من الحديد المصبوب المسقي ، ونظف القمح بالنساف والفرايبيل ، ونخل الطحين بالمناخل . وإذا تأخر اعتماد المعجن الآلي في صناعة الخبز ، فإن الآلة قد لعبت دوراً هاماً في صناعة البسكوت والمعجنات الغذائية ، ومعامل التصفية ، وصناعة الشوكولاتا . وفي المسالخ جزرت الآلة الحيوانات ونظفتها بالفرشاة وأفرغتها وقطعتها وملحتها . وفي المزرعة أخذت آلة مبعدة عن المركز تحمل محل المخفضة ، ودخلت مصنع اللبن مفرزة الكشاة الدائمة الحركة .

لا يعني ذلك أن التيار كان عارماً لا يقاوم ، وأن طرائق العمل القديمة كان محكوماً عليها بالزوال في كل مكان . فكل ما حصل هو أن التضاد قد أنضح وبرز بين مهنة وأخرى وبين بلد وآخر . ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن المسألة غالباً ما كانت مسألة دفع إلى الامام . فبالإمكان مثلاً تسيير الآلة الدارسة بساعد الانسان ، أو المدورة ، أو البخار ، ولكن ما هو المحرك الذي يجب استخدامه في العاجنة الآلية ؟ وكيف يجب جر الآلة الزراعية ؟ وفي هذه الحال الأخيرة ما زال الحصان مفضلاً على القاطرة البخارية التي عرضت منذ السنة ١٨٥٠ .

أكب القرن من ثم على زيادة قوة الجهاز الحراري : فخفف ضرر نقاط فقدان مفعول مكبس المحرك في سيره ، وحد من التخثير في الاسطوانة ، وزاد مساحة الاحماء ، ولجأ إلى الانفجار المزدوج والثلاثي وحتى الرباعي بواسطة الطريقة المركبة . ولكن هذا المحرك ما زال ثقیل الوزن ، كبير الحجم ، متوسط الفعالية بالنسبة للوقود المحرق . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر بعضهم أنه أدى لأوروبا واميركا ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عملاً يوازي عمل مليون عبد .

تباهى ذاك العهد بتحقيقاته ، فطاب له تمعدها واظهارها . ففي السنة ١٨٥١ جمعت المارز لندن ١٧٠٠٠ عارض في قصر البلور حيث أحل « باكستون » ، في مساحة تبلغ ٩ هكتارات ، الحديد والزجاج محل الحجر والقرميد ، وفي السنة ١٨٥٥ ، قسام في باريس قصر الصناعة مع « رواق للآلات » تحرسه أربع قاطرات صنعت على شكل أبي الهول . وفي كل عرض جديد توسع نطاق المعرض وتعاضل الاقبال . وعلى غرار لندن التي دعت العالم في السنة ١٨٦٢ ، وجهت اليه باريس الدعوة في السنة ١٨٦٧ لزيارة قصر « كوليزيه » العظيم ذي الاروقة الدائرية السبعة التي كان أحدها « رواقاً جديداً للآلات » : فكتب « هوغو » : « هذا هو الميثاق السلمي

العظيم « . وفي السنة ١٨٧٣ أقامت فيينا معرضاً في إطار الـ « براير » ، ولبون في إطار « الرأس الذهبي » ؛ وفي السنة ١٨٧٦ أقيم معرض في فيلادلفيا التي جعلت منه احتفالاً بالذكرى المئوية للاستقلال الأميركي ؛ وفي السنة ١٨٧٨ ، أقيم معرض جديد في باريس التي شيدت الـ « تروكاديرو » وعرضت المصنوعات الخزفية . ثم أقيمت المعارض على التوالي في « سيدني » ، و « ملبورن » ، و « امستردام » ، و « انفرس » ، و « اورليان الجديدة » ، و « برشلونة » ، و « بروكسل » ، و « شيكاغو » التي أحيت في السنة ١٨٩٣ ذكرى اكتشاف كولومبوس لاميركا . ولكن اعظم المشاهد كانت المشاهد الباريسية بمناسبة الذكرى المئوية للسنة ١٧٨٩ ، والاحتفال بنهاية القرن الرسمي في السنة ١٩٠٠ : فقصدها الزائرون بعشرات الملايين للتمتع برؤيتها . « ان السنة ١٩٠٠ ... سوف تكون نهاية قرن كامل من الجهود المدهشة في حقلي العلم والاقتصاد » ، كما جاء في مرسوم صدر في السنة ١٨٩٢ . « وسوف تكون كذلك عتبة عصر يتلبأ العلماء والفلاسفة بعظمته وستبلغ وقائمه حيث لم تبلغ احلام مخيلاتنا في الارجح ... فمعرض السنة ١٩٠٠ سوف يشكل تأليف القرن التاسع عشر ويحدد فلسفته » .

وسواء كانت المعارض شاملة أو دولية ، فانها توزن السير الظافر للحضارة الصناعية

الفصل السابع

الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار

انتصار الخط الحديدي ان حلم سان - سيمون باحتلال الكرة الارضية بواسطة الخط الحديدي قد تحقق ما بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ : نصف قرن كان جديراً باسم « عصر الخط الحديدي » الذي اطلق عليه . ولكن الجسر على الخطوط الحديدية بقي عمل الغرب بصورة خاصة . ففي السنة ١٨٦٠ تقاسمت اوروبا والولايات المتحدة ، بما يقارب التساوي ، ١٠٨ ٠٠٠ كيلومتر ، بينما لم يتجاوز طول هذه الخطوط في اجزاء العالم الاخرى الا ١٥ ٠٠٠ كيلومتر ؛ وفي السنة ١٩١٠ كان نصيب الولايات المتحدة ٣٨٠ ٠٠٠ واوروبا ٣٣٠ ٠٠٠ من اصل مليون كيلومتر ونيف في كافة انحاء العالم .

لقد جند بناء الخطوط الحديدية رؤوس اموال عظمى وافضى الى ولادة اجهزة خاصة قوية ، حين لم تتولاه الدولة مباشرة ، والى قيام اشغال عظمى . ودفع كذلك بصناعة المعادن ، واضفى على الآلة البخارية كل رونقها ، وكثرت الاعمال الفنية .

ان الخط الحديدي ، الذي اخترق الارياض ، قد استلزم تسوية ترابية متينة ، وقد صنعت العوارض من خشب السنديان الذي حفظ من الفساد بمقننه بالكربوزوت او بكلورور الزنك . ثم حل الخط الفولاذي محل الخط الحديدي ، كما استعاض عن الجسر الحجري بالجسر المعدني .

وان في اختراق الجبال ما يثير الاعجاب في هذا المجال . ففي التسلق امتحان للبخار ، وفي فتح الانفاق امتحان للتقنية . وسوف يستخدم الماس والمثقب المحرك بالهواء المضغوط للتغلب على الحجارة الصلبة ؛ وسوف يلبس الرواق بالحديد المصبوب لا بالخشب ، وتؤمن التهوية بواسطة الآلات الجاذبة الهواء او النافثة . وجاء تحقيق نفق « سنيس » مشجعاً جداً من هذا

القبيل على الرغم من ان المجاز الرواق على ارتفاع ١٣٠٠ متر وبطول ١٣٦٠٠ متر قد استغرق ١٥ سنة . وبفضل الخبرة المكتسبة ، تحقق نفق « غوتار » في عشر سنوات ، بطول ١٥٠٠٠ متر تقريباً ، بواسطة المثقب الآلي وبالرغم من عذاب العمال الذين اضطروا الى تحمل حرارة بلغت ٨٦ درجة مئوية . ثم فتحت الاتفاق بالفضيل في اسفل الجبال (نفق سمبلون سيفتح على ارتفاع ٧٠٠ متر) ، فصرف النظر رويداً رويداً عن النفق في المرتفعات ، كنفق « سمرنغ » الذي فتح منذ السنة ١٨٥٤ بعد ١٤ نفقاً ثانوياً و ١٦ جسراً .

فلم يلبث النفق من ثم ان بدا افضل من الجسر لاجتياز الانهار العريضة والاقسام المستطيلة الضيقة من البحر . فمفر الانكليز نفقي « مرسى » و « سفرن » (طول هذا الاخير ٧ كيلومترات) والاميركيون نفق « هدسوت » . ولكن العقبة السياسية حالت دون تنفيذ مشروع اتصال تحت مضيق « با - دي - كاليه » ، كما ان الاتصال بين شبه الجزيرة السكندنافية والمانيا قد تم بواسطة سفن خاصة مجهزة بخطوط حديدية لنقل القطار ، بين « ساسنيتز » و « روغن » و « مالو » .

احرزت القاطرة تقدماً حاسماً منذ ان فكر المهندس الانكليزي بين « كرامبتون » بوضع العجلات الحركة في مؤخر مسخن البخار لا تحته ، وهي عجلات مترابطة ثناءً تتناقل حركة دوراتها . وفكر النمساوي « انغرت » ، للخطوط السريعة الانحدار ، والفرنسي « بتييه » ، لقطارات نقل البضائع ، بأجهزة محكمة خاصة . فارتفع الوزن شيئاً فشيئاً من ٢٥ و ٣٠ طناً الى ١٥٠ طناً ، فاستطاعت القاطرة جر مقطورات يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن . واستمض عن المكبح اليدوي القديم بالمكبح الآلي او المائي او المكبح العامل بالهواء الخفيف الكثافة او الهواء المضغوط . وأحكم تسيير القطارات البخارية التي تسير بالجبال على منحدرات الجبال (في ريغي و بيلاط ، في جبال الالب ، وفي جبل واشنطن ، في اميركا) . ووفر الاوراق الكهربائية عوناً مفيداً لنقل الاشارات . كما اتاحت العربة السهلة التوجيه للمقطورات السير في منعطفات الخطوط واطالة القاطرة والمقطورة .

باتت المقطورة اكثر راحة . فأثيرت بغاز زيت المنضد بعد ان كانت تنسار بزيت السلجم . ثم أجريت محاولة لإثارتها بالكهرباء على خط « لندن » - « برايتون » . وتمت التدفئة بواسطة مسخن يغذيها البخار . وبسبب المسافات بنى الاميركيون مقطورات للنوم مع منفعاتها ومقطورات للاستقبال وحتى مقطورات فخمة استطاعت العائلات الثرية بواسطتها الانتقال دون ان تحالط المسافرين الآخرين . وجمزت القطارات التي تصل دول العالم الجديد بحسور ضيقة تتيح التجول بين مقطورة واخرى اثناء سير القطار . وفي السنة ١٨٨٠ اضيفت الى قطار خط الباسيفيكي مقطورة تحتوي على مطبعة اصدت فيها صحيفة يومية تنشر الاخبار الواردة برقية في المحطات . وازدادت السرعة ازدياداً مطرداً . فمن معدل ٢٨ كيلومتراً في الساعة حوالي السنة ١٨٥٠ ارتفعت الى ٧٤ في انكلترا و ٥٩ في اميركا في السنة ١٨٨٠ . وبعد انقضاء

عشر سنوات تجاوزت سرعة القطار بين نيويورك و « بوفالو » ١٠٠ كيلومتر في الساعة . كما أن السفر من باريس الى مرسيليا لم يعد يستغرق سوى ١٤ ساعة . وفي نصف قرن انخفضت الكلفة الى نصفها وحتى الى ثلثها بحسب البلدان .

إذا استثنينا بريطانيا العظمى وبلجيكا وجزءاً من ألمانيا ، لرأينا ان الخطوط الحديدية لا تؤلف شبكات في بلاد أخرى قبل السنة ١٨٩٠ . أما في فرنسا فإن الاتصال بين باريس وصدن الحدود الكبرى أو المرافيء فقد بدت تبشيره في الأفاق . وقد بذل المجهود الكبير في هذه البلاد في عهد الامبراطورية الثانية واوراثل عهد الجمهورية الثالثة . فارتسمت حينذاك بوضوح في أوروبا الغربية شبكة خطوط حديدية هامة تقع الى الشمال من جبال الالبيرنيه ، وال « ابنين » وجبال الالب الشرقية . ولم تشمل هذه الشبكة شبه الجزيرة الايبيرية والسوق الايطالية والبلدان الواقعة الى الشرق من خط الطول المار بـ « دانزيغ » و « بودابست » ؛ ولكن ايطاليا الشمالية استفادت منها بفضل الاتفاق الالبي . وأخذت سويسرا تلعب دور الانطلاق في وسط أوروبا . وبينما اتصل الغرب بالنمسا بواسطة نفق « ارلبرغ » ، نرى النمسا ، التي حققت نفق « سودباهن » على طريق تريسيتا ، تمدد شبكتها نحو الدانوب الشرقي والبلقان وتصل بالقسطنطينية وتصل أوروبا الوسطى بالشرق الأدنى .

وفي اميركا الشمالية لم يطرأ على البناء أي توقف . فهي الولايات المتحدة ما وضعت في السنة ١٨٦٩ أول شريط معدني يصل بين الاوقيانوس والآخر . انها لفكرة جريئة اخرت الحرب الاهلية لتحقيقها ، على الرغم من ان الاعمال ، التي تفررت منذ السنة ١٨٦٢ ، قد شرع فيها في السنة التالية . وقد اشرف القائد « غرنفيل م . دودج » ، على هذا المشروع اشرافه على حملة عسكرية : فجند اليد العاملة في « الغرب الأوسط » من بين الجنود المسرحين والمهاجرين الايرلنديين واستخدم الصينيين في كاليفورنيا . وقد واجه عقبات كثيرة اهمها الهندود - و قبيلة « سيو » بصورة خاصة - ونواتئ الارض وفقدان اليد العاملة ، ولا سيما التنافس بين شركة « الاتحاد الباسيفيكي » و « الشركة الباسيفيكية المركزية » اللتين كان على حكومة الاتحاد ان تفصل في خلافتهما . زد على ذلك ان المنحدرات كانت سريعة والجسور خشبية ، والسرعة محدودة ؛ ولكن اكتمال العمل قوبل بحماس منقطع النظير ، وسوف تنجز خمسة خطوط هامة أخرى بين المحيط والمحيط ما بين ١٨٦٩ و ١٨٩٣ ، بما فيها ذاك الذي انشأته الحكومة الكندية بين « هاليفاكس » و « فانكوفر » مروراً بـ « كيبيك » بغية تحقيق ضم كولومبيا البريطانية الى ميثاقها الاتحادي .

وجاء المجهود الروسي ماثلاً ، وان متأخراً ، بمساعدة رؤوس اموال الغرب على كل حال ، وبغية توسع نحو الشرق الآسيوي يقابل التوسع الذي قاد الولايات المتحدة وكندا حتى الباسيفيكي . فأُنجز الخط القزويني أولاً ، الذي سوف يكمله الخط الارالي في السنة ١٩٠٥ ، وهو أقصر من الاول واكثر استقامة : وهذان الخطان هما في آسيا الوسطى شبيهان بالخطين المارين في الصحراء

الأفريقية . وبدأت الصعوبات في سيبيروا ادهى منها في اميركا ؛ طبقات ارضية متجمدة لو
تسرب مياه اثناء ذوبان الجليد ، وانهار عريضة يجب اجتيازها ، ومسافات شاسعة ، وكثافة
سكان متدنية جداً ، يضاف اليها نواقى جبال « بايكال » المستعصية . ولكن الطرق المصعدة
للخيل لم تعد لتفي بالحاجة امام الاستعمار المتوقع والمستقبل المنشوري . فشرع اذن في اطول
خط حديدي في العالم منذ السنة ١٨٩١ وصل الى « فلاديفوستوك » في السنة ١٩٠٢ بفضل
اتفاق عقد مع الصين اجيز بموجبه اجتياز منشوريا الشمالية .

كان الخط الحديدي أداة توحيد جلى لاميركا الشمالية وللإمبراطورية الروسية . وقد خدم
كذلك الشراكة الجبركية في الدول الألمانية ، وعرف الريخ البساركي خير معرفة ما هو مدبر
له به ، فلم يتركه في ايدي الافراد . وفي ايطاليا ايضا كان عوناً لامرة « سافوا » على إرساخ
سلطتها ، فجمعت حكومة روما الشركات الخاصة واشترتها . ولكن الشركات الخاصة ما زالت
تتقاسم الارض الفرنسية ؛ تلك هي الشبكات الست ، ولكنها اتجهت كلها الى باريس باستثناء
شبكة الجنوب . ومنذ السنة ١٨٥٣ ، وضع اللورد دالوزي تصميماً لشبكة هندية تكون خير
صلة بين بلدان وشعوب غير متلاحة وربما خير وسيلة لارساخ السيطرة البريطانية .

نبض الخط الحديدي بطاقة كبرى وكاد يتمخض بخلق الامم ، وكان بالإضافة الى ذلك
قادراً على اصدار احكام بالموت . فكان ممكناً ان يتسبب في الاضرار بالطريق المائية وحتى
ان يقضي على بعض التجارات (سيكون الخط المنشوري سبب زوال قوافل نقل الشاي التقليدية
بين بكين وسيبيريا) . ولكنه احيا المقايضات التي ادارها ، والمشاريع التي استخدمته ،
والمناطق التي اجتازها وانتهى اليها . وقد نقل بين ٤٠٠ و ٥٠٠ مليون مسافر وبين ٢٠٠
و ٣٠٠ مليون طن من البضائع حوالي السنة ١٨٥٠ ، و ٤ مليارات مسافر و ٥ مليارات في كل
من السنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

على الرغم من مقاومة يائسة ، كان على نقل البضائع بالمعجال ان
يتعرف بخسران قضيته حينما مر الخط الحديدي . فكانت
الضريبة قاسية للطريق البرية التي توجب عليها من ثم تحديد اطلعها
فلن تكون بعد اليوم سوى رافد الخط الحديدي وتكون سعيدة اذا ما اتصلت بمحطة القطار
الحديدي وحافظت على وظيفة توزيع ما ينقله القطار . كانت كافية للعربات والمشاة والدراجات .
ولكن اذا لم تتوفر المصلحة القديمة للنقل البري ، فعالباً ما لا يكون هنالك شيء البتة . اما
الطريق الزراعية فقد استفادت من النشاط التجاري الذي أنمت الخطوط الحديدية ، وتمحست .

واذا ما أبدت الطرق المائية بعض المقاومة في ظروف أفضل ملاءمة ، فمرد ذلك الى
انها كانت تتقاضى اجور نقل أقل ارتفاعاً بالنسبة للوزن . وما زال الجدل قائماً بين انصار كل من
طريقي النقل المذكورتين . اما الحقيقة فهي ان النقل المائي يتفوق اذا ما اعتمد معدات واجهزة

سباق الطرق البرية ودفاع
الطرق المائية

قديمة العهد . ففي انكلترا مثلاً اشترت شركات السكك الحديدية وسائل النقل المائي ، وفي فرنسا كانت الملاحة تتلشى في بعض الانهر كالـ « لوار » والـ « آلييه » ؛ ولكن الرأي الصام أقلقته قوة أسياذ الخط الحديدي ، ومنذ السنة ١٨٧٣ ، كرس أكثر من مليار فرنك لاعادة انشاء وتوسيع شبكة يكون مركزها في المناطق الصناعية الشالية والشرقية .

أحست المانيا بحماس حقيقي للفلاحة الداخلية . فاستخدمت ما استطاعت الى ذلك سبيلا الطرق الطبيعية الممتازة التي تؤدي الى بحر الشمال وتؤمن المواصلات بين مختلف مناطق رينانيا ، ولكنها نظمت كذلك تكوين برلين بالحمامات وجعلت منها مركزاً صناعياً من الدرجة الاولى . وكان الشريان الكبير الذي يشكله نهر الرين موضوع عناية يقضى : سدود في حوض « كولونيا » تقويم منمرجات ، وتنظيم مجرى في الوادي الضيق وما قبله من جهة الينبوع ، وحفر احواس بالغة الاتساع في المرافىء التي جارت المرافىء البحرية من حيث محمول السفن ؛ وانخفاض أجور النقل انخفاضاً جعل النهر ينظم ويحرك ويقلب تيارات مقايضة كبرى ، ويحتذب المؤسسات الصناعية ، ويسهم في ازدهار الـ « رور » وكافة المحاء المانيا الغربية ، ويتحكم برقمة واسعة تؤلف سويسرا جزءاً منها ، ولم تتجاهلها برين وحتى همبورغ ، وتنازعها كذلك المرافىء البلجيكية والهولندية . واذا كانت قناة « دورقوند » - « امس » غنية للأمال ، فقد ارتسمت الخطوط الكبرى لطريق نهريه كبرى تصل الغرب بالشرق .

ولم يكن تجييز الحوض الدانوبي اقل فتنه واغراء . ولكن انتاجية الاعمال كانت اقل شأنًا . فبعد أن توفقت معاهدة باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، الى تحرير النهر من كل عائق سياسي ، تنظم الامن فيه بوثيقة ملاحة وتولت الملكية النمساوية الهنغارية تنظيم تدفق مياهه ؛ وتحول الانتباه بعد ذلك الى محتق « الابواب الحديدية » وعجاز « سولينا » اللذين يفلقان المر الضيق العميق الماء الصالح للفلاحة : والسبب في هذا التحول مرده الى اهمية النهر المتعاطمة لتجارة الحبوب .

استمر التضاد بين روسيا والولايات المتحدة المتشابهتين من حيث اهمية شبكة النقل الطبيعية فيها . فقد فتحت روسيا قناة الـ « نيفا » وانجزت شبكة « ماري » التي كانت تكملة لطريق تبلغ ... ٤ كيلومتر بين بحر قزوين وبحر البلطيق . ولكنها لم تستخدم سوى ثلث انهارها ولم يتجاوز طول اقنيتها مجتمعة الـ ٨٠٠ كيلومتر ؛ يضاف الى ذلك ان نهر الـ « فولغا » الذي سار فيه اكبر عدد من السفن لم يتصل بالانهار الصابة في البحر الاسود . اما في اميركا ، فلم تعمق قناة « ايريه » القديمة تعميقاً مستمراً فحسب ، ولم تنظف مصاب الميسيسيبي فحسب ، بل اصبحت البحيرات الكبرى مجراً داخلياً حقيقياً تنشط فيه حركة نقل عظمى ايضاً .

وقد امننت السفينة البخارية ، في البرازيل بواسطة الامازون ، وفي الصين بواسطة الـ « يانغ تسي » ، توغل التجارة الى مناطق شاسعة شبه خالية من الطرقات والخطوط الحديدية بمساعدة رؤوس الاموال الأوروبية اجمالاً . كما انها سهلتها احياناً بالاشراك مع الخط الحديدي ، على النيل والكونغو و « البارانا » مثلاً .

على غرار عربية المسافرين التي هرفت ذروة اكتظاظها حين كان مقدراً لها أن
تغمر السفينة الشراعية تنعني امام القطار الحديدي ، كذلك بلغت السفينة الشراعية أوج عزها
وتفوق السفينة البخارية حين أخذت السفينة البخارية تقصصها هن البحار .

ان السفينة الشراعية السريعة الحركة ، المدة للأسفار البحرية الطويلة ، قد لعبت دوراً لامعاً
حتى أواخر القرن . فان السفينة البخارية المزودة بالمروحة لم تتفوق عليها سرعة إلا حوالي السنة
١٨٨٠ ، وللسرعة غمها على كل حال . ولذلك استمرت الملاحة الشراعية ، في طرقات صكيرة ،
لنقل المشحونات الثقيلة . فالبناء المعدني قد ساعد على إطالة هياكل السفن : فانتجت بين السنة
١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ السفن الطويلة الكبرى المزودة باربعة وحتى بخمسة صوار ، التي جابت البحار
الواسعة في نصف الكرة الشمالي ، وشحنت النكل من كاليدونيا الجديدة وقنب مانيللا وقصدت
ال « شيلي » والشاطئ الغربي من الولايات المتحدة . ودافعت بعناد وشجاعة عن سميتها . ولكنها
غالباً ما واجهت الصعوبات بين الاطلسي والباسيفيكي حول رأس « هورن » - الرأس الوعر -
بينما توقفت منافستها في مضيق « مجلان » . وهو فتح ترعة السويس بصورة خاصة ما كالمها
ضربة قاسية (فالقناة اضيق من أن تساعد على السير بينة ويسرى ، والأرياح نادرة في البحر
الاحمر) . واخيراً ازداد الامان بواسطة السفينة البخارية وكان التأمين على الأشرعة مرقعاً . ففي
السنة ١٩١٣ بلغ محمول ٢٣ ٠٠٠ سفينة بخارية ٢٦ ٥٠٠ ٠٠٠ طن ومحمول ٦٦٠٠ سفينة شراعية
٣ ٩٠٠ ٠٠٠ طن ، فكتبت صحيفه ال « تايمس » بحزن : « ان غياب السفن الشراعية يولد فينا
التأثير الذي يولده غياب صديق قديم » .

قال « وليم مورس » عن السفينة البخارية « أنها كاتدرائية العصر الصناعي » ، وقد اثار
حماس روسكين نفسه : فان هذا الأخير يحمده الله الذي أتاح له رؤية الباخرة التجارية الكبرى
التي هي اشرف ما انتجه الانسان ، ذاك الحيوان العائش في جماعة . فقد تعاطف قوامها واتضحت
خطوطها الخاصة التي لا تخلو من الأناقة .

في السنة ١٨٥٢ انزلت الى البحر السفينة الأولى المعدة لنقل الفحم ، « جون بور » ، وهي
سفينة بخارية مزودة بمجالات . فتمددت من ثم مستودعات الوقود على الطرقات البحرية . ومن
جهة ثانية اتاحت موانئ التموين بالمحروقات تموين مسخن البخار بالمياه العذبة لأن مياه البحر قد
تتاكله . فقام آل بورن مؤسسو « شركة الملاحة البخارية في شبه الجزيرة والشرق » ينشئون
مستودعات الفحم وخزانات المياه واحواض إصلاح السفن في السويس وعدن وبومباي وكلكتوتا .
وحوالي السنة ١٨٧٠ استخدم المحتر الذي وفر الماء ، والآلة المركبة التي وفرت الفحم . زد على
ذلك أن هذه الآلة قد زادت من السرعة ايضاً .

للكارديف يعود الفضل في قوة الاسطول البريطاني ، وللهيكل المعدني كذلك . والسبب في
ذلك أن المروحة لا تلائم إلا هذا الهيكل . وقد اعتمدها آل بورن في السنة ١٨٥١ في السفينة
حملايا التي عين لها السير على خط مدينة الكاب ؛ ولكن استعاضتهم عن الخشب بالحديد استهدفت

كذلك تجنب المفونة والاهتراء وتعرض الخشب للنمل الابيض في مياه المناطق الحارة ؛ وبالمقابلة احتفظوا بالمعجلة في المتوسط الذي تفتقر موانئه الى احواض لاصلاح السفن . وكانت شركة « كونا » قد انزلت الى البحر سفنها الخشبية الاربع المزودة بمجلات ذات لوحات ؛ وفي السنة ١٨٥٤ كان في حوزتها سفينة حديدية « برسيا » ، التي كانت تستهلك ١٥٠ طناً من الفحم الحجري في اليوم وتعبّر الاطلسي في تسعة أيام بدلاً من اربعة عشر بفضل آلاتها المزودة برقاص جانبي ؛ وفي السنة ١٨٦٢ كسبت اربعاً وعشرين ساعة بفضل المروحة ، ولكن جهازاً من الجبال والمحال احتفظ به فيها لمساعدة الآلات عند الحاجة . أما البارجة نابوليون ، من الاسطول الحربي الفرنسي ، وقد بنيت وفقاً لتصاميم « ديبوي دي لوم » ، فقد بلغت سرعتها ١٣ عقدة في السنة ١٨٥٣ . وبهذه السرعة عبرت سفينتا النقل « بيرير » و « مدينة باريس » الاطلسي في تسعة أيام . وجهزت السفينة بمزيد من وسائل الراحة : فان مالك السفن « داسنهي » ، الذي اسس شركة الملاحة البخارية البحرية ، قد زود السفينة « اوسيانيك » بغرف ودهات بنيت في الوسط لا في المقدمة ، وبقاعة للطعام تمتد على طول السفينة ؛ وفي السنة ١٨٦١ ظهرت السرعة الخفيفة التي غطت الشرطة الرئيسية لايواء المسافرين .

حين استخدم الفولاذ بدلاً من الحديد ، اجازت متانة الهيكل وصلابتها قياسات كبرى وسرعة متزايدة . وقد استحدثت حيازيم جانبية عززت ركانة السفينة . وأعطى مسخن البخار والآلات المحركة ، بفضل المروحة المزدوجة ، طاقة فاعلة كبرى ، بينما تدنى استهلاك الوقود نسبياً . فانتقل معدل محمول السفن في السويس من ٧٦٦ طناً في السنة ١٨٧٠ الى ٢٠٠٣ في السنة ١٨٩٠ و ٢٨٣٣ في السنة ١٩٠٠ . وبلغت السرعة القصوى ١٨ عقدة في السنة ١٨٨٠ و ٢٥ في السنة ١٩٠٥ . فقامت المنافسة من أجل « الشريط الازرق » بين الشركتين البريطانيتين « كونا » و « النجم الابيض » ، وبين شركة « الخطوط البحرية بين همبورغ واميركا » . فدفعتم الى انزال سفن الى البحر تتميز بمزيد من الحجم والسرعة (فان قوة آلة السفينة « بريطانية » كانت ٥٠٠ حصان بخاري في السنة ١٨٤٠ ، بينما بلغت قوة آلة « الامبراطور » ٦٨٠٠٠)

دفع من ثم بصناعة بناء السفن الى الامام . وقد صنعت المعامل البريطانية وحدها ثلاثة ارباع البواخر بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٥ ، ثم خمسيها فيما بعد .

انخفضت اسعار الشحن . فان كلفة نقل مد القمح الاميركي الى انكلترا ، التي كانت ٦٠ سنتيماً في السنة ١٨٦٠ ، قد هبطت الى ١٥ سنتيماً في السنة ١٨٨٠ والى ٥ في السنة ١٩١٠ . ولم يتسم السفر في ظروف فضلى فحسب ، بل نقلت البضائع بسعر متدن ايضاً . فوحد البحر العالم أكثر من أي وقت مضى .

أوجدت السفينة المرفأ ، فجددته وأحيته الاساطيل البحرية . ووصل المرافئ البحرية الكبرى الخط الحديدي كذلك بين المرافئ وبين بحر وآخر ، فتقاربت بذلك أوجه الاوقيانوسات المتقابلة أو المتدايرة . فلمبت أوروبا أكثر فأكثر دور برزخ حقيقي لا

بل دور برازخ عدة بين الاطلسي والمتوسط ، واميركا الشالية دور الجسر بين الاطلسي والباسيفيكي .

استندت حياة المرفأ بالامس الى كل ما من شأنه الاجتذاب اليه . وغالباً ما استخدم للحرب والنشاطات الاقتصادية معاً . فان « لو هافر » قد بقيت مرفأ عسكرياً حتى السنة ١٨٢٤ . وفي برست و شربورغ ، كانت الوظيفة العسكرية متاراً للوظيفة التجارية . إلا أن التخصيص لم يعد شيئاً نادراً . فمرفأ صيد السمك هو لعمري من المجازات القرن التاسع عشر . و كارديف مدينة بنوها للفحم الحجري ولبواخر نقله ، وقد قدر بعضهم أن نسبة ارتفاع عدد سكانها كانت ١٠٠٠٠ نفس لكل مليون طن تصدرها الى الخارج ؛ وفرت لها لندن وبريستول وليفربول المواد الغذائية ، وبلغت دائرة عملها شانغاي نفسها . وانشئ في اقرب النقاط الى البحار العميقة مرفأ السرعة الذي ترسو فيه السفن فترة قصيرة . وفي أمكنة أخرى أخذت الوظيفة الاقليمية يعين الاعتبار . أما الوظيفة الدولية ، وهي اوسع نطاقاً ، فقد تجزأت بفعل توسع الشبكات الحديدية والنهرية : فتنازعت انفرس وروتردام وامستردام المناطق القائمة ما وراء رينانيا التي تازعتها اياها برين و همبورغ ، بينما تراجحت جنوى ومرسيليا على مداخل أوروبا الآلية . وأما لندن التي كادت تحتكر اعادة التوزيع فقد تفهقرت نسبياً ، ولكن نيويورك مدينة لاعادة التوزيع هذه بثروة طائلة جداً . وعلى الطرقات البحرية الكبرى ازدهرت المرافئ المجهزة خير تجهيز كالكلاب وبومباي وسنغافورة وهونغ كونغ .

إلا أن السفن المتعاطلة قوة والمتكاثرة عدداً استلزمت احواضاً أكثر عمقا واتساعاً . فالمطلوب تأمينه هو الدخول والخروج والتحميل والتفريغ في أقصر وقت ممكن . وبرز من ثم مثالان ، يشكل أولهما غزو اليابسة للبحر بواسطة سدود مبنية وأرصفت تمزل الاحواض المقطعة بمحاذاة الشاطئ ؛ وهذا المثال غير نادر في المتوسط : فعين لم يعد جون مرسيليا الطبيعي ليكفيها ، تقدمت نحو الشمال الغربي حيث بنت حوض « لاجوليات » ، ثم الحوض الامبراطوري أو الوطني ، ثم حوض « لاينيد » وحوض « مدراغ » . أما المثال الثاني فيقوم بالحفر في اليابسة عند مصاب الانهر الواسعة ، كما في لندن وليفربول وانفرس و همبورغ ونيويورك . وبغية تجنب معاذير الارساء قرب الارصفة في النهر ، جهزت لندن احواضاً واسعة جداً في نهر التاميس لتعويم البواخر . ولما كانت البرك وراء السدود قد اتسعت ، فقد امتدت انفرس الى ٩٠ هكتاراً منها . ثم ووجهت مسألة المداخل ، المقضة بالنسبة لروتردام ، ضحية تراكم الرمل في الممرات الضيقة القائمة على الانهار الرينانية : وهذا ما حل « شور » على تولي عمل جبار يحفره الرمل من أحد هذه الممرات على طول ٣٣ كيلومتراً وعمق ٩ امتار تحت مستوى البحر اثناء مداه . وانشئت اجهزة قوية من جسور قابلة التدوير ، وعططات لربط السفن بالقلوس ، وآلات لرفع الاثقال ، ومستودعات في الاماكن المردومة بالاتربة وفي الملاجئ البحرية للسفن . وجلي أن كل ذلك قد فرض تقنية متقدمة جداً .

لو نظرنا إلى شكل القارات لرأينا أن الاطلسي يؤلف اداة اتصال كبرى
 فتح الترع: السريس وباناما بين نصفي الكرة الارضية ، وان العالم الجديد يشكل حاجزاً يحول دون
 الملاحة حول الارض ، وان افريقيا تشكل كتلة مماثلة تحول دون المرور من الغرب الى الشرق
 بين الاطلسي والمحيط الهندي . ولكن الكتلتين البريتين الرئيسيتين قبدوان وكأنها تتلاشيان في
 وسطهما . فان البحار المتوسطة تحترقها ولا تبقى منها في هذه النقطة سوى برازخ ضيقة ما كانت
 لتتحول ، الا بنوع من السخرية ، دون الملاحة حول الارض عند خطوط العرض الوسطى .

كان مقدراً لفكرة إيجاد طريق مائية بين المتوسط وبحر الهند أن ترى النور في الدرجة
 الاولى . لقد رأت النور منذ القرن الثاني عشر مشاريع كثيرة استهدفت فتح هذا « البوسفور
 الجديد » ، كانت ستوقف السانسيمونيين وتستهيوي محمد علي : فتأسست فكرة مهمتها اعداد
 الدروس لفتح قناة ، اشترك فيها « انفانتين » و « ارليس - ديفور » و « بولين قالاو » مع
 ستيفنسون الابن ، بعد ان ثبت لهم ان مستوى المياه في المتوسط لا يختلف عنه في البحر الاحمر .
 إلا ان احد محاذير المشروع كان انه يخدم النفوذ الفرنسي في نظر المسؤولين البريطانيين الذين
 صرفتهم مصالح كبرى ، من جهة ثانية ، عن ان يمدوا له يد المساعدة . فما زالت الطريق المألوفة
 هي طريق الكاب ، كما ان نقل البريد والمسافرين ، الذي يرتدي طابع السرعة ، ما زالت تؤمنه ،
 منذ ١٨٣٩ - ٤٠ ، مصلحة « البريد عبر اليابسة » التي كانت تستخدم السفينة في المتوسط حتى
 الاسكندرية ، ثم بين السويس وبومباي ، بعد اجتياز مصر بطريق النيل وبطريق برية . أجل
 كان الانتقال يستغرق عشر ساعات من الاسكندرية إلى رشيد ، وستة عشر ساعة من رشيد الى
 القاهرة ، وغمانية عشر ساعة من القاهرة الى السويس ، يضاف اليها الوقت الذي يُضاع في المحطات
 بين مرحلة وأخرى ، مما يرفع مجموع الساعات الى ٨٠ أو ٨٥ . فكان يقتضي شهر لقطع المسافة
 بين مرسيليا وبومباي ، في حال ان السفر بين لندن والهند ، عن طريق الكاب ، كان يستغرق
 ثلاثة اشهر . ولكن قناة النيل قد حسنت ، ومرفأ السويس قد جهز تجهيزاً حسناً ، والقاهرة قد
 شيد فيها فندق توفرت فيه وسائل الراحة بما فيها حوض للسباحة ، وجُند الوف الجلال والجلالين
 لعبور الصحراء . اما مكان يكفي لذلك خط حديدي ، بني بين السنة ١٨٥٥ والسنة ١٨٥٩
 على كل حال ؟

في هذه الاثناء كان « فردينان دي لسبس » ، القنصل السابق في الاسكندرية ، والمشدد
 بصلة القربى الى الامبراطورة « اوجيني » وبصلة الصداقة الى الامير محمد سعيد ، ابن محمد علي ،
 يتقدم سواء في تنفيذ المشروع ، او على آراء السانسيمونيين ، وتميز بطبع متكبر ، وكان فارساً
 ماهراً ، فتوصل الى اقناع سعيد باصدار فرمان يمنح الامتياز بموجبه لمصلحة شركة عالمية قدم
 لها المهندس النمساوي ، « نغري » ، مشروع قناة دون سدود ، واخذ على عاتقه الجواز المشروع
 بـ ١٦٠ مليوناً ، وتجول في اوروبا لجمع الاموال اللازمة ، واستحصل من صندوق التوفير الفرنسي
 على اكتاب بـ ٢٠٧ ٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠ ٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك وتحتل منها عن

٨٥٠٠٠ سهم للخديوي الذي اصدر امرا بمصادرة ٢٠٠٠٠ فلاح . فشرح في فتح الثرعة في شهر نيسان من السنة ١٨٥٩ .

ولكن عشر سنوات قد انقضت دون ان تحول اليها المياه . فقد قامت صعوبات سياسية : اعترضت انكلترا لان الفرمان لم يمرض على موافقة الباب العالي؛ وحين توفي سعيد في السنة ١٨٦٣ ، وجب مراعاة جانب نوبار ، وزير خارجية خلفه المارد ، اسماهيل . وكان هناك مسألة اليد العاملة المقتضة ، التي استفلها خصوم القناة : فقد بلغ من الاحتجاج على التسخير ان الشركة ارغمت على استخدام عمال احرار براى نابليون الثالث نفسه الذي احتكم اليه في هذا الموضوع؛ اما العمال البالغ عددهم ١٥٠٠٠ ، فقد جاؤوا من المحاء حوض المتوسط المختلفة ، ولكنهم تقاضوا اجوراً مرتفعة ورفضوا جبل الطين بأيديهم : فارغم ذلك على الاجواء الى الآلات ، ولا سيما بحار الرمل البخارية ، بعد ان ضحي عبثاً بالعديد من العمال . وحين تحققت الغلبة على العائق التلقني الرئيسي ، واعني به سحي الوحول السوداء اللون ، قام عائق جديد هو انتشار الهواء الاصفر والتيفوس . اجل لقد تبدل الرأي العام الانكليزي شيئاً فشيئاً في هذه الاثناء بعد ان ادركت الاوساط المنشترية الفائدة التي ستجنيها التجارة من هذا النجاح . ولكن ما زال هناك الشاغل المالي ، لان الاكلاف قد تجاوزت التقديرات الى حد بعيد : وقد فشل الاكتتاب بموجب سندات في السنة ١٨٦٨ ، لاسباب مختلفة منها حلة قامت بها الصحافة البريطانية ، ولكن الهيئة التشريعية انتقدت الموقف باقرار اصدار بشكل انصب . واخيراً احتفل في السنة ١٨٦٩ بايصال البحرين بمشهد شرقي فائق : اذ رافقت السفن الذاهبة من بورسعيد الى السويس ، مروراً بالاساعيلية ، الانوار التزيينية والموسيقى والرقصات الشعبية .

ان القناة البالغة ١٦٣ كيلومتراً طولا و ٢٢ متراً عرضاً و ٨ امتار عمقاً قد فرضت قيادة السفن بحذر وبسرعة محدودة (يتم التلاقي في « المحطات » ويستغرق عبور الثرعة ثلاثة ايام) . ولكنها استفادت من وجود السفينة التجارية ومن اتساع حركة المايعضات بين اوربا وارضى الشرق ، مشجعة بدورها هذا الطراز من السفن ومساهمة اسهاماً قوياً في الانطلاقة التجارية الممنية . وبدا بين ليلة وضحاها وكان العالم القديم كله قد اقترب من اوربا الغربية ، وكانت نيويورك نفسها قد اقتربت من المحيط الهندي . فان « جول سيفريد » قد امضى ستة وعشرين يوماً في السنة ١٨٦٢ للانتقال من مرسيليا الى بومباي ، وفي السنة ١٨٧٢ ، لم يمض « فيلياس فوغ » الا في من لندن سوى ثمانية عشر يوماً ابلوغ المرفأ الهندي . وتدنن اجور النقل الى ربمها بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٨٠ . الا ان السنوات الاولى كانت صعبة مالياً لان محمول السفن المارة في القناة لن يبلغ الارقام التي قدرها « لسبس » المتفائل الا في السنة ١٨٨٨ . وحين تقوت الشركة بفعل الوجود البريطاني في مصر والاتفاقية الدولية المعقودة في الاستانة ، اخذت توزع ربايح مغرية وقررت توسيع وتعميق القناة وتجهيزها بالانارة الكهربائية . فكان ان سهم ال ٥٠٠ فربك الذي ستر ب ١٦٣ في السنة ١٨٧١ ، قد ارتفع الى ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ . وجملة القول

ان القناة ربما كانت « اعظم انجازات القرن » .

انتظر الرأسماليون نجاح قناة السويس للاهتمام بالبرازخ الاخرى . فان قناة كورنثوس ، التي فكر بها نيرون ، قد تحققت بين السنة ١٨٨٣ والسنة ١٨٩٣ ؛ وحقت المانيا في السنة ١٨٩٥ الاتصال بين البلطيق وبحر الشمال بواسطة قناة « كيال » ، التي ستكون مشروعاً خاسراً على كل حال ؛ وفكر بعضهم بحفر ترعة « كرا » ، ودرست بعض اللجان مشروع قناة بين الاطلسي والمتوسط . ولكن المفامرة الكبرى كانت مفامرة باناما .

ان فتح قناة في هذه الجهات كان ، والحق يقال ، اقل إفادة لاوروبا منه للاميركيين . فبالنسبة لمصر : فتنة المكان ، مفترق اجزاء العالم الثلاثة ، والضرورتان المتوسطية والآسيوية ؛ اما هنا فطبيعة تسيطر عليها امطار غزيرة ، واحراج واسعة وغابات متلبدة ، ومنطقة غير آهلة ، على شواطئ يحيط لا يسلك بعد الا نادراً . وعلى الرغم من ذلك فسحر المشروع كان أخذاً ، لا سيما وان البرزخ يضيق بإطراد بين تهوانتبيك (١٩٧ كيلومتراً) حتى باناما (٧٠ كيلومتراً) . فالقرن السادس عشر قد استرسل في خياله في صدد مثل هذا المشروع ؛ وهبولدت فكر به في السنة ١٨٠٨ . وحين افتتح بوليفار مؤتمر باناما في السنة ١٨٢٦ اقترح غوته بدوره فتح القناة ، ونادى كلاي بعمل جماعي . جاءت السنة ١٨٥٠ : حين سمع الناس صوت نداء الذهب الكاليفورني . فعمدت الولايات المتحدة اتفاقاً مع كولومبيا بغية اعلان حياد البرزخ في اضيق نقاطه ؛ ولما كانت انكلترا تحتل بلير وشاطئ الاداموسكتو ، وتسلم باهمية جون فرنسيكا ، عقد الاميركيون معها معاهدة تتم عن حذر متبادل بمنعها كل تحصين في تلك الجهات ، ثم حققوا ، على الرغم من تفشي الملاريا ، مشروع خط حديدي بين كولون وباناما . اما في الواقع فقد ارادوا كسب الوقت وآثروا العمل بمفردهم .

في السنة ١٨٦٩ فتحت ترعة السويس للسفن واجتاز اول قطار « الجبال الصخرية » . وعلى الرغم من العودة الى مشاريع فتح القناة ، اما على تهوانتبيك ، واما على نيكاراغوا ، فلا شيء يدعو بعد للاسراع في العمل . فان المصالح البحرية ومصالح الخطوط الحديدية قد تضافرت للحيلولة دون تنفيذ مشروع اجمع الرأي على اعتباره محفوفاً بالاعطال . فهل تركب اوروبا الخطر يا ترى ؟ اما اميركا فقد وقفت مرة اخرى موقف التريث والتبصر والصخرة . فأوصت بعثة « وايز - ركلو » (١٨٧٦ - ٧٨) بباناما ؛ ثم حصل « وايز » على الامتياز في بوغوتا ؛ ثم انعقد المؤتمر الاول للدروس الذي رفض اقتراح ايغل حفر قناة ذات سدود ووافق على اقتراح لسبس حفر ترعة عميقة يكون مستوى مياهها موازياً لمستوى مياه المحيطين ؛ ثم وضع مشروع تقديري بالاكلاف التي بلغت ١١٧٤ مليوناً ؛ ثم اسس لسبس الشركة العالمية للقناة ما بين المحيطين ، التي احاطت الشروع في العمل بيزيد من الدعوة ، على الرغم من انها لم تجمع سوى ٣٠ مليوناً ، بدلا من ٤٠٠ ، عن طريق الاكتتاب ، واصطدمت ببنائ قاس قتال وبفيضانات النهر المتكررة وانهايارات جانبي الترعة . فانهت مشروع هذه القناة الى الفشل وانقضت الشركة في السنة

١٨٨٩ بعد ان لجأت الى الرشوة لحل البرلمان الفرنسي على منحها قرضاً مقابل اسهم ودون ان تتمكن من حفر قناة ذات سدود . وبعد هذه الفضيحة السياسية والبرلمانية والمالية والمصرفية مما لقي انتتت بالحقكم على لسبس وابنه وايفل ، مست الحاجة الى قيام شركة بديلة اخرى . فمرفت اوروبا بذلك فشلا ستستغله اميركا .

سبق لـ « غرانت » ان اعلن بان ما يلزم الولايات المتحدة هو « قناة اميركية بمال اميركي » في ارض اميركية . فاستمرت المناقشة مع انكلترا في نيكاراغوا ، وفي السنة ١٩٠٧ ، سوف يلسأ خط حديدي في هوانتيبيك . اما في الواقع فهي باناما ما يترصد الاتحاد . فقد استفاد من النزاع الجنوبي الافريقي لاتقاء مطالبة بريطانيا ؛ فأعلنت المعاهدة الموقعة لهذا الغرض حياد القناة قبل حفرها ومنحت الملزم ، في الوقت نفسه ، حق تحصينها واقفالها في حالة الحرب . وبات بمقدوره من ثم ارغام كولومبيا على الاعتراف بدولة باناما التي تخلت عن كل ما يحتاج اليه بناء الترة وحمايتها . وبينما تولى الزعيم غوتهاز ، الاختصاصي في بناء السدود ، ادارة المشروع الفنية ، قضت الحملة التي تولاما روس على البعوض الذي ينقل الهواء الاصفر والمalaria ؛ ثم زود بالمعدات ٤٥٠٠٠ عامل (من بينهم ٣٠٠٠ زنجي) استهوتهم الاجور المرتفعة ، ففتحو الممر المائي الذي سيدشن في ١٥ آب من السنة ١٩١٤ . وقد بلغ ما انفقه الاميركيون على هذا المشروع ١١١٥ مليوناً بعد ان كرس له الفرنسيون ١٢٧٤ مليوناً .

كانت باناما فكرة طلع بها القرن التاسع عشر ، وهي ستسهل في القرن العشرين ارتقاء اميركا يجعلها الباسفيكي والشرق الاقصى اقرب الى نيويورك منها الى لندن .

بعد السنة ١٨٥٠ نما نقل البريد نمواً فجائياً . فان معدل الرسائل في المانيا الاتصال البعيد مثلاً كان ١,٥ للشخص الواحد في السنة ١٨٤٠ ، و١٢,١ في السنة ١٨٧١ ، و٥٨,٦ في السنة ١٩٠٠ . وقد بيع في الولايات المتحدة مليون ونصف المليون من الطوايح البريدية في السنة ١٨٥٠ ، و٣٩٩٨ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

وما يثبت كذلك توسع الشبكة التلفرافية المعتمدة رموز « مورس » ، التمديدات التي بلغت ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الشريط حق السنة ١٨٥٨ ، والتي ستبلغ ستة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وقد ارسلت في اوروبا ٩ ملايين برقية في السنة ١٨٥٨ و ٣٣٤ مليوناً في السنة ١٩٠٨ (منها ٧٠ مليوناً الى الولايات المتحدة) . ومنذ السنة ١٨٦٠ اتاح جهاز هوغ الاكتفاء بثثة واحدة للحرف الواحد وطبع الحرف مباشرة ؛ وخطر لـ « هويستون » ان يطبق على جهاز مورس طريقة احكام جهاز نول « جاكار » بشكل دائرة الساعة ؛ وبفضل « الطريقة الازدواجية » التي انتتت اليها دراسات « ستيرنز » ارسلت في الوقت نفسه برقيتان في اتجاهين معكوسين ؛ ثم وصلت آلة « ماير » الباعثة عدة اجهزة بخط واحد واتاحت طريقة « بودو » الرباعية بث ٧٠٠ كلمة في الساعة

بدلاً من ٢٠٠٠ بواسطة جهاز هونغ ، وهو عديد سيرتفع الى ٢٠٠٠٠ بفضل البث على تيارات مختلفة القوة .

استهوى الابرار الدول المفتقرة الى الطرقات والخطوط الحديدية . فان ايلاف الاعمدة الخشبية ومد الخطوط اسهل من توطيد عوارض السكة الحديدية بالقطع الحجرية . ولذلك كان لبلاد ايران في السنة ١٩٠٥ ، ٩٦٠٠ كيلومتر من خطوط التلغراف مقابل ١٣ كيلومتراً من الخطوط الحديدية ، و لبلاد الصين ٣٥٠٠٠ مقابل ٥٥٠٠ .

ولم يقف البحر حاجزاً في سبيل الخط التلغرافي . فنذال سنة ١٨٤٥ ، وبفضل صنع المطاط ، غط الاميركيون حبلاً سلكياً تحت نهر الهودسن . ولكن السنة الجامعة كانت سنة ١٨٥١ . فقد ساعد المهندس كرامبتون موطنه «جاكوب برايت» على تحقيق الاتصال بين دوفر وكاليه . وفي السنة ١٨٥٣ غط الحبل السلكي تحت قناة الشمال من جهة وتحت بحر الشمال من جهة اخرى . ثم حاول جون «ووكنز برايت» اقامة خط تحت البحر المتوسط ، بين الشاطئ البروفنسي وكورسيكا وسردينيا اولاً ، ثم بين هذه الاخيرة والجزائر . واثاء حرب القرم انشئ خط تحت البحر بين فارنا و بالاكلافا .

تكون آنذاك مشروع اتصال عبر الاطلسي . فأسس الاميركي « سيروس - وست فيلد » شركة اسندت الى مؤسسة « غلاس واليوت » في لندن صنع حبل سلكي يبلغ ٣٦٥٠ كيلومتراً طولاً بغية ربط جون فالنتيا وترينتي - باي على شاطئ الارض الجديدة . الا ان العملية لم تتكامل بالنجاح بعد ثلاث محاولات فاشلة ، الا في ١٢ آب ١٨٥٨ . وفي ١٦ منه وجهت الملكة فكتوريا رسالة الى الرئيس بيوكانا : فاستغرق نقل بعض الكلمات ١٧ ساعة و ٤ دقيقة ، ولم يرد الجواب الا في ١٨ منه . زد على ذلك ان الحبل قد انقطع ، فبردت المهمة فترة من الزمن . ولم يتحقق المشروع اخيراً ، بعد شتى الصعوبات ، الا باستخدام حبل سلكي اعظم متانة يبلغ وزنه ... ٢٤ طن ، من انتاج معمل هنلي في وولويتش . ثم انشئت شبكة عالمية بلغت ١٢٥٠٠٠ كيلومتر طولاً في السنة ١٨٩٠ ، و ٥٠٠٠٠ في السنة ١٩١٤ ، تسيطر عليها لندن القادرة وحدها على الاتصال مباشرة بمعظم بلدان الارض (مراكز ٢٢ شركة من اصل ثلاثين تقريباً موجودة في الشارع نفسه) . فبدأ ما كتبه « ادمون ابو » في السنة ١٨٦٤ دون الواقع الى حد بعيد : « لا يقتضي في ايماننا اكثر من شهر حتى تدور الفكرة دورة كاملة حول الارض » . وحين احتفل بيوبيل « وليم طومسون » (اللورد « كلفن ») في غلاسكو في السنة ١٨٩٦ ، بعث اليه ببرقية عن طريق الارض الجديدة وسان فرنسكو وواشنطن اجيب عليها خلال سبع دقائق .

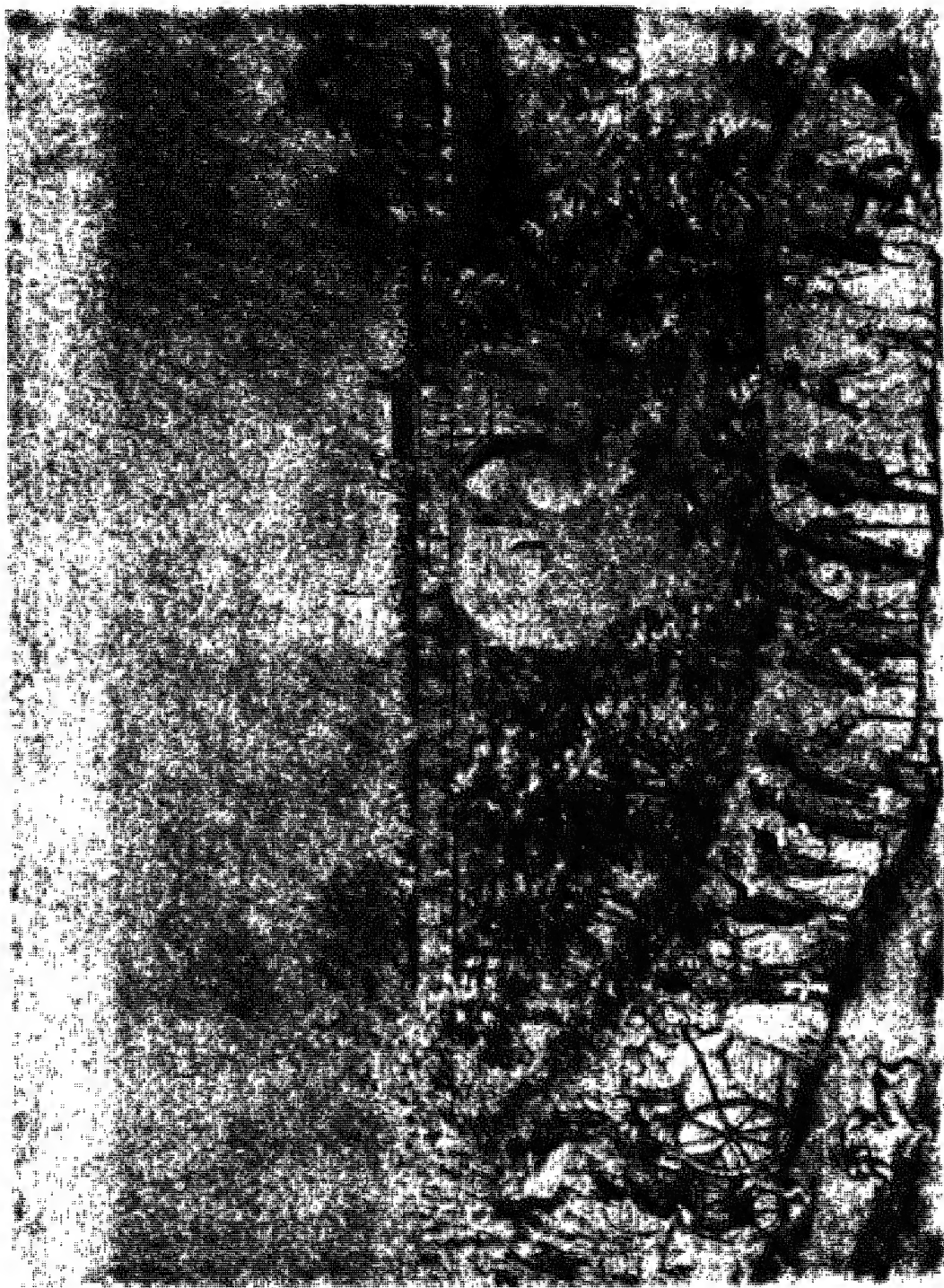
ولكن الكهرباء اثبتت قدرتها على نقل الصوت ، اي الكلمة . فأبصر الهاتف النور ، بعد ابداع طويل الابد ، في السنة ١٨٧٦ ، بفضل العالمين الاميركيين « اليشع غراي » و « غراهام بل » .

فحقق هذا الأخير الاتصال الاول على مسافة ٣ كيلومترات . وكان الاختراع مرتبطاً الى قدرة الكهرباء على ان تنقل الى مسافات بعيدة الارتمجاجات التي تسجل على صفيحة رثانة ويغاد تسجيلها على لوحة اخرى عندما تبلغها الارتمجاجات المنقولة . وقد اصبحت الطريقة عملية بفضل الميكروفون الذي ابتكره هوغ وبفضل الملف المغناطيسي الذي ابتكره اديسون والذي يوسع الارتمجاجات . فافتتح المكتب الاول في نيوهافن في السنة ١٨٧٨ والثاني في باريس في السنة ١٨٧٩ . قبلت الاجهزة ، في السنة ١٩١٠ ، اثني عشر مليوناً في العالم ، منها ثمانية ملايين في اميركا الشمالية ، وثلاثة في اوروبا . وقد اعلن ولیم طومسون آنذاك : « عجيبة المجائب » .

ولم يكن اقل إثارة للعجب الحاكي الذي يسجل الصوت والذي توصل « شارل كرو » الى اكتشاف مبادئه واديسون الى تحقيقه في السنة ١٨٧٨ ، سنة مؤتمر برلين .



١- عجلة للمسافرين تصل إلى المحطة .



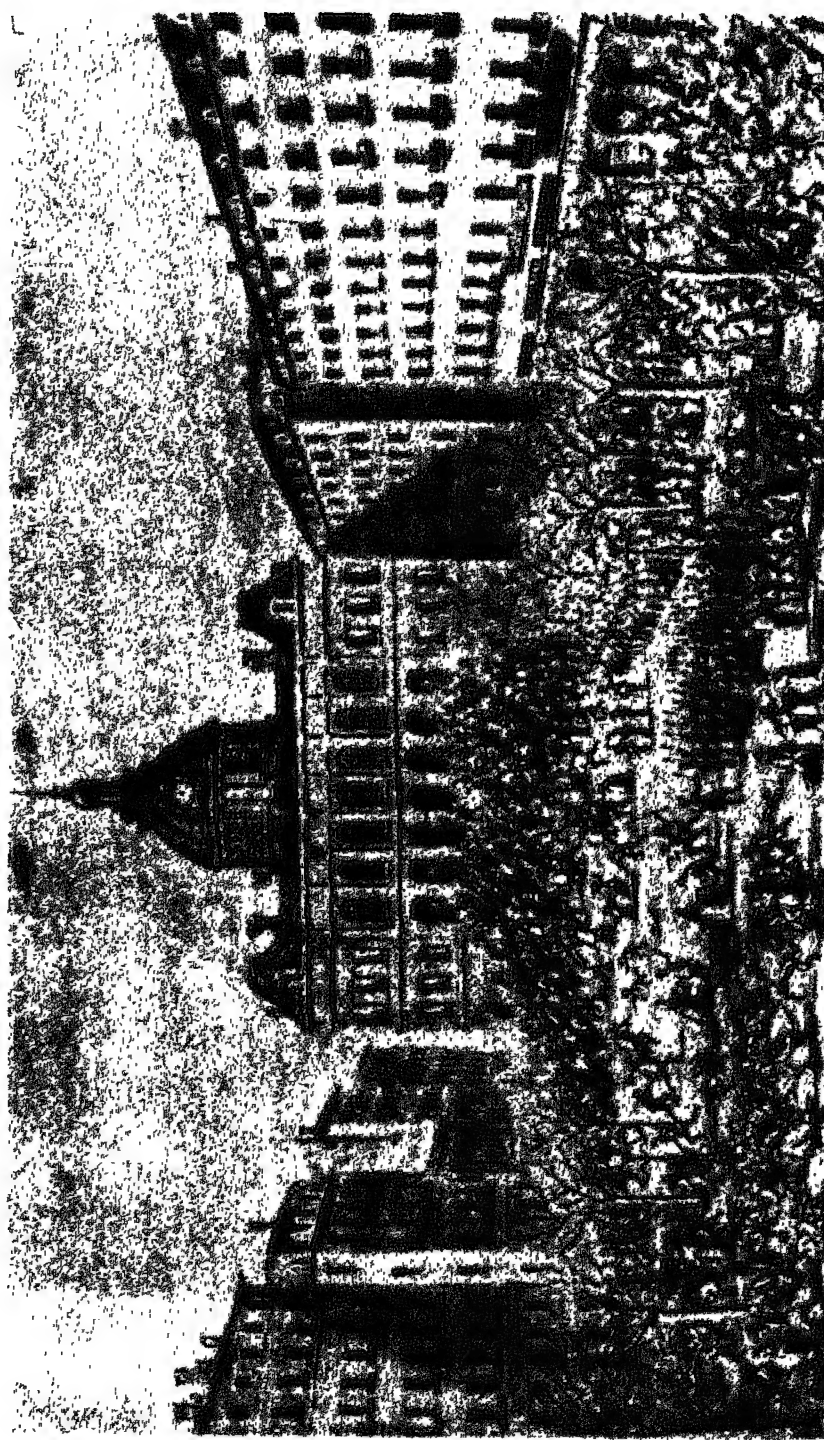
٢ - نقل المسافرين بواسطة البخار للمرة الاولى .



٣ - تجرية الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .



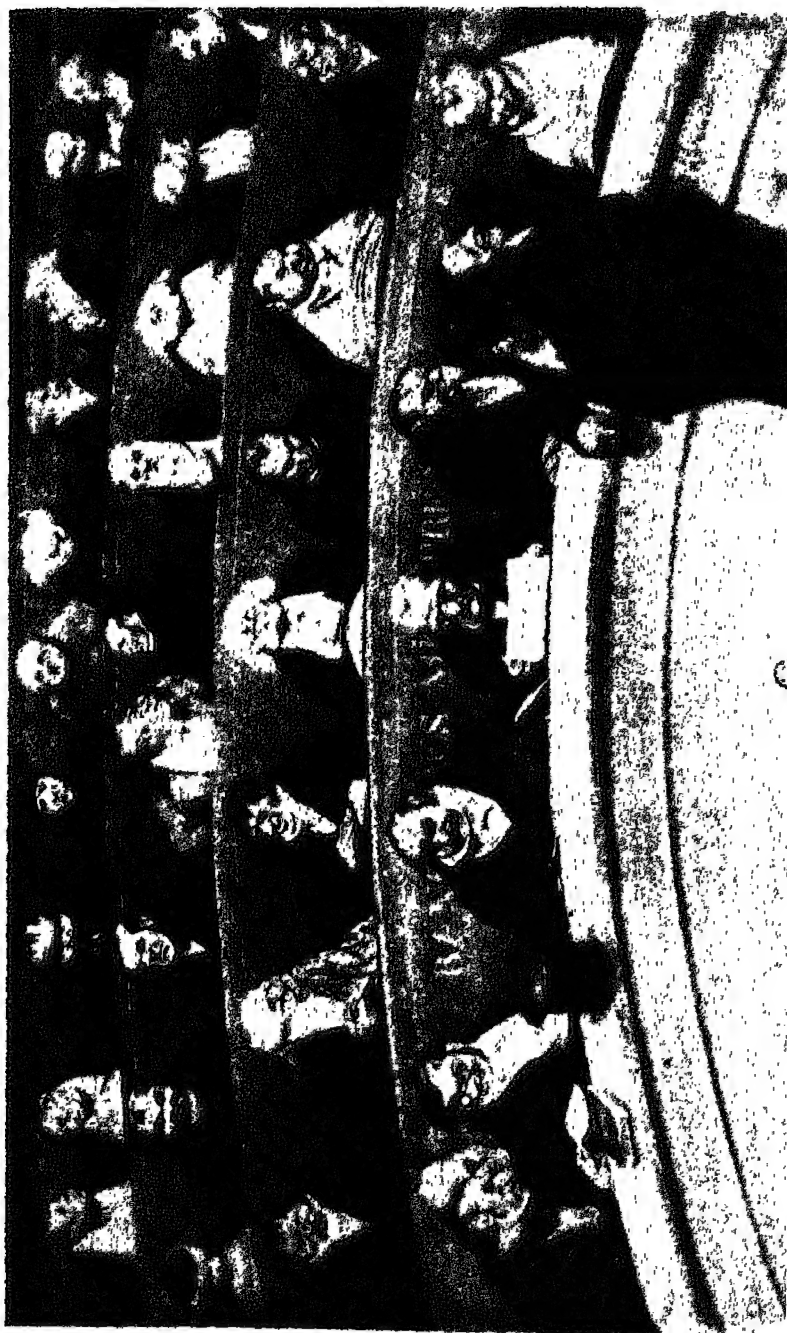
٤ - الحرية ترشد الشعب (٢٨ تموز ١٨٣٠) .



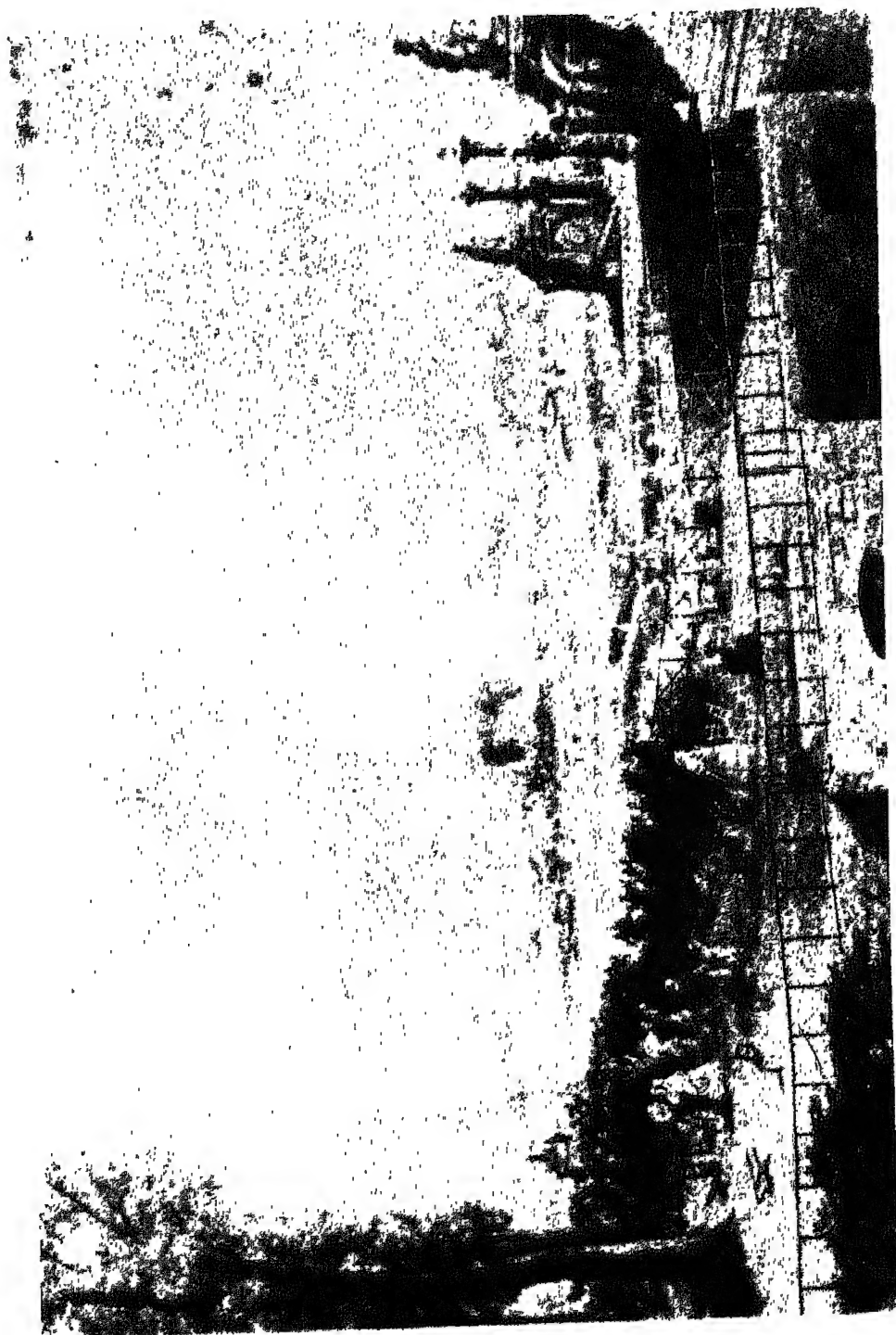
٥ - المجلس الثوري في (سانت اتيان) في السنة ١٨٧١ .



٦ - حرية الصحافة .

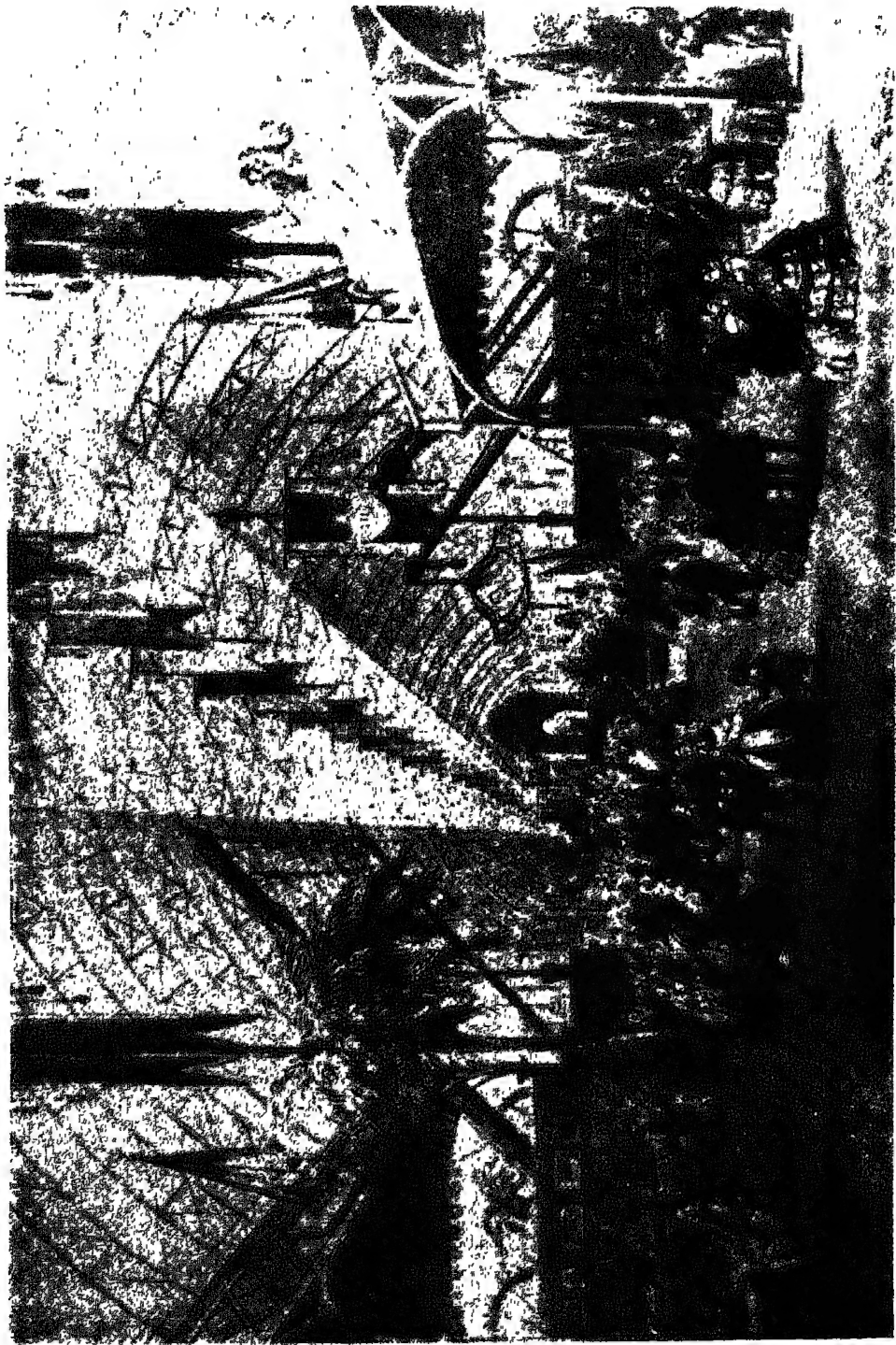


٧ - مقاعد المجلس التشريعي (١٨٣٤) .

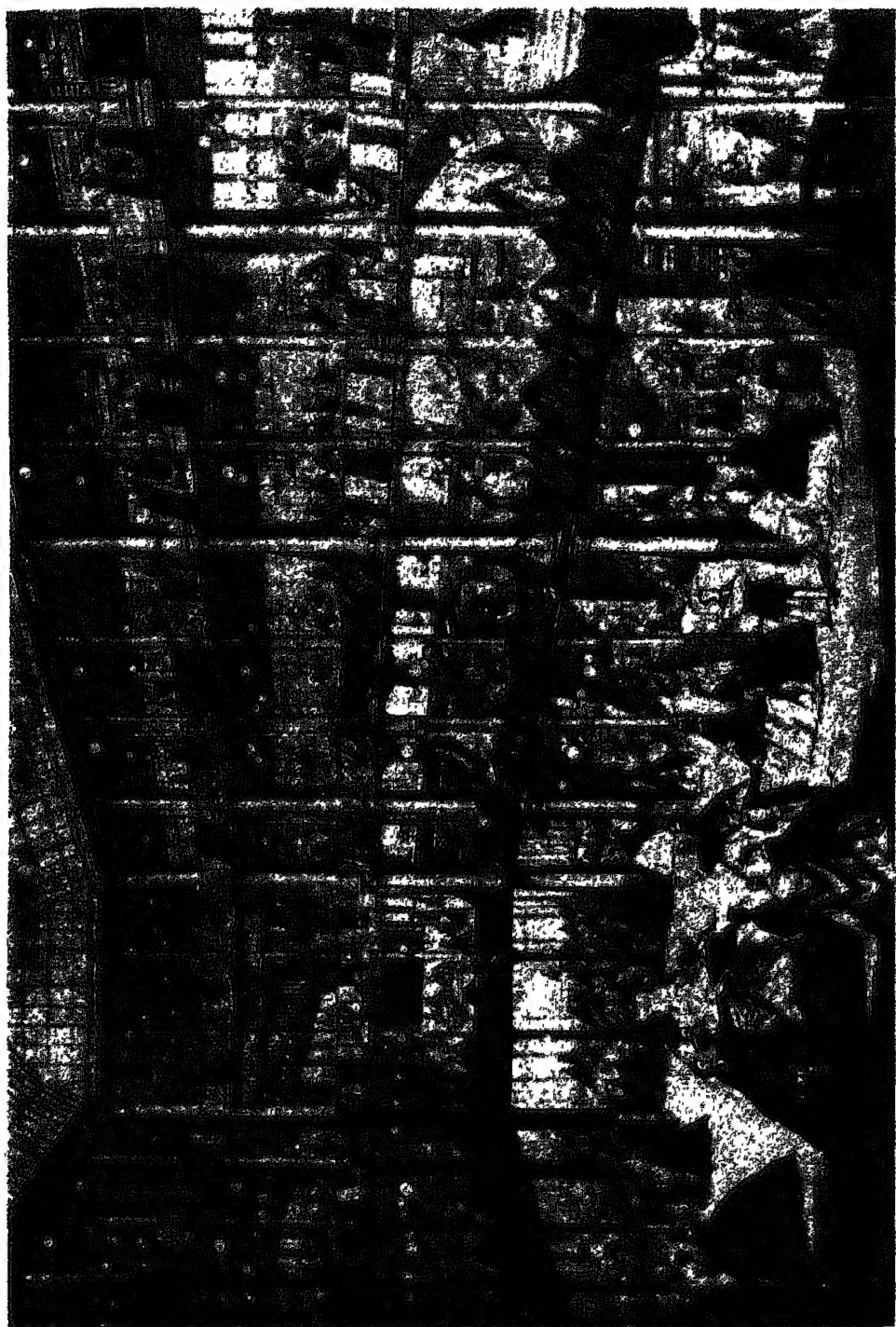


٨ - اعلان الجمهورية امام قصر بوربون في ٤ أيار ١٨٤٨ .

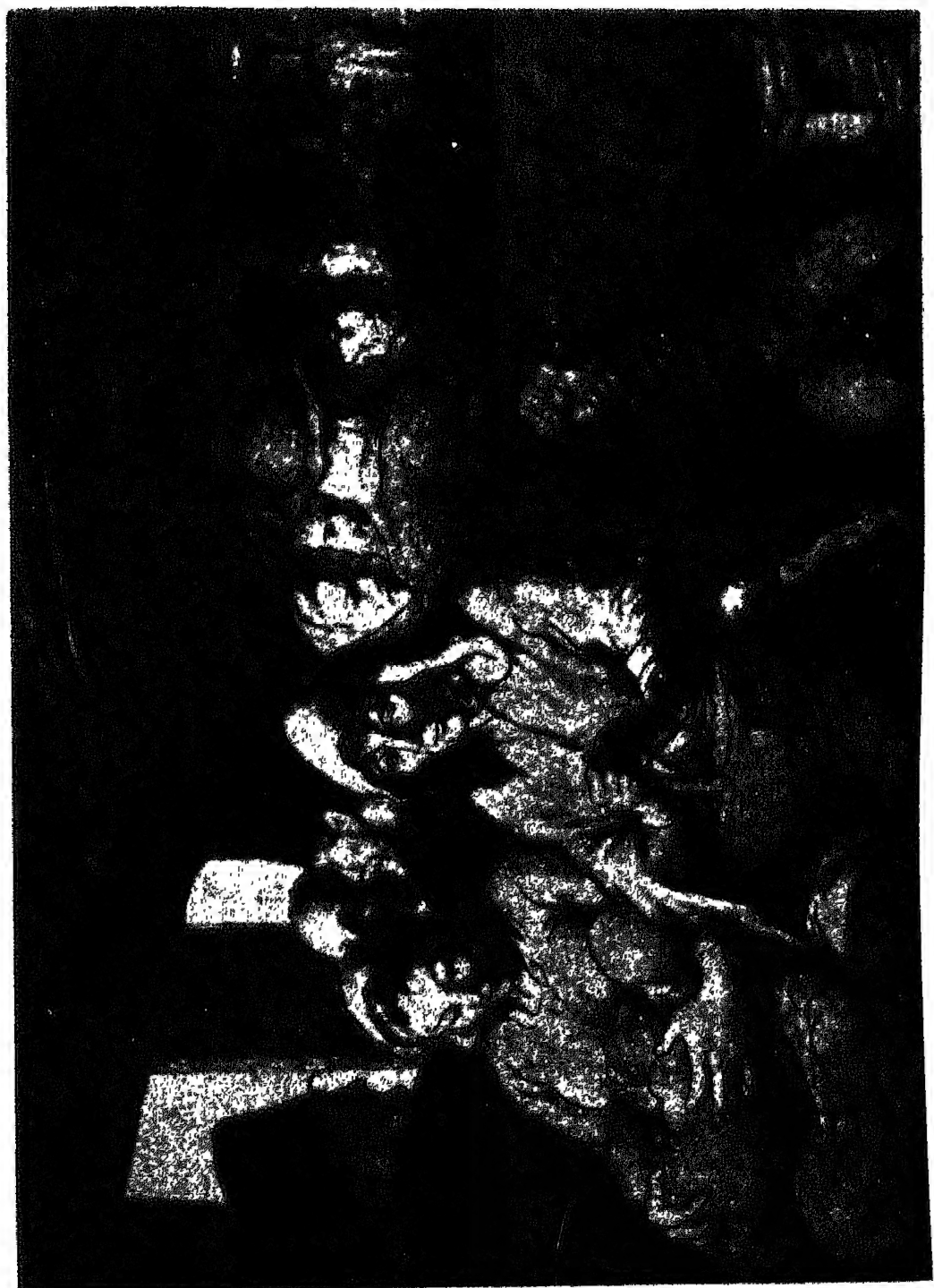




١٠ - معرض باريس العام في السنة ١٨٥٥ - مشهد لرواق الآلات .



١١ - مخازن (زاوية الشارع) حوالي ١٨٦٠ .



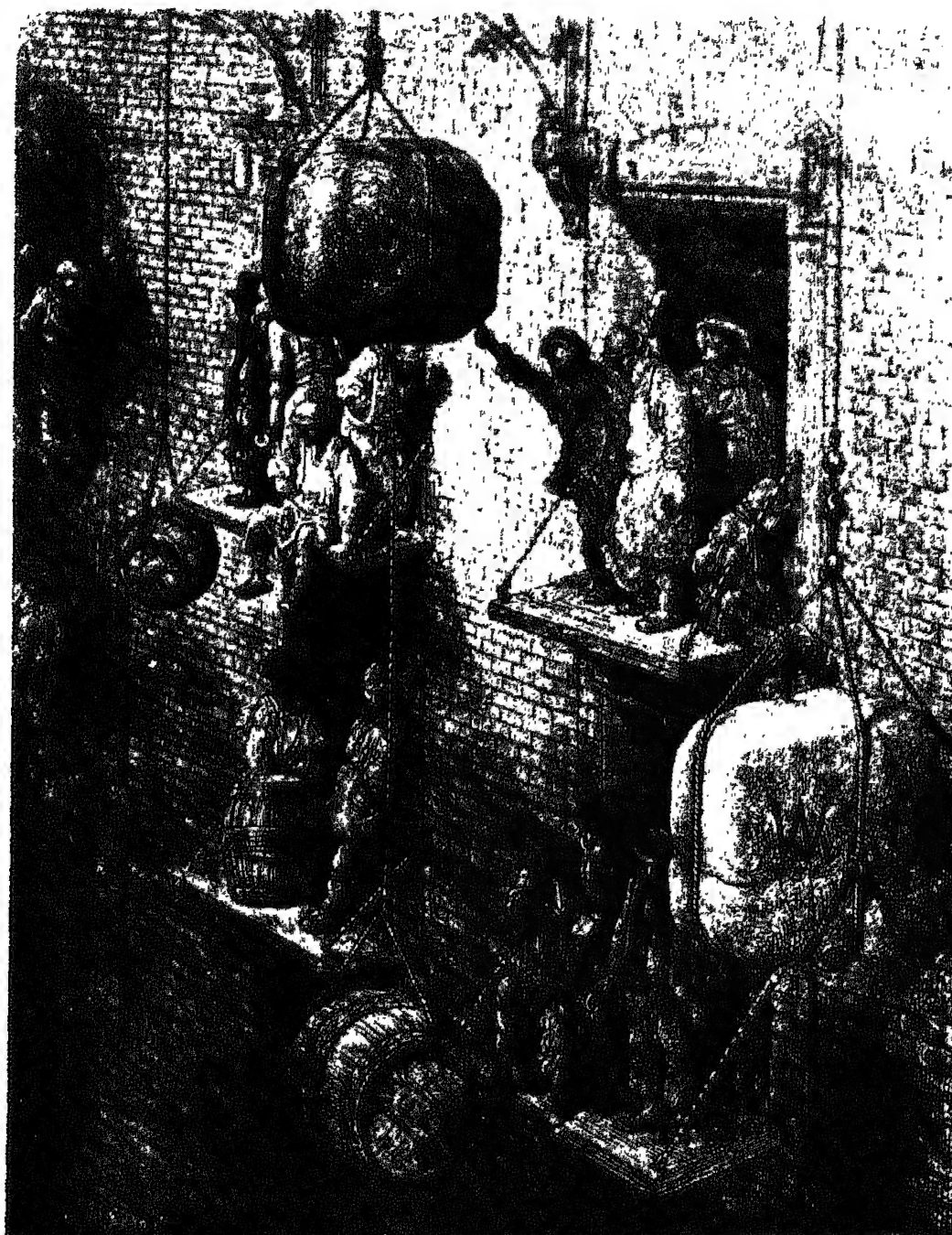




١٤ - انجاز اول خط تلغرافي بين الولايات المتحدة وشرقها في السنة ١٨٦١ .



١٥ - طلاب الذهب الامير كيون في طريقهم نحو كاليفورنيا (١٨٤٩) .



١٦ - مؤسسة تجارية في مدينة لندن .

الفصل الثاني

انطلاقة الرأسمالية في الغرب

« غزت البورجوازية كافة أنحاء الكرة الأرضية بدافع الحاجة الدائمة
رسالة الغرب الرأسمالية
الى اسواق جديدة، فكان لازماً عليها الدخول الى كل مكان، والاقامة
في كل مكان، وخلق وسائل اتصال في كل مكان . وباستثمارها السوق العالمية، طبعت البورجوازية
الانتاج والاستهلاك في كافة الدول بطابع الوطنية الشائعة. وبفضل سرعة اتقان ادوات الإنتاج
ووسائل الاتصال ، ادخلت البورجوازية في تيار الحضارة حتى اكثر الامم تخلفاً ومجىة ...
هكذا تكلم « ماركس » ، و« المجلد » ، في السنة ١٨٤٨ ، في « البيان الشامل للحزب الشيوعي » .
وهذا يعني أن طبقة اجتماعية معينة ، هي البورجوازية ، « ثمرة النمو الطويل العهد ، وعدد من
الثورات في طرائق الانتاج والاستهلاك » ، قد دفعت بأوروبا الى فتح العالم . والمقصود بهذا
الفتح فتح تجاري اولاً، وفتح صناعي ثانياً. ولكن « ماركس » والمجلد يتكلمان عن غو « البورجوازية
أي الرأسمالية » . لذلك فان نظاماً معيناً ، اقتصادياً واجتماعياً معاً ، يميز أوروبا ويفسر توسعها
قبل ان تشمل في توسعها هذا اميركا الشمالية وبعض أنحاء العالم الاخرى وتبعث فيها حركات
مماثلة .

« مونت - مورغان » ، « كلونديك » ، « كمبرلي » ، « ديتووتر سراند » . بيد ان الكثيرين قد
رأينا ان القرن التاسع عشر هو قرن الفحم الحجري والحديد ، ولكنه
في الوقت نفسه قرن الذهب والفضة ايضاً . فقد برزت مناطق جديدة
غنية بالذهب ، هي اعجب ما عرفته البشرية في تاريخها : كاليفورنيا ،
« مونت - مورغان » ، « كلونديك » ، « كمبرلي » ، « ديتووتر سراند » . بيد ان الكثيرين قد
خشوا من ان يفقد المعدن الابيض والمعدن الاصفر ، اللذان لم يعودا نادري الوجود ، صفتهم
الذاتية الرئيسية ؛ وعلى نقيض ذلك ، ابتهج كثيرون غيرهم بمن رأوا الصلة الوثقى بين النشاط
الاقتصادي ووفرة المعادن المعروفة بالثمينية . ومهما يكن من الامر ، فان الغرب هو الذي
استثمر هذه الكنوز لمصلحته ، وهي الاراضي الانكلوساكسونية التي ورثت الامتياز الذي كان
في فترة من الزمن امتياز الامبراطوريات الايبيرية .

اذا نظرنا الى الذهب وحده ، واعتبرنا ان معدل الانتاج السنوي قبل اكتشاف اميركا هو ، فان هذا المعدل يرتفع الى ٤٥ في اواخر القرن الثامن عشر ، والى ١٠٠٠ في السنة ١٨٦٠ ، والى ٢٨٠٠ في السنة ١٩١٤ . وهذا يعني ان المعدن الاصفر الذي دخل في التداول في الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠ ، يوازي ما دخل منه بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٨٥٠ . وازدادت كذلك كمية الفضة ازدياداً عظيماً : فبعد ان تجمع منها ١٤٠ مليون كيلو بين السنة ١٤٩٣ والسنة ١٨٥٠ ، ارتفع وزنها ٢١ مليوناً بين السنة ١٨٥١ والسنة ١٨٧٠ و ٦٧ مليوناً بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٣ .

قبل ان تتخطى المكسيك للولايات المتحدة عن كاليفورنيا بتسعة ايام ، عثر «مارشال» ، صانع العريات ، صدفة على بعض قطع المعدن الاصفر في جوار « ساكرامنتو » . فاندفع الناس وراء الذهب اندفاعاً منقطع النظير . وقد جاؤوا من كل مكان : استخدم بعضهم مسالك « لارامي » او مقطورة « سانتا - في » وكانت المسافة تستغرق خمسة اشهر - وسلك البعض الآخر طريق « باناما او «ماجلان» ، فكان سفرهم في البحر مضيقاً لابل مهلكاً احياناً ؛ ووصل قرابة ٢٠٠٠٠ من آسيا . اما نتيجة هذا التدفق ، الذي ادى الى خلو الحقول والمصانع من اليد العاملة ، فكانت تنشيط بناء وحركة السفن ، واستقرار ٣٠٠٠٠٠ شخص في كاليفورنيا ، واكتشاف الزئبق في «نيو المادان» والحاج الحاجة الى تحقيق الاتصال بين الباسيفيكي والاطلسي بواسطة القطار الحديدى .

وكان «الهواء الاصفر» قد انتقل الى استراليا ، القارة الخالية من السكان تقريباً ، التي اطلق عليها ، بمعرفة غريزية غريبة ، اسم «الشاطئ الذهبي» في الحرائط البرتغالية القديمة . وخشية من اختلال النظام والانضباط بين المهرمين المبعدين اليها البالغ عددهم ٤٥٠٠٠٠ حاول حاكم ولاية «وايلاز الجديدة» الجنوية اخفاء سر الاكتشاف الذي توقع اليه احد الرعاة في شهر شباط من السنة ١٨٤٩ ، في مقاطعة باثورست . ولكن سفر المهاجرين المستعمرين قد احدث انقلاباً ، وقد تمدد من جهة ثانية منع هذا التدفق حين توقع المهاجر هارغريفز العائد من اميركا ، الى اكتشاف ذهبه تبلغ قيمتها ٤٠٠٠ جنيه استرليني واثبت تشابه التربة بين منطقة ساكرامنتو ومنطقة ماكارى . وبما شجع البحث عن الذهب ان مستعمرة فكتوريا ، التي تنظمت في السنة ١٨٥١ ، خصصت مكافأة لمن يكتشف ذهباً في اراضيها . وهكذا تم العثور على منجم بالارا وبنديفو الشهير . وقد بلغ من تدفق الحفارين ان عدد سكان فكتوريا قد ارتفع الى اربعة اضعافه خلال اربع سنوات .

اما مجتمع هؤلاء الباحثين عن الذهب فمجتمع غريب . لقد عاشوا في اكواخ خشبية مسقوفة بصفائح حديدية او تحت خيام بسيطة . وقاسوا الامرين من الغبار والاذية والتهاب الاعين والحمى التيفية . وبرهنوا عن بطولة ، على طريقتهم الخاصة ، وسنوا لانفسهم قانوناً ديموقراطياً مختصراً احترموا احياناً . ولكن حالة الحدة الدائمة التي سيطرت عليهم جعلتهم قادرين على القيام باسوأ اعمال العنف . وقد جرم تفاوت العدد بين الجنسين الى الفجور ، والدعارة كما ان تجارة

النساء في كاليفورنيا جعلت من الانسان الابيض منافساً رهيباً للرئيس الهندي الذي صعب عليه جمع النساء في حرمه . اضيف الى ذلك ان الحفار العامل لحسابه قد افصح مكانه شيئاً قبيحاً للعامل المأجور الداخل في خدمة الشركة الرأسمالية التي اعتمدت تقنية اكثر اتقاناً .

خلال اربعين سنة سيطرت اميركا الشمالية واورشاليا على سوق المعادن الثمينة . فقد اجريت بين « ارض النار » و « الاسكا » اعمال تنقيب منظمة . وجمع الباحثون الذهب الرسوبي من نهر فرازير في كولومبيا البريطانية . واستفادت « ليدفيل » في الكولورادو من بحث واسع مماثل في منحدر « بيكس بيك » : ففي اقل من سنتين خرجت من الارض مدينة مبنية بالقرميد جمعت بين ١٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ مغامر ، وخمس كنائس و ٢٠ فندقاً ومسرحين وقرابة مائة قاعة للاجتماع والرقص ، يضاف اليها الكثير من الحانات والمقامر ؛ وكان فيها بائعو المشروبات ومديرو المحال المذكورة اسبداً مسيطرين ؛ وصدرت فيها اربع صحف منها اثنتان يوميات . ولكن الفضة كانت اوفر من الذهب ، ممزوجة بالرصاص والنحاس وحتى بالزئبق ، واعتبرها بعضهم نوعاً ثانوياً من المعادن الاخرى التي تعيرها الشركات الصناعية اهتماماً اكبر احياناً . ففي ليدفيل مثلاً اهتم الناس على التوالي بالفضة ، والرصاص الممزوج بالفضة ، والزنك ، وهو النحاس ما انقذ « بوت » و « هيلينا » و « اناكوندا » .

تسبب الذهب بعد ذلك في تدفق بشري جديد في اقصى الشمال الاميركي : « كلونديك » و « آلاسكا » . فقد نزل بين ٣٠ و ٤٠٠٠٠ باحث في سكاغواي واجتازوا الجبال التي تفصل بين الباسيفيكي وال « يوكون » وانحدروا بواسطة الزوارق او الاطواف على نهر ال « لومس » حتى داوسون سيتي : فاغل المنجم ١٠ ملايين دولار في السنة ١٨٩٨ ، وحتى ٢٢ في السنة ١٩٠١ . وفي السنة ١٩٠٠ حدث تدفق جديد باتجاه شبه جزيرة سيوارد قبالة مضيق بيرنغ ؛ ففي « نوم » التي تسيطر عليها ارباح جليدية ، وحيث انشئت على جناح السرعة حانة وبيت دعارة وملهى ، عثر في الرمال ، في اشهر معدودة ، على ذهب تبلغ قيمته اكثر من مليون دولار . وفي السنة ١٩٠٩ ، تكلم الناس عن بحيرة « بور كوين » بعد ان اظهر فيها حريق طاريء شرايين مرو ابيض .

وعلى الرغم من كل هذا ، فان نصف الكرة الارضية الجنوبية كان قد انتزع ، منذ ١٥ سنة تقريباً ، صولجان الذهب من اميركا التي احتفظت بصولجان المعدن الابيض . ففي اوستراليا توالى الاكتشافات : في مونت مورغان من اعمال كوينسلند وفي « بروكن هل » من اعمال وايلز الجديدة . وحدث ان احد المهاجرين ، مالك الارض التي سيجمع فيها الاخوة مورغان ووليم دارسي ثروة طائلة ، باع الاكر يمنية استرليني دون ان يعلم بما كانت تحبسه ارضه ومات حزناً . ولكن اوستراليا لم تكن اقل ثروة معدنية واجتذاباً للباحثين : فقد اكتشف الذهب في الصحراء على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من « برث » ، ثم اكتشفت كنوز « كولفاردي » على مسافة ٣٠٠ كيلو متر من برث ، في منطقة تتميز بمناخ حار جداً ، وهو الجمل ما انقذ المشروع من الخطر بنقله الماء والمؤون والمعدات ، قبل ان تبني اقنية جر المياه والخطوط الحديدية . فضمن ذلك للقارة

الاستراتيجية المرتبة الاولى في السنة ١٩٠٣ .

بيد ان العالم عاد الى الحديث عن افريقيا : وهو عود طبيعي الى بدء ، اذ ان هذه القارة كانت قد اعطت اكبر كميات من المعدن الأصفر . اجل لقد بذلت محاولات فاشلة بغية الوصول الى كنوز السودان الاسطورية انطلاقا من الشاطئ الذهبي وعبر السهول المشبة . ولكن ما ذهب بعقل الناس آنذاك هو هضبة « قلد » الجنوبية . فقد توفى احد الـ « بويز » ، في السنة ١٨٦٣ ، الى اكتشاف الحجارة الكريمة الاولى ، ثم اشهر اكتشاف « نجم الجنوب » حقول الماس حول كمبرلي . وكانت شركة « دي بيرز ميننغ » ، التي تولت الامر ، على علم بان الذهب لم يكن بعيدا . فقد اكتشف في السنة ١٨٧٧ في « غريكووالند » ، ولكن حكومة «بريتوريا» حاولت منع الباحثين من فحص الارض لمعرفة ما يحويه جوفها من المعادن في منطقة ويتوتستراند التي قدر بانها اغنى المناطق ثروة معدنية ؛ اصف الى ذلك من جهة ثانية ان الباحثين ما لبثوا ان واجهوا طبقات صرانية تمتد تحت الازربة والصخور الرملية . ولذلك مست الحاجة الى استخدام الوسائل الآلية ، ولم يتمكن من الاستمرار في العمل سوى المشاريع الكبرى القوية وحدها . وصادف في السنة ١٨٨٧ ان « ماك ارثور » و « فورست » من غلاسكو توفقا الى فصل الذهب عن كبريتور الحديد بواسطة التحليل بالجرى الكهربائي او بالزنك . فأسست شركة دي بيرز فرعاً لها هو شركة « الحقول الذهبية في افريقيا الجنوبية » التي عقدت اتفاقات مع شركة شارترد لصاحبها «سيل رود» وشركة نوبل ، وقد نص الاتفاق مع هذه الاخيرة على ان تقدم النيتروغليسرين القادر على تفكيك المعدن الخام . وقد تقلبت هذه المصالح الكبرى في النهاية على اشمزاز وكراهية البوير بعد تدخل انكليزي مسلح . وكما ان الثورات كانت سبباً لحرب الباسفيك ، كذلك لم يكن الذهب غريباً عن حرب الـ « ترنسفال » . وهكذا فقد كان مقدراً لافريقيا الجنوبية ، التي بلغ انتاجها من الذهب الناعم ٢٢ طن في السنة ١٨٩١ ، ان تنتج ١٨ طناً في السنة ١٩٠٦ و ٢٨٣ في السنة ١٩١٢ ؛ كما كان مقدراً لها ان تتفوق بدورها على اوستراليا والولايات المتحدة .

الحلفاء والاتفاقات المالية
ادت وفرة المعادن الثمينة الى وفرة النقد . اصف الى ذلك ان حيازة مخزون معدني هام قد سمحت باصدار كميات اكبر حجماً من النقد الورقي . فاعتاد الناس استخدام الورقة النقدية كمعلمة رائجة .

كان النقد المعدني في نظر الساعين وراء الربح التجاري هو الثروة بعينها ، ببسفا نظر اليه الغائلون بمذهب الحرية نظرم الى وسيلة مقايضة . ولكن سوء الطالع اراد ان لا يكون اداة قياس ثابتة . فهل يتحقق توحيد القواعد النقدية القومية على الاقل يا ترى ؟ لا شك في ان قيام « الاتحاد اللاتيني » في السنة ١٨٦٥ كان سيراً في هذا الاتجاه ؛ الا ان البلدان الانكلوساكسونية لم تقبل بفرنك المائة سنتيم كما لم تقبل من قبل بالنظام المتري .

ولم يكن اختيار الميار النقدي اقل صعبة . فقد قام نقاش مستمر بين انصار المعدن الواحد

وانصار المعدنين . فقبل السنة ١٨٥٠ ، وبينما لم تعرف آسيا سوى الفضة ، كانت بريطانيا قد اختارت العيار الذهبي ، واختارت اغلبيّة الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة عملياً العيار الذهبي والعيار الفضي معاً . ولما كان تدفق الذهب قد صادف بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٧٠ طلب المزيد من الفضة في الهند والشرق الاقصى ، اهتم المسؤولون بالنتائج التي قد تستتبعها اولوية المعدن الابيض . ولكن هذا الاتجاه قد انقلب شيئاً فشيئاً حين تدنى انتاج الذهب وخطا استخراج الذهب بالمقابلة خطوة كبرى الى الامام . ثم جاء الانحطاط الاقتصادي واعاد رباطة الجأش الى انصار المعدنين الذين ساندوا « بارونات الفضة » في الولايات المتحدة . ولكن لمان نجم الترانسفال واستراليا وآلاسكا قد اتاح الفرصة لانصار العيار الذهبي لاعتباره قادراً على الوفاء بالحاجات ، بينما كانت قيمة الفضة آخذة بالتدني .

مهما يكن من الامر ، فان الارتباط المتبادل بين حركات الاسعار وحجم النقد المتداول قد بدا وكأنه تأيد تأييداً واضحاً . وعلى غرار «بودين» و«كانتيون» وكثيرين غيرهما ، فكر علماء الاقتصاد القائلون بذهب الحرية بان نمو حجم المعادن الثمينة مفيد ، وقد سبق لميشال شفالييه ان حيا ارتفاع انتاج الذهب معتبراً اياه « حدثاً على جانب كبير من الاهمية للجنس البشري بأجمعه » . وكان ماركس قد عارض وحده تقريباً هذه النظرية الكمية للنقد ، اعتباراً منه ان ارتفاع الاسعار مرده الى الكسب الرأسمالي . فكانت من ثم معركة النقد : مظهر المنافسة ؛ والاتفاقات النقدية : مهادنات مؤقتة او جهود لتقاسم الاخطار والمكاسب على السواء . ولكن بعض الاستقرار قد لوحظ على الرغم من الازمات والثورات .

كتب «كورسل سنوي» في السنة ١٨٤٨ : « لا يحصل دائماً على
نمو سوق رؤس الاموال
والجهاز المصرفي
الاعتماد بطرق المواصلات ؛ اما بالاعتماد فالحصول على طرق
المواصلات امر مضمون » . وفي كتابه «تاريخ المصرف» ، قارن
« ماك لود » الاعتماد بفيضان النيل المتصاحب . وقد سبق للسانسيونيين ان اعتبروه علة قيام كل مشروع كبير .

فالمال من ثم ضروري للعمل . ولكن اين يوجد المال ؟ اعتبر التوفير احتياطياً أساسياً . والتوفير توفير اقتصاد لعمري ، وقد تبارى الصحافيون والسياسيون الاحرار في تعظيم هذه الفضيلة . ولكن من المستحسن ان يتخذ هذا التوفير شكلاً اشد نشاطاً .

هذا هو منذ الآن مثل التوفير - التأمين . فالتأمين يستجيب لحاجة الامان ، ولكنه خلاق من حيث هو يتصل بالقرض الطويل الاجل . وقد اهتمت الادارة باكرأ بفروعه الثلاثة الرئيسية : التأمين البحري ، التأمين ضد الحريق ، التأمين على الحياة . وفي اواخر القرن ، أمنت ٨٥ شركة بـ ٢٢ ملياراً . وقدر بعضهم ، باتخاذ المعدل ١٠٠ في السنة ١٨٥٠ ، ان حجم التجارة العالمية قد بلغ المعدل ٦٥٠ في السنة ١٩٠٠ وحجم المبالغ المؤمنة بلغ المعدل ٢٥٠٤ . وتعددت

المحادثات التأمين الدولية وأجرى التأمين على التأمين على نطاق واسع. وربما كان هذا القطاع خير القطاعات لتقدم الرأسمالية المالية. وكانت معظم الشركات التي تأسست في سويسرا شركات تأمينية. كما كانت الصلة وثيقة بين التأمين والتجارة والملكية العقارية.

بقي المصرف المؤسسة الرئيسية للاعتماد. فقد وفر لاساط الأعمال مساعدة لا بد منها بشكل حسم. فبينما تآرجح معدل الفائدة تأرجحاً بطيئاً (انخفض شيئاً فشيئاً من ٥ إلى ٣٪ بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٠٠)، بقي الحسم خاضعاً لحركات فجائية وغير منتظمة. وقد حاولت مصارف الدولة الكبرى، كمصرف انكلترا ومصرف فرنسا، تنظيم نسبته. وفقدت السفجة بمض جدورها بفعل التسهيلات الجديدة في وسائل المواصلات. الا ان لندن قد احتفظت بمركزها الممتاز، لا بل حسنته، في ما يعود للسفجات في المناطق الخارجية. وانتشر استخدام الشك في العالم الانكلوساكسوني اولاً؛ وقد سهل الى حد بعيد تسديد الحسابات بمجرد معاملات كتابية. وليست اوراق الدفع الخزينة سوى اشكال مختلفة للتسليف القصير الاجل. واذا ما لجأت الحكومات الى القرض، فانها قد توجهت الى الموفرين توجهها مباشراً اكثر منه في السابق؛ ولكن ارباح المصارف ما زالت هامة جداً.

هو التسليف الطويل الاجل ما اتاح توظيف رؤوس اموال كبرى في الحقل الصناعي والتجاري. فتوسع فرع الاموال المنقولة من ثم توسعاً عظيماً. وقد نشر «برودون» في السنة ١٨٥٣ كتاب المضارب في المصفق، احتجاجاً على «عصر اتخذ المصفق واعماله لوحة وصايا إلهية»، والمصفق فلسفة، والمصفق سياسة، والمصفق علماً اخلاقياً، والمصفق وطنياً وكنيسة. ونمت صحافة مالية، وقامت الصحف الكبرى بدعابة فعالة لخدمة اصدار الاوراق المالية. ثم جاء التشريع في حينه يخفف من وطأة تجارة المال. ففي السنة ١٨٥٨ صدر قانون يوسع حريات «الشركات المالية المتحدة»؛ وفي السنة ١٨٦٣ والسنة ١٨٦٧، شجعت الامبراطورية الثانية قيام الشركات المحدودة المسؤولية. واذا لم يصدر سمسارة «لومبارد ستريت» في لندن سوى نشرة يومية واحدة في السنة ١٨٦٠، فانهم قد اصدروا ١٦ نشرة يومية حوالي السنة ١٩٠٠ انطوت على ٤٠٠٠ بيان بالاسعار. فتعاظم دور شارع فيفيان في باريس، و«ول ستريت» في لندن، و«اورانينبورغسترأس» في برلين. وفي مصفق باريس بلغ مجموع التقيد المقايض ١٨٥٠ مليوناً في السنة ١٨٣٠، و ٨٩٨٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠، و ٢٥٦١٢ مليوناً في السنة ١٨٨٩؛ ثم بلغ ٨٧ ملياراً في السنة ١٩٠٠.

استلزم توزيع الاعتماد اجهزة اكثر عدداً واعظم تخصصاً. ففى اساس النظام احتفظت مصارف الاصدار بمركزها الممتاز، منظمة نسبة الحسم، ومزاولة دور تسوية وتعديل (دور المكتب المركزي)، وموافقة على تسليف السلطات العامة. ولكن مصارف الاعمال المسامة قد تكاثرت، وجرى في الوقت نفسه عملية توزيع بين المصارف الحديثة منها، التي اهتمت بشؤون التوفير، وبين بعض المؤسسات القديمة - المصرف الفرنسي السامي مثلاً الذي يعود الى النصف

الاول من القرن - التي تخصصت في رقابة الاحمال الكبرى . ولم يشهد هذا التوزيع سوى منازعات ؛ فللنازعة بين « بيرير » و « تالير » في فرنسا واوروبا البرية على امتلاك خطوط المواصلات الكبرى ليست سوى احد هذه الخلافات المعروفة جيداً ؛ وبعد ان تقلبت على مصرف التسليف ، استفادت مجموعة « روتشليد » في السنة ١٨٨٧ من تضييق الاتحاد العام الذي كان يحاول بدوره منازعته السيطرة . اضاف الى ذلك ان مثل هذه التنازعات امر مألوف في الولايات المتحدة . وقد كان لها صداها البعيد في الحياة السياسية . ومهما يكن من امر ، فان العالم المالي قد وطد مركزه الاجتماعي .

قال « باستيا » عن المناقشة : « انها اكثر القوانين تقدمية ومساواة نحو المشاريع الرأسمالية وجماعية من بين القوانين التي وكلت اليها العناية الالهية تقدم المصائر البشرية » . بفضل هذا المنبه ، وفي مناخ الحرية السياسية والقضائية ، ارتفع عدد المؤسسات الصناعية والتجارية ارتفاعاً سريعاً . وهو اتجاه استفاد ، من جهة ثانية ، من توسع عملية التسليف ، وتقسيم العمل ، والنجاحات التقنية ، وحاجات الحضارة الغربية .

وجدت الحرفة الصغرى والحافوت علة وجود جديدة في هذا التخصص . وما زالت المهارة اليدوية ، التي انقذت الكثير من الصناعات التقليدية ، ضرورة جداً في الانتاج الصغير الحجم . وقدمت بعض فروع الصناعات المنزلية لانها استخدمت صناعيين يدويين ابعدها عن عملهم او بدا عاملة نسائية : وهذا ما حدث في صناعة الالبسة والخياطة وصناعة الملابس الداخلية . ونمت تجارة التفصيل ، على الرغم من ان المخازن الكبرى قد انتشرت انتشاراً عظيماً ايضاً .

ولكن الحدث الذي لفت الانظار هو التوسع الذي عرفته الشركة المحدودة المسؤولة . فان الاموال الطائلة التي وظفت في المانيا بعد السنة ١٨٧١ قد ادت الى قيام ٧٨٠ شركة خلال سنتين ، وان الشركات ال ٧٩٣٩ التي احصتها الادارة الاميرية الفرنسية في السنة ١٩٠١ قد ارتفعت رؤوس اموالها الى ٣٦ ملياراً . ولكن مشاريع كثيرة لم تعرف سوى وجود سريع الزوال . فكل ارتفاع في الاسعار بعث ازدهاراً جديداً ، وكل ازمة او كل هبوط ادى الى الاقلاسات . هذا هو الانتقاء الطبيعي في نظر الاقتصاديين الاحرار : انما الغلبة للاذكيا والاقوياء في النهاية : فلا يمكن من ثم ان يتوالى تكاثر المشاريع الى ما لا نهاية له ، لان ذلك قد يضر بانتاجية الاعمال نفسها .

وينجم عن ذلك ان نظام التنافس يفضي ايضاً الى الحصر الذي يفضي بدوره الى الاحتكار ويميل طبعاً للاثارة هذا النظام . ولكن التخصص ادى منذ البدء الى هذه النتيجة : ان القطاع المستثمر حديثاً عرضة لان يسيطر عليه عدد صغير جداً من المشاريع .

شاهد تأييد هذا الاتجاه الآخر منذ البداية في صناعة الحبال السلكية وصناعة النفط كلما وجدت جودة في صناعة المعادن او الكيمياء . وكانت الصناعة المنجمية الالمانية احدث عهداً من الصناعتين البريطانية والفرنسية فتجمعت والمحصرت اكثر منها . فلم يقل عدد الشركات الفحمية

عن ٧٠٠ في الارخبيل بينما نحن نرى في الرور ان اربع او خمس مؤسسات قد اشرفت على صناعة الفحم منذ السنة ١٨٨٠ . وهو الحصر الافقي ما برز في البداية . ولكن « كيردوف » و « ستس » ثم « تيسن » انطلقا من الفحم الحجري ، و « كروب » ، انطلقا من صناعة المادن ، قد اشرفوا منذئذ على اشكال اولية للحصر العمودي بايجادهم اسواقهم الخاصة للبيع ووسائلهم الخاصة للنقل . ومنذ تأسيسها في السنة ١٨٣٧ ، اتجهت « شركة الجبل القديم » طبعاً الى تنظيم صناعة الزنك تنظيماً يخدم مصلحتها . وبعد معاهدة التجارة الموقعة في السنة ١٨٩٠ ، جمعت « لجنة المصاهر » العدد الاكبر من ارباب صناعة الفولاذ الفرنسية . وبالاختصار اذا ما كان مناخ البلدان الحديثة العهد في الانتاج الكبير اكثر ملاءمة للحصر ، فان الحصر يبدو تلقائياً وكأنه تدبير دفاعي غريزي لاتقاء الاخطار يُتخذ اثناء الصراع الذي يقوم بين مؤسسات متفاوتة القوى .

تماظم دور مقرض المال واتسعت في الوقت نفسه المسافة بين المتعهد والمساهم . ورجحت الشركة المساهمة على حساب المشروع الفردي او العائلي ، بحيث قامت صلات وتقى بين مؤسسات الفرع الواحد ومؤسسات الفروع المختلفة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان التجمع المصرفي كان شرطاً ونتيجة معاً لادارة رأس المال ؛ وقد ولد بدوره التجمع الصناعي والتجاري . ولكن الاتفاقات قد نجحت على الرغم من ذلك من تنسيق جغرافي للنشاطات سهله تقصير المسافات وتوسيع الآفاق . وقد استهدفت بصورة طبيعية تحسين تنظيم العمل بتجمعات جديدة تتيح مطابقة العرض على الطلب مطابقة اكثر دقة . وهذا ما عبرت عنه مفردات خاصة : « موافقة صكرام الاخلاق » ، « الشراكات » ، اسواق البيع ، الجمعيات ، النقابات ، الاستشارات ، التجمع الافقي والتجمع العمودي ، الانصهار ، الضم .

« ان مستقبل فرنسا لا يمتلج بعد اليوم في شارع سان - دنيس ، الوجوه الرأسالية الكبرى
وساحة « غريف » ، الارض الكلاسيكية لاندلاع الثورة ، بل
في شارع فيفيان وساحة « فندوم » ، عند « بيرير » وعندكم » . (من رسالة « جول فاليس »
الى جول « ميريس » ، ١٨٥٢) .

يتوقف النجاح على الانسان الذي يقود الزورق ، ذلك « الانسان المسكوني » ، الجريء والمتبصر ، القادر على التضحية بصحته ولذاته اليومية ، سعياً منه وراء القوة المادية والمال ، واقتناعاً بأن عليه ان يلعب دوراً مفيداً ، وبأن على المجتمع عدم مطالبته بالعظمة والثروة لانه يعمل للتقدم العام ويوزع المهام ويستطيع ان يظهر بمظهر نصير الانسانية . وقد اعرب له جوريس عن تقديره واحترامه : « ان في الانتاج البورجوازي وقوته وتجدده التقني المستمر ومسؤولياته المتجددة ابداً لداقماً عظيماً لطاقات العمل عند من يشرفون عليه » .

تمايشت الفئات الرئيسية الثلاث تمايشاً كاملاً : التاجر الذي تقلقه بصورة خاصة حاجات

السوق وامكاناتها (الرأسمالية التجارية) ، والصناعي الذي يستنزف نشاطه في الحقل التقني (الرأسمالية الصناعية) ، والصيرفي الذي يجمع رؤوس الاموال ويستخدمها (الرأسمالية المالية) . وربما كان من العبث محاولة تمييز مرحلة اولى قد يمكن ان تكون مرحلة المؤسسين ، التي قد تليها مرحلة ثانية تعرف بمرحلة المحققين . ولا شك في ان عباقرة الاجيال السابقة غالباً ما اصبحوا آباء لسلالات كبرى ، ولكن استئثار طريقة او فكرة او موقف قد يؤدي في كل آن الى بروز مؤسسين جدد . وغالباً ما المحدر حديثو العهد بالثروة من اصل وضيع : فاذا ما ذكرت اميركا « روكفلر » و « وفاندر بيلت » كابني فلاحين ، و « كرنجى » كابن حائك ، وهاريمان كابن راع معوز ، واذا كان « سلفردج » ، مؤسس المخازن الكبرى في شيكاغو ثم في لندن ، قد بدأ حياته خادماً في ميدان السباق ، فان هيريو وشوشار كانا بائعين عاديين قبل ان يؤسس الـ «لوفر» و «جاندورف» و «تياتس» و «ورتهام» ، مؤسسي المخازن البرلينية الكبرى ، قد كانوا من قبل اصحاب حوانيت صغرى ، شأنهم في ذلك شان بوسيكو ؛ كما ان «باس» ، ملك صناعة الجمعة الانكليزية ، كان حوذاً ، و «جوسنغ ماسون» الذي اسهمت ريشته المعدنية في اثراء برمنغهام قد كان يباعاً جوالاً في الطرقات والارياض .

بيد ان غيرهم قد تحلى بثقافة تقنية وحتى علمية : بسمر ، اميل راتنو ، سيمنس . وقد تردد معظمهم في امرهم قبل ان يتدوا الى الطريق التي سيجدون فيها الشهرة والثروة . ودان بعضهم بالكثير للحروب والازمات التي اتاحت لهم تحقيق مضاربات جريئة . ولكن لكل الفروع «مغامريها الفاتحين» : فان براسي قد فرض نفسه متعمداً للخطوط الحديدية ، وجوزف طوم في البناء ، وموند في صناعة ملح القلى ، وكوهلن وبشيناي في صناعة الكلور ، وريتز في العمل الفندقى ، وبولنك في المصنوعات الصيدلية ، وكروسلي في صناعة طنائف هاليفاكس ، و وورث وغيلدرو وباكين في الخياطة ، ومارينوني في الطباعة وغوردون بنت وويليسان وميلو و جان ديبوي في الصحافة ؛ وما زلنا نتذكر كبار بنائي السفن من امثال كونار واسماي وويلرايت وبورن والان و رود ولكن «هبوليت وورمس» هو من زود مرافقه التموين بالفحم الحجري ، وجدد «بوتين» طرائق تجارة الافاويه ، ولكن لويس دريفوس قد نظم تجارة الجيوب . واذا حافظ المصرف — العالي الفاخر بتقاليده على مركزه ، فانه قد اضطر لان يفسح مكاناً لـ «بيرير» وهنري جرمان وتشرنوسكي ولازار . وغني عن البيان ان المؤسسات الموطدة الاركان قد حافظت على مستواها او استمرت في سيرها الصاعد احياناً . وما زالت كذلك في سيرها الصاعد اعمال عائله روتشيلد التي لم تترك فرصة تفوتها دون استثمار اموالها؛ واذا ما تقهر مصرف بارينغ الشهير قديماً فان تقهره لظاهرة استثنائية . وقد توالى اجيال عدة عند آل شنيدر ووندل وديميدوف وكروب في الصناعة المعدنية الثقيلة وآل بوجو وجابني وكوشلين في الصناعات الآلية ، وآل دولفوس وشلومبرجيه في خيوط الخياطة وآل ميكيلييه — نوبله في الصناعات القطنية المختلفة ، وآل سان في صناعة الانسجة الكتانية والحبال ،

وآل هارلوي في صناعة الورق ، وآل فيلورين في انتاج الجيوب ، وآل هنسي وكولونييه وكوانترو وبرنو في صناعة للشروبات . وبلغت الانتباه كذلك انت توظيف الاموال في الاملاك الغير المنقولة ما زال مرغوباً فيه جداً : ففي نيويورك ، كدس استور و«جريت» فروت طاقة بيع الاراضي للبناء ، في حال ان ارستوقراطية الاعمال في أوروبا قد ابتاعت القصور واعادت تذهيب اشجرة الشرف القديمة .

تجنيد اليد العاملة للماجورة
ما كان هؤلاء العظماء يستطيعوا شيئاً الا بتجنيد الجماهير المكروهة على بيع طاقتها العملية . وبفضل هجرة الارياف الواسعة تمأ جيش المأجورين الذين هاجر بعضهم الى اميركا ودخلوا في خدمة مشاريعها . زد على ذلك ان المرتكز الى الكسب قد أبعد الوسط الزراعي عن الاعمال التي تستهدف مجرد سد الحاجات الاولى ، وان توسع المدن قد اغنى نشاطات موافقة لتوسع الاسواق .

اذا كان نظام الاجور مرتبطاً بالنظام الرأسمالي ، فهد ذلك الى ان هذا الاخير يعتبر قوة العمل سلعة تخضع لسنة العرض والطلب . وانما يميل مذهب الحرية الاقتصادية الى تأمين العمل بهذه السنة . لا بل ان ماركس ، الذي عاش الصراع المتكرر ضد النظام التعاوني من جهة ، وضد الرق والفردانية من جهة اخرى ، قد استخلص من ذلك ان استثمار المايجور يفسر الكسب الرأسمالي . وقد استطاع تركيز ان يكتب ما يلي : « ماذا نفعل حين نمنع الزوج مؤقتاً من امتلاك الارض ؟ اننا نضمنهم في موقف العامل الاوروي . » اما كورنو فقد شك في ان الفيرة على الاعتناء بخير البشر ستفعل في التوصل الى القضاء الرق . بيد ان العبودية كانت تبدو منافية للاستثمار الموسع الذي يستجيب لمطالبات الغرب . والدليل على ذلك ان المطالبة بالقضاء الرق لم تجد سنداً اثبت من اوساط الاعمال ؛ فان ستيفنس الصناعي المشهور من بنسلفانيا ، و« جاي كوك » الصيرفي ومؤسس شركة الباسيفيكي الشمالي هما من ادارا عملية تجديد البناء . وهذان الرجلان نفسهما هما من استصدرا قانوناً غايته اعمار الغرب بالمستعمرين الاحرار . ولذلك فان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي توفرت لديه وسائل الانتاج ، قد استطاع دون غيره تجنيد الفلاح المبعد عن حقله والفدادي السابق والعبد السابق المجردين عن الاراضي .

حرية المايزيات
حدثت في منتصف القرن ثورة تجارية حقيقية . كانت الرأسمالية منطقية مع نفسها ، فأرادت تحطيم العوائق القائمة في سبيل حركة انتقال البضائع انتقالاً حراً . فحدث تيار قوي يقول بحرية المايزيات في الفترة الممتدة من السنة ١٨٤٠ حتى السنة ١٨٧٠ ، وهي الفترة التي تحقق فيها ارتفاع سريع في حجم الملاملات ، وانتشار التسليف ونمو وسائل المواصلات . وهي بريطانيا العظمى ، المتمتعة بمركز صدارة لا ينازعها اياه منازع في حقول المال والتجارة والتقنية ، التي اعطت المثل بسلوكها هذه الطريق ؛ فمدرستها المتكسرية هي التي قامت بحملة ناشطة من اجل سوق عالمية موحدة ، مستندة في دعاوتها الى

القوائد التي يمينها السلم والتقدم - المرتبطان ارتباطاً وثيقاً على كل حال - من تضامن اشد قوة بين الشعوب والافراد على السواء بفضل تقسيم العمل تقسيماً منلياً على العطل .

اجل كان محتوماً لئلا هذه الحركة أن تصطدم بالروح القومية . ولكن التجارة الحرة ، بشكل مهاهدات تجارية تفرض تخفيضاً ملموساً على رسوم الاستيراد والتصدير ، قد وافقت الدول الصغرى - بلجيكا وهولندا - التي تعيش من تجارة مرور البضائع . لا بل ان اسبانيا وروسيا نفسيهما قد تخلتا عن موقفهما المتصلب المعاكس . ولكن فاتحة عهد الاتفاقات الناصة على المقايضة الحرة تعود في الواقع الى الانقلاب المجرى الذي قام به نابليون الثالث ضد مجموع ارباب المهن المتمسكين بمذهب حماية الصناعة الوطنية .

ان هذه السياسة التي شجعت المقايضات بين الدول وكانت حافزاً لتجديد التقنيات ، قد كانت في الوقت نفسه بمثابة ناقوس نعي « الحصرية » المزعجة قبلا . ثم خطت بريطانيا العظمى خطوة اخرى الى الامام ، فالت الحقوق التفضيلية ، ومالت الى منح المستعمرات « الحكم الذاتي » ، فوافقت حيالها على معاملة الباب المفتوح . ثم زالت « الحصرية » الفرنسية بدورها بعد السنة ١٨٤٨ . فزالت شركة الهند الانكليزية من الوجود بعد ثورة الجنود البلديين . وعلى غرار نظام الامتيازات الذي بموجبه منحت الامبراطورية العثمانية « الفرنجة » بعض الحصانات ، فتحت الدول الآسيوية ابوابها تحت ضغط الاوروبيين السلمي او المسلح . وفي الاتجاه نفسه - الميل الى الباب المفتوح - عدلت دولة الكونغو الحرة في السنة ١٨٨٥ عن فرض اي رسم على دخول البضائع الاجنبية . وحتى في السنة ١٩٠٦ سنرى وثيقة « الجزيرة » حول مراكش تستوحي فكرة المقايضة الحرة .

وعن طريق الاتفاقات الدولية 'سوي حياً عدد معين من المسائل التقنية والاقتصادية التي تهم مجموع الامم . فقد تأسست سبعة أجهزة دولية قبل السنة ١٨٥٧ - بما فيها لجنة الدواب الاوروبية التي تأسست في معاهدة باريس في السنة ١٨٥٦ ؛ ورأت النور ١٢٨ لجنة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . فنجم عن ذلك قيام الاتحادات دولية كان عددها ٧ في السنة ١٨٦٤ ، ثم اصبح ٢٣ في السنة ١٩١٤ . وكانت هذه الاتحادات في البدء اوروبية في الدرجة الاولى ، ثم شملت او استهدفت شمل كافة اقطار العالم . وقد عني معظمها بالمواصلات وانتقال البضائع . أما أول اتفاقية من هذا النوع فهي الاتحاد التلفرافي الذي تأسس في السنة ١٨٦٥ . وفي السنة ١٨٧٤ أبصر النور في برلين الاتحاد البريدي العالمي الذي سيعاد تنظيمه في اتفاقية روما في السنة ١٩٠٦ . وفي احد المؤتمرات اختيرت باريس مركزاً لاتحاد من اجل توحيد النظام المتري بين الدول ، وأقر في اتفاق آخر تنظيم الطرق البحرية . وعقدت مؤتمرات اخرى ، من اجل الكونغو في برلين (١٨٨٤ - ٨٥) ، ومن اجل تدويل قناة السويس في القسطنطينية (١٨٨٨) .

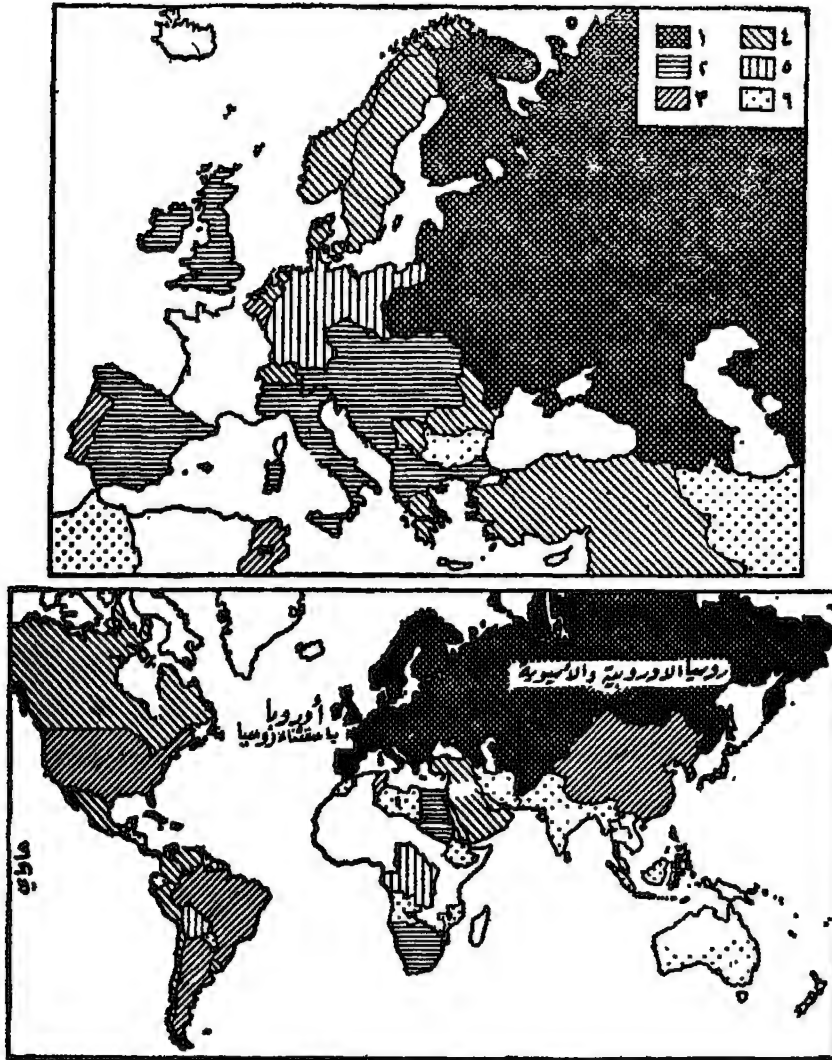
إذا كانت التجارة بين الدول تقدر بـ ٤٧ مليار ونصف المليار حوالي الحركة المالية الدائرية للعمليات السنة ١٨٠٠ ، فقد ارتفعت الى ٢٧ ملياراً في السنة ١٨٥٠ وإلى ١٠٠ في السنة ١٩٠٠ . ويقدر الخبراء ان معدل التجارة في بريطانيا العظمى قد ارتفع خلال قرن من ١ الى ١٤ ، وفي فرنسا الى ١٥ ، وفي ألمانيا الى ٣٤ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٩ . الا أن بريطانيا العظمى قد احتفظت بالمركز الاول باحتكارها سدس مجموع المعاملات التجارية العالمية .

ولدت المنافسة وتقسيم العمل الجماهيري أساسيين . فكان هناك أولاً نوع من التوزيع الاقليمي للنشاط بين الدول المتطورة صناعياً ؛ وكان ذلك نتيجة عجز كل منها عن أن تكفي نفسها بنفسها ؛ فان فرنسا وبريطانيا العظمى مثلاً قد تبادلنا شراء الكثير من المصنوعات الراضية . ثم حدث تقسيم عمودي للعمل : فمن جهة طلبت أوروبا من القارات الاخرى الخامات الزراعية والصناعية ، بغية تحويلها بنفسها ؛ ومن جهة ثانية زودت الدول الجديدة النامية بالمصنوعات . وقد سهل توظيف رؤوس الاموال هذه الحركة الدائرية ، لأن رؤوس الاموال تشط استثمار المناطق المتخلفة وتزيد من قدرة سكانها على الشراء . وجملة القول ان العالم كان سائراً في طريق التحول الى مجموعة اقتصادية وحيدة عظيمة مرتبطة بالراسمالية الأوروبية ، وانه جاز للبريطانيين الاعتقاد بأن موقفهم خير موقف لجنى خير الثمار من مثل هذا النظام .

ارتكز حسن سير التجارة العظمى الى معرفة السلع التجارية إعلام واسع وإعلان ناشط والحاجات . ولكن الجهاز القادر على تجميع كافة المعطيات لم يكن متوفراً . فقد انشئت دوائر استعلامات في لندن أولاً ، ثم في نيويورك وباريس ؛ وتوفر لبرلين ٧٥٠٠٠٠ جذاذة في السنة ١٨٩٠ . وعقدت مؤتمرات الاحصاء الاولى وتناولت موضوع المعارض عندما منحت الظروف . وبرزت صحف عديدة كـ « اقتصادي » (ايكونومست) و « صحيفة الاقتصاديين » ، و « الاقتصادي الفرنسي » معلومات ومستندات وفيرة . وفي السنة ١٨٧٩ عقد في بروكسل مؤتمر للجغرافية التجارية .

كانت السوق الدورية ، من قبل ، ملتقى الشارين والباعه . ثم تلاشت اهميتها ولم يبق منها حوالى السنة ١٩٠٠ سوى سوق الناذج وسوق العرض . ومرد ذلك الى ان التفاوض في المعاملات التجارية اصبح يجري في المصافق أي في اجهزة دائمة تقرر فيها الصفقات نقداً ولأجل معينة في الدرجة الاولى . فمعقد البيع المؤجل قد نظم المعاملات التجارية التي تتناول كميات كبرى من السلع بين اطراف تفصل بينهم مسافات كبرى . ولكن المضاربة قامت الى جانب وظيفة المصنف الطبيعية ، من حيث أن البائع يرجح تدني الاسعار لأنه يكسب عند التسليم ، بينما يحسب الشاري حساب مكاسب الارتفاع ؛ وما يؤيد ذلك ان التفاوض غالباً ما تتناول سلفاً وهمة وكان أشبه ما يكون بالمرافعة . فقد تناول التفاوض حصيد قمح او قطن مقبلاً ومنسوجات او مصنوعات معدنية لم تخرج بعد من المصانع . ومنذ السنة ١٨٤٤ ، مست الحاجة في لندن الى

تشديد بناء « لمقاومة الملكية » بغية التخلي عن البناء القديم « لمقاومة الخزونات » ثم تأسيس
التخصص شيئاً فشيئاً ! فتقرر مصير القطن في ليفربول والهافر وبرين ونيويورك، ومصير الحرير



شكل رقم ١٠ - الثروة الفرنسية في الخارج

١ ، توظيف أكثر من خمس مليارات ؛ ٢ ، بين مليار وخمسة مليارات ؛ ٣ ، بين ٥٠٠ مليون ومليار ؛
٤ ، بين ١٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ؛ ٥ ، بين ٥٠ مليون و ١٠٠ مليون ؛ ٦ ، أقل من ٥٠ مليون .
« نقلاً عن التحقيق الذي أجري في السنة ١٩٠٢ »

في ليون وميلانو ، ومصير الجيوب في انفرنس ومرسيليا وشيكاغو . وكان من عدد العمليات
في لندن ان مراكز الاجتماع قد تكاثرت : فقصر المم في « مارك لاين » على الجيوب ، وفي

« منسج لاين » على الشاي ، الخ . وفي ما مضى ، اختلف سعر الحبوب بين منطقة انتاج واخرى ؛ ولكن التجارة الكبرى توصلت شيئاً فشيئاً الى فرض الاسعار وفقاً للحصيد والطلب العالمين . ومن ضفاف الـ « ميشيغن » الى ضفاف الـ « مرسى » ، ومن مونتريال وسيدني وبوينوس ايرس الى لندن اعطيت المعلومات يومياً ، بواسطة التلغراف ، حول اهمية المخزونات والمحاصيل المرتقبة وطلبات البضائع والاسعار المتداولة . وركزت مؤسسات الحرير اهتمامها على ظروف الصناعة ، التي غدت بمثابة تحكيم تقني حقيقي في موضوع النوعية .

وتماظم دور الوكالات . فسارت « هافاس » قدماً في طريقها الصاعدة : وقد توصلت شبكة فروعها ، التي كانت على اتصال تلغرافي يومي بالوكالة الام ، الى ضم الصحافة الفرنسية في الولايات . وغدت « رويتر » في لندن اكبر جهاز اخباري في العالم : فان الابن الثالث للعاهل « امراييل بير » قد امن الخدمة بين العاصمة الانكليزية والبر الاوربي منذ السنة ١٨٥١ ؛ وفي السنة ١٨٥٩ فاز بموافقة صحيفة الـ « تايمس » على نشر البرقيات حول الحرب الايطالية ؛ وخلال حرب الانفصال اعطى الاخبار بواسطة مركب بخاري يلاقي السفن الآتية من اميركا في عرض البحر ؛ وفي السنة ١٨٦٦ استحصل على امتياز حبل سلكي يصل لنسند بالهند مباشرة .

كان « بارنوم » مثال المخرق المصري ، وربما عاد اليه فضل ترويج اللون الاعلاني : فبعد ان عرف « طوم بوس » الشهرة بواسطة الدعاوة ، دون آراءه حول من جمع الثروة باستغلال فضول البشر وسرعة تصديقهم المفرطة (« خدائع العالم » ، ١٨٦٥) . فلجأ الثلاثي « موريسوف » - « بار » - « هولواي » آنذاك الى الاعلان لتمجيد الاقراص الدوائية ، وزاد « غوردن بنيت » من نسخ صحيفته « نيويرك هارولد » بفضل ادراجاته يشبه في مغزاهما الاخلاقي . ودان اميركي آخر هو « سلفردج » للاعلان الصاخب بنجاح مخزنه في ساحة لندن . وقابل الدعاوة لصابون « بير » الدعاوة لصابون « سن لايت » ، واستخدم ليتون طرائق جديدة بـ « بارنوم » لتصريف شايه في الاسواق الانكليزية . وقد اشماز كثيرون من المصباح السحري الذي عكس على عمود نلسون دعاوات للساعات او المواد الصيدلية . فدخل الاعلان نهائياً في الاعراف الصحفية التي اسهم في افسادها اسهاماً كبيراً ، ولكنه لم يسد مسد المقال المدفوع الذي كان يستخدم ، بمجبة الاعلام ، هذه الصفة التجارية او تلك . فاستمر الاستيلاء على الرأي العام بواسطة المال .

وقد جندت الرغبة في هذا الاستيلاء كذلك البيانات والجداول الاعلانية التي وزعت في الطرق العامة او ارسلت الى المنازل . فلا عجب من ثم اذا ما علمنا بأن طوماس هولواي كرس نصف مليون دولار لتعريف الاميركيين بأقراصه الدوائية في السنة ١٨٥٠ . فهل يجب ان نرفض شهادة الراعي الالماني الذي ذكر انه استلم ١٣٥٥٧ صفحة من المنشورات التجارية في السنة ١٨٩٩ ؟ ان من المسلم به ان الدعاوة في فرنسا حوالي السنة ١٩٠٠ قد كلفت زهاء ١٠٠ مليون خصص اربعون مليوناً منها للاعلانات في الصحف . ولكن الاعلان قد غزا المناظر الطبيعية . فبواسطة الاعلانات المعلقة على الجدران ، فرض الاعلان فرضاً على البصر في شوارع

المدن والطرق وقاعات الاجتماع والمسارح . فقد اعتبر الاعلان المعلق اداة نظرية للدعاوة وقد ولد بولادة الطبع على الحجر ومكابس الطباعة الكبرى ، وبدافع الرغبة في مقابلة الانتاج الكبير بتوزيع كبير على مستواه . فكان الاعلان مزعجاً بملازمته للرائين ولكن أثره الجماعي كان عظيماً جداً .

كانت الرأسمالية الأوروبية في موقف المسلف الجليل الفائدة . أجل ان دين أوروبا على العالم هذا الموقف كان منطقياً على اخطار كثيرة ؛ ولكنه قد وفر لها دخولات كبرى وسمح لها في الوقت نفسه بتنشيط الحركة التجارية الدائرية . فكان من ثم عدد صغير جداً من البلدان بمثابة صيارفة للدول الاخرى لقاء دخل تقتطعه منها . وباستطاعتنا تقدير هذا الدين بـ ١٥٠ ملياراً حوالي السنة ١٩٠٠ يعود اكثر من نصفها الى بريطانيا العظمى . وقد توزع قرابة ثلث الاوراق التجارية الفرنسية في الخارج . ويجدر لفت النظر هنا الى ان توظيف الاموال في المستعمرات لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة جداً .

كان التمويل الفرنسي لألمانيا مفيداً لمشاريع الحكومة الألمانية في الدرجة الاولى ؛ ولكن حصيلة التوفير الجرمانى ، بعد أزمة السنة ١٨٧٣ ، ولا سيما بعد السنة ١٨٨٠ ، قد سلكت بالتفضيل طريق الخارج (وقد تشكى بسمارك نفسه من ذلك لدى مصرف « بلايخرودر ») : فقد اتجهت اما بشطر الولايات المتحدة او اميركا اللاتينية ، واما شطر أوروبا الوسطى المجاورة . وازا بدأت الولايات المتحدة تصدر الرساميل الى اميركا اللاتينية ، فان المال الأوروبي ما زال يستثمر فيها . ولما كان المكتب البريطاني منكباً على العموم الى الطبقات الاجتماعية الميسورة ، وواقفاً على وضع السوق التجارية ، فقد ساند ، في أوروبا وسواها ، معظم المشاريع التي تتطلب مصنوعات بريطانية . فهو قد فكر ، قبل السنة ١٨٥٠ ، بالبر الأوروبي القريب خصوصاً ، مع اهتمامه منذ ذلك الحين بأميركا . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، توسع افقه واهتم اكثر فأكثر بالبلدان النامية وبمستعمراته .

ما زالت بعض رؤوس الاموال المتوفرة توظف في أنحاء أوروبا . وقد سارت في اتجاهين منفصلين هما الشرق والجنوب اللذان كانا اعجز من ان يحجزا بالادوات بوسائلها الخاصة . ففي الشرق أصبحت الامبراطورية الروسية ، منذ السنة ١٨٨٠ ، المستعمرة الأوروبية الرئيسية للرأسماليين الفرنسيين .

ان الشرق لميدان عمل واسع : مشاريع خطوط حديدية ومرافئ ومناجم ، وقروض للحكومات الفقيرة ، وعمليات اخرى كثيرة ، مغرية وعقوفة بالاعطال معاً ، قد تنجم عنها ملابسات سياسية شتى . وكان هنالك ميدان مفضل آخر للسلفين : اميركا اللاتينية حيث احرزت سوق لندن تقدماً ما زالت تحافظ عليه . اما الشرق الاقصى فقد كان له سحره القوي على الرغم من بروزه متأخراً ؛ وهنا ايضاً كانت السيطرة للنذن .

وحبذا لو نستطيع تقدير النفوذ الذي توصلت اليه المؤسسات التجارية الكبرى في البلدان التي عملت فيها : فانها كانت دولا حقيقية داخل بعض الدول .

لم يكن ارتقاء الرأسمالية منتظماً . وقد سبق لـ « سيسموندي » ان تنبأ
الازمات الرأسمالية
بحتمية الازمات الدورية التي تلازم نظاماً يحكم على نفسه بالاكثار من
الانتاج احياناً بفعل اقتطاعه الارباح من اجور اليد العاملة . لا بل برهن ماركس والمجلز ان
الرأسمالية منتبهة حتماً الى الاضمحلال بفعل متناقضاتها . وقد مثل «جوجلار» الازمات بمراحل
الانتقال من عهود الازدهار الى عهود التقهر التي شبهها «باريتو» و «والراس» ، تلميذ
«كورنو» ، بالحركات التذبذبية . وقد عزاها «جيفونس» انذاك لاسباب كونية .

بدت الظاهرة وكأنها حركة دورية ، يتألف الدور فيها من مرحلة مؤاتية ومرحلة غير
مؤاتية ويستغرق عشر سنوات تقريباً . وهذا ما حدث منذ السنة ١٨١٥ ؛ وهذا ما سيحدث
بعد السنة ١٨٥٠ ، اذ تعاقبت الازمات الهضامة في السنوات ١٨٥٧ ، و ١٨٦٦ ، و ١٨٧٣ ،
و ١٨٨٢ - ٨٤ ، و ١٨٩٠ ، و ١٩٠٠ - ٠١ ، و ١٩٠٧ . ولكن بينما كانت الازمة ، في السنة
١٨٤٧ ، ازمة نظام قديمة او ازمة من الطراز السابق للرأسمالية ، التي تبرز في القطاع الزراعي
اولا والتي يكون عاملها الرئيسي افتقاراً الى المواد الغذائية ، نرى على نقيض ذلك ، في السنة
١٨٥٧ ، ان الجهاز الرأسمالي نفسه هو ما تحمل به الازمة قبل غيره ، في اتم مركز من مراكزه ،
اي في لندن . وكان سير الازمة منذئذ وفقاً للترتيب التالي : المؤسسات المالية اولاً ، ثم الصناعة
والتجارة ، واخيراً الارياف . وقد بدا ان الازمة تنشأ ابداً من افراط في المضاربة يتسبب في
انهيار مصرفي جزئي .

فهل كانت الازمات ازمات نو ، مفيدة بعض الشيء ، وعاجزة على كل حال عن ايقاف
النظام الرأسمالي في سيره ؟ ام ازمات مشؤومة وسيئة العاقبة لا تترك طبيعتها المزمنة اي شك
حول نهاية الرأسمالية ، باعتبار ان فترات الانطلاقة ليست سوى هنيهات سريعة الزوال ؟ ومهما
يكن من الامر فقد اتفق الاحرار والاشركيون على ملاحظة انخفاض معدل الفائدة وحاجة
السوق الملحة الدائمة الى التوسع : وهو تطور يرافق التقدم الاقتصادي في نظر الاولين ، ويؤدي
الى اشد التسلطات خطراً على مستقبل البشرية في نظر الآخرين .

بعد هزات السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ ، استؤنف العمل
استئنافاً بيناه ولكن الاسعار قدنت قدنياً حقيقياً بعيدازمة
التقلبات الطويلة الامد
السنوات الجيدة ١٨٥٠ - ١٨٧٣
السنة ١٨٧٣ ، ولم ترتفع نسبة الفائدة بعد انخفاضها ، واستمر
الهبوط في الاوراق النقدية والهبوط في الارباح بصورة عامة . فكارن المماصرون عصرهم بالعصر
الذي سبقه وتساءلوا عن معنى انقلاب على مثل هذا الوضوح والتهاذي في الاتجاه . فعاودت
سكان الارياف ، الذين عانوا من هذا الهبوط اكثر من غيرهم ، ذكرى «السنوات الجيدة» : التي

سبقت الحرب الاهلية بالنسبة للمزارعين وأصحاب المزارع في اميركا . وعلى الرغم من استقرار السلم في اوروبا ، فقد بدا لعالم الاعمال ان الاعمال كانت اكثر سهولة قبيل السنة ١٨٧٠ ؛ ولم يكن القلق الذي أثاره السباق الى التسلح ليفسر الجلود السائد .

فانما ما درسنا الاسعار ، استطعنا الخلو الى وجود مرحلة استثناف عمل تعقب مرحلة الهبوط التي عرفها الربع الاول من القرن ، وتبندى بعد ازمة السنة ١٨٤٧ - ١٨٤٨ ، لا بل قبل ذلك في انكلترا . ويظهر الخط البياني المنحني انخفاضاً يكاد يكون مستمراً ، ثم ارتفاعاً قوياً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٥٦ يليه تقلبات بقيت اسعار البضائع معها اعلى منها في المرحلة السابقة^(١) . وإذا اتخذنا المعدل ١٠٠ اساساً للسنة ١٨٥٠ في فرنسا ، كان معدل مجموع الارباح ٣٥٨ ، ومعدل الارباح الصناعية ٣٥٦ ، ومعدل الاجور ١٧٥ ، وكلفة الميشة ١٢٣ ، في السنة ١٨٧٠ . ولكن الحركة كانت مماثلة في كافة البلدان الغربية .

لوحظت آنذاك حركة تجارية ناشطة ؛ فسالت مياه نهر الحرية الاقتصادية غزيرة ؛ وبدا نمو الاسواق السلمي امراً يمكناً بسبب توفر وسائل الائراء دون اثاره الاطماع . وانطوت الاساليب الاستعمارية نفسها على مزيد من الرفق والتلطف . فعرف هذا العهد بالعهد المنشطاري . وعلى الرغم من الازمات العابرة والحروب ، التي ربما اسهمت في نمو الانتاج والاستهلاك على كل حال ، فان المناخ العام ، الذي كان مشجعاً ، قد حل على التفاؤل .

المحفى الرسم البياني للاسعار مرة اخرى بعد السنة ١٨٧٣ .
هبوط السنوات ١٨٧٣ - ١٨٩٥
فتكاثر الدلائل المكثرة : مزيد من المنافسة حول سوق
ونهاية الموجة ١٨٩٥ - ١٨١٥
يبدو نشاطها مصاباً بالضعف والارتخاء ؛ تدن جلي في الطلب
بالنسبة للمرض ؛ هبوط نسبة المكاسب ؛ وجدير بالانتباه ان هذه الوقائع الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً . وأبطأت في الوقت نفسه حركة الدخل الحقيقي للشخص الواحد التي لوحظت منذ السنة ١٨٥٠ . ولكن سلباً دائماً ، وان مسلحاً ، قد عقب الحروب القومية الاوروبية . فبدا المرض متفوقاً على الطلب بفضل النجاحات التقنية ؛ لا سي وأن القيمة الشرائية لم ترتفع ارتفاعاً كافياً بسبب استثمار اليد العاملة استثماراً مفرطاً . وأدى بروز البلدان الحديثة الى اشتداد المنافسة ، فتضرر منتج الارياض بصورة خاصة بسبب اقتناره الى الادوات المتقنة : فأدى انخفاض المحاصيل الريفية الى انخفاض شامل سريع الخطى . وصمدت الاجور في البدء صموداً دونه صمودها خلال الفترة المقلبة التي دامت من السنة ١٨١٥ حتى السنة ١٨٤٨ : ولم ترتفع الاجور الاسمية ارتفاعاً مطرداً فحسب ، بل لوحظ ارتفاع الاجور الحقيقية ايضاً . الا ان الازمات الدورية كانت ثقيلاً على العامل ورب العمل على السواء . فكان على المشروع ان يبذل جهداً قوياً كبيراً ،

(١) راجع الرسوم البيانية في الصفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

بالسمي وراء انتاجية متزايدة ، واعادة التنظيم لجهة التجميع ، وتوسيع العمل . واشتدت حدة الصراع من اجل التصريف في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه حدة المعركة الاجتماعية . ولكن التغييرات المدخلة على الادوات ووسائل العمل انقذت مؤسسات كثيرة : فان معمل « هولنز » للفلز ، في احدى ضواحي « لوتنهام » ، الذي هبطت رباثته من ٢٦ الى ٩ ٪ ، قد تحول الى نسج صنف اسكتلندي جديد واستغنى عن الوسطاء بتعامله مباشرة مع الباعة بالتفصيل ؛ كما ان معمل « فورتمن » للفلز في « غنت » قد جهّز بأدوات جديدة واستبدل آلات التحضير بحللات آلية .

يتضح من ثم ان الهبوط الكبير قد استمحل التقدم التقني ودفع بالرأسمالية الغربية الى الضغط بمزيد من القوة على مناطق العالم الاخرى .

يجب لفت الانتباه ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان ارتفاع الاسعار ونسبة الفائدة في السنوات ١٨٥٠ - ٧٣ كان سريع الزوال . وليس الانخفاض الذي ابتدأ منذ السنة ١٨١٧ هو ما استمد حقوقه بعد السنة ١٨٧٣ ؟ لذلك فان الواجب يقضي بادخال مفهوم موجات تكاد تتجدد قرناً بعد قرن ، هي اعظم تمادياً من التقلبات الطويلة الامد . فيكون اماننا موجة جديدة تمتد من السنة ١٨١٧ حتى السنة ١٨٩٥ وتشمل ٨٤ سنة تقريبا ، وتذكرنا بالموجة التي امتدت من السنة ١٧٣٣ حتى السنة ١٨١٧ ، وتميزت بارتفاع تطاول عهده جداً ، وبموجة اخرى ابعد عهداً امتدت من السنة ١٦٤٠ حتى السنة ١٧٣٢ وتميزت بالانخفاض عموماً . وربما بلغت الرأسمالية الحرة ذروتها اثناء هذه الموجة تقريباً ، مستفيدة من النجاحات التقنية وتوسع الاسواق التجارية . وجملة القول ان كل ما حدث قد حدث وكأن النظام الاقتصادي ، بعد ان استفاد من تدني الاجور اولاً ، ثم من تبدل الاجور بالنسبة للاسعار والمكاسب خلال الارتفاع العابر ، قد وجد نفسه في موقف دقيق حين تدنت الاسعار والمكاسب مرة اخرى وصعدت الاجور في وجه الاتجاه نفسه . وفي سبيل التغلب على المحنة ، ربما رضي بتغييرات تتناول منه التركيب ، واستنجد بالعنصرية الصناعية ، وسلك طريق التسلطية متحمساً ، ولجأ عند الحاجة الى الطرائق التي قد توحى بها اليه القومية .

القومية الاقتصادية تستعيد مكاسبها :
١٨٩٥ قد كالت الضربات القاسية للمقايسة الحرة . وعيشنا
العودة الى مبدأ الحماية

حاول القائلون بهذه السياسة تقديم الادلة على ان الانانيات القومية مسؤولة عن القلق السائد ، لأن توزيع العمل بين الدول ما زال ناقصاً . اما الخصوم فقد نسبوا لها هبوط الاسعار والمكاسب . وكان الحدث الهام في هذا المجال تحول العناصر الزراعية الى مبدأ حماية الانتاج الوطني ؛ فجاءت آفة الكرم نفسها ، التي قضت على آمال الكرامين في فرنسا تدعم هذا المبدأ مثلاً . فتحول كافة المستائين بأنظارهم نحو الدولة وطلبوا بمساعدة

موظفي جاركها . اما الحكام فقد استجابوا لنداءات هؤلاء المنتخبين دون صعوبة لأن الرسوم ستساعد على دفع نفقات الخدمات العامة والتسلح . يضاف الى ذلك ان الاوروبيين استطاعوا بذلك اتهام الولايات المتحدة التي استفادت من الرسوم الضخمة لتصدير محاصيلها ومصنوعاتها ورفضت تسهيل بيع سلع العالم القديم . ولكن المصيان قام في وجه بلاد المدرسة المنشورية : قمشت المانيا البساركية على رأس المتمردين ، وانتصر مبدأ الحماية بسرعة نسبية حتى في بلجيكا ، ولم ترفضه سوى هولندا وبريطانيا العظمى . وبينما كانت الحروب الجبركية قائمة بين فرنسا وايطاليا ، وبين المانيا من جهة وروسيا واسبانيا من جهة اخرى ، وبينما كانت الولايات المتحدة تعزز تكراراً اجهزة الحماية ، قام حلف التجارة السمحاء ، يحاول اقضاء التجارة الحرة ، عن وطنها الام .

وهكذا احتمت الرأسمالية الغربية في مواقع مذهب الحماية الدفاعية ، فأطلقت الحزبية للقومية وقبضت بمزيد من التسلطية . انه لمصير محتوم ، سينتهي اليه البريطانيون انفسهم حتى ولو رفضوا التنكر للكوبدنية التي تتصل ذكرها ، بالنسبة لهم ، بذكري عظيمة اخاذة .

فيتضح من ثم بعد البحث والتدقيق ان النظام الاقتصادي السائد في اوروبا واميركا الشمالية سينتهي حتماً بالاولى ، وبالثانية من بعدها ، الى التوسع بفعل الظروف والاتجاه الطبيعي .

الفصل التاسع

الأستعمار الأوروبي ونشأة السياسات التوسعية الكبرى

« المستعمرات إحدى ضرورات الحياة المصرية ... »
(فرنشكو كريسبي ، في ٢ أيار ١٨٨٨)
« ان المقياس الوحيد الواجب اعتماده في كل مشروع
استعماري هو درجة فائدته ومجموع المائدات والمكاسب
التي يجب ان يدرها للوطن الام » .
(« اوجين اتيان » ، مقال في « الا فان » ، ١٨٩٧)

بعد القضاء على سيطرة الاسبانيين والبرتغاليين البرية في اميركا ،
اتفاق الظروف القومية في اوروبا
لم يبق في منتصف القرن سوى امبراطورية واحدة عالمية حقا ،
والاستعمار في منتصف القرن
هي الامبراطورية البريطانية ؛ فمعظم الممتلكات الهولندية
كانت مجموعة في جنوبي شرقي آسيا ، ولم تستطع فرنسا حتى ذاك التاريخ سوى التمكن هنا
وهناك في بعض النقاط الدائرية من افريقيا واوقيانيا والهند الصينية . والحال توقع
الاوروبيون خلال سنوات قليلة ، في النصف الثاني من القرن ، الى الاستيلاء على الشطر الاكبر
من افريقيا (١١٪ فقط في السنة ١٨٧٥ ، و ٩٠٪ في السنة ١٩٠٢) ، ومجموع الاراضي الاوقيانية
تقريبا (٩٨٪ مقابل ٥٦٪) ، بينما تكونت نهائيا حدود الولايات المتحدة الواسعة في اميركا
الشمالية . واذا ما استثنينا المغرب وليبيا ، فان المستعمرات الاوروبية قد تحددت آنذاك بما
يقارب ثلاثة اخماس اليابسة واكثر من نصف سكان الكرة الارضية ، بصرف النظر عن اوروبا .
لم تشكل المنازعات القومية حجرة عثرة في سبيل هذا التوسع . واذا كانت الحروب الكبرى
التي نشبت بين السنة ١٧٩٢ والسنة ١٨١٥ قد اعاققت مؤقتا المجهود الاستعماري الفرنسي

والهولندي ، فانها قد أدت من جهة ثانية الى توطيد الوجود البريطاني خارج أوروبا ؛ ويجب انتظار السنة ١٩١٤ حتى نرى دولة تفقد مستعمراتها حين ينقطع اتصالها بها . لا يل ان النصر الالمانى في السنة ١٨٧٠ وقيام المملكة الايطالية قد استمجلا في الواقع ظهور تيار استعماري قوي . فمن جهة افضت ادعاءات روما الى تحويل البحر الابيض المتوسط الى حلبة منازعات ؛ ومن جهة ثانية اسهمت السياسة الاميركية في تحريك رغائب الدول الاستعمارية التقليدية ، ودفع فرنسا الى الانقضاخ على افريقيا ، وروسيا على آسيا ، ووقوف فرنسا وروسيا معا ضد بريطانيا العظمى التي ما كانت لتتف موقف اللامبالاة من اقتسامات جديدة . ولعبت المصادفة نفسها دورا هاما في ارشاد منافس جديد ، هو ليوبولد ملك بلجيكا ، الذي استغلها بمهارة ، الى طرق القارة السوداء . وبعد ان قطع توزيع الانصبة شوطا بعيدا ، اعلنت المانيا ، ربما بعد فوات الاوان ، عن عدم رضاها واستهلت سياسة استعمارية رهيبة .

استمرار مذهب النامضة للاستعمار
بيد ان التوسع الاستعماري قد صادف خصوما يناهضونه .
فصادفهم في الدرجة الاولى بين اولئك الذين تخوفوا من توزيع القوى الوطنية . أفلم بيد نابليون الغد الثالث هذه الملاحظة في السنة ١٨٤١ : « نحن نفقد الجزائر بحرب لا هدف لها... ان هذه الممتلكات النائية ، الباهظة الاكلاف في ايام السلم والمسببة المصائب في ايام الحرب ، تشكل سببا من أسباب الاضعاف » ؟ وقد قاوم حملة المكسيك شطر هام من الاعيان المحافظين والمعارضة الجمهورية : وقد لاحظ المدعون العامون آنذاك ان الرأي العام يعتبرها « باهظة النفقات » ... ولا نتيجة لها . واتفقت احزاب اليمين والراديكاليون في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع ارسال الجيوش الى خارج أوروبا : فقد صاح كليمنصو في السنة ١٨٨٢ قائلا : « يجب الا نحاول ارتداء عنف اسم الحضارة الخداع » . وفي السنة نفسها اعلن بيسارك في الـ « رايخستاغ » : « لن نعتد سياسة استعمارية ما دمت مستشارا » . وقد امتنع سواد البلجيكيين عن مساندة ما اتواه الملك ليوبولد .

وغالبا ما استند الى الاعتبارات العاطفية والانسانية ، ووقفت الاشتراكية موقفا معاديا بيتنا من السياسة الاستعمارية لانها نظرت اليها نظرتها الى احدى طرائق الرأسمالية التسلطية . ولكن يجب لفت الانتباه الى ان النفور قد تجلج زمنا طويلا في صفوف الرأسماليين الاحرار بصورة خاصة . فقد اكد « ايف غويو » في السنة ١٨٨٥ : « اذا ما رغبتنا في ان نمثل تمثيلا رمزيا ما كلفه من ضحايا الـ ٢٥٠.٠٠٠ مهاجر مستعمر الذين استوطنوا الجزائر ، لتبين لنا ان كلا منهم يجلس على اربع جثث ويمرسه جنديان » . ولا يخلو من مغزى ذلك الاتجاه القوي الذي ارتسم في بريطانيا العظمى بين السنة ١٨٤٠ والسنة ١٨٦٠ واستهدف شمل المستعمرات ؛ « الحكم الذاتي » والتوقف عن كل فتح جديد . وقد كتب « دسرايلي » نفسه الى « مجلسوري » في السنة ١٨٥٢ : « كل هذه المستعمرات اللينة ستصبح مستقلة بعد سنوات ، وهي بمثابة رحا

معلق بمنقنا . وقد سلم « روجرز » ، أمين سر الدولة لشؤون المستعمرات ، بأن « مصيرها الاستقلال » . وفي السنة ١٨٦٣ صدر كتاب « غودوين سميت » المشهور « الامبراطورية » ، الذي اقترح فيه المؤلف انفصلاً حياً بين بريطانيا العظمى وبعض البلدان ككندا واستراليا . وفي كتابه « المستعمرات » ، أعلن الرحالة الألماني المالم بأصول الشعوب ، « ادولف باستيان » ، عداءه الصريح للفتح الاستعماري . أضاف الى ذلك الانطباع القوي الذي تركه قصة « ماكس جافلار » لـ « ادوارد دوز - دكرز » الذي بسط ، باسم « مولتاولي » المستعار ، تجاوزات طريقه « فان - دن - بوش » الاستعمارية في الهند النيرلندية . اما السياسة السلبية ، والمتحفظة على كل حال ، التي سيعتمدها « غلادستون » المنشصري ، فلها ما يبررها على ضوء نفعية تجارية عززت موقفها المعادي للتسلطية الاستعمارية نجاحات « الازمنة الجيدة » : فان استثمار الثروات المالية لا يبرر البتة تلك هذه الارض او تلك بموجب مبدأ قومي وحتى تحضيري ، ولكنه يستلزم منافسة حرة باعتماد سياسة الباب المفتوح . ولذلك كان كافياً ان يحمي « بلرستون » حرية البحار التي بفضلها تأمنت ثروة بريطانيا العظمى وكافة الشعوب المتطورة .

ابدى « كويدن » هذه الملاحظة التي لا تخلو من الغم : « تتمسك ديمرة التقليد الاستعماري الطبقة الوسطى بالمذهب الاستعماري تمسك الارستوقراطية والخطوط الاولى للمذهب تسلطي نفسها به » وليس العمال اكثر المية من هذه وتلك . اما المجاز فقد أسف على ان العمال « يتمتعون بكل طمأنينة مع الراديكاليين المحافظين والاحرار باحتكار انكلترا الاستعماري وباحتكارها السوق العالمية » . فقد ساد الرأي من ثم ان التخلي عن المستعمرات عاقبته الانحطاط .

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الاول من القرن بتنمية فرق الاختصاصيين المؤهلين للحرب والادارة في المناطق الحارة ؛ فأعد هذا الاعداد الجنود والموظفون المرسلون الى الهند والجزائر الذين استفيد بعد ذلك من خبرتهم في مناطق آسيوية وافريقية اخرى . وقد تجددت تقاليد قديمة في كثير من العائلات الفخورة بالانتساب الى « رسالة الجندي » او « الخدمة » . وامنت الامبراطورية الثانية استمرار الجهود الذي ما زالت انكلترا تبذله ، اقله لتوطيد مراكزها . وقد جاهر بلرستون بما يلي : « لا تتخلوا ابدأ عن رأس دبوس يحق لكم الاحتفاظ به وتمتقدون ان باستطاعتكم الاحتفاظ به » .

ربما مت ذلك بصلة الى المفهوم التمديني للصليبية المسيحية ، السلبية او المسلحة . وكان هذا المفهوم قد استمد قوته بفعل الحماس الذي اثاره تيار القوميات . فبينما ما زالت بعض الشعوب منشغلة بهاجس وحدتها ، تولت شعوب أخرى رسالة اوسع آفاقاً . ألم يقدم كيريافسكي على الشعوب الاخرى ، حوالي السنة ١٨٣٠ ، « الشمين الفتيين الطريبي العود » ، اي الشعب الروسي والشعب الاميريكي ؟ اضاف الى ذلك ان صدى السلافية الرومنطيقية الشاملة قد تردد في مؤلفات

« كاتكوف » و « أكسكوف » بفكرة الدور المجيد الذي تـذخره العناية الالهية لروسيا الارثوذكسية ، وان دوستوفسكي ارتأى ان « كل شعب قوي يؤمن ويحب ان يؤمن ، اذا أراد لنفسه حياة طويلة ، بأن خلاص العالم متوقف عليه وعليه وحده . وقبل ان تستغل الداروينية وينشر « غوينو » كتابه « محاولة في اختلاف الاجناس البشرية » ، جزم « اغاسيز » « وكارفاج » بتفوق الجنس الابيض ، وتكلم « كوربه دي ليل » عن « الاجناس المتفوقة بالطبيعة » ، وكتب « كارليل » الذي امتدح الحكام ، ما يلي : « ان جزيرتنا الصغيرة باتت ضيقة بسكانها ، ولكن اتساع العالم يكفي لسته آلاف سنة . وفي أسلوبه الديني ، عظم « شارلز كنغسلي » ، « الغزيرة الجماعية » ، بينما تفتنى « تيسون » ، بالبطولة في خدمة السياسة البلهرستونية . وحين نشر « شارلز ديلك » ، كتابه « بريطانيا العظمى » افتتن قراءه ، قبل أي شيء آخر ، بالنشيد المخصص لمظمة ما وراء الاوقيانوسات فبات ممكناً ان يأتي دسراييلي ويحل الحزب التوري من العربة المنشسترية ويعين له مهام اعظم نبلاً ويعمل من فكتوريا امبراطورة الهند . وعلى الرغم من أن غلادستون ، الذي جاء بعده ، قد اصدر اوامره بالجلء عن أفغانستان والترانسفال ، فان الحملة التوسعية قد عرفت منذئذ نشاطاً مطرداً : فان « سيللي » ، تلميذ « داروين » ، قد عرض في كتابه « توسع انكلترا » ارتقاء مهيباً منذ الزبايت ؛ كما ان « فرود » ، تلميذ كنغسلي ومنفذ وصية « كارليل » ، قد طاف في الماضي والعالم البريطانيين ، فرأت النور « عصبه فكتوريا » و « عصبه الامبراطورية » و « عصبه الامبراطورية البريطانية » ، وارتسم في الافق مثال جديد للسياسة الخارجية . وجرى تحول ذو مغزى الى فكرة امبراطورية سيدة مهيمنة تكفي نفسها بنفسها ، هو تحول « جوزف تشمبرلن » ، « تاجر البراغي » ، « الغلادستوني » والمنشستري .

عملت الوطنية والرأسمالية معاً—وهذه الاخيرة ، تحت ظل التأخر الاقتصادي—في اتجاه التوسع الاستعماري . فان « ديبون—هوايت » كان بمثابة عهد الطريق حين عين للدولة مهمة « اغناء البشر باضافة المستعمرات والاسواق النائية والاسواق الجديدة الى وسائل انتاجهم او مقايضاتهم » . ولكن « ليست » و « روشيه » كانا قد عارضا كذلك المدرسة السميثية ، فأخذ الناس يصفون اليهم في المانيا حيث اقلحت الجمعيات الاستعمارية ، يساندها مجهز والسفن والصناعيون ، في ارغام بشارك على « كانوسا » جديدة ، بانتظار « السعر الجديد » الفليومي . فأعاد « بول لروا — بوليو » حينذاك طبع كتابه « الاستعمار عند الشعوب المعاصرة » ، وفاز بحمل القائلين بمذهب الاحرار على اعتناق هذا المبدأ : « ان الشعب الذي يستعمر هو شعب يبني ركائز عظمته في المستقبل » . وقد برر « فرتي » مباداته بربطه بين العظمة والمصلحة : فمن جهة « تأسيس المستعمرة يعني ايجاد سوق » ، ومن جهة ثانية « للأجناس المتفوقة حقوقها حيال الاجناس الدنيا » . وهو سيوجز برنامج الرأسمالية الاستعمارية بعد ذلك في جملة واحدة : « السياسة الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية » .

المخطاط الشركات الممتازة القديمة
بعد انهيار النظام التجاري القديم ، عرف الديوممة بعد السنة ١٨١٥ عدد معين من المشاريع الكبرى المبنية على الاحتكار .

اجل لم تجدد الملكية ، ولا نابوليون ، شركة الهند الفرنسية ، ولم تزدهر اية مؤسسة من مؤسسات هذا العهد باستثناء الشركة الهولندية الجديدة التي تعاطت حتى السنة ١٨٧٥ تجارة رابحة في الـ « انسولند » والشرق الاقصى . وحين تجديد عقدها لم تفقد شركة الهند الانكليزية امتياز التجارة مع الصين فحسب ، بل رأت امتيازها في الهند ، المحدد بعشرين سنة ، يركسي طابع مجرد مستودع للتاج . ثم حُدّ بعد ذلك من صلاحياتها ، وما لبثت المؤسسة المحترمة ان انهارت بعد ثورة الجنود البلديين في السنة ١٨٥٧ .

كان في نية معظم الشركات القديمة الممتازة استثمار المناطق الحارة . والحال كان عدد منها قد عرف الديوممة في الشمال الاميركي الفني بالفراء . لا بل ان الشركة الروسية الاميركية وشركة الشمال الغربي وشركة خليج « هودسون » قد تنازعت بشراة المناطق المخصصة للقص والممتدة من الاسكا الى الاوريفون واللابرادور . واتحدت الشركتان الاخيرتان بغية التمكن من مقاومة الشركة الاولى التي كانت تزود سوق بطرسبورغ وتارس في الوقت نفسه في الاسكا احتكاراً وضع حداً له ضم هذه البلاد الى الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ . وبعد ان قامت شركة خليج هودسون بعمل ناجح باهر ، اضطرت بدورها الى الانحناء امام الاستثمار الحر الذي غزا الاوريفون ؛ ثم تأسست كولومبيا البريطانية ؛ وحين ابتاعت كندا منها ، في السنة ١٨٦٩ منطقة « روبرت » (مانيتوبا) ، الغنية بالاحراج ، تولت استثماره بوسائل جديدة . ولكنها ما كانت آنذاك سوى شركة رأسمالية ، شأنها شأن غيرها .

كانت الفترة ١٨٥٠ - ١٨٧٠ ، وهي فترة المقايضة الحرة ، اقل الشركات التعاقدية الجديدة
الفرات موافقة للامتياز . ولكن حين احرز مذهب حماية البضائع الوطنية بعض التقدم ، بدت المشاريع الحاذية بالمعطف والتشجيع ، التي تمهد الطريق للاستثمار الاستعماري ، مغرية للرأسمالية التوسعية .

مارست ام الشركات اعمالها في ظل الوصاية البريطانية او الالمانية . وقد اهتمت كلها تقريبا بالقارة الافريقية حيث رأت امامها مثل الجمعية الدولية التي اسسها الملك ليوبولد بغية استثمار الحوض الكونغولي . وهكذا تواجعت في هضاب افريقيا الشرقية « الشركة البريطانية لافريقيا الشرقية » التي حملت اسم « الشركة الامبراطورية البريطانية الافريقية » ، و « الشركة الالمانية لافريقيا الشرقية » التي اسسها الدكتور « بترز » . ثم أسس عدد من التجار الانكليز « الشركة الافريقية المتحدة » التي حملت اسم الشركة الملكية النيجيرية ، بعد اتعاها بشركة « التجار الافريقيين في الشاطئ الذهبي » .

على الرغم من حداثة عهد هذه الشركات التعاقدية الجديدة ، يبدو انها كانت ذات شأن عظيم في تاريخ التوسع الاستعماري . فحين اضمحلت « الشركة الملكية النيجيرية » التي لم قمش سوى

١٣ سنة ، دفعت لندن ٢٢ مليوناً للاستيلاء على ما يعرف الآن بـ « نيجيريا » التي يبلغ عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة وتوازي مساحتها ضعفي مساحة فرنسا . وكانت هذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين ، هما « جورج توبمان غولدي » و« اللورد « ابردير » اللذان بلغا الـ « تشاد » بعد ان اجتازا الحاجز الجرجي في سواحل غينيا . وكانت قد وقعت اكثر من اربعماية معاهدة مع الزعماء البلدين ووفرت فائدة سنوية قدرها ٦٪ لمساهميها . وحين ارغمت على التخلي عن احتكارها امام حملات التجار في الوطن الام ، لم تتوار عن مسرح نشاطها بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة واستحصلت على حق استيفاء الرسوم المنجمية لمصلحتها الخاصة طيلة تسع وتسعين سنة . وقد ادت خدمة جلى للعظمة البريطانية في افريقيا القربية .

ولكن اشهر هذه الشركات التعاقدية اطلاقاً هي « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسسها « سسيل رودس » .

لم يكن « نابوليون الراس » ملكاً متربماً على عرش ، ولكنه كان شركة سسيل رودس التعاقدية ملك الماس والذهب ، واسس لانكلترا امبراطورية جنوبية . كان ابن رجل دين ، وقصد « نال » للاعتناء بصحته الهزيلة ، فسمع نداء « روسكين » « لاستثمار الاراضي البائرة » ؛ وكان عازباً ونافراً من النساء ، فاخذ يفكر في نفسه قائلاً : « ان اخضاع الشطر الاكبر من العالم لشرائعنا سيكون بمثابة نهاية كافة الحروب » . وكان مسالماً على غرار « كويدين » ، فوضع الاستعمار والرأسمالية في خدمة « السلام البريطاني » . سار في البدء في تيار البحث عن الماس في كمبلي ؛ فاشترى امتيازات الاستثمار وجرب حظه . فوافاه الحظ حين اعتمد ، على غرار روكفلر ، التقنية والتجميع معاً . وقد ضمنت شركته ، « دي بيرز مينينغ » ، في السنة ١٨٩٠ ، رقابة سوق الماس . ثم وقع اختيار رودس كذلك على ذهب الترنسفال ، فأسس شركة « حقول الذهب في جنوبي افريقيا » التي اشرك فيها آل « روتشليد » . ولكنه ما لبث ان اصطدم بالتشريع « البويري » .

وهو لم يكن تاجراً مغامراً فحسب . فقد كان مولعاً بالحضارة الاوربية ، التي يؤلف العنصر البريطاني خميرها ، فتخيل امبراطورية افريقية تكون قاعدتها مدينة « الراس » وقمتها قنسة السويس حيث تمر طريق لندن - بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح مخرجاً بريطانياً . وانما يجب اسهام البوير لتحقيق ذلك - لا سيما وانه كان يحترق الزنوج . اما اذا لم يستجب انسال الهولنديين لندائه ، فانه سوف يسحقهم . ولكن مشروعه يستلزم السرعة لان الالمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين « لمبوبو » و « زامبيز » . فاعرض حكاهم « الراس » انفسهم عن تبني المشروع . لذلك تحول رودس بانظاره نحو لندن حيث اعتمد على صداقاته في عالم الاعمال واسس « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي استلمت في السنة ١٨٨٩

هناك التعاقد الذي خولها « تنمية بيشوانالند والمناطق الواقعة ابعد الى الشمال » ، فبني على الفور معمل « فورت - سالسبوري » في قلب الغابات ، وراء بلاد البوير ، على الطريق التي يسلكها البورتغاليون . وعندما اصبح رئيس وزراء « الراس » ، اخرج البورتغاليين من المنطقة المتنازع عليها واشترى من شركة « البحيرات الافريقية » منطقة شمالي الزامبيز وسحق مقاومة «الـ زولو» ، فضمن له ذلك اعتبار البوير في « الراس » . وفي السنة ١٨٩٥ ، احتلت «روديسيا» مكانها على الخريطة . ولم يبق سوى ضم جمهوريتي « اورانج » والترانسفال ؛ وسوف يحققه بعد انتزاع موافقة المسؤولين البريطانيين . ثم اجهر الذهب والامبراطورية على استقلال البوير حين وافقه المنية في السنة ١٩٠٢ .

كان ليوبولد الثاني استبدادي المزاج ، ومحتالا ومتصلبا ،
جمعية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية
ومنتسبا الى اسرة مالكة مرموقة ، ومفتقرا الى المال ، وشغفا
بمعرفة العالم ومكبلا في تصميمه على العمل بفعل النظام السياسي في مملكته نفسها ، ولكنه
تميز بمؤهلاته لان يكون مؤسس امبراطورية عظيمة . فقد كتب منذ السنة ١٨٦١ : « لما كان التاريخ
يعلمنا ان للمستعمرات قسطها الاوفر في تكوين عظمة الدول وازدهارها ، فلنحاول بدورنا
الاستحصال على مستعمرة » . فتحين الفرص ، وكان على استعداد لشراء الفلبين او الكاناري او اي
ارخبيل اوقيانوسي آخر ، الى ان وقع اختياره على افريقيا الوسطى البكر . واذا هو عقد في
السنة ١٨٧٦ مؤتمرا في بروكسل من اجل حملة شديدة تستهدف « العلم والانسانية والتقدم » ،
فانه لم يلبث ان ادرك الفائدة الشخصية التي باستطاعته ان يجنيها من مؤسسة مجردة عن الغاية في
مستهل نشاطها . وفي سبيل الاستيلاء على البلاد ورسم خريطتها ، فكر بـ « غوردون » وتوجه
الى « برازا » واستمال « ستانلي » ودفع الثمن غاليا . وفي سبيل الحصول على رؤوس الاموال ،
طرق كافة الابواب . ثم لجأ الى الحيلة وتقدم شيئا فشيئا في تنفيذ مطلبه ، فعرف كيف يبعد
عن مصاب النهر الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة ، الى ان اناط مؤتمر
برلين (١٨٨٥) هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها الى دولة
الكونغو المستقلة ، ثم حمل المجلسين التمثيليين البلجيكيين على منحه حق « رئاستها » وانصرف
الى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في افريقيا الشرقية . الا انسه صادف
صعوبات مالية حالت دون مشروعه بالاستثمار فأوصى بالكونغو لبلجيكا في السنة ١٨٩٠
واستحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليونا وعلى اجازة باستيفاء رسوم الدخول . اصف الى ذلك
من جهة ثانية انه لم يتقيد باي تعهد ، فجند اليد العاملة بالقوة واحتفظ لنفسه بمكاسب اراضي
التاج الواسعة وسلم الاراضي الاخرى شركات لم تنسه ولم تنس ذويه عند توزيع الرايث . فكان
ما كان من الشفاهت الجنوني على جمع العاج والمطاط ، وكان ما كان من « فطائح الكونغو » . ولكن
ليوبولد قد امتنع بفطرسية حتى وفاته عن التسليم بان عليه تأدية حساب للرأي العام .

تدخل الدول الأوروبية الاستعمارية ككتب « ديلك » ما يلي : « حيث تكون المصالح يجب ان تكون السيطرة ». اجل لم يحظ الاختبار الكونفولي بمساندة تونس ومثل مصر الامة البلجيكية المباشرة ؛ بينما حال تدخل القوة البريطانية في « الراس » دون حراجه الوضع وتأزمه المحتمل . فماذا اعوز « بريشارد » للسيطرة على « تاهيتي » ان لم يكن مساندة لندن غير المشروطة ؟ وبامتناعها عن التدخل المعلن ، اطالت فرنسا وانكلترا على السواء عمر الحكومة « الهوفية » ، وربما كان « سربانتو » توصل الى توحيد انغولا وموزمبيق لو استطاعت لشبونة مساعدته مساعدة فعالة . وعلى نقيض ذلك ، درجت الشركات الرأسمالية على رفع اليرق يمسارة كلما خاضت الدبلوماسية ، وحق القوة المسلحة ، غمار المعركة . لذلك فان ارتباط السياسة بالاعمال ، ظاهراً كان ام مستتراً ، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية . واذا فات النجاح حملة المكسيك ، فانه قد توج حملة تونس وحملة مصر تنويجاً كاملاً .

مثان غودجيان وتشابه عجيب . ملكان مسلمان يفرقان في الديون بسبب رغبتهما في العيش ببذخ وتقتل ؛ بلادان تميزان بمركز وموارد من شأنها اثاره الاطماع ؛ دولتان حريصتان على حقوقهما وقادرتان على دعم مطالب رعاياهما . هنا وهناك غزو رؤوس الاموال الأوروبية الذي سهله وضع الاقتصاد المتردي ؛ في مالية باي تونس ومالية خديوي القاهرة ازمة لا يمكن معالجتها معالجة مؤقتة الا بقروض جديدة ؛ ثم رقابة دولية يفرضها المقرضون الجازعون الجشعون ؛ تحسن مؤقت وجزئي تعزز الادارة المالية بفضله مراكزها بوضع يدها على الرهون والكفالات وجميع الموارد الاميرية . وحدث اخير : فبينما خضع الباي للحماية الفرنسية ، اقبل الخديوي اسماعيل خلفه توفيق الى القبول بوجود الجيش البريطاني . فمن جهة ازلت حكومة باريس الخطر الايطالي والحقوق الايطالية ، ومن جهة اخرى صرفت حكومة لندن النظر عن امكانية لم تنظر اليها بعين الرضى هي امكانية مشاركة فرنسا لها في الحكم . وكانت النتيجة فتح ابواب البلادين لنشاطات الغرب الصناعية والتجارية تحت ستار الوصاية السياسية والادارية والعسكرية .

دور الضابط الاستعماري
فاتح ومدير

« وفي افريقيا نفسها ، ماذا احببت يا ترى سوى نشوة دامت سنتين ، نشوة النسيان الخالصة ، نشوة الشمس ، والنور ، والكمال الفني بكل ما للكلمة من معنى ؟ ... » (ليوتي ، في السنة ١٨٨٢) .

لقد برزت وجوه كبيرة ، مؤسسون ، و « فنيو » استعمار . فكان هناك المستعمرون الاداريون : موظفو دائرة الاستعمار مثلاً ، « جايس فيتز - جايس ستيفن » الذي أمسى ، ابتداء من السنة ١٨١٣ ، وطيلة خمس وعشرين سنة ، الرئيس الحقيقي للامبراطورية بعد المخطاط النظام « الحصري » ، او اللورد « كارتافون » الدافع الى الاتحادات ؛ وفي فرنسا ، مديرو الوزارات ، من « فيلو دي سانت ايلار » الى « غاستون جوزف » الذين يبقون في مراكزهم بينما

يشعاقب الوزراء ؛ او ذاك المدير الآخر ، البلجيكي « اميل باننغ » الذي كان يذكر « افريقيا الباقية مدفونة في عزلتها والمنبطحة انبطاح عبدة جسيمة عند اقدام اوروبا اللامبالية » ويريد ان يجعل منها « حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية » فيشجع انعقاد المؤتمرات الدولية ، ولكنه يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب .

عمل جنود الفتح بهذه الارشادات او تجاوزوها ، متعرضين لمسؤوليات كبرى احياناً ، وقد واطأهم على الذنب المسافة وصعوبات عملهم اليومي . « بهجة النفس تكن في العمل » ، هذا هو الشعار الذي اقتبسه ليوتي عن « شلي » . ألم يتكلم يوماً عن « العمل ، العمل المقدس والالهي ... » هو الذي لم يرد ان يكون سوى « محارب وزعيم قبلي » ، و « سيد اقطاعي شاب » ؟ فقد كتب من تونكين : « انني اسير الحياة والعمل المباثر ؛ فبعد قضاء يومنا في المقدمة ساعين وراء شق طريقنا بالفأس بين الأشجار الكثيفة ، وباحثين على الارض عن دلائل المرور ، وسافرين في الماء حق الركبتين ، ومتسائلين باضطراب ، عند نهاية المرحلة ، عما اذا كانت الارض سيصلنا ام لا ، وعما اذا كنا سنجد دليلاً يرشدنا الى الطريق ، وتكون النتيجة ، بعد استسلامنا للنوم ، عاصفة هوجاء تبلبل غيم الجنود ، تؤكد لكم ان الوقت لا يتسع لتفحص النفس ، التي لا يمنحها ذلك من ان تكون في احسن حال » . وفي رأي سسيل رودس ان على كل مستعمر ناجح ان يتقن لعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم . اما غوردون الذي كان صوفياً حقيقياً يضع سيفه في خدمة الايمان وتحت تصرف السلطة المدنية على السواء ، فقد اكثر في « يومياته » من الاستشهادات التقوية .

حكم الدبلوماسيون على مباداهتهم بأنها كانت متهورة احياناً وبأنها لم تخدم المصالح الكبرى دائماً . فهم قد درجوا على انتقاد الدوائر الادارية والسياسيين الذين كانوا يمتقرونهم . كانوا قساة في ادارتهم ولكنهم كانوا يتباهون بمعرفة البلدي على حقيقته واحترام عاداته وبعدم التقيد بمذهب اداري معين . وقد جاء في كتاب « غالاني » ، « مبادئ التهذئة والتنظيم » : « لا شيء يجب ان يكون اكثر مرونة من تنظيم بلاد يجري تطورها باشراف موظفين حازمين تستخدمهم الحضارة الاوروبية والاستعمار الاوروبي » . كما جاء ايضاً : « كل عمل سياسي يجب ان يميز العناصر المحلية الصالحة للعمل ويستفيد منها ويلاشي العناصر المحلية غير الصالحة للعمل ويقضي عليها » .

المحدر جبل اول من الحروب النابوليونية ، حروب اسبانيا وروسيا التي تطلبت صبراً وجلداً ومعرفة صحيحة للسكان والموارد . وقد تخرج من هذه المدرسة رجال من امثال « بوجو » ، و « شارلز - جايس نابير » ، و « غو » الذين انتصروا على المهرات والسيخ ، و « باسكيفيتش » و « مورافياف » (كارسكي وأمورسكي) وبيروفسكي ، ابطال الفتوحات في القفقاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية .

ثم جاء اولئك الذين خرجتهم افريقيا السوداء والهند نفسها ، ونخص بالذكر منهم « فيديرب »

الذي لم يكن من نواصي الناس مثل بوجو ولم يكن له مطامحه السياسية كمحافظ اجتماعي ، بل كان ابن حانوتي فقيراً وتأملياً وعنيداً ومثاليًا ، فاتكل على غراره على الملاحظة المباشرة ، وسيطر على السنغال بوسائل محدودة ، وأسس دكار ، وحارب النخاسة وادخل التلغراف الكهربائي ، وعسك بالمدرسة الطنانية الفرنسية وبالتعليم الفرنسي الاسلامي العلاني ؛ وغالياني : السكيت ، والحريص على الخبر الثابت والنشاط العملي ، والقاتح في السودان والتونكين ، والاداري القدير في مدغشقر ، والقادر بدوره على اعداد تلامذة كثيرين اشتهر بينهم ليوتي الذي سيطر على المبادئ الواقعية خير تطبيق في الامبراطورية الشرقية . وبالمقابلة تخرج من جيش الهند بناء الامبراطورية الافريقية البريطانية : « روبرت كورنليس » المنتصر على الجنود البلديين ، الذي سير في السنة ١٨٦٧ حملة اثارت الاعجاب على النجاشي ثيودوروس (فقد نقل كل معداته ومؤنه على ظهور الفيلة ثم فتح طريقاً عبر الاحراج) ؛ و « ولسلي » الذي ارغم ال « اشانتي » على الخضوع ، واشترك في النزاع ضد ال « زولو » ، وهزم جيوش عراي باشا في السنة ١٨٨٢ ودخل القاهرة ، ولكنه اخفق في محاولة قام بها لانقاذ الخرطوم التي كان يحاصرها الدراويش ؛ و « روبرتس » الذي كان مع نابير في الهند وفي الحبشة قبل ان يقود في السنة ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول ، وفي السنة ١٨٨٦ الحملة العسكرية على بورما ، وقبل ان يستلم قيادة الجيوش التي ستتقلب على البوير ؛ و « كتشنر » الذي انتصر في الخرطوم ثم في الترانسفال .

ربما كان القرن التاسع عشر قرن الحروب الاستعمارية . ولعمل سنة الحروب الاستعمارية واحدة لم تنقض منه دون ان ينفذ الاوروبيون عملاً حربياً في احدى نقاط القارات الاخرى .

اذا ما استثنينا الروس ، قين لنا ان كل هذه الاعمال استلزمت مجهوداً بحرياً . فان الحملة على الجزائر قد عبأت ٦٧٦ سفينة تنقل قرابة عشرين ألف رجل . وقد تألفت الوحدة المعدة لمهاجمة « ماجونفا » في السنة ١٨٩٤ من ١٥ الف محارب . فيتضح من ثم الدور المنوط بالبحارة . اجل لقد عاد ال « كوربيه » امر قيادة الهجوم على الشواطئ الصينية ، و ال « فردريك بوشان - باجييه » قصف الاسكندرية بالمدافع في السنة ١٨٨٢ ؛ ولكن القيادة العليا للحملة قد اسندت احياناً لضباط البحرية ، ك « دي بتي - توار » في اوقيانيا ، و « سيمور » في الصين ، وقد ذهب البعض الى الكلام عن « كوشنشين امراء البحر » في عهد الامبراطورية الثانية . وكان مشاة البحر السلاح المفضل في الجيوش المعدة للانتزال الى البر ، وقد برز بينهم مستعمرون لامعون من أمثال القائد « بريير دي ليل » .

باستثناء حملات قليلة لم تستغرق وقتاً طويلاً ، اعترضت معظم الحملات ظروف صعبة ، فتطلب النهوض بها وقتاً غير قصير وخسائر فادحة في الرجال والعتاد . اما العائق الاهم فكان المناخ في اغلب الاحيان . وقد باه الهجوم الاول على قسنطينة بالفشل بسبب الجوع والبرد

والمناء . وعلى الرغم من جلد الجيوش التي قادها بيروفسكي ، فانها كانت ضحية شتاء قاس في سيرها على « خيفا » ؛ اما في المكسيك والتونكين ومدغشقر ، فهي الحرارة الرطبة والحميات ما قتلك بالجنود . وقد تم هجوم ولسلي على الاشانتي في أشد الظروف صموية ، عبر مستنقعات السواحل أولاً ، والغابات الكثيفة ثانياً . لذلك كانت الانهار عظيمة الاهمية على الرغم من الشلالات التي تتخللها : فان ستانلي قد استخدم الكونغو ، وكتشنر النيل ؛ كما ان « مارشان » قد انتقل من الكونغو الأدنى الى النيل الاوسط عن طريق « اوبانغي » و « ميمو » .

انطوى كذلك عدم معرفة السكان ولغاتهم وطرائق معيشتهم واسلوبيهم الحربي معرفة كافية على صعوبات خطيرة . اجل كان تفوق الاوروبيين التقني ساحقاً ؛ ولكنهم بصرف النظر عن اضطرابهم للتكيف وفقاً لطبيعة البلاد وسكانها ، ما كانوا ليحققوا النصر بوسائلهم الخاصة وحدها . فكانت المسألة من ثم مسألة لتجديد الفرق المساعدة . ففي الهند جرب الانكليز اختباراً تكلم بنجاح عظيم على الرغم من خطر احديهم في احد الظروف : اسندوا المحافظة على الامن الى الشيخ والا « غورخا » ؛ وجند « بوجو » الا « زوا-اوا » (زواف) والفرسان والقناصة المقاربة واستخدمهم ضد غيرهم من المسلمين ؛ وسيطر فيديرب على السنغال بواسطة القناصة الا « اولوف » ولجا لابرين الى الا « سامبا » للمحافظة على الامن في الصحراء الكبرى .

الولاة المدنيين اذا حدث ان اسندت السلطة مباشرة الى احد العسكريين ، فان موظفي الادارة الاستعمارية قد اختيروا قانوناً من بين الموظفين الذين ينتسبون الى ملاكات مدنية خاصة . ولكن غالباً ما توجب على المستعمرين النهوض بالاعمال الحربية والاعمال الادارية في آن واحد ، فتكاثرت الخلافات بين العسكريين والمدنيين . وقد تصرفت كل دولة بحسب مزاجها يقتضي الظروف . فطرات على النظام الاستعماري الفرنسي بنوع خاص تبدلات كثيرة ؛ ويجب انتظار الجمهورية الثالثة حتى يعود الحكم في المستعمرات ، بصورة عامة ، الى السياسيين (« لانسان » ، « جوتار » ، « دومر ») ، او كبار الموظفين (« بول كامبون » ، مثلاً) .

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف ارستوقراطيتها موظفين تحلوا بصفات فادرة وعرفوا ، في كنف ادارة المستعمرات المركزية ، كيف يحدون في مختلف النحاء الامبراطورية البريطانية الحلول الموافقة للحاجات الطارئة دون ادخال اي تبديل على السياسة الاستعمارية التقليدية . فقد اجاد ممثلو العائلات الكبرى هؤلاء ، في الحقل الاستعماري ، تطبيق مبادئ الاختبارية التنظيمية . وقد اتوا ما اثرتهم الرائعة في فتح الهند وادارتها معا . فهكذا تولى المركيز « دي دالوزي » بنشاط الاعمال الحربية ومجهود التطوير التقني . ثم بدأ اللورد كاتنغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات قوية من امثال اللورد « الجن » واللورد « ليتون » واللورد « ريبون » . واختير كذلك اختياراً موفقاً الحكام المدون لتمثيل جلالته في المستعمرات المتمتعة « بالحكم

الذاتي ، . ونذكر منهم على سبيل المثل اللورد كرومر حاكم مصر الاول .

المحبات والمستمرات
بنينا كانت « الحصرية » سائرة في طريق الزوال والتطور متجها اما نحو الحكم الذاتي واما نحو التمثيل بالوطن الام ، في المناطق المأهولة بالاوروبيين او في المستعمرات القديمة ، بدت الحماية اكثر ملاءمة من الوصاية المباشرة لاهداف ووسائل اوروبا الرأسمالية في المناطق المحتلة حديثا . ولا يعني ذلك ان الاحرار المنشترين قد ابتكروا الطريقة : فقد سبق لـ « دويلكس » ان طبقها ، كما كان البريطانيون في الهند والهلنديون في « جاوا » متمشين عليها . وفكر المسؤولون في تطبيقها في الجزائر والسنغال وكوشنشين . ووجد الروس فائدة في ابقاء بعض خانات تركستان النافذين في مراكزهم . واستسهل فرسي الذهاب الى تونس بالتدريج بمد يد المساعدة للباي ، وصرح غامبتا بها يلي : « لا جلاء ولا ضم » . ولجأت حكومة لندن الى حيلة مماثلة لتبرير تدخلها في القاهرة . واستحصل « دودار دي لاغريه » من ملك كمبوديا على الاعتراف بحق فرنسا في حمايته من تعديات جيرانه السياميين والفياتناميين ، كما استحصل « اوغست بافي » على الاعتراف نفسه من الزعماء اللاوسيين . وقد جرت الامور عموما على هذا النحو كلما رأت الدولة المستعمرة نفسها امام انظمة توخت هي خيرا من مداراتها .

الا ان الضم كان واجبا حين كانت السلطة البلدية مجزأة او لا شعبية او معادية جداً . فتصبح المستعمرة آنذاك مستعمرة سيطرة او افراد : تبقي الادارة الاوروبية على الزعماء المحليين في مراكزهم وتجردهم في الوقت نفسه من السلطة السياسية وتخضعهم لرقابة شديدة ؛ وقد تستبدلهم بكفلاء عابدين تختارهم من بين البلديين الآمنين ؛ وتدير مباشرة شؤون البلاد وفقا لما ترى فيه مصلحة السكان العامة . وقد استخدم البريطانيون هذا النظام في الهند حيث لم يكن نظام الحماية كافيا ؛ ثم استخدم على نطاق واسع في افريقيا السوداء ، وحتى في مدغشقر ، بعد قلب الملكية الهوفية .

المنافسات الكبرى والتقسيمات
خلال القرون السابقة تسببت المنازعات الاستعمارية في حروب بين الدول الاوروبية . والحال ، كما ان سياسة المعاهدات مع الزعماء البلديين قد اعتبرت خيرا سياسة ، كذلك سوّيت الخلافات الدولية بطريقة المفاوضة .

تخلص العالم الجديد اكثر فأكثر من هذه المنافسات . فباسم المونروية التي كانت تتوخى ابعاد الاساليب الاستعمارية عن القارة الاميركية ، انتهجت الولايات المتحدة طريقة الثراء للحصول على المناطق التي ما زال الاوروبيون يمتلكونها فيها : وهكذا تم انتقال هام في السيادة في السنة ١٨٦٧ حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا . ولكن الدانيمارك باعت كذلك من بريطانيا العظمى قطاعها الغيني ، كما باعت اسبانيا من المانيا « بالوس » و « ماريان » و « كارولين » . الا ان مناطق الاحتكاك الكبرى قامت في اماكن اخرى . فقد اتصل اهمها شأننا من

الغرب الى الشرق ، من مضيق جبل طارق الى المحيط الباسيفيكي الغربي ، على جنبات البحار الداخلية ، والبرازخ والمضائق التي تتيح انتقالا يسيرا بين الكتلتين الاوراسية والافريقية ، ثم على الاراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا. وقد تعاونت فرنسا وانكلترا فيها على ابعاد روسيا او اختلافنا اختلافاً متكرراً. وتأزم الوضع في المتوسط بعد السنة ١٨٧٠ عند نزول ايطاليا الى الحلبة . وامتد البراز الانكليزي الروسي الى كافة المحاء آسيا الوسطى ، ولا سيما عند مشارف الهند . ويحذر لفت الانتباه هنا الى ان الحدث الحربي الوحيد الذي جرى في اوروبا نفسها بسبب المنافسات الاستعمارية - حرب القرم - مرده الصراع من اجل السيطرة على اكثر بقاع هذه المنطقة اثرة للتنازع ، للشرق الادنى .

لم يعد صحيحاً ان الخصومة بين بريطانيا العظمى وروسيا كانت قائمة بين امبراطورية بحرية وامبراطورية برية. فالدولة التي كانت مسيطرة على البحر كانت مصممة على الاستئمان من جهة اليابسة . وفي هذا المجال يبدو احتلال الهند بكاملها سابقة ذات مغزى . ولكن الحدث لم يعد لينطوي على اي طابع استثنائي ، اذ ان احدى مميزات الاستعمار آنذاك كانت الحصول على قواعد برية كبرى . وجاز لـ « جول فري » ان يؤكد : « اما اليوم فهي القارات ما يطلب ضمها ، وهو العالم الاوسع ما يطلب اقتسامه » . وان في تقسيم افريقيا خير ممثل على هذه السياسة . الا ان منافسة قامت من اجل السيطرة على الباسيفيكي .

على غرار ما حدث في الماضي ، سويت الخلافات على العموم بين دولة ودولة بفضل اتفاقات قلزم الطرفين . وباستثناء جزر « الهبريد الجديدة » ، حيث ادخل في السنة ١٨٨٧ ، لم يعيش نظام « الامتلاك المشترك » حياة طويلة في اي مكان : فهو لم يدم لا في مصر ولا في « ساموا » . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يعط التحكيم بدوره سوى نتائج هزيلة ، فانه قد اثار في السنة ١٨٨٤ حدثين جديرين بأن تتوقف عندهما : فمن جهة ، النداء الموجه الى البابا ، الذي سلك سلوك البابا اسكندر السادس وفصل في الخلاف الاسباني الالماني حول الكارولين ؛ ومن جهة اخرى ، انعقاد المؤتمر الدولي في برلين . فكان على هذا الاخير « ان يستدرك المنازعات التي قد تثيرها في المستقبل الاستيلاءات الجديدة على شواطئ افريقيا » . وفي الواقع ، كان اعتقاد بسمارك بأنه سيلعب فيه الدور المفيد نفسه الذي لعبه في مؤتمر السنة ١٨٧٨ حول المسألة الشرقية . وكما حدث في السنة ١٨٧٨ ، جرت المناقشات الهامة وراء الكواليس حيث عينت حدود الدولة الكونفولية . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجدد السباق ، بحرارة لم يسبق لها مثيل ، من اجل احتلال المناطق الدائرية . الا ان فكرة عرض المسائل الاستعمارية الشائكة على محكمة دولية لم توضع قط ، فهي التي ستوحى بالدعوة الى مؤتمر « الجزيرة » في السنة ١٩٠٦ . ومهما يكن من الامر فان ريشة الدبلوماسيين قد وجدت لها عملاً دائماً ، فقد رسمت على خريطة العالم الاشكال الهوائية للانصبه التي آلت في النتيجة الى الدول الاستعمارية المختلفة دون ان يتعرض السلم الاوروبي للاخطار

ان المؤسسات الاستعمارية السكندنافية تتصل في الارجح بنزوحات
 مصير السكندنافيين المشرف
 « الفيكينغز » القديمة . وكان السكندنافيون خير بحارة وصيادين
 في الشبالي الاطلسي
 وقناصة في المياه الشمالية ؛ فتأثروا بهذه الصفة بسحر المياه
 الجنوبية ؛ وما كانت الجزر والاسواق التجارية في المناطق الحارة لتستهميهم استهواء يذكر .
 وبينما كانت النشاطات الزراعية والصناعية كافية لتشغيل السويد ، اضطرت النرويجيون ،
 المرتبطون بهم منذ السنة ١٨١٥ ، الى حصر توسعهم في الاستيلاء على « سبتزبرغ » والمطالبة
 بـ « جان ماين » وارخبيل « فرنسوا - جوزف » و « غرينلند » . ولكن الدانماركيين نظروا
 دائما الى هذه الارض الاخيرة ومعادنها واسماك مياهها الوفيرة نظروا الى ملك خاص . فنهبا
 تقوم حدود امبراطوريتهم التي تضم بالاضافة « فاراوير » و « اسلندا » . زد على ذلك ان
 اسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال : تعرضت لامتحانات قاسية وعانت من المناخ وثورات
 البراكين والزلازل والمجاعات واوبئة الجدري ، فتخلصت شيئا فشيئا من حالتها السيئة باحياء
 الزراعة وصيد الاسماك وفازت بجمعية محلية ، والغاء « الحصرية » ، ثم باستقلال ذاتي حقيقي في
 السنة ١٨٧٤ ؛ فأرشدت بذلك ايرلندا جارتها الى الطريق التي يجب عليها سلوكها .

اغتم الاسبانويون والبرتغاليون بذكرى ما مضى اعظم سحراً ايضاً ، ثم
 الانحطاط الايبيري
 بفعل كارثة لا دواء لها . فلم يبق في حوزة كلا الشعبين سوى بقايا متناثرة
 على طرقاتها الامبراطورية القديمة ، ولا وسائل لديهم لتحقيق نهضة متوخاة .

انهارت الامبراطورية البورتغالية انهياراً سريعاً في النصف الاول من القرن بانفصال البرازيل
 عنها ، واحتلال الهولنديين لبعض جزر السوند ، كجزيرة « فلوريس » مثلاً ، التي خلت من
 الحاميات العسكرية ، وبالتخلي عن شطر كبير من غينيا والفايون . ثم تلاشت الاسواق السقي
 كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند على السواء . الا ان محاولة اصلاحية قد جرت بفتح
 المستعمرات للتجارة الخارجية ، ونقل الممتلكات في المستعمرات الى ايدي المهاجرين المستعمرين ،
 وبالفاء الرقي . ثم تعللت البورتغال بأمل تحقيق السيطرة على افريقيا الجنوبية والوسطى ، ولكن
 آمالها تحطمت في مؤتمر برلين ، وقد وسم مطلع عهد كارلوس الاول بمعاهدة مذلة وقعها في السنة
 ١٨٩٠ . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انفولا وموزامبيك اقتضتا من النفقات فوق ما دراه
 من المداخل ، وعم الرأي في اوروبا ان البورتغال قد تسلم بالتخلي عنها مقابل تعويض كبير .

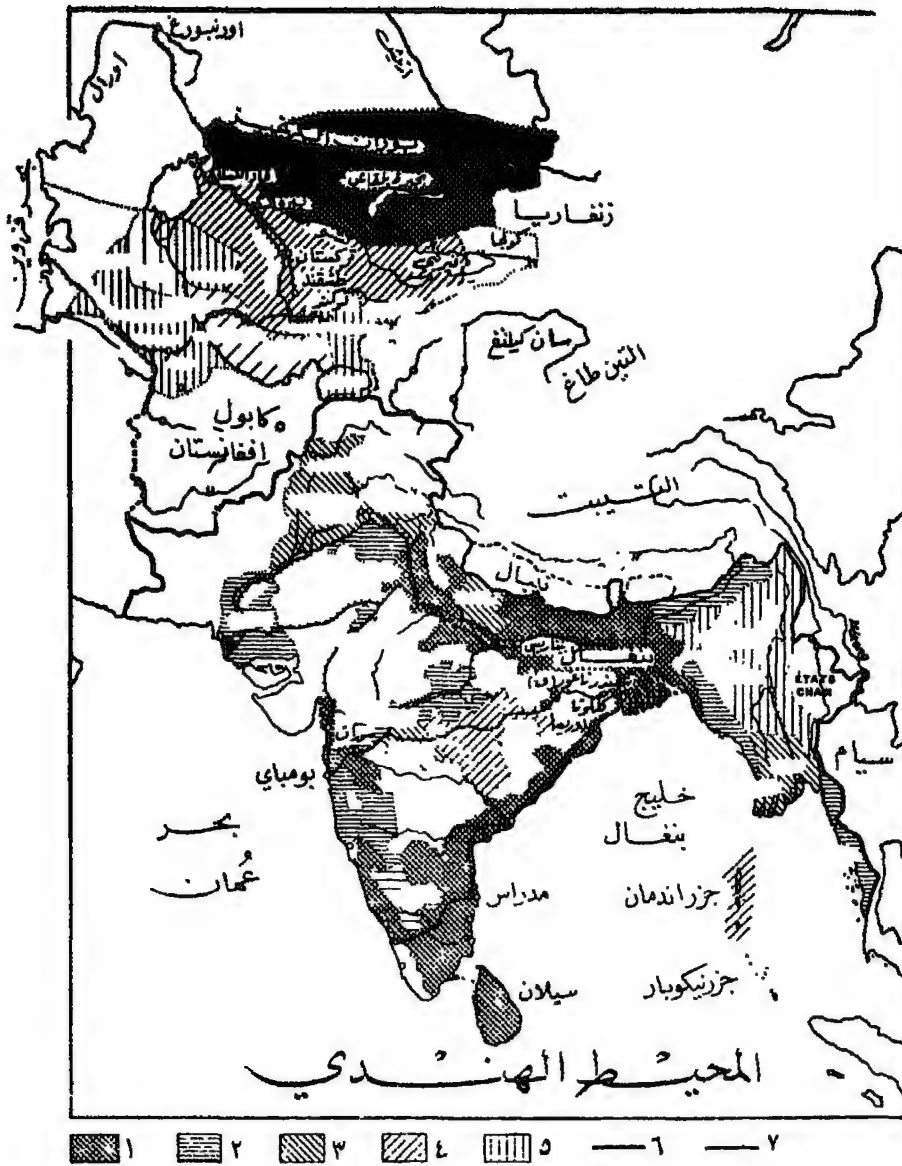
تعذر على الحكومات الاسبانية المتعاقبة التفكير بأي مشروع خارجي حتى السنة ١٨٥٠
 بسبب الاضطرابات الداخلية . وقد حاول القائد « اودونل » ، بدافع النفوذ الشخصي ، تجديد
 عهد الحملات الصليبية بانقاذ حصون سبتاوميليا التي ما زالت قبائل الريف تهاجمها بدون انقطاع ؛
 ولكن مناوئته امام طنججة و « لاراش » وقطوان لم تقدم طويلاً بسبب تدخل انكلترا . وجرت
 بعد ذلك محاولة هجومية فاشلة في اميركا اللاتينية : اشركت اسبانيا في حملة المكسيك واكتنبا

انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا العظمى ؛ وانزلت جيوشاً في « سان - دومنغ » ، ولكن الاهالي الثائرين طردوا الجيوش منها ؛ وارسلت اسطولا الى شواطئ الباسيفيكي واستولت على الجزر الغنية بالغوانو ، ولكن تحالف الدول الآندية ارغمها على الانسحاب . وبعد ذلك ثارت كوبا على سيطرة احتفظت بمميزات « الحصرية » ، وازدادت حالة القلق خطورة في الفلبين و « بورتوريكو » اللتين عانتا الامر من اهمال الادارة وتناقلها . وكانت كارثة السنة ١٨٩٨ قريبة الحصول حين احتل الاسبانيون ساحل « ريودي اورو » الصحراوي وزعموا حينذاك انهم يقومون « بأول عمل في سلسلة اعمال سياسة افريقية » ستتيح لهم تعزيز موقعهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتمل .

استمرار العظمة التبليدية في الوقت الذي نظر فيه الأب « دي براد » الى البلجيكين نظره الى « اتاس عادمي الفضول في المعرفة وغرباء عن كل ما يجري خارج بلادهم » ، كان للهلنديين تقليد الاستعماري الراسخ . اجل كانت لهم خسارة « الراس » وسيلان ضربة قاسية ؛ ولكن مملكة هولندا حققت السيادة ، أقله نظرياً ، في السنة ١٨١٥ على مستعمرات شاسعة اوسع من رقعتها بستين ضعفاً ومأهولة بأربعة اضعاف سكانها : وتتألف هذه المستعمرات من مجموعتين متميزتين متباينتين شأناً يغلب فيها المناخ الاستوائي ، مجموعة الهند الغربية (بعض جزر الانتيل ، كـ « كوراسو » و « سورينام ») ومجموعة الهند الشرقية المتكونة من ارضييل السوند والشاطر الاكبر من بورنيو و « سيليب » والمولوك . فكان ذلك كافياً لنشاط شعب صغير جلود ومتبصر : تفرغت هولندا منذئذ لهذه الممتلكات دون ان تحاول توسيعها محاولة تذكر . فهي بعد اليوم لا تتقدم ولا تراجع ، بل تثبت اقدامها .

امبراطورية الروس الادراسية واصلت روسيا ، عبر سهولها اللامتناهية ، حرباً هي أشبه بحرب بعيداً في الاراضي التي يسيطر عليها . ويبدو من جهة ثانية ان النزاع القديم بين الحضرة والبدو كان لا يزال قائماً لان التقدم الروسي عفى كذلك اقامة الفلاحين المزارعين في البقاع النائية من منطقة البورات الواسعة الاطراف . واذا كانت سيبيريا اخيراً ، في مناطقها الشمالية الشرقية ، امتداداً لطبيعة روسيا القاسية ، فان امبراطورية القيصرية لم تقتصل بالبحار الباردة فحسب ، اذ كان باستطاعتها النزول الى البحر المنشوري حتى وسط عالم الشرق الاقصى ، بل بلغت في الجنوب المناطق الطورانية ومناطق ما وراء القفقاس التي تذكر بالمناطق الحارة . ولا يجوز ان نرى في هذا التقدم تصميماً على فتح المنافذ الى المحيطات فحسب : فهناك مجرة شعب مطرد التكاثر الى مناطق قليلة السكان ، وجاذب الموارد التكميلية .

« ايه روسيا ، ألا تشعرين بأنك منطلقة نحو المجهول على غرار « ترويككا » الجامعة التي لا يستطيع احد اللحاق بها ؟ » (« غوغول » ، « النفوس الميتة ») .



شكل ١١ - البريطانويوت في الهند ، والروس في آسيا الوسطى

١ ، احتلال بريطاني حتى السنة ١٨١٥ وتوسع روسي في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ٢ ، تقدم بريطاني حتى حاكمية اللورد « دالوزي » العامة (١٨١٥ - ١٨٤٨) ؛ ٣ ، فتوحات اللورد دالوزي حتى ثورة المهندسين البلديين في الجيش البريطاني (١٨١٥ - ١٨٥٧) ؛ ٤ ، تقدم الروس ومكاسب البريطانيين بين السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٧٠ ؛ ٥ ، تقدم الروس والبريطانيين بعد السنة ١٨٧٠ ؛ ٦ ، حدود امبراطورية الهند ؛ ٧ ، الخطوط الحدودية الرئيسية المبنية في القرن التاسع عشر .

ادبرت العملية بجلد وطول اناة منذ زمن بعيد. اما الوسائل فكانت هي هي ابدأ: القوزاق، التجارة، «البخشيش»، والمفاوضة عن طريق الدين كلما كان ذلك مفيداً. فكانت روسيا ارثوذكسية في البلقان والشرق الادنى، واسلامية في خيفا، وبوذية في منغوليا.

تميز هذا الاستعمار، من جهة ما تميز به، باسهام القوزاق فيه اسهاماً رئيسياً. اشتركوا في كافة الحروب الاوروبية، وسيشتركون فيها في المستقبل؛ ولكنهم خدموا بمزيد من الاندفاع ايضا في هذه البورات التي تذكرهم ببوراتهم. وجند القيصر فرسانه المتفوقين من بين طوائف ال « ستانتساس » التي كانت تعيش من تربية المواشي وترويض الجياد بحسب تفضيلي. وكانت قيادة كل من فرق القوزاق الاحدى عشرة (فويسكوس) - لآلئ التاج الاحدى عشرة - مسندة الى قائد يدعى « اتمان ». وكان القوزاق محاربين لا يبالون بالتعب، يأكلون الاسماك واللحوم والحطب المجفف، ويشربون الماء ويمتطون صهوات خيولهم بدون مهاميز، ويقبضون على السوط الجلدي، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف بال « بورقا » : يتسلحون بحربة، وسيف دون غمد، ومسدس، وبندقية قصيرة خفيفة، ويتوجهون بدون خريطة ولا بوصلة مهتدين بالشمس والنجوم. واذا دان معظمهم بالارثوذكسية - وقد انتمى بعضهم الى شيع « راسكولنيك » - فقد يحدث ان يكونوا مسلمين في « ترك » او « كوبان »، وبوذيين في ما وراء بحيرة « بايكال »؛ وكان بعضهم يهوداً. واشتهر قوزاق ال « دون » بقيادة « بافل يعقوبليفيتش دي ريننكامبف » في حروبهم ضد فارس، وفي بولونيا والقفقاس وهنغاريا والقرم. ثم عهد القيصر، رغبة منه في توطيد فتح القفقاس، الى تنظيم قوزاق كوبان، وقوزاك ترك مقطعا ايام بعض الاراضي في هذه المناطق. واشترك قوزاق الاورال في حملة بيروفسكي. وكان « سكوليف » بطلم في تركستان وفي حملة البلقان في السنة ١٨٧٧؛ وكانوا يلقبونه بال « باشا الابيض ». وتآلفت في « سميرتشنسك » فرقة من قوزاق سيبيريا لمراقبة تركستان. وازداد مورافيف الى الفرقة المقيمة في ما وراء بحيرة بايكال فرقة ال « امور » مجنداً افرادها من بين ال « بوريات المغوليين » البوذيين، المشهورين بالفنص واحتساء الشاي. وكان هؤلاء بمثابة المراكز الامامية للسيطرة على الشرق الاقصى التي لن يربطها الخط الحديدي بروسيا الاوروبية الا في اواخر القرن.

كانت هذه الامبراطورية اكبر من ان تدار بالضبط اللازم: فان مسألة المسافة لم تحل الا جزئياً بانشاء الخطوط التلغرافية وبناء خطين او ثلاثة خطوط حديدية كبرى. فقد بقي هناك شيء ناقص لم يكتمل، أعني به وضع اليد على الارض، بسبب عدم اتصال المناطق المأهولة. ولكن الخطر الروسي كان جدياً على حدود هذه الكتلة الضخمة التي بدت وكأنها ستسحق آسيا بكاملها في يوم من الايام.

جمع الفرنسيون شيئاً فشيئاً العناصر التي ستألف منها، خلال تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة

مئة سنة، احدى أوسع الامبراطوريات الاستعمارية، دون ان يسروا على مخطط مدرّوس ودون ان تحرّكهم الحاجة الى مناطق قادرة على استيعاب المهاجرين، ولكنهم كانوا في ذلك حريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن دائماً

مصالح مادية .

لم يبق من الممتلكات الماضية سوى بعض اجزاء مستعمرات المناطق الحارة التي تصادم حول ادارتها التقليد التجاري ورأي مواليد المستعمرات من الفرنسيين ومبادئ السنة ١٧٨٩ . وقد اثبتت الجمهورية الثانية وجودها القصير الامل بالغاء الرق واستهلال سياسة التمثيل ؛ وفي عهد الامبراطورية الثانية زالت « الحصرية » نهائياً من الوجود .

كان الحدث الهام احتلال الجزائر الذي اثار بعض الاسئلة : امتداد للوطن الام ؟ أم تعايش مع البلديين وفقاً لنظام مختلط ؟ تلمس المستعمرون طريقهم الى ان تأيد عمل فرنسا في المناطق الحارة بارتسام عالمين استعماريين مختلفين ، احدهما في افريقيا والثاني في آسيا : فعوالى السنة ١٨٦٠ ، وفي ظل الحرية الاقتصادية ، بدت الحماية بمرورها كخبر نظام لادارة مناطق مختلفة كل الاختلاف كافريقيا الشمالية والسنغال وكوشنشين ؛ ولكن فرنسيي الجزائر قد قاوموا فكرة « المملكة العربية » .

كانت الجمهورية الثالثة مرتابة حيال المستقبل ومرغمة على الوقوف موقف الارتعاب ، فاختارت في البدء سياسة التمثيل التي كان مدعواً للاستفادة منها لا مستعمرات الجزائر القديمة فحسب بل السنغال والمؤسسات الاستعمارية في الهند أيضاً . ثم تألفت كتلة افريقية ، من المتوسط - بحيرة زادت اتساعاً على هذا البحر - حتى خليج غينيا و « دارفور » وحقى الكونغو الاسفل . وجرى تجمع آخر في داخل المثلث المرسوم بين جيبوتي وشاندرناغور و « سانت - ماري » في مدغشقر ؛ وارتسمت كتلة ثالثة في الهند الصينية . واذا اضفنا الى ذلك ان فرنسا موجودة في اميركا واشتركت في اقتسام اوقيانيا ، افصح لنا ان امبراطوريتها قد تميزت بوجودها في كل مكان على غرار الامبراطورية البريطانية . وانما تقابلت نزعات مختلفة اتصل بعضها بالفلسفة الجمهورية الديمقراطية وبعضها الآخر بالموضوعية النفعية ، او كانت توفيقاً بين المبادئ والوقائع . واضطرت الانتهازية ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان تأخذ بعين الاعتبار المعارضة المقاومة للاستعمار ، فقامت بتبديل الصيغ وفقاً للظروف والحالات ، وتبرير « الاستبداد المستنير » الذي يعتمد الحكام ، وافساح المجال في الوقت نفسه للعشاريع الرأسمالية . ولم يكن هناك وزارة مستقلة للمستعمرات قبل السنة ١٨٩٤ : بل اكتفى بمجلس أعلى استشاري انشئ في السنة ١٨٨٣ ، ومديرية ترابط اما بوزارة التجارة واما بوزارة البحرية ، بينما ارتبطت محيتا تونس وأنتام بوزارة الشؤون الخارجية . وترقبت التجمعات الاقليمية (اتحاد الهند الصينية ، وافريقيا الغربية الفرنسية ، وافريقيا الاستوائية الفرنسية) انشاء ملاك الحكام الاستعماريين في السنة ١٨٨٧ . يضاف الى ذلك ان ردة فعل مذهب حماية الصناعة الوطنية قد شجعت السياسة المعروفة بسياسة الربط التي كانت التدابير الجمركية نفسها ممكنة التطبيق بوجهها في الوطن الام والجزائر والمستعمرات القديمة ومدغشقر . اما بصدد الهميات والممتلكات الاخرى فيجب التفاوض مع الاجانب .

ان توثيق الروابط هذا بين فرنسا وممتلكاتها قد صادف في الزمن فترة الهبوط الاقتصادي . فاعتمدت الانتهازية والاختبارية طرائق جديدة . وقابل الامر مركزية الادارية والتجمعات الاقليمية توجيه نحو الاستقلال المالي الذي كان من شأنه تشجيع التجهيز دون ان يتحمل الوطن الام نفقات كبرى .

دخلت «فرنسا الكبرى» هذه في التراث العاطفي الفرنسي ، مع ان الفرنسي لم يحدد تحديدها كما يجب التحديد . ولكنها لم تعرف ، لمدة طويلة ، سوى تقدم بطيء جداً ، لأنه كان ينتظر منها اكثر مما يسلم باعطائها .

منذ أواخر القرن الثامن عشر تجدد ارتقاء بريطانيا وسيورها قدماً . فقد التفوق البريطاني حلت محل امبراطوريتها الاولى ، التي كانت تجارية وتمثلت في امريكا اكثر منها في القارات الاخرى ، امبراطورية ثانية ارتسمت حدودها حوالي السنة ١٨٥٠ وبلغت الذروة في السنوات ١٨٧٠ - ١٨٨٠ . تلك هي امبراطورية العهد الفيكتوري : امبراطورية المفاوضة الحرة ؛ امبراطورية بريطانيا العظمى التي اصبحت بدون منازع اعظم دولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية ايضاً . زد على ذلك من جهة ثانية ان الهيمنة البريطانية قد بلغت ، كما يبدو ، من الرجحان الذي لا يقاوم ما جعل بعضهم يعتبرون استخدام القوة وحق عرضها عملية نافذة كان لها ما يبررها قبل تلك الايام ؛ فليس من حاجة الا للمفاوضة والتجارة لترجع الحجة البريطانية . الا ان وجود الامبراطورية كان ضماناً جليلاً للفائدة للتقدم .

تألفت الامبراطورية من عناصر ثلاثة مورثة عن المهود السابقة ما زالت تتقدم تدريجياً : المستعمرات الاستراتيجية ، المناطق الحارة ولا سيما الهند ، ومستعمرات الاسكان في المنطقتين المعتدلتين .

كان المضرب العظيم الذي حاكته انكساراً على سطح الارض على وشك الاكتمال . وقد طنبته شبكة كثيفة من الاسواق التجارية ونقاط المساندة ومرافئ التمين ، وفقاً للطريقة الاستعمارية البورتغالية . فحيث وجد جون امين ونقطة يسهل اقتراب السفن منها على الطرق البحرية ، هناك يكون البريطاني . امعن في البحث عن الجزر وحتى عن الجزيرات في المضائق ، وجعل منها محطات بحرية لتزويد اساطيله بالمياه والمواد الغذائية والمحروقات وتموين السفن الاجنبية . وعلق فيها اسلاكه التلغرافية . وانطلق منها ، عند الحاجة ، لاستطلاع الوضع التجاري في القارات القريبة . واستخدمها كقواعد للعمليات البحرية وحتى البرية . فامتلك من ثم معظم الجزر المتناثرة امام الشاطئ الاطلسي في العالم الجديد ، التي كانت بمثابة الركائز لجسر عظيم يصل اوروبا بافريقيا الجنوبية (حتى ولو كانت ترفع على ايبريا) ، والجزر المتناثرة كذلك في المحيط الهندي - الذي احتفظ به لنفسه - او المحيطة به ، والجزر التي تسيطر على مدخل بحر الصين . وازداد بيريم الى عدن لمراقبة باب المندب مراقبة فضلى ،

وهونغ كونغ الى سنغافورة لاستقطاب تجارة الصين ، وحين شعر بأنه ما زال بحاجة الى محطة اخرى ، استولى على جزيرة « لابوان » أمام ساحل بورنيو الشمالي ، التي انطلق منها لاحتلال بورنيو الشمالية البريطانية ؛ وخلال السنة ١٨٧٨ ، حين اشتدت الازمة بينه وبين روسيا ، وضع يده على قبرص في المتوسط الشرقي ؛ ولم يكتف بائزال جيوشه الى جزر البحرين وكشم في مضيق اورموز لمراقبة الخليج الفارسي ، بل وقع اختياره على رأس جبارك قبالة مسقط ، وجزر كوربا - موربا جنوبي الجزيرة العربية ، وجزيرة سكوطرة عند مدخل خليج عدن ؛ وباستيلائه على جزر « فيجي » احتفظ لنفسه بأحدى المحطات الفضلى على الطريق البحرية عبر الباسيفيكي من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المواقع بمثابة نوافذ على الاراضي المجاورة : سنغافورة على الدول الماليزية ، ولابوان على بورنيو ، وعدن على مؤخرتها العربية ، ولاغوس على نيجيريا ، و « مباباز » على افريقيا الشرقية ؛ بالإضافة الى زنجبار التي قابض هليغولند بها في السنة ١٨٩٠ .

الهند الغربية والهند الشرقية : لرحلتنا ابدأ على الممتلكات الكبرى في المناطق الحارة . فن جهة ارخبيل « نندورد » وارخبيل « ليورد » في الانتيل ، وجامايكا الجميلة ، وكبرى مستعمرات « غويانا » ، وبقعة من « هوندوراس » حول « بليز » ؛ ومن جهة اخرى الهند وملحقاتها . وفيما بينهما ، اي في افريقيا ، مستعمرات لا اهمية كبرى لها : غامبيا و « سيراليون » وسوقا اكرا ولاغوس على الشاطئ الغربي . فقد المحصر الاهتمام كله بالهند التي لم يدخر الانكليز وسماً في سبيل استثمارها وحماية حدودها . اليها اتجهت كافة الطرقات التي سهرت عليها غير مفرطة : الطريق القديمة التي زاد غو افريقيا الجنوبية البريطانية من تعزيرها ، والطريق الجديدة التي كادت تصبح بدورها طريقاً بريطانية بعد احتلال مصر . وقد تلاحت حينذاك الحلقة الاخيرة من السلسلة الامبراطورية التي امتدت بين لندن وبومباي مروراً بجبل طارق ومالطا والبحر الاحمر .

ولم يعتد بكندا وافريقيا الجنوبية والمستعمرات الاوسترالية للاسكان بقدر ما اعتد بها لمساحاتها الكبرى . بيد ان الاوروبيين اخذوا يتوافدون عليها بأعداد كبيرة ، ونمت فيها حياة على الطراز البريطاني . فأخذت تترعرع شخصيات قومية قوية في هذه الاراضي التي اكتسب فيها المهاجر عادات جديدة اضافها الى اخلاق الوطن الام .

والحال ، في الوقت الذي ما زال غلادستون يثبت فيه انه المعبر الامين عن الحرية المنشسترية ، وبينما تواصل في الوقت نفسه ، في الوطن الام ، وفي مستعمرات الإسكان ، وحتى في مستعمرات المناطق الحارة ، تطور نحو نظام تمثيلي اوسع عدداً ، دخلت الامبراطورية الثانية في مرحلة تحول .

هي نتيجة الهبوط الاقتصادي ما جعلت المنافسة اشد حدة والحمسى الاستعمارية اعظم خطورة في حين بدأ التسابق الى التسلح . فاتخذت الدولة البريطانية احتياطاتها على طريق

الهند عبر السويس ؛ ولكنها ما كانت لتستطيع البقاء بعيدة عن اقتسام افريقيا واوقيانيا الذي سوف يتحقق بكل سرعة . اصف الى ذلك من جهة ثانية أن القوميات الفتية استيقظت في داخل مستعمراتها الاسكانية التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي : فاذا اصبح بمقدور مملكة كندا في شبائها ان تفتح على اميركا الشمالية ، فان اوستراليا وزيلندا الجديدة اخذتا منذ ذلك الحين تنشطان في الجزر الاوقيانوسية الصغرى ، وانطلاقاً من « الراس » تأسست شيئاً فشيئاً افريقيا جنوبية بريطانية واسعة الارحاء . وهكذا بينما كانت بريطانيا تبرز حدود الهند باستيلائها على المرات اليرانية والهملاوية وبضمها بورما ، هجمت يحوشها على افريقيا حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة . وكانت مكاسبها الاقليمية عظيمة جداً بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٢ : ١١ مليون كيلومتر مربع .

باقت الامبراطورية برية اكثر منها بحرية . وبعد اليوم تمثلت فيها الجماعات البشرية المتأخرة حضارة والمتخلفة تطوراً تمثلاً اقوى ، فتعاظم التضاد سياسياً بين هذه المناطق التي كان الوطن الام حرصاً على الاحتفاظ بها وبين المجتمعات الاوروبية الطابع التي ستكون المتلكات . ولكن بريطانيا اهدت ببرونة الى خير صيغة تلائم مزاج كل منطقة . واذا قضت الحاجة بأساليب مختلفة ، واذا اقلقت بعض القوى الانفصالية ، الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة ، فان التضامن قد عززته الحاجة الى دفاع مشترك واعتماد مبدأ الحماية التجارية اعتماداً مطرداً . وفي آخر القرن كان العالم البريطاني محافظاً على تلاحمه وعلى الاعتراف بتفوقه .

في السنة ١٩٠٠ ، كان اقتطاع المستعمرات قد بلغ مرحلة متقدمة جداً ، وهي الدول القديمة ، ولا سيما فرنسا وبريطانيا العظمى ، ما اصابها النصب الاوفر . ولكن المستعمرون الاخيريون : من الارث البليجيكي الى المطامع الالمانية والاطالية دولاً استعمارية جديدة قد برزت .

فان الدولة الكونغولية ، التي كانت ثمرة مبادهة ملكية ومعاهدات دولية لم تضمن مستقبلها ، سوف تخضع لرقابة حكومة بروكسل : انها اوسع الانصب مساحة واكثرها تجانساً واوفرها ثروة واصعبها استثماراً .

كان بيسارك قد اشرف على ولادة « الدولة » المستقلة . فهل هو لم يصمم بعد على تحميل مسؤولياته يا ترى ؟ ام هل أنه كان راغباً في مراعاة جانب انكلترا ؟ واذا كان هذا هو واقع الحال ، فاذا تستطيع المانيا ، ان لم يكن الاستئثار بما تبقى بعد التقسيمات الكبرى ؟ وهكذا تكونت ، في اقل من عشرين سنة ، مستعمرات المانية شملت مجموعتين ، الاولى في افريقيا (جنوبي غربي افريقيا) وهي نصف صحراوية وتتميز بعدم الاتصال وصعوبة الاستثمار ، والثانية في الباسيفيكي (في ساموا ، وغينيا الجديدة ، ومجموعة الجزر المجاورة) ، وهي ثائية جداً وقليلة التجانس . ومن جهة ثانية لم يبتغ بيسارك سوى تشجيع مشاريع مواطنيه ؛ فهو في

كل مكان تقريباً قد اراح نفسه من شجون الادارة ملقياً ايما على عاتق الشركات التماقيدية ،
وحين حل « الرايخ » محل هذه الاخيرة ، وجد نفسه أمام « مقاطعات موضوعة تحت حماية
الامبراطور » لا ترتبط الا بالمستشارية الامبراطورية . وبعد بشارك لم يبق من اهمية هذه
المستعمرات ، في برلين ، الا بالنسبة للسياسة التوسعية الجرمانية ؛ فقد تمتعت فيها الشركات
ذات الامتياز بكل حرية ، وأنت التجاوزات نفسها التي اتتها الامتيازات البلجيكية او الفرنسية ؛
ولكن ألمانيا ، التي عجزت عن ارضاء حاجات هجرة واسعة وحاجات رأسمالية تزايدت
مشاريعها ، والتي لم تمتلك اي موقع من المواقع الهامة الرئيسية ، والتي كانت مع ذلك في موقف
ملائم للمطالبة ، اذ ان ممتلكاتها كانت محاطة بممتلكات الدول الاخرى ، ارغمت بالضرورة
على اللجوء الى التهديد الجدي للحصول على فوائد جديدة .

كانت ايطاليا دون المانيا قوة ، ولكنها على الرغم من ذلك ، كانت راغبة في الاستيلاء على
تونس : فخاب املها مرة أولى . ثم توجهت بانظارها الى افريقيا الشرقية : ولكن قواعد
انطلاقها (اريتريا والصومال) كانت ضيقة ، فانتهى مجومها على الحبشة في السنة ١٨٩٦
بكارثة كبرى . وجملة القول انها كانت غنية بالرجال وفقيرة بوسائل العمل ، فلن ترضى ولن
تقنع ، بل ستوجه اطماعها شطر ليبيا .

بيد ان مجالات المنافسة قد ضاقت حين استفادت الولايات المتحدة من الالمخطاط الاسباني
ودخلت المعترك بدورها . فعول المناطق الاخيرة التي لم تدخل في فلك احد - المغرب ،
والشرق الادنى ، والشرق الاقصى - كانت الدول الاستعمارية ، القديمة منها والجديدة على
السواء ، في حالة ترقب وتأهب . وفي الشرق الاقصى برز شريك مضارب اخير هو اليابان .

لقد بلغ توسع اوربا الاستعماري ذروة اشرف منها على الانحدار .

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بلغت أوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تتم لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لمعري ، في الشرق والجنوب منها ، مناطق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبعث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها الى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الثروات وتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤسسات .

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الأوروبية تنمو بسرعة وتنشط باستمرار ، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تفيض ، بالرغم من صغرها ، بالمفارقات الإقليمية والاجتماعية . فالأثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنىً تلمحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يحف او ينضب .

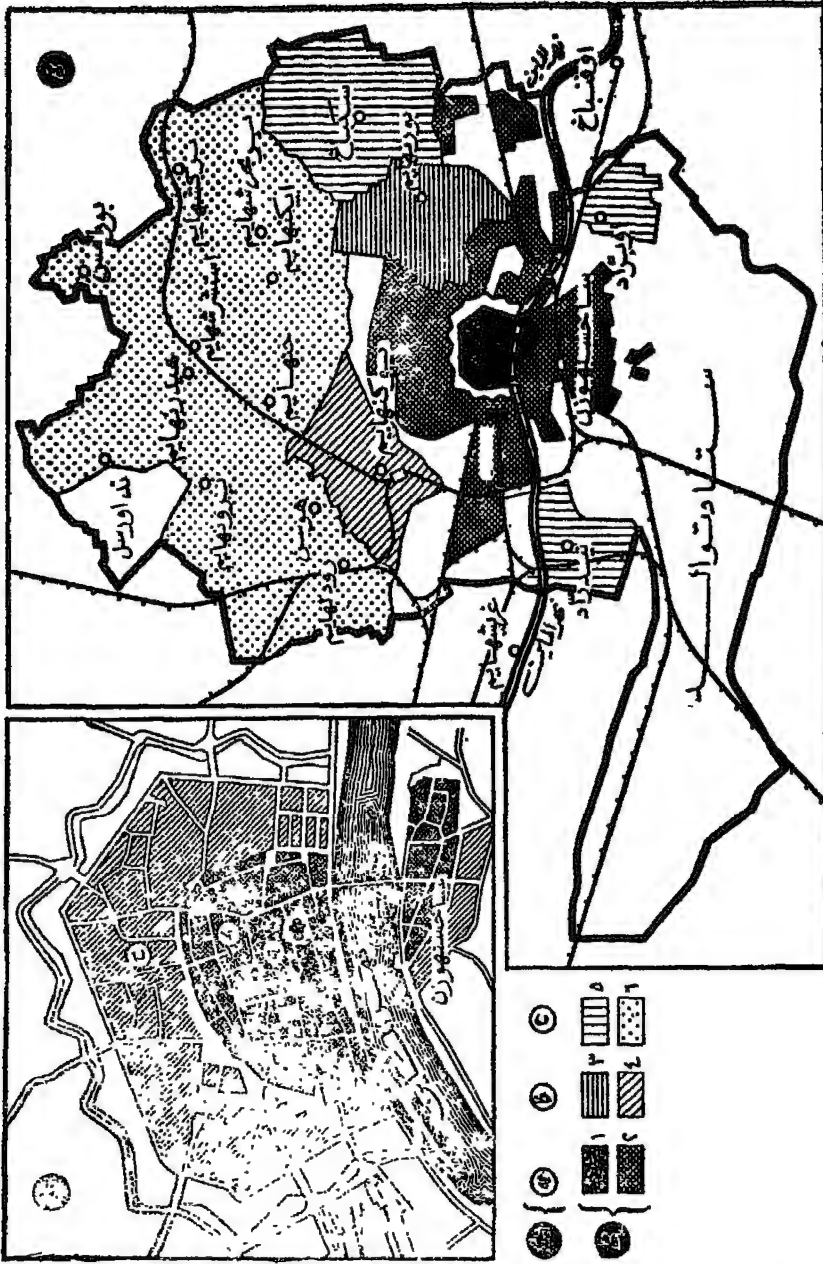
الفصل الأول

المدينة ودفعها الشديد

«اخضعت البورجوازية الريف للمدينة وخلقت مدناً
جبارة». (بيان الحزب الشيوعي - ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف ، حتى عام ١٨٥٠ ، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف ، واخذ يتطور ويتضخم . فهو ناتج عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور للنمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلاً نرى ان التجمعات التي يمكن وصفها بالمدينية (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى ٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا برز لنا بوضوح كلي تفوق مديني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نجواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف فتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبعة التي تحتلها عواصم



شكل ١٤ - نمو مدينة فرانكفورت على المائتين
 أولاً - فرانكفورت عام ١٨٥٣ يبدو في الرسم : ١ - الاستنادات على مقربة الجسر القديم؛ ٢ - النمو الثاني : الامتداد الأول الذي تم في القرن الثاني عشر .

ثانياً - نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم للمدينة القديمة بأحيائها : الاستنادات والنوسادات فيها ٤٠.٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي أقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذذاك ٦٧٨٢ هكتاراً . كما يرفع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠.٠٠٠ نسمة ، وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث أصبحت تعد ، عام ١٨٩٥ ، أكثر من ٢٨٠.٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

الدول تطلت النظر وتسليد بالانتباه والملاحظة . فقد ضمت لندن عام ١٨٨٠ ، نحواً من ٤ ملايين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، وضمت باريس قرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فرنسياً



شكل ١٥ - توسع مدينة تورينو

- ١ - جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ هكتاراً) تسع ٦٥ ٠٠٠ نسمة .
- ٢ - امتداد على عهد شارل البير .
- ٣ - حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ هكتاراً) .
- ٤ - منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة) .
- ٥ - امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ هكتار ، و ٤١٥ ٠٠٠ نسمة عام ١٩١١) .
(مأخوذة من كتاب ب. غريود)

فالزيادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مدينة بطرسبورغ ، و ٣٤٠ بالمائة في لندن ،

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فيينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالأيرلنديون والسكندنافيون والعديد من سكان القارة ينزحون الى لندن . يسكن السلافيون والمجر واليهود يقصدون فيينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت ايتين فعدد من ولدوا فيها هم ٥٠ بالمائة .

فإذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للمدن القائمة ، فقد عمل المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة بالاكتر على صقلها وافراغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعها في الامس القريب خواء . والامر يتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عادة حيث تتوفر امكانيات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غريبة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافئ وامتدادها . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لعبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقاً ويندراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجملت صورتها لموريس باريس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هامي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هامي ذاتها تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيز الذي شغل حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلاواها ومتعتها . ففي كل يوم ، وفي الساعات والافاق ذاتها نرى هذه الايدي التي تعتني بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي المائل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن ، اي اذى ، وهذه المظاهر والرؤى المتتالية تحبس معاً وتراكب بعدان تتخلى عن مميزات الفارقة . فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم ، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تتكيف ومقتضيات هذا الوضع الطبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلا تسها معاول الهدم . ولذا فتراكم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غربية ، فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة للهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والإتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٥٠٨ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام ١٨٠١ ، بعد أن فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه . أما في برلين ، فالأحياء *Alstadt* و *Ferderichstadt* يسجلان تأخراً أو بالأحرى تقهقراً بين ١٨٧٥ - ١٨٩٦ ، إذ هبط معدل السكان فيها من ١٧٤٦ الى ٧٤٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الأحياء العائدة فيها الى الأجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي امر بتشيدها الملك لويس فيليب . فقد امر بفتح ثغرات او فجوات واقام ميادين او مساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما امر بهدم المنازل السكنية الحظيرة المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مباني بوجوازية ضخمة . فهاهو برودون يحدثنا عن « المدينة الجديدة الرتيبة » الملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفت بديعة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احوال الحجارة والرمل مع مراتب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية ، التي بعد ان حلت محل مراقىء المدينة وموانئها القديمة ، افقدتها سبب وجودها لهذه الساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصى ، وهذه الطواير من الكنائس ، وهذه السحائب الخفيفة ، من القبار المتصاعد . واخذت الأحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الأحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك أحياء محطة سكة الحديد ، وأحياء الإدارات العامة . وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حذمت طابعاً اجتماعياً ، يزأخذ يبرز من خلال ارادة البورجوازية . « فالعملاء أبعادوا بقسوة عن قلب المدينة » ، كما يلاحظ أوغسطين كوشين . اما في منشستر حيث يسكن اصحاب القبارك والمصانع ، عام ١٨٣٠ ، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ العمال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين وألباومين الذين اخذوا يتكدسون في أحياء تقفقر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والمنازل المصعدة للاستثمار ، من ابرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظاهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والعشم وقد قسم دائرياً الى حجرات ذات سقف سَندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد يقسم الى شقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بعد ان ضحوا بالمطبخ والقسم الصحي ، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها الا قياً بعد . فكل شيء في المبنى جرى تصميمه على اساس تجاري برسم الايجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز الدخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثاً هاماً في تاريخ تطور المدينة وامتدادها ، اذ يجررها ، الى الأبد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحال فيها بعد حارات واحياء جميلة متحدة المركز ، وقد حدث من طاعتها على التطور والاتساع سلسلة الحصون التي انشئت حولها عام ١٨٤٠ . ولم تخضع لندن لمثل هذا الارتفاع الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والعماير محل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وهدمت عام ١٨٥٧ ، وأزيلت كذلك تبعاً من مدينة انفرس اسوارها عام ١٨٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشلونة ، عام ١٨٦٠ ، ومن كوبنهاغن ، بين ١٨٥٧ و ١٨٧٢ ، ومن كولوني عام ١٨٨١ ، وامتدت ميلانو الى ما وراء سلسلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها . وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والمقاهي ، ولن تلبث المدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احياء عامرة اصبحت واسطة العقد بين الريف والمدينة .

هنالك رغبة شديدة في ادخال تعديل اساسي على هذا الطراز بحثاً عن نمذسة خاصة بالدين
المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة .
ففي مذكراته يعترف هوسمان « بأنه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء » وبأسف كثيراً لان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلاقاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديدة . وبالفعل ، فالمعصر كله يتعثر في تروده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

وبشعور من الوجع والجرأة ، والتردد والافس ، خيل للكثيرين في هذا المعصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هوام ، الفن القديم او الفن الغوطي او فن عهد النهضة والانبعث . ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علقت باريس بالفن الايطالي في عهد النهضة محتذية بذلك حذو المعصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتعمق النظر في كنيسة الثالث الاقدس وسات فرنسوا كسافييه ، والاوربا والوفر الجديد ، كما يحلو لفارنسيه الاكثار من تزويق الأوبرا بشكل ينسب عن الذوق السليم ، كما ان دو كسنوى عمده هو الآخر ، الى تقليد الفن الكلاسيكي في هندسته لمحطة الخط الحديدي الشمالية ، ويحذر حذوه هيتورب في بنائه المحطة الشرقية . الا ان بلنار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المواد المعدنية اثر ان يضيف على كنيسة القديس اوغسطين ، مظهرأ بيزنطياً . اما البريطانيون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز الغوطي بينما اخذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما تتمثل ذلك في قصر بوكنفهام مثلاً وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لمسة نلسون ، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فيينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيسة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هوفبرغ والمتاحف التي قامت فيها ، فمعظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديد رسم وشكل قصر العدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قلدت على اقدار مختلفة من النجاح ، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجادات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومفارق الشوارع الكبرى ، بالتأثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحى دائماً فكرة الضخامة ، فقد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج منمنماً مفهوماً ... فالهندس لابروست يكثر من المواد الحديدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنيف غخفاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الدقيقة المشوقة ، الهيفاء ، تليق كثيراً بالمباني الخاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالهالات .

تطور الخدمات البلدية الصعبة
اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة، متعاطلة،
فاذا ما حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسماء يتمتع اصحابها
بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فبروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها
أناش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشتهر جوزف شميرلن بوصفه اميناً
لمدينة برمنفهام .

فقد عدت لندن ١١٤٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم ، كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣٤٥ كلم ، رصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة العريضة على جانبيها . ورصف الطرق بالخشب ، أخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى تزفيت الطرق بعد ذلك بقليل وتم للنقل ثلاثة انواع من الوسائل : الامنيوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والخط الحديدي على سطح المدينة او تحت الارض ، ثم الترامواي : مكهرباً كان او غير مكهرب . وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة للتدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحمالين والسقا ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بشر من هذا النوع هي بشر غرينيل . وراح المهندس بلگران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كمبرلاند . وتصرف المياه القذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خاصة ليتولى عمال من قبل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ٤٠٠٠٠٠ من جامعي الحرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندما راح يتكلم عن حال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعمل ، في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضا على هذه المناطق النائية عنها . ففينا تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنغاريا ، والجمعة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الروهر يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والحنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والحس على انواعه من مناطق البحر الشالي ، والفاكهة والاثار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

والشارع في عبثه وطره وملذاته
وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن العملاقة تعيش جامهيريا ، لها ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تقتفر للمجلس في فرساي «مجلس ابناء الريف» كما يلقبونه ، منافسته لها على لقب «العاصمة» ، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا . ويحلو لهذا الشعب الباريسي التهمك «بالتونكيين» ، ويتعلق حول بيرانجييه ويصفق له ويظهر عداوه للسامية خلال «القضية» (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف للقيصر مردداً :

لرؤية القيصر كما يجب

ثم باسكراً واحضر بسرعة

ولا تتمهل في سريرك

وقد تفاهل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومصر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبها) يهتف قائلاً : «ليحي الملك الراحل» ، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على ائزال فرقة المانية في جزيرة باب . البزة العسكرية لها اغراؤها لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنبي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امام قصر بوكنفهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض للجيش تقام في احياء العاصمة . فالتماثيل والانصاب الوطنية والشوارع تعمد باسماء مشاهير الوطن ؛ والمبني التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتبسي الالباب بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلاً . والنساء والفتيات لا يتعرجن قط عن الخروج ليلاً . وفي باحات المقاهي يحتشد النظارة والزبن يتحدثون ويتسامرون محدقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع ولجساداتها البديعة سحر وفتنة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجمعة اصبح من الامور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءتها من المانيا . فواجهت المخازن الكبرى تلتف اليها الانظار والاعلان يحتدب النظر .

بين الاخلاق البارسية
والاخلاق البورجوازية

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محور الموسيقى المرقصة . هنالك لعمرى انماط من

الحياة هي من صميم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او الساترة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بأنه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عند مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدرمينو والورق . فهو يتردد على الحماره ويأتي الى هذه « الدواخه » ، كما ينعمها زولا في وصف لها أخاذ . الا ان هذا المجتمع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه بنظرته الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلبحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستحجتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فسواء حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة او الطرحة ، والنقاب او الحمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثرت الى الحركة والتنقل والى ركوب العربيه ، كان عليها ان ترفع اطراف فستانها الذي يشكو من الطول اجمالاً . فهي قدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحميتها الصغيرة تودعها منديلها وبعض اغراض زينتها . فاللبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكثير السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياح المناظر في الاوبرا ، أمور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفرها له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثر من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة للطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة للنوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا ما يتبدل من السقف الشريات الجميلة ، كما حرصوا على تزيين المداخل بالشموع . اما المائدة فتزقل عادة بالاطاييب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كشرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاعب والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز دبولز وكريستوفل وهلفن . والبياض يضي على البيت مسحة من الشراء والغنى ولا يفترض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، ويصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة المهد . وبانتظار هيئة البائنة قبل الزواج ، تنصرف الفتاة لاشغال الابر والتطريز . اما تبادل الزيارات في ايام ومواعيد محسدة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب وناضي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بحفظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر . فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الفنية الكبرى . فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، ولیم بورجر . كل بورجوازي من عليا القوم يحترم نفسه يرغب صادقاً في ان يؤلف له مجموعة منها محتدياً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوافر وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فأبل غييمه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة ، والصراف سرفوش ، والبارون دافلييه ودوقة غالبارا وآل كونياس - جاي ؛ وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذاك ، فمن ناطور العمارة الى ساكن السفينة العلوية ، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المغنية بالإعلام والازياء على نشرها تباعاً . وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلون بحماس على المسرح الغنائي . فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهج الغنائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبر ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية . وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « لليهودية » تطل علينا المبلودراما التي تفص صالات العرض بالمستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز توماس ، وفوست ، وميراي لفونو ، وكارمن لبيزه ، ومانون لماسنه ، وباريس تقوم وتقعده لواغتر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرهما حول *tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ، ملازمة له ، و « موسم » فني ، تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات . والآلة تفيد كثيراً من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فن التزيين والتعليق يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباء .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبث . فالى جانب المسارح التي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين) ، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

مثلثين امثال : بروهان ومونيه - صولي وروزين برناردت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد عمل بمعزل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم ، ومسرح المستحدث (Nouveautés) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاء الذي يقول عنه سانت بوفانه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، فن يضمنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكئ الى درابزون الشرفة « موضوع هواية الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن » ، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للابيش ان يطلع علينا، قيلمب لوحده ، او مع بعض المساعدين له نحواً من ١٠٠ مسرحية ، بين ١٨٣٦-١٨٧٦ واكثر سخيرية منه واوفر ، كما برز كل من اميل أوجييه واسكندر دوماس الابن الذي تمكن من أقلية مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوريت التي تداني الفودفيل ، تبعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفية ، اذ كان من المفروض القيام بحركة معاكسة لما يسميه تيوفيل غوتييه الفن الهجين الحقير الذي جاء خليط من طريقتين للتمايز تعارض احدهما الاخرى حيث يسيء اللاعبون تمثيل ادوارهم بحجة انهم مفنون ويفنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوريت ان تضحي بعنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكوك واوران وبلانكيت ومساجيه اتقنوا ، الى درجة عالية ، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوريت ، وقاموا بردة معاكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاي » والسافل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك لذات ايسر هنالاً وأيسر اخذاً واشد وقماً . فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وببييه والبطينة ، كما استسلمت لهواية السيرك الذي تملك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فمرفت باريس اربع فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بألعاب الخفة التي قام بها مازورييه ، صاحب الوجه الصبوح ، واوربول ، هذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت عين النظارة العاب السيرك الاولمبي الذي لم يلبث ان حل محل سيرك الشاتليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعاب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الغنائية حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احياء باريس الحضارة المدنية : مساكنها وعوراتها امثال الـ *Salpêtrière* ، والمخطة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العلب الليلية وبيوت المشاة والتسرى .

ولسنا سبورغ مثل هذه ، هي الاخرى ، اشهرها الـ (Ponts - Couverts) ومثل لذلك لمدينة روبيه وليون ومرسيليا . اما في لندن ، فمقابل الاحياء السكنية الفنية الى جهة الغرب ، يقوم حيها القدر ، الوسخ East - End ، واحياؤها الفقيرة القذرة . ويرى ماكس اوريل في لندن مزيجاً بشعاً من الجمعة والانجيل ، وخليطاً من مشروب « الجين » والتوراة ، والسكر والرياء ، والاساخ بما لا يرى في غير مكان ، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع ، والازدهار والانحطاط وغير ذلك من المفارقات والمتناقضات الصارخة ، وهؤلاء البائسون الجائعون ، الحيارى ، وهذا الفريق الغارق بصلف وعلواء في الفن واللذازات .

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى الصائغة منها الى الناس ، هي نتيجة هذا الازدحام والقذارة معاً . ففي عام ١٨٨٥ ، كان معدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤ ٪ في باريس ، و ٢٨ ٪ في برلين وفيينا ، و ٤٦ ٪ في بطرسبورغ . وجاء في احصاء حول بروكسل ، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها و ١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل ، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط ، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة ، و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفة علوية تحت السقف ، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي .

ففي عهد ديكنز ، آوت ارسفة لندن وعنابرها ١٠٠،٠٠٠ سارق . وهاید - بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهاراً الا على صهوة الخيل ، هو مكان يتعرض من يحتازه ليلاً لخطر الموت ، وكلمة « مخضب بدمائه » هي على كل شفة ولسان . ففي فرنسا ٢٢ شخص من كل ١٠٠،٠٠٠ من سكان المدن يقدمون لحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف ، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريبا ، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشدات .

ففي لندن ، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في مهبستيد ، و ٢٥ في بتنال غرين ، وفي تورينو ٢٤،٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو ، و ٤١،٥ في حي سان لورتزو الفقير . اما معدل الحياة ، فالاحصاءات تقدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد . فالاحصاء الذي وقع ١٨٧٣ - ١٨٧٥ ، كان معدل الوفيات ١٥،٧ في المقاطعة الثامنة في باريس ، بينما بلغ هذا المعدل ٣٦،٢ في حي ١٩ ، عام ١٩١١ ، مقابل ٩،٦ و ٣٢،٤ . اما في برمنغهام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠ ، والى ١٧ عام ١٩١٠ ، بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة ، وارتفعت اسبابها . وتعلل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انما يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة ، فكلها السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتندافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة اللعينة .

من خلال الأنوار التي تمثت بها الارياح

بيوت البغاء تتألق نورها في الشوارع

(بودليز : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة كثيرا ما جاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه ، في الوقت الذي يفكر هذا الأخير بمناسبة لتغيير الهواء الذي يستنشقه . وهكذا نرى ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة واتجاعاً للصحة ؛ وكلما توفر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع الجميلة واماكن الاستجمام . وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويخرجها ليتراء في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسُميها اليوم هذه الرياضة ، من الانكليز . الا ان الاسفار اصبحت عادة استبدت بالناس وطفقت على الامزجة بعد طلوع السكك الحديدية ، فكثر بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدان . فالنادي البريطاني للرياضة البدنية للتصعيد في الالب ، نشأ عام ١٨٧٧ وسُمي النادي الفرنسي ظهر عام ١٨٧٤ ، وتولى ادارة الثاني منها شخصيات لها شهرتها الواسعة للترويج للرياضة البدنية وحركة السياحة ، امثال : ادولف جوان وفيلو - لودوق ، ودوق دومال والبارون نفليز . وطلع علينا بيارا بالخرطة المصورة التي تشير الى المواقع الاثريّة المشهورة .

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديدية الرئيسية الفنادق الفخمة لاستقبال المسافرين والسياح ، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها ومقاطعات بكاملها بالفنادق والاوليات على اختلاف درجاتها . وعلى شواطئ البحر قامت مساحات اثيرية يرتادها المستحمون من كبار القوم واثريائهم ومشاهيرهم .

ورياضة الجبل راجت ، هي الاخرى ايام رواج . فقد ام شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عام ١٨٦٠ ، كما امها حوالي ٢٥،٠٠٠ عام ١٩٠٠ . واخذت سويسرا تصنع السياحة في بلادها فدرت عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً . فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace* ، وآدمز الغي مائدة الضيوف ليقدم لهم بديلاً عنها غرفة الحمام . ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعة السياحة بلغت المليار ، عام ١٩١٠ . والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن ستائر قنن الجبال وقممها ، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج .

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢ ، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠ ، ومدينة بلبييه تجمع يناديها العديدة عام ١٨٥٧ ، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فترة استجمام في مياه كارلسباد ، وغابوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي ويقوم بمفاوضة كافور في بلبييه ، بسمارك يأتي وبياريتز . وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية : في ايشل ، وغاستاين ، وبادن . والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز ١٨٧٠ ، انها انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم .

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحمي العابها المفضلة : التنس والفوف

وكرة القدم ولعبة الكريكت، واخذت عادة التزلج تنزرو باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونسان. اما هواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستوقراطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من مذخور وفرهم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صغار القوم فيقتنعون منها بصيد صغار الطير ودقيق الطرائد بالبندقية. واخذ الطب يدعوا للرياضة البدنية، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها ايمارواج آل لنغ، الاب والابن. وقامت جمعيات رياضية في جميع البلدان تدعو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً، التي رمت الى تغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي.

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان كلما تقدم بنا العصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والافراء وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والتقنية . فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل شيء . فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء . وقد طغى الكم على النوع وليس يستغرب . ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونفر قليل ، كالموسيقى مثلاً . لنعد بالفكر الى هذا الحد الذي سيطر على فيينا فترة من الدهر وكان المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته ادا لم بات اهتمامه بفنون المسرح دون اهتمامه بهام الحياة وشؤونها الدنيا . فتألفت جمعيات فنية ، عنت باقامة الحفلات الموسيقية، منها في باريس مثلاً، الجمعية الوطنية للموسيقى، وجمعية بادلو للموسيقى، وكرلون ولا مور ، وكلها رمت لتصحيح الذوق وصقله وتهذيبه ، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها هابنيك اخذت تعرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي . فاذا ما حل النصرام من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصرام الامراء ، فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبدأً يحل محل هوي يبسط للفنان يدأ رفيقة دون ان يفرض عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه . فالتوصية حملت دوماً شيئاً من الاستبداد والتسلط . فعلى هذا الهوي الا يأخذ بعين الاعتبار والملاحظة ، هذا الخيال المجنح الخلاق ، بل عليه ان يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية .

فكان لا بد ، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجهه الضغط الذي يمرض له من الجمهور . فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بمطالب الجماهير ، فراححت في تمتنها توصل ابوابها في وجه المديدين . وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزرقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقد استطاع الجيل الرومنطيقى ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتواقيف . فتورة الشباب التي اتسمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عام ١٨٥٠ تقف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه تآقت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فعقب الجو بهذا الاريح وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمرى كل جاذبية الربيع وسحره - في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي - الذي قابل ، بإعراض كلي حرفة الادب والفن لمعجزها عن تأمين الحيز لاحتريفيها . فقد سبق للشباب الرومنطيقى واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور بإفطاط . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣.٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكرتات وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غلوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينما رفضوا ان يمرضوا الصورة : « جنازة في اورمانس » بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام ١٨٥٥ ، فاضطر لمرضها في كشك من خشب . والمحكون الفنيون لم يعاملوا معاملة احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : أراهير الشر - ومدام بوفاري - وتيريز راسكن - ومادلين فيرات ، والمدوخ ، بحجة انها انتهك للآداب العامة . فقد ترك لنبا « مورجر » وصفا لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . ويذهب ستيفن زفايغ الى اطراء مناخ باريس الغريب « المشبع بالسذاجة » وهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة ، هو الذي « خرج من مدينة فيينا هذه ، الطائشة ، اللعوب » وقد وقع الانفصال حقاً : فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خلقت النوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي - المساتي والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة .

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية - وهي ليست بشيء جديد - ظهرت في جميع البلدان على اقدار متفاوتة ، فها هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادياً حظه الناعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا « الادب المتهم » . فبعد ان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد الميهض الجناح في

تطلعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم انجازها برعاية الاسرة المالكة سعيداً في سردينيا. والفكر الالمانى القلق ، المضطرب دوماً ، يعرض جانباً عن هذه المغريات التي توفرها له سياسة بيسارك الوطنية ، فيتنبه حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية ، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري ، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة . فلا يسرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي تُحكّم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي، برفضهم لسهولة التعبير فطلعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت إلينا ..

اتكون هذه الحضارة المدنية في اوربا، اسفينا أو اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل هذا التطور ، يا ترى ؟

وهذه الرومطقية ، الفئائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها مثلثات المدرسة الرومطقية وسر بقائها ، في قدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المهنعة والحماس الوطني. وهذه البنابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة ، فياضة اصبحت الان اشبه بخطط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت طلوع ادب وطني قومي ، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد، فلا تراها تشكو من اي ضعف او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا المس العاطفي والمادة الشعريه الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشبوب طي الضلوع والمتطفي بين ثنائيا لواعج النفس ، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تومر بالحرارة والوهج والدفء كالاديب الانكليزي روسي ، والاديب الاسباني بكر ، ومعظم الشعراء السلافيين والرومان والسكندنافيين. والطابع المميز لآثار روبرت برونت هو الطابع السيكلوجي، وهوغو الذي ادر كنهه الشيخوخة وراح يعاني من اغراضها ، اخذ يعنى اكثر فاكشر ، بامور الحياة والموت هذه القضايا التي عاجلها الكانن النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلك فحماسة الناصريين تبرز على اتمها في المانيا ، في ما عرف به الفن المثالي الذي لمع فيه ماكس كلنجر ، اشهر وبرز نقاش على ما نرى ، منذ طلوع دورر ، وهذه الردة التي ظهرت في انكلتر ضد الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهار المدهش السابق لرافائيل والذي يتمثل على اتمه في هونت وروسبي ، وميلاي ، وبورن - جونز الذين حرصوا جميعاً على ان ينموا فيهم البدائية الفنية ، التي راح رسكن ، هذا الناقد الذواق الذي رأى « في كل فن كبير، شكلاً من اشكال العادة، رسكن هذا الذي كان همه الاول والاخير ان يطهر البشرية وينقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى نجده من جهة عند « هيبيل » ، كما نجده من جهة ثانية عند وليم موريس وولتر كراين اللذين

حاولا تجديد فن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هذا الفنان الذي عني بفن التمنمة والتزييق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما توافقوا على وصفه بمحضارة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلا : « لن ارى بعد الآن اناسا لابسين الحداد ويشربون الافسانت وهم يبحثون شؤون مشاريعهم التجارية » . فاذا ما راح برودون يستعيد بلذة ظاهرة ذكريات حداثته ، عهد كان يحرس قطمان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي تقتضيها العناية بالارض . والاقبال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بريزون لغيت رواجاً عظيماً وكانت امتداداً لفن السفوفيات الراعية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعاد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيايين ، في مجال المستبحن ، فالخوف من الجهول الذي يرزح على الصدر ، عرف ادغار بو ان يفيد منه الى اقصى حد وبمنف كما اجاد ذلك مريميه بمهارته المعروفة ، وغوثيه بذوقه الرهيف ، وجيرار دي نرفال بجباليته . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حافة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصر على ربط الحاضر بالماضي . من ذلك مثلاً مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في اثره الخالدين : « القصاص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتونسون ، ووليم موريس وماثيو آرنولد ، وفريتاخ في روايته « الجدود » ، وتولستوي في روايته : « الحرب والسلام » . ولهذا السبب بالذات لقبي واضعو القصص التاريخي ارتياعاً لدى الرأي العام واقبالاً شديداً منه ثم ان الاستمسك بالارض الام والتعلق بتاريخها ، قدم من جهة ثانية ، للشعر الملحمي ، موضوعات قوية . ومع ان هذا القصص خضع لمستلزمات الواقعية وحياتاً راعى ، مبدأ الفن لاجل الفن ، فالر ومنطقية ، بقيت تكأة لهذه الآداب الحديثة العهد ، تعتمد على بعث المآتي العظيمة التي تتنزي ، على اقدار متفاوتة بين الكبير والصغر ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفع فيها الحياة . وهكذا اخذت بمقاضة حركة البعث القومي التي سار في خدمتها منذ عام ١٨٤٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعصدها وتهيء لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بين الاقوام السلافية ، وسكان شبه الجزيرة الايبيرية . وفي هذا المجال ، يستلهم كلرموتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غاليدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطقي الذي لا ينضب ، تتفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . فنحن ان نراى عن الانظار المثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومان ،

وشوبان ، وليست ، جرت عبثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهاهم الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يمي أكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالعبور من ليست الى واغتر تم بصورة طبيعية مع ما صاحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

القيادات الرجعية ضد الرومنطيقية :
الراقية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي
بما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من نواح عديدة : من بلازك وميريميه ، كما اطلت علينا من ستندال . وكما راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقمي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف . وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان رينان بقي قريب الصلة بميشليه . وفلوبير بسحنته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجلت له افاريز ضخمة ، يوضح لنا قائلاً : « الطبيعي عندي هو الشاذ القريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي » . فلا يحق للروائي ، اياً كان ، ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق » . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئلا يودع الورقة اي شيء من قلبه » . وزولا نفسه يعترف قائلاً : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربة الزائفة التي لغنتها ، فانا لا ازال احمل في نفسي اثرها وهذا ما يهيجني بالفعل » ، فيجمع به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليها الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العلمية من تأثير بعيد في هذا المجال ... ! ان ما أرغب فيه ، يصرح ديككنز على لسان احد شخصوه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلقي الحملة وان ننتزعها عنا الى الابد » . فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بغريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاقية والمقذعات فلم يعد ثمة من موضوعات سامية او خسية محطة . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان تحيز واصبح واقعياً . فاذا اعترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يقلقها . وعلى هذا الاساس انزل رينان يسوع الى الارض وردة الى المحيط الذي وجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويحول سحرها ، هذه الاجيال السقي تبعت الرعب بما فيها من ايمان وبرص وبجاعة ، حسب ما يقوله لو كنت دي ليل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها . فعدم التأثر والتجرد من الغرض ، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقریات خصبه وقوية جددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجييه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيبيل

وهوتان ، في ألمانيا ، والثالث الشالي الذي تألف من يجرسن وابسن وساراندبرغ ، وفي روسيا تشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي بـ : تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لثن ومريدث ، طليعة سلسلة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تتمثل على خير شكل بفوتتان في ألمانيا ، وكيلر في سويسرا ، وتورغنيف ثم دستوفسكي وتولستوي ، مهما كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بألوان صارخة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ؛ وعمل فلوير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي ، هذا المذهب الذي حرثه الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي . وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغا وكبوانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالتو وبوتشيني .

وكوزيبه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهذه التفاهات الرومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقائي اذا ما صلح للتعبير عن السامسي الجزل ، وكلاماً يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . اما في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عنى بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . ومختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانباً كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على تحت وصقل عمله الاثري تحت الصائغ لقطعة ذهب بين يديه وصقلها ، يعتمد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النمنمة التي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي ترك اثره البعيد في لو كونت دي ليل ، وفي « تين » ، ولا سيما في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحوادث الواقعي مظهراً جالياً . واذا كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثل الفلسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باتر تسيطر تماماً على هذا الفريق في انكلترا ، وبيرمز لو والون وفوسمير في هولندا ، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرة الصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالم الاجتماعي غويو التعبير الاسمى لهذا التجاوب الجماعي في الشعور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد بنى تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول : « الجمال هو تعبير عن الواقعي المحيز » . و « تين » معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتواقعة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقة . ومن مندلسوهن الى براهمز وسان - ساينس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتأليف موسيقي آسر

وفقاً للروايات التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقترح الطريقة اليونانية اللاتينية . الا ان تدويع التاريخ القديم يتبين الآن نوعاً وقدرأ . فاذا ما راح أناقول فرانس يصب بلذة ظاهرة من أربع فلسفة أبيقور ، فرينان بدوره استعمل خبراً سرياً ، كما وجد فن الرثاء تلامذة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي ، الى فن ، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطيقى الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية ، الى البرتاسية ، كما يؤكد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشموره ويكتب احساسه في كل ما يكتب » ؛ ولوكونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فورييه ومريديه ، ونصير الغاية ضد المصنع وضد تعدييات الصناعة ، والمستسلم بكليته الى بدائية تقول بالاشتراكية ، لم يمد ليرغب في عليائه وكبريائه واشتمزازه ، الا الانقطاع الى هذه اللذائذ الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كادوتشي وشادت عظمتها ، سيعرف جوزيه - ماريا دي مريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف ينمىها بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب « الاناشيد البربرية » ، والذي ينتزى بالعلم والدقة ، والذي يعنى الى اقصى حد ، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكتابة والسأم . فالامثلة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الاناشيد القديمة » كما ان « الاناشيد المفجعة » لن ترى النور قبل عام ١٨٨٥ ؛ وفي هذه الفضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الاناشيد الزحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغتر : « مذكرة تريستان » . وهكذا أطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامه مهددة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

المدرسة الانطباعية
في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسمه كلود مانيه فيصفه « بالفن الانطباعي » بينما دليل المعرض يشير اليه بمباراة « انطباع » الشمس الطالعة . « يا لنا من مساكين ، وسنبيقي مساكين » طفق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولا كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يقعوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لوميتير فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان : « انطباعات حول المسرح » . وأناقول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الادبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابرييه الذي 'عرف ببراعته وتقننه سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسعنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقيين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي 'عرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقد يكون استبقي ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة التي طالما اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع العفوية او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر - ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منها يأخذ على الثاني اعتقاده بمظاهر وظواهر دائمة مستمرة ، كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القائم ، في رسمه السيمى الانارة والاضاءة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحدث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندما عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمه المشهور باسم : « ترويقة على الحشيش » وهي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلة نرى مونييه مأخوذاً « بهوس الضوء وحسى النور » . والحال ، فالنور او الانارة تتغير وتبديل بتغيير الظروف والاحوال الطارئة . ومن ثم فالتشيء المائل امامنا هو هو ذاته في كل الحالات اذ ان لا تغير ولا تبدل في ذاتيته . مما لا شك فيه اننا هنا امام تأثير *Fistampe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيماً بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا أيضاً امام تأثير الفن الهولندي والاسباني ايضاً كما هو ثابت . وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي : فالرمادي والاصفر يقشبان كل شيء حيث تقيم الالوان وتبهم وتشتد بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على الملئون (لوحة الالوان) . فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يوفر له اللقطات الآتية ، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونييه الذي يعتبر خير ممثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العارض سوى المناظر الآتية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بمجد ذاته . فالابداع او السمو يكون في رسم « الخواء » . وسيزلي يضحي بمهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربييه الى مونييه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا ، آخر الواناً تهيج الحواس وتثيرها . لا يمكن اعتبار ديفاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام المحافظ ، اليعظ ، انقطع المرقم (البستل) وتوصل به الى نتائج مذهشة فاذا كان من العسير وضع هوسلر في مرتبة مونييه فقد دشن ليبرمان ، مع ذلك ، في المانيا ،

مدرسة القطيعة او الانقسام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وعرفت بدورها رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشالية ذات الجو السويدائي . ويوفيس دي شافان مدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

كثيراً ما وصف نفسه بـ *rondichter* اي شاعر الموسيقى الذي واغتر والانجاء نحو الفن اللاعقلاني جمع في شخصه كل التيارات الفنية الذي عرفها القرن. رومنتيقي، فقد «كانه» كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما يواجه حدثاً داوياً يصيب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيفريد فوضوي يتحدى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة المجردة ، السوية الصور وراح يلوم فرنسا التي غدت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » كما لم يوفر في موقفه هذا، اليهودي، اي روتشيلد مرمزاً من تعابير *Glaubiger* الى دائن الملوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحركة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى المهرمونيا ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحّد بين الشعر والموسيقى . ومن هذه الفكرة طلع علينا « برعاية خاتم آل نيبلونجن » فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد . وتطالعه فلسفة شوبنهاور القائلة بالفن المنقذ . ويتجه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية التي تجلت بكل معانيها في كتابه : « تريستان » . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « فانهوزر » في باريس ، لازم بمرقاً السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maîtres Chanteurs de Nuremberg* هي مجلى لسمو المبقرية المتحررة التي انقذت في شخص، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وجر مسرح يبروت ليشهد تمثيل وقائع سيفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيغال المنقذ .

واستبداد موسيقى واغتر بالناس واستشارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قام منهم بحركة رجعية منهم ، امثال دويوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت مخبولاً من مشاهدتي *Felstspielhaus* ، صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرابعة *tétralogie* عام ١٨٩٦ ليس ما هيأني ، انا الكرتزاني الحديث العهد ، لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم ، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات ألبرينغ الغزم والحركات السحرية التي ترسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرساة .

وقد خطر لليست ان بوسع واغتر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المدلول الفلسفي العالي . والآخر الواغتر هو الذي حققه نيتشه . فبعد ان وضع جانباً العقلانية السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع ، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الإنسان الكامل . فقد نزع نيتشه بإرادته نحو القول بمبدأ حيائي سام ، إلا انه يأخذ بعد قليل ،
بمهاجمة موقف واغنر من قضية الفداء أو الخلاص ويتطور ، بعد موت واغنر عام ١٨٨٤ ، بالجماع
فلسفة نيورومنتيكية شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في أخريات القرن التاسع عشر .

ربما كان بودلير بين الأوائل ممن انكبوا للدفاع عن واغنر مع
الابداع الشعري المستقل والرمزية استمراره في جهاده ذوداً عن كوربييه . فقد أطلق هذا
الرجل الغريب الطباع ، الوجيع ، الصعب التصنيف ، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة» .
وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الإيمان والتهتك وسيطرت عليه
أبسط القرائن مشروطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفاً بكل حريته بالأنظمة ، دونما
التزام ، مزدرياً بهذه الاصنام وهذه التماثيل ؟ وقد رُفِعَ على الهياكل رسمياً بعد عشرين سنة من
وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شيئاً من قبل ، راح رامبو ، محملاً على أجنحة
الاحلام والخيال الشroud ، يرصف أمام أعيننا ، صوراً لم تخطر يوماً على بال ، باحثاً عن الشك
للشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع للرحلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغنر
بقليل ، طلع علينا بالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً محدوداً من قصائده الرائنة
الدأوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادها واغنر ، إذ
شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفين بـ *Décadents* ومن
يليه من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء قرننا الشباب في الحي اللاتيني « قلة ممن
فتحت لهم الابواب ، قتلوا بارتياح كلي » ، البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به مورياس .
فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استسلم ، بعد ان تسلم بالشعر المرسل ، للشعور وحده
واللعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الابهام واكثر من الهاز
الشعري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاً كبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه
بمترلنك وموكل بقطع النظر عن فيرهارين . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر برديدجن وسونبرن
كما ترك ميسمه في الثالوث الشمالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره ، كما ترك
ميسمه في الكاتب السويسري سبتلر ، ودخل روسيا مع تيوتشيف « فت » . فآلهم المسرح
كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى .

حركة انقطاع او انفصام قام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخذ
برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . وتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة
تباعداً تقدماً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمرى .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئياً بأسباب التطور

فاذا لم ترجع كفة المدينة عددياً من الوجهة السكانية ، فقد سجلت مع ذلك ، في جميع أنحاء أوروبا شأنًا لا ينكره الا كل مكابر عنيد . فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يعاقلها اكتظاظ الريف بالسكان ونزوحهم الى المدينة انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالاسرائيلي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يعد في فرنسا سوى ٢٣ ٤٩٢ ٠٠٠ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كانت عددهم ٢٦ ٧٥٣ ٠٠٠ ؛ وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنمي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كتيب كعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحتضر وقد ابتلعت المدينة

(فيرهارين « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الأوروبية يكون انخفاضاً مطلقاً فلا تزال تشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من أوروبا ، فهذا النمو يطرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، نرميها باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تموت في معاشها على الفلاحين الأوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالربح او نزولاً عند مقتضيات القاذون (فتصدير

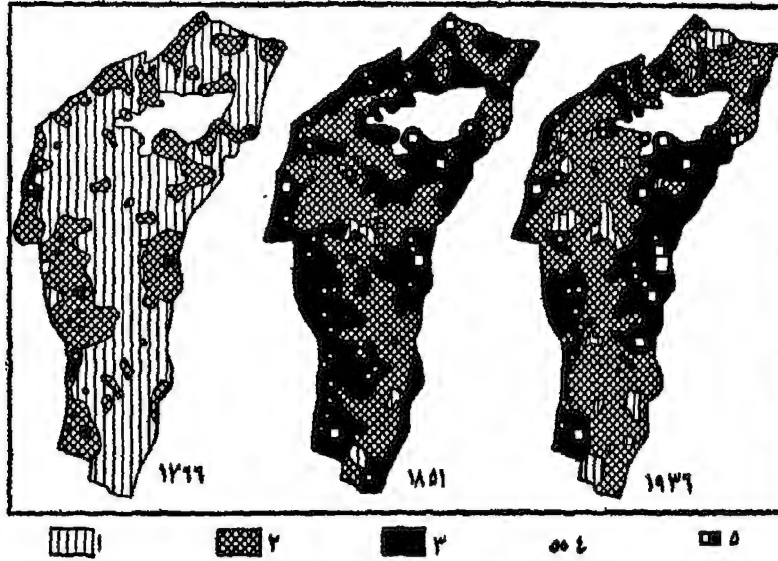
الخططة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالحيز الأبيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، إذا ما قارناها بنسبة الحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلاً او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج أوروبا .

ومها يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفرضي اليها ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل على زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتغلى عن ارضه بلء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بها بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسببها دورياً الحاجة لليد العاملة ، في هذه المزارعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريتانيا او من البلجيكيين . كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس تجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضيئة ، مريحة ، بينما يبقى عاطلاً في ما تبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش ، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الرديف الآتي من اليد العاملة .

وهكذا ترى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانحلال في أوروبا الوسطى بينما ينصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في ألمانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يحرف عدداً اكبر مما يحرف في الشمال . والهجرة اشدت في شرقي ألمانيا أكثر منها في غربها ، ولكي تحدد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentengüter* الذي يقضي باقطاع العمال المياومين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها . وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة للدولة كما اصاب ايرلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من أوروبا على البحر الأبيض المتوسط ، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من أوروبا . فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عدداً من الفلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من الـ *Pntza* المجربة الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع معزولة عرفت عندهم باسم *tahyos* عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا . اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموات الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والحسارة لصالح السهل ،



شكل رقم ١٦ - كثافة السكان الزراعيين في الزاس السفلى

١ - اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع ، ٢ - من ٧٥ - ١٥٠ نسمة ، ٣ - اكثر من ١٥٠ ، ٤ - مجمعات سكنية تعداد سكانها اقل من ٥٠٠٠٠٠٠ ، ٥ - مجمعات سكنية تعداد سكانها اكثر من ٥٠٠٠٠٠٠ .
الى القرب : منطقة الكوروم وكوشيرسيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنو وغابتها . الى الشرق : منطقة الرييد على طول نهر الرين .
يلاحظ التزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها .
(نقلا عن جويبارالحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ راح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المواتية . فمنطقة الـ *Veluy* مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالاختصاص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للتعدين ، بينما الصناعة الضخمة تقتل الحرف المتشتت بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغيرات السكانية انما تشير صراحة الى المساوىء التي يتأذى منها الريف . فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدثه اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت ملازمة للارض للاخذ باصلاحات جزرية تساعد على قهر الصعوبات التي تتعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الجديدة واستثمار
أصلح الارض

من المبادئ التي تعتمد عليها الهندسة الزراعية وتنحصر عليها هي

ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها

المتعددة ، تخضع مثلها لمتطلبات العلم والتقنية . فعمل النبات

وعلم الحيوان ، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق

بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنسيق . ولذا انتشر التعليم المهني وذاع . ولا شك ان رأس

المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء .

ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع

عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالمفارقات تبقى كبيرة ،

واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا بأسباب التجدد ، يجهاد

الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس

بغريب قط ان تلعب سنة الاصلاح وقانون الاكفا لعبتها المروقة هنا ايضاً .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطان والاراضي الزراعية القديمة في اوربلا لا تصلح جميعها على

السواء للاجهزة الميكانيكية . فقد تركت فرنسا المانيا تبرزها في هذا المضمار وتتجاوزها بعيداً .

فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٠ من الحاصدات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضغطان

من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضاً . فبلدان اوربلا الشمالية ، تبني قبل غيرهما من البلدان الاوروبية

الاخرى الماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقهقر في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان

تحلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتعلقة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر .

وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ - ١٩٠٨ من ٦٠٢٠٠٠٠٠ الى

٢٠٨٠٠٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية محل الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا .

كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات مولوني والبران والدومب ،

خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة كامارغ ، وبذلت جهوداً جبارة

باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (Polders) ، واستخلاص بطون المناجم

من رواسب المياه وابتزاز الرمال من هذه الاراضي الممتدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف

سكندينايفيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمبان ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على

شواطئ هولندا والمانيا ، واراضي الجوتلاند والسويد السيئة التصريف . وانفردت تستعمل نفاياتها

وقمامتها المنزلية لتسميد السبائخ الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الحضرارات

والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه ، واقامة السدود

والحواجز المائية تفتح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي المجر التي كانت معرضة

من قبل لطفيان المياه . اما في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقية الري على نطاق واسع

بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠٠٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برزاعياً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شمل كل انحاء الجزيرة الايطالية. ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على المعطاء والانتاج . فالعهد الذهبي الذي عولوا فيه على سواد الفوانو والذي يقع بين ١٨٥٠-١٨٨٠ ولى وأدبر لتحل محله مخضبات جديدة طلعت علينا بها الكيمياء الحديثة جاءت مسعفاً كبيراً للسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان قفله بطيئاً في نواح اخرى ، مما اطلع للفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيب في المحصول . وللنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جدية، ومكافحة الوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتحويل على تسميد الارض بالسواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب افضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيب في البطاطا مثلاً اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٢٠ طناً عام ١٩٠٠ ، لقاء سبعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١٨٪ من المادة السكرية بدلا من ٧٪ . كذلك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرخ ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات اللازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الارمداد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلوكسيرا .

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تليها الغريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان ونقاوم تيار التجديد . ففي ثلاثم تماماً نشاط صفار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والمعمل عليها في بيئته . ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عندهم بـ *Saltus* اي من اراضي للرعي تجاور ما يعرف عندهم بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندينية حتى سلسلة جبال شيارا مورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتشاب عندهم من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والاتساع الذي تتخذه في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالاً للشك هما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية الماشية . ففي هذا انهاء للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان نجاح التخصيص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية الماشية يستدعي استبدال عملية

Emblavure بالشعب وزراعة النباتات الملقية والبطايا التي تحمل بشكل اجدى وانفع عمل الارض البور . فبعد الفصل بينها، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكتر، كل واحد منها . وتربيع الواحدة منها ، من حيث الانتاج والمحصول، مما تكون خسرت من المساحة ، بينما يسجل الثاني ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحدائق وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسبما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عزفت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولندا وسكندنافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لها امكانات اكبر كفرنسا مثلا تركت لمختلف مقاطعاتها ومقاطعاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبها ، وتلونت عروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعمل عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغرينية اثبتت صلاحيتها لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تقاسمه مع السهول الرطبة . فالخط الحديدي والملاحة يسهلان نقل المحاصيل التي تعطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتقني حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل ما لا يستطيع توفيره او صنعه .

تربط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد، التطور الزراعي يتوالى بين مراسم بعيدة المدى. فقد عقد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط التجاري . فالاستهلاك، ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتها الاولى . وقد صبح ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار^(١). ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التجارية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ - ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ ملياراً، كما ان ربع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ - ٨٠ ٪ . وفي بوسنانيا تضاعفت قيمة الفدان الواحد بين ١٨٥٧ - ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفرأ طيباً لهم . فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السيادي

هندما راح المهدي القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة نزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذاك بالاستعداد ، اثارت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الاسر . وهكذا ساهم قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شعروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفهر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما ان المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم . وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠ ٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ ، و ٦٠ - ٧٠ ٪ في هذه المناطق التي تحول على زراعة الكرم التي فتكت بها آفة الفيلوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ ملياراً الى ٣٠ ملياراً في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ - ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ - ٦٥ ٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشطت حركة الهجرة في الريف والزروح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى ، بل تعدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء . فالزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استثمار الارض باستخدامهم وسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر : كمية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكمية اكبر من الهكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحوالت مساحة ١٦٠٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراعي . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكندينايفيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جزرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليعة في تربية الماشية . وسويسرا التجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للمراعي الجبلية . وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي للماشية وبيعها من الانكليز . وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبن والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمه جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربها هي التي اخذت ، على الاجمال ، بأسباب حركة التكيف والتنسيب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعه الى الامام كانت كافية .

فالأزمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها . فسياسة الحماية الجبركية ليست بعلاج بجد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسعف آلي - اذ قسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساوىء المخدر الوقتي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخذ قسم من سكان الريف مبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر - ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، مبدأ النقابية .

الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها
ليس بمستبعد قط ان ملاكاً من اصحاب الاقطان الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكافية ، من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طليعة حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالماني وسهل البحر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة ، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت ، فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية ، وطدت جانب المزارعين والمتمهدين الزراعين الذين تمتعوا باحكام قانون الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري . في سنة ١٨٩٠ ، كان المتمهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان ، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطان يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتقمة في الازدهار تصور لنا طبقة بورجوازية تنعم في مجبوحة وراستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمة جداً ، فالاراضي المرجية تعد ٦ ملايين هكتار ، درت عليها ريعاً بلغ ٣٥٠ مليون ، وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الريع نحو نصف مليون . وفي ايرلندا ، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني ، عام ١٨٧٠ ، سن قانون خول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء . صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشرها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غروننغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استحال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها . والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الرايخ ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تخفيها ما يعرف عندهم Junkertum .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تتسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنايس والاديار وابناء الارستوقراطية العلمانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيته ، منفرة ، مرزحة قلما تتبجح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الخصبه هي في قبضة ٢٣٠٠٠ من كبار الملاكين . بينما ١٠٢٤٠٠٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١٠٢٧٩٠٠٠ من صغار الملاكين . فقد حاز احد امراء استربازي وحده ٢٣١٠٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستتيك ٨٨٠٠٠٠ هكتار ؛ هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللبن ، مغطاة بالقصب ، وهناك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ٤٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١٠٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣١٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ٤٠٤٢٠٠٠٠ شخصاً ٣٩٠٦ بالمئة ويؤلف المربعون في ايطاليا مع العمال المياومين ، السواد الاكبر من الشعب الايطالي . فايطاليا لا تعد من اصحاب الاملاك سوى ٤٠٠٠٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠٠٠٠٠ من الملاكين . فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والحسرة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزمها الى متعهد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣٠٧٪ من الاراضي المستثمرة ، لا تزيد مساحة القطعة الواحد عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمئة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ؛ بينما ٢١٠٦ بالمئة يملكها ٠٠١ بالمئة من الملاكين ، و ٣٢٠٤ بالمئة يملكها ٠٠٢ بالمئة . والصورة تكاد تكون مماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالمقارنات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار توازي من ٥٠ - ٧٠ بالمئة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ ل ٢٤٨١ شخصاً بينما يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلاً ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها
والاستثمار المباشر

فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر

اصحاب المقارنات الضخمة . من الامور المرعية الاشارة

بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضالة في المواسم يجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطر الزوال . ان استهلاك الارض من قبل من يستثمروها بقي عرضة للطوارئ اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالايجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما اقضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستهلاك . ففي سكندنافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السيادة عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة ،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسية . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضيق وتضمر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضع اراضٍ اشتدت حولها رغبة الطامعين بها . فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكير (٨ هكتارات) بالاكثار ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الامتلاكية واصحاب المزارع الضخمة ، يملكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية . فاذا ما اعتمدنا اساسا الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقرب الى الصواب القول في انها تنحصر في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ - ٥٠ هكتاراً . فمن اصل ٦٧٢ ٠٠٠ مزارع ، هنالك ١٧٦ ٠٠٠ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ١٢٥ ٢١٤ ٠٠٠ قطعة ، فالمعدل الوسط للقطعة الواحدة يتألف من ٣٩ أراً . ومثل هذا التوزيع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي للقيام بعمل اضافي .

الفنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين
ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية
تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط المعيش .

فاذا ما اقصرنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلاً ، هل يصح لنا ان نأخذ بمسألة الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعية عادية كانت الف مرة اقرب الى رعية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعية في يومنا هذا . ولنصنع الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يحياها المزارعين ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » ، فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المحروش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسقيها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطعين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشورباء فهو اللون والصنف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء ، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا واليقطين مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون نادر جداً وصنف يترك لايام الاعياد المحددة .

» ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المقاتلي التي يصعب مضغها بحيث تفرز فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، وبطاطا مشوية تحت الرماد ، وفاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون . ومع هذا أفلا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساؤه : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخر ، في عمل هو هو ، واسمار محاصيله دوماً في هبوط ، وهذه الديومة في عمل روتيني ، وقدني سعر قمحه وسعر ماشيته ، وتبيذه ومحصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر ، استسلامه له امام هبوط البرد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف ، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التمزية « لأول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نفر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم ، احسن مما قرأنا له من وصف . فخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية التبنيد التي يشترها ، او الجمعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان . فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكماً منه نوعاً وصنفاً . وشبح المجاعة تضاعلت اسباب ظهوره واوضاع سكنه تحسنت قليلاً . فاذا ما قلت رؤية الغرفة الواحدة سكناً للعائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معاً يفصل بينهما حاجز رقيق . وشيئاً فشيئاً ، فقد حل القرميد محل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يعد المفزعة التي ترزح كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوية . أما الفرش او الاثاث فغاية في البساطة ، مع ان الحزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكفة ، كما ان الناس ازدادوا اقبالاً على المقصف او صوان المائدة . فاللبسة الداخلية والاسرة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، غنيف الطبع ، متأفف من نير الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قائماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ - ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بمعنايته تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة لبيتاع منها ما هو بحاجة اليه ، ساعده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشمر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتعوط ضد طواريء الحياة^(١) .

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع ، و ١٢ فرنكا حوالي ١٨٥٠ ، و ١٥ فرنكا حوالي ١٨٦٠ .

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يذهب فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين ، فهو ينظر نظرة تقدير للنظام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحها في صندوق الاقتراع . فاللعبة السياسية لم يعد في مكننتها تجاهله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجورته في السنة ٤٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اقل اجرة العامل اليومي غير الممون او المكفي . فالاجر في الريف دون ما هو عليه في المدينة ، ووصع المرأة في كلا الحالتين يخفف جداً بحجمها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٧ فرنك في المدينة . ومع ذلك فمكنتال القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

الفصل الرابع

المدينة المنورة

بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »

ادمون بينو - « مساويء القربة والتعليم العام »

كاديس ١٨٦٧

الدول القومية وعبادة القومية
اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هابسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . قال رومانوف يعتمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنمي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن . ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً . إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ١٨٧١ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد : المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فمظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهم الشعراء وتهم رجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني ينشط ويروح الشعر يتغنى بهذه الاجاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستلهم انغامها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والمقول معاً ، ويصبح التاريخ معيناً للتوكيد ان الماضي يهيء الحاضر ويبرز الايمان بطولوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارستوقراطي ويورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والعاطفة .

ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات
الاقليات وحقوقها ضمن الامة
دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء
فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن
ضغط أو التزام ما .

والاقلية الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تلتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهر روح المصيبة الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨٤٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ، وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية . وحركة معاداة اليهودية التي تغذيها هذه الاقلية القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التمسكين في اوروبا الوسطى ، لم يخب تارها في اي مكان . هنا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقبة . فمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي للضغط البريطاني اصبح رمزاً للتحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه للشخصية الانسانية . والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة ، القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ، وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السياسي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعوه في الوقت اللازم ، والتاريخ الذي اقتطع الاكزاس والاورين ، والذي رفض ان يعيد الى الدانمارك مقاطعة الشلسويغ ، والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست .

يستخدم القومية الألمانية والمجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المقاطعات البلط ، والفنلنديين والبولونيين ، محتج بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل قبح . فالتناقض يبرز بين حق الاكثية ، وبين سوء استعمارها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرجحي من نظام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

ول هذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقد شابت الابقاء على الوظيفة الملكية جمهورية الدوقات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلانية ومعارضة الارستوقراطيات والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكسة بلجيكا ما كاد معظم الدول البلقانية تفوز باستقلالها حتى قولى رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة في اوروبا . وفي ايطاليا تم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تم في المانيا حول اسرة هوهنولرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقامت فيها النظام الملكي .

فبعد المشاحنات السلالية ولى وأدير . فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من التزاوج والمصاهرة ، أملكوا بحق الهي ، كما هي الحال في كل من بروسيا والنمسا ، او ملكوا بدون ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودها التضامن والتعاقد ، وهي صفات تلعب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خاصة والارستوقراطيات العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية واللوثوية تحترم كالأرثوذكسية ، التقاليد التي تقول بعصده العرش للهيكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواء اتسمت الحياة فيها بالبذخ او بالبساطة تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبلاء تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحلة . ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق السياسي لتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثلي البورجوازية والعاملين في خدمتها ، امثال بسمارك وهونلو ورفصاؤهما في كل من انكلترا ، في شخص دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، اقله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطولوع غمبتا ثم برويل وديكاز .

فالتبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهد تطور المصالح العامة الكبرى القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ، تصدت كذلك لروح الفطرسه والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحديثة في تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يوجهها الموظفون » . وفي المانيا بين ١٨٨٠ - ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ١٢٥٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠٠ . وراح فرنسوا جوزف يشجع بأنه الموظف النموذجي في الدولة . ومهما بلغ من تعلق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي ، فقد شمرت بشديد الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة .

هنالك مصالح تقليدية يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين ودبلوماسيين واداريين . فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية ، ويقتضي ، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة ، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة ، وهي روح تضمن الاستمرار ، فيها يقوم سر كل نجاح . ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويعمل بدبلا عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلما دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليا .

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم . فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله ، واذا ما تطور الاخذ بنظام المحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن ، تدخلها المكشوف او الخفي ، الاستمرار للحكومة او سقوطها . فحوادث الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يجب اعتبارها ، قبل كل شيء عملية بوليسية ، في الدرجة الاولى ، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون . « فالنظام الادبي » يعتمد عليها قبل كل شيء ، ومدير البوليس لا ينفذ علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية التي يتخدمها بكل اخلاص .

فالمصالح العامة في الدولة العصرية: كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم ، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضعهم على نفقة الجماعة .

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع ، مشكلات التعليم العام والتعليم المهني فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة التي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان . فالتعليم الابتدائي سجل تطوراً اكبر كما نلاحظ ، في البلدان الشالية والمانيا وفرنسا وسويسرا . ومع تفاروت الاعتمادات المرسدة له في موازنة الدولة العامة ، فستبقى هذه التخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفاع بكثير .

ومهما يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير ارتسمت صورتها في ذهنية الطبقات الادارية التي تغاذفتها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك الغريزي بالنظام . فبعد بستلوزي ، وراح فريق من امثال لانكاستر وفروبييل ومونترينو يبنون بشدة

التفريقية او الجزمية . فالانتقائي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار المتعنتون القبول به من حيث المبدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لها ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعليم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية ، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادثاً تاريخياً يتمثل في قانون « فلتو » الصادر عام ١٨٥٠ ، هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجيكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امنت لها مساعدة السلطات العامة على قبم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الحين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لمزاجها الخاص ، الوقوف بجانب التنوع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية ، فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المبدئي ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية .

فالجدل حول المدرسة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي
 مربوط في الايمان التقليدي
 احتدم بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة
 وتطور الفكر الحر
 رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري
 خارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان وقد ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية ، الا الله أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عمام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات الفقيرة الى جادة الايمان ... » . وقد خشي غليوم الثاني كثيراً من إعراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارفع عددها ، عام ١٨١٥ ، لتبلغ بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ - ١٨٨٠ لتسقط من جديد . هنالك ١٢٠٠ راعوية ، حوالي ١٨٤٨ ، واكثر من ٤٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استعداده للقيام بالمهمة الملقة عليه . وقد لاحظ لامينيه ، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المستحکم ،

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً، بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيون المدافعون عنها » فلا الفنون التشكيلية، ولا الهندسة يتخذان بدءاً من التقوى الدينية . وفن سان سوليس ، يفتقر اصلاً للانطلاقة ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالخسف ، والموسيقار ليست عجز تماماً عن التعبير الصحيح للطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غير انجييه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احتدم الجدل والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاذب الكنيسة العليا ، والكنيسة العريضة والكنيسة السفلى . والظاهر ان اليقظة استفذت كل نتائجها ، وفي بروسيا والبلاد الواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحر بحيث لم تلبث هذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تمسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءت من هذه الحركة الاصلاحية ، الموجهة ضد التلمود، كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تعرض عن استعمال اللهجة اليبودية هذه اللهجة العبرية المهجين من الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللائقيرية بمختلف الوانها فتغلقت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت بوف يتحدث عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تصد الواف الاتباع من هؤلاء القائلين بالروبية وناكري الوحي ، او المنصرفين الى مخاطبة الارواح والامتسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبته الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧,٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتية وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية . ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومات الذين يحبذون الروح العلمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس ما لها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اناقول فرانس : « جمعية » ... تؤمن الترفيع المتبادل !

ومها وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مع ذلك ، مقاومة الكنائس لها
كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفاح
مسانعتها للدولة المتحررة
والنضال لم تن ولم تضعف .

فمنذما وطدت البروتستانتية اقدامها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقات

طليبة مع الدولة التي كثيراً ما ترى مصالحها ، وتفتى بوصفها الحكم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين النزعات المحافظة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة الدينية (الكونكورداق) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضع الكلفينية في فرنسا ، فقد آثر اتباع هذه الكنيسة أن يعتمدوا على أنفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فيه الأخذ بها والنهج عليها باعتبارها شرطاً أساسياً في عملية الإصلاح . وهذه الروح الإصلاحية التي كان بوسمها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطاق ، لعبت دوراً بارزاً في أعداد هذه القوانين الانسانية وفي قضية التعليم العام واخذت تنزع الحؤول دون تشتت الراعويات وتباين المذاهب العقائدية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان ، منها مثلاً ، مؤسسة جيش الخلاص ، هذه المؤسسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقت تأسيسها نجاحاً تاماً ، وقد غذت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلام تماماً مع تجمع القوى . واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعطل النفس بمشهد القوى وجمع الطاقات الحيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تقض قط الى وضع حد لهذه الانفصالات التي أدت اليها سياستها المتصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرنالك الى توضيح وجهة النظر اللوثرية وجلائها ، بينما سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوطد فيه الشعور القومي وترسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقد نزع ، من جهة أخرى ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة اللوثرية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجدداً جديدين ، قوت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الجبل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم المحررة Syllabus لدى الكنيسة الكاثوليكية ، هيا إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلناً بذلك الراعي الدائم . وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها المعقوبة في الدفاع عن النفس ، زادت مركزية وجعلتها تنجح بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن استشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائل المواصلات التي تعمل على حشد الخدمات في المدينة الحالدة .

فاذا ما زاد إعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤسسات الرهبانية من جهتها ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعصار الاديار ، كما أدى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المشاقين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، انخضم فيها الملحد المعطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينها تجديد الروح المسيحية عن طريق المحبة والكراسة والتبشر .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجنسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من إيطاليا عمت الكاثوليكية جمعاء . وتجلت للناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على أمتها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الأماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تأقت آنياً بهذه الظهورات العجائبية كما لـ *salette* ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سحر لورد العجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حجاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كما انه وفد على لورد من الحجاج بين ١٨٧٠ - ١٨٧٨ أكثر من ٦٦٠,٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافع عن العقيدة التقليدية ، في تشهيره لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية *Quanta Cura* وفي دليل الكتب المحرمة *Syllabus* الذي اثار لهجة الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بين الفرقاء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي مهادتات الكونكورداتو بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر جبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كما قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بيسارك نحو الكاثوليكية سياسة عدائية تمثلت في منهج *Kulturkampf* (الصراع في سبيل الحضارة) ، كما ان غيبنا اعلان الحرب ضد « النظام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية ، هذا هو العدو بعينه » . فاذا ما تسلم خلفه البابا لاون الثالث عشر بروضة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا انضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعاليم العصر ، كما حذر من المساري والمجازي التي يذهب اليها « العقل » عندما يشتط في مهادناته وتديلاته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : *Immortalis Dei* يصرح البابا قائلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معادياً من أي « تساهل غمادل » ولا تبدي العداء للحرية المشروعة الحققة وهي محاذير أقل وطأة وأخف اثرأ . ويؤكد في براءته انه لا يمكن شجب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقارب الى انصار الجمهورية في فرنسا الذين تلقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحوا يتمنون لو يصار الى « تهدئة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحى بوجود الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصاً بطبقة العمال ، اطمان العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تحل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لا بد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية ترد كثير أ قبل ان يقطع صلاته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقر الطلاق النهائي - مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ - الا عام ١٨٨٤ ؛ ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوثرين كالبروتستانت الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كإيطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تبان الروح التحررية فيها . فلنسمع ما يقوله هوغو هنا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

في براءته المعنونة *Diturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر : « انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصفي الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجوب البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلاً : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بإرادة الشعب نكون استهدفنا للشطط ، من حيث الاساس ، ونكون أولينا السلطة اساساً وهذا سريع العطب ، لا قوام له » .

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نصب أعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكساراً ، في هذا المجال ، مثلاً يحتذى ، اذ ان سياسة الصراحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية بما فيها من ملاكين وذوي أهليات - امنت الاستقرار للحكومة والسير بقدرة البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الاحرار ، ان يحول دون استئثار الفرد او فئة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديوقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال عادة ، لمواجهة المجلس الأدنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصغرة . ومع ذلك فهذا النظام - باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨٤٨ - مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب به بما يتفق ومصحتها - لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية . هنالك ، بالطبع بعض تغيير بظراً على مفهوم الحسب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث تمتع الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لحزب الطبقة العمالية ، الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة .

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من الضرائب والموارد المالية في الدولة نسج الخيال ، كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يعارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

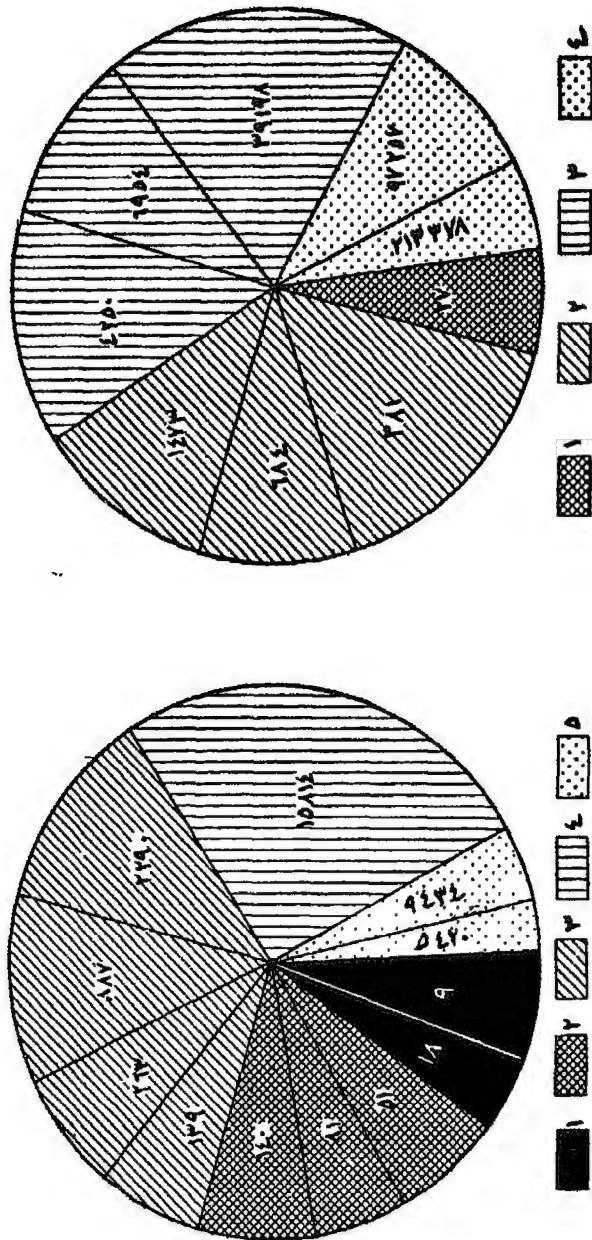
والحال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب ، وريطهم اكثر فاكثر باصحاب رؤوس الاموال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ اربعة مليارات بحيث ان ٢٦ مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تفتي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوماً يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكل امر جبايتها الى مأمورين يعدونهم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي نراهم يتدحون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي . وكانت الضريبة الفردية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسانية حيث للموظف هيبه وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديل عن تخفيض التعرفة الجمركية ، وقد اثرت في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الأوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجبة وفاؤها ، لو وزعت على المواطنين لأصاب الفرد الواحد منها قرناً في سويسرا ، و ٢٣ قرناً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات
حدد آدم سميث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمساهلة لها » . ويلاحظ بعضهم عدم الدقة الملازم لهذا التعريف . ومع ذلك فتمو هذه الثروة المطرد

ليس من ينكره ، اذا ما تمثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدر سوثير ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عام ١٨٧٦ ، بينما ارتفعت الى ١٠٠٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ، وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تغطى غير ٨٠٠٠٠٠ شخص من أصل ٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصيلة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ، ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموسوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨٤٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تباعاً ١٨٨ و ٤٠٧ ملايين ليرة ، بينما الضريبة B (الاجور) درت ٩٣ و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ، و ٢٧ ، و ٦٠ ملياراً عام ١٨٩٥ ، لقاء ٧٥ و ٦ للاولى والثانية عام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأميركا عام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بين الافراد . فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨-١٨٨٨ ، يشير الى ان ١٨ بريطانيا يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً ، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً) .



ويبدل الكشف الموضوع للتراث المورثة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ او ١١,٠٠٠ و ٤,٠٠٠ و ١,٦٠٠ الى صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحد بينهم على مليون . فالعالم الاقتصادي فوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ، في حسابه ٢٠,٠٠٠ عائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا ، ثم اضاف قائلا : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل ، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفأ من كبار الملايين يكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يجمعون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجد في خدمة الاسر الغنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٤٣ - ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (D) من اصحاب ال ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لا غير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ - ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣٤ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجبيع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

تفاقم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والعمال في هذه الحقبة
اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية
الواقعة بين ١٨٩٥ - ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً وضع اصحاب الاجور ، كما لا بد من الملاحظة هنا ان حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ، وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة ، منها فشل الثورات واقتن التي نشبت والضغط السياسي وعودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتعظت بحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة السلوكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحملاً ضد النظريات الثورية التي تملقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي نادى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية ، عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ أوين ثاره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتبا . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم تمت في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافضة تحت الرماد لتتريث سنوح الظروف المناسبة ، للظهور والانطلاق من جديد .

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانحة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لها في المانيا . وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس ، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم ، تمنحهم حق تشكيل الاتحادات عمالية ، وهو حق جاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبنت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمّة ، فراح اعضاؤها يستميلونها للعمل الثوري . وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجّع فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد ، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧ . واذ ذاك ، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون ، فتكاوت الاضرابات العمالية في الروهر وسيليزيا والهاينو وسورانغ وأترين وريكاميري واوبين والكروزو . واخذ الاضطراب يمتد وبشتد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس ، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصميم هو الوقوف في وجه الرأسمالية . وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا العليا حين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية .

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة . فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكبر للمخاطر ؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه . فاذا ما راح يطالب بزيادة في الأجور فجهدوه تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشفل لمدة ثمان ساعات ، وهذا أقصى ما يحلم به .

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي . إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعمال الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهدة ؛ فالظروف المتحكمة اذ ذاك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية .

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً ، تيل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفاع ، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية . فالاضرابات تخف حوادثها بينما تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا ، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا ، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت الاتحادات عمالية جديدة فتبعت صفوفها لعمال غير متخصصين . واليد العاملة في كل مكان في الريف تتملل وتتحرك دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احياناً ، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون للعمال بحق تأليف نقابات لهم ، كما راح بيسارك ، من جهته ، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة للضمان الاجتماعي . وحدث اثر تحسن وقي في الاسعار ، عام ١٨٨٦ ، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيما في

مقاطعات الهاننو وليياج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هذه الاضرابات ، عام ١٨٨٩ ، وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانئ انكلترا لمدة خمسة اسابيع متوالية ، وقازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاوستراليين معهم . ونال عمال المناجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تخلى عن بيسارك وصرقه ، وعداً بتطبيق مبدأ العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول غسند ، على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسية ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث دامية عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط ، بعد عام ١٨٩٠ ، وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقعهم ، في كل من اوربا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيما وقد اخذت الحكومات تجزع شديداً لحوادث القتل والاعتقالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المضرين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كارمو . وقد غلب عمال المناجم على أمرهم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط اتحاد العمال الى الجمعية الفايبانية عدوة العنف والضغط ، كما اتجه بلوتيه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل ، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية ، عرفت بالتحالف العمالي العالي . وتم شئ من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة العمالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديمقراطية الاجتماعية التي راحت تطمئن بقدرة الحركة النقابية .

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد
الحركات الاشتراكية والفوضوية
السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني
عام ١٨٦٠ الدولية الاولى
نوعاً لهذه الحركة والقاء رثاء فيها . فالجهود المبذولة للنشر
ركرمون عام ١٨٧١
الاشتراكية انقطع ، ومدلولها غمض وجف . فاذا ما استمر
الشفغ لهذه الحركة ، فتحت ستار آخر وتحت تفريرات أخرى . وبالفعل ، فهذه الحركة
الثورية التي اصبحت في الصميم والتي تلبس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالأوامر والجمعيات
السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتعيد تنظيمها ولتتخذ
لها عبدة وعظمة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة ، انتظار الحوادث الاغراضخيم
«الرأسمال» الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول . وقد كرسه لتحديد خصائص
الرأسمالية وتوضيح ميزاتها بدقة ، فكلمات السر والشعارات التي جاش بها « البيان » هي التي
شقت طريقها وتبدأ والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فالفهوم الرومنطقي عند المهذبين

للانقلاب بالفترة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي، يتمثل على الاخص، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية، وبالروح الفوضوية. ولأسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، ألزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تقدم بها العمال، كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع يسارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العالية « وهو وضع يعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرايخ. ومما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكتسح فرنسا وسويسرا وقسا كبر أمن البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريقي من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرها، والرغبة في التحرر منها. وها هو ماركس يلتقي مع برودون « برودون هذا الذي نشر على الملاً شعارات هزت كل شيء في طريقها، منها مثلاً تصريحه : « ان الاشتراكية ليست بشيء، ولم تكن شيئاً الآن ولن تصبح شيئاً في المستقبل »، وكلمته الماثورة الأخرى : « من المستحيل ان لا تقضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح ٢ + ٢ يعملان ٤ » . وقد رد ماركس على ذلك قائلاً : « نحن ننكر هذه التأكيدات في الأساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ » ، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضى بالتالي الى اضعافها وإيهانها .

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكبروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها : « لا إله ولا رب عمل » ، ليست ببعيدة قط عن الجماعة الفدرالية المضادة لكل سلطة، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحاء اوروبا . « انا أمقت الشيوعية — راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المقود عام ١٨٦٩ ، لأنها تؤلف نفياً للحرية ، اولا ، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئاً بشرياً يفتقر كلياً للحرية . » وباكونين الذي يُسلم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضاً باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء، بجانب الفلاح الروسي الموحيك . وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العاملة في مجالاتها . ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم . أهو احتقار الالمانى للسلافي — هذا السلافي الذي يبحث صدره بكمه بغض المزاج اليهودي؟ أهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون؟ هنالك من ظن ذلك وقال به . الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضها أمر واقعي،

قائم بالفعل . فهو يَنْصَحُ العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨٤ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يد التقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقتعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين أكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشهقات الداخلية تعمل على إيهانها ، مع أنها بقيت توحى الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها إلى كل مكان ، حتى إلى الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية . إلا أنها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في أوروبا ضد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بها سكان باريس ، بعد أن اتزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما اتزل من آلام وعذابات وحرمان ، وبعد أن شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بها فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبلاء « الريفيون » . وقد تسربت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمري ، محصورة في مدينة ، ضخمة منزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتابها من انقسامات ، العلم الأحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الأفران والمحابر ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به أو مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي للدولة ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما أن يتلاقيا . فبعد أن غلبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلقت وراها دويماً تجاوبت اصداؤه بعيداً . وأدت هزيمتها إلى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي افاح لتثير أن يلاحظ مقبلاً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسنأ فعلوا ، فقد تخلفنا منها » .

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال ' وماركس المئات نشأة الأحزاب الاشتراكية
وتأليف الدولية الثانية يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي 'عُرف بالحزب الاشتراكي الديمقراطي . أصبح أن مؤتمر غوتا وضع برنامجاً معتدلاً للهبّة ، خصه ماركس بنقد لم ينشر إلا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب إذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من الأعضاء ، كما أنه تمثّل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً . وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به يسارك أكثر من إردائه الثورية ، وإذا أصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الأكثر والاحسن تنظيمياً في أوروبا جماء ، فقد قدمت ألمانيا للعالم أجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بالحدرد والحسابات .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعقيد والتشعب في البلدان الأوروبية الأخرى .

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وتوسيع القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الضئيلة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا وما اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السيامي بعد ان تقاسمتها فئات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحى والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توهي بمواجهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية . اما الحزب الاصلاحى فقد تعرض للفوضى في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعة . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤذي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اخذت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ؛ النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينا لبس الآخرون لباس الماركسية (هذا وضع حزب العمال في غسد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعدة شعبية له التعاونيات ، ووطد نفسه حزباً بلدياً وفقاً للتقاليد البلدية المرعية في البلاد الواطية ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communalisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هدف الى السيطرة على المصالح العامة بينا تألف المذهب الفسدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينا تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا العظمى مستمكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحق أي ثلوث أو اضطراب باللعبة البرلمانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائباً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الغابية ، مثلاً (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ، فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا للناس وكأنه اعظم بكثير مما كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية . وقد تابح المجلس رسالة المعلم والحجز العمل العظيم . كذلك 'ترجم' البيان ، الى عدة لغات ، والدعاء الذي وجهه الى ابنائه البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوبت اصداؤه في جميع اطراف العالم . وقد كتب فيه ادوار فيان قائلاً : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للعلوم التاريخية والاجتماعية ، هي منزلة دارون من العلوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . فما من احد سام

مثلها على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا .

هنالك مجهود يبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المعرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار بحمل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل صقع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثمانى . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بقتلة لاهبة ، أخدمت بالدم .

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحي ، على عهد الاغتيالات الفوضوية السواء لشجبتها كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى « اعمال العنف » ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثنى دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الايرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتها للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونين الهدامة . وعملت هذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديدة ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال المرجحة ضد الروح العسكرية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

« الارض مغطاة يحثث القلى . ففي هذا المشهد المريع الصراع المفتوح ضد الاضرابات المعالية
درس وعظة » (تير - ٢٢ ايار ١٨٧١) .
ضد الاشتراكية

وراحت المحاكم تصدر احكامها تبعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسالي ، واخذوا يصورونهم ، بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات . فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي . فانضمت الكنائس الى الالمانيين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي ينعونها شيوعية « وهذه الانظمة الممنوعة » ، وهذه الاضطرابات التي تهدف الى مخالفة الشرائع للسواية والارضية » ، كما ان البابا ليون الثالث عشر . هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر ، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . « فانا حر باستخدام من ارغب باستخدامه في معاملي ومصانعي » ، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠) ؛ « وافضل الف مرة ان تحمد النار في مسابك معاملي وتنطفئ الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . وافضل جواب وانجع رد على محالقات العمال هو الطرد من الخدمة وهي طريقة كثيراً ما اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقامت بين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا محالقات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطان الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجه المطالب التي يتقدم بها المرابعون والعمال المياومون .

حدد الحبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية
المعاملة الابوية والتشريع الاجتماعي بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، ياترى ، معالجة هذا
المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العالية بحيث لم يعد من المستطاع تجاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المنيون بالامر يقلبون الرأي ويمدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجبين الاضواء الكشافة لاكتناها على الوجه الصحيح ، معربة عن حقيقة المذاببات والظنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرمة وفيلنوف بارحوننت يميظان اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابله من جهة اخرى ، بين احرار البورجوازيين ، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينها رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هذه المساوئ والشور التي تكتنف الطبقة البروليتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادئ الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بحرية العمل ، فملى الطبقات الموحدة ان تتفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخبرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفقاً للمبدأ الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لذرائلي نظام ملكي يستل له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسمارك في النظرية التي قال بها للضمان الاجتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جوديني بعث الدفء في الجمعية الفابيانية ، ودفعت نحو حزب العمال العصبة المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف .

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذراً لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلدبراند وبرنتانو ، التي كانت تدعي بأنها تنبثق من الواقع وبأنها تحسب حساباً للتطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن ، فقد أطلت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر روبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « رسائل اجتماعية » وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أيزيناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كوبدن الذي كان من بعض تأثيره على بيسارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بعد لأي قصر ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانتية الفرنسية والفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب ١٨٧٠ ان ينتقد « حب الذات » ، مصدر الاشتراكية ، والحسد مصدر الديمقراطية ، كما اعجب تين بالروح التجريبية التي تمت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليترية ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل . فمقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هذه المحافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهذه الفلسفة التي قال بها رينوفييه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة ، وعلى فكرة العدالة ، راح يوصي بفكرة التضامن والتعاضد التي تلقي على الدولة الديمقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلادي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضعية والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماده على التشريع في سبيل تحسين العلائق بين العامل ورب العمل ، ويرجو ان يعامل هذا ذلك كما يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لنجعل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقابية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بما تحلى به من مراتب مسلسلّة ومن طابع مسيحي ، ونذر كل من المركز دي لاتور والكونت دي مون-وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجبا وهما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كثلير ، نفسها لتأسيس نواد للعالم الكاثوليك . وراح الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية واتحاد فريبورغ الذي بعث فيه المطران فرميلود النشاط ، يسلفان بالسنة حداد النظام الرأسمالي و « عبادة العجل الذهبي » وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديمقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هذا الفريق

من إنشاء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة غيبونز و ايرلند اخذا يعطفان على النقابيين الاميركيين ، كما ان رئيس الاساقفة مانتينغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . ولّداء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية الذي توقع الفاتيكان منه ان يعمل « التهدة » الى البلاد ، قد يعني ايضاً اتفاقاً ضد الاشتراكية . من هنا تبدو اهمية البراءة الباجوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسيين الذين قابلوه برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية المالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقى حلها المرنجي والعمل في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدهما لتأمين القيام بأعمال الاسعاف والوقاية . الا ان اعمال المؤسسة كانت تروح بالاحصاء الى المرضى والشوهين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوم ، وقليل جداً الى الاسر المستورة . وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دوننا علاج . فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا اول ما شهدت طلوع الدولة الوالدية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يحمل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً ونجلى على أتمه بإنشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اولى الحكومة صلاحية تشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتشريع يسج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاخ يعرب عن تنياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والمعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمأنينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزمياً أكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالمانى . ولما كانت الامبراطور مشبهاً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بامور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه يمثله الشخصي يؤكد قائلاً : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف للعامل بحرية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تؤلف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة اصلاحية لا تطبق على الموظفين والمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات للتفتيش ويقصر نشاطاتها على الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية ، كان المطلوب ، حسب رأي غسد ، تطبيق قانون لوشابليه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدة والمسألة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في اي محل كان ، طريق التوفيق والتهدة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية السقي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن « العمل : مداه وظروفه » ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية ^(١) . قاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، تطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلن ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة لليجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، باللظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في آمال وحدود الحركة النقابية تنفيها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم للربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في النجم بقي . كالسابق عرضة لامراض غدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان الثقاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت ، وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للهرب لعدم استعمال ما يقيه لفح النار ، وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كاملة للتنظيم او للتجديد الاجتماعي عن طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . « فالمهدوت المدل » الذين قامو في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزبون الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت العدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالحبازين مثلاً . وهكذا استطاع مخزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المهلات التجارية التي تباع بالجملة ، في منشروفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ، وقصد بلع من إقدامهم وجرائهم ان اشتروا بعض مزدروعات الشاي في سيلان واراضي زراعية واسعة في كندا وحقول النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المهلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والمفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كانت مثل ومكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشير ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثمار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصطلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تنبئ لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبوا ، بل بعشرين مليوناً . فانا على استعداد كلي لمنحك اياها ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تحلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي قم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غسد ، على غرار بلانكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس . حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسيسان موريس وكنفسلي والهاميان لدلو وفانسيستارت نيل ، فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رستام يؤسس عام ١٨٣٧ لحسابه الخاص محلاً استطاع ان يقنع بعض العمال بمشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمته بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل للتخلي عن مشروعه

للمعامل العاملين فيه . ومثال ذلك بعض المشاريع من هذا النوع قامت على هذا الأساس ، بينها مطابع ، والد *Bon Marché* ومناجم بريفز - في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لندن ، ومعامل الجعة البرلينية لصاحبها يوروشرت . فقد تعرضت كلها لهذه الخصومات والمنافسات التي وقعت بين الاشتراكيين واصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البروليتاريا الذين لا تتوفر لهم الامكانيات والطاقت المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . فقد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم ليرثه عندما اخذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، فخصص اولها في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي ألت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظام التعاونيات الزراعية التي تعاملت على السواء ، الشراء او البيع او الاثنين معاً . ومثل هذه المشاريع تروق للفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويحدد اسواقاً لتنفيذ محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيات للزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للجلبان والفاكهة .

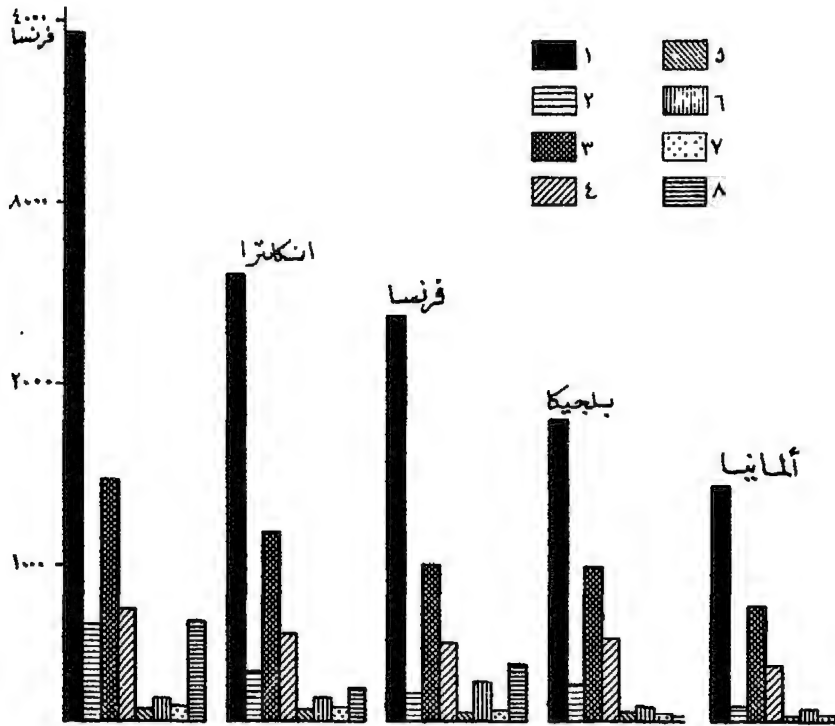
فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل مهم ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاعضاؤها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تنبج من المستهلكين عرفت الازدهار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد « العلماء » ، امثال والراس ومنجر ييشون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بحث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فوريوت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، راح الناس يحملون بجمهورية اشتراكية لها القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحمل فيها الجسم المضاف الى الرأسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة وشاجبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عاجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تفسير او تعديل الظروف التي تكتنف حياة البروليتاريا .

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم
 المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع
 النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض
 اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً للعيان منه لدى البورجوازية . هل نحن يا ترى

الطبقة العمالية تحت وطأة مرض
 اجتماعي مزمن : الفقر



شكل رقم ١٩ - الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ١٩٢٣ اسرة عمالية
 في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ - المربى ؛ ٢ - الايجار ؛ ٣ - الغذاء ؛ ٤ - اللباس ؛ ٥ - القراءة والمطالعة ؛ ٦ - المشروبات (بينها
 الكحول) ؛ ٧ - التبغ ؛ ٨ - الوفرة .
 (تحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٩٩٣) .

امام حركة افتقار تصاعدية ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهة .
 تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر
 الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية انحصرت كلها في موازنة
 العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بها مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المعدنية ، مثلاً، تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات ثرية اخرى كالشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اعلى مما يعود على الفرنسي والالمانى ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالمانى يكتسي بشباب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تعاطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالمانى ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيما عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاثضح لنا جلياً انخفاض الوضع عند الآخرين^(١) . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزياً كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا $\frac{3}{4}$ موازنة اسرته والبلجيكي $\frac{3}{5}$ ، والالمانى $\frac{2}{3}$ ، والاميركي $\frac{1}{10}$ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العاملة التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احياء باريس كل من درمنيل ومنجنو ، تخصص لايجار سكنها من سدس الى نصف دخلها . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق لـ ١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها للسنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥-٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيло اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيماً . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحد . وفي بروسيما حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠-٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينما أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨-١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالمانى في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركا ، يدفع منها ١٦٨ ماركا اجرة غرفة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركا ، ويفادر مسكنه صباحاً بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكرو وينتقل على نفقته حاملاً معه من المقائق ما ثمنه ١٠ Pfennigs ، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا . والعائلة تنفق من ٢-٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع ، ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركا لللبوس . وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعوز هما ابدأضيغان ثقيلان يحلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

ولكن أكان من حق الناس في أوروبا ان يستسلموا للباس ؟ ان
دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي صحة احسن واخلاق اتمم
مدى الحياة يستطيل على الاجمال . فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا ،
بين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤٦ ، والشيوخوخة بين الناس
خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده
الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان
يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣١ بالآلاف في أوروبا ، عام ١٨٥٠ ،
فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩١ - ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن
(كالحرب) او ان تأثيرها ضعف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل التغذية
سجلت مكافحة المرض تطوراً ملحوظاً ، تبين الشعوبها ، في أوروبا ، باختلاف البلدان
والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الامراض التي تسير دوماً في
ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس
في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ -
١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً
وساقل معالجتها^(١) . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ،
بينما فتك فتكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها
بنجاح في إنكلترا والتي ألت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان الاسكندنافية وفي هولندا ، عد
من الوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل
استهلاك الخمر والمشروبات الكحولية ، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة . كذلك
نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار .
ومع ذلك فحوادث الاجرام هبط معدّلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجح تدريجياً على فكرة
التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحى ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

(١) ففي إيطاليا حيث الوفيات كانت تعد باللايين ، هبط معدّلها بين ١٨٨٧ - ١٩٠٧ من ٥٣٤ الى ١٣ في مرض
الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفويد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للساريا ، ومن ١١٥ الى ٤٨ في
مرض الحصا او البلاغا . اما في إنكلترا ، فقد احصوا للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ - ١٨٧٠ و ١٩٠١
- ١٩٠٥ ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفويد ، و ٥٣٥
و ٣٠٠ لمرض الواق (الشفة) ؛ و ٢٠٨ و ١٦ لضحايا الحنقا ؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي
وهبط معدل الرجال المصابين بمرض الزهري من ٤٤ بالآلاف الى ٢١ بالآلاف في الجيش البروسيانى ، بين ١٨٦٧
و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالآلاف الى ٥٩ بالآلاف في الجيش الايطالى بين ١٨٦٧ - ١٩٠٥ ، وهبط من
٧٦ بالآلاف الى ٥٥ بالآلاف في الجيش النمساوي الهنغارى ، بين ١٨٧٠ - ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالآلاف الى ١٧
بالآلاف في الجيش الفرنسى بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالآلاف الى ٥٢ بالآلاف في الجيش الانكليزي في
إنكلترا بين ١٨٨٥ - ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (تونس - الحبشة - الترنتفال) .

فشيئاً من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية ، عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطية ، وايطاليا فيما بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يراجعون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدهما بنتام ، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالا للجدل والنقاش الطويلين في البلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الفويان الى ان استقر في نهاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة اللومان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضاً لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من يد يد الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دوراً عظيماً ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيها البعض تدبيراً أدبيياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العائرة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احدى دور الرعاية او ملجأً خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطّة وغير ناجعة من قبل شرطة الأخلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً للنخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبغاء . وقد تبدى للمراقبين بأن هذا التشويز يجب رده الى البؤس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تخلي المضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بها ، والى عمل القوادين او المستثمرين للنساء والى فرض الإقامة على بنات الهوى . وكان من تأثير الاعراف والعادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المقدمات التي تحط من شأنها . فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبحت مشروعاً ، هنالك بعض البلدان ، معظمها على البروتستانتية ، أباحت للمرأة قطع الراباط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتعرض فيه للمهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة منزل او خلية ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجامعة والمعاهد الثانوية ، كما فتحت أمامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثارت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النساء امثال جورج صاند وفلورا تريستان وبولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلترا والسويد بهذا الحق ولو حصرتة الاخيرة منها بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولى ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير اي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المدنية فحسب ، بل ايضاً يقرون بقدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعلم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراه بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

كان اميل جيران دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكن الالتباس الخفيف . فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة أكثر مما كان يشررها في الحكم . ومع ذلك ، فإذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي مستر وفخت وهينغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بننام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فوربيه ومازيني وبرودون يجهدون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرهم ، ان تقض حداً للحروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر للسلام دُعي هوغو لترؤسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كويدين ، وخرج المؤتمر بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحكم فيه ألمانيا البساركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا ، هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسليح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة . وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سبنسر بأن السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مهما بهظت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية ، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتأزمهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتهمل وتضرع الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المشرعون والدبلوماسيون يسيطون للناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتسييج حوله ، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون ، اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة ، وراح مفكرون امثال لوريير وبلونتشي ومارتقز وفيور يطيرون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ايزمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر المعلوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثارت فكرة التحكم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقدها هذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعيناً راح مؤتمر باريس المقفود عام ١٨٥٦ يرحي بالرجوع الى وساطة او تحكم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعيناً ذهبت النتائج - ج الطبية التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المقفود عام ١٨٧٢ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها وويلاتها ، من ذلك مثلاً مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤ ، والذي دول الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذها مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهدها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تنهياً بجرارة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة. هناك خطر كبير دائم يهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تمنى من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط الدول الأوروبية

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج - إلى عهد - ١٨٧٠)

وجه بارز القسومات فافر التقاطع ، هكذا تبدو أوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يسر
المواصلات وسهولتها ، والكاسب التي حققها هذا الطراز السوي ذو الطابع المدني
والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على سماتها وكيف تتعاضد .
وقد شهدت أوروبا عمليات تجمع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم
تقتض الى فك اوصال الملكيات الداوية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والايطالي ؛
الا ان قهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة
جنوبي شرقي أوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مفارقات عدة ، تركزت في المنطقة الشمالية
الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب . والى الشرق ، المتميزة
بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين أوفرها إنتاجاً صناعياً ونشاطاً
تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها ، ومن هذا التنوع والتباين
المظيم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هذه الفوارق الكبرى التي تطبع كل عضو
من أعضاء الأسرة الأوروبية .

في عام ١٨٣٨ دشنت الملكة الفتاة فيكتوريا عهداً المديد الذي
بريطانيا العظمى الشديدة البأس
في عهد الملكة فيكتوريا انتهى عام ١٩٠١ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بدأ العهد
الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق
سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومها بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فلطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قلة السكان فيها بينما تجاريتها الواسعة واستثمار مستعمراتها الشاسعة الواقعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينما شكلت اطيائها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقاري وارشوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ - ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : « بني ، تحملت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعث من ان يحف حليبيها » ؛ هذا هو الحصب الذي استشره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا التسع الحصب فرض عليها في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجراًة اشد ، فاستقدمت بحراً ما لم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الغاشم وضعا طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجسرة او الزوال من الوجود . وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما قطع به ويريد : من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر ، عرفت بورجوازية مدينة منشستر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشاخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الذروة ، امام مرأى ومشهد اوربا التي تهاز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم أمثـلـ لهم ما كانوا عليه من غنى و ثراء ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسعتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ، مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ؛ رأس مال حكيم ، فطن ، وعرف كيف يناور ويمشد ويستثمر ، ليجعل من بريطانيا العظمى ، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني الثقيف ، المذهب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث واللباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تذوق الاسفار ، وتمسق للعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تركيبها وتبررها فلسفة انتفاعية لا يشكرها إلا كل متمنت مكابر . وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته البلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتسبها ، كل ذلك دل بوضوح ، على ما رُكـز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتي من قوة التحليل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباحج الطبيعة وما فيها من فتنة وسحر ، كما ان إشراقه من الالهام نقلت ثنايا الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

اما المفارقات المتضادة فتطالعك عند كل مائى عين وعط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف المحض المورق ، في هذه المدن التي غشاهما السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بسرعة فائقة ، وفي هذه المدن الغسافية التي شابت وهي بعد فتاة في شرح شبابها . ما الاجتماعية من هذه المفارقات فأمثلها هذه الفروق الصاعدة الصارخة في تفاوت الثروة والغنى مما لا يتوفر بمضه في اي بلد من بلدان أوروبا الغربية ، مع العلم ان الانسان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانسان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان العبودية التي يرسف فيها المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى ، لانها تقتل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد الناجز » . ومنها ايضاً هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية من ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحبه عنوان كتابه : « حول المخطاط انكلترا » الذي اخذ فيه مؤلفه لودرو - رولن ان يتلأ بسقوط بلد تقوده أقلية من هذا الطراز . ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، بتكفلان وحدهما بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثورية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في المزوف عن مسالك الوثيقة . فقد عرف كويدن وييل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الحاققة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ - ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ على الريف يجب ان نضيف هنا الصعوبات التي اعترضت الصناعة البريطانية ، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزيائنها . ففي وجه طبقة من العمال متصلة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية العنيفة ، كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة . وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتها تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفهر .

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بها عام ١٨٠١ ، وقعت الامة كفاح الشعب الايرلندي الايرلندية فريسة امة اخرى ظلمت لها واخذتها بالعنف والشدة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بارضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالقضاء قانون الاتحاد هذا . فجعل ما حققه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية تجسوزته بميذاً في مطالباتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصر وقعت الجائحة الغذائية عام ١٨٤٧ ،

وعقبها حركة نزوح عارمة جرفت بسكان الجزيرة خارج البلاد. والهيانج الذي سببه حزب الفانيان السيامي .

اخدت الجزيرة بالانحطاط والتدهور . فقد هبط سكانها من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتلصق في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتي شعب هذه الجزيرة خيالاً مجنحاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، وبغنى أدبه الشعبي الفالبيكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتقتبس لغة المفتصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المستوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر القاسم .

ويؤاد النهضة يجب ردها اصلاً الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي تزرع حبوباً فحولت الى اراض للراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم . غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها (بعد ان رضي من قبل بفضل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبإلغاء العشر المترقب على الكاثوليك دفعه للكنيسة الانكليكانية هذه) جعل من المتعهد الزراعي شبه شريك للمالك ، ومن جهة اخرى ، فالجهود التي بذلها بارنيل لحل البرلمان ، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة ، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس ، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ايرلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودها لتحسين تربية الماشية على أرضها وطورت صناعاتها وسهلت اسباب التعليم لمن يرغب فيها من ابناءها ، وراحت تنمي الروح والاعراف الكلتية في ابناءها ورفعت من مستوى الحياة فيها ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتححرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينايفيا امام هذا التطور العظيم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيعاً وحزيعاً بالشفقة بالنسبة لمصير هذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في هذه المنطقة المرتفعة من خط العرض ذات التربة المسكة المفتقرة للقمح ، وصاحبة الدور الثاوي المتواضع على المسرح الاوروبي منذ القرن الثامن عشر . فالداغمارك والسويد والنرويج التي تنقسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطقي ، عجزت تماماً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلار . فشب الجزيرة السكندينايفية الكبيرة هذه ، تم توحيدهما مؤقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ومليون داغماركي . فمعدل الوفيات فيها عال جداً وكذلك الهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي جعل اكثر من ٨ ملايين سكندينايفياً على النزوح قباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التبسط طويلاً حول الاهجوبة السكندينايفية . بفضل عهد من السلام استتب طويلاً (اذ ان الحرب الداغماركية الجرمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحلة قصيرة

اضطرب فيها الامن) ، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعد نظر حكيم . فقد حققت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فنمر سريعاً بظاهرة تكاثر السكان في هذه البلاد . فالثمانية ملايين التي ضمتها عام ١٨٥٠ والـ ١١ مليون التي بلغت عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكتر الى هبوط قوي في معدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكندينافيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين . فلم يزد عدد السكان في كل من كوينهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كريستيانيا (اوسلو اليوم) فلم يزد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ، ولعل ابرز حادث ميز تاريخ هذه البلاد الحديث ، فهو الثورة الريفية . صحيح ان جبال التروبيج الشرقية اقتصر نشاط سكانها على مقايضة محاصيلهم الزراعية . فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعات غودبرنسدال واوستر دال . فالمنازل هناك معتمدة ، والبياضات او الملابس الداخلية فادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وامت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يمولون في غذائهم على السمك المملح . وقد جرت في الوقت ذاته ، حركة تجسيع بين القطع الزراعية الصغيرة بينها انصرفت حركة عابرة من اصلاح الزراعي الى توزيع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحدة استثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في طورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكشبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنفيق المحاصيل والبيع ، وفتحت امام محاصيلها من الحنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذا كانت السويد عاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيع ما لديها - من فلز الحديد العالي القيمة فعسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة - ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلات ومساقط المياه وكلها قوات محركة نذكرنا من قريب بهذه الاطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدغارك الواقع عند مداخل البلطيق والذي ضعف مركزه ووهن شأنه راج بقوي مز قاعدته الزراعية . فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج والانتها ، كما خففت من معارضة النبلاء والاكليروس اللوثيري . ويعد ان فقد ذوقية شلسويغ هولشتاين ، اضطرب الملك كريستيان التاسع للرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية . الاخرى وقامت في البلاد ، حركة ادبية وفنية وعلمية حملت بعيد شهرة عاصمة السويد الجميلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدة عن لعب اي دور بارز . ولما كان الدغاركين الاكبرصوت

مكائنتهم رهبتهم الدمارك ، فقد كان بإمكان أبناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاقتصاد السكندينافي . ولكن الحركة السكندينافية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية . كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعاً متحرراً تقدماً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ، حل محل « طبقات » النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجمعت ستوكهولم وخيم على هذه السويد النشطة التي اطلعت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين . ان ادخال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقصر الملك اوسكار الثاني حق الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بظننة ، الحركة القومية التي هزت النرويج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها للعرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعولوا في معاشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولائهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطئهم المفتوحة بطولها على البحر ، واستثمارهم لمطارح السمك الفزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كساسة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تفادي الفقر والعوز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبرر الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريغ في الموسيقى وإيسن في الادب وفانسن في كشف القطب . فاشترأت نفسها للاستقلال . وحققته دونها صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركياً ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دوماً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

سجل القرن الثامن عشر فترة قهقرى والمحطات لهذا المفترق
بعث النشاط في هولندا وبلجيكا
الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت تباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض بمرافقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئاً لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرنس .

ولقد شاهدنا رسيما من النشاط خلال عهد اورانج - ناسو وملكيها على البلاد . الا ان الشراكه بين الشعبين عرفت اياما صعبة بعد ان غلب على البلجيكين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه الملائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقاً في الازدهان طبع بالعرف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوروبا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة للكيلومتر المربع الواحد ، مكنهما من الافادة الى اقصى حد من مركزهما الممتاز ولوقوعهما بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوة التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ - ١٨٥٤ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء ، وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة ، المادية التي أملت بمرافقة البلاد المختلفة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مسبقا عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ، صبور وتمتعت بسلام طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياد السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجهاً لها وجهة النظام التمثيلي ، شدهما شداً قوياً الى بريطانيا العظمى . من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً الى ساكس كوبرج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي تمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيقة ، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلاً بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت للحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كنيسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد شجب عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العالمة فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء ما

ترغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابت لنداء التشكيلات السياسية التي تتلادم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بها ، انقسام الشعب فيها الى شطرين متباينين لغة وحضارة : شطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشرطر فلمنكي راح يعرض بحماس مطالبه . أقيبدو غريباً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، بانتهاج سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

الديمقراطية الجبلية في سويسرا
هل بإمكان الجغرافيا ان تقصر وان تملل لنا كيف قامت في قلب جبال الألب ، دولة مستقلة ، مع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربيها ؟ استطاعت اقاليم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تمر في جبال الألب وجبال الجورا ، فألفت من مجموعها حمى او ملجأ كان خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معواناً لها لتقي نفسها من تعديت الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارئ من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسيجت عليها بالحياد، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددهم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠، ارتفع عددهم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتركزون اليوم في مساحة من الارض مرققة على الاجمال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان ممينا لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبل في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في كل منها ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الزيفي تأخر بعيداً بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلداً تدر الحليب واللبن اثر تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لها شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلاً للفحم الحجري فقد اتجهت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينما خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هذا الشعب الذي توفر له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة الماهرة . واستثاراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ، الشبكة الأوروبية، للواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افادت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البسلاد تستثمر ثرواتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وتربطاً وأدت بالتالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشتركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارسوقراطية وتعاونية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدى لنا ، عام ١٨١٥ وكأنه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض . فالتمسك الشديد بأعراف الحدود ، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموجب الديمقراطية يسير دوماً الى الأمام ، بصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال . ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسياذ » برون ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيما البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبازل ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت تبشر بدور أجل *Staatenbund* وبقرب ظهور *Bundestaat* ^(١) ، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي ، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادى والعلماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي المهيذ لتطور الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة ، وتحافظ كل مقاطعة بمنتهى الفيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ، ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشتد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة يتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية . فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعناية بالصحة ، لا يبالى كثيراً بالدراسات الادبية والفنون . وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة .

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع بين الديمقراطية الفرنسية عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . أما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا أشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو - برادول الرأي وذهب بعيداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد « نحن الفرنسيين » سيكون لنا من الوزن - بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني - مع الاحتفاظ بكل نسبة ، ما كان منه لأتينا

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح سارياً على الشفاه .

قديمًا بالنسبة للعالم الروماني . فالمقارنة بين فرنسا والمانيا ليست قسط في مصلحة الاولى . فلم يكن عدد الالمان عام ١٨٧٠ ، ليزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينما بلغ عدد الالمان عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينما كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . ففرنسا هي الدولة الكبرى في اوروبا التي فتحت ابوابها على مصراعها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشعر بأي ضغط ديموغرافي . ومسح ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلاً لا يضارها فيه أحد ، فهذا مرده أصلاً الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . ونلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولاً أو بالاحرى إنصرافاً بطيئاً عن بعض الاقاليم ، يفرغها من سكانها ، لا سيما في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالمازارع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادارات والعدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأس كثيراً لحركات التجدد ويمتول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عن مصالحه ، ولذا نراه يستمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحليمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ، بتوفير غدير له يطمئن اليه ويأثلف مع اطماعه المحدودة . وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم ، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ، يؤلف طبقة بروليتارية أخذت تعي مصلحتها الطبقة بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنية الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نزاعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيها والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شقت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة ، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فجههم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يمازجه كره لا يغلب لهذه التدابير وهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهم . كما يمتنبون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل . فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبمناى من كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيسة الكاثوليكية وبمساعدها ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً تتردد بين النظام والحركة ، هاتان التزعتان اللتان تتقاسمانها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على الهزاز الانتخابي تكفي لترجيح هذه الكفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . هي ذهنية صفار البورجوازيين و صفار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨٤٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً اعتبارياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ ، اذ راح يعرض النظام للاعيان وللفاعلين ، والعمل لمن يرغب فيه ، ويحاول التسوية بين مبادئ عام ١٧٨٩ والسلطة . ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر . وفي اعقاب الحكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجالها ، قنعت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراض بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكتريية الشعب الفرنسي وكراسة انقاذ او خلاص طالما تمتموا الوصول اليه منذ عهد بعيد ، ربما منذ عام ١٧٨٩ ، وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يمهّد السبيل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر » . هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، « فرصة » ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتقوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستعمارية ، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم ، وتغلبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، ويشدد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعته الديمقراطية المعلنه لا تعيشها قط ، للسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي . وقد عرفت فترات كمن الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفتقر كلياً للذوق ، والسكن لا يتطور بالقدر الذي تم لمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والدهاء ، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، حلیم .

وقد عرف الفرنسي ، بأقل سرعة من غيره ، في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

تفوقه الادبي والفني بسرعة الحاسط عندده ، وذوقه الرفيع وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جعله يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومع انه أقل إقبالا من جيرانه في الشجال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً وروحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يمرض قط عن ملذات العيش الرضي .

لعل فرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفء ممأ من اوربا المتوسطة ومميزاتها الفارقة
المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانفدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائس و اخلاق هذه الاقوام المرححة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والمجود المتطاوول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتفت عن شواطئه حيث تطالملك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة ؛ هنالك لقاءات مبدشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد البدو الحضري ويخنتق الجبل الارض القابلة للمحرث ، فالأقلام يغتفر اصلا للفتح فيضعف النشاط في الصناعات المعدنية كما ان المنطقة تقتفر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة تنقف وتطور الخط الحديدية كما ان السفن البخارية اخذت تعول ، اكثر فاكتر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضع جغرافي عظيم الاهمية لا سيما ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمال التي عقدتها ميشال له شغالييه لن تلبث ان تتحقق . فمنذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافق البحر المتوسط ، موزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الحبوب والفواكهة والزيت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوربا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار ، كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا ، بعد ان زحزحت الأولى عنها ، على غرار اسبانيا والبرتغال ، نير الاسلام ، كما زحزحت الثانية ، ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جاححة ، بقيادة دولة قارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

تاخر اسبانيا والبرتغال عن الركب
مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها مع ذلك ، اية ميزة قط . فهي ابدأ في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفقر الرجال ، اذ كان عدد سكانها عام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عام ١٩٠١ وهي زيادة

برزت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . أما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى ستة ، فمستوى العيش فيها بقي متدنياً . مما يلفت النظر عندها ، هذا التفاوت العظيم في توزيع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بيجه في اقليم غلتيغزو ١٤ نسمة لا غير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصيد الجبلي الوسيط ، كما ان اسبانيا الساحلية تقص بالسكان من جهتها . وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ، المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق فيغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يمرقل ، الى حد بعيد ، استثمار الاراض . فاذا ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالباً ، والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن يوسعه ان ينقل أكثر من ثلث بضائعها . فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطئ ولهم حوطي قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين) . وهذا الماضي الزاهي الذي عرفته الصناعات التعدينية ، في شبه الجزيرة اليبيرية لم يبق منه غير الذكر الحفيد ، وهذه الافران والمسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالوني انطفاً الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عني . وستظل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تركز في مقاطعات استوريا وبلباو حيث يتوفر بكثرة العاملان الانسانيان لكل صناعة : الحديد والفحم . وبالإضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سبقاً ملحوظاً في هذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدوانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعتبر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشع بطونها . كانت البلاد تصدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الحبوب والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بمطارها الغزيرة ، الغارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيداً متوسطاً قاسياً ، تليق لزراعة الحبوب والمزروعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوسط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعتها الكرمة والخضروات والشجار المثمرة ان تزيد من انتاجها بفضل تصديرها هذه المحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطرابات وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام ، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالخاص .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الغزو الافرنسي والفتح النابوليوني ازرحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار الملاكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يسانده الجيش والماسونية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقمدها ، وتعلو بها وتزها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشالية لتغذي الحرب التي اثارها قضية الملك كارلوس وتآليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فدرالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتها . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعت منذ اللحظة الاولى الى القوضوية فسمرت الخوف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم . وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كاسلافه بالكتلكة » ، كما اعلن نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر . فلم يتغير شيء ، وهدأت الحرب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد . فالحالاس النيابية لا شأن لها والمرقيات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة ، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، وانحذت الحركة الكتلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتأزمت القضية العمالية . وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن المؤسسات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط للعمل في ظلها ، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية . وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد للنقد راحت حكومتنا مدريد ولشبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحجبى في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملا قسوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغرانس الملكية التي عجزت كلياً عن

إخراج ولاية لوزيتانيا من الورطة التي تعانها .

مشكلات المملكة الإيطالية الفنية
نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبيرية
والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه
هناك، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليوناً عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليوناً عام ١٩٠١، وبذلك
بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد، في سهل البو واودية توسكانا
ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركبها
الحميات، قليلة السكان، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاغتراب. نرى من جهة
تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة. كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد للوقود
والمعادن. في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة ترسف في الجهل والامية وقعت فريسة
الملكيات الضخمة، كما تقتقر البلاد الى رؤوس الأموال. وقد مزقتها نزعات اقليمية غناها عهد
طويل من التقاطع والتناوب، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق، محدودة الرمي والهدف.
وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة، اذ كان الاول اكثر ارتباطاً بأوروبا
الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الأوروبية، شعبه نشيط، دؤوب على العمل والصناعة،
بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحق يتسكع في مساوىء الملكيـات الضخمة.
فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة فنية، قوية عرفت ان تفرض
نفسها بمساعدة أجنبية، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال. الا ان عملية
التوحيد بين المقاطعات والافراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل، لم تحل كل
المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة. فالهمة بدت شاقة، مرزحة لهذه الدولة الحديثة
ذات الامكانات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة، كثيرة الاحتياجات.

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد. فالجنوب لم يكن
ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو. واسرة آل سافوى التي كانت
تتمتع بالعطف والرضى في المناطق الشمالية لجبال الابنين، كانت، في الجنوب، موضوع تشكك
وتدمير. وقام في وجه حزب اليمين المناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت، رجال
الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية، والحزب اليساري الذي، بالرغم
من نزعته المضادة للدين، كان يشوبه شيء من النعرة المزيّنية لم تكن باشتراكية، وكان يحصد
العديد من الانصار، بين هؤلاء الغاضبين في مملكة نابولي القديمة. وراح سكان البيامونت
يهاجون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات المباردية والتوسكانية المتحالفة، الامتيازات
التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها. كما راحت
تهاجم حروب المناوشات في الجنوب، ومحاولين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا
للعمل والانتاج. وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق
التي لا تفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشعبية التي تتسكع في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسعوا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظام الضرائب ومارسوا إفساد الضائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يملئون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذ بها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتوليتراً من القمح في الهكتار الواحد مقابل عشرة هكتو لترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً المفارقات بين الشمال والجنوب ، هذا الجنوب الذي نراه يتدمر باستمرار مدعياً انه مرزح ، مثقل كما ان الثؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملها على المهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كثيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع العلم ان النظام المصري فيه كان ضعيفاً وسريع العطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تعد كثيراً ، وانه الى جانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان نحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

وايطاليا تعمل فيها تيارات اجتماعية عميقة الغور . وكان من العسير جدا على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تسير عليها ، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً المعجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحلل بالفتنة تولي عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، وموقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولها التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوربا الوسطى تحت سيطرة المانيا البشاركية
بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا ، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا مستغلة الى اقصى حد حرب عام ١٨٧٠ . فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين . وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثر بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الآخري ، بالتجمع ، فتقاسمت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً مملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحد بين المانيا الشمالية والمانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصومة عنيفة انتهت بينهما الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة الامبراطورية الالمانية .

الريخ الالمانى مجال لتطورات عظيمة في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، والمانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، والمانيا الرينانية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكنس الوفرة الغنى بمواردها الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المترامي الاطراف المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرین ، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينما الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، وألزاسية لورينيه الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودانركية الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة غيزت باصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجال ، والرضوخ لابوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا ، ولسنا كذلك امام اتحاد دولي كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الالمانى . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور ، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تقيم الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشستاخ المنتخبين من قبل الامة جمعاء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لحلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمارك الرجل الحديدي اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها . فهو منصرف بكليته لتوطيد عمله وترميحه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ - ١٩٠٠ ، من ٤٠ - ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تنبئ فخراً ، فانتشار اليسر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطرأ اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عدداً من الفقراء ، والاقبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من إتساعه وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تعول اكثر فاكثراً ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض المسكة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها . فبينما كانت البلاد في الامس

الغابر تصدر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجرماني المعروف *Zollverein* فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم ، محاولاً ان يزيد من انتاجية هذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح العديدة لجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geest* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري ، والخبثير وحشيشة الدينار دون ان يغني هذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب . فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخربات ، ومثال هذه المحاصيل تتجه نحو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها . وهذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة ، انضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تأليفها توفر رؤوس اموال ضخمة ، بعد ان عرفت كيف تفيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العلمية التي هي قيد الاستعمال . وقد برز باكراً ، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية رمت الى تأمين حركة بيع وتنفيق ضخمة في الداخل والخارج ، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومرفأء البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى ، وبفضل اسطول تجاري يبشر بطولوع نشاط واسع . فالبورجوازي هو الذي في شخص فربنباخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقلية الوطأة نوعاً .

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في فقير النحل الذي تمثله الامة الالمانية . فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الريخ في خدمة الاقتصاد الوطني . ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا ، هو المارك ، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة وللتنفقات الحربية ، فالجيش الالمانى يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها . واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسمائهم ، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة ، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك . والرجوع الى سياسة الحماية الجرمانية ، عام ١٨٧٩ ، يجب رده جزئياً ، الى حاجة الخزينة . فبشارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة .

فقبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة ، المحافظون والمعروفون بعصبيتهم البروسانية والوثورية ، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني . وكان بشارك قد قطع لهؤلاء ولألك ضماناً ، اذ قبل الاخذ بمبدأ الاقتراع العام ، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون ، في جميع انحاء الامبراطورية

الالمانية اذ ان صلاحيات الرايخشتاغ كانت مقيدة ومحدودة ، بينما كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز للوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فراح يحاربهم بسياسة Kulturkampf يشد من ازره اللوثريون والوطنيون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المجن لهذا الفريق الذي طالما ماله ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضد الحزب الاشتراكي ، قارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقة المطران كتليير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الحافقة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزاحم الاسواق الكبرى في الخارج . الا ان الدفع الاقتصادي يتوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالمانى قد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكبار الموظفين . غير ان الوفرة المنخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلاً على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهما تباينت الآراء من الوجهة الجمالية ، كما يدل التصنيع ، على هذه الإدارة الجبارة ، نحو ما هو ضخيم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغتر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشاءات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيق في المجتمع . وهذا التصادم والترابط يقتل روح الاصاله في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تحبل العقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فمباراة القوة توشك ان تسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل الثامن

أوروبا الشرقية ويقظة الصقابة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جمعاء منوطة بأوروبا الغربية وحدها (اسكندر هارون - ١٨٥١)

بعد الخط الممتد من همبورغ الى تريستا ، تأخذ القارة الأوروبية بالتكثف بروز أوروبا الشرقية والتضخم . فالمنظر التي تتعاقب تحت انظار المسافر تشير بأنه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب لبوغل أكثر فأكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقع المين على اقطار أكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجاء ، وطرق تندر وقفل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مغلخلة العرى . وألوان الطعام تغيرت وتبدلت فحلت المصيدة محل الخبز ، وصرتا نلمح ألواناً من الطعام بينها الـ *Barszcz* وهو مزيج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvass* الروسي (بينما يستطيع الألماني صنف الشوكروت مع الجمعة) ، وتناوت المدن وتباعدت وهي اقرب الى القصبة من المدينة ، بكناثها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى تجمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تسائر بالتجارة وحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها واحياء تنقطع اليها وتنعزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد قبلت فيها اللغات واللهجات المحكية وتناشرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلاً في مدينة لفوف^(١) كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث 'وجد ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بودابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على الزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تتراس اختلاف الاسرائيلي في فيينا عن ابن دينه في الكربات الروتينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الألمانية ضمن وحدتها المتراسة جزءاً - بولونيا - من أوروبا الشرقية ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في أوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو أكثر تعقيداً .

(١) - بيا ليستوك . من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تبعد النمسا عن
الشراكة النمساوية المجرية في المانيا وتقضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشئ عام ١٨١٥، توصلت
حوض الدانوب

فبينما الى تحقيق التفاهم مع بودابست ، هذا التفاهم الذي تحولت
ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده
بين الطرفين عام ١٨٦٧ ، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا - المجر أو المجر
النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة ، وبعبارة
أخرى اكثر لباقة دبلوماسية ، وحد بين ترانسيلتانيا ما وراء النهر وترانسيلتانيا عبر النهر .

وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك ،
رمزها النسب ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة . وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المهن ، فقد
عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكانته عن طريق انصراف البلاد
الحاضنة له ، للعمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم . فقد كان عهده عهد حكم مطلق ،
خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنمويتها ورقتها . وكان تعلق
السكان بالاسرة المالكة تعلقاً قوياً غلصاً ، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة .

وقد ألف الحوض الدانوبي ، الى هذا كله ، مجموعاً طبيعياً متكاملاً متكافلاً لو تناثرت
اجزأؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة . ومع انها
ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي ، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة
ضيقة ، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب
المتأخر تحت حكمها . فاللجوء الى الغرب ، بعد عام ١٨٤٨ ، ورؤوس الأموال اللازمة للنهوض
بأسباب التطور وقطع مراحلها حثيثاً ، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه
الاتحاد المجركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى .
الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتوفر فيها يد عاملة لم
تكن مطلوبة . ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنتيا والنمسا العليا والسفلى ولاسيا بوهيميا تنعم
بشهرة صناعية واسعة عرفت ان تحققها منذ عهد بعيد . واملاك التاج في هنغاريا ، وهي املاك
ضخمة واسعة جداً ، 'تزدف' بمواردها الزراعية والراعية الغنية ، الغلال والمحاصيل التي تعطىها
سيسيلتانيا من الحبوب والشمندر والمراعي . وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو
المزدوجة ، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى .

هنالك ، مع ذلك ، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار .
فالصناعة ، في النمسا ، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية ، ومثل هذه السياسة لم تكن هنغاريا
تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب والمحاصيل الزراعية . ولذا كان لا بُد من
التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين . وهذا ما رمى اليه بالفعل
الاتفاق الذي توصل اليه الجانبان الى عقده ، واعادة النظر فيه كل سنتين ، على ضوء الاوضاع الراهنة .

ومقابل الفوائد التي أمنها هذا الاتفاق الحي رأت النمسا تعويضاً لها عن 'غبن' لحق بها فرض تعريفه مرتقمة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الأكثر تطوراً، فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعريف الأكثر رعاية عرفت مرافئ وموانئ البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسهما حيناً ، واتفاقهما أحياناً ، وتطوراتها ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة وغارجهما . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها يداً من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الجيوب وتشحنها الى الخارج بينما عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون للنزوح عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ريع الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحاج ، أكثر من أي وقت مضى ، ان 'توقف' عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بمهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكليزيكية ، كما اخذت تطالب بملكية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تيسر كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي المنازات والمعاهد العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شعن النفوس بعداء مستحكم للسامية) . ويدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عسداً من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلاقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضرار والفتن الريفية .

فقد ألغت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العمالية ، اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داع الى رهن اراضيه وأطيانه هذا المستلاك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطياب الوان الطعام وترفل بالذيد الفاخر من الشراب ، والذي تم له من طاقم الفضية ومجموعات السجاد والطنافس والحيول الأصلية والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فيجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع ثقيف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرايت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فكبار الامراء وبورجوازيو بوهيميا او غاليسيا هم على استمداد للتفاهم مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا ممرارة فيها هي ان العنصر الجرمانى الذي طبع عميقاً المؤسسات والادواق وصناعي التفكير في الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجرى الا ليتمكن من الصمود في وجه الدفع السلافى . « صونوا حدودكم تحافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التي ادت الى هذا الاتفاق ^(١) وهذا التفاهم الالمانى المجرى آل في نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالى الى احتلال البوسنة والهرسك ، وكلاماً من الاراضى السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل « الرفيق الجليل ، للرايخ ، والمجرى وسيط بينهما .

في حوض الدانوب ، كما نرى ، تاجحون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالى - قد يكون من المستبعد تحقيقه - بقي التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هابسبورغ .

والقرن التاسع عشر الذي تميز بالاستقرار جغرافياً في
من البحر البلطيقى الى الادرياتيكي
اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التي
قومت مستمدة تتخلل وتمطى
وقعت الى الشرق منها ، في القرنين السابع عشر والثامن
عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسانية والروسية . فالاتفاق الذي تم عقده ، عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين ، : « اضعاف « الاجلاف » قطع سيسليتانيا : البولونيين والروتين في مقاطعة غاليسيا ، وبعاد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرب والكروات في مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم في الدم : الكروات والصرب في هنغاريا ، واحتفظ للامبراطورية النمساوية باباطالىي البترول وتريستا وبرومانيو بوكوفينا ، كما ادمج رومانيي ترانسلفانيا في ترانسليتانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تسد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق ، خاضعة منذ الاجيال الوسطى للنفوذ الجرمانى . فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريفا مدينة حاوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضى الزراعية . والتعليم في جامعة دوريات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم في أثر عملية الاصلاح الزراعي الذي قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر في البلاد ، من جهة ، طبقة من صفار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدى وتطور المرافىء البحرية في هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، نقطة بين القوميات ابتدأت في مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسى . فاذا ما رأت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار الجرمانى ، فلم تكن لتتري من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

(١) في عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين الماني (منهم ٨ ملايين في النمسا نفسها) ، و ٦ ملايين مجري ، مقابل ١٧ - ١٨ مليون سلافى ، و ٣ ملايين ونصف مليون روماني واطالي .

رمت الى تشجيع حركة « ترويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الروسي وذلك بتحريم استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الطلبة الاحراج والغابات ، القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية واللوثية التي تغلغلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية ، لم تنتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفينية . وقد ترك الحكم القيصري هنا للشعور القومي ان ينمو ويشند بحرية ، وذلك لاضعاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب ، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتي من حق الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة ضخمة تضرت بها البلاد . وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استئثار صناعة الحشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شراً الى اشتداد الحركة الوطنية واستفحالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسها ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهة الاستراتيجية ، تقع على قيد غلات من ابواب عاصمتها . وسيصادف سووومي اوقاتاً عصيبة جداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمرى الى بعث الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المترايد سكانها ، المجاهدة ، الفتية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالها الجموح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي اصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر الغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هذا الكيان المهمل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتها الدول الثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابهتها بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار ابناء غاليسيا وآل هابسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السياسي الكبيرة في جميع أرجاء أوروبا عجزت في محاولتها لإثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الفرار ، ومنذ ذلك الحين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرة الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعين المجردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « ترويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تبرز للعيان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالا على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتها الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحرراً بين البورجوازيين الاحداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راحوا يعملون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الألماني ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكي يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسي فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حليم خفيف الوطأة ، اذ تمتعت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألغت مع كراكوفيا ، مشعلا للأدب ومناورة للعلوم والفنون . وهذه البرودة التي دبّت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخريين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ مجراه ضمن الملكية النمساوية . ففي بوهيميا نفسها ترى المنصرين الألماني والتشيكي تارة على وفاق وطوراً في خصام . فالاول منها ، اي الألماني ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج . أما الثاني ، فيسكن التجويف الجغرافي الذي يحيط بالمصحة براغ التاريخية ، وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عالياً « بحقوقه التاريخية » في هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك قنسلاص ، اي باعادة ملكة بوهيميا الى الوجود ، ومن ضمنها مورافيا وسيليزيا . هنالك ارستوقراطية تشيكية ألمانية ألقت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هابسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة . وهذا الوضع بالذات حمل بلاتشكي على التصريح بعد الفشل الذي اصابته به حركة الجامعة السلافية الفدرالية ، عام ١٨٤٨ ، قائلاً : « لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد بعيد ، لوجب العمل على انشائها في الحال خير اوروبا جمعاء » . ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمساوية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيسليتانيا ، سوى تنازلات جزئية ، كاردواجية اللغة مثلاً وكنشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بنحصب تناسله ، اخذ يحقق شيئاً من السيطرة في هذه المناطق المتعددة ، وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزبل تدريجياً الطابع الجرمانى العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تنبذ هي الاخرى ، الثقافة الألمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم الهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بإنشاء دولة تشيكية ديمقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسوفاك نحو الاتحاد معاً لذلك السيطرة المجرية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاني في تراس نحو بوهيميا وهو اكثر تطوراً موصياً بأن الهجوم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للملكية الهابسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلقت علينا حركة « مجيرة » قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى ، في ملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر ، راج اولو الامر في بودابست يارسون ضغطهم الشديد عندما وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . « فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت » ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . وهجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي تزح من جبال ترانسلفانيا الشجره ليستقر في مقاطعة باتات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في ما بين النهرين البانوني ، بالرغم من الاتفاق الموقود بينها عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات على الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الثكنة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاحبا وترورا ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضلة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوما رداً فعل عكسية ، فدفع بالسلافك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحل الصرب على الاتجاه بنواظرهم نحو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويعمل صقالية الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسفن تحت حكم آل هابسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك ، بوصف سكانها من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طريداً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في الليريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو المعقيدة الذين خضعوا أجيالا طويلاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام . من هنا : صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد ، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه اليا مونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة اتحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودمالمانية (*La Troadna*) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوستروسلافية اخرى . فالفرق الكرواتي بزعمه جيلانتشيتش قام يرد على تعنت كوسوت كرجع صدى لبالاتشكي : « لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال » . برنامج يوغسلافي هذه المرة ، يضمه كروات وبيدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوفقت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقي هؤلاء الى ايدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه اقلية صربية صكرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هذا الاتفاق

الفاوض الذي وقعه قوم يمحشون كراهية للحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي عمل ، بعد هذا التدبير ، لاليريا . وتوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية ترفع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الأرثوذكس في مقاطعتي البوسنة والمهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم تُعُدْ ببعيد عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة اليوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية - المجرية وتفسخها لمنفعة صربيا الكبرى .

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك ، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور الذي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . وما هو انكس من هذا كله ووقع في النفس هو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

تقهقر تركيا وبروز الدول البلقانية
والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة .
فشب الجزيرة البلقانية هذه التي تنقسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الابيرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قارب قوسين وادنى من تحررها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثته أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشربون بأعناقهم الى القسطنطينية وإلى المضائق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق ، كما نرى الضغط الجرمانى المجري يشتد لمتجحه من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يعمل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدامهم كما تعمل القوميات التي تتمحرك وتتحور في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان تجدد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فطلوع هذه الدول البلقانية وإطلائها على الدنيا ، تتم نهزة نهزة ، وفقاً لمآجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكريها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها - هكذا تبنت للامارتين ، عام ١٨٣٢ - لا مال عندها ولا حكومة ، قوامها وكيانها يتألف مسن مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبيه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (الموره) وجزر السيكلاد ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . ومع ذلك فستنازل لها الانكليز عن الجزر الايونية ، ثم حالها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جديداً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما اتجهت بأنظارها نحو شواطئ إيجيه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتيسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة للفنيين ولرؤوس الأموال 'مقعدة لها 'مرزحة ' اذ ان تحصيل العلم يفرض بطالبه الى مزاوله المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المفريعات والى المعترك السياسي . واثينا التي كانت قصبة صغيرة عند الاستقلال ، ألبانية الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٠٠٠ شقت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصل واقتتار البلاد للادوات والاجهزة المسعفة كل حركة . وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم 'يحل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة يرزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريق يؤثر التجارة ، وهناك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هذه المملكة الصغيرة التي أمدتها باقاربا يملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات المحلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها من جزر متناثرة ، تشمر في الصميم ، انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها . اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطابع القاري الشرقي ، فهي تمور وتتحرك ضمن حدود مبهمة لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك ابن ثائه للحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كراداغ وعند الايطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف بـ Tserno Gora وبطل من 'عل على نهر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الشيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيغوش ومن اليهم من هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يترواح عددهم بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المعبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفها في معركة كوسوفو الطاحنة .

وتبعث صربيا من جديد ، ولو ببطء فتقتطع محلا لها تحت الشمس ليس بين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهرى الدانوب والساف فيجريا معاً في وادي . وراقيا باتجاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعة بلغراد حصناً حريزاً لهم لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجرتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يربون قطمان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » ، في عيني لامارتين الذي زارها عام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنيوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى *Knez* للامة الصربية كان احد مرئي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، دونما ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر المورافا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تقضي من تراقيا الى شواطئ البانيا والى البوسنة . وقد اقصيت ، هذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعة الامبراطورية الاوسترو - مجرية الاقتصادية . وبعد ان حيل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتيناها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرنيوفتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائج القربى والتماكب مع مجتمعاتهم . ومع ذلك ، لن يلبث هذا الشعب الفخور ، المناضل الذين لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولداف والفلاخ ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadia* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Clmp* او السهل ، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية اقصت سلطة السلطان عن الفناريين واستبدلتهم بأمرأ محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي ساهم نابليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو - فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمح الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبتروول . وهذا الاستئثار حرص على ان يبقى متدنياً ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الحاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متجكرة ، لم تحل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبية الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجماهير الريفية التي تتسكع في الجهل والجهالة والتي تقتصر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكوام من اللبن او من روث البقر المحفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفرد . هذا وضع

تقع منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً . فالوفيات بينها هائلة والاتصال في خصب غريب . فرومانيا التي كانت تعد عام ١٩٠٠ خمسة ملايين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا . فضمهم لمقاطعة دوبرودجه القفراوية على البحر الاسود لم يعوض عليهم خسارتهم لمقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا للتخلي عنها للروس . اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الي عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تتسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدانوب السفلي .

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك . فأينما أجلت النظر وقعت منك العين على الاملاك الضخمة و « الجفتلك » التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات ، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يرزح تحت الجزية والخراج . فقد سجل الاسلام هنا ارتدادات كثيرة فنادياً من الأهلين للطرد ولصادر اموالهم وأراضيهم . وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الودولف ، والالبانيون في الجنوب ، وعدد كبير من قرى ودساكر الصرب في البوسنة . ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم ، هنا وهناك ، مزارع عديدة . وفي وادي نهر المارتزا ، حيث خضع الفلاحون لعبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روملي او رومي اي روماني ، الا انهم في الواقع ، من عرق البلغار ، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز ، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم . وأتيح لهم ان يؤسسوا امبراطورية دامت ردها من الزمن ، ولم يلبثوا أن زرحوا تحت ضغط البكاوات ، عرضة للسرقه والاعتصار من قبل التجار اليونان يقنعون ، طعاماً لهم ، بكهكة وبعض البندورة والبصل واللبن . فللمدن طابع تركي صرف بماذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة . ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة .

وفجأة أطلت علينا بدافع من أطماع قبصر روسيا ، عام ١٨٧٠ أكرسرخا (اماره) بلغارية كما راح دعاة الروس يحشون الفلاحين المهتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم ، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكرسرخا . والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكوميتاجي المسيحيين . فالنظاظات التي اقترفها هؤلاء الباشبازق ، المعروفة في التاريخ « بالمآسي البلغارية » والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة ، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧ ، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً . غير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين ، في السنة التالية لم يقر سوى قيام « اماره مستقلة ادارياً خاضعة لولاء السلطان » هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفة باسم الروميلي الشرقية ، بينما اوقف التقدم الروسي عبر وادي مورافيا واعترف لامبراطور اustria بالحق بإدارة البوسنة والمهرسك . والثابت ان الامير اسكندر باتنبرغ اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠ ، يعتبر نفسه « امير بلغاريا الشمالية والجنوبية » الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استغاثته كما اضطر خليفته الامير فرديتان الاول من اسرة ساكس كوبرج الملقب « برئيس الداساين » ان يهد الطريق لمدة طويلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لأمة خصب الانسال فيها والتوالد لا يقل بشيء عما هي عليه جاراتها من هذا القبيل ،مدفوعة الى ذلك بما ركز في طبيعتها من حب للعمل وما فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يوماً ان تعاود سيرتها في جمع شمل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضائق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والبانيا والأبير حيث يؤلف الاقوام فينفساء مدهشة من الشعوب والاجناس .ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني ،كاثوليكياً كان او ارثوذكسياً او مسلماً ،ويعيش مستقلاً في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار ،تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر .أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا ، ذات الاسم الساحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام يفتقرون الى عرقية واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاه وازورار ، كما يحدجون بأنظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكثرية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية ، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة الالهجة المحكية ، يحويها ظناً بمواسيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفالاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاتراك فيها وقد زرعو فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المنافسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هذا الممر ، مقاطعة ترافيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي تشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء . فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا ، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيرة وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوربا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعد ان وزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهلوا شأنه وأسأؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهلة للتقسيمات السياسية بين قوميات مخشوشة ، مقتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحال ، عرضة دوماً للفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه . وموقف ألبانيا يذكرنا حتماً بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدينة الزراعية والراعية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها ، فهي تذكرنا ، وبحق ، بروسيا القريبة منها .

المهد الاستبدادي الروسي والنظام
القديم قبل حرب القرم

للالامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد
الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية للنظام التقليدي
السائد في أوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق
« الحلم اليوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان
حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت مجلاء عن عورات هذا الحكم
المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واحكليس
كهنته جهة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بمحركات
بنائه ، وطبقة من اسياء الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة
والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من البساطة
والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والعجرفة
أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادئ التي سارت بينهم ان الكل يسرقون ، وان
يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يدها مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها
مهامها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حصر صحي آسر شديد
يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ، وجيش بطاش هو أداة لفرض
هيبة الحكم وللنظام في البلاد ، وأداة الفتوحات الاستعمارية ، الا ان عدم الانضباط فت في عضده .
أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحيناً متذمرة متأفة من وضعها
المرزح المرهق ، نزاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، فكره نظارها وتحقد على وكلائها ،
ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتحرر من رق
الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، هاجزة ، مع كل
هذا ، عن ادخال أي تحسين على الوضع الزراعي الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية
متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (وفليس في روسيا من طبقة ثالثة او
طبقة الشعب ، كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مربطة بالدولة رأساً او ببعض
الاسر الشريفة ، أو بأصعاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية ، تسير في تقاليد
المرعية ، لا تحيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد
عندما لا تلاقى شاربيا او زبوناً يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في
الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة للغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل
الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعا كبيرة
منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون ، لها احيائها المقفلة ولها ما يعرف عند
بـ *Kremi* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق للمواصلات يسهل معها
التنقل والانتقال ، وللتضيقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة ولقلة
النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقيلة المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخير الذي يُطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد ، وسيؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السیادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجبهة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كاتباً مثل غوزول او تورغنيف او سلتيكوف تشيدين الذين رسموا لنا صورة ناصعة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهذا الموظف المختلس ، لا يستنكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه روسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ لهذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فال فشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سبستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعيناً يُخضع القيصر نيولوا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكلم الافكار والالسنه . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بها جمعية الفحاميين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تنكفى وتعود القهقري في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهاقت عليها الاوساط الارستوقراطية تتلف مبادئها وتعاليمها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغليانية التي غدت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعث الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها : تيار « الفريين » الذين شمروا عميقاً انهم قريبون من خصوم العهد كالأشراكين والفوضيين والليبرية البورجوازية اكثر هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوى بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين ، ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المزارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم للباس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات اليمه ويعصرون الشقاء والبؤس الذي يتسكع فيه المجتمع الروسي الفارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامها بمهمة ثورية .

اللازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني- الاصلاحات وبوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رقي الارض وتحرير الفلاح لا يزالان من الطريق كل المقبات . فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة اعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشور . ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعويض عليهم ، كان لابد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو مجحفة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يزرع تحتها صاحبها الجديد . ومها يكن ، فعلى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما . من هذه الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يعلن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا بتلقيبه ، ابتداءً من هذا اليوم « المحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجرى غبطة وسروراً . الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ١/٤ المبلغ المتوجب . فالتملكون بنالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيقون يعانون الجوع الذي تشتد وطأته مع التقسيم الجديد للأرض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيستعبرون أنفسهم قد هُزئ بهم وراحوا ضحية السرقة بينما تشابك القطع الزراعية التي قالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاوى كثيرة امام القضاء . كل هذا والنبلاء ينفثون احقادهم : فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ مساو للدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصبحت بالهبوط . فلاعجب والحالة هذه ان تباع املاكها او ان تؤجرها للتجار . فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع - لو شاء - ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة . وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استثماره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليوناً ، حوالي عام ١٨٨٠ ، كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » ودحس ردة الفعل ، مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » ودحس النية « بالجمود . فمحصول سنة ١٨٨١ كان طيباً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الأكبر للنين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ Zemstvos وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جعله

إلزامياً وبأنشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهياث الزراعية في القرى ما تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وبتخفيض ضريبة الاعناق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذة القديم بوبيا دونستريف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى « ملكية » اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشأ فيه مصرف يعنى بمساعدة النبلاء الذين يعجزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى الـ *Barine* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبل بوصفه قياً على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقد لعبت الارثوذكسية دورها المميز في الضغط على القوميات الغربية ، متبعة في سياستها تلك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى (*Skopsy*) (المتحررين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، واللاوثرين في الولايات البلطيقية ، وسببت انزعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده . وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد . رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا واولايات البلطيقية والبولونية وبسارابيا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاته بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيئته ونفوذه يجب ربطه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهاقت رؤوس الأموال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحيها للاستثمار والاستعمار . ففتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البلاد قفز عددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين من صغار الملاكين ينعمون باليسر كما استقر في الازدهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً هم من البروليتساريا يعملون في خدمة الصناعة ، و٣٦ مليوناً من صغار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتساريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض المجالات ، محلاً مرموقاً بين الدول الاقتصادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى للعيش على الاطلاق في اوروبا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الإشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنائها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبناها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بونج وقتشستفادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجب بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لنداءاتها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل ١٠٠ في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ - ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢ للفترة الواقعة بين ١٨٧٤ - ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة اضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة . ومهما يكن فقد ساعدت هافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافئ والموانئ البحرية والاقتصاد النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوركرايا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونetz ، الروسي بوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصلب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرهم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وشغل بلجيكيون ، والماني مراكز هامة في البلاد وفي هذا المهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذاك ، يتمهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبتترول باكو كما راح يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبتترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه . هنالك مساكن يفترش ساكنوها الارض العراء لا حصير فيها ولا فراش . وقد اعدت بعض الشركات لمها مها مبانى ضخمة جهزوها بالمحمامات والمفاصل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راحوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تقرض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمون فيهم روح النعمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد إضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاداً منهم لسوء العمل . ولهذا الاسباب

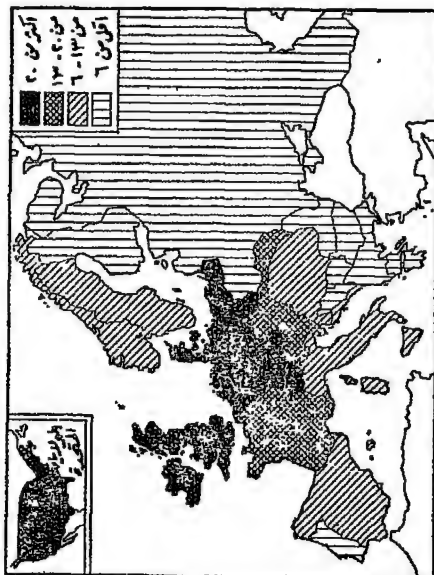
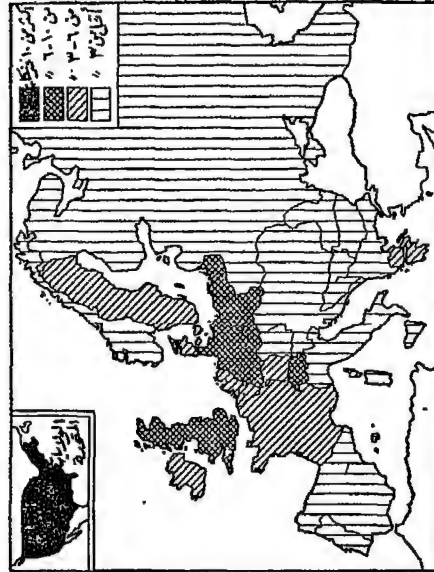
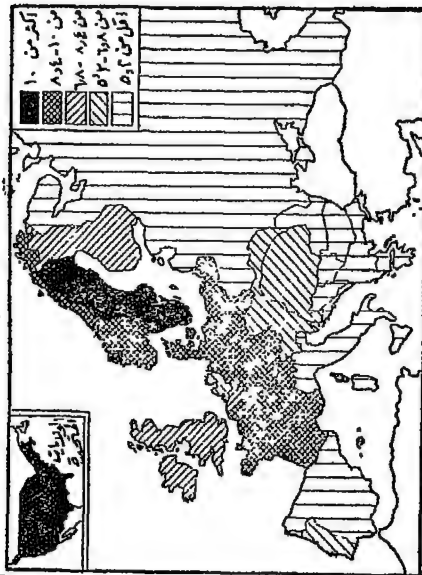
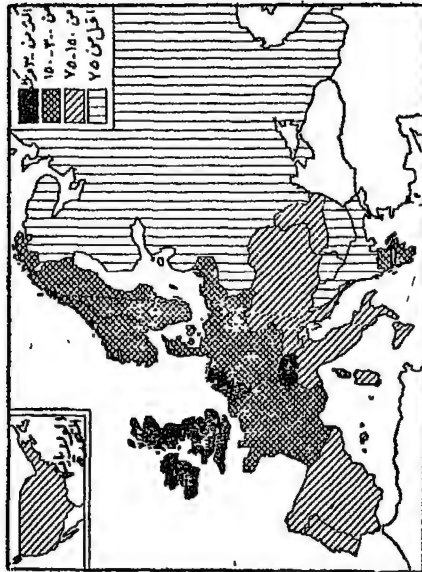
راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية ،تتسم بروحها الابوية .

ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستفد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح غنية (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الحريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقة عليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسمر أعلى مقتنماً في غذائه وغذاء ذويه بطعام رديء . هنالك سبعمائة ملاك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠،٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣،٤٠٠،٠٠٠ هكتار . وقد استطاع «الكلية» الاراضي ان يفتصبوا شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما ترى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خضام موصول مع هؤلاء القولاقي . من هذه البروليتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو العمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يعطل النفس بشأن يستقر يوماً في سيبيريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنفصاتها . وهكذا نرى الوفاء من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى تغير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم غناء ويموتون فريسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها أرقاء الارض . ولم يعد الموحيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله يبعد عنه في الاعالي » ، كما ان القيصر يبعد عنه جداً في قصره . ففي خضوعه دوماً للحياة الجماعية ولتقتضياته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكييف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحفير - هزبة الشمال - المبنية من الخشب ، لا فائدة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بملابسهم ، أو خلة الجنوب ، من اللبن وأحياناً من القش اليابس . ليس في هذا المسكن من صابون ، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لبعده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالإيادي عندهم من الكماليات (واعطاء بقبشيس ، في الروسية ، انما يعني : اعطاء شيء من الشاي » . وكثيراً ما يجتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسج الدردار وعصيره ، يعرف عندهم «كفاس» . فالتقص في المواد الغذائية والادمان على المسكرات يرفعان عالياً من نسبة المحلل الفساد . والامل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فوالدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينمcan باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثانية ، غير ان الخصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من الموزين والفقراء .

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما
منظران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية
تبدية حضارتها من اعداد ومفارات . من جهة اخلاق
وفنية متنازة وتأخر اقتصادي متصل
شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها ، ومن جهة ثانية ، يجتمع
رفيع مستسلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة .

الادب الروسي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجدك الحشن الطباع والمرح معاً ،
والتاجر الجشع ، والملاك اللفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي
لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكرا سوف الى بلوك ، ومن غوغول الى
دوستوفسكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي يفتقر الادب الروسي عن شعر او قصة أو
اقصوصة بلغت سدرة المنتهى بما تور به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا
المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحسب الفضول والظمأ الى
المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة .
فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي
الذي ينبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي
مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز الغريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع
ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية النبوع ، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص
في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطقي او من الطراز الواقعي ، ورسم
المنظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التريني ، الا ان مظاهر الحساسية
الروسية تجلت على اكملها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازوف وروبنتشاين
يقعون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي
والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم
دارغومسكي أولاً ، ثم « الخاسي » او الفريق الخمس الصغير Koutchko (او الكومة الصغيرة)
كما كان يلعبهم بسخرية خصومهم ومنافسهم . وقد برز بينهم : بوردوين ورمسكي -
كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بأنغام والحنان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما
تنسم به من سمو وروعة ومناغاة وانسجام . وقد تلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي
وبروكوفيف وخوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً
غريباً ، وقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه المسكوبية هي ، ولا شك اكبر
لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد » كما كانت تشهد بذلك مدام جوليت .

تمتل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي
في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها . ويكوّن العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي
الذي يتوفر لها كما يكوّن علماء الاقتصاد فكرة لهم للوارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها .
والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك



شكل رقم ٢٠ - نشاط أوروبا سنة ١٩٩٠

أعلى ، إلى الشمال : الخطوط الحديدية : عدد الكيلومترات لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة (معدل ٦٠٨) أسفل ، إلى اليمن : عدد الرسائل والبطاقات البريدية المرسلة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٣٠) . أعلى ، إلى اليمن : التجارة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٧٣ فرنكا) . أسفل إلى اليمن : نفقات الدول على التعليم العام بالنسبة للفرد الواحد .

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسياً من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٥٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ماشيتها انما لا تنتج سوى ٢ بالمائة من القمح ، و ٤ بالمائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل ، وعلها لا يرقرف الاعلى ٣ بالمائة من مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٦٤ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سببت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالمرقبون السياسيون يشددون على ما «لعملاق الروسي من اقدام مزيفة المطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادئ السلطة المستبدة ، كان الشك يحيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تتمثل فيها .

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

إذا كانت أوروبا مدينة لتوسعها الخاص بارتفاع مستوى معيشتها واثراء ثقافتها ، فانها قد اوجدت بدورها مجتمعات جديدة على صورتها وزعزعت اكثر الاوساط البشرية اختلافاً عن وسطها . الا ان هذه الاوساط - المتنوعة جداً - لم تتطور الا ببطء ، وقد استساخ كل منها على طريقته ، وبنسبة متفاوتة ، ما أتى به الاجنبي . فان العالم الشمالي ، وافريقيا السوداء ، وشرقاً كبيراً ممن اطلق عليهم بصورة عامة ، اسم البدائيين قد تقبلوا ما أتاهم دون ان يصدر عنهم ردة فعل تذكر . واخذ الاسلام ، بكليته تقريباً ، يرزح تحت سيطرة أوروبا ، ولكنه لم يتخل عن شخصيته المميزة القوية . وسلمت آسيا الرياح الموسمية تسليماً متفاوتاً بدخول الحضارة الأوروبية وقاومت جماهيرها الكثيفة طرائف أوروبا بتقليدية متصلبة ؛ واذا ما أخذت اليابان تدعن في النهاية لطرائق البيض ، فانها قد فعلت ذلك وكأنها تقصد مقاومة متهم مقاومة أجدى . وكاد العالم اللاتيني الاميركي ، الذي كان بالامس اسبانيا وبورتغالياً ، لا يخفي الملامح التي تكون شخصية هذه الارض المميزة . ويجدر لفت النظر اخيراً الى ان العوالم الانكلوساكسونية نفسها في اميركا وافريقيا واستراليا ، لم تكن ، ولم تستطع ان تكون ، صورة صحيحة لبريطانيا العظمى القديمة .

الفصل الأول

المجتمعات الشمالية الحتيقة ..

ادت الاستكشافات والتجارة ، حول الحوض القطبي الشمالي ، المتوسط الامبراطورية الروسية واميركا الشمالية ، الى اخراج شعوب اقصى الشمال من عزلتها . فكان هنالك الشعوب الرعاة التي اعتمدت في معيشتها على حليب الرنة ، لحمها وجلدها ، والتي وفرت لها الاحراج الشمالية بمض الموارد الاضافية : الى هذه الفئة انتسب قبائل الآسيويين القدامى ، الـ « اوستياك » ، والـ « ساموياد » ، والـ « تونغوز » ، وقبائل الـ « اتاباسكيين » ، الاميركيين . ولكن سواد هذه الشعوب قد تعاطى في الوقت نفسه تربية الرنة واستثمار الموارد البحرية . ونخص بالذكر منها شعب الاسكيمو الذي امتدت املاكه من غرينلند حتى « الابرادور » ؛ وقد اتاح له انتقاله الموسمي من منطقة الى منطقة اقتناص الكاريبو او الرنة الكندية والحيوانات الغروية وحيوانات المضائق الخاصة ؛ وكان يحسن استعمال الحياطوف ويستخدم المزلج الذي تجره الكلاب ، والكايك او زورق الصيد الجلدي ايضاً . وكان يمسح جسمه بالادهان ويمتلئ من اكلها ؛ ويعيش منفرداً في الايفلو ، او الكوخ الثلجي المؤقت ، طيلة فصل الشتاء البالغ القساوة في هذه المناطق .

ثم جاء الاجنبي ، وقد استهوته الحيوانات الغنية بالفرو والادهان والزيت والجلد والمواد القرنية والعاجية . فجلب معه للسكان السلاح الناري ، والاداة المعدنية ، والنفط الذي سهل الطهي والاضاءة ، والطحين والسكر والشاي مما جعل الغذاء اكثر تنوعاً ولذة ، والكحول وبعض الامراض ايضاً . وزاول القنص بوحشية فأفنى بعض الأنواع الحيوانية وقلب طرائق الحياة ظهراً على عقب . وهكذا فان اسكيمو الابرادور قد اهلوا صيد الفقمة وبحوثا اكثر فأكثر عن الرنة الكندية والتملب القطبي واستطابوا المأكولات الجديدة ، ولكن اوبئة الجدري والسل والداء الزهري فتكت بهم فتكاً ذريعاً ؛ فاضمحلوا اضمحلالاً تاماً في آلاسكا الشمالية . وكان ان السلطات الكندية والاميركية ادخلت الى مناطق الشمال الفسيحة الرنة السيبيرية التي اخذت تتكاثر تكاثراً فائقاً مطرداً وفكرت بتنمية الرنة الكندية والثور المستك في الارخبيل القطبي ؛ وذهبت الدانمارك الى ابعد من ذلك فمزلت « غرينلند » لتضمن فيها حماية العناصر الخلاصة المنحدرة من الاسكيمو والسكندينايفيين معاً .

الفصل الثاني

التقدم السريع في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة

«... هذا العرق المحيط منذ اليوم بالكرة الارضية والمقدر
له ان يلاها كلها يوماً ...»
(تشارلز ديكنز ، ١٨٦٨) .

الاعمار : مشايهات واختلافات
ليس في القرن التاسع عشر ، في اعتقادنا ، من احداث اكثر إثارة
الانتباه من تكون عالم انكلوساكسوني يشمل اميركا الشمالية
كلها ومجموع القارة الاسترالية وارخبيل زيلندا الجديدة وشطراً واسع الاطراف من افريقيا
الجنوبية . واننا نطلق على هذا العالم صفة الانكلوساكسوني لان أناساً ينتسبون الى الارخبيل
البريطاني او البلدان الاخرى المحيطة ببحر الشمال قد عمروا هذه المساحات الشاسعة ومهروها
بطابع حضارتهم .

وهي اوستراليا وزيلندا الجديدة ، في الارجح ، ما تقدمان المثل على خير اعمار تجانسا .
لقد تأخرت بريطانيا في استعمارهما ، ولكنها استعمرتهما بسرعة ، دون غيرها ، في النصف
الثاني من القرن . ففي الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ حتى السنة ١٩٠٠ ، بينما لم تتجاوز نسبة
تزايد عدد السكان سنوياً ٠.٨ بالمائة في اوروبا ، بلغت ٢.٤ في الولايات المتحدة ، و ١.٦ في
كندا ، و ٤.٤ في اوستراليا ، و ٦.٨ في زيلندا الجديدة . ولم تكن اوستراليا لمدة طويلة سوى
منفى يبعد اليه المحرمون ، ومن جهة ثانية ، لم يبد مناخها ملائماً الا لتربية المواشي التي لا
تستلزم يدأ عاملة وفيرة . فحدث آنذاك ما عرف بالـ « اندفاع » وراء الذهب الذي جاء بُعيد

المجاعة في ايرلندا وحرث الهجرة تحريكاً فجائياً : فارتفع عدد السكان الى المليون في السنة ١٨٦٠ ، وسوف يبلغ الخمسة ملايين في السنة ١٩٠٥ . واذا تئذنت نسبة الولادات في هذه البيئة ، فان نسبة الوفيات قد سقطت الى ١٠ بالمائة ، والبلاد قد نعمت بنمو طبيعي يحترم . ولم يبلغ البدائيون او الاسبيون الا ١٠٠ الف نسمة في البلاد . اما الـ « ماوري » الذين انخفض عددهم الى ٤٠ الفا ، فلم يكن لهم شأن يذكر في السنة ١٨٠٠ . ازاء ٩٠٠ الف مهاجر مستمر . ولكن هذه الدول الاوروبية الجديدة التي قامت في الجهة المقابلة لاوروبا على الكرة الارضية قد تميزت ابدأ بطابع ضعف الكثافات البالغ .

في افريقيا الجنوبية كان البيض اقلية ازاء السود . فكان هناك اقل من ٥٠٠ الف بويري في جمهوريتي اورانج وبرانسفال ، وزهاء ٣٠٠ الف اوروبي ، ثلاثة ارباعهم من البريطانيين في « الراس » وناقل ، حوالي السنة ١٨٥٠ . ويجب انتظار التهاقت على المناجم حتى تؤلف العناصر الآتية من الخارج خطراً جدياً على مراكز المهاجرين الاول الذين كانوا يتباهون بأنهم « افريقيون » . ومهما يكن من الامر ، فان اتحاد جنوبي افريقيا ، لم يضم غداة تكونه سوى ١١٣٢٠٠٠ ابيض مقابل ٤ ملايين ملون (يدخل في عدادهم ١٢٢ الف آسيوي) . اما كثافة السكان فكانت اعلى منها في اوستراليا (٤ انفس في الكيلومتر المربع مقابل ١) ، على نقيض المهاجرين الاوروبيين الذين كانوا دونهم في اوستراليا بصورة محسوسة ، والذين لم يستطيعوا السيطرة عددياً .

ان أوجه الشبه كثيرة بين كندا والارض الاوقيانوسية الكبرى : اتساع الارحاء ، اقامة في مساحة ضئيلة من الارض قبل وصول مهاجري العالم القديم ، إعمار تدريجي متأخر دونه في اوستراليا بالنسبة الى المساحة . وكما في افريقيا ، شعبان متقابلان : الشعب الفرنسي الاقدم استيطاناً والشعب البريطاني الذي لم يلبث ان تفوق عدداً ؛ الا ان مصالحة واتحاداً مجدياً قد تحقق هنا لمصلحة الفريقين . اجل ان جاذب الولايات المتحدة الملاصقة قد اخلى المنطقة من بعض سكانها (اجتاز الحدود قرابة مليون نسمة بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٩٠٠) . الا ان عدد سكان البلاد ، التي اعلنت « مملكة » في السنة ١٨٦٧ ، قد ارتفع من اقل من مليونين في السنة ١٨٥١ الى اكثر من خمسة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وصحيح كذلك ان مساحات شاسعة ما زالت شبه مقفرة بين الولايات القريبة من نهر « سان - لوران » وبين المحيط الهادي (بحيث لم تكن الكثافة العامة سوى ٠،٦) ، كما امتدت مساحات مقفرة واسعة في اوستراليا بين الولايات الشرقية والولاية الغربية . ولكن منطقة المروج الكندية كانت مدعوة لمستقبل لامع ارتسم في اواخر القرن بفضل تزايد عدد المهاجرين تزايداً مطرداً . وقد تجمع الناطقون باللغة الفرنسية في كندا السفلى حول كيبيك ، ثم تكاثروا بسرعة وتقدموا نحو كندا العليا ، ممثلين نسبة ٣٠ بالمائة من مجموع السكان ، بينما حمت اللغة الانكليزية الولايات البحرية وسيطرت في مقاطعة اونتاريو وملكت سيطرة في الغرب .

اجتذبت الولايات المتحدة وحدها سيلاً بشرياً دونه السيل البشري الى كافة المناطق السحي

شفق فيها العلم البريطاني . ومرد ذلك الى امكاناتها الانمائية النادرة ، وربما الى استقلالها . سار الاستعمار فيها ، كما في كندا ، من الشرق الى الغرب ، وانطلاقاً من الشواطئ البحرية ، على ان كل منطقة اميركية قد استعمرت قبل المنطقة الكندية المقابلة . وقد اثار فيها وجود الزنوج والجماعات الآسيوية مسائل تميد الى الذاكرة مسائل افريقيا الجنوبية ، كما ارتدى الصراع ضد الهنود ، في بعض الاحيان ، الطابع الوحشي نفسه الذي ارتدته الحرب الماورية . ولكن اذا لم تنتشر لغتان في الولايات المتحدة كما حدث في كندا ، فان عناصرها البشرية المتنوعة قد خضعت لعملية مزج حازمة اعطتها وجهاً مميزاً .

حوالي السنة ١٨٥٠ ، وعلى الرغم من أن المهاجرين أتوا من الارخبيل البريطاني وحده تقريباً ، كان مثال الـ «يانكي» ، الاميركي قد برز بصورة واضحة . وتفسير ذلك ان كثافة سكان الولايات قد فاق المهاجرين الجدد منذ القرن الثامن عشر ؛ فلم يدخل البلاد أكثر من مليون شخص حتى السنة ١٨٤٠ ، ولم يتجاوز الداخلون الـ ١٠٠ ألف شخص الا منذ هذا التاريخ . ولكن سكان الاتحاد كانوا قد بلغوا ٢٣ مليون نسمة ، حين ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعاً سريعاً بعيد الازمة الأوروبية بين السنة ١٨٤٦ والسنة ١٨٥٠ : ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الداخلين ٢٥٠٠٠٠ نسمة مقابل ١٧٠٠٠٠ في العقد السابق ، و ٢٤٠٠٠٠ في العقد اللاحق ، على الرغم من الحرب الانفصالية ؛ وقد بلغ عددهم ٢٨٠٠٠٠ خلال العقد الثامن . وقد نجم عن ذلك ان نسبة زيادة الولادات للداخلين قد تدنت ، فأصبحت ٧ مقابل ١ بدلا من ٩ مقابل ١ في السنة ١٨٥٠ . وهي أوروبا الشمالية التي ما زالت تصدر أغلبية المهاجرين ؛ غير انها ، بالإضافة الى البريطانيين ، أرسلت الابرلنديين والفلنك والسكندينايفيين والالمان . وقد حدثت آنذاك هجرة واسعة الى داخل القارة الاميركية ولا سيما الى المنطقة التي سيطر عليها اسم « الغرب الاوسط » . ففاقت الجمهورية آنذاك كافة الدول الأوروبية باستثناء روسيا .

منذ السنة ١٨٨٠ ، باتت الهجرة اكبر حجماً واكثر كثافة ايضاً : فأدخلت ٥ ملايين نسمة في العقد التاسع و ٣٦٠٠٠٠ في العقد العاشر . ولكن نسبة الشاليين تدنت الى اقل من ٥٠ بالمائة وارتفعت نسبة اللاتين والسلافيين واليهود الشرقيين الى ٥٠ بالمائة . وقد ارتفعت نسبة المهاجرين الايطاليين وحدهم من ٦ بالمائة في السنة ١٨٩٠ الى ١٧ بالمائة في السنة ١٩٠٠ . وسيلغ مهاجرو أوروبا الجنوبية والشرقية ٨٠ بالمائة من مجموع المهاجرين الذين يعبرون الاطلسي . وامام هذا العدد من المهاجرين الاجانب الجدد ، انخفضت نسبة المقيمين الى ٥٤ بالمائة ؛ وحتى الى ٢٠ بالمائة في نيويورك وشيكاغو .

في السنة ١٩٠٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٧٥ مليوناً ، ولم تتجاوز كثافتهم الـ ١٠ في الكيلومتر المربع . ولكن لم يبق سوى سنوات معدودة امام الهجرة الحرة اذ ان الدلائل كانت تشير الى تصميم « يانكي » على مقاومة تشيخ استمرار عمل البوتقة التوحيدى والتشميلي .

المساحات الفيضية والبحيرات العامة :
الحكم الذاتي والاتحادات

اذن ضمت الولايات المتحدة مساحات شاسعة يقابلها عدد قليل من البشر . ولكننا لسنا هنا امام امبراطوريات أسستها قوة فاتحة تولت هي الوصاية عليها ووزعت فيها المهام . وقد ساد الاعتقاد ، منذ « توكفيل » ، بأن اميركا لا يمكن ان تكون الا ديمقراطية لأن كل شيء فيها يؤول الى السماح للفرد بالتضرع على هواه الى الله ويجمع الثروة دون اضرار بالغير . وكانت انكلترا قد اعترفت ، فيما بينها ، بأن المؤسسات التمثيلية توافق ممتلكاتها التي تنمو بدورها على غرار المستعمرات الثلاث عشرة التي كانت مغمورة في القرن السابق .

اعطت الولايات المتحدة اول مثل عن كيان اقليمي كبير يرتكز الى المبدأ الاتحادي . فقد بدأ دستورها ، الذي كان بمثابة تسوية بين حاجات الدفاع المشترك واثرة الجماعات المحلية والاقليمية التقليدية ، وكأنه مثال الحكمة . وقد عرف الديمومة على الرغم من بعض التعديلات التي جعلتها الظروف ضرورية والتي لم تغير منه الروح . فجابحه بحمة الحرب الاهلية دون ان تتعين اعادة النظر فيه . وبات نفوذ السلطة الاتحادية منذئذ واقعاً لا يمكن انكاره او الاعتراض عليه ؛ وبدا كل انفصال مستحيل في المستقبل . فتواصل التوسع الاقليمي دون هزات جديدة : فكان هنالك ٣٦ ولاية و ١٢ اقليماً في السنة ١٨٦٧ ؛ وسوف تنشأ الولايات الـ ٤٨ في السنة ١٩١٢ .

بعد ان مرت كندا في ازمة شباب خطيرة ، حققت وحدتها ونعمت في الوقت نفسه بالحكم ذاته الذي منحها اياه « وثيقة » السنة ١٨٤٠ . وفي السنة ١٨٤٧ ، اقدم اللورد « الجن » صهر اللورد « دورهام » ، على إسناد الوزارة الى الزعماء المصلحين في بورجوازية الاحرار ؛ وكانت هذه الاخيرة راغبة في بذل مجهود كبير للتجهيز ، فتاقت الى تحمل مسؤولياتها . فبدأ حينذاك عهد عمل بناء استهدف تخفيف حدة الخلاف تدريجياً بين الناطقين باللغة الانكليزية والناطقين باللغة للفرنسية . فاتجه الكنديون من ثم نحو فكرة الاتحاد التي تقبلتها لندن في النهاية بمحسن الرضى وطيبة الخاطر ، لا سيما وان هذه الصيغة قد بدت ، بعد الحرب الانفصالية ، قادرة على إحباط بعض مقاصد الولايات المتحدة التوسعية على حساب كندا .

جمعت « وثيقة اميركا الشمالية البريطانية » - وهي وثيقة ولادة « المملكة » الاولى في السنة ١٨٦٧ - بين الحكم الذاتي على الطريقة الانكليزية والنظام الاتحادي على الطريقة الاميركية . فقد اتحد ، بموجب ميثاق ، شطرا كندا وسكتلندا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، ثم كولومبيا البريطانية ؛ وكما تقرر في الولايات المتحدة ، يمكن ان يقبل في الاتحاد كل اقليم يتقدم بطلب لهذه الغاية ، على ان تؤخذ بعين الاعتبار درجة إعمارهم وتقدمهم . فمن جهة تحافظ كل ولاية على حكومتها الخاصة ، ومن جهة اخرى يكون على رأس الاتحاد حاكم يمثل الملك ، وبرلمان ، شبيه بالكونغرس الاميركي ، يتألف من مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ . ولما لم يكن هناك رئيس

تنتخبه الامة ، فقد اسندت ادارة الشؤون ، على الطريقة البريطانية ، الى رئيس وزارة يختاره الحاكم ويكون مسؤولا امام المجلسين .

عرفت اوتوا ، عاصمة المملكة الجديدة ، منذ ذلك الحين ، نظام الحزبين نفسه المعمول به في لندن وواشنطن . وهم المحافظون - تحالف الملاكين المقاريين والبورجوازيين الكاثوليك والبروتستانت ، المعادين كلهم للراдикаلية - من احرزوا الغلبة وتسلموا زمام السلطة اولاً . ثم قرب « الخط الحديدي الكندي الباسفيكي » المسافات بين الولايات السان - لورانية وبسين كولومبيا البريطانية . وفي السنة ١٨٧٠ ، ادى الاتفاق مع خلاسي النهر الاحمر وال « اسينيوييا » الى ادخال « مانيتوبا » في الاتحاد . ثم وضعت شرطة اوتوا يدها على الاقاليم الشمالية الغربية حتى « الجبال الصخرية » ، بينما قضي على ثورة قام بها الخلاسيون والهنود ؛ فهد ذلك لقيام ولايتي « ساسكاتشوان » و « ألبرتا » . وعندما تسلم الاحرار بدورهم زمام السلطة ، تقدموا بمشروع تسوية تجيز استخدام اللغتين الانكليزية والفرنسية واخذوا نار الخلافات الدينية والمدرسية ، واعدوا مشروعاً لإعمار الغرب واستشاره بسرعة ، وحافظوا على العلائق الطيبة بالوطن الام . ولكن المساواة في الحقوق ، في نظر الديمقراطية الكندية - كما في نظر الديمقراطية الاميركية - لا تستلزم الحق في الحياة الا بقدر تأمين الفرد هذا الحق لنفسه بكمده الشخصي .

كانت المستعمرات الاوسترالية الاولى ثمرة نشاط مربي الاغنام . وعلى غرار ولاية « وايلاز الجديدة » في الجنوب ، قامت في ولاية فكتوريا ، التي انفصلت عنها ، ولايات اوستراليا الجنوبية واورستراليا الغربية وكوينسلند ، مؤسسات تمثيلية عملت عملها لمصلحة اغنى المهاجرين المستعمرين . الا ان اكتشاف الذهب أثار بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ حركة اجتماعية كبرى ؛ فقد تعززت سيطرة المهاجرين المستعمرين ، وبرز الاقتراع العام الى الوجود ، واعتمدت بعض المستعمرات نظام الوزارات المسؤولة . فقامت الى جانب اوستراليا الاولى ، اي اوستراليا قطعان المواشي الكبرى في المساحات الشاسعة ، اوستراليا اخرى انتظر فيها المأجورون القليلو العدد ، المتحالفون مع صغار المزارعين ، مساندة الدولة المطلقة ، لا سيما وان الحياة في اوستراليا اقل تعزيزاً منها في اميركا الشمالية . ولم يستطع الحكام ولا المجالس العليا احتباس التيسار الديمقراطي الذي اتاح للمجالس المنتخبة بارادة الشعب تأليف وإقالة الوزارات التي زاد من ضعفها عدم وجود الاحزاب التقليدية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المجالس العليا باتت تعين ، منذ السنة ١٨٩٠ ، لفترة محدودة ، بواسطة هيئات انتخابية متزايدة العدد تدريجياً . وان مؤسسات اوستراليا المقتبسة عن مؤسسات الوطن الام قد تطورت بمزيد من السرعة ، وجاء النشاط التشريعي القوي يستجيب لانتظار حركة عمالية قطالبت بتشريع اجتماعي . ولكن ذلك لم يبلغ حد التنازل عن الانانيات الاقليمية . لذلك فان الميثاق الاتحادي لن يبرم قبل السنة ١٩٠٠ ، كما ان « كومونولث » اوستراليا ، الذي تكون في هذا التاريخ ، قد تمتع بصلاحيات اقل اتساعاً منها في المملكة الكندية .

كانت زيلندا الجديدة قد رفضت عرضاً بالاتحاد مع أستراليا خشية منها ان تكون ضحية هذا الاتحاد . فاقترحت هي ايضاً مؤسساتها عن مؤسسات بريطانيا العظمى ، ولكنها كانت خلوا من الارستوقراطية ، وسوف تعين الوزارة مجلسها الاعلى لمدة سبع سنوات . وقد عقد الاحرار البورجوازيون تحالفاً مع العمال في السنة ١٨٩٠ ، فتمنحوا النساء حق الاقتراع والماوري حق التمثيل والمأجورين حماية اجتماعية واسعة . وسترقي زيلندا الجديدة في السنة ١٩٠٧ الى مصف « المملوكة » فتصبح مساوية في الامبراطورية لكندا وأستراليا ، بينما تكون افريقيا الجنوبية في طريقها الى هذا النظام .

على نقيض الكنديين الفرنسيين ، رفض المهاجرون الهولنديون المنشأ ، هنا ، التعايش السلمي مع البريطانيين . وعيناً اقترح السير « جورج غراي » ، بعد رحيل البوير على نطاق واسع ، اتفاق شراكة بين الجمهوريتين البويريتين والناقل والراس لم تباركه لندن نفسها . ولكن المشروع سيرز الى الوجود مرة أخرى : فسوف يتحقق الاتحاد الجنوبي الافريقي في اعقاب قتال دام ، وسوف تنظم المملكة الجديدة نهائياً في السنة ١٩١٠ .

حالت الاوهام العنصرية في كل مكان دون اتحاد الانكلوساكسون
مصر الاعراق الملونة مع الاعراق الملونة ؛ وفادراً ما تغلبوا عليها باعتبار المتهمين الى هذه الاعراق مساوين لهم .

كان في اميركا الشمالية أناس تميزوا بقامة رفيعة وشعر اسود واملس وانف اقنسى وجلد اصفر اخطأ المهاجرون بأن اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر . زاولوا صيد الحوت وقنص الرنة الكندية ، في الشمال الغربي ، وقنص البقر الوحشي والزراعة في الوسط (وقد ظهرت حضارة الذرة الصفراء بين البحيرات الكبرى والجبال الصخرية الوسطى) ، وكانوا اهل حضر في الجنوب الغربي ؛ فتنوعت نظمهم السياسية تنوعاً عظيماً ، ابتداء من القبيلة المنعزلة وانتهاء بالاتحادات العسكرية الكبرى . وربما بلغ عددهم المليون « متوحش » عند وصول المهاجرين .

فلا مناص من ثم من احد امرين : نقلهم الى منطقة أخرى أو تقتيلهم . ولن يقر المهاجر المستعمر قرار حتى تحل مسألة الحدود هذه . ثم جاء قانون السنة ١٨٨٧ الذي استهدف التهدة بيهمة الاراضي وتحسين الحالة الصحية والتعليم : فحدثت الثورة الاخيرة في السنة ١٨٩٠ ؛ وزال « الاقليم الهندي » ، الاخير من الوجود في السنة ١٩٠٥ . اما الباقون على قيد الحياة — أقل من نصف مليون — فقد خضعوا للقانون العام او انفردوا في « مناطق خاصة » .

وكذلك لم يخضع الماوري ، البولينيزي المنشأ ، المتوحش والفنان ، للسلطة النيوزيلندية ، الا بعد معارك ضارية . فزرع الذرة الصفراء والبطاطا في اراضٍ مشاعية وتزيا بطبيبة خاطر بالزي الاوروبي واعتنق المسيحية وتعلم التكلم باللغة الانكليزية .

وأبعد البدائيون الاوستراليون ، البائسون والودعاء بالسليقة ، عن المناطق الكثيرة الصيد

الى الصعاري . ثم طاردهم البيض مطاردة فعلية بمساعدة شرطة من الزوج . وهم لا يشكلون اليوم سوى اقلية لا اهمية لها الا في نظر العلماء .

وصل الاوروبيون الى افريقيا الجنوبية اثناء هجرة قبائل الـ « بانتو » من المنطقة الحارة الى الجبال والهضاب المرتفعة الحالية من الذبابة الناقلة مرض النوم والمواقفة لتربية المواشي والكثيرة الصيد . فقاوم زنوج افريقيا الجنوبية احتلال البيض لاراضيهم مقاومة طويلة وضارية . ولكن كلما خفت حدة المقاومة المسلحة تكاثرت عدد الزوج الذين خضعوا للشروط المفروضة عليهم ، ورفع المنجم كذلك عدد الكادحين من الاعراق الملونة . ومن جهة ثانية اجتذبت المهن الشاقة هنوداً وماليزيين عوملوا المعاملة نفسها ونظرت اليهم العناصر الأخرى كما الى دخلاء . وكان للخوف من الاعراق ، التي اعتبرها البوير والبريطانيون متدنية واستغلوها ، قسطه الكبير في التقريب بين هؤلاء واولئك .

وظهر عند الاوستراليين والنيوزيلنديين قلق مماثل أثاره فيهم الآسيويون - وجلهم من الصينيين - الذين لم يكن عددهم مرتفعاً ، ولكنهم كانوا مهرة في التجارة والحرف الصغرى وحتى في الزراعة . فأدى ذلك منذ السنة ١٨٥٥ الى فرض القيود الاولى على دخول الصفر ؛ وقد نعت احد رجال السياسة النيوزيلنديين منافستهم بـ « القدرة والمنافية للطبيعة والجائرة » . ويشاهد القلق نفسه كذلك عند امير كيبى الغرب امام تدفق سيل الصينيين . فقد ظهر هؤلاء إبان الاندفاع وراء الذهب : فقد جمعهم بعض الوكالات من ماكاو وهونغ - كونغ ، ثم اشتغلوا في اعمال بناء الخطوط الحديدية . ولكنهم اشتهروا كطهاة وخدام منزليين واقتنوا غسل الثياب وكانوا اهلاً لتربية دودة القز وتجاراً اذكاء . فلم تترد كاليفورنيا في السنة ١٨٨٢ في منع الهجرة فاقضة بذلك الاتفاق الموقود مع الصين ، وقد صادق المجلس الاعلى على هذا المنع . وسوف يتعرض التشريع الليابانيين في عهد لاحق .

اعتق الزنجي الاميركي منذ حرب الانفصال فاصبح من حيث المبدأ مواطناً على غرار الآخرين . ولكن الرق والخلاف الدامي تركا آثاراً وذكريات دائمة . فخلال عهد « التجديد » الناقم ، عاد رجال الانفصال الى صوابهم وملكوا انفسهم ، فقابلوا بالعنف والارهاب بعض اعمال العنف التي اتاها الارقاء السابقون (ويعرف هذا العهد بعهد « كوكلو كس كلان ») وسيطروا مرة اخرى على المجالس التشريعية وحدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً من الحقوق المنوحة للاعراق الملونة بالتعديلات المدخلة على الدستور . فتجانب من ثم عرقان ، احدهما متبشع ابداً من تفوقه ومعاد لكل امتزاج وفارض على الآخر تمييزاً عنصرياً مذلاً . وعلى الرغم من ان عدد الزوج قد انخفض نسبياً بالقياس الى مجموع السكان العام (١٢ ٪ في السنة ١٨٩٠ مقابل ١٤ ٪ في السنة ١٨٦٠ وزهاء ٢٠ ٪ في السنة ١٧٩٠) ، فقد ارتفع ، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الاهلية ، الى ٦ ملايين ونصف المليون يضاف اليهم زهاء مليون من الخلاسين . وقد

مالته هذه الاقلية طبعاً الى التجمع في الولايات القريبة من خليج المكسيك : فجاء تجميعها هذا تمييزاً جغرافياً أضفى على التمييز الآخر مزيداً من الخطورة .

عاد معظم الزنوج الى العمل في مشاريع استثمار الاراضي بصفة مكثرين او ميأومين . ولما كانوا يميلون طبعاً الى الانتقال من مشروع الى آخر ولا يعطون انتاجاً كافياً ، انتشرت شيئاً فشيئاً اشكال مزارعة شدتهم الى الارض . وقد فضل اصحاب الاملاك « العامل بالمحاصة » الذي لا يتوجب عليه سوى تقديم سواعده ويتقاضى اجره عينا ، « والشريك » الذي يقدم الحيوانات والادوات ويحتفظ بثلاثة ارباع الحصيد ، على المكثري الذي غالباً ما كان يعجز عن الوفاء .

الزنجي يزرع القطن

والزنجي يجمعه

والابيض يقبض المال

والزنجي يستغني عنه

السيدة تسكن القصر الجميل

والام الزنجية تقيم في الزريبة

والسيدة تحافظ على بياض ايديها

والام الزنجية تتولى كافة الاعمال الشاقة

والابيض يرتدي قميصه المنشاة

ويميل في مكان ظليل بارد

انه اكل انسان خلقه الله .

اجل لقد ارتسمت حركة تستهدف الساح للزنوج بالدفاع عن مصالحهم في المعركة الاجتماعية . فقد كان باستطاعة النخبة ، بفضل العلم ، مزاوله المهن الحرة . ولذلك فقد قبل الزنجي في الهيئة الطبية في السنة ١٨٨٩ ، وفي المحاماة في السنة ١٨٨٩ . وقد نجح احياناً في الاعمال فاقتنى المساكن والمقارن التي اجرها بدوره . وبدأت رسالة المربين - واشهرهم « بوكس واشنطن » مؤسس جامعة « توسكيجي » الزنجية - تمطي ثمارها حوالي السنة ١٩٠٠ . ولكن الكثيرين من الزنوج هجروا الارض بحثاً عن الثروة بين البيض في المناطق الاخرى ، فلم تفقد الروح العنصرية شيئاً من حدتها ، بل انتشرت حيثما حلوا . ومهما يكن من الامر فان العالم الاميريكي كان متشعباً بهذا الوجود غير المرغوب فيه والمحتوم معاً ، ولن يستطيع التمالك عن اقتباس « الجاز » الافريقي وعرض ملاكمي العرق المستحقر .

في مجتمعات ارياف البلدان الانكلوساكسونية ، حل محل استثمار

الارض البدائي استثمار واسع حقاً ولكنه مبني الآن على توزيع العمل

توزيعاً مفرطاً . ولكن ما زالت هناك بعض النشاطات الابتدائية

في اواخر القرن .

استثمار الاراضي الجديدة :

من الاشكال البسيطة الى

الاقتصاد التجاري الاكبر

يجب هنا ان نضع جانبا مناطق الاقليم الحار حيث عرف المثال الاستعماري الديمومة وحيث

لم يستغن الأبيض بسهولة عن المساعدة التي وفرها له المليونون . وخير مثل هام على هذه المناطق هو جنوبي الولايات المتحدة . فالاقتصاد المنزلي يؤمن فيها الحاجات اليومية ، بينما يتيح محصولان أو ثلاثة محاصيل أساسية - القطن والتبغ قبل كل شيء - المقايضات مع الخارج . ولن يحدث فيها التحويل الجزئي إلى الصناعة أي تبديل ؛ فذلك لن يزيل فقر فلاحين - بيض وسود على السواء - غير متعلمين ، ومفتقرين إلى رؤوس الأموال وواقعين ابداً تحت رحمة الحصاد السيئ وانخفاض الأسعار .

لم تمارس زراعة الاصناف الكثيرة ، الأوروبية المنشأ ، إلا بين كندا وبنسلفانيا . يضاف إلى ذلك أن تطوراً حدث فيها نحو اقتصاد الألبان والبقول والفاكهة . فظهرت هنا القرية كما عرفها العالم القديم . ولم يلبث المهاجر المستعمر الأميركي أن استهوت مساحات المروج الفيضانية حيث اصلاح الأرض أقل صعوبة منه في المنطقة الحرجية ، وحيث تسهل تربية المواشي وزراعة الحبوب . ولكن ضرر الجفاف في ما وراء الميسيسيبي كان كبيراً جداً .

أما في نصف الكرة الأرضية الآخر فإن جبهة الاستعمار ما لبثت أن بلغت حدود المساحات الجافة الكبرى . فبرز من ثم « المستعمر » الأسترالي الذي مارس عمل الصوف ، وهو العمل المثمر الوحيد ، أخذاً بعين الاعتبار المناخ والحاجة إلى اليد العاملة وطريقة « وايكفيلد » واحتل أعلى السلم الاجتماعي عدد محدود من كبار الملاكين : فقد امتلك أربعة منهم حوالي السنة ١٨٥٠ أقل من توازي مساحته مساحة بلجيكا ، كما امتلك بعضهم بين ٥٠.٠٠٠ و ٧٠.٠٠٠ رأس من المواشي .

قامت في « الراس » فئة من الاشراف الريفيين البريطانيين المنشأ ، نظراء « المستعمرين » الأستراليين ، ولكن لا « فلد » عاد المهاجرين المستعمرين الهولنديين الاصل ، الاقوياء للاعراف البطورية . فالعائلة البويرية لا تقرأ على العموم سوى التوراة ، وتسعى لأن تكفي نفسها بنفسها ، وتضعي بكل شيء من أجل الماشية . إنه لشعب نمطي ، لا يخضع ولا يقهر ، ساذج وكثير آراء سبق الزعم ، معاد للرأسمالي والزنجي اللذين ينازعانه مسالكه وطرقه .

منذ السنة ١٨٦٠ تماظمت مشاريع الاستثمار الحيواني في الولايات المتحدة . فبرز آنذاك « راعي البقر » ، رجل « مناطق الأبقار » ، أي المناطق الواسعة الواقعة وراء الميسيسيبي التي اقتاد مواشيه عبر مسالكها في اتجاه خطوط الطول جامعاً بين حرارة ورطوبة الـ « تكساس » ومراعي « بلات » الصيفية . وبعد أن يسلم حيواناته في إحدى « مدن الأبقار » التي يلمع نجمها ويأفل بسرعة ، كان يقامر ويحتسي الخمر بما ادخره من اجوره ، ويعتمد على مسدسه الذي يحمله ابداً في جيبه لبلص المسافرين وتوقيف وسلب القطارات الحديدية ؛ أما ما أتته فقد دونها كتاب « مشهد الغرب المنوحش » لـ « بوفالو بل » . ثم اضطر المثال الراعي البحث إلى أن يهاجر أبعد إلى الغرب في الجبال الصخرية .

تقدمت الزراعة الكبرى على غيرها من الزراعات تقدماً خاصاً في منطقة المروج الاميركية وفي الـ « اونتاريو » . فقد حدد قانون السنة ١٨٦٢ المساحة التي يتناولها عقد المزارعة بـ ٤٠ الى ٦٠ هكتاراً . الا ان الجزء الاكبر من الارض باعتها اما شركات الخطوط الحديدية واما الولايات والحكومات الاتحادية انصبه اوسع مساحة الى حد بعيد . ولكن محاصيل الارض لم تكن جيدة في اي مكان ؛ فسمى المزارعون بالتميز وراء اختيار الاحسن من النباتات والحيوانات ؛ واتسع نطاق الزراعة في المناطق الجافة بواسطة « الزراعة البعلية » ونشط انتاج الالبان في منطقة جديدة حول البحيرات الكبرى . اما الوادي الكاليفورنية ، التي كانت بورة في الامس ، فقد تحولت الى زراعة الحنطة قبل ان تكتشف انها مدعوة لأن تصبح حديقة غناء .

في اواخر القرن تناول التشريع الاوسترالي مناطق تربية الغنم الواسعة ، ولما تعاظمت حاجات السكان المتزايدين عدداً ، شوهد ، الى جانب المستعمر المستنمر ، المستعمر « المنتقي » الذي تعاظم التجارة ببيع « مزرعته المقفلة » حيناً واستثمرها حيناً آخر ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة قد حاولت تشجيعه بـ « سياسة مائية » انطوت على حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود لآعمال الري . وفي « وايلاز الجديدة » اتاح المناخ المتميز بمزيد من الرطوبة تربية المواشي الكبرى التي يبعث لحومها في مراكز التبريد في الموانئ ، وقيام صناعة ألبان تراقبها السلطات العامة . بيد ان زيلندا الجديدة هي البقعة التي شابهت خير مشابهة دولة اوروبية مثل الدانمارك .

اجل لقد تمتع صاحب المزرعة على العموم برفاهية هي اقرب ما يكون الى الرفاهية البورجوازية . ولكنه كان مضطراً لبيع كل شيء حتى يشتري كل ما يحتاج اليه تقريباً ، فارتكزت موازنته في اغلب الاحيان الى الدين الذي جعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقطاع الرأسمالي . ولذلك فرضت المدينة شريعتهما على هذا المجتمع الريفي بتجبر لم يعرفه العالم القديم نفسه .

لم ترقد الظاهرة العمرانية طابع الاتساع العظيم الا في النصف الثاني من مدينة العالم الجديد القرن التاسع عشر . ففي السنة ١٨٥٠ ما زال ١٩ مليوناً من السكان من اصل ٢٣ ، يعيشون في الارياف . وكانت كافة مدن المناطق الجنوبية متواضعة جداً . اما في السنة ١٩٠٠ فقد عاش في المدن ٣٠ مليوناً اميركياً من اصل ٧٥ ؛ وكان هناك اكثر من ثلاثين مدينة يزيد سكان كل منها على ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ويبلغ مجموع السكان فيها كلها ١٢ مليون نسمة . ومنذ السنة ١٨٧٠ قفز سكان شيكاغو من ٣٠٠ ٠٠٠ الى ١ ٧٠٠ ٠٠٠ ، وتجاوز سكان نيويورك الـ ٣ ملايين وسكان فيلادلفيا المليون . وفي هذا المجال كان التطور متواضعاً في افريقيا الجنوبية ، وناشطاً في كندا ، وسريعاً جداً في استراليا حيث جمعت سيدني وملبورن وادلايد ، في السنة ١٨٩٠ ، ربع مجموع السكان العام ، وحيث ضمت ملبورن وحدها نصف سكان ولاية فكتوريا تقريباً .

فنحن من ثم امام ظاهرة تكاثر المدن الجديدة السريعة النمو . وكانت المدينة ، على الجبهة الاستعمارية ، مجموعة اولية تضم الحانات والكنايس والمدارس ودور البريد لكل تقسيم اداري . فكانت من ثم استجابة لوظيفة المقايضة التي لم تلبث ان فرضت نفسها على اهالي الارياض . ولكن غالباً ما كان المنجم او المصنع سبباً لقيام المدينة . وفي مثل هذه الحال نرى ان اعتماد الاسماء بعيد الفكر الخلاق بقوة الى الذاكرة : بسم ، اتنا ، كرنجي ، مونسن (استن ومونفاهيلا) - حول بتسبورغ ، وايرونتون ، وايرونمونت ، وايرونود في اماكن أخرى . وهناك كذلك عواصم تأسست لايواء المصالح الحكومية والادارية ، كواشنطن مثلاً .

لقد ولّى الزمان الذي كان ممكناً فيه ابتياع « كل مستنقع شيكاغو اللعين » بزواج احذية عتيقة ، كما زعم بعضهم في عهد لاحق . وقد اعطى المثل « جون استور » تاجر الفراء بشرائه بعض الاراضي في نيويورك ؛ فان احد ابنائه ، الذي توفي في السنة ١٨٧٥ ، قد خلف وراءه ثروة تقدر بـ ١٠٠ مليون دولار تشمل من جملة ما تشمل ٧٠٠ عقار على ضفاف نهر هودسن ؛ وفي السنة ١٩١٢ ، اصبح رأس مال آل استور ٤٥٠ مليون دولار بفضل ابتياعات جديدة وارتفاع الدخل العقاري . وفي شيكاغو ارتفع ثمن الـ ١٠٠٠ متر مربع من ٢٠ دولاراً في السنة ١٨٣٠ الى مليون دولار في السنة ١٨٩٢ .

ان في انتساق تقسيم المساحات الواسعة ، المصوغة هندسياً ، ما يفسر التصميم الشبيه برقعة الشطرنج . فالى الشرق من الاطلسي يسير الشارع كما تسمح بذلك المنازل ، لأن تصميمه يفرضه رسم الاملاك غير المنتسقة ؛ اما هنا فالمنزل يشيد على جانب الشارع . وينجم عن ذلك وحدة سياق مفرطة يسترعي الانتباه اليها ترقيم الشوارع . فان كثافة السكان في شيكاغو ، البالغة مساحتها ٤٤٠٠٠ هكتار ، وفي فيلادلفيا البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠ هكتار ، هي ربعها في لندن الاولى وخمسها للثانية .

كانت نتيجة هذا الاتساع المفرط تشتيت المساكن التي كانت على العموم قليلة الارتفاع ومبنية بالقرميد . ولم تظهر الابنية المرتفعة الا بعد السنة ١٨٨٠ في الاحياء التجارية حيث اكتسبت الاراضي قيمة كبيرة جداً ؛ وهكذا انتصبت ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عند رأس مانهاتن في المدينة المنخفضة ، القرية من المرفأ ، زهاء ثلاثين بناء يتراوح عدد طبقاتها بين ١٠ و ٣٠ وقد شيدها بعض الافراد الاثرياء او شركات التأمين او المصارف . وعلى مسافة قريبة من هذه الابنية الشاهقة التي اوتت المخازن والمكاتب ، انبسطت منطقة من المساكن المدخنة والمهمة التي تحلّي عنها تدريجياً للمساكين الفقراء ؛ فكان ان الكوخ الخشبي قد جاور ناطحة السحاب في بعض الاحياء ؛ ثم انبسطت بعد ذلك مدينة صناعية جديدة احاطت بها احياء سكنية . فالقسم الشرقي من المدينة المنخفضة في نيويورك هو حي العمل الشاق ؛ وتكون مركز ثقل الاعمال والسكن في وسط المدينة . فتجاوبت مجموعات مختلفة قطعت مناظرها العامة الخطوط الحديدية

والمؤسسات الصناعية . اما في ادلايد فكانت مدينة العمل ومدينة السكن منفصلتين تحيط بكل منهما الحدائق والرياح . وبدت المدن الاوسترالية من جهة ثانية احسن نظافة وافضل تنظيماً : فقد رصفت شوارعها بالاشخاب ، ولم تكن مساكنها المتشابهة لتظهر الفوارق الاجتماعية ، على نقيض مدن الولايات المتحدة حيث تميزت احياء الاغنياء عن احياء الفقراء تميزاً جافاً . وقد وصف المسافرون باعجاب مساكن الاثرياء الجميلة في بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ؛ وهكذا فان البارون « دي هوبنر » قد دهش حوالي السنة ١٨٧٥ في شيكاغو من « جادة ميشيغان الشهيرة ... » ، حي كبار الاثرياء ، ومساكنها البذخية الزاهية ، الخشبية كلها ، والمسقوفة بالجص ، والمبنية وفاقاً لشق الانماط ، الايطالي ، والكلاسيكي ، والمستحسن ، والقوطي والروماني ، والمحاطة كلها ، اقله من جهة المدخل ، بمحذات جميلة صغرى ... ولكن غبار الصيف واوراح الشتاء كانت آفات حقيقية . فقد لاحظ احدهم ان الجادة الخامسة في نيويورك تكاد لا تفضل غيرها تمهداً وعناية ونظافة ؛ اقدار في كل مكان ؛ وحاجة ماسة في كافة الفصول الى اتعمال احذية من المطاط . اما في كندا ، فقد ذكر احدهم ان الشوارع الوحيدة المرصوفة بالبلاط هي شوارع تورونتو و « وينينغ » . ولكن الانارة افضل منها في المدن الأوروبية ، على ان البواليع ما زالت في حالة سيئة والمياه تنقطع احياناً . ومنذ السنة ١٨٧٨ ، دشنت « بوقالو » تدفئة مركزية بخارية ما لبثت ديترويت ونيويورك ان اعتمدتاها بدورها . وتعددت وسائل الانتقال ، وعلى نقيض المدن الاوسترالية ، الهادئة نسبياً بفضل مركباتها العامة التي تجرها الاحصنة ، اذهلت المدن الاميركية الاجانب بضجيج السير في شوارعها .

تميزت المدن الاميركية كذلك ببرقشة سكانها العنصرية . ففي نيويورك ، كان للايطاليين والاييرلنديين واليهود والزنوج احياءهم الخاصة . ولم تزل « البوتقة » قط هذه الخصوصيات ؛ ولكنها خلقت وازادت الى كل مثال خاص مثلاً اميركياً هو المثال المشترك .

احتلت الولايات المتحدة بين العوالم الانكلوساكسونية حضارة الآلة في الولايات المتحدة
مركزاً خاصاً متفوقاً حقاً . ولم تكن مدينة به للامكانات والاعمال الكبرى الكبرى التي وفرتها البيئة الطبيعية فحسب ، بل لطبيعة شبيهة الخاصة ايضاً . وقد سبق لـ « توكفيل » ولاحظ ان « المصلحة هي الرابطة » الجامعة بين العناصر « المختلفة جداً » التي يتكون منها هذا الشعب . فان هذه الامة ، التي لا ماضي لها والتي لا وثق تشدها الى الارض ، تألفت من جماعة من البشر وضعوا نصب اعينهم الرفاهية المادية التي حققوها بخير الطرائق فعالية . وقد تميزت بقلوب الشباب المقتحم مغامرة كبرى والعامل في كل ما هو جديد .

حضارة جماهيرية ، كما هو محتوم . فالجغرافية نفسها قسمت القارة مناطق واسعة متشابهة . فقابل تشابه الطبيعة تشابه العمل البشري . اضيف الى ذلك من جهة ثانية ان الخيار لم يكن جائزاً .

فاما يحكم هذا المجتمع على نفسه بالاملاق ، واما يقبل بالمنتجات « الموحدة » .

في كنف التعريفات الحامية ، وبفضل مجهود تقني كبير استهدف تخفيض النفقات العامة وزيادة الانتاجية ، وبواسطة الاعلان الذي دها الجماهير بالحاج الى زيادة استهلاكه ، اصبحت اميركا بالتالي بلاد الصناعة النسقية وانتاج القطع القابلة للتبديل . ثم اتضح مكان كل من النشاطات جغرافيا ، بعد ان سهّل تمييزه بناء شبكة خطوط حديدية واسعة جداً . ورافق تجمع رؤوس الاموال انتاج الكميات الكبرى ، بينما تكاثرت الى جانب المشاريع الكبرى وفي ظلمها الحرف المنزلية الصغرى التي تجمعت في حي العمل الشاق .

‘جرت اوروبا شيئاً فشيئاً الى الاستفادة من خدمات الآلة ؛ ولا غرو فان سكان العالم الجديد مدينون لها بكل شيء . فهي التي تزرع الحنطة وتحلج القطن وتقتل الحيوانات في المسلخ وتقطعها . فهم سوف يستلمون منها بملء رضام المواد الغذائية والملابس والاحذية النسقية ، وسوف يأمنونها على بناء منازلهم التي ستكون متشابهة بالضرورة . وهي توفر الكمية وتسهم في الوقت نفسه في تخفيض الاسعار . ان عملها لعمري لعمل استبدادي . ولكنه عمل مفيد في نظر الجماهير التي تطالب بحاجيات تكون في متناول ايديها .

لنتصور انطلاقة الصناعة . لقد ضمت ١٤٠.٠٠٠ مؤسسة في السنة ١٨٦٠ ، و ٣٥٥.٠٠٠ في السنة ١٨٩٠ ، و ٥١٢ الف في السنة ١٩٠٠ ؛ وربما بلغ رأسها ٤٧ ملياراً في السنة ١٨٩٥ ، مقابل ٢١ في بريطانيا العظمى ، و ١٧ في المانيا ، و ١٤ في فرنسا . ومن المسلم به من جهة ثانية ، ان ثروة الولايات المتحدة قد تضاعفت اربع مرات بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٩٠ (في حال ان الدخل قد تضاعف مرتين فقط) . ولم تعرف اية دولة اوروبية مثل هذا التقدم في حقول التجهيز وصناعة مواد الاستهلاك . وان علم الاحصائيات الذي دون هذه النتائج المرضية قد أصبح هو نفسه موضوع عبادة : فقد اخذ الاميركي يقدم الارقام كخير البراهين الثابتة على تفوقه . ووطن نفسه على انه قبل نصيب « الاعظم في العالم » ، وعلل نفسه منذ ذلك الحين بأنه سيتمكن قريباً من ان يكون موطن العالم كله .

الا ان هذه التقنية المتطورة تطوراً دائماً قابلتها منافسة حادة جداً اعتبرت ضرورة حتمية . اجل تقدمت الارستوقراطية بعض التقدم ، ولكن بورجوازية اعمال كبرى نمت في النصف الاول من القرن ، فألفت طبقة منفتحة لأعداد كبرى تتجدد وتزداد ثروة في كل جيل . وقد نال اعجاب الناس « الرجل المكون نفسه بنفسه » : يولد فقيراً ويتصرف ، حين يصبح من اصحاب الملايين ، - وسنكلم قريباً عن اصحاب المليارات - تصرف « النحلة العاملة التي تودع الفقير الصناعي العسل الذي لن يتأخر سكان الفقير ، والمجموع بصورة عامة ، عن الاستفادة منه » . هكذا تكلم « كرنجبي » .

كان اتساع الحقل المفتوح أمام النشاط ، واهمية المشاريع ، وحتى نزعة السكان المسرفين

الى استخدام المصنوعات الموضوعة تحت تصرفهم استخداماً سريعاً ، عوامل مؤاتية كلها لتقدم الاعمال . فأميركا بهذا المضاربات العنيفة والارتفاع المدوخ في الاسعار ؛ فلا عجب من ثم اذا ما تحركت المبادعات ، وتضخم حجم الوسائل النقدية تضخماً فجائياً ، وارتفعت الاسعار ، وارتفعت المكاسب بمزيد من السرعة ايضاً : كل شيء مرجو وجائز كما يبدو . وطبيعي ان مثل هذا الدوار لا يمكن ان يدوم طويلاً : فكما في اوروبا ، لا بل اكثر من اوروبا ، حدثت انهيارات مفعمة ؛ وحدثت بالتالي عملية اختيار طبيعية ، سقط الضعفاء خلالها الى الحضيض ، وتلتها عملية تمكين كانت نقطة الانطلاق لمرحلة صعودية جديدة .

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الحركة السريعة (على الرغم من التبذير الصناعي) تقوية سيطرة رؤوس الاموال الكبرى . فمن أصل ٥١٢ الفاً ، استخدمت ٤٥٤ الف مؤسسة مليون اجير ونصف المليون ؛ ولكن ١٢ الف مؤسسة اخرى ضمت مليونين ونصف المليون : وربما راقب ٢٥ الف شخص نصف الاعمال الصناعية .

لا ريب في أن الحدث الرئيسي كان تقدم الصناعة الثقيلة الفروع الكبرى لعالم الاعمال الاميركي . تقدماً عجيباً نادراً . فمقابل مليوني طن حديد و ٤٠٠ الف طن فولاذ في السنة ١٨٧٥ ، انتجت الولايات المتحدة اكثر من ١٠ ملايين طن حديد و زهاء ٥ ملايين طن فولاذ في السنة ١٨٩٠ ، حين انتزعت الاولوية من بريطانيا العظمى . وقد توفرت لصناعة المعادن هذه موارد نادرة من الوقود والمعادن غير الخالصة . فهناك من جهة استخراج الفحم الحجري الذي ارتفع انتاجه من ٧ ملايين طن في السنة ١٨٥٠ الى ٢٥٠ مليوناً في السنة ١٩٠٠ ؛ ومن جهة اخرى مناجم المعادن غير الخالصة التي احتلت الولايات المتحدة ، بالنسبة اليها ، المركز الاول ايضاً . وقد تفاوت تجمع هذه الاعمال ، فكان في صناعة الفحم الحجري دورته في صناعة النحاس مثلاً التي اشرفت عليها خمس شركات خضعت هي نفسها لسيطرة رأسماليي بوسطن ونيويورك ، او في صناعة القصدير التي اشرف عليها « مور » ، ملك التنك ، بالاشتراك مع « شركة التنك الاميركية » . وهي ارادة روكفلر ما ادارت حقول تجارة النفط ، اذ ان شركة « ستاندرد اويل تراست » قد روجت زهاء ٩٠ بالمائة من هذه المادة في الاسواق . وقامت كذلك مشاريع كبرى في صناعة الفولاذ ؛ وكان كرنجبي على رأس احداها في بتسبورغ ، ودعا الى تأليف تجمع يكون أعظم مشروع عالمي في حقول الفولاذ . وبعد خصام طويل وعسير خضع ثلثا الخطوط الحديدية لسيطرة بعض الفئات التي كان يرعاها « فاندربيلت » ، و « بيري بونت مورغان » ، و « هاريمان » ، و « غولد » ، بينما اخرج « بولن » من مصانعه في شيكاغو اكبر عدد ممكن من مقطورات السكة الحديدية . وترأس غولد كذلك شركة « تلفراف الاتحاد الغربي » التي كادت تحتكر صناعة الاسلاك احتكاراً فعلياً . ووزعت شركة « بل الاميركية للهاتف » ، خلال عشر سنوات ، مليوني دولار تمثل ارباح رأسمال يبلغ ١٠ ملايين دولار ، وقامت بعد انتشار الاضاءة الكهربائية ثلاث قوى اخرى : « ادسون جنرال اليكتريك » ،

و «طومسون - هوستون» ، و «ستنكهوس» . وبدأ «دويون دي نور» عملا واسعا في المواد الكيميائية .

إذا انتجت صناعات الحديد والفولاذ والآلات والادوات الاجهزة التي تحتاج اليها النشاطات الاخرى ، فهي التغذية والمنسوجات ما احتل المركز الاول بالنسبة لقيمة رؤوس الاموال الموظفة . فان صناعة معلبات اللحوم مثلا قد عرفت شركتين او ثلاث شركات كبرى كشركة «ارمور وسويفت» في شيكاغو التي توصلت بفرداها ، في مصانعها الواسعة (٢٥٠ هكتاراً) الى تقطيع وتوزيع بين ١٠ و ١٢ مليون حيوان ، وزادت أرباحها بصناعة المنتجات الثانوية: العظام والقرون للاسدة ، الشحوم للصابون والكليسرين ، والدم للآزرق اليروسي ، وشعر الخنزير للفراشي ، وشعر الثيران للفرش . وبلغ التجمع كذلك شأواً بعيداً في تكرير السكر لمصلحة «شركة تكرير السكر» ، بينما قام «ديوك» بدعاوة ناشطة للفائف التبغ وأسس «شركة التبغ الاميريكي» .

ما زال الشمال الغربي منطقة صناعة النسيج الاولى ، وعلى الرغم من ان «شارع القطنيات» في كارولينا وجورجيا ، القريب من المادة الخام ، قد أخذ ينافس المناطق الاخرى منافسة جدية ، فان «ماساشوستس» و «رود - ايلند» و «كونكتكت» ما زالت متفوقة في هذا المضمار . فان هذه الولايات قد تربعت مع بنسلفانيا على عرش المنسوجات الصوفية ، ولكن «باترسون» هي التي بلغت ، في سنوات قليلة ، مستوى «ليون» و «ميلانو» في صناعة الحرائر . وقد خرجت من مشاغل نيويورك وفيلادلفيا العائلية الوفيرة العدد الالبسة الجاهزة التي تسلمت الى تجار جملة يزودون بها المخازن الكبرى بدورهم ؛ وبرع المهاجر اليهودي في هذا العمل بفضل آلة خياطة انتجها مصنع «اليزابيت» ، فكان يفصل ويشرح ويصنع العمرى ويكوي ، لحساب المخازن الكبرى .

وزادت في الوقت نفسه سرعة التجمع المصرفي . فليس هناك ، خارج الشمال الشرقي ، سوى ١٤٠ مؤسسة من اصل ٢٧٠٠ ، وكانت الحركة المصرفية تصدر عن «وول ستريت» الذي ارتفع مجموع معاملاته المالية الى ٣٥ مليار دولار في السنة ١٨٩٠ . اضيف الى ذلك ان معظم الشركات الصناعية رغبت في ان يكون مركزها في «مانهاتن» حيث يخفق قلب «الاعمال الكبرى» .

ولم يعن كل ذلك ان اميركا اهتمت اهتماما كبيراً لاجراء مقايضاتها الخارجية في ظل علمها الخاص . وقد قال كرنجبي : «فلتترك البحر الهائج للوطن الام القائم في وسط الامواج ولتكتف بالارض التي هي تراثها القومي» ، لذلك كان الاسطول متأخراً متأخراً بينما عن اسطول بريطانيا العظمى : ففي السنة ١٩٠٠ لم يكن محموله نصف ما كان عليه في السنة ١٨٦٠ . زد على ذلك من جهة ثانية ان التجارة مع الخارج قد تماظمت وان الميزان كان دائماً مع اوروبا : فاحتفى الاتحاد بتمرفاته ووسع تجارته مع آسيا واميركا اللاتينية ، فساعد ذلك على نمو كاليفورنيا ومرفأ «سان

فرنسيسكو . ولن تلبث الولايات المتحدة ان تصاب بداء الاستثمار الاقتصادي .

سياسة المصالح الكبرى في
الولايات المتحدة
جاء لانفاز ان يكتب لاحد مراسليه في السنة ١٨٩٢ : « قد قدم
الامير كيون للعالم الاوروي ، منذ زمن غير قريب ، الدليل على
ان الجمهورية البورجوازية هي جمهورية رجال الاعمال ، حيث
السياسة عمل تجاري كغيره ... » ويكاد الامير كيون يعترفون بذلك في الواقع .

قدم كرنجي كتابه ، « الديمقراطية الطافرة » ، للجمهورية العزيزة التي تتيح لاي شخص كان
الارتقاء في السلم الاجتماعي يحده وكده ، وخلص الى القول : « لا تتم التسوية بانزال الناس من
مرتبة الى مرتبة بل برفعهم كلهم الى كرامة » المواطنة « التي هي ارفع كرامة يمكن ان يتوق
اليها الانسان » . لقد ولى الزمان الذي جاز لـ « توكفيل » فيه القول بأن الناس كلهم يسهمون
إسهاماً ناشطاً في الشؤون العامة ؛ فقد ارتفعت نسبة الامتناع عن هذا الاسهام كلما ارتفعت نسبة الملتزمين
الى الطبقات الجديدة من المواطنين المفقرين الى مزيد من الثقافة والى الخبرة في النظام التمثيلي .
ولما كان كل شيء يُرد ، من جهة ثانية ، الى الصراع بين فريقين يعرف اولهما بالفريق الجمهوري
والثاني بالفريق الديمقراطي ، كان من الاهمية بمكان ، قبل أي شيء آخر ، ان يشجع الفريق
الحاكم دائرة المصالح التي يتحرك فيها . فنجم عن ذلك ان المصالح الكبرى هي ما قررت
الاتجاه الحقيقي للتشريع والرئاسة . وصعب من ثم على اعظم الحكام نزاهة الوقوف في وجهها .
ومرد ذلك الى ان الحملات الانتخابية باهظة الاكلاف ، ولا سيما حملات انتخاب الرئيس التي
تستلزم مجهوداً اعلانياً كبيراً جداً . وان مثل « تاماني هول » الزعيم الديمقراطي الايرلندي في
نيويورك ، الذي عمل بنصيحة « تويد » ، تاجر الكراسي المفلس ، واختلس قرابة ٥ مليون دولار
في اعقاب حرب الانفصال ، ليس مثلاً نادراً . فان « غرانت » ، الجندي الطاهر الذليل ، قد
اغضى عن اختلاسات بطانة تتناول عمالاتها من الميئارة ؛ كما ان كليفلند ، الرئيس الديمقراطي
الذي اكسب مدينة « بوفالو » ، بوصفه محافظها ، دعوى على متعهد البواليع ،
وتجاسر ، بوصفه حاكم ولاية نيويورك ، على محاربة « تاماني هول » ، قد انتهى الى إثارة
استياء حزبه الخاص بامتناعه عن تطبيق « مبدأ تقاسم مكاسب الانتصار » على نطاق واسع ،
واستياء التجمعات النقابية التي لم يكن موافقاً على قيامها ؛ ودان خصم كليفلند ، هارسون ،
بنجاحه ، لانتقال الاصوات في ولاية نيويورك الهامة بواسطة حاكمها السريع التأثر بالعموض .

بالاضافة الى الامتيازات وتلزيماات الاشغال الكثيرة التي تسند لاصحاب التعهدات الخاصة -
وهي معارك يومية - ، عادت للاتحاد كذلك المسائل الكبرى الجبركية والنقدية . فكيف
تنظم العلاقات التجارية بالخارج يا ترى ؟ فضل الديمقراطيون تخفيض التعرفة لأنهم لا يستطيعون
الفوز الا بمساندة المزارعين والمستهلكين الذين اعتبروا ان السوق الاميركية المغفلة انها هي سوق
تتسلط عليها الصناعة . اما المسألة النقدية ، وهي مسألة اكثر تعقيداً ، فقد فرق بين رجال
الاعمال الذين طالبوا اما بنقد سليم واما بوفرة النقد التي تحرك الصفقات ، فقال الفريق الاول

باعتقاد المعدن الواحد اساساً للنقد ، وقال الفريق الثاني طوعاً باعتماد المعدنين . وقد ضم هذا الفريق الاخير منتجي الفضة في المناطق القريبة ، والمزارعين ، الدائنين منهم والمصدرين ، الذين كانوا يفضلون التضخم . ثم انضم رجال الاعمال الكبرى الى الفريق القائل باعتماد المعدن الواحد (الذهب) خلال فترة تجدد الازدهار الممتدة من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٠ .

بقيت هنالك مسألة حرية العمل . فحين يتعرض التشريع للتجمع النقابي ، انما يستهدف الدفاع عن الفرد . ولكن انصار التحالفات الصناعية ، بالاضافة الى انكارهم على السلطات العامة حق التدخل في هذا المجال ، تذرعوها بمصلحة المجموع التي تخدم خدمة فضلى بتحسين تنظيم السوق . والحال اجاز العرف للولاية التعاقد مع المؤسسات التي تلعب دور الادارات العامة ، وفي سبيل اجتذاب رؤوس الأموال ، كان باستطاعة المجلس الاستراعي الاجازة لاحدى الشركات بشراء اسهم اية شركة أخرى ، مشجعاً بذلك « الاحتكارات » (وقد اعطت ولاية نيوجرسي المثل في السنة ١٨٨٨ لمصلحة شركة « ستاندرد اويل » المهددة بخطر الافلاس) . وليس « قانون التجارة بين الولايات » الذي استصدره كليفلند في السنة ١٨٨٧ سوى حق التحقيق في التصرفات السيئة المتناقضة وحرية التجارة . الا ان ولايات غربية عدة قد استخدمته ضد شركات الخطوط الحديدية . ولكن « قانون شرمن لمقاومة التجمع النقابي » اسند أمر التقرير للقاضي . ولما كان روكفلر هو المقصود آنذاك ، فقد توصل الى كسب الوقت ووجه في مبدأ « الاحتكار » وسيلة للدوران حول القانون .

شعر سكان المروج منذ عهد مبكر جداً بارتباطهم بالمدينة ، فأثار هذا معارضة المزارعين في
الشعور منذ عهد جاكسون خصومة بين الشرق والغرب . وكان ممكناً
الولايات المتحدة
ان يفكر هذا الاخير بمدّ يده للجنوب الذي يرتكز الى اقتصاد
ريفي ايضاً : وهو تحالف استند اليه ديموقراطيو الساعة الاولى ثم تجدد عقده بين حين وآخر .
ولكن مجتمع « اصحاب المنازل » ، الملاكين المتوسطين ، كان مختلفاً عن مجتمع المزارعين
الجنوبيين . وقد نفر كذلك من التحالف مع طبقة الكادحين في المدن .

وهكذا كلما انفجرت أزمة ، قام الغرب بحركة سريعة الزوال . فبعد حرب الانفصال حدث اختلال بين اسعار المحاصيل الزراعية التي هبطت واسعار المنتجات الصناعية التي ارتفعت . فاعلن المسؤولون في احدى الجمعيات المعروفة باسم « النبر » انهم اعتمدوا النظام التعاوني وحلوا احد عشر مجلساً استراتيجياً في الولايات على استصدار « قوانين نبرية » ضد التعريفات التفضيلية او التمييزية التي وضعتها شركات الخطوط الحديدية . ثم تعاضلت هذه الحركة في فترة انخفاض الاسعار الكبير الذي عقب ازمة السنة ١٨٧٣ واصاب القطاع الريفي بصورة خاصة . وقد بلغ عدد « التبريين » ١٥٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٨٧٥ ، لا بل انضم شطر منهم الى « الاتحاد القومي للعمل » بغية انجاح برنامج تضخمي ، وهو برنامج الاوراق النقدية . ثم رافق تجدد الازدهار في السنة ١٨٧٩ هدوء وقتي . وانما لوحظت منذ السنة ١٨٨٣ معاودة الهييجان بادارة « التحالف

القومي للمزارعين». فقد ارتسمت مرة أخرى حركة شعبية تقدمت بمرشح للانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٩٢. أما في السنة ١٨٩٦ فقد انضم المزارعون إلى «براين» المرشح الديمقراطي وخسروا معه معركة أعادت إلى الحكم لمدة طويلة الجمهوريين القائلين باعتماد المعدن الواحد، المقربين لأرباب الأعمال الكبرى. وسيستفيد الجمهوريون هؤلاء من عودة السنوات الحيرة. وقد أوصى كتاب «هنري جورج»، «تقدم وإملاق»، الذي صدر في السنة ١٨٧٩، بالصراع ضد التدخل العقاري بواسطة الضرائب التصاعدية: فلم تحدث هذه الاشتراكية الزراعية سوى صدى ضعيف.

بات عمال الولايات المتحدة إحدى أكبر الطبقات العاملة العامل الامبركي
رئاسة النقابية في الولايات المتحدة
عدداً في العالم. ولكن أميركا كانت قد عانت لمدة طويلة من حاجة حقيقية إلى اليد العاملة بسبب ضخامة الأعمال
الواجبة التنفيذ: فتألفت من ثم طبقة أولى، «يانكية» جداً، متمسكة بالحرية الفردية وغير قابلة للتأثر بالمذاهب المختلفة، ومتقاضية أجوراً على بعض الارتفاع. وفي الواقع كانت لجاذب هذا الارتفاع اثره الكبير في الهجرة الواسعة التي حدثت في منتصف القرن. ولكن طبقات جديدة برزت، متميزة بالفقر والامية والبعد عن كل رأي سياسي. وهي هذه العناصر التي قامت بالأعمال الصعبة أداء أجور متدنية وغذت حيي العمل الشاق». وفي السنة ١٨٨٠ بلغت نسبة اليد العاملة النسائية ٢١٪ - وهي أعظم ارتفاعاً إلى حد بعيد في صناعة المنسوجات - وضمت الصناعة ١٧٠٠٠٠٠ في ثغراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة (١٨٪). وقد روت «الأم»، «جوز» المناضلة النقابية، أن «معدل ساعات العمل في مناجم الفحم الحجري في بنسلفانيا كان ١٢ و ١٣ ساعة، أو ١٤ ساعة أحياناً»؛ «وان لا قانون يحمي جسم عسكالم المناجم أو حياتهم. وان العائلات تعيش في مساكن الشركة الحفيرة التي قد لا تقبل بها الخنازير نفسها. وان مئات الاولاد يموتون بسبب جهل وفقر آبائهم». وقد بينت الاحصاءات ان العمال كانوا يعملون ستين ساعة في الاسبوع في السنة ١٨٥٠، وستا وستين في السنة ١٨٦٠، وتسعاً وخمسين فقط في السنة ١٨٩٠ (بيتا ارغم المياومون الزراعيون على العمل بين سبعين واثنين وسبعين ساعة). ولفت انظار كافة المراقبين ارتفاع عدد حوادث العمل. فقد ورد في «مذكرات» «جول هوريه». «انها لمذابيح دائمة. لا يتخذ اي احتياطات للمحافظة على حياة العمال؛ ولما كانت الشركات كلبية الاقتدار، والمحاكم واقمة تحت سيطرتها، والقانون نفسه مسخرأ لخدمتها لم تعر الامر اي اهتمام». وسوف يسجل «استون سنكلير»، في الفترة الممتدة من السنة ١٩٠١ حتى السنة ١٩٠٤، ١١ ألف وفاة و ٢٥٠ ألف اصابة بحروق مختلفة. واذا ما نظرتنا الى مجموع الفترة ١٨٥٠ - ١٩٠٠، لتبين لنا ان معدل الاحود لم يرتفع بسببة ارتفاع الانتاج والارباح. فقد حدث ارتفاع يسي ان حرب الاله صدل عقبه بعض التوقف؛ لا بل تيز الة فقدان ١٨٧٠ - ١٨٨٠ و ١٨٩٠ - ١٩٠٠ بتدني القيمة الاسمية، اذ ان العامل لم يشمر بالضيق نفسه خسلال

العقد ١٨٨٠ - ١٩٠٠ بسبب هبوط الاسعار الزراعية . وكانت الاجور في الغرب ، المفتقر الى اليد العاملة ، اعلى منها في الجنوب بنسبة كبرى ؛ كما ان اجور عمال صناعة المعادن كانت اعلى من اجور عمال صناعة المنسوجات ؛ وربما بلغ الفرق بين اجور العمال الزراعيين واجور العمال الاختصاصيين نسبة ١ الى ١٠ .

يبدو ان اجر العامل الاختصاصي كان اعلى من اجر اي عامل ماهر في أوروبا^(١) . ولما كان المأكل والملبس اقل ارهاقاً لموازنة المائلات العالية ، فقد خصص للسكن مبلغ اكبر (ويقدر ان ١٢٪ كان لهم بيوتهم الخاصة مقابل ١٪ في أوروبا) . ولكن المسكن اختلف اختلافاً كبيراً بين مدينة واخرى : فقد اشتهرت بلتيمور وفيلادلفيا بسعة العيش فيها (ويقدر ان بين ٩ و ١٧٪ من البيوت العمالية كانت مزودة بغرف للاستحمام) ، على نقيض نيويورك التي كانت مساكنها متوسطة ، و « اورليان الجديدة » التي كانت تعتبر غير صحية اطلاقاً . وبصورة عامة لم يدخر العامل شيئاً من اجوره ، بل انفقها كلها يومياً وربما لجأ الى الاستدانة .

ان البيئة تميز القناعة بان حظ كل انسان في متناول يده : وقد ابدى انغلز في رسالة يعود تاريخها الى السنة ١٨٩٢ هذه الملاحظة : « يتصور العامل الاميركي ان المجتمع البورجوازي هو ، بطبيعته ، وفي كل زمان ، تقدمي ومتفوق ولا يماو عليه مجتمع . لا يفكر بالدفاع عن وضعه الا في نطاق عمله ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالنشاط السياسي . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان السلطات العامة تقدم لارباب العمل مساعدة فعالة : فالشرطة الاميركية تتدخل بقوة ، وحتى بوحشية احياناً ، والجيش يساندها اذا ما مست الحاجة الى ذلك . واذا ما تسريت الفوضوية الى داخل الحركة العمالية ، فان هذه الحركة لا تتأثر بالدعاوة الاشتراكية .

لقد قامت قبل السنة ١٨٤٨ حركة مطالبة بالحقوق ارتدت طابعاً نقابياً وتعاونياً . ثم ظهرت مرة اخرى « الاتحادات عمال التجارة » اثناء الحرب الاهلية وطالبت بان تحدد ساعات العمل في اليوم بشان واربعين ساعة . وتبنى « الاتحاد القومي » هذه المطالبة في برنامجه للسنة ١٨٦٦ ؛ ووقف كذلك موقفاً ايجابياً من التعاون وموقفاً سلبياً من التضخم ؛ ورغب في تحسين مصير الزوج وتحرير المرأة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الهيجان طالما تجدد خلال « العهد المذهب » الذي عمت فيه الرشوة وتكاثرت الفضائح المالية ؛ ولكنه استمر كذلك خلال فترة الهبوط التي عقت ازمة السنة ١٨٧٣ بسبب توسع البطالة وتدني الاجور تدنياً نسبياً . وبينما لجأت بعض الجمعيات السرية ، كجمعية « مولي ماغواير » ، الى اعمال الارهاب في منطقة المناجم في بنسلفانيا ، انفجرت اضطرابات كثيرة كان اعظمها دويبا اضراب عمال السكك الحديدية في بلتيمور وبتسبورغ في السنة ١٨٧٧ : ادخل المضربون مئات القاطرات الى مستودعاتها في بتسبورغ ، فأشمل فيها النسير ان بعض العملاء المحرضين ودمروها تدميراً تاماً ؛ وعلى الرغم من

(١) راجع الرسم البياني في الصفحة ٣٠١ .

اغضاء قوى الامن عن العمال ، كانت الكلمة الاخيرة للشركة التي صرفت العديد من المستخدمين واستبدلتهم بمهاجرين من اوروبا الوسطى .

في اعقاب هذا الفشل ، ظهرت « جمعية فرسان العمل » ، المنظمة التي كانت سرية من ذي قبل ، فأوصت بانهاض الطبقة العمالية عن طريق التربية والعمل على السواء . وبعد ان كانت اعضاؤها متدينين ومسالين جداً ، اصبحوا اشد ميلاً الى الكفاح تحت تأثير الاحداث . وقد تعاطف نفوذهم حين استحصلوا من « غولد » على اعادة استخدام عمال مصروفين بسبب انقطاعهم عن العمل . وفي السنة ١٨٨٦ كان عددهم قد بلغ اكثر من ٧٠٠ ألف ، ويقال ان مشايخهم بلغوا الملايين . فأجاب ارباب العمل على الاضرابات التي تجددت وتكاثرت مرة اخرى بالصرف المؤقت . وحين حدثت بعض الاضرابات في مؤسسة « ماك كورميك » في شيكاغو بتأثير دعاوة القوضيين^١ ، اتهم عدة مسؤولين في الجمعية باثارتها وادينوا .

برز حينذاك بدوره الاتحاد الاميركي للعمل الذي اقترح اقامة مظاهرة في اول ايار من السنة ١٨٨٦ للمطالبة بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات . وقد رغبت هذه الجمعية الجديدة ، التي امتدت قروعا الى كندا ، في تنمية نقابية على اساس المهنة ورفضت بحزم فكرة الصراع الطبقي ، كما رغبت في مفاوضة ارباب العمل في تحسين وضع العمال تحسينا تدريجياً . ففازت بالساعات الثماني للنجارين ، ولكن اضراباً اعلن في مصانع كرنجي للفولاذ في « هومستد » وقع بالقوة : فصرف ٢٥٠٠ عامل لانضمامهم الى الاتحاد المحلي ، فأتاح هذا النجاح للملك الفولاذ العظيم تطهير كافة المؤسسات التي كان يشرف عليها . وبعد مرور سنتين ، رفض الاتحاد مساندة اضراب اعلن في مؤسسة « بولن » في شيكاغو ، فأعادت قوى الامن النظام الى نصابه . يضاف الى ذلك ان ردة فعل ارباب العمل ستشتد بعد تحسن الاحوال الذي ارتسمت دلائله منذ السنة ١٨٩٥ .

في بريطانيا خرج حزب العمال من اتحاد عمال التجارة ؛ اما في الولايات المتحدة فليس بعد ما ينسب بترعرع اشتراكية ، حتى « بدون عقيدة » . وقد لفت الانتباه في السنة ١٨٩٢ ان مرشح اوساط المزارعين قد جمع مليون صوت وان الاشتراكي « دبس » لم يجمع سوى ٢١٠٠٠ .

فهل يجب علينا مشاطرة العالم الاقتصادي « سومبار » رأيه القائل ان مثل هذه الحركة السياسية تتحطم على « شواء البقر » ؟

ولدت في المجتمع الاوسترالي اشتراكية « بدون عقيدة » بتأثير فاتحة الحركة العمالية
ظروف خاصة . فمنذ عهد مبكر ، رأى جازار الصوف ، وعمال في اوستراليا
احواض السفن الذين يشحنون البالات ، وعمال البناء ، انفسهم في موقف ملائم للمطالبة بحقوقهم بنجاح . ولما كانت الدولة متولية اعمال فتح الطرق وبناء الخطوط

الحديدية والمدارس والمستشفيات، فقد أصبحت احد ارباب العمل الرئيسيين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ديون الجماعة ارتفعت ارتفاعاً سيفضي بالضرورة الى فرض الرسوم على الثروة المهدوة والدخول : وقد عزز ذلك مركز اصحاب الاجور الذين يتعذر بدون مساندتهم تطبيق مثل هذه الرسوم .

بعد السنة ١٨٥٠ حددت ساعات العمل في اليوم بثماني ساعات . ثم اعترف بالنقابية قانونياً . لا بل جعلت الحكومة الديوزيلندية من نفسها مؤمنة على الحياة وألزمت ارباب العمل بالاعتراف بمسؤولياتهم حين يتعاقدون مع النساء والفتيان .

الا ان الفشل الذي انتهى اليه اضراب كبير في السنة ١٨٩٠ ، بينما اعطت هذه الطبقة المالية مثل التضامن الفاعل بمساندتها عمال احواض السفن اللندنيين ، وتجه الاتحادات عمال التجارة شطر النشاط السياسي ، فتألفت احزاب عمالية تحالفت مع الجناح التقدمي في احزاب الاحرار . فكان ذلك نقطة انطلاق اشتراكية برلمانية شبيهة بالاشتراكية البريطانية ، وبعيدة مثلها عن كل برنامج ثوري . وكان هما الاكبر وقف هجرة الملونين بغية الدفاع عن الاجور المرتفعة .

كانت اميركا الوطن المختار والمبارك للشيوع الدينية . ويصح

الايماث والثقافة عند الشعوب

هذا القول كذلك في البلدان الانكلوساكسونية الاخرى

الانكلوساكسونية الجديدة

في ما وراء البحار . فان الكاثوليكية لم تتجانس مع اي

شعب ، وفي اي مكان ، تجانسها مع سكان كندا الناطقين باللغة الفرنسية ؛ وبلغ عدد اتباع الكنيسة الرومانية في الولايات المتحدة في السنة ١٨٩٠ عشرة ملايين مؤمن ساعدوها على تشييد اكثر من ٨٠٠٠ بناء للعبادة . وهذبت البروتستانتية العقول بقوة كذلك في كنائسها التي لا يحصى لها عدد . وقال البناؤون الاحرار بوجود الله والدين الطبيعي وانكروا الوحي ، واحتلوا مراكز قوية . وكان لمذهبي التصوف والروحانية اتباع كثيرون . وتأثرت الطوائف اليهودية ، التي تعززت تعززاً كبيراً بهجرة اواخر القرن الواسعة النطاق ، بمذهب الاصلاح السياسي الذي قال به الحاخام « وايز » وبالنداءات من اجل اصلاح صهيوني . وبلغت الانتباه كذلك نجاح منظمات من امثال منظمة « جيش الخلاص » (وذلك بعد ان انتصرت الرغبة في الكمال على الصوفية الرمزية الفامضة القديمة) . وقد شاهد « بيير لروا - بوليو » ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، تطوافاتها التي كانت تنضم اليها جماهير غفيرة « في كافة مناطق البحث عن الذهب في العالم » في « كريبل كريك » في الجبال الصخرية ، و « كولفارد » في الغرب الاوسترالي ، و « جوهنسبيرغ » في الترانسفال . ويعتبر « اندريه سيفريد » انها « اسهمت اسهاماً كبيراً في طبع مدن (زيلندا الجديدة) بذاك الطابع التدبيني الذي يميزها » . والمقصود هنا هو الايمان العملي المطابق للتصميم على العمل في هذه الدنيا . وهو لم يدفع قط الى المحادلات اللاهوتية . ولم يفلح في معالجة عدم استقرار العائلة معالجة ناجحة ، وانما طلب منه توفير الخير والاطار لنشاط يستهدف

مقاومة الرذيلة والبؤس . وقد تولى هذه المهمة بصورة خاصة ، بالإضافة الى « جيش الخلاص » ، بعض الجماعات من الشبان : جمعية الشبان المسيحيين ، جمعية الشابات المسيحيات ، جمعية الشبان الكاثوليك .

تعهد هذه الطوائف مؤمنوها فلم تشعر بحاجة لطلب حماية الدولة . وعملت في مناخ حرية نادرة . واعتمدت الطرائق الاعلانية نفسها التي تعتمدها المؤسسات التجارية . واوصت بخدماتها لأجل خلاص النفوس كما يوصي رجال القانون بخدماتهم من أجل الطلاق . وقد اجريت تسويات مختلفة من أجل طبع المدرسة بطابع ديني : فرجعت في الولايات المتحدة كفة التعليم « العلماني » ، بينما اسندت كل ولاية من ولايات كندا امر تنظيم التعليم الى لجتين مختلفتين ، لجنة بروتستانتية واخرى كاثوليكية . ولم يكن باستطاعة المواطن الا ان يختار بين العبادات الماثلة امامه . وقد حظر عدد من ولايات الاتحاد كل عمل في يوم السبت ، وكان هذا الحظر مشدداً في كافة المحماء اوستراليا وزيلندا الجديدة . واقرت بعض المجالس الاشتراكية في الولايات المتحدة مبدأ تنافي شغل وظيفة عامة وعدم التقيد بالمبادئ الدينية . وحدث احياناً ان اعفيت املاك الكنائس غير المنقولة من الضرائب . اما رجال السياسة فغالباً ما التمسوا حماية الاله الكلي القدرة ، وحدث في السنة ١٨٩٦ ان حكومة « وايلاز الجديدة » الراديكالية تولست اليه بالحاح وخضوع ان يمن على البلاد بالمطر . وساند رجال المال والصناعة المؤسسات الدينية التقوية . وجامروا بان الاتحاد وحتى اللامبالاة منافيان للاخلاق . وهكذا فان « بيرونت مورغان » ، المساهم الرئيسي في اوبرا « متروبوليتان » في نيويورك ، قد منع التمثيليات التي اعتبرها متنافية والاخلاق الحميدة . وفي السنة ١٨٧٩ حكمت محكمة الجنايات في الولايات المتحدة على الصحافي « بنت » بالاشغال الشاقة لمدة ١٣ شهراً بسبب مقالاته المناهضة للدين ، وقد رفض « هابس » ، رئيس المحكمة ، تخفيض العقوبة . وفي ناكالا ، انتقد الاسقف الانجليكاني « كولنسو » بعض فقر الكتب المقدسة ، وكان بذلك سبب زلّة للؤمنين ، فتحتمست كنيسة جنوبي افريقيا اكثر من كنيسة انكلترا في المطالبة بعزله في السنة ١٨٦٣ .

كان المدرس خاضعاً لاشراف الهيئة الانتخابية المحلية ، وكان يختار من المنطقة نفسها ويتلقى دروسه فيها ، ولكنه غالباً ما شكك من مركب نقص ولقن المبادئ التي يقرها المجتمع . وحوالي السنة ١٨٩٠ بلغ عدد المعلمين الابتدائيين المتخرجين من دور المعلمين في بنسلفانيا ١٥٠٠ فقط من اصل ٢٠٠٠٠ . وفي السنة ١٨٧٠ - كما اقر بذلك « كرنجي » - كانت نسبة الاميين ١٦٪ من المواطنين الاميركيين ، واذا تدنت هذه النسبة ، بعد مرور عشرين سنة ، الى ٧٪ لمواليد اميركا ، فانها ما زالت ١٣٪ للمهاجرين و ٥٦ بالمئة للزوج . وبينما وفرت زيلندا الجديدة بفضل الدولة ، العلم ١٣٠٠٠٠٠ ولد من ابناء السكان البالغ عددهم ٧٠٠٠٠٠٠ نسمة ، فان الترانسفال لم توفره الا ٨٠٠٠٠ ولد من ابناء سكانها البالغين مليون نسمة تقريباً . وكانت بعض الشيع قد اسست الدور الجامعية الاولى في الولايات المتحدة : هارفارد ويال . ثم اسست الولايات

بعض الدور الأخرى . ولكن اصحاب الملايين هم الذين لعبوا دوراً هاماً في هذا المجال : « بيدي » في نيويورك ، و « هويكنز » في بلتي مور ، وهنالك جامعة تعرف باسم « جامعة فاندربيلت » ، وقد انقذ روكفلر جامعة شيكاغو بنحو ١٢ مليون دولار ، بينما كرّس كرنجى مبلغاً مماثلاً لتأسيس معهد للأبحاث العلمية .

لم تكن الأخلاق الديمقراطية لتتنافى ووجود بعض الفئات المغفلة . فقد كان منها ست في بوسطن . وكان ظرفاء نيويورك يجتمعون في « سومرست » او في « نيكر بوكر » . ولكن الاميركي ، فقيراً كان أم غنياً ، لم يقرأ كثيراً : فقد كانت تكفيه الصحيفة التي توفر له بانتظام الاخبار المؤثرة والاخبار المتفرقة وتحمل على التقيد بالمبادئ السليمة . وقد لوحظ ان الطلاق كان اسهل منه في اي مكان آخر (طلاق من كل ١٥ زواجا مقابل طلاق من كل ٣٠٠ في انكلترا) ، وبدت المفاصلة وكأنها نظام معمول به . يضاف الى ذلك ان كافة هذه المجتمعات المدنية قد شعرت بحاجة ملحة الى الألهي : فشغفت اميركا بمبارزات الملاكمة ؛ واوستراليا وزيلندا الجديدة بلعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم وسباق الجياد .

اذا افترضت الحركة الادبية زمناً طويلاً الى صفات ذاتية مميزة في دول الامبراطورية البريطانية ، حيث تمتع المؤلفون الانكليزي بنفوذ فعلي (كان لكندا وحدها مدارسها التي عبرت باللغتين عن فكر محلي خاص) ، فلا نزاع في ان الادب الاميركي قد لمع بنضارة الشعر ، ورقة التحليل السيكولوجي ، والحياة النابضة في وصف البيئة . فبرزت بين الادباء مواهب كبرى انتجت الكثير من المحاولات والقصص والروايات البالغة الأهمية .

ما كانت الولايات المتحدة من قبل لتجمل الرومنطيقية التي كان من شأن طبيعتها البكر ان تحرك اندفاعاتها . ثم جاءت الحرب الاهلية التي عظمها « وولت ويتمن » كامتحن مخصاب : « شاهدت البرق الحقيقي . شاهدت مدني الكهربائية . عشت لكي أرى ظهور الانسان وبقطة اميركا الهاربة » . اجل لقد قام ، منذ السنة ١٨٧٠ ، من يشكو من عيوب مجتمع الاعمال والاطراف السياسية : وكان الغرب قاسياً ابداً حين شكوا منها . وانما يجب انتظار السنة ١٨٩٠ حتى تيط الواقعية الستار حقاً عن المفاصد ؛ وعلى الرغم من ذلك فان « كراين » قد تمثر في فضيحة مع « ماغي » احدي « بنات الشوارع » ؛ ولكن « مارك توين » اكتر من رغبوه بمحاكمة معاصريه بلغة ماجنة وبلاستهزاء بالتعابير الأوروبية القديمة المبتذلة . وسوف تبرز الطبيعة في عهد متأخر معنى القصة التشاؤمي في مؤلفات « درايزر » الذي سيشدد على التسلط الجنسي . فبقي ان فردية العالم الجديد النفعية قد ارتضت بنظريات سبنسر و « وليم جاييس » . استقبل الاول بحماس في السنة ١٨٨٢ ، ووجد صدى عظيماً لدى رأي عام متفائل حقاً ؛ فدعا هذا الرأي العام الى التسليم بأن الحرية ومذهب الارتقاء يتزاوران ويولدان التقدم . اما الثاني فقد نادى بالحاجة الى بذل الجهود ، ومثل الحقيقة بالنجاح ، وأكد ان « الدين يتصل بالحياة » وربط بين صحة الاخلاق وصحة الجسد ، واقترح مذهباً عملياً مطابقاً لمقاصد شعب مولع

بـالابتكارات العملية .

اما بصدد الحاجات الفنية ، فقد اراثت هذه الشعوب الجديدة ، دونما خجل ، ارضاءها باقتباس افكار اوروبا وحتى منجزاتها . فقبل السنة ١٨٦٠ شقت اميركا بالمعبد اليوناني ، فشيدت الكثير من الدور الحكومية ذات الاعمدة والمزارع ذات المثلثات في أعلى مقدمتها ؛ ثم اهتمت الى النمط القوطي وأضافت بمض التفاصيل الاوسطية الى ابنية مربعة الشكل . وكل من توفر له المال اللازم اراد ، حوالي السنة ١٨٨٠ ، اقتناء مسكن على نمط مسكن « هوسمن » ، او قصر على نمط الحمراء ، او بيت خشبي على نمط البيوت السويسرية . ومع اعجابه بالروائع الاوروبية فقد نصح « ويتن » بعدم تقليدها ، وفي نظر رجل الشارع ما كانت كنيسة القديس بطرس في روما لتوازي الكابيتول في واشنطن . ولكن ذلك لم يمنع « هانت » من اعادة بناء بيت « كورنيلوس فاندريلت » على النمط الايطالي مضيفاً اليه قفص سلم قد يتسع لمحطة سكة حديدية . وكان « فرانك لويد رايت » احد الاوائل الذين ابتكروا اشكالا جديدة ، واضحة ومتناسقة ، لا سيما في بوقالو وشيكاغو .

وبنت اميركا هذه نفسها مسارح فسيحة ، ولكنها لم تتوفق الى اعطائها الزوج . وحين نزلت « راشيل » الى البر الاميركي في السنة ١٨٥٥ ، اهتزت نيويورك كلها حبوراً ، وعرضت حلويات ومخدرات وسجائر وقبعات ليلية حملتها اسم راشيل ؛ وفي اورليان الجديدة طلع صاحب احد المقاهي الحاملة اسم راشيل بشراب (« بوتش ») راشيل . وصفق رواد الحفلات الموسيقية لموسيقى الكلاسيكيين والرومنطيين بينما فضلت الجماهير المهزلة الموسيقية المليئة بالحوادث المؤثرة المعقدة .

لم تتمثل الفنون التصويرية بأسماء كثيرة : فـ « هويستلر » هو الاسم اللامع الوحيد بين رسامين كثيرين لم تنقصهم الموهبة ؛ ولكن ليس هناك من مدرسة جديدة حقيقية .

وجملة القول ان هذه الشعوب الانكلوساكسونية الفنية قد تفرغت بحب تفضيلي للنشاطات التي تنيع لها احكام السيطرة على الفضاء والمادة ؛ وقد بحثت اول ما بحثت عن البهجة في الحركة ؛ واناطت فخرها بفتح القارات وتحقيق الرفاهية المادية .

الفصل الثالث

الأيام الصعبة في أميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال

اختلفت أميركا ، المعروفة عموماً باللاتينية ، اختلافاً عميقاً عن أميركا الانكلوساكسونية . فكانت لها حضارة خاصة أقدم عهداً . وكان سكانها يقدرّون بـ ١٩ مليون نسمة في أوائل القرن التاسع عشر ، فكانت هي من ثم متقدمة من حيث الأعمار ؛ ولكن معظم سكانها كانوا منتسبين إلى الأعراق الملونة ، وكان البيض منذئذ أكثر منهم عدداً في الولايات المتحدة . فلنقابل الآن إحصاءات أواخر القرن : إنها تشير إلى أكثر من ٨٠ مليوناً في القسم الشمالي من العالم الجديد ، وهو أصغر مساحة بصورة ظاهرة ، بينما لا تشير إلا إلى ٦٣ مليوناً في القسمين الأوسط والجنوبي من هذه القارة . فالزيادة من ثم كانت أقل منها في أميركا الشمالية . وعلى الرغم من أن الزيادة بلغت ٧٣ بالمائة بين السنة ١٨٠٠ والسنة ١٨٥٠ ، و ٩٢ بالمائة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ ، مما رفع معدل الكثافة من ١ إلى ٣٤ في الكيلومتر المربع ، فليس أمامنا بعد سوى نسبة عددية طفيفة من مجموع سكان العالم : ٤ بالمائة بدلاً من ٢٤٥ (١) .

انطوى التوزيع من جهة ثانية على مضادات تلفت الانتباه . فقد احصى ١٥ مليوناً في البرازيل التي لم تتجاوز كثافة سكانها العامة ١٤٧ ؛ ولكن إذا هبطت هذه الكثافة إلى ٤٠٠ في « ماتوغروسو » و ٤٠٠ في « أمازونيا » ، فإنها ارتفعت إلى ٣١٢ في منطقة « ريو » . وقد بلغت ٥٣ في « سان سلفادور » ، و ٤ فقط في نيكاراغوا المجاورة . وكانت نسبة السكان في الانتيل ، بصورة عامة ، ارفع منها إلى حد بعيد في القارة القريبة .

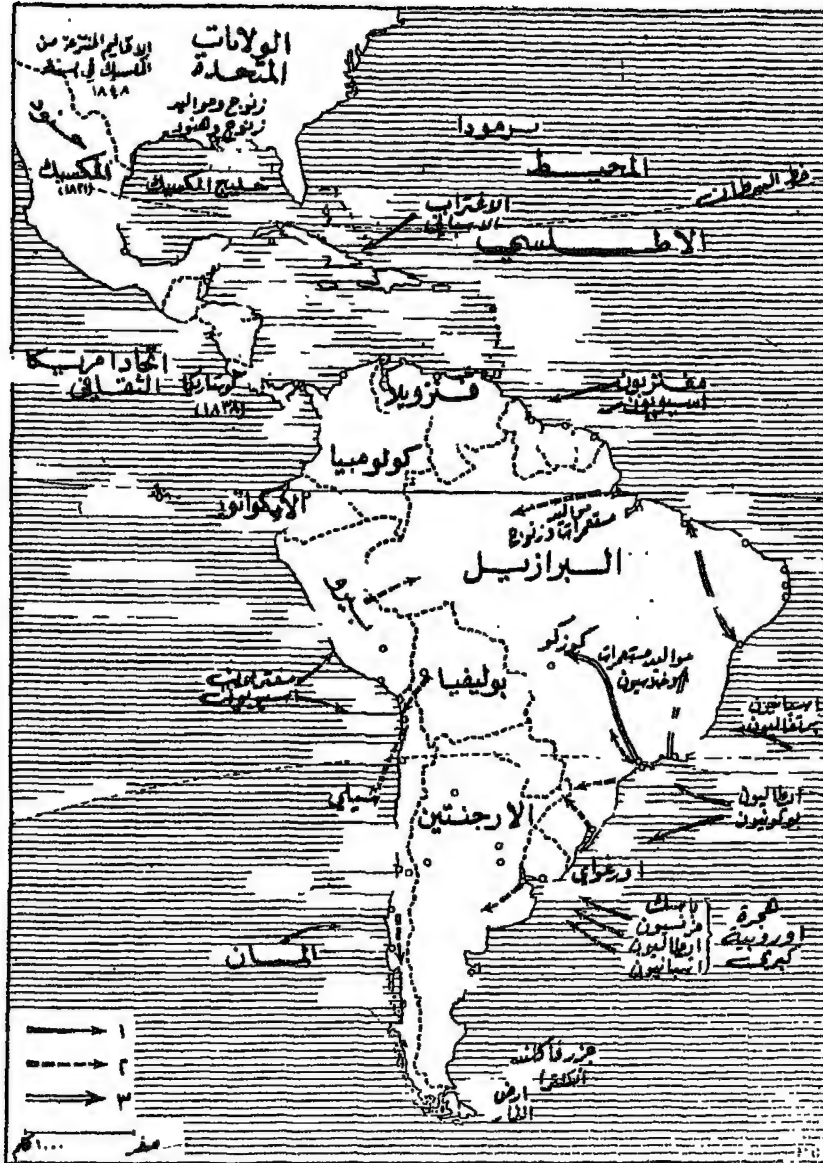
(١) راجع البيان في الصفحة ١٥٥ .

ربما كان باستطاعتنا ان نمزو هذا التدني الى وضع البلاد بالنسبة لحظ الاستواء . فنسبة الولادات مرتفعة (٤٠ الى ٥٠ بالمائة في البرازيل) ، ولكن نسبة الوفيات مرتفعة جداً ايضاً . ومرد ذلك الى ان المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان هي حرم الهواء الاصفر (د الهواء الاسود ، الذي فتك بـ ٢٨ الف ضحية في البرازيل بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥) . كما يرد كذلك الى ان الاجية والزحار تسلطاً على الاراضي المنخفضة والحارة قرب الشواطئ ، وان الجديري والتيفوس قد عاثا فساداً في الهضاب المرتفعة . فالمنطق الجنوبية وحدها هي ما استهوى الاوروبيين ؛ ولكن الهجرة لم تتجه الا في عهد متأخر شطر هذه المنطقة الجنوبية النائية .

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة
الاوروبية الجديدة
خلفاً لما حدث في اميركا الشالية ، لم يتغلب المرق الابيض قط على المرق الاميركي بمصر المعنى - وقد اقترح بعضهم تسميته بالمرق الاميركي الهندي او الهندي الاميركي - الذي دافع عن نفسه بفضل المناخ والبيئة والمدد. وهكذا فقد ألف الهندي قوام سكان بوليفيا والبيرو لانه يتحمل الـ « بونيا » أو داء الجبال الاندية العالية ، اكثر من البيض . ولكن الاوروبي توفى في كل مكان الى اخضاعه لسيطرته . وقد تحقق اخضاع اميركا الحمراء هذا على مرحلتين : قوت « فاتحو » القرن السادس عشر امبراطوريات الهضاب الاندية ؛ واضطر سكان المنطقة المعتدلة ، الـ « شاروا » في الاوروغواي والـ « آروكان » في « شيلي » ، الى الانحناء بدورهم خلال القرن التاسع عشر . وتأسست كذلك في هذه الاثناء ، بواسطة النخاسة ، ولمصلحة البيض ، اميركا السوداء .

كان عدد مواليد المستعمرات ٣ ملايين فقط حوالي السنة ١٨٠٠ . وكانوا مصممين على الحلول محل اسبانيا والبرتغال. وعلى غرار ما حدث في فرجينيا ، لم تكن الحرية ، في رأيهم ، الغاء الاعمال الشاقة والرق . ولكنهم خلصوا من قراءة الفلاسفة الى العزم على انتزاع الاملاك الاكليروس والحد من امتيازاته . والسبب في ذلك ان ممتلكات الكنيسة كانت على جانب كبير من الاهمية : فهي قد شملت ، في المكسيك مثلاً ، نصف المساحات المستثمرة . وقد فرضت صفة الاملاك الوقفية وجود الكنيسة في كل مكان .

وعرفت الديمومة الاملاك المملانية الكبرى كذلك خلال القرن التاسع عشر . فحوالي السنة ١٨٨٠ كان لا يزال في المكسيك بين ١٠ و ١٠٠ آلاف مشروع استثماري ، ولكن مساحة بعض المزارع الكبرى قد بلغت ٦٠ وحتى ١٠٠ الف هكتار ، وقاربت نسبة الريفيين المحرومين من الاراضي ٩٥ بالمائة . ومن مواليد المستعمرات الـ ٣٠٠ الف في الشيلي ، امثلت ٣٠ الف كافة الاراضي الزراعية تقريباً ، و ٦٠٠ اكثر من نصف هذه الاراضي . وتقاسم السهل الفسيح في المنحدر الشرقي لجبال الاندس الجنوبية بعض كبار الملاكين الذين ادخلوا في خدمتهم خلاسي المنطقة ، وأجروا المهاجرين الفقراء ، لاجال قصيرة ، بعض القطع الصغرى . وفي الهضبة البرازيلية ، حدث ان



شكل ٢٣ - أمريكا اللاتينية السياسية
١ - تيارات الهجرة ؛ ٢ - انتقال السكان ؛ ٣ - الطرق التي ملكها العبيد

بلغت الاملاك الكبرى مساحة تقارب مساحة دولة اوروبية كإيطاليا او انكلترا . وفي كل مكان ساد اقتصاد يستهدف تأمين الحاجات الاولى قبل اي شيء آخر بسبب ضعف المقايضات وندرة النقد .

أتاح المنجم جمع ثروات طائلة وظفت جزئياً في المقارنات . وانما لم يكن هناك رأسمالية صناعية جديدة بهذا الاسم ، لأن اميركا اللاتينية كانت تصدر خاماتها ومحاصيل زراعتها دون ان يدخل عليها اي تحويل .

اكتفى الملاك من مواليد المستعمرات بالتمتع بمحضره . ففي بلدان كثيرة ، كشيلى والبرازيل مثلاً ، احب الاقامة في المدينة حيث عاش عيشة بطالة . واذا ما حدث ان اقام في اراضيهِ ، فانه غالباً ما يكل امر ادارتها الى رؤساء خدامه . واذا جمع ثروة ، فانه يفضل النفقات المفرطة ؛ واذا حدث أزمة فانه يقلل نفقاته او يستدين ؛ يلاطف امرأته ويخضعها لوصاية غيرة بعد ان تعتنى بها المربية ؛ ولكنها امية وسريعة التصديق على كل حال .

كانت هذه الطبقة الريفية ، البطريكية الطابع ، غير المولعة بالاستحداثات ، الانيسة والبليدة ، تثقل وطأة الضرائب على يد عاملة بائسة يفسر انتاجها الضئيل الخمود المسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . هذا هو ثمن الفتح . والحال تجددت الهجرة الاسبانية والبرتغالية على نطاق واسع في اواخر القرن . ولكن الحدث الجديد هو وصول الالمان ولا سيما الايطاليين باعداد كبرى . فكانت النتيجة ان اميركا اللاتينية القديمة ، الهندية والحلاسية والزنجية عنصرياً في الواقع ، انقسمت نهائياً الى منطقتين مختلفتين كل الاختلاف : فمن جهة ، المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان حيث توطد تفوق الدماء المختلطة والهنود ؛ ومن جهة اخرى ، اميركا مبيضاء ثانية ، بمثابة للاولى ، اضيق رقعة منها واقل سكاناً ، تقابل مستعمرات الراس واستراليا وزيلندا الجديدة . وقد تحقق هذا الفتح الاوروبي الجديد بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٤ ، فأوجد تضاداً اقوى منه في الماضي بين الارجننتين والاوروغواي والشيلى وحتى شطر من البرازيل الجنوبي وبين باقي العالم اللاتيني - الاميركي .

هناك مناطق واسعة لم يقم فيها سوى الهنود البرابرة تقريباً .
حياة السكان الهنود : بدامة وبؤس
فكان الـ « غوياهي » ، بين « بارانا » و « باراغواي » ، يأكلون كل ما يختص بالمولد الحيواني ، بما فيه من انواع الهوام كالزنابير والنمل الذي يجمعوا عن عسله ايضاً . واشتهر الـ « بوتوكودي » او « ايموري » بأقراصهم الشفوية . وتسكع في البؤس نفسه الصيادون الـ « يورانا » والـ « كارايا » في البرازيل ، والـ « شانغو » في السواحل الشيلية ، والـ « اونا » في جزر النار ، وقد افنى هؤلاء الاخيرة شيئاً فشيئاً رجال المزارع ومرهض السل . اما الـ « اباش » والـ « الكومانش » في المكسيك الشمالي فكانوا بدواً يربون المواشي ، وقد انتشرت هذه الحياة البدوية في اقصى الجنوب ، في منطقة « باتاغونيا » . واما الـ « شاروا » القسا ، الذين

واجه البيض والخلاسيون شتى الصعوبات في إخضاعهم ، فقد اعتمدوا الحصان في صيد الحيوانات على غرار الـ « جهالتش » ، وكانوا يكتفون بضرب خيام من الجلد يحتمون بها من الرياح . وفي الشيلي ، تصاطى الأروكان ، الذين القوا التحاداً حربياً شبيهاً بالتحاد الـ « ابروكوا » ، زراعة الذرة الصفراء وتربية المواشي في آن واحد .

يبد أن أهل الحضر كانوا أكثر عدداً الى حد بعيد . ويمكننا الكلام عن حضارة الذرة الصفراء التي سيطرت على المناطق الواقعة بين الجبال الصخرية وجبال الأنديس الجنوبية . فهناك منطقة الذرة الصفراء الشمسية الممتدة حتى المكسيك الوسطى ؛ حيث يسحق الحب بواسطة الهاون ويستهلك بشكل طم . وافضت هذه الزراعة الى قيام قرى ثابتة ، ونشطت صناعة الخزفيات التي استجابت للحاجات المنزلية والتزيينية . وتبدأ في بلاد الـ « مايا » منطقة الذرة الصفراء المروية التي غالباً ما تزرع في الأراضي المحرقة ؛ فأضيف الى الطلعة معجون الذرة الصفراء المزوج بالماء فقط . اما الحبوب فغالباً ما تزرع وفقاً لطريقة بدائية جداً ؛ ففي نيكاراغوا استعمل بعضهم اداة شبيهة بالسيف أكثر موافقة لحفر حفر البذار منها لحراثة الارض . وفي كل مكان استخرجت من الذرة الصفراء جعة (شيشا) مسكرة .

في اميركا الوسطى والانتيل وغويانا كان المنيهوت مفضلاً في بعض الاماكن على الذرة الصفراء . ولكن الذرة الصفراء استعادت كافة حقوقها في جبال الأنديس . ففي كولومبيا زرعت مع البطاطا والقلقاس الهندي . وفي شيلي دخلت حبوبها في اعداد كافة اصناف الاطعمة واستخدم لباس زهرها للـ « الدخان » . وفي هضاب البيرو وبوليفيا المرتفعة ولدت قساوة المناخ والجفاف حضارة مشتركة تمكنت من مقاومة الجذب بواسطة زراعة المنحدرات والري . وقد استمر مثال الهندي القديم ، الذي خضع فيها مضي لتنظيم دولي صارم ، ثم التحقق بالنظام السيدي في عهد الفاتح الاسباني ، فشاهد تعاقب الحكام ، جامد القلب غالباً ، على مزيد من الفظاظة هنا ، ومزيد من الوداعة هناك ، واحب الارض ، فتمسك بالاملاك المشتركة التي كانت غير قابلة للبيع مبدئياً . ولكنه كان يخاف من الكد او لا يستطيع العمل بنشاط . ويرد ذلك الى سوء تغذيته . فاذا لم يحصل على الذرة الصفراء اكتفى بالبطاطا واللوبيا ؛ وقد احب بالتفضيل البطاطا المجلدة المطحونة التي دعاها « شونو » . وأعد حساء بأوراق « رجل الازو » . وحصل على بعض الحليب من الجمل الاميركي والالبكة اللذين كان يحدث ان يربيهما ؛ ولذلك كان يفتقر الى الشحوم والمواد الآزوتية . واكثر من احتساء الشيشا ، وكان شغله الشاغل تحضير الـ « اكوليكو » وهي كتلة صغيرة من اوراق الكوكوة يصنع منها كرية يضعها في فيه ؛ يضعها اثناء سيره او مزاوله اعماله فيتولد فيه النشاط . وكان بيته مبنياً بالصلصال الجفف بحرارة الشمس ، ومؤلفاً من غرفة واحدة لا نوافذ ولا سقف ولا ارضية لها ولا سرير فيها . وكان ينام على فراش مصنوع من جلود الحيوانات . وقد رآه الرحالة « موستز » ، في السنة ١٨٦٦ ، بعد بواسطة الجبال المقددة . اجل لقد تمكن المستعمر من تفويض امبراطورية الـ « انكا »

وتبشيرها بالإنجيل ، ولكنه لم يتمكن من تغيير طبيعة هذا الكائن الذي بقي متعلقا بشياطينه
الاليفة والارواح التوابع وآلهة الجبل والثلوج والبحيرات ، وعبد الشمس والقمر : واستفله
الزعيم والكاهن والقاضي استغلالات دائما فتلهى بالرقص والعزف على الشبابة والمزمار . وإذا هو
تعلم الاسبانية فلا ينسبه ذلك لفته ، الا « ايلورا » او « كيشوا » او « تاهواتل » او « مايا » .
وعلى الرغم من قمته بالحقوق المدنية ، لم تستموه الوظائف العامة . ولم يكن من مشاركة
حقيقية بينه وبين الابيض . يضاف الى ذلك انه حينما كان فرضت عليه اعمال التسخير والافاوت .
وقد خضع لنظام نصف فدادي في المنجم . وكاد لا ينجو من هذا النظام الا بمرافقة قطيع جمال
اميركية او بمواكبة القوافل او بصناعة القبعات ، كما في الاكوادور ، بموص خاص يحاك
تحت الماء .

كان عدد السكان من الدماء المختلطة اكثر من عدد السكان
مصدر الدماء المختلطة والزواج البيض . وكان معظمهم من الخلاسيين المولودين من البيض
والهنود المتزوجين ، يضاف اليهم نسبة دنيا من الخلاسيين المولودين من البيض والزواج
والد زامبو ، المولودين من الهنود والزواج . وقد نجح الخلاسي احيانا في الارتقاء في السلم الاجتماعي .
وحدث أن جمع ثروة بترية المواشي وادارة الاملاك وحتى باقتنائها احيانا ، واستثمر بدوره
حينذاك الملوثين الفقراء أو الارقاء . تماطى حراسة قطعان الماشية ، فأصبح في فترة من الزمن
ملك الارجننتين ، وانضم الى البولسيين فأصبح بنشاط في احياء الاراضي في الهضبة البرازيلية
التي يمر فيها خط الجدي . وفي سالفادور تملك معظم الخلاسيين الاراضي فحرقوا بـ « لادينوس »
ومن فرع الفوارني المنحدرا « مملوك » المولود من ام برتغالية ، و « شولو » في البيرو ، و « دروتو »
في شيلي ، وكلهم عناصر نشيطة . وانتسب سكان باراغواي المحاربون الى الفواراني وخلاسيهم .
وقد سال الدم الهندي في عروق زعماء (كوديلو) كثيرين . ولكن عامة الدماء المختلطة لم
ترتفع يوما الى طبقة اهل اليسار . ففي الشيلي مثلا خضع الخلاسيون لاعمال التسخير وارتبطوا
بكبار الملاكين من مواليد المستعمرات بعقود الحقت بهم المزيد من الغبن .

أقام الزوج وخلاسيهم حيث أدخل البيض الافريقيين اي من جهة الاطلسي ، من الانتيل
حتى الريو . وفي اوائل القرن جاءت كذلك موجة من الانتيل نحو كولومبيا ومناطق غويانا ،
وموجة اخرى من غيليا نحو « بارا » و « مارانهاو » ، وموجة ثالثة من الكونغو وبنغويلا
والموزامبيك نحو « بايا » . واعتق ١٠٠ ألف عبد في منطقة غويانا الانكليزية في السنة ١٨٣٨ ،
و ٦٠ ألفا في المنطقة الهولندية في السنة ١٨٦٣ . ولكن الجماعات الكبرى عاشت في البرازيل .
ففي السنة ١٨٧٠ ، كان في البرازيل البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين نفس ، ١٢٠٠٠٠٠ زنجي
بينهم ٩٠٠ ألف معتق ، و ٤ ملايين خلاسي من ابوين اسود وبيض بينهم قرابة ٥٠٠ ألف عبد ،
ولم تطرأ على الخلاسيين والبيض زيادة تذكر حتى السنة ١٩٠٠ .

كان الرق ، على ما يبدو ، اقل قساوة منه في الولايات المتحدة : فقد كانت البرازيل في نظر الاميركيين الشماليين بمثابة « فردوس الزوج » . وسببها يكن من الامر فان الحصول على الجرية كان هنا اقرب مثالا . ولكن الغاء الرق سيتطلب وقتا اطول . واما في المزرعة فكانت العبد يشتغل من مشرق الشمس حتى مغربها ولا يتوقف عن العمل الا ساعة واحدة يتناول فيها طعامه ؛ وغالبا ما ضرب بالسوط على ظهره العاري ، وطلب منه عمل اضافي في الليل . فلا عجب من ثم اذا كان انتاجه ضئيلا . وقد شكوا اصحاب مزارع البن من الاجور البامضة التي تدفع لليد العاملة المتوانية .

اضطر الزنجي والخلاسي الزنجي ، بعد تحررها ، الى العمل كمزارعين او كعمال زراعيين ، ما لم يفضلوا العمل في المنجم . ولكن مستوى حياة هؤلاء المساكين ، المعجبين بأنفسهم ، الارقاء الكلام ، السريعي التهج ، لم يتحسن قط . فقد حافظوا بمناد على عاداتهم ومعتقداتهم الافريقية . وقد استطاع بعضهم تبيان اوجه الشبه بين حضارة ال « ياروبا » وحضارة زوج كوبا وباهيا ، وبين العادات في هايتي والمعادن في مارانهاو في داهومي ؛ وفي غويانا ، ربما اعتقد الانسان بأنه عند ال « فانتى » او ال « اشانتي » . ولم تحف المسيحية الطقوس الوثنية اخفاء تاما : فقد دخل بعض الآلهة الافريقيين في عداد القديسين او بقوا موضوع تكريم وتعظيم ، وبقي للعبادات الافريقية تأثيرها الغامض .

كانت اشكال النشاطات متحركة لأنها كانت بدائية . واتصف التنقل الاقتصادي ومزال
عمل احياء الارض بطابع الوقتية لأن الاحراج لا تلبث ان
وسائل النقل تستعيد الاراضي التي ينتزعها الانسان منها . ولكن الزراعة
نفسها مسرفة ؛ وقد قام الخلاف ابداً بينها وبين تربية المواشي والمنجم . فاذا تراحم الناس على العمل في المنجم هاجر السكان المزارعين وتركوا القطعان . واذا استخرج كل ما في المنجم عادوا الى الاعمال الزراعية والراعية . وكانت هنالك في البدء برازيل السكر والمناجم حول محاور باهيا و « ميناس جيريه » ؛ ثم تدنت زراعة قصب السكر ، بينما حلت محلها زراعة القطن وشجرة الكاكاو والتبغ او اجتذبت الناس الى ابعد من مواطن هذه النباتات ؛ وبالمقابلة عرفت « غويانا » و « ميناس الازمة » فان مصاهر تنقية المعادن المنشأة في جوار الاحراج حول « اورو-بريتو » قد اخذ نيرانها الخط الحديد الذي نقل الحديد الاجني . فعاد رعاة البقر الى قطعانهم في الهضاب الداخلية ، وعاد من تبقى من عمال المناجم والمصاهر الى « ساو باولو » التي كانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة في مغارس شجر البن ؛ وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ عرفت المناطق الواقعة على خط الجدي بدورها ثروة مفاجئة . اما شيلى الراعية فقد اكتشفت حوالي السنة ١٨٥٠ رسالتها الزراعية بامارتها الباحثين عن الذهب في كاليفورنيا بالحبوب . وأما السهل الارجنطيني فقد تغير وجهه تكرر اذ تعاطى فيه السكان على التوالي تربية المواشي الكبرى وتربية الاغنام ثم تقسم الى عدة مناطق تميز كل منها بنشاط مميز .

يصح القول نفسه في سرعة التغيرات التي طرأت على الصناعة الاستخراجية . فعلى الرغم من أن مناجم الفضة في « بوقوسي » و « سرو دي باسكو » ما زالت مثاراً للفتنة ، فإن دلائل النقص في المعدن كانت سبباً ، في منتصف القرن ، في انتقال الجماهير الى « الجبال الملكية » و « اورورو » من جهة ، والى جبال « كريبيا » من جهة أخرى حيث اكتشف الذهب على ارتفاع ٥ آلاف متر . واستأثر استخراج الفضة في البدء باهتمام شيلي ثم توجهت الاطماع شطر النترات والنحاس . اما في المكسيك فقد تعاقبت فترات ارتفاع حى البحث عن المعادن وهبوطها تعاقباً مطرداً .

كانت مسألة النقل إحدى المسائل العسيرة جداً . لقد جعلت الطبيعة من قطع المسافات عملية طويلة وشاقة ، فبرز ذلك أهمية الطريق المائية الطبيعية للجماعات البشرية والصحائف السياسية . فبينما وقفت مناطق البرازيل الشرقية سداً في وجه الساحل الاطلسي ، اتاحت الشبكة الامازونية بلوغ لحف جبال الاندس من الشرق وغويار و « ماقو غروسو » . وحين اقبل « روزاس » البارانا بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٥٢ ، تحولت حركة النقل الى الاوروغواي ، فكان ذلك فاتحة ازدهار الجمهورية الشرقية . ولم يكن الهدف من حرب الباراغواي سوى امتلاك شبكة الطرقات الطبيعية المؤدية الى « لابلاتا » .

فما العمل للانتقال من حوض الى آخر ؟ ما زال العائق الاكبر الجبل الذي يحاذي المحيط الهادي . ولذلك استخدم النقل الكولومبي نهر « ماجدولينا » ووجه الدولة الكولومبية شطر بحر الاتيل . وكذلك وجهت الطريق التقليدية الى هضاب البيرو شطر الاطلسي الجنوبي : على هذه الطريق الفضية تمكنت « توكومان » من تنمية مغارس قصب السكر بتصريفها السكر في مناطق المناجم المرتفعة ، واستخدم الملح للقرى من « بونيا دي اناكاما » لحاجات قطعان جبال الاندس قبل ان ينقل الى سكان ال « بامبا » . ويتضح من ثم ما كان للزواجل ، ولا سيما للبقال ، من أهمية كبرى . فهي قوافل البقال ما كانت تؤمن النقل في جبال الاندس والهضبة البرازيلية . اما في السهل فقد امكن استخدام العربات التي تجرها الخيول او الثيران : فالارجنتينيين كان ينطوي الحصان اذا كان مستعجلاً او يستخدم العربة الثقيلة التي يجرها حتى سبعة حيوانات والتي اتاحت عجلاتها الكبرى اجتياز المخاضات .

ان الاسبانين والبرتغاليين المتوسطين نقلوا معهم الى ما وراء الاوقيانوس ميولهم المدنية . وعلى الرغم من نموها البطيء ، لعبت المدن دوراً عظيماً جداً في هذه الحضارة

جانب الحياة في المدينة
وبسطه تطور الوظيفة المدنية

الاييرو - اميركية .

ذكرت مدينة العهد الاستعماري تذكيراً مدهشاً بمدينة شبه الجزيرة ، وذلك بكاتدرائيتها الفخمة ، وابنتها العامة العظيمة ، وينابيعها الجميلة . وعرضت ليا باعزاز « ساحة الاسلحة » ، و « سانتياغو » الشيلية شوارعها الاربعة التي تنتصب على جنباتها اشجار الحور الظليلة ، والاقنية

التي تمر فيها وتسمح برش الشوارع ؛ وتباهت « ريو » القديمة بمساكنها البرتغالية الانيقة ذات الشرفات . الا ان الحجر نادر بصورة عامة ؛ ولم يبن بالحجر الجميل الصلب سوى ريو و « كوزكو » .
 فمواد البناء المستعملة عادة هي القرميد المشوي بحرارة الشمس الذي يجب طليه لاعطائه بعض البهرج . ولم تسقف البيوت الصغرى في اغلب الاحيان الا بالثبن الطويل ، وقد حدث ان الامطار المتساقطة بغزارة في ليا قد تسببت في انهيار السقوف . يضاف الى ذلك ان الناس كانوا يخشون الزلازل : فزلازل السنة ١٨٢٨ قد دمر عاصمة البيرو ، وزلازل السنة ١٨٥٤ دمر سان سالفادور . وفي كافة المناطق الحارة جمعت الغرف حول فناء تشاهد فيه بعض الطيور والحيوانات المؤالفة كالبيغاء والقرود ؛ اما الاثاث فكان قليلا . واقتقرت المدن الى النظافة ، لا سيما وان شوارعها لم ترصف رصفاً جيداً بالبلاط . وفي عهد مكسيميليان فتحت في مكسيكو جادة كبرى جديدة تؤدى الى سابولتيميك زرعت على جانبيها اشجار الكينا وانشئت فيها ، بين مسافة واخرى ، مستديرات ازدانت بالتأثيل . واكن ما ان تهطل الامطار الاولى حتى يتعرقل السير بسبب الوحشال . اما التدابير الصحية فغير متوفرة ، لا سيما في الاحياء المنخفضة من الموانئ البحرية ، وهو الاطار الطبيعي ما اوجد الفتنة ، اذ ان النوامي قد حجبت الكثير من القباحات ، وقد اشتهر جون ريو منذ تلك الايام بحماله الفتان .

ان القرن التاسع عشر لم يحمل قط ، بل بنى بسرعة وبدون ظرافة . فالمدينة الجديدة في ريو عادية ومبتذلة على الرغم من اتساع شوارعها وظهرت بونوس ايرس لمدة طويلة بمظهر حقير . فالمدينة نمت بسرعة فائقة وابنتها شيدت في مساحات ضيقة . اجل لقد تم توسيمها وفقاً لمخطط هندسي على طريقة المدن في اميركا الشمالية ، وانتقلت مساحة رقعتها من ٤٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٨٠ لـ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة فقط الى ١٩٠٠ في السنة ١٩٠٠ لـ ٧٠٠ ٠٠٠ ولكن الاوبئة فتكت فيها بالسكان فتكاً ذريعاً (١٣٧٠٠ في السنة ١٨٧١) ، ولم يتحسن تبليط الشوارع قط قبل السنة ١٨٩٠ . فمنذ هذا التاريخ انجزت اعمال كبرى لتزويد المدينة بمياه الشفة ولتجهيزها بشبكة بواليع ؛ وبدأ استخدام الغاز والكهرباء .

كان للمدينة وظيفتها الاقتصادية ، كما في اي بلد آخر . فقد استخدمت مستودعاً (هذا هو دور « لاباز » للكينا ، ودور ساوباولو للبن) ؛ ودانت توكومان و « سالتا » بالكثير لاسواق تجارة البغال ؛ ولم تتم الموانئ الا بنسبة نمو التجارة البحرية . ولكن بصرف النظر عن جهودها وعن قصم البيض لها بغية ايواء الادارات العامة وتأمين حاجات الحياة الاجتماعية ، فقد طبعت ابدأ بطابع اداري وسكني بارز . وبين سكان المدن كثر هم الذين تفرغوا للسياسة والمهن الحرة : فان نصف الذين تلقوا دوساً عالية قد فكروا بمزاولة المحاماة . ولكن الهجرة قد ضخمت الطبقة الكادحة الامية بنوع خاص .

تخلفت العواصم الصغرى تخلصاً محسوساً عن العالم الانكلوساكسوني ، وهي ان تبرز حقاً الا في اواخر القرن ، دون ان يبلغ سكان اي منها المليون نسمة . ويجدر لفت النظر مرة اخرى

هنا الى اننا نتكلم عن عالم يتجاوز سكانه الـ ٦٠ مليون نسمة .

ان الطابع العقاري الصريح الذي طبع به الاقتصاد قد سيطر ولادة رأسمالية اميركية جنوبية وتدخل الرأسمال الاوربي طيلة القرن على كافة ارجاء اميركا اللاتينية . فكان هناك اغنياء اثرتهم الخنطة في شيلي ، او اثرتهم الجلود واللحوم المملحة في مناطق « لابلا » . وبرز شيئاً فشيئاً في البرازيل بعض المستفيدين من زراعة البن : فان اول آل « برادو » المشهورين قد زاول تجارة البغال ، وتوصل احد ابنائه الى تملك مقصبة فسيحة ؛ وبين اولاد هذا الاخير اكتشف احدهم بدوره « ارضاً حمراء » جيدة جداً واصبح في السنة ١٩١٢ رب مزرعة تحتوي على ١٧٦٧٠٠٠ شجرة . واشترك معه احد اخوته في تأسيس شركة الخطوط الحديدية البولسية لخدمة المنطقة ؛ وضمت هذه الشركة بين كبار مساهميها رب مزرعة كبرى اخرى هو البارون « ايتابورا » ، وقد اصبح باروناً بانعام من الامبراطور « بدرو » الثاني . وأسهم المنجم كذلك إسهاماً كبيراً في توسيع عدد الاغنياء . ففي البرازيل ليس « مانا » وحده من برز وبرهن بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ عن انه صير في ورجل اعمال ماهر واسس العديد من شركات النقل والعمل في المناجم . ولكن التوفير ما زال ضئيلاً لان المال يتفق على شراء المواد الباهظة الاكلاف او يندثر في الميسر والمراهنات . يضاف الى ذلك وجود الكثير الكثير من الوسطاء الادياء : كالحمار الذي يبيع بالتقسيط لقاء سندات توليه حق استيفاء ديونه بتملك المواشي او البيوت ، و « المصصور » الذي يضيف صكوك التملك .

ما كانت اميركا اللاتينية ، والحالة هذه ، لتستطيع التجهز بدون مساعدة الدول الرأسمالية . فهي المؤسسات الاوروبية ما انشأت معظم الخطوط الحديدية . ويجب الاعتراف هنا بأن خط ساو باولو رائدة من روائع التقنية البريطانية : اذ ان القطر تتسلق خمسة منحدرات متعاقبة زود كل منها بجهاز خاص للجر . وهي « شركة البيرو التعاونية » ، التي كان مركزها في لندن واستخدمت مهندسين اميركيين ، ما بنت خط « مولندو » و « اريكونيا » باتجاه كوزكو وتيتيكاكا . اما الخط الذي يمر عبر الاندس فقد بني قسم منه في البامبا في السنة ١٨٨١ ثم اسند « بارنغ » التزامه الى « كروزو » بعد ان امن مبلغاً من المال ، ولكن الالتزام رسا اخيراً على « كوكريل » .

في التجارة الخارجية احتلت بريطانيا مركز الطليعة الاول بعد ان تراجعت الولايات المتحدة نهائياً حوالي السنوات ١٨٩٠ - ٥٠ . وباستطاعتنا ان نعتبر ان اميركا اللاتينية تعلق اقتصاديا ببريطانيا العظمى .

لم يكن الوضع المالي في الدول الفتية وضعاً سليماً : فالوظيفة العامة باهظة الاكلاف ، على انها لم تكن في مأمن من الرشوة بسبب تدني الرواتب . زد على ذلك ان الحكام لم يحافظوا على مراكزهم الا بتمهيد انصار يتأكلهم الجشع . لا بل كان من شأن برنامج التعليم العام وحده ،

بسبب ما انطوى عليه من طموح ، إلحاق المعجز بميزانية تغذيتها بكل صعوبة الجمارك والضرائب المفروضة على مواد الاستهلاك . فتوجب من ثم اللجوء الى التضخم الذي خفض قيمة النقد والى القروض الباهظة . ولذلك فان تاريخ الجمهوريات هو ، على وجه التقريب ، تاريخ التزاماتها نحو الادارات المالية الاوروبية .

وافقت هذه الاخيرة على السلفات الاولى ابان الحروب الاستقلالية . ثم توجب عليها الاستمرار في مساندتها لتجنب الافلامات التي ستجعل مدينتها عاجزين عن الوفاء . وهكذا استدان شيلي من لندن بفائدة ٦ بالمائة في السنة ١٨٢٢ ؛ وتوقفت عن الدفع بين السنة ١٨٢٦ والسنة ١٨٤٠ ؛ وفي السنة ١٨٤٢ عُقد اتفاق حصلت سانتياغو بموجبه على مال جديد ؛ وفي السنة ١٨٥٨ ، استحصلت من آل بارنغ على قرض ثالث ؛ وفي تاريخ لاحق ولت البلاد وجهها شطر مؤسسة « مورغان » . وفي البيرو ، رهنّت الشيلي الثروات الذي وضعت يدها عليه خلال الحرب الباسيفيكية عند مؤسسة « ديفوس اخوان » . ولم يندر ان حصلت الدولة الدائنة على رقابة الجمارك او رقابة الخطوط الحديدية . ونذكر هنا قضية مشهورة جداً هي قضية دين « جكر » على المكسيك الذي كان سبب التحالف بين انكلترا واسبانيا وفرنسا ، ثم تدخل هذه الاخيرة تدخلا متدياً . ولم تكن النزاعات بين الدول من اجل النفوذ نادرة الحدوث ايضاً . وباستطاعتنا ، من اوجه كثيرة ، ان ننظر الى الحرب الباسيفيكية وكأنها مبارزة بين المصالح البريطانية وراء الشيلي ، والمصالح الفرنسية والاميركية وراء بيرو وبوليفيا ، كان النصر فيها حليف المصالح الاولى . وقمع على رأس المال الاجني كذلك مسؤولية اختلافات مدنية كثيرة .

ان من شأن الطابع الايبيري في حضارة اميركا الوسطى وحدة الثقافة والتصادم بين التقليد وفكرة التقدم
واميركا الجنوبية ان يخلق فينا وهماً خادعاً . فلا ريب في ان ربع السكان يتكلمون الاسبانية أو البرتغالية ، ولا يزال هناك عدة آلاف من اللهجات البلدية . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الجزء من العالم مدين للغة الفاتح بوحدة ثقافية معينة : لغة العلائق من اجل المقايضات الاقتصادية وتبادل الافكار في مناطق شاسعة . وبلغت الانتباه ان الاشكال القديمة قد استمرت في الارياض دون المدن التي خلقت اشكالاً جديدة .

على الرغم من ان الانجيل نادراً ما نجح في الحلول نهائياً على المعتقدات القديمة ، فان الكنيسة قد لعبت دوراً كبيراً في نشر اللغات والعادات الايبيرية . والمقصود بالكنيسة هنسا كاثوليكية متسلطة ترغب في رقابة الحياة الخاصة والشؤون العامة على السواء . وحين استطاع الاكليروس الى ذلك سبيلاً ، ابطل حرية المعتقد واخضع الحقوق المدنية للمعتقد الكاثوليكي واحتفظ لنفسه بحق التعليم . ولكن اعداء الاكليروس حملوا الكنيسة مسؤولية امية الجماهير . وهكذا فان نسبة الذين عرفوا القراءة من الاحرار في البرازيل لم تتجاوز ٢٣ بالمائة في السنة

١٨٨٠ ، ومن المبدأ ١ بالمائة .

بيد ان التمتع بلغة رفاة جميلة والميل الى ملاذ الفكر قد اعطيا الشعوب اللاتينية الاميركية مدارس ادبية غنية بالانتاج . ففي البدء قدّر كلاسيكيو شبه الجزيرة حق قدرهم ، ثم جاءت الرومنطيقية ، ونظم الشعر ، واكتشفت الواقعية والطبيعية بدورها حقلاً فسيحاً للتوسع والانتشار . فصدرت مؤلفات شخصية مبتكرة كثيرة تعبر عن الاهواء وتنطوي على وصف رقيق جداً للطبيعة البدئية . وقد تجانب في هذه المؤلفات انسلال الوقائع ووصفها الدقيق ، كما ان الشاعرية لم تضر بالنضارة .

عصفت بالنخبة المثقفة مثالية متأججة . فبرزت بقوة مقاومة الوصاية الكنسية (ضد اليسوعيين ومحكمة التفتيش بصورة خاصة) ، وكان لفكرة التقدم في الحرية سحرها الاخاذ . وعمل بالقانون المدني الفرنسي في الجمهوريات بعد ان ادخلت عليه تعديلات تجعله يتفق والعادات الاسبانية ؛ اما القانون الجزائري في البرازيل فقد لعهده خير اعداد حقوقى كبير اختصاصي في القضايا الاجرامية هو « برناردو دي فاسكونسلوس » . وبكل جدية حرر الحقوقيين ، من قراء « روسو » و « بنجامين كونستان » ، البنود الصريحة للنصوص الدستورية ؛ لقد قابله عدم الاستقرار الفعلي ترقى الى تثبيت القانون .

انتشرت الماسونية وانضم اليها الناس بأعداد كبرى . فان « سارمينتو » ، حامل لواء التعليم العام في اميركا الجنوبية ، ومؤسس الدار الاولى لتخريج المعلمين - في شيلي ، في السنة ١٨٤٢ - ومؤسس المدرسة النموذجية في بوينوس ايرس ، ورئيس حزب الاحرار في الارجنتين ، ورئيس هذه الجمهورية بين السنة ١٨٦٨ والسنة ١٨٧٤ ، قد برز بين كبار باعثي محفل « الشرق الاكبر » ومحفل « المجلس الاعلى » . واشتهر الماسوني « غارييلدي » باشتراكه في القتال من اجل استقلال اوروغواي . وعن طريق الماسونية الانكلوساكسونية تسربت الروح النفعية الى مذهب الاحرار . ولكن الفلسفة الوضعية هي التي احرزت اعظم النجاحات إثارة للدهشة في اوساط المثقفين الذين كانوا يبحثون عن قاعدة يسلكون بموجبها . لا بل ان تعاليم « كونت » ، التي فسرت تفسيراً حرفياً ، قد دفعت الى تأسيس بعض الكنائس ، ككنيسة « معبد الانسانية » ، وحدثت بعض النهضة في العلوم الاجتماعية . وسعى الشيلي « لاستاريا » الى التوفيق بين كونت و « جوت ستوارت ميل » وتوكفيل . وفي البرازيل والمكسيك ادى الخوف من الفوضى والمذهب الوضعي مشتركين الى ولادة حزب « علمي » ابتغى نوعاً من الاستبداد المستنير القادر على تحقيق امور عظيمة .

كان سبب الخلاف في النزاع بين الكنيسة وخصوصها نفوذ الاكليروس على المجتمع والمدرسة والسلطات العامة ؛ ولكن « الكفاح الثقافي » قد استهدف كذلك الممتلكات الكنسية التي اتاحت للكنيسة ان تكون دولة داخل الدولة ، والتي طمعت بها هذه الاخيرة لان كاهل ميزانيتها كان مثقلاً بالديون . فقابلت اعمال العنف التي اتاها هذا الطرف اعمال عنف اخرى اتاها

الطرف الآخر . اما التسويات القليلة التي تحققت فلم تدم قط طويلا .

تعدر الوحدة الاقليمية لم تضع حروب الاستقلال حداً للسيطرة الايبيرية فحسب : فهي قد كرس تجزئة الممتلكات الاسبانية الواسعة الاطراف . وهي البرازيل وحدها التي استطاعت المحافظة على اراضيها : ولو ان الاوروغواي انفصلت عنها . ثم توفي بوليفار منهوكا في السنة ١٨٣٠ بعد فشل مشروع كولومبيا - الكبرى . ولن تسفر المؤتمرات من اجل تحقيق الوحدة ، التي استدعو اليها المكسيك ثم البيرو ، الى اية نتيجة ؛ فقد نشبت منذ ذاك التاريخ نزاعات دامية بين الجمهوريات الجديدة . وهكذا فان ١٦ دولة قد تقاسمت في النهاية اراضي البر الاميريكي الجنوبي حتى رأس هورن ، قبالة الاتحاد الشبالي الاميريكي .

نجد تفسير هذا التفتت في الجغرافية . فقد كتب « هبولدت » ان « الدول المتجاورة لا تتصل في معظم الاحيان الا بالمضائق الاستعمارية » . ولما كان للبحر جاذبه ، فان التجمعات الطبيعية قد جرت بدلالة اقرب ساحل اليها . وكان للاحراج الامازونية نصيبها الاكبر في قيام فنزويلا على بحر الانتيل وفي الحد من توسع الممتلكات الغويانية الانكليزية والهولندية والفرنسية التي تمكنت من البقاء ، للسبب نفسه ، على حدود البرازيل ، وعلى هامشها اذا صح التعبير . وارقت الصحراء زمناً طويلا التوسع الشبلي في الشمال . وتكونت باراغوي وراء الخطوط المائية والمستنقعات واشجار الغابات الشائكة في « شاكو » . فالحدود تعني من ثم منطقة لا خطاً واضحاً ، وقد تجددت المنازعات حولها تكراراً .

لم تقم سوى فوارق جزئية بين خريطة التقسيمات الادارية الاسبانية (نباتات ملكية وقبطانيات) وبين خريطة الجمهوريات . فان عواصم الامس قد احتفظت بوظيفتها الجاذبة ؛ ولكن المنافسات القائمة بينها ، على غرار الاثرة الاقليمية التي عانت منها اسبانيا في العهد نفسه ، قد زادت حدة التنازعات الاقليمية . فقد عجزت الوحدة الثقافية والتيارات التجارية التقليدية عن الحؤول ، في جو اقتصاد لا يزال بدائياً ، دون تفرق السكان بفعل المسافات . لا بل اذا كانت الدولة واسعة نسبياً ، أصبحت وحدتها قصية جداً . فان المنازعات تنفجر حينذاك بين العواصم والولايات ، وبين المدن والارياف ، وبين الوندوين والاتحاديين : ففي فنزويلا مثلاً ظهرت نزعة سكان السهول الاستقلالية عن سكان كراكاس ، ونزعة رعاية المواشي المائلة في البامبا الارجنطينية عن بوينوس ايرس . وغالباً ما رجحت كفة الحل الاتحادي في النهاية : الولايات المتحدة المكسيكية ، والولايات المتحدة الكولومبية ، والولايات المتحدة البرازيلية ، والولايات المتحدة الفنزويلية ؛ وقد اتخذت الارجنطين كذلك شكلاً اتحادياً .

كانت الحرب شبه دائمة بين هذه الدول الفتية التي تأكلها التجاسد وانجر حكامها الى خوض المغامرات الخارجية بداعي النفوذ وتنازعوا الطرق النهرية النادرة والهامة وثورات المناجم

الشمينة . وحدثت هذه النزاعات في كل مكان: بين كولومبيا والاكوادر ، وبين الاكوادر والبيرو ، وبين الجمهوريات الصغرى التي نشأت عن تفكك اتحاد اميركا الوسطى . وكان مسرح ثلاثة او اربعة منها نيابة لابلاة الملكية القديمة التي كانت مناطقها النهرية الشمالية مطمع الطامعين؛ وانتهى ام هذه النزاعات هولا ، بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٧٠ ، الى افناء شعب باراغواي الصغير . وبعيد ذلك نشبت الحرب المعروفة بالحرب الباسيفيكية التي انتزعت الشيلي خلالها من بوليفيا والبيرو المقاطعات الفنية بالنطرون وأقصت الاولى منها عن الشاطئ .

في اواخر القرن فقط ، اخذت هذه الدول تتصرف شيئاً فشيئاً عن طريق اللجوء الى القوة الى الاجراءات المعمول بها بموجب الحق الدولي . وواحت الاضطرابات التي عانى منها هذا الجزء من العالم بتقارب اميركي شامل اعتبر ضرورياً .

دانت الجمهوريات مبدئياً بالحريات وحتى بالديموقراطية ، ولكنها في الواقع كانت فريسة احزاب تتنازعت الحكم بمنف . فنادرا ما توفرت الشروط التي تسمح بقيام نظام دستوري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حروب الاستقلال ابرزت دور الزعيم ، اي الـ « كوديلو » . فان بوليفار «وسان مارتين » ، اللذين سيخلد ذكرهما ، قد تركا بعدهما خلفاء ومقلدين . وقد تجملت رومنتيقية ادبية مجدت العزائم الفردية : فان « اندراد » قد ذكر بآتي نابوليون ، كما ان « مونتالفو » ، في « المعاهدات السبع » ، قد احل بوليفار فوق بطل العالم القديم . وليس هناك من حكومة تولت الحكم الا في اعقاب انقلاب او انتخاب افسدت فيه ارادة الناخبين ، ثم كانت ضحية اللاشعريه والاضطرابات . ففي المكسيك تولى الرئاسة شخص كل سنة تقريباً خلال السنوات الست والثلاثين التي عقت سقوط زعيمها الاول « ايتوربيد » . وفي فنزويلا نشبت ٥٢ ثورة في اقل من ١٠٠ سنة . وكانت بوليفيا مسرح ستين عصياناً عسكرياً ، وغيرت دستورها عشر مرات ، وامائت او سمحت بامائة ستة من رؤسائها . ولم تعرف باراغواي نظاماً غير الدكتاتورية . ويروى ان ضحايا ثورة السنة ١٨٧٩ في كولومبيا بلغوا ٨٠٠٠٠ .

ان حسم الخلافات على هذا النحو اتاح لبعض الملونين ان يلعبوا دوراً هاماً . فان الرشوة والنداءات المبهجة والحد المزمع على مواليد المستعمرات الاغنياء قد دفعت العامة الاممية وراء المغامر الجسور . اصف الى ذلك ان الكوديلو قد بدا وكأنه مواصل عمل الزعيم الهندي . فك من وجه اثار الاعجاب ؟ والى جانب بعض مواليد المستعمرات المهذبن تهذيباً ارستوقراطياً ، من امثال « روزاس » ، الشبيه بأشارف الاسبانين ، « وبورتاليس » ، المحافظ على القيم التقليدية ، كم من ملون غريب الاخلاق ؟ واننا نكتفي هنا بذكر راعي الخنازير الهندي ، « كاريرا » ، الذي حكم غواتيمالا حكماً استبدادياً طوال خمس وعشرين سنة . واي انتقام كذلك حين يحكم المكسيك هندي من امثال « بنيتو جواريز » او خليفته الخلاسي « بورفيريو دياز » ، او حين

يحكم فنزويلا « بايز » الاتمي الطويل القامة الذي كان فارساً ماهراً نظير روزاس !

ورقة تولى الكوديلو السلطة وورقة اخرى تنزعها منه . اليوم هو رسول العناية الالهية الواجب الوجود ؛ وغدا سوف تلحق به كل شنيعة ؛ واذا ما استلم دفعة الحكم مرة اخرى ، استعداد شعبيته . ومن غريب التناقض انه انما ينتهك حرمة القانون بغية فرض احترامه احتراماً افضل . اما الكنيسة فترضى عن ايدته او من هو بحاجة اليها ، وتعاني من النظام الذي تكون هي ضحيته .

ولكن مهما يكن من قساوته ، فان هذا النظام ، الذي كان وليد الفوضى ، كان علاجها ايضاً . يثقل الضرائب لمصلحته ، ولكنه يثقلها لمصلحة الدولة ايضاً . وقد ظهر ممثله بظهر الموحد حين دعسي روزاس في الارجننتين وبورتاليس في شيلي وجواريز في المكسيك . لقد تمثل بالاميين ولكنه اهتم اهتماماً كبيراً بالتعليم العام ؛ وتمثل بالمسكرين والحقوقيين ، ولكنه كانت واسع الآفاق ، وفور العمل بتأسيس المصانع والمصانع . وجلة القول انه اعاد وصان وأمن للمستقبل الوحدة الوطنية ، وان تخلى عن بعض حقوقه للرأسماليين وللدول الاجنبية .

من عربانا الى مشارف لابلاتا ، ومن جبال الاندس الى الاطلسي
الاستمرار والتنوع البرازيليان امتدت سيادة واحدة ، كما في عهد السيطرة البرتغالية ، على اكثر من ٨ ملايين كيلومتر مربع . وعلى نقيض ما حدث في الاقاليم الاسبانية السابقة ، استمرت هذه الوحدة في كنف السلالة الشرعية ، سلالة « براغانس » فكان للبرازيل من ثم وجهه مميز خاص .

لم يستلزم ابقاؤها على سلالتها الاوروبية اي ارتباط بالوطن الام القديم . وقد حافظ « دون بدرو » على كرسيه في ريو لانه برهن في برهة من الزمن انه برازيلي اكثر منه برتغالي . وعرف كيف يقتنع بنظام دستوري ترك له ، من جهة ثانية ، سلطة حقيقية ، ولا سيما الإشراف على ادارة مركزية ؛ وتحلى بالفطنة ابدأ فاستقال في الوقت المناسب ، تاركاً ادارة شؤون البلاد لوصاية ، وفي الواقع للطبقات المسيطرة التي سرت بالحكم طيلة قصور ابن الامبراطور الشرعي وبالتمهيد لولاية ملك برازيلي حقاً . فلمع بدرو الثاني دوراً شبيهاً بذلك الذي لعبه في الماضي ماركوس اوريلوس ، وذلك بفصله في الخلافات السياسية وباهتمامه بالتحقيقات العملية قبل اي شيء آخر .

كانت هناك في الواقع اربع دول برازيلية متجانبة اكثر منها متضامنة : برازيل الاحراج الامازونية منتجة الاخشاب الثمينة ، برازيل الهضاب الواسعة حيث يستمر النشاط المنجمي ، برازيل مشاجر المناطق الحارة (هذه هي برازيل قصب السكر والقطن في باهيا وبرغوبوك وريو) ، واخيراً البرازيل الجنوبية التي اخذت منذ عهد قريب تتعاطى تربية المواشي . واذا اخذ المهاجرون الاوروبيون ، وجلهم من الالمان ، يستوطنون هذه المنطقة الاخيرة ، فان المنود ما

زالوا يسيطرون على المنطقة الاولى ، بينما تميزت المنطقتان الاخريان بعمل الارقاء في خدمة الارستوقراطيين من مواليد المستعمرات والخلاسيين . وكانت النزعة الانفصالية خافية ابدأ حين لا تظهر بمحاولات انفصالية معلنة : حيناً في سيريا او برنمبوك ، وحيناً في بارا أو باهيا ، وآخر في ميناس ؛ وطوال عشر سنوات ، اقلت « ريو غرانده دو سول » الاهابة والخوف في جيوش ريو . كلها ازمات اضرت بالنمو الاقتصادي واثقلت كاهل الخزينة ، واوجبت تعهد قوة عسكرية وبحرية هامة . وكانت الكلمة الفصل الاخيرة للأسطول الذي يحاصر الثائرين . وقد اعتمدت في الوقت نفسه - في سبيل النفوذ والسيطرة على مداخل حوض « بارانا - بلاتا » - السياسة التوسعية البرتغالية القديمة باتجاه الغرب ، الى ما وراء خط « توردسيلاس » ، فأقحمت البرازيل في نزاعات دائمة باهظة الاكلاف لم تؤد الى اشباع مطامعها اشباعاً تاماً . فان الفشل الذي انتهت اليه الباراغواي مثلاً لم يكن تعويضاً كافياً عن فقدان الاوروغواي .

توطدت الدولة البرازيلية شيئاً فشيئاً باستعانتها برؤوس الاموال البريطانية ، وبيعها المواد الغذائية والحامات وتشغيلها العبيد ، وتوكلها اصحاب المغارس والمناجم . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، وطيلة ١٥ سنة ، ارتسمت انطلاقها بمزيد من الوضوح : فقد تضاعف دخل التجارة الخارجية وتوسعت عمليات احياء الاراضي ، وظهر الخط الحديدي والتلغراف . وكان ذلك العصر الذهبي للقطن والسكر . ولكن حرب الباراغواي الرهيبة كلفت اموالاً كثيرة بلغت المليار ، فعقبته مرحلة هبوط : ازمة سكر وازمة مناجم زادت من شدتها ازمة الرق . فبين قانون السنة ١٨٧١ ، وقد اقرت بموجبه حرية الزواج الذي سيولدون (قانون البطن) ، وقانون الاعتراف الشامل الذي صدر في السنة ١٨٨٨ ، تفاقم الهيجان والاضطرابات . فتخلى عن الامبراطور اسيدار الارقاء ، كما تخلى عنه الاتحاديون والجيش نفسه الذي شكاً من ضالة الرواتب ، فتخاذل امام انقلاب السنة ١٨٨٩ .

كانت الخطى الاولى التي خطتها جمهورية الولايات المتحدة البرازيلية عسيرة جداً . وقد ترتب على كل ولاية ، منذ ذاك التاريخ ، ان تعيش لنفسها . فتجهزت « ساو باولو » بالادوات ونجحت في بيع بنها وازدهرت ، بينما عاشت ماهيا وبرنمبوك في ضيق ؛ واستفاد الجنوب من الهجرة الأوروبية الثانية وربى المواشي وزرع الحبوب ؛ ولكن منطقة المضارب اعتمدت الاقتصاد الراعوي ببعض الصعوبة . وأثار زوال اليد العاملة العبدية مسائل خطيرة دارت حول اعتماد اقتصاد جديد مبني على نظام الاجور . الا ان تزايد الطلب الاوروبي والاميركي الشمالي قد ساعد البرازيل الحديثة على النهوض . وقد اجتاحت حمى المضاربة مجتمع اصحاب المزارع وتجار اللحوم والجلود ؛ ثم ما لبثت هذه الحمى ان امتدت الى مناطق احراج امازونيا الفنية بالمطاط فتحسن التجهيز واتسعت المدن ، ولكن تفعل الفئات المثيرة قابله بؤس الجماهير التي كان الجوع رفيقها الدائم . وقابل نخبة من كبار الحقوقيين والكتاب المنتجين من جهة سيطرة امية واسعة من جهة اخرى . وقد طبعت التناقضات الاجتماعية والاقليلية الجمهورية الكبرى الخاصة لنظام

الانتخاب العام المباشر بطابع مميز لم تعرفه من قبل .

كما في القارات الاخرى ، وفي المناطق المتقابلة بالنسبة لخط
الاستواء ، تمتد جنوبي خط الجدي مساحات واسعة جرداء ،
وتصبح الارض جافة والمناخ منشطاً ومقوياً . تنمزل المجموعة
السكنية في البامبا ، شبيهة بالمزرعة البويرية او الانكلوساكسونية ، ويتعاطى اصحابها تربية
المواشي . ويذكر نمو المدن الجديدة بالاراضي الجنوبية المقابلة ايضاً : فمنذ السنة ١٨٧٠ اقام في
المدن زهاء ٤٠٪ من سكان الأرجنتين ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ضمت « بوينوس ايرس » ٦٠٠.٠٠٠
نسمة من اصل ٤ ملايين ونصف المليون . وهناك نسبة اعلى من هذه : فان الـ ٢٠٠.٠٠٠ شخص
الذين عاشوا في « مونتفيدو » كانوا يمثلون اكثر من ربع سكان الاوروغواي . ويذكرنا مرفأ
تصدير الاصواف واللحوم والجلود هذان بمرفأَي ملبورن وسيدني .

ويبرز التضاد خصوصاً مع البرازيل ، غير المتجانسة ، والمتشعبة بفعل التواءات : فنحن
نتصور دولة كبرى واحدة في اطار واسع جداً وخال من التواءات هو اطار السهل الذي تتجه
مياهه كلها الى لابلاتا . والحال لم يتجاوز سكان بوينوس ايرس الـ ٢٥٠ ألف نسمة حين قررت
انكلترا فيها إبطال الميثاق الاستعماري الاسباني وأولتها كل اهميتها . وحتى في السنة ١٨١٦
اعلن سان مارتين في توكرمان استقلال ولايات لابلاتا المتحدة قبل ان يذهب الى « ليا » لبحث
فيها عن مفاتيح مسكنه . وستبقى حدود الجمهورية زمناً طويلاً بدون تعيين . ففي سبيل
استمالة اقليم الـ « شاكو » وأقاليم الفاراس والملح في منطقة جبال الاندس ، كان يقتضي الانتصار
على البامبا التي لم تكن حلقة اتصال بل عائقاً جدياً . وقد اصاب سارمينتو حين قال : « ان
المصيبة التي تعاني منها الجمهورية الفضية هي امتدادها ؛ الصحراء تحيط بها من كل جانب وتدخل
الى قلب البلاد ؛ العزلة والمسافات الخالية من اي مسكن بشري تؤلفان الحدود المسلم بها بين
الولايات المختلفة » . وهكذا فان البورة التي يسيطر عليها الجفاف واسراب الجراد وقر فيها
مسالك نادرة للعربات ، قد تحكمت بوسط البلاد وحتى بمشارف العاصمة وعزلت الولايات
وخلقت الفوارق الإقليمية . ولكن الحقيقة التي يجب قولها هي ان البلاد افتقرت الى السكان
الذين لم يبلغوا المليونين في السنة ١٨٧٠ .

تخطى المفكر « ريفا دافيا » اهل زمانه الى تجربة محاولة ديمقراطية تكون على رأسها نخبة
سكان العاصمة . فحدثت ردة فعل انفصالية عنيفة كادت تؤدي الى قيام ثلاث او اربع دول
مستقلة مكان الأرجنتين المتفككة لولا شدة عزم « روزاس » . سار روزاس على رأس عمال المزارع
ورعاة المواشي وسحق الزعماء المحليين او قواضهم واقترح على الأرجنتينيين احتلال المناطق النهرية .
وتحدى أوروبا . اجل لقد انتهت فظاظته بقتله ، ولكن عمله بقي من بعده .

كانت أرجنتين السنة ١٨٥٠ من حق مواليد المستعمرات والخلاسيين الذين اسسوها . فكل

شيء فيها كان مرتبطاً بالراعي الذي يراقب ويطارد ويسلم القطعان التائهة: وقد عظمه سارمينتو في كتابه «فاكوندو». ولكن بورجوازية اعمال تمت في بوينوس ايرس واتصلت بأوروبا ونازعت المزارعين المكاسب التي وفرتها لهم تربية المواشي. فان «أوركوزا» الذي دشّن العهد الاتحادي ما زال أشبه بسيد عقاري كبير؛ أما سارمينتو فقد أنبأ بتسلم البورجوازيين زمام السلطة.

وكما جرى في البرازيل، حدثت ثورة بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٠. فمن جهة رفعت الهجرة الأوروبية عدد السكان من مليونين إلى أربعة ملايين: مما زاد نسبة البياض في لورن الارجننتين. ومن جهة ثانية تعاضل شأن الاقتصاد الراعي تعاضلاً كبيراً: فتمت في الوقت نفسه القطعان المعدة لإنتاج الأصواف والقطعان المعدة لإنتاج اللحوم؛ وعقبت تسليمات اللحوم المجففة تسليمات اللحوم المملحة، وبني البراد الأول في السنة ١٨٨٢. ثم بوشر تنفيذ بعض المشاريع ببناء الخطوط الحديدية، فارتسمت الشبكة التي ستنشأ في المستقبل وتوثقت روابط الاتحاد. وزاد نفوذ بوينوس ايرس الفخورة بمجتمعها الأنيق وبمشارطها: وبرمته ارجنتين سارمينتو وألبردي عن حرصها على التعليم الإلزامي والدروس العلمية؛ وفي السنة ١٨٩٥، عادت التجارة الخارجية بأهميتها تجارة البرازيل التي كانت تفوقها سكاناً.

بينما كانت الباراغواي عائشة في ضيق تحت سلطة دكتاتوريتها الذين دافعوا بلا مراء دفاعاً حريصاً عن شخصيتها العنصرية، ولكنهم جروها إلى كارثة لن تنهض منها قبل القرن العشرين، استفادت الاوروغواي من حسن طالع الارجننتين. فالرعاة سوا فيها الشرائع على غرار ما جرى في الجهة المقابلة وراء لابلاتا، وتوصلوا في السنة ١٨٩٠ إلى جمع ٢٣ مليون حيوان مقابل ٧٠٠ ألف نسمة. ولكن بورجوازية مونتفيدو، المدينة الجميلة القائمة على رأس داخل في البحر نظير قرطاجة، اقتصفت بابتهاج فكري عظيم. أجل كان الصراع عنيفاً بين البيض، الأسباني المنشأ والكتوليك عموماً، من جهة، وبين الملونين، الخلاسين المستندين إلى المحافل الماسونية عموماً، من الجهة الثانية: ولكنه لم يمنع انفصال الكنيسة عن الدولة، وإلغاء عقوبة الاعدام، وإقرار قانون العمل.

لم تسمح جبال الاندس بأن تحتل دولة واحدة كل عرض الشيلي: غرابة جغرافية ونجاح قومي البر عند المناطق المتوسطة البعد عن خط الاستواء. يضاف إلى ذلك من جهة ثانية أن قبطنية الشيلي العامة كانت تابعة لليما؛ وعلى شواطئ الباسيفيكي قام الجسم المسيخ الذي تحاذت ولاياته، على طول ٤٢٠٠ كيلومتر و ٤٠ درجة من درجات العرض كما تتعاضد خورزات السبعة، وتميز بمواصلات برية بعيدة التصديق وبسواحل تكثرت فيها الرؤوس والخلجان. فكانت البلاد أشبه ما تكون بجزيرة تحيط بها المياه والقمم المرتفعة وأحراج المناطق الباردة في الجنوب — حيث تقطع الأخشاب الضرورية لبناء السفن — والصحراء

الحارة في الشمال ، ويمتد في وسطها واد معتدل المناخ وخصب القرية ،

تسلم وادي سانتياغو هذا زمام السلطة مستفيداً من مرفأ كبير هو فالباريزو ومن مجاز
الـ «كومبر» المؤدي الى البامبا الغنية بالخيول التي اولع بها أصحاب المزارع. وأضافت بعض العائلات
الفنية من مواليد المستعمرات مكاسب زراعة الحبوب الى تربية المواشي . وتحقق الاستقلال
بمساندة الانكليز . ومنذ ذلك الحين ، أمن الحزبان المتنافسان ، المحافظون والاحرار - اللذان
يمبران عن اتجاهين مختلفين في الرأي العام الارستوقراطي - تسيير عجلة الشؤون العامة دون
صعوبات هامة .

ولكن الشيلي ما كانت لتحتل مركزاً هاماً في هذه المنطقة الضيقة . ففي سبيل السيطرة على
الاحراج الجنوبية توجب عليها اخضاع الاروكان ، فدخلت صراعاً لن ينتهي الا في السنة ١٨٨٣
ارغمها على البقاء في حالة حرب دائمة. واستغلت كذلك صفاتها الحربية بشنها على بوليفيا والبيرو،
بقية الاستيلاء على الصحراء الشمالية الفنية بالمعادن ، حرباً لم تكن دون صراعها مع
الاروكان عنفاً .

على الرغم من ان عدد سكانها قد تضاعف ، افتقرت الشيلي الى اليد العاملة ، وكانت الاجور
فيها اعلى منها نسبياً في البلدان المجاورة . ولستنا نعي بذلك زوال البؤس ؛ فاستثمارات المناجم
كانت أشبه بالجحيم . ولكن الترات والنحاس قد وفرا مداخيل اتاحت تجهيز البلاد بالخطوط
الحديدية والمرافئ . وتماظمت طبقة بورجوازية فازعت الاوليفارشية المقارية السلطة : فان
ثورة السنة ١٨٩١ التي نهض بها الاسطول واستفاد منها رجال المال ، انتهت باستقالة « بالماييدا »
آخر رئيس سلك سلوك الاشراف . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار النهضة الاقتصادية وحسن
ادارة الاموال العامة وتقدم التعليم وتقسيم الاملاك الكبرى تقسيماً تدريجياً ، بدا لنا ان مستوى
الحياة العام كان آخذاً في الارتفاع .

بعد قواري بوليفار وتبخر حلمه -وحدة النيابتين الملكيتين
القديمة ، غرناطة الجديدة ولما - اشرف خلفاؤه على ولادة
المرتفعة : نموها العسير
خمس جمهوريات خصيمة وفقيرة . ولكن الطبيعة نفسها قد
ساعدت على التجزئة : فان قيام النيابتين قبل مشروع التوحيد كان مطابقاً لتضاد كلي
الوضوح بين المناخات الرطبة والمناخات الجافة في الجبال التي لم تتأثر بها تأثراً كبيراً ؛ فلن
يتمكن اي مركز من فرض نفسه بعد انهيار السيطرة الاسبانية .

جمع البيرو بين المناطق المنخفضة التي يتعذر زرعها الا بواسطة الري وبين وعورة الهضاب
التي تعتبر بين اكثر هضاب الكرة الارضية ارتفاعاً واقفاراً . انها ارض الهندي والحشروف
والجل الاميركي والمعادن الثمينة .

اما الكتلة الكثيفة ، التي ارتبطت ببنياية لابلاا الملكية بعلائق تجارية وانضمت اليها في

عهد متأخر ، فقد حملت اسم « ليبرادور » المجيد . ولكن اسمها لم يحمل منها دولة قوية : اذ لم يتجاوز سكانها المليون نسمة في اكثر من مليون كيلومتر مربع في السنة ١٩٠٠ . وقد بلغ السيل الزبى عندما فقدت بوليفيا منفذها الضيق الى البحر وانتزعت البرازيل منها بعد ذلك اقليم « اكر » الفني بالمطاط . اضيف الى ذلك ان سكانها الفقراء والمتخلفين لم يستفيدوا استفادة كبرى من ثروة الفضة التي ما لبثت ان انضمت اليها ثروة اعظم شأنًا هي مناجم القصدير الوفيرة .

لم تكن البيرو اوفر حظًا . فان ليما ، العاصمة القشتالية الساحرة ، كانت آخذة في التدهور بسبب بعدها عن « الاراضي الباردة » أي عن المنطقة الهندية المرتفعة ، وقد مالت طبعاً الى اعتبارها كاحدى ملحقاتها . وقد اضرت بها « اريكويبا » بفضل حسن موقعها بالنسبة لمراكز الغوانو ، ومناجم النترات ، و « كوزكو » وحتى منطقة مونتانا الامازونية الطابع التي اجتذب « مطاطها القشتالي » العديد من المهاجرين في اواخر القرن . اجل لقد اعتق الكوديلو « كاسيلا » الزوج والهنود ، ولكن مسألة اليد العاملة اصبحت مسألة عسيرة ، لا سيما وان ٩٠ ألف صيني الذين نزلوا الى البر بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ لم يلبثوا ان اعتبروا غير مرغوب فيهم . ولكن الدولة يجب ان تعيش من الغوانو والمناجم : أقلم يذهب « مانويل باردو » الى حد تقرير احتكار النترات في السنة ١٨٧٥ ؟ والحال فقد عجز الجيش الشعب والمتطلب ، الذي ترتبط به السلطة ، حتى عن الدفاع عن النترات ! وفقدان النترات يعني الافلاس ، لا سيما وقد تقلت وطأة ضريبة الملح على كامل عامة الشعب . انه لتاريخ حكم معوز تخللته ثورات دائمة شاهدها الشعب دوغما اكثر اث .

عرفت الاكوادور ، الضيقة الرقعة ، مشاقات مماثلة . فان « هكيتو » ، العاصمة الهندية القديمة ، القائمة على ارتفاع ٣ آلاف متر ، لم تتغلب على « غواياكيل » ، سوق تصريف محاصيل مغارس المناطق الحارة . وازداد هنا التضاد الذي شاهدها في البيرو بين « الاراضي الباردة » و « الاراضي الحارة » . وادت ازمة قصب السكر الذي كان يزرعه الزوج الى افقار اصحاب المغارس ، وما كانت شجرة الكاكاو بعد لتخلص البلاد من ورطتها . ولذلك فان الجبل القاسي والمتخلف قد فرض « فلوريس » وساند « غارسيا - مورينو » والمحافظين ورجال الاكليروس . وقد دخلت الاكوادور في نزاع دائم مع جيرانها ، فانكمشت رقعتها شيئاً فشيئاً وفقدت في النهاية نصيبها من منطقة « مونتانا » .

ابعد الى الشمال تزول الانجاد في جبال الاندس وتزداد الرطوبة ، فتتجزأ كولومبيا جبالات وعرة المنحدرات وودياناً داخلية سحيقة موازية لخط الطول ، بينما تمر لها عن شاطئ « شوكو » الباسيفيكي احراج كثيفة الاشجار . وذهب بعضهم الى حد القول انها اشبه بجزيرة جبلية تحيط بها الاحراج . وقد نشطت فيها تربية المواشي في « المناطق الباردة » الى جانب المغارس في « المناطق المعتدلة » ، ووجهت شبكتنا « مجدلينا » و « كوكا » حركة النقل فيها شطر بحر

الانتيل لصلحة قرطجنة . واعطاها امتلاكها لضيق باناما مركزاً دولياً قوياً لم يخل من الاخطار .

تسلطت ذكريات غرناطة الجديدة على رجال بوغوتا الذين لم يرضوا بالتخلي عن فكرة كولومبيا الكبرى على الرغم من ان حكم كولومبيا الحالية كان من الصعوبة بمكان بسبب انقسامها . فسكان المناطق المختلفة لا يرون مبرراً يوجب عليهم الانحناء أمام توجيهات سكان بوغوتا؛ فئات تجانبت وتآلف كل منها من مواليد مستعمرات وخلاسين وزوج ومن بعض الهنود الذين لا شأن لهم . اضيف الى ذلك ان الاقتصاد كان في حالة ركود : فقرطجنة لم تكثرث لانكباس القناة التي كانت تصلها بمجدينا ، والاسهام الاوروبي كان طفيفاً جداً . وكانت الاثرة الاقليمية والبؤس مصدر الاضطرابات التي ارتدت طابع الوحشية القسوى . وانتقل الحكم من المحافظة الاوليغارشية الى الراديكالية ، ومن مناهضة الاكليروس الى ردة فعل اكليروسية ، ومن الغاء حكم الاعداء الى مذابح بين انصار الفرقاء ، ومن الاتحادية بين الولايات الى الدكتاتورية الخائفة . واتضح التدخل الاميركي في النهاية وأدى الى خسارة باناما ، بينما هباً نجاح زراعة القطن وشجرة البن لمستقبل قريب افضل ، بانتظار ظهور البترول ، ذلك المورد غير المتوقع .

جاءت الثورة مبكرة في شطر غرناطة الجديدة المتجه نحو بحر
الانتيل والمجاور لسباسب الاورينوك ايضاً : فقد استطاع
مواليد المستعمرات الاتصال بكوراسا ووترينيداد من جهة ،
والحصول على المساعدة والحماية في السهول . وكانت هنالك حركة نقل هامة بين مناطق تربية
المواشي الداخلية الواسعة وبين المراقىء ؛ وكانت الجزر قد ادخلت الى مرتفعات غرناطة
الجديدة زراعة شجرتي البن والكاكوا واسترقاق الزوج . فألف مربو المواشي وأصحاب
المفارس من ثم الفئتين الاجتماعيتين اللتين سيتيح اتفاقهما انهاء فنزويلا ، وربما تفسر خلافاتها
تاريخها المضطرب ايضاً .

هم سكان السهول ، وسواهم من الخلاسين ، القساء والامين ، الذين الفوا ، بقيادة « بايز » ،
« زعيم السهول » ، خير عناصر الجيش الذي جمعه بوليفار . ولكن الدستور الاتحادي
والاوليغارشي الذي خلفه « المحرر » ما كان ليحول دون الحروب الاهلية التي نمت ابانها الروح
الانفصالية : فان انفصال « ماراكايبو » ، منافسة كاراكاس ، استعجل التطور نحو الصيغة
الاتحادية ، فقسم دستور السنة ١٨٦٤ البلاد الى ٢٤ ولاية . وفي فترة من الزمن ادار الكوديلو
« غوزمان بلانكو » دفة الحكم بقوة : فنظم الجيش وناصر الادباء وسعى الى تنمية الاقتصاد
وعادى الكنيسة التي كانت ممتلكاتها مغرية ، ولكنه لم يرض مع كل ذلك بالخضوع لاوروبا
الاستعمارية . فقد نشب نزاع على الحدود بينه وبين انكلترا حول اراضي « يورواي » الغنية

بالذهب ، دام ١٣ سنة . ثم تجددت الاضطرابات ، مصادفة في الزمان حدوث الازمة التي عانت منها تربية المواشي : فوجهت الاوبئة الحيوانية والحروب الاهلية ضربة خطيرة لسكان السهول الذين كانوا يرفضون الانحناء امام فنزويلا البن والكاكاو . وهنا كما في غير مكان تم الانتقال بصعوبة من اليد العاملة العبدية الى نظام العمل المأجور : وعلى الرغم من ارتفاع عدد السكان ، فان الهجرة الاوروبية ما زالت غير كافية ، لا سيما وأن مناقسة المزارعين البرازيليين كانت مثاراً للخوف . زد على ذلك اخيراً ان هوة سحيقة قد باعدت بين الاقلية المتعلمة والفنية وبين كبار الملاكين والسكان الآخرين ، في هذه الجمهورية المدعية بالديموقراطية .

يمكننا اجمال القول بأن النظام الاتحادي قد حد من تجزئة الجمهوريات المصرية في اميركا الوسطى الكتلة الاميركية الجنوبية . أما في اميركا الوسطى ، فقد اخفق وعجز عن تحقيق إعادة التجمع . فقبطانية غواتيمالا العامة القديمة قد تجزأت بعد رفضها سيطرة المكسيك التي كانت متحدة بها في نيابة اسبانيا الجديدة الملكية .

دفع المناخ الحار والرطب نفسه بالانسان في كل مكان تقريباً الى « المناطق المعتدلة » . ولكن كثافة السكان متباينة تبايناً بعيداً والتكوين العنصري مختلفاً جداً . فبينما كانت غواتيمالا ، ولا سيما سان سلفادور ، أكثر أهلاً بالسكان من البلدان المجاورة ، تميزت كوستاريكا بنسبة كبرى نادرة من العنصر الابيض . ولكن هذه الأخيرة انفتحت من تحمل شريعة دول الملونين ، كما ان غواتيمالا افتقرت الى التفوق العددي الذي كان من شأنه ان يعيد اليها اولويتها السياسية القديمة . سيطرت من ثم على هذه الدول حروب دائمة كثيرة ، كما سيطر على كل جمهورية اضطراب داخلي مزمن . ولم يحقق الفاء الرق التهذئة الاجتماعية . وهو أحد كبار اصحاب مغارس شجرة البن من انشأ في غواتيمالا الطريق الجيدة الوحيدة التي تستطيع اميركا الوسطى ان تفاخر بها .

لم تستم اميركا الوسطى المهاجرين ، ولكنها اثارت اطماع الدول الاستعمارية والخلافات فيما بينها . واذا كثر الكلام عن قناة تفتح عبر غواتيمالا ، فان الخطوط الحديدية الاولى قد انشئت في باناما وتوانتيبيك ، بينما فتحت القناة في النهاية في البرزخ البانامي .

ما زال اسم المكسيك ، على غرار اسم البيرو ، يعيد الى الذاكرة ارتقاء المكسيك المتأخر امجاد الماضي العظيمة .

ولكن الواقع اراد ان تكون البلاد فقيرة . فان سواد السكان - ٦ ملايين حوالي السنة ١٨٠٠ ، و ١٣ مليون ونصف المليون في السنة ١٩٠٠ - خضعوا لمستوى معيشي متدن جداً . إلا ان هنالك نسبة من الحلاسين ربما سارت نسبة الهنود في اواخر القرن . وهذا هو بالضبط سبب حدة التضاد بين الارستوقراطية البيضاء الاسبانية الاصل وبين الملونين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان شبه الجزيرة المرفق هذا يمتد في جوار الولايات المتحدة والدول الاستعمارية

الموجودة في الانتيل . فقد سعى مواليد المستعمرات الى اطالة النظام الاسباني بشكل ملكية محافظة تؤمن امتيازاتهم ، كما رغب الاجانب ، فيما يعينهم ، في قيام سلطة تضمن استثمار الثروات المنتجمية استثماراً هادئاً : فكان هنالك ارتباط مزدوج . وسواء عمت القوضى أو ساد النظام فان مصير المكسيك يخضعها لأحد هذين الارتباطين . ولم تحمل الحكومة المقيمة في مكسيكو الا بصعوبة كلية دون تجزئة نيابة اسبانيا الجديدة الملكية القديمة : فمن جهة افلقت اميركا الوسطى من يدها ، ومن جهة ثانية ، اضطرت لأن تتخلى للولايات المتحدة عن مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ؛ وبعد انفصال تكساس ، تغلبت بصعوبة على انفصال سونورا وشبهواها في الشمال الغربي الصحراوي ، ويوكاتان وراء احراج تهوانتيبليك . ومهما يكن من الأمر فقد تغلب النظام الاتحادي الذي كرس ضعف السلطة المركزية .

عشاً حاول « ايتوربيد » ، باسم « اوغسطين الاول » ، ان يقلد الاباطرة بمساندة الجيش والاكليروس وكبار الملاكين في الهضبة الوسطى : فعين انقطع عن اغراء الجيش بالمال ، بدأ عهد الحركات الانقلابية والاضطرابات بالاستناد الى دستور جمهوري اتحادي . واشتهر « سانتا - آنا » بفرابة اطواره وتقلبه - فتارة اعتمد على الحلاسين وأمر بأبمصاد حتى ٢٠ الف من مواليد المستعمرات ، وأخرى استند الى الاوليفارشية والاكليروس - وعاش من القروض ولقط حيثما سقط ، فسيطر على عهد بليلة لا يمكن وصفها أدت الى كارثة السنة ١٨٤٨ . ثم عرفت البلاد فترة حكم مركزي لم يكن اوفر حظاً . واخيراً استعجل الغاء الرق فقدان تكساس .

قام الراديكاليون - « الاطلسار » - « باصلاح » على حساب الكنيسة لم يرض الهنود والحلاسين (فهم الرأسماليون من اشراف الممتلكات المصادرة) ، بل تحول الى حرب اهلية وجر الى التدخل الاجنبي . أجل لقد حقق « جواريز » ، بمد اخفاق امبراطورية مكسيميليان المحافظة ، حكماً علمانياً افاد منه الحلاسين والتعليم الشعبي . ولكن الأمية كانت عميقة الجذور ، والفدائية الهندية لم تُلغ ، والحكومة لم تتوفق الى فرض هيبتها نهائياً .

حين استلم نائب جواريز ، بورفيريو دياز ، زمام الحكم بدوره ، بدا الظرف مؤاتياً للعلماء ، الراغبين في تطوير المكسيك وجعلها دولة عصرية ، حتى ولو انتهت السلطة الى دكتاتور .

ولكن الكوديلو استخدم هذه الطبقة المثقفة المتأثرة بالفلسفة الوضعية وسحق كل مقاومة واصوصية معاً بواسطة قوى أمن حسنة التنظيم ، واشرك في مجهوده الاكليروس ، والملاكين ، والمضاربين الذين اثروا بفضل « الاصلاح » ، وانصرف الى ايجاء الثقة للرأسماليين الاجانب . فانشئت شبكة الخطوط الحديدية ووصلت بخطوط الولايات المتحدة ، وفتحت بعض المصارف ابوابها ، وارتفعت التجارة الخارجية الى خمسة اضعافها خلال ٢٥ سنة ، وتجمعت مدينة مكسيكو واتخذت فيها التدابير الصحية الضرورية ، وجمعت بورجوازية من الحلاسين ثروات طائلة . ولكن هذه النجاحات كانت اعجز من ان تخفي العجز المالي ، والبؤس والجهل الشاملين ، واستثمار الاجانب بالاراضي والمتاجم .

من غرائب الظواهر ، بميد الاستقلال ، ان بعض الدول
غويانا والانتيل تحت السيطرة الأوروبية الشالية قد حافظت على ممتلكاتها. وتشمل هذه الممتلكات ،
بالإضافة الى هوندوراس البريطانية ، غويانا بكتيتها ومعظم جزر الانتيل. لا بل حدث في السنة
١٨٩٨ ان اقصيت اسبانيا عن مستعمرتها الاخيرتين ، كوبا وبورتوريكو .

ان جبال غويانا ، المرتفعة وراء ساحل منخفض كثيف الاشجار ، والمغطاة بأحراج وسباسب
المناطق الحارة ، وغير المؤاتية للاستعمار الأوروبي ، قد مرت بأزمة حادة خطيرة . فقد
افتقرت مفارس قصب السكر واشجار البن فيها الى اليد العاملة البديلة حين الفي الرق . بيد ان
تحسناً نسبياً طرأ على الوضع حوالي السنة ١٨٩٠ بإدخال الجاوانيين الى القطاع الهولندي والهنود
الآسيويين الى القطاع البريطاني . اما القطاع الفرنسي فما زال يعاني من الأزمة .

ومرت جزر الهند الغربية كذلك بساعات عصيبة ايضاً .

خرجت بريطانيا العظمى بمكاسب كثيرة من التنازعات الدولية الطويلة . فعلى الرغم من
ان الاسبانيين ما زالوا يمتلكون جزيرتين كبيرتين من جزر الانتيل ، وان الهولنديين احتفظوا
بكوراساو ، والفرنسيين استعادوا المارتينيك و « غوادلوب » و « ماري - غالنت » ، فانها قد
احتلت مركزاً ممتازاً في الوسط بفضل امتلاكها « جامايكا » وسلسلة شبه متصلة من الجزر ،
من برمودا وباهاما الى مصاب الاورنيوك ، اي انها راقبت النتيجة المناطق المجاورة للمتوسط
الاميركي والبرازخ .

ولكن الهزة الاجتماعية التي سببها الغاء الرق قد خلخل هذا العالم الذي كونه الاستقرار
الاستعماري . فان الحرب العبدية التي اجتاحت جزيرة هايتي والتي لم تتعاف هذه الأخيرة من
بعدها ، قد انتقلت الى جامايكا حيث لم يضمم اعتاق الزنوج جروح الاقتصاد . واذا اتاحت
ثورة السنة ١٨٤٨ في فرنسا تبني مرسوم « شولسر » ، فان الامبراطورية الثانية حاولت العودة
الى اشكال الأعمال الشاقة ، بينما سلمت هولندا بدورها مبدأ الاعتاق . وبعد السنة ١٨٧٠
مثلت الجمهورية الثالثة مستعمراتها بالوطن الأم . اما اسبانيا فقد غضت الطرف بملء رضاها عن
النخاسة التي وفرت لنخاسيها مكاسب كبرى ؛ إلا أن الثورة التي اندلعت في كوبا وبورتوريكو
ارغمتها على ان تحذو حذو الدول الأخرى . فلم يسلم من ثم نهائياً بالقضية إلا بعد قرن كامل من
الماطلات والتأجيلات . ويرد ذلك الى تصادم رز دول جديدة ومنتجة لقصب السكر والقطن
والبن والابازير والاشباب الغربية ، ومنافسة الشندر لقصب السكر والكيمياء للنيلج .
فاصيب الاقتصاد الانتيلي بضربة مزدوجة .

في جزر الانتيل الفرنسية ضحي بالزروعات « الشريفة » . ولكن الادوات اللازمة لانتاج
المواد الاساسية كانت بدائية ، والعمل كاد لا يكفي لحاجات السكان الكثيرين المتزايدين تزايداً
سريعاً . يضاف الى ذلك تزايد متطلبات صاحب الملك كلما هبط انتاج المغارس . وحين استعاد

السكر هجومه ، استفادت منه الاملاك الكبرى لان التكرير المصري يؤدي بالضرورة الى جمعه في « المعمل المركزي » . ففي السنة ١٩٠٠ احتل قصب السكر نصف الاراضي المزروعة في المارتنيك . وعلى الرغم من المؤسسات التمثيلية ، فقد بقي الفارق كبيرا بين كبار الملاكين وجمهور الزوج الذين يكتفون بالقليل .

في جامايكا استمرت الحرب العنصرية حتى السنة ١٨٩٥ . وكثيرون هم الزوج الذين رجعوا الى قلع الاعشاب واحرقها وذر رمادها على الارض الزراعية والى تربية المواشي البدائية . واستعان البيض بالعمال الشرقيين المستأجرين الذين اثاروا منافستهم اشتباكات مسلحة جديدة ؛ وقد اعتمدوا على الاجور المندنية للمضاربة في اسواق السكر والبن ؛ ولكن المهود كان كبيرا منذ السنة ١٨٨٠ . وتأثرت كذلك تأثراً كبيراً بأزمة السكر جزر ترينيداد والدومينيكا وبارباد ، فاتجهت الاولى نحو زراعة شجرة الكاكو والثانية نحو زراعة شجرة الليمون والثالثة نحو زراعة ال « مارنتا » .

كانت كثافة السكان مرتفعة في بورتوريكو ، صغرى الجزيرتين الاسبانييتين . ولكن الجزيرتين اهلنا بأكثرية من البيض الذين تعودوا ظروف الحياة المحلية . وبفضل الهجرة الاسبانية كانت نسبة الملونين آخذة بالتدني . وفي كوبا ، توسعت زراعة قصب السكر توسعاً كبيراً في اراضي الغرب الجيدة ، بينما توزعت زراعة شجر البن والتبغ على مناطق مختلفة ، وحرس الرعاة الفرسان قطعان المواشي في « كاماغواي » الرملية . وهكذا ارتفع انتاج السكر من ١٢٠٠٠ طن في السنة ١٧٧٠ الى اكثر من ٧٠٠ الف في السنة ١٨٨٠ . وقد جمعت الثروات الكبرى بفضل المغارس والنخاسة ؛ ولكن فقراء البيض لم يكونوا اوفر حظاً من الزوج وخلاسي الزوج والهنود .

عشية الحرب الانفصالية الاميركية ، بدأت الازمة الكوبية الكبرى . فبينما برز جاذب الولايات المتحدة ، نرى الوطن الاسباني الام ، الذي اهل تجهيز الجزيرة بالادوات اللازمة ، يتجاهل الامة والحال الصحية السيئة في المستعمرة ، ويفرض على معاملاتها التجارية رسوماً مرتفعة ، ويضع العراقيل في سبيلها . ولا يخلو من المفزى ان زعيم الثورة « دون كارلوس مانويل سبيدس » كان احد كبار اصحاب المغارس الاغنياء ؛ وحين طلب الى الزوج امتشاق السلاح ، اسرعت مدريد الى الغاء الرق .

اتاحت قضية كوبا للولايات المتحدة التدخل مباشرة في الانتيل وتحويل ميزان القوى فيها لمصلحتها .

مها قيل في ما عانتها الجزر الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، فان البلايا التي
جمهرتنا هابت امتحنت بها هاي تي تفوق بلاياها طرا .

ان تاريخ الارض الهايتية انما هو تاريخ فوضى مستمرة واقتصاد متهور .
منذ زوال السيطرة الفرنسية ، لم يترك الجزء الغربي من « سان دومينغ » القديمة ، الذي

استعاد اسم هايتي السابق ، سوى اثنين من رؤسائه ينهيان مدة ولايتها . ولم يتردد احدهما ، « فوستين - نابوليون - روبسيير - سولوك » ، الطاغية المعجب بنفسه ، في الادعاء بالكرامة الامبراطورية . وقد احرق « بور - او - برنس » في السنة ١٨٧٩ والسنة ١٨٨٣ ، ولكن الجيش ضم ٧٠٠٠ ضابط مقابل ٦٥٠٠ جندي . ولم يكن هناك من طريق جيدة ، ومعدل الرسائل التي ينقلها البريد هو رسالة واحدة للشخص الواحد كل ثلاث سنوات . ولكن هل يعرف احد بالضبط عدد مواطني الجمهورية ؟ فقد قدره بعضهم بليون نسمة في السنة ١٨٠٠ ، بينما لم يقدره سواهم الا بـ ٥٠٠ الف الذي هو عددهم في السنة ١٨٠٠ . كل شيء كان متأخرا ولا سيما زراعة قصب السكر والقطن . الزوج وخلاسيو الهنود والزوج كانوا يتنازعون الاراضي ولا يتفقون الا على منع البيض من امتلاكها . وعلى الرغم من كل ذلك كان السكان مرحى ، يعتقدون بالسحرة والكهان الراقصين ، ويمارسون تضحية الديكة والكباش البيضاء وحتى الاطفال ، ويجهلون القراءة والكتابة . وقد يحدث احيانا ان يدفعهم طبعهم الحربي الى مهاجمة الجمهورية المجاورة .

في أواخر القرن الثامن عشر كان الجزء الفرنسي من الجزيرة متفوقا تفوقا بينا من حيث عدد السكان والثروة . ولكن نسبة الخلاسين المرتفعة في القسم الاسباني قد خففت من وطأة الاختلافات العنصرية . اما الجمهورية الدومينيكية التي لم تخل من الاضطرابات ، فقد تميزت بزيادة من الحلم وتوفقت الى رفع عدد سكانها الى اربعة اضعافه ، والى تحسين تربية المواشي ونوعية التبغ . وقد كان من بعض مواليد المستعمرات وبعض خلاسيو الزوج والهنود ، بقيادة احد مربي المواشي الحازمين ، « سانتان » ، ان فكروا بالتخلص من الاضطرابات بالرجوع الى السلطة الاسبانية ؛ ولكن الاتفاق الذي عقد في السنة ١٨٦١ لم يدم طويلا . وخلاصة القول ان التأخر في الاستعمار بقي كبيرا جدا ، ومستوى الحياة متدنيا جدا .

اذا ظهر منذ زوال الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية ،
 الشعور الذي ايدته رسالة مونرو بشراكة المصالح بين
 اميركية شاملة
 الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى واميركا اللاتينية ، فقد
 قابل براهين التضامن التي قدمتها الاولى موقف حذر غير خفي وقفته الثانية . ومرد ذلك الى
 ان سكان واشنطن ونيويورك احتقروا كل ما هو « داغو » ، اي من اصل ايبيري ، بينما سخر
 « داغو » بـ « غرنفو » ، اليانكي الوقح . يضاف الى هذا ان اعمال العنف التي كانت المكسيك
 ضحيته في السنة ١٨٤٨ من قبل الولايات المتحدة ، والقحة التي سوت بها هذه الاخيرة مسائل
 البرازيل تسوية مباشرة مع لندن ، كانت كافية لجعلها مريبة في نظر اولئك الذين كانت تظاھر
 بحمايتهم . وما كان اميركيو الوسط والجنوب ليجعلوا انهم واثروا هدف التنازع على النفوذ بين
 الدول الأوروبية والولايات المتحدة . فهم لم يشعروا بالليل الى سياسة اميركية شاملة كتلك التي
 يقول بها مونرو الا اذا بدا لهم الدفاع المشترك ضروريا ضد استعمار ما زالت اخطاره محدقة بهم .

الا ان الشعور بتضامن ضروري بين الدول الاميركية قد نما عند رجال القانون وعلماء الاجتماع في الجمهوريات التي انهكتها حروب متكررة اعتبرت حروباً بين الاشقاء . وهكذا فقد نشر اندريس بلاثو، الشاعر الكبير وجامع القانون الشيلي، « مبادئ الحق الدولي » المشهورة التي استوحت مؤلفات القرن الثامن عشر الكبرى وبشرت ببيانات القرن العشرين . وفي الاجتماعات التي عقدت في ليا، اقترحت صيغ جميلة من اجل التعاون بين الامم التي يجمع بينها دم واحد وثقافة واحدة . ومع ذلك لم يبد غربيا ان تستهوي بعضهم رؤيا التقارب على قدم المساواة من الوطن الام القديم : فان كولومبيا وفنزويلا قد توجهتا الى اسبانيا لتسوية خلاف على الحدود . وكان غيرهم اكثر واقعية ، وربما ارتضوا بالوصاية المقتنعة التي عرضتها بريطانيا العظمى الموجودة في كل مكان .

في السنة ١٨٨٩ ، بدأ عهد المؤتمرات الداعية لسياسة اميركية شاملة ، اي عهد « مونروية » تستجيب لحاجات دولة استعمارية . قبل كان على اميركا اللاتينية المنقسمة على نفسها والمتأخرة اقتصادياً ، حيث الف الهندي والزنجي والمهاجر الابيض الكادح العناصر الرئيسية للسكان البائسين ، ان تنهرب من عروض الولايات المتحدة يا ترى ؟ ولكن هل هي ستمتتع طويلاً بحرية الاختيار ؟

الفصل الرابع

العالم الاسلامي من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب

لم تفقد الحضارة الاسلامية شيئاً من شخصيتها في وسط القارة
القديمة . اجل لقد اخضعها الاوروبيون سياسياً شيئاً
فشيئاً . ولكن العقيدة التي ارتكزت اليها قد حافظت على
حيويتها ، ولم تتخل عن شرائعها المعيشية واسمائها المزيدي من المؤمنين .

يوافق الاسلام من جهة ، وبصورة خاصة ، المساحة الشاسعة النادرة المياه ، او حتى
الصحراوية ، التي تمتد من موريتانيا الى الهندوس السفلي وبورات تركستان : وهي تمثل ، على
وجه التقريب ، فتوحات العرب الذين وجدوا فيها ظروفًا سكنية شبيهة بظروف بلادهم .
ومن جهة ثانية ، تخطى دين النبي في عهد لاحق . بدخل فيه القرن التاسع عشر . حدود هذه
المناطق باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وانتشر في مناطق المناخ الحار الرطب وحتى الاستوائي ،
سواء في افريقيا وراء الصحراء ، او في الصين الجنوبية ، حول المحيط الهندي ، وحتى في
المالوك ،^(١)

ما هو عدد هؤلاء المسلمين الذين يؤدون واجب الصلاة يومياً ، جاثين ارضا ، ومتجهين نحو
القبلة ، اي نحو مكة ؟ ان رقم الـ ١٧٥ مليون الذي اعطاه « بلونت » في صكحاته ، مستقبل
الاسلام ، ١٨٨٢ ، هو دون الواقع في الأرجح (لم يقدر المؤلف الانكليزي حتى قدرها اربعة
عدد المسلمين في الهند والاراضي الروسية . ومنها يمكن في الامر فاننا نعتبر هذا العدد قليلا

١١ راجع خريطة الصفحة ٥٢٩ من المجلد الرابع (الطبعة العربية) ، وخريطة الصفحة ١٠٢٣ من هذا المجلد .

بالنسبة لمساحات على مثل هذا الاتساع . وبلغت الانتباه من جهة ثانية ان سواد المؤمنين يقطنون اشباه الجزر والجزر الآسيوية . ولكن الطقس القرآني يفرض في كلكونا وباتافيا والقاهرة وفاس وتومبوكتو على السواء اللغة المقدسة نفسها ، والشرعية نفسها ، والاخلاق نفسها ، والمؤسسات نفسها . فان ما امر به الكتاب المنزل من الله يصلح لكل الازمنة التي ستسبق مجيء « المهدي » (المسيح المنتظر) . والوحدة قائمة في الاستمرار نفسه ، والتقليد المشترك بالوصايا ، والانتظار المشترك لليوم الذي سيظهر فيه رسول الرب . ولذلك فان الاسلام خلقي ابدأ باسمه المشتق من من فعل « اسلم » ، اي سلم امره الى الله . يعامل الانسان بمزيد من القوة تبررها مراعاته لحاجات الحياة وحتى لبعض مخالفتها ، وتساهله بالتمتع ان لم يكن بالتجاوز ، باعتبار ان الحرمان ينطوي على مساويء يعتبرها خطيرة . فهو مثلاً ينظم تعدد الزوجات دون تحريره ، ويبقي على الرق ويحاول في الوقت نفسه التخفيف من وطأته ، ويحرم المراهبة ولكنه لا يمنع التجارة ؛ يحل المرأة في مرتبة دنيا ولكنه يصرفها في إدارة ثروتها الشخصية ويحيطها بشتى مظاهر الاكرام ؛ يوصي بالحج الى مكة دون ان يحمل منه امراً الزامياً ؛ يحصر اللجوء الى الجهاد ، او الحرب المقدسة ، في الدفاع عن الدين الحقيقي وهدى الاوثان . يخلق بين المؤمنين اخوة ومساواة تتنافيان ووجود طائفة مختصة بالكهنة او الاشراف .

الايان يدفع بألوف المؤمنين كل سنة الى الاماكن المقدسة . وقد قدر بعضهم ان زهاء ٥٠ ألف هندي و ٢٠ ألف ماليزي وعدداً كبيراً من المغاربة والمصريين والأتراك والبرانيين يذهبون الى مكة يؤدون طقوس العمرة حول الكعبة ؛ وقد يأتون للقيام بهذا الواجب حتى من افريقيا السوداء والصين . ينزل معظمهم الى البر في جدة التي تنقلهم اليها سفن بريطانية . أما طريق البر التي تبتدىء في دمشق ، فطويلة وشاقة ؛ لذلك سوف يعلق السلطان عبد الحميد أهمية كبرى على بناء خط حديدي ينتهي الى ضريح محمد ، الى المدينة التي تفصلها عن مكة مسيرة احد عشر يوماً . وسوف يرفع الخط الحديدي الى اكثر من ٢٠٠ ألف عدد الحجاج السنويين الذين لن يستخدم الطريق البحرية منهم بعد ذلك سوى اقل من نصفهم . واجتذبت الجماهير كذلك المدن المقدسة في بلاد فارس الشيعية ، ولكن على طرق اقل طولاً ومشقة .

ساعدت هذه الروحوات والغدوات على سريان الافكار والاشعة . ولكنها في الوقت الذي احييت فيه بعض التيارات التجارية ، أسهمت في انتشار الاوبئة ايضاً . ففي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦٨ ، ظهر الهواء الاصفر في مكة ، ثم انتقل الى شواطئ افريقيا الشرقية والحبشة ووادي النيل : فأدت معاودة الوباء واشتداده الى الفتك بزهاء ٣٠ ألف شخص في زنجبار في السنة ١٨٧٠ . وانتقل الطاعون كذلك من الهند والخليج الفارسي ، فانتشر في السنة ١٨٩٩ - ١٩٠٠ من جهة نحو مصر ، ومن جهة اخرى نحو افريقيا الشرقية وسنغافورة ، وحتى ابعد من ذلك في الباسيفيكي .

ما زال المؤذن في المغرب والسودان وتركستان والانسولند وفي كل مكان يوجه الدعوة الى الصلاة (الآذان) من اعلى المئذنة . وفي كل مكان ايضاً ، وعلى الرغم مما ادخلته الفنون الاقلية من اشكال متنوعة على تصميم الجامع وتزيينه ، أثر الاسلام تجديد القديم على الابتكار . فان بليت العبادة الذي شيده محمد علي في القاهرة لا ينم عن اي فن عصري ، شأنه شأن جامع الحميدية على كل حال ، مهما كان من رشاقة هذا الاخير . ولكن القصور الكثيرة التي خلفها بعض الامراء المتفخلين - قصر شيراغان ، لعبد العزيز (١٨٦٢ - ٦٧) ، وقصر يلدر الذي احتفظ به عبد الحميد بدوره لنفسه بعد زمن قصير في اسطنبول ، وقصر القباري والمكس اللذان شيدهما سعيد في الاسكندرية (وقد تهدم ثانيهما بفعل ضرب القنابل في السنة ١٨٨٢) ، او قصر « بهية » في المغرب الذي شيده بين السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٠ للوصي على العرش احمد بن موسى - استجابات لمستلزمات المناخ وسمحت في الوقت نفسه للابتكارات التزيينية بأن تطلق لنفسها العنان ، وانما لوحظ تأخر في الذوق منذ انتشار الفن الغربي المبذل في اواخر القرن الثامن عشر .

يبدو شكل المدينة الاسلامية وكأنه ثابت لا يدخل عليه اي تغيير : تحاط بأسوار تفتح فيها ابواب ضخمة ، وتغنى ، بالاضافة الى قصورها او سراياتها ، بعيونها العمومية ، ومدارسها ، وزواياها التي تكرس لخدمتها دخول الاوقاف ، وحماماتها التي يتوجب على كل مسلم صالح ان يختلف اليها ؛ وتوزع هنا وهناك اسواقها المسقوفة التي تقوم على جوانبها الحوانيت ، وخاناتها التي تستخدم كمستودعات للبضائع او فنادق ، وتجمع فوضى بيوتها بين الاكواخ الفقيرة ومساكن الاثرياء التي يفرق فيها بين السالمك (او بيرون في ايران) المعد للاستقبال ، والحرم (او اندرون في ايران) المحفوظ للحياة الخاصة . ولكنها ، وان احاطت نفسها بتيقظ بالاسوار ، تحرص ابداً على الفصل بين المسلم واليهودي والمسيحي ؛ فكأنها تعزل مجتمعاً يرى الخير في احترام الوضع الراهن ، من اجل حمايته وتثبيتته على حاله .

كالت ردة الفعل لمخالطة المسلمين لغير المؤمنين اتجاها نحو
التيارات الدينية في الاسلام وسلوك
المسلم حيال العبادات الاخرى
مزيد من التشدد او نحو موافقة ممكنة .

حاولت بعض الاتجاهات الاتفاق وما يعرف بالروح
العصرية عن طريق التساهل . واننا نذكر منها البابية . التي انبثقت من المدرسة الفارسية التي كانت تكتفي بتفسير الامور العجيبة المتعلقة بحياة النبي تفسيراً رمزياً . فان « ميرزا علي محمد » الذي اختار لنفسه اسم « الباب » في السنة ١٨٤٢ ، وبدا من ثم وكأنه « المهدي » ، قد طلع بتعليم يقتبس عناصر كثيرة من المزدية وفلسفة انسانية ماسونية الطابع ؛ أوصى بحياة مطابقة للطبيعة وبمزيد من الحرية الفردية وبمساواة المرأة للرجل ، فأحرز نجاحاً شعبياً جعل السلطة تعتبره خطراً عليها ، ثم أميت بأمر الشاه في الارجح . ولكن احد تلامذته ، بهاء الله ، صمم على نشر دين جديد يقرب بين البشر ويخدم قضية السلام ، فالتف حوله في اوربا واميركا اتباع اكثر عدداً من اتباعه بين

افريقيا الغربية الى « يونان » انطلاقاً من مركزهم الرئيسي في بغداد . ولا عجب من ثم اذا ما قدمت الطوائف الدينية للاسلام قادة وجيوشاً غتارة للحرب المقدسة . فان الدور الذي لعبه السنوسيون بات من الشهرة بمكان . كان سيدي محمد بن علي بن سنوسي وهراني الاصل ومنتسباً للقديرين ، فلفت اليه الانظار في مكة بصلابة عقيدته ، ثم اعتزل في السنة ١٨٥٥ في احدى واحات ليبيا وأسس فيها زاوية ما لبثت ان اشعت في كافة ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية . فشكا تباعه من عدم اهلية سلطان الاستانة ورفضوا مدعياته بالخلافة وبشروا بمجيء مهدي في رأس السنة الهجرية ١٣٠٠ ، اي في ١٢ كانون الاول من السنة ١٨٨٢ . فسمع النداء ، ورفع حينذاك محمد احمد ، النجار النوبي ، لواء الحرب المقدسة . وكان مقدراً لثورة الدراويش ان تستكبد الدولة البريطانية طيلة سنوات عديدة .

وفقاً للتقليد نعم المسيحيون واليهود الذين عاشوا في البلدان الخاضعة للشريعة الاسلامية ، بمجرد تساهل ديني . ولكن هؤلاء غير المؤمنين قد تركوا وشأنهم في ممارسة عبادتهم ونوع معيشتهم شريطة دفع ضريبي الخراج والجزية ؛ ولما كانوا ذميين ، اي رعايا محميين ، حظر عليهم حمل الاسلحة . وبحسب الظروف المحلية ، اختلفت العلائق بين التعاون المعترف به (وهذه حال اروام الفئران) وعداء شبه معلن . وقد مارس شيعيو فارس سياسة هدي الى الدين الاسلامي نجم عنها قيام فئات جديدة مرية من اليهود . وفي السنة ١٨٦٢ دعمت بريطانيا العظمى مسمى قام به آل روتشيلد لدى سلطان المغرب ، ولكن المرسوم الذي حظر كل مناكدة ما لبث ان ابطل . واثارت اسطورة الاغتيالات الطقسية في سوريا التي تحتلها جيوش محمد علي موجة تعصبية صاخبة في السنة ١٨٤٠ ؛ وبفضل تدخل « كرميو » و « مونثيفوري » ، نجا اليهود المتهمون قبل ان يعلن فرمان بطلان الاتهام .

ارتقت الكنائس المسيحية بنوع من التسوية ضمنت بموجبه طاعة مؤمنيه ؛ ولكنها بحثت في الوقت نفسه عن الايد في الخارج . وبحجة حماية هذه الطائفة او تلك ، تعودت بعض الدول الأوروبية التدخل في شؤون الامبراطورية التركية . وأخفت هذه التظاهرات الدينية بعض الحركات القومية : فساندت القيصرية بعناد مستمر الاكليروس والمؤمنين والحجاج الارثوذكسين ؛ واعتبرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة نفسها ملزمة بدورها بالدفاع عن حقوقها التقليدية في حماية الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي انعم بها السلاطين على « الفرنجة » . وغالباً ما عاد سبب المنازعات لادارة بيوت العبادة في الارض المقدسة .

كان ام نزاع ذاك الذي نشب في السنة ١٨٥٣ بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى ونجحت عنه حرب القرم . وفي اعقاب ذلك ، طالبت اوروبا في باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، بالحصول على ضمانات جماعية للسكان المسيحيين في الامبراطورية التركية : مساواة امام القانون وإلغاء ضريبة الخراج . ويرتدي هذا التاريخ اهمية خاصة لأنه يوافق اول مسمى جماعي بغية فرض الاعتراف بمبادئ التنافى والشرائع الاسلامية على دولة اسلامية مستقلة . وانساق الاوروبيون

بعد ذلك في كافة مستعمراتهم او محمياتهم الى اجراء اصلاحات مماثلة . ولكن المسألة ما زالت معرفة ما اذا كان المسلمون يستطيعون القبول بمثل هذا التغيير دون التنكر لايمانهم . ويمر الاعتراف هنا بان الاسلام ، حيثما اختلط بجاهل تحركها العصبية الطائفية ، قابل هذه العصبية بعصبية مماثلة . فقد استمرت طويلاً في الهند والصين نزاعات مسلحة في اغلب الاحيان بين المسلمين وغير المسلمين . وما زالت الحال في افريقيا في مرحلة الحرب المقدسة ، والحوادث الوحشية ترافق ابدا الدخول الى المناطق الوثنية .

لا يتصور الاسلام السلطة العامة الا بدلالة الدين . فليس للدولة مميزات الدولة الاسلامية وادائها مركّز اقليمي ؛ وهي لا تعترف الا بجماعات طائفية ؛ ولا وجود لها على كل حال الا بفضل الفتح الذي ادى الى سيطرة المؤمنين . ليس المشرف على ادارتها سوى خليفة رسول الله او نائبه ؛ انه امير المؤمنين وامام ، ولكنه ليس له من منصبه حتى الحق في تفسير الشريعة لانها تأمر باسمه . ولما كانت الخلافة ، من جهة ثانية ، نتيجة اختيار لا نتيجة حق ، فقد تعدد الاتفاق على النسب الشرعي ابتداء من محمد . وهذا يفسر التعزؤ السياسي العضال في العالم الاسلامي .

وانما يجب الانسى كذلك ، اذا كانت وثبة الفتح فعل شعب من الرعاة ، ان القرشي المكي ينتسب الى ارستوقراطية من التجار تحتقر الزراعة . ان عمل الارض جدير بالرعية التي عليها قبل سواها ان تدفع الضرائب . ولكن نصيباً كبيراً من الارض يجمد بسبب الممتلكات الموقوفة من اجل تعهد دور ايواء الغرباء والمدارس ؛ ويحدث ان القاضي ، ابن المدينة ، الذي يفصل في العقود ، يسهل مصالح ابناء المدينة ، بحيث يصبح الحقل ملكاً للرايين . ويحدث اما ان تعود اراضي الارياف للشع ، او القبيلة ، واما ان تعود لملاك كبير من اعيان المدينة ، هو الاغا الذي يحشاه الفلاح بوصفه مزارعاً وملزماً بتقديم اتاوات عينية كثيرة . اما القبيلة فتحفظ بقائدها وشيوخها بسبب اختلاط الحق الخاص بالحق العام . وما الدولة في الغالب سوى هذه القبيلة التي لا حساب في داخلها الا لأواصر القرى والعداوات الشخصية . وحتى حين تظم في صفوفها البدو الرحل والتجار ، لا تنجح الا بصعوبة في معالجة ثققل يكاد يكون طبعياً ؛ وتراجع بين الاستبداد والقرابي ، وكلاهما تحكيمان . وجملة القول ان الاسلام الذي فتح مناطق السباسب ومناطق الزراعات الحارة الرطبة ، لم يظهر الا على مجتمعات كانت مؤسساتها الاجتماعية اكثر بداءة من مؤسساته .

لا ريب في ان ديانة محمد تستجيب لعكسة شاملة : فان دار الاسلام تتسع للعالم برمته . وهكذا تتحد فيها شعوب مختلفة جداً . ولكن الغيرة المذهبية ليست هي القومية . فحتى القومية العربية والاسلام شيان مختلفان . كما ان اللغة العربية ، التي هي اللغة القرآنية والكلاسيكية ، لا تخل محل اللهجات الاقليمية . وكثيراً ما يجد الناس اختلافاً بين الفقه والعرف

العالمي . ونادراً ما لا تقضم الدولة الاسلامية ، بالاضافة الى عناصر مسيحية ويهودية قد يكون عددها كبيراً ، فئات اخرى مختلفة عنصرياً . وهذا ايضا من مظاهر الضعف .

امام الاستعمار الاوروبي ، كان الاسلام ، المتخلف تقنياً واقتصادياً ، في وضع سيء اذ ان التضامن الديني لا يوفر وحده فعالية كافية . اجل ، حين شنت انكلترا الحرب على فارس في السنة ١٨٥٦ ، في اعقاب مساندتها لتركيا ، انتشر الاضطراب بين مسلمي الهند واسهم في اثاره الجنود الهنود في الحاميات البريطانية ؛ ولكن ذلك يشكل واقعة استثنائية . فالشاه قد فاوض القيصر بينما كان الروس في نزاع مسلح ضد الاتراك في السنة ١٨٢٨ - ٢٩ ؛ واستفادت لندن وبطرسبورغ من سوء العلاقات بين الفرس والافغان ، كما ان مخاصمات السلطان لمحمد علي سمات تدخل الدول .

وبانتظار بروز قوميات خاصة في الاسلام ، دقت ساعة اذلاله واستعباده .

سارت الامبراطورية التركية في طريق التأخر منذ اواخر
الامبراطورية التركية : تنوع الشعوب القرن السابع عشر ، ولكنها ما زالت في القرن التاسع عشر
اكبر الدول الاسلامية مساحة واقواها نفوذاً . واذا ما ضمنا الى ممتلكات سلطان الاستانة
الفعالية الاقاليم التابعة لسلطته ، فان نطاق ادارته ، البالغ ٦ ملايين كيلومتر مربع ، يشمل ، بين
شبه جزيرة البلقان والمحيط الهندي ، وبين القفقاس وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى شطر من
اوروبا الجنوبية الشرقية ، افريقيا الشمالية الشرقية وكافة انحاء آسيا الامامية المعروفة بالشرق
الادنى . وعلى الرغم من ان سكان هذه الامبراطورية لم يجاوزوا ٤٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٠
(يدخل في عدادهم ٩ ملايين مصري) فانها ما زالت تلعب دوراً رئيسياً في تاريخ العلاقات
الدولية ، لانها كانت تحتل مواقع هامة من الدرجة الاولى في قلب القارة القديمة ولا سيما الطرق
المؤدية من المتوسط الى آسيا الجنوبية .

لم يكن الاتراك في عقر دارهم حقاً الا في بلاد الاناضول التي لم يقطنوا سوى بورة هضبتها .
اما في المناطق الاخرى فقد عسكروا بين الرعايا من اهل الذمة او بين شعوب اسلامية اخرى .
وقد وافقت الهضبة الاناضولية المرتفعة الكبرى ، القاسية المناخ والمفتقرة الى المياه والاشجار ،
هؤلاء الرعاة الذين اعتمدوا في معيشتهم التقنية على اللب (يوغورت) والقشدة (قيمق)
والاجبان والجريش والبرغل وشواء لحوم الاغنام . وكانوا ينتقلون من مراعي الشتاء الى مراعي
الجلل ويسكنون في اكواخ حقيرة او تحت الحيام المصنوعة من المرعز ويصطلون بنار الزبيل
ويتارسون عبادة ساذجة ولا يعترفون الا بسلطة الاعا . وانهضت الزراعة في بعض الاحواض
او في السهول الدائرية الوبيلة جلها ؛ زد على ذلك ان لصوبة اكراد الجبال والشراسة او
بجرد عبث القطعان بالمرزوعات كانا يخدمان نشاط الفلاحين . وكانت الاراضي من جهة ثانية
من حق كبار الملاكين الذين يؤجرونها للمزارعين او يستثمرونها بواسطة الخدام ، حين لا تكون

مسيحيي مقدونيا ، تمدوا تكراراً على الأرمن الذين تميزوا هم أيضاً بالسجس والتقلب . وكان مقدراً للمنطقة الوعرة التي تشرف على حوض الفسرات ان تعرف في المستقبل مذابح بشرية رهيبة :

الى الجنوب من طوروس وكردستان يبدأ العالم العربي الذي يضم طوائف مسيحية ويهودية كثيرة . في هذا الهلال الخصيب الذي يحيط بالصحراء العربية السورية تسيطر الاثرة الاقليمية . فسوريا هي مقدونيا ثانية تضاف فيها الشيع الاسلامية المختلفة الى الطوائف المسيحية المختلفة . في كل مكان نرى البدوي والحضري وسكان الجبال والسهول والواحات يتعايشون ويتجاهلون . كما نرى علوي جبل النصيرية ودرروز جبل الدرروز يعيشون في عزلة ، بينما يتعلق الموارنة بجبل لبنان الوسطي وتظهر دمشق وحلب بمظهر العواصم العربية ، احدهما مثال المدينة الواحة والثانية سوق مرتبطة بالجبال الشمالية ، وكلتاهما محطتان عند حدود الصحراء . فقد تكلم « لورتيه » في كتابه « جولة حول العالم » (١٨٨٢) عن « دمشق البهية المبنية مساكنها بالقراميد الجففة تحت اشعة الشمس والمطلية بطلاء اصفر ذهبي ... والروية بساكنها باقنية كثيرة ... » . وزرعت الحبوب والكرمة هنا وهناك ، اما في الاحواض الروية كسهل البقاع ، واما في المرتفعات المسقية بعض الشيء كجبل الدرروز . ولكن فقدان الامن والجفاف يتحالفان في ظل هذا الاهمال الذي يلحق الضرر بأحسن المرافق . اما الشرطة والقضاء التركيان فيكتفيان بإيجاد التفرقة بين الجماعات المختلفة وبالحد من توسع المذابح الدورية .

كان من الممكن الاستفادة من الجزيرة فيما بين النهرين ومن دلتنا منطقة بابل القديمة ؛ ولكن ضفاف الفرات لم تستهوى سوى جماعات حضرية قليلة تسكن اكواخاً قصصية حقيرة . فالأحلاحة شبه مفقودة بفعل الارياح العاصفة في الخليج الفارسي والاحوال التي غلأ مقره ؛ والحر شديد في بغداد ، التي لا يتعاطى سكانها تجارة الحبوب والتمور والاصواف فعسب ، بل النخاسة لحساب احرام العالم الاسلامي كله ايضاً ، ويلجأون صيفاً الى السرايب المزودة بمنافذ الهواء ؛ ويدخل في عداد هؤلاء السكان ٥٠ الف يهودي من بقايا السبي برعوا في التجارة ووفرت لهم المدارس بعد السنة ١٨٦٥ جمعية الاتحاد الاسرائيلي . اما البدوي فحاضر في كل مكان او على مسافة قريبة ، يضرب خيمته على ضفة الفرات ويحوب بورات الهلال الخصيب وكأنه السيد المطاع ؛ وهكذا فان قبيلة عنزه ، التي تضم ٣٠ الف فارس ، تقطع طريق الحج بين بلاد ما بين النهرين ونجد .

في اليهودية كما في سوريا ، ما تزال المدن والاديرة محصنة . الغور لا ينتج شيئاً بسبب افتقاره الى الري . ابن الصحراء يتوجه حيث يطيب له وينهمك في السلب والنهب ؛ ويفرض شيخه او اميره الخوة على الفلاحين او اهل المدن المصلحة القبائل القوية . ويخضع لهذه الضريبة كثير من الحجاج ايضاً . وقد وصف لامارتين يهوديه خربة ، ولم ير في اربعا سوى اكواخ من الطين

المجفف ونساء لسن سوى « انائي » . وفي السنة ١٨٧٥ ، اعتبر « فوغويه » ، انه يجب الكتابة بدموع الانبياء لوصف مثل هذا الجمال في مثل هذا الخراب . وتأثر « غابريال شارم » في اورشليم بعظمة الاماكن وقذارة الشوارع وفقدان الامن فيها وتشابهك الحقوق حول تلك اقل حجر والاستغلال الذي استهدف الحجاج الروس المساكين من قبل الاكليروس اليوناني ووفاء الطائفة اليهودية لذكرياتها الخاصة .

لم تكن الجزيرة العربية تركية الا بالاسم فقط . واذا اعترفت الحجاز بسلطة السلطان ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير قد توصل بمض الشيء الى فرض احترام سلامة طريق الحج . والى الجنوب من مكة خضعت عسير ، المهتدية الى الاسلام منذ عهد قريب ، للنفوذ الوهابي . وفي داخل الجزيرة العربية الواسع الاطراف ، قامت في الشمال صحراء النفود التي تجتازها الطريق المؤدية من كربلاء الى حائل ، العسيرة والمهددة ابدا بهجمات رجال قبيلة عنزه ، كما قامت في الجنوب صحراء اخرى تعرف بالربيع الحسالي ؛ وارتفعت بين هذه وقلك جبال نجد ، معقل الوهابيين : ففي الرياض ، المدينة الحريصة على نقاوة العقيدة ، شيد الامير قصراً شبه الرحالة « بالفرايف » بالسجن الانكليزي في «نيوغايت» . وتدرت لندن البحرين في الخليج الفارسي ، وقد خضع لها ساحل شبه الجزيرة الجنوبي اكثر من خضوعه للاستانة . واختارت الحكومة البريطانية عدن المرفأ الوحيد الصالح للرسو في حضرموت وقربت اليها سلطان مسقط الذي تعاطى حتى السنة ١٩٠٢ نخاسة رابحة . ولم تكن عدن مستودعاً هاماً جداً فحسب ، بل كان من شأنها مراقبة اليمن التي كان مينائها ، الحديدة ، وخيماً . واشتهرت اليمن الشبيهة ببلنات أو مناطق الجزائر الجبلية بزراعة البن (مخا) ؛ وسحرت عاصمتها صنعاء ، القائمة على ارتفاع ٢٣٠٠ متر ، بجذائرها الغناء وجوامعها الثمانية والاربعين . وقد واجهت هذه المنطقة كلها بلاد الحبشة واشتركت في حياة المحيط الهندي الاقتصادية .

« الرجل المريض » : افتقرت حكومة الاستانة الى الوسائل اللازمة لحكم سكان فشل التنظيمات والتغلغل الاروروبي في تركيا هنا التذكير بسير البريد الذي اسند الى قبيلة تترية تقتني الجياد الاصيله واقتضى له خمسة وثلاثون يوماً لنقل رسالة من العاصمة الى بغداد . ولما كانت السلطة الدينية التي يمارسها الباديشاه محدودة جداً ، فقد عولت الامبراطورية على اقطاعية عسكرية : السلطان هو القائد العام ؛ والتقسيمات الادارية تطابق الاقطاعات ، والسجن في الاصل راية يحملها البليك . وتسلم الضرائب الى الاقطاعيين انفسهم الذين اقطعوا الاراضي ، الجفتلك ، بعد امتزاعها من المغلوبين على امرهم . فكانت نتيجة هذا الاختلاط بين السلطة والملك فساداً وابتزازاً . تثقل وطأة الضرائب بتعهد الجيش ، والجيش قد فقد الكثير من صفاته العسكرية بسبب عدم انضباطه وافتقاره الى العتاد المصري . فهناك اقاليم واسعة قد شقت عصا الطاعة : الجبال التي يحتمي بها العصاة ، وواطن البدو الرحل . يضاف الى ذلك

ان باشاوات كثيرين قد تصرفوا كما يطيب لهم التصرف . واخيراً ليس اقل التناقضات لفتنا للانتباه المركز الممتاز الذي افادت منه بعض الجماعات : الفناريون والرياء الطائفتين الإبراهيمية واليهودية في العاصمة ؛ والاجانب الذين اتاحت لهم « الامتيازات » مزاولة الاعمال التجارية بشروط مناسبة جداً . اما الحكومة التركية العاجزة فقد لجأت الى الحيل الآتية التي تراوحت بين التسوية المتحجلة (ويكفي آنذاك ان تسلم الظواهر) واستخدام القوة . انها « الرجل المريض » في نظر اوروبا التي تراقب احتضاره بكل انتباه .

ان ما عرف آنذاك بالمسألة الشرقية هو من ثم المسألة التي طرحها المخطاط الامبراطورية العثمانية . واذا حسب بعضهم في الخارج حساب فوائد التجزئة بيننا آثر البعض الآخر الابقاء على الحوزة (التي من شأنها تجنب مضاعفات شتى وتأمين مراقبة الموارد مراقبة شاملة توفر نتائج فضلى) ، فان الاوساط الاسلامية نفسها كانت مقتنعة بأن نقاهة المريض منوطة بتعالجه . ولما كان النظر مصروحاً عن العودة الى الشريعة القرآنية المشددة التي تستتبع رفض كل تدخل اجنبي ، فبقي أن يعرف ما اذا كان القيام باصلاح على غرار الاصلاح في القرب لن يستعمل الحركات القومية ، وبالتالي المصير المرهوب . والحقيقة هي ان تركيا بدت عاجزة عن المحافظة على انظمتها القديمة وعن التطور تطوراً حقيقياً . الا ان الدولة ، رغبة منها في ارجاء موعد التصفية النهائية ، قد تجمر الى اطالة حياة عليلة .

عاصر سلم الثالث الثورة الفرنسية وناپوليون وحكم حكما استبداديا على غرار بطرس الاكبر فحاول قبل سواه اعادة تنظيم الجيش ، ولكن الانكشارية الذين حالفهم الحظ اكثر من الـ « سترلتسي » جندلوه ، فنجم عن مقتله عهد اضطرابات استفاد الصرب واليونانيون منه لاعلان الثورة بينا اصبح مصر محمد علي مستقلاً عملياً .

واذا أفلح محمود الثاني ، الذي علمه الاختبار ، في التخلص من الانكشارية ، السجسين ، فقد وجد نفسه في القضية اليونانية امام تحالف اوروبي وامام مدعيات الباشا . وحين اضطر الى التخلي عن سوريا لصاحب الاقطاعة الخاضع له مبدئياً واللجوء مؤقتاً الى الحماية الروسية ، اخذ على نفسه التقلب على هذين الخطرين : اثار حفيظة المتسكين بأهداب الدين بارتداء الزي الاوروبي وشرب المسكر والسباح بدخول البضائع الانكليزية معفاة من الرسوم وبيع عدن من بريطانيا العظمى واسناد امر تنظيم جيش جديد الى ضابطين بروسين ، ثم أدركته المنية بينا الامبراطورية وكأنها تحت رحمة الباشا بعد انهزام جيوشه مرة اخرى .

في عهد عبد المجيد الشاب ، ورغبة منه في كسب الوقت وعطف اوروبا ، لحص رشيد باشا ، المستدعى من سفارة لندن ، في خطبي شريف (١٨٣٩) او دستور غولخانه ، برنامج اصلاحات جريئة انطوى على بعض الضمانات القضائية وقمع التجاوزات الجبائية وتأسيس جمعية تشيلية . ولكن ما ان ضمن له ميثاق المضائق حماية الدول الجماعية حتى آلت « التنظيمات » الى لا شيء تقريباً .

ولكن الباب الذي ساندته الغرب في حرب القرم ، عقد قرضه الاول (بموجب « خطي همايون ، في السنة ١٨٥٦) وسلم في الوقت نفسه بحرية العبادة والمساواة المدنية وحسب الاجانب في تلك العقارات .

نشأت بعد قليل في المؤسسات المدرسية الاوروبية (فتحت كلية غالاطا العلمانية الفرنسية ابوابها في السنة ١٨٦٨) طبقة مثقفة اسست بعض الصحف وتمت قيام اصلاحات جديدة وطالبت براكز عمل بصورة خاصة . وعلى الرغم من استحداث بعض الوظائف العامة لأجل ارضائها ، فانها قد اشتكت من تبذيرات السلطان الطائشة وحملتها مسؤولية افلاس يهدد ، كما حدث في تونس ومصر ، ببحر البلاد الى حياية مالية غربية . وأمام الفوضى المنتشرة في الولايات البلقانية تسبب طلاب الحقوق والفقهاء في اندلاع ثورة في الاستانة واستقالة عبد العزيز . فاضطر خليفته عبد الحميد الى منح الدستور او القانون الاساسي في السنة ١٨٧٦ الذي تأسس ' بموجبه نظام برلماني . ولكن نفوذ منظمة « تركيا الفتاة » انهار حين خلع السلطان الجديد قناعه بعد ان ضمن حماية مؤتمر برلين . ولن يبقى من برنامج الإصلاحات سوى مشروع قانون مدني وضعته احدى اللجان بعد اعمال استغرقت ١٧ سنة .

ابتداء من السنة ١٨٨٠ ، بدا الرجل المريض وكأنه يستفيد من هدنة . ولكن ادارة الدين العثماني الباهظ عادت لمجلس دولي ؛ واسترھنت دخول الجمارك والضرائب وادارة حصر التبغ في سبيل عقد قروض جديدة . ومنحت في الوقت نفسه امتيازات كثيرة لاستثمار الخطوط الحديدية والمرافىء . والحال كان في نية الحركة الاسلامية الشاملة ، على غرار الحركة الروسية المماثلة ، ارضاء قومية كان من شأن غزو رأس المال الاجنبي ان يكدرها . ولكن الامبراطورية العجوز لن تنجو من مصير محتوم : فليس باستطاعتها الاستعانة بأوروبا والتخلص منها في آن واحد .

ان القرابة هنا ، كما في الجزيرة العربية ، هي ان الصحراء فارس في عهد سلالة الخنجر تتوسط البلاد وان الحياة تندفق في الاقسام الدائرية . فحول حوض وسطي يكاد يكون مقفراً ، كان على فارس ان تصون مناطق حدود وعرة المنحدرات يستموي الانسان ثلاث منها بسبب غزارة الامطار فيها وتسمويه الرابعة بسبب موقعها الساحلي . ولكنها على الرغم من ذلك لا تسيطر سيطرة تامة على كتلة الجبال الشرقية الضخمة .

اهل الحضر اكثر سكانها عدداً ، ولكنهم تجمعوا في مساحات ضيقة : المناطق القزوينية الشبيهة بالمناطق الحارة التي يزرع فيها الارز وقصب السكر وشجرة التوت والتبغ ، وواحات الاقسام الدائرية التي تمر فيها الطرق الداخلية . فلاحين او مدنيين ، كان اهل الحضر هؤلاء فرساً واتراكاً وعرباً ويهوداً وأرمناً وزنوجاً ايضاً . فأين يجب من ثم تعيين مركز حقيقي ؟ لقد تبدلت الطوالع تبديلاً سريعاً ، فكانت الاولوية تارة لاصفهان ، المواجهة لبغداد وشيراز ، التي

بلغت العظمة في عهد الصفويين ، واخرى لتبريز الواقعة على طريق البحر الاسود ، وثالثة لمشد ،
المدينة المقدسة التي جعل منها ناصر شاه عاصمته على مقربة من البورات الطورانية ، ورابعة
لطهران .

يجب في كل مكان ان يحسب حساب للبدو وانصاف البدو الذي يسرحون ويمرحون
في تسعة اعشار المساحة العامة متأثرين بالمناخ الذي يدفع بهم من المنطقة الحارة الى المنطقة الباردة :
اكراذ ، وبلوش ، ولور ، وبختيار ، وتركان ، بحسب المناطق . المدن والقرى محصنة بسبب
فقدان الامن الشامل .

كان من ثم لطرق الاتصال الكبرى اهمية قصوى : الطريق الطورسية المؤدية من طرابيزون
الى مشد مروراً بتبريز ، والطريق الشمالية الجنوبية المؤدية من رشت على بحر قزوين الى شيراز
وبوشير على الخليج الفارسي مروراً بطهران وكوم واصفهان ، والطريق الكلدانية المؤدية من
بغداد الى همدان ، وطريق كندا المؤدية من الهند الى مشد في الجهة المقابلة . وتوضح بالتالي صعوبة
مسألة السيطرة على هذه الطرق المختلفة الاتجاهات وهذه المنافذ العديدة ، لا سيما وان المركز لا
وجود له في اي مكان من حيث هو بالضرورة في احدى نقاط الاقسام الدائرية . ولذلك اقدم
كل قسم بدوره على اعمال حربية تستهدف الفتح والتوسع . ففي اوائل القرن التاسع عشر نرى
الجنجرات التركمان ، الآتين من حوض « اترك » يتركزون في طهران ويعيرون اهتمامهم فارس الشمالية
المائلة طبعاً الى الوقوف في وجه الروس القادمين عبر القفقاس وبحر قزوين ، فارس المسهمة في
الدفاع عن الجبهة الاسلامية الشمالية .

عشاً شن المؤسس « الآغا محمد » وخليفته « فتح علي » حرباً لا هوادة فيها على القيصرية :
فقد تكرست الهزيمة في السنة ١٨٢٨ بمعاهدة « تركانشاي » ، ثم تعرضت فارس لهجوم الافغان
ففكرت بحماية انكلترا التي كانت تتطلع منذ ذاك التاريخ الى مرافق الخليج الفارسي . ولكن
الشاه اراد الاعاضة من خسائره الاقليمية في خراسان والقفقاس بفتوحات يحققها في الشرق ؛
فتوفق الى جعل خراسان في مأمن من غارات تركمان طوران وصد خان « خيوا » ، ولكنه
أخفق في افغانستان .

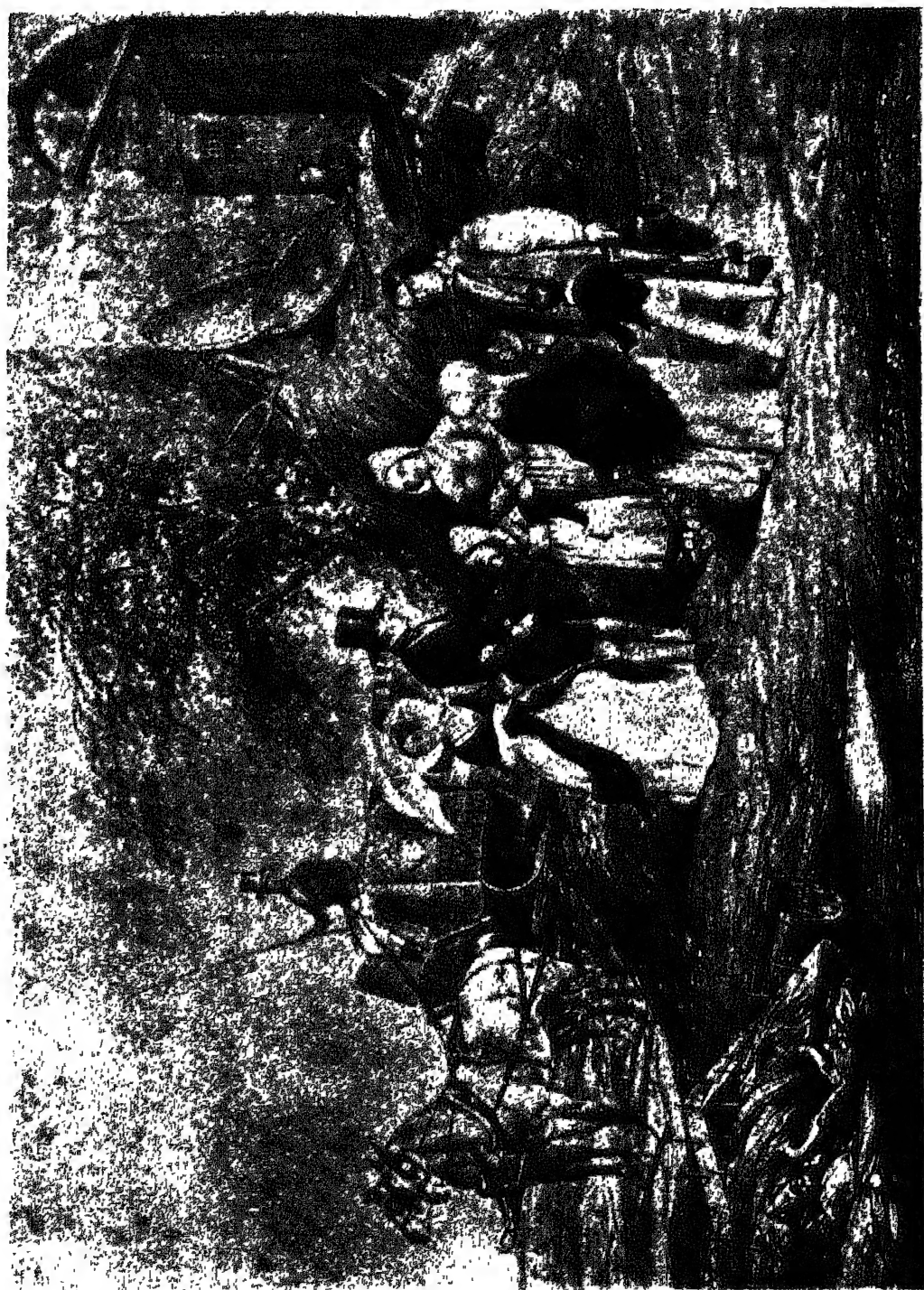
أدرك نصر الدين ، الذي سيموت قتلاً في السنة ١٨٩٦ ، ضرورة العدول عن المغامرات .
يضاف الى ذلك ان التقدم الروسي في تركستان ازال الخطر التركياني ، وان انكلترا من
جبتها سوت الخلافات حول الحدود الفارسية الجنوبية الشرقية تسوية استعاد الشاه بموجبها
سواحل الخليج الشمالية ، وبقي مبعداً عن الطرق المؤدية الى الهند . وأظهر نصر الدين شغفاً
كبيراً بأحوال الغرب . فقصد المواسم الاوروبية حيث اثرت شخصيته الفاتنة في الناس .
ولكنه كان مضطراً لأن يحسب للتقاليد والآراء السائدة حسابها .

على من يجب الاعتماد لايحاد سلطة قادرة على تخليص فارس من وضعها المتردي يا ترى ؟





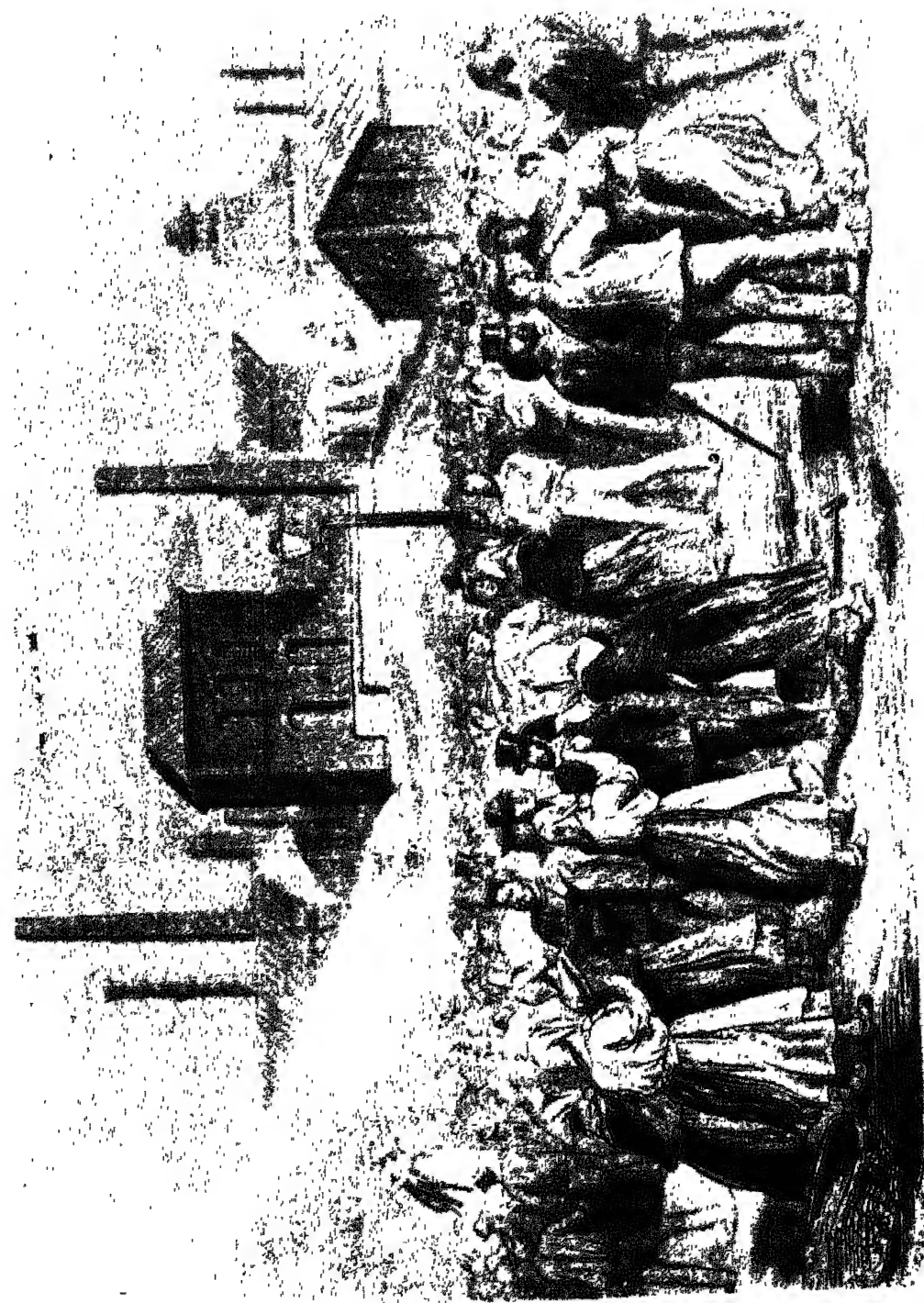
١٩ - صف النظر بن امام مسرح (المصطفى - المزلي) .



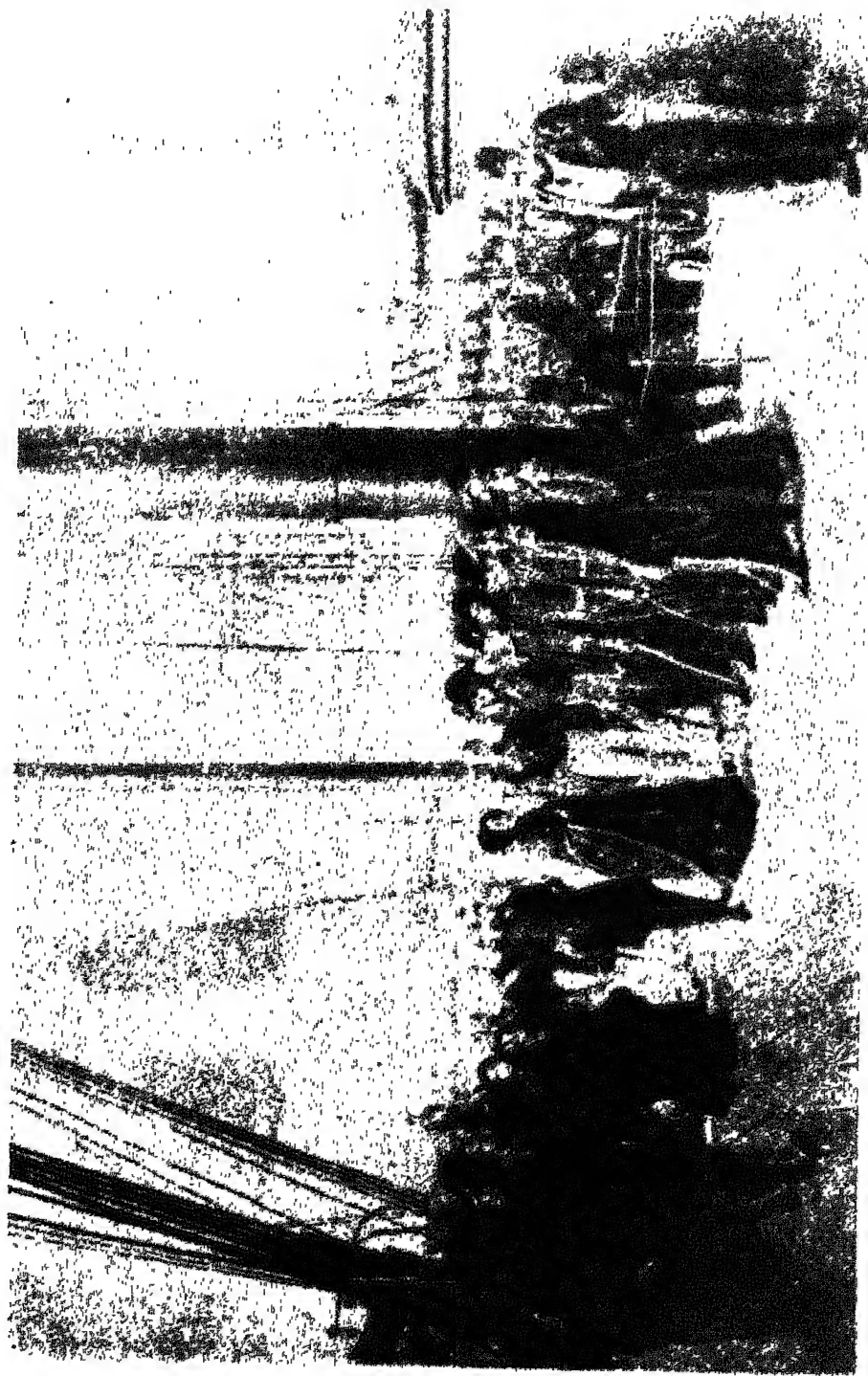
٢٠ - الزيارة عند المزارع .



٢١ - اجتماع انتخابي في مشغل باريس ، قبل الانتخابات البلدية .

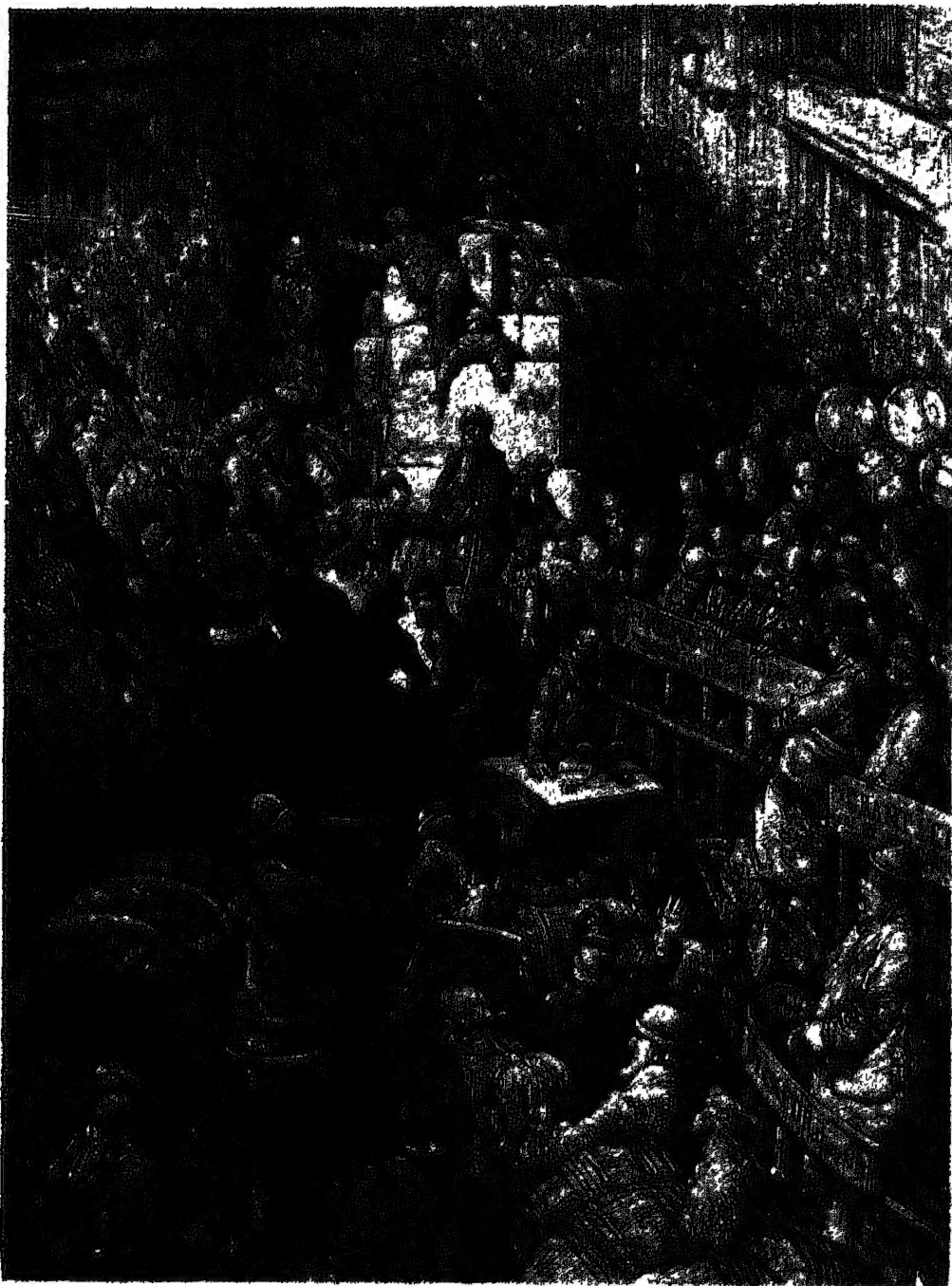


٢٢ - مظاهرة نسائية في الـ (كروزو) (نيسان ١٨٧٠).

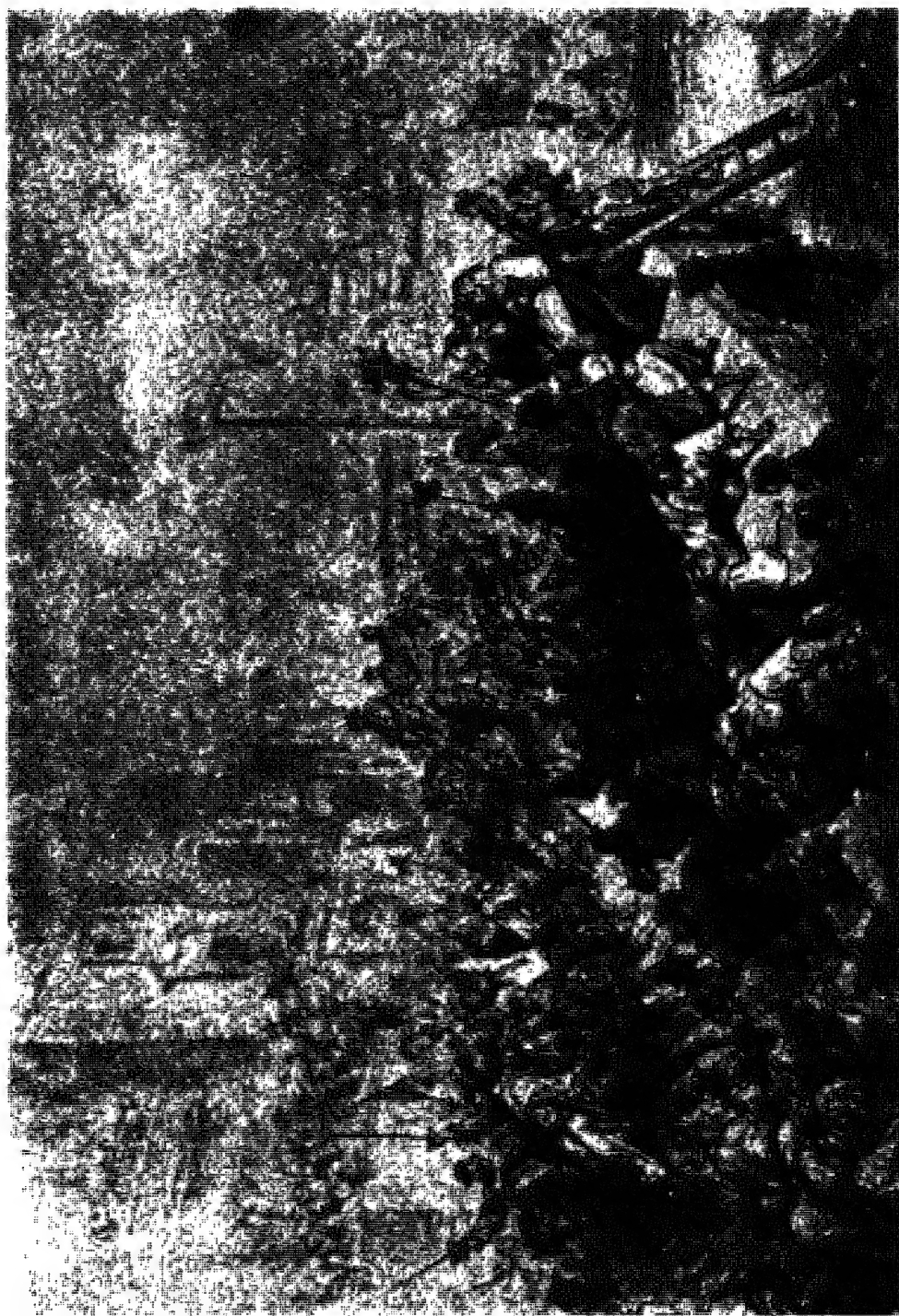


٢٣ - الملكة فكتوريا تزور الاسطول الفرنسي ، في ١٣ تشرين الاول ١٨٤٤ .





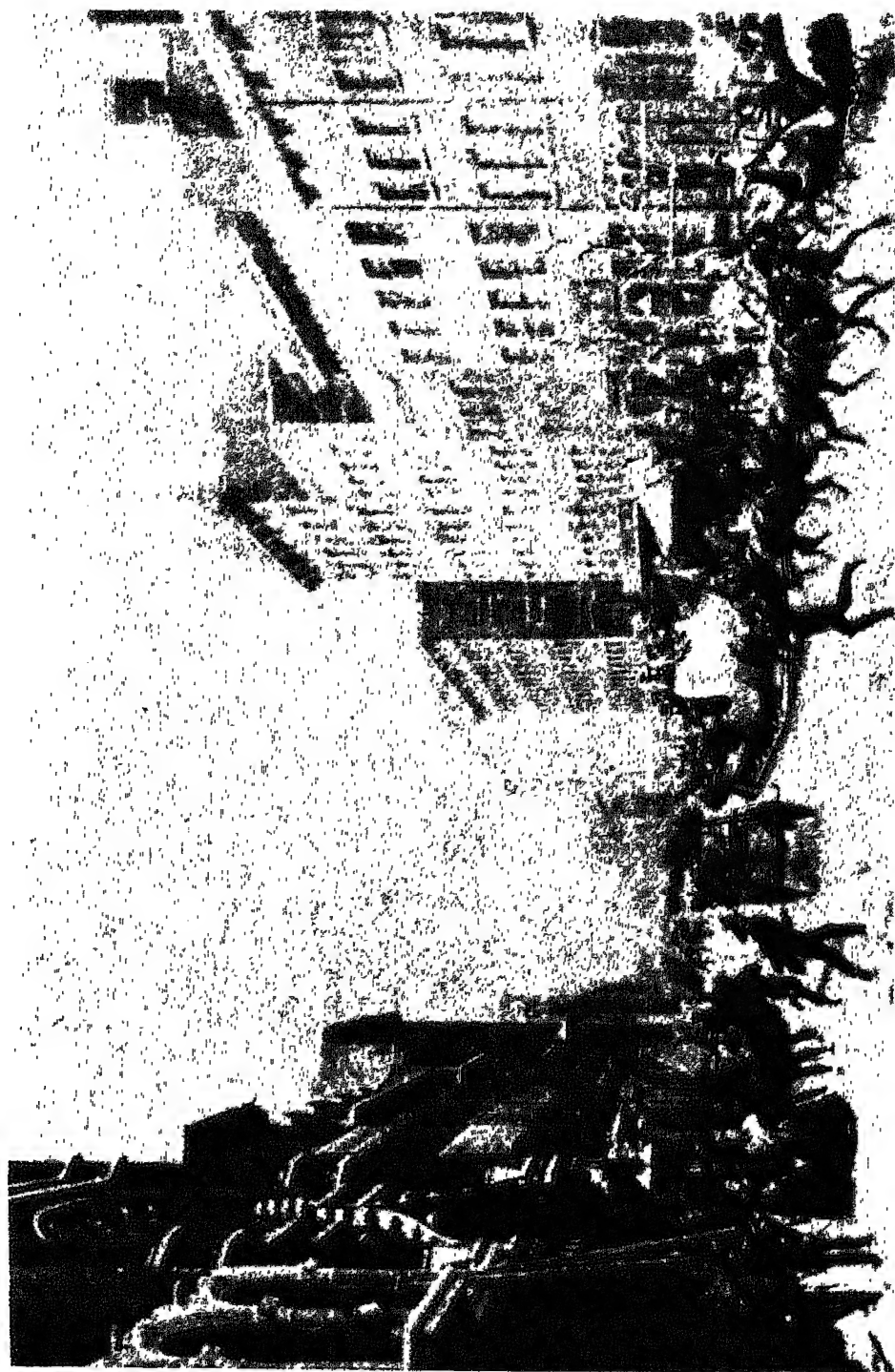
٢٥ - الزحمة في احد شوارع لندن .



٢٦ - دخول غاريبدي الى نابولي .



٢٧ - الساحة الحمراء في موسكو ، في السنة ١٨٤٤ .



٢٨ - برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .



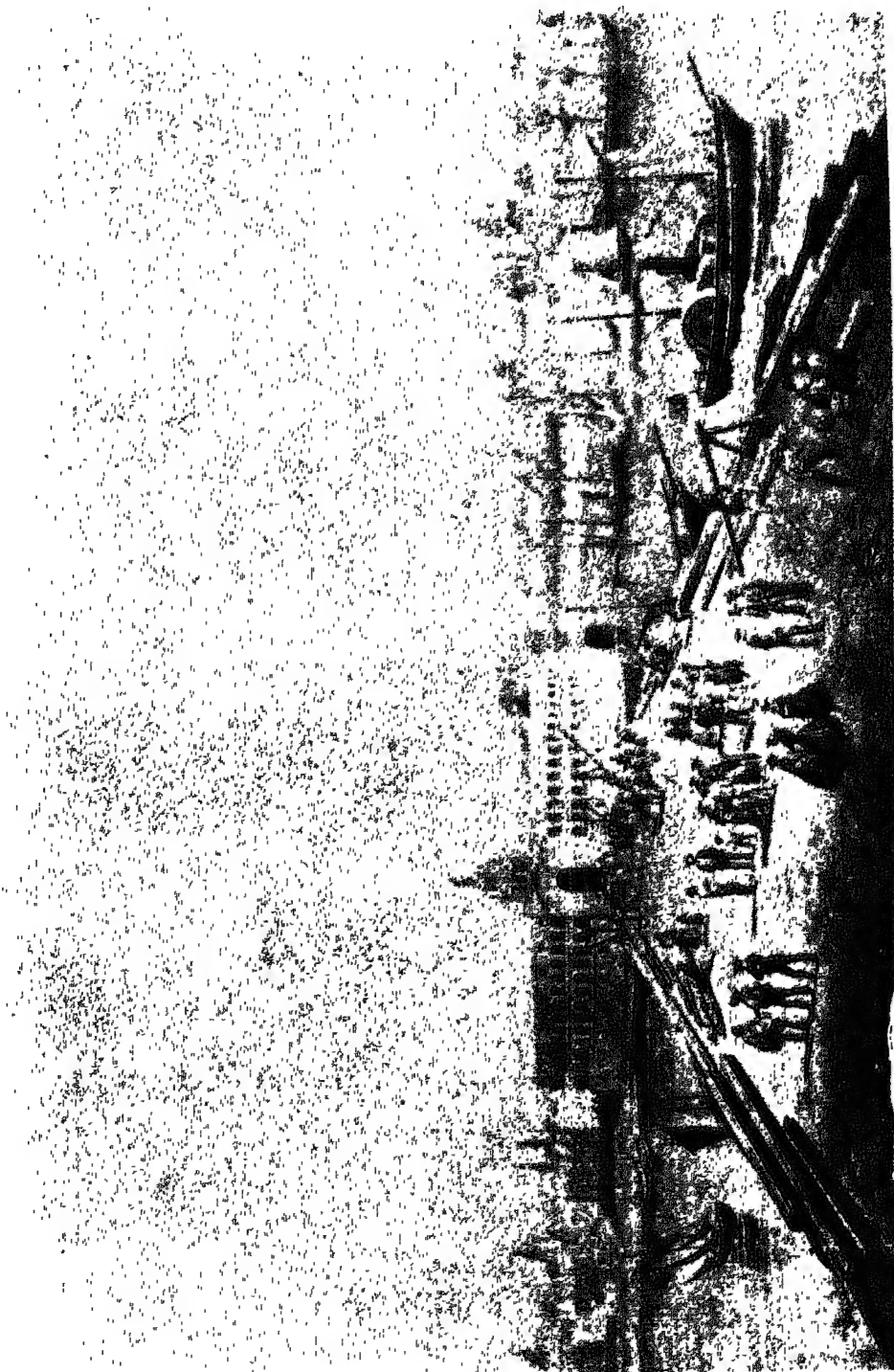
٢٩ - سنناري في السنة ١٨٦٠ .



٣٠ - دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية ، (١٨٦٥)



٣١ - مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .



٣٢ - مدينة بونبوس ارس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة المراك .

يتمتع الاسلام الشيعي بقوة عظيمة ؛ وينجم نفوذه عن موقعه الغريب في قلب الاكثريّة السنية ؛ فانه يرتدي طابعا شبه قومي على الرغم من أن رقعته تشمل القسم الاكبر من بلاد ما بين النهرين الخاضعة للأستانة . ولكنه أمد ما يكون عن الوحدة . واذا هو انطوى على نزعة صوفية معينة ، فانه لم يتوصل قط الى ملاشاة الشيع التي تجد في ايران حقلا مؤاتيا . زد على ذلك ان الكتبان حالة نفسية تسهل قيام الجمعيات السرية . فمكذا انتشرت الصوفية التي تدفع الى الاختطاف في العزلة وتشيع اكرام الاولياء في اوساط الشعب . وتأيدت في الوقت نفسه تأييدا دائما النزعة الزردشتية الى رفض كل سلطة غير القبول الاجاعي . وسبق لنا ان شاهدنا واجه تبني دين من شأنه التوفيق بين كافة الاديان التوحيدية . ثم جاء الباب بدوره كمنقذ ، ووجد نصر الدين نفسه ، عند توليه العرش ، امام حرب دينية واجتماعية حقيقية . وما البابية التي غلبت على أمرها في فارس بعد معارك دامية واضطهادات عنيفة سوى حركة اصلاحية انتهت الى الفشل .

لقد صمد زعماء المجتمع الذين وقفوا في وجه كل تغيير : المستفيدون من الاملاك الموقوفة الواسعة ، والاعيان المنتسبون الى كل الفئات الذين يدبرون الحكم في خدمة الشاه ويمشون في البلاد ، ولا سيما الحكام ، خلفاء المزاربة الحقيقيون . وقد عاد ثلثا الموارد للجيش والقصر .

تصرف الجيش ، الذي لم تدفع له اجوره بانتظام ، وكأنه في بلاد محتلة . وفي بلاط القصر ، اثار الشاه ، خليفة ملك الملوك ، اعجاب الجماهير بعظمته وكرمه الفائق ، ولكنه كان اسير الدسائس التي حيكت من حوله ، وقامت مهارة الحكم في نظره في التفاوض مع الحكام وزعماء القبائل . وفادرا ما أدرك الأمر هدفه اما لانه لا ينفذ واما لانه لا ينطوي على مزيد من المساواة . وعلى الرغم من ذلك فان مستوى حياة الفرس ، المشهورين بسذوقهم المرهف واستهواهم الموسيقى والمسرح ومهارتهم في الصناعة اليدوية ، كان متدنيا جدا . فهي الحرف الصغيرة الكثيرة التي حافظت على شهرة الفروش والطنافس والمنسوجات الحريرية والحملية ودباغة الجلود وصناعة تحويلها ، ولكن طبقة التجار جمعت الثروات بالمراباة ، والدالين اشرقوا على كافة الصفقات وجاهير الشعب شكت من الاملاك الكبرى والاقواف . وعادت القرية للملك او لاحدى العائلات الكبرى او لاحدى المؤسسات التقوية ؛ فكان هناك ملاكون سيطروا بهذه الطريقة على ألوف الفلاحين . وقد نام هؤلاء تحت وطأة الاتاوات فلم ينتجوا الا القليل ، واستخدموا السواد البشري ورووا الارض بواسطة النواعير ، وحتى بواسطة القرب المملوء ماء . وما كان ملايين السكان الخمسة او الستة ليؤمنوا قط حاجتهم من الماء كل ، وقد فتكت بعض الجماعات بألوف الضحايا (ويروى ان احداها قضت على نصف مشهد) . وقد امننت الجمال والخيول نقل كل شيء . وجاء في كلام مأثور : « لو كان لدى الاوروبيين جياذ شبيهة بجياذنا لما احتاجوا الى الطرقات » . وفي السنة ١٨٦٤ مد بين بغداد وبويزر السلك التلغرافي الذي وصله الاخوة سيمينس في عهد لاحق بخط لندن عن طريق تبريز . ثم منح الشاه رأسماليا بريطانيا كبيرا هو البارون «جوليوس رويتر» (الذي

اشترى حاشية الامبراطور بالمال بهذه المناسبة) امتياز بناء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي ، وتأسيس عدد من المصارف ، وادارة الجمارك ، وحق استثمار الاحراج والمناجم ، مقابل ٤٠ الف جنيه استرليني ؛ ولكنه ما لبث أن ابطال العقد بعد حين . وحين اقتقر الى المال بعد رحلاته الى اوربا ، سلم غلة التبغ والاتجار به الى شركة « التماونية الامبراطورية الفارسية للتبغ » مقابل ١٥ الف جنيه استرليني وربح الدخل السنوي ؛ ولكن احد المجتهدين النافذين دعا المستهلكين الى الاقلاع عن التدخين ، فاستعاد الشاه الامتياز مقابل دفع نصف مليون جنيه استرليني . ومنذ السنة ١٨٨٩ خضعت مالية البلاد في الواقع ادمصرف فارس الامبراطوري ، الذي حصل على امتياز اصدار الاوراق النقدية . فوقمت فارس بدورها تحت سيطرة الرأسمالية الاوروبية .

الدولة الافغانية بين
البريطانيين والروس

على نقيض فارس ، تتكون افغانستان من مجموعة جبال وسطية تحيط بها البورات . ومنطقة كابول فيها تثير الاعجاب بعدائنها الغناء وخورها التي يذكر مذاقها بخمور جزيرة ماديرا ؛ اما خزنها السقي حملت اسمها سلالة الخزنويين في القرن الحادي عشر فتدين بالشهرة لاقتية الري . ولكن طبيعة الارض وزعت السكان هنا وهناك وهناك . وقد خضعت افغانستان زمناً طويلاً للسيطرة المغولية في الشمال والشرق ، وللسلطة الفارسية في الغرب . وحق في القرن التاسع عشر حاول الشاه السيطرة على هيرات ، وأمير بخارى السيطرة على بوكشان ومنطقة بلخ (بختيار القديمة) ، بينما شعرت قبائل المنحدر الشرقي ببيل الى الدولة الانكليزية التي كانت مهيمنة على منافذ الوديان المنحدرة نحو الهندوس .

الأفغان سكان ارياف معظمهم رعاة او شبه بدو رحل يؤلفون خمسة اتحادات قبلية مؤلفة بدورها من قبائل صغرى (يبلغ عددها ٤٥٠) يدير شؤونها خانات منتخبون وجمعيات تضم زعماء العائلات . ويقدم هؤلاء المحاربون الأشداء ، القانعون المنحدرين ، الشرف الافغاني (نالجي بوختانا) على كل شيء ويطبقون فيما بينهم سنة « البدل » او الثأر . وبقوم في الشمال والشمال الشرقي منطقة ياغستان المستقلة التي تقدم محاربيها البواسل لامير كابول ولاعدائه دونغا تميز . وقد عجز الافغان السنيون أبداً عن ان يطردوا من جبالهم الـ ٦٠٠ الف شيعي المغولي الاصل الذين يهاجرون راضين الى المدن حيث يقومون بأشغال شاقة . وهناك مليون « تاجيك » من أهل الحضر في هذه المناطق الشمالية وفي جوار هيرات : ولكن هؤلاء الذين تعاطوا الصناعة اليدوية والتجارة ما كانوا ليرضوا بالسيطرة القبلية .

ما هو في هذه الظروف شأن الامير المتربع على عرش كابول بقوة السلاح ؟ انه في حرب دائمة مع القبائل التي لا تعترف بسلطته ولا يستطيع هو اخضاعها .

بيد أن وجود بلاد افغانية متمتعة بالسيادة نظرياً كان نتيجة المحاصمة الانكليزية الروسية

في آسيا الوسطى . واذا منيت انكلترا في السنة ١٨٤٢ بفشل ذريع في ثغرة « كرد كابل » الرهيبة ، واذا لم ينقذ « روبرتس » حامية كندهار في السنة ١٨٨٠ الابسية غاية في الجرأة ، فان الدبلوماسية والرشوة قد نجحتا بالنتيجة في اسناد الحكم في كابل الى الامير عبد الرحمن الذي ترك فيه التفوق البريطاني أثراً كبيراً . ولم تدفع بريطانيا العظمى بين مليونين وثلاثة ملايين لمحميها فحسب ، بل ربطت بين البلاد ووادي الهندوس بطرق جيدة وبخطين حديديين يتجهان نحو ممري خيبر وخوجا . وأسهمت كذلك في صد الفرس ووضعت بلوتشتان تحت حمايتها فعمزت بذلك هذه المواقع الامامية للهند .

إلا أنه استحال على امير كابل ان يستلم كلياً للانكليز . فمها كان من نفعية مساعدة بطرسبورغ ، فانها انطوت مع ذلك على فائدة كبيرة للأفغاني هي ضمان تحالف بديل عند الحاجة ، لا سيما وان الضغط الروسي البعيد لم يبرز الا في عهد متأخر . ولكن الاستيلاء على مرو في السنة ١٨٨٤ قد فتح طريق هيرات أمام القائد كوماروف وكان مقدمة لاحتلال « بنجه » . ثم ما لبث الروس ان بلغوا بامير .

وكان لأفغانستان فائدتها احياناً : ففي السنة ١٨٩٥ حافظت على منطقة فاخان الضيقة التي تفصل بين الامراطوريتين الاوروبيتين على ارتفاع اكثر من ٣ آلاف متر . ولكنها في الحقيقة دارت في فلك الهند .

خضوع الاسلام للروس
في الخوض الجاف الواسع الاطراف الذي دخله الاسلام الى الشمال من ايران وضعت الحرب المقدسة الروسية تحت السيطرة القيصرية زهاء عشرة ملايين مسلم .

اقامت طلائع العالم الاسلامي هذه بين روسيا الوسطى والسهل السيبيري . فقد ألفت منذ ذلك الوقت على جانبي الفولغا مجموعة هامة تقدر بمليون نسمة تنتسب الى الفرع التركي المغولي ولا يدخل في عدادها تتر القرم . فتمت « نجني - نوفورود » عند حدود السلافيين الارثوذكس ، ولكن خازان ، عاصمة خانية الفرقة الذهبية بالامس ، قد شيدت المآذن منذئذ بين الكنائس . وبينما اعتنق الـ « شوقاش » المنحدرون من اصل فنلندي ، الدين المسيحي ، فقد مثل الاسلام ، ابعد الى الشرق في جبال الاورال ، الـ « بشكير » الذين اقلقوا القياصرة زمناً طويلاً سجنهم ومساندتهم لـ « بوغاتشيف » : أخذت البلاد ترتدي طابعاً روسياً في أواخر القرن ، ولكن البدو الرحل الذين استخدمت جواهرهم في الحملات على فارس وتركيا قد بقوا اوفياء للخيمة ولحليب الفرس المختمر .

وراء هذه المواقع الامامية ، انبسطت بورات صحراوية تحيط ببحري قسزوين وارال وتكاد تكون خالية من السكان . ولكن حيثما كانت الحياة البدوية ممكنة عاش بعض الرعاة من امثال الـ « كلوك » البوذيين عند الفولغا الاسفل ، ولا سيما القازاق الكرغيز ابعد الى الشرق .

وكان هؤلاء اتراكاً مغوليي الطابع متمسكين ابدأ باعتقاداتهم الشامانية وبعبادة الاموات ، فمارسوا اسلاماً سلباً متساهلاً . وقد شيد الروس فيما بينهم خطاً من المراكز المحصنة وضعوا فيها حاميات من قوزاق اورنبورغ والدون ، رغبة منهم في ضمان مؤازرتهم . أما القبائل الثلاث التي امتلكت ملايين الجياد والاغنام والابقار فقد تألفت من قبائل صفري ، او «الول» ، تضم كل منها بين ٣٠ و ٢٠٠ خيمة . وكان قوام غذائها «د عيرن» او الحليب الخائر ، والشاي ، واللحوم .

في القفقاس تغلب الروس بصعوبة على مقاومة اللسفين والشراكسة الذين هاجر قسم كبير منهم الى تركيا . وقد خططت الطريق العسكرية الى منطقة ما وراء القفقاس عبر ممر «داريال» بسين «اوسيت» الايراني الاصل المتميزين بمزيد من الاستعداد للخضوع . اما شيميو اذربيجان الذين يحبون بورات «شروان» ويتطلعون الى ابناء مجدهم في تبريز ، فلم يمتف الفاتحون السلافيون عن استخدامهم في سياستهم الفارسية . ولكن الفاتحين هؤلاء الذين نشروا الامن والسلام في الفيسفساء القفقاسية ، وبأثروا استثمار ثرواتها ، قد اضطروا الى الاكتفاء بترويس المسؤولين الاداريين .

الى الشرق من بحر قزوين ، سيطرت على الوديان المنحدرة من القمم المرتفعة رطوبة كافية لان تجعل من كل منها مصراً اخرى . وغذت مجاري المياه واحات واسعة الاطراف . وكانت مواطن الحرير والقطن هذه ، حيث ازدهرت في المصور القديمة سوغديانا وبكتريانا ومرجيانا ، مهياة ابدأ لقيام الامبراطوريات . فان سمرقند تعزز بضريح تيمورلنك ؛ كما ان باير ، فاتح الهند ، هو ابن فرغانا . وقد تعززت حيوية الاسلام السني في بقاع عرفت بالامس حضارة يونانية - بوذية تتصف بالركة . واذا استطاع الروس الاستقرار في «سميرتشة» ، او بلاد الانهار السبعة ، عند مدخل «زونغاريا» ، فانهم قد اصطدموا من جهة ثانية بدول اسلامية حسنة التنظيم في احواضي «سيرداريا» و «اموداريا» و «مورغاب» .

ان الاستيلاء على تركستان ، المدينة المقدسة ، وعلى طشقند ، قد قاد جيوش القيصر الى ابواب فرغانا . وقد خضعت هذه الاخيرة للصين حتى السنة ١٨٣٥ ، ثم اسست خانية كوكند التي ضمت اهل حضر واهل وبر ؛ فأقام فيها التاجيك والسارت علاقات طيبة بسمرقند وقشغر على الطريق التي تصل بين تركستان الشرقية وتركستان الطورانية . وبعد ان حارب الروس اصبح خان الاوزبك التركي المغولي حليفهم رغبة منه في التفرغ لصعد اعتداءات بخارى ، ولكن فرغانا قد ضمت الى روسيا في السنة ١٨٧٦ .

اما بخارى ، اكبر الدول الاسلامية ، فارتضت قبل ذلك بالخضوع للسيادة الروسية . ولكن خانها نصر الله سار قدماً في تحقيق برنامج ينطوي على الكثير من الطموح . فقد جهز هذا الزعيم الاوزبكي الاخر جيوشاً دائمة وهاجم جاره زعيم خيوا ؛ ثم استولى على سمرقند وخوجند ، وطرده امير كوكند من فرغانا لفترة قصيرة ؛ لا بل انه فكّر يوماً بفرض افغانستان ، ولكن

دون اتفاق على ذلك مع الانكليز ؛ وقد اشتهر بالاضافة الى ذلك باضطهاده المسيحيين ووحشيته في قمع الحركات الثورية . ولكن ابنه لم يستطع الصمود في وجه الهجوم الروسي ، وبعد سقوط سمرقند ، مدينة الجوامع الـ ١٦٥ والمدارس الذائعة الشهرة ، ارتضى بأن يكون محمي القيصر ، وبأن يلقي الرق ويستقبل في جيشه مدربين روسيين . فقابل ذلك ، ومقابل التخلي عن منطقة ظرفشان الفنية تمكنت بخارى ، الواحة المشهورة بجوامعها الـ ٣٦٠ وفنادقها الـ ٣٨ ، واسواقها الـ ٢٤ ، والمتميزة بأكثرية من التاجيك ، من الابقاء على مؤسساتها الاقطاعية .

هوجمت خيوا من وراء فسقطت بدورها . وقد تنازع الاوزبك والتركمان هذه الواحة وهذه السوق النحاسية الكبرى ؛ وهم السارت والتاجيك ، هنا ايضا ، من القوا الاكثرية ودفعوا الجزية للملك الذي ابقاه الروس كذلك في مركزه بالشروط نفسها .

وكانت مرو مركز خانية تركانية ضمت ٢٤ قبيلة صغرى ، وانشئت فيها ٢٤ قناة للري . وقد صمدت فيها المقاومة التركانية بعناد ولم تنهر الا في السنة ١٨٨٤ . فبات ممكنا حينذاك أن يحور الخط الحديدي المؤدي من « كراسنوفودسك » على شاطئ بحر قزوين الى فرغانة النائية دون أن يمر بصحراء تركستان الوسطى . ولن ينشأ خط حديدي مباشر بين موسكو وطشقند الا في السنة ١٩٠٥ .

نشر السلم الروسي الذي لم يتعرض تعرضاً يذكر للعادات المحلية ، مقتصرأ على مراقبة الغاء الرق ومنع بعض تجاوزات القانون الجزائي وتوطيد حرية الاديان والتجارة ، وتاركا للدين الاسلامي طابعها وشوارعها الضيقة القذرة وحياتها . وقد آثر الفاتح ان يشيد لموظفيه وحامياتهم ومهاجريه المستعمرين ابلية خاصة به ، فأسس طشقند جديدة قوازي باريس مساحة وجهازها بدار كتب ومرصد ، ومرو جديدة ، وحياء اوروبيا جديداً في سمرقند . واشترى الحرير ، وأدخل نوعاً اميركياً من القطن ، وانشأ مصانع للحلج وباع مصنوعات في بلاده . ولكنه لم يدخل اي تحسين على الري وتربية المواشي . وبعد أن تقلب على زعماء الاوزبك والتركمان ، لم يكثر قط لمكافحة الرياح البوارح والجراد والملايا .

ان تركستان ، الفنية بذكرياتها وامكاناتها ، مدينة لهي الروس بأمنها ووحدتها الجزئية . ولكن مستوى الحياة فيها لم يرتفع ارتفاعاً يذكر .

في القرن التاسع عشر ، لفتت مصر انتباه اوروبا بعد حملة نابليون .
مصر : ارض خصبة
وفلاح بائس
فتبارى رجال السياسة وعلماء الاقتصاد واهل القلم في تبيان موقع البلاد الهام وغنى كنوزها الاثرية التي نبشتها اعمال التنقيب ، وثروة

تربتها الذائعة الصيت .

اذا استثنينا الطوائف المسيحية - الاقباط وسوام - واليهودية ، رأينا ان الشعب المصري يتألف ، بنسبة تسعة اعشار ، من الفلاحين المسلمين الذين تتوقف معيشتهم على فيضان النيل .

وهناك اقل من ٢٠ ألف كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية (اي اقل من مساحة بلجيكا) من اصل ٦٠٠ ألف ، ويمكن تقدير عدد السكان بلبوني نسمة في اوائل القرن التاسع عشر ؛ فتكون الكثافة ٦٠ في كل كيلومتر مربع من المساحة الضيقة الصالحة للحرث المتكونة من الدلتا والوادي والفيوم . وليست مصر من ثم سوى اكبر واحة في العالم . فالصهود تتوالى وتستفيد من عمل المصري الشاق ؛ والمصري يتحملها ولا يحب سوى ارضه . ولكن الارض ليست لمن يزرعها . فالاملاك الموقوفة تمثل اكثر من ربع المساحة المستنمرة ولا تنتج كثيراً . يضاف الى ذلك ان الملك ، بوصفه صاحب الارض ، يوزع الانصبه الاخرى لقاء جزية معينة ؛ وفي قطيع الارض هذه المعروفة بالحراج يكون الفلاحون مسؤولين بالتكافل عن تأمين الاقوات المفروضة ومازمن بدفع رسوم اضافية للري .

بعد مصادرة املاك المماليك ، أمر محمد علي بمسح الاراضي مسحاً جديداً . فسجل كل قطعة ، مدى الحياة ، باسم زعيم العائلة ، ولكنه احتفظ لنفسه بأملاك خاصة واسعة ووزع الاملاك الكبرى على ملازمي جيابة الضرائب و « شيوخ البلد » . وقد استهدف من وراء ذلك ان يضمن بعض المؤازرين بنية توسيع زراعة النباتات الصناعية الوفيرة الارباح . فادى ذلك الى رأسمالية رسمية مارسها اقطاعي كبير .

لم يدخل بذلك اي تعديل على معيشة الفلاح . ولكن سعيد منحه حق التصرف بأرضه واسماعيل حق التملك الكامل لكل من يدفع مسبقاً الضرائب المتوجبة خلال عشر سنوات ؛ واحتفظت الدولة لنفسها بحق الاستملاك دونما تعويض بحجة المنفعة العامة ، او بحق الاسترداد في حال التخلف عن تسديد الضريبة . وبالنظر الى تزايد عدد السكان بسرعة (ارتفع الى ثلاثة اضعافه خلال نصف قرن) ، تفاقم خطر تجزئة الاراضي ، وحين اقر مبدأ انتقال الملك بالوراثة بعيد السيطرة الفرنسية الانكليزية المشتركة على مصر ، حدثت من جهة ان ٧٠٠ ألف عائلة لم تملك اكثر من خمسة فدادين (يساوي الفدان ٥ آراء تقريباً) ، ومن جهة ثانية ان ١١ ألف شخص ملكوا اكثر من ٥٠ اي ما يوازي الضعف (لأن بعض الاملاك بلغت بضعة آلاف الفدادين ولا سيما مناطق الدلتا المكتسبة حديثاً) . ولكن المالك الاكبر كان الدولة التي احتفظت لنفسها بزهاء ٩٠٠ ألف فدان . وأتاحت المراهة لجامعي الاراضي الحراجية توسيع ثرواتهم العقارية توسيعاً مستمراً . وحين اضطر خلفاء محمد علي للاستدانة ، انتقلت املاك الدولة عملياً الى رقابة الرأسماليين الاجانب . هكذا فان روتشلد قد ارتمى ٤٢٦ ألف فدان في السنة ١٨٧٨ مقابل قرض بلغت قيمته ٨ ملايين جنيه استرليني ونصف المليون .

الفلاح هو بالتحديد من يشقى . يعد الارض بواسطة مسعاة بسيطة او بحراث بدون عجلة مقلب ، ويعهد بها بمعارضة خشبية بسيطة ايضاً هي « الزحافة » . اما معاونوه فهم الجاموس او

الحمار . ولكن العمل الاكبر هو عمل الماء ، اذ لا غلة بدون ماء . فيتوجب على الفلاح ان يستعد لوقت حدوث الفيضان . اجل لقد تولى محمد علي امر استبدال طريقة احواض الاغتثار القديمة بأقنية الري الحديثة . ولكن الفلاح ملزم ، حتى في هذه الحالة ، بعمل جماعي شاق لا يعرف الكلل . فعليه ان يراقب الاحواض والأقنية ويصلحها احيانا ، ويتعمد السدود ، ويزيل كل ما يعيق جريان الماء ، ويرفع الماء حين يكون منخفضاً ، اما بواسطة زنبيل واما بواسطة الشادوف البدائي ، وكلهما اعمال منهكة . فيجمع من ثم بين هؤلاء المساكين تضامن وثيق لا سيما وان اعمال التسخير من اجل المصلحة العامة ضرورة حيوية بالنسبة لهم . يزرع القمح والفول بعد الفيضان والذرة الصفراء والخضار والنباتات الصناعية والارز في الحريف . ولا يغادر الفلاح أرضه . فهناك بيته المصنوع من مور مجبول بالتبن ، ويستخدم في صنعه زبل البقر مكان الملاط . لا كوة فيه سوى الباب ، وهو لا يضاء ولا يدفأ بسبب الحاجة الى المحروقات . ولكن السقف المغطى بالتبن غالباً ما تلتهمه النيران . ارضه الترابية مغطاة بالحصر وليس عليها بالاضافة الى ذلك سوى صندوق للملابس . المياه الصالحة للشرب نادرة ؛ والدين والفاقة يجرمان الحرمة . قوام وجبة الطعام بصل ولفت وخيار وفول وعدس وأرز ، ولا سيما خبز الذرة الصفراء الذي ينقذ مصر من المجاعة . وجلي انه نظام غذائي نباتي قليل الفيتامينات ، لا يدخل فيه حتى حليب الجاموس . ويرتدي الفلاح قميصاً قطنية طويلة بسيطة ، ويكسي رأسه بكعة تعرف باللندة ، فيدعى بسببها بأبي لندة . ويسير حافي القدمين او يحتذي البابوج احيانا . اما امرأته المهجبة فلا ترتدي سوى ثوب واحد ، ولكنها تكثر من الحلي اللامعة . رمد العيون والبهرسية وضعف الدم الناجم عن الديدان الطفيلية امراض منتشرة تسبب اضراراً كبيراً . الملاريا والكوليرا ينتشران بين حين وآخر ؛ وهناك بعض الاماكن الموبوءة بالطاعون . وينضم السفلس الوراثي الى الضعف العضوي للقضاء على نصف الاولاد الصغار . وعلى الرغم من كل ذلك يتزايد عدد السكان ويتزايد معه البؤس .

الفلاح مسلم بعيد عن التعصب ولا يفهم لغة القرآن . يزور ضريح الولي اكثر من الجامع البعيد . يحترم الدراويش ويتصف بروح التعاون . زد على ذلك ان شظف العيش لا يجعله شكساً : فانه يهوى الغناء ويستخدم الشتابة والمزمار ويضرب الطبل . انه سهل الانقياد وراض بتدبير الله عموماً .

شبه عمرو بن العاص الشعب المصري بالنحلة التي يحكم عليها
الانسان يجني العسل من اجله . وسوف يتكلم الانكليز عن الضحية
الدائمة لمنطق العاص . وفي اوائل القرن التاسع عشر جاء محمد
علي الذي أراد بدوره استخدام البلاد لبلوغ اهداف كبرى .

اثرى في تجارة التبغ ، وكان امياً وفطناً وعادم الضمير . ثم اعترف السلطان بباشويته على

مصر فقتل المالك على ايدي البانيه، وما لبث ان أبعد الالبانيين السجسين بدورهم . وجند بعد ذلك جيشاً من بين الفلاحين واستند امر تدريهم الى بعض المدربين الفرنسيين وابتقى السيطرة على الشرق . وكان بصيراً وقاسياً فاقببس عن اوروبا تقنياتها ودغدغ شغفها بالتاريخ المصري والآثار المصرية ، وسخر لمرض تعاضم لحدوده ارادة استبدادية على غرار بطرس الاكبر .

ما كان احد في الحقيقة لينكر ان المعجز التركي أوقع البلاد في حالة يرثى لها . فالاسكندرية ليست آنذاك سوى ميناء صغير لا يتجاوز سكانه ٥ آلاف نسمة . ولما كان الباب قد احتفظ لنفسه بالمرقا القديم القادر وحده على ابواء السفن ، فقد بقيت السفن الاوروبية خارجه معرضة للرياح العاصفة . وتعرض تجار الغرب ، المجموعون في مكان واحد ، لألف ظلم وظلم ؛ ولكن الفرنسيين تمتعوا مع ذلك ببعض الامتيازات . اجل كان من شأن عظمة الابنية الفاطمية والايبوية والملوكية ان تترك اوراقاً عظيمة في الناظر اليها : ٤٠٠ جامع بعضها اجل ما في الاسلام ، جامعة الازهر الدينية الذائعة الشهرة ، المكتبة الغنية الضامة مخطوطات قديمة للقرآن ، كلية قصر العين الطبية . ويضاف الى هذه الابنية شوارع مليئة بالنضارة ، وتجار وصناعيون يدويون كثيرون ؛ على ان اشكال النشاط قديمة العهد .

ان ما حلم به بوناپرت ، وما نوى السانسيمونيون تحقيقه ، قد رسمه محمد علي رسماً ايجازياً: برنامج اعمال كبرى خلقى بالفراغة . لم يبال بحياة الرعايا بل طلب منهم الاسهام في عمله وأراد ان يحمل من مصر ارضا توفر لصندوق ماله الدخول الوفيرة . عالج مسألة الري الرئيسية التي وجب برأيه ان تكون منظمة لا متروكة لأهواء الطبيعة . فنفذ جيش الفلاحين الزهيد النفقات تصاميم المهندسين الفرنسيين من امثال « لبنان » و « موجيل » ، ونقل ١٠٤ ملايين متر مكعب من التراب ووضع مكانها ٣ ملايين متر مكعب من الحجارة المبنية . وعلى الرغم من التخلي عن مشروع سد عند الدلتا بعد جهود عشر سنوات ، اتسمت مساحات زراعة الحنطة والارز ، وأخذت البلاد ، بصورة خاصة ، تجني القطن المعروف بقطن « جومل » ، وقصب السكر ، والنبيلج والزيت ، المعدة كلها للتصدير . ولكن شيخ البلد والمدير الاقليمي والمكتبة الاقباط في الوزارات صرفوا الذهن والفطنة في تحصيل كل ما يمكن بيعه في الخارج من الفلاح . أما الارباح التي وفرتها النخاسة ، فلم تكن مستهانة ايضاً .

أنفق قسم من الموارد على تجميل القاهرة وتنظيم الاسكندرية وبناء قناة تصل هذا المرفأ بشعبة النيل اليمنى . وكان الجيش والاسطول موضوع عناية واهتمام خاصين . ولكن أحلام التوسع العظمى لم تتحقق . وقد توفي الباشا شبه ممتوه بعد أن سير مصر على طريق نهضة لم يستفد منها الشعب الذي عومل معاملة قاسية لم يعرفها من قبل ، ولن قسم الا في عهد الوصاية الاوروبية .

اذا صرف سعيد واسماعيل النظر عن مطامعها في سوريا والجزيرة العربية وقبرص (لأن مدعياتها استهدفت السودان واfrica الشرقية) ، فان احلام العظمة ما زالت تراودها . ولكن السلالة غرقت في الديون أثناء فتح قناة السويس التي أضفت على مصر اهمية جديدة . وقد برهن سعيد عن بعض التساهل الديني ، ومنع الرق - اقله مبدئياً - وحظر العقوبات الجسدية ، وحد من تجاوزات شيوخ القرى ، ولكن التقدم الاقتصادي لم يفد الفلاح كما لم يبرر النفقات المفرطة : وقد اطردت هذه الاخيرة في عهد اسماعيل الذي حصل من السلطان على لقب الحديوي واعتقد ان ذلك يسهل له الاستدانة من اوروبا . اجل لقد اقرت بعض المشاريع المجدية (كبناء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة مثلاً) . ولكن كم من اتفاق مفرط مخالف للصواب الى جانب ذلك ! أفلم يفكر هذا الامير بأن تدرب جيوشه امام قصره في الاسكندرية على ارضية حديدية حتى لا يزعجه الفبار المتطاير ؟ فمن جهة خرجت بور سعيد من الرمال ، وظهر الغاز في المدن ، وتأسست صناعة سكرية ، وغت زراعة القطن ، ومن جهة اخرى ابتز الموظفين المتدنية اجورهم اموال الفلاحين ابتزازاً لم يسبق له مثيل في الماضي ، وبات افلاس الاموال العامة أمراً محتوماً .

بقيت مصر توفيق وعباس حلمي مرتبطة بالباب بروابط التبعية الاقطاعية ، ولكنها اصبحت في الواقع تحت رقابة البريطانيين الذين أقاموا ، بأمر « بارنغ » (اللورد كرومر) ، حامية عسكرية دائمة ، وأداروا الشؤون المالية ، واستولوا على الجمارك والشرطة والخدمات الصحية ، وأعادوا تنظيم الجيش لمصلحتهم . فأرسخ الفاتح من ثم سلطته في السويس واستطاع تبني سياسة القاهرة لحسابه الخاص في وادي النيل الاعلى .

أما الفلاح ، فالسألة التي عنته هي معرفة ما اذا كانت احواله ستتحسن بفعل استثمار يتحقق بهمة ونشاط لم تعرفها مصر من قبل .

حين يتجه المرء المفساد مصر من واحة سيوا نحو الغرب ،
الوصايات الثلاث في الجزائر وتونس
يدخل في بلاد البربر الممتدة حتى الاطلسي .
وطرابلس

نشأت عن الفتح التركي وصايات الجزائر وتونس وطرابلس ،
بينما توقفت سلطنة مستقلة في مراکش الى تثبيت اقدامها تثبيتاً متفاوت القوة . ولكن هذه
البلدان الاربعة خضعت خلال القرن التاسع عشر ، الواحدة تلو الاخرى ، لسيطرة الدول
الاوروبية .

ومن غرائب المناقضات ان وصاية طرابلس هي آخر ما خضع لها من بين الوصايات الثلاث .
قبين دلنا النيل والمغرب تتصل الصحراء الكبرى بالمتوسط ، مما اسهم في نمو طرابلس المستعدة
في معيشتها على القرصنة وعلاقتها بالسودان التي اتاها منها الجمالة ناقلو الذهب والماعز ومواكب قوافل
المبيد . وطرابلس المتميزة بأسواقها النشطة ، قامت في مكان « اويبا » القديمة وضمت حياً
يهودياً هاماً وقسداً ، وعدداً كبيراً من المالطين والطوارق والزنوج . وفي السنة ١٨٣٥ ، آثر

الطرابلسيون ، امام خطر قبيلة اولاد سليمان المحاربة ، التي بسطت نفوذها بين الساحل وال « قاتم » ، التشادي ، استدعاء الاتراك ثانية ، لا سيما وان سلطتهم كانت سلطة اسمية فحسب . فقبل هؤلاء وسعهم في السيطرة على المناطق الداخلية ، واستولوا على واحتي غاداميس وفزان ، ثم انشأوا ولاية بني غازي . وكان مقدراً لهذه الوصاية ، ربما بفضل فقرها بالذات ، ان تبقى عثمانية حتى السنة ١٩١١ ، تاريخ التدخل الايطالي المتأخر فيها .

بيد ان المغرب (جزيرة الغرب) الذي يضم الجبال القائمة بين المتوسط والاطلسي والصحراء لم يصلح يوماً لان يكون اطاراً لدولة واحدة . فكل ما في طبيعة ارضه ومناخه وطرائق المعيشة فيه قد اعدده للتقسيم والتجزئة . وسوف يتوجب ان تفرض دولة اوربية وجودها حتى تعرف افريقيا الصغرى هذه بعض الوحدة السياسية والادارية : فجاءت السيطرة من الخارج كما حدث في الماضي .

ما زالت الجزائر وتونس تعترفان بالخضوع للباب العالي . ولكن الموارد التي توفرها القرصنة كانت سائرة في طريق الزوال . فلم يكن « داي » الجزائر من ثم خاضعاً للقانونية القرصنة او « طائفة الرؤساء » خضوعه لفرقة الانكشارية او « الاوجاق » ، كما ان باي تونس قد استند الى البورجوازية التجارية ، اكثر البورجوازيات طابعاً عربياً في المغرب ، التي كان يهمها الاحتماء من غزوات البدو . فقد بدا الحفصيون ثم الحسينيون في افريقيا امراء سلالات على بعض القوة . اما الداي ، الذي قال عنه مؤرخ اسباني انه « ملك عبيد وعبد رعاياه » ، فكان اداة في يد الجيش . فبالنظر الى توليه السلطة اما عن طريق الدسيسة واما عن طريق القوة ، ولما كان بالاضافة الى ذلك جامعاً وتابعاً هواه ومقلداً لجيرانه (ولذلك لن يجد له يد المساعدة لا باي تونس ولا الشريف المغربي في السنة ١٨٣٠) ، فلم يتمتع بسلطة صكافية لنشر الامن والنظام في الجزائر .

تتميز الجزائر بالتنوع بسبب اتساع رقعتها . فمن الطبقة العسكرية التركية والنساء البلديات المخدرة الى « كولوغلي » الذين يؤمنون الحراسة في حصون المدن ويمتلكون بعض البساتين ؛ يحتقرون البورجوازيين والصناعيين اليدويين ويشيرون خوف وحفيظة سوامم . ويتعاطى المغربي او الاندلسي على العموم حرقاً تتطلب بعض الذوق ، بينما يتعاطى الزوج ، المعتقون غالباً ، اعمال البناء المختلفة . ويزاول المزابيون ، المعتبرون كخوارج ، تجارة الاقمشة والمواد الغذائية ، ولكنهم نادراً ما يستقرون في مكان معين ، بل يعمدون الى مزاج بعد جمع الثروة . اما الاسرائيليون سكان المدن فيؤلفون جماعات مستقرة ، ويبلغ عددهم زهاء عشرين الف نسمة منهم ٦٠٠٠ في مدينة الجزائر نفسها و ٣٠٠٠ في قسنطينة ، وينحدر جلهم من اصل بربري ؛ ولكن عدداً كبيراً منهم ينحدر كذلك اما من اصل عبراني آرامي واما من اصل اسباني . ويتوجب عليهم ارتداء زي خاص والاقامة ، على العموم ، في احياء منفصلة . ويمانون من

المظالم وحتى من اعمال العنف . وهم فقراء الحال بصورة عامة ، ولكن بعضهم يتماطلون
تجارة رابحة ويلعبون دور الوسطاء المفوضين مع الاجانب .

اما سواد السكان فيتألف من خليط من العرب والبربر الموزعين على غير تساوي بين المدينة
والريف . اجل ان المدينة ، التي تحيط بها الاسوار بصورة عامة وتشرف عليها القسبة وبعض
المآذن ، تبدو وكأنها مركز ثقافة عربية ؛ ولكن العنصر البربري متفوق في الاسواق . زد على
ذلك ان المدن المعتبرة « حضرية » لا تتجاوز العشر عدداً .

لا يزال التضاد قائماً بين البدوي الذي ترتبط حياته بانتقال القطعان من منطقة
الى منطقة وبين الحضري او شبه الحضري . الجفاف عدو الجميع في كل مكان .
والانسان يسيء مقاومته لانه غمطي وقسدي ولا يستخدم سوى محراث مزود ببأسنة صغيرة
بدون سكين ومقلب ، وكأنه مجرد كلاب يحمره الحمار او الحصان او الثور ؛ يحصد بواسطة
المنجل ، وينظف الحبوب من التبن بواسطة المذراة ، ويجمع الحبوب في المطاير . اجل انه
يعتني بمحافظته وبساتينه . ولكنه لا يتقن تربية المواشي ويجهل امر سكانها في الزريبة
ويقدم لها الاعشاب التي تنبت بفضلها تعالى . وغالباً ما يحدث ان تموت الابقار والاغنام جوعاً
باعداد كبرى . وتسبب الحروب الاهلية والغارات بخسائر توازي تلك التي تسببها الكوارث
الطبيعية . وباستطاعتنا كذلك ان نرد الى القوضى والاممال سوء الحالة الصحية في السهول
الساحلية .

الف الناطقون باللغة للبربرية بمجموعات متراسة في جبال قابيلية واوريس وبين سنوسي
منطقة تلمسن ، ولكن تعلمهم اللغة العربية وارتدادهم الى الاسلام لم يقضيا على عاداتهم القديمة .
فقد قابل الشرع الاسلامي العادة المحلية : وهكذا فان قبائل قابيلية لا تخضع الا لقوانينها ؛
وحتى اذا تجمعت العائلات المتصاهرة لتؤلف « الدوار » عند الرعاة و « القصار » في القرية ،
فان هذين التجمعين لا يرتديان قط طابع الديمومة .

عجزت حكومة الوصاية عن تنشيط اقتصاد البلاد ، فلم تهتم الا لجمع الدخول . وقد تاملت
لها الواردات بفضل الجمارك والمقايسات مع الخارج . وقد باع الداي الاصواف بواسطة عود
ليفورنو محققاً كسباً يوازي ٣٠٪ ويرتفع حتى ٥٠٪ حين يضاف اليه كسب التجار ؛ وقد
اشترى هكتولتر الحنطة من المنتج بسعر يتراوح بين ٣ و ٨ فرنكات ويبيع بسعر يتراوح بين
١٨ و ٢٠ في اوروبا . اصف الى ذلك ان الضريبة تفرض على القبيلة « الرعية » بالتخيلي
للحكومة عن بعض الحصاد والماشية ؛ وتجمع هذه الضريبة على يد قبائل تعرف بالهزن وتقوم
بعملها مقابل تخفيض الرسوم المفروضة عليها وحتى اعفاؤها منها ، وبمساعدة الحاميات العسكرية .
واذا احتفظ الداي لنفسه بإدارة منطقة مدينة الجزائر (ملكه الخاص) ، فقد فوض بسلطاته
الى بعض البايات في مناطق وهران وقسنطينة وميسديا . وبديهي ان الامور لم تجر بدون
صعوبات . فان باي قسنطينة ، الكولونيل الحاج احمد ، قد القى الاهابة والخوف في كبار

الاقطاعيين المدعين الامحدار من الفاتحين العرب (ارستوقراطية الدم الازرق) ، ولكن الداي محمد بن عمان لم يستطع اخضاع قابيلية (وستدوم الاسطورة القابيلية طويلا) . اما في منطقتي وهران وتري ، فقد ساندت فاس بعض الجمعيات التي تنازعت النفوذ فيها : فبينما نادى بعض الجمعيات الدينية المتميزة بروح ديموقراطية ، كجمعية الدركاوة ، بالثورة على السيطرة التركية ؛ برز في الارستوقراطية المتصوفة زعماء تاقوا الى تخطي النظام القبلي وسموا وراء السلطنة ، ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد القادر الذي سار على خطى الامراء العرب . وقد استغلت القوى الروحية الاستياء العام الناجم عن البؤس ، قبل ان يستطيع الفرنسيون الاستفادة من الخلافات . وان عبد القادر لمدين بقسط كبير من شعبيته الى الغاء الضريبة العينية التي سبق ووعدت بها ثورة دركاوية . وجلة القول ان القبائل الرعايا كانت ترتقب اول فرصة للتحرر من نظام جائر . ثم جاء الفتح الفرنسي في وقته المناسب حين وجد السبيل ممهدا .

عمل الفرنسيين في الجزائر بسبب جهل الاماكن واللهجات ، خضعت الحملات الاولى على الجزائر لعامل الارتمجال ، وساد الاعتقاد بان الاتفاقات مع الزعماء المحليين - احمدي في منطقة قسنطينة وعبد القادر في منطقة وهران - ستكون كافية لضمان احتلال جزئي ؛ يضاف الى ذلك ان الرأي العام لم يكن معدا للتسليم بتضحيات كبرى . ولكن الحاجة مست بعد قليل الى حماية المهاجرين المستعمرين في منطقة التل ، كما مست ، امام عبد القادر الارب والحظر ، الى الاستيلاء على كل شيء خوفا من فقدان كل شيء . فكانت الحرب الكبرى مع ما تحللها من غزوات واعمال عنف وقد تولى عملياتها ضباط تمودوا ظروف القتال في افريقيا . وسهل عمل الفرنسيين فقدان الروح القومية وفشل التعمية الدينية ، اي الاختلافات بين المسلمين . واذا لم تتحقق التهدة النهائية الا بعد مرور زمن طويل ، فان اضطراب السنة ١٨٦٥ وثوراة السنة ١٨٧١ الخطيرة لم يكونا خطرا على السيطرة الفرنسية . وسوف يصبح بمقدور الاحتلال بعد ذلك التوسع تدريجيا في كافة المناطق الداخلية والسير على طرق القوافل عبر الصحراء .

اقتنع الجيش شيئا فشيئا بان الجزائر انها هي عمله وتحقيقه ، ومن جهة ثانية بان السلطة العسكرية وحدها قادرة على ابقاء فرنسا فيها . ولم يسل « بوجو » يوما بان راي المدنيين يجب ان يتقدم رأي العسكريين ، وعارض استثمار البلاد على يد مهاجرين احرار في التصرف كما يطيب لهم التصرف ، او على يد رأسماليين يقتطعون منها او من دخول سكانها ما يطيب لهم اقتطاعه . وبالمقابلة درج الفاتحون شيئا فشيئا على تعيين او تثبيت الزعماء البليديين في مراكز المسؤولية مفوضين الى تدبيرهم امر جباية الضرائب ، فسلخوا بذلك استمرار نظام اقطاعي تناوله بالنقد المطالبون بنظام مدني .

لما كان الاستعمار الاسكاني قد بدا ممكنا منذ البدء ، فقد تقابل منذ البدء عالمان مختلفان .

ولكن استيطان الفرنسيين لا يمكن ان يتحقق الا على حساب البلديين . والحال لم يفكر أحد بمنعه ، حتى ولا « بوجو » الذي كان يحلم بجنود فلاحين على غرار الرومان . فسارت الامور على غير هدى ، وفاقاً لحاجات الساعة او لاتفاق الآراء السائدة . وقد هاجر ، اثناء الاعمال الحربية ، بعض المساكن الذين أقاموا على مقربة من مدينة الجزائر ، وبعض المضاربين الذين اشتروا بغية تحقيق الارباح عند البيع ، وبعض هواة الاختبارات الزراعية الكبرى . ثم تسببت أزمة لسنة ١٨٤٨ في هجرة عدد كبير من العمال ، وتبنى المجلس التشريعي مبدءاً ازال الجنود في المنازل والاحياء الآلهة الذي يتيح اغتصاب اموال البلديين بموجب القانون . واذا أعرب نابوليون الثالث عن رغبته في حماية القبائل ، فان ذلك لم يمنع الامبراطورية الثانية من اطلاق حرية العمل للرأسماليين الذين حصلوا على امتيازات واسعة : هذه هي سانسيمونية الاشغال العامة الكبرى ، التي توفرت لها وسائل مالية عظيمة ؛ ولكن سد « هبرا » قد انهار ، والشركة الجزائرية العامة أعطيت ١٠٠.٠٠٠ هكتار دون اي تعهد من قبلها . ففترت همة صغار المهاجرين المستعمرين فترة من الزمن ، ولكنهم استعادوا التفوق ابتداء من السنة ١٨٧١ : فتوزع خلال عشر سنوات اكثر من ٤٠٠ الف هكتار . ثم بطؤ الاستثمار الرسمي . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان الاتجاه نحو توسيع الانصبه التي بلغ معدل مساحتها الى ٢٥ - ٤٠ هكتاراً ثم ٦٠ - ٧٠ هكتاراً ، ثم ٢٠٠ هكتار . فعاد الى الاملاك اعتبارها بعد أن تأمنت لها رؤوس اموال وفيرة وتقنية متكاملة : وبعد عهد الاستثمار الديموقراطي في اوائل عهد الجمهورية الثالثة دخلت البلاد مرحلة رأسمالية زراعية صادفت في الزمن توسيع الاسواق للمحاصيل الكبرى كالخمر مثلاً .

لم تتحقق لعمري تقديرات « بريفو - بارادول » بأن افريقيا الشمالية قادرة على استيعاب ١٥ الى ٢٠ مليون فرنسي حوالي السنة ١٩٣٠ . ويرد ذلك الى ان الجزائر لم توفر للاستعمار الاوروبي الظروف المواتية نفسها التي وفرتها له كندا او استراليا . وحتى السنة ١٨٥٦ ، كان من ارتفاع نسبة الوفيات بسبب الحميات وسوء الحالة الصحية ان عدد الموتى بين المهاجرين كاد يوازي عدد الداخلين الجدد منهم . ففي السنة ١٨٤٩ قتل وباء الكوليرا بالسكان فتكنا ذريعاً . واننا نذكر هنا على سبيل المثل ان سكان « بوفريق » قد تجددوا ثلاث مرات . غير ان بعض التحسن طرأ بعد السنة ١٨٦٠ ، فتضاعف عدد الاوروبيين بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٧٦ . وكانت نتيجة مرسوم « كريميو » لمصلحة اليهود وقوانين تجنس الاجانب تكوين قومية جزائرية حقيقية ، شبيهة بالقومية الفرنسية ، ولكنها تعني مصالحها الخاصة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الأوروبية قد اقاموا في المدن اكثر من الارياف ، فشيدت احياء جديدة في مدينة الجزائر ووهران والمدن الرئيسية الاخرى . وأنجب الاسرائيليون اولاداً كثيرين ، وحرصوا على تعليمهم واعتمدوا الزي والمعادات الأوروبية ؛ وتعاطوا تجارة العقارات ، ولكنهم احرزوا النجاح في الصناعة اليدوية واتجهوا طوعاً نحو المهن الحرة .

الا ان عدد المسلمين ارتفع ارتفاعاً سريعاً جداً فبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ حوالي السنة ١٨٥٠ ؛
وحين تدنى حتى ١٠٠ ٠٠٠ ٢ في السنة ١٨٧٢ ، اعلن البعض ان الشعوب المتخلفة تنقرض امام
الشعوب المتفوقة ؛ اما الحقيقة فان مرد هذا النقص هو انتشار المجاعة والتيفوس في السنة ١٨٦٧
واندلاع ثورة السنة ١٨٧١ ، فقد قفز عددهم الى قرابة ٣ ملايين في السنة ١٨٨١ والى ٨٠٠ ٠٠٠ ٤
من أصل ٥ ٥٥٠ ٠٠٠ في السنة ١٩١١ .

لم يتطور جمهور المسلمين تطوراً يستحق الذكر . ولم يستفد استفادة كبرى من مؤسسات
الحماية والتربية ؛ زد على ذلك ان اول مستشفى بلدي لم يفتح ابوابه الا في السنة ١٨٩٤ . وقد
فتكت الامراض بأعداد كبيرة منهم كل سنة ، لا سيما التذرن الرئوي والسفلس اللذان يبدو في
الحقيقة انهما زادا انتشاراً منذ مجيء الفرنسيين . ولا شك في ان التعليم في المساجد والمدارس
والزوايا كان دينياً فحسب ، ولكنه كان يتيح للأولاد تعلم القراءة ؛ فجاء الاسياد الجدد واستولوا
على الاوقاف وقضوا على هذه المؤسسات . ولم تعط تجارب المدارس العربية الفرنسية نتائج
مشجعة . وبسبب عدم توفر الموارد والمدرسين لم تؤمن « قواني » للمدارس العامة البلدية
سوى بضعة آلاف من التلامذة ؛ اضاف الى ذلك أن التعليم المقترح لم يوافق دأبها الاوساط
البلدية . واذا وفرت البلاد للفرنسيين حقلاً غنياً للدرس والملاحظة وحصاداً وفيراً
للمواضيع الادبية ، فان الفن الاسلامي ، بالمقابلة ، ما زال يتقهقر تقهقراً مطرداً : ارتسم
اسلوب هندسي فرنسي جزائري للابنية العامة ومقاصف المهاجرين المستعمرين ، ولكن قصر
احمد ، باي قسنطينة ، كان خاتمة الابنية البلدية بحسب النمط التركي الجزائري . اما الفنون
الصغرى ، المزدهرة جداً من ذي قبل ، فقد تأثرت بزوال القرصنة ، ثم عرفت ازمة خانقة
لا علاج لها بسبب المنافسة الأوروبية وارتداد البداوة الى الورا . فالتجارات التقنية تقضي
على النشاطات القديمة قبل تحسين وضع المتخلفين . وهكذا فان المجتمع الاسلامي قد قابض
الطنفسة بالسرير الزهيد القيمة ؛ وحلت الشمعة محل السراج الخزي ؛ وفقدت علب البارود
المنقوشة مبرر وجودها حين اصبح من السهل شراء الفسك ؛ وهبط عدد الزوجات بفعل تبسيط
اعمال المنزل ؛ فندرت في الوقت نفسه اليد العاملة اللازمة للحرف العائلية .

في المدينة عاش الكولوغلي والمغربي في ضيق ولم يتكيفوا . اما البربر والعرب الذين اعتمدوا
في معيشتهم على التيارات التجارية القديمة فقد خسروا الكثير بفعل الفتح الفرنسي الذي اوجد
تيارات جديدة واسواقاً جديدة . فالتداول النقدي الوفير قد حل محل المقايضة وحدث
انقلاباً في اسعار الحبوب والاصواف . وكيلت ضربة شديدة جداً لارستوقراطية الاشراف
والزعماء والقادة الذين ثبتتهم فرنسا في البدء في سلطتهم ، والذين بلغوا ذروة نفوذهم في ظل
« المملكة العربية » في عهد الامبراطورية الثانية ؛ فلم يفقد الزعيم القديم نفوذه فحسب ، بل
فقد ثروته ايضاً بفعل الاقتصاد الجديد . وكان فقدان الاراضي بفعل تزايد عدد السكان
اشد خطراً من كل شيء آخر . فقد خضع مليوناً هكتاراً على الاقل لنظام القانون المدني . ولا عجب

من ثم اذا ما هاجر العديد من الرعاة خيامهم بسبب عجزهم عن تحسين تربية مواشيهم ؛ ولا عجب كذلك اذا ما هاجر القبايليون بعد هزيمتهم في السنة ١٨٧١ وتعاطوا الاعمال المأجورة او المشاركات الزراعية . وغني عن البيان ان هذه المهاجرات قد فككت بيئة مغلقة كل الاقوال واسهمت في استرخاء الروابط العائلية . ولكن شطرا من السكان المسلمين تعود الاساليب الجديدة ، فأحسن العناية بالاشجار والمواشي ، وزرع البطاطا ، واستفاد من زراعة التبغ وبيع الاثمار . اما سوادهم الاعظم فما زال يعيش عيشة زرية .

يجب الاعتراف ، على الرغم من كل ذلك ، بأن الوجود الفرنسي قد اوجد بلاداً جزائرية جديدة . اجل ، ما زالت الاحوال سيئة في اوائل عهد الامبراطورية الثانية ؛ فللمهاجر المستعمر ، المتفرق الى الموارد ، يعيش في ضيق ويعاني من نظام حاية لا يسلم باعتبار المحاصيل الجزائرية محاصيل فرنسية ؛ وانتاج الحبوب في تفهقر مطرد ؛ ولم يزل خطر وهم مزروعات المناطق الحارة ، ولا سيما القطن ، الا في السنة ١٨٧٠ . ولكن القانون الجبركي الذي صدر في السنة ١٨٥١ مثل المستعمرة بالوطن الام . فتأسست شبكة مصرفية . وفي السنة ١٨٦٠ دشن اول سد لتخزين المياه . ويجدر القول هنا ان سدود التخزين ، التي فضلت بعناد على سدود الاسالة حتى السنة ١٨٨٧ ، قد خيبت الآمال . الا ان الانطلاقة باتت حقيقة واقعة عشية ازمة السنة ١٨٦٨ الرهيبة : فقد قابل تدفق المهاجرين الجديد تقدم سريع في توسيع المساحات المكرسة لزراعة الحنطة والبواكير وشجر الزيتون ؛ ودبت الحياة في التجارة بفضل الخطوط الحديدية والطرق . وحوالي السنة ١٨٨٠ توسعت عملية القروض الزراعية وأدخلت الدراسات الآلية .

في هذه الاثناء أصبح اتفاق الظروف غير موافق لزراعة القمح التي مرت في فترة توقف . زد على ذلك ان الجزائر اكتشفت مستقبلها في زراعة الكرم . وقد برز الشغف بالزراعة الجديدة في اعقاب ازمة بيع اول حصلت في السنة ١٨٩٣ ؛ فاحتلت الكرم ١٥٠.٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٩٩ . وهكذا فعلى الرغم من عدم اهتمام المجتمع الاسلامي بالكرمة الا من أجل العنب فقط ، ضحت البلاد بتربية المواشي واهملت الحبوب ، مع ان هاذين القطاعين حيويان جداً من وجهة النظر البلدية .

وفي عهد مبكر استرعت ثروات باطن الارض انظار الوطن الام والرأسماليين ؛ فدفع معدن الحديد الى تأسيس شركة «مفتى الحديد» ؛ ثم بوشر في الجوار اسجار الفوسفات . فاسهمت هذه الصناعة الاستخراجية في موازنة المقايضات في منطقة تفتقر الى التجهيز وتستورد كافة الادوات المصنوعة تقريبا .

ولكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو معرفة ما اذا كانت فرنسا ستعتبر الجزائر كجزء امتداد لارضها الخاصة . فان الجزائريين الفرنسي الاصل والجزائريين المتجنسين ، وهم فرنسيون حقاً ، قد تمتعوا بحقوق المواطنة الفرنسية . ولكن ما هي حقوق المسلمين يا ترى ؟ ثم هل يقبل

الجزائريون بأن تدار شؤونهم في باريس ؟ لذلك فان تاريخ نظام الجزائر السياسي والاداري بفسر الصراع ، الدامي أحيانا ، بين النزعات المختلفة ، دون ان تغلب احداها ، في يوم من الايام ، تغلبا لا مراة فيه . اجل ان المسافة بعيدة بين « المملكة العربية » والنظام المعروف بنظام الارتباطات ، وبين نوع من الاستقلال الذاتي والتمثيل ؛ ولكن الاستقلال الذاتي لم يكن يوما حكما ذاتيا ، كما ان التمثيل لم يستهدف البتة الجماهير الاسلامية . وبعد ثورة السنة ١٨٩٨ الفاشلة ، المعادية لليهود والمطالبة بالاستقلال الذاتي ، ساد شيئا فشيئا نظام التفويضات الذي منح المهاجرين المستعمرين مزيدا من الحقوق والحريات وابقى البلديين في وضع اجتماعي متدن . اما هذه الحالة التي ارادها الجزائريون الفرنسيون ، وهم اقلية ناشطة وهيئة انتخابية كبرى ، فقد وافقت مصالح الحكام في الوطن الام .

الحماية الفرنسية على تونس
هل ستستفيد فرنسا من اختبارها في الجزائر حين تسمح لها
الظروف باخضاع وصاية تونس بدورها لسيطرتها ايضا ؟

ان البايات الحسينيين الذين قامت بينهم وبين الفرنسيين ، جيرانهم منذ سقوط الجزائر ، علائق صداقة وحسن جوار ، كانوا مصممين في الوقت نفسه على مواصلة العمل الاصلاحى الذي بدأه الحفصيون . فبعد ان ألغوا الرق وحرروا اليهود ، حاولوا توسيع منطقة الاحتلال او ببلاد الترك ، واخضاع منطقة الانشقاق او « بلاد العرب » ووضعوا يدهم على مناطق طرق المواصلات واقطعوا مناصريهم بعض الاراضي ، واقاموا علائق طيبة اكثر استمرارا بينهم وبين البلدان المتوسطية الاخرى وشرعوا في تجهيز مرفأ تونس ، ومارسوا على العموم سياسة عطف على بورجوازية المدن ، ولكنهم سلكوا كذلك طريق الاتفاق المفرط والاستقراض . اضاف الى ذلك ان بعض الاجانب الاوروبيين والمسلمين ، كالجزائريين البوناني مصطفى والشركسي خير الدين ، قد حرصوا على الاصلاحات والاشغال الباهظة الاكلاف . ولكن ميثاق السنة ١٨٥٧ الاساسى الذي استوحى اعلان حقوق الانسان وقضى باحداث مجلس استشارى يضم بعض الاعيان ، لم يمنع زيادة الضرائب والمجاعة ، بالاضافة الى وباء الكوليرا ، من تهديد السبيل لازمة خطيرة : فان محمد الصديق ، الذي لم يبق امامه سوى عقد القروض الجديدة والافلاس ، قد خضع لسيطرة بعض الدول التي حركها الدائنون الجازعون ورجال الاعمال الطماع . فاختر فرسي صيغة « السيد المحمي » المؤزر في ممارسة وظائفه . أي ان الادارة البلدية بقيت ، ولكن المقيم العام ، الذي تعينه فرنسا ، كان المشرف على كل شيء ، ووزارة الخارجية الفرنسية ، تمثل الوصاية القديمة في النطاق الدولى . وغني عن البيان ان الشراكة لم توجد المساواة بين الشريكين ؛ فقد أمنت مصلحة الدولة الحماية التي لم يخضع مواطنوها لقوانين البلاد . أما ليوتي فيسفاخر بنظام « لا يلغى مناصب الحكام القدامى » بل يتيح « استخدامهم » . وفي المؤتمر الاستشارى الذي تأسس في السنة ١٨٩٦ أمتن الفرنسيون لأنفسهم رجحان السلطة والنفوذ .

أكد كليمنصو أن الهدف الاول هو « فتح الوصاية اقتصاديا » ، وسلم فرى بأن تونس يجب

« أن تعتبر ، حق اشعار آخر ، مستعمرة لرؤوس الاموال » . والواقع هو أن الحماية قد استهدفت تنمية البلاد بدلالة المصالح الفرنسية . فشقت بعض الطرقات وربطت شبكة الخطوط الحديدية بالشبكة الجزائرية . ولكن فوسفات الساحل لم يستترع الانتباه الا في السنة ١٨٩٥ ، وخصصت قاعدة بنزرت العسكرية بالاعتمادات نفسها التي خصصت بها المرافق الاخرى : فخلال السنوات الخمسة عشر الاولى لم يقدر أحد سوى الاهمية الاستراتيجية والامكانات الزراعية في الولاية الافريقية القديمة . ولم يحل تسجيل الاراضي في سجلات الحكومة واصلاح الممتلكات الوقفية دون قيام املاك كبرى على غرار الـ « انقيدا » التي باعها خير الدين من الشركة المرسلية . وقد لوحظ ، بعد مرور عشر سنوات على توقيع ميثاق الحماية ، ان الفرنسيين كانوا يمتلكون ٤٣٣ الف هكتار سجل ١٦ الف منها على اسم ١٦ ملاكاً فقط : فان صفار المهاجرين المستعمرين لم تستهم الاملاك الواسعة ، والبلديين خشوا عملية التسجيل . لا بل اصبحت الارض الزراعية بادرة بينا تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً . فمنذ السنة ١٨٩٠ عُمِلَ بمعد المغارسة لزراعة شجر الزيتون . وكما حدث في الجزائر تقدمت زراعة الاشجار المثمرة على زراعة الحبوب ، لاسبيا وأن الكرم أخذت تنتشر بسرعة . ولكن البعض اقض مضجعهم عدد الفرنسيين الزهيد (٢٤ الف مهاجر مستعمر او موظف يقابلهم ٧١ الف ايطالي ، على زهاء مليوني نسمة) ؛ وقد استحصلت روما في السنة ١٨٩٦ على بعض الامتيازات لرعاياها .

اذا عرفت تونس المهدوء ، فانها لم تتطور قط . فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياه فقر وحاجة ، بسبب تعرضه للمحول وتأثره بتقهقر الحرف الصغرى . ولكن نخبة بلدية محدودة تهذب في المدارس الاسلامية وفي المعهد الصادقي الذي فتح ابوابه في السنة ١٨٧٥ . ودرست اللغة الفرنسية كلفة اجنبية في المدارس الفرنسية العربية ، ولكن هناك عدداً من المؤسسات الكاثوليكية والكلبيات العلمانية . اما الخدمات الصحية فقير مرضية :

يبرز التناقض في العاصمة بين الشوارع الجميلة في المدينة الجديدة وتهي الشوارع الضيقة القذرة التي تحيط بالقصبة وتصل بين المدينة العربية والاسواق وحارة اليهود . أما في الارياف حيث يعيش المهاجر المستعمر الغني حياة ترفه ، فلم يطرأ على المسكن اي تبدل : البدوي يعيش تحت خيمته ، والبيوت اكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والاعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسودها الدخان ويفزوها القمل والبراغيث والبق .

ان مراكز اكثر أجزاء المغرب عزلة وأقلها تأثراً بالاسلام .
الامبراطورية الشريفة
قبل التدخل الاوروي
استخدمها الفوز العربي ممراً للانقضاض منها على اسبانيا ،
ولكنها التفتت ابدأ الى روابطها الشمالية بشبه الجزيرة الايبيرية
من جهة وروابطها الجنوبية بالصحراء الغربية من جهة اخرى . ومن تخوم الصحراء جاءت
السلالات التي قاومت ، في منطقة فاس ومكناس ، حرب الاسترداد التي شنها الاسبانيون ،

اسياد حصون الحدود ، في سيرهم على قطوان .

هناك مغرب (مراكش) خارجية ، على حدود الصحراء ، منشأ القبائل العربية او المستعربة التي تسيطر على الواحات وغالباً ما تشن الغارات على السهول الاطلسية . فقد اقامت السلطنة رجالها الاوفياء في هذه الاراضي الجيدة وعودتهم الحياة البدوية . وأقامت هي نفسها بين الاطلس والريف حيث المدن الحضرية . الا ان الجبال المرتفعة تنتصب فوق السهول ، وتؤلف منطقة الانقصال التي تضم عظماء البدو المتحالفين رحضريي قراها المحصنة وقصورها المليئة بالمواد الغذائية . ويغلب فيها العنصر البربري لان الناطق باللغة العربية ، اذا ما استثنينا بدو الجنوب ، ليس سوى مدني او مزارع من مراكش الاطلسية . والحال يكاد ينحصر افقهم في الجماعة الصغرى التي تنضم ، كيفما تسر ذلك ، الى القرية او القبيلة : وفي سبيل استمالتهم ، يجب اغراؤهم بجاذب البارود (الممركا) او الغزو . وقد يمكن من ثم تحديد الدولة المغربية بما يلي : حماية عربية الطابع ، ذات حضارة مدنية مغربية اندلسية ، على بلاد بربرية لم تخضع اخضاعاً تاماً . ولعل القاضي والشرع الاسلامي لم يضطرا يوماً الى مسابقة العرف ، والاسلام الى مسابقة الوثنية المستترة ، والحكم الى مسابقة صوفية زهدية توافق نزعة ديموقراطية خاصة ، كما حدث في هذه البلاد .

السلطان مطلق السلطة نظرياً ويسند قوله الى اصله الشريف اي الى كونه منحدرأ من النبي . أما في الواقع ، فبعيش القبائل الثماني المرتبط مصيرها بمصير السلالة العلوية ، والموزعة على النقاط الهامة (فاس الجديد مثلاً ، على مقربة من فاس البالي ، المدينة الدينية والصناعية القديمة) ، هو ما يشكل قوة الحكم الفعلية الوحيدة . فكل سنة تدير السلطة « الحركة » ، وهي حملة عسكرية لا تستهدف القضاء على المنفصلين المعصاة استهدافها ايجاد تسوية معهم بالتوقف فيها بينهم . تسند اعمال الادارة والحماية الى القائد بتولية من السلطان ؛ وإذا كان القاضي ، الذي يعينه العلماء ، مرتبطاً بالشريف ، فان القاضي ، الذي يُختار من بين شيوخ القبائل ، يبقى مستقلاً . وتقوم سياسة السلطة بارضاء القبائل الوفية ، ومعاملة القادة بالحسن بنية شتى المنفصلين واضعافهم ، ومراعاة جانب الجمعيات الدينية . اجل لم يعد هناك من ازيمات سلالية . ولكن الملويين لا يقوون الا على المحافظة على التقاليد بالمحافظة على الظواهر والعمل ليومهم .

ولا نعمني بذلك ان هؤلاء الشرفاء كانوا خلواً من الصفات والقيم . فان مولاي حسن ، الذي عاصر الثورة ونابوليون قد آثر انكشاش البلاد على نفسها . واعتمد مولاي عبد الرحمن على البريطانيين منذ ان واجه خطر الفرنسيين بعد غزوهم للجزائر ، ولكن السلطة اضعفتها الثورات . وحين عجز محمد عبد الرحمن عن صد الغارات الاسبانية الا باللجوء الى خدمات لندن ، اضطر الى التخلي عن الكثير من حقوقه لاسمالة القادة ومقاومة هجوم جديد شنه الانفصاليون .

عندما اصبح مولاي حسن شريفاً في السنة ١٨٧٣ ، بدت المغرب التقليدية وكأن نهايتها قريبة جداً . وكيف يمكن ان يستمر استقلال بلاد عاجزة عن التخلص من أنظمتها البالية ؟

فان مؤتمر مدريد قد فرض عليها ، على الصعيد التجاري ، نظاماً دولياً يرغبها على معاملة كافة الدول معاملة الدولة المفضلة : فكان ذلك حرماناً لفرنسا وانكلترا من مركزهما الممتاز ، ولكنه كان في الوقت نفسه مثاراً للاطماع العديدة والمنازعات من اجل النفوذ فيها . والحال اصبحت السلطة بالتهكة في اكثارها من « الحركات » أو الحملات العسكرية دون ان تفلح في اعادة تنظيم جيشها وتحسين مآلتها . وجل ما توصلت اليه ، بقدر امكاناتها ، شل نفوذ الاجانب التجاري بغية المحافظة على روح قومية متحذرة .

عندما تولى السلطة مولاي عبد العزيز في السنة ١٨٩٤ كانت الزراعة آخذة في التدهور بفعل غزوات البدو وثقل الضرائب ؛ وكانت الصناعة اليدوية محافظة بصعوبة على تقاليدها الفنية الماضية ، كما أن التجارة ، التي أعاقها النقص في وسائل النقل ، وحالة المرافئ المتأخرة ، والاحتكارات ، واقفال الحدود ، والحاجة الى النقد ، كانت في حالة ركود . وكانت كل منطقة تعتمد في معيشتها على نفسها ، وكل حي وكل قرية يجزعان لسلامتها . ففي فاس ، التي شاهدها « ادمون دي اميسيس » نصف خربة ، لاحظ « شارل دي فوكو » ان « اليهودي ... يتنقل في « الملاح » بين الاقدار ويعتبر بالبقول النتنة ... » ، ولكنه اضاف الى ذلك : « الاشياء الجميلة هي في المدينة العربية » . ولكن ما هي هذه الاشياء الجميلة ؟ جوامع وقصور وحدائق غناء تعيد الى الذاكرة عظمة دخلت في التاريخ ، بين اكواخ غير صحية وجداول تلأ مياها جراثيم الحمى التيفية . فان طنجة ، المغربية واليهودية ، تعاني من تراكم الرمول في مينائها ، وليست كازبلانكا سوى مرفأ طبيعى خطر ، وموغادور ينزح عنها سكانها . وما هو عدد سكان المغرب يا ترى ؟ لقد تراوحت التقديرات بين خمسة ملايين واثنى عشر مليوناً .

اصبح الاستقلال رهناً بزوال المنازعات بين الدول ، يقضى عليه بتخلي لندن عن معارضة احتلال المغرب .

يتضح من ثم ان اوروبا اخضعت الاسلام في افريقيا الشمالية والشرق الادنى والشرق الاوسط على السواء . ولكن الاسلام لم يكن اوفر حظاً في مواقعه الامامية سواء في الهند ام في ماليزيا ام في الصين أم في افريقيا السوداء .

الفصل الخامس

بين خطي السرطان والجدي : حضارات افريقية واوقيانية

على الرغم من امتداد شكل الحياة البدوية الراعوية بعيداً الى الجنوب من خط السرطان (اذ نشأه في هضاب الشرق المرتفعة وفي نصف الكرة الجنوبي) ، فان السكان ، ابتداء من السباسب والاحراج الملتفة الاشجار ، يعولون في معيشتهم على جني الثمار وصيد الاسماك والزراعة المتنقلة . وتساعد البيئة الطبيعية على نمو عوامل مرضية رهية : عوامل البلمرسياس وداء الحنيطيات ومرض النوم . وهناك نطاق آخر لاشكال حياة بدائية ، اعني به اوقيانيا التي تمتاز من جهة ثانية بمناخ اكثر موافقة للصحة . وباستطاعتنا ان ندخل في ارخبيلات المحيط الكبير شطراً من الانسولند ، ولمكن هذه الاخيرة عرفت في المصور القديمة اشكال حضارة اكثر تطوراً نشأت في الاصل في آسيا الجنوبية وشهدت حتى في مدغشقر . وبينما تدخل الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر في الغرب اي في اميركا الحارة ، ففي الشرق ، اي في الارخبيل الآسيوي الكبير وفي المحيط الهندي ، لم يستول على الاراضي الاوقيانية ومناطق ما بين خطي السرطان والجدي في افريقيا الا في القرن التاسع عشر .

ان افريقيا ، المتراسة الرقعة والمتميزة بشواطئها تتدر فيها المرافئ الطبيعية وانهار كبرى تكثرها الشلالات ، تفرض العزلة على الانسان بين الصحراء والغابة البكر . الا انها تتسع في نصف الكرة الشمالي حيث انبسطت منطقة بورية موازية لتلك التي تجاور المتوسط : هذه هي منطقة « الساحل » الجافة التي تمتد من مصاب نهر السنغال حتى البحر الاحمر وتغلب فيها تربية المواشي . ويتواجه فيها او بالاحرى يتداخل فيها عالمان : العالم الابيض والعالم الاسود ؛ من جهة البر والبحر

تقدم الاسلام
والنخاسة في افريقيا

والهاميون - سواء تأثر هؤلاء بالحضارة السامية أم لم يتأثروا - ، ومن جهة ثانية الزنوج السودانيون . « قبلا السودان » هي بلاد السود في نظر العرب وتقابلها « بلاد البيضان » . وغالباً ما تنازع الساحل هذا الشاليون المقيمون وراء الصحراء والجنوبيون سكان السباسب . وتؤدي طرق القوافل التي تصل بين اواسط افريقيا والشاطئ المتوسطي الى تومبوكتو وكانو وكوكا حيث تنتهي كذلك المسالك المؤدية اليها من خليج غينيا . ولا وجود خارج هذه الطرق ، بموازة خط الطول ، وابتعد الى الشرق ، سوى الطريق المؤدية من البحيرات الكبرى باتجاه النيل والبحر الاحمر .

يبدو الاسلام في هذه المنطقة وكأنه واسطة نقل الافكار والتجارة والانظمة السياسية . فقد اجتاز الصحراء مع القوافل ولم يتوقف الا عند تحوم السباسب والغابات ؛ وتسلق كذلك الهضاب الشرقية انطلاقاً من البحر الاحمر والمحيط الهندي . انه موجود حيث يسيطر النظام الراعي ؛ لأنه لم يتعرض للايمان بالارواح الذي دان به الحضريون المنعزلون في السباسب والغابات . يستخدم الجمل ، ولكن ما يكتشفه او يجده ثانية في السنغال وعند منعطف النيجر وفي تشاد هو الحصان ، خير مساعد في اعمال الفتح . هدي ويكيد ويكتسح وينظم الامارات والسلطنات السريعة الزوال . وينتزع من قلب القارة السوداء العبيد الذين يتجر بهم .

بينما كانت تجارة اللحم البشري توفر للمسيحيين وسيلة لاستثمار العالم الجديد ، كانت تغذي اسواق المغرب والشرق الادنى الكبرى ؛ وكانت من جهة ثانية بمثابة حافز للتوسع الاسلامي وانتشار روح الحرب المقدسة معاً بين السنغال وزنجبار ، كما كانت توفر للاسلام مورداً ثميناً لسيطرته السياسية . انها لامبراطوريات اسلامية قوتها في عصبيتها الدينية ، ولكنها امبراطوريات استرقاقية . وحين وافقت اوروبا الرأسمالية والانسانية على إلغاء الرق ، الذي لم تطو صفحته الهزينة الا لتفتح صفحة الحسابات الاستثمارية من جهة ثانية ، قوضت الدول الاسلامية وألغت الرق معاً . ولكن الرقعة الواسعة التي انتزعت من القرآن بقيت في الحقيقة تحت سيطرته .

ان الصحراء الكبرى التي تقارب مساحتها 8 ملايين كيلومتر مربع لم تخل يوماً من السكان . فالبعض يحتازونها من طرف الى آخر والبعض الآخر يستقرون فيها . وهي شعوب افريقية الشالية الاسلامية التي كانت لها القلبة فيها في النهاية بفضل تفوقها العسكري وعصبيتها الدينية وتنظيمها الذي اعدّها للقيادة .

ان الصحراء الغربية التي تأثرت اكثر من سواها بالاسلام كانت نطاقاً مغريباً ، عربياً ، بربرياً ، يسيطر عليه سكان الواحات المغربية الجنوبية من الناطقين باللغة العربية ، اي برابرة تنوات وافيلا ، الرعاة المتنقلون الذين كانوا ينقلون ملح « تاوديني » الى تومبوكتو ويفدون احرام الامبراطورية الشريفة ؛ وإن الشيخ « ماء العينين » ، النخاس المنتسب لزاوية « شنقي » ، سوف

يقف بقوة في وجه الفرنسيين ، اسياذ السنغال منذ « فيدرب » ، الذين سيستولون على ثروات في السنة ١٩٠٠ . اما في الشرق فقد اقام برايرة يتميزون ببشرة داكنة هم ال « تيبو » او ال « تويو » الذين تكلموا لغة سودانية وراقبوا طرقات طرابلس الغرب وفزان الى تشاد ونازعوا جيرانهم الطوارق « كل وي » منطقة المير وواحة بلما المشهورين بملاحمتها .

اما في وسط الصحراء فالسيد هو الطارقي ، المثلث الوجه ، الناطق باللغة البربرية ، المتغطرس ، الوحيد الزوجة ؛ تنعم زوجته بحرية كبرى ؛ ويعرف هو القراءة ويعزف على الربابة . يؤلف اتحادات حربية تشرف عليها طبقة من النبلاء ويدفع لها الجزية اصحاب الاخاذات والفداديون وتستخدم الارقاء العبيد في اعمالها . ولكل اتحاد مرشده المتصوف . ولكن الاسلام ينحفي امام وثنية لا تقبل التنازل عن عقيدتها ولا تعارض قيام علائق دائمة مع غير المؤمن . تسيطر جماعة الطوارق هذه على المسالك التي تؤدي من جنوبي منطقة وهران الى منعطف النيجر وتنازع شانبا المنطقة الرملية في جنوبي الجزائر - اعني بهم اعداءها الناطقين باللغة العربية - سلاسل الواحات التي تنتثر بين مجازات الاطلس الصحراوي وتيديكلت ، وقد تقدمت جنوباً حتى ادرار وضفاف النيجر حيث قوضت تومبوكتو وغاوو . ومارس هؤلاء البدو كلهم الغزو وتفاوضوا « الففازة » او الفدية . فلا عجب والحالة هذه ان يخيم الانحطاط على الواحة : تسلم ثمرها وحبوبها وبقولها ودخنها (بشنة) ؛ وغالباً ما لا يبقى لها شيء يذكر لاستهلاكها الخاص .

حاول الفرنسيون اخذ الفتن بالقضاء على اللصوصية ، ويجدر بأهل الحضرة ان يشكروا لهم عملهم هذا . ولكن تحويل التجارة الى طرق اخرى وإلغاء النخاسة ألحق الضرر بالجميع . فان بعثة « فلاترز » ، التي هلكت كلها ، كانت ضحية الدسائس التي حاكها لها النحاسون . وقد اخفق « فورو » بادیء ذي بدء ولكنه توفى الى احداث ثغرة في جبهة الطوارق واللاحاق بـ « جولان - مينييه » و « لامي » في « تشاد » ، بينما اعترفت اتفاقية عقدت مع انكلترا بسيطرة فرنسا على كافة ارجاء الصحراء الكبرى . ومنذ ذلك الحين نادى بعضهم ببناء خط حديدي يصل بين افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية . وفي سبيل استتباب الأمن في الصحراء انشأ « لابرين » وحدات هجانة من الشانبا ، وفي السنة ١٩٤٠ ، كان الاتفاق مع مرشد هوجر ، المعارض لمجيء الاثراك الى فزان ، فاتحة خير للهدنة في الصحراء .

الشعوب الاسلامية في السنغال والسودان
قلب التدخل الاوروبي الوضع الذي أتاح للبدوي منذ القرون الوسطى استثمار الصحراء الكبرى . وكان مقدراً له ان يعطي نتيجة مماثلة في الساحل السوداني والسنغالي وفي السودان نفسه . ولكن القسم الاكبر من القرن انصرم قبل عهد الاستعمار . واذا كان الفرنسيون في قلب السنغال منذ الامبراطورية الثانية ، فانهم لم يدخلوا تومبوكتو الا في السنة ١٨٩٥ ، ولم يوقع على الاتفاقات الدولية التي حددت ممتلكات الدول الا في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٨ .

في المنطقة التي لا تعرف سوى فصلين متباينين-لا يجاوز فصل الامطار ستة اشهر والامطار المتساقطة مترا - نرى النباتات تستبدل سيماءها الصحراوية بسياء السباسب العشبية والغابات القليلة الاشجار . هنا تسود تربية المواشي المتنقلة . ويستخدم الحيوان للنقل لا للزراعة التي تستلزم عملاً مرهقاً في تربة صحراء متحجرة . ويبدو الحضري مفترقاً الى التغذية بالنسبة للراعي الذي يعتمد في غذائه على الالبان . وعلى جوانب النيجر وفي تشاد يعيش بعض السكان من صيد الاسماك . ولا يزرع الارز الا حيث تتيح زرعه المياه . ويميز السوداني الراعي الملح اهمية كبرى . وتنتقل السلع من يد الى اخرى بشكل مقايضة أو بواسطة الـ « كوري » ، وهي محارة وحيدة المصراع تقوم مقام النقد . وتمطي البلاد ذهبها المسحوق للحصول على بارود الاسلحة النارية والاسلحة النارية نفسها . وتقايض الجلود والاصواف بنسائج قطنية . أضف الى ذلك ان عدد السكان ، حوالي ١٩٠٠ ، لا يجاوز المليون في السنغال والـ ٤ ملايين في كافة أنحاء السودان . ولا تتجاوز الكثافة من ثم ٢ و ٣ في الكيلومتر المربع : ولا عجب في ذلك بعد عهد قوحيش طويل الامد مرده القوضى المزمنة .

في هذه المساحات الشاسعة المفتوحة تتجانب افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ؛ ولكن التخليط بين اللونين مذهل جداً . فان الـ « هوسا » الذين تشبه لغتهم اللهجات البربرية ربما ينحدرون من أصل سوداني أو من أصل حامي طراً عليه بعض التحويل بمعاشرة السودانيين . أما أصل الـ « قولبا » (أو « قولا ») فأكثر غموضاً أيضاً : فهم ساميون في نظر بعضهم ، أو حاميون في الارجح ، ولكنهم سود البشرة ويتكلمون لغة سودانية ؛ عاشوا حياة راعوية واعتنقوا الاسلام وتنقلوا ابدًا من مكان الى آخر وتسلطوا الى مواطن سوام من سينغيبيا حتى تشاد و « اداؤوا » ولعبوا دوراً كبيراً في السباق الى السيطرة .

أسهمت النخاسة في صهر الشعوب وادت في الوقت نفسه الى نهكة البلاد . فقد دانت لها المجموعات السكنية الكبرى بأهميتها . وفي كوكا ، من أعمال بورنو ، حيث شامد « بارث » حرماً يضم ٧٣ غلاماً و ٥٠ فتاة ، أبدى احد المراقبين في عهد لاحق ان الفتيان الذين قتراوح سنهم بين ١٠ سنوات و ١٥ سنة مرغوب فيهم جداً وان الفتيات البالغات يُبعن بـ ٢٥٠ و ٥٥٠ فرنكا . ويروي رحالة آخر ان النخاسين في قرى « قوتاجالون » يتصرفون مع الاسرى تصرف سائقي الثيران مع القطعان . ويمادل ثمن الحصان ثمن ١٥ الى ٢٠ شخصاً . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن النخاسة تفاقم خطرها في هذا الجزء من افريقيا بعد التدابير التي اتخذها الاوروبيون لمنعها في جهات المحيط الاطلسي . ومهما يكن من الامر فانها دعمت قوة الزعماء المطلقى السلطة من امثال « ساموري » في منطقة النيجر و « راج » في « اوداي » . فان ساموري قد جند جيشاً من بين أبناء الاسرى ، الـ « سوفو » ، أو الانكشارية الجدد .

حجب الاسلام المتقدات القديمة دون ان يحل محلها . فها لا يكاد رجل الدين يتميز عن ساحر القرية ، وقد اضطر في غير مكان ان يتخلى عن سلطته للشاعر الموسيقي المتنقل . ولما

كان الطقس الديني هو ما يؤمن التلاحم في المجتمع الاسود ، اصبح للجمعية الدينية شأنها الكبير . ولكن بينما حال كهان عبادة الارواح في اغلب الاحيان دون ارتقاء الزعماء المحليين (اثنان في قوتا يختاران عن قصد من بين العائلات المتنافسة) ، كان بمقدور الجمعية الدينية ان تثير حركات كبرى بين المؤمنين الذين يستجيبون لنداء الملهمين ، فيهبون للحرب المقدسة وللسلب والنهب أيضاً . قبات كاهن عبادة الارواح حينذاك امير المؤمنين . واستمال بسهولة قبائل البدو الهضبة على جوانب الطرق التي تسلكها القوافل والحجاج والنحاسون . فحدثت من ثم تجمعات ضمت بعض الشعوب ، وليس لمعظم محاولات تأسيس الامبراطوريات ، بين الصحراء والسباسب ، مصدر آخر وتفسير آخر . فبين السنغال الاعلى وغامبيا حاول الزعيم الديني محمّدو الامين قيادة الـ « ساراكولي » ، ومثل الحاج عمر السنغالي جمعية التيجانية الديموقراطية النزعة ؛ واذا هو بسط سيطرته على قوتا جالون على حساب القدرة ، فان شيعة المورين المتفرعة عن هذه الجمعية الاخيرة قد ثبتت اقدامها في « كلور » بقيادة « احمدو بامبا » ونسيبه « لات ديور » . فقاتل الفرنسيون هذا الاخير وردوا الحاج عمر نحو النيجر . ولكن هذا الفاتح ترك خليفة واصل سياسته وعمله هو ابنه احمدو الذي قاوم الفرنسيين حتى السنة ١٨٩٣ . وفي غضون ثلاثين سنة تقريباً اسس الساراكولي « ساموري توري » ثلاث أو اربع امبراطوريات : انطلق من اواسولو فحاول السيطرة على ضفتي النيجر فوق تومبوكتو وهدد كذلك البلاد الموسية الباقية على وثنيتها ولم يمن بالهزيمة الا في السنة ١٨٩٨ . والى الشرق من النهر الكبير ، انهارت الدول الهاوسية ، التي عرفت من قبل بعض الازدهار ، امام هجمات الفولبا بقيادة احد حلفاء الحاج عمر ، « عثمان دان فوديو » ، الذي اصبح شيخاً في كائو وامتدت سلطته حتى الكامرون الحالية . ونعمت سلطتنا سو كوتو وكانو ببعض الاستقرار ، ويبدو انها خضعت لحكم عسكري استمر حتى الفتح الاوروبي : وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه المنطقة السودانية اكثر سكاناً وأقل بؤساً .

كان حوض التشاد ، على نقيض ذلك مسرح قتال وحشي : نزاعات من اجل النفوذ بين البورنو والكانم والباغيرمي الذين يتقاسمون الحوض ؛ ونزاعات من اجل طرق القوافل والملح والاسرى ، ولا سيما الطريق التي تؤدي الى كوفرا ومصر وشرقي ليبيا ، عبر اواداي . وفي اللوحة التي رسمها « ناشيفال » لاوادي ، يتكلم عن ازدهارها النسبي في صكف بعض الامراء العرب المطلقي السلطة الذين يهتمون بالمدارس والتجارة ، والنخاسة طبعاً . والحال كلما اقفلت طرق الصحراء الغربية ، انتقل النشاط الى الطرقات المؤدية الى البحر الاحمر . فحين اضطرت القاهرة الى الكف عن تجارة العبيد ، تحولت هذه الاخيرة نحو الطريق الرئيسية المؤدية من اواداي الى الخرطوم على النيل الاوسط عبر كوردوفان . وكانت ثورة الدراويش بمثابة جهد اخير بذله منظمو القوافل بغية الاحتفاظ بخط المواصلات الاخيرة بالشرق الادنى . وكذلك ، فهو احد النحاسين ، رباح ، الذي جعل من اواداي حينذاك مركزاً لهذه التجارة وتوفق مؤقتاً الى السيطرة على مناطق التشاد . ولن تخضع اواداي اخضاعاً نهائياً الا في السنة ١٩١١ .

شعوب المناطق الفنية ما ان تظهر السباسب وتكاثف الغابات ، حتى يصبح القطيع ، الذي يهزله المناخ ويتعرض للذباب الناقل مرض النوم ، غير كاف لتأمين معيشة الانسان . وعلى هذا الاخير ، بالإضافة الى ذلك ، مقاومة الملاريا والزحار ومرض النوم نفسه . ولما كان يفتنذ بالطعمة النباتية ، فانه يستهلك طحين الذرة الصفراء وطحين المنيهوت وزيت النخيل ، ويحد في جوزة شجرة الكولامادة منبهة .

لم يرتفع كل هؤلاء السكان فوق مفهوم المقاطعة الصغرى . ولكنهم تكلّموا لهجات سودانية ، وقد اسس الغزاة الشاليون عدة ممالك دون ان يؤدي ذلك الى انتشار الاسلام .

وتقاسم الـ « موسي » والـ « اكانتي » حوض نهرى الفولتا . وقد حكم الاولين ملك ذو سلطة دينية ، هو الـ « موغو-نابا » ، « سيد العالم » ، ملك بلاد المختونين ، الذي كان بمثابة مولى اخاذاة الـ « ناكومسي » النبلاء الذين يقدم وظائف وزارية وادارية . اما ملك الـ اكانتي فيرأس مجلس الزعماء ولا يطاع حقاً الا في مقاطعته الخاصة كوماسي :قاتل اتحاد المقاطعات الصغرى الهاربة هذا الى جانب الـ « فاني » ، سكان السواحل ، الذين ساندتم البريطانيون . وفي داهومي تعين السلطة الملكية زعماء القرى وتتصرف في جمعية « دوكبوي » التي تضم الفتيان والشبان المدعويين لدور قيادي . ويجمع الارقاء من بين اسرى الحروب التي كانت مورداً كبيراً لشعب متأهب ابدأ للقتال . فعلى كل محارب ان يأتي بأسير أو برأس جندي العدو مقتول . وتؤلف زوجات الملك والفتيات المكرسات لالهة الحرب فرقة عسكرية من النساء .

اقام الاوروبيون ، منذ زمن بعيد ، العلاقات مع زعماء هذه المناطق وملوكها . فكان هناك « شاطيء العبيد » و « شاطيء الذهب » و « شاطيء العلاج » بالإضافة الى « بنين » التي اشتهرت بمنتجاتها الفنية واصحابها البشرية الشنيعة . فالذوق الجمالي هنا كان متقدماً عليه في السودان . وقد نمت المصنوعات البرونزية والخزفية والاقنعة الخشبية والعاجية والمقاعد المقوشة عن تقاليد قديمة في مهارة الصناعة اليدوية .

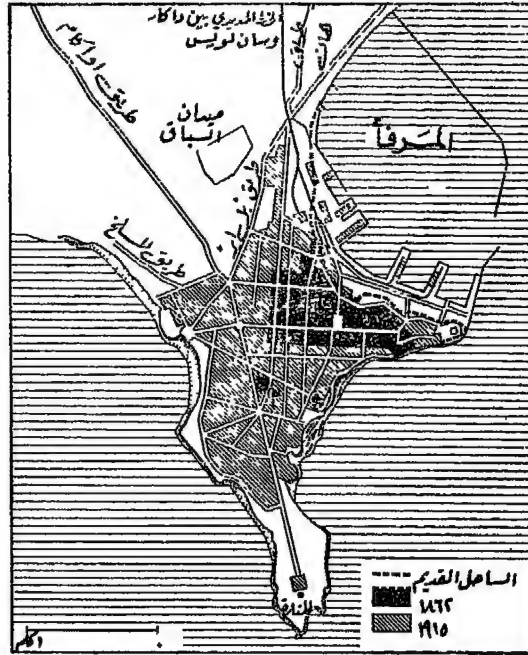
ان فتح المنطقة الشاسعة الممتدة بين الصحراء الكبرى
الاستعمار الاوروبي في افريقيا
وخليج غينيا - وهو عمل تطلب اجراء طويلاً - لم يكتمل
الغربية وتشاد
الا حوالي السنة ١٩٠٠ . ولم تسدّ الخلافات على الحدود
بين الدول الا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ . فسارت كل دولة قدماً لمنع سواها من تخطيها ،
حتى ان الحدود الاقليمية تمكس تقلبات الاستيلاء . وقد ارتكبت اخطاء كثيرة .

رأى « فيدوب » على الرغم من واقعيته المأثورة ، ان ثروة المستقبل في السنغال هي القطن قبل فستق العبيد ، كما غرر نفسه بذهب بامبوك . وحاول تأمين الاتصال بالنيجر عن طريق الرمول الداخلية ، ولم ير الاهمية التي تنطوي عليها اسواق غينيا والشاطيء العاجي كقواعد انطلاق لبلوغ النهر .

في كافة أنحاء الساحل وفي السودان الاوسط ، كما شرح ذلك « غالياني » و « ارشينار » ، كان من مصلحة المستعمر الاعتماد على الفلاحين وحمايتهم واختيار الكفلاء من بينهم . وكانت فيدرب اول من سار على هذه السياسة التي تضحي بالبدوي كما في الجزائر . يضاف الى ذلك رسوخ الارتياح بالرعاة المسلمين الذي يرد جزئياً الى القتال المرير الذي دار بين المستعمرين وبينهم . ومع المستعمرين جاءت الارساليات ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، فنازع الصليب الهلال السكان المنخفضين . « انها لحرب صليبية حقيقية » ، كما يلاحظ الملازم « مانجين » . وأشار « بنجر » مدير الشؤون الافريقية ، الى « خطر الاسلام » . ولكن فيدرب كان قد قدر الخدمات التي يمكن ان تؤديها الخواص الاسلامية .

قوَّض الاوروبي الدول ، فاضطر بالضرورة الى الاستعانة بالزعامات المحلية التقليدية . ولا يعني ذلك ان التجزئة الاجتماعية بحسب القرى قد سهلت تعيين سلطات مسؤولة . ولهذا السبب آثر البريطانيون « الحكم غير المباشر » واحترموا الزعامات القائمة جهد الامكان ، حتى ولو تطلب منهم ذلك تبرير تجاوزاتها ، على ان يحدد بالنتيجة عدد الموظفين . وفكروا بحكم نيجيريا كما حكموا هند الامراء . اما الفرنسيون فأثروا تمثيل زعماء المقاطعات الصغرى بالموظفين ؛ ولكن البلديين كانوا « رعايا فرنسيين » ، واذا تمتعوا بحرية المعتقد وكان لهم محاكمهم الخاصة

احياناً ، فقد فرضت عليهم واجبات ثقيلة : حرمان من مغادرة المستعمرة وتأسيس الجمعيات والاجتماع ، ضرائب عينية وغرامات ، تسخير من اجل العناية بالطرقات ، دفع الضرائب ، والخدمات العسكرية وفقاً لقتضيات الحاجة .



الشكل رقم ٢٧ - نمو مدينة استعمارية : دكار

يوافق تصميم السنة ١٨٦٢ مشروع الحاكم « بينيه - لاراد » . تجدر الإشارة الى المكان الملحوظ للعدافن (م) وامتداد المدينة نحو رأس مانويل ؛ وفي الجنوب يشير الحرف ح الى العاكمة العامة () . (نقلاً عن تصاميم أطلعنا عليها « ر. باسكييه » الاستاذ في معهد الدروس العليا في دكار)

عاد للدولة المستعمرة امر رفع مستوى المعيشة بتوفير الامن والنظام وتوزيع المهام على اساس سليم . ولكن الجهود استهدفت المزروعات والمناجم التي يمكن ان تغذي التجارة مع الوطن الام . وعلى هذا الصعيد كان النجاح في الشاطئ الذهبي ونيجيروا البريطانيتين اسرع منه في المستعمرات الفرنسية المفتقرة الى التجهيز : فاحتلت الاولى مركز الصدارة في انتاج الكاكاو واستثمرت احراجها ومنغنيزها وماسها ؛ وسلمت الثانية كمية كبرى من الاخشاب وزيت النخيل . وعلى نقيض ذلك آلت سيراليون الى الهبوط منذ الغاء النخاسة وعاشت جمهورية ليبيريا السوداء في ضيق على الرغم من جهود الكنيسة الميثودية . وكذلك عانت اقاليم غينيا والشاطئ العاجي وداهومي الفرنسية من نقص وسائل النقل ومن الافتقار الى الموانئ الحسنة التجهيز ومن تبدد اليد العاملة التي كانت تأنف من العمل المراقب .

واذا استفادت السنغال من فستق العبيد ومن التجارة مع السودان ، واذا حسنت دكار شوارعها الواسعة المحفوفة بالاشجار واعدت ميناءها للملاحة الاطلسية الكبرى ، فان الداخل النيجيري ما زال متأثراً بويلات الحرب والجفاف ؛ وقد عقدت عليه آمال كبرى بجهولة . اما اقاليم تشاد فليست آنذاك سوى منطقة حدود عسكرية لن تعرف التهدة الا في غداً قريب .

وقد لوحظ ايضا ان ارتباطات الوطن الام قد ظهرت على الصعيد الاداري . فلم تكن السودان و « الانهار الجنوبية » في البدء سوى اقاليم ملحقة بالسنغال . كما ان افريقيا الغربية الفرنسية ، التي تكونت في السنة ١٨٩٥ ، ستعرف تغييرات كثيرة . اما « المناطق المنخفضة التشادية » فستلحق بافريقيا الاستوائية الفرنسية ؛ وهكذا سوف تفك حلقات التماسك بين مختلف اجزاء المنطقة الساحلية لان وجود انكلترا والمانيا حتى مشارف البحيرة الافريقية الكبرى سيقوض وحدة الممتلكات الفرنسية .

تتجه طرق دارفور واوغندا واثيوبيا كلها نحو مصر .
في السودان النيل : الاطماع المصرية
ولكن من يسيطر على مصر لا يسيطر على النيل ، ومنذ
وامبراطورية الدراويش
القدم كان الحوض الأعلى محط انظار اسباب الدلتا وغلبة
منهم في ضمان سلامة البلاد ومراقبة فيضان النهر .

في القرن التاسع عشر ، نشاهد اثناء ولاية محمد علي وخلفائه توسعاً مصرياً جديداً في وادي النيل الاعلى . ولم يصطدم الباشا الا بمقاومة ضعيفة ترد الى انحطاط الممالك العربية - الشيخيات وسنعار - في منطقة الشلالات الساحلية . ولكن الابتزازات الجبائية واحتكار التجارة وغزوات عملاء الباشا ما كانت لتسهل الاحتلال المصري ؛ فالنحاسون وحدهم هم من استفادوا من هذه التصرفات لان محمد علي شجع النخاسة واسس مدينة الخرطوم لهذه الغاية .

وطمع اسماعيل بدوره ببسط السلطة الخديوية على كافة أنحاء افريقيا الشمالية الشرقية . وقد آزره في تحقيق مطامحه بعض الاوروبيين من امثال الرحالة « صموئيل باكر » ، والجنسدي

المبشر « غوردون » الذي انعم عليه بلقب « باشا » ورحالة آخر هو « شينترز » الذي اعتنق الاسلام وحمل اسم امين باشا ، ولكنهم بذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبرى لم تكمل بالنجاح . فحين شعرت حكومة القاهرة بخطر الافلاس يحدق بها ، اضطرت الى التخلي عن الاستفادة من النخاسة والى عزل حاكم بحر الغزال الذي كان هو نفسه نخاساً . واصبح السودان النيلي من ثم مسرحاً لثورة مهدية هائلة كان سببها العصبية الاسلامية والغاء تجارة رابحة معاً . فصمد امين باشا عند النيل الابيض الاعلى ، في ولاية اكوatoria التي ارغمه ستانلي بعد ذلك على الجلاء عنها لمصلحة بريطانيا العظمى على كل حال . ولكن سيطرة الحديوي انهارت ، وتعذر على الانكليز انقاذ غوردون في الخرطوم .

على غرار امبراطوريات السودان الغربي ، رأت امبراطورية الدراويش ، وليدة البورات والقبائل البدوية المتعصبة والنخاسين ، النور وماتت في فترة زمنية قصيرة جداً . فقد عجزت عن استئالة السنوسيين والتغلب على مصر ، ولم تعرف بعض الراحة إلا بفضل انتصار احرزته على نجاشي الحبشة ، والحلاف الذي نشب بين هذا الأخير والاطاليين . وقد عانت البلدان التي اخضعتهما من الاوبئة والمجاعة واصابة كل تجارة بالشلل . أجل لقد بلغت الحركة اوداي . ولكن الانكليز ، الموجودين في مصر ، توقفوا اخيراً في السنة ١٨٩٨ الى تنظيم حملة كلشنر التي هزمت الجيش المهدي وقضت على المطامع الفرنسية في طريق الكونغو - البحر الاحمر . فاصبح السودان النيلي ، باسم الحديوي ، السودان الانكليزي المصري .

في وسط المنطقة الجافة التي تتصل بالبحر في افريقيا الشرقية ، اثيوبيا ، تيودروس ومنليك تنصب الجبال الاثيوبية وكأنها خزان مياه وملجأ جبلي . وقد جاءت الموجة الاسلامية تضرب شواطئ هذه الجزيرة المسيحية فعجزت عن غمرها .

انها بلاد غربية التقسيم الطبيعي ، كل واد فيها يعيش في عزلة بقيادة زعيم . لا تسلم بالتضامن إلا امام خطر كبير مشترك . الارض ملك طبقة سيدي من الرؤوس سوداوية اللون ومختلطة الدم . يبرز بين حين وآخر رأس الرؤوس ، النجاشي ، الذي يتمتع بسلطة اسمية لا تجعلها فعلية إلا الحرب وحدها . ليس من فارق كبير بين خرافات هؤلاء المسيحيين الغائلين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وبين وثنية الـ « غالا » جيرانهم . تعدد الزوجات منتشر وشبه شامل ، وكل حبشي ميسور يتصرف في عدد كبير من الخدام المنزليين .

البلاد تعتمد في معيشتها على مواردها القليلة ، ولكنها تجني الأرباح من مرور البضائع التي تنقلها القوافل بين افريقيا الوسطى والرافى . وكان لنشاط الطرقات التجارية من ثم أثره في التاريخ السياسي . فبينما تقوم في مملكة امهرا مدينة غوندار ، ملتقى القوافل الهامة ، تنتهي الى تغيره المنتجات المنزلة الى البر في ماسوا ، والى شوا تؤدي طريق هرار . ولذلك تنافست هذه الرئاسات الثلاث تنافساً دائماً .

في اواخر القرن الثامن عشر ، اضعفت المنازعات بين الرؤوس طاقته الحبشي الهجومية فتراجع في كل مكان . ولكن نهضة تحققت في امهرا بفضل الرأس « كاسا » الذي نجح في إعادة جمع شتات الاراضي الاثيوبية وأعلن نفسه نجاشياً باسم تيودوروس ووضع سلسلة نسبته التي جعلت منه خليفة داوود ، ووجه رسائل الى القيصر يقترح عليه فيها ميثاقاً ضد الاسلام . وعندما استعان أحد منافسيه بالفرنسيين معترفاً لهم بحق الاقامة في اوبوك على شاطئ البحر الاحمر ، اعتمد تيودوروس على الانكليز . فكان ذلك منطلق التدخل الأوروبي .

عندما قاطع الانكليز على غير ترو ، عجز تيودوروس عن صد جيش بقيادة السير نابير وآثر الانتحار . فمقب ذلك عهد جديد من الاضطرابات استفاد منه الحديري ، ثم الدول الاستعمارية ، للاستيلاء على الساحل الاريتري والصومالي . وحدث ان النجاشي الجديد ، « يوهانس » ، التفري الاصل ، قد لاقى حتفه في معركة ضد المهديين ، فوقع رأس شوا ، منليك ، بغية فرض نفسه ، معاهدة مع الايطاليين اعتبرتها روما بمثابة اعتراف بالحماية . ولكن هزيمة « عدوه » في السنة ١٨٩٦ قضت على مطامع « كريسي » .

بعد الاعتراف بالاستقلال الاثيوبي توصل النجاشي منليك بسرعة الى بسط نفوذ جليليه على سكان المناطق المتاخمة . الا أن اثيوبيا الكبرى التي حققها ما زالت محاطة بملكات الاوروبيين ، ولذلك نراها تفاوض فرنسا في أمر ربط عاصمتها ، اديس - ابابا ، بالشاطئ بواسطة خط حديدي ينطلق من جيبوتي ويمر بهرار . والواقع هو ان الجبال الاثيوبية لم تجتذب التيارات العصرية بل رفضتها .

الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار افريقيا البانتوية ونصيب زنجبار الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار تمتد البلاد البانتوية التي تختلف نماذجها البشرية ولهجاتها (١٨٢ على الأقل) اختلافاً بيناً عن نماذج ولهجات السودان وغينيا . ولكننا نرى هنا ايضاً ازدواجية المناظر الطبيعية ، وانواع المعيشة ، فمن جهة الحوض الكونغولي ، نطاق الاحراج والسباسب الكثيفة ، ومن جهة اخرى اطار من الهضاب الممتدة من افريقيا الشرقية حتى « الفلد » الجنوبي والصالحة لتربية المواشي .

ان البانتو الذين يقطنون منطقة الامطار الغزيرة بين خليج غينيا والبحيرات الكبرى لم يخالطوا قط سوى الزوج البلديين المرتبطين الذين ربما دانوا لهم بالقوام الوسيط والوبر الكثير واللون الداكن . ولكن بانتو الغابات ، على نقيض هؤلاء الزوج الذين كادوا لا يعيشون الا من القنص وجني الثمار ، ولا يستقرون في مكان وينامون حتى في الاشجار ، قد اقاموا في قرى مؤلفة من اكواخ مستطيلة قنصوا في جوارها الحيوانات وتعاطوا زراعة متنقلة ، واستخدموا أداة بدائية شبيهة بالعصا تتيح لهم طمر البذار واستخراج البطاطا في الارض المحرقة الضيقة . وجعل منهم الجوع اكلة تراب احياناً ، كما ان الأمراض - الزحار ومرض النوم - فتكت بهم .

فتككاً ذريعاً . وعلى مثال هذا الاقتصاد ، كان نظام المجتمع بدائياً . فلا حساب الا للتجمع العائلي وما يتبعه من زين وارقاء . أما المسألة الكبرى فليست مسألة الارض بل مسألة اليد العاملة . ولم تضم الرئاسة الاقليمية سوى عدد محدود من القرى ؛ وهي تؤسس وتحل وفقاً للحاجات الآتية ، كملكية الـ « ما كوكو » عند الـ « باتيكي » مثلاً . وما كانت نشاطات بعض القبائل الخاصة ، كالنقل المائي ونقل المعادن ومعالجتها ، حتى ولا الاعتقاد بالارواح ، لتقوى على ايجاد سلطات سياسية اوسع امتداداً .

يسود الاعتقاد ان بانتو الغابات وليد التكيف . أما بانتو البورات فيجاور في الشمال الحاميين والعرب والاسلام ، وفي الجنوب البرتغاليين والبوير والبريطانيين الاوروبيين . ولعل نزوحه نحو نصف الكرة الجنوبي نتيجة تقدم الحاميين المسلمين ، الماساي والواھوما (هؤلاء هم « الآتون من الشمال ») ، الذين اقاموا بين البحيرات الكبرى والمحيط الهندي مصطحبين الثور ذا الحذبة والجلل ذا السنام . وبينما زالت من الوجود ممالك « لوانغو » و « لواندا » و « لوبا » في الحوض الكونغولي ، ولم تخلف موتوموتابا سوى ذكريات عظيمة ، ما زالت اوغاندا تؤلف اطار دولة اقطاعية الطابع .

جاء الـ « كافر » ، والـ « ماتابيلي » ، والـ « بازوتو » والـ « بتشوانا » يربون ثيرانهم واغنامهم وماعزم وحيرم في مناطق خط الجدي بعد أن ردوا الـ « هوتنتو » والـ « بوشيان » الى الوراء . وكما حدث في السودان ، تعاطوا زراعة الذرة البيضاء الى جانب تربية المواشي . وتنازعوا الطرق البرية والمائية فيما بينهم . وفي اعالي الزمبيز استقبل ليفنغستون استقبالاً حسناً في اشارة تنظم غارات متكررة على جيرانها . وكان الـ « زولو » مهرة في استعمال الرمح والقوس والنبال محتمين بترس كبير من جلد البقر ، ولم يلبثوا أن قدروا فوائد الاسلحة النارية حتى قدرها . وعند حدود « ناتال » و « فلد » اصطدموا بالبوير والانكليز الذين لم يفتصروا عليهم بسهولة .

كان الحدث الكبير ، من جهة المحيط الهندي ، التراجع البرتغالي امام هجوم عربي جديد صادف في الزمان تقدم الاسلام في داخل القارة الافريقية وانتقال النخاسة شطر الشرق . وقد برزت آنذاك قوة زنجبار التي نقل اليها امام مسقط عاصمته في السنة ١٨٤٠ . فظهرت مرة أخرى ميزات هذه الجزيرة الصغيرة الساحلية النادرة كموقع تجاري : وكان مقدراً لها ان تلعب ، لحساب سلطنة اسلامية ، دوراً مماثلاً لدور عدن وسنغافورة . فأدخل سكانها « السواحليون » المختلطو الدم (عرب وفرنس وهنود وماليزيون) زراعة القرنفل . واهتمت كذلك بمحاصيل الداخل ومنتجاته ولا سيما النحاس والعاج . ولكن اعمال الارض ونقل المحاصيل تتطلب يداً عاملة وفيرة : وسوف تستحق زنجبار اسمها (زنج - بر أي بلاد العبيد) . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان النخاسة قد اتسعت هنا اتساعاً بعيداً بفضل بيع الاسرى في اسواق المحيط الهندي الأخرى . وتجمع الشهادات كلها على الخراب الذي خلفته في المنطقة الممتدة بين « اوبنغي » و « كاتانغا » . وقد اشار ليفنغستون الى القرى الكثيرة التي احرقها النخاسون والى النساء

المشروعات بسبب عجزهن عن اللحاق بالمواسم . والتقى ستانلي في طريقه الوف الحلائق المتساوقة والمقطورة برقها ؛ ووصف الزعيم البلدي باحثاً عنها في غابيتها وجامعاً إياها لحساب التاجر العربي ، على مثال « الشريف الانكليزي الذي يدعو ذويه لقنص ديك الخننج او لاصطياد الغزال بواسطة كلاب المطاردة » ؛ وأشار الى عملية سلب استهدفت ١١٨ قرية لم تسفر الا عن ٢٣٠٠ أسير . فأقفر المنطقة على جانبي الطرق المؤدية من الساحل الى البحيرات الكبرى والحوض الكونغولي . وكانت النتيجة إبادة الفيلة وإفناء معظم السكان لسنوات طويلة .

بلغت زنجبار ذروة مجدها بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٨٠ تقريباً . وقد بسط السلاطين حمايتهم على داخل البلاد حتى الكونغو والساحل البرتغالي ، وأقدم بعض الدول على عقد الاتفاقات معهم ، وبعض المؤسسات التجارية على تأسيس فروع لها في الجزيرة . الا ان إلغاء النخاسة ما لبث ان أصبح فعلياً وقرع ناقوس نهاية زنجبار المتجرة بالزنج .

منذ السنة ١٨٨٠ عمدت الدول الاستعمارية الى تقاسم افريقيا
الاستثمار الاستعماري لافريقيا الباتوية الوسطى وافريقيا الشرقية وافريقيا الجنوبية . فارتسمت
نطاقات ثلاثة : نطاق فرنسي بلجيكي يضم مناطق الكونغو باتجاه الاطلسي ، ونطاق انكليزي
الماني بمحاذاة المحيط الهندي ، ونطاق ثالث ابعد الى الجنوب يسيطر عليه الالمان ولا سيما البريطانيون .
لم يكن الاوروبي يستطيع التفكير الا باستخدام عمل البلديين من اجل تحقيق مقاصده .
وقد رغب في تبشير الزنجي بالانجيل وإنقاذه من الرق وإفهامه حسنات استثمار أرضه استثماراً
مبنياً على العقل . ولكن ما هو السبيل الى إرغامه على مقايضة محاصيل بخسة الاسعار - المطاط
مثلاً - بالملح والتسائج المرتفعة الاسعار ، والعمل في المغارس وبناء الخطوط الحديدية ، ونقل
الاثقال ؟ فهو اما يردد بدون انقطاع « ميامي » (بلغ مني الجهد) و « كوكولو » (الرحمة) ،
وأما يقر من العمل . وقد اعتزمت جريدة التايمس في السنة ١٨٧٧ بأن « هذه الشعوب عنصر
تصعب سياسته ... فهي تحمل الرغبات والحاجات المركبة التي تكون ما يدعى بالحضارة ،
وان في ازعاجهم بدون داع في الحياة البربرية التي يعيشونها راضين وسعداء لمسؤولية كبرى » .
اما « برازا » الذي حاول نهج سياسة تعاونية على غرار فيدرب ، فقد اقتدى الأرقاء وعقد
الاتفاقات مع الزعماء ، وطالب بالحاح بان « تتحاشى الادارة العليا والتجارة العليا استقلال
المستعمرة استغلاً سريعاً ، ولما يعلم البلديون ما يريد منهم » . الا أنه لم يلق آذاناً صاغية ، كما
لم تلق اذاناً صاغية نداءات ليفنغستون ايضاً . فقد تميز البلجيكيون والالمان بوحشيتهم . وندرج
على سبيل المثل هنا ما أعلنه الدكتور بيترز : « يخضع الزنوج لدوافع أو لبواعث تختلف كل
الاختلاف عما تخضع له نحن . اذا ما اعطيت الزعيم الزنجي ثوراً ، فلن يلبث ان يحاول سرقة كل
قطيعي . واذا ضربته بالسوط ، فانه يسرع الى اعطائي بعض الماشية » . فاستخلص من ذلك
النتيجة الطبيعية التالية : « اذا احسنت معاملة الزنجي ، اعتقد بأنك تخشاه . واذا اسأت
معاملته ، اعتقد بانك متفوق عليه » . ولذلك فان الحجة الأخيرة غالباً ما كانت السوط

المصنوع من جلد فرس الماء الذي درج البرتغاليون على استعماله . وحين لا يكفي الضرب والفرامات والسجن ، تؤخذ الرهائن وتعتقل النساء والاولاد في المعسكرات . لقد سيطر على افريقيا الوسطى نظام استثماري لا يعرف للرحمة معنى .

استمرت مستعمرة انغولا وموزامبيك البرتغاليان في فقرهما وضيق عيشهما ، وبقيت النتائج غير مرضية في الممتلكات الفرنسية ، ولكن الكونغو البلجيكي والممتلكات الانكليزية الالمانية في افريقيا الشرقية عرفت نواً اسرع حدوثاً . فقد انصرفت الدولة الحرة الى قنص القيل اولاً ؛ وانما توجب ايقاف التقتيل وحماية الجنس . ثم استثمرت الاخشاب الثمينة استثماراً وحشياً . وفي السنة ١٨٩٥ اندفع الناس وراء استخراج المطاط اندفاعاً جنونياً لم يدم سوى عشر سنوات تقريباً . ولكن عصر المناجم ارتسم في أفق كاتانغا و « اواليه » . اجل كانت الشبكة النهرية ذات منفعة كبرى للمستعمرة ؛ ولكن ذلك لم يمنع ستانلي من القول : « بدون خطوط حديدية لا تساوي الكونغو فلساً واحداً » ؛ فحدث في السنة ١٨٩٨ خط « ماتادي » الى « ليوبولدفيل » .

بنى الانكليز والالمان كذلك خطوطاً حديدية تنطلق من الساحل وتسير في طرق القوافل : واتجهت افكارهم الى شجرة البن والمطاط ، فأهملوا تربية المواشي ، ولم يهملوا الماعز الذي كان يوفر لهم ارباحاً هامة . وتصرفت « الشركة ذات الامتياز » تصرفاً مماثلاً في كلا جانبي الزمبيز : فبنت الخطوط الحديدية وعمدت الى قطع الاخشاب الثمينة واقتربت من كاتانغا وشرعت على حاسبها في انهاء « اساكل » الموزامبيك . ..

وعلى الرغم من التجاوزات الكثيرة ، فان النظام الذي فرضه البيض قد ادخل المناطق الافريقية الممتدة بين خطي السرطان والجدي في طريق اقتصاد جديد .

ان مدغشقر أكثر انتساباً الى الاراضي المتناثرة في المحيط مدغشقر في عهد الهوفاث الفرنسيين الهندي وحتى في المحيط الهادي منها الى افريقيا التي تؤلف هي جزءاً منها . وكان « وليم اليس » ، امين سر جمعية لندن التبشيرية ، وأحد الاختصاصيين في شؤون اوقيانيا ، بين الأولين الذين اشاروا في السنة ١٨٣٨ الى اوجه التقارب بين اللغة المالفاشية واللهجات البولينية (اسم النارجيل واحد) . أما « غرانديديه » ، الذي اتاح لنا بؤلفاته معرفة البلاد معرفة جيدة ، فقد شدد في اواخر القرن على بعض اوجه التقارب بين سكانها وشعوب الهند الجنوبية . ولكن الواقع الذي سلم به الجميع هو ان معظم المفردات المستعملة عادة مالبيزية المنشأ . وباستطاعتنا التأكيد من ثم ان الـ « مرينا » مالبزيون يتميزون بقصر القامة والجسم النحيل والبشرة الزيتونية اللون ، أتوا بعد كل من سواهم وحققوا التفوق .

تعرف المنطقة الغربية باسم « تحت الريح » وتتميز بالجفاف والثرية المتحجرة أو الكلسية واساليب الزراعة المهمة (تافي) وقلة الاشجار وتكاثر لا تصالح الا تربية المواشي وتشبه الفلد

الجنوبية : وهذا يفسر فقر الـ « ساكالاف » ، والقبائل البدوية أو شبه البدوية الأخرى التي تربى الثيران المهدبة . أما المنطقة الشرقية المعروفة باسم « في الريح » ، والمتميزة بالرطوبة ، فقد حافظت على زراعات المناطق الحارة . وقد خلف العرب آثاراً في « سميرانو » ، إلى الشمال الغربي ، وفي المناطق الجنوبية الشرقية الأهلة بالـ « تيمورو » (« الساحليون ») ؛ وكانت « دياغو - سواريز » ملجأ للقراصنة ، وأسس الفرنسيون « فور - دوفين » في القرن السابع عشر . وتشتت الـ « بتسيميساراكا » الحلاسيون في الغابات الساحلية وتعاطوا الصيد والزراعة وتربية المواشي واقتاتوا بالأرز والثمار والأسماك وسكنوا اكواخا من الخيزران ولم يلعبوا أي دور هام . أما الـ « تسيميبتي » الذين اتقنوا الزراعة في جبال « تساراتانا » فكانوا سائرين في معارج التقدم .

اشتهر بين السكان الـ « بتسيليو » والمرينا سكان المرتفعات والاحواض حول « تاناناريف » و « فيانارانيسوا » . أحسن البتسيليو الزراعة وبرعوا في الصناعة اليدوية وضمو أربع طبقات : الاقطاعيين والاشراف والاحرار والفدائيين ؛ وحين أخضعهم جيرانهم ، أصبحوا شبه بفدائيي (« منتي ») المرينا . أما عند المرينا فقد اختلفت النماذج باختلاف الطبقة الاجتماعية : فالـ « اندريانا » او الاشراف زيتوني اللون ، على غرار الهوفا أو الاحرار وعلى نقيض الـ « منتي » والعبيد أو « انديغو » . الارز قوام التغذية ، وليس للثور الاهمية الستي له في القرب . البيت مصنوع من الخشب وحده في مدينة تاناناريف الملكية . وخلفت عبادات الارواح الكثيرة التي تتناول كافة اعمال الانسان آثاراً تذكر بآسيا . وقام رب العائلة بوظيفة كهنوتية ، وأدار مجلس القدماء (فوكون اولونا) شؤون القرية .

عدد سكان الجزيرة غير مرتفع ، وهو لم يتجاوز المليونين في الأرجح (وان قدره بعضهم خطأً بمائتي ملايين) . ومرد ذلك الى انهم عانوا من سوء التغذية وامتنعوا بالملاريا في الشواطئ وبالبرص والطاعون وتعرضوا للزحار وذات الرئة ؛ ويبدو ان السفلس كان واسع الانتشار ، وسيوسع كذلك فتك داء الغول بفعل التجارة الأوروبية .

الا ان دولة هوفية تأسست مستهدفة للسيطرة على انحاء الجزيرة . فقد توفى « اندريانامبوا نيميرينا » في اواخر القرن الثامن عشر الى جمع المرينا واخضاع البتسيليو وتشكيل جيش وجباية جزية منتظمة بواسطة مجالس القرى . وكانت الارض ملكاً له يوزعها اقطاعات (مناكلي) على الاشراف الذين يشرهم بالحكم ، فبنى سدوداً وطرقاً . ووفرت له لفدائية والرق السيد العاملة الضرورية . وقد صرح بما يلي : « يجب ان يكون البحر الحد الاخير لـ « زاني » ؛ وأرسل الحاميات العسكرية الى المناطق التي أخضعها .

برهنت ملكية تاناناريف عن بصيرة ناقبة حقيقية فعرفت زمناً طويلاً كيف تستغل التنافس الانكليزي الفرنسي وتستفيد من خدمات الاوروبيين دون التسليم بشروطهم . واذا تفوقت

الرساليات البروتستانتية على الرساليات الكاثوليكية - (بلغ عدد البروتستانت ٣٠٠ ٠٠٠ على الأقل في السنة ١٨٩٥ مقابل ٧٠ ٠٠٠ كاثوليكي - فقد عقدت بالمقابلة معاهدة مع فرنسا في السنة ١٨٦٢ . ولكن العهد الحاسم كان الفترة الممتدة من السنة ١٨٦٤ الى السنة ١٨٩٦ التي سيطرت عليها شخصية « رينيلاريفونا » الذي برز من بين صفوف الشعب واصبح رئيس وزراء الملكة « رازوهيرينا » ثم بعلا « راناغالونا » الثانية و « راناغالونا » الثالثة . ففي السنة ١٨٦٨ ، بدا وكان الدولة الهوفية سائرة نحو « ميجي » ، ع . لى غرار يابان « موتسو - هيتو » ، وبمساعدة بريطانيا العظمى التي استعين بضباطها وخبرائها الفنيين : اعتماد البروتستانتية كدين دولة ، فتح مدارس توفر تعليماً انكليزياً هوفياً ، احلال الموظفين الملكيين محل الاقطاعيين ، جمع الاعراف السائدة في مجموعات كاملة ، ومنع الاجانب من امتلاك الارض . فانتشرت الاخلاق الاوروبية انتشاراً بطيئاً ، ونمت الصناعة اليدوية وتقدم التعليم . ولكن الفداوية والرق لم يزولا .

ما كانت الحكومة الهوفية في الحقيقة لتحرز الغلبة لو نشب نزاع مسلح بينها وبين دولة اوروبية اخرى ، اذا لم يتدخل الانكليز لمساعدتها . والحال نشب هذا النزاع حين ارادت فرنسا وضع « ساكالاف » تحت حمايتها . ففي السنة ١٨٨٥ ، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، اضطرت تانغاريف الى استقبال مقيم فرنسي . ولكن نظام الحماية اصطدم ببعض العقبات ، فتمت عملية « وضع اليد » بعد ذلك بعشر سنوات .

أزالت فرنسا نفوذ الميرنا وواصلت في الوقت نفسه عمل الملوك الهوفيين وانتدبت غالياني الذي اعتمد سياسة أشبه بالاستبداد المستنير . فبعد ان استخدم القوة بقية اخضاع البلاد نهائياً عمد الى استخدام النخبة البلدية باخضاعها لسلطة موظفي الوطن الأم ؛ وألقى الرق ، ولكنه فرض خدمة خسين يوماً في السنة للاشغال العامة (وهو فرض سيحول الى ضريبة) ؛ وراقب تعليم رجال الدين ، ولكنه قنع بأن تعد المدارس موظفين للدوائر ؛ وألقى امتيازات الطبقات ، ولكنه لم يقو على عزلة الفرنسي وحواجز المجتمع . وليس من شك في انه رغب في معالجة نقص وسائل النقل وحماية الجزيرة من الاستثمار العقاري على ايدي الشركات الرأسمالية الكبرى ؛ وانما نظراً لندرة رؤوس الاموال ، لم يعد له استخدامهما في قطع الاشجار والبحث عن الذهب وانتاج البن بالتفضيل على تحسين الماشية وتوسيع زراعة الارز . فاضطرت مدغشقر من ثم الى استيراد الارز والعدول في الوقت نفسه عن ابتياع سكر جزيرة « ريونيون » القريبة ونسائجها المفضلة على نسائج الرافيا . وانشئت مدينة على النمط الاوروبي تحت العاصمة القديمة ، ولكن العمران في المناطق الاخرى بقي في حالة يرثى لها . وبحسب الظواهر كان الملقاش راضياً بنصيبه .

كانت « بوربون » و « جزيرة فرنسا » الجوهريتين الفرنسيتين
جزيرتان تنتجان السكر :
موريس وريونيون
في بحر الهند خلال القرن الثامن عشر في عهد « ماهيه دي
لا بوردونيه » . وهما تشابهان جزر الاتليل الصغرى بطبيعة
ارضهما البركانية ، ومناخهما الحر والرطب - في كل منهما منحدر في الريح وآخر تحت الريح - ،
وارتفاع كثافة سكانها .

في السنة ١٨١٥ احتفظت بريطانيا العظمى بالجزيرة الاولى واعادت لها الاسم الذي
اطلقه عليها الهولنديون اكراما لـ « موريس دورانج » . الا انها بقيت فرنسية اللغة والروح ،
ودانت بنجاح مفارستها للادارة البريطانية واهضان تصريف سكرها في أسواق الوطن الام
ولوفرة اليد العاملة الهندية . الا ان فتح ترعة السويس قد ألحق الضرر بتجارة « بورلويس » .

أما مصير جزيرة ريونيون فكان أكثر تقلباً . فبعد الازدهار الذي عرفته بفضل بن
« بوربون » وقرنفلها نزلت بها كارقتان : اعصار السنة ١٨٠٦ والحروب الفرنسية الانكليزية .
الا ان ادخال قصب السكر اثناء الاحتلال البريطاني أتاح تجدد الازدهار فيها . فبينما تأخرت
زراعة شجرة البن والمحصرات أخيراً في المهابط القائمة تحت الريح ، ازدهرت زراعة قصب السكر
والونيلية في « مساكن » المنحدر المروي ، اعني بها تلك الاستثمارات الكبرى التي أدارها
« القادة » . وقد أنتج السكر بكميات كبرى على حساب المزروعات الغذائية والفواكهات .
فتضاعف عدد السكان بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٠ . وانشئت طريق دائرية جديدة ، كما
شرع في بناء خط حديدي دائري ايضاً ؛ وبنيت بعد حين خطوط خاصة صغرى تؤمن الوصول
الى الاملاك المدرجة . ثم عانى قصب السكر من الحشرات الطفيلية ومنافسة السكر . فبدأ عهد
المخاطات هذه الزراعة . وفشلت محاولة استحضار العمال الهنود الصينيين . فتضاءل حجم التجارة
التي تماطأها هنود من بونديشيري وعرب وصينيون ومؤسسات ايداع اقتصر على بيع السكر
من التجار في الخارج . فعم التشرذم ، وعرفت بعض المناطق داء التهاب الاوعية اللفافية وزاد
انتشار الملاريا ، فتدنى عدد السكان .

خلال القرن التاسع عشر ما زالت الجزر المتناثرة في المحيط
عند المرسلين والتجار وصيادي الحيتان
في الباسيفيكي
الكبير معتبرة في نظر الاوروبيين وكأنها تؤلف عالماً خاصاً
متميزاً بعزلته وغرابته نماذج العنصرية : وقد تضاربت
الآراء في اصول وتشابه « الزوج الشرقيين » - الميلانيزيين والمكرونيزيين - و« البرابرة البيض » ،
اي البولنيزيين ، على السواء . فقد تكلم كوك من قبل عن « فينيقي العالم الشرقي » ؛ وتبع
بعضهم النزوحات البولنيزية انطلاقاً من مصر ، فطلعت احدى النظريات بأن هذه الشعوب انها
هي بعض « اسباط اسرائيل النائية » . ومهما يكن من الامر فان هذه الحضارات ، على الرغم

من انسجامها الكلي مع البيئة ، لم تكن لتتجاوز مرحلة الحبر المصقول (١) .

وصف الرواد المستكشفون جنة عدن حقيقية ، فقصده هذه المناطق بعمد ، وفي وقت واحد ، رجال مقتنمون بأن هناك بشرية مستعدة لتقبل كلام المسيح وأشخاص آخرون عللوا النفس باستثمار موارد الأرض استثماراً سهلاً . أما الحكومات فوقفت موقفًا متحفلاً متحذراً ؛ فقد انتهى « غيزو » إلى العدول عن سياسة الحماية التي انتهجها أمير البحر « دوبي توار » : ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بـ « تاهيتي » . أضف إلى ذلك من جهة ثانية أن المرسلين البروتستانت كانوا تواقين إلى إدارة شؤون البلديين بأنفسهم .

بدأ التوسع المسيحي في تاهيتي في السنة ١٧٩٧ بوصول الـ « دوف » الذي أرسلته الجمعية التبشيرية في لندن . ثم امرع المبشرون ، في كل مكان تقريباً ، إلى محاولة استمالة الزعماء والتأثير بواسطتهم على السكان . فاصروا بتحطيم الأصنام والأقلاق عن الاعتقاد بقُدسية الأشياء واكل لحم الآدميين والحروب ، ودعوا كذلك إلى الاقلاق عن العري والوشم والرقصات الطقسية ، ونادوا بوحدة الزواج وعظموا فضول العائلة وفتحوا المدارس ؛ وهاجروا أحياناً ، في بولينيزيا ، امتيازات النبلاء . وفي جزر كوك ، أنشأت جمعية الرسائل رقابة تيوقراطية حقيقية ، جاعلة من « المساكنة خارج وثق الزواج » جرماً ، ومحظرة الخروج من الأكواخ أثناء الليل . وفي « غامبيي » اشتهرت السلطة العسكرية الفرنسية الاب « لافال » كمستبد « ضحكة » . فاهتدى بعض الزعماء خوفاً ، وارقد غيرهم احتياطاً . وفي أغلب الأحيان عمل البلدي بطقوس لم يدركها جيداً . أضف إلى ذلك أن قدسية الأشياء قد استهدفت كجميع غرائز شريرة تحررت الآن . فوهى تلاحم الجماعة وتشوش نشاط المجتمع . ولم تنس الرسائل من جهة ثانية واجبها في تأمين حاجاتها الخاصة ؛ فتماطت التجارة وجنت الارباح من بيع الملابس والادوات المعدة في الاصل لموظفيها ، ولم تتوان عن جمع الثروات الطائلة عن طريق تجارة الآلئ .

تدفق على الجزر مغامرون مختلفون كثيرون . فقد خطر لاحد التجار الأميركيين من مقايضي الفراء بالحريز في الصين أن ينقل خشب الصندل ويعرضه على زينة الآسيويين . واهتم تاجر آخر بـ « خيار البحر » الذي رغب فيه مترفو كانتون لمذاقه وخواصه الناعوظية . ثم الفت الانتباه عرق اللؤلؤ وعرضت النسائج القطنية والسكاكين والبنادق وعرق السكر ؛ وبلغ من بعضهم أن احتجزوا الرهائن إلى أن تُسلم الكميات المطلوبة . وعانت كافة الجزر التي تكثرت صخور شواطئها تحت وجه البحر معاناة متفاوتة من الاصداف اللؤلؤية . ولم يندر أن استيق البلديون عنوة إلى السفن ملء الفراغ الذي يتسبب فيه داء الحفر في صفوف البحارة . وقد استفاد ملوك بلديون كثيرون من جشع البيض : كملك هاواي الذي ارغم رعاياه على اهمال المزارع والغذائية وقطع خشب الصندل ، فأحدث مجاعة في البلاد .

(١) « تاريخ الحضارات العام » ، المجلد الخامس ، ص ٢٥١ - ٢٥٨ (الطبعة العربية) .

لم تكن زيارات سفن صيد الحوت للشواطئ أقل تسبباً في المصائب . فقد عمد بحارتهـا الى المقايضة للحصول على المواد الغذائية الطازجة ، ولكنهم لم يمتنعوا عن اساءة معاملة السكان باغتصابهم النساء واختطافهم الرجال أو قتلهم اياهم . وهذا لك بعض المناطق ، كجزر «سوسيتيه» وفيدجي و«مارشال» و«كارولين» ، التي لم تنهض قط بعد الويلات التي حلت بها .

بعد السنة ١٨٥٠ غادت اعمال السلب والنهب . فكان مضيق
عهد المغارس والناجم في اوقيانيا «توريس» بدوره مسرح اندفاع وراء الاصداف اللؤلؤية ،
فاطلق عليه اسم مشرّوم هو «بالوعة الهادي» . ولكن اشكالا استثنائية جديدة رأت النور
ونمت نمواً عظيماً فاستتبع للجهو الشامل الى العمل الالزامي .

منذ السنة ١٨٣٥ ، لغت جزر هاواي الانتباه بسبب السهولة التي توفرها لزراعة قصب
السكر . فشترت بعض الشركات الاميركية الاراضي واستحضرت عمالاً صينيين ويابانيين
وفيليبينيين ، وبرتغاليين بعد حين . وولت جزر فيدجي كذلك وجهها شطر انتاج السكر بعد
فشل زراعة القطن التي بنيت عليها الآمال اثناء الحرب الانفصالية .

ولكن اوقيانيا اعتبرت في الدرجة الاولى قادرة على انتاج جوز النارجيل ، وقد تكلم
بعضهم عن حضارة النارجيل ، اذ ان هذه الشجرة تؤمن معيشة سكان الجزر ليس بتوفيرها
غذاء وشراباً كحولياً فحسب ، بل مواد بناء البيوت والمادة الخام التي يستعملونها في صناعة
شتى الادوات ايضاً . وفي العديد من الجزر اعتاش البلديون من تقديم الجوز الى زعمائهم المتعاملين
مع التجار . ويسبب نقص اليد العاملة في «ساموا» لجأت مؤسسة غودفروا الهامبورغية ، الى
العمال الميلانيزيين والصينيين ، دون ان تحقق نجاحاً كبيراً على كل حال ؛ ولجأت جزر فيدجي
الى جزر «سليمان» للحصول على اليد العاملة .

كانت الحاجة اشد إلحاحاً الى اليد العاملة لاستثمار باطن الارض . فبعد ان اكتشف صيادو
الحيتان الفوانو في ألوف الجزر الصخرية ، المارية والمقفرة احياناً ، عمدت بعض الشركات
الاميركية الى استخراج هذا السماد الثمين : وتوجب لذلك الاقتراب من الشاطئ عبر الصخور
الناتئة فوق سطح البحر ، وتأمين العيش بمواد غذائية تستحضر مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر من
هونولولو أو من «ابيا» ، ونقل اكياس السماد الى مكان رسو السفن؛ ف وقعت ضحايا كثيرة جداً
بين البولنيزيين لا سيما في جزر «فنيكس» . وحوالي السنة ١٩٠٠ كثّر الكلام عن الفوسفات
في «نورو» و«اوقيان» حيث استحضر عمال يابانيون لاستخراجه . ويوشى في كاليدوننيا
الجديدة استخراج النيكل والكروم والكوبلت ، وقد اعاقه عدااء «كاناك» الذين لم يسلموا
كذلك باستملاكات الاراضي للمهاجرين الفرنسيين من أجل زراعة شجرة البن وتربية المواشي ؛
وفي اعقاب ثورة خطيرة نشبت في السنة ١٨٧٨ ، طُلب العمال الصينيون بواسطة بيوت القمار
ومحاشش الافيون في هونغ - كونغ وكانتون .

لا يرد تأخر تقسيم الجزر الى انتظار تقدم وسائل المواصلات واقامة
خطوط تجارية منظمة واكتشاف بعض الثروات ردة الى ركود
الاحوال التجارية الذي حرك المنافسة والمطامع بين السنة ١٨٨٠
و ١٨٩٥. ففي السنة ١٨٥٠ كانت تاهيتي وحدها خاضعة لحماية، وحين

تفويض انجذمت القديمة
واقفار اوقيانيا حتى
التقسيم الاستعماري

قررت باريس ضم كاليدونيا الجديدة اليها وقفت اوستراليا موقفاً معارضاً . ولم يقدم البريطانيون
بمحاس علي ضم جزر فيدجي . ورفض بشارك مساندة مؤسسة « هانسن » التي اقترحت عليه
تأسيس مستعمرة في غينيا الجديدة . الا ان دخول المانيا الحلبة ، عشية افلاس مؤسسة غودفروا
في جزر ساموا ، هو الذي استعجل عملية التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا ومانيا والولايات
المتحدة . وكانت الدبلوماسية كافية لتنفيذ هذا العمل .

على غرار افرقيا ما بين خطي السرطان والجدي ، عانت اوقيانيا الكثير من الولايات التي
حلت وفتكت بسكانها . اجل ان في تقديرات الرواد الاولين ما يثير الريبة ؛ اقل يقدر كوك
سكان تاهيتي ب ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة وسكان هاواي ب ٣٠٠ ٠٠٠ - ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة ؟ ففي السنة
١٩٠٠ لم يحاوز سكان هذا الارخبيل الاخير ال ١٢٥٠٠٠ نسمة ، وما كان هذا العدد ليضم الا
٢٠٠٠٠ بلدي فقط . وليس من شك في ان اراضي كثيرة قد فقدت ثلاثة ارباع السكان ، ان لم
تفقدهم عن بكرة ابيهم . وحين تنقلب النسبة فمعنى ذلك ان الهجرة تملأ الفراغ . فكما ان
اوستراليا (اوستراليا وزيلندا الجديدة) قد اصبحت اكلوساكسونية بعد انقراض التاسمانيين
والاوستراليين والماوري ، أو سيرهم في طريق الانقراض ، كذلك جاء الخلاسيون والاسيويون
يميدون إعمار معظم الفرادييس الصغيرة المدنفة على الاقفار .

أجل لم يكن تدني نسبة الولادات حدثاً جديداً بسبب تضافر الحروب واكل لحوم البشر
والامراض على ايقاف انطلاقة ارتفاع عدد السكان . ولكن المهاجرين المستعمرين قد زادوا في
الطين بلة . فقد قتلوا الاهلين أو انهكهم بالاشغال الازممة الشاقة او ابعدهم بأعداد
كبيرة (من اجل استخراج الغرانو ، اختطف البيرويون والشيليون نصف اهالي جزيرة
« الفصح » وثلاثة ارباع اهالي جزيرة « نو كوليلي » في أرخبيل ال « التيس » ؛ وكادت ميلانيزيا
تقفر كذلك بسبب حاجة اوستراليا الى اليد العاملة) . وباعوا اسلحة قتالة ومشروبات روحية .
واذا هم لم ينقلوا امراض السفلس والسل والتدرن الرئوي التي يرجح انها قديمة العهد في الجزر ،
فقد نقلوا الجدري والحصبة بكل تأكيد . وقد أورد « لوي » انطباع بشرية في حنالة
الاحتضار بسبب ما كان لمجرد غخالطة البيض ، وما جاؤوا به من مصطلحات واعراف ورذائل ،
من اثر المحلالي فاسد . وكان مقدراً كذلك لـ « غوغين » « البدائي » ، الذي جاء الى تاهيتي
يتوسل فيها « الانخطاف والهدوء والفن » ، غوغين ، « البربري الذي حقد على حضارة مزعجة »
ان يعاني الكثير من الواجبات الثقيلة المفروضة على البلديين ومن الصفائر الادارية .

« لم تلبث حياقي في « بابيت » ان اصبحت وقرأ يضايقني . كنت مرة اخرى في أوروبا - أوروبا التي اعتقدت بأنني حصلت على حريقي بمفادرتها - وقد زادت على بشاعتها الاثره الاستعمارية والتقليد المضحك السخري لأخلاقنا وطرائقنا وراثتنا وألاعيبنا الحضارية التي تثير الاستهزاء ... » . فأين نحن من الاسطورة التاهيتية التي رواها بوغنفيل ، لا بل هل كان حرياً بنا الاكتفاء بتوصية ديدرو : « تاجروا معهم ، واشتروا منتجاتهم ، واحملوا لهم منتجاتكم ، ولا تقيدهم » ؟

الفصل السادس

الهند وآسيا الشرقية أمام التوسع الغربي

« كنت اعتقد آنذاك بأن السيطرة الانكليزية مفيدة
بالنتيجة لأولئك الذين تبسط عليهم » .
(غاندي ، « اختبارات الحقيقة ») .

« املاق حضارة النبات » في آسيا
توزع نصف البشر على السهول - الكبرى والصغرى - من مناطق
الهند والشرق الاقصى في آسيا . لذلك كانت نسبة كثافة السكان
مرتفعة في بعض هذه المناطق المعروفة بمناطق الرياح الموسمية . فنحن
نعرف ، بفضل كتاب « احصاءات هندية » ، ان الكثافة قدرت في السنة ١٨٩١ بـ ١٥٣ نسمة في
كل كيلومتر مربع من الاقاليم الخاضعة للإدارة البريطانية وبـ ٢٠٠ وحتى ٣٣٠ احيانا في
الكيلومتر المربع حيث يتجمع ٦٧٪ من السكان في ٣١٪ من مجموع مساحة البلاد . ويمكن
اعتماد الارقام والنسب نفسها في اليابان وجاوا وصين الولايات الـ ١٨ والمناطق الدلتاوية في شبه
الجزيرة الهندية الصينية . ويلاحظ من جهة ثانية ان ٢٢٢ مليوناً هندياً من اصل ٢٨٢ اقاموا في
قرى لا يتجاوز سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة . وهذا يعني ان سواد الآسيويين من اهل الارياف .

تتألف طبقة الفلاحين هذه في الدرجة الاولى من اهل قرار يتعاطون الزراعة ولكنهم يحرقون
- الا في اليابان - زراعة الغابات (لان الغابة نطاق بري) ويرفضون كل ما يذكر بالحياة
الراعية الخليفة بالبدو أو أشباه البدو في المناطق الجافة ، الذين تبعد عنهم تقاليد معيشية
راسخة . ويلاحظ ان سكان اشباه الجزر يقرون الجاموس والبقر الهندي في اعمال الحراثة
ويستهلكون زبدة منقاة ، ولكن سكان الهند لا يأكلون اللحوم . أما سكان آسيا الشرقية ،
الذين يربون الطيور الداجنة والحيتير - الذي يحرمه الاسلام - فلا يعرفون كيف تحلب البقرة

ويفضلون الاسماك . فنحن من ثم امام « حضارة نبات » قوامها غذاء من الحبوب والبقول وأدوات يكاد المعدن لا يدخل فيها : حضارة الارز الذي ينتج في كل مكان تقريباً ، وحضارة الحبوب الاخرى بعد ذلك ، وحضارة الخيزران الذي يستخدم استخدامات شتى . وبالإضافة الى ذلك ، اذا لم تجد تربية المواشي مكاناً لها في هذا الاقتصاد ، فلأن هذا المكان ربما بهذا كبيراً جداً .

يرتكز كل شيء الى العمل البشري المضني . فزراعة الارز ، الشاقة بمجد ذاتها ، تتطلب عناية فائقة . ولما كانت الارض نادرة وعزيرة وموضوع نزاع غنيف ومثقلة بالضرائب والمراباة ومجزأة الى مالا نهاية له (على العائلة ان تكتفي بـ ١٥٠ أراً في الهند ، و ٥٠ في اليابان) ، فإن و ٢٥ في كوريا ، وتبدأ الاملاك الكبرى اعتباراً من ٣ هكتارات في دلتا تونكين) ، فإن هذه الزراعة تصبح أشبه بعمل الحدائق الدقيق جداً الذي يتوخى الفلاح منه اكبر انتاج ممكن . ومهما يكن من مهارة الفلاحين ، فإن مثل هذا الصراع اليومي يجلب المفاجآت ويمر خيبة الامل احياناً . وهناك الحاجة الى الاسمدة التي تجعل من الدمال البشري مادة ثمينة في الصين . وهناك كذلك الصراع ضد المياه التي تأتي بالفرين الخصب ، ولكنها تغمر الاراضي المزروعة (وفي اماكن كثيرة زاد قطع الغابات من خطر الفيضانات الخربة) : وقد حدثت ادمى كارثة في السنوات ١٨٥٠ - ١٨٥٣ حين انتقل نهر « هوانغ - هو » من مجراه الى مجرى « بي - تشي - لي » مبتلماً الوف الضحايا وغرقاً مناطق كاملة تحت طبقة كثيفة من الرمول . وتسببت الاعاصير اللولبية الهابة على السواحل والامواج المرتفعة المتلاطمة ، والزلازل في اليابان باضرار كبيرة أخرى دورية . ولكن مناطق الجذب القريبة في آسيا ترك أثرها الرهيب ايضاً . فسنوات الجفاف سنوات مجاعة في الصين والهند . وربما بلغ عدد ضحايا الاولى ١٤ مليوناً في السنة ١٨٤٩ ، وبين ٩ و ١٣ مليوناً في السنوات ١٨٧٧ - ١٨٧٩ بينا أتى الجراد بعد ذلك على مزارعات ١٣ ولاية من اصل ١٨ . أما في الثانية فقد نزلت البلية في مواعيد متقاربة : فقد اماتت أكثر من مليون نسمة في منطقة « اوريسا » في السنة ١٨٦٦ . و ٤ ملايين في هند الامراء في السنة ١٨٦٨ ، وقتكت بـ ٢٠٠ الف رأس ماشية في « رادجپوتانا » وحدها ؛ وحلت بـ ٤١ مليوناً هندياً في السنة ١٨٧٧ وأودت بحياة زهاء ٤ ملايين منهم ايضاً ؛ ولكن الفاقة شملت ٧٧٤ الف كيلومتر مربع و ٧٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٥ ؛ وفي السنوات ١٨٩١ - ١٩٠١ هلك نصف الاولاد الذين لم تجاوز اعمارهم سنوات في « بيرار » (وان بروكوفيا - وكان في سنة السادسة - ، الذي كان وقع ما حدث كبيراً عليه ، قد أُلِف حينذاك « القصاص الهندي ») ، وفقدت المقاطعات المتحدة ٨٪ وولاية بومباي ٥٪ من سكانها . فلا عجب من ثم اذا ما توقع الفرنسيون ، في السنة ١٨٥٩ ، الى تجويع هوييه باحتلالهم دلتا ميكونغ حيث تتزود عاصمة « انام » بالارز ، واذا ما أمل كوربيه باستسلام حكومة بكين اثناء حملة السنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ باعتراض طريق القوافل الآتية من كانتون . كانت التغذية نباتية وبالتالي سيئة جداً . وان الفلاح في الصين

الجنوبية لم يستهلك الحنطة استهلاكه لا « كاو - ليانغ » (نوع من الذرة البيضاء) ، كما ان فلاح الهند لم يستهلك الارز استهلاكه للجوارس أو لاصناف أخرى من الذرة البيضاء . واستهلك كذلك البقول المجففة التي تمحو المعدة وتجنب اوجاعها . واعتبر الشاي ، على غرار الارز ، مادة بذخية احياناً . وقد استلزم هذا الغذاء المتأثر ابدأ ، العسير الهضم اجمالاً ، بعض التوابل وحساء البسلى الصينية وحصى هضم الاسماك الذائقة المعروفة عند الفيتناميين باسم نووك - تام . وكان من الهجمات الصينية الداريجة طرح هذا السؤال : « هل تناولت الطعام ؟ » وقد وفر احتساء المشروبات الروحية وتدخين التبغ مزيداً من الانشراح ؛ كما وفر مضغ الفوفل والتبليل احتياجاتاً مستحبة . وقامت بين الهند والصين تجارة اقبيون رابحة .

بالاضافة الى سوء تفذيته ، لم يتوفر للأسوي مسكن مريح . وقد يحدث احياناً في الصين ان تذيب امطار الصيف الغزيرة جدران مسكنه المبنية بالطين المجفف . وغالباً ما التهمت النيران في اليابان المساكن الخشبية الجميلة . أما الملابس ، وهو عادي اجمالاً ، فقد صنع في المنزل على العموم . وعاش شطر هام من السكان ، في المناطق الحارة ، مرتدين ثياباً رثة أو شبه عراة . وفي كل مكان شوهدت اعداد كبيرة من الزهاد والنساك والمتسولين . واذا كان البؤس من اسباب ارتفاع نسبة الولادات ، فانه يفسر في الوقت نفسه نسبة الوفيات المرتفعة ايضاً بين الاطفال وقصر الحياة . اضاف إلى ذلك ان الأمراض التي يسهل انتشارها سوء التغذية وسوء التدابير الصحية تضم نتائجها الى نتائج المجاعة . فالكوليرا منتشرة ابدأ هنا أو هناك في الهند : ويقدر بعضهم انها فتكت كل سنة بـ ٦٪ من السكان بين السنة ١٨٨٢ والسنة ١٨٩٠ ؛ ولكنها غالباً ما انتشرت في الشرق الاقصى ، وحتى في اليابان ، ايضاً . ولم يكن الطاعون أقل فتكاً ، بشكله الدبيلي والرئوي : فقد هلك زهاء ١٠٠ ألف شخص سنوياً في الهند بين السنة ١٨٧٨ والسنة ١٨٨٧ ، ٨٠١ ألف في السنة ١٨٩١ و ٧٢١ ألفاً في السنة ١٨٩٢ . وهو قد ظهر في الصين احياناً . وقد انتشر فيها انتشاراً واسعاً بعد الحرب الروسية اليابانية . وغالباً ما انتشرت كذلك اوبئة التيفوس والحمى التيفية والزحار والجذري . وسيطر الـ « بربري » (أو « كاكيه ») على المناطق المنخفضة بين ماليزيا واليابان . وحوالي السنة ١٩٠٠ اصيب ١٣ ألف شخص بالجذام في الهند وأكثر من ٢٥ ألفاً في الهند الصينية ؛ ولكن الصين كانت المركز الأول لهذا المرض . ويعتقد بعضهم ان الملايا تسببت في البنغال بوفيات تفوق كل مسا تسببت به كافة الأمراض السارية الأخرى ؛ يضاف الى ذلك انها كانت تعرض الاجسام للنزلة الوافدة . وهناك ، الى جانب هذه الأمراض كلها ، حيات فتاك كثيرة .

رغب كل الناس في البيع بسبب نقص الوسائل النقدية . فقد امتلأت الطرقات بالفلاحين المترددين على الاسواق . وعوضاً عن استهلاك المواد التي لا تباع باسعار مرتفعة ، كان الفقير يعرضها بغية الحصول على بعض المال . وقد صرف ذهنه وفطنته في انتاج مصنوعات مختلفة لا تخلو من الذوق السليم . فانصرفت بعض القرى ، كما في الكونغو ، الى انتاج المصنوعات الجلدية ، بينما انصرف

غيرها الى صناعة المذازي والسلال والخزفيات والحداة والحياكة . وكادت كل الأشياء تصنع باليد دونما حساب للوقت الذي تستغرقه صناعتها . ومهما كان من ضالة المكسب ، فانه كان يوفر دخلا يستهان به . فهكذا أعد الشاي والتبغ وصنع الحرير في الصين واليابان ؛ وهكذا رأت النور المصنوعات التزيينية الكثيرة التي تتم عن ذوق فني رفيع جداً . أما في المدن فقد تكسدت العديد من الريفين ، وتعرضوا للفاقة والامراض ، ولكنهم توفقوا الى الارتقاء احياناً بمزاولة الأعمال التجارية . ويجب اخيراً ان يحمى بالملايين اولئك الذين استخدموا ، كالحیوانات ، لنقل البضائع أو المسافرين بواسطة المركبات الخفيفة ذات العجلتين ، والنقلات الشراعية في الصين الشالية ، والزوارق ذات المهاديف .

استمرار حالة الفقر والنزوحات
الآسيوية: حاجات الاستعمار الاوروبي
وجاذب العالم الجديد

كانت آسيا منذ القدم مستودعاً بشرياً كبيراً ، ومن ثم منطلقاً لنزوحات كثيرة : نزوحات النواقل باتجاه اوروبا والمتوسط ، ونزوحات سكان اشباه الجزر والارخبيلات باتجاه جزر المحيط الكبير ، ونزوحات الصينيين الى الفيلبين والجزر الماليزية . وخلال القرن التاسع عشر انقلبت الحركة في الجهة البرية ، ولكنها اتسعت على الطرقات البحرية ، في الوقت نفسه الذي تعاطمت فيه حركة انتشار الاوروبين وفتحت ابواب اميركا على مصراعها امام الهجرة . اجل لقد واصل الغرب السيطرة على الجماهير الآسيوية ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، اجتذب هذه الجماهير خارج مناطقها رغبة منه في معالجة حالة الفقر معالجة جزئية ، وجني مكاسب مهمة أيضاً . واذا لم يكن مرغوباً فيهم دائماً ولم يستقبلوا استقبالاً جيداً ، فقد توزع المهاجرون الآسيويون ، من عمال مقترين أو تجار مهرة ، اما على ممتلكات الدول الاستعمارية ، واما على مختلف مناطق الامريكيتين . وهما إلغاء الرق ونقص اليد العاملة المحلية ما اتاحا لهم العمل بصورة عامة . ولما كان الهندي احد رعايا الامبراطورية البريطانية ، فقد بحث عن الإقامة في مستعمرات هذه الامبراطورية ما بين خطي الجدي والسرطان : في جزيرة موريس ، أو افريقيا الجنوبية ، أو في الساحل الغربي من افريقيا ، أو في غويانا أو في جزر المحيط الهادي . ولما كان الماليزي خاضعاً من جهته لهولندا فقد طلبته للعمل في مغارس سورينام ، كما طلب الفيتنامي ، الخاضع لفرنسا ، للعمل في حقول ومناجم كاليدونيا الجديدة . وهي اوروبا التي فتحت باب الهجرة الصينية الكبرى بفتحها المرافئ الخمسة في السنة ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين؛ وصادفت هذه الهجرة في الزمن عهد اضطرابات خطيرة في الامبراطورية السماوية . فمنذ السنة ١٨٤٦ ظهر العمال الآسيويون في كوبا والبيرو . ثم تضخم السيل وصب في اشباه الجزر والارخبيلات القريبة في الجنوب الشرقي الآسيوي ، وفي جزر الباسيفيكي وشواطئه النائية . وما لبث ان اتجه شطر منشوريا بعد ان اعترض سبيله هنا وهناك . وظهر اليابانيون بدورهم في هاواي وكاليفورنيا واستراليا ، على الرغم من نفورهم من مغادرة بلادهم

ولكن هجرة البؤس هذه لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من الجماهير الآسيوية . يضاف الى ذلك ان اكرية المهاجرين قد سافروا على امل المودة وحافظوا على غريزة التضامن القومي .

ان جهود التقنيات ونقص الموارد يستتبعان ديمومة المؤسسات الاجتماعية التي
قوة التقليد
تكرس بدورها التعلق بالماضي . فيصبح الرضى بتدبير الله الفضيلة السامية
الاولى . وقد قال « لاوتسو » : « ان من يكون قنوعاً يكون سعيداً ابدأ » .

وتسهم حياة الجماعات ، الكلية القدرة ، في تغذية هذه الذهنية . فالفرد الخاضع لطبيعة لا يقوى عليها بسهولة ، يشعر بأنه ضعيف ومتروك لقواه وحدها . وهو لا يعيش الا بدلالة العائلة وبحماية المفاريت المنزلين ؛ ولا يقدم شيئاً على الاحترام البنوي وواجباته نحو اقربائه . ففي اليابان يكون الشخص « هي - نين » ، اي غير انساني ، اذا لم يلقى بالقرية التي ولد فيها . والمسكن الجماعي هو الطراز المألوف لأنه يستجيب لرغبات التعاون على العناصر والاعداء . ولتجذب روح التعاون هذه في العمل الذي يغار على امتيازاته في المدينة والارياف على السواء . لا بل ان معظم الطبقات الهندية المقفلة ترتدي طابعاً مهنياً .

ولسلطة الدين تأثير مماثل . أجل ان الديانة الهندية تمر في أزمة . فالبراهما المثقفون ليسوا على اتصال بالجماهير التي يحتقرونها ، وتتساهل الطبقات الدنيا مع وثنية غليظة جداً حين لا تشجعها تشجيعاً . ويتميز سواد الملايين الخمسة من النساء والكهان الذين ضمتهم الهند حوالي ١٩٠٠ ، واعني بهم الـ « يوجي » ، بمخزقتهم وكسلهم . اما المعابد فتزدان بمشاهد هجرية ؛ والمؤمنون يسحون اجسامهم بزل الابقار أو يشربون بول الحيوانات ، والحجاج يعبتون مياه الفانج الملوثة التي تطفو عليها جثث الموتى ، ثم ينشرون الاوبئة حيث يمرون . لقد عززت الديانة الهندية الطبقات المقفلة وشجعت الزواج في إطار الطبقة الواحدة وجعلت من المرأة شخصاً متخلفاً وأقصتها الى الـ « زانانا » . ولكنها حالت دون التبدل .

لا تدفع البوذية قط كذلك الى العمل لانها تعتبر الوجود شراً وقوصي بالحزم في الكفر بالمسرات الخادعة . تحمل على حياة التأمل والمحبة . أضف الى ذلك ان الشعب يكرم ارواح الطبيعة حتى في بورما وكمبوديا وسيام حيث تفوق الفرع المعروف بـ « هينايا » (المركب الصغير) ، وهو اقرب الفروع فلسفة الى فلسفة « غوتاما » غير الشخصية . وفي الصين تتفق بوذية الـ « ماهايانا » (المركب الكبير) - « فوكيو » في الصينية - مع سحر الـ « ين » والـ « يانغ » ، كما تتفق مع المبادئ الرسميتين الاخرين ، الـ « يوكياو » والـ « طاو - كياو » . وبينما تساعد الطاوية الانسان على تحمل المهانات ، تعين الكونفوشيوسية مبادئ الحكم البصير والضروري الذي يزيد السماء ويوافق التقليد . فلا حدود من ثم للسلطة الملكية لا في سيام ولا في كمبوديا . اما في اليابان فقد طابقت البوذية الخلق القومي : فان الـ « زن » الذي يرتدي طابعاً صوفياً ومشدداً ، يتصل بالشتوية القديمة الشبيهة بمذهب الوهية الطبيعة والمنطوية على

عبادة الجدد والآلهة المحاة الكثيرين ، بينما تنادي الكونغفوشيوسية ، خدمة للاستوقراطية ،
بالتفاني في سبيل الميكادو ابن الاله وموزع الاعمال .

لم تنجح أية ديانة من الديانات الآتية من الغرب في تحقيق السيطرة والنصر . ففي الهند اصطدمت
المسيحية بالطبقة المقفلة وبعقيدة الوهية الكون الهندية وبالمواقع التي استولى عليها الاسلام ؛ ولم
يجاوز تباعها المليونين في اواخر القرن التاسع عشر . وفي الشرق الأقصى اعتبرت السلطات
خطراً ، ولم تتأثر بها الجماهير تأثراً يذكر . أما الاسلام فقد استمر في تقدمه في السهول حيث
بلغ مشاييمه ٦٠ مليوناً حوالى السنة ١٩٠٠ . ولكنه لم يتألق لا بعلم فقهاءه ولا بنقاوته بممارسته .
ومع تجنبه عبادة الاوثان ، تأمر بالديانة الهندية وسلم بأمور كثيرة للعادات والاعراف المحلية .
واذا هو احتل المركز الاول في ماليزيا ، فإنه لم يفلح هنا أيضاً في ازالة الطقوس الهندية وعبادات
الارواح والحق الاندونيسي القديم .

ان آسيا هذه تتكمش على نفسها متربة وكارهة الاجانب . ولا يعني موقفها هذا انها
تريد حجب صورة عتيقة قد تحجل منها ، ولكنها تحتقر « البربري » في سمو حكمتها .
فالأجنبي في نظرها كائن ادنى ، ونحس بصورة خاصة . والآسيوي يحيب الاوروبي والاميركي
الذين يدعوانه الى السير قدماً برفض تغيير حاله بالتطور .

اكاد اللورد « كورزون » في السنة ١٩٠٤ « ان السيطرة البريطانية في
الانحطاط الفني : الهند اعظم ما حققه الشعب الانكليزي ... سيطرة العدالة التي وفرت
الامن والنظام والحكم السليم لقراية خمس الجنس البشري كله ... على
ايدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين المحكومين او بقعة زبد بيضاء صغيرة جداً في
خضم محيط قاتم وصاحب ... » .

ولكن الشؤون الهندية ما زالت في السنة ١٨١٥ بادارة التاج وشركة من التجار معاً يرتبط
الحاكم العام بكلها ؛ وما زال كذلك وهم الامبراطورية المغولية قائماً . وسيدوم مثل هذا
الوضع الغامض حتى ثورة المجندين البلديين في الجيش البريطاني ، على الرغم من النفوذ الذي
ستتمتع به حكومة جلالتة تدريجياً . انه لمهد امتد فيه الفتح البريطاني ، بحسب اتفاق الحاجات
الآنية ، وبدون تصميم ولا خطة ، الى كافة ارجاء شبه الجزيرة من جهة والى الاقاليم الشالية
الغربية من جهة أخرى . وقد تحقق بفضل حروب دائمة ضد شعوب محاربة ، اسلامية بأكثريتها ،
كالمهرات والغوركا والسبخ . فأثارت القوضى والمجاعات والابتزازات على انواعها في انكلترا
ردود فعل قوية في الأوساط الاصلاحية والمنشسترية التي نسبت كل ذلك الى الشركة . اجل ان
مشروع « ماكولاى » التعليمي لتثقيف البلديين المعدين لتسلم الوظائف الهامة يعود لزمان فتح
خطوط الملاحة المنتظمة . ولكن نظام الهند لن يتبدل تبديلاً جذرياً الا في اعقاب ازمة خطيرة .
كان الحدث الحاسم من ثم الثورة التي اندلعت في اعقاب قرد المجندين البلديين في الجيش

البريطاني في السنة ١٨٥٧ ، وكشفت القناع عن قلق عميق الجذور . فان إلغاء الرق نظرياً في الارياف بغية اخضاع الفلاح لضريبة ثابتة ، وغزو قطنيات لانكشاير الذي وجه ضربة قوية للصناعة اليدوية ، وزوال يد امراء كثيرين عاشت بقرهم البلاطات والميابة ، وإلغاء الاضاحي البشرية والانتحارات الدينية - نظرياً ايضاً - الذي صادف في الزمن اعتماد اختراعات « شيطانية » كالتلغراف مثلاً ، كل ذلك خلخل مجتمعاً محافظاً على التقاليد تناولته الدعاوة المسيحية من جهة والدعاة الوهابية المضادة والمقاومة الهندية من جهة اخرى . ثم جاء الاحجام عن تعيين خليفة للامبراطور المغولي الاخير ، والخوف من ارسال الفرق العسكرية الى القرم وخسائر الجيش البريطاني في هذه الحرب ، زيادة بالطين بلة . فثار بعض الجنود البلديين حين تسلموا البندقية الجديدة « انفيلد » التي كان فشلها مدوناً بشحم الخنزير كما يقول بعضهم او بشحم البقر كما يقول غيرهم . وقد أقض الامتحان مضاجع المستعمر الذي استخلص منه درساً مفيداً .

بعد إلغاء الشركة بموجب وثيقتي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦١ ، لم يمد الحاكم العام ، الذي اصبح نائب الملك ، ليرتبط الا بأمين سر دولة لشؤون الهند أطلق برلمان لندن يده فمين حاكمي مدراس وبومباي تعييناً مباشراً . وقد صدر التوجيه العام بعد ذلك عن الوطن الام ، ولكن ممثلي السلطة تمتعوا بحرية كبرى في اتخاذ القرارات اللازمة محلياً . فاحتفظ الانكليز لأنفسهم بكافة المراكز المالية ونحوها للهند عن الوظائف الثانوية في الادارة الاقليمية وفروع الادارة المركزية . وكان باستطاعة الهندو العمل في الادارة المدنية التي تتولى أعمال القيادة ، شرط احراز النجاح في امتحانات تجري في بريطانيا العظمى . واذا كان على الموظفين الاوروبيين معرفة لغات البلاد ، فقد كان من جهة ثانية على البلديين الموظفين في الادارة ان يدخلوا مدارس ثانوية توزع التعليم باللغة الانكليزية . ويتضح من برنامج مأكولاي ان المدارس الابتدائية لم تضم ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، سوى ٤ ملايين تلميذ (نسبة الاميين بين الذكور ٩٠ بالمائة وبين الاناث ٩٩ بالمائة) ، بينها ضمت المدارس التكميلية والثانوية نصف مليون والجامعات اكثر من ٢٠٠ الف . ونظراً الى ان الضريبة العقارية هي التي تغذي الموازنة في الدرجة الاولى فكان ان الفلاح هو من يوفر المال لتعليم المثقفين الذين يتعاونون مع الدولة المستعمرة .

كادت الضرائب كلها توزع على الجماهير الريفية . وكان على هذه الاخيرة كذلك تأدية الرسوم غير المباشرة المفروضة على المشروبات الروحية والملح وتحمل ارتفاع الاسعار بصورة خاصة النتائج عن الرسوم الجمركية التي ألغيت لمدة وجيزة ثم ما لبثت ان فرضت مرة اخرى . ولكن تعهد الادارات العامة والجيش كان يستهلك اكثر من نصف الواردات .

ما زالت القوى العسكرية مؤلفة من عناصر بلدية يتولى قيادتها ضباط بريطانيون وتساندها فرق بريطانية . ولكن ثورة المجندين البلديين أظهرت محاذير فقدان النسبة العددية بين البلديين والبريطانيين (كانت النسبة نسبة ١٠ الى ١) فخفض عدد البلديين . وانما صرفت العناية بالمقابلة الى اختيار المجندين بالتفضيل من بين السيخ والغوركا والبلوتش وحتى من بين افغانيي الحدود .

الشيالية • ووضع الامراء البلديون تحت تصرف نائب الملك بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ رجل يتولى قيادتهم ضباط بريطانيون ويشتركون في المحافظة على الأمن ، ان لم يشتركوا في العمليات العسكرية الخارجية .

اذا نجح من ثم عدة آلاف من البريطانيين في ادارة امبراطورية واسعة ، فيجب الان ننسى ان الأجناس البشرية الكثيرة والمعتقدات الدينية المختلفة والطبقات الاجتماعية المقفلة واللغات المتعددة قد سهلت عمل المستعمر الذي عرف خير معرفة كيف يستفيد من هذا التنوع . فان الولايات التي اديرت مباشرة بمؤازرة موظفين بلديين كانت تحيط بالاقاليم التي استُنسب الابقاء على ادارتها التقليدية . وشدت اسياد هند الامراء هذه موائيق شخصية الى سيدهم الاكبر ، خليفة المغولي العظيم . فقد فازت فيكتوريا بلقب قيصرة الهند وبمن اخلاص اصحاب الاخاذات .

ناهز عدد هذه الولايات ال ٧٠٠ وبلغت مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع (مقابل مليونين للولايات البريطانية) وسكانها بين ٦٠ و ٧٠ مليون نسمة فقط مقابل ٢٨٠ (في السنة ١٨٩٠) . لم تدفع كلها الجزية ولكنها اعترفت كلها ببعض الأنظمة المتناولة الاخلاق وتنفيذ الاشغال العامة وجمع الضرائب وحرية التجارة . واحتفظت لندن لنفسها بحق التدخل في حال العصيان . وقد اصاب اللورد « مايو » حين قال : « ان الابقاء على الامراء البلديين في مراكزهم لا ينتقص من سلامة الامبراطورية بل يزيدها قوة » . ولذلك لم ير الوطن الام ضيراً في امتداح اخلاص اولئك الرجاوات الذين لم يحفل تمسكهم الكلي بصيانة امتيازاتهم .. ولكن تبايناً مدهشاً يلاحظ بين هؤلاء الامراء : فالى جانب قوة وعزوة ترافنكورو وكوشين اللتين تقدر دخولهما السنوية بالملايين ، تظهر الولايات ال ٨٨ التي تتألف منها منطقة كاتيافار بمظهر غير مرض من الضعف والفقر . وقد راعت انكلترا بصورة خاصة شهامة سكان الجبال الشالية المتريبين المتحكمين بالمسالك المؤدية الى ايران او التيبب ؛ وصادقت امير كشمير السيخي الاصل وجندت من النيبال فرقاً مشهورة بقيادة مهرابا من الغوركا واكتفت بإقامة مركز حراسة على مقربة من بوتان التي يتولى الحكم فيها احد عظماء اللاما . وجملة القول انها دخلت تقليد الحياة البطريركية والسلطة المطلقة الذي تتميز به كل سلطة قائمة . فاحتفظت من الماضي بما امكناها الاحتفاظ به .

استثمار الهند على ايدي البريطانيين
كاد المسكون بزمام السلطة لا يختلطون بالسكان . وقد اقام الانكليزي في مدينته الخاصة التي وفرت له ظروف حياة شبيهة

بها في الوطن الام . ففي كلكوتا برز الفرق الكبير بين « مدينة الطين » التي تكدس البلديون في أكواخها وبين « مدينة القصور » — ذات الطراز اليوناني الجديد — بمجاثقها العامسة الجميلة وشبكة اقنيتها . وبرز الفرق كذلك بين « المدينة السوداء » الغير المرتبة في يومباي ، وبين مالابار هل ، « موطن السلطة والاناقة والثروة » ، التي أقصي عنها أثرياء التجار الفارسيين أنفسهم . وقامت كذلك دلهي الجديدة قبالة عاصمة الاباطرة المغوليين القديمة . وجهزت مساكن صيفية

في الجبال .

إلا ان هذا البعد بين الحكام والمحكومين لم يمنع الاول من إثبات وجودهم بإيجاد اقتصاد جديد يحترم أشكال النشاط القديمة ويوفر لها في الوقت نفسه فوائد هامة . فقد استوردت الهند من قبل شطراً هاماً من مخزون الفضة العالمي لأنها كانت تباع أكثر مما تشتري إلى حد بعيد . ولكن السيطرة الأجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب : فالأمراء أدوا ضرائب كبرى ؛ ووكلاء الشركة ، والموظفون من بعدهم ، قبضوا رواتب مرتفعة ، وجاءت البضائع المصنوعة في انكلترا ، تنافس المصنوعات الهندية بنجاح . فبأبث الهند من ثم مدينة ؛ وتوجب عليها عقد القروض لتسد نفقات الوجود البريطاني ؛ واستثمر الوطن الأم أمواله استثماراً رابحاً في أسواق حصل منها على منتجات متنوعة . أجل ان انخفاض سعر الفضة قد زاد من حجم الصادرات ، ولكنه زاد من ثقل الدين أيضاً . وهي الشركة البريطانية التي رفعت طبلة القرن مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين .

اعتبر اللورد لورنس بأنه أتى عملاً بطولياً بانتقاله من كلكتا إلى دلهي في مدة اسبوعين فقط . ولا عجب في ذلك إذ ان أحد أعضاء مجلس العموم قد أكد في حينه « ان هكوتية انكليزية واحدة مجهزة بطرق مطروقة لا تتوفر للهند كلها » . ولكن شبكة صغرى رأت النور في عهد دالوزي ، فسهل وجود « طريق الخرطوم الكبير » بين البنغال وبلعاج قبح الثورة الكبرى . فالخط الحديدي كان لعمرى خير أداة للدولة المستعمرة : إذ ان الراحة والسرعة والاسعار المعتدلة قد جعلت من الخطوط ، التي بلغ طولها ٤٠٠٠ كيلومتر في السنة ١٩٠٠ ، أفضل شبكة خطوط حديدية في آسيا . وزودت المرافق الكبرى بتجهيزات جيدة : فقد بني سد مثلا بين اليابسة والجزيرة القائمة عليها بومباي .

كان هنالك شغل شاغل آخر هو مقاومة المساء والجفاف معاً ، إذ ان السدود والخزانات والاقنية القديمة كانت غير كافية وفي حالة سيئة . فمست الحاجة إلى قناة توزيع في السهول الجافة . فأنشئ بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٨٥٥ ، على طول الف كيلومتر تقريباً ، الفرع الاول لقناة الغانج المعدلري ٢٧٥٠٠٠ هكتار . وأنشئت في عهد لاحق أقنية في البنجاب والسند املا من المسؤولين بأن تصبح يوماً امصاراً جديدة . ولكن اقامة السدود في وجه المياه في دلتا انهار شبه الجزيرة وسع كذلك المساحات الصالحة للزراعة . وقد اكتسبت الهند بفضل ذلك مليونين ونصف المليون من الهكتارات . اما في البنغال الكثيرة الامطار فقد توجب احتباس المياه . وفي دكان احتسبت المياه وأنشئت الخزانات . ودرجت من جهة ثانية امكانية استخدام الانهار للملاحة . وليست المقاصد المدرسة وحدها ما امل هذه الاعمال بل الحاجة الماسة الى محاربة المجاعات في الدرجة الاولى .

لا شك في ان المستعمر رأى فائدته في التخفيف من بؤس الفلاحين ؛ ولكن ما هدف اليه

في الدرجة الاولى هو تكثير ربيع الربيع ، الذي يمكن اضافته الى ربيع الخريف ، لان الربيع الاول يعطي الحنطة في الشمال الغربي وانتاج ارز ثانياً في المناطق الكثيرة الامطار : الا ان المواد الغذائية التي تستوقف الانتباه لا تقري السكان اغراء يذكر . فان المنتج الذي قد يصبح احد كبار ميارة القمح لا يحتاج الى مثل هذه الكمية لاستهلاكه . لقد مست الحاجة في المستعمرة الى السكر المتدني الاسعار ، ولكن رؤوس الاموال وظفت في مقاصب جزيرة موريس . ولذلك اعتبر الافيون اوفر نفعاً لان احتكاره يوفر للخزينة دخلاً كبيراً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المضاربة التجارية قد تحولت الى الشاي والبن في الدرجة الاولى : اجل ان الهندي لا يهوى قط هذه الاشربة ، ولكن بعض الشركات القوية استثمرتها في املاك واسعة واستخدمت لذلك يداً عاملة وفيرة العدد وصدرتها الى اوروبا : واذا ما تأخرت زراعة شجر البن بعد السنة ١٨٨٥ ، فان زراعة شجر الشاي قد تقدمت تقدماً حثيثاً .

ليس ادعى إلى الاسف من تأخر الصناعة البلدية امام مزاحمة المصنوعات الأوروبية . فبين السنة ١٨١٤ والسنة ١٨٤٥ هبط عدد النسائج المبيعة من ١ ٢٦٦ ٠٠٠ إلى ٣٠٦ ٠٠٠ ، بينما ادخلت بريطانيا ٥١ مليون يارد بدلا من ٨٠٠ ٠٠٠ . وهبط عدد سكان دكا ، مدينة النسائج الناعمة ، من ١٥٠ ٠٠٠ الى ٣٥ ٠٠٠ . وكان هناك مادتان هامتان للنسيج : القنب الهندي والقطن . فأفاد الاول ، الذي صنعت منه أكياس الارز ، ليس من الحبوب المصدرة من بورما وجاوا فحسب ، بل من محول المواسم في الهند نفسها . اما الثاني فقد ارسخ ، منذ زمن بعيد ، شهرة البلاد ، وقد حققت الشركة ارباحاً طائلة ببيع النسائج القطنية العادية والنسائج الموصلية . ولكن انقلاباً حدث منذ ان انتشرت الحياكة الآلية في لتكشاير . فأضطرت المستعمرة منذئذ الى بيع القطن الخام وابتياع الملابس . وعلى الرغم من قصر الالياف ودونية نوعها غزت شجرة القطن الاراضي السوداء حول بومباي بعد حرب الانفصال ، فاستهوت الفلاح الساعي وراء جمع المال واضرت بالمزروعات الغذائية . ثم تمت صناعة الغزل الآلي بدورها بفضل التجهيزات المستوردة من انكلترا على الرغم من مقاومة منشستر الشديدة : وكانت هذه الصناعة ملك تجار اثرياء بينهم ععدد كبير من الانكليز ، واشرف عليها اختصاصيون انكليز ايضا . اما الفحم المعدني الذي استورد بجرأ من ذي قبل ، فلم يلبث ان استخرج من جوار بومباي وكلكوتا ، وقد وفر الوقود للقاطرات الحديدية .

اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ارقام التجارة الخارجية ، بدت النهضة امرأ لا جدال فيه : فالمقايضات ارتفعت الى ٣ ٥٠٠ مليون في السنة ١٩٠٠ ، مقابل ٧٠٠ عند الغاء الشركة . ولكن الرصاية الاقتصادية تبرز في بيع حبوب باكثر من ٢٦٠ مليوناً ، بينما كانت البلاد جائعة ، وقطن خام ومذسوجات قطنية بـ ٣٠٠ مليون ، بينما هي اشترت نسائج بقيمة ٥٠٠ مليون .

لم يلبث سكان الهند ، الذين كانوا ١٠٠ مليون من قبل ، أن أصبحوا ٣٠٠ مليون يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة . انه لنمو مخيف
الرعي القومي الهندي
بلغت نسبته ١٠٪ بين السنة ١٨٨١ والسنة ١٨٩١ مثلاً ، وستبلغ ١١٪ بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١١ ، وان تددت الى ١٪ بين السنة ١٨٦١ والسنة ١٨٧١ ،
والى ١٠٪ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٩٠١ بسبب المجاعات الكبرى والابوثة الفتاكة . ولم تقو
لا مقاومة البلايا ولا التقدم التقني بصورة عامة على تدارك ارتفاع عدد السكان المتزايد . أضف
الى ذلك ان حال الفلاح لم يتبدل . فطرائق الاستثمار وأدوات العمل بقيت بدائية ؛ وانواع
الحيوانات لم تحسن (وقد اوصى الاوروبيون بالآل يشربوا حليب الأبقار التي غالباً ما كانت مصابة
بالسل) . ناهيك عن أن ثمن المساحة المزروعة فقط أعطى ريعين في السنة وعن ان ربع
الاراضي الزراعية الجيدة والمهمة فقط قد أعيد استثماره . ولم تفقد البلاد ، بفعل الهجرة
والصناعة ، سوى نسبة ضئيلة من اليد العاملة ؛ واذا تقاضى عمال المشاغل والمعامل اجوراً متدنية
(٤٠ و ٥٠ فرنك الى ٧٥ و ٣٠ و ٥٠ الى ٥٠ و ١٠ و ١٠٠ للذكور ، وللنساء ، و ١٠ و ٥٠ و ١٠٠ للذكور المتراوحة
اعمارهم بين ٥ سنوات و ١٢ سنة) ، فان العامل الزراعي المياوم كان اسوأ حالاً . وقد اعترف
اللورد كورزون في السنة ١٩٠١ بأن معدل الدخل السنوي لا يتجاوز ٣٠ روبية أي ما يعادل
٥٠ فرنكاً .

على الرغم من أن الارض كانت ملك الدولة وأن المزارع يستثمرها لقاء دفع ائاة معينة ،
فقد تكونت املاك كبرى منذ ان اسندت الادارة المغولية الى بعض الفلاحين (زمندار
والتكدار) أمر جباية الرسوم وجعلت منهم كفلاء مسؤولين . وبعد ثورة المجهدين البلديين
صدرت سلسلة نصوص استهدفت تخفيف ادعاءات محتكري الاراضي . ولكن المستثمر الصغير
(رايات واري) بات فريسة المراي (مارواري) بعد تقدم الاقتصاد النقدي . فصدرت نصوص
أخرى تحدد حقوق الدائن وتعفي من مصادرة المعدات الزراعية . إلا ان الزمندان والتالكدار
الاقطاعيين ، والمرايين على انواعهم ، قد سيطروا في الواقع على الفلاحين الذين كانوا ابدأ تحت
رحمة حصاد مي .

سبق للورد بنتنك ان ثار على تضحية النساء المترملات وقتل الاطفال . ولكن « قانون
الموافقة » الذي صدر في السنة ١٨٩٠ وحرّم الزواج قبل سن الثانية عشرة لم يعمل به قط ،
واحجمت السلطات من جهة ثانية عن مساندة المصلح « مالاھاري » حين باشر حملته في هذا
السييل . وبغية تحسين حال الحجاج الذين كانوا يرتاحون من عناء السفر في الطرقات والساحات
العامة ، فريسة التعب والجوع والمرض ، انشئت بعض المستشفيات ومحلات بيع المأكولات ؛
وتحقق تقدم آخر بفضل السكة الحديدية . ونزولا عند طلب نقابات العمال وشطر من الرأي
العام الانكليزي ، تقرر بعض التدابير لحماية العمال في السنتين ١٨٨١ و ١٨٩١ ، ولكن ارباب
العمل لم يتقيدوا بها .

ان ما تفاخر به بريطانيا العظمى هو تحديدها قوانين الاحوال المدنية واصدارها قانوناً جزائياً اوروبياً الطابع وإقرارها لجنة المحلفين في الدعاوى الجنائية وسماحها للهنود بالمطالبة بلجنة مختلطة من المحلفين في الدعاوى التي يكون الاوروبيون اطرافاً فيها . لا بل رغب الهنود ريبون في ايلاء القضاة الهنود حق محاكمة الاوروبيين ، ولكن هؤلاء عارضوا ذلك .

لا مرأى في أن هذا العالم المبرقش قد احرز بعض التقدم في طريق الوحدة . فقد حدث بعض الانصهار بفضل اتساع وسائل المواصلات الجديدة والنشاطات العصرية . وظهر بعض التجانس بفعل اعتماد المنتجات الأوروبية . ولم تفرض اللغة الانكليزية نفسها في الادارة وعالم الأعمال فحسب ، بل ان لهجات أخرى قد أخذت في الانتشار ايضاً كـ « غوجاراتي » في الغرب بفضل الفرس ، والهندوستاني (وكتابتها سريعة معتادة) في كل مكان تقريباً ، والـ « اوردو » التي تقابل الهندوستاني عند المسلمين . وأخرجت الصناعة من الذل بعض العناصر المنحدرة من الطبقات الدنيا ، فانفتحت الطبقة المقلدة بتلطف طابعها الديني ، وارتفعت أو انخفضت بدلالة دورها المهني . وبفضل المدرسة توصل العديد من الهنود الى تولي الوظائف العامة التي تستهويهم أو الى مزاوله الاعمال التجارية التي توفر لهم الثروات ، وألفت طبقة المثقفين الجدد (بابو) المنحدرة من اصل وضيع على العموم ، الافكار الأوروبية وابتغت المساواة في داخل الادارة المدنية . وكان المرسلون قد اسسوا الصحيفة الاولى باللغة الوطنية : قباث الصحف تعد بالآلاف في السنة ١٩٠٠ ، وقد صدرت باللغة الانكليزية أو باللغات البلدية الرئيسية .

تفيدنا الاحصاءات وجداول ضريبة الدخل - التي أقرت في اواخر القرن - بأن كبار الملاكين العقاريين هم المعابد والاديرة والزمندار . فاذا مثلت الأجور نسبة ٣٠٪ من محصول الجباية ، فإن الدائنين والصارفة وكبار التجار يؤمنون ثلث هذا المحصول ، ويحدد دخل ١٣٤٠ شركة مساهمة بـ ٥٧٥ مليوناً . وهكذا تمت الى جانب الراجا والنباب الذين اضر بها الفتنح الانكليزي والتطور الاقتصادي نسبياً ، رأسمالية بلدية ، عقارية وتجارية وصناعية معاً ، اخذت تعي مصالحها .

ولا عجب من ثم اذا ما استهدفت اعتراض المستعمرة سياسة انكلترا الجزرية وانتقدت « الحصرية » الجديدة ونظام الحماية المعكوس . فنجد السنة ١٨٧٠ ، ارتمت في الأفق حركة « سوادشي » التي هاجمت المصنوعات الانكليزية وعظمت الانتاج البلدي ، ولكن الاحرار المنشسترين ارادوا اطلاق حرية دخول المصنوعات الانكليزية الى الهند ومنحوا بالتفضيل امتيازات سياسية : فأقرت قوانين الحكم الذاتي المحلي التي بموجبها منحت المدن والنواحي ثم الولايات مجالس لتنتخبها الادارة والاعيان ؛ ثم انشأت لندن في السنة ١٨٩٢ ، الى جانب نائب الملك ، مجلساً تشريعياً يعين اعضاؤه بناء على اقتراح الهيئات الكبرى كغرف التجارة والبلديات ويتمتعون بصلاحيه درس الموازنة وطرح الاسئلة . أضف الى ذلك أن الحاجة قد مست الى مخالطة جمعية ، معروفة باسم المؤتمر ، اجتمعت للمرة الأولى في بمباي في السنة ١٨٨٥ وطالبت بتولي

الهنود مراكز القيادة وبالمساواة القضائية وحرية الصحافة الكاملة ورقابة الموازنة الفعلية .

اعتقد البريطانيون زمناً طويلاً بأن الاختلافات الدينية وتعلق الجماهير بالماضي وانضمام المثقفين الى سياسة التعاون المخلص ستشل انطلاقة حركة قومية بلدية . وقد هوي عدد من المثقفين الهنود الأدب الانكليزي : فنظم « مدهو سودان داتا » الاشعار على طريقة بايرون ؛ وحمل « داتا » آخر اسم « دات » واصبح استاذ اللغات الهندية في جامعة لندن ونشر باللغة الانكليزية دراسات هامة حول حضارة بلاده . واشتهرت المدرسة الانكليزية الاسلامية التي اسسها السر سيد احمد خان في السنة ١٨٧٥ بأنها تضاهي « اربعة جيوش » . وبذلت المحاولات كذلك في سبيل استغلال الاختلافات في داخل الديانة البراهمانية . فقد قوبل المتكلمون عن طرد الاجنبي ، لأنه يندس مياه الفانج ويمنع تضحية التمرلات ، بالمصلحين الذين استهوتهم الافكار الغربية . فلماذا التخوف من « براهما - سماج » ، شيعة « رام موهام راي » ودبندرات طاغور الذين تأثروا برسالة يسوع فناديا بمذهب الفداء الشامل الذي من شأنه التقريب بين المسيحيين والمسلمين والبراهمانيين وبتحسين مصير المرأة والغاء الطبقات المغفلة ؟ وكيف يجوز التشكي من شيعة « اريا - سماج » التي عمن لها البانديت سارا سفاثي كذلك رسالة نييلة هي تعلم الأخوة البشرية ، كأننا ما كان تعلقها بعبادات الجدود ؟ ومن جهة ثانية لم تبد صوفية راماكروشنا وتلميذه « فيفا كانددا » ، اللذين لم يتمسكا بمحرف العقيدة تمسكها بمحاررتها ، اشد خطراً من وضعية « غوز » الذي رغب كذلك في « وحدة الشرق والغرب » ، أو من تصوف « ابي بزنط » . واذا كان رفض التعلق بالحياة أو اقله الزهد فيه قد تراجعا شيئاً فشيئاً امام المحبة الفاعلة ، فيجب التهليل لمثل هذا التطور الذي حصل على مهل وعن غير قصد في الفكر الهندي .

بانتظار ذلك اصبحت المطالبات الهندية اعظم إلحاحاً . ولا يعني ذلك ان المؤتمر الهندي قد حاد عن موقفه المتساهل : فالجماعات والايوثة اقضت مضجع الفئات النافذة التي تسيطر عليه والتي لا تطالب قط الا بحقها في ان يقال : « انا مواطن بريطاني » . ولكن حركة اشد عنفاً تعاطلت منذ السنة ١٨٩٤ : فان « تيلاك » المنتسب الى طبقة براهمانية مقفلة ، والصحفي والخطيب اللاذع ، قد اسس جمعيات رياضية على غرار الـ « سو كول » وطالبه جهاراً بالاستقلال ودفع مناصريه الى الـ « سوادشي » وحتى الى الاغتيال . وقد اعتقد نائب الملك كورزون في السنة ١٩٠٤ ان باستطاعته التأكيد بخيلاء : « ان مهمتنا عادلة وسوف تستمر » . ولكن ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة البريطانية .

’ حصنت امبراطورية الهند من الجهة الشرقية بسلسلة من الممتلكات : بورما وماليزيا البريطانيان
جزر اندمان مع مينائها الطبيعي الكبير « بورت - بلير » واصلاحيتهما الكبرى للهنود والمسلمين والبوذيين ؛ وجزر نيكوبار الغير الصحية ؛ وارخبيل مرغي الذي يتحكم ببرزخ « كرا » وساحل تناسريم ؛ وشبه جزيرة مالاکا وموقعها الهام سنغافورة ؛

واخيراً ساراواك الممتدة في طرف بحر الصين الجنوبي التي تراقبها انكلترا منذ استيلائها على جزيرة لابوان : واضيفت الى ساراواك « بورنيو الشمالية الانكليزية التي وليت عليها شركة ذات امتياز وراقبت ، بفضل سند كانت ، المر الكائن بين الفيلبين الاسبانية والانسولند النيرلندية .

اذا ما نظرنا الى بورما من البحر لرأينا انها تضم دلتا الايراوادي الكبرى المشهورة بزراعة الارز وساحلاً غنياً بشق انواع الاسماك . وجاورت البنغال من قبل مملكة بوذية اسسها «الومبرا» في القرن الثامن عشر ، فقرضت سيادتها على « اراكا » و « بيغو » و « تناسريم » وهددت « اسام » . وبعد حملة عسيرة ثبتت شركة الهند اقدامها في اسام ومانيبور واستولت على اراكا وتناسريم . ثم احتلت ، دون ان تصادف مقاومة ، بيغو المشهورة بالكاد الهندي الذي يستخرج منه صباغ قائم تصبغ به الاقمشة القطنية ، فتأسست من ثم بورما البريطانية . فانكفأت مملكة بورما منذئذ الى الداخل ولم تتمتع بعد ذلك الا بكيان مؤقت ، اذ ان الاستكشافات أثبتت اهمية المسالك المؤدية الى الميكونغ الاعلى والصين الجنوبية ، وغنى البلاد بالحجارة الكريمة وخشب النك : فكان الضم الذي حطم ، في السنة ١٨٨٥ ، محاولة «ميجي» واصطدام بمقاومة باسلة .

تضم بورما الجبلية ، بالإضافة الى ال « شان » وال « كانتي » وال « سيفوين » ، عدداً من القبائل الوثنية . وقد استطاع البريطانيون الاعتماد على البيغوين وال « كارين » للوقوف في وجه الكانتي عند الحدود الصينية وال « كان » المحرابين ؛ ولكنهم لم يحققوا التهدئة قبل توقيع اتفاقيات الحدود في السنة ١٨٩٣ . فوضّعوا نصب اعينهم جعل الدلتا قادرة على تصدير الارز ؛ فست الحاجة الى طلب يد عاملة اضافية اتوا بها من البنغال ؛ فاصبحت رانغون من ثم احدى اهم اسواق الحبوب في آسيا الجنوبية . ونقل خشب النك الى « مولين » بواسطة الانهر التي نقل من قبل الى ضفافها على ظهور الفيلة . وفي جوار « ماندلاي » استخرجت الحجارة الكريمة وحفرت آبار البترول . وقد ابدى ليوتي هذه الملاحظة : « ما ان تحقق الفتح حتى يوشر العمل الجدي ؛ فبنيت ، انطلاقاً من المراقىء ، مئات الكيومترات من الخطوط الحديدية التي حاذت الايراوادي الى ابعد من ماندلاي وما لبثت ان اتصلت بكل كوتا . لم تضع دقيقة واحدة ، وقد طبقت الطريقة الادارية السليمة المتبعة على ايدي موظفين يعرفونها تمام المعرفة ولا يتلمسون طريقهم ؛ فباستطاعة المهاجر المستعمر ان يأتي بعد ان أعد له سريره » .

ان شبه الجزيرة الماليزية ، القليلة السكان ، لم تلتفت الانتباه بمزاتها بقدر ما لفتته بمفارسها . فان استثمار النارجيل والتوابل قد تحقق منذ اوائل القرن بواسطة عبيد يباعون في جزيرة « بنانغ » ؛ ثم اتسعت زراعة قصب السكر وشجرة الشاي وشجرة البن ، فلجأ المسؤولون الى عمال هنود وسيلانيين . ثم تعرضت الاحراج لعملية نهب حقيقية . ولكن اهم حدث كان ظهور مناجم القصدير التي أمنت الشهرة لـ « مالاكا » . فتدخل البريطانيون حين حدثت الاضطرابات بين عمال المناجم الصينيين في « بيراك » ؛ وقضوا في الوقت نفسه على اعمال القرصنة الماليزية

في تلك الجهات .

وكانت جزيرة «بنانغ» التي احتلت في السنة ١٧٨٦ ، قد أثار اهتمام ولسلي الذي سيعرف باسم ولنتون ، فجددت « شركة الصهر المحدودة » تقنية القصدير في المعمل الذي كان الصينيون قد أسسوه فيها . ولكن سنفافورة فاقتها أهمية الى حد بعيد . فمنذ ان ابتاعها « رافلز » ، يمثل شركة الهند ، من سلطان جوهور ، أصبحت قرية الصيادين هذه ، المحاطة بالمستنقعات والمياه ، سوقاً تجارية خارجية عظيمة تدفق عليها كل من تستوهم التجارة ، والعمل في الزراعة والمناجم بموجب عقد اجار لمدة ثلاثمائة يوم . وفي السنة ١٨٦٩ احصى « لودوفيك دي بوفوار » في بروج بابل هذا ١٠٠ الف صيني و ٢٣ الف ماليزي و ١٥ الف هندي و ٧ آلاف جاواني و ٦ آلاف عربي وارمنافرسا ويهودا ، وبضع مئات من الاوروبيين فقط . وقد بلغ عدد سكانها ١٦٠ الف نسمة في السنة ١٨٩٠ . وكان الناس يتجولون فيها بواسطة الحافلة الكهربائية أو « جنريكيشا » اليابانية - كرسى ذو عجلتين يجره العامل الآسيوي الذي يضنيه هذا العمل . ومنذ السنة ١٩٠٠ اكتشف مصدر جديد للثروة هو مغارس اشجار المطاط التي اجتذبت رؤوس اموال كبرى وبدأ عاملة وفيرة . وبفضل هذه القاعدة البحرية ، راقبت بريطانيا العظمى مستعمرات المضائق القريبة من اليابسة وحلف الدول المايزية الاسلامية المحافظة على سلاطينها وراجاواتها . فوطدت تفوقها ونفوذها بين المحيط الهندي وبحار الشرق الاقصى عند مداخل الارخبيل الاندونيسي الواسع الاطراف .

ان الارخبيل الذي اعادته بريطانيا العظمى لهولندا في السنة ١٨١٥ شعوب الانسولند يجمع بين العالم الاوقيانوسي وآسيا معاً . وهو يقوم بين خطي السرطان والجدي ويؤلف الى الغرب جزءاً من منطقة الارياح الموسمية ويضم الى الشرق جزراً عديدة اكثر جفافاً . وتتجاور فيه مناطق مكتظة بالسكان ومناطق شبه مقفرة وتجانب حضارات زراعة الارز المتقدمة التي يتعاطاها اهل القرار حضارات الشعوب البدائية المتأخرة . وقد جاءه الاسلام من آسيا واقتطع فيه مناطق واسعة كثيرة السكان ، ولكن التأثيرات البراهمانية والبوذية القديمة قد طبعت روح البلدان الانسولندية ولفتها وفنها وتنظيمها بطابع لا يطمس ولا ينطمس .

هنا كما في كافة انحاء آسيا القريبة ، تعاطى السكان البدائيون قطف الثمار والقنص والصيد . الا انهم تطوروا احياناً : ونورد هنا مثل الـ « كو - بو » في بنومطرا الذين تحولوا الى زراعة الارز . ولم يختلف نوع معيشة بعض الشعوب الاندونيسية اختلافاً كبيراً : كالا « ياساب » في بورنيو مثلاً . ولكن معظم هذه الشعوب زاول اقله زراعة الـ « لادانغ » في الاراضي الحرجية المحرقة : هذا ما فعله الـ « دايك » في بورنيو الذين لم يؤمنوا معيشتهم من زوارقهم او من جمع محاصيل الغابات او من طحين نخل الهند ؛ وهكذا فعل كذلك الـ « باتاك » في سومطرا الذين اهتموا بربعهم الى الدين المسيحي على ايدي المرسلين اللاتريين . وانتشرت في معظم المناطق

الجبيلية زراعة الـ « ساوا » المعول فيها على المياه المخزنة ؛ وقد نهضت بها الجواميس في الغرب والثيران في الشرق ؛ ولكنها استلزمات نقل القراس ونزع الاعشاب المضرة ؛ وثبتت الفلاح في ارضه : فغالبا ما بني المسكن على الاوتاد وتحصنت القرية . وانتشرت كذلك في كل مكان تقنيات صناعة الخشب اليدوية وصناعة الخزف وصناعة المذارى والسلال ؛ واشتهرت سفار الخناجر المعروفة بالخناجر الماليزية ومجوهرات سلطنة « بروني » في شمالي بورنيو .

الماليزيون هم الاندونيسيون المستوطنون الشواطىء الذين اختلطوا بالشعوب الاخرى وقطروروا بتأثير الحضارات الهندية والعربية والصينية ، والاوربية اخيراً . اجل قد يحدث لهم ان يحبوا الارض ويمتنوا بزراعتها ؛ ولكنهم يؤثرون البحر والتجارة والصيد وحتى القرصنة ؛ وينهمكون بشغف في المقامرة واللعب والمنبهات . وبلغت الانتباه انك تجد في جاوا وحدها الامثلة الثلاثة ، سوداني الغرب الذي يناقض بطبعه الخشن جاواني الوسط الهاديء الكسول ، بينما يبذل المادوري الشرقي ، اليابس الطينة ، مزيداً من الجهد في العمل .

ان الحضارة الهندية الغنية بذكرياتها قد عرفت الديمومة في وسط جاوا بانيبتها وشغل المعادن الثمينة والرقصات والمسرح « واجانغ » . وخلقت كذلك الطبقة المقفلة وروح الطاعة للراجا . وفي بالي حافظت الديانة البراهمانية على حرارتها التي جعلها الايمان المتأصل بالارواح اشد تحميساً وتهيباً . وقد تمتع العرب ، على قلة عددهم ، بنفوذ اكتسبوه من دين اصبح مسيطراً ومن مواهبهم التجارية . وقد وجدوا حتى في « المولوك » التي تصدر القرنفل والقرقة وجوز الطيب الى اوروبا . وهو اسلام غوجرات الذي انتشر في الجزر الكبرى . وكان له اشياعه المتعصبون في اتجه من أعمال شمال سومطرا وفي « بالمجارسن » من اعمال جنوب بورنيو وفي لومبوك . وقد واصل بنجاح نسي هدي الوثنيين . وأرسل الى مكة عدداً كبيراً من الحجاج وضم اليه المهاجرين الى الهند الاسلامية . وأقام سلطنات قاومت الاوروبيين مقاومة غير متعادلة . ولم يفت الهولنديون الاستفادة من هذه الامكانات .

ارتفع عدد الصينيين من ١٠٠ الف في السنة ١٨٠٠ الى ٥٠٠ الف في السنة ١٩٠٠ . وقد خشيمهم الماليزيون ، وغالباً ما زاحوا العرب في التجارة ، وكانوا وسطاء نافعين في اعين الهولنديين لاقامة العلاقات بالامبراطورية السايوية ، فقتنوا املاكاً واسعة وباشروا استثمار باطن الارض باللجوء الى العمل الالزامي .

ترك الهولنديون بملء رضاهم شركة الهند الشرقية « تحرث البحار » . وانما استثمار الهند النيرلندية اكرهوا شيئاً فشيئاً على احتلال الجزر الكبرى والصغرى احتلالاً قهرياً . وعلى الرغم من ذلك فقد حصروا مجهم ودمهم العسكري فترة طويلة ؛ الا انهم اضطروا بعد السنة ١٨٧٠ الى استباق دول - ألمانيا وبريطانيا العظمى في الدرجة الاولى - قد تنازعهم امتلاك الاقاليم التي لما يرفرف فوقها العلم الهولندي . اصف الى ذلك انهم أرغموا من جهة ثانية على جمع قوام في سومطرا حيث

صادفوا خصوماً أقوياء . فان سلاطين اتجه ، في طرف الجزيرة الشمالي الشرقي ، قد دافعوا بعناد عن استقلال شجعه البريطانيون في البلاد . أما في جاوا فقد انتهى عهد الحروب منذ السنة ١٨٢٩ بخضوع سلطان « جوجا كارا » . وفي بورنيو ، حيث سبقت انكلترا هولندا من الجهة الشمالية ، ثبتت هولندا اقدمها في شاطئ « بالجر ماسن » المشهور بفلله وماسه ؛ ثم اخضعت بصعوبة المناطق الغنية بالذهب المعروفة بـ « الصينية » : سامبا ولنداك ؛ وان ما استهواها في بالجر ماسن هو الماس قبل الفلفل ؛ ولكن المناطق الداخلية في هذه الارض الكبرى بقيت باثرة ومقفرة . وكذلك لم يخضع الا « طوراجا » في « السيليب » للادارة المقامة في « ما كاسار » الى الجنوب وفي ميناهاسا الى الشمال . وعلى الرغم من قرب بالي ولومبوك من جاوا ، فانها لم تخضعاً نهائياً الا في السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٨ . ولم تسيطر هولندا الا سيطرة اسمية على جزر السوند الشرقية حتى اليوم الذي جرت فيه القسمة بينها وبين البرتغال التي احتفظت بشري تيمور . وما عادت هولندا لتتهم بـ « فلوريس » وسومبا وملكاتها في غينيا الجديدة . فان عالم البايو قد أخذ همه تجار امستردام الذين اكتفوا بالمكاسب التي ما زالت المولوك توفرها لهم ؛ وقد اقتصر الاحتلال عملياً على الجزر الصغرى الغنية بالتوابل : ترنات ، باندا ، ولا سيا امبوان ، وتستثنى منها سيرام وهالما - هيرا الجبليتان والمقاطعان بالغابات . وفي الحقيقة انتقل مركز الثقل الاقتصادي نهائياً من المولوك هذه ، التي فقدت منزلتها ، الى الجزء الغربي من الانسولند ولا سيا جاوا .

اثناء الاحتلال البريطاني ، قاوم « رافلز » ، الحاكم بالوكالة ، الميثاق الاستعماري الاحتكاري وشجع التجارة الحرة واستبدل الضرائب بضريبة عقارية تحدد وفقاً لمسح الاراضي .

بعد السنة ١٨١٥ توجب على الهولنديين بذل مجهود عسكري ومجهود مالي كبيرين . فعادوا من ثم الى الروح التجارية والاحتكار . ولم يكن المطلوب ان لا تكلف المستعمرات الوطن الام شيئاً فحسب ، بل ان توفي قسطها في اوائله ايضاً . اضاف الى ذلك ان « فان دن بوش » ، الذي كان على اتفاق مع الملك غليوم الاول ، لم يأت بجديد : فجدد هذا الاخير امتياز شركة الهند الشرقية وأعطاه شركة نيرلندية ذات امتياز ؛ وعمم نظام المزروعات الالزامية الذي لم يلفسه الاكليز . فكان على الفلاح ان يعمل في الاراضي المخصصة لهذه المزروعات على ان يعفى من الضريبة العقارية . فبدأ هذا البرنامج وكأنه مستوحى من الاستبداد المستنير وذهب بعضهم الى حد اعتباره برنامجاً يستهدف خير البشر .

لعمل زراعة المناطق الحارة ، التي ادارها الاوروبيون وأعدوا منتجاتها للتصدير ، لم تعرف في أي مكان آخر مثل النجاح الذي عرفته . ولما كانت سياسة حكومة لاهاي لم تهدف الى تشجيع استعمار التوطين ، فهو الموظف من كان وراء نمو الاقتصاد الذي خضع لنشاط منتظم ومنطقي . فمن التطبيقات الموفقة للعلوم الطبيعية تحسين انواع البن وانتقاء اصناف القصب بنية

حمايتها من طفيلي خفي الواقع ، وتبليد الكينا البوليفية بانتظار تبليد شجرة المطاط البرازيلية . وقد وفر البن والشاي والتبغ والنيلج والسكر والفلفل والقرقة ارباحاً طائلة (فائض بلغ ٨٣٢ مليون فنون بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٧) . فكان للاختبار اثره حتى بعد ان استهدفه النقد : فان كتاب الانكليزي « موني » ، « جاوا » ، او كيف يجب ان تدار المستعمرة » ، الذي صدر في السنة ١٨٦١ ، قد أثار حركة في الرأي العام اللندني من اجل ادخال النظام الى جزيرة جامايكا السائرة في طريق الهبوط والى الهند التي طولب بزراعة النيلج فيها .

ولكن التجاوزات اصبحت فاحشة . فان الرواية التي نشرها « ادوارد دويس - دكر » ، باسم « مولتاولي » ، المستعمار ، وتحت عنوان « ماكس هافلار » ، قد وفر لها مجرد علنية واسعة في السنة ١٨٦٠ ، حين كانت المبادئ المعادية للرق آخذة في الانتشار . فمنذ السنة ١٨٤٣ باقت الهند النبرلندية تعاني من الجذب ، لا بل كانت السنتان ١٨٤٩ و ١٨٥٠ سنتين مرعبتين . ولم يعد ممكناً اخفاء ابتزازات زعماء القرى الذين اعتبروا وكلاء مسؤولين والذين حصلوا على اراض وراثية مكافأة لهم على خدماتهم ، اقطعهم ايها الموظفون الهولنديون مقابل انتقاضات ، ومتعهدو المغارس - الذين قد يكونون صينيين احياناً : فقد فرض مثنان وحتى ثلاثمائة يوم عملا ، وصودر الاشخاص لاجل تجميز الطرقات والمرافق ، واستمر في المطالبة بدفع الضريبة العقارية ، وما زال الوكلاء البلديون ، المختارون من بين الاقطاعيين ، يلجأون الى الاقتسارات ويحبون بقايا ضرائب السنوات السابقة .

في هذه الاثناء حدثت الازمة الاقتصادية في اوربا بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٤٨ . وبموجب ملحق لدستور هولندا الجديد انتزعت من التاج ادارة الشؤون الاستعمارية . فكانت ذلك بمثابة انكار لنظام « فان دن بوش » . وقضت قوانين زراعية بالغاء الاعمال الزراعية الالزامية ، كما زالت الحقوق التفضيلية بفضل النظام الجمركي الحر . ولكن الدولة والشركة ذات الامتياز قواريتا مجرد قوار أمام بعض الشركات الرأسمالية التي لم تتخل ، من حيث المبدأ ، عن العمل الالزامي ، ولم تسلم به بادية ذي بدء الا في زراعة الشاي والنيلج والتبغ والتوابل ، اعتباراً منها أن عدداً من هذه المنتجات اقل دخلاً وعلى الرغم من ذلك فقد خصصت مساحات اضافية لزراعة شجرة البن وقصب السكر وشجرة الكينا ، كما اتسمت زراعة التبغ اتساعاً عظيماً في سومطرا ؛ ثم انخفض انتاج السكر والبن بدورها بسبب انخفاض اسعارهما . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان رؤوس الاموال اخذت توظف في حفر آبار البترول وفي مناجم القصدير ومغارس اشجار المطاط . وتحول الانتباه ، دون ان يتحول عن جاوا ، الى الاراضي الواسعة الاخرى التي اخذت امكاناتها الكبرى تبرز شيئاً فشيئاً .

ولكن الواقع الهام ما زال الاولوية الجاوانية . ففي الجزيرة البالغة مساحتها ١٣٠ ألف كيلومتر مربع ، كان عدد السكان زهاء ٢٨ مليون نسمة مقابل ٥ ملايين في أوائل القرن : ومما يجعل هذه الكثافة جديرة بالاعتبار ان جزر الارخبيل الأخرى كانت شبه مقفرة . وقد

تُباهى الهولنديون بالنتيجة التي عزوها الى ظروف صحية وغذائية دونها الظروف المتوفرة للهند . اما الحقيقة فهي ان جاوا ، المتوسطة المساحة ، كانت أفضل إعداداً لادارة حازمة ولتجهيز أوفر دخلا . أضف الى ذلك ان خبرة دائرة الشؤون المائية في هولندا قد ساعدت كثيراً على تجنب تجدد المجاعات الكبرى بفضل تحقيق مشروع ري عظيم . اجل لم يدخل المدرسة سوى أقلية ضئيلة ، ولكن التلقيح ضد الجدري قد اعتمد بنجاح ، والكوليرا والطاعون قد كوفحا ببعض الجدوى أيضاً . ولا مرأ كذلك في نفعية المستعمر ، ولكنه احترم النظام الاجتماعي جهد الامكان مكثفياً بالتوفيق بينه وبين حاجاته الخاصة . وعلى غرار البريطانيين في الهند ، احسن معاملة السلاطين الذين قبلوا بخدمته : فقط في جاوا ، ولا اقل من ١٤٣ في سومطرا . وقد ذكر « بوفوار » ان سلاطين جاوا انما هم « رهائن عاجزة رفعها المستعمرون على قواعد مرتفعة بغية تويه الميثاق العظيم الذي يربط ، بالقوة والمحبة معا ، بين العرق المسود وأسياده الاوروبيين » . واحيط الوكلاء بالاحترام وأغدق عليهم المال ، ولكنهم كانوا عرضة للعزل ، وقد اختيروا من بين العائلات الكبرى بغية نقل رغبات البيض الى زعماء القرى الذين مارسوا السلطة الفعلية الوحيدة برقابة الموظفين النيرلنديين .

ادار هذا الاستعمار عدد محدود جداً من الهولنديين لم يجاوز ٦٠ ألفاً مقابل ٣٠٠ ألف صيني وزهاء ٣٠ مليون بلدي . وقد بقيت الدوائر والمحازن في بانافيا قريبة من المدينة القديمة والمرفا . ولكن المدن المرتفعة ، كـ « ولتردن » المشهورة بمساكنها المحفوفة بالحدائق ، و « بويتنزورغ » حيث يقيم الحاكم العام ، قد وفرت لمواليد الوطن الام الرفاهية والصحة في منطقة استوائية المناخ .

نهاية السيطرة الاسبانية في الفلبين
على نقيض الهولنديين ، حاول الاسبانيون ، في ممتلكاتهم الفلبينية القديمة ، تمثيل السكان البلديين . فقد نجح اكلير وس غيور وقوي في تبشير الـ « تاغال » للطفاء . ولكنه تمثيل على بعض السطحية في الواقع : اذ ان عدم اكثراث الشعب النسبي قد سهل عمل « الاب » الذي حاول من جهة ثانية حماية رعيته من الزعيم البلدي . وتميزت الادارة بالحمول والبلادة . فلم تقرر مديرد الاستيلاء على « مندناو » و « جولو » حيث سيطر الاسلام في اوساط الـ « مورو » (الذين يقابلهم الهنود) الا رداً على احتلال بورنيو وسيليب احتلالاً فعلياً . وبقي داخل « لوسون » موطن الـ « ايفوغاو » و « المتوحشين » الذين برعوا في زراعة الارز في السطوح الترابية المتعاقبة .

تبدو الحياة في مانिला مرحلة وميسورة . ولكن التجارة ليست في ايدي الاسبانين : فمنذ السنة ١٨١١ لا تفتح أية سفينة كبيرة نحو اسبانيا الجديدة ، بينما تنقل السفن الانكليزية والاميركية الـ « اباكا » (او قنب مانिला) والسكر ، وتأتي بالارز والنسائج . وبالنظر الى تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً (بلغوا ٥ ملايين في السنة ١٨٩٠) ، يتفاقم الشقاء والضيق

وفي السنة ١٨٧٢ تستلزم خطورة الاضطرابات إرسال قوى مسلحة اضافية . وفي عهد لاحق تسبب ثلاثة حصائد ماحلة متوالية في جدوبة وعوز خطيرين .

نشأت طبقة خلاسية انيقة تلم بالاسبانية ، لم تحف استيائها من تهامل الوطن الام وامتيازات الاكليروس . والحال نفت مدريد يسدون تروا الى لوسون بعض المنادين بالحرية والاباحيين والماسونيين ، الذين اسهموا في نشر فكرة محاربة الاكليروس . وفي السنة ١٨٩٦ ، اعلنت بعض الجمعيات السرية (« كاتيبونام ») ثورة شاملة لم تقمع بسهولة ؛ لابل ان الثوار ، بقيادة اغينالدو ، لم يلقوا السلاح الا بعد الحصول على وعد ببعض الاصلاحات . وحين لم يتحقق الوعد المقطوع لهم ، تحولوا الى الاميركيين الذين ساعدوهم على طرد الاسبانيين . فغاب املمهم مرة أخرى اذ ان الاميركيين رفضوا التخلي عن الارخبيل . فنشب آنذاك صراع جديد ضار ؛ ولكن الفلبينيين هزموا في السنة ١٩٠٢ فاستبدلوا نيراً بآخر .

كان احد الشعوب الـ « تاي » اوفر حظاً من جيرانه بنجاحته من الوصاية
الدول السيامية
الاستعمارية . وهو مدين بهذه النعمة لموقعه الجغرافي في وسط شبه الجزيرة الهندية الصينية ، بين بورما الخاضعة للسيطرة البريطانية ، والجزء الشرقي من شبه الجزيرة هذه الذي احتلته فرنسا .

تنطبق سيام جغرافيا على حوض « مينام » الذي استوطنه الـ « تاي » ، واسسوا فيه عدداً من الممالك حول « كسينغماي » في الشمال و « اقو - تيا » في الجنوب . ثم حدث ان هزم البورمانيون السياميين واخضعوهم ، فأسس هؤلاء إمارة جديدة مركزها بانكوك ، وباشرت سلاتهم الجديدة (سلالة شاكري) حركة توسعية باتجاه نهر ميكونغ وشبه الجزيرة الماليزية مخضعين في الوقت نفسه المنطقتين الجنوبيتين الجبلتين : مينام العليا ومينغ . وفي عهد مونفكوت اقفلوا حدودهم في وجه الارساليات التبشيرية المسيحية ، ولكنهم وقعوا معاهدات تجارية مع الدول الاوروبية وحاربوا فيتنام التي تقدمت بدورها نحو الغرب انطلاقاً من الجبال الأنامية من اجل السيطرة على كمبوديا . وتوصلوا في فترة من الزمن الى السيطرة على دول لاوس . وبعيد التدخل البريطاني في « بينغو » ونزول الفرنسيين في كوشنشين ، اختار « شونلونغكورن » ، الذي ربه امرأة انكليزية وعلم اولاده في انكلترا ، الاعتماد نهائياً على لندن : فجهز بعض السفن الصغيرة بالمدافع وزود جيوشه ببنادق « موزر » . وحين اصر على الاحتفاظ بولايتي « باتبانغ » و « سيمرياب » الكمبوديتين سعت ملكية « بنوم - بنه » وراء الاعتماد على فرنسا . فاضطر الى التراجع في السنة ١٨٩٣ ، ولكنه احتفظ بمنفذ عريض الى الميكونغ عبر حوض « سيمون » .

لم يكن عدد سكان سيام مرتفعاً - ستة ملايين نسمة (اي بمعدل ١٠ في الكيلومتر المربع) - وقد شمل ثلثاً من التاي الودعاء والصبراء والمجاملين والراغبين في الاحتفالات والدائنين ببوذية تنفق وسلطة الرهبان ، وثلثاً آخر من الصينيين ارباب الاعمال في بانكوك ، وثلثاً اخيراً من الاقليات البورمانية والماليزية واللاوسية المقيمة عند حدود البلاد . وكانت الدولة السيامية

ملكية بطريركية : فان الملك ، « سيد الاشخاص والممتلكات » ، يتولى الحكم مع طبقة من النبلاء ، بينما تفرض على جماهير الفلاحين اعمال التسخير الملكية التي توازي شهرين أو ثلاثة اشهر عملاً . وقد صدرت البلاد الارز وخشب التلك . واقتطعت زمناً طويلاً الى الطرقات والخطوط الحديدية ، ولكن مؤسسة المانية جهزتها بشبكة تلفرافية . وقد تأمنت علائقها الاقتصادية بالخارج بواسطة سنغافورة .

فيتنام ولاوس وكمبوديا
قبل التدخل الفرنسي
في الشرق ، كما في الغرب والوسط ، تبرز المضادة القوية بين الاراضي المنخفضة والجبال في شبه جزيرة الهند الصينية هذه التي تنازعها - كما يدل على ذلك اسمها - النفوذان الهندي والصيني . واذا كان النفوذ الاول قد اتسع في حوضي مينام وميكونغ في عهد الامبراطورية الخميرية ، فان ردة الفعل التي حدثت لمصلحة النفوذ الثاني توافقت تقدم الفيتناميين على طول الساحل الشرقي وفي دلتا الانهر . اما الثاني - سواء اعتنقوا البراهمانية ام لا - والبدايين فقد احتلوا بالجبال .

ان التجمعات البشرية الكثيفة في دلتا الانهر قد اعطت الشعب الفيتنامي ، المزدحم فيها ، تفوقاً لاجدال فيه . فحوالي السنة ١٨٩٠ قدرت كثافة السكان في تونكين بـ ٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي كوشنشين بـ ٣٠ ، وفي اتام بين ٢٠ و ٣٠ ، وجلهم في البلدان الثلاث من الفيتناميين ، مقابل ١٠ فقط في كمبوديا و ٣ في لاوس ؛ وبلغت الكثافة بين ١٥٠ و ٢٠٠ في دلتا النهر الاحمر . اما في كمبوديا فقد ضم سهل « بنوم - بنه » ثلاثة ارباع سكان المملكة .

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وبينما كانت الدولة السيامية آخذة في التجدد في حوض مينام ، توطدت شيئاً فشيئاً اركان امبراطورية فيتنامية متركزة الى امتلاك تونكين في الشمال واتام في الوسط وكوشنشين في الجنوب . وقد نهض بهذا العمل « نفوين - انه » الذي حمل بعد ذلك اسم « جيا - لوفغ » ، وكان اشهر ممثل لسلالة نفوين التي تولت الحكم في هويه . فطلب اسلحة من الفرنسيين من اجل تحقيق الوحدة ؛ ثم ولى وجهه شطر الصين ليلتمس منها التعصيب التقليدي وقبل منها باسم فيتنام (ومعناها بلاد الجنوب) واقتبس عنها مجموعة قوانينها وتنظيمها السياسي - الاداري وسخر النظام لاعادة بناء السدود في تونكين وانشاء الطرق وتخزين الارز . فتجبر ورقض هدايا لويس الثامن عشر ولكنه عرف الجيمل فأكرم الفرنسيين الباقين في خدمته .

ترجع من ثم على عرش فيتنام ملك مارس ، على غرار امبراطور الصين ، سلطة مستمدة من السماء ، وكان عليه ممارستها من اجل خير رعاياه . ولكنه استند عملياً الى المثقفين المختارين عن طريق المباراة بين اولئك الذين حصلوا العلم في مدرسة تلقن الواجبات نحو العائلة والولاء . وأسهمت روح القانون ، الذي نشر في السنة ١٨١٢ ، في تحويل نشاط هذا الحكم

شطر التقليد الفلسفي والاخلاقي بالتميز على التجديدات التقنية . فاصبح واجب الملكية المطلقة ، والحالة هذه ، ضمان حياة الجماعة المرتكزة الى زراعة الارز وعبادة الجدود .

استلزمت زراعة الارز المنتجة طاقة بشرية عظيمة ، اذ ان الصيد والصناعة البدوية ما كانا ليموفرا سوى دخول محدودة وان كانت جليلة الفائدة . وقامت في كوشنشين ، المحتلة حديثاً ، املاك كبرى كان مزارعوها (تاديان) المدينون تحت رحمة المرابين . وقد شد التضامن الضروري من أجل تنظيم العمل روابط الجماعة ، واتاحت التعاونيات (هوي) مواجهة الحاجات الملحة . وألف الـ « هو » او الـ « تو » الخلية العائلية التي تكتنف حياة الفرد في جميع مظاهرها ، وما زالت السلطة الأبوية اقوى سلطة حتى بعد ان حد منها قانون جيا - لونغ ، وقد جاء في احد الامثال السائرة ان سلطة الملك تنحني امام العرف المحلي .

تحذر خلفاء جيا - لونغ من مغالطة الاوروبيين ، بدافع من حرصهم على صيانة مؤسسات امبراطوريتهم ، فانتهجوا سياسة اضطهاد المرسلين وحظروا المسيحية . وقد جاء في مرسوم السنة ١٨٣٣ ان « هذه الديانة مجموعة من الأكاذيب » . وجزم « تو - دو » بدوره في السنة ١٨٥٠ بانها « ديانة فاسدة لانها لا تنطوي على واجب عبادة الانسباء المتوفين » . لذلك ارتدت حملة السنة ١٨٥٨ ، التي استهلكت التدخل الفرنسي في شؤون بلاد يطلق عليها الغرب اسم انام ، طابع الحرب الصليبية .

لم يبق من الامبراطورية الحميرية القديمة سوى مملكة على بعض الصغر مقتصرة على منطقة الميكونغ بين كوشنشين وشلالات « خون » . وبعد ان فقدت كوشنشين ، اي منفذها الى البحر ، تعرضت هذه المملكة لغزو السياميين المتقدمين حتى « تونلي - ساب » . ثم خضعت لسيطرة سيامية فيتنامية مشاركة عقببتها حماية سيامية حقيقية . ولم يتمكن الملك « نورودوم » من التخلص من وصاية بانكوك الا بطلب حماية فرنسا .

بموجب حماية السنة ١٨٦٣ حق لفرنسا ان تتمثل بمقيم عام في بنوم - بنه كما حصلت على حرية التجارة والتملك لمواطنيها وحرية العبادة والتعليم للكنيسة الكاثوليكية . ولم يطرأ في الظاهر اي تعديل على التنظيم التسلسلي الذي يضمن تلاحم الدولة . ولكن هذه الاخيرة فتت في عضدها بفعل خلافات العائلة الملكية ودسائس الزبانية التي توجب على السلالة مراعاة حانها . ولم تنصف الحياة العائلية بصفتها الالزامية في فيتنام ، وقد حمل الفرد اسماً شخصياً . فتوزع السكان ، ولم تعرف زراعة الارز نشاطها في دلتا الانهر . آثر الكبودي تربية الثيران والابقار الهندية ، والسيد في البحيرة الكبرى الفنية بالاسماك ، والقبض على الفيلة وترويضها . وتميزت البلاد في الدرجة الاولى بروح بوذية تأملية هي روح « المركب الصغير » . وقد وفر مثل هذه العبادة تزية كبرى للمؤمنين . فان هذا الشعب الوديع والبلد والمولع من جهة ثانية بالرقص والمسرح والموسيقى قد انحنى دون مقاومة عنيدة امام الاحتلال الاوروبي .

اختلط الـ « مان » والـ « ميو » بالشعبين الذين اتيا من الصين وعاشا حياة بدوية زراعية تعرف

« راي » ، وواصلوا اغاراتهم عبر الجبال المرتفعة خلال النصف الاول من القرن . وجموعوا ، شان الثاني والـ « موونغ » ، في الوديان اللامسية حيث يزرع الارز بمزيد من السهولة . وقد توفرت هؤلاء الآخرين تقنيات اكثر تطوراً من تقنيات الجبلين الذين لحقوا بهم ، او من تقنيات البدائيين (هؤلاء الـ « خا » هم انفسهم الـ « موي » الذين يتكلم عنهم الفيتناميون ، والـ « بنونـغ » الذين يتكلم عنهم الكبوديون ، وقد انتشروا حتى في انام الجنوبية بين مجاز « آي ـ لاو » والـ « دوناي ») . وان ما ميز الثاني والموونغ اجتماعياً هو التنظيم الاقطاعي الذي بموجبه زرع الاسياد ارزهم بتسخير الفلاحين وأخضعوا الخا لنظام الفدائية . اما الثاني الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالروح البوذية وعاشوا في سهول الاحواض فعيشتهم شبيهة بمعيشة الكبوديين . واما المرأة فمغتاجة وتحب التزين وتتمتع بحرية كبرى ، وتسكن مع زوجها في بيت اهلها .

ان تقسيم البلاد الطبيعي ليفسر تجزئتها الى امارات عجزت ابدأ عن الاتحاد في دولة واحدة . وعلى غرار كمبوديا ، تعرضت اللاروس لغزوات السياميين والفيتناميين معاً بسبب رغبة هؤلاء واولئك في الوصول الى الميكونغ الاوسط . ولكن نائب القنصل الفرنسي ، « اوغست بافي » ، توفى الى وصل تونكين ولاوس وادخال الميو والثاني الجبلين في منطقة النفوذ الفرنسي . فوضعت لاروس تحت الحماية الفرنسية في السنة ١٨٩٠ ، وانحنت سيام في السنة ١٨٩٣ .

في الوقت الذي تحررت فيه الضفة الشرقية لميكونغ الاوسط من
 ارائل عهد الهند الصينية
 الفرنسية
 السيطرة السيامية ، انجزت فرنسا تأسيس الاتحاد هندو - صيني ضم
 تحت اسم الهند الصينية بلداناً وشعوباً غير متلاحمة .

توفى اميرالات الامبراطورية الثانية ، بوسائل محدودة جداً ، وبمناسبة حرب ضد الصين ، الى احتلال نصف كوشنشين ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة سقط النصف الثاني بدون قتال . ولم تستلزم الحماية على كمبوديا عملية عسكرية . ولكن الاستيلاء على انام وتونكين كان من الصعوبة بمكان : اذ لم يعتمد الامبراطور « تو - دوك » على مساندة الصينيين فحسب ، بل توجب على الجيش الفرنسي اجتياز مناطق جبلية وعرة والمخاربة في مناطق نائية قاسية المناخ بمجولة الموارد . فحتى بعد انهاء الصين ، وبعد اقامة الحماية في تونكين وانام ، استمر القتال حتى السنة ١٨٩٦ ، عنيفاً ومضنياً ، في الجبال القريبة من الحدود الصينية ، ولم تتوقف المقاومة الا بعد ان طبق « غالاني » ورئيس اركان حربه « ليوتي » خطة « بقعة الزيت » . واقتضى من جهة ثانية قمع ثورة نشبت في شمالي انام . وحاولت كمبوديا نفسها القيام بثورة للتخلص من معاهدة حماية جديدة قاسية الشروط . وهكذا توصلت فرنسا ، بعد صراع ودبلوماسية استغرقا اربعين سنة ، الى السيطرة على امبراطورية اوسع مساحة من اراضيها ، يتراوح سكانها بين ١٢ و ١٤ مليوناً موزعين توزيعاً غير متساو على انحاء الهند الصينية المختلفة .

لم يكن لفرنسا مذهب استعماري في آسيا . فحتى السنة ١٨٨٧ ، ارتبطت كوشنشين

وكمبوديا بوزارة الحربية والمستعمرات ، وانام وتونكين بوزارة الخارجية . ولما كانت سياسة الحماية بواسطة الزعماء البلديين سياسة ذات خطوة حين تم الاستيلاء على كوشنشين ، عمد الاميرال « بونار » ، على نقيض سلفه الاميرال « شارنر » ، الى اعادة الادارة المحلية الى زعماء القرى . ولكن اندلاع الثورة اوقف الاختبار . فاتجه الاميرال « دي لاغاردير » حينذاك الى اعتماد طريقة الابقاء على السلطات البلدية وربطها بادارات فرنسية يشرف عليها حاكم يعاونه مجلس استشاري خاص . ولما كان القانون الفرنسي لا يطبق الا على الفرنسيين ، ابقى على القانون المحلي بعد ان خففت العقوبات التي يفرضها . واتاحت اعمال المساحة توزيع الضريبة توزيعاً عادلاً ، وتألفت بعض فرق الجيش الانامية . وفي السنة ١٨٧٩ ، بعد ان آلت الادارة الى المدنيين ، احتفظ الموظفون الفرنسيون بادارة الشؤون العامة يعاونهم الاعيان الاناميون . والقيت اعمال التسخير في الطرق ، وانما مست الحاجة الى تغذية الموازنة الاستعمارية باحتكار ادارة الاقيون والمواد الكحولية وبواسطة الرسوم على تصدير الارز ؛ فحدثت بعض التجاوزات .

اصبحت الحماية اكثر تضيقاً في كمبوديا في السنة ١٨٨٤ . وحين فقد الملك حقه المانع في تلك الارض ، لم يلبث ان اصبح في وضع مالي على بعض الصعوبة .

بوشر في الوقت نفسه تطبيق نظام الحماية على امبراطورية انام . فترأس المقيم العام في « هويه » مجلس الوزراء واشرف على ادارة دوائر الجمرک والأشغال العامة . ونعمت تونكين باستقلال اداري ، كما أقرت لها موازنة خاصة . وقد حاول « بول برت » ، الفيزيولوجي النابغة والكریم الاخلاق ، استمالة عواطف السكان . فأقام علاقات ودية بالامبراطور الجديد « دونغ - خان » المتحلي بالظرافة واللطف ، الذي قربه اليه ؛ ولكنه لم يتمكن من التغلب على عداوة المجلس . وخفف من وطأة اعمال التسخير ، ووزع المساعدات المالية على الولايات التي خربتها الحرب ، واعفى من الضرائب المتأخرة ، واعاد بناء السدود . وكان علمانياً ، فاحترم العبادة البلدية وأوجب احترام الحرية الدينية . ورغب في التغلب على تقليدية المثقفين ، فأسس اكاديمية تونكينية لتنشئة معاوني الادارة الفرنسية وفتح مدارس فرنسية انامية على غرار المدارس المفتوحة في كوشنشين . وبعد محاولته تحقيق التهذئة في مناطق انام الشمالية والجنوبية ، توفي بسبب اصابته بمرض الزحار . وقد قاومه بعض المهاجرين المستعمرين والزعماء المحليين معاً .

في السنة ١٨٨٧ ، ورغبة في تخفيض النفقات وتنسيق نشاط الاقاليم غير المترابطة ترابطاً وثيقاً ، وجه « أثيان » ووزارة المستعمرات اللوم القاسي الى « كي دورساي » ، فأنشأ البرلمان الفرنسي الاتحاد الهندي الصيني وأسند ادارته الى حاكم عام . ثم ما لبثت الدولة المستعمرة ان ضمت الى هذا الاتحاد مدن توران وهانوي وهايفونغ المحصنة الهامة . ولكن الافتقار الى موازنة عامة شل عمل الحكام العامين الاولين الذين تعاقبوا تعاقباً سريعاً . الا ان « لانسان »

الذي آثر « على الحماية الماضية اللامبالية والجائرة » « حماية امينة على احترام القوانين والاعراف والمقيدة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاداري في امبراطورية آنام » ، التمس محبة رعاياه او اقله ثقتهم : فأعفي من منصبه . وكان روسو اول من استحصل على قرض استعماري فسار بالهند الصينية نحو طريقة « دومر » الحازمة .

بوشر بادىء ذي بد ، استثمار مناجم الفحم في « هونغاي » . ثم اكتشفت معادن مختلفة في تونكين لم تتوفر رؤوس الاموال لاستخراجها . ونقلت شحنة الشاي الاولى إلى فرنسا في السنة ١٨٩٤ . واذا كان صحيحاً من جهة ثانية ان الشبكة التلغرافية قد انشئت وان سايفون غت غواً اوروبياً ، وان هايفونج جهاز ميناؤها ، فان هانوي ليست بعد سوى مجموعة من القرى المتجاورة التي تحتاج الى مجهود تجهيزي كبير . واذا فاقت صادرات كوشنشين وارداتها ، فان كفة الواردات في الميزان التجاري في آنام وتونكين ما زالت راجحة .

ويجب الاعتراف بان اللبؤس قد تعاطم بتزايد الكثافة وان الاعيان لم يلقوا سلاحهم الا ظاهرياً .

بينما انتهت امبراطورية الهند المغولية الى الانحلال في القرن
الامبراطورية الصينية القديمة التاسع عشر ، اعادت السلالة المنشورية بناء الامبراطورية الصينية ، اوسع الدول الآسيوية اطلاقاً الى حد بعيد . وقد ضمت اليها ممتلكات خارجية واسعة - منشوريا ، منغوليا سن - كيانغ ، تيب - امتت حمايتها من جهة بدو البورات ، فناءت بثقلها على مصائر الهند الصينية ، وتدخلت في النيبال ، وعقدت مع روسيا اتفاقات تعترف لها بمجسودال « أمور » وخط « ساينسك » والالتائي ، فكانت في الحديقة « ارض الوسط » (تشونغ كو) ، او « الامبراطورية الكبيرة الخالصة » (تا تسنغ كو) ، البالغة مساحتها ١١ مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ، والمحمية من السماء . ومع ان شخصاً واحداً لا يستطيع تقدير عدد سكانها ، فبمقدورها ان نحلها في المرتبة العددية الاولى (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة) .

وألفت كذلك أكبر مجتمع قروي في العالم ، منكب خير انكباب على العمل من أجل تأمين الغذاء اليومي في إطار العائلة والقرية وفي كنف الجدود ، وناظر الى السلطة الامبراطورية الحامية كما الى شر لا بد منه . واذا لم يكن هناك من شعور قومي ، فان هذه الجماعات العقارية الكثيرة قد أحست ، بثقة وزهو ، بشعور انتسابها الى حضارة محترمة يكمن سر تفوقها في انها تعرف وتحفظ سر كل حكمة . يضاف الى ذلك انها استمدت قوتها من ضخامة عدد السكان نفسها . وأسأغت الفاتح بالسهولة نفسها التي ازدرت بها بالاجني . وقد عرفت البقاء بالرغم من الكوارث الطبيعية والثورات السياسية ، حتى ولو اوجبت عليها دفع اثقل ضريبة ممكنة لللبؤس والمرض والمجاعة .

على غرار معظم السلالات التي اختارتها الصين ، او بالاحرى قبلت بها ، شعرت السلالة

المنشورية ببعدها عن الشعب وارتباطها به في آن واحد بميثاق محبة متبادلة. وقد عاش الامبراطور في بكين في المدينة المحرمة ، اسير عادات بروتوكولية مهيبه تحميه وتراقبه معاً « البيارق » التي تسيطر حامياتها العسكرية على الولايات . ولكنه « هوانغ - تي » ، اي انه يعرف الخير ويستطيع توفيره . ويكفيه التقيد بالوامر المدونة في الكتب الكونفوشيوسية التي تقوم مقام الدستور ، شأن الاوامر القرآنية . ومن حيث لم تكن هناك طبقة اشراف وراثية ، عول على الاستئصال في تعيين من يطلب منه خدمة السلطة اي تحديد الكلمة الواجب قولها والحركة الواجب القيام بها والعادة الواجب اتباعها : ابواب الامتحان مفتوحة للجميع وبمكينة افقر الناس ان يصبح نائب الملك . ولكن كبار الموظفين ، بالاضافة الى اختيارهم بنتيجة امتحان عن ظهر القلب ، وبدون اي شرط خلقي او ذهني، قد التفوا في الواقع هيئة متسلسلة السلطات ، ملزمة بالشكليات الضيقة ، متمردة نقل الاوامر ، ومسؤولة تجاه الرؤساء لا المرؤوسين . وعلى الرغم من واجب التجميل بالفضيلة ، لم يكن بالامكان تلافي الفساد. فكيف يؤمن الموظف معيشته ؟ لقد كان يتقاضى مرتباً ضئيلاً فاستغل نفوذه وقبض اجور خدماته وابتر اموال المكلفين . أضف إلى ذلك ان السلطة اعترفت ببيع الوظائف ، لا بل حددت اسعارها بمرسوم صدر في السنة ١٨٣٨ .

بيد ان آفة الدولة وآفة الموظفين الكبرى كانت الفقر والافلاس . فلا عجب من ثم إذا سادت الفوضى سيادة مزمنة . واذا صح انها كانت دواء لتطلبات السلطات ، فانها لم تحم الفلاح من الاختلاسات ، بل تخلت عنه للاقتسارات . فيكفي ان يكون الامبراطور ضعيفاً او محاطاً بمعاونين فاسدين حتى تتسع وتنمو . ويبدو ان الاباطرة المنشوريين كانوا بدورهم ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ضحايا حياة البلاط الملأى بالدسائس الوحشية في معظم الاحيان . ولما كان الامبراطور يختار خليفته على هواه ، فقد اطلق العنان للمزاحات وهو بعد في قيد الحياة ؛ وفي حال القصور الشرعي تنتهي السلطة إلى من يعرف كيف يضع يده عليها ، رجلاً كان ام امرأة . لذلك ما زالت الاحولة الحربية هي طريقة الحكم . فيستنتج من كل ذلك ان ظاهر النظام ليس الا وهماً خادعاً : ولا تستطيع شتى اشكال التهذيب المدروسة اخفاء التشويش الذي يشل الجهاز الحاكم .

وهناك واقع خطير آخر : اعني به تدني عدد صغار الفلاحين الملاكين وانتقال الارض تدريجياً إلى ايدي ممثلي الادارة الذين يتعاطون المراية اثناء جمعهم الضريبة واحقاقهم الحق . وكان من هزال الامن ان الكوارث الطبيعية والاضطرابات تعرض اراضي الجماعات لجشع الطامعين باحتكار الارض . اجل لقد حارب « كيان - يونغ » كبار الملاكين ؛ ولكن هؤلاء عادوا من بعده الى الهجوم يحالفهم تزايد عدد السكان الذي حد من مساحة الاملاك الصغرى ومن موارد كل عائلة . وزاد في الطين بلة ان نمو التجارة مع الخارج ادى الى انخفاض قيمة الاراضي : فاستفاد اثرياء التجار من ذلك وضاربوا على قيمة الـ « تايل » الفضي التي تختلف بين سنة واخرى وبين

منطقة واخرى ، وربحوا كذلك من بيع السلع التي يبيعها الفلاح - وهو غالباً ما يكون صناعياً يدوياً - في المدينة مقابل بعض النقود النحاسية (سايبك) ، دون ان يفضي ذلك إلى تقلص النشاط الصناعي من قيود تنظيمه الخانسي. وقد نجم عن ارتقاء هؤلاء الاعيان والزعماء الريفيين تقوية الاثر الاقليمي التي قاومت ابدا قيام سلطة مركزية على بعض القوة، بسبب اتساع مساحة الامبراطورية .

لا تقوى وحدة الحضارة لعمرى على إلغاء التنوع . وفي صين الولايات الثمانية عشر ، تختلف الصين الشمالية عن الصين الجنوبية . فان تربة الاولى الصفراء والخصبة لم تكفها مؤونة الجماعات بسبب جفافها واقتارها الى الاسمدة وفيضانات الانهر الكبرى المخربة احياناً . وان هذه الصين التي لا تنتج حريراً جيداً ، والتي لا تنمضها الحياة البحرية قط ، عمدت ابدأ الى مهاجمة المرتفعات الغربية ، وتطلعت الى « شان - سي » الفنية بالمناجم ، والمنحدرات التي يستطيع الاستعمار الريفي استئجارها ؛ صين معرضة لهجمات البدو ، اختارت السلالة المنشورية الإقامة فيها ، قريباً من منشوريا التي توفر لها جنود الحاميات العسكرية . ويقابلها صين حارة ورطبة وكثيرة النواتى . وقد توفرت للشمال طرقا ومساالك تسير عليها العربية الثقيلة ذات العجلتين والنقالة الشراعية ؛ اما هنا فتوجب اللجوء الى الحبل المضي او الى الزورق الشراعي الذي امن المعيشة عن طريق الصيد والمساحة لعدد كبير عاثم من السكان . وعاشت « هو - نان » في عزلة كارهة الاجانب ؛ وتوفرت لـ « تشي - كيانغ » مرافىء كثيرة السكان والحركة ، ومنحدرات تغطيها اشجار الشاي ؛ وهناك « ندان - هوي » و « كيانغ - سو » و « فو - كيان » - ويطلق عليها اسم « الازهار المعجية الثلاث » - التي تتعاطى كلها زراعة الارز والقطن وتربية دودة القز ؛ والى اقصى الجنوب قامت « كوانغ - تونغ » التي استفادت من الاحتكار الذي استحصل عليه تجارها وتعاملت مع الاوروبيين عن طريق « ماكاو » .

الى الغرب من المناطق الكثيفة السكان ، انتصبت مناطق الحدود الجبلية القليلة الكثافة . فقد ثبت الصينيون اقدمهم في حوض « سي - تشوان » الاحمر الاعلى الذي يشاع الكثير عن موارده المختلفة ؛ وامتدت حول هذا الحوض مناطق واسعة ما كان الصينيون يشعروا فيها بأنهم في بلادهم حقاً : ففي قلب « كوي - تشو » و « يونان » اللتين يحجب اجتيازهما مروراً بـ « طريق العشرة آلاف سلم » لبلوغ تونكين ، يختلط الـ « لولو » والـ « ميار - تسو » والـ « تاي » بأبناء الامبراطورية السماوية الذين يكثر بينهم الخلاسيون ؛ وابعد الى الشمال تمتد « كان - سو » و « شن - سي » اللتان تؤلفان حدود امكانيات الزراعة الصينية وتصلحان لتربية المواشي كما في البورات ، على الرغم من تربتها الرسوبية . اضاف الى ذلك ان الاسلام استقر من جهة في كان - سو ، ومن جهة اخرى في يو - نان ؛ ويبدو ان هذا التسرب المزدوج كان خطراً على بوذية وكونفوشيوسية الشرق الاقصى ، بينما وصل « الشياطين البيض » الى مداخل الصين عن طريق البحر وطريق سيبيريا في آن واحد .

دفاع الامبراطورية الصينية عن
ممتلكاتها الخارجية
بين خلایا وسيبيريا خضع جزء كبير من آسيا الوسطى
للصين منذ توسع السلالة المنشورية الجديد في القرن الثامن
عشر . ولكن ما حدث هو ان يستاني السهل الاصفر اهل
هذه المساحات او تعرض لغزوات البدو الفجائية . اصف الى ذلك ان هذه الاراضي كانت
منطقة استعمارية في نظر اهل القرار الصينيين المولدين في معيشتهم على الحبوب والاسماك ،
دوما اكثرثا لتربية المواشي التي توفر الحليب فسيطرت هنا حضارة الالبان والحيام التي
استخدمت الحصان والجل والقطاس لاعمال النقل ؛ ولو فرضنا ان الصيني عرف ساكن هذه
الخلوات بالحنطة والذرة البيضاء ، لاعدهما لطعامه بزيادة ثامسة .

وكانت الصين موجودة في هضبة التبيت الشديدة البرد والمقفرة في ثلاثة أرباع مساحتها .
فأرسلت اليها المقيمين او « امبوان » ؛ ونصبت الـ « دالاي - لاما » ، زعيم أعظم طائفة بوذية
تصلبا وتسلطا ، الذي يمتلك الارض ويحيي العشر ويشرف على التجارة ويبيع المعجزات
والصلوات . وصدرت اليها الشاي والتبغ . وأدركت اشعاع اللاما الروحي على العالم البوذي ؛
فضمنت راحة الحجاج الذين يسلكون طريقا مخيفة تؤدي الى التبيت من « سي - تشوان » او
من « كان - سو » ؛ ورأقت علائق التبيت بالهند بواسطة مجازات لاداك ونيبال وبوتان . الا
ان الاتفاق بين الانكليز ودول مناطق حملايا قد أثار حفيظتها . وحين اضطر نائب الملك في
الهند ، بعد زيارة موفد اللاما لبطرسبرغ ، ردأ لزيارة بعض البوذيين الـ « بوريات » ، والد كملوك ،
الى التبيت ، الى الاستيلاء على سيكيم والقيام ببنائورة عسكرية في لاسا في السنة ١٩٠٤ ، قبلت
بكين ظاهريا باتفاق ينطوي على اقضاء كل دولة اخرى ، ولكنها عادت فاحتلت لاسا عسكريا
منذ السنة ١٩١٠ . فكانت لها الكلمة الفصل مرة أخرى .

تناول الضغط الروسي مناطق الحدود الطويلة الممتدة بين بامير والامور حيث كانت
الامبراطوريتان متقابلتين وجهاً لوجه . ولكنه تقابل بعيد اترضحت معالمة بتوطد سلطة القيصر
على سيبيريا وتركستان الغربية . فقد وصلت الاورال ببايكال ، بين البورات والـ « تايفا » ، وعبر
الانهار الكبرى ، طريق الـ « تراكت » السيبيرية البالغة ١٦٠٠ كيلومتر طولاً . وأسهم سجن
المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في نرتشنسك ، ومعتقل « تشيتا » الذي جهزه رجال ثورة كلون
الاول ، والاندفاع الجماعي وراء البحث عن الذهب في الالتاي باتجاه الـ « لينا » والـ « فيتيم » ،
واستمرار نفي المجرمين السياسيين ، في توطين السلافيين الاولين بين الـ « تونغوز » والـ « بوريات »
الرعاة المنتشتين بين منغوليا والدائرة القطبية الشمالية . وأسس القوزاق في الوقت نفسه
الـ « فويسكوس » في نقاط عدة من الحدود وتعاطوا الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد .
وفي مؤخرتهم وسع ألوف الفلاحين القرئى ، باتجاه الشرق ، اراضي زراعة الحبوب التي تكمل
الاراضي الاوروبية السوداء ، بينما انشئت المدن الكبرى المتعيزة بمساكنها الخشبية وشوارعها
الضيقة ، « اومسك » ، « تومسك » ، و « كراسنويارسك » و « اركوتسك » ، التي ألفت

سلسلة من المحطات نحو الشرق الأقصى . وبعد ذلك امتدت اراضي شرقي بايكال الغنية بالمناجم والمواشي ، التي تتصل بالمناطق البحرية وأماكن صيد الاسماك فيها ، وحتى بالاسكا نفسها . ومنذ السنة ١٨٩١ انشئ أطول خط حديدي في العالم بغية تأمين المواصلات في كندا الثانية هذه على غرار « الخط الكندي الباسيفيكي » ، فجاء يعبر عن تصميم روسيا القيصرية على التوسع قرب الممتلكات الصينية الخارجية ، اعني بها سن - كيانغ ومنغوليا ومنشوريا .

حرصت بكين على مراقبة طرق القوافل وطرق الغزو هذه . وان سي - كيانغ التي عرفت قديماً باسم « سرند » هي تركستان الشرقية التي اقام فيها الروس والتي تصلها بالغرب مجازات سهلة . فمن جهة تؤدي طريق الشمال (بي - لو) عبر زنفاريا وكولجا واورومتشي ، الى « لان - تشيو » ؛ ومن جهة ثانية تمر طريق الجنوب (نان - لو) ، عبر « ترك - دافان » (مرقاً الحور) ، في قشقر وقسير بموازاة التاريم الى ان تؤدي كذلك الى كان - سو وشن - سي . وان هذه الطرق التي اقام على جوانبها الرعاة وأهل القرار تمر كذلك في عدد من الواحات .

في نان - لو تولى زراعة السهول الروسية الضيقة اكلة خبز الحنطة او الذرة الصفراء الفارسي المنشأ والمولعون بالـ « بيلاف » - الارز المتبل بالفلفل الاحمر - : جماعات سارتية شرقية ، وجماعات سوغديانية اعتمدت لهجة تركية قريبة من لهجة الاوزبك السارتيه . وكان رعاة « التنطاغ » اتراكاً ايضاً . فتطلع هؤلاء وأولئك نحو الغرب الذي ابتاعوا منه الحبوب والاسلحة والادوات وابعوا منه الاصواف والجلود والطنافس واللبود . وقد سيطر على هذه المناطق اسلام غير متطلب ، اذ ان المرأة حرة ولا تتستر بالحجاب قط . وتجاوبت المدينة الاسلامية والمدينة الصينية على غير تعامل . واحرق بهذه المناطق خطر خانات فرغانا . لذلك فرض اباطرة القرن الثامن عشر الجزية على زعماء القبائل هؤلاء . ولكن امتداد النفوذ الصيني كان سريع الزوال .

على غرار قشغاريا ، عانت زونغاريا الامرين من نتائج حروب الصينيين ضد المغول الغربيين ، المعروفين باسم « الوثنيين » ايضاً ، الذين ردوا في النهاية الى ما وراء الالتي . فأقيمت حاميات عسكرية صينية في كولجا وبي - لو ؛ ووطن كبار المسؤولين الصينيين في الجهة الشمالية من تيان - شان مغولا من التوغورت الآتين من القولجا ولا سيما من الـ « دونغان » الفلاحين والصناعيين اليدويين المجتهدين ، ولكن المرتفعات بقيت مأهولة بالرعاة القازاق المسلمين والكلموك البوذيين . وما لبثت العلائق ان اقيمت بينهم وبين المراكز الروسية المبنية على طول نهر « ايلي » ، وان فتحت معاهدة كولجا ، التي ابرمتها بكين في السنة ١٨٦٠ ، ابواب الـ « بي - لو » امام التجارة الاجنبية .

كانت آسيا العليا الاسلامية في حالة هيجان شديد حين اقتربت جيوش القيصر منها . ففي السنة ١٨٦٢ ، اندلعت ثورة في قشغاريا لم يلبث ان تولى قيادتها زعيم دونغاني اسمه يعقوب الذي يبدو انه سمى وراء اطماع سياسية كبرى : اعتمد على خان كوكند الذي زوده بالاسلحة

والاعتدة، وإسلي سلطان الاستانة وحتى حكومة الهند، وابتغى تأسيس امبراطورية «الوثية» جديدة تعترض الطريقين اللّو ديتين الى سن - كيانغ. فاحتل زونغاريا ثم سار قدماً نحو «بامير». فاعترف الروس به وأستفادوا من الفرصة السالحة للاستيلاء على كولجا. ولكن الرد الصيني جاء عنيفاً منذ السنة ١٨٧٧. فهزم يعقوب وقتل، وتخلت روسيا عن كولجا بعد ان استحصلت على حق تعيين قناصل يمثلونها في بي - لو وان - لو. فعمدت بكين ببراعة الى توطين جماعات منشورية وفلاحين آتين من وادي التاريم ونجاراً آتين من كان - سو وتركت للقضاة المسلمين حق الفصل في الدعاوى، ولكنها احتفظت لنفسها بكل مراكز القيادة.

إذا احدث في جامعة كاران منبر لتعليم الصينية، فانها قد علمت اللغة المغولية أيضاً. لقد ولى الزمان الذي كان فيه الفارس المغولي يمتطي حصانه الضليع ويتسلح بالقوس والرمح ويؤسس الامبراطوريات. فان القبائل (خوشوم)، المتضامنة او المتحالفة بقيادة امرائها الوراثيين، تعيش حياة خشنّة حول الاخبية (يورت) اللبديّة المرتبة بشكل «أول»، متجرعة حليب الفرس الحمض او حليب النعجة الخافر وباعة الاصواف من الصينيين. وقد شجعت بكين البوذية التي اضعفت الروح الحربية بحملها عدداً كبيراً من هؤلاء المتشردين على التبتل. فبات اللاماء في وجه المحاربين، خير اعوان الامبراطور الذي نصب الخانات وأمدم ببعض المساعدات المالية. وتمتعت اديرة «اورغا» بشهرة عظيمة، وقد اقام الـ «جيتو - تومبا»، الذي كان تجسيدا لبوذا، على غرار الدالاي - لاما، في دير «كورن». وقد مرت طريق الحجاج من التبت الى منغوليا في «كوم - بوم» على مقربة من سن - ننغ حيث عاش رسول الجمعية اللاماوية. وكان هؤلاء الرهبان فداديوم الذين يعمنون بقطعان الماشية؛ وقد بلغوا ١٠٠٠٠٠ في اورغا. وقد ارتدت طابع الاهمية نفسه طريق الشاي الكبرى التي تؤدي من بكين الى «قلغان»، والى اورغا ايضاً، ثم تنقسم الى فرعين احدهما باتجاه بايكال والاخر باتجاه كوبدو وحوض الاوبي. وقد ذهب المستعمرون الصينيون في تقدمهم حتى مشارف «غوبي» الجنوبية حول الاوردوس. ولكن روسيا لم تبق عادمة النشاط والحركة. فقد استخدمت البوريات المغوليين وادخلتهم في فرق القوزاق وساندت «خامبا - لاما» «كياختا» التابعة لاورغا وانشأت مصلحة بريدية بين هذه المدينة و «تيان - تسن»؛ وحاولت استمالة امراء منغوليا الخارجية الخاضعين لنفوذ الاورغا، ولن يقر لها قرار حتى يعلنوا استقلالهم عن بكين بعد سقوط المنشوريين في السنة ١٩١١.

الا ان الهجاز المنشوري الواسع قد استمواها اكثر من كل هذه المناطق. اجل لقد اعترفت به للصين في السنة ١٨٥٨. ولكن هذا السهل الخصب لا يمكن ان يترك الى ما لا نهاية له لرعاة وقناصة مصريين على موقفهم العدائي لا يستثمرون المناجم والغابات ويحيطون انفسهم بمناطق حدود مقفرة تجنباً لوقوع مراعيهم في ايدي الفلاحين الصينيين الطامعين في زراعة الـ «كاو - ليانغ» والذرة البيضاء والبسلى، وحتى الحنطة. فشجع رفع القيود المفروضة على الهجرة

لهدفق المستعمرين الآتين من « بي - تشي - لي » ومن « شان - تونغ » . وسهلت الخطوط الحديدية التي بناها الروس هذا الغزو السلمي أيضاً . وفي السنة ١٨٩٥ أصبحت منشوريا لعمرى موضوع نزاع دولى منذ ان اخذت اليابان وروسيا تنازعاها .

وفي بحار الباسيفيكي الساحلية اعتبرت الصين كذلك جزيرة فورموزا وشبه جزيرة كوريا منطقتين تابعتين لها . ففي فورموزا - فاي - وان - قام صينيون - كيان شيئا فشيئا باستعمار الاراضي ، فدفعوا امامهم « ايفوروت » و« هاكا » البرابرة الذين لجأوا الى المرتفعات . وكانت « تشوسيان » ، « بلاد الهدوء الصباحي » ، مملكة خاضعة لسلطة بكين ، منعزلة جهده المستطاع ، تخشى المطامع اليابانية ، وتتنصر على السيادة الصينية النائية : وقد بلغ سكانها بين ٩ و ١٢ مليون فلاح متكاسلين يكادون لا يحصلون على قوتهم الضروري ولا يعنون العناية الكافية بطرقهم وجسورهم ، ويبيعون من الصين « جن - سانغ » ، المقوي المشهور ، والورق الذي يستخدمونه لغايات كثيرة ، ويرغبون في الملابس الزاهية . وقد كتب « دوكروك » : « ان سيول لمعمل كبير لتبييض النسيج لا تتوقف فيه تكتكة المحاضيج قط » . واشهرت البلاد بنسائها الانبيقات الحريصات على العناية بشعرهن ، ورجالها الغيد اللحيانيين . وكانت ملكية مطلقة خفف من وطأتها كبار المسؤولين المثقفين ثقافة صينية . وقاومت كوريا التبشير بالديانة المسيحية ، لا بل عمدت الى اضطهاد اوجب على الغربيين القيام بمناورات بحرية في مياهها الاقليمية . ولكن الخطر احدث بها ، بعد السنة ١٨٧٠ ، من جهة اليابان التي ارغمتها على السماح لها باستخدام ثلاثة مرافئ ، على الرغم من اعتراضات الصين . وان موقع كوريا وضعفها قد جعلها ، كما حدث من ذي قبل ، فريسة اليابان ، او أية تسلطية أخرى ، كلما عجزت الصين عن حمايتها .

اتضح المخطاط السلطة الامبراطورية في الصين في اوائل القرن التاسع عشر . ولعل ابتزازات كبار الموظفين وتجاوزاتهم والغفلة والشنشنة العامة تفسر سوء حالة الطرق وخراب تحصينات المدن وفقدان الأمن ونقص الحبوب المتكرر في الشمال الذي جعل الحاجة اشد إلحاحاً الى أرز المناطق الجنوبية . وكان كذلك لجشع كبار الملاكين العقاريين والتجار نصيبه في تفاقم سوء حالة الجماهير .

تباشر التدخل الاوروبي في الصين
دارلى أزمات الامبراطورية الصينية
ثورات « تايبينغ » والمسلمين

برزت منذ ذاك الحين مظاهر العداء لسلالة « تسنغ » ، ولا سيما في الصين الجنوبية حيث كان نفوذ الاباطرة المنشوريين ضعيفاً وحيث تأسست جمعيات سرية كثيرة (الثالث ، النبلوفر الابيض ، السراط المستقيم) اتخذت شعاراً لها : « لنقلب التسنغ ونعيد المنغ » ، ولكنها لم تحف قط كراهيتها للاجنبي . الا ان تدخل الاجانب بالذات هو ما اثار الازمة ، والعمون الذي تلقته بكين من هؤلاء الأجانب أنفسهم هو ما ضمن لها الخلاص .

بعد التنازلات التي 'سلم بها لكرهية الأجانب ، ساءت العلاقات بهؤلاء بسبب تحريم الدخالة المسيحية (١٨١٤) ورفض التفاوض مع الدول الأوروبية على قدم المساواة . وقد شكى الأجانب من تزايد متطلبات جمعية الـ « كوهونغ » الحاصلة على احتكار التجارة في كانتون . وفي سبيل زيادة حجم مكاسبها ، حاولت شركة الهند الانكليزية ، التي كانت تشتري الشاي والخزف الصيني والحرائر والقطنيات الصفراء والصمغ ، تصريف الأفيون في الصين على الرغم من المنع الذي استهدف هذا العقار . فاعترضت بكين ، وأورد الامبراطور في إحدى مذكراته في السنة ١٨٣٨ : « ان هذا الشعب (الانكليزي) الذي ليس لديه ما يؤمن به معيشتة يسعى وراء استعباد البلدان الأخرى باضعاف سكانها أولاً ... » ، ولكن ما أقلق الحكام الصينيين اقلاقاً مماثلاً على الأقل هو انقلاب سعر المعدن الأبيض . فكان الرد من ثم على التهريب المطلق العنان الذي انصرف اليه الانكليز تحطيم صناديق الأفيون . فأفضى ذلك الى توجيه حملة عسكرية حاصرت كانتون ثم ضربت نانكين بالقنابل امام تصلب بكين . فوقعت في نانكين في السنة ١٨٤٢ أولى « المعاهدات غير المتساوية » التي فتحت خمسة مرافئ وألغت احتكار الكوهونغ واكرهت الصين ، بالإضافة الى ذلك ، الى التخلي عن جزيرة هونغ - كونغ ودفع تعويض حربي .

ألحقت « حرب الأفيون » الضرر بالصين ، ووجهت في الوقت نفسه ضربة قاسية لنفوذ السلالة المنشورية التي أعطت الدول الأخرى حق حرية التجارة في المرافئ المفتوحة . ولكن غليان الشعب تزايد باطراد . فشكى المحافظون ، الذين قالموا في كبرياتهم من النذل الذي لحق بالامبراطورية السهاوية ، اتفاق السلطات المبعة مع « البرابرة » ، تجار الأفيون والكتب المقدسة والبنادق ، وشاري العمال لمستعمراتهم . وبينما اخذ استيراد المصنوعات الأوروبية والاميركية يلحق أذى كبيراً بالصناعي اليدوي ، زاد خروج الفضة من البلاد في سوء حالة المزارعين والمكلفين الذين اضطروا الى إيفاء ما عليهم نقداً معدنياً أكثر ندرة . أجل لقد جمع تجار المرافئ الثروات ، ولكن واردات الحكومة هبطت حين توجب عليها دفع قيمة التعويض الحربي .

كانت حركة التايبنغ من ثم ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم اليهم معوزو المدن والملاحون والحمالون وعمال المناجم وحتى الافاقون والقراصنة والفارون من الجندي . ولكنها جرت وراءها ، في كل مكان تقريباً ، المثقفين والملاكين العقاريين والتجار المعادين لبكين . وشاعت بعض التنبؤات حول عودة المنغ وقص ثوار كثيرون صغيرة الشجر التي فرضها التسنغ عربونا للخضوع . وقد عرف الثوار باسم رجال « تاي - بنغ تيان - كوو » أي رجال « المملكة السهاوية للسلم الأكبر » ، وهي جمعية تأسست في كوانغ - سي بين الفلاحين الـ « هاكا » ، الآتين من الصين الوسطى ، الواقفين في وجه الفلاحين المحليين الذين تساندتهم بكين . فساروا وراء « هونغ هيو - شوان » الذي قرأ الكتاب المقدس وحفظ منه التوحيد وشمول مملكة الله .

وانتقدوا كونفوشيوسية كبار الموظفين الأنانية ، فحرروا المرأة ، وحرموا الأفيون والميسر واعتمدوا روزنامة مستوحاة من روزنامة الغربية ووضعوا نصب أعينهم تنمية التجارة والصناعة ، ولكنهم نادوا كذلك بشيوعية زراعية بدائية واقتبسوا عن الصين القديمة الاولى بعض المؤسسات السياسية والعسكرية . ولن يلبث مثل هذا البرنامج ان يبعد عنهم العناصر المتمسكة بالتقليد .

الا انهم احرزوا في البدء نجاحاً صاعقاً . ففي أقل من سنتين ، انطلقوا من كوانغ - سي وهزموا اعداءهم في كافة انحاء حوض يانغ - تسي ، واستولوا على هان - كيو ثم على نانكين ونظموا حكومة تولت إعادة توزيع الاراضي لمصلحة جماعات الفلاحين وانشأت صناعة دوله تنتج للمستودعات العامة المعدة لتموين جيش مبني على الخدمة العسكرية الالزامية . ولكن التايبينغ اخطأوا هدفهم بتفويتهم فرصة قلب الامبراطور الضيف « هيان - قونغ » . ولمعل جنودهم انقوا من المخاطرة بنفوسهم في السهل الكبير . ولكن مهما يكن من الأمر فان سيرهم على بكين قد انتهى الى الفشل بسبب تأخره وسوء تنظيمه . ولم تحرز الثورة بعد ذلك تقدماً يذكر لانها ضعفت بفعل الاثره الاقليمية التي اضاعت عليها الاهداف الواجب بلوغها، وامتراض المثقفين والأغنياء الذين اخافتهم سياستها الاصلاحية المتطرفة، وامتراض الفلاحين الذين اضطرت بدورها الى فرض ضرائب ثقيلة عليهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انها اعقت في مؤخرتها، ابتداء من السنة ١٨٥٦ ، بثورة أخرى هي ثورة المسلمين في يونان التي اندلعت بين عمال مناجم كبريت الرصاص المزوج بالفضة . وما لبث الاسلام الصيني بأجمعه ، في كان - سو وسن - كيانغ ان انضم اليها .

ولكن بكين سوف تتمكن من الصمود . فقد ناصرها بادىء ذي بدء إقطاعيو هو - نان الذين جندوا الجيوش ووقفوا في وجه التايبينغ ، ثم الثف حولها كافة كبار الموظفين الذين توحدوا امام الخطر ورفعوا علم الكونفوشيوسية . الا ان الوضع سيبقي متأزماً طالما هي لا تستطيع الاستعانة بالاجنبي . والحال استفاد هذا الاخير من الازمة ليفرض رقابة جبركية حقيقية ، ثم تعلل بمخرق المعاهدات ليقوم بمناورة جديدة تثبت قوته . فاستولى الفرنسيون والانكليز على تيان - تسن ثم تقدموا حق بكين حيث اجتأحوا « القصر الصيفي » . وقد ارغمت الامبراطورية على فتح مرافئ جديدة ودفع تعويض حربي جديد والتسليم بوجود ممثلي الدول في عاصمتها ، بينما حصل الروس على الولاية البحرية واسسوا فيها فلاديفوستوك على شاطئ بحر اليابان . فكان ان اللورد « إلجن » ، الذي سبق لوالده ان نهب الاكروبول في اثينا، والذي تأثر هو نفسه بكنوز القصر الصيفي ، كتب في صحيفته ان التجارة « تمارس في ظروف فاحشة بالنسبة للصينيين ومفسدة للاخلاق بالنسبة لمواطنيه » . وعلى الرغم من ذلك ، فان السيد الحقيقي لملائق الصين بالعالم اصبحت منذ ذاك التاريخ السير « روبرت هارت » ، مفقش الجمارك البحرية العام . وجلي في مثل هذه الظروف ان « البرابرة » ما كانوا ليقفوا الى جانب

التاينغ . يضاف الى ذلك ان تحولاً قد طرأ على موقفهم حين آثر المرسلون والرأسماليون استتباب النظام في ظل سلطة تخضع لرقابة شديدة . ثم ان نجاحات الثورة الاسلامية قد اخذت تقض مضاجعهم ، فتكون بينهم وبين بكين تضامن لم يكن لمصلحة نانكين . فتدفقت الاسلحة والمتطوعون على المعسكر الامبراطوري ، واشرف الاميركي « وورد » والمهاجور البريطاني غوردون - الذي سيشتهر باسم غوردون باشا - على العمليات العسكرية التي انتهت بسحق العصيان .

الا ان قمع الثورة الاسلامية سيتطلب سنوات طويلة . اجل لقد عقد من قبل اتفاق في يونان مع السلطات الامبراطورية ، الا ان القتال تجدد بإشراف زعماء جدد حمل احدى لقب السلطان . وفي سن - كيانغ مضى يعقوب في المقاومة حتى السنة ١٨٧٧ . فاجتاحت ولايات كاملة ، ودمرت بعض المدن كـ « سو - تشيو » و« نانكين » و« يونانفو » . وكانت آثار الحراب لا تزال ظاهرة في يونان حوالى السنة ١٩٠٠ . وقد عقب هذه الحروب مجاعة السنة ١٨٧٧ - ٧٨ الراهية التي جاءت ضفتا على إبالة .

فخرجت الصين من المحنة منهوكة القوى وخاضعة لوصاية تكاد لا تكون مقننة ، اعني بها وصاية الغرب .

منذ السنة ١٨٧٠ حتى السنة ١٨٩٥ ، عرفت الصين هدوءاً نسبيّاً أتاح بروز رأسمالية بلدية وانتشار آراء الاصلاح والتجديد في الاوساط التي تعاملت مع « البرابرة » ورافقت

نجاحات النفوذ الاجنبي الجديدة
والأزمة الثانية في الامبراطورية الصينية

بانتباه التطورات المدهشة التي كانت اليابان مسرحاً لها .

استمر التعاون بين الغرب وبكين في الحقل العسكري . وقد أقلق تفوق البيض المفروض « لن تساو - سن » ، فاستصدر منذ السنة ١٨٤٤ ، ١٢ مجلداً من « حوليات الامم البحرية المصورة » . كما ان المدفعية العصرية احدثت انطباعاً عظيماً . فتجنّد بعض الشبان في الوحدات البحرية البريطانية او تلقوا دروسهم في سان - شامون والـ « كروزو » ، بينما اسند نائب الملك في فو - كيان الى بعض ضباط البحرية الفرنسية امر ببناء دار صناعة بحرية في فو - تشيو سوف يضرها « كوربيه » بالقتال في السنة ١٨٨٤ . ونقلت مؤلفات علمية عديدة بعناية معهد أسسه القس الاميركي « و.ا.ب. مارتن » : فعلت الاصول الدبلوماسية ، ولقن اللغات الاوروبية بعض موظفي وزارة الشؤون الخارجية - « تسونغ - لي - يان » - التي انشأها الامبراطورية بعد المعاهدة . ثم اخذ يسود الاعتقاد بأنه يكفي الحصول على سر التقنيات الغربية للعودة بالبلاد الى الاستقلال .

ولكن علاقة وثيقة جداً لوحظت بين اوساط الاعمال الاجنبية وبعض كبار الموظفين .

ففي السنة ١٨٦٢ ، عين تسنغ - كوو - فان ، الذي لعب دوراً هاماً في الحرب ضد التايبينغ ، عدداً من المهندسين البريطانيين ، واسس اول دار صناعة بحرية على النهر الأزرق في نانكين . وبعد مرور ثلاث سنوات بدأت « شركة « كيانتشان » لأعمال الاحواض والهندسة » عملها في شنغاي . وفتح « تشانغ - تسي - تونغ » ، حاكم هونان ، مصنعاً للغزل ومصنع حياكة آلية في « او - تشانغ » ، ثم دار الصناعة البحرية في « هان - يانغ » . وكانت « لي - هونغ - تشانغ » مثال الموظف الفطن ، فأقام ، بوصفه ناظر التجارة ، علائق ودية بينه وبين رقابة الجمارك ، ولم يتم بتأسيس دور الصناعة البحرية ومصانع الغزل فحسب ، بل بتشجيع شركة « الملاحة البحرية لتجار الصين » وانشاء خط بين تيان - تسن وشنغاي بالاتفاق مع « شركة التلغراف الشمالية الكبرى » . فأدت مكاسب المقايضة الداخلية من ثم الى قيام مشاريع عمرية استألت الرأسماليين الأوروبيين والأميركيين استقالة شديدة .

خضع هذا النشاط للسيطرة الانكليزية . ففي هذا العهد استطاعت منشستر الادعاء بالباس « السايوين » واحتلت لندن المرتبة الاولى كمستودع للشاي الصيني واحتلت مركز الصدارة في تجارة الحراثر التي اهتم بها « ارتشبالد لتل » ، ممهد الطريق للملاحة البخارية في « يانغ - تسي » الأعلى . وانطلقت هونغ - كونغ انطلاقة قوية وسريعة عانت منها كانتون وماكاو . فأصبحت أكبر مستودع للبضائع ومركزاً مصرفياً اشع في كافة أنحاء الشرق الأقصى . وقد تولى مصرف « جاردن - ماتسون » ، ومصرف « هونغ كونغ وشنغاي » المرتبط بـ « مصرف شبه الجزيرة والشرق » ، البت بكافة المعاملات . وبفضل حسن ادارة حاكمها « هنري بوتنفر » ، مثلت الجزيرة ، التي لا تتجاوز مساحتها ٧٥ كيلومتراً مربعاً ، بأحواضها وأرصفتها وابنتها الكبرى ، أنتصاراً على الصخر الغرانيتي والحيتات والقراصنة . ثم انطلقت شانغاي بدورها . فانتشر نقدها ، « ال « تايل » ، في كافة أنحاء الصين . وتجاورت المؤسسات البريطانية والفرنسية والأميركية على طول رصيف جميل - بوند - قامت أمامه احواض السفن والمعامل . أما المدينة الصينية المحاذية فقد حافظت داخل أسوارها على حوانيتها المضاة بمصابيح ورقية والمعرف عنها بعناوين عودية ، كما حافظت على قذارتها وروائحها النتنة . وبفضل نشاط الملاحة دبت الحياة في مياه النهر الأزرق الوحلة بين شنغاي وهان - كيو ، المركز الصناعي الآخر الآخذ في النمو . واما تيان - تسن والمرافىء الشمالية فستتال في عهد لاحق قسطها من هذا النمو .

مائة وثلاثون مليوناً في السنة ١٨٤٢ ، وأكثر من مليار في السنة ١٨٨٠ : ان هذه الارقام خير دليل على نجاحات التجارة الخارجية . الا ان الميزان التجاري ما زال في عجز : فان شراء القطنيات والافيون والارز قد ضخم حجم الواردات تضخماً مفرطاً . اصف الى ذلك ان بكين قد عمدت الى صك كمية متزايدة من النقد الفضي للتمكن من القيام بتمهدياتها . وهبطت قيمة التايل الى نصف سعره بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٩٥ : فشجع ذلك عمليات التصدير ، ولكن البلاد استسلمت اكثر فأكثر الى الرأسمال الاجنبي عن طريق القروض وتوظيف الاموال .

ان الهجرة الى الصين ، المحدودة جداً بالنسبة لسكان هذه الاخيرة ، قد اصطدمت بعقبتين هامتين هما الفقر وكرهية الاجنبي . فان انشاء الخطوط الحديدية قد اعتبره العديد من "صينيين خرفاً للقدسيات : اذ ان التين الصيني لن يقتفر لاولئك الذين يغرزون المسامير اللولبية والمسامير المثناة في ظهره . وقد انتزع خط تبرعت به مؤسسة انكليزية في شنغاي لايصال هذا المرفأ « اوسونغ » . وتعرض أحد بائعي الاراضي للضرب بالحيزران حتى الموت . ولم يباشر ببناء خط بكين - تيان - تسن الا في السنة ١٨٨١ ، ولن يوصل بالشبكة المنشورة الا في السنة ١٩٠٧ .

نشبت نزاعات سنوية بين الحكومة الامبراطورية وبين هذه او تلك من الدول . وغالباً ما انخمت بكين أمام نفوذ التقليديين الذين ما كانوا ليرضوا بالتسليم بتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد . ولم يكن بالامكان تجنب الحرب مع فرنسا بصدد الهند الصينية . ولكن نتيجةها المؤسفة لم تهدء الافكار . وان في الصور الدعائية الجدرانية التي تمثل الخنزير بي - سو مصلوباً ، وتعديات الجماهير على الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية ، والمظاهرات العدائية بمناسبة تدشين الملاحة البخارية على اليانغ تسي ، لدليلاً على المشاعر السامة التي لم يحاول البلاط مقاومتها كما يتضح من تقارير السفارات .

حدثت الازمة الكبرى الثانية حين هزمت الصين في حربها الكورية ضد اليابان في السنة ١٨٩٤ - ٩٥ ، فانقذها الاوروبيون مرة أخرى منتهزين الفرصة للاستفادة اكثر فأكثر على حسابها . وترد الازمة الى ان معاهدة الصلح ، حتى بعد اعادة النظر فيها ، قد قضت بالتخلي عن فورموزا ، واعطاء اليابان مركزاً ممتازاً في الحقل التجاري ، ودفع تعويض حربي كبير جداً . ولما كانت بكين عاجزة عن تسديد المبلغ المطلوب منها ، لم تستطع حرمان مقرضها من الفوائد التي سلت بها المنتصر عليها . فأسرعت الدول الى اقتسام المغنم : هذا ما يعرف بتجزئة الصين . وعلى الرغم من اعتراضات اليابان ومن مناداة الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ، تخلت الصين عن بعض الاقاليم لقاء عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة ، فأقامت روسيا والمانيا وبريطانيا المعظمى في رأسى لياو - تونغ وشان - تونغ ، الاولى في بورت - ارثور والثانية في كياو - تشيو والثالثة في اواي - هاي - اواي ، بينما أقامت فرنسا في سكوانغ - تشيو قبالة جزيرة هاي - فان . ووافق هذا الاقتسام نفوذ اقتصادي سريع الخطى : فتح مناطق واسعة للتجارة ، وانشاء مؤسسات صناعية كثيرة (بعد ان حصلت اليابان على هذا الحق) ، وبناء خطوط حديدية جديدة ، واستثمار المناجم . وبرز توسع الرأسمال الغربي عملياً بتأسيس ثمانية مصارف هامة يدخل في عدادها المصرف الروسي الصيني الذي اسهم الفرنسيون في تمويله والذي اهتم بصورة خاصة بالموصلات بين سيبيريا وبورت - ارثور عبر منشوريا ، فتميزت المعاملات التجارية وانتاج المصانع بالنشاط . ولكن الصناعة اليدوية انتهت الى الاضمحلال وميزان المقايضات بقي في عجز .

سلت اوساط الاعمال وبعض المثقفين باضطراب الصين الى الاتفاق مع الاجانب ، فانتشرت

مؤلفات كانغ - يو - أواي التي أوصت بإصلاح التعليم ، وطالبت باقتفاء أثر المستبدن المستبدين ولا سيما بطرس الأكبر ، واستهدفت مداراة كهرياء الصينيين بإرشادهم الى الدور الذي باستطاعتهم ان يلعبوه في المستقبل على مسرح العالم . وندد تشانغ - تشي - لانغ بالتمسك المفرط بالشكليات وفادى بدراسة التقنيات .

وهكذا حدثت في السنة ١٨٩٨ المحاولة المعروفة بمحاولة المائة يوم ، اي فترة الاسباع الممدودة التي فرض خلالها كانغ - يو - أواي المتمتع بثقة الامبراطور الفتي كوانغ - سيو ، اصلاح الامتحانات ، وتبسيط الانظمة القضائية ، واحداث دوائر اقتصادية ، وتجديد الجيش ، ونشر الاخبار المتعلقة بالدول الاجنبية . ولكن الامبراطورة الام ، تسو - هي ، قاومت المحاولة بمساعدة التقليديين والعسكريين المنشوريين : فأرغمت الامبراطور على الاستقالة . أما الجماهير فلم تحرك ساكنا .

ما زالت هذه الجماهير متأثرة بالدعاوة لكراهية الاجانب . فقد حققت شيعة « قبضة اليد » للسلام والعدالة ، التي اعلنت عداها لغزو البرابرة البيض ، نفوذاً متزايداً في كافة الولايات الشمالية . وقد شجعا الانقلاب الذي قامت به تسو - هي ، فأتت أعمال عنف كثيرة ، مخربة الخطوط الحديدية ، ومحرقة الابنية ، ومعرضة المبشرين وللصينيين المعتنقين الدين المسيحي . وثار بكين ثلجية لندائها وحاصرت السفارات . فوجهت الدول ضد « الملاكين » جيشاً دولياً دخل العاصمة . ولم يتخلص البلاط من هذه الورطة الا بتسليمه ، بوساطة لي - هونغ - تشانغ ، بحل الجمعيات المعادية للأجانب ، ومنع استيراد الاسلحة والاعتدة ، ودفع تمويض حربي ثالث قيمته ١٣٧٥ مليوناً .

وجملة القول إن ازمة السنوات ١٨٩٤ - ١٩٠١ انتهت كما ابتدأت بمذلة ومهانة . فمن اجل عارية التاينينج لجأت السلالة الى اوربا واستسلمت لمشيئتها . اما الآن فعبثاً اعلنت عداها للأجانب . وقد فقدت نهائياً كل امل حين سلكت الصين القديمة طريق الاصلاحات السياسية ، تحت ضغط القوى الاقتصادية والاجتماعية المصرية .

على غرار الصين ، خرجت اليابان نهائياً من عزلتها . وهو وجه اليابان القديمة المحبوب وازمتها الاجنبي كذلك من أرغمها على فتح بابها . وانما توفرت هنا الشروط اللازمة لنهضة حقيقية .

تطيب الحياة فيها على ما يظهر . فان الارخبيل الذي ترتفع فيه الجبال ينقش البحر بازميل امواجه . ويبسط عليه تآلف النور والرطوبة وتنبوءات الارض زينة نباتات تلفت الانتباه باختلاف انواعها وازيائها . ففي الجنوب يحمل الصيف منه احدى ولايات آسيا الحارة ؛ وفي الشمال ينزل الشتاء عليه ثلوج آسيا الباردة ؛ ولكن الربيع والحريف يستمران استمراراً كافياً لان يبقى المرج مزهراً ، وال « هارا » ، التي يرتفع فوقها ال « فوجي » ، ساطعاً ، مثاراً لسحر

العيون السامي . كما أن جواً بخارياً في اغلب الاحيان يقرب الآفاق ويحيط بسر غامض ووهم تخيلي المساكن الخشبية الصغيرة الواهية والانيقة والنظيفة ، والمعابد والاديرة والقصور المحفوفة بالاشجار ، وأعمال السكان . ويطيب هؤلاء ، الذين لا يتصنعون قط ، البحث في كل شيء عن الناحية المضحكة وحتى الماجنة ؛ ويعبدون لذتهم في النكات الغليظة ، ويولمون بالصور الهزلية والالقاب ، ويعبرون الـ « تنسوكي » ، واعني به تلك النقوش الهزلية الصغيرة التي يزينون بها الازرار ، عن الذوق اللطيف الذي يتحلى به شعب مرح ومرهف الحس ، كما تعبر عنه الصور المطبوعة على الخشب .

أجل ان الارض تتزلزل (تهدم ١٠٠ الف بيت وفني ٣٠ الف شخص فيما يبدو في السنة ١٨٥٥) ، وتحتاج الـ « تسونامي » السواحل (تسبب احد هذه التيارات البحرية المتلاطمة الامواج في مقتل ٣٠ الف نسمة في السنة ١٨٨٥) ، ويقابل بركان فوجي الهادي بركات « أساما » الغضوب ، وتتلغ الحرائق الاكواخ الخشبية (أحرقت ٥٠ الف كوخ في شتاء السنة ١٨٨١ - ٨٢ وحده) . الا ان الاستعارات المقننة اقل من ان تعبر عن جميل الكائنات التي يسعدها السكنى في ارض « الشمس الشارقة » ، المباركة من الآلهة ، حيث يوجد كل شخص في مكانه ، ابتداء من الـ « ارشيتوتو » ، « الاله الحي بين البشر » ، حتى اوضع الفلاحين الذين الذين ينتجون الارز ، مروراً بالـ « ساي - اي - تاي شوغون » ، القائد المنتصر على البرابرة ، وصاحب الفضل الاول في استقلال البلاد ، المصون بمساعدة الـ « دايموس » العظام والاساموراي ، البواسل . وقد تملقت اليابان بعاداتها ومؤسستها التي اقتبست بعضها عن الصين من ذي قبل دون ان تخضع لها . ثم جاء الاوروبيون : فراقبتهم بفضول ، وربما فكرت باقامة العلائق معهم ولكنها اقصتهم حين خيل لها ان موجبات وجودها التقليدية مهددة بالخطر .

ان هذه العزلة المتوحشة حصرت « نيبون » في حضارة مر عليها الزمان لا يججب عيوبها ما تنطوي عليه من جمال . ففي الارخبيل الصغير الذي تحتل الغابات والصخور ثلاثة ارباعه ، خاض ٣٠ مليون نسمة معركة قاسية لتأمين قوتهم اليومي . اضاف الى ذلك ان الاجهض وقتل الاطفال كانا علاجين مشينين حرمتها الانظمة واستخدما استخداماً سهلاً : وقد اشير الى هذه المالتوسية التي افضى اليها تزايد عدد السكان باسم « مايبكي » الذي يعني فن تخفيف الخضر .

ارتكز كل شيء الى زراعة غاية في التدقيق وغير كافية معاً . ووفر البحر الاسماك والاصداف والملح وحتى الاشنة التي استخرج منها نوع من السباد . ولكن الارز كان موضوع اعتبار تفضيلي . ولم تشكل الصناعة سوى تكملة لعمل الحقول ؛ وليس هنالك بالاضافة الى ذلك سوى مشاغل نادرة تصنع فيها الاسلحة والنقود . وقضى التنظيم الاجتماعي الشديد بأن تتوفر لكل شخص كمية المواد الاستهلاكية اللازمة له ، ولكنه شل كل نشاط ابتكاري

وعاد للسلطة الشوغونية (باكوفو) امر توزيع الارز . وكان الفلاح موضوع تكريم ، ولكنه خضع لرقابة مزعجة . وبالإضافة إلى ان الاراضي كلها كانت ملك الاسياد ، وان طبقة الداييوس النبلاء استوفت اثار عينية ، وان طبقة من الملاكين غير المستثمرين قد تألفت واحتفظت بجزء من الحصيد فان هذا الحصيد دخل الانابر العامة ، بعد احتفاظ المنتج بالكمية الضرورية لتأمين معيشته . وقد حظر ترك الاراضي الصالحة للزراعة مواتا ، واستبدال الارز بزراعة اخرى ، ومغادرة ارض المزارعة دون اذن صريح بذلك . ولكن على الرغم من سهر يبدو على الاحتفاظ بالطابع الدائم لارض المزارعة هذه ، فقد رهن الداييوس اراضيهم المذخرة ، وزاد وضع المستثمر سوءاً .

سعت السلطة الشوغونية منذ زمن بعيد وراء ارغام الداييوس على الطاعة : وقد كوفىء الانماء منهم بـ « كوكو » الارز . وحافظت طبقة المحاربين على امتياز حمل السيوف المعقوفين ، ولكنها ألزمت بالخدمة وارغم اعضاؤها على الإقامة في بيوتهم بعد سنة ، وترك الرهائن فيها اثناء غيابهم . وبسبب بطالتها اصبحت فاسدة الاخلاق وسريعة الغضب . واذا توفى الـ « توكوغاوا » إلى اخضاع ارباب القصور في كوانتو - « بلاد الشرق » بالنسبة لـ « فوجي » - فان السلطة السيدية قد حافظت على كل امتيازاتها تقريباً إلى الغرب من هوندو وفي « كيو - سيو » .

تفسر ندرة النقد ورقابة سوق الارز القوة المتزايدة التي تتمتع بها التجار اصحاب الامتيازات والصيارفة او « شونين » (اشتقاقاً : رجال المدن) . وكان من جملة اسباب اقبال البلاد استدراك خروج النقد . ولم يكن مركز النشاط التجاري فاغازاكي ، حيث عقدت بعض الصفقات مع الخارج ، ويبدو نفسها على الرغم من قوة جمعية تجار الارز بالمحمل فيها ، الـ « فودازاشي » ، بل اوساكا التي لقبّت بـ « خزانة مؤونة الامبراطورية » بالنظر إلى اهمية انابرها العامة . وكان اعظم الشونين نفوذاً الـ « توياما » او وكلاء النقل البحري ، لان الارباح سلكت طريق البحر بسبب نقص حيوانات النقل وكثرة ضرائب المرور السيدية . وتعاطى بعض التجار تجارة النقد بأقراض الداييوس من ائمان الارز المتجمعة لديهم . واستمروا في احتكار الاراضي وابتزاز اموال المزارعين . وقد ورد في نص يرتقي إلى السنة ١٨١٦ ذكر « البورجوازيين الادنياء النسب » و « انسياء المزارعين » بين مشجري الالقب الشرقية . فانار فرار سكان الارياف إلى المدن المخاوف الكثيرة لانه زاد من صعوبات التموين .

روج ارتقاء اثرياء العامين وضائقة النبلاء الفقراء الروايات والقصص والرسوم الشعبية الطابع ، البذيئة حيناً ، والهجائية حيناً آخر . وبينما استمرت الـ « نو » او المأساة المقدسة في طريق الانحدار ، انقطع الادب والفن إلى وصف الاخلاق بعرض الرذائل او بالاستهزاء بالانحرافات . فأبدع « ايكو » في وصف حياة الجماهير . واذا ما نظر التقليديون إلى « هوكوزاي » الحازم نظرهم إلى لمصور القذر ، فلانه ينتمي إلى مدرسة « اوكيو - يي » المبتذلة ويرسم كل ما

يرى ، حتى أكثر الحرف ضعة .

الا ان ردة فعل استهدفت الكونفوشيوسية التي اعتبرها موتووري مصدراً للأخلاق المترامية . وعلى نقيض مدرسة الـ « كنفاكوسا » التي ما زالت تطري تقشف الفلسفة الصينية ، رجعت مدرسة الـ « فاغاكوسا » إلى الأصول القومية واعادت الاعتبار لتعاليم الـ « شنتو » ، وأن موتووري ، الذي اسهم أكثر من أي شخص آخر في تكوين الـ « فابون » أي اللغة اليابانية المكتوبة ، قد اثار بقوة ، في كتابه « كوجيككي » ، إلى حقوق السلالة المنزوية في كيوتو والمعتمنة بالصمت . ثم جاء « هيراتا » بعده يشيد بدوره بالعبادة الامبراطورية . وضمت المدرسة الجديدة عدداً من مؤرخي الحوليات ، معاصري مؤرخي أوروبا الرومنطيقية وعلمائها الواسعي الاطلاع ، الذين حاولوا ايقاظ الماضي المهيبد . وبينما نادى حزب الـ « ميتو » ، الذي كان يمت بصلة إلى الـ « توكوغاوا » ، باصلاحات من شأنها بعث اليابان القديمة وفاقاً لتعاليم الفيلسوف « هودزيتا » ، مكنت شنتوية مدرسة « كاغوشيا » عند كبار الداييوس في المناطق الجنوبية الغربية ، ولا سيما « ساتسونا » و « شيوشي » ، الحاقدين على بيدو ، الذين اقاموا علائق وثيقة بأوساط الاعمال في ناغازاكي . فنمت من ثم حركة عاطفة على إحياء الامبراطورية ، صادقة كانت أم غير صادقة في رغبتها في إنقاذ القيم الاساسية للحضارة القومية .

الا ان الظروف عاكست السلطة الشوغونية اثناء عهد « تمبو » الذي يوافق النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن حيث ان كلفة المعيشة ارتفعت ارتفاعاً حثيثاً مطرداً ، فقد قوبل تفغل البعض ، أكثر فاكثراً ، ببؤس البعض الآخر . فبين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٤٠ ، تجددت الهجاعات الكبرى التي حدثت في اواخر القرن السابق وتحملتها اضطرابات على جانب من الاهمية . فهاجم الـ « ساموراي » والشعب جماعة الـ « شونين » . وفي اوزاكا ، صب الثوار جام غضبهم على صيرفي موسر يدعى « ميتسوي » . فأصدرت بيدو اوامرها إلى الفلاحين بالعودة إلى اراضيهم ، ولكنها عبثاً حاولت قضاء وطرها من الاغنياء بواسطة نصوص تحسد من النفقات المفرطة ، وفرض ضريبة استثنائية ، والغاء ديونها الخاصة لإلغاء جزئياً ؛ وعبثاً ألغت امتيازات جمعيات التجار والتجارة الكبرى بغية تخفيض الاسعار عن طريق المنافسة : فقد ابطلت كافة التدابير حوالي السنة ١٨٥٠ امام مقاومة يبدو انها ضمت اوزاكا والداييوس في المناطق الجنوبية الغربية . وجملة القول ان السلطة الشوغونية قد فقدت المزيد من اعتبارها حين جاء التدخل الاجنبي يعقّد مهمتها ويخدم مصلحة خصومها .

كانت المفاوضات العادية بين اليابان والعالم الخارجي عادمة الاهمية . فقد خشيت بيدو خروج النقد وفرضت رسوماً جمركية مرتفعة . ولكن اعمال المهربين كانت آخذة في التوسع . الا ان نفوذ البيض قد افاد من الفضول الذي اثاره دخول ادواتهم العلمية وكتبهم . ففي

فتح اليابان للاجانب
وانهيار السلطة الشوغونية

السنة ١٨١٠ اجازت الحكومة فتح مكتب ترجمة خرّج الترجمة وقراء المؤلفات الاجنبية . ومن هولندا أتى بالاحصنة والبطاطا والتلقيح ايضا . وان اوغاتا الذي مارس هذا الاخير ، قد اسس مدرسة للطب في اوزاكا وصنع ملقط جنين بالاستناد الى رسم . وفي ناغازاكي ، فتحت مدرسة عنيت بتعليم اللغة الهولندية التجارية بصورة خاصة ، وفي ييدو فتحت مدرسة اخرى عنيت بالتفضيل بالدروس العلمية . وفي السنة ١٨٤٢ اتمت الروزنامة القمرية الشيبية بالروزنامة الصينية . وفي السنتين ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ظهر التصوير وفقاً لطريقة « داغير » وصناعة الثقب الفوسفوري والزجاج . والى العهد نفسه يعود اول مصنع للبندق والمدافع جهزه « ايفانوا » الذي ائزل الى البحر سفينة بخارية مزودة بآلة ابتاعها من الهولنديين ، واكب على تحسين جون ييدو . واعرب بعضهم عن اعجابهم بما اتاه الغرب . فتذوق الرسام « شيبا - كوكان » رسوم الهولنديين ونقوشهم النحاسية وقلدها . والف « متسوجولي - غنبو » كتابا شاد فيه بذكر الدول الأوروبية . وصودر كتاب « يازوو - دو كوغو » (مناجاة ريفي عجوز لنفسه) لمؤلفه « سوغينا - غانباكو » الذي كان اول من كتب بحثاً في علم التشريح باللغة اليابانية . وقد صادقه الرسام « واتانابه - كازان » الذي يروى انه مات مسمماً لانه اسس جمعية غايتها نشر الافكار الاجنبية . واحترقت المخطوطة الاصلية للصحيفة التي نشر فيها آراء معادية للنظام القائم . ولكن هل باستطاعة اليابان ان تقوم بما عجزت عنه الصين وتقاوم مناورة عسكرية بحرية ؟

منذ زمن بعيد اخذ الروس يقتربون شيئاً فشيئاً ، مترددين الى شواطئ سيبريا الغربية ومقيمين في الكوريل ، ثم في ساكالين ، في المياه الغنية بالاسماك . وجاءت سفن بريطانية تطلب تمكينها من التمون . ولكن المرافئ اليابانية كانت توفر التسهيلات المغرية للاميركيين بصورة خاصة ، على طريق الشاي البحرية . وبعد حرب الافيون اضطر الشوغون الى التخلي عن فكرة منع ال « ريو - كيو » . فسبقت واشنطن انكلترا وروسيا وارسلت الكومودور « بري » ، يتظاهر في خليج بيدر وارغمت الباكوفو المنحور على فتح « هاكودات » ، « وشيمودا » في السنة ١٨٥٤ . وعلى الرغم من وجود هذين الميناءين في اطراف البلاد ، فان الخطوة الاولى قد خطيت ، ووقعت اتفاقات مماثلة وتكميلية اتاحت للدول ، بعد فترة قصيرة ، الوصول الى ناغازاكي ويوكوهاما ونييغاتا ، وتعمد مقيمين في ابيدو واوزاكا ، وتعاطي التجارة مباشرة شريطة تسديد الرسوم المتوجبة . فاضطرت امبراطورية الشمس المشرقة بدورها الى توقيع معاهدات غير متساوية .

ادت هذه التنازلات الى تزايد كراهية الاجانب وثقلت وطأة الازمة الاقتصادية وعجلت ردة الفعل ضد السلطة الشوغونية التي دفعها « ابي تاوسوكي » الحاذق الى مصافحة يد القريبين دونها وجل . فاستقبل نبأ المعاهدات بصورة عامة كاهانة تلحق بالبلاد . وخاف المديد من الصناعيين اليدويين والتجار من المنافسة وخافوا على امتيازاتهم . فلم يُعتمد على الاجانب فحسب ، بل اقنع الدايموس الامبراطور بالامتناع عن ابرام الاتفاقات ؛ ومن جهة ثانية اخذ دايموس المناطق

الجنوبية الغربية على انفسهم إقفال مضيق « سيمونوساكي » . فكان الجواب قيام بعض السفن الحربية بقصف تحصينات المضيق بالقنابل ومراقبة الملاحة في مياه اوزاكا ، فأبرمت الاتفاقات وخفضت الرسوم الجمركية . فبدأ عجز اليابان وكأنه غير قابل للمعالجة .

ولكن اليابان تعرضت لهزة اقتصادية أيضاً . فمن جهة تسببت الواردات في خروج النقد وألحقت ضرراً كبيراً بالصناعة البلدية ؛ ومن جهة ثانية أدت الصادرات الى ارتفاع سعر الحرير والقطن والحنطة . وإذا علمت ان النسبة بين الذهب والفضة كانت نسبة ٨ الى ١ لا ١٥ الى ١ ، تبين لك ان المقايضة وفرت ارباحاً طائلة للأجانب الذين عمدوا الى اخراج الذهب . فعندئذ اندفاع حقيقي وراء ذهاب اليابان ، تأثرت به كافة طبقات المجتمع تأثراً متفاوتاً . واختل الأمن وسادت الفوضى ؛ فتمددت الافلاسات ، وجابت زمر الساموراي البلاد معتدية على الاشخاص والممتلكات . وتوفرت عناصر الحرب الأهلية بفعل استطاعة انصار الشوغون وخصومه الحصول على الأسلحة والاعتدة بواسطة الرأسماليين ، من أمثال ميتسوي ، الذين لم ينتصروا لاهذه الفئة ولا لتلك . ومن اغرب ما حدث ان الدايموس الراغبين في الاصلاح الامبراطوري قد اضطروا ، في سبيل تحقيق غايتهم ، الى سلوك السبيل الذي اخذوا على ال « توكوغاوا » سلوكه . والحقيقة هي ان كل شيء آل الى احداث تبديل عميق . وهكذا اندلعت ثورة السنة ١٨٦٨ التي خرج الامبراطور الشاب موتسو هيتو في اعقابها ، بعد زوال السلطة الشوغونية ، من مقره في كيوتو وجاء يتولى الحكم في ييدو التي اطلق عليها اسم طوكيو (عاصمة الشرق) .

استلم النظام الجديد السلطة في جو البلبلة هذا ، ولم تتوفر له لا القوة « الميجي » العسكرية ولا الموارد المالية الكافية بمقاومة تدخل مسلح ممكن ، فلم يكن باستطاعته قطع علائقه بالدول . ومنذ السنة ١٨٦٨ ، حرص الميكادو على تسكين روعها حيال نواياه : الميجي يعني عهد الانوار ، وبالتالي عهد التعاون مع الدول المتطورة .

من هو بالضبط ذاك الذي سار باليابان في طريق التجدد ياترى ؟ لقد تكلم بعضهم عن استبداد مستنير كان من شأنه ، باسم أجل تقليد وطني ، المحافظة على استقلال الامة بواسطة التفسيرات الضرورية ، وضمن مقام سام لامبراطورية الشمس المشرقة بين الامم . ولا يجوز الانخداع بأهمية « ميثاق البنود الخمسة » الذي وافق عليه موتسو هيتو بنية اقامة « التعاون بين الحكام والمحكومين » . فالواقع هو ان بعض الاحزاب حلت محل غيرها رغبة منها في السيطرة بمساعدة بعض الرأسماليين الحذاق وفي كنف الاسم الامبراطوري الساحر . وقد استخدمت في الحقيقة ثلاث قوى : زعماء الحركة المنتسبين الى النبلاء والراغبين في اقامة النظام الجديد ، ورجال المال الحريصين على تطوير الاقتصاد ، وروح التضحية عند الجماهير .

يبدو ان حزبي ساتسوما وشيوشيو قد تقامما السلطة . فقد وجهت الامبراطور فئة محدودة

من المستشارين الاقوياء : وقد ألغت ما يعرف بالـ «جنرو» او قيادة المشرفين على انتقاء الموظفين (وسوف يتكلم الامير كيون عن : « امتحان الدماغ ») . وكانت هذه الفئة تؤخذ البعثات الى اوروبا للاطلاع على كل شيء ، فتعود وفي جعبتها مخططات جريئة لاعادة التنظيم . وكانت بدورها تفصل في كافة الامور ، لأنها لا تضع اي حد لامتيازات الميكادو الذي لا يتميز بمصالح الدولة عن مصالحه . وقد برز من بين كبار هؤلاء الموظفين او كويو توشيميشي ، و « ايتاغاكي » و « ايتو هيروبومي » . وعلى الرغم من أن الجنرو انبثق من الاقطاعيين ، فانه الفئ اقطاعية اعتبرها بالية ووضعها في خدمة الامبراطور . ولن يكون هناك بعد اليوم سوى طبقة نبلاء الخدمة المدنية ، الشبيهة بالـ « تشين » ، التي ستمنح في المستقبل القاباً شرفية بحجة وفقاً للطريقة الأوروبية . واذا اصبح المزارعون اصحاب الاراضي التي يزرعونها ، فان مجموع اعبائهم الاميرية آل الى خزانة الدولة التي وضعت بعدها بالاضافة الى ذلك على ممتلكات الجمعيات البوذية . فأتاح هذا الاصلاح الاجتماعي الواسع رفع الادارات العامة الى مصاف الادارات العصرية : تبديل الاقطاعات بالولايات ، تجنيد جيش عن طريق التقييد السنوي للشبان البالغين سن ابتداء الخدمة العسكرية ، احداث تعليم قادر على تخريج مسؤولين اكفاء . وقد اقتبس ذلك عن فرنسا والمانيا بسبب شهرة الاولى بمركزيتها والثانية بصفات موظفيها ، كما أتى من انكلترا أو اميركا بمعظم الفنيين والقسم الاكبر من الادوات والتجهيزات . ولكن هذا الهيكل المتين كان تحت رحمة وضع مالي واقتصادي سيء .

ما كان المشرفون على الميحي ليجعلوا أهمية المسألة الزراعية ، ولم يفهم ان قمع ثورة الفلاحين ليس حلاً لها . فان الحرب الاهلية قد أضرت باعمال الزراعة ، والثورة خيبت آمال سكان الارياف الذين باتوا احراراً في ان يزرعوا كما يطيب لهم الزرع ، ويشترى ويبيعوا ، ويمتلكوا الاراضي التي كانوا يتصرفون فيها تصرف المستثمرين فقط ودون انقطاع ، والزموا بالخدمة العسكرية وبدفع ضريبة نقدية دونها الاتوات القديمة أحياناً ، بصرف النظر عن الاتوات التي ما زال يحق للملاكين غير المستثمرين فرضها على مزارعيهم . وفقدوا كذلك حقوق الانتفاع من الغابات التي ضمها الميكادو الى املاكه ، فكان هو وهؤلاء الملاكين غير المستثمرين اول المستفيدين من الاصلاح . أضف الى ذلك ان مجاعة السنة ١٨٧٠ - ٧١ الكبرى كانت اكبر دليل على سوء حال الزراعة . فان زارع الارز في قطعة الارض الصغرى التي يملكها ما كان يستطيع تحسين ادواته وزيادة انتاجه : وان النظام الجديد قد سهل احتكار الرأسماليين للارض باقراره حرية بيع العقارات .

كان عهد الانوار كذلك عهد امثال ميتسوي وميتسوبيشي والمؤسسات الخمس أو الست الكبرى ، التي ساندت الاصلاح الامبراطوري . فقد كانت طوكيو بحاجة اليها لاصلاح سوق النقد وتمويل المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة . وفي الوقت الذي عقدت فيه قرضاً من لندن ضمنته بمحصول الجوارك ، لجأت الى القروض الداخلية وسمحت لبعض المصارف باصدار

اوراق نقدية . فأتاح لها التضخم النقدي وفاء ديونها ، ولكن المصارف الوطنية المستوحاة من المثال الاميركي ، ما لبثت ان ضاقت مقاليدها ، بينما ازدهرت المصارف الخاصة ، كمصرف ميتسوي مثلاً ، ووظفت ارباحها في المناجم وشركات الملاحة والمعامل . وكانت النتيجة انخفاض قيمة النقد الفضي الجديد ، الدين ، واستمرار خروج الذهب .

والحال انفت الروح السامورائية من التخلي عن الاقتصاد للرأسماليين . فبذلت من ثم في البدء محاولة تستهدف تنمية رأسمالية رسمية حقيقية . فأخضع النشاط لرقابة شديدة تمارسها الادارة التي سعت جهدها لتأسيس شركات بمساعدة صغار النبلاء الذين كان يهيمها ان تنقذهم من الفقر : وقد يؤلفون طبقة تجارية جديدة ، هي طبقة الـ « شيزو » المتشعبة بالتعاليم الكونفوشيوسية . فظهرت المبادأة الرسمية في كافة الاتجاهات : استثمار مناجم الفحم الحجري ، ونتاج المعادن والمنسوجات (انشئ اول معمل لحياكة القطن الآلية على يد أحد الاسياد وبادوات انكليزية في السنة ١٨٦٧ ، ولكن الحكومة اسست في السنة ١٨٧٢ معملاً نموذجياً لنقل الخيوط الحربية تحت اشراف احد الفرنسيين) ، والزجاجيات ، والورق ، وصناعة الاسمنت ، ومد الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية الاولى . واتجه الانتباه بصورة خاصة لخطر التسلح البري والبحري . ولكن ما لبثت الحكومة ان عدلت عن هذه السياسة التي اثقلت كاهل الموازنة وأثارت استياء اوساط الاعمال . وهكذا فقد عجزت شركة وطنية للنقل البحري عن منافسة شركة آل ميتسوبيشي ، كما ان آل ميتسوي استردوا اكبر مصنع لانتاج الورق واداروه لحسابهم .

والحقيقة هي ان الميجي قد تعرض بين السنة ١٨٧٣ والسنة ١٨٧٧ لامتحان عسير . فعلى الرغم من الاضطرابات الريفية ، وبلية النقد المستمرة ، وعجز الميزان التجاري ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً بينما سهله التضخم وشجعت السلطة . ولكنه توسع عرضته للخطر أزمة السنة ١٨٧٣ العالمية . فان انخفاض حجم الصادرات والتباطؤ في بناء الخطوط الحديدية اثارا بعض القلق . وتعرضت حينذاك عدة مؤسسات حكومية للخطر . فحرض سايفو ، وزير الحرب المنتسب الى حزب ساتسوما ، والمولع بضرب السيف على الطريقة القديمة ، على القيام بعمل حربي إلهائي في الخارج ، ولكن الفلبة كانت لانصار السلام : فعدلت اليابان عن خوض غمار الحرب في كوريا . فانسحب سايفو من الوزارة مستاء واصبح زعيم معارضة قوامها الاشراف . وضمت هذه الاخيرة جمهوراً كبيراً من الساموراي الذين اغضبهم الاصلاح العسكري واضر بهم تحويل جمالاتهم الى صكوك دخل متدنية القيمة تدفعها الدولة . وفي سبيل تهدئة هذا الهيجان ، تأسس مجلس شيوخ وغرقت كوريا لفترة قصيرة . ولكن النزاع الحاسم انفجر في السنة ١٨٧٧ ، حين حرض سايفو ساتسوما على العصيان بعد اعتراضه على هلملة السياسة الخارجية وإلقاء السيوفين واعتماد الاوساط السياسية البذرة الاوروبية . فكان ذلك آخر ثورة اقطاعية اقليمية الطابع . وقد اغتيل او كويو على أيدي رجال حزبه بالذات ، ولكن الميجي خرج منتصراً ، وانتصر معه الاستبداد البيروقراطي . وارجأ الميكادو الى السنة ١٨٩٠ إعلان النظم الدستورية .

خرجت السلطة الامبراطورية راسية القواعد من هذه الازمة . الا انها اضطرت لأن تحسب حساباً متزايداً لاساط الاعمال . فتخلت للشاريع الخاصة عن عدد من المؤسسات التي كانت قد انشأتها . وسارت في تصميمها على تعديل موازنتها ، بينما لم تول قيمة الـ « ين » في انخفاض مستمر ، فاكثفت بتقديم المساعدات المالية لانشاء خطوط مواصلات جديدة وتشجيع تأسيس المصارف المطلوب منها مساندة الصناعة والتجارة . فاستمر التحسن الاقتصادي على الرغم من الصعوبات المالية . وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ اتضح وجه اليابان الجديد اتضاحاً بئناً .

في السنة ١٨٩٤ ، وبفعل نزاعها مع الصين ، دخلت اليابان المسرح
مظاهر اليابان المتناقضة
قيل توسعها
العالمي دخولاً يلفت الانظار والانتباه . فقد دقت ساعة توسعها
الاستعماري . وتميزت اذ ذاك بخليط غريب من الحضارة التقليدية
والطرائق المقتبسة عن الغرب .

واذا ظهر فيها حزبان معارضان منذ السنة ١٨٨٠ ، فان احدهما ، حزب الاحرار (جيو تو) قد استند الى آل ميتسوي ، والثاني ، الحزب التقدمي (كيشنتو) كان مرتبطاً بآل ميتسويشي . اما دستور السنة ١٨٨٩ ، وهو بمثابة تنازل للبورجوازية الكبرى الآخذة في التكوين ، لم يول حق الاقتراع سوى نصف مليون منتخب ، مختارين من بين المكلفين البارزين ، ولم يتمتع الامبراطور ، الذي يكون الوزراء مسؤولين امامه ، بحق تعيين اعضاء المجلس الاعلى فحسب ، بل بحق دعوة مجلس الممثلين ، المنتخبين عن طريق التصويت العام ، وحله ايضاً ؛ لا بل تمتع بحق تجاهل هذا المجلس بتوقيعه مراسيم لها قوة القانون وبحق الامتناع عن توقيع القوانين المقررة بالتصويت . وبلاضافة الى اشرافه الكلي على الجيش والاسطول والعلاقات الخارجية ، حق له ، بعد الاستئناس برأي الجنرو ، اتخاذ مقررات هامة جداً .

انه كما في السابق فوق الخصومات وفوق البشر ، اذا جاز التعبير . والدستور ينص صراحة على انه « نازل من السماء ، مكرم ومصون » ؛ ويضيف الى ذلك انه « لن يكون موضوع اي تاويل او نقاش » . كان في البدء يظهر علانية مرتدياً الثوب الصيني ؛ ولكنه حين اعتمد الزي الاوروبي لم يعترض عليه احد وبات السير على خطاه مظهرأ من مظاهر الادب . وقضى العرف بالسجود في حضرته (والزم الاجانب أنفسهم بالركوع في الشارع عند مروره) ، ولكنه قد يسمح لاحد المستشارين أو احد الوزراء بالظهور امامه بالـ « كيمونو » والسيجار في الفم وحتى القبعة فوق الرأس . وتقعد محبة الوطن كل معانيها اذا لم تقترن بعبادة الاقنوم المقدس . وفرض الخط الشريف الصادر في السنة ١٨٩٠ (شوكونغو) ، الذي يحدد القواعد الاخلاقية للتعليم الابتدائي ، ان يكتسب الولد « الاعتزاز القومي والاخلاص للسلالة والتضحية للوطن » . ويحذر الانتباه هنا الى ترابط هذه الصفات . واشتهر الياباني ، الذي أنف من التجريد ، بشغفه بالصورة ؛ كما ان الجماهير التي يسرها وجود الكائن المبارك من الله فيما بينها تشعر بقشعريرة صرعية . الا

ان الدولة توقفت في عهد الميجي عن رعاية الشنتوية ، والبوذية من قبلها ، وتساهلت تساهلاً فعلياً حيال المسيحية . ويرد ذلك الى الرغبة في الحصول من الاجانب على ابطال « المعاهدات غير المتساوية » : وبما ان الشعب ، ولا سيما الحكام ، لم يقفوا سوى موقف اللامبالاة من رسالة المبشرين (لم يكن هناك سوى ١٠٠٠٠٠ مسيحي في السنة ١٨٩٠) ، لم يكن للبادرة، الانتهازية، أية أهمية جديدة من الناحية الاجتماعية .

ان استمداد الدوائر والعسكريين لم يتداول لعمري في موازنة الواردات والنفقات العامة الا مع المصالح الكبرى . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاحزاب تنازعت المراكز وغالباً ما ذكرت اعمال العنف الحكام بأن الشرف التيبوني لا يسلم ببعض التفاوضات المذلة مع الاجنبي . وقد حدث احياناً ان تعرض بعض كبار الزائرين للاغتيال . وفي ذلك الدليل على ان ذهنية الساموراي الفظة ما زالت تختبئ وراء ظواهر المؤسسات العصرية .

شكلت الكتابة العقبة الكأداء في سبيل نشر التعليم نشراً واسعاً بين الجماهير . فكل ما امكن تحقيقه في المدرسة الابتدائية هو معرفة واستنساخ ٥٠٠٠ حرف ضروري . ولذلك وجب صرف وقت طويل ومال وفير للارتقاء حتى مستوى المدارس التقنية والعليا التي تخرج كبار الموظفين وقادة الفكر .

ولذلك فان اقلية ضئيلة عرفت ما تدن به اليابان للغربيين . فكانت براعة التقليد اكثر موافقة في هذه الحالة ، لا سيما وان مخالطة الانكلوساكسون اسفرت عن نحو الجدارة العملية . فاليهم طلبت طوكيو الفنيين والاطباء والاساتذة ، واليهم فوضت امر تثقيف طلابها ، فانتشرت قوانينهم التي استطاعت المرأة اليابانية بفضلها ، على غرار الرجل ، التقدم بدعوى الطلاق . واعترف بالحريات الفردية ، ونشأت صحافة انطلقت انطلاقاً سريعة . لا بل تناول البحث موضوع جعل اللغة الانكليزية لغة رسمية . وعلى اي حال ، فقد ترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والاقتصاديين والعلماء البريطانيين ترجمة زادت في صعوبتها لغة ظريفة قفقت الى الوجود . وقد سبق لـ « هيراتا » تلميذ مونتوري ، ان اشاد بالاصلاح الامبراطوري في مؤلفاته التاريخية ؛ وجاء بعده « فوكوزاوا » ، الذي درس الفلسفة في انكلترا ونشر « شؤون غربية » ، فلم التفعمية في جامعة « كيو » ، وفي الصحيفة « جيجي » . وتبارى مع ناكامورا في ترجمة مؤلفات كثيرة . والى هذا التاريخ يعود استئثار « بنتهام » و « جون ستوارت مل » و « هربرت سبنسر » باستحسان المثقفين اليابانيين التفضيلي ، واقدام « تسوبوشي شوي » على ترجمة شكسبير .

وفتنت فرنسا اليابانيين بفكرها وقوانينها . فاستهوت مادية فلاسفة دائرة معارفها « ناكايه » الذي احب كذلك « روسو » و « كونت » . وسوف تعرف تمثيلاته نجاحاً عظيماً دائماً . ولكن الالمان احرزوا تقدماً متزايداً بعد السنة ١٨٨٠ . فقد كان لانتصاراتهم العسكرية

وانضباطهم المدني وتحقيقاتهم التقنية اثر كبير في النفوس . فأرسلوا الى اليابان بدورهم الحقوقيين والاطباء والجراحين . ووفرت مؤلفات « ليست » التي ترجمت في السنة ١٨٨٥ - حين عاد « ايتو » من رحلة الى برلين وقيينا بمشروع دستور مقتبس عن الدستور الروسي - الحجج والادلة لانصار اقتصاد قومي خاضع لنظام الحماية . واعجب « كاتو هيرووكي » بـ « هينغل » ومدرسته ولن يلبث « نيتشه » ان يستموي اليابانيين .

الا ان هذا الاقتباس قد اضر في نواح عديدة بأصلية عبقرية الشعب . ففي القصة برزت النزعات نفسها التي برزت في اوروبا يرافقها استعداد طبيعي للرومنطيقية في مؤلفات « كودا روهان » ، ثم للواقعية في مؤلفات « شيازكي توسون » و « تاهاما كاتاي » ، بينما انساق « موري اوغاي » ، مترجم « إسن » و « سترندبرغ » ، وراء التقليد التصوفي . وبحث الشعر عن اشكال جديدة (شنتاي - شي) في مؤلفات « يامادا » و « شيازكي » ، بينما صمم « اوشياي » و « شيكي مازواكا » على بحث الـ « تانكا » والـ « هاي - كاي » التقليديين . اما المسرح الذي حاول « شويو تسويوشي » اصلاحه ، فقد عرض بعض مشاهد الامانة الزوجية والبسالة الابية وعرف المشاهدين الاجانب برقصات الـ « غيشا » ، ولكن ما انطوى عليه من عقم سوف يحمل الميكادو في السنة ١٩٠٧ على ايفاد مؤلفين مشهورين لدراسة الفن المسرحي في باريس .

درس الرسامون قواعد رسم الاشياء كما تراها العين ، وسموا وراء تمثيل نواتج الظل والنور ، واستوحوا الطبيعة وحدها لان تمثيل العربي كان محرماً : ولكن لم يحظ منهم بالاعجاب والرضى في المعارض الدولية لا مصورو المناظر الطبيعية المشهورون من امثال « هيروشيجي » و « هودا » و « كاواكوبو » ، ولا مصورو الصور الهزلية « كيوزاي » من مدرسة « هوكوزاي » . واذا ما زال هناك بعض منتجي المصنوعات التزيينية الماهرة وبعض المصورين المائنين الموهوبين ، على طريقة « كاوانابي » و « شيبا يوما » ، وبعض النقاشين الاقوياء - يامادي كيزاي بصورة خاصة - فان صناعة الاسلحة قد فقدت علة وجودها ، وصناعة الخزفيات قد عانت من سيطرة ذوق الشارين الاجانب ، والبناء لم يعد يجد في الدين مصدر وحي ، فقلد الانماط الغربية المألوفة تقليداً أعمى في الحقل المدني . اما الـ « سامي - سن » (اعواد ذات ثلاثة اوتار) التي تصطحب الاغاني والرقصات ، فقد وجد المجتمع الرفيع ان عهدا قد ولى .

اقض مضجع البعض فساد الاخلاق في اوساط الطبقات الحاكمة نفسها ، ولكن احسب ان فضائل الحدود في الارياض ومحافظة هذه الارياض على سحرها لم يحملا الميضي على تحسين مصير سكان الارياض تحسيناً ملموساً . فالملاك الصغير ، المرغم على دفع ضريبة عقارية ثقيلة والمحروم حق الانتفاع من الاملاك المشاعية ، عاش حياة صعبة . وسواء كان جني الارز سيئاً أو الخفض سعر الحبوب ، اضطر الى رهن ارضه او الى بيعها . ولكن ٧٤٪ من املاك الفلاحين و ٧١٪ من الاراضي المستثمرة لم تتجاوز الهكتار مساحة . فاشترى الافراد الاترياء بأسعار بخسة . وبسبب ازدياد عدد السكان ، ارتفعت قيمة استئجار الاراضي الى ٥٠ وحتى ٦٠٪ من قيمة

المحاصيل ، فازدادت حالة المزارعين سوءاً على سوء . وتفاضت اليد العاملة المياومة ، التي استخدمها الملاك غير المستثمر اجوراً ضئيلة جداً (٠.٠٨ ين - ٠.٤٠ فرنك - حوالي السنة ١٩٠٠) . ثم تحولت الزراعة نحو النباتات الصناعية التي تفضل الارز ريعاً ، لا سيما وان الارز نادراً ما يسد حاجة الاستهلاك . يضاف الى ذلك ان الفلاحين غالباً ما باعوه واكتفوا بالخصار والاسماك . ولكن مهما كان من نشاطهم ومهارتهم في العمل ، فانهم ما كانوا ليعرفوا البجبوسة واليسار باستثمارهم اراضي تقدر بـ ١٢ آراً لكل عائلة تقريباً ، بعد ان حرموا دخل نول الحياكة الصغير ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الدخل الذي وفرته لهم تربية دود القز . فلا عجب والحالة هذه اذا ما هاجروا الارياف نحو المدن مهاجرة مطردة السرعة .

كانت اليابان من ثم مسرح ثورة في توزيع السكان . فلم تضم المدن سوى ٢٥ ٪ من السكان في السنة ١٨٩٠ : ولكنها ضمت اكثر من ثلثهم بعد مرور عشر سنوات . ولما كان مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع من ٣٠ الى قرابة ٤٥ مليوناً ، فان اكتظاظ الارياف بالسكان لم يتأثر تأثراً ملموساً بنمو المدن . وقد نجحت الحكومة في توطيد ٨٠٠.٠٠٠ نسمة - من فقراء الساموراي والجنود الفلاحين - في جزيرة هوكايدو الباردة المناخ التي تصلح لتربية المواشي اكثر من زراعة الارز . وشجعت السفر الى كوريا وهاواي وكاليفورنيا . ولكن اليابانيين انقوا من الهجرة ، وآثروا تعاطي نشاطات المدن .

على الرغم من ان مقر الميكادو القديم ، كيوتو ، قد بدا لـ « بوسكيه » وكأنه « فرساي خشي » متناسق ، كثيب ، محتضر ، خال من الحياة ... ، فانه قد نما ، وغت بجانبه ضاحية « افاتا » التي قامت فيها مصانع حياكة ومعامل خزف وميناء ذلك . وعلى المتوسط التيبوني ، سارت اوزاكا قدماً في تقدمها التجاري وألفت مع « كوبيه » مركزاً كبيراً للنشاطات النسيجية والبحرية : فقبالة ابراج القلعة الشوغونية التي تشرف على شوارعها المرصوفة بالقرايميد واقينتها التي بنيت فوقها آلاف الجسور الصغيرة المحدثه ، قامت الابنية العامة التي اعتمد فيها الميجي الطراز الاوروبي . وكانت يوكوهاما بالامس مجرد قرية لصيادي الاسماك ، فاصبحت مرفأً للعاصمة بفضل مياهها العميقة ، وجهزت بمصنع بحري ، واتاحت لها تجهيزاتها البحرية الأخرى استقبال اكبر السفن محمولاً . اما طوكيو التي تأسست في احد المستنقعات في القرن الثامن عشر فقد تقاربت احيائها القديمة كما في المدن الصينية : الـ « سيرو » أو القصر الامبراطوري المحاط بالاسوار والحدائق ، والـ « سوتو - سيرو » مع الـ « يشكي » أو قصور اهل المقامات وكبار الموظفين ، والـ « مدزي » الذي كان - كما شاهد « هوبنر » في السنة ١٨٧٧ - « اختلاطاً من الشوارع المطروقة والمقفرة ، والحدائق ، والبساتين ، والمرزات والرياح والمعابد » ، والـ « هونجي » حيث تجاور المستودعات العامة اماكن اللهو والنزهات . فقامت حول هذه الاحياء المساكن القرميدية والخشبية والمشاغل والمصانع . وقد عاش مليون نسمة في مساحة شاسعة (بين ٨ و ١٠ كيلومترات من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) . وطافت

المدينة ابدأ الزوارق الشراعية في البحر والـ « جنريكشا » ذات العجلتين في الشوارع ، ولكن خطوط الحافلة الكهربائية انشئت واستخدم الهاتف وانتشرت الاضاءة الكهربائية . واختلطت الازياء النيبونية والاوروبية . وما زال افراد المجتمع الرفيع يرتدون في منازلهم الـ « جويان » أي القميص القومية ، والـ « كيمونو » أي الثوب الضافي الاهداب ، وفي الاحتفالات الـ « كاوري » أي اللباس المنشي الذي لم يخل من التصنع . واذا ما ظهوروا بالمروحة والمظلة ، والـ « جيتا » (قباقيب خشبية) في أرجلهم ، فانهم قد ارتدوا كذلك السترة القصيرة والسترة الطويلة المشقوقة الذيل المقتبستين عن البورجوازية الغربية . وما زالوا مولعين بالـ « سوتو » والـ « جودو » ؛ ولكنهم اخذوا يهتمون بالـ « كريكيت » وكرة السلة ايضاً .

الى هذه المدن وضواحيها جاء سكان الارياف المعوزون يبحثون عن عمل يؤمنون به معيشتهم . فنشأت من ثم طبقة عاملة اضطرت الى الاكتفاء بأجور كادت لا تتجاوز أجور العمال الزراعيين الميامين . ففي طوكيو تكدست في غرف لا تزيد مساحتها عن مترين مربعين عائلات مؤلفة من أربعة أو خمسة اشخاص تنفد بحساء وخضار مطهية تفيض عن حاجة الثكنات والمستشفيات لا تدفع ثمناً لها اكثر من فرنك واحد في اليوم . وقد رافق ارتفاع الاجور حركة الاسعار حتى السنة ١٨٨٧ ، ثم توقف بعد هذا التاريخ ، فاضطرت النساء والاولاد الى العمل ايضاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان صناعيين كثيرين آثروا تقنية واسكان فلاحات شابات يخضعونهن لاقامة منفردة حقيقية . ولكن القاعدة التي اعتمدت هي عقد العمل لمدة ثلاث سنوات الذي لم يترك للعامل اية امكانية للاعتراض على شروط المعيشة المفروضة عليه . وصدرت في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ قوانين تمنع منعاً باتاً كل محاولة « تحالف » وتعاقبا عقاباً صارماً .

في هذه الاثناء كانت بورجوازية الاعمال آخذة بالنمو . فبعد ان ورثت عن الدولة مشاريع عديدة ، حصلت على حق تأسيس شركات مساهمة . وهكذا توطدت سيطرة بعض المؤسسات الكبرى ، الـ « ريباتسو » ، التي استفادت من انخفاض الـ « ين » لتحقيق احتكار واسع في نطاقي الصناعة والتجارة بفضل وسائلها المصرفية . فكانت اليابان أسرع من روسيا نفسها في قطع أنواط التقدم ، وهي سوف تعرف رأسمالية الاحتكار في الوقت نفسه الذي سيعرفها فيه الغرب . وسوف توطد اوليفارشية الاثرياء هذه مراكزها بفضل الانطلاقة الشاملة التي ستعرفها اليابان بين السنة ١٨٩٥ والسنة ١٩١٤ .

ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان الارخبيل الياباني ، شأن الارخبيل البريطاني ، كان مضطراً الى التصدير لتأمين حاجاته . وقد عاني من تقيده بمغامدات لا تتيح له مقاومة المنافسة الاجنبية مقاومة فعالة . يضاف الى ذلك ان صناعته الحديثة العهد جداً كانت مفتقرة الى الفنيين وبعض الخامات الهامة وحتى رؤوس الاموال . فحدث احياناً ان بيع الارز للتمكين من شراء القطن والحديد والآلات . وقد زاد من ضرورة معادلة الميزان التجاري ان البلاد مدينة للخارج . فهو مستوى الحياة المتدني وكد الفقراء ما أتاحا لتحقيق النهضة .

أظهرت الموازنة العبء الثقيل الذي تمثله الضريبة العقارية في الواردات ، ودفع المتأخرات وتمهد القوى المسلحة في النفقات . ولكن التوسع بدا للعديد من اليابانيين وكأنه حاجة ملحة . وإذا لم تستهو المغامرة الرأساليين ، فربما استهوت العسكريين الغير على امتيازاتهم . فتقرر في السنة ١٨٩٤ اختيار وزيرى الحرب والبحرية بعد ذاك التاريخ من بين القادة وامراء البحر . وقد نشبت الحرب في السنة نفسها مع الصين . فهل يجب اعتبار هذه الحرب بمثابة عملية إلهاء ؟ فمنذ انتخابات السنة ١٨٩٠ العامة تكون « حزب الشعب » ، المناوىء لرجال الجنود ، الذي انتقد الادارة الحكومية ، ثم توسع نفوذه مرة أخرى في شهر آذار من السنة ١٨٩٤ : حين اقتضت معارضة البورجوازيين لحزبي ساتسوما وشيوشيو . وسوف يحقق الحساس الوطنى مرة اخرى الوحدة حول العرش الامبراطورى ، وهي الحرب الطافرة التي ستدفع الثمن .

منذ السنة ١٨٨٩ اصدر كبلنغ حكمه الصائب في اليابانيين : « انهم رجال خبيثاء قصار القامة يمزفون اكثر مما يتصور » .

احرزت اليابان انتصاراتها الاولى في شهر حزيران من السنة ١٨٩٤ . وفي شهر تموز وقعت مع انكلترا اتفاقية تجارية أبطلت احدى المعاهدات غير المتساوية ، ثم رشحت لان تحتل مركزها بين الدول المصرية العظمى بفضل نظامها العسكري ونزعتها التوسعية .

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

قبل أن يخيم الظل على ملامح القرن التاسع عشر لاحت في الافق ملامح عصر جديد خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

الا أن ذلك لا يميز الاعتقاد بأن كل شيء قد نبط بالكارثة التي أحس بها وخشيها وأعدّها رجال هذا الجيل .

ما زال الاقتصاد الرأسمالي يمتلك قوة حقيقية ، ولكن نزعتة الاحتكارية تعاظمت بعد أن يانت المنافسة أشد عنفا يوما بعد يوم ، فكانت تلك الايام أيام الدول الاستعمارية الكبرى . واذا ما وطدت البورجوازية مراكزها ، فان الطبقات الكادحة قد أحرزت بعض التقدم ورُشّحت الاشتراكية لخلافة فرضية ممكنة .

أشارت بعض الدلائل منذئذ الى ان أوروبا خلفت وراءها ساعات اولوية لا جدال فيها . اجل لقد جاء الاسهام السامي في الفتوحات التقنية والعلمية المستمرة والتجدد المدهش في الخلق الفكري والفني برهانا على ديمومة حيوية فكر قوي وحازم ؛ ولكن الارتقابات التي حامت حول قيمة النجاحات المحققة عبرت عن قلق يمت بصلة الى تأزم الخلافات الاجتماعية والدولية . وكي لا يحدث ما لا يرقى فتحه ، كان من الواجب ان يدوم السلم - مهما بلغ من وقتيته ، من حيث هو سلم مسلح .

وثبة جديدة الى الأمام

لم يستمر ارتفاع عدد سكان العالم استمراراً فحسب ، بل ازداد ازدياداً
تكاثر البشر مطرد السرعة . فارتفعت نسبة الزيادة السنوية بين السنة ١٩٠٠ والسنة
١٩١٤ ارتفاعاً أسرع منه بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . الا ان هذه الزيادة ابطأت في اميركا
الشمالية واورقانيا ، بينما هي اتصفت بمزيد من الزفوف في آسيا واميركا اللاتينية واوروبا . وانها
يلفت الانتباه من جهة ان كندا كانت اكثر استفادة ، من حيث ان تقدم الولايات المتحدة كان
محدوداً ، ومن جهة ثانية ان نسبة النمو الاوروبي ، اذا ما استثنينا روسيا الاوروبية ، ربما
كانت اقل حجماً كذلك (اذ ان نصيب روسيا وحدها كان ٣٤ مليوناً مقابل ٨٧) .

اعار المعاصرون انخفاض نسبة الولادات اهمية كبرى . وقد برز هذا الانخفاض في كافة
البلدان الاوروبية (باستثناء البلدان البلقانية) بما فيها روسيا ؛ وكان ملموساً جداً في البلدان
الانكلوساكسونية في ما وراء البحار ، ولكنه لم يثر اهتمام مناطق الرياح الموسمية في آسيا ،
ولا الهندو الاميركيين ، ولا الافريقيين في الارجح . و اشار العديد من المراقبين بقلق - قرناً
بعد مالتوس - الى المخطاط العرق الابيض ، وتحوفوا من « الغزو الاصفر » ، وتكلم « لروا-بوليو »
عن « مسألة شيخوخة الامم الرهيبه » وندد « بالوثنية الجديدة » اي « الابتعاد عن المعتقدات
والتقاليد القديمة » . فيتضح من ثم كيف ان لهجة الاقتصاديين الاحرار تبدلت تبداً بينياً :
اخذوا يقيمون صلة بين نقصان المواليد وارتفاع مستوى المعيشة ، مستندين الى ان سوء التغذية
وفقدان التدابير الصحية ربما يفسران قوة الوثبة الحيوية في الصين والهند مثلاً .

وعلى أي حال فان زيادة الولادات على الوفيات ربما كانت اقل حجماً لو لم ترتفع نسبة الوفيات
ايضاً : وهي ظاهرة تثبت توفر ظروف صحية وغذائية فضلى تجلت بصورة خاصة في اكثر

المناطق الأوروبية تطوراً وفي بلدان ما وراء البحار حيث حالت بعض الشيء دون خطر تزايد عدد السكان .

تبرز خريطة تصنيف الامراض في الكرة الارضية ، بوضوح مؤثر ، التضاد بين الرقعة الاطلسية الشمالية التي تكثرت فيها الامراض الاجتماعية ، وبين الاقسام المتبقية من العالم التي ما زالت تعنيها إما الامراض الموضعية وامراض المناطق الحارة وإما الاوبئة الآسيوية الكبرى كالطاعون والكوليرا والجذام .

بدأت من ثم معرفة حياة الافراد الطبيعية والعقلية وكان من شأنها تعزيز الآمال التفاؤلية المتعلقة على الثقة العمياء بإمكانات العلم . والكل يعلم ان اواخر القرن سجلت عدداً من اعظم الاكتشافات اهمية في حقلي الطب والجراحة . فقد شرع « لويس لافيك » آنذاك ابجائه حول الفيزيولوجية العامة للجهاز العصبي واجلى مدلول الـ *chronaxie* أو الوقت الفيزيولوجي الخاص بقبالية تحريك الاعصاب ، واتسع حقل السيكولوجية الاختبارية بفضل ابجائه « ريبو » و « ووندت » و « بافلوف » و « ماخ » ، وبدأ « سغوموند فرويد » يستكشف العقل الباطن ، ويكشف الاثر الجنسي في الامراض العصبية ، ويقترح الاستقصاء السيكولوجي كأسلوب للعلاج . وتنظمت في الوقت نفسه دراسة اضطرابات النشاط التصوري الخاص (التأثير المفرط ، الصرع) والامراض التي تؤثر على الحركة (*apraxie*) والحواس والكلام (*aphasie*) . وبينما حقق علم الاجنة نجاحات جديدة بفضل جهاز « شاري » ، جدد « توماس - هونت مورغان » علم الوراثة انطلاقاً من عناصر النواة الملونة في الخلية ، واكتشف « فونك » الفيتامينات و « لند ستاينر » الفئات الدموية ، واستعاض « تيرون » و « تيرون » عن المناعة بطريقة استئصال الجراثيم بدون استعمال مواد مضادة وذلك بالعودة الى تعاليم « باستور » . ومن الصين جاءت طريقه المعالجة بوخز الابر .

يلفت الانتباه ان الامم البيضاء في القارات الجديدة خشيت منذ
تزوجات السكان الكبرى
وتوسع المدينة
ذاك التاريخ هجرة الملونين اليها ولا سيما الآسيويين منهم .
وبالمقابلة لم يحدث ما يحذر من الخلط المتسبب عن المهاجرين اليها
من اوروبا . واذا استطاعت المانيا الحؤول دون زواج مواطنيها ، فان بريطانيا العظمى
وايرلندا ما زالتا ترسلان الى البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار اعداداً كبرى من
المهاجرين الذين استوعبت كندا نصفهم .

الا ان اعظم موجة زوجية سجلها التاريخ قد خففت في الحقيقة عبء اوروبا المتميزة بنسبة عالية جداً من الولادات في الارياض . فقد توجه فقراء شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية باعداد وفيرة الى البرازيل والارجنتين اللتين استقبلتا منهم اكثر من ٣ ملايين بين

السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٣ (وقد نزل نصف مهاجري السنة ١٩١٠ الى البر في (ريو دي لابلاتا) وبلغ مجموع الايطاليين والسلافيين واليهود الذين تزحوا الى الولايات المتحدة ١٤ ٦٠٠ ٠٠٠ من اصل ٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠ مهاجر ؛ واستقر بين ٦ و ٧ ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا .

اما تيارات الهجرة من بلدان تتوفر فيها اليد العاملة الى بلدان مجاورة تقتقر اليها فكانت اقل اتساعاً واكثر ارتباطاً بفصول العمل . وهكذا فان فرنسا باثت بلاد اغتراب لكافة شعوب البلدان المحيطة بها ، وقد تجاوز عدد الاجانب فيها المليون نسمة ؛ ولكن المانيا نفسها استقبلت عدداً من البولونيين ، كما قصد بعض المكسيكيين الولايات المتحدة .

أعيق الصغار في توسعهم في المناطق المعتدلة المناخ التي يسيطر عليها البيض فتدفقوا على جزر وشواطئ الشرق الأقصى : استمر الصينيون بأعداد كبرى منشوريا حيث زح كذلك كثير من اليابانيين الذين لم يجدوا لهم مكاناً في هوكايدو او هاواي ؛ وتقاطروا دون انقطاع الى الهند الصينية والانسولند . أما الهند فقد هاجر عدد ضئيل من سكانها الى المستعمرات الاوروبية في ما بين خطي الجدي والسرطان .

ان الذين لم تؤمن الاراضي الزراعية القديمة معيشتهم تابروا على احياء الاراضي الجديدة واستثمار المنجم ، ولكنهم خضعوا بالتفضيل لجاذب المهنة المدنية . فتمت المدن نمواً مطرد السرعة في كافة البلدان ؛ وقد شمل هذا النمو كافة المناطق . فبين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٠ ، قفز عدد المدن التي تجاوز سكانها ١٠٠ الف نسمة من ١١٨ الى ١٨٣ في أوروبا (كان ٤٢ في السنة ١٨٥٠) ومن ٣٢ الى ٤٨ في الولايات المتحدة . ودخلت في عداد المدن الهامة التي قاربت المليون نسمة ، اذا لم تبلغ هذا العدد بعد ، ريو دي جانيرو وبوينوس ايرس ، كلكتو و بمباي ، طوكيو واوزاكا وشنغاي وهان - كيو في الاربع . وان انقلاب ميزان القوى على حساب سكان الاريا ف ، الذي حصل في بريطانيا العظمى ، قد حدث آنذاك في المانيا والولايات المتحدة ، ولن يلبث أن يحدث في فرنسا واليابان .

فتوطد من ثم ، في اواخر القرن ، نفوذ القطاع المدني بقوة لم يعرفها في اي يوم مضى ، وكان تعبيراً عن نداء النشاطات الصناعية والتجارية الذي لا يقاوم .

تجدد النهضة الاقتصادية العالمية ، التي اخذت في الانخفاض منذ السنة ١٨٧٣ ثم اخذت في الارتفاع . ويبدو ان ظاهرة الارتفاع لم تكن قصيرة الاجل ، اذ ان حركة تجدد النهضة قد استمرت استمراراً متواصلاً . فاذا حددت نسبة الاسعار العامة بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٠ في السنة ١٨٨٧ ، و ٨٣ في السنة ١٨٩٥ ادنى نقاط الخط البياني - ثم ارتفعت الى ٩٥ في السنة ١٩٠٠ ، وبلغت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . اجل لسنا نلاحظ النسبتين ١٤٠ (١٨٧٠) و ١٤٥ (١٨٧٣) حتى ولا النسبة ١٢٠ (١٨٨٠) ،

ولكن هذه العودة الى الارتفاع تبدو من الاهمية بمكان اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التزايد العظيم في حجم السلع المعروضة . وتتعلق هذه العودة بأجور النقل البحري (أصبح نقل ١٠٠ كيلو من نيويورك الى ليفربول يكلف ١٧٠٠ فرنكا في السنة ١٩١٣ بدلا من ١٤٠٠ في السنة ١٨٩٢) وببضائع استهلاكية كثيرة . وهكذا اذا ما حددت نسبة اسعار ٢٠ مادة غذائية ضرورية في فرنسا بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٥ في السنة ١٨٩٢ وناهزت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . فقد ارتفع إنفاق العائلة العمالية بنسبة ١٠٪ تقريبا في باريس . وهي كلفة الكراء التي ارتفعت اكثر من كلفة الخبز أو اللحم ، على كل حال ؛ وبلغت الانتباه بصورة خاصة ارتفاع كلفة المعيشة في الفنادق العائلية .

والحال ثبتت الاحصاءات توسع النشاط . فقد قدر مجموع اصدارات الاوراق المالية المنقولة بـ ١٩٧٨٠٠٠ مليون في السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٠ مقابل ١٠٠٤٠٠ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٨٩٠ ، و ٦١٥٠٠ بين السنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وارتفع حجم رؤوس الاموال التي وظفها البريطانيون من ٤٢ الى ١٠٠ مليار تقريبا بين السنة ١٨٩٣ والسنة ١٩١٤ ، والفرنسيون من ٢٠ الى ٦٠ ، والالمان من ٧ الى ٤٤ . وتضاعف تقريبا مجموع النقد الاجني الموجود في فرنسا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٢ (٤٠ مليارا بدلا من ٢٠) . واستخدمت مؤسسات الولايات المتحدة الصناعية والتجارية ١١٤ مليارا في السنة ١٩١٤ بدلا من ٤٨ في السنة ١٨٩٩ . وعلى الرغم من الاحتكار وجمع المؤسسات ارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم البلدان الرأسمالية الكبرى : فقفز بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ من ٣٣٦٦ الى ٩٤٣١ في فرنسا ، ومن ٢٩٧٣٠ الى ٦٠٧٥٤ في بريطانيا العظمى .

ارتفعت النسبة العامة للانتاج الصناعي من ١٠٠ في السنة ١٨٩٩ الى ١٧٥٠٧ في السنة ١٩١٤ . واستخرج ٥١٢ مليون طن فحما حجرياً في السنة ١٨٩٠ و ١٣٤٠ في السنة ١٩١٣ ، كما استخرج ٩٨ مليون طن حديداً في السنة ١٨٩٠ و ١٤٥ في السنة ١٩١٣ . ولم تبلغ نسبة انتاج الوشائج النسيجية ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر سوى ٤١٠٥ للقطن و ٦١ للصوف و ٦٧ للكتان و ٥٩ للقنب و ٢٦ للقنب الهندي مقابل ١٠٠ قبيل الحرب العالمية .

وارتفع الانتاج الزراعي ارتفاعاً حثيثاً ايضاً . فالنسبة ١٠٠ في السنة ١٩١٣ قابلتها النسبة ٣٦ في الولايات المتحدة والنسبة ٢٧ في روسيا في السنة ١٨٩٠ . وازداد استهلاك الفرد للحنطة ازدياداً ملموساً ؛ فبينما بلغ عدد سكان المانيا في السنة ١٩١٤ ٣٠ بالمائة اكثر منه في السنة ١٨٩٠ ، بلغت نسبة ارتفاع انتاج الحبوب ٨٠ بالمائة ؛ وقد بلغت هاتان النسبتان بالمقابلة ٢٥ و ٥٠ بالمائة في بلجيكا . واستهلك الاوروبيون مليون طن ونصف المليون من السكر في السنوات ١٨٩٨ - ١٩٠٠ و ٦ ملايين في السنة ١٩١٣ . وفي اليابان ارتفع استهلاك الاسماك بسرعة . اضاف الى ذلك ان ألمانيا استخدمت أربعة أضعاف الاسمدة الكيميائية التي كانت تستخدمها ، كي تتمكن من مواجهة حاجاتها الجديدة .

وتضاعفت قيمة التجارة الدولية خلال ١٣ سنة بعد ان تضاعفت خلال ٣٠ سنة (٥٢ ملياراً

في السنة ١٨٧٠ ، و ١٠٤ في السنة ١٩١٠ ، و ٢٠٣ في السنة ١٩١٣) . وارتفع تصدير
المصنوعات بالنسبة للشخص الواحد من ٥٢ فرنكاً الى ١٠٥ فرنكات في فرنسا ومن ٥٣ الى
١٢٥ في ألمانيا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ . وارتفع حجم تجارة الحبوب القطنية من ٤٧٣١
طنا الى ١١٩٨٦ بين هذين التاريخين نفسها .

فكانت النتيجة اراء لا منازع فيه قد يعطينا الدليل عليه تقدير الدخل القومي : ٣٦
ملياراً في فرنسا في السنة ١٩١٣ مقابل معدل ٢٧ ملياراً بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٩ ،
و ٦٠٠ في بريطانيا العظمى مقابل ٤٠٠ ، و ١٧٥ في الولايات المتحدة مقابل ٦٠ ، و ٥٠ في
ألمانيا مقابل ١٧ . وقد ارتفع معدل الدخل الفردي في اميركا من ٣٥٧ دولاراً الى ٥٠٢ بين
السنة ١٨٨٩ والسنة ١٩١٣ .

واذا تحقق احراز النجاحات في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الأوروبية نفسها
(ومنها إيطاليا والنمسا وروسيا) ، فان الانطلاقة ارتسمت بصورة مفاجئة في العالم الجديد
(كندا والمكسيك والبرازيل والارجنتين) وفي افريقيا (الجزائر ومصر) وفي آسيا (الهند
والصين واليابان) . اجل لقد كانت السرعة متفاوتة ، ولكنها كانت شاملة .

وبما يلفت الانتباه ان النشاطات الزراعية ليست وحدها ما هبطت هبوطاً نسبياً في اكثر
البلدان تطوراً ؛ فان القطاع الصناعي قد بات اقل تقدماً ، بعد اليوم ، من القطاع المعروف بالقطاع
الثالثي اي ذلك الذي يختص بتوزيع الممتلكات والخدمات العامة . وقد لوحظت الظاهرة بوضوح
منذ السنة ١٩٠٠ في الولايات المتحدة ؛ ولكنها ما لبثت ان اصبحت محسوسة في شرقي الاطلسي
ايضاً . وان في ذلك لدليلاً على التبدل القريب ، العميق جداً ، الذي سيطر على توزيع المهام
البشرية في الغرب .

اجل لقد جاءت ثلاث ازومات - في ١٩٠٠ و ١٩٠١ ، و ١٩٠٧ ، و ١٩١٢ - تذكّر دونما
رحمة بأن الاقتصاد العالمي ليس بأمن من الهزات ، حتى في مراحل تقدمه . الا انها لم توقف
الوثبة العامة البتة . ولم يتردد بعضهم ، كـ « ملين » في فرنسا ، في تشهير « الافراط في الانتاج »
و « الجنون الذي يدفع كافة البشر الى الانتاج اكثر فأكثر يوماً بعد يوم » . وقد فكر رئيس
الولايات المتحدة ، « تافت » ، بالدعوة الى مؤتمر تكون مهمته ايجاد الوسائل الكفيلة بمقاومة
ارتفاع كلفة المعيشة . ولاحظ آخرون بفرح شديد ازدياد الاستهلاك ، فكان موقفهم شبيهاً
بموقف « جول سيمون » الذي قارن في السنة ١٨٩١ بين العصر الذي كان فيه والعصر الذي
عرفه في شبابه ، فقال : « نحن اليوم قد ألقنا ملاذ « كابوا » .

أما أسباب تجدد النهضة العظيمة هذا فتفتح باب مجادلات كثيرة . فقد طاب للاقتصاديين
الاحرار التشديد على دور المطابقة الجدير بالاعتبار بين تزايد عدد السكان من جهة ، وتزايد
الطلب ومن ثم تزايد الانتاج والتبادلات من جهة ثانية ؛ وكان من شأن ذلك تخفئة مالتوس

مرة اخرى . وربما توجب كذلك أن تكون قدرة الجماهير على الشراء قد نمت نمواً كافياً لان يحدث انقلاب الاتجاه هذا ؛ ولكن ارتفاع الاسور الحقيقية ، خلال فترة الاضطرابات السابقة ، بينما كانت الارباح الرأسمالية تتدنى تدنياً مستمراً ، قد تقصر ذلك . اضافة الى ذلك من جهة ثانية ان مكافحة الاقراط في المنافسة بفضل إعادة تنظيم المؤسسات كان من شأنه كذلك إيقاف انخفاض الاسعار ، علة خلود المهمة ، واصلاح السوق ؛ وعندما تصبح قسمة الارباح اكثر مطابقة للعقل ، يتزايد توظيف الاموال .

ولكن مصادفة تجدد النشاط وتدفق المعدن الثمين معاً لم تفت انصار نظرية النقد الكمية . ففي السنة ١٨٩٥ ادرك « والراس » ان اثر ذهب الترانسفال في الاقتصاد المنحط سيكون اشبه باثر منشط قوي . وفي الواقع ألقت اوستراليا الغربية وكولومبيا البريطانية وآلاسكا وافريقيا الجنوبية ، الواحدة تلو الاخرى ، في التداول ، كميات ضخمة من المعدن الاصفر . قبلت الكميات المتداولة في السنة ١٩٠٤ اربعة اضعافها في السنة ١٨٨٥ . وقد انضمت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان الى معسكر المعدن الواحد ؛ وفرضت قاعدة الذهب نفسها . وكان من شأن ذلك اتساع التعامل بالدين ، وارتفاع اسعار الاوراق النقدية بسبب تجمع اموال الادخار في جيوب الافراد .

واستند بعضهم الى نظام الحماية . واعتبر سوام ان حروب افريقيا الاستعمارية وحنازعات الشرق الاقصى ونشاطات التسليح قد كان لها دورها الفعلي في إيقاف انخفاض الاسعار والارباح ، كما حدث بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ ، لانها احدثت بَرزلاً في مواد الاستهلاك وقوضت الثروات : واذا كان للذعر الذي سببته هذه الاحداث تأثيره السيء على المصنفق ، فان سد حاجات القوى المسلحة قد ثبتت اسعار المواد الخام وسير الاعمال في المؤسسات الهامة . اما الماركسيون فقد انتقدوا الاقتطاع الرأسمالي الذي شجعه التدني النسبي في الاسعار واعتبروا تطور النظام تطوراً عضوياً في اتجاه الاحتكارات دليلاً على المخطاط عضال . واعتبروا كذلك الظرف مؤثراً لنشاط المأجورين .

تظهر ارقام الانتاج انطلاقة استخراج الفحم الحجري من عصر البخار الى عصر الكهرباء
المعجبة . لذلك ما زالت السيطرة للفحم الحجري في السنة ١٩١٤ . وقد وفر آنذاك للانسان ، بحسب بعض الاحصاءات ، ٨٧ بالمائة من الطاقة واكثر من ٩٠ بالمائة مع الحشب المتفحم ، بينما لم يوفر البترول والغاز سوى ٧ والقوى المائية ٣ ، ٢ ؛ وبحسب احصاءات اخرى يجب الا ينسب اليه سوى ٧٥ بالمائة فقط من حيث ان الحشب وفر ١٥ بالمائة تقريباً . وسير ٨٩ بالمائة من السفن بالفحم الحجري و ٨ بالمائة بالاشعة و ٣ بالمائة بالبترول : فقد انتصر مسخن الماء ثم على المركب الشراعي قبل ان يقلقه المحرك الذي يدار باحراق البترول . لقد تلوث منظر مناطق المصانع بدخان الفحم الذي تنفثه المداخن المرتفعة . قال « مدلندس » البريطانية والمنطقة الرينانية الوستفالية وحوض « سانت - اتيان » وحوض

بشسبورغ ، كلها بلدان سوداء نموذجية تتميز بها الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر المشرف على الانصرام ، اعني بها حضارة الفحم الحجري والحديد والفولاذ التي شوهت الطبيعة واذلت الانسان .

والحال ولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً اكثر بشاشة . اجل سوف تطلب مساهمة المنجم حتى بعد اكتشافها ، ولكن المهندس التفت الى الماء الذي ينحدر شلالات من الجبال ، فولدت الطاقة المائية هذا الفحم الآخر الذي اطلق عليه اسم لا يتخلو من الظرافة هو الفحم الابيض . فمئذ السنة ١٨٦٩ - سنة حصول « غرام » على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل - التي اعد فيها « برجيس » لمصنع الورق في « لانسي » شلالا يبلغ ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، ومنذ ان نجح « مارسيل دبريه » في نقل الطاقة للمرة الاولى الى معرض مونيخ - وقد اجري هذا الاختبار ، بعد مرور فترة قصيرة ، بين فيزبل وغرينوبل - اتاحت العنف والدنيم ، اللذان أحكما تدريجياً ، تحويل الطاقة المائية الآلية الى طاقة كهربائية . وقد لعبت العنف المائية في مصنع انتاج الكهرباء بواسطة الماء الدور الذي لعبته العنف البخارية في مصنع انتاج الطاقة الحرارية . وبينما صمم « فورفيرون » منذ السنة ١٨٢٧ العنف الثانية التي بلغ انتاجها ٧٠ بالمائة لم تتحقق العنف الاولى الا بعد السنة ١٨٨٤ بفضل السويدي « دي لافال » والانكليزي « بارسونز » : اشتق نموذج لافال من عجلة برانكا التجارية الدافعة (١٦٢٩) وعرف بالعنف المحرك او المتساوية الضغط ، بينما عرف نموذج « بارسونز » بالعنف غير المتساوية الضغط ؛ وكانت هذه سريعة جداً وتلك اقوى منها الى حد بعيد ؛ ولكنهما اعطيا كلاهما انتاجاً مرتفعاً جداً (٩٠ بالمائة) . فأتيح من ثم انتاج الكيلواتات انطلاقاً من الاحصنة البخارية .

بدأ بالتالي عصر الكهرباء مع عهد هذا المحرك الجديد الذي كان بالنسبة للآلة البخارية التناوبية ذات المكبس ماكانته هذه الآلة بالنسبة لآلة « نيوكومن » الهوائية .

اما نقل الطاقة الكهربائية فقد استلزم تحويلاً في التيار حققه « غولار » . فاذا زيد فرق الطاقة بين طرفي خط كهربائي عشرة أضعاف ، ازدادت الطاقة المنقولة مائة ضعف . ولكن خطر التوتر العالي والصعوبات التي انطوي عليها عزل الخطوط الناقلة حالت زمناً طويلاً دون النقل الى مسافات بعيدة . وفي السنة ١٨٩١ ، عجب النلهن من ان « فرانكفورت » تمكن ، بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي (المعروف باسم مبتكره « تسلا ») ، من استخدام ال ١٥٠٠٠ فولت المنتجة على « نكار » على مسافة ١٤٠ كيلومتراً . ولذلك اقيمت مصانع الطاقة الحرارية من جهة على مقربة من المراكز البعيدة عن الجبال او الشلالات ، ومن جهة ثانية ففكر الناس باقامة التجهيزات التي يمكن عزلها بسهولة على مقربة من الجبال والشلالات . وفكروا بادىء ذي بدء باستخدام اما مياه المنحدرات القوية واما الشلالات الطبيعية (كشلال نياغارا مثلاً) ؛ ولكنهم لم يلبثوا ان أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية .

الا ان المصانع الحرارية ، التي كان تجهيزها سهلاً ، قد انتجت تياراً مرتفع الكلفة ، في حال ان الفحم الابيض الذي يستلزم تجهيزات باهظة الاكلاف قد وفر التيار بكلفة دنيا . ولكن

الكهرباء ، على نقيض المنجم ، قد وزعت النشاطات ؛ وخلقت كذلك منظراً صناعياً جديداً لا يشوبه الدخان والغبار ، كان أكثر توافقاً والاطر الطبيعي ، ولم يخل من بعض المظلمة حين تنتج الكهرباء من الماء . وقد حيا الامير كروبوتكين ، العالم والفوضوي ، بحبي هذه القوة المحررة .

استطاعت الساحرة ان تغمر بمطايها بلداناً افقدها الفحم الحجري الخطوة : كالونيا ، سويسرا ، ايطاليا الشمالية ، سكندنافيا ، كندا ، وحتى اليابان . وقد اعتمدت اماكن عدة هذا المنبع الضوئي دون ان تعرف غاز الاضاءة من قبل ، كما بنت اماكن اخرى الخطوط الحديدية قبل ان تنشئ طرقاً جيدة . ولكن ذلك استلزم الكثير من رؤوس الاموال والعديد من الفنيين . فحوالي السنة ١٩٠٠ دفعت اعمال الانارة الكهربائية الى تأسيس شركات مساهمة قوية تشرف اما على انتاج التيار واما على تقديم المواد . ولكن الاهتمام بزيادة الدخل دفع الى تجهيز اوامر المساكن ثروة او ارفعها مستوى معيشياً بامكانات خلاقة مستعجلة . وبلغت الانتباه ان اميركا الشمالية احتلت مركز الصدارة في انتاج الفحم الابيض ، اذ كان لديها في السنة ١٩١٠ سبعة ملايين حصان بخاري (انتج شلال نياغارا وحده منها اكثر من مليون) ، خلفه وراءها فرنسا والمانيا وايطاليا (مليون واحد في كل منها) والسويد ونروج وسويسرا (١/٢) . كما بلغت الانتباه كذلك ان بريطانيا العظمى ، التي نامت على غار اولويتها الفحمية ، لم تحل آنذاك سوى مرقة وضعية ، لا سيما وانها افترقت الى الشلالات السهلة التجهيز . ولكن القريب يتبدل اذا ما اخذت المصانع الحرارية بعين الاعتبار .

في الحقيقة لم يتوفر النور الكهربائي بعد الا لعدد ضئيل من البشر . اجل ان مصباح اديسون ، الذي استهلك في البدء ٤٠ و٤٠ وات للشعلة الواحدة ، لم يستهلك سوى نصف وات بفضل استخدام التوفستين ابتداء من السنة ١٩١٣ ؛ ولكنه لم يتقدم بعد على مصباح « اوير » الغازي . وعلى الرغم من ذلك كان للارياض حق الغيرة من المدن .

احتل المحرك الكهربائي مكاناً ضيقاً ، ولم يستلزم عناية كبرى ، وادبر بسهولة ، واعطى انتاجاً بلغ وتجاوز ٨٠ بالمائة ، ولكنه اذا لم يستمد الطاقة من مراكم غير ثقيلة معبأة بشحنة تكفي لمدة طويلة ، فقد وجب ان يستمد من التيار بواسطة خطوط ناقلة ممدودة فوق الارض او تحتها اذا استخدم للجبر . ولذلك لم يستعمل بسهولة للجبر الا على مسافات قصيرة ؛ فسيرت بالكهرباء الحافلة البخارية او الحافلة التي تجرها الاحصنة منذ السنة ١٨٩٧ في لندن وفي معظم المدن الهامة من بعدها ؛ ثم استهوت وسيلة النقل هذه مدناً اخرى ؛ وقد فكرت بها العواصم الكبرى حين ارادت القيام ببناء الخطوط فوق الارض او تحتها ، كخط « مترو » في باريس مثلاً . اما كهربية الخطوط الحديدية فسوف تنتظر تحسينات تقنية جديدة قبل ان يواجه استخدامها على نطاق واسع ؛ ولكن لن يطلب منها سوى تسهيل تسليق المتحدرات القوية واجتياز الانفاق الطويلة .

على نقيض ذلك تكشف توزيع القوة الحركة عن مزيد من الأغراء كلما اعتمدت هذه القوة في عمل ينجز في مكانه . فان استخدام الهواء والماء المضغوطين او الاسلاك الناقلة القوة الى مسافة بعيدة كان يستلزم تركيبات محدودة الانتاج بسبب الاحتكاكات المختلفة . وحلت كذلك محل التحويلات الآلية محوولات كهربائية تحققت باستخدام الدينامو في تسيير الآلة البخارية او العنفة المائية ، ما لم يكن التيار ناجماً عن التوزيع . وحدث ما هو اهم من ذلك ، اذ امكن تجهيز المناقب والمقصات والفرائق والجسور الدائرية ، التي لا تستطيع السيور تحريكها بسبب انتقالها من مكان الى آخر ، بمحركات كهربائية . فبدا ممكناً بعد ذلك تسيير كل اداة صغرى ، وحتى كل آلة كبرى ، في المعمل وفي البيت ، دون ان تنبعث منها الحرارة والرائحة وحتى الضجة .

وانما اذا لم يستطع السلك بعد من نقل القوة الحركة الى مسافات طويلة ، فهو قد اجتازها لحل رسائل الانسان واسماع صوته . فاتفق التلفاز والهاتف يوماً بعد يوم وائتت شبكتاهما . وحين اخترع كازاتسي « د » بان تلفراف » (التلفراف الشامل) ، اعتقد الناس بإمكانية نقل الصور كهربائياً . اما « كورن » الذي استخدم خاصيات السينيوم ، فقد حسن الطريقة في السنة ١٩٠٣ ، فحصلت « الوستراسيون » على احتكار براءة الاختراع في فرنسا . وفي تاريخ لاحق وضع جهاز بلين لنقل الرسوم الجسادية ، تحت تصرف الصحف والشرطة ، وسيلة إعلامية حساسة وامينة .

وانما كان مقدراً لاختراع التلفراف اللاسلكي ان يثير الاعجاب اكثر من أي اختراع آخر ، لأنه جعل المحرّبات تثبت عبر الفضاء اصواتاً واضحة سهلة الادراك بدون خطوط ناقلة . وقد جاء هذا الاختراع نتيجة لاجتاهات طويلة . فقد سبق لـ « ماكسول » ان لفت الانتباه الى موجات توصل « هرتز » في السنة ١٨٨٦ الى كشفها بواسطة « غازل » والتقاطها في « رنانة » لا تتصل بأي سلك . وكان مقدراً لهذه الموجات الهرتزية ان يروضا « ادوار برانلي » و « اوليفر لودج » ، اللذان ابتكرا في آن واحد تقريباً من السنة ١٨٩٠ كاشفاً افضل هو « الملحم » البرادي ، و « بويوف » الذي اخترع الهوائي اللاقط ، و « ماركوني » الذي عاد اليه فضل إرسال البرقية الاولى من انكلترا الى فرنسا في السنة ١٨٩٩ . وقد توفى لودج منذ السنة ١٨٩٤ الى تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً وفكر بمطابقة طول موجة المحطة اللاقطة على طول موجة المحطة البائدة . وسوف يكتشف بعد ذلك المصباح الالكتروني - مصباح علاء الدين الجديد - : مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائين ، ومصباح « لي دي فورست » ذو الاقطاب الثلاثة ؛ وهما سوف يشيخان للموجات نقل الرسائل حتى اقاصي الارض .

بيد ان الساحرة التي نقلت فكر الانسان اما بواسطة السلك واما بدونها ، وساعدت الانسان منذ ذاك التاريخ على تسيير ادوات عمله وحتى على الانتقال ، قد أخذت تفعل في المادة نفسها وتحدث حركة ناشطة في تقنيات الكيمياء .

ان النطاق الشاسع الاطراف الذي وضعت الكيمياء يدها عليه انطلاقة الكيمياء المسترة خلال القرن التاسع عشر ، اخذت الصناعة تستثمره استثماراً واسعاً منذ السنوات ١٨٨٠ - ١٩٠٠ . لقد اهتم الرأسماليون والتقنيون في الدرجة الاولى بالمواد العضوية ، الكربون والهيدروجين والاكسجين والازوت . فحققوا منذئذ غاز الاضاءة والفحم المعدني المقطر ؛ ثم انشئت تجهيزات ضخمة اعطت كل يوم مزيداً من المنتجات الثانوية ، كالقار على انواعه والمولونات والعمطور والاسمدة والمتفجرات . وهو الفحم الحجري ماولد ابدا هذه الصناعات الجديدة ، الوفيرة الارباح ، في الوقت نفسه الذي انتج فيه التيار الكهربائي . فقد انتجت المانيا - بفضل منطقة الد «رور» بصورة خاصة في السنة ١٩١٠ ثلاثماية مليون كيلوغرام من سلفات النشادر مقابل ٦٥ مليوناً في السنة ١٨٩٠ (وقد حقق « فريتز هابر » آنذاك النشادر التركيبي) ؛ واعطت مصانع استخراج المعادن فيها ١٨٠٠ مليون كيلوغرام من خبث الحديد مقابل ١٠ ملايين . ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتدفئة او للمحركات (زيوت ثقيلة وبنزول) وانواع حمض الفينول المستعملة في اعداد حمض البكريك وشتى انواع البكرات . وكان التحليل بالمجهرى الكهربائي قد سهل الى حد بعيد انتاج ملح القلي والكلور والكلورات والكلورور والمنتجات الازوتية . فانتج بعد ذلك المواد الكلورية المزيلة الالوان (ماء جافيل) ومحلولات استخدمت لتبييض الاقمشة وممجنون الورق وقطهر مياه البواليع . واختصر دباغة الجلود . ووفر وسيلة لسقاية الادوات الفولاذية . واتاح كذلك طلياً بالنيكل جعل صفائح الرسوم المعدنية اكثر صلابة وصان القطع المعرضة للصدأ صيانة فعالة . واتاح بالطريقة نفسها استخراج المنغنيز والقصدير والفضة والنيكل نفسه بفعل قدرته على التحليل ولعل اهم تحقيقاته معدن الالومينيوم . فقد كان هذا المعدن الجديد بالاس مجرد غرابية مخبرية ، ولكنه دخل نطاق التحقيقات العملية بفعل قابليته للتصفيح وخفته ومثاقه : فقد هبط سعر كلفة الكيلوغرام من ١٠٠ فرنك في السنة ١٨٧٠ الى فرنك واحد في السنة ١٩١٠ ؛ وقفز الانتاج العالمي من ١٧٥ طناً في السنة ١٨٩٠ الى اكثر من ٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٩١٢ ، اذ ان انتاج البوكسيت - وهو اهم المعادن غير الخالصة المستعملة في صناعته - قد تجاوز ٥٠٠٠٠٠ طن في هذا التاريخ الاخير .

وعلى نقيض ذلك نرى ان الكيمياء الصناعية وصناعة تنقية المعادن مجتمعتين ، استخدمتا الفرن الكهربائي ، وتوفقتا بوجود التونفستين والنيكل والكروم الى ايجاد معادن مركبة جديدة ، اعني لها انواعاً خاصة من الفولاذ ضرورية لصناعة السيارات بصورة خاصة . وحدث « ألفرد ويلم » ثورة حقيقية في السقاية التي حققها في السنة ١٩٠٩ في « دورن » بواسطة الدورالومين المركب من الومينيوم ونحاس وكميات صفرى من المنغنيزيوم والسيليسيوم . ثم وضع « هنري له شاتليه » في السنة ١٩١٣ سنة السقاية المردوجة المتعلقة بتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة اخرى تحت تأثير الحرارة . وسيمرف الانتشار كذلك لحام المعادن باذابتها ، وهو لحام

كهربائي بات مكنياً بواسطة الأستيلين المستخرج من كربورالكلسيوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي أيضاً .

وعادت للكيمياء العضوية في الفترة نفسها ابوة بعض النسائج الجديدة . وكان ريومور قد عبر عن يقينه بأن الحرير الاصطناعي سيبصر النور قريباً . فمرض « شاردونييه » في السنة ١٨٨٩ أول طريقة صناعية ، انطلاقاً من سلولوز القطن ؛ وقد توجب ازالة الازوت من النسائج لجعلها غير قابلة للاحتراق . واستخدم « كروس » و « بيفان » و « بيدل » لب الاخشاب . وفكر « ترييري » و « اوربان » بتحليل السلولوز في ماء غالي يحتوي بعض الامونياك والنحاس ، واسسوا في السنة ١٨٩٩ مصانع « غلانزستوف » . وفكر غيرهم كذلك بـ « كسانتات السلولوز » . ولكن هذه الحيوط الحربية الصناعية لم تقو على مقاومة الرطوبة مقاومة طويلة الامد . وقد انتج منها ١٠٠٠ طن في السنة ١٩١١ (نصفها في فرنسا) و ١١٠٠٠ في السنة ١٩١٣ وسارت المانيا على رأس هذه الصناعة ، لأن الانتاج الفرنسي لم يتضاعف . ولاحت دلائل عصر المواد المعجينة مع ظهور الـ « غالليت » ، و الـ « باكيليت » ، التي امكن احلالها محل صمغ اللك .

واذا لم يفكر احد بعد بصناعة المطاط التركيبي ، فان « ساباتييه » و « سندريم » قد اثبتا ان مزج الاستيلين بالهدروجين بوجود النيكل من شأنه ان يعطي سائلاً شبيهاً بخلاصة البترول المكرر . والحال كانت تقنية المطاط والبترول تتقدمان تقدماً حثيثاً بدلالة الحاجات الجديدة . وعلى نقيص الصمغ الهندي المعجني والعازل ، امكن استخدام المطاط ، الرخص والمرن ، في صناعة الانابيب والسيور والاحذية . الا انه توجب اخضاعه لعمليات مختلفة تخص بالذكر منها الكبريتة التي أشار بها « غودير » لتغيير طبيعته : فان احماؤه في البخار يزيل عنه كل قابلية التصاق ويصلبه دون أن يزيل عنه صفاته المميزة . وكان اختراع المطاط لمعجلات الدراجة قد ابرز دوره المحتمل في الآلات المنتقلة من مكان الى آخر ، وأثبت ميشلين ذلك في السنة ١٨٩١ بمناسبة السباق بين باريس وبرست : وكان ميشلين حفيداً لصانع كرات واختام وسيور من المطاط مقيم في « كلرمون - فران » ؛ وكان نسيبه بالمصاهرة ، « ماك انتوش » ، قد اكتشف قابلية ذوبان المطاط في البنزول . ولن يلبث دور طوق المطاط أن يصبح دوراً أولياً : ففي السنة ١٨٩٥ ظهرت السيارة الأولى ، « البرق » ، التي صنعها « بوجو » مزودة بمحرك « دايملر » ومركبة على أطواق من المطاط الحاصل بعناية ميشلين ؛ ثم عمت هذه الطريقة بعد السنة ١٩٠٥ . فارتبط مصير المطاط منذئذ بمصير العجلة والسيارة ولم تعد شجرة المطاط البورية كافية لتموين المصانع التي تكثرت المطاط : فزرعت بعض الحبوب التي كان ويكهاهم قد جمعها في أمازونيا وأسفرت عن نمو ٢٠٠٠ شجرة جميلة في حديقة « كيو » على مقربة من لندن ؛ ثم أرسلت هذه الاشجار الى سيلان . ولن تلبث مشاجر آسيا الجنوبية أن تتسع بسرعة : فمن أصل ١٢٤ ألف طن انتجت في السنة ١٩١٤ لم يعط المطاط البرازيلي سوى ٤٩ ألفاً ، وقد عاد ثلاثة أرباع لاستهلاك الصناعي للولايات المتحدة .

وهي الولايات المتحدة كذلك ما سارت في الطليعة لجهة انتاج البترول . وان هذا السائل ، الذي اعتبر نهائياً كمصدر للطاقة ، قد عرف في روسيا باسم النفط وفي آسيا باسم الزيت وفي الغرب باسم البترول او « الزيت » . ولكن تكريره بعث الآمال في استخدامه كوقود للدفع الى الامام . وقد ابتكرت بالفعل مساخن قادرة على الحلول يجودى محل الفحم الحجري في السفن . فزودت بها سفينتان في الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ كما زود بها يخت نابوليون الثالث . واخذ الروس يسرون سفنهم في بحر قزوين وقاطرات خط « باكو - تفليس » بدردري التكرير او « مازود » ، الذي كانت طاقته الحرارية ضعف طاقة الفحم الحجري . ثم أتاح اتفاق المحرك المسير بالغاز الاستفادة من غاز البترول . الا أن التقدم بقي بطيئاً حتى السنة ١٨٩٥ تقريباً . فقد كشف التكرير المتقن والمحرك المسير بانفجار الغاز آنذاك عن كل ما يمكن ان ينتظره الانسان من الوقود السائل . وارتفعت كمية البترول المستخرج من ٨ ملايين طن في السنة ١٨٩٠ الى ٥٦ مليوناً في السنة ١٩١٤ ، استخرج منها ٣٤ في اميركا الانكلوساكسونية وحدها . الا أن كميات البترول المكرر التي استهلكتها محركات السيارات والطائرات والغواصات لم تتجاوز ٦ ملايين طن ؛ فهي السفن التجارية والسفن الحربية ما اقتطعت حصص الاسد حتى قبل ان يثبت محرك « ديزل » ، افضليته على موقد بسيط للاحتراق الخارجي . ولكن التكرير ، بصرف النظر عما تستلزمه صناعة استخراج البترول ونقله من معدات واجهزة ضخمة ، استوجب عمليات تسخين وتصفية معقدة (طريقة الحمض الكبريتي ، ثم طريقة الانيدريد الكبريتي السائل منذ السنة ١٩١٠ ، وطريقة « الكراكنغ » او التكرير بالحرارة المرتفعة تحت الضغط العالي ، في السنة ١٩١٢) . فهذا ايضاً ، تخطت الكيمياء الى حد بعيد مرحلة الانبيق لبترول الاضاءة^(١) .

وما كانت السينما لتبصر النور كذلك بدونها اخيراً . فلا ريب في أن التصوير الشمسي كان نقطة انطلاق هذا الفن الجديد (في السنة ١٨٧١ بدأ مادوكس يستعمل « جيلاتينو - برومور » الفضة) ؛ ولكن السلولويد الذي اخترعه الاخوان « هيات » ، وهو جسم صلب وشفاف وقابل للاحتراق وقادر على مقاومة العوامل الطبيعية ، قد اثبت أهليته لصناعة ورق التصوير السليبي (الذي اطلق عليه « ايسمان » اسم « ستريبنغ فيلم ») . ولم يبق بعد ذلك سوى اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق تركيب مراحل الحركة وبالتالي ايهام الناظر برؤية الصورة المتحركة . وقد اسهم في ذلك « رينو » في الدرجة الاولى ، و « ماراي » و « دمسي » و « اديسون » من بعده . فاستفاد الاخوان « اوغست » و « لويس لوميير » من تجاربهم الطويلة وتوفقا في السنة ١٨٩٥ الى تحقيق اول عرض سينمائي امام جمهور من الناس . وعند ذلك جهز « جورج ميليس »

(١) فهي قد لعبت دورها كذلك في صناعة الاسمنت المستعمل في البناء بال « باطون » الذي احدث ثورة في مستهل القرن العشرين .

أول « ستوديو » (مكان خاص للتصوير وتسجيل الصوت) وتجميع في تحقيق تواقف الحاكبي
والسينا واهتدى الى بعض الاكتشافات ، كإدراج الاشخاص . فولدت من ثم صناعة جديدة
قامت على تعاون الكيمياء والآلية وضممت ، في الولايات المتحدة مثلاً ، شركات التصوير الهامة
كـ « اديسون » و « ايستمان كوداك » .

لم يتوقف القرن التاسع عشر يوماً عن مواصلة تحسين الآلة البخارية .
ولكن النتيجة لم تتحسن قط : فقاطرة القطار الحديدي مثلاً
لم تحقق سوى تقدم بطيء . أجل لقد بدا أن الملاحنة قد خدر
مستقبلاً على بعض الممان للعنف البخارية . وانما بقيت الحاجة
ماسة الى اختراع محرك يمكن تسييره اما بواسطة وقود سائل ، واما بخلط من الهواء والغاز ،
ما دامت الكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقل البعيد . فأعطت الصيغة الأولى محرك
الاحتراق الداخلي : يدخل السائل مباشرة الى الاسطوانة حيث يولد الضغط القوي الاشتعال
الذاتي . أجل لقد كان مفروضاً ان يتيح هذا المحرك الوفير الانتاج استخدام الزيوت الثقيلة ،
المعدنية ، واللزجة ، كالمازوت و « زيت الغاز » . وعلى الرغم من ذلك فقد وجب انتظار السنة
١٨٩٣ لمشاهدة أول نموذج من هذا النوع - نمورج ديزل - يمكن استخدامه في الفواصة والسفينة
والجرارة . وفي السنة ١٩١٢ امتحن في تسيير إحدى القاطرات . الا ان استخدامه لن يعم الا
بعد الحرب العالمية الأولى .

لعل « هوفنيس » كان أول من فكر بمحرك الانفجار ، عندما اكتشف ان امتداد الغازات
المتسبب عن احتراق البارود في اسطوانة ينتج طاقة آلية . وفي السنة ١٨٦٠ - وهي سنة
ابتكار الطريقة « المركبة » - توفق « جان - اتيان لنوار » الى تحريك مكبس بأحداث انفجار
خلط من الهواء وغاز الانارة بواسطة شرر كهربائي : ولكنه لم يعتمد بعد عن مفهوم الآلة
البخارية ، ولم يحقق سوى طاقة ضعيفة ، اذ أن آله التي قطعت مسافة ١٨ كيلومتراً في ثلاث
ساعات استهلكت مترين مكعبين في الساعة للحصان الواحد . واذا فكر « بودي روشا » بعيد
ذلك بالضغط ودور الاوقات المتساوية الأربعة ، فإن « سيفريد ماركوس » لم يعتمد البترول
المكرر ولم يفكر بالآلة المغنطيسية الكهربائية للحصول على الشرر الا في السنة ١٨٧٥ .

سار الكونت « دي ديون » والميكانيكي « بوتون » على خطى « كونيو » وصنعا سيارة
بخارية تسيير على الطرقات في السنة ١٨٨٣ . وبعد مرور سنتين سارت السيارات بالبنزين المكرر
دون أن تتجاوز سرعة ٢٠ كيلومتراً في الساعة . فظهر بعد ذلك عدد كبير من النماذج التي
اقتبست اشكال معظمها عن العربات التي تجرها الجياد .

ثم تحقق تقدمان حاسمان ابتداء من السنة ١٨٩١ : ابتكر « فرنان فورست » المحرك
الرباعي الاسطوانات واخترع قيس الاشعال (بوجي) وزود جهاز اشباع الهواء بأبخرة البترول

المكرر بجهاز صغير ينظم دخول هذا البترول ، ولحق ارمان بوجو بسباق الدراجات بين باريس وبرست وعاد الى فالنتينسي التي انطلق منها . ثم ظهرت الدراجة البخارية بفضل دايملر الذي سهر الدراجة العادية بمحرك غازي . وعلى طريق باريس - بوردو تفوق « لفشور » وشريكه « بانارد » على البخار ، وحسن ميشلين طوق المطاط الذي صممه « دنلوب » واستخدمه « بوجو » . واخترع « رينو » طريقة الجمع المباشر ، وجهاز اول معرض للسيارات في ساحة « انفاليد » . وفي السنة ١٩٠٠ ، ابان السباق بين باريس وتولوز ، « اقشعرت فرنسا جمعا تأورا ديموقراطيا ورياضيا » ، كما يروي « بول موران » . فترك الحصان للقوميين وروث الحصان والبغل للثوريين . وكان عدد السائقين في الطرقات العامة اقل من ان يسمح بنعمتهم بالداهمين . وم الشيوخ وحدم من اعترضوا وطلبوا وزير الداخلية دون جدوى يمنع هذه الالعاب البهلوانية ، وقالوا بوجوب اعداد مقابر خاصة لسائقي السيارات على جوانب الطرق . . وبعد السنة ١٩٠٠ تحسن هيكل السيارة وتوازنها المخطط ومحركها واجهزة نقل الحركة فيها ، واتضح شكلها الخارجي المميز . وفي السنة ١٩١٤ سارت السيارة بسهولة بسرعة ٧٥ كيلومترا في الساعة . وبلغ عدد السيارات مليونين استخدم قرابة نصفها في الولايات المتحدة التي اضطرت الى انشاء شبكة طرقات بسرعة . اجل لقد تناول التجديد طرقات اوربا ايضا ؛ ولكن طرقات المشاة القديمة لم تكن معدة لسير العربات المزودة بالمحركات ، فاضطرت السلطات العامة الى تنظيم السرعة في المدن . ثم « عطيت الطريق بأحد مشتقات البترول المكرر وهو القار ، فمنع القار ، فمنع القار .

في أواخر القرن الثامن عشر توصل الانسان الى الارتفاع في الهواء بواسطة كرى ملأى بالغاز : المنطاد المملوء بالهواء الساخن ، والمنطاد المملوء بغاز الاضاءة . فقد كتب ميشليه : « انها لساعة فادرة ! لانهاية الفضاء تتسع شيئا فشيئا ... » ثم غيزت عمليات الصعود الى الجو ، بغية استكشاف الطبقات الجوية العليا ، بمزيد من المغامرة والجرأة . ففي السنة ١٨٧٤ ارتفع احد المناطيد الى علو ٨٧٠٠ متر ، فغاب اثنان من ملاحيه عن رشدهما ولم يستيقظا قط . وفي السنة ١٩٠١ ارتفعت المناطيد الى اكثر من ١٠ آلاف متر .

تحقق منذئذ المنطاد المسير : وقد فكر « ديبوي دي لوم » و « جيفار » بالدفع الآلي الى الامام بواسطة المروحة والبخار . واحكم « رينار » و « كريس » جهازا يسير بالكهرباء ، فكان ذلك حدثا هاما كرس له « فكتور هوغو » بعض أشعاره قبل ان قدره المنية . فهل بالاستطاعة تزويد سفن جوية حقيقية بمحركات انفجار يا ترى ؟ لقد آمن الناس في المانيا بمستقبل ما هو أخف من الهواء ، وأسس الكونت « زبلين » في السنة ١٨٩٦ معامل انتجت سفنأجوية ضخمة : فان « ساخن » الذي سبى في السنة ١٩١٣ سبيل ١٤٠ مترا طولا و ١٥ مترا قطرا ، وسيزود بثلاثة محركات قوة كل منها ١٧٠ حصانا وسيكس ٣٠ راكبا .

ولكن أليست اسطورة « ايكار » سوى خيال يا ترى ؟ فممنذ مشروع الطائرة الطوافة الذي

عرض على أكاديمية العلوم في السنة ١٧٨٤ حتى طائرة فورلانية المسيرة بالبخار التي اقلعت في السنة ١٨٧٨ ، قد انقضى قرن كامل تقريباً . وكّم هم الذين تذكروا في هذه الاثناء رسوم « فوشي » او لم يتذكروها وحاولوا عبثاً الطيران على طريقة الطيور معرضين حياتهم للاخطار في اغلب الاحيان ؟ الا ان انصار ما هو اقل من الهواء قد تعززت آمالهم بعد السنة ١٨٨٠ . وقد عبر « جول فيرن » عن هذه الثقة على لسان « روبر الفاتح » الذي تفوقت طائرته على المنطاد المسير . وللمرة الاولى توفى « كليلان ادر » الى الارتفاع عن الارض بوسائله الخاصة على الـ « أبول » بواسطة محرك بخاري . وفي السنة ١٨٩٧ ، في « صالون » طارت طائرته « افيون » مسافة ٣٠٠ متر ، وكانت شبيهة بالخفاش ؛ ولكنها تحطمت بهبة ريح شديدة ، فكف « أبو الطيران » عن مواصلة تحقيق مشروعه . فتوجب اكتشاف محرك آخر .

اهتدى اليه ميكانيكيا دراجات هما الاخوان « رايت » : في السنة ١٩٠٣ ، وبناء على تعليماتها ، قذف بها في الهواء بواسطة منجنيق في احدى ساحات اميركا أمام خمسة مشاهدين ؛ فارتفعت الطائرة الى علو ثلاثة امتار وقطعت مسافة ٢٦٠ متراً بفضل محرك انفجار خفيف الوزن جداً . وبعد مرور ثلاث سنوات قطع البرازيلي « سانتوس - ديون » ، صاحب احدى المزارع الكبرى ، الذي استهواه المنطاد من قبل ، مسافة ٢٢٠ متراً على ارتفاع ٦ امتار فوق الارض . فكانت نتيجة هذه المآثر الحقيقية التي أثارت الحماسة ، استحثاث الابحاث . وتعاقت الاحداث بعد ذلك بسرعة مطردة : في السنة ١٩٠٨ قطع « فارمان » الكيلومتر الاول في مدار مقفل ، وفاز « ولبور رايت » بكأس ميشلين الاولى بتعليقه في الجو طيلة ساعتين ونصف الساعة وقطعه مسافة ١٢٤ كيلومتراً ؛ وفي السنة ١٩٠٩ اجتاز « لويس بليرو » بحر المانش عند كاليه ؛ وفي السنة ١٩١٠ اجتاز « شافيز » جبال الألب ؛ وفي السنة ١٩١٣ اجتاز « غاروس » المتوسط . وفي السنة ١٩١٤ جاوز الرقم القياسي ألف كيلومتر مسافة ١٣ ساعة طيراناً ، و ٦ آلاف متر ارتفاعاً ، ومثني كيلومتر في الساعة سرعة . فما على الحرب العالمية الا ان تندلع لان البشر سوف يعرفون كيف يقاتلون في السماء .

ان تطبيقات العلوم الطبيعية والكيميائية ، التي هزل لها بعضهم ، قد نصيب التقنيات الحربية الكبير . اثار المزيبد من التحفظات لدى اولئك الذين استوقفهم بالتفضيل خضوع الانسان لعلم الآليات ووسائل التدمير الجديدة .

ولقد زعم بعضهم ان الفضل الاكبر في الانتاج بالجملة يعود الى الحرب الآلية ، وان الجراحة مدينة بنجاحاتها لساحات المعركة في الدرجة الاولى .

في اواخر القرن التاسع عشر بدأ عصر الفولاذ . فلا ارتياح بعد اليوم حول الدور الاول الذي يلعبه القطار الحديدي وخطوطه الفولاذية في نقل القوى الحاربة والاعتدة . وهي اصناف الفولاذ المختلفة - ولا سيما الاصناف الخاصة - التي زادت من قوة الاسلحة وقوة الدرع : وقد

استفادت المدفعية والد ، المدرعة من طرائق « بسمر » و « مارتين - سيمس » . فسيطرت مصانع الاسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بعد أن يسرت أعمالها الحروب التي نشبت بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ . فقام بعد ذلك ارتباط وثيق بينها وبين الحكومات وبين القيادات العسكرية العامة . واشتد هذا الارتباط كلما تطورت تقنيات الصناعة . فالبنديقية ما زالت أوسع الاسلحة انتشاراً ، وقد تحسنت تحسناً مستمراً . فعملت محل البنديقية « ساسبو » المزودة بآلة لإطلاق النار ، التي كانت ملكة العمليات الحربية البرية في السنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، البنديقية المزودة بجهاز حشو وبارود لا ينبعث منه الدخان ، التي تطلق طلقات متواترة « من طراز « لبل » و « موزر » .

ولكن المهندسين الاميركيين ، « حيرام مكسيم » و « ب . ر هوشكيس » ، قد احكما السلاح الذاتي الذي اطلق « ريفاي » عليه اسم مدفع الرصاص والذي حال تركيبه الدقيق دون استخدامه استخداماً فعالاً خلال الحرب الفرنسية الالمانية . وبعد ذلك بزمان قصير ظهر المدفع الذاتي الحركة السريع الاطلاق الذي لم يلبث ان عرف باسم المدفع الرشاش . وبالمقابلة زاد المدفع المفرض من داخله والمطوق من خارجه صلابة وبعد مرمى وقابلية حركة . وقد زوده الكولونيل « دي بانج » بصمام جمل حشوه من مؤخره اكثر فعالية . وزود كذلك بجهاز يمنع مفعول اندفاعه الى الوراء وبأجهزة تسديد تتيح الاطلاق غير المباشر . فبلغت سرعة القذائف المطلقة ، بعد اطلاقها مباشرة ، ٥٠٠ متر في الثانية . كما ان القذائف التي استطاعت المدفعية اطلاقها قد بلغت الطن وزناً .

لقد حدثت ثورة حقيقية في فن اطلاق النار . ففي السنة ١٨٧٠ ، نادراً ما استعمل غير البارود الاسود الذي يرتقي استخدامه الى اواخر القرون الوسطى : ففكر « برتلو » باستبدال مزيج الفحم والكبريت ومالح البارود هذا بأول او كسيد الازوت السائل . ولكن الاميركيين كانوا قد استخدموا خلال الحرب الانفصالية بعض المواد المتفجرة الممول في تركيبها على بعض الغازات السريعة الانفجار . وبينما ولي « توبرين » وجهه شطر البيكرات وحصل على « المليونيت » آثر « فياي » النيتروسيلولوز المعروف باسم قطن البارود او القطن المنفجر ، و « نوبل » النيتروغليسرين الذي يعطي الديناميت . وقد اثبت هذا الاخير فاعليته بتدمير صخر تحت سطح البحر في مرفأ نيويورك وبالمساعدة على فتح نفق « غوتار » . ولجأ الارهابيون الايرلنديون اليه لنشر الذعر في انكلترا . ثم توفق « فياي » الى تسهيل استعمال هذه المواد في الاطلاق بازالة خاصياتها التحطيمية . فجاء من ثم البارود الذي لا ينبعث منه الدخان بضاعف قوة النار بمحشوة محدودة منه .

استفيد من كافة الاستحداثات . فقد سهلت ساعة قياس الوقت الدقيقة تقدير المدفعيين لسرعة القذائف عند اطلاقها . وهو احد مؤلاء المدفعيين ، « كولين » ، من اعلن : « ان التلغراف قد بدّل ظروف الحرب تبديلاً كلياً باثحته تولى القيادة من مسافات بعيدة » .

الا ان واحداً لا يعلم ما اذا كان الهجوم سيفضل الدفاع . وقد مال معظم الاختصاصيين الى العمليات الطويلة ، وعمليات « الحنادق » و « الحصار » ؛ ويبدو ان اختبار الحرب في منشوريا كان حجة قاطعة من هذا القبيل . وفي السنة ١٩١٢ ، بينما اصر القائد « دي برناردي » ، وفقاً لنظريات قيادة الجيش الالماني التي اوصت بزيادة قوة النار والهجوم حتى الموت ، على ان يكتب : « يجب است فراغ الجهود ببقية احرار النصر بالسرعة القصوى » ، اجاب الكولونيل « مونتانيه » : « النهضة هي ما سوف يقرر مصير المارك » . ولكن الفائلين بهذا الراي او ذاك قد حسبوا حساب النتائج المربعة التي سيسفر عنها الاصطدام الاول . فتصرفوا من ثم بحيث يكون هذا الاصطدام قادراً على تأمين النصر الكامل .

أعبرت الاهتمام كذلك الاختراعات الجديدة في الحرب البحرية . فان اعتماد البخار كقوة محركة لم يبدل ظروف المعركة كما بد لها ظهور التدريب والمتفجرات الازوتية في آن واحد تقريباً . وقد بدأ السباق بين هذه وذلك . فبنيت السفينة المدرعة ذات الابراج التي بلغت سماكة فولاذ هيكلها حتى ٥٠ سنتيمترا وعرفت قياسات لم تعرفها السفن من قبل : فحوالي السنة ١٨٩٠ تجاوز طولها ١٠٠ متر واتسمت لمحمول ١٠ أو ١٥ الف برميل ول ٨٠٠ أو ٩٠٠ طن وقوداً ، وسارت بسرعة تقراوح بين ١٥ و ١٧ عقدة . فكانت شبيهة بمحسّن بحري حقيقي وقادرة على الشروع في القتال من مسافة بعيدة تساندها الطرادات المدرعة والطرادات المحمية التي كانت اسرع سيراً وأقل قوة . ولم يكن اعداؤها نيران العدو فحسب ، بل الالغام وقذائف سفن السفن ايضاً . وقد اوحى قذيفة « وايتهيد » ، الذاتية الحركة ، بفكرة السفينة النسافة السريعة التي زودت بأنابيب لرمي القذائف ، والتي اثبتت الحرب الروسية اليابانية مرونتها . ثم جاءت الكمرباء تتولى ادارة اجهزة الحركة والعلائم وتطلق الالغام .

ثم تعاظم شأن الغواصة التي استلزمت بمجموع اجهزة محكمة ارتبطت كذلك بأجهزة الحركة الكهربائية . فقد واصل القرن ابحاثه منذ ان توفّق « فولتون » الى تفويض « ال « نوتيلوس » في السنة ١٨٠٠ . فسمى « برون » و « نوردفيلد » الى تحقيق جهاز يكون فيه الهواء مضغوطاً وتكون اقسامه الداخلية محكمة لا ينفذ اليها الماء . وفي السنة ١٨٩٩ ، ابتكر « لوبوف » ال « فارفال » : وصممت هذه الغواصة بهيكلين رتبت بينهما الاثقال بغية اثاحة التفويض والعودة الى سطح الماء وسارت بواسطة آلة بخارية ؛ وادارت اثناء القوص محركاً كهربائياً واستخدمت المنفاق والبركار الجيروسكوبي . ثم لم تلبث ان اعتمدت محرك ديزل . وكانت قادرة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الالغام ورمي القذائف فبدلت بدورها معطيات الاستراتيجية البحرية .

كانت هذه الاخيرة موضوع دراسات كثيرة . الا ان كتاب الاميرال « ماهان » ، « اثر القوة البحرية في التاريخ » ، قد هيّج الافكار ، والمنافسة الانكليزية الالمانية اسهمت اسهاماً

قوياً في تقدم التقنيات .

في السنة ١٩٠٥ ، وتحت تأثير الاميرال « فيشر » ، انزلت بريطانيا العظمى الى البحر
ال « دردنوت » ، المثال الجديد للسفينة المدرعة الكبرى ، الذي جاوز محموله ١٨٠٠٠ برميل :
كان مزوداً بعنفات بخارية ومسلحاً بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ ميلترات و ٢٤ مدفعاً من عيار
٧٦ ، وقد استغني فيه عن المدفعية الثانوية . فكانت اسلحته من ثم خير اسلحة لمركبة يشترك
فيها من مسافة بعيدة .

ثم اخذ الاميرال فيشر نفسه بعين الاعتبار فوائد البترول الفضلى ، فأمر باستبدال الفحم
بالمازوت . فضوعفت دائرة العمل بوزن وقود متساو ، وزال الدخان . ولكن هذا التغيير كان
في اولى مراحله فقط حين نشب نزاع السنة ١٩١٤ .

وكان مقدراً للحرب العالمية ان توسع بسرعة استعمال الوقود الجديد والآلات المسيرة
بمحركات انفجار او احتراق داخلي .

في الوقت الذي تكاثرت فيه النتائج العملية ، والرهية في اغلب
تأثير ثورة علمية جديدة :
الاحيان ، للاختراعات التي بدا القرن وكأنه يعلق عليها سمعته ،
الاشعاع الذاتي والنسبية
كانت 'تعد' ثورة حقيقية في حقلي علم الرياضيات وعلم الطبيعة .

بينما كان الفائلون بمكانات العلم الكلية يمتدرون العلم ، حوالي السنوات ١٨٨٠-١٨٩٠ ، مقعداً
على مبادئ متينة ، انهار بناء الحتمية ، الذي اعتبر كلاسيكياً ، في سنوات قليلة امام سلسلة
من الاكتشافات غير المرتقبة . فبعد الاشعة المهبطية التي 'سلم بالعديد من النظريات حول
طبيعتها ، اكتشفت في آن واحد تقريباً - اواخر السنة ١٨٩٥ واولئ السنة ١٨٩٦ - الاشعة
التي دل « رونتجن » عليها بالحرف X ، والاشعة التي عزاها « هنري بكريل » للاورانيوم والتي
لن يلبث « بيير وماري كوري » ان يبتدئا اليها (١٨٩٨) منبثقة بمزيد من القوة عن جسمين
آخريين هما البولونيوم ولا سيا الراديوم . وهكذا ظهر الاشعاع الذاتي أو النشاط الاشعاعي .

اجل لقد وجد في الشعاع الذاتي كما في الاشعة المهبطية الكهرب المعروف - دل عليه لورنر
في السنة ١٨٩٥ كعنصر تركيب - والموجات الهرتزية واشعة X والتور نفسه ؛ وانما اكتشف
فيه كذلك إشعاع اطلق عليه اسم اشعاع « غاما » كما في اشعة X ؛ واخيراً حقق « رودر فورد »
شخصية الاشعة « الفا » كنوات دون كهيرات لذرات الهيليوم . وهنا كان مثار الدهشة .

فما هي سنن الاشعاع يا ترى ؟ لقد لاحظ « لنار » ان اشعة ماوراء البنفسجي تتنازع بعض
الكهيرات من المادة بينما لا تستطيع اشعة ما دون الاحمر ذلك . فكل جسم يبت من ثم
اشعاعاته الخاصة بذبذباته الخاصة .

ثم جاء « ماكس بلانك » في السنة ١٩٠٠ يدلي بدلوه ايضاً ، فأنكسر صدور الطاقة صدوراً
مستمرأ وصاغ مبدأ جديداً مفاده ان الطاقة تبدو كذلك بشكل جزئيات تنبث عن المسادة

انبعاثاً غير مستمر ؛ أما قيمة هذه الجزئيات فنسبية للتواتر .

وبعد انقضاء خمس سنوات اثبت « البير انشتاين » صحة هذه الثابتة بتطبيقها على مفعول الضوء والكهرباء الذي اوضحه هرتز في السنة ١٨٨٧ والذي يلخص بأن النور ينتزع بعض الكهبريات من المادة ؛ وهكذا يظهر ان « لنار » قد تثبت الشيء دون ان يستطيع تفسيره .

وهكذا نشأت في وقت واحد النظرية الذرية ونظرية النسبية ، وقد اتصل بالاولى علم الذرات والكهبريات الذي يختلف سننه اختلافاً كلياً عن سنن علم الطبيعة الكلاسيكي . فحدد « رودر فوردر » الذرة في السنة ١٩١١ بأنها متكونة من كهبريات تدور حول نواة ؛ واثان ان تصنيف الاجسام وفقاً لعدد الكهبريات يتيح استنبات جدول اقترحه « مندليف » منذ السنة ١٨٦٩ . اما « بوهر » فقد شدد الكلام في السنة ١٩١٣ على الطاقة المنبعثة عن الكهبريات ، بحسب نظرية الجزئيات ، شريطة ان يقفز من ذرة الى اخرى . فتكون هذه الطاقة من ثم غير مستمرة ، خلافاً لقواعد علم خاصيات التيارات الكهربائية ، وتتكون اما من جزئيات طاقة الضوء او اشعة ما وراء البنفسجي أو اشعة ما دون الاحمر أو اشعة γ ايضاً . ومنذ السنة ١٩٠٠ ، اي منذ « رودر فوردر » و« سودي » عكف عدد كبير من العلماء - « موريس دي بروي » ، « ميليكان » ، « ج. - ج. طومسون » ، « ولسون » ، « استون » ، « سوام » - على قياس عناصر هذا الكون الجديد ، وحققوا تشابه الخواص ، بينها حدد « لنجفين » بدقة نظرية المغناطيسية .

وجاء علم الرياضيات ينصف ويدعم علم الطبيعة الجديد . فتخطى « فيتو فولتيرا » مرحلة المعادلات التفاضلية التي سبق لـ « هنري بوانكاريه » ان وجد لها اسلوباً عاماً ووصل الى المعادلات التكاملية ؛ ونقل التحليل الى الدالات التي كشف القرن التاسع عشر القناع عنها والتي تعمق في درسها هنري بوانكاريه نفسه و« وايرستراس » و« اميل بيكار » . وكانت جورج كانتور من جهته قد توسع في مفهوم اللانهاية انطلاقاً من مجموع الاعداد العادة القياس ، مما قلقل مفهوم الاستمرار . وسيطبق « بير » بدوره نظرية المجاميع والدالات هذه ، كما ان « اميل بوريل » و« لوبسغ » سيحددان بعد ذلك خاصيات الدالات لعدة متحولات . اما نظريات الفئات التي طلع بها « غالوا » وتبناها « كوشي » و« كميل جوردان » من بعده ، فقد كملها اميل بيكار و« كارتان » ايضاً . والحال كانت فئة « لورنز » مدخلا للنسبية المحصورة .

في هذه الاثناء كانت هذه النظرية آخذة في شق طريقها . فقد اثبت ميكلسون في السنة ١٨٨١ ان سرعة النور واحدة في كافة الاتجاهات . فكان اثباته هذا ملاحظة مدهشة اذ ان حركة المصدر الضوئي او حركة المراقب لا تغيران في الامر شيئاً . ثم انطلق انشتاين من هذا المبدأ ليثبت أن الزمان والفضاء ليسا مطلقين وان حجم جسم ما يتبدل بتبدل سرعته وان المادة نفسها ليست سوى شكل من اشكال الطاقة : فأدى ذلك الى انهيار الآلية الكلاسيكية كلياً بدورها والى استنبات نظرية الجزئيات في نطاق الاجسام المتناهية الصغر . وسوف يجمع

لويس دي بروي في عهد لاحق بين الكهرباء والموجسة ويؤسس الآلية التمجسية : ولكن « لان » كان قد أثبت في السنة ١٩١٢ طبيعة X التمجسية . وسينتقل انشتين من جهته من «نسبية محصورة» الى «نسبية شاملة» . انها لآفاق جديدة كل الجدة في طبيعة الكون بالذات خلقت بعيداً ورامها نظريات كوبرنيك وغاليليو ونيوتون ولاپلاس .

قليلون جداً هم الذين رافقوا تقدم العلم وقدروا اهميته . فلما نحر الثقافة الشعبية والرياضة القول عن الجماهير التي «سُدَّ» بابها سداً محكماً بالنسبة اليها .

في نظر « دورخايم » ، « ان الانسان الذي يجب ان تحققه التربية فينا ليس الانسان كما صنعتها الطبيعة بل كما اراد المجتمع ان يكون » . لذلك فقد فرض المجتمع ابدأ مدرسة على مثاله . وقد عرف ذلك المحافظون والمجددون والثوريون على السواء . ولكن المسألة ازدادت خطورة يوماً بعد يوم لان الذين يطالبون بأن يكون لهم مكانهم في وليمة المعرفة قد تزايد عددهم تزايداً مطرداً .

اتاحت مطاعم « هو » و « مارينوني » ومرصفة « مرغنتالر » ثم سابكة « لانستون » تخفيض ثمن الكتاب الذي بات اكثر استهواء وأوفر حياة بفضل التصوير والرسوم الزهيدة الكلفة . وصدر الكتاب المدرسي والنص الشعبي بأعداد كبرى . ولكن الصحيفة ايضاً استفادت من النجاحات التقنية نفسها : فقد بيعت بـ ١٠٠٠٠٠ فرنك في فرنسا قبيل حرب السنة ١٩١٤ . وأصبحت من ثم في متناول الجميع . وكانت أداة اعلام عظيمة ، وفقرت المعلومات والألهم ؛ وتقلت الرأي العام ووجهتها ؛ فراعت جانبها واستخدمتها السلطات العامة والمصالح الخاصة ؛ وقد امتست لعمرى احدى اعظم القوى الاجتماعية . وطبعت للشباب المجلة الدورية المسلية : فأصدرت جمعية « اوفنستات » الباريسية مجلة « المدهش » التي خلقت مثال « الاقدام المطلية بالنيكل » ، و « الفتاة » و « الشجاع » و « المجدد » . وقامت الاكشاك في الشوارع والساحات الآهلة جداً حيث بيعت كميات كبرى من المطبوعات الزهيدة الثمن (روايات عاطفية وبوليسية وروايات مغامرات) .

استمرت الامية في التقهقر ، ولكن احدثاً لا يستطيع تحديد اهمية هذا التراجع بدقة . فان نسبة الاميين في الخدمة العسكرية التي هبطت في فرنسا من ١٤ الى ١/٤ بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ ، قد انحدرت الى ٢/٢ في السنة ١٩١٤ ؛ ولكن مجندين كثيرين لم يحسنوا القراءة والكتابة . وبينما تزايد عدد الطلاب تزايداً مستمراً في الجامعات ، القديمة والجديدة منها ، انتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة . ففي انكلترا مثلاً كلف « قانون التربية » الصادر في السنة ١٩٠٢ الجمعيات التمثيلية تأمين نفقات التعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة ؛ وقد أملت في تسهيل انتقال التلامذة من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . اما في فرنسا وبلجيكا حيث ما زال الصراع على أشده بين العلمانيين والجمعيات الدينية ، فقد اعترف بوجود

البقاء في المدرسة حتى سن الثانية عشرة او الرابعة عشرة ؛ وتواصل الدروس بعد ذلك اما في المدارس الابتدائية العليا واما في المدارس التقنية .

ارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الاساليب التربوية ، بعد أن أظهرت سيكولوجية الطفل فوائد التعليم المتفق واذواق كل عمر وامكانياته . فنادى « جون ديوي » و« كرسنتاينر » و« ألفرد بينه » بالاساليب المعروفة بالاساليب الفعالة التي استنتجتها « ماريا مونتسوري » و« ديكورلي » من ملاحظات اجريهاها على المتخلفين وغير الطبيعيين .

وكانت الشاغلة نفسها سبباً لقيام الكشفية : فقد رغب مؤسس هذه الحركة ، احد ضباط الجيش البريطاني ، « بادن - بول » ، في انهاء بداهة النشاط المفيد والميل اليه عند الولد ، عن طريق اللعب والانضباط المختار بحرية . وطمعت الكشفية بأن تكون مجتمع أولاد يخضع لقانون ادبي . وربطت بين سلامة الجسم وسلامة العقل . ويرد نجاحها الى حد بعيد بعد السنة ١٩١٠ الى حاجة الفرار نحو الطبيعة التي يشعر بها سكان المدن .

وللسبب عينه نرى أن الرياضة التي توفر قوائد الراحة والصحة معاً - العمال اليدويين ورجال الفكر على السواء - احتلت المرتبة الاولى في النشاطات الاجتماعية . اجل غالباً ما تقرض مباريات وحشية وتتطلب جهوداً ترهق الجسم . ولكنها تستهوي وتذهب بالعقل . فالملاكمة حدث هام في الولايات المتحدة . وأسماء مشاهير المصارعين اخذت تثير اهتمام الرأي العام في العالم القديم ؛ وباتت شعبية سائقي الدراجات المشتركة في سباق الدوران حول فرنسا تقوق شعبية معظم البرلمانيين في قصر بوربون وفي مجلس الشيوخ . فانتقلت مفردات انكليزية كثيرة (tennis , rugby , football , basket - ball , base - ball) الى لغات الشعوب الاخرى . وانتشرت الجمعيات الرياضية في العالم اجمع وعقدت فيما بينها علائق زادت وثوقاً يوماً بعد يوم . وفي فرنسا كرس « بير دي كوبرتين » نشاطه « لبث التمارين الرياضية في التربية » وأطلق فكرة اعادة الالعاب الاولمبية التي بعثت في السنة ١٨٩٦ في اثينا واشتركت فيها ١٣ دولة . فدخلت المباراة العصرية في التاريخ حين بعثت اولمبيا على نطاق عالمي .

واذا رسم « فرنيه » و« جريكو » فرسان السباق والحياد الاصلية ، فان رياضة ركوب الخيل قد اهتمت كذلك « مانيه » و« ديفا » ، بينما عالج « مونييه » و« سورا » المشاهد المائية بلذة . وسيطرت المدرسة التكعيبية بدورها على المواضيع الرياضية .

فما القول عن الآداب الجميلة والفنون الجميلة التي انبثا مخاطب
الاتاج الادبي الوفير والنهضة
المرحبة
العقول الجميلة بحسب التقليد ؟

افضت « الحركة المرقوبية » التي ظهرت بسين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ - و« هي أغرب حركات القرن » كما يقول بارتيس - الى المخطاط الواقعية والطبيعية في فرنسا المخطاطاً نهائياً . واذا كان مقدراً لهذه النزعات ان تتفتح بعد ذلك في اوروبا واميركا ، ولا سيما في القصة ، فقد سيطرت العاطفة والفريضة في الشعر بفضل الرمزية .

وقعددت المدارس في كل مكان تقريباً وتنوعت أساليب التعبير الذي يفسرها ليس فورة الافكار فحسب ، بل تزايد عدد الكتاب العائشين من قلمهم وتزايد عدد القراء ايضاً . وقد انصرف اصحاب الاذواق الرقيقة و «منحطو اواخر القرن» الى الاكثار من المعابد الصغرى بلذة خاصة ؛ فأثروا التمييز ، وحتى العزلة ، على التجمع .

أما الجيل الطالع والباحث عن نفسه فقد عبد الصدق والاعتراف الشخصي واستطاب التفكير بمسائل المصير البشري الكبرى . وقد شجع الازدراء بالمذهب العقلي الخداع انتقال العاطفة الدينية الى الهجوم ، ودفع الى التحليل الباطني والبحث في الوعي الغامض والمسائل الجنسية ؛ واضف الى هذا ان وصف البؤس الاجتماعي وصفاً غنياً وشجياً كان على الدوام موضوعاً جذاباً او مفيداً .

بعد السنة ١٩٠٠ استمرت افنان الشجرة الرمزية في الامتداد فوق اوربا الشرقية ، فأزهرت في روسيا ازهاراً جليلاً . ولكنها اخذت تذبل من جهة الغرب . فنظم بعض الشعراء المبتدعين شعراً طليقاً جداً او مدروساً جداً ، نذكر منهم «ابولينير» ، «بيتس» ، و «جامس» ، «هولز» ، «دهمل» ، و «جورج» ، «فروندغ» . وطلع الايطالي «مارينيتي» بمدرسة «المستقبل» في السنة ١٩٠٩ ، واسس مواطنه «اونفارتى» مدرسة «الحطامية» ؛ وقد تأثر كلاهما بـ «كروشي» المؤرخ والفيلسوف العنادي . ولاحق كذلك دلائل مدرسة استقبالية في روسيا . ولوحظت في اسبانيا حركة عرفت «بحركة السنة ١٨٩٨» طالبت بعد الهزيمة في كوبا والفلبين بفحص الضمير فحصاً متيقظاً ؛ وفي الوقت نفسه مشى «روبن داريو» على رأس «مدرسة عصرية» غنائية لم تلبث ان استهوت معظم بلدان اميركا اللاتينية . وبعد ان قدرت المانيا طبيعية «هوبتمن» و «سودرمن» التي وقفت في وجهها مدرسة الرومنطيين الجدد ، «باهر» ، و «هوفمنستاهل» و «شنيترز في النمسا» ، تذوقت «الانطباعية» ، الذاتية ثم - بعد السنة ١٩١٢ - «التعبيرية» التي انفتت من الوصف ولم تهتم الا بيوهر الاشياء . وسيطر الفنانيون والفرديون من بين «رجال السنة ١٨٨٠» مدة طويلة في هولندا . واعتنق الغنائية كذلك مشاهير البشر السكنديناقي . اما النهضة الادبية التي حدثت من قبل بين البلطيق والادرياتيک وايحيه ، فما زالت تثبت اقدامها ، ولا سيما عند البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين .

كان «ابسن» قد نقل الرمزية الى المسرح ؛ وقد عرفت مسرحيته «مترلنك» نجاحاً عظيماً جداً . ثم ظهر التطور نحو الصوفية في مؤلفات «كلوديل» و «هوبتمن» ، بينما أنتجت ، ارضاء للمشاهدين المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم ، مسرحيات النظريات والمآسي الاجتماعية او السيكولوجية ، والمؤلفات المرتكزة الى التحليل العاطفي دون غيره . وحاولت المهزلة التملص من الدسيسة المبتذلة بالفكاهة والتهكم : وقد اشتهر في هذا الحقل «كورتلين» و «تريستان برنار

و « اوسكار وايلد » و « برنارد شو . اما « بيرندلو » ، الذي انتقل من القصة الى المسرح وذهب في التأمل الباطني حتى النهاية ، فقد ابتغى اثبات صفة الوجود المخلقة .

توفر للمسرح من الوسائل الجديدة وبلغ من تنوع الالوان ما حال دون سيطرة اية نزعة او اتجاه . فمن جهة جمّلت تقنيات الاضاءة التمثيل الذي سعى وراء المشهد العظيم ؛ ومن جهة اخرى حاول الاداء ، برودة فعل طبيعية ، اعادة الانتباه الى تمثيل الممثلين بالاستغناء عن التزيين المسرحي جهد المستطاع . فبعد « أدولف ايبا » ، حرص « لونييه - بو » في مسرح « العمل » ، و « كويو » في مسرح « برج الحمام العتيق » ، و « انطوان » في « المسرح الحر » ، على التجديد الذي رأوا فيه رأي « ماكس رينهارت » مؤسس « المسرح الصغير » ، ورأي « ستانسلافسكي » مؤسس « المسرح الفني » وتلميذه « مايرهولد » . وان مسرح « الطليعة » هذا قد اثار الاهتمام بتصميمه على الاتيان بشيء جديد على الرغم من قلته طريقه . وفي باريس احرزت التمثيليات الكلاسيكية والرومنطيقية مزيداً من النجاح بفضل ممثلين مشهورين بسحر فمهم من أمثال « مونييه - سولي » و « ساره برنار » . زد على ذلك ان هوى المأساة القديمة قد ظهر في اطار الابنية التي لم تقو الايام على تدميرها نهائياً . وبينما امسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً او حرراً بتأثير من « ايزادورا دونكان » ، توصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي ومدرسة « دياغيليف » الى خلق مشاهد تأخذ بجامع القلوب ، معيدتين الاعتبار في الوقت نفسه الى رقص الذكور ايضاً : انها لظاهرة جديدة للاعداء الشرقي الذي غناه ومهد له الطريق من قبل « مالارمي » و « ديغا » وكيفته عبقرية « سترافنسكي » وسلمت به عبقرية « رافيل » .

لم تتوصل هيمنة « فاغنر » الى الاستقرار والرسوخ دون مقاومة ، ارائل ثورة موسيقية على الرغم من وضوحها ومن خدمة هوى الرمزية والفنود الالمانى لها . فان ايطاليا كانت تفاخر بـ « فردي » وقد استت المدرسة الواقعية الايطالية للادب والموسيقى ؛ وفي فرنسا عرف النغم كذلك ، على طريقة « غوفو » ، نجاحاً ثابتاً راهناً . اصف الى ذلك ان الموسيقى الغنائية ما زالت اختيارية : ففي فيينا مثلاً نرى في عداد التمثيليات الغنائية المقررة « لوهنجرين » و « المشهرون » و « عايدا » و « مينيون » وحتى « دوغنو » . وظهرت « مغنّاة » بوريس غودونوف ، « موسورغسكي » فريدة من نوعها بفعل اختصار الملحن الالفاني المؤثر في النفس واهمية اللهجات الشعبية . ولحق « براهمز » ، عبر الضوضاء الرومنطيقية ، بالاشكال البيتوفنية . وبشر قرانك « بـ » عودة الى باخ . نعم الشعور بأن كلاسيكية جديدة ستظهر في الافق : ولكن ظهورها قد تأخر .

فقد جرى حينذاك الحادث العرضي الذي اطلق عليه اسم الثورة الديبوسية . فاهم « غبريل فوريه » منذئذ بالعارض الزائل والاقراط التوافقي الذي جعل موسيقاه تمت بصلة الى الاسلوب الانطباعي واشركه في الوقت نفسه بيجال الرمزية . وعلى غرار « استوحى » « كلود ديبوسي »

« قرلين » واحب « بودلير » وتعدد الى مجلس المالمارمين : فوضع في السنة ١٨٩٢ « مدخل الى ظهيرة احد آلهة الحقول » . واذا لم ينج فيه من السحر الفاغفري ، فانه قد قاوم قول استاذ بايروت بالسلم الملون ؛ واذا لم يستوح « بوريس غودونوف » فقد اوثق الربط ، على طريقة « موسورغسكي » ، بين الفناء والكلام وفصل بين انواع الآلات الموسيقية المختلفة . وبموجب « المدخل » احتجب الخط وراء اللون ، وضحي اللحن بنفسه على مذبذب توافق الاصوات ، وملكت العاطفة نفسها خجلاً . وتآمن بعض الشهرة في السنة ١٩٠٢ ، بفضل « بلياس وميليزاند » ، لهذه التقنية الجديدة ، المقيدة والريقة والحالة .

وفي لغة اكثر شهوانية وأشد قساوة اطال « رافيل » و « روسيل » و « فلوران شميت » عمر الديبوسية في فرنسا على الرغم من انهم تخطوها . ففي عهد « البنيز » و « غرانادوس » و « مالويل دي فاللا » ، اراد « موريس رافيل » ان تكون اسبانيا — بالاضافة الى الرقص والمسجد الفائق — احد مواضيعه المفضلة : قال « لاهابانيرا » ، ورقصة ال « بافان » ، و « القصيدة الاسبانية » و « الساعة الاسبانية » هي من أشهر ما انتجه صاحب الذوق الرقيق هذا .

اما الحقيقة فهي ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها الخالصة لم تلبث ان استنفدت مرادها وتأثيرها . فبالاضافة الى ان ديبوسي نفسه قد أسهم في تحويل المدلول التقليدي الخاصة اللحن ، جرى البحث بالمقابلة ، في قلب « مدرسة المكنين » ، عن لون جديد عند « فنسان دندي » و « سكريبابين » و « بيلا بروتوك » و « ريشار شتراوس » (« الموسيقي الالماني العبقري الوحيد » في ايامنا) كما قال عنه « رومان رولان » في السنة ١٩٠٥ . وسلك « اريك ساتي » طريق « التحير اللحني » وابتكر « ارنولد شونبرغ » سلماً موسيقياً حقيقياً لحن فيه اقصى عنه كل ايحاء بارز . وبدت انكلترا ، حيث تأسس في السنة ١٩٠٩ « تحالف موسيقي » ، وكأنها اهتمت الى سر الخلق المدفون في ارضها منذ وفاة « بورسيل » . وفي هذه الاثناء برزت مواهب « ايفغور سترافنسكي » : فتعاقبت مؤلفاته ، « الطير الناري » و « بتروشكا » و « مسح الريح » (وقد تكلم كوكتو عن « قنبلة المسح ») ، التي الفت موسيقى متعددة الاصوات انطوت على رسم غاية في الجرأة والتنوع . وجاء بروكوفيف في السنة ١٩١٤ يدعم هجوم « البرابرة » هذا بالملحق الغفزي .

سيقول سترافنسكي عن موسيقى الجاز انها « تقليد الفولكلور » . ولكن الفن الجديد ، الذي كان جامعاً حيناً وشهوانياً حيناً آخر ، لم يستطع التملص من واقعه : تحالف بين « البربري » والبدائي . فموسيقى الجاز هي إلى حد ما ، انتقام الزوج ، في اميركا اولاً ، بألحانها الروحية الدينية والحنيئية وانغامها الصارخة المسرحية او المضحكة . ولكنها كذلك تكييف الموسيقى تكييفاً مدهشاً وفاقماً للاسلوب الضاح الذي تميزت به الحضارة الآلية .

وهي في كلا الحالين بعض الهزيمة لاوروبا القديمة .

تعددت الصالونات والمعارض . وتكاثر السامرة والهواة .
ودخلت اميركا المسرح بقبالية الجبابة : فقد جمع « جون
بيربونت مورغان » العاديات البيزنطية المنقشة بالمينا وأواني
الحزف الصيني ولوحات « رافائيل » و « رمبرانت »

الانجاعات الجديدة في الفنون
التصويرية

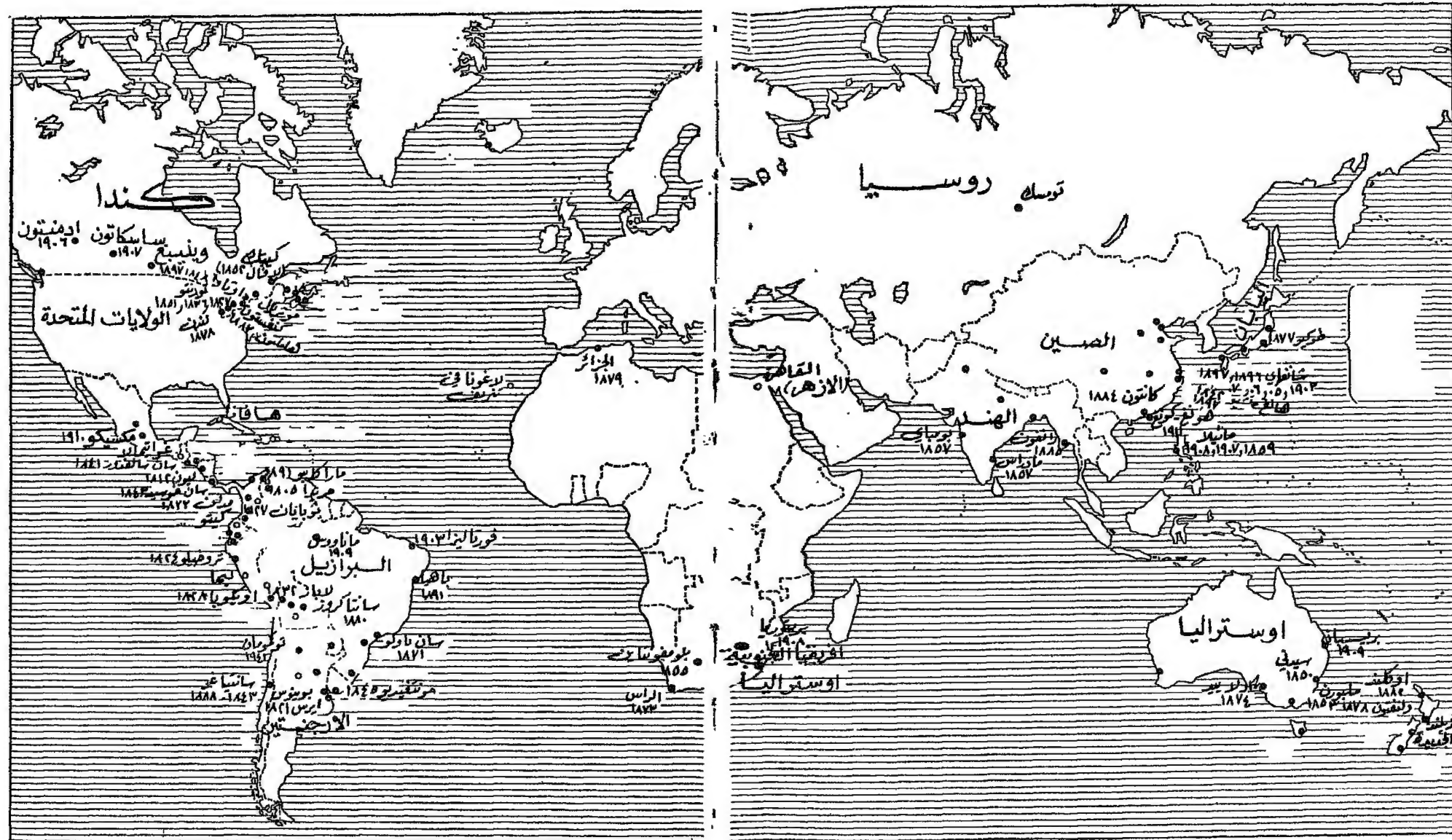
ردة الفعل ضد الانطباعية

و « فراغونار » و « غاينسبورو » ودفع ١٠٠.٠٠٠ دولار ثمناً لاحدى لوحات « فرمير » ؛
ولكن مورغان وامثاله اشتروا ما عرفوا بوجوده عن طريق الاعلان . وانما حدث احياناً ان
الولع كان نتيجة خداع . وربما صح ذلك في « مثل » لوحة « الجريكي » لـ « روسو » التي روجها
« ابولينير » و « سالون » ، بحسب « فرنسيس كارلو » ، واستحسنها « غوغان » و « جارتني »
و « ريمي دي غورمون » . وعلى الرغم من ذلك فان « فان غوخ » لم يعرف لا النجاح التجاري
ولا اهتمام الهواة الصامت ؛ ونقل « ماتيس » لوحاته إلى الصالون على عربات جرها بيده ؛
وتحلى « اوتريلو » عن لوحاته لبائعي الخمر في مونمارتر مقابل قطعة نقدية او قنينة نبيذ .

وفرض رودان « الصاحب » نفسه بفضل الطابع المنجع في النفس الذي طبع به القلق
البشري . فهو قد ضحى بكل شيء على مذبح التعبير والرمز . وجسلة القول انه بقي منعزلاً
بعض الانزال . واما بورديل « الخلاق » فقد تفيد اكثر منه بمستلزمات الخط الهندسي ورجع
الى الفن القديم الذي اوحى به علم الآثار . وهوي « مايول » الخطوط القليلة الانحناء التي سعى
وراءها الاسلوب المصري . وقد برزت مواهب قوية في كل مكان تقريباً . « قلوب » في
المانيا ، و « ابشتين » في انكلترا ، و « وشتورسا » في يو هيميا ؛ ولكن النقاشة عانت من
تعذر اشتراكها مع التصوير الذي ابتعد راضياً عن الفنون الاخرى وعن الجماهير ، ومع هندسة
العمارة التي لم تسلك طريقها بعد ؛ وعانت كذلك من استعبادها لطلبات زبائنها .

دان الرسم بتجآحه للاعلان والبطاقة البريدية المصورة والجريدة . وقد تفوق الرسامون
النكاتون في الرسم الاعدادي المباشر . واشتهر في التصوير الهزلي « كين » و « هابن »
والاميركي « جيسون » والتشيكي « موشا » و « كاران داش » و « فورين » و « ويليت »
و « ستلن » الذي امتدح اناطول فرانس « فنه المباشر والرصين » المتصف احياناً « بمظلمة
ورقة » . وتابع التصوير كذلك سيره مجزم في الطريق الاستقلالية التي بدت له وكأنها طريق
الخلاص . وهذا ما عناه « ريمي دي غورمون » في الدرجة الاولى حين كتب في السنة ١٨٩٩ : « ان
للفن هدفاً خاصاً اثنياً كله ... لا يتكلف برضاه اية رسالة ، لا دينية ، ولا اجتماعية ، ولا
اخلاقية ... يريد ان يكون حراً ، ونكداً ، وغير معقول » . فهل يعني ذلك انتصار ما هو مخالف
للصواب يا ترى ؟

كان نفوذ الانطباعية كبيراً جداً ، وقد واصلت جولاتها في اوروبا ، فكانت مصدر وحي
في المانيا لـ « فون اوهده » و « كورنت » ، وفي النمسا لـ « كلمت » ، وفي السويد لـ « زورن »
ودخلت هنغاريا وروسيا بفضل « باستيان - له باج » . وانما حدث ما ازال بعض العطف



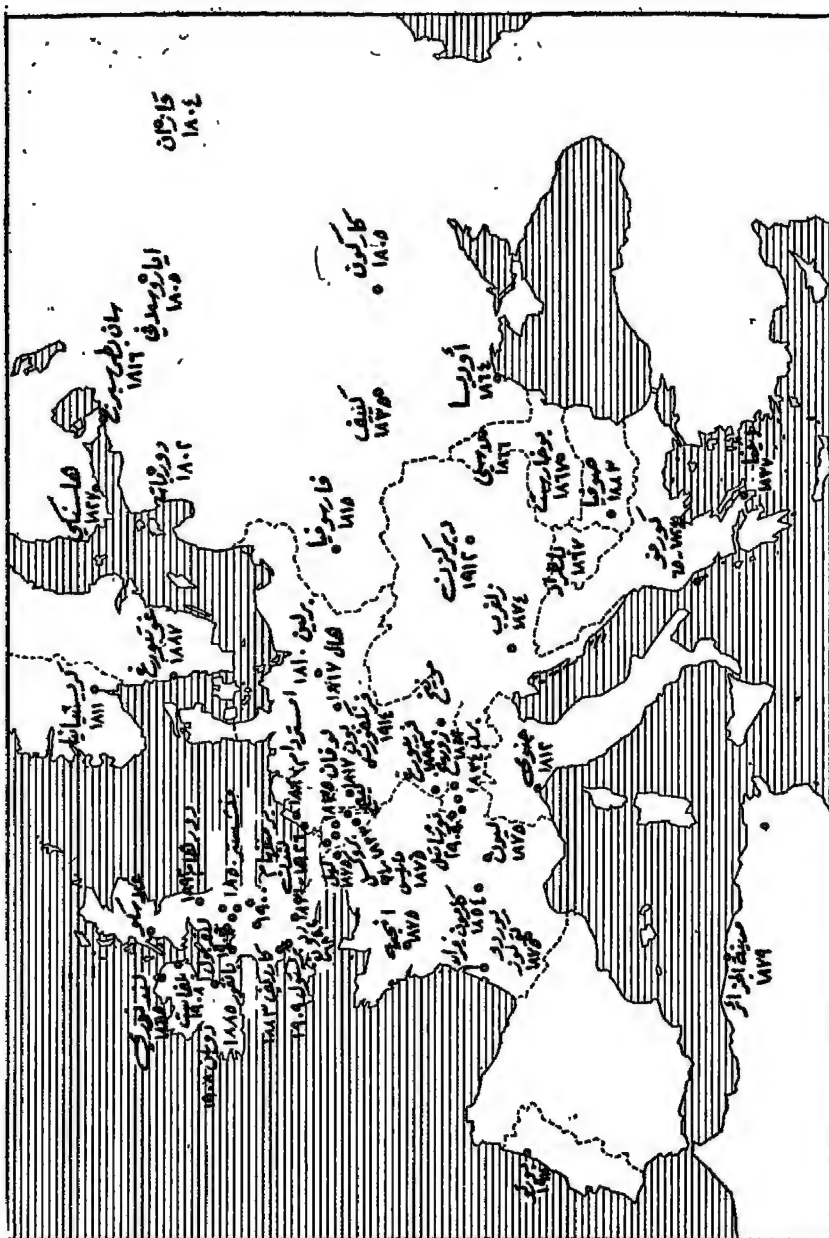
شكل رقم ٢٨ - الجغرافيات في العالم في القرن العشرين
 تشير الدوائر الى بعض الجامعات المؤسسة قبل القرون التاسع عشر ، والنقاط السوداء الى الجامعات المؤسسة في
 القرن التاسع عشر . ولم يذكر في كندا سوى مؤسساته التعليمية العالي الهامة. وحين تضم احدى المدن عدة جامعات ،
 يشار الى هذه الاخيرة بتاريخ تأسيسها . (فعلا عن بلاد شمالي « » جامعات العالم »)

عليها . ويرد ذلك الى ان طريقة « مونه » قد حثرت في النهاية اولئك الذين لم يرضوا ، على الرغم من كل شيء ، بالتضحية بالتأليف ورغبوا في تأثير اعظم قوة . « هي العين ما تأكل الرأس » كما يقول « موريس دني » عن التصوير الانطباعي . واراد « بوني دي شافان » ، المزين الجدراني ، لصورة الرمزية ، رصانة يستوجبها التصوير على الجدران ؛ وتشاهد رمزيته اكثر شهوانية عند « ألبير بسنار » واكثر غموضاً وتخيلاً عند « غوستاف مورو » . وانما أطلق اسم « الالف » على فنانين من أمثال « فانتين لاتور » كلفوا بالموسيقى الفاغنرية ، وأمثال « كاريير » اقصى اتجاههم الميتافيزيقي النشوة التصويرية ، واخضعوا جميعهم كل شيء للحياة العيقة ، وقد انحدروا بسهولة الى التجريد والغموض .

كانت طريقة « تجريد البنيان » عمل ثلاث شخصيات قوية في الدرجة الاولى : « سيزان » ، غوغان ، « فان غوغ » . استطاع الاول في البدء الاختلاط بالفئة الانطباعية : عجز عن القبض على الحركة ، على ما هو سريع الزوال ، فنادى بها هو دائم ومتين . فأعاد للتصميم شأنه ؛ واهمل ما لا يهجه حتى ولو لم يه منه موضوعه ؛ وكان كاثوليكيًا غير صوفي ، وعقلاً ذكياً شغفا بالعظمة البسيطة ، فجن إلى ما هو بدائي وتسلطت عليه فكرة الشمول . اما غوغان فقريب الشبه اليه من اوجه كثيرة : اطلق عليه الرمزيون اسم « التألفي » لانه لم يحفظ من الحواس الا اهمها تأثيراً ؛ ولكنه لم يتوصل الى اشباع هواه البدائي الا بالعيش بين البدائيين الاصليين . واما فان غوغ ، الذي ادمن على السكر ومات معتموماً ، بعد ان انجذ معظم انتاجه بين السنة ١٨٨٧ والسنة ١٨٩٠ ، باذلا في عمله جهداً عنيداً متواصلاً ، فقد اعتمد اصباحاً لامعة واعاد الى اللون كافة امكاناته .

ثم جاءت « الانطباعية الجديدة » التي افرغت مجردها في التعبير عن الضوء والنور بلجوئها إلى طريقة « التجزئة » ، المزعومة علمية ، التي اعتمدها « سورا » و « كروس » و « سيناك » . وجاء « الشقر » بدورهم حوالي السنة ١٩٠٥ : « دبرين » ، « ماتيس » ، « رو » ، « سولم » ، ولا سيما « فلامنك » الذي اعلن « ان التصوير انها هو المحبة » . وقد انتسب بعضهم الى غوستاف مورو والبعض الآخر الى غوغان وفان غوغ . اما في الحقيقة فلا يجمع بينهم سوى عداء معان للانطباعية والمجاهاة بتناهضة الثقافة . فهم انصار اللون الساخط في وجه اللون الساطع . ولكن ماتيس سمى وراء تحقيق نوع من « التوازن » ، وماركيه وراء الاتصاف بركة خفية وعظمة ساذجة ومنطقية معاً . وفي ايطاليا نبضت مدرسة « المستقبل » بالثورة حين ارادت التعبير عن ارتعاش السرعة العصرية . وعلى نقبض الانطباعية ايضاً ، اعتمدت التعميرية التبسيط الذي بلغ حد التصوير الهزلي احياناً : وقد ظهرت في المدرسة الالمانية ، المعروفة بـ « الجسر » ، التي دانت بالكثير لـ « سيزان » وللتروجي « مونخ » المؤثر في النفس الذي احيا « الفن الفني » .

يجدر لفت الانتباه هنا الى ان سيزان وسورا وغوغان ، وبصورة عامة كل معتمدي الرسم الايجازي ، قد انجسوا بالرسم نحو التكعيبية . فقد اعلن ابولينير : « ان الهندسة بالنسبة



للفنون التصويرية هي بمثابة الاجرومية للكتاب ، واهلن كذلك : « سيندو التصوير العصري فناً جديداً كل الجدة وسيكون للتصوير ، كما نظر اليه حتى اليوم ، ما هي الموسيقى للادب » . فالتكعيبية مطلقة ، اصلية ، قاطعة ، واكثر اقفاً من اي وقت مضى ، وتحدد بما يلي : « هندسة غنائية » . وقد جانبها كثيرون : فكانت اشبه بـ « ماتيس » تبسيطات الالوان ؛ وانتقلت من الحياة عند ديرين الى الاشكال المجردة حقاً ، التي يجب ان توافق « الحقيقة بحسب الروح » ، عند « براك » ثم عند بيكاسو . فبموجبها تشابكت المسطحات والمكعبات والزوايا الناتئة ؛ وتذكر الصور المفصلة كما يفصل الماس برسوم النقاشة الزجاجية او البولينية . فان الاندلسي بيكاسو ، الذي اطلق عليه ابولينير اسم « عصفور بنين » ، قد جاء الى باريس في السنة ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالماً أصبحت صورته هندسية بالتجريد . فكان ان بعضهم اكدوا مع الشاعر : « ليس للشابه اية اهمية » ، لان كل شيء يضحى في سبيل حقائق وحاجات طبيعية سامية يفترضها دون ان يكتشفها . فتغلب عدم الاستمرار في هذا الفن كما تغلب في موسيقى « سترافنسكي » .

وانما اذا كانت غاية التكعيبية اكتشاف جوهر الاشياء ، فانها قد مثلت من بعض الواجه ، شامت ام ابت ، مجهود تصوير نقشي بغية الاتفاق وجسارات الخطوط الهندسية التي ظهرت تباشيرها .

منذ اوائل القرن فرضت المدينة نموها الميسخ والفوضوي .
من الاسلوب العصري الى هندسة
المهارة الاسمتية
ووجب انتظار السنة ١٨٨٠ حتى يبرز ويعم الاهتمام
بالتجيزات التجميلية في المدن : فبعد نابوليون الثالث
وهوسمن ، اوصى البرليني « ستون » باحترام الماضي والارض ، وشدد الفيني « سيت » الكلام
على التوافق الواجب بين الساحات والابنية ، وآثر الانكليزي « هارفارد » المدينة — الحديقة —
التي حققها « اوفون » ، في « لشوورث » في السنة ١٩٠٧ ، وفكر السكتلندي « جدس » بتنظيم
المناطق التي تضم عدة مدن . وبينما كانت المانيا البلاد الاولى التي نظمت توسيع المدن ، اعطت
البلدان الانكلوساكسونية الجديدة مثل « نظام الساحة » . وطلع « غارنييه » بفكرة الطرق
المرتفعة وترتيب الابنية وفاقاً لزوايا معينة . واتاحت المؤتمرات والمعارض مقابلة هذه النظريات
وتنت اقرار تعليم يوجهها . ولكن تجميل المدن ابطأ في وعي واجباته العظيمة .

كانت بعض التحقيقات صدمة « لمتمدنين القدماء » : فقد طاب لـ « باريس » في كتابه
(كوليت بودوش) اظهار التضاد بين « ماز » القديمة ، « مدينة الروح » ، الروح الفرنسية
القديمة ، العسكرية ، الريفية ، وبين الابنية الالمانية : « محطة القطار الحديدي الجديدة » (التي)
يبدو كأنها تتباهى بعزتها الثابتة على خلق اسلوب امبراطوري عظيم ، و « التي ليست سوى
قطيفة او قطيرة عظيمة محشوة باللحم » ؛ والحلي الجديد المعبر عن جنون المنظمة (الذي) يضم
الحانات الكبرى والمقاصف البورجوازية المثقلة بالنقوش الاقتصادية الصاخبة ، و « يتطلع الى العظمة

والثروة ، و « ليس سوى كذب وفوضى وافلاس عبقرية » .

ولم يتح الحديد كذلك نهضة هندسة العمارة : فالهياكل المعدنية الحبيبة قد طُلبت حتى لا تتأكسد .
اجل لقد عرف برج ايفل البقاء بفضل الرسوم المقروضة على الصعود اليه ؛ ولكن كثيرين لم
يكفوا عن الانتقاد امام « الظل البقيض للعمود البقيض المصنوع من صفائح حديدية مثبتة
بسامير ضخمة » .

ولم يتوصل الاسلوب المصري ايضاً الى حجب فقر الابنية الرسمية او الابنية التي تعطي دخلاً
للاكياس . فهو في تصميمه على تزيين وجه البناء بتقويمه او تحديده ، كأننا يطيب له التهرب من
الخطوط البسيطة التي بدا وكأن مواد البناء الجديدة تفرضها . الا انه جدد التزيين والورق الملون
والفرش ؛ وكان مصدر وحي لمصنوعات الحديد المطرق الجميلة ؛ واعتمدت زخارفه الزهرية في
الاعلان نفسه ؛ ولجأ اليه الزي النسائي باحكام الاكام و « التنانير » في اعلاها وتوسيعها في
اسفلها بشكل نورات الزهر : فنعمته الساخرون « بالاسلوب الحامل » و « المتموج » ، و « اسلوب
الحرية » ايضاً الذي زعم في انكلترا انه مدين بالكثير الى ازياء ما قبل رافائيل .

هي الفنون التزيينية التي استفادت اعظم استفادة من « اسلوب السنة ١٩٠٠ » . وقد نظم
المجامع المركزي مظاهرة في مكان العرض . وفي معرض خريف السنة ١٩٠٣ ، خصها مهندس
العمارة « فرانتز جوردين » بمكان فسح . فأعطى تعليم « وليم موريس » و « وولتر كراين » ،
مجددي الفنون التطبيقية ، ثماره آنذاك ؛ فتلفت اليها « فان دي فلد » الذي أسس مدرسة في
« نيار » واستعاض عن الرسم المزهرى بالخطوط المعوجة .

عبثاً اصدر « فيوليه له دوك » حكمه على التزيين النافل باسم العقل . وقد وجب ان يظهر
الاسمنت المسلح مزايه في الولايات المتحدة حتى ينطلق فن يتصف بـ « العقلية » . فقد ألبس
الامير كيون الهياكل الحديدية بمزيد من الاسمنت والماء والرمل . ولم يقاوم بناؤهم النار فحسب ،
بل كان المجازة سريعاً واقتصادياً ايضاً . وهو « وليم له بارون جني » من حقق البناء الاول في
شيكاغو في السنة ١٨٨٣ ؛ ثم جاء دور نيويورك في السنة ١٨٨٩ . والغربة التي تلفت الانتباه
هي أن معهد الفنون الجميلة في باريس هو ما خرج معظم مهندسي العمارة الذين حددوا بدقة ،
شيئاً فشيئاً ، تقنيات ناطحات السحاب وسننها الجمالية . وهو « لويس سوليفان » ، خريج
هذا المعهد ، من اقترح لمبنى الـ « اوديتوريوم » في شيكاغو اثبات الحجم العمودي ، ومن قرع
نفسه في السنة ١٨٩٩ بمخازن كارسون الكبرى .

في السنة ١٨٩٤ استخدم « اتاتول دي بودو » ، احد تلامذة « فيوليه له دوك » مادة البناء
الجديدة في كنيسة مونمارتر للقديس يوحنا الانجيلي . فانتصب في العاصمة الفرنسية ، بعد مرور
خمس سنوات ، شرف بناء من الاسمنت المسلح . ومنذ ذاك التاريخ كان الـ « وركبوند » ، الذي
رغب في توحيد الفن والصناعة وتكلم عن « اسلوب موضوعي » ، قد بدأ دعاوته . فوجهها

« لووس » في النمسا ، و « موزر » في سويسرا ، و « سانتيليا » في إيطاليا ، والاخوان « برييه » و « له كور » في فرنسا . وقدم لها « فان دي قلد » مساعدة كبرى . فأصدروا حكماً على التقليد سواء كان كلاسيكياً مستعاراً او نهضة مستعارة او فنا قوطياً مستعاراً او اسلوب فرنسوا جوزف . ففرض الخط المستقيم نفسه ، لا سيما وقد املاه القالب الخشي . والى ماكس كلنجر عاد الفضل في صرامة العري . وانتقلت البساطة الى لندن في « كوداك بيلدنغ » و « ادلايد هاوس » و « بوش هاوس » . وتركت مزيداً من التأثير مخازن ورتهايم الكبرى في برلين التي بناها « الفرد مَسَل » . وقاز الفنانون « المونيخيون » بأغلبية الاصوات في معرض الحريف في باريس في السنة ١٩١٠ . أقلم تؤالف التكميبيية العين يا ترى ؟ وتوجب من جهة ثانية التسليم بالواقع الواضح : لما كانت الجدران لا تحمل ثقل البناء ، اذ ان الهيكل الاسمتي يقوم بذلك ، اتسع المجال في التركيب الهندسي للحاجات العصرية . فكان ان القرن التاسع عشر قد خلف في النهاية وعوداً بأسلوب هندسي جديد حقاً يجمع بين المتانة وجسارة الخطوط وصرامتها .

الفصل الثاني

تجدد الحياة النسوفية والروحفة فأوروب

« كل ما حل اسما فف الفن او العلم او الادب كان
مغافرا للفن » .

(« بول كلودف » ، ١٨٨٦)

« فأقضى بف الامر الى انفف ازدرفت فف ذاتف فف ذلك العلم
الذف كان ممبثا لفخارف » .

(« اندرفه سفف » ، « المافن » ، ١٩٠٢)

المنافعة حول قففة العلم
عند الانتقال من قرن الى قرن ، بدت انطلاقة التقنفات العلمفة
وكأنها قادرة على فبرفر الآمال السفف وضعها الانسان القرفف فف
فمقفقات العبقرفة البرومففة . لا بل ان مكاسب الثقافة توسعت توسعا سرفمعا ؛ واستفادت
الآداب والفنون من مناخ مؤات . لذلك فقد عزم رفنان ، قبل وفاته ، على نشر كتاب « مستقبل
العلم » الذف اوحى « برتلو » فف به فف السنة ١٨٤٨ والذف فمكن اعتباره بمثابة وصفة وضعفة .
واكثر برتلو نفسه من المفاهرة بفمافنه العمفق بامكانات العلم ؛ وقد صدرت خطبه ومقالاته
المجموعة فف كتابفن : « العلم والافلاق » (١٨٩٧) و « العلم والفكر الحر » (١٩٠٣) . وصدر
فف الفففة نفسها كتاب « افافف الكون » لـ « مكفل » . فقد اعلن برتلو ان « العلم هو
ولف نعمة الانسانية » . وهو فطالب الفوم بافارة المفتمعات الفكرفة والافلاقفة على السواء .
وبفضله فمخطو الحضارة العصفرة خطوات مطردة السرفة . ومهما فكن من مزاعم مافقرفه ،
فهو سافر فف سبفله ، غففا سنة العمل القاسفة وخالفا انسانفة افوفة . « فمن معرفة الكون
ومركفب الانسان الطفمفف والافلاقي معرفة ابعد عمقا ، فنجم مفوم سففد لمصفر الانسان

توجهه المداليل الاساسية للتضامن الشامل بين كافة الطبقات وكافة الامم » .

ولكن العلم نفسه بدا متخلخلاً حتى في أسسه بفعل الثورة التي تعرض لها . « ظن خبيراً بقواه الفنية » ووعد متكبراً بأن يعطي الكلمة الشاملة عاجلاً ام آجلاً : « هذا هو الكلام الذي اطلقه « رومان رولان » على لسان رفيق مضطرب ، رومان رولان نفسه الذي تكلم عن « زلزلة السنوات ١٩٠٠ وثورات الفكر التي قوضت واحرقت روح القرن (العشرين) الطالع » . فمقبت المفاجآت المدهشة مفاجآت اخرى أعظم اذهالا . بالامس استلزم كل مصباح يستخدم للاضاءة اشتعالا اجاباً ؛ أما اليوم فمصباح اديسون لم يعد يشتعل لأنه يرتكز الى مبدأ يمنع جذب الهواء . وبالامس اقمعت الداروينية التطور على الاستمرار ؛ أما اليوم فقد عاد « دراش » و « وايسمن » و « دي فرير » الى فكرة التحولات الفجائية واعلنوا : « ليس من استمرار بين الانواع » . وفي الحقيقة لم يعد التفسير الآلي للكون ليقنع ويشبع الرغبات . ومنذ السنة ١٨٧٦ ، ابدى كيرشوف بعض الارتياحات حيال قيمة النظام النيوتوني ، وجاء مالك بخطى تعابير « الاتساع المطلق » و « الزمان المطلق » لأنها لا تطابق شيئاً في النطاق الكمي : واقترح علم طبيعة يرتكز الى الظواهر دون غيرها ؛ وقادت نظرية « الجزئيات » اميل بوريل الى التسؤل عما اذا لم يكن تفسير الظواهر تفسيراً احصائياً اكثر النظريات اقناعاً واشباعاً للرغبات ، اميل بوريل نفسه الذي تعمق ، مع « تشيبيشيف » و « هنري بوانكاريه » و « باشلييه » ، في درس حساب الاتفاق . وسوف يكون من ردة الفعل في أوساط علماء الطبيعة ان « لنين » سيتهمم بالوقوع « في المثالية » عن طريق مذهب النسبية ، بسبب جهلهم الجدل . وعلى أي حال فقد شدد الرياضيون على حاجتهم الى المبادئ الاساسية المسلم بها بدون برهان والى الحقائق البديهية للسير في نظرياتهم . فقد قال اميل بوريل : « ان موضوعية العلم الكاملة ليست سوى أضغاث احلام ؛ فعملنا يقاس بمقياسنا » . ومع العلم ان بوانكاريه لم يترك اي مكان للاتفاق ، فانه قد اعتبر انه لا يمكن وضع اي شيء واضح مدقق وراء كلمتي قوة او مادة ، وبالتالي « ان الاختبار يترك لنا حرية الاختيار ... بمساعدته ايانا على تمييز اسهل طريق يمكن سلوكها » . وطالب له التذكير بأن « العلم لن يكون الا ناقصاً » ؛ « وان من يقول علماً يقول ثنوية بين العقل المعارف والشيء المعروف » . وبعد ان يطرح هذا السؤال : « ما هو العلم ؟ » يجيب : « انه تبويب قبل اي شيء آخر ، اي نوع من التقريب بين الاحداث التي تفرق بينها الظواهر ... » يجب ان نرى فيه سوى « نظام علائق » . وبالتالي اذا ما عين العلم حدوده ، وخطاً الاوهام الخادعة ، وطلب اليها التوقف عن اصدار احكامنا ، فان الكثيرين يمتدحون بأنه يرتاب بنفسه . فيحدث انتقال من اليقين الى الاحتمال البسيط في نظر « بوترو » الذي شدد على كثرة العلوم وكثرة طرائقها . وقرت عين مذهب العملية بتأكيده ان العلم مجموع مصطلحات سهلة الاستعمال ، او بالتفصيل أن السنن ليست كلها سوى سنن تقريبية . وسوف يتمكن برغسون من التأكيد ان الاستمرار الحقيقي لا وجود له الا في الوعي فقط لأن استمرار المادة ليس سوى استمرار متحرك .

لقد لوحظ مراراً كثيرة ان السنة ١٨٨٩ ، سنة احد المعارض العامة ، قد شاهدت صدور كتابين معا هما «محاولة في معطيات الوعي المباشرة» ورواية «التلميذ» التي اظهر فيها «بورجيه» كيف ان « المنكر الكبير ، ذاك المحلل الواعي ، الذي كاد يكون عادم الانسانية بسبب قوة منطقته ، يتضع وينحني وينهار امام سر المصير المغلق » ، وارتدت في النهاية إلى الله . وقد نشبت معركة حقيقية في فرنسا بمناسبة مقال « برونيتير » ، « بعد زيارة للفاتيكان » ، وكتاب رينان « مستقبل العلم » . فان برونيتير ، رفيق بورجيه ، قد وجد امامه برتلو الذي كان من قبل مصدر وحي لرينان . واعلن برونيتير : افلاس العلم ؛ فهو احد اولئك الذين انتقلوا بالاستنتاج من قول « نحن لا نعلم » إلى قول « نحن لن نعلم البتة » . فأجاب برتلو عن ذلك بمجاهراته بعقائد العقلية . بيد ان « زولا » اعترف بأن العلم « لم يعد بالسعادة ، بل بالحقيقة » ، و اضاف : « وللاكتفاء به يوماً ، يقتضي الكثير من التضحيات ونكران الذات نكراناً مطلقاً وطمأنينة فكر قانع يبدو وكأنها لا تصادف الا عند نجمة معينة . ولكن بانتظار ذلك ، اية صرخة يائسة تصدر عن الانسانية المتألمة ! » لذلك حاول بوانكاريه التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بتأكيد ان « الانسان لا يمكن ان يكون سعيداً بالعلم ، ولكنه ... بدونه سيكون اقل سعادة ايضاً » . وفي الرسالة الخيرية التي وجهها لاون الثالث عشر في السنة ١٩٠٢ ، خلص على الرغم من ذلك إلى عجز العلم « عن ارواء التعطش إلى الحقيقة ، والإلهيات ، واللانهاية التي تتطلع اليها برغبة شديدة ... » .

أكد المؤمن بإمكانات العلم انه يمتلك مفتاح اليقين ، وان النتائج المحققة تتصف بركانة تكاد تكون جليلة . وعلى عتبة عهد النسبية ، بدت اعتقاديته وكأنها تشجع ردة الفعل اللاحتمية التي عقدت مع المذهب القائل بتفوق الايمان على العقل تحالفاً غريباً .

سلمت التطورية اللاماركية بان التبدلات الناجمة عن البيئة تنتقل الى الذراري : وهكذا اعتقدت فئة من رجال الفكر ، ضمت « كونت » وسبنسر ، بتكامل الانسانية الفيزيولوجي والفكري معاً . اما التحولية فقد وجهت ضربة هائلة ، بقولها بامتناع هذا الانتقال ، لتفاؤل قرن تأمل الكثير من نحو افضل الميول . وانما ظهر ان النوع ، اذا تم الانتقاء الطبيعي بأقل قضاظة ، لا يتعذر عليه الترقى فعسب ، بل قد يتأخر في الواقع عضوياً ايضاً . فافضى ذلك إلى حل المالتوسية الجديدة الذي اقترحه علم تحسين النسل والذي يقضي بانتقاء طوعي ؛ وفي السنة ١٩٠٧ اجازت عدة تشريعات في الولايات المتحدة تعقيم بعض الافراد من ذوي العاهات . ثم الم يقترح « فاشيه دي لاجوج » منذ السنة ١٨٨٨ الاستعاضة عن التوالد الحيواني والاختياري بالتوالد الموجه والعلمي ؟ ...

الارتياح في تقدم النوع
رفض الحضارة المصرية
ودعوة الشرق الى اللاعنف

حام الشك في الوقت نفسه حول تفوق المبادئ التي طالب
الغرب بالسيطرة باسمها . فهل يقتضي الاعتقاد ، بموجبها ،
بالسلم الاجتماعي والسلم بين الشعوب ؟ لاشك في ان يرتلو
قد قام بوعده : « سيكتسب الانسان مزيداً من اللطف
والاخلاق لانه سيكف عن اعتماد التقتيل وافناء الخلائق الحية سبيلاً للعيشة » . ولكن الجنرال
« دي برناردي » ، حين اوضح مميزات « الحرب المصرية » ، لم يتردد كذلك في السنة ١٩١٢ في
الجزم بمايلي : « المستقبل لـ « بروميتيه » وليس لـ « ابيميتيه » » .

بانتظار ذلك تمنع الشرق عن الانحناء امام نظام لم يمثل في نظره سوى ظواهر قوة مادية .
فقد سبق للصوفية الروسية ان رفضت القيم المرتكزة الى تقدم التقنيات . وقد أسهب تولستوي
في تفسير العظلة على الجبل ، واصدر حكمه على بابل المصرية ، فأعلن هو ايضاً افلاس العلم
وخص بلاده برسالة توفير النصر لثورة اخلاقية . فكتب في السنة ١٨٨٤ - ٨٥ : « ما هو
المطلوب منا ياترى ؟ » مقاومة تقسيم العمل المشؤوم ؟ ورفض الوضعية ، والفن للفن ؟ « والتندم
على الذنوب ، واقتلاع الكبرياء الذي تأصل فينا بالعلم ... » ، والاقلاع من ثم عن استغلال
امثالنا في سبيل الاثراء ؟ والربط بين النشاط الفكري والعمل المادي . « انه لتعليم ساذج ،
يعبر ، في نظر لينين ، « عن عدم ادراك فلاح بطريركي بسيط ، ويذكر « بصوفيات العالم
الاسيوي » .

قال بعضهم ان التولستوية قد استقت علمها الاخلاقي من الانجيل واستوحيت البوذية على
الصعيد الفلسفي . اجل لقد سحرت الهند بمحكتها . ولكنها حين قصدت هي نفسها اكتشاف
الغرب ، لم تحف نفورها الشديد . فقد اغتم « فيفا كانندا » اغتاماً مؤلماً . ثم جاء ابن « دبندرافات » ،
« رابندرافات طاغور » ، الشاعر والفيلسوف والمؤلف المسرحي والموسيقي ، فوقف موقفاً
مناهضاً للمذهب التزهد ، ولكنه اصدر حكمه في الوقت نفسه على حضارة اقترفت ذنباً بايثارها
النهضة المادية على التكامل الروحي والاخلاقي . واستسلم غاندي لافكاره في افريقيا الجنوبية
حيث ذهب يدافع عن مواطنيه ضد الاوروبي : فقرأ روسكين ؛ وعرف تولستوي الذي اوحى
بتشاؤم الروائي الياباني « هاسيغاوا فوتاباتي » ؛ وجاهر بان الجمال يكمن في العمل اليدوي
ورفض الاستسلام للفرائز العنيفة . وفي السنة ١٩٠٩ ناشد الهند « ان تنسى كل ما تعلمته منذ
خمس سنين » ، وذهب حتى النهاية في رفض التقدم كما يفهمه الغرب ، فأعلن : « يجب ان يتواري
عنا القطار الحديدي والتلغراف والمستشفيات والمحامون والاطباء ، الخ . » .

كان اللاعنف من ثم جواباً على العنف ، مولد المجتمعات الجديدة - الذي اعتبره بعض علماء
الاجتماع ، من امثال « له دانتيك » و « له بون » و « ستيفنز » ، ملازماً للجنس البشري ، على
نقيض « دورخام » الذي كان مقتنعاً بان تقسيم العمل يكبح الفرائز الوحشية . وكانت على

اللاعنف هذا ، في نظر اناطول فرانس ، الابيقوري الذي اقلقه ثوران الاهواء القومية ، و «رومان رولان» المرفف الحسن في تذوق الجمال ، ان يهب الى مساعدة العقل المستقل والكلف بالجمال .

اقصر القرن مسألة ما هو ممتنع المعرفة على دور حيادي ، أو التقليد الروحاني والتصوفي مجهول أحياناً ، ما دامت المعرفة تتناول العلاقات بين الأشياء فوق تناولها طبيعتها . فقد كان هناك علماء مؤمنون بإمكانات العلم ، من امثال «تين» ، مثلوا العلوم الاخلاقية بالعلوم الطبيعية ؛ ولكن عقولا لادرية كثيرة ، منذ كونت حتى بوانكاريه ، قد سلمت بأن بعض المسائل ما زالت بعيدة المنال . والحال ، اذا كان صحيحاً أن العلم «لم يعد بالسعادة بل بالحقيقة» وان نسيان «هاجس اللانهاية» يقتضي كفراً بالذات لا يقوى عليه كثيرون ، لأدركنا حينذاك عجز المؤمنين بإمكانات العلم عن اشباع رغبة اولئك الذين اعتبروا مسألة الاسباب الاولى والاسباب الغائية مسألة رئيسية ، حتى خارج الاعتقاد التقليدي . فهاذا يجب ربط مفهوم الواجب يا ترى ؟ هل يكفي القول ، كما فعل برتلو ، ان الاخلاق ليست منوطة «لا بالانانية» ، ولا بالعصية ؟ «فعلى افتراض ان العقل يفسر كل شيء» ، يبقى عليه ان يفسر نفسه ، ونعود حينذاك الى درس المعرفة .

الا أن المصلحين لم يكونوا قلة في يوم من الايام . وسوف يقول بطني : «روحانية كوزن» ، الصبائية والحكومية على الاقل . وبعد مرور نصف قرن سعى «بول جانيه» جهده ليثبت ان العقل يسمح بالفصل بين نطاقين ، نطاق الحتمية ونطاق حرية الارادة : بإيماننا بالحرية ، نجعل من أنفسنا أحراراً ونخلق الله بتصرفنا كما لو كان موجوداً . اضع الى ذلك من جهة ثانية ان رينوفييه انطلق من نسبة تصوفية تجعل القرد يستعذب المبادهة ، ولم يجد قط عنها حين سلم بالله مبدأ كل شيء .

وفي المانيا شوهدت كذلك عودة الى «كانت» : طالما ان الايمان يوفر «مزياداً من اليقين» ، اصبحت التمييزات الكانتية امراً واجباً . ثم برز تأثير شوينهور قوياً ، وان متأخراً ، حين يقول : «لا يكون لدي ما يقلقني» ، فان هذا بالذات ما يقلقني ؟ وقد اقام هذا الكانتي البرهان على تصميم على الحياة مخالف للصواب ، وعلى وجود نزعة غامضة وعمياء ومحدودة وثابتة .

حوالي ١٨٨٠ - ٩٠ ، تفتحت لعمري الروحانية التي تمثلت ، منذ باسكال ومالبرانش ، بـ «مان دي بيران» في السنوات ١٨٠٠ - ١٨٢٠ . واعاد «رافيسون» الاولوية لعلم ما وراء الطبيعة ومهد الطريق امام البرغسونية . وفي نظر «لاشليه» ان الحقيقة الوحيدة هي الضمير ، من حيث ان الاشياء تعبر عن نشاط الفكر فقط . ويدخل «بوترو» في هذه الفئة بنظرية «عدم لزوم سنن الطبيعة» : في نظره ان «قابلية التحول هي القاعدة» . ولم يسبق ان وجه احد مثل الاتهام الشديد الذي وجهه الى مبادئ العلم الوضعي . وكان تأثيره عظيماً على الفكر العلمي في اواخر القرن .

بالمقابلة انتصبت التصوفية الهيفية في وجه الاختبارية والاعتقادية ، وغزت البلدان الانكلوساكسونية . فلم يجد « هل غرين » ، في او كسفورد ، فرقاً بين روح كل شخص والروح التي تبث ، من الداخل ، التطور الكوني . وشدد تليذه برادلي والاميركي « رويس » بدورها ، الكلام على ان وساطة هذه الروح الكونية وحدها تتيح التعاطف بين شتى الضمائر المتناهية . اما نظرية الظواهر التي طلع بها الالماني « هوسرل » ، والتي لم تكتف بمبدأ ديكارت « افكر اذن انا موجود » ، بل ارادت بلوغ الذات اللانهائي الشامل ، فقد كانت « علم الضمير » وقادت الى علم المقولات السامي عن طريق اخرى .

وعلى الرغم من ان « ليون برونشفيغ » قد قال بأولوية العلم ، فقد انتهى هو ايضاً الى تصوفية لانهائية تعاكس الواقعة الاختبارية . وذهبت فلسفة هاملين من المجرى الى المحسوس ، بينما سترت كثر فلسفة برغسون الى الاختبار المباشر المستعجل . ومن حيث هي فلسفة عقلية ، فقد ابرزت ، قبل اي شيء آخر ، وحدة الفكر وعينت بواعثها المنطقية . واليها توجهت تأثيرات « هيفل » و « ريتوفيه » و « لاسليه » .

« ليس الشك بل اليقين ما يجعلنا مجانين » . هكذا تكلم نيتشه قبل ان تعظيم الشخصية يصبح معتموها . وان هذا لشكل آخر من اشكال الاعتراض على القبول السهل بمبدأ الايمان بإمكانات العلم . انطلق من شوبنهاور ، فحاول ابدأ الاتصاف على « عناء الحياة » . وعندما خيبه « فاغتر » انجبه نحو زردشت الذي تعلم رسالته الانسان ، القادر على مواجهة المخاطر ، كيف يصل الى القوة ، اي كيف يرتفع فوق مفاهيم المحبة والمساواة غير المصيبة ، اذ ان المسيحية والديموقراطية مسؤولتان على حد سواء عن هذا « العناء » المقنط . « طالما انا حي » اريد ان تكون الحياة في نفسي وفي كل ما هو سواي ، فائضة ووافرة وحارة جهد المستطاع . وقد قدمت الرومنطيقية الجديدة والثنية الجديدة الارستوقراطية والديونيسية لتفسير المواضيع الكبرى : موت الله ، خرافة العودة الازلية ، خلق انسانية متفوقة . « احدى الحركتين غير شرطية ، تسوية الانسانية ، المناهضة البشرية الكبرى . اما الحركة الثانية ، حركتي ، فهي على نقيض ذلك ، ابراز التناقضات والمهاوي ، والغاء المساواة ، وخلق كائنات كلية القدرة » . فكان صدى الرسالة عظيماً جداً في اوروبا وحتى في يابان الساموراي . اما « كبير كفارد » ، المسيحي القلق ، فقد اقترح قاعدة سلوك تتبع للكائن ان يتحقق بكليته اذ ان الحقيقة ذاتية وخاصة وجزئية (وهذا الشعور المسرحي بالوجود قد كدر « اوانامونو » و « ماشادو دي آسي ») . وجاء نيتشه بدوره — وقد جعله بعضهم احد مصادر الفلسفة الوجودية — يعظم ال « انا » ويعين للانسان مهمة التفوق ابدأ على اعماله السابقة .

وان موضوع الشخصية ، التي تنفتح في الجهد المبذول ، قد طرقه كذلك « براندس » و « ليليانكرون » و « جورج » و « دانوتزو » ، لا بل ظهر عند « توماس مان » و « ريلكه »

ايضا . وبالحرص على القيم الموجودة في هذا القعر المكر الذي استكشفه فرويد استكشاف العالم ، تمت « المجونية » بصلة الى النيتشية : وقد املت على اندريه جيد تحليلًا صادقًا لكل الصديق لنفسه وللآخرين . واقترح الكالفيني السيفيني فلسفة للعمل المجاني في حاضر يجب التمتع به ، واوصى باعتقاد الاقتسار ضد الاقتسارات : « يجب ان يكون الانسان طليقا من كل ناموس للاصفاء للناموس الجديد » . وقد قال بهذه الفلسفة « سوينبورن » و « مردث » و « وايلد » و « باتلر » و « هاردي » الذين طاب لهم تغيير المعجبين بالعصر الفكتوري المشرف على نهايته واهتدوا الى لهجات كبار الروائيين الروس العنيفة . وفي جوار هذه الفئة النشيطة قام « ودكند » و « شو » و « بنفانت » الذين رفعوا القناع ايضا وانتقدوا المراءة على اشكالها المختلفة انتقاداً مرا . وبدا شو بصورة خاصة اشبه بموليير جديد فافر من البشر قد لا يتأخر عن اطراء « اشتراكية غير اجتماعية » . اما ريشار ستراوس ، الذي تردد بين التشاؤم واكثر التصوفيات غطرسية ، فقد استوحى زردست ولحن مؤلف اوسكار وايلد : « سالومه » .

اما الذين كان كافيا في نظرهم تحديد الافكار بوجه استخدامها « لجعلها الموقف العملي واضحة » فقد ركنوا الى ما في المعرفة من فائدة ملموسة جداً . وكان هذا الموقف شبيهاً بالاختبارية من اوجه كثيرة . وبردة فعل كذلك ضد التطورية السبنسرية ، اتجه الفكر الانكلوساكسوني اتجاهاً شبه طبيعي نحو عملية الاميركيين وليم جاييس وديواي القادرة بموجب تحديداتها نفسها على الدفع الى العمل : وقد اعتقد بعضهم باكتشافها في تعاليم ماركس نفسه الذي لم يفرض على نفسه مهمة تفسير العالم بل تحويله . واستعمل الانكليزي شيلر كلمة « الانسانية » للتعبير عن موقف يقوم بتوجيه البحث قبل اي شيء آخر نحو اهداف تتفق ومكانة الانسان . وقد مثل جميعهم ما هو حقيقي بما هو مفيد ، وسلموا واوصوا بكافة الاختبارات الانسانية ، بما فيها « الاختبار الديني » ، بنسبة قدرتها على تعيين الاعمال . وهي ظروف الحياة ما يفرض الكيان ، وليس الكيان ما يفرض ظروف الحياة ؛ ولكن العمل يسمو على الفكر ، بينما يرى الماركسي الذي بقي اميناً لمذهب العقلية ، ان الفكر ، الملازم للعمل ، يسمو عليه بالعلم . فللايمان بالله ما يبرره في احدي الحالتين ، وليس له ما يبرره في الحالة الثانية . فاقترح العمليون من ثم تعليماً تفاؤلياً للتقدم في احترام القيم العريقة في القدم . ويمكن ان يفسر ذلك تفسيراً مختلفاً : فالعملية تساعد على اعادة الحياة العاطفية وعجارية الحتمية العقلية ، كما تساعد على ايجاد ما كيا فيلية عمل حقيقية والسلوك بسهولة بموجب الضمير .

بينما ارتأى العمليون ، شأن بوترو وكثيرين سواه ، عدم لزوم السنن الثورة البرغسونية الطبيعية ، متمسكين بمفهوم الفاعلية ، قامت هناك فلسفة استوحيت العاطفة وهدفت الى تخطي موقفهم بالسمو على الاختبارية والعقلية على السواء . فكأنما حدثت ، بحسب « له روا » ، منذ صدور كتاب « محاولة في معطيات الضمير المباشرة » (١٨٨٩) ، ثوزة حقيقية

شبيهة بـ « الثورة الكانتية » او حتى بـ « الثورة السقراطية » ؛ فكانت « ثورة على طريقة كوبرنيك » في نظر « وليم جايمس » الذي اعلن في السنة ١٩٠٧ : « لقد مات مسخ المذهب العقلي . فقد قتل برغسون بضربة قاضية » . وهلل بيغي بقوله : « لقد حطم قيودنا » .

انها لعملية حدسية نوعاً ما : فالمقصود هو معرفة الـ « انا » لا بتحليل قد يشوهه بتفكيكه اياه ، بل بواسطة « استماع » الى الضمير نفسه ؛ لان الـ « انا » لا يقع تحت قياس يعطي الزمان دون الديمومة . وهكذا فان باستطاعة الحدس وحده التمكين من اكتشاف الـ « انا الغامض » .

والحال لا تتميز ظواهر الضمير في تماقبيها بل هي تماقبدون ان تتميز : هنالك جريان لا آخر له في هذه الديمومة ؛ هذا هو مد الحياة بالذات ، هذا هو « الاندفاع الحيوي » . وفي كتاب « التطور الخلاق » الذي صدر في السنة ١٩٠٧ رفض برغسون الوجوب الآلي نهائياً . « لقد انقضى قرن كامل منذ اختراع الآلة البخارية ، ونحن بدأنا اليوم فقط نشعر بالهزة العميقة التي احدثتها فينا ... » . فـ « الانسان العارف » ليس قط من ثم هو « الانسان العامل » . واذا الغريزة حددت الصعود نحو الاشكال العليا ، فالعقل يدفع اليها ؛ ولكن المستقبل يبقى غير معين ، وحرية الفكر كلية ؛ واذا ما بدت الحرية غير قابلة التوفيق مع سنن العلم ، فرد ذلك الى ان هذا الاخير لا يعبر الا تمبيراً ناقصاً عن الواقع ، الواقع غير المستمر ، اذ ان الاستمرار لا وجود له الا فينا ، في جريان الضمير الذي هو نوعية وديمومة .

كانت نظرية المعرفة ونظرية الحياة من ثم متلازمتين في مذهب 'يحمل الانسان في اعلى سلم الكائنات' ، لانه يمتلك الضمير الذي يتيح له الوصول إلى المطلق ، إلى الله نفسه . وفي السنة ١٩٠٥ ، اظهر برغسون الحاجة الى فلسفة اقرب الى المعطيات المباشرة من الفلسفة التقليدية . ولما كانت هذه الفلسفة معاصرة لنظرية الجزئيات ، فقد اعتقدت ان بمقدورها استخلاص حرية ارادة على مستوى بشري من لا حتمية الجزئيات . ورجعت البرغسونية عن الحكم الذي اصدره كانت وكونت على علم المعقولات ، فجددت السيكلولوجية واسهمت اسهاماً رئيسياً في نقد الايمان المطلق بإمكانات العلم .

برزت غزوة ما هو مخالف للصواب ، كما في العهد الملكي بعد الثورة ، النهضة الدينية بضخامة عدد الاهتدات المدوية ، التي كانت الكاثوليكية المستفيدة الاكبر منها ، كما في السنوات ١٨٠٠ - ١٨٢٠ . ففي غضون القرن ، وجهت الكاثوليكية كلامها الى الجماهير بصورة خاصة ؛ اما اليوم فهي اكثر استمالة لاولئك الذين لم تشبع الوضعية رغباتهم ، وتقرزت نفوسهم من الواقعية والطبيعية الادبيتين . ويرد ذلك الى اثر الرواية الروسية (روايات دوستوفسكي بصورة خاصة) التي روجها كتاب « فوغويه » في السنة ١٨٨٦ ، فوغويه الذي عرف الكثيرين كذلك بفاغنر والثالوث الشبالي العظيم : « ايسن » ، « ميرنسون » ، « سترندبرغ » . ولكن قولستوي نفسه ابتنى الرؤية بناظري الفلاح الروسي ؛ شعر بالحاجة الى التألم بكل قواضع

النجيلي مع البؤساء . ومن جهة ثانية انتقل سترندبرغ من الحساد والوقاحة الى الدين بقراءته مؤلفات سفندنبورغ : فنشر في السنة ١٨٩٧ كتاب « جهنم » ، الذي وصف فيه آلامه النفسية المبرحة ، واكتشف « طريقه الى دمشق » . واهتدى كذلك « فوغازارو » الذي قزت نفسه من المدرسة الواقعية الايطالية ، و « هويسمنس » الذي تخلص بذلك من تسلط فكرة المرض على عقله ، والشاعر كوبيه ، والاشتراكي هوبتمن ، وجورجنسن الذي كان « فرلين » مصدر وحي له في كتاب « اهتداء » ، والناقد الادبي « برونتيبير » الذي استهواه القرن السابع عشر ، الكلاسيكي والمسيحي في نظره ، وكلوديل ، وغوساير وآدي المتصلون بالرمزية . فقد كتب هويسمنس في السنة ١٨٩٥ : « بعد ان عرضت امراض النفس على كافة مستشفيات الافكار ، ذهبت في النهاية ، بنعمة الله ، الى المستشفى الوحيد الذي يضجعونك فيه ويعتنون بك ، الى الكنيسة » . ونذكر ايضاً اهتداء كان له صدهاء العظيم ، اعني به اهتداء بيغي ، عند الانتهاء من قضية « دريفوس » . فان بيغي هذا قد اعلن في السنة ١٩٠٠ : « سوف نقضي بحزم هؤلاء الملائنة العائدين من روما الذين يوصوننا بانكار العلم والعقل ، والانقياد الدائم ، والصمت المتحذر والتوقيري » . وهو الذي كان اشتراكيا بالامس ، فنبذ الاشتراكية ، وجوريس وما اعتبره عداء للاكليروس وحبا للسلم باليين ، بل مشؤومين ، لان مسائل الخطيئة والنعمة تسلطت على عقله . لذلك كان « مستقبل العلم » في نظره كتاباً غاية في المراوغة ، وتنكياً دائماً عن الحماية ، وسوء اثنين . فأصبح ، كما يؤكد « لويس جيليه » ، « ذاك الذي يوحى لي صورة القديس بولس الحية » .

التحق هؤلاء المهتدون اذن بجماعة المؤمنين . فهذا هو الراعي فرنسن ، الروائي الرقيق الذي ألف « جورن اوهل » و « هيلينجلالي » ؛ وهذا هو الصوفي « فرنسيس طومسون » الذي يضاهيه رقة ؛ وهذا هو هيلير بلوك ، واضع المحاولات الحماسية ؛ وهذا هو « ليون بلوا » الذي اطلق على نفسه اسم « أفاق الرب » وكان جريئاً في ادعاء الرؤيا ، قادراً على كل بغض عنيف ، معذباً بالبؤس والالم . اضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المفكرين الكاثوليك اختلفوا على طريقة اقعاد الايمان اقعاداً افضل ، فشدد « اولسيه - لابرون » على دور الارادة ، بينما لجأ موريس بلونديل الى سمو الله لسد الفجوة بين الارادة وقدرة الضمير .

وبالمقابلة برز مجد في الفن الديني . فان تاريخ القديسة جنيفيف الذي رسمه « بوفي دي شافان » على جدران البانتيون ليس قط عمل فن مقدس ، ولا لوحة « المسيح والملائكة » ا « مانيه » ، ولا لوحة « الصلب » ا « سيزان » . وباستطاعتنا تعيين السنة ١٨٩٠ تاريخاً لنهضة هذا الفن الجليلة بفضل لوحة موريس دونيس ، « السر الكاثوليكي » . ثم سار ديفالير على خطاه ، وأشار ليون بلوا منذئذ الى بلاغة « رووو » . وقبل الحرب العالمية انتصبت ابنة العبادة الاولى المتميزة بأسلوب جديد حقاً ، وبدأ باريليه يحدد فن صناعة زجاج الكنائس .

وكانت نهضة الموسيقى الدينية افضل ظهوراً ايضاً . وكان اصلاح الترتيل الطقسي نتيجة لنشر الانغام الغريغورية الذي اعاد للترتيل الكنسي معناه الصحيح . وجعل الوحي الصوفي من

تلاميذة مدرسة « نيدر ماير » ، و « ويدور » و « فيرن » و « فرانك » مجددي الارغن : فمبوا بكل بساطة عن اندفاعات تقوى متينة لا موارد فيها . وفي « مدرسة المرتلين » عند « فنان دندي » ، تسببت مأساة الحياة الداخلية في وضع مؤلفات اشد اغماصا .

الزعة المحافظة ضد النزعة المصرية
سار موريس بلونديل في الخط الاوغسطيني ، في حال ان الكنيسة التي انشقت في عهد لاون الثالث عشر بخطر الايمان المطلق بامكانات العلم ، ساندت الحركة التومية الجديدة التي ابتنت الاستعاضة عن تأكيدات المشائين المقوضة بتحقيقات العلوم المصرية ، ورغبت في تحليل نشاطات المسيحي الاجتماعية .

ولكن ما هو السبيل للتوفيق بين التقليد والمصر؟ لقد اعرب بعضهم مرة اخرى عن املهم ، في عهد « الانضمام » الى الثورة الفرنسية وبراءة « الاشياء الجديدة » ، وفي الوقت الذي اصر فيه « اوغست ساباتييه » اللاهوتي الكالفيني القدير ، المسيحية على حالة نفسية داخلية ورفض كل ما لا يمكن فرضه الا باسم سلطة خارجية وانتهى الى مسيحية بدون عقائد وطقوس ورؤساء . وعلى نقيض ذلك ، وفي مناخ عملي ، اخذت « النزعة الاميركية » ، التي قادى بها الاب « كلان » ، بجماع القلب ، لا بل ووجهت امكانية عقد مؤتمر للتقريب بين الاديان . ولكن لاون الثالث عشر استقبح في السنة ١٨٩٩ موقف الاحبار في ما وراء الاطلسي آخذاً عليهم تضحية الفضائل السلبية على مذبح الفضائل الفاعلة . ولكن النزعة المصرية تسلطت بالرغم من ذلك على العقول في المعاهد والمؤتمرات الكاثوليكية التي حاولت النهوض بعلمي للدفاع عن العقائد المسيحية ، يمكن من محاربة العقليين في عقر دارهم . فكانت مؤلفات هول ووليس دوشين والفرد لوازي الهادفة الى تفسير الكتاب المقدس نتيجة التأويلات التي ما كان رينان نفسه ليتبرا منها في الاربع . وارقات لاون الثالث عشر وضع حد لذلك برقيمه « الله الحكلي العناية » الذي انكر كل خلاف بين اللاهوت والعلم . ولكن الفلاسفة « له روا » وبلونديل والاب لابروتونيير قد اعتقدوا ام ايضا بالاهتداء الى الله باندفاع الكائن وحده : فالتومية لم تشبع رغباتهم . وانتشرت في ألمانيا كاتنتية كاثوليكية جديدة ، هي شقيقة العملية على الرغم من ان لاون الثالث عشر قد اصدر حكمه على هذه « النفسانية الجذرية » . وعم الاب اليسوعي ثيرل النزعة المصرية في انكلترا حيث احرزت « الكنيسة المتساهلة » نجاحات جديدة ؛ وقد انضم اليها مشايخون مجدودن في ايطاليا : وقد فسر فوغازارو هذه الرمزية ببراعة في رواياته . وحين اقصى لوازي عن المعهد الكاثوليكي في باريس ، اصدر السنة ١٩٠٢ كتاب « الانجيل والكنيسة » : فاتهم هذه الاخيرة بمناقضة روح الانجيل واعتبر رينان « المعلم الاول للمصريين الفرنسيين » . وبينما ذكر ليون الثالث عشر قبل موته « بأن العلم البشري لم يجب على المسائل الكبرى التي تتعلق بمصالحنا السامية » ، استصدر الديوان البابوي مرسوماً يمدد ٦٥ « خطأ وخيم العقابة على العلوم المقدسة وقسبر الكتاب المقدس واسرار الايمان الرئيسية » .

في عهد بيوس العاشر وطدت النزعة المحافظة مواقعها. فان براءة السنة ١٩٠٧ نسبت الى النزعة العصرية انها « تجمع كافة الهرطقات ». وقد علق عليها اناقول فرانس ساخراً بما يلي : « يتعذر على الانسان ان يقدر حق قدرها حكمة البابا بيوس العاشر الذي اصدر حكمه على دروس تفسير الكتاب المقدس لأنها منافية للحقيقة المنزلة ووخيمة العقابية على العقيدة اللاهوتية القديمة وممينة للايان ». ثم تناولت ردة الفعل كافة اشكال الكاثوليكية الحرة ، ولا سيما في فرنسا حيث بدا « الانضمام » قضية خاسرة منذ انفصال الكنائس عن الدولة . فهكذا صدر الحكم على مطبوعة « الاخدود » ؛ وهكذا حذرت براءة السنة ١٩١٢ الكاثوليك من اخطار العمل المشترك بين الطوائف الدينية على الصعيد الاجتماعي .

الا ان النزعة العصرية لم تقض إلى حركة هرطقية واسعة . فأمام انشقاق قليل الشأن عددياً، حافظت السلطة الروحية على مواقعها التقليدية التي بقيت جماهير المؤمنين متمسكة بها . وفي عهد بيوس العاشر ، الكاهن القديس الذي كرس نفسه للدفاع عن العقيدة بدون تساهل ، نرى الكنيسة الكاثوليكية ، التي كانت اقل حرصاً ظاهراً على تجديد الروح المسيحية منها في الماضي ، تهدف في الدرجة الاولى الى ان تبقى خير معتمد في خضم الارتياحات والاضطرابات .

النفسانية والمادية امام التطور البشري

اذا سلمنا ، كما يعلم ماركس ، « بأن الآراء السائدة في زمن من الازمنة لم تكن يوماً سوى آراء الطبقة المسيطرة » ، فقد يجدر بنا معرفة ما اذا كانت ردة الفعل التصوفية والروحانية لا تبرز بالدرجة الاولى في الاوساط التي تغلقها « الاشتراكية العلمية » : استفادت البورجوازية من العلم ، فلم تأنف من الايمان بإمكانات العلم المطلقة ؛ ولكن اليست الخشية من مادية معينة ، قد يحسن او يساء فهمها ، وتمثل بمجتمعية تحصى بموجبها ايام النظام الاجتماعي القائم ، دافعاً لها لأن تعتمد بارجحية وعرضية قادرين على انقاذ حرية الفكر وبالتالي على استحقال المستقبل ؟ هذا ما ارتآه « رومان رولان » : « منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد ايام حزيران ١٨٤٨ التي سالت فيها الدماء غزيرة ، اخذت البورجوازية تفقد محبة ذلك التقدم الذي لم يتوقف قط من اجلها ، وذاك العقل ، الممتنع التبدل ، الذي بذلت جهدها بدون ترو في سبيل إرساخ سلطته . وهي الطبقات الصاعدة ، اي انبياء البروليتاريا ومدارسها الاشتراكية ، من وضعت يدها عليها لحسابها ». وفي « اوهام التقادم » سوف يتولى جورج سوريل ، فيما يعنيه ، تقديم البرهان على ان التفاؤل القائل بإمكانات العلم المطلقة انها هو انتاج بورجوازي ، وتحذير « الطبقة الصاعدة » من نظرية مجففة ، وفي الوقت نفسه ، وبصورة خاصة ، انتقاد العملية ، وهي « التعبير الاخير الذي توصل اليه الفكر البورجوازي ». « ان هذه الفلسفة توافق موافقة كلية كل حديث نعمة يرغب في الانتهاء الى عالم متساهل جداً ، بفضل دماثته ، وحرثته وقحة نجاحه ». وقال « جوريس » على طريقته الخاصة : « ليس بعد اليوم سوى طبقة واحدة تستطيع اعطاء الفكر شكلاً اجتماعياً : هي البروليتاريا ». ولذلك حرص

لينين على إبراز الاهتمام الذي يتوجب على هذه الأخيرة إبداءه نحو تحقيقات العلم . وقد سخر من « المصافة » التي أثارها كتاب هكل « في البلدان المتقدمة » وهلل « للاهمية الاجتماعية الحقيقية » التي يتطوي عليها هذا المؤلف أبان « صراع المادية ضد التصوفية واللاادرية » . واثبت اسباب ازواء الفلسفة في الفكر « الخالص » وحصر مهمتها في التبصر في ذاتها بدلاً من التبصر في الواقع ، خوفاً من ان يخطئها الواقع الاجتماعي . وفي رأيه ان الحرب امام نظرية المعرفة المادية قد ارتدى اشكالا مختلفة جداً ، لا سيما وأنه يسهل جمع حلقات السلسلة التي تؤدي من النسبية العلمية الى العملية ، الى التصوفيات الكثيرة والروحانية القائلة بتفوق الايان على العقل . فالتصوفية ليست سوى شكل محص من اشكال مذهب تفوق الايان على العقل ، الكلي القدرة ، الذي يعتمد على منظمات كبرى ولا يزال يؤثر على الجماهير تأثيراً مستمراً ، مستفيداً من أقل غوايات الفكر الفلسفي .

ولكن ما لا يمكن انكاره ، على كل حال ، ان المفهوم النفسي ، الذي احتفظ من جهة ثانية بانصار اقوياء ، قد لب في النطاق التاريخي عدداً كبيراً من خصوم الماركسية . اجل لقد امكن « ماكس وبر » النظر في العلاقات بين « علم الاخلاق البروتستانتي وروح الرأسمالية » وامسك عن « احلال تفسير مادي من طرف واحد محل تفسير روحاني... من طرف واحد ايضاً » ؛ ولكن « درويسن » يحزم بأن « تأمل ومعرفة الاشياء الماضية لا وجود ولا ديمومة لها الا في الفكر المتناهي » ، و « روه » يضع في الحاضر « مركز رسم المنظور » ، و « تويني » ، البرغسوني المقتنع ، سينتهي الى نوع من التاريخ اللاهوتي . اما « بندتو - كروتشي » فيعتبر ان التاريخ « يدخل في مفهوم الفن العام » ، وانه « روحاني » ، وان عليه اكتشاف الاندفاع الحلاق مرة ثانية ، كما اراده « فيكو » (الفن جدس خلاق ، وليس ، كما حدده « فرنسكو دي سانكتس » ، تليذ هيفل ، « نتاجاً لاشمورياً من نتاجات روح العالم في فترة معينة من فترات وجوده) . وليس من تاريخ ، في نظره ايضاً ، سوى التاريخ المعاصر : « لأن موضوعه ، مهما بلغ من قدمه ، يعيش في فكر المؤرخ بهوى الحاضر نفسه » . فنحن من ثم امام تاريخ فلسفي ونسبي كان ردة فعل للتاريخ الوضعي الاسلوب والماركسي المفهوم .

رأى كروتشي في الواقع الاقتصادي نفسه عملاً من اعمال الارادة . ولكن الاقتصاد السياسي ، فيما يعنيه ، يعيد التفكير في مسائله نفسها . فلما لم يعد الايان بالتوافق ممكناً ، بحسب حلم المدرسة الحرة ، فقد فرق بين الاقتصاد الخالص ، المجرد ، المنظور اليه نظرية توازنية خلوا من المفزى العملي ، وبين الاقتصاد النشط الذي يستلزم الاختلالات ويخضع لحاجات الانسان اكثر من الاقتصاد الاول . وعاد العلماء الى كورنو ، فاسندوا برهانهم الى قوة آخر رغبة اشبعت : فأراد « الفرد مارشال » ، الاهتمام بمواقب الانسان ... الانسان المركب من لحم ودم . هذه هي نظرية القيمة - الفائدة التي جعلها الهامشيون مقابلة لنظرية القيمة - العمل الماركسية : وقد استنتجوها من المبدأ النفسي ، باعتبار ان « الانسان الاقتصادي » يعمل في اتجاه مصلحته المدركة

خير ادراك . وهناك المدرسة الرياضية ، او مدرسة لوزان ، مع « جيفوت » و « والراس » و « باريتو » ، التي يؤول كل شيء فيها الى مسائل توازن تطرحها آلية المقايضة دون غيرها ، ومدرسة فيينا او « منجر » السيكلوجية التي واصل تعليمها « بوم - باورك » و « فون وايزر » اللذان يعتبران الجهد المبذول والتضحية المقبولة امرين جوهريين . فاعتقد شارل جيد في السنة ١٩١٣ ان بإمكانه كتابة ما يلي : « لم يعد قط من اقتصادي يؤمن بأن القيمة ثمرة العمل ... فالرغبة هي سبب القيمة الاوحد ... » .

لقد خضعت مميزات الآليات الاقتصادية من ثم لجدل حار ، وساد الارتباك حول الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي . فلم يبق قط هنا سوى ارجحية بسيطة تخفف من تفاؤل الامعي الذي وجه اليه ماركس والوقائع ضربات خطيرة .

الفصل الثاني

الدول الاستعمارية والحمى القومية أعراض التفكك الأوروني

في الوقت الذي كانت فيه عوامل الحياة تتجدد باطراد ، أخذت اخطار مخيفة تهددها باستمرار . فالاقتصاد الرأسمالي الذي ركبته حمى التوسع والانبساط يخضع لسنة الحشد والتجمع ويسمى دوماً انقطاع الى توحيد السوق العالمية مع اثارته الروح الامبريالية التي اخذت تقيم الدول الاستعمارية الكبرى بعضها على بعض . وفي الوقت ذاته ، نشهد احتداماً كبيراً في المشاعر القومية التي أخذت تجيش وتضطرم في نفوس هذه القوميات او الاقليات المستضعفة . وهكذا أطل على العالم احتمال قيام حرب عامة واستبدت الفكرة الى حد بعيد بأذهان البشر وسيطرت على تفكيرهم اليومي .

ساعدت الازمة المالية التي عانى منها العالم طويلاً بين ١٨٧٣-١٨٩٥
في تكوين تكتلات صناعية ومالية . وبالرغم من رجوع العاقبة
الى الناس واستئناف النشاط ، فلا يزال مسيطراً على النفوس
الخوف من وقوع ارتكاسات تجر وراءها ركوداً جديداً في الاعمال وهبوطاً اكبر في نسبة
الأرباح ومعدل المكاسب . فالازمات التي كان يتجدد وقوعها بصورة دورية كانت تأتي فعلها في
مثل هذا المصير الذي لم يكن من السهل تفاديه . فالأزمة المالية التي وقعت عام ١٩٠٠ / ١٩٠١
تسببت بتكوين ٧٩ اتحاداً احتكاريًا في الولايات المتحدة الاميركية . ففي سنة ١٩٠٩ ان ١٪
من المشاريع الانشائية كانت تستخدم ٣٠ بالمائة من مجموع اليد العاملة كما كانت تستعمل ٣٨ بالمائة
عام ١٩٠٤ . وفي تلك الفضون ، وقعت أزمة ١٩٠٧ التي سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية

ارتفع عددها بين ١٨٩٦ - ١٩١٠ في ألمانيا وحدها من ٢٥٠ الى حوالي ٤٠٠ ؛ وفي سنة ١٩٠٨ كان واحد في المائة من المشروعات الانشائية يستخدم ٣٩ بالمائة من اصحاب الاجور ويسيطر على ٧٧ بالمائة من القوى المحركة . وهذا التطور يبدو على شكل اوقع وصورة أقفل في النفس في بعض البلدان الاخرى كروسيا واليابان اللذين حاولا قطع المراحل بسرعة . وبالرغم مما بلغ من اتساع ورحب حركة المنافسة ، فقد بقيت مع ذلك ، مرتبطة ، على اقدار مختلفة بأقلية من المبتكرين . ان نصف ثروة الولايات المتحدة الاميركية القومية هي في يد ٢٥ الف فرد من افراد الشعب الاميركي .

فسيلة الرأسمالية النقدية هي التي استطاعت أن تؤمن لحسابها مثل هذا الحشد . هنالك بعض المصارف الكبرى ، لا يزيد عددها خمسة او ستة على الاجمال ، هي التي تستبد بأهم الدول الكبرى في اوروبا كما ان للولايات المتحدة الاميركية الخمسة الكبار *The Big Five* من هذه المصارف . فالبنك الاهلي الالماني يشرف على ٨٧ مصرفاً ثانوياً في البلاد كما كان يسهم في ادارة ٣٠ مصرفاً آخر ، عام ١٩١٠ . هنالك عدد لا يحصى من الاتفاقات والمشروعات ربطت ، بشكل آخر ، الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية . فالبعض منها اتبع الحشد الافقي (امثال : دورمان ، لونج ويلدون في الميتالورجيا او الصناعات الحديدية ، وبرادفورد دايرز في صناعة الاصباغ والالوان ، وشركة *Cable Makers* لدى البريطانيين ، كما ان البعض الآخر أثر الحشد الشاقولي او العمودي ، فانطلقت كروب من صناعة الحديد لشراء مناجم الفحم وتجارة الفحم والغاز ومشتقاته ، بينما ينصرف ثيزين وستينز للتخصص بتجارة الفحم من استخراج وتسويق وتنفيق ، وينشئ في هذا السبيل شبكة من الخطوط الحديدية . ولم يفتح ولم يسهل لفر ، مؤسس شركة *sunlight* و *Port Sunlight* ان ينشئ امبراطورية له من فروع هذه الشركات في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . بل ابتاع له مزرعات واسعة في افريقيا والفلبين وانشأ فيها مصافي لتكرير البترول ، كما اهتم بانشاء مراكز لصيد السمك ، وانشأ صناعة المرجرين او السمن النباتي بحيث اصبح يتصرف بأكثر من مليون ليرة انكليزية عام ١٨٩٠ ، وبعشرين مليون عام ١٩١٣ .

ونشاهد منذ الآن التفوق الساحق الذي حققته في اليابان شركتان يابانيتان هما : المتسوبي والمتسوبيشي . وجبارة المال على شاكلة مورغان وفندربل وروكفلر ، سيطروا ايضاً على مرافق صناعة الميتالورجيا وعلى الطاقة الكهربائية وعلى صناعة البترول في اميركا . لا يمكن ان نفصل عن ذكر هذه الشركات المقاربية الضخمة وشركات المخازن الكبرى وشركات التأمين على الحياة وشركات صنع الاسلحة . فقد وحد باسيل زهاروف الذي رفعه ملك انكلترا الى رتبة النبلاء بين شركة نوردفيلت وشركة مكسيم ، كما ضم ، فيما بعد ، مكسيم الى فيكرز ؛ ورنس البرت فيكرز اتحاداً دولياً من كبار رجال الاعمال من بعض الشركاء فيه بتليم وترني ، كما أن شليدر وكروب يشرفان على اعمال شركات *Poutilov* و *Skoda* . والكركتل الدولي لصناعة

البارود وقع تحت اشراف اتحاد نوبل ودوبون دي نور .

اما الارباح التي لا يزال بحثها العلمي في مرحلته الاولى ، فمعدلها يختلف نسبة بين سنة واخرى ، ومن قطاع الى آخر . فشركة دوبون مثلاً حققت ربحاً صافياً بلغ ٥٠ مليون دولار بين ١٩٠٢ - ١٩١٢ . ويفضل الطريقة المعروفة بارساء رأس المال نرى شركة صنع الفولاذ الاميركية ترفع رأسمالها من ٦١٧ الى ٧١٧ مليون دولار وتصدر اسهماً بـ ١٤٤ مليون دولار بعد ان امتصت شركة مناجم بحيرة سوبيريور البالغ رأسمالها ٩٢ مليون دولار وتطورت الى شركة جديدة رأسمالها ١٤٨ مليون دولار . ويعترف كروب بأن ارباحه بلغت ٣٠ مليوناً صافياً عام ١٩٠٣ و ٣٤ مليوناً عام ١٩١٣ - ١٩١٤ .

وراح فرقاء من أصحاب المصارف يخططون لهجوم نموذجي بعد ان اخذوا يتقاسمون فيما بينهم او يتنازعون في كل مكان ، المشروعات الاستثمارية ذات الاهمية . نحن نجهل الكثير من حوادث هذه المعركة ودقائقها وهي معركة خاضوها للسيطرة على الحامات الضرورية والاسواق العالمية . هنالك حرب صامتة كان من اهدافها السيطرة على القصدير ، وأخرى رمت للسيطرة على الكبريت واخرى للتحكم بالنسج دارت رحاها بين الشركات الاميركية والانكليزية . واحدى هذه المعارك الاكثر معرفة لدينا في دقائقها وتفصيلها هي معركة النفط او البترول ، نشبت اول ما نشبت ، بين شركة ستندارد اويل ورويال دتشل شل من جهة ، وبين شركات نوبل - روتشيلد . فوقائهما البارزة تدور حول نفط القفقاز وبين المناطق البترولية الجديدة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المكسيك والعراق وايران . واتخذت هذه الحرب شكل صراع بين الانكليز والاميركيين . وقد شعر الرأي العام بمثل هذا الصراع الواسع المدى بين الدول دون أن يتبين تماماً مدها ، وهو صراع ان لم يسدد السلام مباشرة في العالم فقد زرع مع ذلك الاضطرابات في كثير من الدول .

ضعف اوروبا في الاسواق المالية
اخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الاوروبية الكبرى
تشد وتتمد ، وهو وضع يمكن رده الى الصعوبات والعراقيل
التي اعترضت سياستها التوسعية الامبريالية .

ويبدو ان اوروبا اخذت تتلمس بعض مواطن التأخر والضعف النسبي في مركزها ونشاطها . ففي عام ١٩١٣ كانت اوروبا تسيطر على ٨٠ بالمائة من مجموع النقل البحري وهي نسبة لا تعادل سوى ٤٢ بالمائة من مجموع حركة النقل في العالم ، وهو معدل محترم الا انه آخذ بالتقهقر والهبوط تدريجياً ، وهو ادنى من حصة اميركا الشمالية (٣٦ بالمائة) بالنسبة لفارق السكان بين القارتين . لا تزال بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها الممتاز في صناعة النسيج والحياكة ، الا انها عجزت كما عجزت المانيا نفسها عن الاحتفاظ بالاسبقية في انتاج الفحم الحجري والميتالورجيا ، وهي اسبقية صارت الى الولايات المتحدة الاميركية التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً

اكبر وأبعد .

وأخذت أوروبا تفقد شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتفاء الذاتي وراحت تعتمد أكثر فأكثر كل سنة على اقطار أخرى في العالم ليس في الخامات التي هي بحاجة إليها فحسب بل أيضاً في المواد الغذائية التقليدية . ونلاحظ ان بريطانيا العظمى لم تعد تعمل على محاصيلها الزراعية ، الا بنسبة ٦٠ بالمائة ، وان بلجيكا تستورد عام ١٨٩٠ نحو ٥٥ بالمائة من القمح و٧٥٪ بين السنوات ١٩١٠ - ١٩١٤ .

ان ٦٠ بالمائة من التبادل التجاري يقع في داخل أوروبا او بين هذه الدول والدول الأخرى في العالم . الا ان وضع أوروبا من هذه الناحية هو اقل من قبل لصالحها . والجدير بالملاحظة هنا التأخير الذي نلاحظه في موقف انكلترا التي كانت تنتج ستة اضعاف ما تنتجه الولايات المتحدة من الفحم ، عام ١٨٧٠ ، بينما انعكس الوضع بينها عام ١٩١٣ ، اذ نقص انتاجها من هذه المادة الى الضعفين من انتاج اميركا . فاذا ما عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى الى عام ١٩١٠ بانتاجها للحديد ، فقد جاءت عام ١٩١٣ ، في المرتبة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والمانيا . ومجموع الحركة التجارية انخفض معدلها من ٢٢ بالمائة حوالي عام ١٨٧٥ ، الى ١٥ بالمائة عام ١٩١٣ ، وهبطت حصتها من النقل البحري الى الخمس بعد ان كانت الربع . ومن جهة أخرى بينما يأخذ الميزان التجاري في البلدان الواقعة الى الشرق من المحيط الاطلسي (هو ١٠ بالمائة لالمانيا و ٢٠ بالمائة لفرنسا و ٣٠ بالمائة لانكلترا) تسجل حركة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعا كبيرا . وأوروبا مدينة بما لها من قوة في ميزان المدفوعات لاستثماراتها العديدة في الخارج . فهي تحتفظ بثلاثة ارباع الثروة المنقولة ، بينما بريطانيا العظمى وحدها تبرز الولايات المتحدة في حساب الثروات الوطنية . وقد تبين من عملية حسابية ان الفرد الواحد ينفق في السنة ٢٣ الف فرنك بينما لا ينفق الفرد الانكليزي سوى ٢٠،٧٠٠ ، والفرد الفرنسي سوى ١٤،٥٠٠ فرنك . وهذا انما يعني انه اذا كانت أوروبا لا تزال تبرز سكان الولايات المتحدة استهلاكاً في العام للمواد الاستهلاكية من اي نوع كانت ، فلا يزال الاميركيون في الطليعة بالنظر لعدد الفرقاء المتناولين . والشعور السائد في أوروبا هو ان ما تتمتع به من مستوى اعلى في العيش ، يعود الفضل فيه لهذا التراث الذي خلفته لها العصور الماضية . ان اي تطور من هذا الشكل من شأنه الا يساعد قط على قيام حالة من التفاهم بين الدول ولا السلام الاجتماعي .

لما كان تم تقريبا اقتسام كل الارض القائمة على كرتنا الارضية ، استثمار أقوى للبلدان الجديدة فقد انصرف الاستثمار اكثر فأكثر الى استثمار بطن الارض وثرواتها الخبوءة في هذه المستعمرات . فبين ١٨٩٠ - ١٩١٣ ، زاد طول شبكة الخطوط الحديدية التي انشئت في كل من أوروبا والولايات المتحدة الاميركية (٢٦٥،٠٠٠) كلم مقابل ٢٢٢،٠٠٠ كلم في المستعمرات وفي البلدان الأخرى المستقلة او المتمتعة بشيء من الاستقلال الاداري . فبينما

يرتفع ، في المدة نفسها ، مجموع صادرات الدول الصناعية من ٢٢ ملياراً الى ٧١ مليار فرنك ، زادت هذه الحركة ٢٤٪ داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المال ، و ١٤١٪ في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها اي اثر يذكر لهذا الرأس المال . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار معدل الزيادة في حركة المبادلات التجارية نرى ان الدليل ١ في عام ١٨٩٥ ارتفع في اوروبا الى ٢ عام ١٩١٣ ، والى ٤٤٣ في الأرجنتين ، والى ٤٨٠ في اليابان . فمن اصل ٢٢ دولة سجلت تجارتها الخارجية مليار فرنك واكثر عام ١٩١٣ هنالك عشر بينها ، باستثناء الولايات المتحدة ، تقع خارج اوروبا .

وقد تركز الانتباه حول الاقطار التي تستطيع تقديم الحاجات والمواد الاولية او تصلح للتجهيز الصناعي والتقني . ومن الامور التي لها دلالتها ان الولايات المتحدة رفضت اعطاء الفيلبين استقلالها بعد ان وعدتها به ، في الوقت الذي انصرفت فيه لمد هذا الارخبيل وكوبا وبورتوريكو بما تحتاج اليه من عدة وعتاد وتجهيزات . وقد قبلت بلجيكا من جهتها ، هبة الكونغو الذي كشف عن غناه بفضلات الحديد وإنتاجه لها . وقد اتجهت اطماع الدول الكبرى الى المغرب وطرابلس الغرب حتى الى تركيا ، ولم يعم شمالي افريقيا من جبل طارق الى قناة السويس ، ان وقع تحت احتلال الدول الاوروبية . كذلك اتجهت حركة التبادل التجاري في انكلترا بالاحرى ، نحو الهند وبلاد الدومنيون ومقاطعات افريقيا الاستوائية ودول اميركا الجنوبية ، بينما لم تسجل هذه الحركة مع دول القارة الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية سوى تقدم خفيف . وانصرفت جهود فرنسا الى ادخال تحسينات محسوسة على وسائل ووجوه استغلال امبراطوريتها الاستعمارية وهي سياسة قامت بخدمتها وعهيد السبل لاحقاقها ، الجهود التي قام بها بعض رواد الاستعمار الفرنسي أمثال اتين وجوار و دومر ، كما اتجهت هذه الجهود لتقوية المصالح المصرفية والصناعية والتجارية . وهكذا اطلت علينا الجزائر كبلد تتوفر فيه محاصيل الكرمه وبواكير الفاكه والمزيد من انتاج المعادن . وقد زاد انتاج البلاد من القمح مع بقاء المساحات الصالحة للزراعة على وضعها ، وادخلت وسائل جديدة على تخصيص التربة ورفع قدرتها الانتاجية . وقد جلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات الانظار الى تونس . وقد سار دومر قدماً في هذا المجال في الهند الصينية ولجا الى فرض رسوم عالية على المشروبات الكحولية ، وعلى الملح لتغذية صندوق هذا القطر الذي يتمتع باستقلال اداري ، كما عمد الى تنشيط حركة الانشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة . وقد لفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن بفضل السدود الكبرى التي اقيمت على النيل في الصعيد . وكان اهم من ذلك بكثير قدرة الهند والانسولاند الانتاجية ، وهذا الدفع الاستعماري الذي شهد العالم في هذه الحقبة ، ساهمت به على اقدار متفاوتة كل من كندا واستراليا وروسيا والصين والبرازيل . وهكذا برزت امانم العين سمات الدول الاقتصادية العظمى التي تقاسمت فيها بينها اقطار القارات الخمس .

ومع ذلك فعندما ننظر الى النزعات القائمة نرى تضارباً
تطور التزامن للرأسمالية الدولية
قوياً بين السياسة التي ترمي الى توحيد السوق العالمية وبين
والقومية الاقتصادية
السياسة التي تسعى الى تنشيط الحياة الجبركية .

فالإ ٦١ اتفاقاً دولياً-عقدتها الدول حتى عام ١٨٩٠ ، يجب ان نضيف ٦١ اتفاقاً دولياً
جديداً تم توقيعها بين ١٨٩٠ - ١٩٠٠ و ١٠٨ اتفاقات اخرى جرى توقيعها بين ١٩٠٠ -
١٩١٠ وقد قامت عبر الحدود والحدود علاقات اوثق واوطد . فشركة *Ritchie* الانكليزية
الاميركية لاستثمار مناجم النيكل في كندا ، اقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفي
بلاد الغال وعلى مقربة من لندن . ومعامل الصلب في لنغواي تنضم الى معامل الصلب القائمة
في روتشلتون في ساربروك وتالت شركة *Thyssen* وشركة *Gelsenkirchen* امتياز استثمار فلزات
الحديد في فرنسا ، وشركة دندل الفرنسية الالمانية لها معاملها الخاصة بصنع الحديد والفولاذ في
مقاطعة اللورين ، ومصانع لاستخراج الكوك في الروهر ، ومصانع بوتيلوف وقعت تحت اشراف
اصحاب معامل أسن وكروزو ، وتعمل معامل كروب سيندرز وفيكرز على مد الدول القائمة
فيها هذه المعامل والدول الاخرى ، بما تحتاج اليه من العتاد الحربي دونما تمييز فيما بينها . والرأسمال
المال البلجيكي يساهم بشكل محسوس في بناء شبكة المترو في باريس ، كما ان ٦٠٪ من فنادق
الشاطيء اللازوردي يعود لشركات اجنبية . وبناء خط بغداد الحديدي تم بعد عدد من
الاتفاقات الدولية يشترك في التوقيع عليها عدد من المصارف والشركات في كل من المانيا وفرنسا
وانكلترا . والتضامن يبدو على اكمله في هذه المراكز الدولية التي تتحكم بأسعار البضائع وبحركة
البورصات في العالم . وبشيء من الاعتداد بالنفس ، راح الامين العام للجنة مناجم الفحم في فرنسا ،
هو هنري بيرييهوف ، يصرح في حزيران ١٩١٤ قائلاً : « حلت سياسة المشروعات الاستثمارية
محلاً مرموقاً وراء الحدود ، الى جانب السياسات الاخرى ، كسياسة المفاوضات الدبلوماسية
والتنظيمات الكبرى » . ويبدو ان عبقرية السان سيمونين والكوبدينين عملت دوماً بزخم مدفوعة
الى ذلك بالتفاؤل وحب السلام للسير بالبشرية تحت قيادة وتوجيه نخبة من الاشخاص الدوليين
ورجال الاعمال المتصفين بالدراية والحنكة . وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأموال التي
تشد العالم ببعضه الى بعض تتألف من ملايين المودعين ومن كبار رجال المال المساهمين بعملية
مسكونية باتساعها ، جماعية بالفعل لخير الانسانية الاكبر .

الا ان هنالك ، على كل حال ، ضغط مستمر على السلطات العامة والبرلمانات بحيث ان المنافسة
الدولية لم تسبب اي اذى للنشاطات الوطنية . وهذه الغيرة ذات النزعة الخاصة التي افادت
كثيراً من الازمات الطويلة التي اشتدت وطأتها بين ١٨٧٣ - ١٨٩٥ ، ومن الخوف من الحرب ،
ومن الرغبة في التسليح لتأمين السيطرة والامتداد ، بقيت ناشطة بعد زوال الازمة وعودة الامور
الى نصابها . فانتصار «لست» على كوبدين ظهر واتضح . صحيح ان بريطانيا العظمى رفضت الاخذ
بالبرنامج الذي عرضته عليها عصابة اصلاح التعرفة الجبركية التي انشأها تشمبرلن . ونظام حرية

التبادل التجاري الذي اعتمدته وسارت عليه بعد ان ادخلت عليه تعديلات مستوحاة من نظام الدول الاكثر رعاية، عول كثيراً على اخراج الفكرة المرحية لاي دولة تعمل على الخارج في امور معاشها ادمى ما تحشاه ارتفاع تكاليف الميش لديها. فمن ميلين الى بولوف ، ومن ماك كيلي الى وايت ، كان على التعرف الجهرية ان تتيح للمزارعين وللصناعيين المتضامنين بعضهم مع بعض ان يخضعوا المستهلكين للقوانين التي يخضع لها المنتجون ، الذين يرغبون في ان يكونوا بآمن من هبوط جديد في الاسعار ، مما يسبب لهم انخفاضاً في ارباحهم . والحماية الجمركية ذات النزعة الوطنية التي اصبحت كالاتفاق المهي ، شكلاً لا بد منه من اشكال الاقتصاد المنظم ، تعتبر بفضل استمرار الاخذ بها والعمل بموجبها ، الدليل القاطع على تحول النظام الرأسمالي الحر.

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية،
اسس السياسة الاستعمارية الوطنية

وتصدر مثلها من معين القومية الحذرة ومن كره الاجنبي المتأصل في ابناء البلاد . بلغنا ، يؤكد ماك كيلي بصراحة ، عام ١٩٠١ ، هذه الدرجة من النمو الصناعي بحيث لا بد لنا من ايجاد اسواق جديدة للفائض من انتاجنا ، بعد ان تم لنا فائض يتحتم تنفيذه وقصره . وراح الفرد ملنر ، بعد ان قام باصلاح النظام المالي في مصر ، ورأس تكوين اتحاد جنوبي افريقيا ، يصرح ، عام ١٩٠٤ ، امام مجلس ادارة الرابطة البحرية البريطانية ، قائلاً : « انا رجل استعماري ، امبرالي مائة بالمائة » . والحال نرى مواطنه الاقتصادي الحر هوبسن ينسب الى الروح الاستعمارية الذي يصفه دريو ، عام ١٩٠٧ بأنه الخاصة الاكثر تمييزاً والاكثر جدارة بالملاحظة ، التي برزت في اخريات القرن التاسع عشر ، نطاقاً سياسياً - اجتماعياً واقمياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد رأسمالي يخضع للروح القومية . وهذا القول يتفق تماماً مع الرأي الذي قال به لثين وهلفردنغ ومعظم فلاسفة الاشتراكية . ومهما يكن من الامر ، فقانون التضخم التاريخي كما ورد على لسان تارب الذي قال باحتذاب الكتل الكبيرة للكتل الصغيرة ، هذا القانون الذي عبر عنه عالم اجتماعي آخر ، هو الأستاذ Greef ، احد تلاميذ Corey ، يجب ان يعمل لصالح الدول الكبرى ، التي جاءت على مقاييس « امبراطوريات كونية » . وقد رأى هاز رئيس رابطة الجامعة الجرمانية في الامر مرحلة ضرورية في حركة تطوير اي جهاز عضوي حي سليم . فهذا الاندفاع الحيوي يحتاج الى مدى حيوي هو Lebensraum .

ومن الطبيعي جداً ان تشهد كل سياسة استعمارية الارض والسماء عالياً « بأن الامبراطورية الانكليزية ، بما هي عليه من مساوئ وعيوب ، تتمتع بنفوذ بشري ، تمدينني مسالم لا مثيل له في عالم اليوم » ، وبولوف نفسه يصرح قائلاً : « يدعو الانكليز الى انكلترا عظمى ، ويدعو الفرنسيون الى فرنسا كبرى ، ومن حقنا نحن ايضاً ان ندعو لمانيا كبرى » .

وفي سبيل الدفاع عن الوطن الام ، راح عدد من دعاة الاستعمار سوادهم من الفرنسيين يفكر باستثمار المستعمرات الواقعة وراء البحار . افلم يقترح ملكيور دي فوغويه ، عام ١٨٩٩ ،

سحشد جيش من ١٠٠ او ٢٠٠ الف من هؤلاء الجنود البواسل ، بين سنغاليين وسودانيين لا يعرفون للمنطق دوراً ولا للصنم محلاً ؟ وقد كتب لويس سوبوليه ، عام ١٩١٢ ، قائلاً : « على الزنجي ان يفهم ويدرك جيداً بان الدولة التي استقرت في داره وفرضت عليه سيادتها وسؤددها ، هي سيدة مطاعة ، تبسط سيطرتها فوق السهول والاحراج والغابات ، هي اقوى واعمد من كل ما تعاقب عليه وعرف من اسياذ وخبر في ما مضى من سلطات حاكمة . فما من شيء يأخذ بجماع قلبه ويؤثر فيه اكثر من اطلاعه على هذه الابداح وهذه الانتصارات الحربية المجيدة التي سجلها كل من لويس الرابع عشر والجمهوريه ونابوليون ، وهذه المعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مرأى منه »

« اني أقدم لكم هذه الامة المتشاورفة التي تدعي المسيحية ، المائدة اليكم بها هي عليه من ادران ووسخ ، ملطخة بالدماء ، مرضوضة ، فاقدة شرفها من اعمال القرصنة التي قامت بها في كياو - تشاو ، ومنشوريا وجنوبي افريقيا والقبليين . فالدناءة والحناءة ملء برديتها وجيوبها منتفخة من الذهب الذي سلبته ، ولسانها يفيض رياء وكفراً . اعطوها ثياباً نظيفة وصابوناً ، ولكن اياكم والمرأة ، ابعدها عنها » (مارك توين) .

لم يلبث مبدأ القوميات الذي استشرى الأخذ به في القرن التاسع عشر ان اتخذ مظهراً له فكرة العرق او العنصر ، هذه الفكرة الدليل العرقى والعنصرية
التي لم يعد مدلولها يقتصر على الجنس البشري ، بل تعداه الى شتى الفرق ليذوب في مفهوم الدولة او الدول . وهكذا اخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية ، وهي عروق مختارة او مصطفاة معدة لقيادة العروق الاخرى حتى راحت تعتقد ان مستقبل « الحضارة » مربوط ، الى حد بعيد بقيام هذه العناصر المختارة وبالرسالة السامية المرسومة لها من قبل العناية الالهية . وفي الوقت ذاته اخذت الاوساط العلمية تتردد ، في ابداء رأيها ، حول طبيعة العرق وجوهره ، وراح بعض الكيميائيين ، بدافع من الافكار الرجعية او بدافع من الفرض الشخصي يجمعون من العرقية حقيقة واقعية تتميز كلياً عن الدولة وعن الديموقراطية والطبقة الاجتماعية ، وغير ذلك من التجريدات المسلم بها اليوم .

بقي ان نعرف من هو لعمرى العرق المختار . فقد سبق لنوينو ان اقترح « العنصر الآري » ، وجعله العنصر الارستوقراطي في الدرجة الاولى بشهادة اشتقاق الاسم . وهكذا شدد على المناقبة التي يتمتع بها الاوروبي الشمالي الفاتح او الغازي ، في الاصل ، وهذه النظرة تتلاقى والنظرة التي قال بها وعلم بولنفيليه ومونتلويزيه اللذان راحا ، منذ القرن الثامن عشر يشيدان بها للفرنك من حق صراح بهذه الميزة بوصفه محارباً نبيلاً ، مؤهلاً ليحكم العنصر الغالو-الروماني ، الذي غلب على امره وبرهن عن دناءة وخساسة .

ولكن ما هو السبيل للتمييز ، بين السكسوني والجرماني ، في اوروبا اليوم ؟ فبعد ان رحب

كل من كارايل وكنفسلي ومن بعدهما ذلك وسيلي، وبعد ان غنى كبلنغ راح الاول يشيد بالمآتي
والانجازات الحربية التي تمت على يد سكان الجزر ، سواء في قلب الشعوب القديمة او في سباسب
اميركا وافريقيا واوستراليا العذراء .

ثرائنا واسع رحب ومساهمتنا وافرة

وروابطنا اقوى وامتن من هذه الحياة السريعة العطب (كبلنغ)

ومع ذلك فالاعتداد الاميركي لا ينقص بشيء عن تطرف الوطنية البريطانية وغلوها . فهما
من أرومة واحدة . ولذا احتار هذان الاخوان المتنافسان ما اذا كان عليهما ان يمضي في تنافسهما
الحاد للسيطرة على العالم او ان يتحدا معاً على حكمة وتعقل وفرض سيطرتهم عليه .

ومهما يكن ، فقد شدت بينهما رغبة واحدة بالمحافظة على نقاء الاصل عن طريق الامتناع عن
مصاهرة ومخالطة العروق الملونة المتطرف بالخطاطها ، فقد اخذا بصورة غريزية يبدأ العرقية او
العنصرية في هذه القارات الجديدة حيث يدعون انهم في ديارهم . فمن طريق الاستثناء او اقله
عن طريق التمييز العنصري ، اخذوا يحدون من تطوّر الاسود والاصفر على السواء . فمن
اجراءات فردية او جزئية اتخذت في كاليفورنيا وفي فكتوريا ، توصلوا الى سن تشريعات منهجية
منها : قانون تحديد الهجرة ، في الولايات المتحدة وفي استرال آسيا تجاه الآسيويين والميلانزيين ؛
وقانون التربية الوطنية في مدينة الكاب وفي بريتوريا ، هذا القانون الذي اخذ يحدد مناطق الزواج
الاصلية (فجعلها ١٢٪ فقط من مجموع هذه البلاد ، وهو قرار تتبناه المحكمة العليا في واشنطن
وتطبقه على الزواج في الاتحاد الاميركي الذي يتسلح بشرط الجد البعيد او الارومة ويحتج بهذا
الشرط ليحرم الزواج من حقوق الانتخابات العامة ، مع الاحتفاظ شكلاً ، بخرافة « المنافع
المتساوية » . يجري كل هذا بصرف النظر عن ردود الفعل الجماعية البديهة او العنيفة ،
والدوافع التي تلي على هذه الاشتراكية التي لا تنهض على اساس ، يقول بها الاستراليون ، تنحصر
في قانون جزيرة العمال الهادئة الذي صدر عام ١٩٠٤ ، وهو قانون نم عن عقلية صالحة لظهور
ما يعرف بالاشتراكية الوطنية .

وقد راحت المانيا تدعي ، من جهتها ، التفوق العنصري او العرقي ، واستشهدت في هذا
السبيل بأرمينيوس وشارلمان را الامبراطورية المقدسة والقوة المستعادة التي يعمل تربتشكيه
وسبيل على شرحها وتفسيرها بأسلوب مشوق . فهي تستشهد بفوينو لاثبات نظريتها هذه
وتعمل على نشر مؤلفاته وآثاره المخطوطة . وفي هذا الوقت بالذات ، يفكر الكاتب الانكليزي
هوسن ستيوارت تشمبرلن ، عام ١٨٩٩ « من جهة نظر الشعوب الجرمانى » كتابه الموسوم : « اسس
القرن التاسع عشر » نحا فيه باللائمة على الدور الضار الذي قام به انسان البحر المتوسط كما يشجب
التعاليم الدينية التي جاء بها ابن البابوية ، ويروح غليوم الثاني ينذر ، وهو يرأس مجمع ستيودس
سان جان في مارينبورج : « بالانقضاء على «السرقات» تأديباً لهم على وقاحتهم بحيث يحققهم

نحفاً . . . ويعمل نفسه باقناع انكلترا - رهبة او رغبة - باقتسام الرسالة التمديدية امام الخطر الاصفر والمنافسة الاميركية التي تزداد حدة وسورة .

ما هي الاسس التي ينهض عليها التفوق الانكلوساكسوني ؟ يتساءل ديولن ومهبيا يكن فهناك سبيل لنبذ الفكرة المغلوطة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيما بينها، كما يصرح الدكتور غوستاف لوبون الذي يرى التصالب او التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة . ويمتدح فاشيه دي لابونج فضائل « الانسان المستطيل الرأس، المعروف بحبه للسيطرة وبرغائه الملحقة » ويحذر من البورجوازي « هذا الفطر الطفيلي السام الذي ينمو في ظل المقصلة ويرتوي من ولع دماء النبلاء والكهنة » . والدعوة الى الفرائز الدفينة تجد صداها ، على الاجمال ، بين العاملين في الارض، وهي دعوة تتجلى عند بارس في قصته : « النشاط الوطني » . وعند بورجيه الذي يتبنى نظرية *Gobineau* و *Vereinigung* ويدعو الى بعث فضائل الاسرة ، وعند موراس الذي كانت همه الاكبر الرجوع الى نظام ملكية لا مركزية نقابية ، وعند باسكولي واوانامون . « ليكن لدينا ، يقول بارس في كتابه : « الاكمة الملهمة » الشجاعة على استئثار السير على هذه الارض البدائية بجرأة وان نعني ، بالرغم من الظواهر الباردة بحرارة ملكة الحماس القائمة » . فالكل ومن بينهم بيغي يشد العرق بالارض التي تغذيه وتنميه وتعطيه اسباب البقاء والديمومة . فاذا ما احتج احدهم ، فعلى الفوضى الجشعة وعلى اشتراكية الصراع الطبقي . فالعنصرية تهيم السبيل امام ثار اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها مع « البعث الاسباني » عام ١٨٩٨ ، وفرنسا المنتصبة ضد دريفوس ، معدة هي الاخرى لمهمة تمديدية جديدة سامية .

العرقية اللاسامية وظهور الصهيونية الدولية
قبل عام ١٨٤٨ قام المستشرق لاسن يضع السامين تجاه الآريين .
فقوبينو يرى من جهته ان « الآري المتحدر من صلب يافت
يسمو ليس على اقوام السود والصفير فحسب ، بل ايضاً على
ذرية سام . وقد زعم بعضهم ان اليهود ، خلافاً للمتعارف المؤلف بين الناس ، يؤلفون ، بين شوب
اوروبا لعدم تزاوجهم الا فيما بينهم ، العرق الصافي الوحيد ، وهو الذي يستطيع وحده بالتالي ان
يسود ويحكم . وعبثاً راح رينان الذي لم يكن مع ذلك ، دوماً فوق العنعنات والاخذ بالوجوه ،
يهاجم هذا الرأي الذي انتشر وشاع بين الناس بفضل جهود بعض الدعاة أمثال ادوار
درومونت .

والحال ، هنالك دعاوة مناهضة للسامية كانت غافية تحت الرماد تنتظر من يبعثها ويوقظها .
قالى الورا من الغرب الاوروي ، حيث كان العنصر اليهودي يتغلغل ويرسخ بفضل الروح
التحرورية البورجوازية وعرف ان يحافظ الى الشرق من على القارة ما انصف به من حيوية ، حيث
شكلت المجتمعات اليهودية العديدة أقليات تمسكت بشدة بتفاليدها وعاداتها ، بالرغم مما تعرضت
له من الاضطهادات والتضييعات واسطورة الذبيحة البشرية التي دعوا ان الطقوس التلمودية

نصت عليها ووصت بها ، كانت لا تزال تلقى اذنًا صاغية وألسنة تتناقلها بالرغم من تلاشي نفوذ التلود بين اليهود ، في الاوساط اليهودية .

من الاسباب التي ادت الى اشتداد حركة مناهضة السامية في الامبراطورية الالمانية والامبراطورية الاوسترو - مجرية ، توافد اليهود اليها من بولونيا واوكرانيا . فاذا ما رأى الكثيرون في السامي ، على الاجمال ، مرابطاً جشعاً لا امل باصلاحه ، فقد تبين بعضهم فيه ثوروباً يتكالب على تقويض القيم المرعية واخلخلتها طمعاً منه بالصيد في الماء العكر . وصورة جانوس المزدوجة الوجه تذكرنا ملامح احدهما بلامح روتشيلد كما ان ملامح الوجه الآخر تنم عن ملامح ماركس . ومن جهة اخرى ، فالخسد مفسدة ويقضي للأذى في هذه البلدان وهذه الاوساط حيث يلاقي النشاط اليهودي ، بفضل التساهل الديني الذي يسود هذه البلدان والاسواط ، التسهيلات اللازمة للنجاح . وهكذا أطلقت حركة منافسة اليهودية واتخذت شكل مناهضة السامية والتصدي لها ، واتجهت ضد الاجيال المتحررة ، بحيث راح اشخاص امثال برينو - بارادول وارنست هافيه ، يرحبان بظهورها ويحملانها من المنافع التي طلعت بها الحضارة . فكيف نفسر الغنى والثراء الذي يرفل فيها اليهود ؟ أليسوا لانهم تفننوا في اساليب السرقة والابتزاز ؟ وكيف نفسر نجاحهم في الوظائف العامة ؟ فهم يحتلون عن غير استحقات ، الوظائف التي يمارسونها . اما كفاءتهم العلمية والادبية والفنية فكثيرون ينكرونها عليهم ويشكون بوجودها ، من بينهم درومون ، مثلاً .

قد يصحح ببيل قائلا : « ان عداة السامية ليس سوى اشتراكية المعنوية » ، كما ان باستطاعة فورنييه ان يوضح قائلا : « لنا إلهنا ماركس ولنا شيطاننا الرجيم روتشيلد » . هنالك عدد من انصار فورنييه وبرودون وبلانكي ، ومن اعضاء حزب شعبيين الروس حتى وبين تلاميذ غسد يتممون الرأسمالية ، اليهودية في صميمها ، بينما يرى ماركس ان عبادة المال تؤلف حائلاً دون تحرير اليهود وتحرير جميع الناس ايضاً . « ليسقط روتشيلد ، ليسقط اليهود » ، كانت تهتف باريس ، عام ١٨٨٠ ، وهو الهتاف نفسه الذي يحرك دوماً شفاء الفقير المعدم ضد الغني الذي انتفخت صناديقه . وراح المستمسكون بالتقاليد يستغلون هذه الاحقاد ويحولونها ضد هذه الفئة المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك والظنون ، ويشيرون غضب الجماهير واحقادها ، ويذكرون في النفوس البغضاء ضد العنصر السامي المعروف بشعوبيته وبعدم انتمائه الى اي وطن ، فيؤلبون الناس احزاباً وعصائب تطالب باتخاذ اجراءات جذرية لصيانة المجتمع ، وبالتمييز العنصري ، والطرد ، واحياناً بالمذابح (وهكذا أطل علينا ممثلاً بشخص موراس فلسفة وضعية مضادة لليهود) . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء المنبوذين كلهم اغنياء . فاسمع ما يقوله هنا الكاتب الكاثوليكي المتحرر ، اناول لاروا - بوليو : « لا اعتقد قط انه يوجد على كرتنا الارضية عنصر ذهب فريسة الاملاق والفقير المدقع مثله » ، كما ان بيغي يصرح من جهته قائلاً : عنصر فقراء بين اليهود ؟ عددهم كبير ، هم من الكتلة بحيث يتعذر عددهم او احصاؤهم ، أراهم في كل

مكان . وهذه البروليتاريا تزرع الخوف في نفس الفني ، يودياً كان ام غير يودي ، ولأنه يودي وهذا ذنبه الاكبر ، والبروليتاريون الآخرون لا يطبقون منافستهم . فاذا ما راح القس ستوكير يشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي اخذ يطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة وفي دولايب الاعمال ، وهو برنامج تبناه بمخافيره الحزب الوطني الالماني الذي شكله شونرير والذي مكن لويجر من الفوز بعمدة فيينا ، عام ١٨٩٥ ، فقد سنت انكلترا ، عام ١٩٠٥ ، قانون هجرة للاجانب الذي اوصد ابوابها دون الشرقيين المعوزين ، كذلك فعلت اوستراليا .

ومع ان حركة مناهضة السامية اخذت تتمدد وتتسع في كل من النمسا والمانيا - مع ان بسمارك وغلبيوم الثاني يستخدمون رجال الاعمال من اليهود ويرعيان جانبهم ، والزعيم الوطني ترشكيه يكتب : « اليهود هم مصيبتنا الكبرى - فروسيا هي التي تحملها عليهم حرباً عواناً تتصف بالعنف والشدة بينما يحتفظ لفرنسا الجمهورية بعمل مشهود . أهو تلاقي الحلفاء ؟ فقد قابل قطائع كيشينيف وبيالستوك هيجان المواطنين التي اثارها قضية درايفوس . وعلى كل فبين الحادث الفردي الذي اثارته قضية الضابط الفرنسي وبين المأساة المشتركة التي وقعت في الشرق ، مأساة اليهودي البائس ، ليس من سبب مشترك اقله في الظاهر : فالفضيحة العسكرية في نظر القرن التاسع عشر المتحرر هي : « القضية التي وضعت وجهاً لوجه النظام والحركة ، التقليد والعدالة . فالمبادئ الكبرى ، مبادئ عام ١٧٨٩ ، تعود فتتقلب وتقوز بالطبع ، ولكن بعد ازمة حادة طويلة خلفت وراءها ذكريات مريرة « الثورة الدريفوسية » كما يسميها جورج سوريل بأسلوب غامض .

ولم تلبث نتائج هذا الدفع العنصري او الطغيان العرقي ان ظهرت دون تأخر . فيطل علينا « اليهودي الثاثة » الذي يمضي في سيره الموصول ، فنشهد هجرة من اقوى واشد الهجرات ينتقل معها اكثر من مليونين من يهود روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اثار قدوم هؤلاء البائسين ، في الرأي العام الاميركي ، ردات فعل ضد دخول عناصر غير مرغوب فيها ، البلاد الاميركية بحرية .

ولما كان في العالم شعب يودي يتميز عن غيره من شعوب الارض ، فلتعد اليه ، على الاقل ، البلاد التي عاش فيها قديماً والتي ألفت فيها وطناً قومياً له ! ومنذ عام ١٨٦٢ ، راح احد حاخامات مدينة ثورن يدعى كايشر ، يطالب بانشاء وطن قومي يودي . وفي سنة ١٨٧٠ ، اي في السنة ذاتها التي تأسس فيه الاليانس الاسرائيلي ، انشأت هذه المؤسسة التربوية ، في مدينة يافا ، مدرسة زراعية لتدريب طلائع المهاجرين اليهود الى فلسطين . واذ قام جريتر بوضع كتابه الكبير : « تاريخ اليهود » ليعيد الى اذهان ابنا جلدته ، ايجاد الشعب اليهودي والمجازاته عبر الاجيال . فاذا ما مكنت الهبات المالية التي قدمها ادمون دي روتشيلد الى « اصدقاء صهيون »

من تأسيس أولى المستعمرات الزراعية في الاراضي المقدسة ، فقد وقع اكثرهم ، وفقاً لرغبة البارون دي هيرش ، تحت تأثير الدعوة بالذهاب الى العالم الجديد . وقد جاء الحكم على الضابط اليهودي دريفوس وانتخاب لويجر عمدة لمدينة فيينا حافزاً حاسماً في توطيد عزم الزعيم اليهودي ثيودور هرزل على نشر كتابه الموسوم : « الدولة اليهودية » ، محاولاً بذلك ايجاد حل نهائي للقضية اليهودية ، وهو كتاب صدر عام ١٨٩٦ . وبالرغم من مقاومة فريق كان يخشى من ان يتحول اليهود من الرسالة التي عهد بها الى اسرائيل - هذا الشعب النبوي ، على زعيم ينفسي - كما يخشى من استقلال المناهضين للسامية ، لهذا الشعور القومي ، فقد اخذت الفكرة الصهيونية بالانتشار والسريان في العالم . وهرزل الذي كان رسول هذه القضية ، والمجاهد الاكبر الذي نهض بها دونما ملل ولا سام ، عرف ان يضمن لقضيته انصاراً ومريدين متحمسين من بينهم العالم الاجتماعي المشهور ماركس نوردو ، والكاتب الاسرائيلي زنجويل . وعمل على عقد المؤتمرات ، واكثر من اتصالاته برؤساء الدول ومراجعتهم ، وحاول ان يكسب لدعوته هذه عطف البابا والسلطان العثماني والامبراطور غليوم الثاني والحكومة البريطانية . ولما كان محمولا في مسامه بفكرة سياسية اكثر منها دينية فقد اضطر بعد ان ذاق مرارة الفشل واليأس ، الى قبول عرض قدم اليه يقترح انشاء وطن لليهود في اوغندا . الا انه بعد عام ١٩٠٠ ، طلعت علينا الدعوة (*l'alyah* او العودة) الى فلسطين وانشاء الصندوق الوطني اليهودي في سويسل شراء فلسطين وانشاء مؤسسة تل افيف وبعث اللغة العبرية .

في كتابه : مذكرات اوروبي ، يصف لنا ستيفان زوبنغ الضيق الهيجان القومي في اوروبا الذي اعتراه ، عندما حضر بوصفه حوذاً نساءياً ، في ربيع عام ١٩١٤ في احدى دور السينما في مدينة تورس حيث ظهر على الشاشة صورة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف ، والهياج الذي اثارته هذه الصورة بين النظارة والمشاهدين ، في تلك الصلاة المظلمة علاما الصغير الداوي وارفعت جلبة جهنمية وقرع الارض بالاقدام ... والكل يصيح ويعوي من نساء ورجال ، واولاد يشتمون ويلعنون كأنها لحقت بهم اهانة نكراء . فقد اعترا في الخوف وشعرت بالقلق في الصمم ، بعد ان تبينت الى اي حد بلغ تسمم مشاعر الجماهير وهياجها من جراء دعاية مفرضة مهيجة ، استمرت سنوات بكاملها .

وهوس الحرب الذي قللك النفوس من جراء الحرب الالمانية الفرنسية (١٨٨٠ - ١٨٧١) ، وسباق التسليح ، هذا السباق الذي عجل في اندلاعها من جديد ، وهذه الاستنفارات المتتالية - هذا الهوس الذي لا معنى له بدون هذه الهيجانات الدورية - زاد احتدامه عن طريق وسائل الدعاية المعروفة ، اذ ذاك ، كالصحافة مثلاً ، بما فيها من الانباء المثيرة والمقال الاخباري المأجور والخدمة العسكرية والمدرسة وبرامج التعليم حيث لم تلبث دروس الجغرافية والتاريخ ان استعملت مظاهرات وطنية . وراحت منظمات ومؤسسات عديدة تأخذ على نفسها الاشادة بقوة الامة وتفننى بأجسادها الوطنية . وبينها من له من النفوذ ومن بعد الشأن ما يؤثر على مقررات

الحكومات ومقرراتها الحاسمة ، اما عن طريق مناورات وأساليب خفية واما عن طريق التلويح بالمظاهرات الشعبية. فأحداث الحرب والتبجعات الصارخة ، هي من بعض هذه العملات الدارجة . فما هو غليوم الثاني يكتب بمناسبة المؤتمر الاول للسلام المعقود عام ١٨٩٨ : « لا بأس عندي من الاشتراك بتمثيل مسرحية السلام ، الا انني احتفظ بـمخجري الى جنوبي لرقصة الفالس » ، كما راح يهتف وهو متجه نحو طنجه : « اليد على مقبض السيف والثرس بمدود امامنا على الارض ، عسى ان نجيب Tamen او ليحدث ما يحدث ! » وما هو كليسنسو ، يصرح عام ١٩٠٨ : « انا مؤمن بالحرب وأؤمن ان ليس بالامكان تفاديا ... لن نأتي شيء بطلاقها ، ويجب ان نمتنع عن الاتيان بأي شيء يفجرها . ولكن علينا أن نكون على اتم استعداد لها . وبول كمبون يصرح في السنة التالية لاحد مراسليه قائلا : تمسكي بالسلام لا يقل بشيء عن تمسكك به ، وبقيني ان خير طريقة للمحافظة على السلام هو ان نكون اقوياء . كل بلد تآثر الاعصاب يذهب فريسة اول طارئ يدمه ، اما اذا كان هذا البلد مدججا بالسلاح ، وتنبض الروح العسكرية في عروق شعبه ويكون على استعداد لخوض المعركة ، فهو على يقين بفرض احترامه على الآخرين ، ويتجنب فظائع الحرب » . والمصير ذاته يتجلى لثيودور روزفلت : « الحرب وحدها تتيح لنا ان نتحل بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة » . فخصوم دريفوس وقفوا منه هذه الموقف العسير ، دفاعاً عن شرف الجيش ، وذلك عندما راحوا يعارضون اعادة النظر في قضيته .

والرومنطيقية الحديثة نفسها التي تشيد بفضائل العرق والتي كثيرا ما تفننت بموضوعات هي موضوع احترام الجميع وتقديسهم ، مثل : ارض الوطن ، الجدود ، العلم ، لا تتحمل هنا اي شك ولا ترضى بأية مداعبة او مزاح في هذا الموضوع . « فالارستوقراطية الفكرية » السقي يكشف برونتيير عن امرها ، و« التعلقية » او التعبد للعقل الذي يبدو للأب ديدوت « العدو الذي ديدنه الوحيد الازدراء بالقوة والاستهانة بها » هما عرضة لهجوم عنيف . هل الامر مرتبط بروح نقدية او برأي مستقل ؟ ولذا رضخ الكثيرون ولم يجدوا جوابا والتزموا الصمت . هنالك بالطبع مسيحيون مخلصون يشجبون الحرب . فقد نشأت جمعية مسيحية هي جمعية Gratrey للدفاع عن السلام والمحافظة عليه بين الدول لم تلبث ان استحالت عصبة دولية سلمية كاثوليكية ، تولى رئاستها البلجيكي اوغست برنارث . الا ان « بقطة البطولة » التي يشيد بها رجل من عيار مارك سانبيه ، لا يتخرج من قضية الضمير الا عملا بما هو عليه من قناعة مغلصة ، والعصبة المسيحية الديموقراطية الايطالية التي لم يلبث البابا بيوس العاشر ان شجبها ، تمت من الصميم استئناف الجهاد ضد النمسا ، في سبيل تحرير تريستا وترانت . والاشتراكية التي رأت موجبا لتزكي نفسها بالقول : « ان العمال لا وطن لهم ، وهو قول ينم عن مزاج عاطفي ويؤلف رداً منافيا للواقع ، يؤدي جداً الجدل الناشب بين البورجوازيين الوطنيين الذين رأوا في الشيوعية عنصراً هداماً للوطن » ، كما اعتقد جوريلس نفسه . وهكذا أعدت المأساة الدولية التي وقعت

عام ١٩١٤ .

« فباستثناء فرنسا ، لا يوجد في أوروبا دولة واحدة سلطتها وسيادتها هما صدى صادق لأماني كل الولايات وتمبير عفوى عنها » . هذا ما نقرأه في مفكرة جورج لويس سفير فرنسا لدى برلين ، وهذا ما يعترف به ياغوف وزير الخارجية الألماني ، عام ١٩١٣ . هنالك أقليات وطنية وفئات غربية تنتفض وتتحرك في كل ناحية ومكان في أوروبا . صحيح أن مطالب كتلونيا لا يكمن فيها أي خطر على وحدة اسبانيا ، كما أن مطالب الفلاندر لا تؤلف أي تهديد لسلامة بلجيكا . إلا أن موقف برشلونا يهيج اعصاب مدريد كما أن موقف مدينة غنت يزعج بروكسل . وعيش يسمى البريطانيون للوصول إلى اتفاق حبي مع أيرلندا يؤمن لها مصالحها وسلامتها ، يحوز على رضى طلاب الاستقلال في دبلن وطلاب الانفصال في مقاطعة الألوستر . فقد عجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن إيقاف الحركة الاستقلالية أو الحد من المطالبين بوطن قومي لهم المعروفين باسم *Simfein* بحيث أن الحسب الأهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عام ١٩١٤ .

وبقيت الأزمات والأورين مثاراً للقلق بين فرنسا وألمانيا . فإذا لم تفكر الأولى بالركون إلى الحرب لاسترجاع ولاياتها السليبية ، فقد برهنت الثانية عن نزق شديد لمعجزها عن امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين المقاطعتين ، الذين لم يرضوا قسطاً بالتنازلات الواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الألمانية ، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وإدارتها... ودون أن نذهب بعيداً في شرقي ألمانيا ، فالحركة البولونية التي عرفت أن تصمد في وجه سياسة جرملة البلاد كانت مثاراً لأزعاج أولي الأمر في برلين وبعث القلق في نفوسهم ... والأقلية الدنماركية في مقاطعة شلسويغ فشلت مساعيها للتحرر من السيطرة الألمانية كما أن الترويج تمكنت من زحزحة نير السويد عن رقبته . ومهما بلغ من بطش وقوة الدولة التي كونها بسمارك ، فهي تحشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستتجاوب في أراضيها من جراء أي وهن أو أي ضعف يبدو عليها .

وعلى كل ، فالامبراطوريات الثلاث : الألمانية والروسية والأوسترو هنغارية تتحسس الخطر الذي يتهدها من جراء الحركات والهزات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البحر البلطقي والبحر الأبيض المتوسط . أن تحرر الفنلندي والبلط والبولونيين والرومانيين من سكان بيسارابيا إنما يعني عند روسيا ، فقدانها أسواقها الغربية التي امتنت التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الأكبر والروجوع بروسيا إلى طابع آسيوي أكثر منه أوروبي . ثم أن بروز حركة سلافية دانوبية قوية لا تدفع كان من شأنه أن يؤلف خطراً يهدد جديداً وجود الملكية الثنائية ، قبل أن يتحقق حلم « ليست » بقيام أوروبا وسطى تمتد من بحر الشمال إلى البحر الأسود . وهكذا قضت الضرورة ، يوماً بعد يوم ، بإيجاد صيغة جديدة تكون فدرالية الطابع أو ثلاثية الاقنوم . والحال أن ادخال شريك جديد ، صربي - كرواتي على هذه الامبراطورية الثنائية ، سياسة

قوبلت بالعداء والتنكر من قبل المنتصرين واليوغوسلافيين الذين يعملون لاستقلالهم الناجز . اما ضم البوسنة والمهرسك فعملية زرعت الشك في قلب بودابست ، كما اثار بلغراد وقضت مضاجعها . ففي انصراف آل هابسبورج لكبح جماح الجامعة الصربية ، خطر يتهدد مضيرهم ، كما انه يحرم المانيا الى المجازفة بحرب عالمية كبيرة .

من سخرية القدر الفاسم ان يرتبط مصير المدنية الاوروبية بهذه الاقطار البلقانية التي قال عنها بسفارك انها لاتسوى عظام جندي بوميراني واحد . فالأوفى من جميع الوجوه الإبقاء على التركي في مكانه بدلا من انتزاع التنازلات الاقتصادية منه شيئا فشيئا . ومع ذلك فشيء الجزيرة « تيلغن » ، وهذه الاختلافات والمشاجرات التي تنشب بين الشعوب المحيطة بمقدونية ، واطماعها في البضير الادرياتيكي وبحر ايجه تولد جراثيم من الصعب احيانا حصرها والحد منها .

كلف السلام اوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١ ، فقد تمتعت اوروبا بامتياز القوة الالمانية وسباق التسلح قد تكون الوحيدة فيه باستثناء اليابان التي زاحمتها وحدها فيه وهي ان ارض دولها كانت تفتقرها الثكنات العسكرية ودور الصناعات الحربية والاستحكامات ، كما كانت دولها تكثر من حشد ادوات التقتيل واعتدة التهديم ، وتأخذ بنظام الخدمة العسكرية بحيث يستعد للحرب ويتدرب على فنونها ، الملايين من الشبان .

وليس من شك قط ان توحيد المانيا تم بسرعة وبشكل عنيد ، فظ . فقد وصفها كايو بأنها عملية بناء ضخمة استخدم فيها السيمنت بخشونة وسرعة ، وبأنها كانت سبب هذه المنافسة العسكرية الموصولة ، وهي منافسة قامت بين شعبين جاشت احشاؤهما بالعداء ، اثارها خوف الالمان من عملية تار على نطاق واسع يقوم بها الفرنسيون ، والخوف لدى الفرنسيين من غزوة المانية جديدة على فرنسا .

وهكذا استمر الصراع الفرنسي الالمانى خلال فترة السلام ، فسمم الاجواء وشحنها بالخواف والاراجيف . وعرفت الامبراطورية البساركية ان تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر واطاليا . وبذلك جعلت فرنسا في عزلة تامة . وهذا الحلف المقدس الجديد لم يتوقف عن التسلح وانتهى امره الى القطيعة والتفرقة فالانحلال . والحال ، فقد جاشت المانيا بين ١٨٨٥ - ١٨٩٠ التي كان ازدهارها الاقتصادي مثار الاعجاب والدهشة ، بروح استعمارية وشرهت نفسها الى بناء امبراطورية استعمارية لها . فمع غليوم الثاني طلع علينا جيل من الالمان قدر عالياً الانجازات التي قام بها الرواد وتطلع الى القيام بالانجازات اكبر واروع . كان لا بد للشعب الالمانى الآخذ بالنمو والازدياد وان يشترى وبالتالي كان عليه ان ينتج وان يبيع اكثر فاكتر كل يوم . ولما كان فغورا بما تيه وبما تم له من عدة وعتاد ، وبالسبق الذي حققه في مجال الصناعات الحديدية والكيميائية ، وبالمدن الجبارة التي قامت على ارضه ودياره ، وبثقافته النفيسة والعلمية ، فقد راح ينظر شرراً الى الثروة الضخمة التي تمت لفرنسا ، والى عظمة الامبراطورية البريطانية ، وقد تشبع بفكرة حقه الصراع

بتوزيع اعدل واقترب للمنطق ، اللغزات والمواد الأولية في العالم ، وهو حتى عرف ان يناله بعد فترة طويلة من القصور والمعجز المشين ، وبعد ان حقق مثل هذه النهضة العظيمة التي تمت له ، قام هنا في اوروبا الوسطى «شعب وقع تحت النير فطأ رأسه واقتصر وضعه على انضباط سلمي » كما يقول فيه بيجي ، ومجتمع جذل لخضوعه لدولة هي ظل العناية الربانية على الارض ، وهيئة من الموظفين المدنيين والعسكريين ، وقدر عالياً قيمة النظام والبرزة الرسمية وقد مثل مما تم له من قوة العدد والتنظيم والقدرة على تأليف الشركات . وهذا المجتمع عرف جيل هؤلاء الاشتراكيين الذين ابطلوا فعالية الدولة كما قدر عالياً هؤلاء الذين دافعوا عن المرقية او العنصرية فصقلوا لهذه الامة امراة ، ابرزت عند النظر اليها قسما المنصر الالمانى وسماته المميزة . فقد قرص واغتر على الاجنبي ذوقاً موسيقياً انبثق من المانيا ، وقد ارسل هذا الشعب هؤلاء التجار المتجولين الى جميع اقاصي الارض يرغبون الناس ويدعونهم لشراء المصنوعات التي خرجت من يد النبوغ الالمانى الخلاق ، ويحث بحارته في ان ينشروا العلم الالمانى خفاً فوق جميع البحار كما دعا جيشه للاحتفاظ بباروده جافاً وان يتكلم قيصره عالياً . « فالدوران اعتري دماغه ، كما يقول رومان رولان ، عام ١٨٩٩ . فعند نيتشه وشتراوس والامبراطور غليوم شيء من النيرونية التي يعقب بها الجو » .

وبخلاف الاميركيين الذين يهدرون موارد هدرأ ، يتفنن الالمان من جانبهم ، بالافادة مما تم لهم من هذه الموارد ، ومع ذلك فاقتصادهم يبقى ضعيفاً ، وهنا . وعندما يعجز الالمان عن تأمين التوازن في حساباتهم عن طريق الاستثمارات الناجحة في الخارج ، يضطرون للمضي في التوسع بعد ان يخفضوا اسعار الكلفة الى الحد الأدنى . ولذا عاشت البلاد دوماً تحت كابوس قضيق اسواقها التجارية . وبما ان موقفهم السياسي *Weltpolitik* يضطر بريطانيا العظمى للوقوف الى جانب فرنسا وروسيا ، فالسباق على التسليح البري تضاعف بسباق بحري لم يقل احتداماً وخطراً وكلفة عن الاول . فبينما تعتمد الدبلوماسية الالمانية الى الشائتاج احياناً والدعوة المكشوفة الى الحرب وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى المستعمرات الالمانية في الخارج ، وازداد الاريخ نرفزة بعد ان رأى نفسه محاطاً من كل جانب . ان موقف المانيا الممتاز في قلب اوروبا جعلها في وضع ممتاز كذلك لبسط سيطرتها على هذا الجزء من القارة الاوروبية ، فهي تشعر بأن هنالك ما يعد من طاقتها من كلا الشرق والغرب على السواء ، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب هو الامبراطورية الاوسترو - هنغارية ، اذ دهاما ما سبب انهيارها ، او اذا ما جرت الى مغامرة كبرى وقف هذا الحليف الى جانبها حتى النهاية .

وهكذا رزحت اوروبا تحت وطأة التسليح ، وهي وطأة شديدة شعرت بثقلها ليس الدول التي ارتبطت بعضها ببعض بمواثيق دبلوماسية او عهود عسكرية فحسب ، بل ايضا دول اخرى مثل بلجيكا والسويد اللتان جزعتا جدا على استقلالهما وسلامتهما . فالاستعداد للحرب زادت نفقاته ثلاثة اضعاف بين ١٨٧٥ - ١٩١٤ ، في كل من المانيا وبريطانيا العظمى ، كما ازدادت ضعفين في فرنسا ، ومثلت ثلث الميزانية العامة في روسيا . اما ايطاليا فقد كادت تنفلق لفداحة هذه

التكاليف عندها . فبينما ترصد الموازنة العامة في فرنسا ملياراً ونصف المليار للجيش وللأسطول الحربي ، فالبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتربية والتعليم ، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة في البلاد وللأسعاف العام ، قبل عام ١٩١٤ . ان بناء طراد واحد كان يكلف الدولة بين ٣٠ - ٤٥ مليون فرنك ، اذ ان الطلق الواحد يكلف ٤٠٠٠ فرنك (اي ما يوازي المرتب السنوي لموظف متوسط) .

فالبدأ القاتل : اذا اردت السلم فاستعد للحرب ، فرض نفسه كبدأ ساحر وبدا ان لا مناص منه ولا حيدة عنه لاوروبا هذه الطاعنة في السن . نحن امام انقسام تاريخي ولاشك . ولكن هل كان من المقدور ان يحول تنوع الطاقات الوطنية بين دول القارة في نهاية الامر هذا التنوع الذي كان وراء عظمة الحضارة الاوروبية دون تحقيق وحدتها السياسية التي وحدها تستطيع ان تحول دون الانقسامات الجغرافية الاخيرة المندوة بانهايار محتوم ؟ فالمانيا التي رشحت نفسها لرئاسة وقيادة تجمع اوروبي ، حلت نوعاً ما ، بعد فارق ٧٥ سنة ، محل فرنسا التي حاولت هي الاخرى تحقيق مثل هذا التجمع ، وهي محاولة ستبوء بالفشل امام الصخرة البريطانية ، فمعاصرو غليوم الثاني والاميرال تريتز يستطيعون اكثر مما تم لمعاصري نابليون ، ان يضطلعوا بمهمات على مستوى عالمي . وانصار سياسة الـ *Weltpolitik* لن يعدموا وسيلة للنهوض بهذه السياسة ، ملوحين بالخطر الاصفر حيناً ، وبالمناقسة الاميركية احياناً ، كما يحتجون ، من جهة ثانية ، بالعجز الذي نزل بالشعوب الاستعمارية القديمة والقصور الذي اصيبت به . ومع حرصهم على صيانة مصالحهم الاساسية والدفاع عنها ، فقد وقفوا الى جانب روسيا ، عام ١٨٩٥ ، لارغام اليابان ، على التخلي عن منشوريا والانسحاب منها وعملوا على تعيين قائد عام الماني لقيادة الجيش الدولي الذي عهد اليه اعادة نفوذ البيض الى العاصمة بكين . الا انهم نظروا الى الحلف المفقود بين انكلترا واليابان نظرم الى خيانة مصالح اوروبا . وقد تجملت اطماعهم وبرزت بصورة اجلى واوضح في الوقت الذي اخذ فيه الاستعمار الاوروبي يصادف صعوبات جديدة .

تمثل الحقبة ١٨٩٤ - ١٩٠٤ اكثر واوفر حقب هذا العصر ثلاث حوادث قتل تصاب بها اوروبا : حروباً بعد الحروب والفتن الدامية التي وقعت في منتصفه ، الحبيشة ، كوريا ، منشوريا اذ وقعت خلال هذه السنوات العشر معظم الحروب الاستعمارية . يجب ان نضع جانباً قضية كوريا التي انتهت بتقهقر اليابان امام تدخل المانيا وفرنسا وروسيا . صحيح ان بريطانيا العظمى انتصرت على الترانسفال بعد تضحيات كبيرة ، في الوقت الذي تابعت فيه فرنسا تغلبها في افريقيا السوداء باحتلالها جزيرة مدغشقر الكبيرة . الا ان الدول الاوروبية خسرت ثلاث حروب خاضتها خلال هذه الحقبة ، فعجزت ايطاليا عن التغلب على الحبيشة ، كما ان اسبانيا انهزمت في كوبا والفيلبين ، وروسيا غلبت على امرها وانهزمت انهزاماً منكراً امام اليابان في منشوريا .

فانكسار ايطاليا في عدوة امام الاحباش يجب رده اصلا الى عدم تقدير الامور قدرها اللازم
والى نقص جذري في الاستعدادات الضرورية . ومع ان هذا النصر تحققه الحشة امن لها فترة
من الهدوء والسلام ، فلم يستطع ان يوقف الحركة الاستعمارية في افريقيا . وقد اصيب المراقبون
في اوروبا بدهشة كبرى لدى انكسار الاسبان امام الاميركيين . وقد رد اناطول فرانس صدى
تكهنتات هؤلاء المراقبين ، في كتابه « التاريخ المعاصر » . اما هزيمة الروس فقد كان لها وقع
دونه وقع الصاعقة ليس في الاوساط العالمية فحسب ، بل ايضا بسبب ثورة ضد نظام الحكم العنصري
هزته هزاً عنيفاً دون ان تسقطه ، كما سببت منافسة حادة بين فرنسا والمانيا نشبت حول قطر
لا يزال حراً في افريقيا ، هو المغرب ، واخيراً ضد الرايخ الاليمى ، وتجمعاً انكليزياً فرنسياً
روسياً ، جاءت اليابان تدعمه في آسيا .

هنا تكمن الاسباب الاصلية لحادثين من اضخم الحوادث التي استهلت التاريخ المعاصر :
الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ والثورة البلشفية ، عام ١٩١٧

حوادث الخيبة والفشل التي لحقت باوروبا في المجال الاستعماري ،
الدول الاستعمارية خارج اوروبا
اصابتهما في هذه الاقطار والاصقاع التي اصطدمت فيها
بروز الولايات المتحدة الاميركية
بهذه الدول الاستعمارية الفنية المناقصة لها . وهذا الفشل
واليابان
يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة الاميركية واليابان
المتزامن ، بوصفها دولتين من الدول الكبرى الغازية .

فبالرغم من الفوارق التي تباعد بين مجتمعهما ، والمفارقات التي تميز حضارة كل منهما ، فمنالك
مع ذلك ، نظائر مشتركة بينهما اذا ما نظرنا الى سياستها العالمية .
فالولايات المتحدة بلاد المجائب والفرائب المدهشة تؤلف بيئة حليلة مسعفة الى اكبر حد
للتجاسحات الفردية كما تكون ملاذاً يكن اليه كل من تمذر عليه العيش او اصيب بالضيق والحيف
في العالم القديم . كل شيء فيها تم على عجل وبدا ضخماً جبباً وكل شيء فيها يد على ان
حضارتها امتداد لحضارة اوروبا الشيخة ، في الوقت الذي راحت فيه الاذواق والنهائج الاميركية
تتحرر وتتسع وتنوع .

واليابان القديمة ، بما لها من طابع غريب محبب عرفت ان تسحر الشعراء والفنانين والهواة ،
وبالرغم من هذا التحول الصاعق الذي حققته حضارتها الصناعية فقسماتها المميزة لم تتغير ولم
تبدل وما زالت تفتن بحرها الاخاذ واحداً مثل ايتكاديو هيرن ، والذي عرف عنها وذاع
خبره بين الناس شرقاً وغرباً هو رخص البضاعة اليابانية التي اخذت تنافس الى حد بعيد
مصنوعات اوروبا واميركا في الاسواق الآسيوية ، والاستوائية .

ويشيد جوريس « بهذا القطب الرأسمالي المتألق » ملمحاً بذلك الى جمهورية آل كارنجي
وآل فندريلت وبيار بونت مورغان وروكفلر . فالفردية الليبرالية مهدت السبيل لطولوع طبقة

متنفذة من كبار رجال الثروات الطائلة لم تعد تحسب حساباً للحاكم والنقابة والنظريات الثورية فتحت لها في الداخل اسواق تبرز أوروبا باتساعها . وقد اطل علينا عهد من الامتداد والضخامة بحيث ان حركة التجارة الخارجية تضاعف حجمها بين ١٩٠٠ - ١٩١٤ ، وزادت ثلاثة اضعاف باتجاه آسيا . واستثمرت اكثر من ستة مليارات من الدولارات في الخارج وانشأت لها بالفعل امبراطورية في اميركا الوسطى والمحيط الهادي كما ان اميركا اللاتينية هي على وشك ان تصبح منطقة نفوذ لها وحدها بفضل سياسة الرابطة الاميركية . فمداخلنا كتحكم لحل قضية منشوريا والمغرب تشير بالفعل الى ما بلغت من اشعاع عالمي ، كما ان سياسة « الباب المفتوح » التي اتبعتها في الصين وفي افريقيا الوسطى جاءت تنافس سياسة مناطق النفوذ التي سارت عليها الدول الاستعمارية الأوروبية واليابان . وهذه الرأسمالية المركزة تلعب دوراً بارزاً في طوكيو ايضاً ، يشد من ازرها عدد من السكان يشكو الفقر ابدأ في نماء وازدياد ، تشهد الحاجة فيهم الاطماع . ولما كانت اليابان بأشد الحاجة للتصدير بأي ثمن لتأمين اسباب العيش للاهلين ، فقد دخلت بانددفاع وقوة لا تدفع عصر الاستعمار . فتحت ستار الدستور ، لا تزال احزاب *Genrô* تحكم البلاد باسم الميكادو وباسم النظام الاوتوقراطي المستبد الذي تسير عليه معتمدة فيه على الجيش والاسطول والبيروقراطية مبقية تحت قبضتها الجواهر العمالية . فبعد ان انتصرت على الصين وفازت بروسيا واصبحت خليفة لانكلترا وشريكة الإئتلاف الثلاثي في أوروبا ، احتلت نيبون (اليابان) فورموزا كما احتلت كوريا والقسم الجنوبي من منشوريا ، وأقامت لها علاقات تجارية وطيدة مع الهند والصين والهند الصينية واصبحت في آن واحد زبوناً للولايات المتحدة الاميركية تستورد منها وتصدر اليها ، زبوناً من الدرجة الاولى ، وحاولت ان تكسب تجارياً على حساب اميركا - كل منطقة المحيط الهادي . فهذه الصين التي راحت فريسة القوضى تسحرها بمالها من موارد وخامات ضخمة . فهي ان عملت على إيقاف آسيا ، ففي سبيل طرد « البرابرة » البيض واخراجهم منها ، شريطة ان تعمل هي على استثمارها لوحدتها .

يؤلف انهيار الامبراطورية الصينية القديمة حادثاً تاريخياً ضخماً تتعدى
 طلائع الثورة الصينية نتائجه كل حساب . فمنذ الثورة التي قام بها اتباع الطائفة الدينية *taipings* ، عام ١٨٥٠ ، والصين تحاول البروز بصورة متجددة دون ان تحسن تحديد تقاطيع وجهها . هنالك قوى هادرة تعمل في هذا الهيكل الصيني العتيق الضخم ، المتمسك بالتقاليد المستحكة . فالرأسمالية حققت من جهتها نجاحات باهرة سريعة . فمنذ حداث البوكسر (الملاكين) اخذت الصين تكثُر من انشاء المصانع والشركات التجارية كما انشأت لها شبكة من الخطوط الحديدية ، ووثقت من الروابط التي شدت بين الطبقة البورجوازية التي اخذت تتكون وتقوى وبين الاجانب الذين ضاعفوا من استثماراتهم في البلاد خلال عشر سنوات . ثم ان وجود « البرابرة البيض » ، من جهة ثانية كان بمثابة جرح يلمح يجرح من كبرياتها . فقد

أخذت المتضادات والمفارقات تبرز أكثر فأكثر . هنالك صين قروية ، ريفية زراعية يجري اعتصارها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولما كان الميزان التجاري يتسع يوماً بعد يوم ، والوحدة النقدية الـ *Tael* تفقد من قيمتها الاسمية ، كانت تكاليف الحياة دوماً في ارتفاع . ومن جهة أخرى ، فازمة الشاي الناجمة عن انخفاض التصدير حملت الدمار والخراب الى الولايات الجنوبية بكاملها حيث كانوا يتخلصون بسهولة من المواليد الاناث . الا ان صين الاستثمارات وصين التجارة والاعمال الكبرى رفعت عالياً واجهتها البذخية ، فبدت مزيجاً غريباً من الروح الآسيوية ومن الروح الأوروبية ، كما بدت لنا في صورتها المثلى ، في مدينة شنغهاي ، مثلاً ، كما رأها جان رود ، عام ١٩١٠ الذي يقارن بين هونغ كونغ ، مثال النجاش البريطاني في هذه الناحية من العالم ، وبين ككتون « المربعة » بقناتها القذرة التي تنص بما يطرح فيها من النفائات والاساخ فتزبد من سواد مياهها النتنة ... ومنازلها المتهدمة التي تتشاهها طبقة لزجة من الاساخ ، وهذه الارثال من المستعطين تتقرز النفس لرؤيتهم ، يقابل في الطرف الآخر منظر أخاذ من السحر والتصنع .

وبعد ان احبطت حكومة الصين محاولة اصلاح استمرت مائة يوم عولت الادارة الامبراطورية على المباشرة باصلاح من طراز اسكندر الثاني : يتناول الوظائف العامة والامتحانات والمهام والجيش . ومنعت منعاً باتاً محششات الافيون ، ووعدت بمد البلاد بدستور جديد . الا ان عجزها الواضح غل في يدها وعجزت عن تحقيق شيء من هذا . فهي لا تستطيع الاعتماد على الاجنبي ، كما انها تعجز عن محاربته وايقافه عند حده . فقد آلت حركتها هذه في نظر طلاب الاصلاح الى الانتقاص من كرامة البلاط والحط من هيبتها ، دون ان تتوصل الى اصلاح شيء .

قام بين المفكرين والتجار العاملين خارج الصين حركة ثورية رمت الى التخلص من الامرة المنشوكية المملوكة سعيداً ، ومن الـ *Meiji* . فالانتصارات التي حققتها اليابان ، والثورة الروسية التي وقعت عام ١٩٠٥ ، بعثت فيها النشاط وحركت فيها الرغبة بعمل شيء ما للخروج من الوضع الزري الذي المحدرت اليه الادارة والبلاد ، ووضعت لهذه الحركة منهجاً استمدت خطوطه الكبرى من المثل الانكلوسكسونية ، واضعة نصب اعينها : الحرية والديموقراطية واحلال نظام الاقتصاد الرأسمالي محل الوسائل البالية المتبعة في الانتاج . والدكتور سن - يات - سن الذي تلقى دروسه تبعاً في الكلية الاميركية ، في هونغولو ، ثم في كلية الملكة في هونغ كونغ ، ثم انتقل الى ككتون قبل ان يقوم برحلة طويلة الى اميركا واوروبا طاف خلالها على الجاليات الصينية الكبرى الموافقة حول الامبراطورية السماوية ، دخل عضواً في عدد من الجمعيات السرية ثم انشأ ، هو نفسه « جمعية بقطة الصين » ، ودخل في عضويتها كثيرون من الصينيين ومن رجال الفكر ورجال المال والاعمال العاملين في مناطق الامتيازات الاجنبية او في اليابان وفي غير ذلك من المناطق والاقطار الآسيوية ، وراحت تنادي بسيادة الشعب وتوزيع الاراضي

الاميرية على المزارعين . وحاولت هذه الجمعية ان تجر وراءها الطبقات المتعلمة ، المتدمرة وان تقيم لها علائق مع الجماعات الوطنية في التونكين التي تقوم بأعمال المشاغبة ، ولم تكن بفرية قط عن محاولة انقلاب في كوريا ضد الاحتلال الياباني الجائر . وساعدت سلسلة من ازمات المجاعة وقحط المواسم المتعاقبة وبوارها على حل جميع من يتأففون او يتدمرون لامر او لآخر على الوقوف موقفاً معادياً لبكين . وثار العمال العاملون على الخطوط الحديدية او العاملون في ترسانة هان - كيو ، كما ثرد قائد الجيش يوان - شي - كاي ، واعلن الصيان على الامبراطور . وهكذا وقعت ثورة عام ١٩١١ .

وعبثاً راح سن يؤسس حزب الشعب باسم كومين-تانغ الذي رمى الى المناداة بنظام جمهوري ديمقراطي ، فلم يستطع ان يعتمد على الجماهير الامية البائسة . ولما كان صينياً من الجنوب فلم يستطع ان يكون اكثر من رئيس لجمهورية الصين الجنوبية ، ولم يلبث ان انسحب من الحياة العامة . فعادت السلطة الى يوان الذي ما كان يتخلص من الاسرة الحاكمة حتى راح يفرض نفسه على البلاد بأجمعها ، وبعد ان اتم لنفسه ولاه بكين والجيش في الشمال اعاد تكوين وحدة البلاد لمصلحته الخاصة . وعرف ان يؤلب حوله كبار الموظفين وحكام الولايات وارباب التجارة واصحاب الثروات والقوى الاخرى التي اشد ما كان يقلقها رؤية الفوضى في البلاد . وهكذا تمكن هذا الجندي الذي جاشت نفسه بالاطماع ان يجمع بين يديه وان يحتكر لنفسه السلطة في هذه الجمهورية الناشئة . وهكذا فحصر هذه الصين الشاسعة الاطراف الغربية الاطوار بقي لفرزاً يختار له العالم قبيل الحرب العالمية الاولى .

فاذا ما «تحركت الصين وتمطت» فلم يكن ذلك للمرة الاولى .
الحركات القومية خارج اوروبا
ولم ينتظر فكتور بيرار نهاية الحرب الروسية اليابانية ،
بواد ردة مضادة للاستعمار
ليضع كتابه الموسوم : « ثورة آسيا » . وعلى الاثر توالى على
الظهور فيض من المطبوعات والمؤلفات التي تعالج القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى
والستراتيجية التي اثارها انتصارات جيوش الميكادو والصدى الداوي الذي أحدثته والاثر
البعيد الذي اطلقته في البلدان والاقطار المتصلة بالمحيط الهندي والمحيط الهادي ، حتى في تركيا .
فالمعلقون السياسيون ورجال السياسة من اليابانيين انفسهم لم يكتفوا قط الآمال العراض التي
جاشت بها نفوسهم . فالمؤلفات التي وضعها المؤلف الياباني او كاكورا بعنوان : « مثل الشرق »
و « بقطة اليابان » تؤكد بوضوح وحدة الآمال التي تجيش بها قلوب الآسيويين . صحيح ان
المؤسسات الاوروبية والاميركية لم يبد عليها ما ينم عن خوف او ما يشعر بقلقها ، الا ان
حوادث الاضطرابات الفردية التي يكاد لا يشعر بها احد هنا او تتخذ لها هناك طابعاً مزعجاً ،
اخذ يتكاثر وقوعها ، شيئاً فشيئاً . فقد قامت حركات وطنية مناهضة للاستعمار . فالفتح
الياباني اقلق خواطر كثيرة في بلدان كثيرة وراح سكان هذه الاقطار يقومون بحركات رجعية

بدافع مما ينبض فيهم من بغض شديد لما هو اجنبي ، لم يكن مع ذلك ليتنافى بالضرورة مع الرغبة باعداد محاولات اصلاح سياسية واجتماعية ، (وضع الصين خير شاهد على ذلك) ، كثيراً ما ارتدت شكل رفض لانماط الحياة الجديدة .

فمحزب الاستقلال الذي غلب على امره في الفيلبين ، عام ١٩٠٢ ، لم يستطع النهوض وراحت الولايات المتحدة تشدد من قبضتها على الارخبيل المذكور وتعمل بسرعة على مده بالاجهزة والاعتدة التي لا بد منها .

وفي الحين الذي اشتدت فيه مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان ، وهي مقاومة لم يتمكن اليابانيون من كبحها وكما الا بعد عام ١٩١٠ ، اخذت بنكوك تعمل عكس ذلك تماماً ، وتسمى الى توسيع حرياتها بالاعتماد على طوكيو . فالسلام هيمن على شبه الجزيرة الهند الصينية . فلم يقم في وجه الحاكم الفرنسي العام دومر اي حركة مقاومة بحسب لها حساب ، بعد ان امكن في إذلال الامراء وحكام الولايات قبل ان يبدأ بتطبيق برنامج واسع من الاشغال العامة . وقد راح خليفته بول بويحاول تحسين العلاقات بين المثقفين وبين الفرنسيين مع قيامه ببعض الاصلاحات الانسانية . والخطر الذي ذر قرنه بين التونكيين عام ١٩٠٨ حيث قامت حركة تمرد لم تلبث ان قمت بسرعة ، بقي راوده ذكره الازهان ، لا سيما في هذه السنوات التي تلت رأساً ، المساعدة التي يمكن ان يلاقيها خصوم فرنسا ، في كل من الصين واليابان . وقد استؤنف العمل الاستعماري بين شعوب هذه الاقطار دون ان يتنكر احد منها للفوائد الناجمة عن هذا العمل .

اما في الهند ، فالليظة القومية احدثت تنشيط وتحدثت بسرعة . فعلى اللورد كورزن الذي يذكرنا نشاطه بنشاط دومر في الهند الصينية ، ان يحسب حساباً لهذه الجماهير الوطنية التي تعمل فيها وتختبر قوى محافظة مشهورة بعدائها للبريطانيين ، وللذرائع والاساليب الاوروبية وطبقة من المثقفين تطمح بأبصارها الى التربع في الوظائف الكبرى ، وبورجوازية تساعد على الارباح التي تحققها في التجارة والصناعة الناشئة ، على تضخم المطالب القومية .

فشبه الجزيرة الهندية ، كالصين نفسها ، تفيض بهذه المفارقات والمتناقضات الحرة بالملاحظة . فمدينة بمباي ، كما يلاحظ احد الاداريين الانكليز عام ١٨٩٩ ، مدينة صناعية عصرية حيث الصناعة الحديثة تأمر النظر بوجهها الكالنج والمشع معاً . ففي بمباي احياء ، منازلها واطية ، غير صعبة يتكدر فيها السكان على اشد ما بلغه تكديس السكان في المدن الاوروبية . فيها العديد من اصحاب الملايين الذين ساعدوا مهاباتهم ومكارمهم الانسانية ، على تشييد الابنية الضخمة التي تزدان بها المدينة . والتحقق الذي أجرته لجنة من لجان العمل ، عام ١٩٠٧ ، يشهد عالياً بالفقر المدقع الذي تنخبط فيه البروليتاريا ، وبنزول بالمصانع التي يحلج فيها القطن حيث يعمل العمال من ١٧ - ١٨ ساعة في اليوم ، بأجر يتراوح بين ٢٥ - ٣٢ فرنكاً في الشهر الواحد ، كما يشير الى ان العديد من الاولاد ، بين السادسة والسابعة من اعمارهم يعملون ١٢ ساعة في اليوم

ويكسبون نصف هذا المبلغ في الشهر. إلام يؤدي نجاح حركة مقاطعة البضائع الانكليزية باترى ؟ فقد تبدى لبعض المفكرين في الهند، أمثال رابندرانات طاغور ان استغناء الهنود عن استعمال البضائع الانكليزية من شأنه ان يزيد استنثار الجماهير فداحة . اما فيما يتعلق بالاستقلال الذي يطالب به تيلاك والذي أقره المؤتمر الهندي عام ١٩٠٦ ، فهل يعني قيام دولة هندية تتطور على طريقة اليابان ، أو على الطريقة التي اقترح الاخذ بها غاندي منذ عام ١٩٠٧ ، اي اعلان المقاومة في وجه التقدم ، على اي شكل كان . وشجب التصنيع ، ومنع كل ما يولد الضجيج والرجوع بالبلاد الى الغزل . ومهما يكن ، فقد أطل على البلاد ، عام ١٩٠٨ ، عهد من الاضطرابات طلع اول ما طلع ، في البنغال ، لم تعمل على تهدئتها ولا على ادخال الطمأنينة الى النفوس القلقة ، الاصلاحات التشريعية الجديدة التي أجراها اللورد منتو ومورلي . صحيح ان المؤتمر بقي تحت سيطرة المعتدلين الذين يخشون دوماً الحركات الارهابية المتسمة بالعنف ، والحادث المهم هنا هو ظهور العصبة الاسلامية لمجيع الهند التي جاءت تردف هي الاخرى المعارضة لوجود الاجنبي في البلاد . عاد غاندي الى الهند ، عام ١٩١٤ ، وسيعطي بفضل ما له من شخصية بارزة ، الحركة الوطنية في الهند ، قوة جديدة ، ودفعاً شديداً الى الامام .

من ام اغراض غاندي والاهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه ، شد اواصر الوحدة بين المسلمين والهندوس . فهو لا يجهل قط ما للاسلام من اهمية وشأن كبيرين في آسيا وافريقيا . وقد لاحظ بعين فاقية الارتجاجات والمزات العنيفة التي واجه بها الضغط الاوروبي . وقد سلم المعتزلي خوده بنخش « بأن القرآن يصح ان يكون دليلاً ومرشداً للؤمن لا ان يكون حجر عثرة او حائلاً دون التطور الاجتماعي والادبي والقضائي والفكري » . كذلك ، شدد على إظهار المخاطر الكامنة تحت شعار بعض الفئات التي تدعى انها متطورة : « اخذنا عن الاوروبيين لباسهم وطريقة عيشهم حتى مساوهم المعروفة من معاقرة الخمر الى الميسر ، الا اننا لم نأخذ شيئاً من فضائل هؤلاء الاوروبيين » . هذا ما يتوجب معرفته لدى هؤلاء المعجبين بأوروبا . ولذا لم يتردد احد كبار ممثلي انكلترا في الشرق ، هو اللورد كرومر ان يكتب عام ١٩٠٨ قائلاً : « لا سبيل الى اصلاح الاسلام . فالامر الذي يخضع للاصلاح لم يعد الاسلام ، بل شيئاً آخر ... لن يكون مكننا كما يرجحون ان يصنعوا هياناً من الحرير الغربي من اذن خنزيرة شرقية » . فهو يرى ان المصريين المتخلفين بأخلاق الاوروبيين فقدوا اسلامهم واصبحوا اوروبيين من ذوي اللافقرات . ولويس برتران ، هذا المراقب الحصيف يذكر ، عام ١٩١٠ ، في كتابه الموسوم « السراب الشرقي » ملاحظاً : « لن ندرك ابداً هذا الغضب والحقد الذي يثيره في قلب سكان المدن الجزائرية ، من ابناء البلاد الاصليين ، الواجب المترتب عليهم بافراغ سلة القمامة في ساعات معينة من النهار » .

فالمسلم اعتبر دوماً ، على اقدار مختلفة ، وجود الاوروبي في دياره ، ضرباً من الالهانة تصيبه في الصميم ، فهو لا يمكن ان يألف او ان يأنس الى وجود حكومة تدن بغير دينه ، كما يلاحظ موظف روسي عمل مدة طويلة في التركستان . فهو يصف بالجنون هذا السباق الى

التسلح الذي يستلم له غزاته ومستبيحو أرضه وبلاده . « بلغت أوروبا أوج قوتها وبطشها ، كما يؤكد يحيى صديق . وبالرغم مما حققت من انجازات عظيمة وقوة فهي اليوم أكثر انقساماً على نفسها وأكثر عطباً من أي وقت مضى » . ولذا قام دوماً بحالة كمن ، شعور بجامعة اسلامية تحمل المقت لما هو اجنبي غريب ، كثيراً ما برهن عن وجوده ، هنا وهناك ، بشكل او بآخر ، واحياناً بعنف شديد ... ففي الوقت الذي ارتدت فيه الحركة الوهابية الى المجرد ، فالحظ بقي محور الحركة السنوسية التي تقوم بدعوة لا تقل تمتد من ضفاف خليج سرتا الى مشارق النيجر ونهر النيجر . وقد احسنت الصمود في وجه الايطاليين في طرابلس الغرب . وتوهمت ايطاليا انها امام تركيا ، كما يلاحظ هنوتو ، فقد وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الاسلام . فالطريقة السنوسية اختارت لها طرائق سرية تتصف باللفظنة والحذر ، وابت ان تربط نفسها بمجلة القسطنطينية عندما حاول السلطان عبد الحميد ان يرفع فوقها علم الخلافة . فالجامعة الاسلامية ، هذه الرابطة السياسية الدينية التي سبق لغبريل شارم ان حذر ، منذ عام ١٨٨٣ ، من الاخطار التي تمثلها ، اتخذت سلاحاً لها وعدة التهيب ودهاء الدبلوماسية ، لم تتورع عن هدر دماء المسيحيين في ارمينيا وكريت ومقدونيا ، والسلطان الاحمر نفسه طوح به القسور لاقامة علاقات مع اليابان ، بعد أن راح بعضهم يبشر مهدداً بقرب اعتناقها الاسلام بالجملة . وهناك حركة تقارب ظهرت سنة ١٩١٢ ، بين المسلمين وبين الوطنيين من الهنود والصينيين . فتحت تصرف الاسلام والمسلمين أكثر من ١٠٠٠ صحيفة اوروبية ، يخرج بعضها من القاهرة باتجاه بغداد وطهران وامرتسار ، والبعض الآخر من القسطنطينية باتجاه عيبي او باتجاه معاكس ، فتصدر عن كل كوتا باتجاه ايران وتركيا ومصر .

وهذه الجامعة الاسلامية الحميدية ينتصب في وجهها قوميات قتيبة . فلم تستطع كبت النفور المستعصي بين الاتراك والعرب ، في قلب السلطنة العثمانية وراح جمال الدين الافغاني يشيد عالياً بحضارة العرب وشهدا في لبنان بمتأ من دعائه وحملته الكبار خليل مطران وجبران خليل جبران . ويقوم الكاتب السوري الكواكبي بطالب بوجود الخليفة - خليفة المسلمين - في مكة المكرمة . وفي عام ١٩٠٥ ، اذاعت عصبة الوطن العربي من باريس نداءها المشهور ، في الوقت الذي راح فيه نجيب عازوري ينشر مخطابه : « يقظة الامة العربية » . ونشبت في الحين ذاته ، في الحجاز وفي اليمن ثورة عجزت تركيا عن قمعها بالقوة .

وبعد ذلك بقليل قامت في الامتانة ثورة استبدلت النزعة الاسلامية التي قال بها عبد الحميد ، والتي بامت بالفشل وقابلها الناس بالاعراض ، بحزب وطني تركي هو حزب تركيا الفتاة .

وحوالي عام ١٨٩٥ ، اطلت علينا الجامعة الطورانية ، ظهرت اول ما ظهرت عند تقار روسيا ، اذ قام بعض اغنياء تجار باكو بدعم حركة تدعو للم شئت الجماعات الطورانية المتناثرة حلقاً بين فنلندا وملشوريا ، للوقوف في وجه القيصريّة الروسية التي كانت تدعو وتعمل

« لترويس » هذه الاقوام . فقد ضم اول مجلس تمثيلي روسي (دوما) عدداً محترماً من الاعضاء المسلمين كان لهم وقع مهيب في النفس اقلق خواطر اولي الامر في روسيا . فلم تنطور الامور ، من هذه الناحية ، الى ابعد من ذلك . الا ان اكشورا اوغلو ، احد قتار الفولغا ، جاء الاستانة واسس فيها جمعية طورانية ، حيث قام احد مواطنيه المدعو احمد بك آغا بيت دعاية ناشطة بين حملة الفكر من خصوم حكم السلطان عبد الحميد . وظهر اذ ذاك الى الوجود حزب تركيا الفتاة عرف ان يكسب له اعضاء كثيرين في الاوساط التركية وفي صفوف الجيش ، مستغلا الفشل الذي بليت به محاولات السلطان ومعرضاً بالتنازلات التي تخلى عنها لخليفة ظل . وراح هذا الحزب يتغنى بفضائل الشعب التركي المسلم البعيد عن التمتعص ونجح باقامته ، في وجه العربي الذي وصفوه بالمتقلب والفوضوي ، حركة قومسية متمصبة مستهجنة تسلمت مقاليد الحكم في البلاد بفضل جيش افراده من الرعايا والذمين ، اطلق على لجنته الادارية اسم « الاتحاد والترقي » ، اذ كانت تضم بين صفوفها ، مسيحياً ويهودياً ، وانتسبت بالمبادئ التي نادت بها ، الى اوغست كونت والى « فلسفته الوضعية الكاملة » ، وراحت تنادي « بالعثمانية » بحيث يصبح كل رعايا السلطنة دون اي تمييز عرقي فيما بينهم « عثمانين » . الا ان الفشل جاء ثاباً ، كاملاً ، هنا ايضاً ، وذلك بفقدان تركيا طرابلس الغرب ، حيث تمثلت المقاومة وتبلور الصمود في وجه الغازي المستببح ، بالسنوسيين ، وبفقدان البلقان ، وبانفصال البلدان العربية تدريجياً من تركيا . وقد ظهر ان « الوطن العثماني » يجب ان يقتصر ، بعد امد وجيز على العثمانيين الاقحاح . ففسى الحين الذي راحت فيه انكلترا تظهر عطفها على العرب ، كانت المانيا تؤيد الجامعة الاسلامية الحميدية وتتظاهر بتأييد الحركة الوطنية التركية في الاستانة . وفي نهاية الامر ، لم يلبث حزب تركيا الفتاة ان دب سوء التفاهم بينه وبين الجامعة الجرمانية .

سقوط عبد الحميد عن كرسي السلطنة سبق بقليل سقوط الشاه محمد علي ، هذا الشاه المستبد في دولة راحت فريسة للفوضى المخزية . هنا حزب تركيا الفتاة وهناك حزب ايران الفتاة ، وقد تألف الاخير منها من لميم الاعيان ورجال الفكر وبعض المغامرين جاؤوا من القفقاس ومن ارمينيا ومن بعض ائمة الشيعة . فتبرزت وقف في وجه طهران . وقد راح الشاه فريسة هذا التقارب الذي تم بين الانكليز والروس ، فاضطر ان يجمع المجلس الوطني وان يعتزل الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب . الا ان الثورة التي تستجدي معونة المستشارين الاميركيين ، وتحاول لفترة قصيرة استالة برلين الى جانبها ، لم تستطع الصمود امام التدخل المزدوج من قبل الروس والانكليز . فحوادث الفتن والاضطرابات لن ينتهي عهدها بسرعة في ايران التي راحت فريسة الدول الاستعمارية المجاورة لها .

والحوادث الدامية التي وقعت عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في كل من تركيا وايران تردد صداها في القاهرة . فقد كان سبق للورد كرومر ان غادر مصر بعد ان كان قد تولى ادارتها مدة ٢٨

سنة، وعمل على تنظيمها وفقاً لمتطلبات المصلحة البريطانية، ولكن الروح القومية المصرية التي بدت
طلاتها في ثورة عرابي باشا، لم تخذل جذوتها قط كما يلاحظ المستكشف شواينغورث عام
١٨٩٥. فإذا ما رضي جناحها المعتدل ممثلاً بالشيخ محمد عبده، شكلاً من التعاون المؤقت، فقد
راح يؤكد بصوت مصطفى كامل « المصريين لمصر ومصر للمصريين ». ومع ذلك كان كامل
يراعي جانب المحتل. وعندما توفي عاد الاضطراب الى البلاد واشتدت حركة المقاومة كما
حدث في الصين والهند بفضل التطور الذي عرفته البروليتاريا الصناعية في البلاد. « ان كلا
ضفتي النيل، كما يلاحظ لويس برتران، عام ١٩١٠ - تزخر بالمصانع ومعامل السكر ومعامل
نسيج القطن التي ترتفع سحائب مداخنها السوداء فوق عذب الفلاحين ومنازلهم المتخذة من اللبن ».
وجاء كشنر واسرع الى تعطيل الجرائد الوطنية واخذ يلاحق احرار البلاد ويضيق على زعمائها
الحثاق. الا ان المعلق الصحفي سدني راح يعترف بالحقيقة قائلاً: « لسنا محبوبين في
مصر ». كما ان لوتي اخذ ينتحب قائلاً: « مسكين هذا النيل، حقا مسكين . . . ما هذا
الانحطاط الذي صار اليه ! بعد هجمته السحرية التي امتدت عشرين قرناً نراه اليوم تنتقل على
متن ظهره ثكنات وكالة كوك الطافية، ويغذي مصانع السكر ويمجد نفسه ليؤمن بما يفيض به
من غرين خصب، المواد الاولى للمنسوجات القطنية الانكليزية ».

حري بنا ان نلاحظ هنا ان الحركات الوطنية في العالم الاسلامي اخذت تستيقظ في هذا
الوقت بالذات الذي بدا فيه ان الدول الاوروبية اخذت تقضم من جنباته وتمتضي فيه نهشاً
وتتفاسمه. فغزو الدول الغربية للفهم وقع في الوقت بالذات الذي تم فيه غزو المغرب، فالضربة
تلقوا الضربة، اذ يحتل الايطاليون طرابلس الغرب، ويفرض الفرنسيون حمايتهم على فاس، ويفقد
الاتراك كل ممتلكاتهم في اورربا باستثناء تراقيا الشرقية، وقبدو الاستانة وشبكة الوقوع بيد
البلقار، وآسيا الغربية تتمخض بانقسامات وطنية وشبكة الوقوع. أفلم يُنشأ وطن قومي لليهود
في فلسطين؟

والمقاومة في الغرب بدت عنيفة وطويلة، فتمركزت في جبال الاطلس وفي الريف وحدود
الصحراء الكبرى. ومن الامور التي لها مدلولها هنا، مهما قل شأنها، ظهور الحركة الثورية
لتونس الفتاة، التي ضمت بين صفوفها، عدداً من رجال الفكر وبعض الشيوخ مطالبة بتوسيع
الحريات وتسبب ببعض حوادث العنف، اذ ان المقيم العام في تونس مسيو ألابيتي، والسكرتير
العام السيد روي إستمرا في ادارة المحمية وفقاً للبادئ والنصوص التي حددتها كمبون وروي
نفسهما، وهو اتفاق راعي مصالح الاقلية الاوروبية في البلاد والدولة الحسينية المتعاقبة على الحكم.
وفي الجو الهادي الذي ساد الجزائر حيث ازدياد حركة الاسكان بين الفرنسيين لم تستطع،
بالرغم من النسبة المالية التي سجلتها ان يزيل الفارق الكبير لصالح الاكثوية الاسلامية.
واخذت ترتفع في تلك البلاد، منذ عام ١٩١٠ بعض الاصوات من بين الاوساط الوطنية

التي تخرجت ، هنا كما في تونس ، المعاهد العصرية على النهج الاوروبي . وقد اغتنم هؤلاء الشبان الجزائريون مناسبة تقديم مشروع الخدمة العسكرية ليطالبوا ، بالمقابل ، بالمساواة في الحقوق والواجبات امام الضرائب ، ونشر التعليم وتشيلا اكبر في مؤسسات البلاد . أما اصحاب المهام الذين تختار فرنسا من بينهم القضاة والاعاوات ، فقد رفضوا مشروع الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مدعين انهم انما يستجيبون ، في موقفهم هذا لمطلب الدفاع عن حقوق الاسلام .

صحيح ان افريقيا الجنوبية الغربية الالمالية شهدت عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ انتفاضتين قامت بها قبائل الـ *Hereros* وقبائل الـ *Hottentots* احتجاجاً منهم على الاستعمار البشع الذي استهدفوا له ، وعلى سياسة العنف والبطش التي راحوا فريسة لها ، وهي سياسة اخذت الى حد ما ، تراعي جانب ابناء البلاد والتي استأنف الاخذ بها ، منذ عام ١٩٠٧ امين سر الدولة درنبرغ . الا ان الزنجي مسلماً كان ام وثنيّاً ، لم يكن سواء في السودان او في مناطق الكونغو على اختلافها ، لم تكن اهتمت نفسه بعد « بالروح الافريقية » .

ومدغشقر لم تعرف سوى فترة بسيطة وقمت عام ١٩١٣ . وعلى عكس ذلك يجب ان نسجل هنا طلوع روح قومية جياشة في قلب افريقيا الجنوبية التي تعد مليوناً ونصف مليون من البيض واربعة ملايين ونصف من السودان والهنود . فالمنافسة الحادة الطويلة التي قامت بين البيض من بريطانيين وبويرز لتأمين السيطرة لجانب من الفريقين انتهت ، عام ١٩٠٢ بغلبة الـ *Uitanders* على الروح القومية التي يمثلها الـ *Afri Kanders* . الا ان الدومنيون الذي انشأ عام ١٩١٠ نهض على الشعار المعروف : القوة في الوحدة . ان تضامن الفئتين وتوحيد موقفها تجاه سكان البلاد الاصليين عرف كيف يتغلب على وطنية الافريقيين ، وامتن قيام عهد من التعاون بينها وبين لندن نص على الدفاع عن حقوق البيض . وعلى غرار حادث شبيه بالحادث الذي وقع للولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال ، فما كادت تنتهي حقبة « التعمير والانشاء » حتى راح العنصر الوطني المغلوب على امره يعمل على ترسيخ وشائج العنصرية التي قال بها وعلى اظهار عدائه للرأسمالية . وقد قام فريق من البويرز يلتفون حول الجنرال هرتزوغ يطالبون باتخاذ اجراءات تؤيد التمييز العنصري والتشهير بفريق ارباب المناجم . وفي كانون الثاني ١٩١٤ ، تألف حزب وطني في جنوبي افريقيا لم يلبث بمض المغالين من عناصره ان اتفقوا مع غلاة الوطنية في ايرلندا ، خلال الحرب العالمية الاولى ، على شن هجوم مشترك ضد بريطانيا .

لا نرى في ما تبقى من اجزاء الدومنيون البريطاني من قوة طاردة شبيهة بالقوة التي تبديها النزعة الافريقية في الكاب وبرتوريا . ولما كانت المطالب الاقليمية الكندية قد برزت على بعد متساو من لندن واشتطون فلم تصب مصالح انكلترا الاستعمارية ، بأي اذى او ضرر يذكر ، واوستراليا تعتمد على اتحادها مع البلد الام لتصمد في وجه التهديد الاسيوي . والحقيقة التي

لم يتطرق اليها اي شك هي ان هذه الشعوب أخذت تشعر بوجودها ، كما اننا نلاحظ عندها رغبة بأن تصبح امة معترفاً بها .

ولكي يحطم اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا قوة اتحادات العمال لجأوا الى عمال افريقيين لم يكن يسمح لهم بذلك من قبل . وبعد حوادث اضرابات عنيفة وقعت عام ١٩١٣-١٩١٤ ، اقبل هؤلاء العمال على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة . الا انهم لم يلبثوا ان خضعوا هم انفسهم للتشريع بالزواج الخاضعين لوضع فيه نصف عبودية .

اما بلدان اميركا اللاتينية حيث اخذت الراساميل تتجمع ، فقد راح ارباب المال فيها يقيمون لهم علاقات ناجحة مع رجال الاعمال من الاوروبيين والاميركيين . لاشك ان العصا الضخمة التي اوح بها ثيودور روزفلت في اميركا الوسطى بعثت الريبة في النفوس وأبّت الجامعة الاميركية ان تمهد الى « الولايات المتحدة الاميركية » بسلطة بوليس دولي في المنطقة ، وهو مطلب وقف بوجهه بعناد رجل القانون الأرجنتيني المشهور داغو ، الا انه لم يقع شيء ضد سيطرة رؤوس المال الأجنبية . وحرى بنا ان نذكر هنا مثل المكسيك . فالثورة التي انتهت عام ١٩١٠ نظام حكم الرئيس بورفيرو دياز ، عجزت عن احقاق مطالب جماهير الفلاحين المحرومين من الاراضي ، كما عجزت عن إشباع مطالب البروليتاريا ، الناشئة ، هذه البروليتاريا التي اخذت تتزعزع في احضان النقابية والاشتراكية ، ولاارضاء البورجوازية المستنيرة بعض الشيء التي تمت قيام نظام حر ، وهذه الحكومات الصورية او الوحشية التي تعاقبت على الحكم في البلاد كان عليها ان تراعي جانب واشنطون التي كانت دوماً على استعداد التدخل بشؤون البلاد .

وهكذا ، في مكسيكو كما في برينوريا ، في القاهرة كما في فانكين ، لم تلبث ان برزت قسماً وجه هذه القوميات الوطنية التي تطمع ان تكون سيدة مصيرها . وهكذا فالحركة التي بدت طلائعها في اوروبا ، منذ القرن الثامن عشر ، اخذت تثير في القرن العشرين اهتمام بلدان القارات الخمس . فقد اصبح « التجمع البشري » في الوطن ، امراً عاماً ، شائعاً ، شمل جميع المجتمعات البشرية بحيث ان فكرة الوطن لم تعد لتسند ، كما يلاحظ جوريس ، على الاصول الاقتصادية وحدها ، ولم تعد « تنحصر في دائرة ضيقة هي من حق طبقة معينة » لان « اصولها تنبع من طبيعة الحياة البشرية » . وفي وسط هذا « التجمع البشري » ، راحت المشاعر الفردية « تتجمع وتنطلق » عارمة بحيث ان « المستثمرين » و « المستبعدين » اخذوا يتذوق طعم الكرى والنوم الهني عند ادنى درجات الصرح الشامخ ، وتشعر في صميمها بارتياح اكبر مما كانت تشعر به « في هذا العالم البراني الذي يحيش بالعداء العنيف ويتنزى بالقلق الصاحب » .

الفصل الرابع

الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي

العاملون على تأمين ضروريات العيش هم اكثر الناس افتقاراً
لها ، بينما هي تتوفر بسخاء للذين لا يعملون شيئاً في
اقتناجها .
(أثالول فرانس : جزيرة البنفون ، ١٩٠٨)

ان تحول النزعة الاقتصادية ، منذ عام ١٨٩٥ والانطلاق
الجديدة التي عرفتها حركة الانتاج والتبادل التجاري ، كل ذلك
البروليتاريا ووضعها القائم في
اواخر القرن
عاد بالخير العميم على الرأسمالية . غير ان الانتهاء من عملية
اقتسام المستعمرات ، والمنافسة الحادة حول الخامات والمواد الأولية ، والسيطرة على الاسواق
العالمية كل ذلك وقع في الوقت ذاته التي طلعت علينا اوليفارشية محتكرة شديدة البأس . ومن ثم ،
فقد اضطر اصحاب الاعمال للتخلي ، شيئاً فشيئاً ، عن مواقفهم المفردة المتعذر بسطها التي لم يعد
يوسعهم الدفاع معها عن مصالحهم . ففرنسا وحدها ، ارتفع عدد النقابات العالمية ، بين ١٨٩٠
- ١٩١٤ ، من ١٠٠٤ نقابة او رابطة الى ٤٩٦٧ ، كما ارتفع في الفترة ذاتها ، عدد الاعضاء
المنتسبين اليها من ٩٣ الف الى ٤٠٢٠٠٠ .

والثابت ان دنيا العمل المأجور اخذت تتطور ، من الوجهة العددية تطوراً عظيماً . فالى
فئات العمل المختلفة العاملة في الصناعات الصغرى والوسطى والكبرى يجب ان نضيف هنا
فئة اخرى تعمل في القطاع الذي يمكن ان نسميه : « القطاع الثلاثي » ، حيث يعمل اصحابه في
توزيع المحاصيل والانتاج وتأمين الخدمات العامة ، والذين يتمثلون بهؤلاء العمال الذين يرتدون
الياقة المستمارة وربطة العنق والقبعة اللينة . وقد كانت نسبتهم في فرنسا ، عام ١٨٦٦ ، بنسبة
١٠ موظفين الى ٢٤٠ عامل ، فارتفع الى ١٤٥ عام ١٩٠٦ ، والى ١٢٠ عام ١٩١٤ . ففي الحقبة
الواقعة بين ١٨٩٥ - ١٩١٤ ، قدروا ارباب الامر التي لا دخل لها سوى اجر رئيسها ، من ٨
- ١٢ مليون ونصف المليون ، وعدد الطبقة العمالية ، بمصر المعنى ، في الولايات المتحدة من
٥ - ٧ ملايين ، وفي روسيا من ٣ - ٤ ملايين .

فالأزمة الكبرى التي تزلت باليد العاملة في بلدان أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية والانكلوسكسونية خارج أوروبا انقضت كربتها عن بعض مكاسب ثقلت في تحسين ظروف العمل التي كانت تكتنفها . فإذا ما استمر ارتفاع الأجر الاسمي ، خلال الظروف التي اطلت . (راجع الجدول المثبت صفحة ٩٠) فالأجر الفعلي أجبر لحقه بعض التأخر إذا ما نظرنا اليه من ناحية تكاليف الحياة . فالارتفاع في هذه التكاليف ، اختلف من بلد الى آخر ومن مهنة الى اخرى ، وبصورة ابرز وأوضح ، في ايطاليا حيث الأجر كان اقل (كان الدليل الاسمي ٧٦ عام ١٩٠١ مقابل ١٠٠ عام ١٩١٣) وبدا زهيداً في انكلترا (الدليل ١٠٠ عام ١٨٨٠ ، مقابل ١٣٢ عام ١٩٠٠ ، و ١٤٣ عام ١٩١٣) ، وتوقف في بلجيكا منذ عام ١٩٠٤ ، ثم عقبه حالة من الركود الفعلي (دليل ٨٩ عام ١٨٩٥ ، و ١٠٤ عام ١٩٠٤ ، و ٠٠ عام ١٩١٣) .

والمراقق الأكثر حظوة هي المناجم والميتالورجيا اللتان زاد الطلب عليهما بصورة محسوسة . فعامل المناجم في الروهر كان يتقاضى ، عام ١٩١٠ ، ٦ ماركات عن كل طن فحم يستخرجه ، مقابل ٣ ماركات عام ١٨٩٧ . اما عامل مناجم الفحم في فرنسا الذي كان اجره ضئيلاً ، حتى ذلك العهد ، فقد حسنت اوضاعه وارتفع اجره (من فرنكين ، عام ١٨٥٠ الى ٣٤٣٠ فرنكات عام ١٨٨١ ، ثم ٤١٠٠ فرنكات عام ١٨٩٥ ثم الى ٥٤٠٠ فرنكات عام ١٩١١) اما عامل النسيج فقسمته ضائري : فالاجرة التي كان يتناولها في معمل ورقمان للنسيج في مدينة غنت لم تكن توازي اكثر من ٦٣٪ من كلفة الانتاج ، عام ١٩١٣ ، مقابل ١٢ بالمائة عام ١٨٩٧ ؛ ومع ان الكلفة العامة تضاعفت قيمتها ، فقد امكن المحافظة على تكاليف التوضيب كما حُوفِظ على معدل الربح اذ اتاح إدخال التصفيح تأمين زيادة في الانتاجية .

فالأجر يبقى متدنياً جداً في معظم قطاعات العمل . فإذا ما أوضح التحقيق الذي اجري في فرنسا ، عام ١٩١١ ان التجار وصانع الاقفال والسنكري يربح ١٠ فرنكات على الأقل ، في اليوم فعلى العمال المياومين ان يقنعوا بأجر يتراوح بين ٤ - ٥ فرنكات بينما تربح المرأة ما بين ٢ - ٣ فرنكات في اليوم ، وليس بنادر قط ان تقوم عاملات المنازل بعمل ١٥ ساعة لتربح ١٤٥٠ فرنك . اما في آسيا ، فالارقام تهبط الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ يتناول الولد الياباني الذي يعمل في المصنع نصف فرنك و ٢٥ سنتيا إذا ما عمل في مزارع الأرز . بالإضافة الى هذا كله ليس ثمة عمل موصول او مستمر . هنالك ازمات بطالة مزمنة . وحركة النزوح او الهجرة بالجملة التي يقوم بها البائسون على نطاق واسع تشهد عالياً على الفقر العام الذي تتخبط فيها الجماهير .

حتى في هذه البلدان الأكثر أخذاً بأسباب التطور ، تبقى اليد العاملة في وضع يحجف جداً بالنسبة لرأس المال . فقد كان العامل في الولايات المتحدة ، عام ١٩١٤ ، يتناول من الدولارات ضعفي ما كان يتناوله منها عام ١٨٩٩ ، بعد ان ارتفع عدد العمال في البلاد ٤٠ بالمائة بينما اصاب الرأسمال من الربح ما يعادل الضعفين ونصف في عدد من الاستثمارات وزاد قليلاً عن قبل .

(فالدليل الأعلى ١٠٠ لعام ١٨٩٩ ، انتقل الى ١٣٦ في قطاع الاجور ، والى ١٧٠ في قطاع الارباح ، و ١٣٧ في الانتاج الصافي ، و ١٤٦ في تكاليف المواد الاولية) . ففي الوقت الذي زاد فيه ربح المعدن الفرنسي ٢٠ بالمائة تضاعفت فيه ارباح شركات الاستثمار . فهل من يستغرب بعد هذا كيف ان ٨٥ بالمائة من الدخل القومي في انكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان يذهب الى جيوب ٥ بالمائة فقط من مجموع السكان ؟ ، وان ٢٥ مليوناً في فرنسا لا يخلفون ، لدى وفاتهم اية تركة تذكر ، وان ١٢ - ١٣ فرد منهم يملكون ٣٠ بالمائة من الثروة العامة ، وان اقل من مليون يملكون ٧٠ بالمائة ، وان في الولايات المتحدة الاميركية بين ٢٠ - ٢٥ مليون من المكلفين منهم ٣٢٥٠٠٠ فقط مسجلة اسماؤهم في سجلات ضريبة الدخل ، وان دخل منهم يزيد ١٥٠٠٠٠ فرنك ، وان في المانيا ٣ ملايين يتمتع الواحد منهم بدخل يزيد على ٣٠٠٠ مارك في السنة (بينهم ٩٠٠٠ يزيد دخل الفرد الواحد منهم على ١٢٠٥٠٠ ، وان معدل ما يصرفه العامل يتراوح بين ٧٠٠ - ٢٢٠٠ مارك) .

انتاجية اكبر وظهور التخصص
التقني (او اليدوية)
للمحافظة على ارباحه وحرصاً منه على إيمانها ، راح رب العمل يدرس بعناية شكلية قضية توزيع العمل في مصنعه والتخصص في كل وجه من نشاطاته . فلم يستطع يوماً ان يوحد نظريته الى العمال القلائد على تأمين الانتاج في معمله . فقد قسمهم الى فئات متميزة بين عمال مهرة وعمال ملقين . كذلك لم يغفل قط عن ان العمل الفردي يختلف جودة واقتاناً بين عامل وآخر باختلاف ما مما عليه من اهلية ومراس واستعداد خلقي وتقني مما يتوفر للواحد منها . والشئ الذي فرض نفسه كنتيجة حتمية للتصنيع هو تدهور العمل الموصوف بالتقني امام الآلة . ولهذا السبب نرى العامل نفسه يستنزل في مطلع العصر اللغات والحرم على الآلة وعلى الذين استنبطوها بعد ان اتهموا بالقضاء على المهارة التقنية اليدوية . والحقيقة التي لا مراء فيها هو ان الآلة الميكانيكية اقتضت اعداد فئة خاصة من العمال المهرة المتخصصين يطلب اليهم إدارتها وتوجيه نشاطها . ليس مفروضاً في هؤلاء العمال ان يفقهوا دقائق سير الآلة في مجموعه وعمل كل قطعة على حدة . المطلوب منهم ان يكونوا مراقبين لعملها الفني المحض . وعلى هذا الاساس نرى عدد العمال غير المتخصصين يهبط من ٦٥ الى ٢٥ بالمائة بين ١٨٣٠ و ١٩١٠

فاذا ما ادر كنا على وجهه الصحيح الدور الذي يلعبه التصنيع من هذه الناحية ادر كنا الاثر الذي تتركه الآلة في رفع الانتاج ودفعه والتوفير الذي تتيحه من جهة اليد العاملة . ففي مناجم الفحم ، مثلاً حيث ينحرف الانتاج وينقص كلما عمق الاستخراج ، جاءت الآلة ترفع من كميته المستخرجة . ولما كانت نسبة ارتفاع الاجر مرتبطة الى حد بعيد بتطور الآلة التي تزيد من الانتاج فقد ساد الرأي العام ، الاعتقاد بأن تنظيم العمل تنظيماً دقيقاً يراعى فيه الاختصاص والمهارة والمراس ، يعود النفع فيه على العامل ورب العمل معاً ، وقد اتخذت الشركات الاستثمارية الكبرى حجة منه وذريعة للتمويل عليه اكثر فأكثر ، اذ تستطيع معه اكثر مما

يستطيعه صاحب الورشة الواحدة ، تطبيق خير اساليب الاستثمار واجراء توفيرات محسوسة في سعر الكلفة والانتاج ، وبيع المصنوعات بالتالي بسعر ارخص مع تحقيق ربح اكبر .

ولذا كان لا بد من توزيع العمال في المصنع حسباً تقتضيه طبيعة العمل ومقتضيات مصلحة التصنيع الآلي . ان تكييف العامل وافراغه وفقاً لحاجة التصنيع من شأنه ان يوطد فيه الثقة بينه وبينها . فالنظرية العلمية تبعث فكرة المنهجية في العمل والمصنع . فهي قضية تتعلق في صميم علم النفس التطبيقي . فبينما كانوا يعتمدون إختبارات الذكاء للكشف عن كفاءات العامل واستعداداته النفسية ، راح مونتسربغ وهو من تلاميذ رونتال الذي هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، يقترح عام ١٨٨٠ ، تطبيق علم النفس التقني على الصناعة .

الا ان المحاولة الاولى لتنظيم العمل تنظيمياً علمياً يجب ردها ، كما هو شائع المهندس تيلاور ، فقد اقترح على شركة بنلهم لصنع الفولاذ ، تحديد معدل الوقت الذي يقطعه العامل للقيام بحركة ما ، على ان يتولى قسم التخطيط في المصنع تحديد الوقت القياسي لصنع غرض ما قياسي *Standard* و اوصى بالوقت ذاته بتنحية او إبعاد كل عامل لا يتقيد بالخططة المرسومة .

وهكذا نرى ان التaylorية لم تكن مجرد ذاتها اساساً لتحسين ظروف العمل لدى العامل ، بل كانت تتوخى الوصول الى تسجيل اعلى انتاج يمكن عن طريق تطبيق الآلية الذاتية (الاتوماتيكية) هذه الاتوماتيكية التي تجعل من العامل قطعة من الآلة . فاذا ما جاءت الطريقة في مصلحة الرأسمالية فلم تلبث من ناحية ثانية ان احدثت ردة عكسية لدى اصحاب الاجور . وامر مجلس الكونغرس الاميركي في واشنطن القيام بتحريات حول الادارة العلمية في العمل . ولم يكن نقد هذه الطريقة باقل حدة في اوروبا . فقد رأى فيها العالم النفساني ساخس «تنظيماً للجهل البشري» كما ان النقابي العمالي « بوجيه » استعمل هذا التعبير عنواناً لكتاب له يفضح هذه الطريقة التي تساعد على جعل العامل آلة ذاتية « بلهاء » .

وعندما راح فوردي يخصص ، عام ١٩١٢ مكافئة للعامل المطيع الذي يستثمر وفرة ويؤسس له عائلة ، لم يضع نصب عينيه ، من اقتراحه هذا ، هو ايضاً سوى تحسين وسائل الانتاج (فالدليل الاسمي للانتاج الذي كان ١٠٠ عام ١٩٢٩ ، لم يكن سوى ٢٧٣ عام ١٨٦٩ و ٤٢ عام ١٨٨٩ ، و ٥٩٣ عام ١٩٠٩) .

وهكذا بدت العلاقات بين الانسان والآلة بشكل ابقى تابعة الانسان لمقتضيات الانتاج والسعي للوصول لتأمين المزيد من الربح وفقاً لمبادئ الرأسمالية .

أطل علينا بعد جيل الرومنطيقية الاجتماعية أجيال عنت تباعاً
المزيد من المؤلفات الاساسية
بالواقعية والطبيعية ، وانصرفت بكليتها لدراسة اوضاع المساكن
والبائسين ووصف ما يكتنفهم من اوضاع اجتماعية وصفاً موضوعياً قلما خلا من الشعورية او
الاحساسية .

وقد انتشرت هذه النزعات الشعورية واستطال الاخذ بها حتى اواخر القرن ، ان لم يكن في فرنسا ، فاقه في عدد كبير من البلدان الاوروبية الاخرى ، وقد كان للكاتب الفرنسي زولا اثره البالغ في هذا المجال امتد من سهول الفلاندر حتى مشارف البحر البلطقي ، وظهرت هذه النزعة بوضوح عند فان كرونتنجن وكران ، كما ظهرت بوضوح عند نكس وريونت وهوبتمان وقد غزت حتى تشيخوف في قضية « الموجيك » وتغلغل في روايه زولا : جرمينال ، والارض بالالوان مختلفة .

نحن الذين اصطلموا على تسميتنا سفلة
بلغت منا الروح التراق ، نحن الافاكون
أفضل لنا الف مرة ان تذهب هياكلنا العظمية
مع هياكل اولادنا وبناتنا فننسج أكفاننا بأيدينا
(هوبتمان : الحان)

وانفجرت الثورة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية . من شق قلم كتاب امثال درايزر وأبن سنكلر وهوايتوك . اذ اخذوا بتحريك « الثفالة » وبلغت روسيا مع كورولنسكو وغوركي ، وكوبرين .

الا ان الردة المثالية ليست بالضرورة هروباً من المشاهد المريعة . فقد وقف الى جانب المسكين : فرنسن بما عُرف عنه من حنوليون بلوا بقشعريرة انما بروح مسيحية حققة ، والروح المناهضة للدين ولرجالها التي جاش بها هذا الاخير كادت تتصل بابانيز وزولا .

والكذب التقليدي هو الذي يجر الى المعركة وبشرها احتجاجاً على هذا الظلم الاجتماعي الذي يبدو من البورجوازية ، كتاباً امثال شو وويلز . وقد دفعت قضية دريفوس ، كاتباً فرنسياً هو جول رينار نحو الاشتراكية ، واخرجت من برجه العاجي اناطول فرانس ، هذا الكاتب الساخر المستهزئ الناعم الذي عالج او بحث اموراً جلية . بين هؤلاء الكتاب من يحملنا نفكر بمسرح شعبي وبأغان شعبية ، فرومان رولان هذا الكاتب الرمزي الذي هو خير من يمثل الانسانية المسالمة يتوخى ان يترك لنا وصف عظام الرجال الذين تألموا وجاهدوا في سبيل رفع مستوى الحياة . فنحن امام طلع حقيقي من هؤلاء الشعراء والروائيين الاحقاق من ابناء الشعب لا يتورعون عن استعمال اللهجات الشعبية امثال شارل لويس فيليب ابن صانع القباقيب في مقاطعة البوربونيه الذي كشفه لنا قصته المعروفة بوبا دي مونبارناس ، وجاره اميل غيوميه ، واضع القصة : حياة احمد البسطاء والحياطة مرغريت اودو التي صرفت ٢٠ سنة في كتابة روايتها « ماري كلير » ، هم بعض هذا الفريق الذي يمثل في فرنسا ، شلة الكتاب المتواضعين ، الدائبين على انفسهم ، الثائرين خير من يمثلون جيل الادباء في فرنسا اذ ذاك . وغوركي الذي يبدو لنا اليوم بوهيمياً ، يصور لنا بمقاطعة ملؤها الرومنطيقية امثال التائه البطل . فما اكثر الادلة والشواهد على الالام الاجتماعية .

الحريات العامة وروح التضامن وقضية
« ديموقراطية مسيحية »
ومع ذلك فقد راحت الطبقات العاملة تحتل يوماً بعد يوم ،
محلاً أكبر في الحياة السياسية ، بعد ان افادت كثيراً من
تطور الدول وتحولها نحو النظام التمثيلي الذي ارتضته
البورجوازية المتحررة وساعدت على رواجه . فالتحرر السياسي سار وفقاً للمبادئ الداعية الى
الفردانية ومتطلبات السيادة الوطنية بينما تنزع القوى الاجتماعية منذ ذلك الحين ، الى تنظيم
نفسها عن طريق الموائيق الصناعية والجمعيات المهنية . فالى اي حد ياترى يتمازج المواطن
« المواطن المجرّد » بهذه المدنية الديموقراطية ، بهذا الانسان العالمي ؟

نرى ، قبل كل شيء ، ان النظام الاستبدادي او المطلق الذي استبدل في اليابان عام ١٨٨٩
بالنظام التمثيلي او الدستوري ، اخذ يتوارى تبعاً في كل من روسيا (١٩٠٥) وتركيا (١٩٠٨)
وايران (١٩٠٩) ، والصين (١٩١١) . فالبلدان التي بقي فيها حق الاقتراع ، مدداً تقصر او
تطول ، امتيازاً مقصوراً على اصحاب الثروات وخدم ، استبدل بالاقتراع العام الذي اخذ
يفرض نفسه في كل مكان . والتمثيل النسبي الذي عجل به في كل من بلجيكا وسويسرا والارجنتين ،
اخذ يلقي ارتياحاً ورواجاً لدى الفرنسيين .

ومع أن الرأي العام اخذ يهتم ، بفضل الصحافة على الاخص ، بنشاط الهيئات النيابية ، فحق
الاقتراع الشعبي لم يكن ليعني قط اوليفيد ان المواطن اخذ يساهم ، اكثر فأكثر ، بتسيير
القضايا العاملة في البلاد . فقد بقيت هذه المساهمة اسمية أو نظرية ، في هذه البلدان التي لا يهتم
فيها جمهور الناخبين ، جهلاً منه او تكاسلاً ، الاما ، لواجباته وحقوقه المدنية ، وهي مساهمة
تأتي جانبية او غير مباشرة في معظم الحالات ، وكثيراً ما حدت منها أساليب الاخذ بالنظام
التمثيلي ، والمؤثرات الشخصية والحزبية ومدخلات ارباب المال . ومن جهة أخرى ، فالخدمات
العامة التي تتطور بسرعة تأخذ موظفيها من رجال « السلك » ؛ فاذا ما تفلغت فيها الروح
النقابية ، كما هي الحال في فرنسا على الاخص ، فالدوائر العامة هي بئام من التيارات السياسية .
الا ان الدولة التي لا يزال فيها انصار النظام القديم ينتقدون بشدة التدخل في الحياة الاقتصادية
والاجتماعية ، ترى باستمرار دورها ينمو ويزداد بازدياد الضغط الذي تمارسه الهيئات والمنظمات
النقابية المختلفة الحسنة التنظيم .

ان اعادة النظر في الليبرالية الفردانية الصرفة التي يوشح بها منذ جون ستوروات مل
ورنوفيه اشتدت حركتها تحت تأثير الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع السبنسري ومدرسة دوركهايم .
فالترابط القائم بين البشر رأى فيه كثيرون نتيجة حتمية للقانون الطبيعي الذي يشد بعضاً الى
بعض ، اعضاء كل جنس من الاجناس الاحيائية . فبدلاً من حقوق الانسان التي تراعي الى حد بعيد
جانب الفرد ، راح ليون بورجوى يوصي العمل بالعقد ذات المفعول الرجعي المسلم به ، والذي يقتضي
قيام رابطة سابقة تشد الفرد الى المجتمع ، وذلك في بحثه الموسوم : « محاولة حول فلسفة
التضامن » . يرسم لنا فيه الخطوط الكبرى لفلسفة اشبه ما تكون بالليبرالية المستحدثة التي

تبلتها الراديكالية الفرنسية . نحن أمام علمانية إنسانية تفرض على « من ينعمون بالامتيازات » ، واجبا اجتماعيا عليهم ان يؤدوه باسم العدالة ، على ان يمنحوا المواطنين الاكثر حرمانا ، عوناً ضد العجز الطبيعي والاطار الاجتماعية مع التعهد بتأمين منافع التربية الابتدائية للجميع على السواء . وقد تبنى مثل هذا البرنامج عدد كبير من الاحزاب المتحررة المحافظة الموجودة في البلدان السكندنافية والانكلوساكسونية ، وفي سويسرا وبلجيكا و « التقدميون » في الولايات المتحدة الاميركية .

ان نظرية من هذا الشكل تتفق تماماً والمسيحية الاشتراكية كما يتمثلها بعض البروتستانتات . فالكاتب الفرنسي شارل جيد الداعية الى التعاون يعرض علينا نظرية تعاونية أساسها الاختيار الادبي والاداري . وقد عرض لنا ولفرد مونو القضية بوضوح كلي في كتاباته العديدة ولا سيما بكتابه المعنون : « نهاية المسيحية » . « فالمسيحية ترزح تحت وطأة حرم ثقيل لأنها تأخذ بالجدية اللازمة ، العمل على محاربة البؤساء في العالم وازالة آثارهم » . فنظام الاجر المعمول به اليوم مقضي عليه امام محكمة العقل ومحكمة الضمير ومحكمة التاريخ . اما ألمانيا ، فتسيطر عليها روح انسانية رغبة تقود الحزب الوطني الاجتماعي الذي اسسه ثوماف اكثر منه حزب العمل المسيحي الاجتماعي المعروف بروحه المحافظة والمناهضة للسامية . اما في بريطانيا العظمى ، فالروح البروتستانتية هي التي تنتزى بالنزعات القابية ونزعة الجمعية القابية الانكليزية التي نشطت عام ١٨٨٤ والتي سعى اعضاؤها الى نشر المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية .

وبالفعل فقد راحت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن طريقة تحد معها من حركة تجريد الطبقات من الروح المسيحية . ف « البراءة البابوية » التي صدرت عام ١٨٩١ شجبت بعنف ليس الكفر والروح المادية التي تطفو على التعاليم الاشتراكية ، فحسب بل ايضاً نزلت باللائمة على الرأسمالية التي تعمل على عزل العمال وجعلهم يغير دفاع عن حقوقهم في الوقت الذي وجدوا انفسهم واقعين تحت رحمة ارباب العمل الذين تجردوا من كل شفقة ، راحوا فريسة الجشع ومنافسة جنونية لا حد لها . وراحت تؤكد ان الطبقتين المذكورتين معدتين من قبل الطبيعة للعمل معاً بانسجام كلي ، وتذكر الدولة بأن عليها واجبات معينة نحو « اصحاب الاجور » وتوحي بتشكيل جمعيات اخوية مشتركة بين ارباب العمل والعمال ، وبعبارة اخرى ، تأليف نقابات مختلطة تخضع « لادارة رائدها الحكمة » .

غير ان الكتلثة الاجتماعية اخذت تتأرجح بين روح محافظة ذات نزعة نقابية مناهضة لكل تعاون يقوم بين العلمانية وبين الحركات او التيارات التي تنتسب صورياً الى « الديمقراطية المسيحية » . فاذا ما راح الحزب الكاثوليكي ينتزع بنجاح من الحركة الاشتراكية جانباً من العمال الناحين في بلجيكا وفي المانيا ، فالمسيحيون الاجتماعيون في النمسا راحوا يتخذون من محاربة السامية ذريعة لهم ، ومناهضة السامية التي تميزت بها بعض الاوساط الكاثوليكية في فرنسا هي التي تهدد بالخطر ، الفوز الذي يبسم للحركة الديمقراطية المسيحية خلال قضية

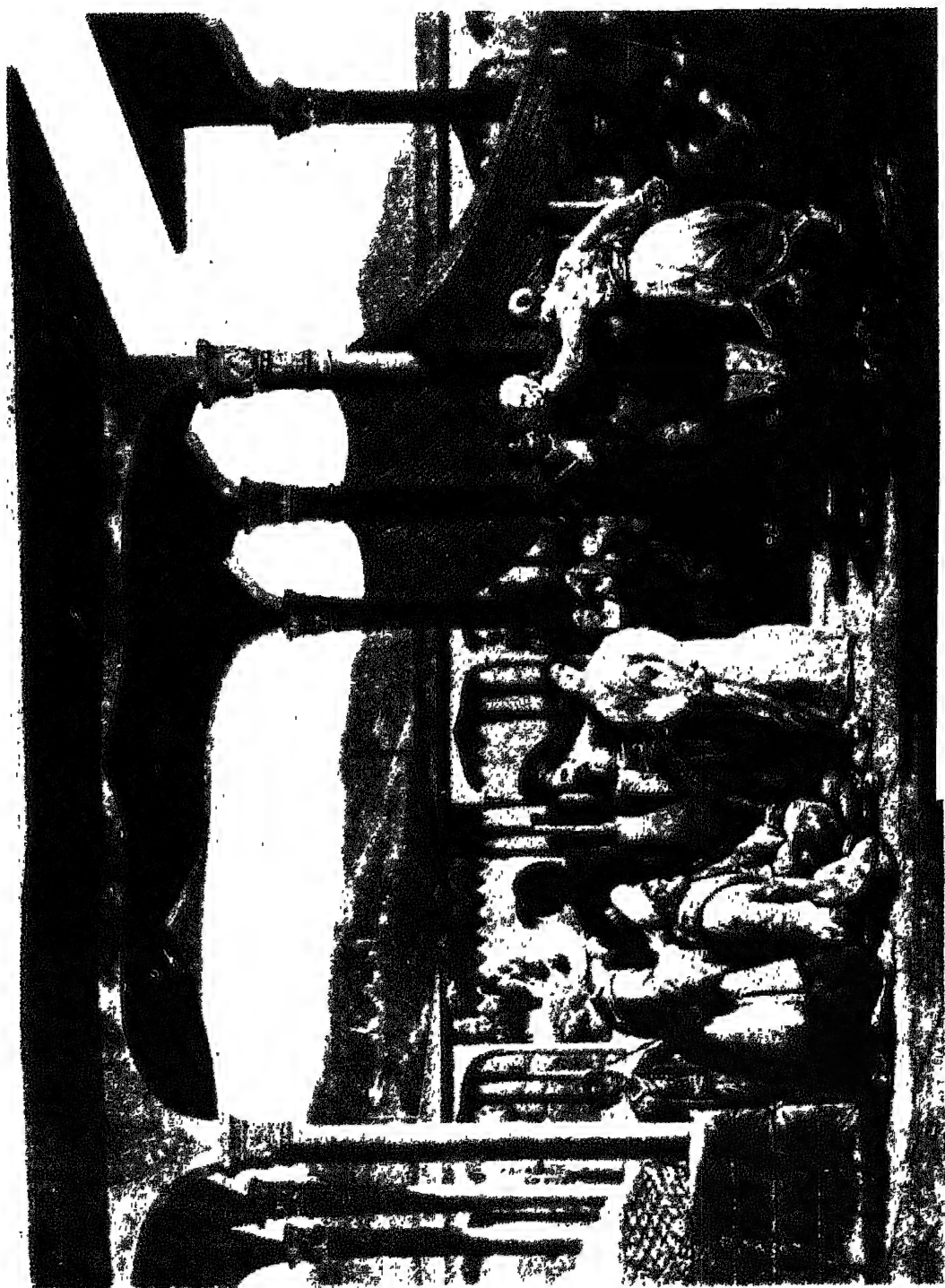
درايفوس . الا ان الاب لومير اصطدم ، على غرار البير دي مون من قبل ، بالقضية العلمانية المحافظة وبعبء ارباب العمل التي لا يهمها كثيراً ان ترتبط بروابط قانونية .

ولذا راحت البراءة البابوية التي صدرت عام ١٩٠١ ، توصي بالفصل بين العمل السياسي والنشاط الاجتماعي . ومنذ ارتقائه السدة البابوية ، راح البابا بيوس العاشر يدعو العمل الشعبي الكاثوليكي للامتثال لتوجيهات السلطة الكنسية ، بعد ان وافق على موقف الاسابيع الاجتماعية في فرنسا . وعندما راح مارك سانبيه وألسون يعلنان علانياً موافقتهما على الغاء الاجر الرسمي وسيادة الشعب ، راح الكرسي الرسولي يشجب « هذه النزعات المقلقة » حتى هذه الاتفاقات والمواثيق المعقودة بين عدة طوائف في قلب الاتحاد العمالي في المانيا ، فقد نصحت بالتخلي عنها . اما في ما يتعلق بالانتائية الانطوائية فعلى البراءة *Rerum Novarum* ان تذكر بالقراعد والمبادئ التقوية : « كالفقر ليس حطة او اهانة ؛ وعلى الانسان ان يتسلح بالصبر لما هو عليه من وضع » .

في اعتراف الليبرالية بضرورة المصالح العامة الدائمة اعتراف
الضرائبية الديمقراطية وتطور
التشريعات العمالية
ضمني بحقوق الدولة باستيفاء ضريبة من افراد الشعب ، وفقاً
لامكانيات الفرد وطاقته على الدفع . الا انه ظهر للكثيرين
ان الضريبة المستوفاة يمكن ان تصبح بدورها اداة لتوزيع هذا الربح . وهذا التطور في
مفهوم الضرائبية تم في الوقت الذي كانت فيه النفقات العامة ترتفع بسرعة في الدولة... وبالرغم
من شعبي الاشتراكيين للضرائب غير المباشرة باعتبارها اعتصاراً بفيضاً للأجور والدخل الصغير
فقد استمرت تهب بثقلها الجماهير التي رزحت تحتها . ومن العسير جداً ان لا يطلب من اصحاب
الثروات القيام بمجهود اضافي في هذا المجال . من هنا اللجوء الى الضريبة على الدخل التي تأتي
تصاعدي نوعاً ما والتي قبلت العمل بها بعض المقاطعات السويسرية ، مع ضريبة إضافية تم
فرضها في الوقت ذاته على رأس المال ، في كل من بروسيا وساكس ، على غرار بريطانيا العظمى
التي سارت في تجارتها على سياسة حرية التبادل التجاري . وقد اعترض معارضون على هذه
الضريبة ونعتوها بأنها قفنيشية ، اذ انها تفرض التثبيت من صحة الربح المعلن عنه ، وهي
ضريبة عادلة ، على عكس ذلك ، لانها تصاعدي ، يجيب انصارها ومعظمهم اشتراكيون او من
محبي الاشتراكية . وهكذا تم في انكلترا نوع من التحالف اطرافه الاحرار والعمال لاقرار
ضريبة عام ١٩١١ تعرف بضريبة الدخل ، وفرض رسم معين على التركات ذي طابع تصاعدي
وهي ضريبة تقع بكاملها على ارسنوقراطية اصحاب الاملاك ، ولهذا راح لويد جورج يصرح قائلاً :
« دوق واحد يكلف ما يكلفه صنع دارعتين » . ومن المستحب الاستشهاد هنا بمثل اوستراليا
التي « آثرت ان يكون لها مجلس شيوخ اعضاؤه من الكنتوررو على ان يكون لها مجلس لوردات » .
فقانون البرلمان انقص من سلطة هذا المجلس ومهد الطريق امام تشريع اكثر تشبهاً بالروح
الاشتراكية . اما في فرنسا ، فالمركة استمرت ١٢٤ سنة ، فشرع القانون الذي قدمه كايو للمجلس

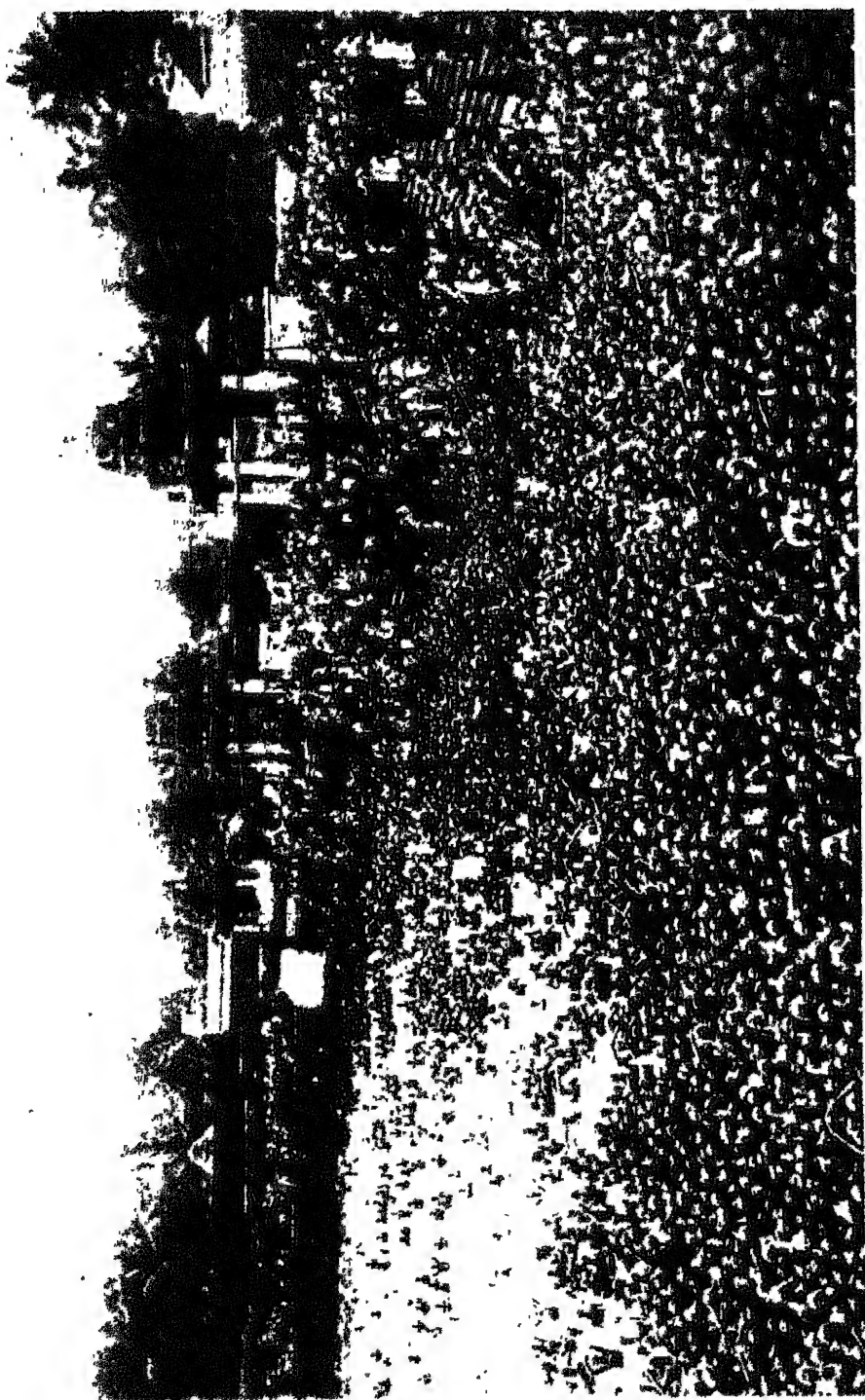


٣٣ - اول استعراض للعالم الامير كين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .





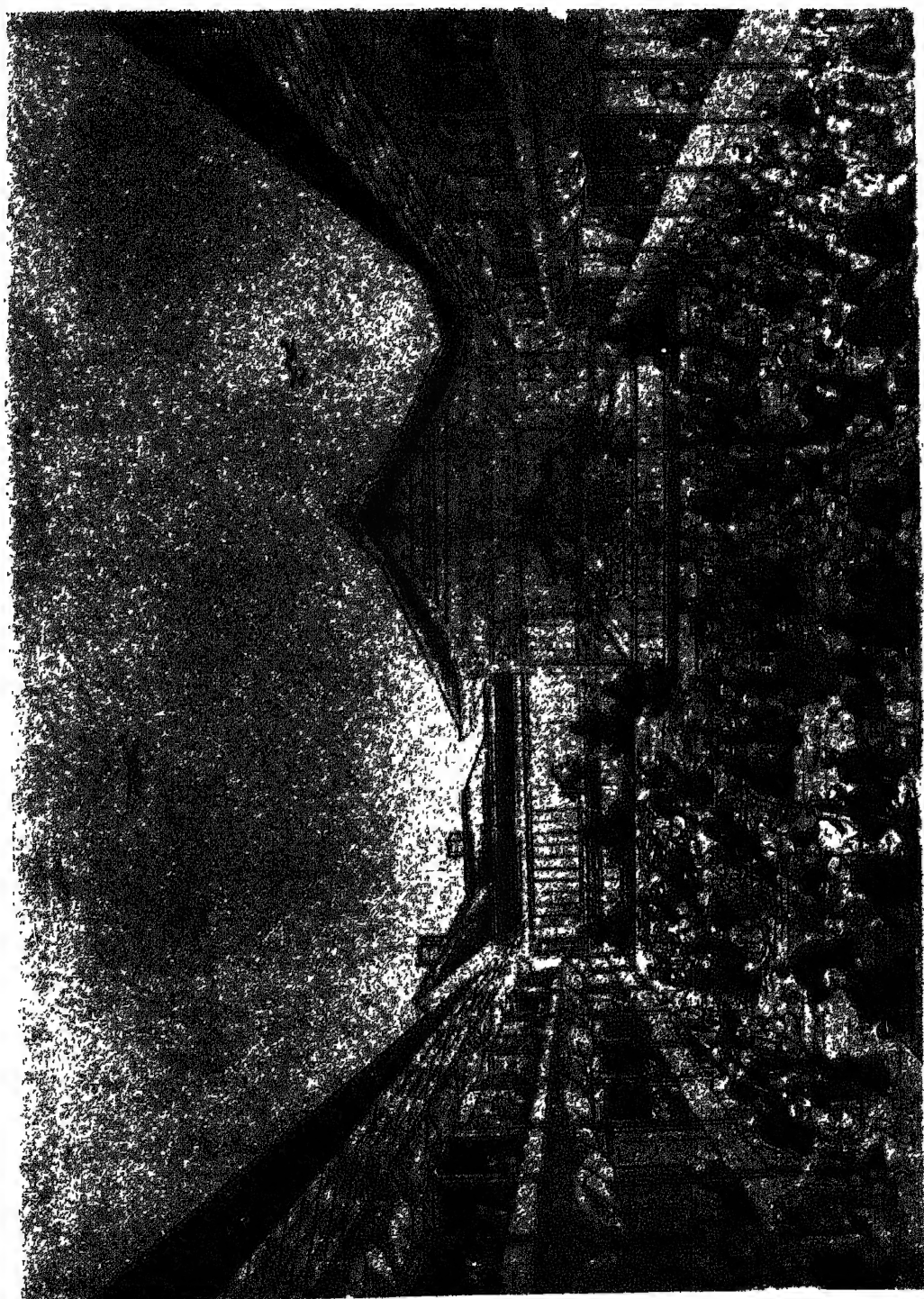
٣٥ - دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افرقيا الغربية الفرنسية) .



٣٦ - حمامات الخانقاه المقدسه



٣٧ - دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ - هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .



٣٨ - مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .





٤٠ - الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧١ .



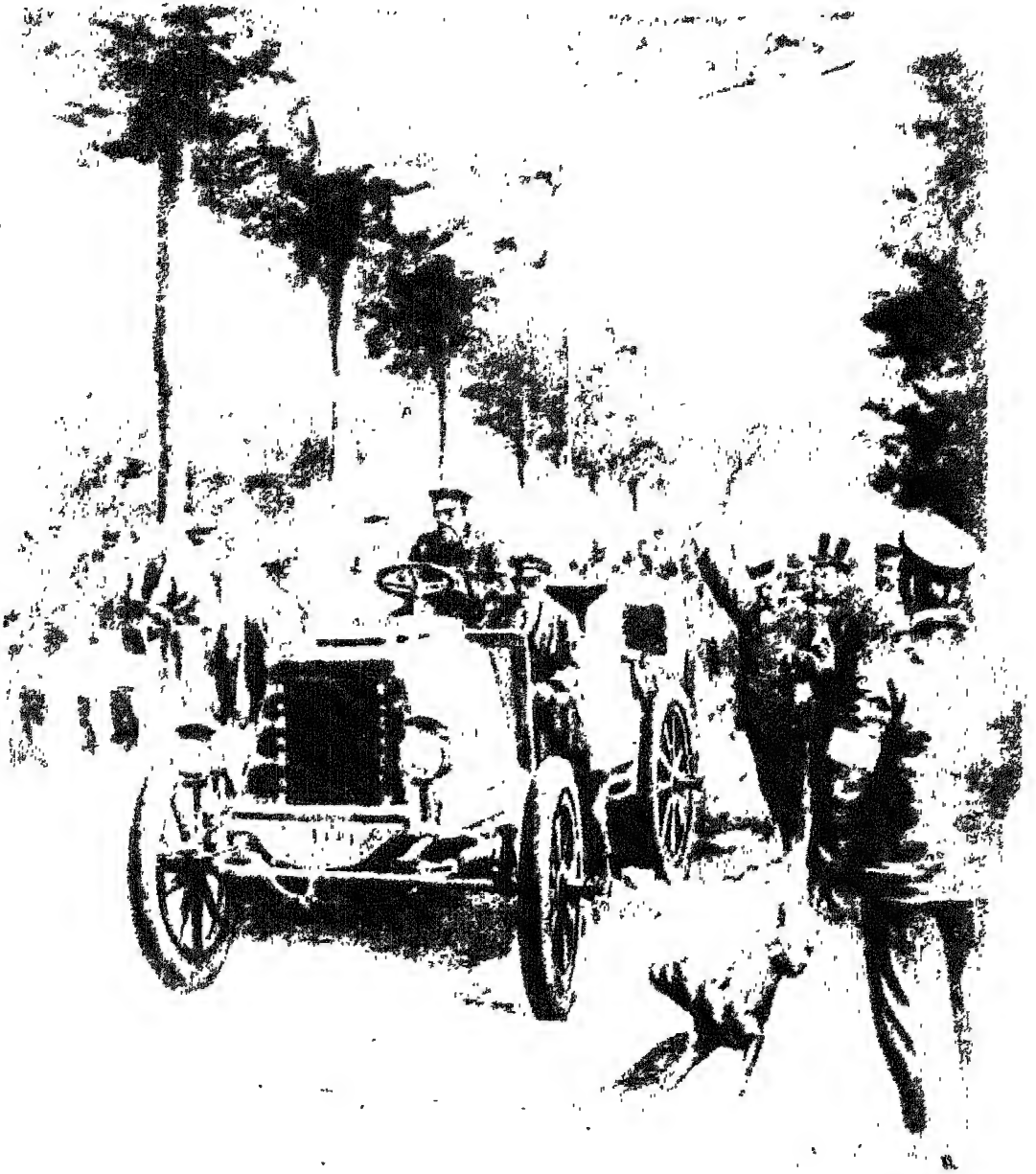


٤٢ - اخراج القرش من بيت الرهن .



٤٣ - كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .





٤٥ - انطلاق السيارات المتسابقة (باريس - برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .



٤٦ - متنزه الدراجة في غابة بولونيا .



٤٧ - حفلة راقصة في (طاحونة الطلحة) .



بشان الضريبة ، على الدخل ، وهو قانون صادف معارضة قوية في البرلمان ، ما كاد يمر في مجلس النواب حتى قام مجلس الشيوخ بدفنه الى عام ١٩١٤ . اما في الولايات المتحدة الاميركية وفي انكلترا في عهد بيل وكوبدن فالتخفيف من الرسوم الجمركية ، عام ١٩١٣ ، قابله فرض ضريبة الدخل .

اما في نطاق سياسة الاقتصاد التفضيلي حيث لا نلاحظ اي تأثير للحركة الاشتراكية ، فقد تطورت التشريعات ضد الاتحادات الاحتكارية *Trust* في الولايات المتحدة الاميركية التي بعد ان رأت خطراً بطل من « التباز » التصاعدي فقد امر الحزب الجمهوري الحاكم حل شركة ستاندره أويل والشركة الاميركية للتبغ اللتين اعادتا تنظيمهما بشكل آخر . ولما عاد الحزب الديموقراطي الى الحكم من جديد عام ١٩١٢ ، عمد الديموقراطيون الى تشديد الاحكام المنصوص عنها في قانون شرمان الصادر عام ١٨٩٠ الذي جاء الاختبار بدم من عن قلة جدواه واخذ الناس يتشككون في صلاحه .

ففي الوقت الذي لم تكن انطلقت فيه بعد في اوروبا ، حركة مناهضة الاتفاقات الصناعية ، راح عدد من الدول يحاول شراء شبكة الخطوط الحديدية في ارضها كلها او جزءاً منها ، وانتشرت من كلا جانبي المحيط الاطلسي عملية تأميم البلديات *Municipalisation* لمصالح المياه والغاز والنقل وجعلها خاضعة للبلدية إدارياً . ففي مدينة برمنغهام ، قام جوزف شبرلين المعروف اذ ذاك بنزعة الراديكالية برصي يفرض الضريبة التصاعدية ، وفرض ضريبة على الدخل ، وهي ضرائب تتيح جبايتها للبلدية تمير مساكن شعبية .

وراح الاشتراكيون ينظرون ، قارة شرراً وطور نظرة رضى وارتياح ، الى هذا التطور الذي حققه التشريع الاجتماعي الذي هدف الى تلاقى المساوىء الفاضحة التي رافقت ، في الماضي ، للنظام الرأسمالي ، بقصد تحسين الملائق والروابط بين العمال وارباب العمل . الا ان تدخل القانون وتدخله لم يرق الى نظريات منهجية . فقد تبانت نصوص التشريعات الصادرة وتضاربت بين بلد وآخر باختلاف طبيعة التركيب الاجتماعي والمزاج الوطني في البلاد ، مع العلم ان التشريع في الولايات المتحدة الاميركية هو من اختصاص الولاية اكثر منه الحكومة الاتحادية .

والروح الفردية في فرنسا رأت نفسها ملزمة بمقاومة عنيفة ، هذا الالتزام الذي كان وقعه اخف في ألمانيا وبعض البلدان الانسكاسكونية منه في فرنسا . فبلدان استراليا التي مثلت هنا دووراً واقداً وجاءت ابداء في الطليعة ذهبت الى حد ضمان حد ادنى للاجر ، بينما انكلترا حيث اقر القانون المعروف بـ *Trade Board Act* المبدأ الذي اقترح الاخوة *Ebb* تعيين « حد ادنى رطلني » ، اقصرت تطبيقه على عمال المتاجم لا غير . وتنظيم يوم العمل الذي قوبل بالاحترام على درجات مختلفة ، اخذ في الانتشار والتوضيح ، وان قصّر عن تحقيق مطالب العمال كلها : فافاد ما تبنت استراليا قاعدة العمل ثمان ساعات في اليوم ، منذ عام ١٨٩٠ - ١٨٩٣ فهذا

الاقتراح لا يطبق في انكلترا الا على العمل في المناجم ، وفي الولايات المتحدة الاميركية ، على عمال الخطوط الحديدية . اما تعطيل يوم الاحد ، فعادة دينية وصلتنا عبر الاجيال ، لم تشأ الروح الليبرالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الاعتراف بها كواجب او عادة ملازمة . ومع انه لم يعد من يراقب او يشكك بشرعية الحركة النقابية في البلدان الصناعية - باستثناء اليابان نرى بين ارباب العمل فريقاً يشتمز كثيراً من رسوخ هذا الامر ويرفض التسليم للمنظمات العمالية حق التكلم في المفاوضات باسم اصحاب الاجور . ولذا حرصت حكومات البلاد البورجوازية دوماً على قبول العمل بهذه الطريقة او باخرى ، في مفاوضات التحكيم ، فهي تقترح بعض القواعد التي لا بد من الاخذ بها في عقود العمل وضمن الاجر وتأمين الامور الصحية ، وراحت الدول الأوروبية ، على غرار المانيا ، تدرج في تشريعها العمالي نصوصاً معينة تؤكد الضمان في حوادث العمل الطارئة . ونظمت كل من انكلترا والنرويج وبلجيكا الضمان ضد البطالة ، بينما اقتصرت فرنسا مساعدتها على التسرع ببعض المال لصندوق النقابة . وسار البريطانيون بعد الالمان بزمان ، في طريق اقرار الضمان الالزامي ، عندما سنوا ، عام ١٩١١ ، قانون الضمان الوطني . الا ان تلك التدابير الجزئية التي اقرها البرلمان الفرنسي لم تؤد قط الى تشريع عام خاص بالمرض وبالشيوخوخة قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٩٠ ، بُذلت جهود كبيرة في سبيل وضع تشريع عام خاص بالعمل . فالاهداف الاقتصادية كانت تسبق دوماً الاهداف الانسانية وتتقدمها . فقد رأى احد اعضاء مجلس بال المعروف بنشاطه الجهم هو السويسري فراي في تخفيض معدل ساعات العمل ، علاجاً ضد اغراق الانتاج ، وقد اقر مؤتمر برن المعقود ، عام ١٩٠٥ ، مبدأ تحريم الفسفور الابيض في صناعة عيدان الثقاب او الكبريت الا ان السويد أثبت ان توقيع الاتفاق اذا تمتعت اليابان التي لم تحضر المؤتمر عن قبول مقرراته وتوقيعها . وتحريم العمل ليلاً للولاد والنساء اقتضى الوصول الى اقراره الكثير من الجدل والنقاش ، خلال هذه المؤتمرات التي تناولت بحث هذا الموضوع حتى عام ١٩١٤ . وقد وقعت بعض اتفاقات ثنائية ، مثلاً بين فرنسا وبلجيكا ، وبين ايطاليا ومانيا نصت على حماية العمال بين البلدان التي ترسل او تقبل اليد العاملة التي يمكن لها استخدامها .

ازدادت اضطرابات العمل ومصادمات العمال حدة بين السنوات ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، وبرزت الحركة العمالية اكثر رهبة من الدولية الاشتراكية الثانية ، في هذا النشاط الذي نجاشت به ، مثلاً بهذه الاضرابات الواسعة العنيفة التي قامت بها وبهذه الاحتفالات الواسعة بعيد اول ايار ، تضخم الروح النقابية واستشراؤها .

فقد بدأ الاضراب والاعتصاب في اعين العمال خير الاساليب واسرعها للحصول على مطالبهم

الاضطرابات الاجتماعية والمهجوم
الكبير التي هيات اسبابه النقابية في كل
من أوروبا وأميركا

والفوز بتحقيقها . فقد قام العمال في فرنسا وحدها عام ١٩٠٩ بأكثر من ١٠٢٥ إضراباً ، ونظموا في ألمانيا ١٥٣٧ اعتصاماً ، وفي انكلترا ٧٣٥ ، اشترك فيها أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ عامل وجرت اضطرابات في مناجم الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، و ١٩٠٢ ، و ١٩٠٣ ، و ١٩١٢ ، و ١٩١٤ ، كما اخذ عمال مصانع الحديد يتحركون في هرج ومرج عام ١٩٠١ و ١٩٠٩ ، وعمال الحطوط الحديدية ، عام ١٩٠٤ و ١٩١١ ، وعمال التسيج وصنع الالبسة عام ١٩١٠ ، و ١٩١٢ ، و ١٩١٣ . اما ايطاليا فقد وقعت فيها ١٢٥٠ حركة اضراب بين ١٨٧٠ - ١٨٩٠ ، وحدث فيها ١٧٠٠ حركة اضراب بين ١٨٩٠ - ١٩٠٠ و ١٤٠٠ ، في سنة ١٩٠١ وحدها ؛ وهي انتفاضات وهيجانات رأى فيها جورج صائد « ملحة »

لنتصفح مذكرات نقابية مجاهدة هي الماما جوتز التي ساهمت بنشاط في هذه المعارك العمالية التي وقعت في اميركا . فالوصف الذي تركته لنا عن هذه الاضطرابات شيء مزعج مقلق . ففي كولورادو ، عام ١٩٠٣ ، اعلن الاضراب في التاسع من تشرين الثاني ١٩٠٣ ، مطالبة بثلاث ساعات عمل في اليوم ، ولتعيين مدقق اوزان من قبل العمال وللمطالبة بعملة فضيلة ونقد عيني بدلاً من بونتا ... فلم يستخرج من المنجم اي قطعة فحم . فالبرد قارس في تشرين الثاني في الكولورادو واخذ الناس يشعرون بوطأة الاضراب ... اخيراً وجه انذار للعمال ... فالمعارك الحامية العنيفة وقعت حول *Creepie Grack* ، وتم طرد العمال من منازلهم التي كانت ملكاً للشركة ، فالتجأوا الى الجبال الموحشة بعد ان نصبوا خيامهم وسط زمهرير الشتاء الذي سقطت درجة الحرارة فيه الى ٤٥ درجة تحت الصفر . ولفوا أرجلهم بالثياب الرثة اتقاء لقرص الزمهرير ، وضمرت وجوههم بعد ان عضهم الجوع كالذئاب في الغابات . فاضطرم الجوع وحده لاستئناف العمل في المصانع .

وفي اوربا اتصفت الاضرابات في المناجم بكثرتها وشدها . وبما بلغت النظر تطور التضامن الصناعي ، اذ تضامن عمال الروهر عام ١٩١٢ ، مع عمال الفحم في انكلترا ، مما افضى الى زيادة محسوسة في الاجور وتحسين اوضاع العمل لدى هذه الطبقة المحرومة .

فإذا ما اكثر العمال البائسون في روسيا من إظهار قملهم من الوضع الذي يرسفون فيه ، فالعمال العاصلون في المناجم والموانئ البحرية في كل من المكسيك والارجنتين والشيلي ، اخذوا ، هم ايضاً يتململون بشيء من الحدة في التسمينيات ووقعت بعض حوادث العنف في اليابان . فأضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩٠٠ صادف نصف نجح . وفي عام ١٩٠٧ ، ظهرت لأول مرة المقاومة ضد شركات الفحم في افريقيا الجنوبية ، حيث تميزت السنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ بالحوادث العنيفة التي وقعت فيها .

والجديد في الامر هو دخول موظفي المصالح العامة الحليبة : ليس فقط عمال الفحم ومجارة الاسطول التجاري ، بل ايضاً عمال المناجم وعمال الشحن في المرافئ ، وعمال البناء .

والاضرابات في الريف ارتدت هي الاخرى ، بعض الاهمية . فقد هزت القلاقل والاضطرابات روسيا واميركا الجنوبية وعلى الاخص اقطار جنوبي اوروبا التي نزع عنها اهلها بعد ان وقعوا فريسة الازمة التي حلت بزراعة الكرمة . وقامت بالفعل فتن عديدة في الارياف الإيطالية كما تكاثرت حركة الاضراب بين فئة *Braccianti* . في كل مكان من البرتغال الى غاليسيا ، اخذ القلق يساور الفلاحين ويدفعهم الى حركة انتقال واسعة تحملهم الى مجاهل اميركا . وهناك قطر آخر مشهور باستثماراته الكبيرة هو انكلترا حيث تقوم بروليتاريا من المياومين تلجئ بالمطالبة وتتشدد بها . ويقوم في فرنسا الكرامون بعدة حوادث من الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة : فقد ضاقوا ذرعاً بتصريف الكيماويات الضخمة من النيبذ والنيبذ المزغول ، التي انتجوها ، كما يعطل كايو قيام هذه المظاهرات في مذكراته . « فقد اشترط رئيس الحكومة اذ ذاك (كليمنصو) ان يعود كل شيء الى الهدوء ، وقد اكثر من ارسال الجيش الى المقاطعات الثائرة ، وسالت الدماء في تاربونا » . الا ان القائمين بأعمال الحصاد في حوض باريس والفحامين وجامعي صمغ الراتنج يرون انفسهم مدعويين للمظاهرات بدافع من البؤس الذي يتضورون منه .

وفكرة الاضراب العام الفاشم الذي لا يقهر ، المنتصر ، الفكرة القوة التي لا تدفع ، هذه الفكرة التي خطرت لجورج صوريل ، سارت طريقها في الاتجاه المرسوم ، بالرغم من الفشل الذي منيت به المحاولة الاولى التي قامت في ايطاليا ، عام ١٩٠٤ . فبعد ان نظر اليها الماركسيون نظرتهم الى شيء مستحيل ، إنتشرت الفكرة على الاخص ، بين انصار الحرية واللاسياسيين .

« فمع ندرته في الغرب ، كما يلاحظ تروتسكي في مذكراته : « حياتي » ، فالاضراب السياسي هو الطريقة الناجحة المثلى في روسيا » . فالاضراب يحرق وراءه نحو مليون رجل الى قلب الثورة ، عام ١٩٠٥ ، واكثر من مليون في النصف الاول من عام ١٩١٤ .

ومن الامور التي لها دلالتها الخاصة هنا هو وقوع الاجماع على اختيار اول ايار واتخاذ العلم الاحمر لدى الطبقة العاملة تأييداً لمطالبها الحققة . « يوم » ورمز ذو طابع دولي . « ومما هو ادهى من ذلك ، كما يلاحظ سان سيمون بمناسبة الاحتفال بأول ايار عام ١٨٩٠ ، هو هذا التفاهم الدولي بهذا الشأن من فوق الحدود ، والاتفاق على نص واحد للتعبير عن المطالب المشتركة ، وطريقة واحدة مشتركة للتعبير عن المطالب الواحدة المشتركة . نحن امام تحول عظيم للنظام الاجتماعي » . سجل عيد العمل ، والحق يقال ، فترة قصيرة الامد من البطولة : فقد قامت عام ١٨٩١ ، مظاهرات شعبية حماسية وفتن في مدينة كليشي واطلاق العيارات النارية في مدينة *Fourmies* بفرنسا ، واصطدامات حامية في ايطاليا وفي فلورنسا وفي اسبانيا والجر ، واضطرابات حامية في شيكاغو وفي البرازيل وحوادث في لودز وقعت عام ١٨٩٢ . هذه هي المناسبة التي راح فيها جان باتست كليمان يضع هذه الاناشيد الحربية :

لهذه الرأسمالية التي تتكلم بلهجة السيد الأمر
لنجعل هذه اليقظة اليوم رداً حاسماً قائلين
لكل انسان محله تحت الشمس
لكل انسان حقه من الراحة والرفاهية

ثم مبط الحساس وخذت جذوته . وعند حلول العيد في تاريخه المعين كل سنة لم يعد اول ايار يلهب الخيال ويرعب الطبقات ويسمر الخوف في قلوب الاثرياء . فالمسيرة التقليدية تسير سيرها العادي المألوف وتتجاوب الارجاء صدى نشيد الدولية ، هذا النشيد الذي وضعه اوجين بوتيه ، عام ١٨٧١ ، وقد يرتفع فيه احياناً العلم الاحمر الذي رأى فيه ابناء الكومون « رمز السلام والمساواة » ، وقوى الامن تسهر على الامن وتكبح جماح المتظاهرين وتجبرهم على التزام الانضباط ولن يلبثوا ان يتمرقوا من حيث جاؤوا . وقد علق المجلس الشيخ في اليوم التالي لاول ايار عام ١٨٩٢ قائلًا . « كان عيد اول ايار هنا (في لندن) جيملاً جداً ، اذ انه اصبح شيئاً من هذه الاشياء العادية التي تمر كل يوم او بالاحرى كل سنة . فقد ذهب رواؤه الاول وولي رونقه » . ونشرت الجمهورية الصغرى ، في اول ايار ١٨٩٥ ، قائلة : « في الامس القابر كانت تقوم قورات اما اليوم فتتنظم مسيرات . في الامس كانت لابد من جيش بكبح هياج الجماهير وحاسها في الضاحية ، اما اليوم فبضمة انفار من قوى الامن تكفي لنشتيت بضمة الوف من المتظاهرين » . ما الفائدة لعمري من التظاهر في الشارع اذا كان لابد من الانتهاء الى مثل هذه النهاية .

حاول زعماء الحركة النقابية مراراً ان يستغلوا عيد اول ايار . وبمناسبة الاحتفال به عام ١٨٩٦ ، وجه بلونيه نداء بأسم بورصات العمل ، وهو يرى ان على البروليتاريا ان تؤلف ، قبل كل شيء « جمعية عملاقة » ، مدركة لمصالحها الحيوية علية بالوسائل والذرائع المحققة لها . وراح مؤتمر العمال العام يحاول سنة ١٩٠٦ ، اثارة حماس المعركة لاجل تكريس العمل بشمان ساعات عمل في اليوم ، وذلك بالاستعداد للاحتفال بعيد اول ايار بشكل مشير ؛ انه « لعيد فخيم » بالحقيقة كما جاء على لسان ادوار فيتان ، ولكنه عيد لاغده له .

في هذه البلدان التي يشتد فيها الروح النقابية والاقبال عليها بحيث ارتفع عدد الاعضاء المسجلين فيها الى ٤ ملايين ، كما هو الوضع في انكلترا ، ومليونين ونصف في المانيا ، ومليونين في الولايات المتحدة الاميركية ، عام ١٩١٤ ، يستنكف العمل السياسي ببنى برنامجاً اصلاحياً بصراحة .

فاتحاد العمل الاميركي الذي يرأسه غمبرز يصطدم بمقاومة عنيفة لا تلين من قبل ارباب العمل الذين يستخرون بمنظمي الاضراب والسلطة القضائية لكسر حدة الاضراب . ولذا وضع نصب عينية تحسين وضع العمال باحترام اللعبة نفسها بتحقيق المزيد من المكاسب . الا ان حركة العمال

الصناعيين في العالم تبدو اكثر اخذاً بالاصول ، عام ١٩٠٥ ، وفي السنة نفسها يؤسس أبتن سنكلر الجمعية الاشتراكية الجامعية التي آلت رئاستها الى رجال لندن .

وفي المانيا راحت الحركة النقابية تنشق على نفسها نتيجة النزعات المختلفة والتيارات الفكرية التي هبت عليها : مسيحية ليبرالية لـ (هرش - دونكر) ، واشتراكية وراحت الفئة الاخيرة بزعامه ليجيان تنظم نفسها بيروقراطياً لاسيما وزعماء الحزب الاجتماعي الديمقراطي الماركسي لم يضموا نصب أعينهم التضامن معها .

والحركة النقابية العمالية ساندت في بريطانيا العظمى كما في استراليا حزب العمال البريطاني . فقد شجعت العمل المباشر الذي اوصى باعتاده كل من قبلت وتوم مان في انكلترا ، ولاركن في ايرلندا . ف نظام العمل الذي إستنته لا يختلف كثيراً عما كان متبعاً في بلجيكا والبلاد الواطية وفي النمسا حيث المنظمات الدينية الطابع تنبذ جانباً كل ما يشتم منه العنف .

اما فرنسا ، فالوضع فيها على عكس ذلك ، اذ ان الروح النقابية توصي بعدم الثقة بالاشتراكية السياسية : ماركسية كانت ، ام اصلاحية ، وبالقيام بعمل مستقل يتفق ومنهج اتحاد العمل العام الذي عد بين اعضائه نصف مليون عضو منتسب ، عام ١٩١٤ . وتحت توجيه رؤساء امثال بلوتيه وبوجيه وغريفويلز ومرهايم الذين ينتسبون نوعاً ما الى برودون وباكونين وجان غرايف والى المذهب الفوضوي ، اكثر من انتسابهم الى ماركس ، وهو الاتحاد كان يرمي « للتخلص من ارباب العمل ومن اصحاب الاجور معاً . وقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، الى التوصية بمقاطعة (boy collage) رب العمل المعروف بعدائه ، والى اللجوء للتصنيف تمييزاً لهم ، او الى اعمال التخريب ، كما يدعو بحزم الى الاتحاد البروليتاريا في كل العالم ، وادعى لنفسه بأنه حزب العمال الحقيقي » . وبميثاق أمان الذي تم وضعه وتبنيه عام ١٩٠٥ ، راح اتحاد العمال C. G. T. يؤكد رغبته في تزعيم حركة « الصراع الطبقي .. بعيداً عن كل مذهب سياسي » . وقد ظهر تأثير المطالب التحررية ، بشدة في ايطاليا وفي قلب غرفة العمل والنقابات الزراعية ، كما ظهر للخارج باولى تجربة يقوم بها ، اذ اعلن اضرباً وطنياً عام وتشكيل منظمات مناضلة ؛ منها مثلاً : لجنة المقاومة ، والعمل المباشر ، والاتحاد النقابي . وراح لابرولا وليونيه يعملان على ترويج مؤلفات سوريل ويضمان جانباً المذهب الاصلاحى الذي تبناه اتحاد العمل العام الايطالي . وفي سنة ١٩٠٧ ، راح الفوضيون يعقدون مؤتمراً لهم في امستردام أقر « اقتراحاً قدمه مالاتستا يحبذ العمل النقابي المستقل . وقد ادى ذلك الى ظهور منظمة التضامن العمال في كتلونيا التي عرفت بموقفها المعادي للدين والحرب معاً ، ثم في عام ١٩١١ ، الى تأسيس اتحاد العمل العام الذي وقف في كل اسبانيا ، موقفاً مناهضاً لاتحاد العمال العام ، الذي تأسس سنة ١٨٨٨ ، أي في هذه السنة بالذات التي تشكل فيها الحزب العمالي الاسباني . ونلاحظ مثل هذه السيطرة عند الايديولوجيا في اميركا اللاتينية .

وكان من عبق الاختلاف والتباين بين هذه الفئات والمنظمات ما أفسد كثيراً عمل النقابية الدولية . فقد تألفت ضمن كل منظمة سكرتيرية وطنية ، منذ عام ١٨٨٩ ، وقام منها حتى عام ١٩١٤ ، ثمانية وعشرون سكرتيرية عامة ، منها ٢٤ جعلت من برلين مركزاً أساسياً لها . وبالإضافة الى هذا كله ، فقد اتخذت تدابير خاصة لاعداد اجتماعات دورية يحضرها ممثلون عن هذه النقابات المركزية . وتأسس عام ١٩١٣ ، الاتحاد نقابي دولي جعل من مدينة زوريخ مركزاً له .

ومهما يكن ، فسواء تعلق الامر بالكفاح ضد الرأسمالية او بموقف دنيا العمال من الامة ، خلال الحرب ، لم يكن في وسع المنظمات العمالية ان تتجاهل ما للحركة الاشتراكية من عمل سياسي .

حققت الاشتراكية ، كالنقابية ، مكاسب جوهرية حتى في الدفع الاشتراكي وركة ماركس الولايات المتحدة الاميركية حيث لم يستطع مرشح الحزب ان ينال قسماً كبيراً من اصوات الهيئة الانتخابية . الا انه استطاع ان يؤمن لمرشحه ، في انتخابات الرئاسة ، عام ١٩١٢ نحواً من مليون صوت بينما عجز عن اعطائه ١٠٠،٠٠٠ صوت في انتخابات عام ١٩٠٠ . اما في اوربا ، فقد قفز الحزب الاجتماعي الديمقراطي الالماني ، من ١٤،٥٠٠،٠٠٠ صوت الى ٤ ملايين ، بين ١٨٩٠ - ١٩١٢ ، وبلغ عدد اعضائه في هذا التاريخ بالذات المليون ، وقال الفرع الفرنسي للدولية العمالية ، عام ١٩١٤ ، نحواً من ١٠٣ مقاعد بقطع النظر عن الاشتراكيين المستقلين . وقد كان للفئات الاشتراكية ٧٩ مقعداً في المجلس النيابي الايطالي ، عام ١٩١٣ . ودخل حزب العمال في انكلترا الحلبة بحزم فنال ٢٩ عضواً في انتخابات ١٩٠٦ ، و ٤٠ عضواً عام ١٩٠٩ . ومقابل ضعف الحركة الاشتراكية في بلد كاسبانيا بالنسبة لعدد البروليتاريا فيها (عضو واحد في الكورتيس ، عام ١٩١٠) تقوم من جهة اخرى المكاسب السريعة التي حققتها المنظمات السياسية الاشتراكية الديمقراطية : كالحزب الاشتراكي الثوري ، وحزب العمال والحزب الشعبي في روسيا ، وهي مكاسب كشفت عنها بسرعة ثورة عام ١٩٠٥ فقد تألت هذه الاحزاب مجتمعة ٤٠ ٪ من المقاعد في الدوما^(١) الاولى . وكان لا بد من قانون الانتخاب الشديد الوطأة الذي اعلن عام ١٩٠٧ لتخفيض عدد ممثلي هذه الاحزاب في المجلس النيابي .

فمنذ الثورة الفرنسية ، عاد الى النبلاء - هم في مجموعهم من الطبقة البورجوازية - حق سن القوانين . فلم يرق حزب ما أصيل من الفلاحين . ولذا فظهور منظمات سياسية فيها تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالح طبقة اجتماعية معينة وتفرض على اعضائها التقيد بالقرام سلوك معين في الانتخاب ، كان له دوي كبير في الخارج .

صحيح ان الاشتراكية بمساهمتها في الحياة النيابية لم تتخل قط عن الاساليب التي سارت عليها ،
(١) الدوما هو مجلس النواب في روسيا قديماً .

ولم تنبذ ما عرفت به من اعراف وعادات . فقد استمرت بعملها في البلدان الانكلوسكسونية «دون ان يكون لها فلسفة خاصة بها . فنحن امام حركة عمالية مشبعة بالروح النقابية الاصلاحية» لها اهدافها المعينة وموافاتها الاخلاقية الخاصة . « لا يمكن لنا ان نربط بهذه النظريات الاشتراكية المعمول بها في اوروبا ، يصرح العضو العمالي الاسترالي وطسن . نحن نؤمن بالمبادئ الاساسية التي تنادي بها الاشتراكية . كل شيء يجري على مهل » . عظيم هو النفوذ الذي تلعبه الطوائف والجمعية القابانية لدى البريطانيين على حزب العمال . فعامل المعادن بورت ، لا ينقطع عن الوعظ في الكنيسة المتودسية اثر انتخابه عضواً في مجلس العموم . ويحدثنا زميله كير - هاردي عن تجلي الحقيقة الكبرى التي اعلنها السيد المسيح باذلاً حياته في سبيلها ، وهي ان لا سبيل لخلاص النفس الفردية ان لم تخلص النفس الجماعية » . فن رسكن الى وليم موريس الى وب الى رمسي مكدونالد ، فنقد المجتمع الرأسمالي لا ينتهي قط بالدعوة للثورة والانتفاض على المستثمر . فهذا يضع نصب عينيه ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الامة الكبرى . « غايتنا الاولى نحو الرأسمالية وليس ازالة طبقة اصحاب الاجور ، كما يؤكد الاخوة وب الذين يفكرون يجعل كل الناس موظفين يتناولون اجورهم من الدولة » . ان تأميم وسائل الانتاج والخدمات العامة يجب ان يفسح المجال لنظام اجتماعي عادل . ومهما يكن فوضع البروليتاريا لا يزول من العالم تدريجياً الا تحت تأثير تشريع سلمي ملائم . فكما ان حزب العمال البلجيكي الاصلاحى الصميم يكسب انصاره على حساب حزب الاحرار وينحاز مع ذلك اليه ضد الاكثوية الكاثوليكية ، يقدم حزب العمال اصواته الى حزب الاحرار برئاسة لويد جورج الذي اعاد اللوردات الى الصواب . اما في فرنسا ، فالاكثوية بين البرلمانيين الاشتراكيين في المجلس اضطرت ، لاغراض انتخابية ، الى مساندة « كتلة اليسار » المعروفة بمناهضتها للروح الوطنية المشهورة بروحها الرجعية والدينية ، وذلك نزولاً منها عند « نظرية اتحاد الاحزاب الاصلاحية » التي في مقدورها ربحها ، كما يؤكد هريو ، عام ١٩٠٨ ، ان تعد السبيل امام طلوع « السلام الاجتماعى » عن طريق التطوير المطرد للديموقراطية .

والامر الذي استأثر باهتمام الولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا العظمى هو غزو الماركسية لاوروبا الغربية ، الوقت الذي راحت فيه الفوضوية تتحصن وراء النقابية في الغرب . أو في قلب الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا . فقد عاش المجلس حتى عام ١٨٩٥ . « تجلى امامنا هذا الرجل كأنه نصف الله ، كما يلاحظ فندرفيلد ، هذا الرجل العظيم الذي عرف ماركس وعمل معه » . فقد كان من نشاطه ان حال دون الانتفاع ، كما يجب ، بهذه النصوص الاساسية التي وضعها المعلم ، بدلاً من هذه المقتطفات النادرة التي قدمها لنا . فالطبعة الاولى لكتابه « الرأسمال » صدر منها ١٠٠٠٠ نسخة ، لم تكن نفذت كلها بعد صدور الكتاب بـ ٢٥ سنة . فتعاليم المعلم حلت في طبائنها شيئاً غريباً ، نوعاً من ايمان جديد أخذ بالانتشار . وكما ان طلوع العصر الجديد من شأنه ان يرسم امام الناظر علامات استفهام كبيرة ، راح تلاميذه

يتساءلون قائلين : « ان ماركس كالتوراة ، كان يقول ولهم ليكنخت ، فالكل يفسره على هواه ويؤله تأويلا مضاداً للآخر » .

وقد سبق لأجلجلس ان استشر بالخطر ، قبل وفاته اذ يقول : « نظرتنا ليست بمقيدة ، بل هي تعبير عن سير تطور ، وهذا التطور يفترض حدوث ادوار وسعود متتابعة » . وبدون ان ينكر اهمية المكاسب الديموقراطية التي تحققت فقد حذر من ان قفوس الاشتراكية في رسال الليبرالية البورجوازية . وفيما كان يؤكد ان « عصر الانقلابات المفاجئة والثورات تقوم بها اقلية واعية قد مضى وانقضى » فقد جعل من دكتاتورية البروليتاريا التي لا بد من طلوعها شراً ترقته البروليتاريا المنتصرة في صراعها من اجل تخفيف فوز الطبقات » .

ما لم نستنتج مع بارتو ان « تنبؤات ماركس والمجلس ليست بمحائق قط » ، ومع ليروى - بوليو ان الاشتراكية ليست الا خيمياء علم الاجتماع « هنالك امكانية الخروج ببرنامج علمي من هذه التعاليم المقصورة على فئة خاصة . الا انه يجب قبل كل شيء الوصول الى قسام حول المعنى الصحيح للحكم بالموت الذي صدر في اعقاب محاكمة الرأسمالية . فاذا كانت الفاجعة وشيكة الوقوع ، تحتم علينا ان نكون على استعداد لمواجهة هذا الحادث الرهيب . اما اذا ما تأخرت ساعتها وجب علينا ان نعرف ما هو سبيل البورجوازية لتأخير سير عقرب الساعة . فاما ان تلعب الاوتوماتية الاقتصادية دورها او انه 'يولع' جداً في تحديد دورها (هنالك رائحة' مذهب الاحتمية في الجو) . ومهما يكن يجب فحص النصوص بدقة وتوضيحها على نور الايضاحات التي تقدمها الحوادث وفقاً للمنهج ذاته .

قفي الوقت الذي تكشف فيه الفوضى بلسان كتاب امثال غرايف وركلو وكرمبوكنين بأنها تربط الصراع ضد استثمار رأس المال بالصراع ضد اي اضطهاد او استقلال ، فهي تشدد دوماً على الحرية الفردية ، وتختار دوماً ترده ، جانب التعاون القوي المتبادل ، مع العلم انهم كثر عدد هؤلاء الاشتراكيون الذين مع انتسابهم الى الماركسية يخضعونها للنظر والنقد ، تحدث جورج سوريل ، عام ١٨٩٨ ، عن ازمة الاشتراكية . وبعد ان انصرف لتحديد علم الاخلاق جعلها وفقاً لوجهة نظر برغسون ، في خدمة الاخلاقية الديناميكية وبصفي استحساناً لموقف جوريس الذي اندفع ، بالرغم من نصيحة غيسدله ، وراء معركة درايفوس . وبعد انتهاء « القضية » وامام عملية « التنظيم » يشتد ازلاق سوريل في الوقت الذي يعمل الفشل الذي مني به ، على ابعاد بيضي عن الاشتراكية .

غير ان الهجوم الداوي وقع عام ١٨٩٩ وفي المانيا بالذات ، قام به الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي بالرغم من استفحال شأنه الظاهر اخذ يصطبغ بطابع البيروقراطية . وينتقد برنشتاين في كتابيه : « الاشتراكية النظرية » ، والاشتراكية الديموقراطية » ، العالمية الديالكتيكية . والمادية التاريخية ، ونظريات التمرکز ونظرية تقييم العمل ، والازمات والكتيبة

المستعدثة ، ويطالب بإبلاء الثقة للنزعة الحرة نحو الخير . وبعد ان رفض الاخذ بنظرية الكارثة الخيرة التي تقول بها الماركسية البلاشكوية التي كانت تصلح لعام ١٨٤٨ راح يدلي ببراهينه على جدوى التكتيك الانتهازي . وقد تنطج كونسكي للرد عليه وروزا الكسمبورج محتجين على هذه الافوال بالارقام ، موضحين مغالط التفسيرات المعطاة (من ذلك مثلاً ان برنشتاين خلط بين اكتناز الثروات وبين حشد وسائل الانتاج في ايد قليلة) ، مع انه اعترف ، من جهة أخرى بفائدة المعركة البرلمانية ، وهو يتوقع « صراعاً طويلاً مريعاً » (الاصطلاح للكسمبورج) . وبعد هذا اوصى كونسكي ، في الاقتراح الذي عرضه على مؤتمر العقود في باريس ، عام ١٩٠٣ ، « بتنظيم البروليتاريا على غرار جيش مستعد للحرب الاجتماعية » ، وينبذ بعيداً ، وفقاً لرغبة غيسد ، فكرة كل تحالف اشتراكي مع الاحزاب البورجوازية الاخرى . الا ان الوحدة لم تتم بدون جهد طويل .

وقد تصادم غيسد وجوريس في فرنسا ، بعد أن اتجه جوريس في تفكيره نحو المصالحة التأليفية : « نحن إصلاحيون وواقعيون في الصميم وفقاً لطريقتنا بقدر ما نحن ثوريون في اهدافنا » . ومن جهة « الحياة الاقتصادية هي التي كانت في صميم مدار تاريخ الانسانية » غير ان الانسان ، هذه القوة العاقلة يتطلع بأنظاره الى ملء الحياة الفكرية ويشرب من كل جوارحه الى مشاركة العقل القلق ، المتطلع دوماً الى الوحدة والى هذا الكون الغريب ... فالشجاعة هي في طلب المثل وتفهم الواقع .. اذ ان قيادة البشر وتوجيههم يقتضي له نور الفكر ... » ، اخلاقية الرجاء والشجاعة بقدر ما هي اخلاقية العدالة اولا واخيراً .

فاتباع الديمقراطية الاجتماعية لدى الروس ، بين منشفيك وبلشفيك ينقسمون على انفسهم عام ١٩٠٣ حول السلوك الذي يتوجب عليهم اتخاذه . فالاول من هذين الحزبين يحذ قدام حزب يضم الجماهير ، بينما يحذ الثاني حزباً نظامياً قوامه المركزية . فالأول يقول بالتحالف مع الاصلاحيين البورجوازيين ، بينما يعتقد الحزب الآخر بفائدة التعويل على طبقة الفلاحين .

ومن جهة أخرى فقد خسر الثوريون والاصلاحيون المعركة في قلب الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ، وذلك عندما دعا مؤتمر الدولية المنعقد في امستردام عام ١٩٠٤ ، بصراحة المظلمات الاشتراكية الفرنسية الى الاتحاد وبعد ان امتثل جوريس للدعوة ظلمت علينا المنظمة . G. F. I. O.

وفي هذه الغضون ، وقع حادث خطير احدث هزة عنيفة في قلب الحركة الاشتراكية كلها الا وهو نشوب الثورة في روسيا .

عام ١٨٧١ ، قامت الكومون في باريس ، وعام ١٩٠٥ وقعت الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ضد النظام القيصري ، ثورة الفلاحين والبحارة الروس ، فقد واثرها في الحركة الاشتراكية اسقط في يد الدولية الاولى وعجزت عن انقاذ الكومون ، بينما شاهدت الدولية الثانية ، وهي عاجزة ، المعركة الثورية تضطرم وتتأجج من بطرسبورغ الى مدينة اوديسا على البحر الاسود .

بعد ان 'جر الشعب الروسي' ، إثر أزمة اقتصادية حادة قسراً منه وعصباً عنه ، الى حرب نالية ضد اليابان ، قام هذا الشعب واعلن الثورة التي جاءت ضربة قاصمة على النظام القيصري لم ينهض منها . وقد دار في خلد نيقولا الثاني انه « للحوول دون قيام الثورة لا بد من ضربة قصيرة رابحة » . الا أن الحرب استمرت اطول مما اراده وزادت من اوصاب الشعب وآلامه . وجاءت الهزيمة فيها وصمة عار في جبين الشعب الروسي ، كما جاءت تحقيراً له وانتقاصاً من كرامته ومنزلته . فتوردة الكومون في باريس جاءت نتيجة الحماس الوطني ، وقامت في وجه حكام بورجوازيين انتقدت عالياً قصورهم الفاضح وخيانتهم . اما في روسيا فلن يكن من ينكر او يتقاضى عن مساوئ الحكم القيصري المستبد . ومع ذلك فقد راحت البروليتاريا تجر اذيال الحيبة والفشل .

تطور الاقتصاد الرأسمالي في امبراطورية القيصرية على غرار التطور الذي عرفته فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فبينما يستمتع الاعيان والنبلاء في غربي البلاد بتقاليدهم المتحررة ويحكمون بمساعدة طبقة من اصحاب الاملاك الفلاحين ، كان القسم الشرقي منها لا يزال بعد بحاجة ماسة لمثل ثورة ٩٨ الفرنسية ومن جهة أخرى ، فالبورجوازية الروسية لا تتوفر لها بعد قوة العدد ولا الاستقلال الاداري (يكفي ان نشير هنا الى الدور الحاسم الذي لعبته الدولة ورأس المال الاجنبي في التنمية الاقتصادية) في الوقت الذي لقي فيه حشد المشروعات الانشائية بعض التضامن وتأييد الطبقة العمالية . ولكن ما هو الدور الذي لعبه سكان الريف ، يا ترى؟ ثم لو افترضنا عجز البورجوازية وفشلها واستيلاء بروليتاريا فقيرة معدمة على مقاليد السلطة والسيطرة على دولة طابعها نصف طابع الأجيال الوسطى ، فهل في الأمر ما يُرغب فيه او يُرضى عنه من الوجهة الاشتراكية ؟

فقد دهش ماركس لأول وهلة من النجاح الباهر الذي حققته نظرياته وتعاليمه في روسيا . فقد هزئوا طويلاً من هذا الشعب الذي « بقفزة مميتة مفاجئة وجد نفسه ضمن مملكة فوضوية - شيوعية - ملعدة . فالانكسارات التي توالى عليه لم تفاجئ لنين : كل حرب تشنها دولة متأخرة تلمب دوماً ، كما حدث ذلك مراراً عبر التاريخ ، دوراً كبيراً في تمجيد الثورة وتقجيرها ، يمثل هذه الافكار والتأملات واجه سقوط بورت ارثور بيد اليابانيين . الا ان موقف الاشتراكية بدا هنا في غاية الدقة : « لا نستطيع الخروج فجأة عن الحدود البورجوازية للثورة الروسية » كما لاحظ رئيس الحزب البلشفيكي ، في الوقت الذي كان يستعد فيه للرجوع الى روسيا .

فقد جاءت الحوادث تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، حدة الازمة وعجز الثوار : ماركسيين كانوا او شعبيين ، عن اسقاط النظام القديم . فقد وقعت ثورة قام بها الفلاحون وحدثت فتنة على يد البروليتاريا من سكان المدن ، واسعة ، وحركات عصيان وتغرد في الجيش والاسطول . من الحوادث البارزة ، اذ ذاك ، الأحد الأحمر الدامي الواقع فيه

٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، في بطرسبورغ ، وقرء الطراد الذي يحمل اسم الامير بوتسكين ، وبيان ٣٠ تشرين الاول الذي اذاعه الامبراطور نيقولا الثاني يمد فيه البلاد بتشكيل حكومة دستورية ، ومعركة الشوارع في موسكو في كانون الاول . وقد خيل لبعض الماركسيين لمسدة قصيرة ان سلطة شعبية ستطلع وتنتحل الحكم من بين هذه الجماهير التي انتظمت صفوفها فجأة في السوفييت . فالشاب بروشتان ، يقول تروتسكي ، شارك مشاركة فعالة في تشكيل مجلس السوفييت في بطرسبورج . اما لينين فقد رأى ان المحاولة مكتوب لها الفشل التام لافتقارها للتنظيم . الا انها افادت كثيراً في ضرورة وضع خطة منظمة لكل ثورة او فتنة .

وقامت القيصرية بتجربة الدوما (المجلس النيابي) لأول مرة ، هذا النظام الهجين الذي فشل في اعادة الحكم الاستبدادي الى البلاد كما عجز عن اقامة وموسخ بورجوازية ليبرالية ، كما عجز عن تأمين نجاح عملية الاصلاح الزراعي التي حاول ستولبين القيام بها والتي رمت الى تشجيع الملكية الفردية في البلاد ، وما أدت الى تأمين الازدهار للنتاج الزراعي والصناعي الذي كان من شأنه ان حداً للاضطرابات الاجتماعية .

احدثت هذه الهزة ردة بعيدة المدى في الغرب . فاذا ما راح جوريس يتنبأ « بان تحرير الشعب الروسي سيلاقي تمبيره الكامل في قيام نظام عمل في البلاد تبرز معه البروليتاريا الروسية » الى الطليعة بين صفوف البروليتاريا في أوروبا ، فقد راح انا تول فرانس يصرح من ناحيته قائلاً : « مهما كانت نتائج هذه المحاولة الضخمة المريعة ، فقد لعب اتباع البروليتاريا ، منذ الان دوراً حاسماً في مصائر بلدانهم ومصير العالم . فالثورة الروسية هي ثورة عالمية » . وقد رد ارثر ماير على هذا القول في جريدة الفولوا قائلاً : « كل ثورة كبرى قامت في العالم زرعت حولها جراثيم ضارة مؤذية » ، الا ان الثورة الروسية لها جانبها الاخر المرعب ، « ثم زاد قائلاً : « انا ضد ثورة معاكسة شاملة تستطيع وحدها تجنبتنا اسوأ الكوارث » . اما غليوم الثاني فقد اعرب للامبراطور نيقولا الثاني عن رأيه قائلاً : « ها هي روسيا تطوي صفحة جديدة من سفر تاريخها » . فالوسائل التي يجدر لها التدرع بها ، والذرائع التي يحمل اعتمادها ، والاشخاص الذين يدعون لتنفيذ هذه المهمة ، كل هذا سيرك اوه المباشر على الدول الاخرى الواقعة على حدودها » . ليس من ينكر قط ان الضربة التي نزلت بالنظام الاستبدادي القيصري كان لها صداها البعيد في آسيا حيث نفوذ الغرب كان اخذ يتغلغل اليها كما تغلغل الرأسمالية الاستعمارية الى روسيا .

وقد جاء الحادث يكرس نهائياً انقسام الماركسيين الروس . وعلى ضوء هذا الحادث ، فقد رفض لينين ان لا يرى في مجلس السوفييت سوى « جهاز اداري ليس الا على شكل ما قمناه المنشيك » . فقد اولاه دور « اجهزة للفتنة » على طريقة تروتسكي الذي بقي مصرأ على رأيه وتذكيره في ان « السوفييت يؤلف جامعة عمال الروس التي يمكن لها ان تستلم ، في المستقبل ، ادارة الجماهير الثائرة وتوجيهها » . فقد سبق لالمجلس وكتب قائلاً : « ان اسوأ ما يمكن ان

يصيب زعيم متطرف هو ان يرى نفسه مجبراً لاستلام الحكم عندما لا تكون حركة تاريخية معينة اقتأكلها بعد ، بحيث يؤمن السيطرة للطبقة التي يشنها . وقد حلا بلخانوف وبارتوف ودان ان يرددوا هذا التصريح مراراً . ولكن بخلاف هؤلاء المنشفيك الذين لم يرضوا بمساهمة البروليتاريا في اقامة ديموقراطية بورجوازية ، وبعد ان اعدوا الى الاذهان الفشل الذي اصاب البافوقية الزراعية وبعد ان اتهموا بالتحول الى البلاشكبة ، توقع لينين ، وهو اقوى يقينا واكثر ايماناً ، قيام « دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » في اعقاب ثورة بورجوازية يترتب على الديموقراطية البورجوازية دعماً قبل كل شيء . وفي مؤتمر براغ ، سنة ١٩١٢ ، حدد للبشفيك اكثر من اي وقت مضى مهمة تحقيق اطار ضيق وادارة صارمة تشرف على القوى البروليتارية ، اذ ان القضية لا تطرح على بساط البحث في اي مكان من اوربا كما تطرح عندنا في روسيا . وهذا الاضطراب الاجتماعي الشديد المتجدد النشاط نمتى فيه اليقين الوطيد بان ازمة فاصلة هي وشبكة الوقوع في الامبراطورية القيصريّة ، فوجه من كراكوفيا ، عام ١٩١٣ - ١٩١٤ تعليلاته الدقيقة بحيث تلاقي هذه الازمة لدى وقوعها ، حزباً ماركسياً مستعداً للعمل يستطيع ان يجر القوى الشعبية ويقودها بفضل ما له من قوة وما تم له من دهاء التنظيم .

وعلى عكس ذلك ، كانت الحركة الاشتراكية في اوربا الغربية والوسطى تدفع عنها بمشقة ، هجمات الايديولوجيا الوطنية ومغريات الحركة الليبرالية . وليس في سبيل الشيطان راح لينين يستعرض في كتابه « المادية والنقد التجريبي » المحتوى البورجوازي لمذهب الاحتمية العلمي والفلسفي . وجهد جوريس في فرنسا ، باوتي من فصاحة وبلاغة ، على تحديد المثل الاعلى للاشتراكية التي تلهج دوماً بالاخوة والمدالة . وراح جورج سوريل من ناحيته يهاجم بعنف الديموقراطية البورجوازية ويدفع بعيداً العلمية وينادي بتفسخ الماركسية والمخلاها ، ولم يعد يتوقع التحرر الا من « الشعور بما هو سام » و « بالاسطورة » وهكذا يرى نفسه الى جانب المستمسين بالتقليد . وراح احد تلاميذه ، هو ادوارد برث يتحدث عن الفسق الديموقراطي ، ولم يتوان قط عن قرع جرس الحزن معلناً انتهاء حكم « الادباء » امثال بيغي وانتهى الى الوقوف بجانبه ، عام ١٩١٤ . اما الاشتراكيون « المستقلون » فلن يتقاعسوا عن التعاون مع الجمهوريين الراديكاليين والمعتدلين . « فالبورجوازية تصفح بيسر للذين تهددوها عندما يتضح لها ان في مكنتهم الدفاع عنها وحمايتها » ، كما ألمع الى ذلك بو انكاريه في مذكراته . من الغريب جداً ، كما يلاحظ بول كمبون من ناحيته ، ان رجاءنا الوحيد منوط في الاعتماد على آباء الاشتراكية امثال بريان او مللران . فهم يدينون بوصولهم الى سدة الحكم لما اوتوا من فهم حاد وذكاء متوقد ... فلم يحبسوا انفسهم ضمن مدرسة خاصة ضيقة ، ولم تجش نفوسهم بروح حزبية ، فهم قابلون للتطور .

وفي قلب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، كتب النصر في نهاية الشوط « للتبديلية » المحكوم عليها حسب الظواهر . فبعد ان رفض بيبيل وشيدمان القول : « بأن سنة واحدة من الثورة امنت للبروليتاريا الروسية القربية او الخبرة التي عجزت ثلاثون سنة من الصراع التمهيدي

تأمينه ولو بشكل مصطنع ، للبروليتاريا الالمانية ، ، وحملتها على رفض الاضراب العام ذات
الهدف السياسي الذي اقترح اللجوء اليه روزا لكسمبورج .

غير انه لا يمكن للاشتراكية ان تبقى خالية البال امام تطور الاقتصاد الرأسمالي . فهلفرنغ ،
في كتابه : الرأس المال النقدي ، وروزا لكسمبورغ في كتابه الموسوم : حشد رأس المال ،
يشددان على الضرورة المترتبة على رأس المال الاحتكاري بالسيطرة على مجالات غير رأسمالية ،
ليحافظ بذلك على وجوده وفقاً لمبادئه . فهذه المؤلفات الموضوعية اصلاً باللغة الالمانية ، انزلت القلق
والاضطراب في قلب الديمقراطية الاجتماعية التي راحت فريسة تفكيرها بالمنافع والمكاسب التي
من شأن الامبريالية ان تؤمنها للدول الصناعية . فهل تساعد هذه الامبريالية في نهاية المطاف ،
على طلوع الاشتراكية ، وذلك برفع مستوى العيش في هذه الدول التي بلغت في تطورها
الصاعد الى المستوى الاعلى ، او انها تعجل في انقضاء الحرب وتقرب ساعة اعلانها لسقوط النظام
البورجوازي ؟

الفصل الخامس

من السام الى الحرب الأوروبية

عللت الاشتراكية « الخيالية » نفسها بحلول سلام شامل في العالم
وزرؤية جميع شعوب أوروبا في جسم سياسي واحد مع احتفاظ
كل منها باستقلاله الوطني كما عبر عن هذا الحلم المعسول سانت
سيمون واوغستين قيارى ، منذ عام ١٨١٤ ، او مجيئ جمهورية الله كما تمنى ذلك قسطنطين
بكور عام ١٨٤٤ .

ومنذ عام ١٨٤٨ ، راح الديمقراطيون الانسانيون امثال هوغو يرددون كلمة السر :
الولايات المتحدة الأوروبية ، وعقدوا في هذا السبيل عدة مؤتمرات للسلام . فقد تمنى بلانكي
المعروف بروحه الوطنية إلغاء الجيوش المحترقة واستبدالها بـ « جيشا شعبية » وبرودون نفسه
وضع كل آماله في النظام الفدرالي . أما موقف ماركس فقد كان مغايراً لهذا كله : فالحرب ،
هذه الفكرة اللازمة للنظام الرأسمالي ، سترفع من هذا العالم بارتفاع هذا النظام والغائه الا انها
قد تولد مجتمعا جديداً . واذ خشي ماركس ، خلال الدولية الاولى من ان تغدو البروليتاريا ،
في الغرب وفي ألمانيا هدفاً لعدوان مسلح من قبل الحكم القيصري المستبد ، فقد نبذ جانباً فكرة
نزع السلاح . الا انه عدل من موقفه بعد الفشل الذي منيت به الكومون . ولم يصد المجلس
يتوقع ، بعد ذلك بطويل ، خيراً من اي حرب تقع في أوروبا ، لدينا وسائل اسلم للسير
قدماً ، كما راح يؤكد عام ١٨٩٣ ، فوسيلتنا الكبرى وحيلتنا المثلى هي العمل الحازم الذي
تمثله البروليتاريا ، في بروزها الذي لا يُرد .

وجاءت امثلة عام ١٩٠٥ . فالحرب في منشوريا كالحرب في جزيرة القرم انزلت الوهن في
النظام القيصري . وفي مؤتمر امستردام ، عام ١٩٠٤ ، راح بلاخانوف يعانق المندوبين اليابانيين
قائلاً : « لو قبض للقيصر وربح الحرب على اليابان ، لبات الشعب الروسي هو الخاسر الاكبر

والمغلوب على امره . وقد وجد هذا القول صداه في كلمة القاهما ستولبين : « الحروب وحدها تضمن فوز الثورة ، فبدون حرب تبقى الثورة عاجزة » . فالدرس يدعو الثوريين امثال لينين للتفكير جدياً في الامر .

وقد رفضت الاشتراكية في الغرب التسليم بالقول ان الحرب هي سبيل الخلاص . فقد « دلى جوريس على بطلان هذه النظرية ، الثورية » . « لا نريد ان نعرض ايماننا الوطني بتحرير البروليتاريا المتصاعد للقدر الغاشم الطالع من حبات النرد الدامية » .

ولكن أليست الامبريالية ، من هذه الذرائع المثلى الكفيلة بتخفيف ضغط الطبقة العاملة على ارباب العمل ؟ فقد ذكر جيوليتي في « مذكراته » عام ١٨٩٣ ، « ان الرأي العام في ايطاليا ذهل لهذه الفضائح المصرفية وان الطبقات الحاكمة كانت جد وسجلة من جراء هذه الاضطرابات الاشتراكية الطالعة » ، وسنعت فرصة استعمارية مثلى لصرف الانظار وتحويلها عن الوضع المتأزم . ولذا راح سسل رودس يكتب عام ١٨٩٥ بفتاظلة قائلا : « أليست الامبراطورية هي قضية بطن ، كما كنت دائماً اردد ؟ فاذا ما رغبتهم في تجنب الحرب الاهلية ، عليكم ان تنصرفوا للاستثمار . وهكذا ندرك تماماً كيف ان برنشتين ، رغبة منه في التوفيق بين الامبريالية والماركسية ، يبرر نزعات الرايخ الى المستعمرات . ثم ألم يلاحظ المجلس ، منذ عام ١٨٥٥ ، ان العمال الانكليز كانوا جد مرتاحين لعملية توسع وانبساط عادت عليهم بتحسين مستوى المعيش عتدم ؟

يبقى بعد هذا ان بقدر ما تعمل الامبريالية على ديمومة النظام الرأسمالي وتأمين استمراره ، بقدر ذلك تحرص الاشتراكية على اصلاحها حرباً حواناً لا هوادة فيها . اما السباق الى التسليح ، فلا مبرر له على الإطلاق عندها ، اذ ان النفقات الباهظة التي يتطلبها التسليح يقع عبؤها على الجماهير . ففي فرنسا وايطاليا واسبانيا حيث النقابات تنحس عميقاً كلمة السر وتآتم بها ، حرص الفوضويون من ناحيتهم على بث فكرتهم بوجوب القضاء على الجيش باعتباره اداة الفتح وعدة الحرب ، كما يجب ، في نظرم كذلك القضاء على الكنيسة والدولة وارباب العمل . فالدسائس يجبكون خيوطها تتخذ ذريعة لسن القوانين « المحرمة » من قبل المجالس الفرنسية . فبعد قضية دريفوس راح جانب كبير من الرأي العام في فرنسا يتقزز من موقف اركان الحرب في البلاد واقلقته القلاقل الوطنية ، يتجه نحو مجافاة الروح العسكرية ومناهضتها ونحو الدعوة للسلام . واخذ فاكيه يعبر عن قذمه ، عام ١٩٠٤ ، قائلا : « يقتضي المعلم شجاعة كبيرة ليعبر عن ولائه لفرنسا » .

والاضراب العام الذي اقترح باكونين الدعوة اليه ، احتجاجاً على الحرب ، عام ١٨٦٨ ، امام الدولية الاولى ، بقي من هذه المستحبات والاماني الاثيرة لدى النقائيس الثورية . « قالديماغوجيا المرفستية » التي يعجها يعني تبني هذا الاقتراح وتعرضه على الحزب الاشتراكي

الموحد . « نحن لسنا بوطنيين ، بصرح هرفيه ، ولا يمكن لنا قط ان نكون وطنيين ، طالما نحن اشتراكيون » . وجوهو ، السكرتير العام لاتحاد العمل العام ، بصرح في ٢٩ تموز ١٩١٤ قائلا : « الاضراب العام ... واجب يترتب على جميع العمال دونما تمييز » . وعند وقوع حوادث المغرب ، عام ١٩٠٩ اعلن عمال المرافىء في برشلونة الاضراب وحالوا بذلك دون ركوب وحدات الجيش البحر . وعلى أثر ذلك ، اطلقت النار على المجاهد الحر فرنسيسكو فراير ، احد رواد المدرسة الحديثة .

غير ان الماركسيين لم يمتثلوا . فالروح العسكرية ، في نظر غيسد ، ليست سوى نتيجة الرأسمالية : فليس من مبرر ، والحالة هذه لمحاربتها ومناهضتها منفردة . واحسن من ذلك « هو ان الدول تمثل شيئا كبيرا في تطوير البشرية وتطورها . فهي تؤلف مرحلة من هذه المراحل التي يترتب على الاساس البشرية ان تقطعها ، والدور الذي تلعبه هذه الدول الآن لن ينتهي امره غداً . وقد زاد جوريس على ذلك واخذ يوصي بتأليف « جيش جديد » يكون بشحمه ولحمه ديموقراطياً ، شعبياً ، « قادراً على الدفاع عن الوطن ويكون اعجز من ان يلحق أي أذى أو ان يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية » . فهو لا ينبذ من حب الوطن الا ما يفله من بغض وحقد . ولم يتردد ببيل قط عن الافصاح عن عزمه وعن استعدادة لتناول بندقيته للدفاع عن المانيا اذا ما هوجت .

ومهما يكن من الامر فان قادة الاشتراكية الفرنسية يخشون كثيراً من هذا الالتباس المجمع الذي يغشى موقف الدولية العمالية . لا شك ان « عقبة اللغة » جعل من المسير تبادل وجهات النظر الضيقة والمباشرة بين رؤساء الفئات الوطنية المختلفة . ففي رأي فندرفولد ، هذا العائق لم يكن موجوداً ، في الدولية الاولى و « اركان حربها » الذين تألف سوادهم الاكبر من غازحين ومبعدين . وكثيراً ما ردد المجلس هذا الامر وتتمه بأكثر من ١٧ لغة ولسان . وكان ماركس يكتب براحة دونما فرق لديه ، الفرنسية والانكليزية والالمانية . . . اما في الدولية الثانية ، فالامر على عكس ذلك تماماً . فتعدد اللغات والالسن ، باستثناء بعض الشواذات النادرة - هو من نصيب الاعضاء اليهود ، امثال تروتسكي وادلر وبلاخانوف . . . ولذا لم يكونوا يتفاهمون دوماً .

والى هذا ، فلم يتخل ممثلو الاشتراكية الالمانية عن مشاعرهم المعادية للروس . ألم يُسر المجلس في اذن احد مراسليه ، في اثر توقيع الاتفاق الفرنسي الروسي قائلا : « اذا ما اعلن الروس الحرب علينا ، تحتم على الاشتراكيين الالمان مهاجمة الروس والفرنسيين وحلفاءهم ، ايضاً كانوا ، بمنف شديد » واذ كان الالمان يخشون كثيراً الامبراطورية القائمة شرقيهم ، ابى افراد امثال ادلر وبوير وريتر ان يتصوروا احتمال او امكان الحلال الامبراطورية النمساوية المجرية . ومن ثم فالتعديلية وفقاً لنظرية برنشتاين كانت تركت اثرها عميقاً في الديموقراطية الاجتماعية التي كان انصارها ومؤيدوها بمثابة عرفاء حسني التدريب في خدمة القيصر ، بينما جعل بيني من جوريس « داعية للجامعة الجرمانية وعميلاً للحزب الالمانى » .

ففي ظروف كهذه ، ليس من عجب قط ان تكون احتجاجات الدولية واعتراضاتها على التسليح مجرد مطالب افلاطونية . فقد اسقط مؤتمر شتوتغارت ، عام ١٩٠٧ ، اقتراحاً باعلان الاضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجحة والتي تختلف باختلاف ضراوة كفاح الطبقات والوضع السياسي العام . وقد لوحوا في مدينة بال عام ١٩١٢ ليس « بصورة هذا التعاون العظيم بين العمال في جميع ارجاء العالم فحسب ، بل ايضاً بالخوف المستحوذ على الطبقات الموجهة ، من جراء قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية » . كل شيء ثم قبوله والتسليم به منذ ان غير جوريس رأيه قائلاً : « اذا لم ينص الاقتراح عن طريقة معينة للعمل ، فهو لم يستثن أية طريقة على الاطلاق . وهكذا تعاقبت الاجتماعات وتوالت الخطب والاقتراحات . والصحيح هو ان المسؤولين عن الحركة الاشتراكية تركوا الامر مربوطاً بالقرار المتخذ . ولدى اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل في ٢٩ / ٣٠ تموز ١٩١٤ وقع الحاضرون نص محضر عدم وجود « الحزب الديمقراطي الاجتماعي » ، اذ اعتبر روسيا المسؤولة الاولى عن الحرب ، صادق على الاعتمادات المرصدة للدفاع عن الحضارة وعن الاستقلال « الالمانى » ، وقد رأى روزا لكسمبورج في هذا القرار « انهياراً لا مثيل له في التاريخ على مدى الاجيال » .

وعندما غادر جوريس بيت الشعب في بروكسل ، أسر في اذن فندرفلدت قائلاً : « ما شبه القضية بقضيه اغادير . سنشهد ارتفاعاً وهبوطاً ولكن الامر سينتهي بنسوية في نهاية المطاف . امامي ساعتان قبل ركوب القطار لنذهب للمتحف لنشاهد اسلافك الفلامان البدائيين . « شمرت البرولتاريا ان مصير الانسانية ومستقبلها متوقف عليها في هذه الساعة الحاسمة ... » كما راح يؤكد المؤتمرون المجتمعون في مدينة يال . ولم يخف جوريس قط انه يضع امسه الوحيد في « قطاع المصالح الاقتصادية والمالية » التي تلازم الشعوب بمراعاة مصالح بعضها البعض ، وفي تجنب الكوارث التي تجرها الحرب معها . ومن جهته راح هأز احد اعضاء الحزب الديمقراطي الاجتماعي الالمانى يصرح ، عام ١٩١٢ ، بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكى ، امام المؤتمر المنعقد في شمنتر ، بأن الفئات الرأسمالية ، في شتى البلدان المترابطة والمتعاقدة دولياً فيما بينها ، ترى من الافيد والاصح لها ان تقاسم الاسواق العالمية بدلا من ان تنهك نفسها في عراك دام لا يعرف احد ما ستكون نتائجه ، يهدد بالخطر كل المكاسب ، وسيفضي التفكير بكلوتسكي الى وضع هذه النظرية التي يصفها لينين بأنها بلغت « منتهى الحماقة » ، وهي النظرية التي بموجبها ستلعب الامبرياليات تعاوناً دولياً بحيث تلتفدى الحرب .

وبانتظار ذلك ، وبسخرية من القدر العايب تعتمد الاشتراكية الانسانية النزعة على الرأسمالية في مهمة انقاذ السلام بانقاذ نفسها .

اولى « مؤتمرات السلام » .
 فشل التحكيم الدولي والدعوة الى
 نزاع السلاح
 والراسمالية لا ترغب في الحرب ، الا ان الفوضى التي تثيرها
 تحول دون تفاديها ، « هذا ما كان يصرح به جوريس .
 ليس من شك قط ان بعض ارباب الاعمال لم تشعر بدنو
 الحرب كما لم تكن لترغب فيها ، بينما قامت بعض الاوساط
 الاخرى ، من حيث تدري او لا تدري بنشاط لا يخلو قط من خطر . يصف لنا اناول فرانس ،
 « القوى المالية » ، قوى هدامة لروح الوطنية والقومية ، ثم يكشف لنا ، من ناحية اخرى
 كيف ان كبار رجال الصناعة ينشطون لصنع المدافع وبناء البوارج الحربية غيرة منهم على
 الدفاع عن الوطن واستدراجاً للطلبات . ويطمئن كيون ، عام ١٩٠٠ الى ان الامبراطور غليوم
 الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله واستغلاله . كذلك هو
 يضمن ما لليهود من نفوذ عظيم ... بدم السلم والحرب . فلا مجال للدهشة هنا ولا للاحتجاج .
 هذا هو الواقع القائم ، علينا ان نأخذ بهين الاعتبار . وبالفعل ، نرى مديراً يهودياً لاحد
 مصارف فرسوقيا هو جان دي بلوخ يشترك الى جانب الاقتصادي البريطاني فريدريك باستي
 من انصار سياسة حرية التجارة ، والى المجهز الحربي نوبل في « صليبية السلام » ، التي من اجلها
 يؤسس نوبل جائزة خاصة ، « هل من الممكن الاعتقاد ، امام هذه الارقام الفلكية ، المجازفة ،
 باعلان الحرب ؟ » ، يتساءل الامالي نبارك عندما راح يلوح الى هذه الملايين التي تمثل قيمة السندات
 الدولية . والمعروف ان كل هزة سياسية او ضغط سياسي شديد كان يولد قلقاً او اضطراباً في
 الاسواق المالية . « انا آخذ على نفسي جانب الاوساط المالية الكبرى ، تدبروا انتم امر الدولة ،
 كلاهما يريد السلام . فاذا ما ارادنا ذلك استطمنا إنقاذ السلام » ، كان يقول كلو لالبرت توماس
 خلال ازمة اغادير .

حاول الاشتراكيون تأمين الاخوة الانسانية بين البشر عن طريق الاشتراكية والديمقراطيون
 عن طريق الديمقراطية ، والمسيحيون عن طريق الكنيسة ، وانصار سياسة التبادل الحس
 بالتجارة الحرة ، والفقهاء بالقانون . فالازمة الاقتصادية الكبرى عزاها العديدون من رجال
 الاعمال ، الى هذه الاخبار التي يأخذ الناس بترويجها باستمرار . وبمناسبة المعرض الدولي العام
 الذي اقيم عام ١٨٨٩ ، تأسس مكتب دولي ومكتب برلماني دولي عام لنشر فكرة التحكيم الدولي
 بين الشعوب . ودوى اذ ذاك صوت الهسبايا ليون الثالث عشر في مجمع الكرادلة ، كما اجتمع في
 واشنطن مؤتمر الجامعة الاميركية . ولكن هذا النشاط كله لم يخرج بشيء يلزم حكومات
 الدول الكبرى بالاتفاق

واخذت بعض موازنات الدول تزح تحت وطأة اعباء التسلح الاوروبي . وهذا الوضع
 يفسر لنا الاقتراح الذي تقدمت به روسيا عام ١٨٩٨ ، في اعقاب الحرب الصينية اليابانية
 والحرب الاسبانية الاميركية . فموارد اورولا تنهض باطباع القيصري . وارسلت ٢٦ دولة الى
 مؤتمر لاهاي المعقود عام ١٨٩٩ ممثلين لها الى « اول مؤتمر دولي للسلم » . صحيح ان الفشل

كانت كامناً ، لم يتمكن المؤتمرين ستره ، لهذه القرارات التي اتخذوها بشأن قوانين الحرب ، وبالتوصية التي اتخذوها بإنشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي . فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين مبدأ السيادة الوطنية التي تعتمد خلفها كل دولة ، وتحديد التسليح « الذي اعتبر امراً مرغوباً به جداً للتأمين المزد من الرفاهية للجنس البشري » . ألم يقدم غليوم الثاني للامبراطور نيقولا الثاني هذا الاحتجاج الحازم ، الشديد : « هل يمكنك ان تتصور ملكاً أو الرئيس الاعلى في الدولة يأمر بتسريح وحداته العسكرية ، هذه الوحدات التي كرستها اجيال متطاولة عبر التاريخ المديد ، لترفع على جدران دور الصناعة وفي اهباء المعارض هذه الاعلام والبيارق المجللة بالاجاد ، والتنازل ، بهذا الشكل ، عن هذه المدن والحصون والقلاع للفوضويين والديمقراطيين ؟ » والمؤتمر الثاني الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في مكسيكو ، عام ١٩٠١ ، بدعوة من الولايات المتحدة الاميركية ، تخفيفاً منها للتأثير السيء الذي تركه فيها اصطدامها باسبانيا ، لم يتمكن ، هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً الى التحكيم في كل مشكلة دولية يستعصي حلها .

قامت الحروب في الترنسفال والصين ، ومنشوريا ، ونزلت أزمة حادة في المغرب . وبناء على اقتراح ثيودور روزفلت ، عقد عام ١٩٠٧ فقط مؤتمر دولي في اعقاب المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في الربو . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية تجر وراءها اميركا اللاتينية « فقد حضر المؤتمر ٤٤ دولة . أعيد ولا شك تنظيم محكمة التحكيم . الا ان سلطتها التي تموزها صفة الازام والاستمرار ، تحد من آمالها وتقصرها على أقضية فادرة حول مشاكل وقضايا ثانوية ، اقتصرت على الجلوس في قصر منيف فخم ثم تشييده بفضل هبة سخية قدمها كارلجي . وقد جرى تبني النص الذي يوصي بإنشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي لمجلس باسمرار ، غير ان تعيين القضاة الاعضاء بقي مجرد مشروع . ولذا راح القائد الاميركي هوميروس ليا ينصرح قائلاً : « ان التحكيم الدولي يتجاهل تماماً ما للشرائع الطبيعية من قصلب لا يقبل الرحمة ... » اما الحد من التسليح فهو يصطدم بالاعتراضات ذاتها التي اصطدم بها عام ١٨٩٩ . لتكن راحتهم في الحرب ، « أخذ ينادي الصحافي وكهام ستيد . وبصعوبة كلية توصلوا الى إكمال التوصيات المتخذة عام ١٨٩٩ ، المتعلقة باعراف الحرب واخلاقها ، وبالتخطيط لمؤتمر ثال يعقد عام ١٩١٥ ، الذي كان سيفضي من جراء الفشل المرتقب ، الى تطوير الجامعة الاميركية التي اقتنعت ، حتى الآن بالنتائج التي طلع بها مؤتمر بونس ايرس ، عام ١٩١٠ .

واذ ذاك ، أخذت الازمات تتعاقب آخذ بعضها برقاب بعض : من أزمة البوسنه الى أزمة المغرب ، الى أزمة طرابلس الغرب ومن جديد الى أزمة البلقان . فلا ايطاليا ولا الدول البلقانية فكرت بعرض أختلافاتها مع تركيا على محكمة العدل في لاهاي . فلا عجب والحللة هذه ان تفرق الدول في تسليحها وتغوص في إعداد العدة للحرب الى ما فوق أذنها . وأخذ الجنرال هيرجنجن وزير حربية ألمانيا ، يصرح امام مجلس الرايخشتاخ قائلاً : التجربة التي قمت لنا بمعد الاتفاقي

المعقود بشأن المغرب والكونغو ، عام ١٩١١ ، علمتنا ان حشد قواتنا المسلحة لم يؤلف رادعاً كافياً .

وعبثاً راح مدير شركة *Hamburg - Amerika* الملاحية ، والتمول الانكليزي كاسل يخططان عام ١٩١٢ ، لوضع حد لهذه المنافسة الحامية بين انكلترا والمانيا للسيطرة على البحار . وعندما وصل الكولونيل هاوس ، سكرتير الرئيس ولسن الى اوروبا ، في ربيع عام ١٩١٤ ، حاول دعوة برلين ولندن الى الجالوس حول طاولة مستديرة للمفاوضات وصولاً الى اتفاق بحري . فالقضية النمساوية الصربية التي نجمت عن مقتل ولي العهد الارشيدوق فرنسوا فردينان ، في سراجيفو وضعت حداً نهائياً لمحاولة تخفيض التسليح تخفيضاً جزئياً . وفي ٣٠ تموز رفضت المانيا الاقتراح الروسي بعرض المشكلة على محكمة العدل في لاهاي .

وقد بد ان الجماهير اصابتها الدوار فعطل فيها كل قوة على التفكير الصحيح حتى ان الجماهير في باريس توهمت انها ترى في ٢/٨/١٩١٤ ، كوكب المشتري منطاد زبلن يحوم في سماء العاصمة الفرنسية .

ساد صمت عميق عاجز او مشارك جو الكنيسة

وكتب النصر للنزعات القومية والامبريالية

من الجميل ان يحارب المرء ويداه ثقبتان والقلب بريء وان يضعي بجياله
مرضاة للعدل الالهي (لويس جيليه الى رومان رولان ، في ١-٨-١٩١٤)

يتمنى الجميع هذه الحرب من الصميم وهم راضون بالتضحية بدمائهم على هيكلتها
(رومان رولان : يوميات سني الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨)

الخاتمة

١

من بين الأوروبيين ألقى عام ١٩١٤ ، نظرة متملية على اطلس جغرافي الا ان يكون تملكه الزهوان ترتكض نفسه غبطة وجبوراً ، عندما تبين المدى البعيد الذي بلغت اليه سيطرته الاستعمارية . فهذه السيطرة تمتد فوق القارة الاوروبية بكاملها وتغمر اوقيانيا تقريباً وتشرف على نصف آسيا وعلى ربع القارة الاميركية ، بحيث تضم مع اوروبا ٦٠ ٪ من مجموع مساحة الاراضي غير المضمورة ، كما تضم ٥٠ ٪ من مجموع سكان الكرة الارضية . فهو يعرف معرفة اليقين انه قلما يقوم على الارض قطر أو صقع لا ينتفع ، بوجه أو بآخر ، من نشاطه . فهو لا ينكر قط ما تمّ للولايات المتحدة الاميركية من بأس وقوة متصاعدة لا يرى فيها الا ان أي خطر على نفوذه وسيطرته ، كما انه لا يخشى قط من ان تتمكن اليابان ، بما تم لها من سؤدد وسلطان ، من إرغامه على الانسحاب والانكفاء من اقطار آسيا الشرقية . عندما يعتكف الى نفسه ويمار الشوط الذي قطعه في مضار التمدن خلال قرن من الزمن يخرج من إلتفاتته هذه راضياً كل الرضى عن هذه النتائج التي سجلها ولسانه يردد قائلاً : الذي مضى وانقضى هو في الصميم ، قرن اوروبا . وعندما تنطّ الى خاطره تنبؤات ملطوس التشاؤمية ، تعاربه هزة شعورية ، بأن حدثان الزمان جاءت تكذيبها وتظهر بطلانها . فلم ترفل يوماً هذه القارة بمثل ما رفلت به اذ ذاك من السكان ، اذ بلغ عددهم ٤٠٠ مليون بعد ان كانوا ٢٠٠ مليون ، عام ١٨١٥ كما انها لم تتمتع يوماً بمثل ما تتمتع به عام ١٩١٤ من مستوى عيش رفيع .

وما عسى ان تعظم اوروبا تقديمه للعالم ؟ توجيده بحيث تتوفر للجنس البشري حياة افضل ، وبحيث تستطيع هي ان تتحكم بالقدر الفاشم الذي قبض لها وفرة النسل وكثرة الناس في مثل هذه الرقعة الضيقة كما راحت تستذيق هذه الحضارة المرفهة . والحال ، فقد نهضت ، على خير وجه واوفر نشاط ، بالرسالة التي اضطلمت بها ، واوشكت ان تفرغ من عملية استكشاف الكرة الارضية واقتسامها فيما بينها . فلم تعد البحار لتؤلف ، في القرن الثامن عشر ، عقبة تحدد من مواصلاتها ، وتم لها منذ ذلك الحين اقتسام هذه القارات . فاذا ما توارت عن الانظار هذه الامبراطوريات الاستعمارية التي توصلت دول شبه الجزيرة الايبيرية ، الى انشائها ، استطاع الغير من

هذه الامبراطوريات ان يرسخ اصوله ويُعرق في الارض . فالمغامرة الروسية ترتدي مقاييس اوراسية كما ان السيطرة الفرنسية إتسمت بطابع عالمي . الا ان الانجازات الانكلوسكسونية التي اقتضت جهوداً جبارة تثير الفخر والاعجاب ، امتنت للعرق الانكليزي امبراطورية استعمارية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً . من جهة انكلترا التي سيطرت على امبراطورية افترشت ٣٣ مليون كيلومتر مربع ، وضمت ٤٥٠ مليون نسمة ، ضمت في ما تضمنته اجزاؤها المقومة ، قارات بعضها وطولها وسيطرت على معظم المواقع الاستراتيجية الهامة ؛ ومن جهة ثانية ، الولايات المتحدة الاميركية ، هذه الكتلة الضخمة التي تنعم بموارد لا حد لها ولا حصر : عملاقان جاءا على نسبة ما تم لهما من وسائل النقل الحديثة .

والمهم في هذه كله انتقال البضائع والأفكار حتى والبشر ، اذا ما دعت الحاجة القصوى الى ذلك . وهكذا أخذت هذه الكرة الارضية تضيق على اهلها في هذا الوقت بالذات الذي أخذت تطل علينا هذه العوالم الفلكية والعوالم الاخرى المتناهية الصغر . ولم يكن في مقدور غوته ان ينتقل بأسرع ما تم لأرسطو . فاذا بالآلة البخارية تطلع علينا فجأة ، ولم تلبث ان طبعت العصر بطابعها ، كما يؤكد برغسن وأخذت في تصنيف جديد للمدنات ، واضحة في المرتبة الدنيا هذه الكميات الدولية التي لا تزال تعمل في نشاطها الحياتي على العضل المفتول والهواء المتحرك . فالسيطرة ، والحالة هذه ، هي من نصيب هذه الشعوب التي تسيطر على هذا الشريط الجغرافي الضيق من الاراضي الغنية بالفحم الحجري ، الذي يمتد من بنسلفانيا الى الدونتز ، كما ستصبح بعد لأي قصير من نصيب البلدان التي افاضت عليها الطبيعة ، ثروات معدنية ، طائلة من الحديد والفولاذ ، أي المعمل الذي ينهض على المنجم ويعتمد عليه . كل هذا يضيء على العصر « رسالة » بوليا ميشال شفالبيه طابعاً إلزامياً ، مصيرياً ، ربانياً ، وبعبارة أخرى ، صناعياً .

وبجمل القول وبكلمة واحدة : وفرة الانتاج ووفرة وسائل العيش والسكن وتنوع نماذج اللباس ، وانتاج المجموعات الذي يوجب التقيد بالكمية السوية وحشد القوى العاملة ؛ وقد خرج من احتياطي الريف في اوروبا تياران قويان في حركة الاغتراب : الاول الزوج الى المدينة والثاني : الهجرة باتجاه الاميركتين والاقطار الجنوبية الأخرى المعروفة باعتدال مناخها . وهكذا اطلت على المجتمعات المدنية عهد من التطور الفاصل ، بينما برز في الريف سواء منه في اوروبا أو في هذه البلدان الجديدة ، مجتمعات ريفية اضافية تسهر على تأمين اسباب العيش المجتمعات الاولى التي تسلمت بنشاط وحاس قيادة العالم وتوجيهه . وقد برزت لندن ، بين عواصم الدنيا الكبرى : اكبر مرفأ و اكبر مركز تجمع لرأس المال في العالم كله . فهي عاصمة أوسع وأغنى امبراطورية على كرتنا الارضية . فالبضائع على انواعها تروح وتجيء في كل مكان مع تنقل العملة بحرية وسهولة السيولة . فسياسة حرية التجارة التي نهجت نهجها عاصمة المال ، قابلها في الطرف الآخر ، استقرار العملة . فالذهب يتدفق على اسواق اوروبا من منابعه الثرية : بونت مورغان ، ومن الجبال الصخرية والرائد ، كما ان الاصفر الرنان يضمن نجاح المشروعات

الكبرى التي ينهض بها البيض ، في الوقت الذي تتدفق فيه على الهند وآسيا الصفراء عملات الفضة . والبركة تفرغ فوق رأس المال الآخذ بالتنافس لا يتسبب أية مغامرة ولا يرتد كليلاً عن أي مشروع مهما ضخّم ، فليس من يشك أو يتشكك بإمكاناته وطاقاته التي لا حد لها .

فالحلم الذي راود العالم وعلاه بطول حياة ملؤها الهناء والسعادة أصبح تحقيقه على قباب 'قوسين وادنى . فبعد ان تمت للانسان السيطرة على القوى الطبيعية العابثة وسخرها لخدمته ، نراه يزداد رفاء وعافية بعد ان راح يتقصى اسباب المرض وعرف كيف يسط حبل الحياة . فبإمكان التربية والعلم الاتيان بالعجائب المدمشة والقضاء على الاوهام والخواف الصيبانية التي عشمشت في الازدهار . انظر الى الخدمات الجلى التي افاضها الورق والطباعة على الادارة الحكيمة المدبرة . والجريدة المسلية والكتاب الملهب ، والشعور المتزايد بالتضامن والتضافر بين الافراد والجماعات . كل هذا وما اليه اخذ بالازدياد ولن تلبث فكرة الحرب ذاتها ان تصدم ادب العصر ، بعد ان وثقت الروابط التي شدت الشعوب بعضاً الى بعض . فبينما تأخذ الآلة العبداء عملاً لها أكبر في خدمة الناس لا تلبث ان تصبح العبوديات على انواعها ، اثراً بعد عين ، في كل من اوروبا واميركا ، كما اخذت القهقري في المناطق الاخرى .

فانجيل الحرية ينتشر حاملاً الى الجميع بشرى انفتاح الشخصية البشرية وازدهارها . فالجهلون الجدد ، وهذه الوجوه التي هي ملء العين والسمع ، أطلت من بين صفوف السوق في الامس ، وطلعت من بين ابناء الطبقة الثالثة ، هم ابناء هذه الطوائف وهذه الجماعات التي رزحت طويلاً تحت الضغط والاضطهاد كالبائسين الاحرار ، والمشاكين واليهود ، اي من القوا عصر روتشيد وعصر ماركس ، هذا العصر الذي كان اينشتاين خاتمته . والتسامح يسير جنباً الى جنب مع استثمار الطاقات والامكانات الخصبية . وهذا الايمان المبلّغ - مسيحياً كان ام علمياً - الذي يحبش به ربع العالم ، يعمل جاهداً ، على تهذيب وصقل الثلاثة الارباع الباقية . فجاشت روح جوريس بالتفاؤل « هذا التفاؤل المسلكي » كما ينعتة بيني ، كما جاشت به روح روكفار وهو يردد : « انا لست متشائماً . لي كل الثقة بالانسان والاخوة الانسانية » .

وهذا لا يعني قط ولا يفيد مطلقاً ان الحضارة المشتركة تؤذي بالضرورة الابداع الفكري : فحرية الفكر تخصب الابتكارات والابداع العقلي والفني التي قد تعبر احياناً عن التوق الى الانفلات والانطلاق . فاوروبا لا تتخلى ولا تتقاعس في هذا المجال لانها تشد الخلق وتصبو الى الابتكار والابداع في المجالات كلها . فالتجدد عندها لا ينقطع كما ان التنوع على اشده . فمهما اشتدت وشائج الرومنطقية ، بالقرن الثامن عشر من وجوه عدة ، فقد اطلقت ، بعد ان دارت ظهرها للحركة العقلانية ، مشاعرها واحاسيسها المتأججة ، قبيل طلوع عصر البजार وبروز البورجوازية الرأسمالية . هذا هو مرض العصر بالنسبة للمصير الطالع . راحت الواقعية والطبيعية تركز نظرها على حضارة الحديد وحضارة الذهب ، في الوقت الذي سارت فيه العلمية قدماً . تشع على الناس املاً ورجاءاً ، كما راحت الفلسفة الوضعية ، من جهتها تقترح على البشرية عبادة الذات .

الا ان المندية او مذهب الذاتية بقيت متمسكة بحقوقها . فبعد ان جرى إقصاؤها مدة غسن المسرح ، عاودتها القدرة على التعبير من جديد ، وذلك عندما حدثت الردة اللاجبرية ، في هذا الوقت بالذات الذي وقع فيه تداعي التأكيدات المغالية .

وبالفعل فقد اخذت الحرية الفكرية في اوروبا تبدي عوارض الضعف في اواخر القرن الذي توقمت منه اوروبا ان يطلع عليها بما فيه شفاء غليلها واشباع اطماعها . فقد برز برغسون وانشتاين بعد افول نجم كلود برنار وبرتلو . كان من اللازم هضم واستمراء المكتشفات العلمية وتحديد المفهوم الصحيح للتطور .

٢

هذه الحضارة التي تهى بها اوروبا وتفخر ، لا يمكن ان تخفي ، بما لها من سحر وفتنة ، سمات سحتها الحربية ، حتى في سنغافورة وفي هونغ كونغ حيث يتوارى الجندي وراء التاجر . فهي تتمسك بهذه الجزيرة الصغيرة التي احتلتها غلاباً وتشكل دمسلاً او خراجاً في قلب مدنية تلك البلاد الوطنية ، تتبرم منه وتضيق به ذرعاً . هنالك حضور مشترك - كما ينم عنه الوضع في كل من الهند واقرقيا - او في اميركا الشمالية وأستراليا ، حيث تجري تصفية المتوحش ، بكل بساطة . ففي رسائل اسفاره ، يبدو لنا كبلنغ ، المثال الاكمل لهذا المستعمر البريطاني الذي يتجافى الملونين ، ولا يتردد الا على ناديه المفضل ومجتمعه الاثيو . صحيح ان الاوروبي يسخر في أعطيائه ويرحب بكل مساعدة او مشاركة مالية كما يتمناها ويحدث عن مشاريعه الاستثمارية وعن الارباح المتدفقة التي يمنحها ، الا انه يشترط ، قبل كل شيء ، اساساً للنجاح ، الامتنال لتوجيهاته والعمل بها بكل دقة . ينشر لواء السلام ولا يتورع عن قرضه بالقوة . هو دوماً في حديث عما يجلب الخير للمستعمرة ، انما تجهيزها مربوط اصلاً بمقتضيات مصلحته الخاصة . فاذا ما راح ينشر بشارة الانجيل وتعاليم السيد المسيح فلا يمانه الوطيد انه يعمل على نشر مبادئ اخلاقية وادبية سامية . فاذا ما باع اصنافاً وسلعاً مصنوعة في اوروبا ، فلانه يعتقد بفائدتها للشاري وباهميتها له . يحز في نفسه ان يرى انه غير مقدر ، ويشعر بانه غير محبوب ، ولذا يروح ينمى الناس بالجحود ونكران الجميل . فاذا لم يعمل ، عامداً ، على نشر الامراض التي كثيراً ما عانى منها كالفلس والتدرن الرئوي ، واذا لم يعمد ، عن سابق قصد وتصميم ، الى انهاء التربة ، فلم يحىء ركونه الى السخرة والعمل الاجباري وحرصه على الاتجار ، بالكحول عملاً بغير وعي منه او شعور ، بل جاء إشباعاً لطماعه الاشعية . كم من هذه المدينيات التي وُصفت نافلة او متخلفة ، هُدرت واستبيحت على مذهب الحضارة المتطورة ؟

وهذه الانقلابات الواسعة التي قام بها العرق الابيض لا يمكن ادخالها في رصيد حساب اوروبا . فالمستعمرات الاوروبية الجديدة لم تلبث ان وعت إصالتها . فقد شهد القرن التاسع عشر ، عن

كثب ، التطور السريع الذي اخذت بأسبابه الممتلكات الانكلوساكسونية ، فيها لتلعب الدور الذي ستلعبه فيما بعد كدول كبرى ، واطعة نصب اعينها مثال الولايات المتحدة الاميركية التي كانت بمثابة بوتقة لجنس من البشر ، عرف بروحه المغامرة ويجبرؤوته ، توفر له من الخامات والموارد الاولية الطائلة ما جعله يعقد الآمال الطوال على تحقيق مستوى رفيع من العيش الكريم الهنيء ، دونه ما تم منه لاوروبا القديمة التي تزرع تحت وطأة كثافة عالية ، من السكان كما تزرع تحت تقاليد المرعية . فمنذ عام ١٩١٤ ، سارت اميركا الشالية في طبيعة الركب الحضاري ، بنشاطها الصناعي الزاخر ، واخذت تشرئب باعناقها ، نحو القيادة والرئاسة . وبالرغم من ان الدومنيونات البريطانية ، الاخرى لم يتم لها ما تم للولايات المتحدة ، فقد راحت مع ذلك ، تنظر الى حكومة لندن نظر الند للند ، بينما اخذ يبرز من بين دول اميركا اللاتينية ما يبشر بقرب طلوع امبراطوريات جديدة كالبرازيل والارجنتين والمكسيك ، التي وان خشنت منها الملاص ، يدب فيها دم الشباب الحار . ومن رأس هورن الى ريو غراندي دي نورته ، يبسم الحظ ، من هنا ومن هناك ، امام الخلاسي او امام الهندي الاحمر ، بعد ان دقت عنده ساعة النار والانتقام لنفسه .

اما العالم الاسود فهو في خنوعه واستسلامه يلثم اقدام المستعمر . وهذا الاسلام المنكش ، لم يفقد شيئاً من ايمان واماويه ، وآسيا الشرقية التي لا تقبل عنه انكماشاً وغموضاً ، تأبى هي الاخرى ، الخضوع والاستسلام لهذا « البربري الابيض » . لم نر قط من المغرب الى المحيط الهادي وشائج بمثل هذه المانة كالوشائج التي شدت بعضاً الى بعض ، مدنيت تفخر بأجسادها الماضية وبما تم لها من ترف . كذلك لم نر قط ادلة اقطع وحجباً ادفع على ما يقوم من تناقض مطلق بين عقليتين وذهنيتين لمفهوم الحياة . فالموقف يختلف تماماً عند مواجهة الغرب ، باختلاف المكان واختلاف الظروف . فالموقف يتناوح بين السلمية الصامتة ، نصف المستسلمة ، المستعيلة ، وبين الثورة المكشوفة . فما هي اليابان ، ومثلها ينتصب امامنا ، تستمد من الحضارة الصناعية ومن التقنية ما تخفيان من امكانات وطاقات لتحسين وسائل الدفاع عن استقلالها العالي . انه لدرس بليغ فيه كل العظة والعبرة ، اذ ان اسلحة الرقي والتطور ، ترصد في آخر الامر الى وجه من اتقنها وشجدها .

فالفوز بآسيا والفوز بالاسلام يقتضي له اساساً السيطرة على روح آسيا وعلى روح الاسلام والتصرف بها . ولكن ما العمل وما هي اوروبا منقسمة على ذاتها ، تتناوش دولها وتتهاوش ، فأعمت الاحقاد قلبها . فمهما بلغ من تطور البروليتاريا فيها ، فهي اشبه ما تكون ضحية نظام يقوم على الظلم الاجتماعي : حرية غرارة ، كاذبة ، تحول دون توزيع المواد الغذائية ، توزيعاً عادلاً ، ضمن « المساوىء » الاخرى ، التي تزلت بها - الكلمة للويس جيليه - فالروح القومية التي جاشت فيها ، غدت ، بالرغم من مرور مائتي سنة من السلام الموصول ، إبقسامات ضارة ، بعد ان عجزت اية سيطرة من اي لون كانت : فرنسية او انكليزية او روسية او المانية ، عن ان تضع لها حداً ، وانزباج السيطرة الى المانيا التي اخذت تنعي سوء حظها وقسمتها الضئلي

فما تم لها من موقع جغرافي ، اثار ما هو اشد هولاً على السلام ، بعد ان خيم على القارة ، ووزح على كلكتها ، شبح التسليح المضني ، الموهن الذي مكنت له المدنية الصناعية . وانحياز دول العالم الى المعسكرين القائمين في اوروبا ، الذي جاء نتيجة حتمية لاتساع رأس المال والروح الاستعمارية المستعصية ، يقدم لنا مشهداً لهذا العالم الذي يكافح ضد استعمار اوروبا ، وهو كفاح جاء بخدم في نهاية الامر الروح الاستعمارية في اميركا واليابان معاً .

وهكذا نرى العالم نفسه امام رهنين فكيف السبيل الى رفعهما ؟ وهكذا نزلت بالعقل الاوروبي ازمة اخذت بخناقها عند مطلع قرن جديد كل دلائلها تنذر بمصاعب جديدة .

« وهذه المهرطقات العصرية » ، لا تزال الكنيسة ، ولا سيما الكاثوليكية منها ، تشجبها بعنف ، في المرتبة الاولى منها هذا الاعتماد الفاجر ، العاري من كل قيد ، على العقل البشري ، هذا الفجور المساوي لخطيئة الكبرياء . الا ان رفض الاخذ بالعرف ، وبعبارة اخرى ، المحبة ، محبة القريب وغير ذلك من هذه الروحانية ، التي اخذ المسيحي يتلصصها في الكتاب المقدس ، تؤلف شيئاً واحداً مع تعاليم الهند ، مع هذا الذي يسميه غاندي « Ahimsa » اي « اقصى حدود التواضع » . فبينما يتجه ، هذا الانسان - نيتشه - الى الحكمة القديمة ، هذا الرجل الذي يعلن على رؤوس الاشهاد « جذب القرن التاسع عشر الجندري » ، يتنى لو يطلع علينا نموذج بشري اقوى واكمل ، اخذت اوروبا تطالب بحقوق الفكر ، بعد طغيان الروح المادية الجارف ، التي اسيء فهمها . وهل لفظ ، يا ترى ، الاقتصاد الحر ، كلمته الاخيرة ؟ فربابنة هذا الاقتصاد وكبار المساهمين فيه نظروا الى انفسهم نظرة ريان سفينة اشتدت العاصفة حولها . فاذا بالماركسية تطل وتنمو وتتسع ، واذا بصوت جوريس يجلجل ويطفو على صوت لينين مبشراً بطولوع مجتمع لا اثر فيه للطبقات .

صحيح ان نبوغ الغرب الخلاق لم يبال قط ولم يثب ، لا المركة الاجتماعية القائمة ولا هذه الاستعدادات لحرب تحمل في طياتها الفناء والدمار . فأخذ يتقن الى اقصى حد هذه الاختراعات التي حققها في مجال الكهرباء والضوء ، كالمصباح الكهربائي والدينامو والسيارة والتلفراف اللاسلكي ، ثم استنبط القواصة والسيارة والطائرة ، ونفذ الى اسرار الذرة ، وانفتحت امامه اسرار الفضاء الزمني واسرار النسبية . وطلعت علينا ثورة جديدة في مجالات العلوم والتقنية بعد هذه الاكتشافات التي تثاررت حباتها طوال القرن التاسع عشر والتي كان من شأنها ان وطدت نفوذ اوروبا .

وما عسى ان يكون مصير اوروبا هذه عندما تندلع شرارة الحرب العالمية الاولى ؟ فراح بول فاليري يتساءل : « انبقى لنا اوروبا ، كما كانت يوماً لنا ، هذه القوة الشئنة في عالمنا الارضي ، جوهره هذه الكرة ، والدماغ النابض في هذا الجسم الجبار » . فنحن امام فوج من الاعجوبة ، لم نشهد لها مثيلاً منذ بضعة اجيال ، هذه الاعجوبة التي يمكن للقدر العاشم ، المهدد المزعج ، ان يضع حداً لها .

التوجيه البليوغرافي

لم يذكر في هذا الجدول سوى عدد محدود من المؤلفات التي اختيرت من كل ما هو حري باستيفاف انتباه القارئ، الراغب في الاستزادة . ولم تذكر بصورة عامة المؤلفات الموضوعة بلغة غير الفرنسية . الا ان كتب الدراسة في معاهد التعليم العالي توفر مراجع اكثر تفصيلا وعرضاً للاحداث اكثر توسيعاً . ونقصد هنا بصورة خاصة :

LA COLLECTION «Clio» (Paris P.U.F.) t. IX, l'Epoque Contemporaine : I Restaurations et Révolutions (1815-1871), par J. DROZ, L. GENET et J. VIDALENC (2e édit; 1963); La paix armée et la Grande Guerre (1871-1919), par P. RENOUVIN, E. PRECLIN et G. HARDY (2e édit., 1947).

LA COLLECTION «Peuples et Civilisations» (Paris, P.U.F.), dirigée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC : t. XV, L'éveil des nationalités et le mouvement libéral (1815-1948), par G. WEILL, 1930 (réed. F. PONTEIL, 1960); Démocratie et Capitalisme (1848-1860), par Ch. H. POUTHAS (2e édit; 1948); Du libéralisme à l'impérialisme (1860-1898), par H. HAUSER, J. MAURAIN, P. BENAERTS (2e éd., révisée et refondue par F. L'HUILLIER, (1952); L'essor industriel et l'impérialisme colonial (1878-1904), par M. BAUMONT (2e éd., 1949); La crise européenne et la première guerre mondiale, par P. RENOUVIN (4e éd., 1962).

LA COLLECTION «NOUVELLE CLIO» (Paris P.U.F.): L'expansion européenne (1600-1870), par F. MAURO (Paris, 1964); L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales par J. B. L'Histoire générale de la civilisation d' L'Amérique anglo-saxone de 1815 à nos jours par C. FOHLEN (L'homme (Paris, Colin, 1960) par Ch.

مؤلفات عامة

L'Essai sur la civilisation d'Occident. L'home (Paris, Colin, 1960) par Ch. MORAZE.

L'Histoire générale de la civilisation d'Colin, 1959) du même auteur.

L'Histoire générale de la civilisation d'Occident de 1870 à 1950. I. 1870-1914, par J. CHAPPEY (Paris, Presses Universitaires, 1950);

Les grands courants de l'histoire universelle par J. PIRENNE (Paris, Albin Michel) : IV de la Révolution Française aux Révolutions de 1830 (1951); V. de 1830 à 1904 (1953); VI (1955) et L'Histoire Générale Contemporaine du milieu du XVIII^e siècle à la deuxième guerre mondiale par F. FONTEIL (Paris, Dalloz, 1951).

La terre et l'évolution humaine (Paris, Albin Michel, rééd. 1949) par L. FEBVRE.

Les fondements de la géographie humaine, 3 tomes (Paris, Colin, 1943-1952) par MAX SORRE.

Principes de géographie humaine (Paris, Colin, 1922), par VIDAL DE LA BLACHE.

Nouvelle géographie universelle, 19 vol. (Paris, 1875-94), par E. RECLUS.

Atlas historique et géographie VIDAL DE LA BLACHE (Paris, Colin).

Atlas de géographie historique SCHRADER et CALLOUEDEC (Hachette).

Atlas du monde chrétien par A. FREITAG (Paris, Elsevier, 1959).

Nouvel Atlas historique par P. SERRYIN, H. MARC-BONNET et BLASSELLE (Paris, Bordas, 1961).

التوسع الاوروي

G. LE GENTIL, Découverte du monde (Collection «Pays d'Outre-Mer», P.U.F. 1954).

J. ROUCH, P.E. VICTOR et HAROUN TAZIEFF, Histoire universelle des explorations (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1956).

R. CLOZIER, les étapes de la géographie (Paris, P.U.F., 1942).

G. HARDY, La politique coloniale et le partage de la terre aux XIX^e et XX^e siècles (Paris, Albin Michel 1937).

B. DE VAULX, En Afrique : Cinq mille ans d'exploitation (Paris, A. Fayard, 1960).

J. STENGERS, Belgique et Congo : L'élaboration de la Charte coloniale (Bruxelles, la Renaissance du Livre, 1963).

H. BRUNSCHWIG, l'Expansion Allemande outre-mer du XV^e siècle à nos Jours (Paris, P.U.F., 1957).

J. TRAMOND et A. REUSSNER, Eléments d'histoire maritime et coloniale contemporaine (1815-1914) (Paris, Société d'Editions géographiques, 1924).

A. SIEGFRIED, Suez, Panama et les routes maritimes mondiales (Paris Colin, 1941).

G. HANOTAUX et A. MARTINEAU, Histoire des colonies françaises et de l'expansion française dans le monde, 6 vols. (Paris, Pion, 1930-34).

توسع فرنسا

H. BLET, Histoire de la colonisation française, t. II et III (Paris, Arthaud, 1947-1950).

- H. DESCHAMPS, *Méthodes et doctrines coloniales de la France* (Paris, Colin, 1953).
- R. DELAVIGNETTE et Ch. A. JULIEN, *Les constructeurs de la France d'Outre-Mer* (Paris, Corrèa, 1946).
- H. BRUNSCHWIG, *Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, 1871-1914* (Paris, Colin, 1960).
- J.P. FAIVRE, *L'expansion française dans le Pacifique entre 1800 et 1842* (Thèse, Paris, 1953).

تطور التقنيات

- P. ROUSSEAU, *Histoire des techniques* (Paris, A. Fayard, 1956).
- P. DUCASSE, *Histoire des techniques* (Paris, P.U.F., 1942).
- VIERENDEEL, *Esquisse d'une histoire de la technique*, 2 vols, (Bruxelles, Vromant, 1921).
- H. PASDERMADJIAN, *La deuxième révolution industrielle* (Paris, P. U. F., 1959).
- LEWIS MUMFORD, *Technique et civilisation* (Paris, Ed. du Seuil, 1950).
- P. DES ROUSIERS, *Les grandes industries modernes*, 5 vols. (Paris, Colin, rééd. 1930).
- L. GUILLET, *Les étapes de la métallurgie* (Paris, P.U.F., 1942).
- D. FAUCHER, *Le paysan et la machine* (Paris, Ed. de Minuit, 1954).
- H. FAUCHER, *La houille blanche*, (Paris, Colin, 1946).
- P. ROUSSEAU, *Histoire de la vitesse* (Paris, P.U.F., 1942).
- L.M. JOUFFROY, *L'ère du rail* (Paris, Colin, 1953).
- A. THOMAZI, *Histoire de la navigation* (Paris, P.U.F., 1942).
- J. GODECHOT, *Histoire de l'Atlantique*, (Paris, Bordas, 1947).
- R. CHAMBE, *Histoire de l'aviation*, (Paris, Flammarion, 1949).
- G. WEILL, *Le journal*, (Paris, Albin Michel, 1934).
- LO DUCA, *Histoire du cinéma*, (Paris, P.U.F., 1942).

التطور الاقتصادي والرأسمالية

- J. MAILLET, *Histoire des faits économiques de^s origines au XX^e siècle* (Paris, Payot, 1952).
- J. A. LESOURD et C. GERARD, *Histoire économique XIX^e et XX^e siècles*, (Paris, Colin, 1963).
- A. PHILP, *Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours* (Paris, Aubier, 1963).
- J. FOURASTIE, *Le grand espoir du XX^e siècle* (Paris, P.U.F., 1952).
- J. LACOUR-GAYET, *Histoire du commerce*, t. III, IV, V (Paris, Spid, 1951-1952 - 1953).
- H. ARDANT, *Les crises économiques* (Paris, Flammarion, 1948).
- JOHAN AKERMAN, *Structures et cycles économiques* (Paris, P.U.F., 1955-57, 2 vol; paru en Suède en 1944).

- F. MAURETTE, Les grands marchés de matière première (Paris, Colin, 1940).
- H. PEYRET, La lutte pour les denrées vitales (Paris, P.U.F., 1942).
- H. PEYRET, La Bataille des trusts (Paris, P.U.F., 1943).
- W. SOMBART, L'apogée du capitalisme, 2 vol. (Paris, Payot, 1932).
- F. STERNBERG, Le conflit du siècle. Capitalisme et socialisme à l'épreuve de l'histoire (Paris, Club français du Livre, 1960).
- J. HALPERIN, Les assurances en Suisse et dans le monde (Neuchâtel, La Baconnière, 1945).
- M. AUGÉ-LARIDE, La révolution agricole (Paris, Albin Michel, 1955).

المسائل والآراء الاقتصادية والاجتماعية

- L. CHEVALIER, Démographie générale (Paris, Dalloz, 1951).
- M. REINHARD et A. ARMENGAUD, Histoire générale de la population mondiale (Paris, Monchrétien, 1961).
- A. SIEGFRIED, Itinéraires et contagions. Epidémies et idéologies, (Paris, Colin, 1960).
- H.A. CITROEN, Les émigrations internationales (Paris, Librairie de Médecis, 1948).
- J. LAJUGIE, Libre-échange et protectionnisme (Paris, P.U.F., 1963).
- G. LEFRANC, Histoire des doctrines sociales dans l'Europe contemporaine (Paris, Aubier, 1960).
- E. HALEVY, Histoire du socialisme européen (Paris, Gallimard, 1948).
- H. ARVON, Le marxisme (Paris, Colin, 1955).
- A. CORNU, Karl Marx et Friedrich Engels (Paris, P.U.F., 1955-58, 2 vols. parus).
- A. PIETTRE, Marx et le marxisme (Paris, P.U.F., 1955-58).
- H. CHAMBRE, De Karl Marx à Mao-Tsé-Tung (Paris, Spes, 1959).
- J. DUCLOS, La Première Internationale (Paris, Ed. sociales, 1964).
- A. KRIEGER, Les Internationales ouvrières (Paris, P.U.F., 1964).
- G. HAUPT, L'Internationale socialiste 1889-1914). Etude de sources. Essai bibliographique (Paris-La Haye, Mouton, 1946).
- P. VAN DERESH, La deuxième Internationale 1889-1923 (Paris, Rivière, 1957).
- Th. RUYSSSEN, Les sources doctrinales de l'Internationalisme, t. III (Paris, P.U.F., 1961).
- A. SERGENT et C. MANUEL, Histoire de l'anarchisme, 2 vols, (Paris, Le Portulan, 1956).
- G. LEFRANC, Le Syndicalisme dans le monde (Paris, P.U.F., 1949).
- E. DOLLEANS, Histoire du mouvement ouvrier, 3 vols. (Paris, Colin, 1936-1947-1954).
- G. MARTIN, Histoire de l'esclavage dans les colonies françaises (Paris, P.U.F., 1948).
- E. TERSEN, Victor Schoelcher, Esclavage et colonisation (Paris, P.U.F.,

1948).

- R. AIGRAIN, *Histoire des Universités* (Paris, P.U.F., 1949).
H. VAN EFFENTERRE, *Histoire du scoutisme* (Paris, P.U.F., 1947).
B. GILLET, *Histoire du sport* (Paris, P.U.F., 1949).

التيارات الدينية والفلسفة

- A. FLICHE, et V. MARTIN, *Histoire de l'Eglise*.
J. LEFLON, *La crise révolutionnaire, 1789-1846* (Bloud et Gay, 1940).
DANIEL-ROPS, *L'Eglise des Révolutions; I : En face de nouveaux destins* (Paris, A. Fayard, 1960).
R. AUBERT, *Le pontificat de Pie IX* (Paris, Bloud et Gay, 1949-1952).
Ch. LEDRE, *Un siècle sous la tiare : De Pie IX à Pie XIII* (Paris, Amiot-Dumont, 1955).
H. MARC - BONNET, *La papauté contemporaine* (Paris, P.U.F., 1946).
H. MARC - BONNET, *Histoire des ordres religieux* (Paris, P.U.F., 1949).
J. M. SEDES, *Histoire des missions françaises* (Paris, P.U.F., 1950).
Mgr. DELACROIX et Collaborateurs, *Histoire universelle des missions catholiques; t. III : Les missions contemporaines, 1800 - 1957* (Paris, Grund, 1958).
R. LAURENTIN et Dom B. BILLET, *Lourdes, documents authentiques* (Paris, Lethielleux, 1958, 4 vol.).
E. G. LEONARD, *Histoire du protestantisme* (Paris, P.U.F., 1950).
E. G. LEONARD, *Histoire générale du protestantisme* (Paris, P.U.F., t. III, 1964).
A. CHOURAQUI, *Histoire du judaïsme* (Paris, P.U.F., 1957).
E. BREHIER, *Histoire de la philosophie, t. II* (Paris, P.U.F., 1932).
P. DUCASSE, *Les grands philosophes* (Paris, P.U.F., 1942).
G. BOUTHOU, *Histoire de la sociologie* (Paris, P.U.F., 1950).
A. BAYET, *Histoire de la libre pensée* (Paris, P.U.F., 1959).

الحركة العلمية

- P. ROUSSEAU, *Histoire de la science* (Paris, A. Fayard, 1945).
S. F. MASON, *Histoire des sciences* (Paris, A. Colin, 1956).
R. TATON, et Collaborateurs, *Histoire générale des sciences; t. III : La science contemporaine* (Paris, P.U.F., 1961).
M. DAUMAS et Collaborateurs, *Histoire de la science* (Paris, Gallimard, 1957).
P. MARCHAL, *Histoire de la géométrie* (Paris, P.U.F., 1943).
O. BECKER et J. HOFMANN, *Histoire des mathématiques* (Paris, Larousse, 1956).
M. BOLL, *Les étapes de la mécanique* (Paris, P.U.F., 1943).
P. COUDERC, *Les étapes de l'astronomie* (Paris, P.U.F., 1943).

- P. GUAYDIER, *Les étapes de la physique* (Paris, P.U.F., 1950).
 M. CAULLERY, *Les étapes de la biologie* (Paris, P.U.F., 1941).
 E. MAY, *La médecine, son passé, son présent, son avenir* (Paris, Payot, 1958).
 LECENE, *L'évolution de la chirurgie* (Paris, Masson, 1923).
 J. CUEILLERON, *Histoire de la chimie* (Paris, P.U.F., 1957).
 L. LEPRINCE-RINGUET, *Grandes découvertes du XX^e siècle* (Paris, Larousse, 1956).

الحركة الادبية والفنية

- Encyclopédie française publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. XVI
 t. XVII, *Arts et littératures dans la civilisation contemporaine*;
 t. XVIII, *La civilisation écrite* (Paris, Larousse, 1935-1939).
 P. VAN TIEGHEM, *Histoire littéraire de l'Europe et de l'Amérique, de la Renaissance à nos jours* (Paris, Colin, 1941).
 R. AYRAULT, *La genèse du romantisme allemand* (Paris, Aubier, 1960).
 A. BEGUIN, *l'âme romantique et le rêve* (Corti, 1963).
 R. M. ALBERES, *L'aventure intellectuelle du XX^e siècle, 1900-1959* (Paris, Albin Michel, 1959).
 L. HALPHEN, *Histoire et historiens depuis cinquante ans : 1867-1925*, 2 vol. (Paris, P.U.F., 1927-1928).
 P. LAVEDAN, *Histoire de l'art: Les faits et les doctrines* (Paris, P. U. F., Collection «Clio», 1944).
 L. REAU, *Histoire universelle des arts*, t. III et V (Paris, Colin, 1936).
 L. HAUTECOEUR, *Histoire de l'art; t. III : De la nature à l'abstraction* (Paris, Flammarion, 1959).
 A. FOCILLON, *La peinture aux XIX^e et XX^e siècles*, (Paris, Lamens, 1927).
 L. REAU, *L'ère romantique, Les arts plastiques* (Paris, Albin Michel, 1949).
 E. DEKEYSER, *L'Occident romantique, 1789-1850* (Skira, 1965).
 P. COUTHION, *Le romantisme* (Skira 1961).
 P. FRANCASTEL, *L'impressionnisme*, (Paris, Les Belles-Lettres, 1937).
 M. SERULLAZ, *L'impressionnisme* (Paris, P.U.F., 1961); *Le Cubisme*, (Paris, P.U.F., 1963).
 R. RAY, *La peinture moderne* (Paris, P.U.F., 1942).
 LO DUCA, *L'Affiche*, (Paris, P.U.F., 1943).
 E. VUILLERMOZ, *Histoire de la musique* (Paris, A. Fayard, 1949).
 A. EINSTEIN, *La musique romantique* (Paris, Gallimard, 1959).
 H. H. STUCKENSCHMIDT, *Musique nouvelle* (Paris, Corrèa, 1956).
 P. HUOT-PLEUROY, *Histoire de la musique religieuse, des origines à nos jours* (Paris, P.U.F., 1957).
 L. GUICHARD, *La musique et les lettres au temps du romantisme* (Paris, P.U.F., 1958).

التطور السياسي

- Encyclopédie française, publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. X, l'Etat moderne (Paris, Larousse, 1935).
- J. TOUCHARD et Collaborateurs, Histoire des idées politiques, t. II (Paris, P.U.F., Collection «Thémis», 1959).
- M. DUVERGER, Les partis politiques (Paris, Colin, 1951).
- G. E. LAUVAU, Partis politiques et réalités sociales (Paris, Colin, 1953).
- A. LATREILLE et A. SIEGFRIED, Les forces religieuses et la vie politique (Paris, Colin, 1951).
- R. FUSILIER, Les monarchies parlementaires, Suède, Norvège, Luxembourg, Belgique, Pays-Bas, Danemark (Paris, Les Ed. Ouvrières, 1960).

العلاقات الدولية

- P. RENOUVIN et J.B. DUROSEILLE, Introduction à l'histoire des relations internationales (Paris, Colin, 1964).
- J. DROZ, Histoire diplomatique de 1648 à 1919 (Paris, Dalloz, 2ème Ed. 1959).
- F. L'HUILLIER, De la Sainte Alliance au Pacte Atlantique. Le dix-neuvième siècle, 1815-1898 (Neuchâtel Ed. de la Baconnière, 1954).
- L. DE SAINTE-LORETTE, L'idée d'une fédération européenne (Paris, Colin, 1955).
- M. N. DRACHKOVITCH, Les socialismes français et allemand et le problème de la guerre (1870-1914) (Genève, E. Droz, 1953).
- E. CARRIAS, La pensée militaire allemande (Thèse, 1948).
- J. U. NEF, La route de la guerre totale (Paris, Colin, 1949).
- F. SCHNEIDER, Histoire des doctrines militaires (Paris, P.U.F., 1957).
- H. COURSIER, La Croix-Rouge internationale (Paris, P.U.F., 1959).

أوروبا

- Ch. SEIGNOBOS, Histoire politique de l'Europe contemporaine. Evolution des partis et des formes politiques (1814-1914) (Ed. 1924, Paris, Colin).
- Ch. SEIGNOBOS, Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe (Paris, Rieder, 1938).
- B. CROCE, Histoire de l'Europe au XIX^e siècle (Paris, Plon, traduction H. BEDARIDA, 1959).
- A. SAUVY, L'Europe et sa population (Paris, Ed. Internationales, 1954).
- G. WEILL, L'Europe du XIX^e siècle et l'idée de nationalité (Paris, Albin Michel, 1938).
- P. HENRY, Le problème des nationalités (Paris, Colin, 1937).
- H. CONTAMINE, L'Europe est derrière nous (Paris, A. Fayard, 1953).
- H. HEATON, Histoire économique de l'Europe, t. II (Paris, Colin, 1952).

- A. DEMANGEON, *Le déclin de l'Europe* (Paris, Colin, 1920).
 A. DEMANGEON et L. FEBVRE, *Le Rhin, problème d'histoire et d'économie* (Paris, Colin, 1953).
 F. PERROUX, *L'Europe sans rivages* (Paris, P.U.F., 1954).
 F. PONTEIL, *1848* (Paris, Colin, 1937).
 E. TERSEN, *Quarante-huit* (Paris, Club Français du Livre, 1957).
 J. DROZ, *Les révolutions allemandes de 1848* (Paris, P.U.F., 1957).

فرنسا

- E. LAVISSE, *Histoire de France contemporaine, t. IV à VIII* par CHARLE-
 TY et SEIGNOBOS (Paris, Hachette, 1921).
 P. GAXOTTE, *Histoire des Français, t. II* (Paris, Flammarion, 1951).
 G. DUBY et R. MANDROU, *Histoire de la civilisation française, t. II* (Paris,
 A. Colin, 1958).
 Ch. MORAZE, *La France bourgeoise (XVIII^e - XX^e siècles)* (Paris, Colin,
 1946).
 G. DUPEUX, *La société française, 1789-1900* (Paris, A. Colin, 1964).
 F. PONTEIL, *La monarchie parlementaire* (Paris, Colin, 1948).
 Ph. VIGIER, *La monarchie de Juillet* (Paris, P.U.F., 1962).
 A. DANSETTE, *Louis-Napoléon à la conquête du pouvoir* (Paris, Hachette,
 1961).
 M. BLANCHARD, *Le Second Empire* (Paris, Colin, 1950).
 G. BOURGIN, *La Commune* (Paris, P.U.F., 1953).
 J. A. FAUCHER, *La véritable histoire de la Commune* (Paris, Atlantic, 1960,
 3 vol.).
 H. GUILLEMIN, *Les origines de la Commune* (Paris, Gallimard, 1950-
 1960, 3 vol.).
 P. BOUJU et H. DUBOIS, *La Troisième République* (Paris, P.U.F., 1963).
 H. REMOND, *La droite en France de 1815 à nos jours* (Paris, Aubier, 1964).
 P. COMBE, *Niveau de vie et progrès technique en France, 1860-1939* (Thèse,
 Strasbourg, 1955).
 G. P. PALMADE, *Capitalisme et capitalistes français au XIX^e siècle* (Paris,
 A. Colin, 1961).
 L. DUNHAM, *La révolution industrielle en France (1815-1848)* (Paris, Ri-
 vière, 1953).
 GIRARD, *La garde nationale 1814-1871* (Paris, Plon, 1964).
 J. L'HOMME, *La grande bourgeoisie au pouvoir 1830-1880* (Paris, P.U.F.,
 1960).
 G. WORMSER, *La République de Clémenceau* (Paris, P.U.F., 1961).
 J. HOURS, *Le mouvement ouvrier français* (Paris, Ed. Ouvrières, 1952).
 G. LEFRANC, *Le Syndicalisme en France* (Paris, P.U.F., 1953).
 R. DAVAL, *Histoire des idées en France* (Paris, P.U.F., 1953).
 R. GARAUDY, *Les sources françaises du socialisme scientifique* (Paris, Ed.

Hier et Aujourd'hui, 1948).

- D. LIGOU, Histoire du socialisme en France (Paris, P.U.F., 1962).
G. LEPOINTE, L'Eglise et l'Etat en France (Paris, P.U.F., 1960).
E. CARRIAS, La pensée militaire française (Paris, P.U.F., 1960).
C. DIGEON, La crissallemande de la pensée française, 1870-1914 (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا الشمالية والشمالية الغربية

- L. CAHEN, L'Angleterre au XIX^e siècle. Son évolution politique (Paris, Colin, 1924).
E. HALEVY, Histoire du peuple anglais, 5 vol. parus (Paris, Hachette, 1913-1948).
A. J. BOURDE, Histoire de la Grande-Bretagne (Paris, P.U.F., 1961).
J. CHASTENET, Le siècle de Victoria (Paris, A Fayard, 1947).
L. CAZMIAN, L'Angleterre moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1928).
B. VAN KALKEN, Histoire de la Belgique et de son expansion coloniale (Bruxelles, Office de Publicité, 1954).
J. DHONT, Histoire de la Belgique (Paris, P.U.F., 1963).
E. VAN GELDER, Histoire des Pays-Bas (Paris, Colin, 1936).
L. KRABBE, Histoire du Danemark (Paris, Klincksieck, 1950).
SVANSTROM et PALMSTIERNA, Histoire de Suède (Paris, Stock, 1944).
P. JEANNIN, Histoire des pays scandinaves (Paris, P.U.F., 1956).

اوروبا الوسطى

- J. ANCEL, Manuel géographique de politique européenne. L'Europe centrale, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1937 - 1940).
P. BENAERTS, Les origines de la grande industrie allemande (Thèse, Paris, 1933).
H. LICHTENBERGER, L'Allemagne moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1908).
J. DROZ, Le romantisme politique en Allemagne, (Paris, 1963).
E. VERMEIL, L'Allemagne contemporaine, sociale, politique, culturelle (Paris, Aubier, 1953).
J. DROZ, Histoire de l'Autriche (Paris, P.U.F., 1947).
J. ANCEL, Slaves et Germains (Paris, Colin, 1939).
B. AUERBACH, Les races et les nationalités en Autriche-Hongrie (Paris, Alcan, 1917).
L. EISENMANN, Le compromis austro-hongrois de 1867 (Thèse, Paris, 1904).
E. TERSEN, Histoire de la Hongrie (Paris, Hachette, 1959).
G. DE BERTIER DE SAUVIGNY, Metternich et son temps (Paris, Hachette, 1959).

Ch. GILLIARD, Histoire de la Suisse (Paris, P.U.F., 1944).

أوروبا الجنوبية

P. GUICHONNET, L'unité italienne (Paris, P.U.F., 1961).

M. VAUSSARD, Histoire de l'Italie contemporaine (1870-1946) (Paris, Hachette, 1950).

J. HURE, Histoire de la Sicile (Paris, P.U.F., 1957).

P. HURE, Histoire de l'Espagne (Paris, P.U.F., 1947).

Ch. E. NOWELL, Histoire du Portugal (Paris, Payot, 1953).

أوروبا الشرقية والتوسع الروسي

A. MOUSSET, Le monde slave (Paris, S.E.F.S., 1946).

J. MEUVRET, Histoire des pays baltiques (Paris, Colin, 1934).

H. DE MONFORT, La Pologne (Paris, La Renaissance du Livre, 1947).

A. JOBERT, Histoire de la Pologne (Paris, P.U.F., 1953).

J. ANCEL, Manuel historique de la Question d'Orient (Paris, Delagrave, 1927).

R. RSTELHVEBER, Histoire des peuples balkaniques (Paris, A. Fayard, 1950).

M. DEVOS, Histoire de la Yougoslavie (Paris, P.U.F., 1955).

N. SVORONOS, Histoire de la Grèce moderne (Paris, P.U.F., 1953).

J. TULARD, Histoire de la Crète (Paris, P.U.F., 1962).

A. EMILIANIDES, Histoire de Chypre (Paris, P.U.F., 1962).

P. MILLIOUKOV, Ch. EISENMANN, Ch. SEIGNOBOS, Histoire de Russie, t. II et III (Paris, Leroux, 1932).

G. ALEXINSKY, La Russie révolutionnaire (Paris, Colin, 1947).

M. SEMIONOV, La conquête de la Sibérie (Paris, Payot, 1936).

L. HAMBIS, La Sibérie (Paris, P.U.F., 1957).

B. PONOMAREV et Collaborateurs, Histoire du parti communiste de l'Union Soviétique (Moscou, Ed. en langue étrangère, 1960).

H. LEFEBVRE, Pour connaître la pensée de Lénine (Paris, Bordas, 1957).

الامبراطورية الألمانية

A. DEMANGEON, L'Empire britannique. Etude de géographie coloniale (Paris, Colin, 1923).

J. J. CHEVALLIER, L'évolution de l'Empire britannique, 2 vol. (Paris, Ed. Internationales, 1930).

J. MAGAN DE BORNIER, L'Empire britannique, son évolution politique et constitutionnelle (Paris, Mecheleink, 1930).

H. GRIMAL, Histoire du Commonwealth britannique (Paris, P.U.F., 1962).

R. RUMILLY, Histoire du Canada (Paris, La Clé d'Or, 1951).

- J. A. LESOURD, *L'Union sud-africaine* (Paris, P.U.F., 1963).
 A. W. JOSE, *Histoire de l'Australie* (Paris, Payot, 1930).
 A. HUETZ DE LEMPS, *Australie et Nouvelle Zélande* (Paris, P.U.F., 1954).

اميركا

- P. CHAUNU, *l'Amérique et les Amériques* (Paris, Colin, 1964).
 Ch. B. CLOUGH, *Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique depuis la guerre de Sécession* (Paris, P.U.F., 1953).
 H. U. FAULKNER, *Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique* (Paris, P.U.F., 1958, 2 vol.).
 J. NERE, *La guerre de Sécession* (Paris, P.U.F., 1961).
 M. J. BUTCHER, *Les noirs dans la civilisation américaine* (Paris, 1958).
 F. L. SCHDELL, *Histoire de la race noire aux Etats-Unis du XVII^e à nos jours* (Paris, Payot, 1959).
 O. W. LARKIN, *L'art et la vie en Amérique* (Paris, Plon, 1952).
 H. S. COMMAGER, *L'esprit américain* (Paris, P.U.F., 1965).
 P. CHAUNU, *Histoire de l'Amérique latine* (Paris, P.U.F., 1964).
 A. SIEGFRIED, *Amérique latine* (Paris, Colin, 1934).
 R. S. COTTERIL, *Histoire des Amériques* (Paris, Payot, 1946).
 V. ALBA, *Le mouvement ouvrier en Amérique latine* (Paris, Ed. Ouvrières, 1953).
 G. FREYRE, *Maître et esclaves* (Paris, Gallimard, 1952).
 P. MONBEIG, *Le Brésil* (Paris, P.U.F., 1954).
 Ch. MORAZE, *Les trois âges du Brésil. Essai de politique* (Paris, Colin, 1954).
 J. TOUCHARD, *La République argentine* (Paris, P.U.F., 1952).
 Ch. AUBRUN, *L'Amérique centrale* (Paris, P.U.F., 1952).
 F. WEYMULLER, *Histoire du Mexique* (Paris, P.U.F., 1954).
 E. PEPIN, *Le panaméricanisme* (Paris, Colin, 1938).

العالم الاسلامي

- H. MASSE, *L'Islam* (Paris, Colin, 1930).
 L. GARDET, *La Cité musulmane: Vie sociale et politique* (Paris, 1954).
 L. STRODDARD, *Le nouveau monde de l'Islam* (Paris, Payot, 1923).
 X. DE PLANHOL, *Le monde islamique. Essai de géographie religieuse* (Paris, P.U.F., 1957).
 G. NIGEON, *Manuel d'art musulman*, 2 vol. (Paris, Picard, 1927).
 R. FURON, *La Perse* (Paris, Payot, 1938).
 R. DOLLOT, *L'Iran, Perse et Arghanistan* (Paris, Payot, 1951).
 G. HANOTAUX, *Histoire de la nation égyptienne*, t. VI-VII (Paris, 1935-36).
 M. CHRETIEN, *Histoire de l'Egypte moderne* (Paris, P.U.F., 1951).
 Ch. A. JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord* (Paris, Payot, 1952).

- Ch. A. JULIEN, *Histoire de l'Algérie contemporaine* (Paris, P.U.F., 1964).
 J. KLEIN, *La Tunisie* (Paris, P.U.F., 1949).
 J. GANIAGE, *Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861 - 1881* (Paris, P.U.F., 1959, thèse).
 E. F. GAUTIER, *Un siècle de colonisation : Etude au microscope* (Paris, Alcan, 1930).
 A. AYACHE, *Le Maroc* (Ed. sociales, 1966).
 R. MONTAGNE, *La civilisation du désert* (Paris, Gallimard, 1946).
 R. CAPOT-REY, *Le Sahara français* (Paris, P.U.F., 1953).
 V. MONTEIL, *Les musulmans soviétiques* (Paris, Ed. du Seuil, 1957).
 J. P. ALEM, *L'Arménie* (Paris, P.U.F., 1959).
 E. E. RAMSAUR, *The Young Turks. Prelude to the révolution of 1908* (Princeton, University Press, 1957).

اسرائيل والحركة الصهيونية

- C. ROTH, *Histoire du peuple juif* (Paris, Ed. de la terre retournée, 1948).
 A. CHOURAQUI, *L'Etat d'Israël* (Paris, P.U.F., 1955).
 J. COHEN, *Le mouvement sioniste* (Paris, Ed. de la terre retournée, 1946).
 A. CHOURAQUI, *Théodore Herzl inventeur de l'Etat d'Israël* (Paris, Ed. du Seuil, 1960).
 Chaim WEIZMANN, *Naissance d'Israël* (Paris, Gallimard, 1957).

افريقيا السوداء وعالم ما بين خطي الجدي والسرطان

- P. GOUROU, *Les pays tropicaux*, (Paris, P.U.F., 1941).
 H. LABOURET, *Histoire des noirs d'Afrique* (Paris, P.U.F., 1946).
 R. CORNEVIN, *Histoire des peuples de d'Afrique noire* (Paris, Berger-Levrault, 1960).
 R. CORNEVIN, *Histoire du Togo* (Paris, Berger-Levrault, 1959).
 R. CORNEVIN, *Histoire du Dahomey* (Paris, P.U.F., 1965).
 D. PAULME, *Les civilisations africaines* (Paris, P.U.F., 1953).
 H. DESCHAMPS, *L'éveil politique africain* (Paris, P.U.F., 1952).
 RICHARD-MOLARD, *L'Afrique occidentale française* (Paris, Berger-Levrault, 2ème éd., 1952).
 H. DESCHAMPS, *Les religions de l'Afrique noire* (Paris, P.U.F., 1960).
 E. REVERT, *Les Antilles* (Paris, Colin, 1954).
 A. YOU, *Madagascar, Colonie française* (Paris, Société d'Editions géographiques, 1931).
 H. DESCHAMPS, *Histoire de Madagascar* (Paris, Berger-Levrault, 1960).
 A. TOUSSAINT, *Histoire de l'Océan Indien* (Paris, P.U.F., 1961).
 Ch. A. JULIEN, *Histoire de l'Océanie* (Paris, P.U.F., 1942).
 D. L. OLIVER, *Les îles du Pacifique. L'Océanie des temps modernes à nos jours* (Paris, Payot, 1952).

آسيا : الهند والشرق الأقصى

- P. MEILE, Histoire de l'Inde (Paris, P.U.F., 1951).
- R. PALME DUTT, L'Inde d'aujourd'hui et de demain (Paris, Ed., sociales, 1957).
- M. K. GANDHI, Expériences de vérité ou autobiographie (Paris, P. U. F., 1950).
- Ch. ROBEQUAIN, Le monde malais (Paris, Payot, 1946).
- J. BRUHAT, Histoire de l'Indonésie (Paris, P.U.F., 1958).
- LE THANH-KHOI, Histoire de l'Asie du Sud-Est (Paris, P.U.F., 1959).
- P. FISTIE, Singapour et la Malaisie (Paris, P.U.F., 1960).
- GONNARD, La colonisation hollandaise à Java (Paris, Thèse, 1905).
- E. DENNERY, Foules d'Asie (Paris, Colin, 1930).
- P. GOUROU, La terre et l'homme en Extrême-Orient (Paris, Colin, 1947).
- P. RENOUVIN, La question d'Extrême-Orient (Paris, Hachette, 1946).
- A. MASSON, Histoire de l'Indochine (Paris, P.U.F., 1950).
- A. MASSON, Histoire du Vietnam (Paris, P.U.F., 1960).
- LE THANH-KHOI, Viet-nam, histoire et civilisation (Paris, Ed. de Minuit, 1955).
- A. DAUPHIN-MEUNIER, Histoire du Cambodge (Paris, P.U.F., 1961).
- A. DUBOSCQ, l'évolution de la Chine (Paris, Bossard 1921).
- E. HOVELACQUE, La Chine, (Paris, Flammarion, 1923).
- G. MASPERO, La Chine, 2vol. (Paris, Flammarion, 1923).
- G. MASPERO, La Chine, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1925).
- R. GROUSSET, Histoire de la Chine (Paris, A. Fayard, 1946).
- G. DUBARBIER, Histoire de la Chine moderne (Paris, P.U.F., 1949).
- LA MAZELIERE, Histoire du Japon, t. III, IV, V (Paris, Plon, 1906).
- R. BERSIHAND, Histoire du Japon des origines à nos jours (Paris, Payot, 1959).
- F. LEGER, Les influences occidentales dans la révolution de l'Orient: Inde-Malaisie-Chine, 1850-1950 (Paris, Plon, 1955).
- S. SCHRAM et H. CARRERE D'ENCAUSSE, Le marxisme et l'Asie, 1853-1964 (Paris, Colin, 1965).
- K. M. PANNIKKAR, L'Asie et la domination occidentale du XV^e siècle à nos jours (Paris, Ed. du Seuil, 1956).
- L. AUBERT, Les maîtres de l'estampe japonaise (Paris, Colin, 1922).
- G. WILLOQUET, Histoire des Philippines (Paris, P.U.F., 1961).

مراجع عربية

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنسية رأيت « دار منشورات عويدات » في بيروت تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر الاختصاصي بفن المكتبات والخبر العالمي بالبيبلوغرافيا الشرقية والتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية إعداد قائمة ببليوغرافية ، بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالمين ١٨١٥ - ١٩١٤ وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللعاملين في مجالاته في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فمسي ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يقفي بعض الشيء عن جهد التقصي والتقييم .

اوروبا — التاريخ الحديث

حداد ، جورج مرعي — تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة ١٧٨٩ - ١٨٤٨
حلب المطبعة الوطنية ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص ، مع صور - خريطة .

رايتنكر ، انطون — الوجه الاقتصادي لاوروبا ، ترجمة جابر عمر - بغداد ، دار المعرفة ١٩٥٢ ، ٣٢٣ ص .

شكري ، محمد فؤاد — الصراع بين البورجوازية والاقطاع (١٧٨٩ - ١٨٤٨) ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٣ مجلدات .

الفلكي ، محمود صالح — التكتلات الاقتصادية الغربية : نشأتها ، انظمتها ، اغراضها المباشرة ، اهدافها البعيدة - القاهرة ، دار النشر للجامعات المصرية ١٩٦٢ ، ١٢١ ص ، مراجع ص ١١٧ .

فيشر ، هيربرت ألبرت لورنس - تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم
 ووديع الضبع - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١ ، ٦٦٩ ص - خرائط .

قاسم ، محمد - تاريخ القرن التاسع عشر وما يليه من حوادث حتى نهاية الحرب العظمى -
 القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، ٣٥٦ ص ، صور ، خرائط .

هيروفييل ، هوبير - اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط . ترجمة نهاد رضا - بيروت ،
 منشورات عويدات ١٩٦١ ، ١٨٧ ص .

قاسم ، احمد واحد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث والمعاصر - القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١
 ٢٥٦ ص - صور ، خرائط .

هيز ، كارلتون جوزف - الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي - بغداد ، مكتبة
 المثني ، ١٩٥٠ ، ٢١٩ ص .

روسيا

أنور الكيراي ، يوسف - كارثة القرم الاسلامية في الاتحاد السوفياتي - القاهرة ، مطبعة
 الصاوي ، ١٩٥٠ ، ١٨٢ - خرائط .

سلم قيعين - سياحة في روسيا - مصر .

نخلة قلقاط - تاريخ روسيا الحديث - بيروت ، ١٨٨٦ - ١٨٨٨ ، في اربعة اجزاء .

امين الشميل - الوافي : فصل في تاريخ المسألة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب العثمانية
 الروسية سنة ١٨٧٧ ، في كتابين يقعان معا في ٦ أجزاء ، طبع اثنان منها فقط .

حقي العظم - دفاع بلغنا (في حرب الروس مع الدولة العثمانية) سنة ١٨٧٨ دمشق ، مطبعة
 الترتي ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) ١٤٣ ص مع خريطة .

المقتطف - دولة الروس أو ثلثائة سنة على بيت رومانوف ، مجلد ٤٢ (١٩١٣) ، ص ٣١٣
 و ٤٧٦ ، و ٥٦٨ .

البلقان - تركيا - الحرب البلقانية - اليونان

ابن حبيب ، الحسن - دوة الاسلاك في دولة الاتراك - دمشق ١٩٦٧ مجلدان .

الايام ، جريدة (يوسف نعمان معلوف) ، اسرار يلدز او المقد الثمين في تاريخ اربعة سلاطين
 نيويورك ، مطبعة الايام ، ١٩٠٠ ، ٣٣٧ ص مع صور .

بيهم ، محمد جميل - العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . دراسة تستعرض دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة - بيروت المطبعة الوطنية ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ .

... فلسفة التاريخ العثماني - بيروت ، مطبعة صادر ، ١٩٢٥ - ١٩٥٤ ، مجلدان .
جودت ، احمد - تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدقا - بيروت ، مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨ هـ .

جيافاكوليس ، ثيودور - اليونان : شعبها وارضها . ترجمة محمد امين رستم - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

المقاد ، سليم - تاريخ الحرب البلقانية المصورتين الدولة العثمانية ودول الاتحاد البلقاني - القاهرة مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .

حليم ، اهم - التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية - القاهرة ، مطبعة ديوان عموم الاوقاف ١٩٠٥ ، ٢٥٤ ص .

خانكبي ، عزيز - الذكرى المئوية لواقعة نزيب (٢٤ يونيه ١٨٣٩ - ٢٣ يونيه ١٩٢٩ - القاهرة ، ٣٨ صفحة .

دروزة ، محمد عزة - تركيا الحديثة - بيروت ، مطبعة الكشف ١٩٤٦ ، ٣٥٥ صفحة .
البستاني ، يوسف افرام - تاريخ حرب البلقان الاولى بين الدولة العلية والاتحاد البلقاني ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ ، ٢٢٧ صفحة - خريطة - صور .

الريس ، محمد ضياء الدين - تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير للخلافة (١٧٧٤ - ١٩٢٤) - القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٠ (يشتمل على تاريخ مصر وتركيا والشام والعراق وجزيرة العرب منذ اواخر القرن الثامن عشر الى العصر الحاضر) .

ساسون ، عزرا صموئيل - تاريخ مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية - الاسكندرية مطبعة جرجي غرزوزي ، ١٩١٠ ، ١٠٤ صفحات .

شاكر ، علي - القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان - القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ . ١٩٤ ص .

صفوت ، محمد مصطفى - مؤتمر برلين ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية - القاهرة ، معهد الدراسات العربية العلية ، ١٩٥٧ .

... محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس - القاهرة ، معهد الدراسات العربية العلية ١٩٥٨ ، ٦٢ صفحة .

كامل ، مصطفى - المسألة الشرقية - القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٨٩٨ ، ٣٥٢ ص .

إيطاليا - النزاع الإيطالي في الحبشة (١٨٩٥ - ١٨٩٦) مأخوذ عن التقرير الإيطالي المرفوع
إلى عصبة الأمم ، ترجمة رستم درويش - ٣٢ ص .

ألمانيا

جمال الدين ، فوزي - من بسمارك إلى هتلر (لتلاميذ وتلميذات السنة الرابعة بالمدارس
الثانوية بالسودان) . - إدمرمان ، مكتبة الحرية ١٤٠ ص .

المقاد سليم - غليوم الثاني . ترجمته الشخصية والسياسية - القاهرة المطبعة المصرية ،
لا . ت . ١٨٦ ص .

الاستعمار

رياض ، زاهر - استعمار القارة الأفريقية واستغلالها - القاهرة ١٩٦٦ ، ٣٣٣ ص - خرائط
مراجع ص ٣٢٦ - ٣٣٣ .

... استعمار أفريقية - القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، ٤٦١ ص - صور -
خرائط - مع مراجع .

الشهابي الأمير مصطفى - محاضرات في الاستعمار - القاهرة ، معهد الدراسات العربية
المالية ، ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، جزآن .

حربي ، محمد - تاريخ العصر الحديث : مصر . الولايات المتحدة - الاستعمار الأوروبي -
القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص - صور - خرائط .

عبده ، علي إبراهيم - أضواء على المناقشة الدولية في أعالي النيل - القاهرة - الدار القومية
للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ ، ٢٠١ ص مراجع ص ١٩٧ - ٢٠١ .

... المناقشة الدولية في أعالي النيل (١٨٨٠ - ١٩٠٦) - القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ،
١٩٥٨ ، ٣٩٨ ص - خرائط - مراجع ص ٣٨١ .

الغزالي ، محمد - الاستعمار : أحقاد وأطماع - القاهرة ، مكتبة الحانجي ، ١٩٥٧ ، ص
٣١٠ .

فهمي ، عبد العزيز - الاستعمار عدو الشعوب - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ،
١٩٥٣ ، ١٩٢ ص .

لينين ، ف. ا. - الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية ، ترجمة راشد براوي ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ٢٠٨ ص .

محمد ، محمد عوض - الاستعمار والمذاهب الاستعمارية - القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ ، ١٦٤ ص .

نكروما ، كوامي - الاستعمار الجديد ، آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدي القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦ ، ٣١١ ص .

افريقيا

ابو المجد ، صيري - ثورة افريقيا - القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٦٠ ، ٢٩٨ صفحة .
حدان ، جمال - افريقيا الجديدة . دراسة في الجغرافية السياسية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ ، ٤٠٧ ص ، خريطة .

رفلة ، حبيب - الجغرافية السياسية لافريقيا مع دراسة شاملة للدول الافريقية سياسياً واقتصادياً وجغرافياً ؛ طبعة ثانية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ ، ٦٧٢ ص - خرائط .

سافيدج ، كاترين - قصة افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ، ترجمة راشد البراوي - القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ، ٢١٠ صفحات - صور . خرائط .

سمبسون ، انتوني - حول افريقيا . ترجمة احمد حزمة ومحمد الحولي - القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، لا . ت ، ١٩٤ ص

الصقار ، فؤاد محمد - التفرقة العنصرية في افريقيا - القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩١٢ ، ٣٤ صفحة .

طاهر ، احمد - افريقيا في مفترق الطرق - القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ ، ٤٩٩ صفحة .

العقّاد ، صلاح - المغرب العربي والاستعمار الفرنسي الى التحرر القومي - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، لا . ت . مراجع .

عودة ، عبد الملك - السياسة والحكم في افريقيا - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩ ، ٥٧٥ صفحة - مراجع ص ٥٥٧ - ٥٧٥ .

نكروما ، كوامي - الوجدانية : فلسفة وعقيدة للتحرر والتطور خصوصاً بالنسبة للثورة الافريقية ، ترجمة كريم عزقول - بيروت ، ١٩٧٤ ، ٢١٩ ص .

السويس

ابو السعود ، جمال سليمان - قناة السويس : ماضيها وحاضرها ومستقبلها - القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٦ ، ٢٦٥ ص .

براوي ، راشد - المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس - القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٢ ، ٢٣٢ ص .

حرب ، محمد طلعت - قناة السويس - القاهرة ، مطبعة الجريدة ، ١٩١٠ ، ١٤٠ ص .

الحفناوي ، مصطفى - قصة قناة السويس ، القاهرة - مطبعة غيمر ١٩٥٨ - ١٦٥ صفحة مع صور وخرائط .

... قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة - القاهرة ، ١٩٥٢ ، ٣ اجزاء .

خانكي ، عزيز - قناة السويس : نبذة تاريخية ومالية - القاهرة ، المطبعة العصرية ، لا . ت . ٥١ ص .

رشوان ، عبدالله - المركز الدولي لقناة السويس ونظائرها - القاهرة ، مطبعة حجازي ، ١٩٥٠ ، ٤٣١ صفحة .

الشاعر ، يحيى - قناة السويس بين ادارتين . دراسة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، قانونية - بيروت ، الجامعة اللبنانية ١٩٦١ ، ٣٦٣ ورقة - خريطة .

شفيق ، احمد - قناة السويس معجزة القرن التاسع عشر - القاهرة مطبعة حوليات مصر السياسية ، ١٠٣ صفحات .

الشناوي ، عبد العزيز محمد - الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتي قناة السويس وابريد الجديدة - القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٣ ص .

... السخرة في حفر قناة السويس - الاسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٥٨ ، ٣٧٦ ص - خرائط .

شونفيلد ، هيو جوزف - قناة السويس ، ترجمة احمد خاكي - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ١٨٢ ص - خريطة .

صبري ، محمد - كتاب القناة : اسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨ - القاهرة ، دار القاهرة ١٩٥٠ ، ٩٦ ص .

صفوت ، محمد مصطفى - انكلترا وقناة السويس ١٨٥٤ - ١٩٥١ - الاسكندرية مطابع رمسيس ١٩٥٢ .

... مسألة قناة السويس - القاهرة ، دار الشرق ، ١٩٥٧ ، ٣٢٤ ص .

غالي ، بطرس - قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ - ١٩٥٧ - الاسكندرية مطابع البصير ١٩٥٨ ، (نص بالفرنسي والعربي) .

غلاب ، محمد السيد وآخرون - السويس - القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ ، ٣٠٧ ص .

قناة السويس : حقائق ووثائق (مع الاتفاقات والمعاهدات والبيان الثلاثي) - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ٢٨٠ ص - صور .

البحر المتوسط والبحر الاحمر

الجل ، شوقي عطا الله - الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر ١٨٦٣-١٨٧٩ جمعها وحققها ورتبها واعدها للنشر ، مع دراسة تحليلية .. - القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩ ، ٤٣١ ص .

خانكي ، جميل - امراء البحر في الاسطول المصري ، من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مصر ، ١٩٤٧ ، ١١٣ ص ، صور .

... تاريخ البحرية المصرية - القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٨ ، ٩٢ ص ، صور .

رفعت ، محمد - تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية - القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٠ ، ٥١٤ ص - خرائط .

ضرار ، محمد صالح - تاريخ السودان والبحر الاحمر واقاليم البجة - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٦ ، ١٦١ ص - صور .

غزالة ، حبيب ، جزيرة رودوس جغرافيتها وتاريخها وآثارها - القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ٩١ ص مع خرائط وصور .

يحيى ، جلال - سواحل البحر الاحمر - الاسكندرية ، المكتبة الافريقية ١٩٦٥ ، ١٢٨ ص .

الولايات المتحدة الاميركية

برايس ، جيمس - المؤسسات والنظم الاميركية . نظرات تأملية في طبيعتها ، ترجمة أنيس صايغ ، مراجعة ابراهيم داغر ، بيروت الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ٣٧٥ ص .
بنيه ، ستيفن فنسنت - اميركا ، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد - القاهرة ، مكتبة الولايات المتحدة الاميركية للاستعلامات - ١٩٤٥ ، ١٩٠ ص .

- بيرلنجيم ، روجير - آلات صنعت امة ، ترجمة احمد عبد الرحمن حمود - القاهرة ، مكتبة
الاداب . لا ت - ٢٣٢ ص .
- جيمس ، برستون - ملحمة اميركا الشمالية ، ترجمة جورج قاعي - بيروت ، المدرسة
الشرقية لا ت - ٢٠٨ ص .
- الحناوي ، كمال الدين - الاستراتيجية في الحرب الاهلية الاميركية - القاهرة مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٥٠ ، ٢٠٠ ص - خرائط .
- زيادة ، فرحات - تاريخ الشعب الاميركي - برنستون ، مطابع جامعة برنستون ١٩٤٦ ،
٣٤٦ ص - صور - خرائط .
- سيرز ، ارل شليك - حضارة العالم الجديد من عصر الاستكشاف الى عصر الذرة . فصول
تاريخية أسهم في اعدادها ٦٠ استاذاً جامعياً - بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٥٨ ، ٣٨٤ ص ، صور .
صبري ، محمد - تاريخ مصر الحديث ، مصر ، الولايات المتحدة - الاستعمار الاوروبي -
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص - صور خرائط .
- صروف ، فؤاد - مشاهد العالم الجديد - القاهرة ، مكتبة العرب ١٩٣٥ ، ١٦١ ص .
فؤاد ، احمد عبد المجيد - امريكا في الشرق الاوسط - القاهرة ١٩٥٤ .
- ليسني ، دان - الثورة الاميركية : دوافعها ، مغزاها ، ترجمة سامي ناشد - القاهرة ،
مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ مجلدان .
- ماير ، فكتور - معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجيار - القاهرة ، دار النهضة العربية
١٩٦٢ .
- هاملتن ، الكسندر - الدولة الاتحادية : اسسها ، دستورها ، ترجمة جمال محمد احمد
بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ ، ٦٨٨ ص .
- كوسولاس ، ديمتري - مفتاح التقدم الاقتصادي ، ترجمة محمد ماهر نور - القاهرة ، دار
الفكر العربي ، لا ت ١٣٢ ص .
- كويل ، دافيد - النظام السياسي في الولايات المتحدة ، ترجمة توفيق حبيب - القاهرة ،
مكتبة الحانجي ١٩٥٢ ، ٣٢٠ ص .
- كلار ، شيبارد - الاساس الاقتصادي للحضارة الاميركية ، ترجمة احمد حلمي حجاج -
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ ، ١٩٩ ص .
- ويرنت ، جون فيليب - الرخاء بدون تضخم . ترجمة حسن عمر ، القاهرة ، مكتبة
القاهرة الحديثة ، لا ت ، ١٨٠ ص .

جدول زمني مقارن

١٨١٥ — ١٩١٤

- ١٨١٥ — اختتام مؤتمر فيينا . نهاية نابليون . الحلف المقدس
- ١٨١٦ — قصف مدينة الجزائر وطرابلس الغرب تأسيس جمعية ارساليات فرنسا ورهبانية اوبلات مريم بلا دنس والجمعية المريمية . الدكتور لابنك يدشن طريقة الفحص بالقرع — هولر يضع كتابه : تجديد العلوم السياسية . ماجندي يضع : مختصر الفسيولوجيا — غريلبرزر يؤلف روايته : الجدة وهوفمان ، رحيق الشيطان ، وروسيني : حلاق اشبيليا .
- ١٨١٧ — تحرير الشيلي — الشروع بأعمال ترعة بحيرة ايريه — اختراع البارون درايس للدراجة المسماة باسمه : « درايسينية » — اسرة روتشيلد تقيم في باريس — ريكاردو يضع كتابه : مبادئ الاقتصاد السياسي — وكارل ريتز كتابه : الجغرافيا — وستيلر : هنداتلاس — لامنيه يضع كتابه : محاولة حول اللامبالاة في امور الدين — وت. مور : لالا دوح .
- ١٨١٨ — وافدة التيفوس في اوروبه — اختراع الستركنين — فيكا-يتوصل لصنع صنف من الاسمنت يشبه الاسمنت المسلح — جيفروا سانتا هيلار ينشر كتابه : فلسفة على التثريح — وكيتس ينشر : انديميون — وشيلي : ثورة الاسلام — تأسيس اكاديمية الفنون الجميلة في هافانا على يد ج.ه. فرماي احد تلاميذ دافيد .
- ١٨١٩ — تأسيس جمهورية كولمبيا — احتلال البريطانيين لمدينة سنغافورا — المجاعة فتك في شمالي غربي الهند — بدء العمل بالاتحاد الجمركي الالماني Zollverein — اول سفينة تجارية لاسافانا تقطع المحيط الاطلسي — تأسيس جمعية مرسلين بال — تأسيس شتاين جمعية دراسة التاريخ الالماني — شوينهوير ينشر كتابه : العالم بين التصميم وبين التحيز — جوزف دي مستر يضع كتابه : حول البابا — و.سكوت ينشر روايته : ايفنهو — و غريلبرزر : صافو — وجيريكو : طوف المدوزا — وثورنفلدس : اسد لوسرن .
- ١٨٢٠ — دخول جمعية الفحاميين فرنسا — اتفاق ميسوري — مذكرات ماك آدم التقنية — فيربون يضع نولا جديدا للحياكة — وتوماس الارثوميتير — اختراع دي لارو لاول مصباح للانارة — اورستد وآمبر يكتشفان المظاهر الكهرودينامية وادافو يتوصل الى توليد المغنطيسية من الكهرباء — هكمان يقوم بأول محاولة للتخدير في الطب — المرسل والعالم الهندي كاراي ينشئ

مؤسسة تعنى بدراس المدنيات الهندية والاوروبية دراسة مقارنة -
لامارتين يضع : تأملات شعرية - وشلي : بروموتيه محررا - و. و. ارفنغ :
كتاب الرسوم - ولامب : محاولات ايليا .

١٨٢١ - ثورة اليونان - استقلال البيرو وتحرير فنزويلا - موت نابليون في جزيرة
سانت هيلين - البابا بيوس السابع يحرم جمعية الفحامين - فريسنل
يشرح نظرية موجات النور وسيبيك يكتشف الكهرباء الحرارية -
تأسيس معهد الوثائق (مدرسة الشارت) والجمعية الجغرافية الباريسية
- سان سيمون يضع كتابه : النظام الصناعي - منزوني يضع كتابه :
الخامس من شهر مايو - و. مولر يضع كتابه : اغاني الاغريق - ت .
كونسي يضع كتابه : اعترافات آكل الافيون - كونستابل يضع روايته :
عربة التين تحتار المخاضة - ويبر يضع : الفريشلتز .

١٨٢٢ - استقلال البرازيل وتحرير الاكوادور - اتجاه انكلترا الليبرالي في الامور
الاقتصادية - المجاعة في ايرلندا - تأسيس الجمعية العاملة لتنشيط
الصناعة الوطنية في البلاد الواطية - تأسيس مجمع انتشار الايمان -
شمبليون ينفك رموز الخط الهيروغليفي - اول اجتماع تعقده جمعية
علماء اللغة الالمانية - ج.ب. فورييه يضع كتابه : النظرية التحليلية
للحرارة - بوشكين يضع روايته : اسير القنقاس - ديلاكروا ينشر روايته :
قارب دانتة - بيتهوفن يضع كحنه : قداديس على مفتاح ر - وشوبرت
يضع : السنفونيا غير المنجزة .

١٨٢٣ - رسالة الرئيس مونرو - شركة للملاحة البخارية على الفولفا - اول
منارة دوارة تعمل بعدسة - ليس يشير الى مبادئ التصوير الفوتوغرافي
- متشيفتش يضع ديوانه : اغان وانايد - بيتهوفن يضع : السمفونية
التاسعة مع القورس .

١٨٢٤ - هزيمة اسبانيا عند اياكوشو (البيرو) - المجاعة في الدكن الهند -
تأسيس جمعية المرسلين الانجيليين في باريس - سادي كارنو يضع
كتابه : تأملات حول قوة النار المحركة - كولار يضع : ابنة سلافا -
وغريلبرزر : اوتوكار - اول معرض بريطاني في صالة بارس - افتتاح
النايشنال غاليري - ديلاكروا يضع : مذابح اسبو .

١٨٢٥ - بناء الخط الحديدي بين ستوكتن ودربلنتن باشراف ستيفنسن - رحلة
الانترا برايز باتجاه كلكوتا - روبرتس يخترع النول المتحرك ذاتيا في حياكة
القطن - شغروي وغاي لوساك يخترعان الشمعة المصنوعة من الستيارين -
اولى منشورات اوغست كونت - ماكولي يضع كتابه : محاولات -
اتربون يضع : جزيرة السعادة - تيجر : ساغافريتوف - جوزي ماري
دي هيريديا : اشعار - دافيد دانجيه : قبر الجنرال فوا

١٨٢٦ - مؤتمر بناما - البريطانيون يغزون اسام - اول رحلة للسفينة رد روفر
بين كلكوتا وهونغ كونغ - البابا ليون الثاني عشر يحرم الماسونية ببرامته
الرسولية - اولى مذكرات آبل - مذكرة لوبتشفسكي حول الهندسة
الالائية - الموسوعة الجرمانية التاريخية - هابن يضع : ديزبلندر -
ليوباردي يضع : فرسي - ف. كوبر يضع : آخر الوهيكان - بلو يضع :
غابات المنطقة الحارة - بيتهوفن يضع : الرباعيات الاخيرة .

١٨٢٧ - موقعة نافارين البحرية - سيفن يخترع الرجل الانبوبي - مرغل بركنز -
فورنيرون يضع اول طوربين مائية - وهلمر يحلل عناصر الماء لأول مرة -
اوهم يضع قانونه المعروف - رحلة رينه كاينه - هوغو يضع : مقدمة
كرومويل - منزوني يضع : الخطيبان - فيروس مارتي يضع : الوادي
المسحور - انغر يضع رسمه المشهور : تاليه هوميروس .

١٨٢٨ - تحرير المشاقين في انكلترا - تأسيس حزب العمال في فيلادلفيا - رحلات
منتظمة تقوم بها سفينة رد روفر بين ليفربول ونيويورك - وهلمر يتوصل
لأول مرة الى صنع البول التآليفي - محاضرات فيزو حول تاريخ الحضارة
الاوروبية في كلية فرنسا - اول كونسرتو كشويين في فيينا - اويرر يضع :
Muette Vos بورتيسي

١٨٢٩ - تحرير الكاثوليك في انكلترا - عودة التيفوس الى اوروبا من جديد - اوني
يؤسس مستعمرة نيوهوموني - ستيفنسن يضع قاطرته : الصاروخ -
برايل يخترع كتابته النافرة للعبان - انطوان بيكريل يضع او بطارية
(او حاشدة كهربائية) - هوغو يضع ديوانه الموسوم : الشرقيات -
روسيني يضع روايته : وليم تل .

١٨٣٠ - استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر - فتن وثورات في اوروبا - استقلال
بلجكا - تأسيس شركة استراليا الجنوبية - ظهور وباء الكهضة في
اوروبا - بناء الخط الحديدي بين منشستر وليفربول - باركورتيس
ومادللي يخترعان النول الدائم الحركة - تيمونه يخترع ماكينة الخياطة
- كوشي يصوب نظرية المتغيرة الخيالية ووظائفها - تخانة التشريح
المقارن : كوفييه ضد جوفروا سانت هيلار - كونت يضع : دروس
الفلسفة الوضعية - معركة هرناني - ستاندال يضع : الاحمر والاسود -
فرجلاند يضع : الخليفة والانسان والمسيح - ديلاكروا يضع : الاستحكام
او الحرية تقود الشعب كارو يضع : كاندرايئة شارتر - بريووز
يضع : السفونية الغريبة .

١٨٣١ - كبح الثورة البولونية - ماذني يؤسس : ايطاليا الفتاة - عمال الحرير
يثورون في مدينة ليون - المجاعة في ايرلندا وفي روسيا - محرر غاريسون -
دال نفرو ينشئ اول محرك كهربائي كما يخترع مالك كورميك اول
حاصدة ميكانيكية - اكتشاف الكلوروفورم على يد كيبغ وسوبران -
اكتشاف فرادي لتأثير Induction رحلة دارون البحرية على ظهر
السفينة بيكل - تأسيس الجمعية البريطانية لترقية العلوم وتطويرها -
ميشليه يضع : المدخل الى التاريخ الصام - بوشكين يضع : يوجين
اونيغين - دوميه يضع : غرنتوا - ومير بير يضع روايته : روبرت
العفريت .

١٨٣٢ - اعادة تنظيم الرهبانية البندكتية على يد غيرانجية - براءة Mirari Vos
للبابا غريغوريوس السادس عشر - اختراع سقاج للدفاش - قالوا
يخلف لنا قبل وقاعة نظرية الفئات - دولاي يهاجم هندسة اوكليدس -
لينو يضع ديوانه : قصائد - متشيافتش يضع كتاب : الامة البولونية -
سلفيو بليكو يضع : سجون - رونبرغ يضع روايته صيادو . . . -
ا . كلدرون يضع : مشاهد اندلسية - لار يضع روايته : رسائل المهتر

المسكين .

١٨٣٣ - المجاعة في الدكن الهند - بدء حركة كسفورد - طلائع جمعية القديس منصور دي بول - قانون غيزو بشأن التعليم الابتدائي - إلغاء الرق في المستعمرات الانكليزية - اوين يضع كتابه الاتحاد العمالي - وجريدة « الشمس » بنحاستين - التلفراف الكهرومغناطيسي اختراع غوس ووير - وايفيلد يضع : انكلترا واميركا - ليال : مبادئ اولية في علم طبقات الارض - غوته : فوست الثاني - بلزاك : اوجين غرانديه - انغر : رسم برتن البكر جورج سنو يستعمل لأول مرة في واشنطن : اولى الصفات المدنية

١٨٣٤ - فتن في باريس وليون - قانون الفقراء في انكلترا - الاتحاد الوطني للعمال في الولايات المتحدة - اول تريك عند البويرز - ج.ب. دوماس يكتشف روح الخشب (الكحول المتبلي) - جاكوب بركنز يخترع طريقة للحصول على البرد الصناعي - اختراع صباغ الانيلين على يد رونج ، من نظران النجم - لامنيه يضع كتابه كلمات مؤمن - متشيفتش يضع كتابه : السيد ثاديه - وغوغل يضع : طاراس بولبا - ودوميه : شلوع ترانسونان .

١٨٣٥ - اسبانيا ترسخ لقانون الزبارة - الاتراك في طرابلس الغرب - فرغانة تتحرر من حماية الصين ووصايتها - تأسيس وكالة تاس للانباء - غوردون بنيت يصدر جريدة نيويورك هيرلد - اختراع اول سكة من الفولاذ في الولايات المتحدة الاميركية - مورس يجري اول تجربة للتلفراف البرقي - برو يخترع جهازا للطباعة على القماش يحمل اسم « بروتين » د . ستراوس يضع كتابه : حياة يسوع - تكفيل ينشر كتابه : الديمقراطية في اميركا - واندرسن : قصص وحكايات - ولونروت يضع روايته : كالفالا - وكرانسكي : الكوميديا غير الالهية - وف . هالفي يضع رقصة اليهودية .

١٨٣٦ - جكسون يعارض انشاء البنك المركزي - تأسيس شركة شنيدر وشركاه - تومسن يضع : دليل متحف كوبنهاغن - فاج يصدر : الفازبة الوطنية الالمانية - تأسيس جريدتي : الصحافة والعصر - دكنز يضع روايته : اوراق بكويك - بلاتشكي يضع : تاريخ بوهيميا - توتشيف ينشر : قصائد مرسله من المانيا .

١٨٣٧ - اضطرابات في كندا - ثورة ضد متسوي في اليابان - المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند - رحلة دومون دورفيل الى انتاركتيك - تدشين خط سان جرمين آن لاي - تأسيس جمعية الجبل القديم - جاكوبي يحقق عملية الغلفنة - مورس ، ستاينهل و ويتستون براءة اختراع التلفراف البرقي - شاسل يضع كتابه : لمحة تاريخية في اصول طرائق الهندسة وطورها - ميشليه يضع كتابه : تاريخ الثورة - ولامنيه كتابه : سفر الشعب - كاريل : الثورة الفرنسية - وتشافاريك : تاريخ الصقالبه القديم .

١٨٣٨ - بدء اضطرابات الموثقين - كوبدن يؤسس رابطة القانون المضاد لزراعة اللرة - بريطانيا العظمى تستولي على مدن - المجاعة في بمباي - رحلات السيروس والفرايت وسترن - اختراع هول السطحي واختراع

ناسمث وفرنسوا بوردون للمطرقة - بسسل يقيس لاول مرة بعد النجمة
عن الارض - شيلدن يطلع بنظرية الخلايا النباتية - اولى ابصحات
بوشيه دي برث حول عصور ما قبل التاريخ - دافد دانجيه يضع كتابه :
هوغو - وس . روح : نصب دورر في نورمبرغ .

١٨٣٩ - خطة دورهام في كندا - عهد الاصلاح في اليابان - انشاء البريد البري
نحو الهند - غودير يحقق كلفة المطاط - ارافو يعرف باول صصور
فوطوغرافية على طريقة داغر - مؤتمر بيزا العلمي - لويس بلان ينشر
كتابته حول تنظيم العمل - وانجاس : رسائل من وادي وبير - ورائك :
المانيا في عصر الاصلاح الديني - وستاندال : لاشارتروز دي بارما -
ولفنالو : هيريون وليمونتوف : الشيطان .

١٨٤٠ - الحكم الذاتي لكندا - تأسيس حزب يطالب بالغاء الرق في الولايات
المتحدة الاميركية - حرب الافيون - البريطانيون يستولون على زيلاندا
الجديدة - ازدهار النخاسة في زنجبار - طلائع رواج لغوانو - ظهور
فولاذ « بول » - تأسيس خط كونارد - اول بندقية اميركية متعددة
الطلقات - استعمال الطابع البريدي في انكلترا - لفرنسنت يشرع برحلته
الاستكشافية - كايه يضع قصة : رحلة الى ايكاريا - وبرودون كتابه :
ما هي الملكية - وليبيغ : الكيمياء المطبقة على الزراعة - وسانت بوف :
بورت رويال - وموسيه : الليالي - وغريلبنذر : دير تروم ، ابن لوين -
واندرسن : كتاب رسوم بدون رسوم - وقت : البشيون الشعري -
وشومان : ليدر .

١٨٤٢ - معاهدة نانكين - البريطانيون يحتلون هونغ كونغ - دستور ولاية نوفيل
نقابة المعدنين في انكلترا - تأسيس الـ Punch - تأسيس توماس
كول لاول وكالة للسفر - قانون جول - ليست يضع كتابه : النظام
الوطني للاقتصاد السياسي - وفيغرياخ : كنه المسيحية - وامرسن :
محاولات - وغوغول : النفوس المائتة .

١٨٤٢ - معاهدة نانكين - البريطانيون يحتلون هونغ كونغ - دستور ولاية نوفيل
غال الجنوب (استراليا) - صدور جريدة لندن الصورة الاخبارية - لوز
يحصل على شهادة اختراع صنع السوبر فوسفات - رينوفيه يضع
كتابته : دليل الفلسفة العصرية - وسو : اسرار باريس .

١٨٤٣ - استيلاء الفرنسيين على مقر عبد الكريم - البريطانيون في ناتال - تريك
البويرز الجديد - ظهور الدعوة السنوسية - بدء دعوة الباب - لاكوردير
بعيد النشاط الى الرهبنة الدومنيكية - غربور يضع اول آلة كتابة - بدء
استخدام صمغ المطاط في الصناعة - بوتان يقوم بحفريات في خرسباد -
مذكرة ش. هرميت حول الدالة الاهليجية - مول يكتشف بروتوبلازما
الدم - كيركيفارد يضع كتابه : اما . . . واما - وج . س . مل يضع كتابه :
المنطق - وماكولي : محاولات في النقد والتاريخ - وجيوبوتي : اولية
الاطاليين المدنية والادبية - ورسكن يضع : المجلد الاول من رسامي
العصر - وهوغو : البرغراف - وبو ينشر : الجعل الذهبي - وواغر :
السفينة الشبح - المهندس لايروست يباشر بناء مكتبة سانت جنتيفاف
في باريس .

١٨٤٤ - ثورة عمال النسيج في سيليزيا - تعاونية « الرواد المدول » في روشدايل - مزيني يؤسس أوروبا الفتاة - كلر يخترع الورق المأخوذ من رب الخشب كما يخترع غالواي اللينولايوم - مورس يصل واشنطن ببلطيمور هاتفيا بعد ان اخترع لويس بريغيه جهازا له وجه ساعة - ظهور بندقية درايز التي تشحن من المؤخرة - لاسن يباشر باصدار : تاريخ الهند - توسل يضع كتابه : اليهود ملوك مصر - وكارليل : الماضي والحاضر - بيتوفي ينشر ديوانه : قصائد - وطوبغر يصدر كتابه : اسفار معوجة - و١. أوجيه : الشوكران - واسكندر دوماس : الفرسان الثلاثة .

١٨٤٥ - المجاعة في ايرلندا - انكلترا تولي اليهود حق الانتخاب - هلمان يخترع مشطا ميكانيكيا - ارساء كابل تحت نهر الهدسون - رحلة السفينة Chipper Rainbow - هو يدخل تحسينات هامة على آلة الخياطة - وليم بارسونز دي روس يكتشف لأول مرة مجرة حلزونية الشكل - ا. دي همبولدت يصدر كتابه : الكسموس (الكون) - و م. سترنر : الوحيد وخاصيته - و ف. أنجلر : اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا - ذرائيلي . سبيل - و واغتر : لوهنغرين .

١٨٤٦ - المجاعة والازمة تلم بأوروبا - الفاء الرسوم المفروضة على القمح في انكلترا - ظهورات العدراء في ساليث - الصين تتساهل مع الكاثوليك - اعمال اركسون في قناة ترولهارتن - هو يدخل الاسطوانة المتحركة على الطباعة في فيلادلفيا - رايت يخترع القوس الكهربائي - زايس ينشئ مصنعها للأجزاء البصرية في آينبا - لوفرنيه يكتشف الكوكب عطارد بطريقة حسابية - قانون ويبر الخاص بعلم النفس - برودون يضع كتابه : نظام المتضادات الاقتصادية - ماركس ينشر كتابه : يؤس الفلسفة - هرزن : جلي من الذنب ؟ - وهالميس : الفلسفة الأساسية - وميشليه : حول الشعب - ومريميه : كارمن - وجورج صاند : مستنقع الشيطان - تأسيس المدرسة الفرنسية في آينبا - وبرليوز : هلاك فوسبت .

١٨٤٧ - المجاعة والازمة والطاعون في أوروبا - ظهور آفة ارمداد الكرمة - اكتشاف الذهب في كاليفورنيا - الروس يدخلون فرغانة - المؤتمر الدولي العمالي في لندن - مذكرة يضعها سمبسن حول خصائص الكلوروفورم المخدرة - كروب يتوصل الى صنع مدفع من الفولاذ - هلمبولتز يصدر كتابه : حول الابقاء على الطاقة - بوشيه دي برث : الانار الكتلية والسابقة للطوفان - ايمرسن : قصائد - ا. بروتنيه : مرتفعات هورليغان - وغوتزكوف : اوربال اكوستا - وارانتي : تولدي - ورود : يقظة نابوليون - متحف التصوير في ميونيخ .

١٨٤٨ - الثورات تنشب في أوروبا - ماركس وانجلس يصدران : بيان الحزب الشيوعي - الانتخاب العام في فرنسا - الفاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية - الفاء رق الارض في أوروبا الوسطى - انتهاء الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك بشأن التكساس - البريطانيون يستولون على البنجاب - جمعية لروح القدس وراهبانية قلب مريم الاقدس - مارينوني يصنع مكبس مجاوبة ذات اربع اسطوانات - صنع الزجاج والاسلحة في اليابان - ويرستراس يضع كتابه : مساهمة في نظرية التكامل الابليانية -

كلود برنار يكتشف عمل الكبد في توليد الفليكوز - ج. س. - على يضع كتابه :
مبادئ الاقتصاد السياسي - وشاتوبريان : مذكرات من وراء القبر -
وثاكراي : معرض الإباطيل - د. س. - روستي يؤسس : الرابطة السابقة
لرفائيل - رافيت : العرض الليلي - وباري : القنطور واللايت .

١٨٤٩ - ردة فعل عامة في أوروبا - القضاء قانون الملاحة في انكلترا - اكتشاف
الذهب في استراليا - المجاعة في الصين - تأسيس اتحاد الكنائس الانجيلية
الحرية في فرنسا - اختبار فيزو حول سرعة التور - دكتور يضع روايته :
دافيد كوبرفيلد - ورسكن : مصابيح الهندسة السبعة - وكوربيه روايته :
مخطو الحجارة .

١٨٥٠ - اتفاق كاليغورنيا - البرازيل يوافق على حق الزيارة - نهاية طريقة فان
دن بوش - إعادة السلطة الدينية الكاثوليكية الى انكلترا - التصديق على
قانون فلو - رحلة بارث الى السودان ، ولنفقستن الى افريقيا الجنوبية
ورحلة مالك كلور الى المعمر الشمالي الغربي - ارساء أول كابل بحري في
مضيق كاليه - انتهاء الأشغال لأقامة الجسر الحديدي فوق مضيق مينيه
وفقا لتصميم روبرت ستيفنسن - مطرقة المعلن لاستخراج الفحم في
المناجم - عرض أول قاطرة بخارية - البيانو الميكانيكي - كبرية الكرم
في مكافحة مرض التعفن - فوكو يخترع المرأة الدوارة والقوس الكهربائي
- بستي يضع كتابه : التناسق الاقتصادي - ا. باريت بروننغ يضع :
أناشيد - وهورن الرسالة الأرجوانية - وكوربيه : الدفن في اورناتس -
- وروستي : البشارة - وميريون : الجسر الصغير - وليست : مازيا .

١٨٥١ - ظهور الكوليرا من جديد في أوروبا - الجوع في روسيا - بدء ثورة التابغ
في الصين - معرض لندن في صالة كريستال بالاس - قانون مباني السكن
في انكلترا - آل بورن يجهزون السفينة حمالاي بالدفاش - أول فرن على
الفاز في المطابخ - بدء الطباعة المتحركة في الطباعة - انشاء وكالة روبرت
للاخبار - اختبار هزاز فوكو - إعادة وهبنة الاوراتوار - حركة وجمية
مضادة للمسيحية في فيتنام - كونت يصدر كتابه : نظام الفلسفة الوضعية
- ملفيل يضع روايته جولي دك - وواغنر : أوبرا ودراما : ورسكن : الحركة
السابقة لرفائيل وحجارة البندقية - فردي يضع روايته : ريغولتو .

١٨٥٢ - اعتراف الإنكليز باستقلال الترانسفال وضمهم البيغو - انزال أول سفينة
ناقلة للفحم الى البحر في انكلترا - أول ترامواي في نيويورك - تدشين
محلات بون مارشيه في باريس - تأسيس مصرف التسليف العقاري
والتسليف على المنقول - فرانكلاند يضع نظرية التكافؤ - ه. سبنسر
يضع كتابه : مبادئ علم النفس - السيدة بيتشر ستو : مفضل المم توم -
ليكونت دي ليل : قصائد قديمة - بوفيل غوتيه يضع كتابه : مصنوعات
المتا والكاميه - تورغنيف : حكاية صياد - اسكندر دوماس الابن : غادة
الكاميليا - ت. روسو : الخروج من غابة فونتنبلو - بلطار : بناء الهال
الوسطى في باريس .

١٨٥٣ - تدخل الأميركيين والروس في اليابان - الفرنسيون يحتلون كاليدونيا
الجديدة - تخطيط لشبكة الخطوط الحديدية في الهند - المجاعة في دكن
الهند وشمالى غربى الهند - هوسمان محافظ مقاطعة السين - ارساء

الكابل البحري في بحر الشمال وقناة الشمال - برونيل يعمل على بناء الخط الحديدي الشرقي - استعمال الفولاذ المذاب - صنع الساعات بالجملة - ب. غراتري يضع : فلسفة معرفة الله - غوينو ينشر كتابه : حول عدم المساواة بين الاجناس البشرية - مومسن يضع كتابه : تاريخ الرومان - جوكاي يصدر روايته : نابات مجري - تامايو يي بوس : فرجينى - الكسندري : دويناس ومضمت - وليست : اغان مجرية .

١٨٥٤ - حرب القرم - فيدهرب حاكم عام على السودان - عقيدة الحبل بلا دنس - تاسيس الارساليات الافريقية في ليون - نفق سمرينغ - اول سفينة معدنية تبنيها شركة كونارد - اول معمل كنسيج القطن يقام في مدينة بمباي - اوتيس يخترع مصعدا يتحرك بالماء - ريمان يصدر كتابه : الفرضيات الاساسية في الهندسة - م. برنلو يضع مبادئ الكيمياء الحرارية - سانت كلير ديفيل يعزل الالومنيوم بواسطة الصوديوم - لينسن يضع روايته : هجوم الكتيبة الخفيفة - جيرار دي نرفال : بنات النار - و. ا. اجويه : صهر السيد بواديه - فيولييه لو ذوك يضع : المعجم الفلسفي للهندسة الفرنسية .

١٨٥٥ - ثورة المسلمين في الصين - هزة ارضية عنيفة في اليابان - المجاعة في روسيا - معرض في قصر الصناعة في باريس - ظهور السفينة الحربية المدرعة - برتلو يتوصل الى اختراع الكحول الصناعي - له بلاى يصدر كتابه : عمال اوروبا - وبوختر : قوة ومادة - تيوفيل غوتيه : رواية المومياء - وفريتاخ : له وعليه - ه. تورو : وولدن - و. هويتمان : قشابير - بيلوتي : جسد ولشتاين - رحلة راشيل في اميركا .

١٨٥٦ - مؤتمر ومعاودة باريس - وافدة التيفوس في الشرق - حملة برنن وسبيك الى بحيرات افريقيا الوسطى - بسمر يعرف المحولة التي اخترعها - لويس شاتليه يبني القرن ذات المصباح - ه. و. بركنز يتوصل لصنع ملون الاتيلين - اكتشاف الامونياك - اكتشاف انسان نيندرثال - ج. كلر يضع روايته : روميو وجولييت في القرية - سلتيكوف تشلشدرين يضع : رسم تقريبي للولاية .

١٨٥٧ - أزمة اقتصادية - ثورة السيباي في الهند - اجراءات لتحسين وضع الفلاح المصري - مباشرة الاشغال في نفق سنيس - اول معمل كنسيج الجوت في البنغال - باستور يضع مذكرة حول الاختمار اللبني - ابحاث كيرتشوف وبنزات حول التحليل الطيفي للنور - هرزت يؤسس الكولوكلول - فلوير يضع روايته : مدام بوفاري - وبودلير ديوانه : ازاهير البشر - وابسن : اولاف للجكرانز - ورايدبرغ : سنغوالا - وكورو : اغنية ريفية - وميليه : اللاقطات .

١٨٥٨ - الغاء شركة الهند الانكليزية - الحملة الفرنسية الانكليزية الى الشرق الاقصى : معاهدة تينسن - الروس ينزلون على ضفة نهر العامور اليميني - قانون المصارف المساهمة في انكلترا - محاولة ارساء كابل بحري في قلب المحيط الاطلسي - ظهورات العذراء في لورد - تاسيس اكاديمية تومية - كيكوله يكتشف الكربون الرباعي التكافؤ - فيرشوف يضع كتابه : دروس حول الباثولوجيا الخلوية - وواغنر يضع : سيففريد .

١٨٥٩ - حرب ايطاليا - احتلال فرنسا لمدينة سايفون - الروس يضعون حدا لمقاومة الزعيم القفقاسي شامل - بدء الاعمال في شق قناة السويس - كوزا كسبودار الامارات الرومانية - فتح اول بشر بتروولية في بنسلانيا - دوريان يبني اول سفينة حربية مدرعة - بلاتيه يخترع المختر الكهربائي - اكتشاف مغارة أورنيك التي تعود الى عصور ما قبل التاريخ - داروث يضع كتابه : اصول الانواع - ماركس : نقد الاقتصاد السياسي - ومسترال : ميراي - ويتسون دي تراسي : انجازات روكبول - وواغنر : تريستان وايزولت - وغونو : فوست .

١٨٦٠ - الحملة الفرنسية على سوريا ولبنان - الحملة الفرنسية الانكليزية على بكين - معاهدة بكين - المعاهدة التجارية بين فرنسا وانكلترا - انحسار النقابات العمالية في انكلترا - تأسيس الالانس الاسرائيلي العام - بناء المتروبولتن في لندن - سبيك وغرانت عند منابع نهر النيل - اختراع الماكينة المركبة ، ومحرك لونوار المفرقح ، وجهاز هونغ الناقل للبرقيات - استخدام الناقية الماسية - قانون فخر في علم النفس - مؤتمر الكيميائيين في كارلزو للوصول الى نظرية مشتركة حول التركيب اللري - م. برتلو يضع كتابه : الكيمياء العضوية المبنية على التاليف - تدشين مسرح الغولي برجير في باريس - لايش يصدر قصته : رحلة السيد بريشون - جورج اليوت : الطاحون على الغلوس - اوسترونسكي : العاصفة - ودانس دكر (مولتولي) ماكس هافلار .

١٨٦١ - بدء حرب الانفصال في الولايات المتحدة - الغاء وق الارض في روسيا - المناداة بمملكة ايطاليا - صنع اول ظهر على طول السفينة - ميشو يتوصل الى صنع دراجة بدواسة - فيلبس يدخل تحسينات على زئبرك الساعات - بروكا يضع نظريته الخاصة بالتمركزات الدماغية - كورنو يضع كتابه : بحث حول ترابط الافكار الاساسية - و.ج. اليوت يضع روايته : سيلاس مارنر - وبكل : تاريخ الحضارة في انكلترا - وهيبيل : نيلنجن - ودستوفسكي : تذكارات بيت الموتى - ومداخ : مأساة الانسان - غارنييه يباشر بناء الاوبرا في باريس - تمثيل تونوسر في باريس بشير الهيجان .

١٨٦٢ - حرب المكسيك - احتلال فرنسا لمدينة اوبوك - المعاهدة الفرنسية اللغاشية - الثورة في كسفاريا - انشاء ترسانات بحرية في ناكين - قانون همستد في الولايات المتحدة الاميركية - ازمة حادة في بروسيا : تعيين بسمارك - انشاء السوكرول في بوهيميا - تأسيس الجمعية العامة للعمال الالمان علي يد لاسال - معرض لندن - فولو يقدر سرعة النور - بو دي روشاسن يعرض نظرية الدورة ذات الازمنة الاربعة - هوفو ينشر روايته : اللؤساء - بوميالوفسكي ينشر روايته : مولوتوف - وكاربو : اوغولين وبنوه - فيوله - لو - دوك ينتهي من ترميم قصر بيرفون .

١٨٦٣ - الثورة البولونية - روبرت هار يعين مفتشا عاما للجبارك في الصين - معاهدة هويه وعلان الحماية الفرنسية على كمبودجيا - الغاء الرق في مقاطعة غويانا الهولندية - اكتشاف مناجم الماس في جنوبي افريقيا - القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات ذات المسؤولية المحدودة - مؤتمر العلماء الكاثوليك في مونيخ بناء لاقتراح دولنجر - رينان يضع : حياة

يسوع - برتلو يحقق اختراع الاستيلان الصناعي - بوناس يخترع الآلة الخاططة المطرزة - لونوار يخترع جهازا يعمل على البترول - طريقة سلفاي لاصطناع السودا - بناء أول منارة كهربائية في رأس هيف - هلمفوتر يضع : بحث فسيولوجي حول الموسيقى - لتريه يباشر وضع معجبه : قاموس اللغة الفرنسية - جول فرن يضع روايته : خبسة أسابيس في منطاد - مانيه يضع روايته : الفطور على العشب .

١٨٦٤ - حرب في سبيل الدوقيات الدانماركية - تصفية فتح القفقاس - تأسيس الجمعية الدولية للعمال - اعتراف فرنسا للعمال بحق الاضراب - اتفاقية جنيف : تأسيس الصليب الاحمر الدولي - البراءة البابوية Quantor Cura والسيلابوس أو فهرس الكتب المحرمة - اختراع فرن مارتن - ألفرد نوبل يخترع النتروغليسرين - كلوسيوس يضع : نظرية الحرارة الميكانيكية - هكسلي يصدر كتابه : مركز الانسان في الطبيعة - ييم لاروس يباشر نشر معجم القرن التاسع عشر الكبير - وفوستل دي كولانج : المدينة القديمة - وتينسن : انوخ اردن - وتولستوي : الحرب والسلام - دوستويفسكي : رجل المغاور - أوفنباخ : هلم الجميلة - ا. توماس : العزيرة .

١٨٦٥ - إلغاء الرق في الولايات المتحدة الاميركية - بدء حرب براغواي - الاتحاد التفرافي الدولي - الاتحاد اللاتيني (النقدي) - الاعتراف القانوني في فرنسا بقيمة الشك أو التحويل - اصدار أوراق نقدية صغيرة في فرنسا من القطع الصغير بقيمة ٥٠ فرنكا الورقة الواحدة - بارنوم : الدجالون في العالم - قانون مندل - حراقة بنسن - كلوسيوس يعطي الصيغة الانتروبية للديناميكية الحرارية - لستر يأخذ باستعمال التطهير - مونييه يتوصل لصنع الاسمنت المسلح - كيكولييه يحدد صيغة البنزين - كلود برنار يضع كتابه : المدخل لدراسة الطب التجريبي - فرتز مولر Fur Darwin تايين يضع كتابه : فلسفة الفن - الاخوة غونكور : جرميني لاسرتو - سوينبرن : اطالنتا في كاليدون - انترودي كوانتال : اناشيد عصرية - مانيه : أولمبيا .

١٨٦٦ - الحرب النمساوية الالمانية : معركة سادوفا - تبنى البندقية ذات الإبرة وبندقية شاسبو - الازمة الاسبانية الشيلية - الروس في طشقند - الارهاب في روسيا - المجاعة في الدكن الهند - الباخرة مدينة باريس ذات الدفاش تحتاز المحيط الاطلسي بتسعة ايام - أرساء أول كابل بحري في المحيط الاطلسي - نوبل يكتشف الديناميت - هيكلم يضع كتابه : مورفولوجيا عامة - فرلين يضع : اناشيد زحلية - زولا يصدر روايته تريز راكين - دوستويفسكي : الجريمة والقصاص - أوفنباخ : الحياة في باريس - سميتافا : الخطيئة المباعة - فوكوزاوا : أشياء الغرب .

١٨٦٧ - الاتفاق النمساوي المجري - اعلان كندا دومينيون - شراء الولايات المتحدة لالاسكا - معرض باريس - تدشين نفق البرينر - حق الاضراب وحق الاتحاد النقابي في بلجيكا - تدخل بريطاني في الحبشة - رحلة دودار دي لاغريه وفرنسيس غرنبيه في الصين الجنوبية - سقوط نظام الشوغونا في اليابان والمباشرة بصناعة النسيج الميكانيكي فيها - المجاعة في روسيا -

مؤتمر النقد الدولي - القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات المساهمة -
ماركس يضع كتابه : رأس المال - (المجلد الاول) - اختراع مكبس
وستنفهوس - اختراع مكبس مارينوني الدوار - شولز ودنسور يخترعان
الالة الكاتبة - أونو لانجن يخترع جهاز الغاز - باستور يدرس ظاهرات
اجتماع النبيل - ايسن يضع روايته : بيرجنت - ومنزل : الاحد في قصر
التويلري - ودانغر : رؤساء المغنين في نورمبرغ .

١٨٦٨ - بدء العصر الجديد (عصر الانوار) في اليابان - الثورة في كوبا - المجاعة
في الهند - الكوليرا في الجزيرة العربية - ظهور فيلوكسيرا الكرمة في
فرنسا - تأسيس جمعية الابهاء البيض أو مرسلتي افريقيا على يد الكريديان
لافيجري - أول مؤتمر لنقابات العمال في انكلترا - مؤتمر السلام والحربة
انشاء الكلية الفرنسية في غلاتا - رحلة وختوفن الى الصين - جنسن
ولوكير يكتشفان غاز الهليوم - دوبلكس يخترع الدبلكس في التلفراف
البرقي - اختراع الكرو - مانيون ١٠ . دوديه ينشر كتابه : الشيء النافه
- ومونسورغسكي : بوريس فودونوف .

١٨٦٩ - افتتاح قناة السويس - الانتهاء من بناء أول خط حديدي عبر الولايات
المتحدة الاميركية تنشئ نظام فارس (شفاليه) ، عمل - مجمع احرار اليهود
في ايرلندا - تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي في ألمانيا - الولايات
المتحدة الاميركية تنشئ نظام فارس (شفاليه) ، عمل - مجمع احرار اليهود
في لايبزيغ - ميچ - موريس يتوصل الى صنع السمن النباتي - الاخوة
هيات يخترعان السلولويد - برجيس يتوصل الى استخدام أول شلال في
جبال الالب - غرام يخترع الدينامو لتوليد التيار المتصل - مكسويل
يشرح نظريته حول كهروطيسية النور - مندليف يضع لائحة العاصر
البسيطة - كوربيه يعرض رسومه في برلين وليبل يخلو حذوه في باريس
- سيزار فرانك يضع كتابه : التطويبات .

١٨٧٠ - الحرب الفرنسية الالمانية - اعلان عصمة البابا - ظهور الجمهورية
الفرنسية الثالثة - اعلان روما عاصمة لاطاليا - فرنسا تعترف ليهود
مدينة الجزائر بالجنسية الفرنسية - قتل الاجانب في لينسن - القانون
الزراعي الخاص بالمرامين في ايرلندا - سيمانس يخترع فرنا كهربائية -
روكفلر يؤسس شركة ستاندار اويل - حفريات سليمان في طروادة - نيومن
يضع كتابه : اجرومية الموافقة - ن. ريبو يضع كتابه : السيكلوجيا
الانكليزية المعاصرة - وتين يضع كتابه : حول الفهم والادراك - وفرنسسكو
دي سنكتس : تاريخ الاداب اليطالية - وفنتين - لاتور : مرسم مانيه
في باتنيول .

١٨٧١ - تأسيس الامبراطورية الالمانية - ثورة الكومون في باريس - معاهدة
فرنكفورت - قانون الضمانات في ايطاليا - الدستور القانوني لاتحاد
العمال في بريطانيا العظمى - قانون « الجوف الخاوي » في البرازيل -
اجراءات في صالح الفلاح المصري - ثورة بلاد القبيلي في الجزائر - الفاء
نظام الاقطاع في اليابان - المجاعة في ايران - سويس يشرع بنشر كتابه :
وجه الارض - رينان يصدر كتابه : الاصلاح الفكري والادبي -
وفرانك : الفداء .

١٨٧٢ - بدء الكولتور - برنامج ايسناخ اجتماعي - الفناء السرق في كوبا - اضطرابات وقلقل في الفيلبين - اليابان يعترف بالحرية الدينية - اول خط حديدي في اليابان - السفينة « تشالنجر » تقوم بتطوافها حول الارض - مارتوني يعطي الصورة الاخيرة للروتاتيف ولضابطة الهامش الميكانيكية - باكلاند يتوصل لأول مرة لصنع اللدائن المعروفة باسم بكليت - جول فرن يضع روايته : دورة حول العالم بثمانين يوما - اختراع غريمالدي - كورنو يضع كتابه : خواطر حول سير الافكار والاحداث في العصر الحديث - وبرانديس ينشر كتابه : تيارات الادب الكبرى في القرن التاسع عشر - وسولتيكوف : الاخوة غولوفيف .

١٨٧٣ - الازمة الاقتصادية - اعلان الجمهورية لأول مرة في اسبانيا - « الصليبية باتجاه الشعب » في روسيا - سكوباليف في خيفا - فرنسيس غارنييه في هانوي - الاصلاح العسكري في اليابان - المجاعة في الدكن - احادية المعدن في النقد في كل من المانيا والولايات المتحدة الاميركية - فان در والز يوضح نظرية تمدد الغاز - وندت يصدر كتابه : مبادئ علم النفس المرضي - ورمبو : فصل في الجحيم - وتولستوي : انا كارنن .

١٨٧٤ - السباعية العسكرية في المانيا - البريطانيون في جزر فيجي - تأسيس الاتحاد العام للبريد - ظهور النادي الالبي الفرنسي - اختراع المضاعفة في التلغون الكهربائي - بوترو : حول امكان حدوث نواميس الطبيعة - مونيه : انطباع ، الشمس المشرقة - استعمال كلمة « انطباعية » لأول مرة - مارك توين يصدر : العصر الذهبي - ومانيه : كأس الجعة الطيب - وريتنوار : المحفل - وبوبوي دي شافان يرسم افاريز البانثيون - وغريك يصدر : بيرجنث .

١٨٧٥ - برازا في الغابون - انكلترا تبتاع من خديوي مصر ما له من أسهم في قناة السويس - انكلترا تصدر القانون الخاص بالعمال وارباب العمل - اتحاد الاحزاب العمالية في مؤتمر غوتا في المانيا - تأسيس الكلية الانكليزية الاسلامية في الهند - م. برتلو يحقق التأليف الكيميائي - لبروزو يصدر كتابه : الرجل المجرم - وتين يصدر كتابه : اصول فرنسا العصرية : النظام القديم - اليزيه ركلو يضع كتابه : الجغرافيا العامة الجديدة (المجلد الاول) - مارك توين : توم سوير - بيزيه يضع : كارمن .

١٨٧٦ - طلائع مجاعة هائلة في الدكن - ضم الروس لمقاطعة فرغانة - اتفاق تشه - فو - تأسيس الجمعية الدولية الافريقية في بروكسل - معرض فيلادلفيا - أول رحلة تقوم بها السفينة فريغوريفيك - بل وغراي يضعان أول تلفون يعمل على الكهرباء - اكتشاف الديفسان - بورا يقوم بنجاح بالعملية القيصرية - كوخ يبحث أسباب مرض الجعرة - مالارمية يصدر كتابه : كيف يقضي اله الحقول الاصيل - زولا يضع كتابه : المعلق - وفرشليكي : اناشيد - وفازوف : علم وغسلا .

١٨٧٧ - حرب البلقان والقفقاس - انكلترا تضم أول جزء من الترانسفال - ثورة صايغو في اليابان - سقوط ياقوب في آسيا الوسطى - المجاعة في الهند ، والصين الشمالية والبرازيل - اضراب عمال مناجم الفحم في الولايات المتحدة - توماس وجيلكريست يخترعان المحول الكهربائي ، شارل غرو واديسن الحاكي ، وداينو البراكسينوسكوب - بورسل وفلراند يدخلان

- تحسينات هامة على فرن مارتن - فرنسا تتبنى مدفع بانج - ليبرمان
يصدر كتابه : البافير .
- ١٨٧٨ - مؤتمر برلين يضع حدا للحرب في الشرق - البابا ليون الثالث عشر يشجب
تعاليم العصر الكفرية ببراءته Quod Apostolici - تأسيس
جيش الخلاص - نوردنسكولد يجتاز البحر الشمالي الشرقي - تأسيس
اول مكتب للهاتف في مدينة نيو هافن - راير يتوصل الى تركيب النيلة
صناعيا - لافال يخترع النابذة في فصل القشطة عن الحليب - انجلس
ينشر كتابه Anti Duhring - وكاردوتشي : اناشيد بربرية - وكيلر :
اخبار من زورينج - برنر جونز يعرض في باريس اثره الرائع : فيفيان
ومرلين الساحر - بناء التروغاديرو .
- ١٨٧٩ - الرجوع الى سياسة الحماية الجمركية في المانيا - خلع الخديوي اسماعيل
في مصر - خلق جمهورية الترانسفال - حرب افغانستان - حرب المحيط
الهادي - براءة البابا ليون الثالث عشر للدفاع عن تعاليم القديس توما
الاكوينى - مؤتمر الجغرافيا التجارية في بروكسل - المجاعة في الصين -
تأسيس تلفراف كولدج في تينسن - سوان واديسن يخترعان المصباح
المنير بالفراغ - باستور يكتشف مبدا التلقيح - اختراع انايب كروكس -
ارنست سيمنس ينشئ اول قطار كهربائي - زجيل السهينة جانب
باتجاه القطب - هنري جورج يصدر كتابه : دقي وفقير - ومسبرو :
دراسات مصرية - ولايس : ابحاث حول تاريخ بروسيا - تراشخييه
يصدر : تاريخ المانيا في القرن التاسع عشر - وابسن : بيت الشعب -
وسترنديربغ : الغرفة الحمراء - وكايوانا : تسيانستا .
- ١٨٨٠ - اجراءات ضد الرهبانيات وقوانين التعليم في فرنسا - مؤتمر مدريد حول
المغرب - الحرب الاولى بين الانكليز والبول - نفق سان غوتار - بناء
الخط الحديدي عبر القفقاس - تأسيس شركة قناة بناما - تنظيم تروست
نوبل - تحسين مدوس الدراجة - عربة طابعة تسير على خط حديدي
في الولايات المتحدة - ايرت بكتشف باسيلوس التيفويد - مين : فلسفة
الفن - ج. تمسن يضع : مدينة الليل والهوى - رودان يضع : المفكر .
- ١٨٨١ - قتل القيصر اسكندر الثاني - مذابح اليهود في اوكرانيا - بدء الحماية
الفرنسية في تونس - انشاء الكلية التشيكية في جامعة براغ - مؤتمر
الفوضيين في لندن - براء البابا ليون الثالث عشر حول نشأة السلطة
المدنية - قتل بعثة فلاترز في الصحراء الكبرى - بناء الخط الحديدي عبر
جبال الاندلس وفرع الخط الحديدي بين بكين وتبسن - انارة القطار
بالكهرباء على خط لندن - برايتن - تأسيس شركة اديسن الكهربائية -
باستور يجري اختباره حول اللقاح ضد الجعرة - اختبار ميكلسن حول
سرعة النور - هنري بوانكاريه : حول نظرية الدالات الوكسسية - ت.
ريبو : امراض الذاكرة - فوغزارو يضع روايته : الماسرا - وفرغا :
مالافاليا - وماشادو دي اسيس : براز كوباس - واوسبانسكي : قدرة
الارض - وريثوار يضع روايته : قطور البحارة .
- ١٨٨٣ - عقد الحلف الثلاثي - تدخل انكلترا في مصر - الايطاليون في الاربرية -
تأسيس مدينة ليوبولدفيل - طرد اليهود من روسيا - منع هجرة العرق

الاصفر الى كاليفورنيا - قبول المونين في الجسم الطبي في الولايات المتحدة
الاميركية - اضطرابات اجتماعية في ايطاليا - تأسيس الاتحاد الكاثوليكي
للدراستات الاجتماعية - توزيع النور الكهربائي في نيويورك للمصوم -
تأسيس حكر ستاندرد اويل - كوخ يكتشف باسلس التدورن الرئوي -
تسلا يخترع المنوبة الكهربائية - دبيريض يحقق لأول مرة نقل الطاقة
الكهربائية في معرض مونيخ - بيك يضع روايته : الغربان - فلورس :
ازاهير الالم - المهندس سدبل يبني مخازن البرنتان في باريس - واغنر
يضع : برسيغال - الرباع الاول لفورية .

١٨٨٣ - أول قانون للضمان الاجتماعي يصدر في ألمانيا - حرب التوتكين - تدخل
فرنسا في مدغشكر - الحركة الهدية في السودان - تأسيس الجمعية
الغالية في انكلترا - ظهور الحزب الماركسي في روسيا - الاخوة تساندييه
يصنعون منطادا مسرا ، وديون وبوتون عربية بخارية تسير على الطرق -
اديسن يكتشف « ظاهرة اديسن » التي تفضي الى المصباح الالكتروني -
والبارون جني يبني أولى ناطحات السحاب في شيكاغو - كليبس يكتشف
باسلس الدفتريا - تيجلي يضع كتابه : الميكانيكا الفسيولوجيا للتطور -
ونيتشه يصدر كتابه : هكذا تكلم زرادشت - وسورات يضع : الحمام .

١٨٨٤ - قانون ناكه حول الطلاق في فرنسا - الاعتراف قانونا بالنكاحات في فرنسا -
الثورة في كمبودجيا ومعاهدة حماية جديدة - حرب الصين - مؤتمر برلين
الاستعماري - غردون في السودان - تأسيس الجنوب الغربي الافريقي
الالمانى - اكتشاف الذهب في الترانسفال - المجاعة في روسيا - الاستيلاء
على مرو - تطور الحركة النقابية في بريطانيا العظمى - انشاء احتكار
دولى للخطوط الحديدية - بارسنز يبني طربين بخارية ومرجشالير يخترع
الليوتيب - قيل يدخل تحسينات على « البارود بدون دخان » وتوربين
على الناسفة - الاخوة رينار يبنون منطادا - سينويوس يضع كتابه :
تاريخ الحضارة - هويسمانز : بالقلوب - وفرغا - الخيالة الريفية -
افتتاح صالون : « المستقلين » - ماسينية : مانون .

١٨٨٥ - اتفاقية برلين بشأن الرق وانشاء دولة الكونغو المستقلة - فرنسا تعلن
الحماية على مدغشكر - معاهدة تينسن الثانية وتوكيد الحماية الفرنسية
على التوتكين - انكلترا تظم بورما الى ممتلكاتها في آسيا - عقد أول مؤتمر
هندي - تأسيس أول حزب للعمال في بلجيكا - نشر الجزء الثاني من كتاب
راس المال - اختراع الحاصدة - الرابطة ، والرشاش مكسيم - باستور
يشفى ولدا مريضه كلب مسعور - دملر وبنز يصنعان عربية تسير على
البززين - أول رحلة علمية يقوم بها الامير البر ، أمير موناكو - زولا يضع
روايته : جرمينال - ويجرنسن : الى ما وراء القوسى - بناء متحف
امستردام الوطنى غويتريز - فان غوه يضع : اكلة البطاطا .

١٨٨٦ - اضطرابات في بلجيكا ، وبريطانيا العظمى وألمانيا والولايات المتحدة - مظاهرات
أول ايار في الولايات المتحدة - تشكيل حلف العمل الاميركي - تأليف
شركات مشاركة في كل من الكونغو ونيجيريا - بناء خط حديدي عبر كندا
- العثور على الذهب في استراليا الغربية - انشاء فبركة حديثة للحبر
في كنتون - اختراع المنفخ الكهربائي لصناعة الزجاج - هول وهيرولت

يتوصلان لصنع الالومينيوم بالتحليل الكهربائي كما توصل هرزل الى اكتشاف الموجات الكهربائية - استمان يخترع جهازا سينماتوغرافيا - جان فاليس يضع روايته : الثائر - ودرومون كتابه : فرنسا اليهودية - ج. تارد : الاجرام المقارن - ورمبو : الاضاءة التزيينية - ولوتي : صناد اسلندا - وبالاماس : اغاني بلادي - وكويس سوليفان اقام اوديتوريوم شيكاغو - وبارتولد : الحرية تضئ العالم - وفنسان دندي : سمفونية جبلية .

١٨٨٧ - أول مؤتمر يعقده ممثلو الامبراطورية البريطانية - الحكم الفرنسي البريطاني المشترك على جزر هبريدس الجديدة - انشاء الاتحاد الهندي الصيني - الغاء الرق في كوبا - الدكتور زامنهوف يضع لغة الاسبرنتو - اكتشاف طريقة سيندة الذهب - انطوان يؤسس المسرح الحر - رتشورسن يشيد مخازن مارشال فيلد في شيكاغو - موباسان يصدر روايته : الهورلا - ولوتي : مدام كريزنتام ، وكبلنغ : قصص بسيطة من الروابي - دانزيو : المرائي الرومانية - تشيخوف : اخبار مضحكة .

١٨٨٨ - فانسني في غرينلاند - أول قرض فرنسي لروسيا - تأسيس حزب العمال في سكتلندا - الغاء الرق في البرازيل - براءة البابا لليون الثالث عشر حول الحرية البشرية - تدشين معهد باستور في باريس - هديلد يضع الفولاذ بالمنغيز - فورست يخترع محركا يعمل على البنزين - ظهور البنوماتيك (الهواء المضغوط) واستعماله في الدراجة - لمبروزو يضع كتابه : الرجل النابغة - ونيتشه : المسيح الدجال - وباريس : تحت نظر البرابرة - روسني الاب يضع : الخيهوس - وسترنديغ : الدائنون - وسودرمان : الشرف - روبن وداريو : آزور - غوكن : الرؤية بعد الخطاب : او يعقوب والملاك - رمسكي كورساكوف : شهرزاد .

١٨٨٩ - مؤتمر حول الرق في بروكسل - سقوط الامبراطورية في البرازيل - اعطاء اليابان دستورا جديدا - أول مؤتمر لرابطة الشعوب الاميركية - موجة اضرابات في أوروبا - معرض باريس : برج ايفل في الشان اليزية - تأسيس الدوكية العمالية الثانية - تأسيس شركة : جنرال الكتريك - تشييد أول ناطحات السحب في نيويورك - اديسون يخترع آلة سينماتوغرافية ، واستمان الشريط التصويري من السلوليد ، وشاردونيه : طريقة لصنع الحرير الاصطناعي ، وهللريث : حاسبة كهربائية - براون سيكوارد يوضح وظيفة الغدد ذات الافراز الداخلي - غوبو يضع كتابه : الفن من الوجهة الاجتماعية - وبورجيه يضع روايته : التلميذ - وكبلنغ : أول كتاب حول الادغال - يتس : اسفار اولسن - ج. هوبتمان : قبل الفجر - غوكن : المسيح الاصفر - فان غوه : رسم الرجل المقطوع الاذن - رتشرد شتراوس : الموت والتجلي .

١٨٩٠ - مقايضة زنجبار بهلغولند - اتفاقات استعمارية افريقية - مؤتمر العمل الدولي في برلين - افلاس بنك يارينغ والازمة الاقتصادية - تأسيس شركة رويال دوتش - اللورد بنتنك يصدر في الهند قانون التسليم - تعرفه ماك كنلي - قانون شرمان بخصوص احادية المعدن في العملة - القطار السريع امبير ستايت تزيد سرعته على ٢٠٠ كيلومتر في الساعة - براني ولودج

بخترعان كشافا لجهاز التلفراف اللاسلكي - لافال بيني طورينا جديدا
يعمل على البخار - ادر يرتفع على ظهر الايول - ماراي يخترع
الكرونوفوتوغراف - المحاولات الاولى لتزفيت الطرق - ماهان يصدر
كتابه : تأثير القوة البحرية على التاريخ - و. جيمس : مبادئ علم
النفس - ب. فاليري يصدر كتابه : نرسي - و.س. جورج : اناسيد -
ومسكاني كتابه : الخالة الريفية - وموري اوغاي : الراقصة - ومونيه :
1891 - الرأى البابوية Rerum Novarum حول الوضع البشري - تاسيس

الاكداس - و.م. دنيس : السر الكاثوليكي - وبورودين : الامير ايفور .
المكتب الدولي للسلام في برن - المجاعة في روسيا واجراءات معادية للسامية
- الشروع ببناء الخط الحديدي عابر سيبيريا - نقل الطاقة الكهربائية الى
مسافات بعيدة لأول مرة - فوريسيت يخترع محركا من ٤ اسطوانات -
بافلسوف يدرس رد الفعل المشروط - الدكتور دوبوا يكتشف انسان
قد جازوا المنتصب القامة . - ا. واندل يضيع روايته : جريمة
اللورد ارثر سافيل - كونين دول : مغامرات شارلوك هولمز - س.
لانجلوف : ساغا كوستابرنغ - مونيه ينشر كتابه : الحوريات - فرويدنف :
قشارة واكوريدون - وودكاياند - يقظة الربيع - وبرونو : الحلم .

1892 - الاتفاق العسكري الفرنسي الروسي - حكومة مالبن وسياسة الحماية
الاقتصادية - اضرابات في الروهر وفي صناعة التعدين في الولايات
المتحدة - القوانين الاسترالية الخاصة بالمصالحة والتحكيم - التوسيع
من صلاحيات المجالس التشريعية في الهند - مواسو يخترع فرنا كهربائيا -
لورنتز يكتشف الكهرب والالكترون - ه. بوانكاريه يضع كتابه :
المناهج الحديثة في دراسة الميكانيكية الفلكية - ا. وايزمان يصدر
كتابه حول الوراثة والانتخاب الطبيعي - وهوبتمان : الحكاة -
وشاربنتييه : انطباعات من ايطاليا .

1893 - تأسيس حزب العمال المستقل في انكلترا - كيردوف ينشئ اتحاد
الفحامين - الفرنسيون يحتلون الداومى - والاميركيون جزر هاواي -
الحبر الاعظم ليون الثالث عشر يعيد تنظيم رهبانية البندكتيين ورهبانية
الترايست - اختراع محرك ديول - ماري يكتشف الكشاف السينمائي -
اول مطبخ كهربائي - ج.جرايف : المجتمع الجديد والفوضى - بلونديل
يصدر كتابه : العمل - وكبلنج : البحار السبعة - دوركهايم : حول
انقسام العمل الاجتماعي - برادلى يصدر كتابه : بين المظهر والواقع -
وفرلين : مراث - ج.م.دى هريديا : الاسلاب - اناطول فرانس : مشوى
الملكة بيدوك - كورتلين : السادة الموظفون الاداريون - س. غرانج :
ماغي : ابنة الازقة - ديبوسي : تمهيد لبعث الظهر عند احد الحيوانات -
غوكين : اغنية راعوية من تاهيتي .

1894 - الحرب الصين - اليابانية - غاندى وتأسيس المؤتمر الهندي في نانال -
التشريع حول التحكيم الانزامي في زيلندا الجديدة - تكوين الحلف العمالي
الارجنتيني - نشر المجلد الثالث من كتاب رأس المال لانجلز - رو
يكتشف مصلا ضد الدفتيريا - كما يكتشف يارسن باسيليوس الطاعون
الدمل - اونز ينشئ مختبرا للتبريد - ابحاث فولتيرا حول المصادلات
الصحيحة - ليون بورجوا يصد كتابه : التضامن - وجورجنسن :

التحول - ورودين : بورجوا كاليه - واييسا : اخراج الدراما الواغترية
- ا.دي بوديه ، يشيد كنيسة يوحنا الانجيلي في حي مونمارتر .

١٨٩٥ - فشل مشروع وطني قومي لارلندا - فتح قناة كيتيل - الحملة الفرنسية
على مدغشقر - تأسيس مستعمرات روديسيا - التفاهة على المطاط
في افريقيا الوسطى - حرمان فنلندا من استقلالها الداخلي - مذابح
الارمن في لاستانة - دستور الاتحاد العام للعمال في فرنسا - الفرد توبل
يؤسس عند وفاته الجائزة التي تحمل اسمه - أبحاث برن ولورانتس
حول الكهرباء - بوبوف يضع قارية (هوائي) للتلفاز اللاسلكي -
بوجو يسير عربة على عجل يعمل بالهواء المضغوط - الاخوة لوميسر
يصنع جهازا للسينما - رتنجن يكتشف الاشعة السينية - هرزل يضع
كتابه : الدولة اليهودية - دوركهايم يصدر كتابه : قواعد الطريقة
الاجتماعية - فيرهيرن يضع كتابه : المدن ذات المجسات - ج.ه. ويلز :
جهاز لاستكشاف الزمن - و.ت. هاردي : جود المجهول - فوغزارو :
العالم القديم الصغير - تولستوي مملكة الظلام - وسينكفتش : الى
اين ؟ - فان غرونجن : قبضة من الكائنات البشرية - بروز مدرسة
مونتريال الادبية

١٨٩٦ - الحملة الإيطالية على الحبشة - المجاعة في الهند - ضم مدغشقر الى
فرنسا - تأسيس مصانع زبلين - فورد يبنى أولى سياراته - أولى الالعاب
الاولمبية في اثينا - مساهمة مركوني في اختراع التلفاز اللاسلكي -
كروبتكين يصدر كتابه : الفوضى : فلسفتها ومثالها الاعلى - و.ا. ريكلو :
الفوضى - وأناطول فرائس : التاريخ المعاصر - وبلاو ايبانيز : الارض
المعونة - وروين داربو : النثر الدنيوي - بيكاسو يضع : المستعطي .

١٨٩٧ - حرب تركيا واليونان - الالمان ينزلون في كياو - تشابون - المجاعة في
البنغال - تأسيس الحركة الصهيونية في مدينة بال - اكتشاف مناجم
الذهب في الكلدنك - طيران على متن طائرة - لاغستن يدخل تحصينات
ملحوظة على المونوتيب - هنري بكيريل يكتشف الطاقة الاشعاعية في
الراديوم - فرنسا تتبنى مدفع عيار ٧٥ للجيش الفرنسي - غليوم الانفاز
والفولاذ مع النيكل - لندن تسر الترام الكهربائي - ١.٠م. بلوك يصدر
كتابه : حرب المستقبل - ا. ساباتييه مدخل الى فلسفة الدين من خلال
علم النفس والتاريخ - برونشويغ يصدر كتابه : كيفية الحكم - وبرتلو :
العلم والاخلاق - ولانفلوا وسنيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية -
باريس يصدر قصته : من لا اصول لهم - وجيد : الاغذية الارضية - س.
موم : ليزا لامبت - ر.م. ريلك : متوج الاحلام - سترندبرغ : جهنم -
تشينخوف : الموجيك - انجال غانيفيه : المثال الاسباني .

١٨٩٨ - الحرب الاسبانية الاميركية - كشنر يهزم المهدي - قضية فشودا -
المحاولة الاصلاحية لمدة ١٠٠ يوم في الصين - الروس يحتلون بورث
ارثور - قضية دريفوس في فرنسا - اضطرابات اجتماعية في ايطاليا -
المجاعة في روسيا - اقرار استعمال اللغتين في بلجكا - بير ومدام كوري
يكتشفان الراديوم - سنتوس - دومون يبنى منطادا - لويس رينو يخترع
الوصلة المباشرة - أول معرض للسيارات في باريس - روستان يصدر

كتابه - سيراودى برجرالك - برنارد شو : تمثيلات مبسطة ومزعجة -
سترنديغ : طريق دمشق - ايبانيز - الاستحكام - وبشيني : حياة
البوهيمي .

١٨٩٩ - حرب الانكليز والبويرز - اول مؤتمر للسلام في لاهاي - الطاعون
في مصر وفي سنغافورا - المجاعة في الهند - برانلي وماركوني يؤمنان
اول اتصال بالتلفراف اللاسلكي - لوبوف ينزل اول غواصة الى البحر -
تأليف المجلس الدولي - الدائم لاستكشاف البحر في كوبنهاغن - الحبر
الاعظم البابا ليون الثالث عشر يقف موقفا مناهضا للنزعة الاميركية
الدينية - لويس سوليفان يبني مخازن كارسن الكبرى في شيكاغو -
برنشتاين يصدر كتابه : الاشتراكية النظرية والديمقراطية الاشتراكية
العملية - فاشيه دي لابوج يضع كتابه : الارى ودوره الاجتماعي -
هيكل : اسرار الكون - تولستوي : القيامة - ويتس : الريح يسن
القص - ريمي دي غورمون : استيكا اللغة الفرنسية - رافيل يضع
كتابه : الرقص الوقور للاميرة المتوفاة - اول منزل يقام في باريس
بالباطون المسلح .

١٩٠٠ - معرض باريس - ثورة البوكر والحملة الناديبية على الصين - سن .
يات .س يؤسس الحزب الاشتراكي الصيني - الفرنسيون يحتلون تشاد
يضع نظرية الكم - الانتفاع بمادة الغالايت Galalite لصنع
- اضراب عمال المناجم في اليابان - المجاعة في البنغال ٢٠ م . بلانك
الدائن - لاندستاتنر يكتشف فئة الاحمر الدموي للرسم - لوكيسر
يصدر كتابه : التطور اللاعضوي - س. فرويد : تفسير الاحلام -
موراس : بحث حول الملكية - كوتسكي يصدر كتابه : الماركسية وناقدها
الاكبر برنشتاين - ج. رينار : شعرة الجزر - شارل لويس فيليب :
بوبو مونبارناس - برناردشو : تلاميذ الشيطان - درايزر فيليب :
كاري - ظهور النزعة : الفوفية في الرسم - المؤتمر الدولي الاول
للموسيقيين في باريس - شاربنتييه لويزا - بتشني : لاتوسكا .

١٩٠١ - تاسيس رابطة الدومنيون الاسترالي - تعديل بلات بشأن كوبا - مؤتمر
جامعة الدول الاميركية في مكسيكو - انشاء الصندوق الوطني اليهودي -
انشاء شركة فولاذ الولايات المتحدة - الاضراب الكبير في ايطاليا -
انشاء المكتب الدولي للعمل في بال - البراءة البابوية Graves de Communi
- لوازي يضع كتابه : الانجيل والكنيسة - روثر فورد يوضح طبيعة
اشعاع الراديو - ه.دي فريز : نظرية التغيرات - فرويد : علم
طبائع الامراض العقلية في الحياة اليومية - توماس بان : آل رودنبروك

١٩٠٢ - التحالف الانكليزي الياباني - اخضاع الفيلبين للاميركيين - الخط
الحديدي عبر سيبيريا يصل فلانستوك - الفاء الاتجار بالعبيد في
زنجر - مؤتمر برلين الاستعماري - انشاء امانة سر دولية نقابية -
بلوتيه : تاريخ بورصات العمل - البابا الثالث عشر يشكل لجنة
للدراستات الكتابية - مذكرة فريد هولم حول المعادلات الصحية - هنري
بوانكاريه يصدر كتابه : العلم والحس - ب. كروسي : الاستيكا
باعتباره علم الاحساس وعلم اللغة العام - اندريه جيد يصدر كتابه

الفاسق - غوركى : الاغوار - آزورين : الارادة - ديبوسي : بلياس
ومليزاند .

١٩٠٣ - التخلي عن مشروع قناة بناما - الثورة في مقدونيا - المانيا تحصل
على امتياز خط بغداد الحديدي - مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي
في لندن : الاصطدام بين البلشفيك والمنشفيك - مذابح جديدة لليهود
في روسيا الجنوبية - المؤتمر الصهيوني - كورن يدخل تحسينات
على طريقة ارسال الصور بالكهرباء - طيران الاخوة رابن - تأسيس
محلات فورد - تسيولكوفسكي يصدر كتابه : درس الفضاء بالاجهزة
المبنية على التجارب الرجعي - زولا : الحقيقة - ر. رولاند : حياة
بيتهوفن - كنراد : العاصفة ايبانيز : الكاتدرائية - رايمونت : الفلاحون
- افتتاح صالون الخريف في باريس

١٩٠٤ - بدء الحرب الروسية اليابانية - عقد الاتفاق الودي . سن - بات سن
يؤلف حزب الكومنتانغ - محاولة اعلان الاضراب العام في ايطاليا - مؤتمر
الدولية الاشتراكية في امستردام - وضع الحق القانوني بايماز من
البابا بيوس العاشر - فلانمنغ بخترع القنديل الكهربائي الثنائي القطب -
يلتزر - يتوصل لصنع الفران (النيلون) - روما رولان يصدر تباعا :
جان كريستوف والفجر - سويريز : حول وفاة اخي - وغيومين :
حياة سلاج - وهوبرت كراينز : الخبز الاسود - ويرندللو : المرحوم
متياس باسكال - وغولسورتى : فريسيو الجزيرة - لافكاديو هيرن :
اليابان ، ومحاولة تبرير - فكتور بيرار : طريق آسيا - وبوتشينيني :
مدام بترفلاي .

١٩٠٥ - انتهاء الحرب الروسية اليابانية - الثورة في روسيا والحركة الرجعية
فيها - أزمة المغرب الاولى - وقوع الانفصال بين السويد والنرويج - الغاء
آخر مقاطعة للهنود الحمر في الولايات المتحدة - انشاء حزب الوطن العربي
- فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا - مؤتمر برن حول التشريع
العمالي - انزال الدردنوط الى البحر - مذكرات اشتباين حول تأخير
الضوء الكهربائي ونواميس النسبية - هنري بوانكاريه : قيمة العلم -
فرويد : النظرية الجنسية - لافيس : لويس الرابع عشر - آلان : خواطر
- برنشتاين : الزوبعة - ظهور التكسية في فن الرسم - سترافنسكي :
سمفونيا مي بيمول - بيلا بارتوك : النتيجة الاولى - مانويل دي فاللا :
الحياة القصيرة .

١٩٠٦ - مؤتمر الجزيرة حول المغرب - مؤتمر الشعوب الاميركية في الربو - القحط
في روسيا واصلاح ستوكولين الزراعي - اتفاقية روما حول مراكز البريد
الدولية - طيران سبتلوس دومون - قانون العطلة الاسبوعية في فرنسا -
البراءة الرسولية Vehementer برنسون ينشر : التطور الخلاق -
اختراع تفاعل واسرمان - ايتن سنكلر : الادغال - ادي : قصائد جديدة -
تكسون : بل الفاتح - بادن باول : الكشفة للاولاد - شيمازاكسي
توزون : المخالفة .

١٩٠٧ - المؤتمر الثاني للسلام في لاهاي - تشكيل الائتلاف الثلاثي والاتفاق
الروسي الياباني - انشاء محكمة عدل لاميركا الوسطى - البراءة البابوية

Pascendi — تأسيس جمعية غراتري لتوطيد السلام بين الشعوب —
 غاندي بتبنى سياسة Satyāgraha بنية تنظيم المقاومة السلبية —
 الازمة الاقتصادية — المجاعة في الهند وفي الصين — اضراب عمال مناجم
 النترات في الشيلي — تأسيس شركة شل — تجربة التصوير الملون على يد
 لومير — لى دي فوريست يخترع القنديل الثلاثي القطب — هوغ يضع
 كتابه : بحث في الجيولوجيا — هاملن : محاولة حول العناصر الاساسية
 في التمثيل — اونا مونو : قصائد — هوايتلوك : دورة القبان — غوركي : الام
 — هازغاوا فونتيانيه : دون المتوسط — تاهاما كيتاي : الغطاء — النزعة الى
 التربة تغزو كندا — شوانبرغ : سمفونيا الحجر .

١٩٠٨ — ضم بلجيكا للكونغو وضم البوسنة والهرمسك الى النمسا والمجر — ثورة
 تركيا الفتاة — اختراع الريج الصدرية — ج. سوريل : تأملات حول العنف
 — دانونزو : صحن الكنيسة — رافيل : أمي الاويزة .

١٩٠٩ — الثورة في تركيا وبلاد فارس — ازمة البوسنة — الهيجان في برشلونا وتنفيذ
 حكم الاعدام بغراير — اضرابات في الارجنتين — يري يبلغ القطب الشمالي —
 بلاريو يجتاز مضيق المانش بالطائرة — ولم يطلع علينا بالدور الومين —
 بيكلاند يوضح خصائص راتنج الفينول — الفورمول (البالكيت) — لنين
 يضع كتابه : المادية والنقد التجريبي — اندريه جيد : الباب الضيق —
 باريس : كوليت بودوش — بلوى : دم الفقير — مرغريت أودو : ماري —
 كلير — ماترلنك : العصفور الاخضر — بورديل : هيراكليس النبال —
 بيكاسو : المرأة والمندولين — دباغيليف والباليه الروسية في باريس —
 ١٩١٠ — انشاء دومنيون جنوب افريقيا — اليابان تضم كوريا — مؤتمر شعوب اميركا
 في بونس ايرس — اضراب عمال مناجم الفحم وقانون التقاعد العمالي في
 فرنسا — الحكم على بيون — سقوط الملكية في البرتغال — شافيز يجتاز
 جبال الالب — ماري كوري تعزل الراديوم — سلك تنفستين الذي وضعه
 كولدج يتيح للنفومور صنع مصباح يعمل بسلك تنفستين — هابر يتوصل
 الى الامونيا الصناعي — ظهور طريقة اللزوجة — توماس هونت مورغان
 يجدد علم الوراثة ويوجين باتايون يحقق التناسل العذري الصناعي —
 هلفردنغ يضع كتابه : الراسمال النقدي — نورمان انجل : الوهم الاكبر —
 وجوريس : الجيش الجديد — الاب سرتلنج يضع كتابه : القديس توما
 الاكويني — ويفي : سر محبة جان دارك — ستافنسكي ودباغيليف :
 عصنور النار .

١٩١١ — الثورة في الصين — الازمة المراكشية — الايطاليون في طرابلس الغرب —
 الفتنة الزراعية في زابانا ، المكسيك — ازمة سياسية في بريطانيا العظمى —
 امندسن يبلغ القطب الجنوبي — فونك يكتشف الفيتامينات — رازرفورد
 يوضح خصائص الذرة — ا. و. ج. يريه بينيان مسرح الشان البريه —
 بيكاسو : الطبعة الميتة — سترافنسكي : بتروشكا — لاشتراوس : فارس
 الوردية — بيلا بارتوك : قصر بارب بلو .

١٩١٢ — الحرب البلقانية — بوان شي — كاي ، سيد الصين — اعلان الحماية
 الفرنسية على المغرب — مجلس العموم يصوت على الوطن القومي —
 التشريع حول الضمان في بريطانيا العظمى — ازدياد الهيجان الاجتماعي

في روسيا - مؤتمر الدولية الاستثنائي في بال - ر. لكسمبورغ يضع
كتابه : تجمع رأس المال - نيلور : مبادئ الادارة العلمية - ظهور طريقة
فورد للعمل - كاروس يجتاز البحر المتوسط - لاين يوضح طبيعة الاشعة
السنية - هس يثبت حقيقة ظاهرة التآين - دوركهام : الاشكال البدائية
للحياة الدينية - أنانول فرانس : الالهة العطشى - آلان فورنييه : مولن
الكبير - كلوديل : البشارة لمريم - برنارد شو : بجماليون - باينسي :
رجل انتهى - مارينتي : منتقيات مستقبلية - رافيل : دافني وكلويه -
سوينبرغ : بيرو المعنوه .

١٩١٣ - الحرب البلغانية - قوانين الحرب في كل من المانيا وفرنسا - مجلس
اللوردات يرد مشروع الوطن القومي في ايرلندا - التشريع الاميركي ضد
الاحتكار - المؤتمر العربي في باريس - لا شاتليه يوضح قانون سقاية الفولاذ
الثنائية في عملية الكربنة - هابر يتوصل الى تركيب الامونياك الصناعي -
فرويد : يصدر كتابه : العوالم والتأبو - هسريل : فلسفة مبحث
الظواهرات - باريس : الاكمة المهمة - مارتن ذوغار : جان باروا - بروست :
بحثا عن الوقت الضائع - هيمون : ماريا شبدلين - شارل لويس فيليب :
شارل بلانشار - بيرانديلو - منزل الآخرين - طاغور ينال جائزة نوبل -
جان كوبيو : تاسيس كولبيه القديمة - ج. ابولينير : رسامو التكعية -
سترافنسكي : تكريس الربيع .

١٩١٤ - الازمة الاوروبية - الاضطرابات في الاولستر - الانتهاء من شق قناة بناما
- ه. ن. رسل يبسط نظرات جديدة حول تطور النجوم - اوناييل : العطش
بورديل : السنثور المحتضر - بروكوفيف حاشيه سكيثية ، والبطل الصغير
الرديء .

فهرست الاعلام

- ابييل ٧٢ ، ٧٣
 اتاكاما (صحراء) ١٧٢
 الاتحاد التركي ٥٨١
 اتحاد جنوبي افريقيا ٣٥١
 اتحاد جنوبي افريقيا تكوينه عام ١٩١٠ ، ٣٥٦
 الاتحاد اللاتيني سنة ١٨٦٥ ، ١٩٦
 الانحادات الدولية ٢٠٣ - ٢٠٤
 اثينا ٣١٥ ، ٣٣٤ ، ٥٣١
 اتيك ٣٣٣
 اثيوبيا ٤٤٥ ، ٤٤٦
 الاحراج : استثمارها ١٦١ - ١٦٣
 احمد بك آغا ٥٨١
 ادامو ٤٤١
 ادر ، كليمان ٥٢٥
 ادريا ٥٦
 ادرياتيك ، بحر ، انظر : البحر الادرياتيكي
 ادفو ، مكتشف السيار نيتون ٣١
 ادلايه ٣٦٠ ، ٣٦٣
 ادلر ٦٠٩
 ادنبره ٤٠ ، ٤١ ، ١٣٩
 ادوار السابع ٢٤٧
 الاديج ٨٥
 اديسون ١٧٤ ، ٥٢٣ ، ٥٤٤
 اذربيجان ١٢١
 اراغو ٣٢ ، ٤٨ ، ١٠٣ ، ١٣١
 اراكان ٤٧١
 الارجننتين ١٦١ ، ١٦٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٥١٢ ، ٥٢٥ ، ٥٩٥
 ارخميدس ٥١
 ارسطو ٦١٥
 ارسونفال ١٣٨
 الارض الجديدة ١٦١
 آدم ١١٢
 آدم سمث ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٤
 آدال ، بحر ٤١٩
 آربولد ، ماتيو ٢٥٧
 آسيا ١١ ، ٥١ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢ ، ٤٨٠ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥٢٢ ، ٥٧٩ ، ٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٩ ، ٤٨٥
 آسيا الجنوبية ١٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٧١
 آسكا ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٦ ، ٣٤٩ ، ٤٨٦ ، ٥١٦
 آسكا - شراء اميركا لها (عام ١٨٦٧) ٢٢٣
 آلامور ، نهر ٤٨٢ ، ٤٨٥
 الابالاش ، جبال ١١٠ ، ١٦٩
 اباش ٢٤٦
 ابوت ١٣٦
 ابردير ، اللورد ٢١٧
 ابرفيلد ٦٨
 ابسن ٢٥٩ ، ٣١٢ ، ٥٣٢
 ابشتين ٥٣٦
 ابنين ، جبال ٢٦ ، ١٨١
 ابولينير ٥٣٢ ، ٥٣٦
 ابيا ، ادولف ٥٣٣
 ابير ٣٣٣ ، ٣٣٧
 ابيقوز ٢٦٠

الارض : العناية بها في أوروبا ١٥ - ١٩
 ارغان ٣٧ ، ٢٨
 اوكسون ، نيلز ٤٢ ، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ٣١٢
 اركوتسك ٤٨٥
 ارمسترونغ ١٢٧ ، ١٢٩
 ارمينيا ١٣ ، ١٤٩ ، ٤١٢ ، ٥٨٠
 ارنالوط ٣٣٦
 ارنولد ٨٠
 الاروكان ، اقوام ٣٩٥
 اروبين ، واشنطن ٧٥
 اريحا ٤١٢
 اريكويا ٣٩٦
 ازغليو ٤٥
 ازمر ٤١٢
 اسام ١٦٢
 اسبانيا ٣٩ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٦٣ ،
 ١٧١ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٥ ، ٢٥٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ،
 ٥٣٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٨ ،
 ٦١٢
 الاستانة او استانبول ٣٣٥ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
 ٤١٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨١
 استربازي ، امراء ٢٧٢
 الاستعمار في أوروبا في منتصف القرن الـ ١٩
 ١١٢ - ٢١٥
 الاستعمار في افريقيا الغربية ٤٤٣ - ٤٤٤
 استور ، جون ٣٦١
 استوريا ٢٨ ، ٣١٩
 استون ٥٢٩
 اسطفان القديس ٣٢٧ ، ٣٣٢
 اسون ٣٨
 اسكندر الثاني ، القيصر ٣٣٠
 اسكتلندا ٨٠
 الاسكندرية ١٣٦ ، ٢٨٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 الاسكيمو ٣٤٩
 اسلندا ٢٢٥
 اسماعيل الخديوي ١٨٨ ، ٢١٩ ، ٤٢٢ ،
 ٤٢٥
 الاسلام : العالم الاسلامي ٤٠٤ - ٤٠٨

الاسلام : ثورته في الصين ٤٩٠ - ٤٩١
 الاشتراكية : استعمالها لأول مرة ١٠٠
 الاشتراكية : احزابها ٢٩٢
 الاشتراكية : والفوضوية ٢٩١ - ٢٩٣
 اشانتي ٢٢١ ، ٢٢٢
 اشلي ٨٠
 اصفهان ٤١٥ ، ٤١٦
 الاصلاحات العثمانية ٤١٥
 الاعلان والدعاوة ٢٠٦
 اغادير ٦١٠ ، ٦١١
 اغمونت ٧١
 اغينالدو ٤٧٧
 افريقيا ١١ ، ٧٦ ، ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،
 ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٧ ،
 ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٨ ، ٣٦٠ ،
 ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٧ ،
 ٤٤١ ، ٥١٥ ، ٥٧٩
 افريقيا الجنوبية ١٦٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
 الافغاني ، جمال الدين ٥٨٠
 افغانستان ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠
 افلاطون ٢٥٩
 اقليمس الثاني عشر البابا ١٠٠
 الاكراد ٤١٠ ، ٤١١
 اكس لاشابل ٤٧ ، ١١٥
 اكسالوف ٢١٥
 اكسفورد ٣١ ، ١٤٨
 اكشور اوغلو ٥٨١
 الاكوادور ١٦٣ ، ٣٨٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦
 الالب ، جبال ٢٧ ، ١٨٠ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ،
 ٣١٥
 البا ، جزيرة ١٠١
 البانيا ٣٣٥ ، ٣٣٧
 البردي ٣٩٤
 البير الاول ، امير موناكو ١٤٣
 الناي ، جبال ٤٨٢ ، ٤٨٥
 الجن ، اللورد ٣٥٤ ، ٤٩٠
 الانزاس واللورين ٩٤ ، ١٢٦ ، ١٥٨ ،
 ١٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٢٥
 الفونس الثالث عشر ٢٤٧

الارض : العناية بها في أوروبا ١٥ - ١٩
 ارغان ٣٧ ، ٢٨
 اوكسون ، نيلز ٤٢ ، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ٣١٢
 اركوتسك ٤٨٥
 ارمسترونغ ١٢٧ ، ١٢٩
 ارمينيا ١٣ ، ١٤٩ ، ٤١٢ ، ٥٨٠
 ارنالوط ٣٣٦
 ارنولد ٨٠
 الاروكان ، اقوام ٣٩٥
 اروبين ، واشنطن ٧٥
 اريحا ٤١٢
 اريكويا ٣٩٦
 ازغليو ٤٥
 ازمر ٤١٢
 اسام ١٦٢
 اسبانيا ٣٩ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٦٣ ،
 ١٧١ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٥ ، ٢٥٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ،
 ٥٣٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٨ ،
 ٦١٢
 الاستانة او استانبول ٣٣٥ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
 ٤١٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨١
 استربازي ، امراء ٢٧٢
 الاستعمار في أوروبا في منتصف القرن الـ ١٩
 ١١٢ - ٢١٥
 الاستعمار في افريقيا الغربية ٤٤٣ - ٤٤٤
 استور ، جون ٣٦١
 استوريا ٢٨ ، ٣١٩
 استون ٥٢٩
 اسطفان القديس ٣٢٧ ، ٣٣٢
 اسون ٣٨
 اسكندر الثاني ، القيصر ٣٣٠
 اسكتلندا ٨٠
 الاسكندرية ١٣٦ ، ٢٨٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 الاسكيمو ٣٤٩
 اسلندا ٢٢٥
 اسماعيل الخديوي ١٨٨ ، ٢١٩ ، ٤٢٢ ،
 ٤٢٥
 الاسلام : العالم الاسلامي ٤٠٤ - ٤٠٨

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٥٠٠ ،
 ٥١١ ، ٥٩٦ ،
 اميركا الوسطى ٦٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 اميركا الوسطى : جمهورياتها المختلفة
 ٣٩٨ - ٣٩٩ ،
 اميركا اللاتينية او الجنوبية ١٩ : ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ٢٠٧ ،
 ٢٢٥ ، ٢٦٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ ،
 ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٤٠٣ ،
 ٥١١ ، ٥٢٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،
 اميركا اللاتينية : تحريرها ١٠٦ - ١٠٨ ،
 انابولونا ١٩ ،
 اناتول فرانس ٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٣١٧ ، ٥٥٣ ،
 ٦١١ ،
 اناضول ٤٠٠ ،
 اناكرا ٢٢١ ،
 انام ٢٢٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،
 انامايكر ١٢٧ ،
 الانتيل ، جزر او بحر ١١٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ٢٢٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٥٣ ،
 انجلس ٧٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٩٣ ، ٦٠٠ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ،
 انجه ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،
 انجيه ، اوفيد ٧٤ ،
 الاندد ، مقاطعة ١٧ ،
 اندراد ٣٩٠ ،
 اندرال ١٣٥ ،
 اندرسن ٧٣ ،
 الاندس ، جبال ١٠٦ ، ١٦١ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
 الاندلس ٦٥ ،
 اندونيسيا ١٤٩ ، ١٦١ ،
 انديانا ، ولاية ١١٠ ،
 الانسولاند ٤٧٢ ،

الليزيا ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
 الومير ٤٧١ ،
 الماذن ٥٦ ،
 ١٢٥ ، ١٣١ ،
 المانيا ١٢ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ،
 ٤٧ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٩ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
 ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ،
 ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
 ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
 ٣٦٤ ، ٤٧٣ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٦ ،
 ٥٨١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦١٣ ،
 المانيا الكبرى او العظمى ٨٦ ،
 المانيا الصغرى ٨٦ ،
 الميرايت ، الملكة ٢١٥ ،
 المينوي ، ولاية ١١٠ ،
 الميون ٩٦ ، ٢٥٩ ،
 الاسازون ١٦١ ، ١٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٢ ،
 امازونيا ٣٧٦ ، ٥٢١ ،
 امبير ٣٢ ،
 امثل - ماير ٥٦ ،
 امرسون ١١١ ،
 امستردام ٥٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٥ ، ٦٠٢ ،
 ٦٠٧ ،
 امهرا ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 امور داريا ٤٢٠ ،
 اموندسن ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 اميركا ١٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٠٥ ، ١٥٤ ،
 ١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٩ ،
 ٢٦٧ ، ٣١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ،
 ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٦١٦ ،
 اميركا الشمالية ١١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ،

انسى ٨٩

انشتاين ، البرت ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٦١٧

انقر ، الرسام ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤

انقرت ١٨٠

انغولا ٢٢٥ ، ٤٥٠

انقرس ٤٢ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٤٥ ، ٣١٢

الانكا ٣٨١

الانكسارية ٣٣٤

انكلترا ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢

٢٣ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤

٤٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٠

٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦

٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٤

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥

١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٨٠

١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٥

٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢

٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨

٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨

٣١٨ ، ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧

٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٦

٤٣٦ ، ٤٦٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥١٥

٥١٩ ، ٥٣٠ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٩٣

٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٣

٦١٥ (انظر كذلك : بريطانيا العظمى)

انكلترا الجديدة ١١١ ، ١١٣

انبر ٤٧

اوادي ٤٤٢ ، ٤٤٦

الابوثة ١٢ - ١٤

اوبر ٧٥

اوبريان ٩٩

اوبريتوفتش ٣٣٥

اوبوك ٤٤٧

اوبير ٢٤٩

اوبي ٤٨٧

اوتوا ٣٥٥

اوجيه اميل ٢٥٠ ، ٢٥٨

اوجيني ، الامبراطورة ١٨٧

اودونل ٢٢٥

الاورال ١٧١ ، ٤١٩ ، ٤٨٥

اورانج - ناسو ٢١٨ ، ٣١٣

اورشليم ٤١٣

اورغا ٤٨٧

اورليان الجديدة ٤٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥

اوروبا ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٩ ، ٤٥ ، ٥٦

٥٦ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩١

٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٩

١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠

١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠

١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨

٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٦

٣١٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠

٣٥٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣

٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٤

٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥

٤٧٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥١٠ ، ٥٢٤

٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥

٥٩٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧

٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩

اوروبا الشمالية ١٦١ ، ٣٥٢ ، ٧٣٦

اوروبا الغربية ١٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٢١ ، ١٦١

اوروبا الوسطى ٢٩ ، ٣١ ، ٨٠ ، ١٠٣

١٠٣ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٧ ، ٢٦٥

٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣١٨ - ٣١٩

اوروبا المتوسطة ٣١٨ - ٣١٩

اوروبا الشرقية ٢٨ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ٣٢٦

٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٢ ، ٣٨٩

٣٨٩ ، ٣٨٤ ، ٣٧٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤

٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٤٥٩

اوديسا ٥٩٩

اوريفون ، معاهدة ١٠٩ ، ٢١٦

اورموز ٢٣١

اوريتوك ٣٩٧ ، ٤٠٠

اوزاكا ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥١٣
 اوزيرن ١٣٤
 اوسترادال ٣١١
 اوستراليا ٥١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ،
 ٤٦١
 اوستراليا الجنوبية ١١٨ ، ٣٥٥
 اوستياك ٣٤٩
 اوسكار الاول ٣١٢
 اوسكار الثاني ٣١٢
 اوغدار ١٤٩
 اوغست ٢٢٣
 اوغندا ١٦٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨
 اوفنباخ ١٤٢
 اوقيانيا ١٤٩ ، ١٥٤ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٩ ، ٣٣٤ ، ٤٥٥ ، ٦١٤
 اوكرانيا ٣٤٢
 اوكتور ٩٩
 اوكلاند ١٢٠
 اوكنيل ٨٠ ، ٣٠٩
 اوكوبو شيميشي ٥٠٠ ، ٥١٠
 اولستر ٣٠٩
 اولبيا ، سهول ١٠٦
 اوليانوف ، شقيف لنين ٣٤٠
 اومسك ٤٨٥
 اونتاريو ١٦٥ ، ٣٥١ ، ٣٦٠
 اونفارتى ٥٣٢
 اونيفا ، بحيرة ٤٣
 اوهابو ، نهر ٤٣
 اوبيه ، جزيرة ٣٣٣
 اوين ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ٢٨٨
 ايار ، تعطيل اول ٠٠٠ من كل سنة : قرار
 المؤتمر الشيوعي المعقود في باريس
 عام ١٨٨٩ ، ٢٩٤
 اياكواسو ١٠٧
 الايبرية ، شبه الجزيرة ٢٨ ، ٧٨ ، ٨٤ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٣١٩ ،
 ٣٣٣
 ايتافاكي ٥٠٠
 ايتوهيرومي ٥٠٠
 ايتيوربيد ١٠٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩
 ايرارد ٧٤
 ايراستراس ٥٢٩
 ايران ١٣ ، ٧٦ ، ١٢٠ ، ١٩١ ، ٤١٩ ،
 ٤٦٥ ، ٥٨٠
 ايراوادي ، نهر ٤٧١
 ايرلندا ٦٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٥٠ ، ٨٠ ،
 ٨٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣٥١ ، ٥١٢ ، ٥١٥
 ايرلندا - كفاح شعبها ٣٠٩
 ايريه ، بحيرة ١٨٣
 ايزمير ٣٠٦
 ايرنباخ ٢٩٦
 ايستمان ١٧٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٤٤
 ايشبورن ، آل ٥٥
 ايطاليا ١١ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٨٢ ، ٢١١ ،
 ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٤ ، ٣٠٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٢ ، ٣٨٠ ، ٥١٨ ، ٥٤٢ ، ٥٨٠ ،
 ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٨ ،
 ٦١٢
 ايفانس ٤٤
 ايفل ١٧٠ ، ٥٤١
 ابكار ٥٢٤
 ايكerman ٣٣
 الايلب ، نهر ٤٢
 ايلو ٢٥٢
 ايلي ٤٨٢
 ايونفوس ٩٦
 الايونيه ، الجزر ٣٣٣

اوزاكا ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥١٣
 اوزيرن ١٣٤
 اوسترادال ٣١١
 اوستراليا ٥١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ،
 ٤٦١
 اوستراليا الجنوبية ١١٨ ، ٣٥٥
 اوستياك ٣٤٩
 اوسكار الاول ٣١٢
 اوسكار الثاني ٣١٢
 اوغدار ١٤٩
 اوغست ٢٢٣
 اوغندا ١٦٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨
 اوفنباخ ١٤٢
 اوقيانيا ١٤٩ ، ١٥٤ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٩ ، ٣٣٤ ، ٤٥٥ ، ٦١٤
 اوكرانيا ٣٤٢
 اوكتور ٩٩
 اوكلاند ١٢٠
 اوكنيل ٨٠ ، ٣٠٩
 اوكوبو شيميشي ٥٠٠ ، ٥١٠
 اولستر ٣٠٩
 اولبيا ، سهول ١٠٦
 اوليانوف ، شقيف لنين ٣٤٠
 اومسك ٤٨٥
 اونتاريو ١٦٥ ، ٣٥١ ، ٣٦٠
 اونفارتى ٥٣٢
 اونيفا ، بحيرة ٤٣
 اوهابو ، نهر ٤٣
 اوبيه ، جزيرة ٣٣٣
 اوين ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ٢٨٨
 ايار ، تعطيل اول ٠٠٠ من كل سنة : قرار
 المؤتمر الشيوعي المعقود في باريس
 عام ١٨٨٩ ، ٢٩٤
 اياكواسو ١٠٧
 الايبرية ، شبه الجزيرة ٢٨ ، ٧٨ ، ٨٤ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٣١٩ ،
 ٣٣٣

٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٦ ،
 ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
 ١٢٨ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٤١ ،
 ٤٥٦ ، ٥٠٤ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ،
 ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٦٠٢ ، ٦١٣ ،
 • باريس معرض (١٨٧٨) ١٧٨
 باريس مؤتمر شيوعي (١٨٨٥) ٢٩٣
 باريسو ٦٠
 بازي ، سايك ٦١
 باستور ١٣٦ ، ٥١٢
 باستي ، فريديريك ٦١١
 باستيا ١٩٩
 باستيان ٢١٤
 باستيان - له باج ٥٣٦
 الباستيل ١٠
 الباغيرمي ٤٤٢
 بافاريا ٢٦٢ ، ٣٣٤
 باقي ٢٢٣
 باكر ، صموئيل ٤٤٥
 باكو ٣٤٢ ، ٥٢٠ ، ٥٨٠
 باكونين ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٦٠٨
 بال ٤٧ ، ٢٤٥ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٥٩٨ ،
 ٦١٠
 بالارا ١٩٤
 بالاكلانا ١٩١
 بالفرايف ٤١٣
 بالماسيدا ٣٩٥
 بالي ٤٧٣
 باليكو - سلفيو ٧٨
 بامير ، جبال ٤١٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧
 باهاما ٤٠٠
 بان ١٤١
 باغارسن ٤٧٣ ، ٤٧٤
 باتوك ٤٧٧ ، ٤٧٩
 باهيا ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
 باي تونس ٤٢٦
 باير ١٧٣ ، ٤٢٠
 بايز ٣٩٧

ب

الباب ٤٠٦ ، ٤١٧
 الباب العالي ٤٢٥ ، ٤٢٦
 باب المندب ٢٣٠
 بايست ، جان ٨٤
 بابل ٤١٢
 بابوف ٩٩
 البابوفية ١٠٠
 البابوية ، الدولة ٨٦
 البابية ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٧
 باتات ، مقاطعة ٣٢٢
 باتافيا ٤٧٦
 باترسون ٢٦٦
 باترة ٢٥٩
 باتنبرغ ، الامير اسكندر ٣٣٦
 باج ٧١
 باجه ، فريديريك بوشان ٢٢١
 بادن ٢٧ ، ٢٥٢
 بادن باول ٥٣١
 بادو ، مدينة ٤٥
 بارا ٣٨٢ ، ٣٩٢
 البارانا ١٨٣ ، ٣٩٢
 باراغواي ٢٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٤
 بارباد ٤٠١
 بارت ١٤٥
 بارتوف ٦٠٥
 بارث ٤٤١
 بارسونز ٥١٧
 بارفيه ، نوبل ٢٦٠
 بارم ، دوقية ٢٧
 بارمن ٦٨ ، ٣١٩
 بارنيل ٣١٠
 باربوم ٢٠٦ ، ٢٥٠
 باري ٧٤
 باريتو ١٤١ ، ٢٠٨ ، ٦٠١
 باريس ، موريس ٢٤٣ ، ٢٨٠ ، ٥٣١ ،
 ٥٤٠
 باريس ٨ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٣٧ ،
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

برايت ١٣٥
 برازا ٢١٨ ، ٤٤٩
 البرازيل ١٠٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٦٣ ،
 ١٨٣ ، ٢٢٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
 ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٩٦
 الولايات المتحدة البرازيلية ٣٨٩ - ٣٩٢
 براسي ٢٠١
 براغ ، مدينة ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
 براغرانس ، اسرة ٣٢٠ ، ٣٩١
 براك ٥٣٩
 برانلي ، ادورد ٥١٩
 البراهما ٤٦٢
 براهمز ٢٥٩
 براين ٤٠
 برايل ٣٩
 برايب ، جاكوب ١٩١
 البريخ ٢٦٢
 بريزون ٢٥٧
 برتران ، لويس ٥٧٩
 البرتغال ١٣ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٧٧ ،
 ٥٩٦
 برنلو ، مرسلين ١٢٣ ، ٥٤٣ ، ٦١٧
 برتوك ، ييلا ٥٣٥
 برنولييه ٣٢
 برت ١٩٥
 برجفلسكي ١٤٦
 برجيس ١٧٤
 برزيليوس ٣٣
 برست ١٨٦
 برسلو ، مدينة ٢٥
 برشلونة ٢٤٥ ، ٦٠٩
 برسيغال ٢٦٢
 برغسون ٢٦٣ ، ٥٤٤ ، ٦٠١ ، ٦١٥ ، ٦١٧
 بركنز ، جون ٢٩
 بركنس ، جاكوب ١٧٣
 بركان فوجي واساما ٤٩٥
 برلين ١٣ ، ٤٧ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٥١

بايكال ، بحيرة ١٨٢ ، ٢٢٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦
 بتروفتش نيفوس ٣٣٤
 بتسبرغ ، مدينة ١١٠ ، ١١١ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ٣٧٠
 بشيلي ٤٥٩
 بتوفن ٧١ ، ٧٢
 بتييه ١٨٠
 بجرسن ٢٥٩
 البحر الاحمر ١٥١ - ١٨٤ - ٢٣١ - ٤٣٧
 ٤٣٨ ، ٤٤٢
 البحر الادرياتيكي ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ،
 ٤٦١ ، ٥٣٢
 البحر الاسود ١٢٥ ، ١٨٣ ، ٣٣٦
 بحر ايجيه ٣٣٣ : ٥٣٢
 البحر البلطقي ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٥٧ ،
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٥٣٢
 البحر الشمالي ٢٦ ، ٤٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ،
 ٢٤٧ ، ٣٢٤ ، ٣٥٠
 بحر الصين ٢٣٠ : ٤٧١
 بحر قزوين ١٨٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ،
 ٤٢١ ، ٥٢٢
 بحر الهند ١٨٧
 بحر الغزال ٤٤٦
 البحر الابيض المتوسط ١١ ، ١٣ ، ١٧ ،
 ٤٥ ، ٧٦٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٨٧ ،
 ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٦ ،
 ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٤٢٦
 البحرين ٢٣١ ، ٤١٣
 بحيرات : اونيفا ٤٣
 بحيرة ايريه ٤٣ ، ٤٤
 بحيرة بايكال ٢٢٨
 بحيرة لونشان ٢٥٣
 بحيرة لادوغا ٤٣
 البخار قوة محرك ٤٩ - ٥٢
 البخار في خدمة المواصلات ١٧٩ ، ١٨٢
 بخاري ٤٠٨ ، ٤٢٠
 بخارست ٣٣٥
 بدرو الاول ٣٩١
 بدرو الثاني ٣٨٦ ، ٣٩١
 بدفورد ، آل ٢٠ ، ٢١

٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣٣١
 برومانيي ٣٢٩
 بروموتيه ٨ ، ٧١
 برون ، سيكار ١٣٨
 برونتيه ، الاخوات ٩٦
 بوونسويل ١١٩
 برونيل - مارك ايزنمبار ٣٦
 بروننغ ٢٥٦
 برونو ، بوير ١٤٠
 برويستر ، دافيد ٣٢
 برويل ٢٧٨ ، ٥٣٠
 بريثانيا ٢٦٥
 بريتوريا ١٩٦
 بريدجس ٢٦٣
 بريستان ، فلورا ٩٧
 بريستول ١٨٦
 بريشل ١٧٤
 بريغز ٣٠٠
 بريغو : برادول ٣١٥
 بريفيه ٤٩
 بريم - جريرة ٢٣٠
 بريمن ٤٧ ، ٥٥ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥
 برييه : كريمير ١٣
 بريطانيا العظمى ٢٠ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ١٠٣ -
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ -
 ١٣٤ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٠ -
 ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ -
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ -
 ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ -
 ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ -
 ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ -
 ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٣ -
 ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ -
 ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٩٣ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ (راجع كذلك : انكلترا)
 بسارابيا ٣٣٦ ، ٣٤١
 بستار ٥٣٨
 بستيل ٣٠
 بستيا ٦٤ ، ٩٧ ، ٢٨٥
 البشك ، مقاطعة ٢٨
 بشكير ٤١٩

١٨٣ ، ٢٠٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ،
 ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣٦ ، ٥٠٤ ، ٥٤٢ ، ٥٨١ ، ٥٩٩ ،
 ٦١٣
 برلين مؤتمر (١٨٨٥) ٢١٨
 برلين مؤتمر ... للعمال ، عام ١٨٨٩ ،
 ٢٩٧
 بربوز ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٥٠ -
 برمنغهام ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٢٤٦ -
 ٢٩٨ ، ٢٥١
 برمودا ٤٠٠
 برن ٣١٥ ، ٥٩٤
 برنادوت ٣١٢
 برنار ، تريستان ٤٩ ، ٥٣٢
 برنار ، كلود ٦١٧
 برناردت او برنار ، ساره ٢٥٠ ، ٥٣٣
 برناميوك ١٦٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
 برنتانو ٢٩٦
 برنشتين ٦٠١ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠
 برو ٣٦
 بروكوفييف ٥٣٥
 برودون ٢٦ ، ٦٧ ، ٩٥ ، ١٣٠ ، ١٩٨ -
 ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ -
 ٣٠٠ ، ٥٩٨
 بروسيا ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٧ -
 ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٩٥ -
 ١١٥ ، ١٢٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ -
 ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ -
 ٣٢٧ ، ٣٣٠
 بروست ٣٢
 بروسيه ١٣٥
 بروغهام ، اللورد ١١٩
 بروكا ١٣٨
 بروكسل ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٩٨ ، ١٥١ -
 ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ -
 ٢٧٨ ، ٣١٤ ، ٦١٠
 البروليتاريا ١٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ،
 ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٣٠ -
 ٢٣٨ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٢٩١
 (البروليتاريا والكومون) ٢٩٢ -
 ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٦ ،

البلق ٨٥
 البلقان ١٨١ ، ٢٢٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٤١٠ ، ٥٨١ ،
 ٦١٢
 البلقان ، بروز دولها ٣٣٣
 بلوتيه ٣٣
 بلاتشكي ٣٣١
 بلاخانوف ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩
 البلادالوطاية ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ،
 ٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٢
 بلان ، لويس ٩٦
 بلان ، موريس ٢٩٩
 بلانفيل ٣٤
 بلانكي ٨٧ ، ٨٩ ، ١٩١ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ،
 ٦٠٧
 بلانكيت ١٥٠
 بلايل ٧٤
 بلمرستون ٢١٤
 بلميتس ، الاب ٧٩
 بلميه ٢٥٢
 بلوك مارك ١٣٧
 بلونت ٤٠٤
 بلوتيه ٥٩٧ ، ٥٩٨
 بليز ٢٣١
 بليريو ، لويس ٥٢٥
 بمباي ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،
 ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٥٧٨
 بناما ١٠٨ ، ١٣٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ،
 ٣٩٧
 بناما ، قناة ١١٤
 بنت ٣٧٣ ، غوردون بنت ٥٩
 بنتام ٣٠٥
 بنتنك ، اللورد ٤٦٨
 بنتهام ٢٩٥
 بنجاب ١٦٥ ، ٤٦٦
 بنجر ٤٤٤
 البندقية ٢٧ ، ٣٧ ، ٩٣ ، ١٠٢
 بندكتوس الرابع العشر ، البابا ١٠٠
 بنديفو ١٩٤
 بنسلفانيا ٤٣ ، ٤٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٣٥٧ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٦١٥

بسم ١٧٠ ، ٢٠١
 بسمارك ٢٠ ، ١٢٧ ، ٢٠٧ ، ٢٢٤ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٣٢٣
 بطرسبرج ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٢١٦ ، ٢٤٢ ،
 ١٥١ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٤٨٥ ، ٦٠٢ ،
 ٦٠٤
 بطرسبرج مؤتمرها لتحريم رصاص دمدم
 (١٨٦٨) ٣٠٦
 بطرس الاكبر ٤١٤ ، ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٩٤
 بغداد ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ،
 ٥٨٠
 البقاع ، سهل ٤١٢
 بكنسكي ٩٦
 بكتريان ٤٢٠
 بكريل ، انطوان ٣٢ ، ١٣١
 بكر ٢٥٦
 بكين ١٨٢ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،
 ٥٧٧
 بل ، غريهام ١٩١
 بلتار ٢٤٥
 بلجيكا ١٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٨٦ ، ٩٢ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٧١ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ،
 ٢٤٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ،
 ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٩ ،
 ٥١٤ ، ٥٣٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
 بلخ او بختيار القديمة ٤١٨
 بلدوين ٤٥
 بلزالك ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٣ ،
 ٧٨ ، ١٠٣ ، ٢٥٨
 بلزن ، مدينة ٣٣١
 بلشفيك ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥
 البلطقي ، البحر ، انظر البحر البلطقي
 بلطيمور ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ١١٠ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٠
 بلغاريا ٣٣٦ ، ٣٣٧
 بلغاريا ، اللاسي البلغارية ٣٣٦
 بلغراد ٣٣٢ ، ٣٣٤
 بلغاست ٢٢

٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٢٨ ، ٣١٦ ، ١٢١
 البورجوازية الرأسمالية ١٩٣
 يوردو ٤٠ ، ٤١
 يوردوين ٣٤٤
 يورديل ٥٣٦
 يور لويس ٤٥٣
 يورسفيد ١٨٨ ، ٤٢٥
 يورسل ١٧١ ، ٥٣٥
 يوسويه ٧٦ ، ٧٩
 يورغوس ، مدينة ٦٥
 يورك ٧٦
 يوركوبين ١٩٥
 يورما ١٢٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ،
 ٤٦٢ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٧
 يورن ٩٦
 يورن جونز ٢٥٦
 يورنو ٤٤١ ، ٤٤٢
 يورنيو ١٤٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 يوريل ، اميل ٥٢٩ ، ٥٤٤
 يوزين ٤٧
 يوسطن ٤٥ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٦٢ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٤
 اليوسفور ٤١٢
 يوستانيا ١٦٩
 يوسنه ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٦١٢
 يوشكين ٧١ ، ٧٢ ، ٣٤٤
 يوشير ٢٩٩ ، ٤١٦
 يوغاتشيف ٤١٩
 يوغنفييل ٤٧٧
 يوغوتا ١٨٩ ، ٣٩٧
 يوفالو ١٨١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧
 يوفوار ٤٧٦
 يوفون ٣٣
 بوكنفهام ٢٤٥ ، ٢٤٧
 بوكوفينا ٢٧٢ ، ٣٢٩
 بولتزمن ١٣٣
 بولزتي ، آل ٢٧١
 بول برت ١٣٨
 بولمان ٣٦٥
 بولونسو ٣٩
 بولوني ٢٨ ، ٥١

بنسلي ٣٨
 بنفال ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٥٧٩
 بنكوك ٥٧٨
 بنوم - بنه ٤٧٩
 بنبيخ ١٦٥
 بهاء الدين ٤٠٦ ، ٤٠٧
 بهادوس ، احمد خان ٤٠٧
 بهرينغ ، مضيق ١٠٨
 بو ، ادغار الن ٢٥٧
 البو ، نهر ١٨ ، ٢٧ ، ٣٢١
 البواتو ١٩
 بوانكاريه ، هنري ١٣٢ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ،
 ٦٠٥
 بوبل ٢٤٦
 بوبوف ٥١٩
 بوترون ٥٤٤
 بوتسن ١٧٤
 بوتشيني ٢٥٩
 بوتليروف ٣٣
 بوتمكنين ، الطراد ٦٠٣
 بوتوسي ٣٨٤
 بوجه ٥٩٨
 بوجو ، الجنرال ١٣ ، ٩٤ ، ٢٢٢ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٤
 بودابست ٤٥ ، ١٠٢ ، ١٨٠ ، ٢٧٧ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣
 بودلير ٢٦٠ ، ٢٦٣
 بودمير ٣٦
 بودين ١٩٧
 بورا ١٣٩
 بوديون ، آل ٢٣ ، ٤٢
 بوديون في ايطاليا ٢٨
 بوديون ، جزيرة ٤٥٣
 بورت ارثور ٤٩٣ ، ٦٠٣
 بورت بلير ٤٧٠
 بورتلاند ٧٧ ، ٢٨٦
 بورتو ٣١٩
 بورتوريكو ١٠٧ ، ٢٢٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١
 بورجر ، وليم ٢٤٩
 البورجوازية ١٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ٦٨ ،
 ٧٠ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣

- بولونيا ٨٢ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٧٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ،
بوليفار ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣٨٩ ،
٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ،
بوليفيا ١٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ،
٣٩٦ ، ٣٩٥ ،
بولينا ١٩ ،
بوليه ٣٢ ،
بون ١٤٣ ،
بونابرت ٤٢٤ ،
بونار ، الاميرال ٤٨١ ،
بونالد ٧٦ ،
بونتين ، مستنقعات ٢٨ ،
بونج ٣٤٢ ،
بوندشري ٤٥٣ ،
بونرو ٦٠ ،
بونس ١٣٣ ، ١٧٢ ،
بوينس ايرس ٢٠٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٥١٣ ، ٦١٢ ،
بوهل ٣٤٢ ،
بوهم ، باروك ٥٥٣ ،
بوهيميا ١٨ ، ١٠٨ ، ١٦٧ ، ٢٤٧ ، ٣٢٧ ،
٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٥٣٦ ،
بويتزورغ ٤٧٦ ،
البويرز ١١٨ ، ١٢٠ ، ٦٠٩ ،
بيارتز ٢٥٢ ،
بيالنسكي ٢٥٨ ،
البیان او النداء الشيوعي او بيان الستين
٩٥ ، ٩٧ ، ٢٩٢ ،
البیان ، بيان الدولية الاولى ٩٥ ، ١٩٣ ،
٢٩٠ ، ٢٩٣ ،
بيبيدي ٣٧٤ ،
بيبل ٦٠٥ ، ٦٠٩ ،
البيامونت ٩٣ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ،
بيترز ، الدكتور ٢١٦ ،
بيتر ، سجل ١٤٢ ،
بيترمن ١٤٧ ،
بيتس ٥٣٢ ،
بسر ٥٢٩ ،
بيرار ، اميل ٤٧ ،
بيرار ، فكتور ٥٧٧ ،
- بيرانجه ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٢٤٧ ،
بيزار ٥٧ ،
بيشا ٣٤ ،
بيكار ، اميل ٥٢٩ ،
بيكارديا ٢٣ ،
بيرنغ ١٤٧ ، ٢٨٦ ،
بيرنيه ١٨١ ،
البيريو ١٠٦ ، ٢٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٤ ، ٤٦١ ،
بيروث ٢٦٢ ،
بيروسكاف ٥٠ ،
بيروفسكي ١٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ،
بيرون ، اللورد ٤٧ ، ٧٢ ،
بيرونو ، قيصر ٦٩ ،
بيري ١٤٦ ،
بيريفو ٥٥ ،
بيريه ، كازمير ٨٤ ،
بيغي ٢٧٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٥ ، ٦٠٩ ،
بيكور ٩٨ ،
بيكاسو ٥٤٠ ،
بيل ١٩ ، ٢١ ، ٩٩ ،
بين النهرين ٤١٢ ،
بينه ، الفرد ٧٣١ ،
بينو ، اشيل ٩١ ،
بيهور ٣٣٢ ،
البيريتانية ٩٩ ، ١١١ ،
بيوزي ٨٠ ،
بيوس السابع ، البابا ٧٩ ، ١٤٩ ،
بيوس التاسع ، البابا ٨٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
٢٤٨ ، ٢٩٤ ،
بيوس العاشر ، البابا ٥٥٣ ،
بيوناردي ٩٩ ، ١٠٠ ،
بييردي كوبرتين ٥٣١ ،
بيير بونت مورغان ٣٧٣ ،
ت
التاجيك ٤٢١ ،
تارتو (دوريات) ٣٢٩ ،
تاريم ، وادي ١٤٦ ، ٤٨٧ ،
تاسريم ٤٧١ ،
تافت ٥١٥ ،

تشاد ١٤٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ،
٤٤٥

تشانغ-سي-تونغ ٤٩٢
تشايكوفسكي ٣٤٤
نشرسكي ١٤٦
تششني ٢٩
تشمبرلن ٢١٥ ، ٢٩٨
تشيبشيف ٥٤٤
تشيتا ٤٨٥
تشيوخوف ٢٥٩ ، ٣٤٤
تشيكوسلوفاكيا ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١
تشي - كيانغ ٤٨٤
تطوان ٢٢٥
التعليم في أوروبا ، مشاكلة ٢٧٩ ، ٢٨٠
تغانيني ٧٤
تكساس ١١٠ ، ١١٦ ، ٣٥٩ ، ٣٩٩
تلييه ، شارل ١٧٣
التلغراف البرقي والبري ٤٨ ، ٥٠
تمبوكتو ٤٠٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
تناناريف ١٥٠
تنيسون ٢١٥ ، ٢٥٥
التنظيمات التركية ٤١٤
تهوانتيك ٣٩٩
توات ٤٣٨ ، ٤٤٠
توبنجن ، جامعة ٤٦
توبو ٤٤٠
التوراة ٦٠١
تواين ، مارك ٣٧٤
توران ٤٨١
تورغنيف ٢٥٩ ، ٣٣٩
تورغو ٤١
تورينو ٨١ ، ٢٥١ ، ٣٢١
توسكانا ٢٧٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
توسكجي ، جامعة ٣٥٨
توفاليس ٧٢
توفيق باشا ٤٢٥
توكفيل ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٠ ،
١١٤ ، ٢٠٢ ، ٣٣٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ،
٣٩٩
توكومان ٣٨٤ ، ٣٨٥
تولستوي ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤

نافيلالة ٤٣٨
ناكراي ٢٥٩
تالكدار ٤٦٨
تاماني هول ٣٦٧
تالابو ، آل ٦١
تاناناريف ٤٥١ ، ٤٥٢
تاهيتي ٤٥٤ ، ٤٥٦
تاي ، شعوب ٤٧٧
التايتنغ ٤٨٩ ، ٤٩٠
التايمس ١٨٦
تبريز ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٥٨١
تتار روسيا ٥٨٠
تتراس ٣٢٦ ، ٣٣١
تتري ٤٢٨
تراقيا ٣٣٥ ، ٣٣٧
ترانسفال ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،
٢٢١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
ترانسفال ، حرب ١٩٦
ترانسلفانيا ٢٢٩ ، ٢٧٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢
ترانسليتانيا ٣٢٧
الترع الكبرى : السويس وبناما ١٨٧ ،
١٨٨
تركستان ٢٢٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ،
٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٨٥ ، ٥٧٩
تركمانشاه (مقاطعة) ٤١٦
تركيا ، السلطنة العثمانية ١٣ ، ١٢٨ ،
٢٧٦ ، ٣٠٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ،
٥٧٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨١
تركيا ، تقهرها ٣٣٣
تركيا الفتاة ، حزب ٥٨١
ترندلنبورغ ١٣٨
تروتسكي ٣٤٣ ، ٥٩٦ ، ٦٠٤ ، ٦٠٩
تروى ، مدينة ٤٨
تريستا ١٨١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
ترينيداد ٣٩٧ ، ٤٠١
تزارتورسكي ١٠٣
تساليا ٣٣٣
تسوهي ، الامبراطورة ٤٩٤

ث

الثقافة : مسالتها ١٣١
ثمبس ٥٠
ثورنتون ١٥٨
ثيودوروس (النجاشي) ٢٢١
ثيودوروس ٤٤٧

ج

جابلوشكوف ١٧٤
جارك ، رأس ٢٣١
جاري ٥٣٦
جاسون ٤٥ ، ١١٣ ، ٣٦٨
جاكوبي ٣١
جامايكا ١١٧ ، ١٦٤ ، ٢٣١ ، ٤٠٠ ،
٤٧٥ ، ٤٠١
جامس ٥٢٢
جامعة اسلامية ٥٨٠
الجامعة الطورانية ٥٨٠
جان باتيست روما ١٧٥
جان السادس ، الملك ١٠٧
جاوا ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٢٣ ، ٤٥٨ ، ٤٧٣ ،
٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦
جايمس ، وليم ٣٧٤
جيران خليل جيران ٥٨٠
جيسون ٥٣٦
الجبل الاسود او كراداخ ٣٣٤ ، ٣٣٥
جبل الدروز ٤١٢
جبل طارق ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٣١
جريكو ٧٣ ، ٥٣١
الجزائر ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ،
١٥٠ ، ١٧١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ،
٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٣٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٢٥ ،
٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ، ٥١٥
الجزائر ، الحملة عليها ١٢١
الجزائر ، مدينة ٥٠ ، ١٢٠
الجزيرة ، مؤتمر ٢٢٤
جزيرة فرنسا ٤٥٣
الجزيرة العربية ٤١٣ ، ٤٢٥
جكر ٣٨٧
جلبر ١٧٢

توماس ١٩ ، ١٧١

توماس ، امبرواز ٢٤٩

توماس ، البرت ٦١١

تومسك ٢٨٥

تومسن ١٣٣ ، ١٣٤

تونس ١٧٢

تونس ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٣٢٢ ، ٤٠٧ ،

٤١٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،

٤٥٢

تونس ، الحمالية الفرنسية عليها (١٨٨٢)

٤٣٧

تونغوز ٣٤٩

توتكين ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨

توليه ١٣٦

توينبي ٥٥٤

تياري ، اوغسطين ٧٧ ، ٦٠٧

تيان سن ٤٨٧ ، ٤٩٠

تيان-سنغ ٤٩٢

تيان-شيان ٤٨٦

تيبوم ، اقوام ٤٤٠

التيبت ٤٦٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥

تيتليف

تيتوتشيف ٢٦٣

تيتيكاتا ٣٨٦

التيجانيون ٤٠٧

تيد بكتيت ٤٤٠

تيره ٥١٢

تيريون ٥١٢

التيرول ٣٢٩

تيزا ، كولان ٣٣٢

تينسن ٢٠٠

تيغره ٤٤٦

تيلاك ٥٧٩

تيموه ٣٧

تيمورلنك ٤٢٠

تين ١٣٩ ، ٢٥٩ ، ٢٩٦

تير ٦٦ ، ٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩

جيراردين ، اميل ٣٠٥
جيراردين ، سان مارك ٩٣
جيسن ٥٧٢
جيش الخلاص ٢٨٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
جيفارا ٥٢٤
جيفرسون ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥
جيفوتز ٢٠٨ ، ٥٥٦
جيله ، لويس ٦١٨
جيلا تشفيتش ٣٣٢
جينف ٣٠٥ ، ٣٠٦
جيورجيا ١٢١ ، ٣٦٦
جيوليتي ٦٠٨

ح

الحاج عمر السنغالي ٤٤٢
حام ، ابناء ١١٣ ، ٣١٦
حائل ٤١٣
الحبل بلا دنس ، اعلان عقيدة ٢٨٣
الحبشة ٢٢١ ، ٤٠٥
الحجاز ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٥٨٠
الحديد والفولاذ : صناعة ١٧٠ - ١٧٢
حدس ٥٤٠
الحديدة ٤١٣
حرب الافيون ١٢١ ، ٤٨٩
حرب اميركا وانكلترا (١٨١٢ - ١٨١٤)
١٠٨
حرب الباسيفيكي (١٨٧٩ - ١٨٨١) ١٧٢
١٧٨ ، ٣٩٠
الحرب الدانيماركية الالمانية (١٨٥٤) ٣١٠
حرب الباراغواي ٣٩٢
حرب الصين واليابان (١٨٩٤) ٥٠٦
حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) ١٢ ، ١٤٤
٢٥ ، ١٢٩ ، ٤٠٨ ، ٤١٥
الحروب الاوروبية : نفقاتها ١٢٦ ، ١٢٨
الحزب الاشتراكي الديمقراطي ٢٩٢
الحسينية ، الدولة ٤٢٦ ، ٤٣٣
حضر موت ٤١٣
الحفصية ، الدولة ٤٢٦ ، ٤٣٣
حملابا ٤٨٥
الحنبلي ، الشرع ٤٠٧

جلكرست ١٧١
جمال الدين الافغاني ٤٠٧
الجمعية العمالية الدولية ٢٩٢
جنتز ٥٥ ، ٥٧
جنر ١٢
الجنرو (في اليابان) ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢
جنوى ١٨٦
جنيف ٨٠ ، ٣١٥
جواريز ٣٩١ ، ٣٩٩
جوان ، اولف ٢٥٢
جوتلاند ٢٦٧
جورج ٥٣٢
جوردان ، كميل ٥٢٩
جودانه ١٣٨
الجودا ، جبال ٣٠٠ ، ٣١٤
جوردين ، فرانز ٥٤١
جوريس ٢٠٠ ، ٢٧٤ ، ٥٥٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١١
جوزف فرنسوا ٥٤٢
جوزف ، ملك اسبانيا ٢٨
جوزف الثاني ١٠٣
جوزيه ماري دي مريديا ٣٦٠
جوجلار ٢٠٨
جول ٣٣ ، ١٣٣
جولو ٤٧٦
جونز ، الام ٣٦٩ ، ١٩٥
جوميني ١٢٧
جونكوينغ ١٧٤
جوهاردن ٣٣
جوهنسبورغ ٣٧٢
جوهو ٦٠٩
جوهور ، سلطان ٤٧٢
جوفردا سانت هيلار ٣٣ ، ٣٤ ، ١٣٤
جيوتي ٢٢٩ ، ٤٤٧
جيد ، اندريه ٥٤٣
جيد ، شارل ٣٠٠
جيرار ٣٧
جيرار دي نرفال ٧٢ ، ٢٥٧
جيرارد ٣٦

٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
 ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ،
 الدانوب ٢٩ ، ٤٢ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
 دانونزو ٢٦٣ ،
 دانيال ٣٢ ،
 داهومي ٣٨٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،
 داوسون ١٩٥ ،
 داي الجزائر ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 داي ، بنجمين ٥٩ ،
 دايفي ٣٣ ، ٣٤ ،
 دباس ، جوفروا ٥٠ ،
 دبلين ٢٢ ،
 دبره ، مارسيل ٥١٧ ،
 دراس ٥٤٤ ،
 الدرايش : امبراطوريتهم ٤٤٥ ،
 درايتن مانور ٢١ ،
 درايزر ٣٧٤ ،
 درايفوس ، لويس ٢٠١ ، ٢٤٧ ، ٣٠٤ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٨ ،
 درايك ، الكولونيل ١٧٤ ،
 دربي ٢٧٨ ،
 درسدن ٤٢ ، ٤٦ ،
 درحام ، لورد ٢١ ،
 درولسن ٥٥٤ ،
 دزرايلي ٩٦ ، ٢٩٥ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،
 دستولفسكي ٣٤٤ ،
 دسبو ، كلود ٩٥ ،
 دسمو ، افاش ٦٩ ،
 دكار ٤٤٥ ،
 دكسن ، ادوارد ٤٧٥ ،
 الدكن ٤٦٦ ،
 دل ٥٠ ،
 دلماتيا ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
 دلبي الجديدة ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،
 دليكور ٧١ ،
 دمدم ، رصاص : تحريمه في مؤتمر
 بطرسبرج عام (١٨٦٨) ، ٣٠٦ ،
 دمشق ٤٠٥ ،
 دندي ، فنين ٤٣٥ ،

خ

خان كوكند ٤٨٦ ،
 خراسان ٤١٦ ،
 الخرطوم ١٥١ ، ٢٢١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ،
 ٤٤٦ ،
 الخجر ٤١٥ ، ٤١٦ ،
 خطي شريف ٤١٤ ، ٤١٥ ،
 الخليج المجي او الفارسي ٣٢١ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
 خليج عدن ٢٣١ ،
 خوجا ، محرم ٤١٩ ،
 خوجند ٤٢٠ ،
 خوده بخش ٥٧٩ ،
 خون ، شلالات ٤٧٩ ،
 خير ، ممر ٤١٩ ،
 خيفا ٢٢٢ ، ٢٢٨ ،
 خيوى ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،

د

دادان ١٦٦ ،
 دارسي ، وليم ١٩٥ ،
 دارفور ١٥١ ، ٢٢٩ ، ٤٤٥ ،
 دار لنفتن ٤٤ ،
 دارغوسكي ٣٤٤ ،
 دارون ، شارل ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢١٥ ، ٢٩٣ ،
 داريو ، روبن ٥٣٢ ،
 داريا ١٦٢ ،
 داغر ، المصور ٤٩٨ ،
 دافيد ، الفنان ٧١ ،
 دافين ١٣٦ ،
 داك ٤٦٧ ،
 داكوتا ١٦٥ ،
 دالتن ٣٢ ،
 دالماتيا ٣٣٢ ،
 دالوزي ١٨٢ ،
 دالاي لاما ٤٨٥ ،
 دان ٦٠٥ ،
 دانتان ، الابن ٧٤ ،
 دانترغ ١٨١ ،
 الدانمارك ٨٦ ، ١١٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،

دونستزيف ، بوييا ٣٤١
 دونغ - خانه ٤٨١
 دونويه ١٤
 دياز ، بورفيريو ٣٩٩
 دياغوسو ، سواريز ٤٥١
 دي برانت ، الاب ٢٢٦
 دي بوسي دي لوم ١٨٥ ، ٢٦١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٣ ، ٣٣٥
 دييون دي نمورس ٢٢٧ ، ٣٦٦
 ديوي دي لوم ١٢٨
 ديترويت ٣٦٣
 ديچون ٤٨
 ديدرو ٣ ، ٤٥٧
 ديدود ، دار نشر ٣٨
 دي روشا ٥٤٣
 ديرين ٥٣٨
 دي سانتكتس ، فرنسيسكو ٥٥٤
 دي شافان ، يوفي ٥٣٨
 ديغا ٥٣١
 ديفاس ٢٦١
 دي فريز ٥٤٤
 دي فوكو ، الاب شارل ١٤٩
 ديفونشير ، قصر دوق ٢١
 ديكار ٢٧٨
 ديكاڤيل ٢٩٠
 ديكرولي ٥٣١
 ديكنسن ٦ ، ٥٤
 ديكنز ٧٥ ، ٩٦ ، ٢٥١
 ديكلو ، اميل ١٣٧
 دي لانور ، المريكز ٢٩٦
 ديلاكروا ٧٢ ، ٧٦
 دي لافال ٥١٧
 دي ليل ، لوكونت ٩٦
 دي مستر ، جوزف ٧٦
 ديلك ، شارلز ٢١٥ ، ٢٥٠
 ديومان ١٢٣
 دي مون ، الكونت ٢٩٦ ، ٢٩٧
 دينار ٥٢٤
 ديتوفيه ٢٩٦
 ديوي ، جون ٥٣٠
 ديوك ٣٦٦

دني ، موريس ٥٣٨
 دوپروديه ٣٣٦
 دوپلكس ٢٢٣
 دوپوسي ٢٦٢ ، ٢٦٣
 دوپين ، ادوارز ٧٢
 دوتاك ٥٩
 دوجاردن ، اميل ٧٩
 دودار دي لاغريه ٢٢٣
 دودج ١٨١
 دوديه ، الفونس ٢٥٩
 دور ٢٥٦
 دورستد ٣٢
 دورهام ١١٩ ، ٣٥٤
 دوريان ، آل ٦١
 دوريان ١٢٨
 دورفيل ، ريمون ١٤٢
 دوريات (اوتارتو) ٣٢٩
 دوستوفسكي ٢١٥ ، ٢٥٩
 دوشان ٣٣٤
 دوفر ١٩١
 دوفريه ٥٩
 دكستوى ٢٤٥
 الدولة الولدية والتشريع الاجتماعي
 ٢٩٥ ، ٢٩٨
 دولنجر ٢٨٤
 دولوند ٣٤
 الدولية الاولى ٩٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ -
 الدولية الثانية : تاليفها ٢٩٢
 الدولية الثالثة ٢٩٦
 دنيابر ، نهر ٤٣
 دوماس ، اسكندر ٥٩ ، ٧٥ ، ٢٥٠
 دوركهايم ٥٣٠
 دوماس الابن ٢٥٨
 الدوما ٥٨١
 دومال ، دوق ٢٥٢
 دومر ٤٨٢ ، ٥٧٧
 دومسنسيل ٣٠٢
 الدون ، نهر ٤٣ ، ٤٢٠
 دون بدرو ١٣ ، ١٠٧ ، ٣٩١
 دون كارلوس نوبل سيبلاس ٤٠١
 دونتنز ٣٤٢ ، ٦١٥

- رابندرانات طاغور ٥٧٧
 راتسيون ، آل ٧٩
 راتنو : اميل ٢٠١
 راس الرجاء الصالح ٥٢
 الرأس، مدينة ٢٠٨ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٦ -
 ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٨٠
 راسكولنيك ٢٢٨
 راسين ٢٦٢
 رافائيل ٥٣٦
 رافلسز ٩٨٢
 رافيل ، موديس ٥٣٤
 رافيه ٧٥
 رالف نيكلباس ٥٤
 راما كرشنا ١٧٠
 رامبو ٢٦٣
 رامو ٧٠
 رانغون ٤٧١
 رانفور ٢٣
 رايبو ٢٩٠
 رايت ١٧٤
 رايت : الاخوان ٥٢٥
 رايفيزن ٣٠٠
 رباح ، الملك ١٥١
 الربع الخالي ٤١٣
 ريننام ١١٧
 رتس ٣٣
 الرجل المريض (تركيا) ٤١٣ ، ٤١٥
 رجتمين ٣٤٢
 ردبرتوس ٢٩٦
 رداما ، ملك مدغشكر ١١٥
 رسكن ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٣
 رشت ٤١٦
 ريشموند ١٢٨
 رشيد باشا ٤١٤
 الرق والنخاسة : محاربتهما ١٥٠ ، ١٥٢
 الرق الغاؤه ١١٤ - ١١٦
 ركلو ١٤٧ ، ٦٠١
 رمبرانت ٥٣٦
 الرمزية في الشعر ٢٦٣ - ٢٦٤

- رمسكي ٢٤٤
 رمفورد ٢٨
 رمفتون ١٢٧
 رنسن : مدينة ٩٠
 الرهبة اليسوعية : اعادتها ٧٩
 روان ، مدينة ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١
 روبرت ، لويس ٣٨
 روبسبير ٩٩
 روبرتس ١٧٥ ، ٢٢١
 روبشتاين ٢٤٤
 روبير المغريت
 روبيه ٢٥٠
 روتردام ٤٢ ، ٨٦
 روتشيلد ، آل ٥٧٠ ، ٥٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،
 ٢١٧ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦ ، ٤٠٨ ، ٦١٦
 روتشيلد ارتهام ٤٢٦ الف فدان مصر ٤٢٢
 روتشيلد جيمس ٤٧
 روتيل ٥٣٤
 الروح العلمية : نموها ١٣١ - ١٣٢
 رود ٧٤
 رود ايلاند ١١١ ، ٣٦٦
 رودولف ، جبال ٣٣٧
 رودفورد ٥٢٩
 رودس - سيسل ٦٠٨
 روديسيا ٢١٨
 رودريفس ، اولند ٩٥
 روزاس ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣
 روزفلت ، تيودور ١٣٠ ، ٦١١
 روستي ٢٥٦
 روسكين ١٨٤
 روسليه ٢٨
 روسو ٣٣ ، ٧١ ، ٨٤ - ٣٨٨ ، ٥٠٣
 روس ١٤٦
 روسيا ٢٠ : ٢٩ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٤ -
 ٦٨ ، ٨٢٠ ، ٨٦٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٧١ ،
 ١٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ -

الرينخ الالمانى وتطوراته ٣٢٨ - ٣٢٤
ريزنونفيل (معركة) ١٢٩
ريشتوفن ١٤٦
ريفا ، مدينة ٢٩ ، ٣٢٩
ريفا دافيا ٣٩٣
ريغون ، اللورد ٢٢٢
الرين ٣١٩ ، ٣٢٠
ريكاردو ٢١ ، ٦٨
ريكاميري ٢٨٩
ريمان ٣٢
الرين ، نهر ١٧ ، ٢٦ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ١٨٣ ،
٣١٢ ، ٣١٥
رين ، مدينة ٤٠
ريشان ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٥٤٣
رينانيسا ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٨٣ ، ١٦٦ ،
٣٢٤
رينهارت ٥٣٣
رينوقييه ١٤١
رينوار ٢٦١
الريو ١٠٧ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ،
٦١٢
ريوگرانده ده سول ٣٩٢
ريودي جانيرو ٥١٣
ريو دي لابلاتا ٥١٣
ريومور ١٦٦ ، ١٧١ ، ٥٢١
ريونيون ، جزيرة ٤٥٣

ز

زبلين ، المنطاد ٥٢٤ ، ٦١٣
الزراعة في اوروبا ١٨ - ٢١
الزردشتية ٨٢ ، ٤١٧
زغرب ٣٣٢ ، ٣٣٣
زفايخ ، ستيفن ٢٥٥
زمبيز ٢١٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠
الزمندار ٤٦٨
زنجلار ١٥١ ، ٤٠٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،
٤٤٩
الزنج : وضعهم في الولايات المتحدة
الاميركية ٣٥٧
زويمر ٩٤

٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٩ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ،
٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٤ ،
٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٢٢ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ،
٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠ ، ٦١١
روسيا وعهدا الاستبدادي ٣٣٨ - ٣٤٦
روسيني ٢٤٩
روشدابل ٦٥
روشيد رينان ٢٩٦
روشييه ٢١٥
روكفلر ١٢٧ ، ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،
٣٧٤ ، ٦١٦
رولف ١٤٥
رولان ، اغنية ٧٧
رولين ، بولين ٣٠٤
رولان روماننا ٥٣٥
رولاند جل ٤١
بولين ١٣٧
روما ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ،
١٨٢ ، ٢١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٧٥ ، ٤٣٤
رومان رولان ٥٣٣
رومانوف ، آل ٢٧٦
روماني ٢٨
رومانيا ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
رومر ١٧٤
روملي او رومي ٣٣٦
الروملي الشرقية ٣٣٦
الرومنطيقية ٧٠ - ٧٨
الرومنطيقية الاجتماعية ٩٥ - ٩٧
الرومنطيقية والقوميات ٨٤ - ٨٦ -
الزون ، نهر ٤٢
رونج ١٧٣
الروهر ٣٥ ، ٢٠٠ ، ١٦٩ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ،
٢٩٠ ، ٥٢٠ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ،
رويتز ، البارون جوليوس ٥٨ ، ٢٠٦ ،
٤١٧
رويتز ٤٩
روو ١٣٨
ريبو ١٤١ ، ٥١٢ ، ٥٢٤
ريبون ، اللورد ٤٦٩
ريتزل كارل ١٤٧ ، ٦٠٩

زورن ٥٣٦

زورنخ ٥٩٦

الزولو ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٤٤٨

زولا ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٧٤

زونغاريا ٤٨٦ ، ٤٨٧

الزويزده ٤٢

زيلانده الجديدة ١١٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ،

٢٣٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ،

٤٥٦ ، ٣٧٣

سي

ساباتييه ٥٢١

ساتسوما ٥٠٦

ساتي ٥٣٥

سافالين ١٢١ ، ٤٩٨

سادوفا اوسادوا ١٢٦ ، ٣٢٧

سادي كرنو ١٣

الसार ٢٩٠

ساراسافاتي ، البنديت ٤٧٠

ساراواك ٤٧١

ساراكوني ٤٤٢

سارينتو ٣٨٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤

ساسكاتشوان ٣٥٠

سافا ٧٧

الساف ، نهر ٣٣٤

السافانه (سفينة) ٥٠

سافوا ، اسرة ١٢٦ ، ١٨٢

سافوي ٢٧٨

ساقيني ٨٢ ، ٢٩٦

ساكس ٤٦ ، ٧٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٩ ، ٣٢٣ ،

٣٢٤ ، ٣٢١

ساكس - كوبورغ ، آل ٣١٤ ، ٣٣٧

سالفادور ٢٨٢

سالوما ٤٩٩ ، ٥٠١

سالونيك ٣٣٧

سامبا ٤٧٤

سامرين ، آل ٢٩

ساموا ٢٢٤ ، ٤٥٥

ساموري ٤٤١

ساموري تودي ٤٤٢

السامية ٣٢٨

السان ، نهر ٥٠

سان بريفا (معركة) ١٢٩

سانتا آنا ٣٩٩

سانت انجلبرت ٣٥

سانت الين ٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٦٦

سانت بوف ٣٤ ، ٧٥ ، ٢٥٠

سانتوس - ريمون ٥٢٥

سانتيليا ١٣٣ ، ٥٤٢

سانت كليردفييل ١٧٢

سانتياغو ٢٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥

سانجر ١٣٩

سان جرمين ٤٧

سان جوست ٩٩

سان مارتن ١٠٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣

سانت ماريا ٢٢٩

سان دومنغ ٢٢٦

سان دومنيك ١٥١ ، ٤٠١

سان ديزيه ٦٧

سان سايفس ٢٥٩

سان سلفادور ٣٧٦ ، ٢٩٨

سان سيمون ، سان سيمونيون ٤٧ ، ٥٧

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ،

١٩٧ ، ٣٠٥ ، ٤٢٤ ، ٥١٥ ، ٥٩٦ ،

٦٠٧

سان غوتار ٣٩ ، ٣٢٢

سان فرنسيسكو ١٩١ ، ٣٦٧

سان كلو ٣٤

سان لوران ٣٥١

سان لويس ١١٠

سان باولو ١٦٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٣٨٦ ،

٣٩٢

الساون ، نهر ٤٢

ساي ، جان باتيست ١٤

سايفون ٤٨٢

سبا ، مملكة ١٤٤

سبتا ٢٢٥

ستزبرغ ٢٢٥

سيتلز ٢٦٣

سبسر ، هيريك ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

٣٧٤ ، ٣٠٥

٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٥١٨ ،
 سكندنافيا ، ازدهارها ٣١٠ - ٣١٢
 سكوت ٧٧ ، ١٤٧
 سلوطة ٢٣١
 سلسبري ٢٧٨
 سلتيكوف تشيدرين ٣٣٩
 سلفردح ٢٠١ ، ٢٠٦
 سلفيو باليكو ٧٨
 السلطان الاحمر ٥٨٠
 السلوفاك ٢٦٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢
 السلوفين ٣٢٩ ، ٣٣٢
 سليم الثاني ، السلطان ٤١٤
 سليمان ، جزر ٤٥٥
 سمبسون ١٣٨
 سمث ، آدم ٢١ ، ٢٨٦
 سميت ، غودرين ٢١٤
 سميرتشييه ٤٢٠
 سمرقند ٤٢٠ ، ٤٢١
 سميرتشنسك ٢٢٨
 سن ٥٧٧
 السند ١٦٥ ، ٤٦٦
 سنشيتاتي ، مدينة ٦٤
 سندريم ٥٢١
 سنقافوره ١٢١ ، ١٨٦ ، ٤٠٥ ، ٤٤٨ ،
 ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨
 السنغال ١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٤٣٧ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥
 السنغيبيا ٤٤١
 سنكلر ، ايتن ٣٦٩ ، ٥٩٨
 السنوسيون ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٥٨٠
 سنيس ، نفق ١٧٩
 سنوي ، كورس ١٩٧
 سو ، اوجين ٥٩
 سو - تشيو ٤٩١
 السواحيليون ٤٤٨
 سوتير ٢٨٦
 السودان ١٥١ ، ٢٢١ ، ٤٠٦ ، ٤٢٥ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،
 ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧
 السودان الانكليزي المصري ٤٤٦
 سودباهن ، نفق ١٨١

سيرانغ ٦١
 ستال ، مدام دي ٣٧٨
 ستاندال ٢٣ ، ٢٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٢٥٨
 ستانسلافسكي ٥٣٣
 ستانلي ١٥٠ ، ٢٢٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٩
 ستانوب ، اللورد ٣٨
 ستانير ، لند ٥١٢
 ستاهل ٧٩
 ستراسبورج ٤٠ ، ٤٢ ، ٢٥١
 سترافسكي ٥٣٥ ، ٥٤٠
 ستراندبرغ ٢٥٩ ، ٥٠٤
 ستروف ١٣١
 ستينسن ٢٠٠
 ستوكهولم ٣١١ ، ٣١٢
 ستوكتن ٤٤
 ستولبرغ ٧٩
 ستوليبي ٦٠٨
 ستوين ٥٤٠
 ستيد ، وكهام ٦١٢
 ستيفنسن ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٤٢ ، ٢٠٢
 ستيورت مل ١٤ ، ٦٢
 ستيوارت ، جون ٣٠٤
 سنجسنار ٧٢
 سولفسكي ٨١
 سدني ، خليج ١٦٥
 سردينيا ١٩١ ، ٢٥٦
 سسيل ، رودس ١٩٦ ، ١٢٧
 سعيد باشا ، الخديوي ١٨٨ ، ٤٠٦ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٥
 السفن الشراعية : ازدهارها ٤٩ - ٥٢
 السفنكس ٥٠
 سكان العالم : نموهم ١٥٤ - ١٥٦
 السكر والشمندر المنافسة بينهما ١٦٤
 سكرامنتو ١٩٤
 سكريابين ٥٣٠
 سكريب ٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢
 سكريتان ٢٥٥
 سكستوبول ٣٣٩
 سكسفون ٧٥
 سكة الحديد : ظهورها ٤٣ - ٤٥
 سكندنافيا ١٢ ، ١٦ ، ١٠٨ ، ١٦١ ،

سي - تشوان ٤٨٤ ، ٤٨٥
 سيد خان ٤٠٧ ، ٤٧٠
 سيدان ، مدينة ٦٧ ، ١٢٦
 سيدني ٢٠٦ ، ٣٦٠ ، ٣٩٣
 سيدي محمد بن علي بن سنوسي ٤٠٨
 سراجيف ٦١٣
 سيرت ، خليج ٥٨٠
 سير داريا ٤٢٠
 سيروس ، السفينة ٥٠
 سيزان ٥٣٨
 سيزلي ٢٦١
 سيسليتانيا ٣٣١
 سيسمونيدي ١٤ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٠٨
 سيفريد ، اندريه ٢٦٢ ، ٣٧٢
 السيكلاد ، جزر ٣٣٣
 سي-كيانغ ٤٨٦
 سيليب ٢٢٦
 سيلي ٢١٥
 سيليبس ٤٧٦
 سيلان ١٦٧ ، ٢٢٦ ، ٥٢١
 سيليزيا ٣٥ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣١
 سيمانس ، فريديريك ١٣١ ، ١٦٩ ، ١٧١
 ٢٠١
 سيموتوساكي ٤٩٩
 سيمور ٢٢١
 سيمون ، نهر ٤٧٧
 السين ، نهر ٧١
 سينوب ، مدينة ١١٦
 سينيالك ٥٣٨
 السينودوس القدس الروسي ٣٤١
 سيوا ، واحة ٤٢٥
 سيوارد ١٩٥
 سيول ٤٨٨
 سيس ، الاب ٩٥
 سيراليون ٢٣١ ، ٢٩٩ ، ٤٤٥

ش

شابريه ٢٦١
 شابونيكس ٢٥٢

سودرمان ، آل ٣٢٤
 سودي ٥٢٩
 سودا ٥٣١
 سودانغ ٢٨٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٥
 سوريل ١٣٩ ، ٥٥٣
 سوريا ٣٣٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٥
 سورينام ١٢٦ ، ٤٦١
 سوفاج ٥١
 سوكتو ٤٤٢
 سولر ، لويس ٧٣ ، ٣٠٠
 سوليفاث ، لويس ٥٤١
 سولين ، مجاز ١٨٣
 سولت سانت ماري ١٧١
 سولفاي ١٧٣
 سولوني ١٩
 سوليه ٦٦
 سومايه ، مثقب ١٦٩
 سومبار ٣٧١
 سومرست ٣٧٤
 سومطرا ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥
 سونورا ٣٩٩
 سوومي ٣٣٠
 السويد او اسوج ٨٦ ، ١٧١ ، ٢٦٧ ،
 ٢٨٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٥٣٦
 السويس ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢١٧ ،
 ٢٣٢ ، ٣١٨ ، ٤٢٥
 السويس ، قناة ١٢٦ ، ١٤٣ ، ٣١٨ ،
 ٤٥٣
 سويسرا ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ،
 ٩٢ ، ١٨١ ، ١٩٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ،
 ٥١٨ ، ٥٤٢ ، ٥٩٤
 سيارا مورينا ٢٦٨
 سيام ١٦٢ ، ٤٦٢ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
 سيستوبول ١٢٥ ، ١٢٨
 سيل ١٣٩
 سيبيريا ١٠٨ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٤١٩ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥١٣
 سيت ٥٤٠

شفرويل ٣٣ ، ٣٨
 شغيلد ام ١٧٠
 شكسبير ٧١ ، ٧٧
 شكسبير ، ترجمته الى اليابانية ٥٠٣
 شلسويغ هولشتاين ٨٦ ، ٣١١
 شلوسنخ ١٧٣
 شومرجيه ٢٠١
 شلدين ٣٤
 شليفل ٧١ ، ٧٦ ، ٧٩
 شميرلن ١٣٧ ، ٢٤٦ ، ٥٩٣
 شميليون ، الابن ١٣
 الشمس الشارقة ٤٩٥
 شمولر ١٤٠ ، ٢٩٦
 شندرناغور ٢٢٩
 شنسا ، جزر ١٧٢
 شنغاي ١٦٨ ، ٤٩٢ ، ٤١٣ ، ٥١٣
 شنيتزر ٤٤٦
 شنيدر ٦١ ، ١٢٧ ، ٢٠١ ، ٢٩٥
 شو ، برنارد ٥٣٣
 شوان ٣٤
 شوان ٣٤
 شويان ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٢٥٨
 شويرت ٧٢ ، ٢٥٧
 شوينهور ٢٦٠ ، ٢٦٢
 شودين ١٣٧
 شوشار ٢٠١
 الشوغون : انهيار سلطته في اليابان ٤٩٧
 شولشر ١١٦ ، ٤٠٠
 شومان ٧٢ ، ٧٤ ، ٢٥٧
 شونبرغ ، ارنولد ٥٣٥
 شيدمان ٦٠٥
 شيراز ٤١٥
 شيراغان ، قصر ٤٠٦
 الشيع الدينية في الولايات المتحدة الاميركية
 ٣٨٢
 شيفاليه ، ميشال ٤٣ ، ٤٧ ، ١٣٠ ،
 ٣١٨ ، ٦١٥
 شيفاليه ، موريس ١١٠ ، ١٢٠
 شيكافو ٤٣ ، ١٦٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،
 ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٢ ،
 ٣٧٤ ، ٥٤١

شابلين ٤٦
 شاتليه ٢٥٠
 شاتوبريان ٣١ ، ٧٦ ، ٩٩
 شارتر ٤٦
 شاردونيه ٥٢١
 شارل العاشر ، الملك ٣٤ ، ٧٨
 شارل الخامس عشر ٣١٢
 شارل البير ٧٢
 شارل دي فوكو ٤٣٦
 شارلوا ٤٢
 شارلستن ٤٥
 شارم ، غبريل ٤١٣ ، ٥٨٠
 شاري فاري (جريدة) ٦٠
 شان-سي ٤٨٤
 الشاطيء الذهبي ١٦٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥
 شاطيء العاج ٤٤٣
 شاطيء الصيد ٤٤٦
 شاعال ٣٢٦
 شافان ، بوفيس دي ٢٥٩
 شافنز ٥٢٥
 شاكلنس ١٤٧
 شاكو ٢٨٩ ، ٣٩٣
 شالنجر ١٤٣
 شالون ٤٨
 شان - تونغ ٤٨٨
 شتاي ٧٧
 شتراوس ١٤٠ ، ٥٣٥
 شترن ٩٦
 الشراكسة ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٠
 شرمان ٥٩٣
 شتوغارت ٦١٠
 شربورغ ١٨٦
 الشرق الادنى ١٢١ ، ٢٢٨ ، ٣٣٨
 الشرق الاوسط ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ،
 ٢٢٤
 الشرق الاقصى ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ،
 ١٩٧ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦٣ ، ٧٤٢ ، ٢١٣
 شركات التأمين ١٩٧ - ١٩٩
 شركة خليج هدسون ١٠٩
 شروان ٤٢٠

ط

طافور ، رابندرانات ٤٧.
 طربزون ٤١٢
 طرابلس ١٢٠ ، ٤٢٥ ، ٤٤٠ ، ٥٨٠ ،
 ٦١٢ ، ٥٨١
 طشقند ٤٢٠ ، ٤٢١
 طليطلة ٦٥
 طنجة ٢٢٥ ، ٤٣٦
 طهران ٤١٦ ، ٥٨٠
 الطوارق ٤٤٠
 طوران ٤١٦
 طوروس ٤١٢
 طوكيو ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ،
 ٥١٣ ، ٥٧٨
 طولون ، مدنة ٤٨
 طوم بوش ٤٠٦
 طوم ، جوزف ٢٠١
 طومسون ، ويفل ١٤٣
 طومسون ، ولیم ١٩١ ، ٣٦٦ ، ٥٢٩

ع

عازوري ، نجيب ٥٨٠
 العالم الاكلوسكسوني ٣٥٠ - ٣٥٢
 عباس افندي ٤٠٧
 عباس ٤٢٥
 عبدالحميد السلطان ١٨٠ ، ١٨١ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤١٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨١
 عبدالحميد ، منحه الدستور والقانون
 الاساسي ٤١٥
 عبدالرحمن الامير ٤١٩
 عبد العزيز ٤٠٦ ، ٤١٥
 عبد القادر ٤٠٧ ، ٤٢٨
 عبد المجيد ٤١٤
 عبده ، محمد ٤٠٧
 عدن ١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٤٨
 عدوة ٤٤٧
 عرابي باشا ١٢١ ، ٥٨٢
 عسير ٤١٣
 عصبة الوطن العربي ٥٨٠

شيكاغو ، وفتنة اول ايار (١٨٨٦) ، ٢٩٣
 الشيلي ٧٢ ، ١٠٦ ، ١٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٥٩٥ ،
 ٥٩٦
 شيو - شيو ٤٩٩
 شيمودا ٤٩٨

ص

صاموياد ٣٤٩
 صائد ، جورج ٥٩ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ٣٠٤
 الصحافة الرخيصة ٥٨ - ٥٩
 الصحراء الكبرى الاسلامية ٤٣٨ - ٤٤٠
 الصحراء ٤٠٤
 العرب . صربيا ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
 صفديان ٤٢٠
 الصقالبة ٣٣٢
 صقلية ٣٩٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
 الصليب الاحمر الدولي (١٨٦٠) ٣٠٦
 صنماء ١٤٤ ، ٤١٣
 صهيون الجديدة ١٠٩
 صومطرة ١٢١
 الصين ٥١ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ،
 ١٨٣ ، ١٩١ ، ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٣٥٧ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٦ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
 ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ،
 ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
 ٥١٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦١٢
 الصين ، تجزئتها ٤٩٣

ض

الضمان الاجتماعي الالزامي : اول من
 قررته المانيا ٢٩٧

عصمة البابا ٢٨٣
 عفرة ، قبيلة ٤١٢ ، ٤١٣
 العمال : تنظيمهم واضطراباتهم ٩١ - ٩٣
 العمالية ، الحركة ٨٣ - ٩٥
 عمرو بن العاص ٤٢٣
 عمر ، الشيخ ١٤٤
 العمل ، حرته ٩٣ - ٩٥

غ

الفايون ٢٢٥
 غانييه ، الاب ١٤٦
 الفارف ٣١٩
 غارسيا - مورينو ٣٩٦
 غاروي ٣٢٥
 غاريالدي ٣٨٨
 غاريسون ١١٦
 غارنييه ٥٤٥
 غاستون ، جوزف ٢١٩
 غال الجديدة ١١٧
 غالتزين ، آل ٢٩
 فالدوس ، بيرس ٢٥٧
 غالوا ، يفرست ٣٢ ، ٧٢ ، ١٣٢ ، ٥٢٩ ،
 غالطا ٤١١
 غالاني ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٢
 غاليليو ٥٣٠
 غاليسيا ٢٨ ، ٢٢٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٣٣١ ، ٥٩٦
 غامبيا ٢٣١
 غامبيا ١٣٧
 غامتا ٢٢٣
 الغانج ١٦٢ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٥٨٠
 غاندي ٥٧٩ ، ٦١٩
 غاوو ٤٤٠
 غاي لوساك ٣٢
 غراف ١٣٨
 غرام ١٧٤ ، ٥١٧
 غرانت ١٩٠ ، ٣٦٧
 غراند فولز ١٦١
 قرانديه ، الاب ٥٤
 غراي ، جورج ٣٥٦

غرايف ، جان ٥٩٨ ، ٦٠١
 غرناطه ٦٥
 غرناطة الجديدة ١٠٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧
 غروف ١٧٤
 غرونر ١٧١
 غرونوخ ٢٧١
 غريج ٢١٢
 غريفوروس الرابع عشر ٧٩
 غريفولز ٩٨
 غريليرش ٧٣
 غريللي ١٤٦
 غرينلند ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٢٥ ، ٣٤٩
 غرينوبل ٦٧
 غسك ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
 ١٠٩
 غسكونيا ٢٦٧
 غلادستون ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٩٣ ،
 ٣١٠
 غلازونوف ٣٤٤
 غلاسكو ٦٤ ، ١٧١ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٩٩
 غلستر ١٧١
 غليوم الاول ٤٧٤
 غليوم الثاني ٢٨٠ ، ٢٩٧ ، ٣٢٥ ، ٦٠٤ ،
 ٦١١ ، ٦١٢
 غمبتا ١٢٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤
 غمبيا ٤٤٢
 غنت ٣٦ ، ٩٣ ، ٢١٠
 غينيا ٢٢٥
 غينيا الجديدة ٢٣٤
 غوا ١٥٠ ، ٢٢٠
 غواتيمالا ١٦٢ ، ٣٩٨
 غوادلوب ٤٠٠
 الغوانو ١٩ ، ٢٦٨
 غوايانا ٢٣١ ، ٤٠٠
 غوايا كيل ٣٩٦
 غوبسك ٥٤
 غوينو ١٤٧ ، ٢١٥
 غوتا ، مؤتمر ٢٩٢
 غوتار ، نفق ١٨٠
 غوتنبرغ ٣٨
 غوتيه ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١

ف

فابور ٤٩٧
 الفابية او الفايانية (الجمعية) ٢٩٠ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٣
 الفاتيكاني ، مجمع ٢٨٣
 فاخان ، منطقة ٤١٩
 فارس ، بلاد ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،
 ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٩
 فارس في عهد سلالة الخنجر ٤١٥ - ٤١٦
 فارنا ١٩١
 فاس ٤٠٥ ، ٤٣٤
 فاسكونسلاس ، برنارد ٣٨٨
 فاغاكوي ٤٩٧
 فاجنر ١٣٥ ، ٥٣٣
 فاغيه ٦٠٨
 الفالانج ٣٣٧
 فاليرزو ٣٩٥
 فالد - مقاطعة ١١٨
 فالجان ، جان ٣٠٤
 فالقولفا ٤٣
 فالنس ١٦٣
 فالنسيا ٢٨
 فالو ٢٥٩
 فاليري ٢٦٠ ، ٦١٩
 فاليس ، جول ٢٠٠
 فانتوراه ، الاب ٣٠٥
 فان تيغم ١٣٧
 فاندربلت ، جامعة ٣٥٤ ، ٣٦٥
 فاندرفيلد ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٦٠٠
 فاندسه ٢٨
 فان دن بوس ٤٧٤ - ٤٧٥
 فاستارت ٢٩٩
 فان غوغ ٥٣٦ ، ٥٣٨
 فانكوفر ١٨١
 الفانيان ، حزب ٣١٠
 فتح علي ٤١٦
 الفحامين،جمعية ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٣٩
 الفحامين ، انتشارها ١٠١
 الفحم الحجري : سيطرته ١٦٨ - ١٧٠
 فخت ٧٨ ، ٨٥ ، ٣٠٥

غوتيه تيوفيل ٣٩ ، ٦٥ ، ١٨٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٦١٥
 غوجرات ٤٧٣
 غود برنسوال ٣١١
 غودون ١٤
 غودونوف ، موريس ٢٦١
 غودوين ١٥ ، ٢٩٩
 غودير ٥٢١
 غوردون باشا ١٥١ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٤٤٦ ،
 ٤٩١
 غوردون بنيت ٥٩ ، ٢٠٦
 غوركي ٣٤٤
 غورمون ، ريمون دي ٥٣٦
 غوزلان ، ليون ٧٢
 غوندار ٤٤٦
 غوشيه ٣٢
 غوغان ٥٣٦ ، ٥٣٨
 غوغول ٢٢٦ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤
 غوغين ٤٥٦
 غولخانه ، دستور ٤١٤
 غولد ٣٦٥ ، ٣٧١
 غولار ٥١٧
 غونالف ، شلالات ٤٢
 غونكور ٢٥٩ ، ٢٦٠
 غونو ٢٤٩
 غويا ٢٩
 غوياس ٣٨٤
 غويانا ١٦٢ ، ٣٠٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
 ٣٩١
 غويو ٢١٣ ، ٢٥٩
 غوتي ٣٢ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠
 غيبان ، الدكتور ٨٩
 غيومين ٢٧٣
 غيبونز ٢٩٧
 غيرانجه ٢٨٢
 غيز ٢٩٩
 غيزو ٤٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٢٧٨ ،
 ٤٥٤
 غينيا ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٣٨٢ ، ٤٤٧
 غينيا ، خليج ٤٤٣ ، ٤٤٥
 غيمه ، آل ٢٤٩

٤٣٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦١ ، ٤٧٧ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ،
 ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ،
 فرنسوا ، الامبراطور ٥٦
 فرنسوا جوزف ، ارخبيل ٢٢٥
 فرنسوا جوزف ٢٤٥ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ،
 ٣٦٧
 فرانكفورت ٤٧ ، ٥١٧
 فرنبيه ٢٤٥ ، ٥٣١
 فروبل ٢٧٩
 فرويد سغومند ٥١٢
 فرود ٢١٥
 فري جول ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٣
 فريتاخ ٢٥٧ ، ٣٢٤
 فريتون ١١٦
 فريدريك ١٢٨
 فريدريك الثاني ١٢٧
 فريدريك غليوم الرابع ٧٢ ، ٨٥
 فريسئل ٣٨
 فرييه ، شارل دي
 قستنبلة ، آل ٢٧٢
 فكتوريا الملكة ٩٩ ، ١١٨ ، ٢١٥ ، ٣٠٧
 فكتوريا قيصر الهند ٤٦٥
 فستو ، لويس ٩٥
 فلانز ٤٤٠
 فلاديفستوك ١٨٢ ، ٤١٠
 فلاشا ٤٧
 فلاندر ٢ ، ٨٧
 فلتن ٥٠
 فلاندران ٢٥٥
 فلمنغ ، مصباح ٥١٩
 فلو ٢٨٠
 فلوبر ٢٥٨ ، ٢٥٩
 فلورنس ٥٦٦
 فلوري ، اليزا ٩٥
 فلوريدا ١٦٣
 فلوريس ٣٩٦
 فلوريس ، جزيرة ٢٢٥
 فنديم ، ساحة ٢٠٠

الفرات ٤١٢
 فرازر ١٩٥
 فراغونار ٥٣٦
 فرانشو ٣٧ ، ١٦٩
 فرانكلين ١٤٦
 فراي ٩٤
 فراير ، فرنسيسكو ٦٠٩
 فرايزر ، جيمس ١٤٠
 فرجينيا ١١٤ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ٣٧٧
 فردينان ، الملك ١١٥
 فردينان دي نابولي ٤٥
 فردينان الاول ٣٣٧
 فردينان السابع ١٠٧
 فرسان العمل ، جمعية ٣٧١
 فرساي ٤١ ، ٢٤٧
 فرسفل ٣٢
 فرصوفيا ٤٨ ، ٦١١
 فرغا ٢٥٩
 فرغانة ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٨٦
 فرقيه ٦١
 الفرقة الذهبية ٤١٩
 فولين ٢٦٠ ، ٢٦٣
 فون ، جول ١٤٢
 فرنسا ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ،
 ٢٠ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٤٨ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٣ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٢ ،
 ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢٠ ،
 ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
 ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٤٠٦ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،
 ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ،
 ٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤٣٢

فوندر فولد ٦٠٩
فوندر فيلت ٦١٠
فنزويلا ١٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ،
٤٠٣ ، ٣٩٨
فنزويلا الولايات المتحدة الفنزويلية ٣٨٩
فنشنفر ادسكي ٣٤٢
فنسلالاس ، الملك ٣٣١
فنسي ٣٢٥
فنلندا ٤٣ ، ١٦١ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٥٨٠
فنلاي ١٣٧
فوتا جالون ٤٤١ ، ٤٤٢
فوتشابو ٤٩١
فوجرز ، آل ٥٦
فوجي ٤٩٦
فورباخ ١٤٠
فورتمن ٢١٠
فورتيه ، غبريل ٥٣٣
فورد ، الدكتور ١٣٧
فورست ، فرنان ١٧٦ ، ٢٢٣
فورلانييه ١٣٨ ، ٣٢٥
فورموزا ١٦٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣
فورو ٤٤٠
فوزيز ، سهل ١٩
فورنيرون ٥١٧
فورويت ٣٠٠
فورييه ٣٢ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٠ ،
٣٠٥
فوست ٧٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨
فوستيل دي كولنج ١٣٩ ، ٣٠٧
الفوضوية : حركاتها ٢٩٠ - ٢٩٢
فوغت ، جوزف ١٤١ ، ١٧٣
فولبا ٤٤٢
فوكو ١٣٣ ، ١٧٤
فوكيان ٢٨٨ ، ٤٨٤
فولطا ٣٢
فوفيل ٢٨٨
الفولتا ، نهر ٤٤٣
فولتير ٧١ ، ٨٤ ، ١٣١
الفولقا ٤٣ ، ١٨٢ ، ٤١٩ ، ٤٨٦ ، ٥٨١
فوغوية ٤١٣
فولي برجير ٢٥٠

- الكاب ٥٢ : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٩ :
 ١٨٧ - ١٦٣
 كابوا ٢٢١ - ٥١٥
 كابول ٤١٨
 كانالونيا ٥١٨
 كانامبا ٤٤٨ - ٥٠
 كاتكوف ٢١٥
 كاتيامار ٤١٥
 الكاتولييكوس ٤١١
 كاتيفات ، مضائق ٤٢
 كاردونشي ٢٥٧ ، ٢٥٩ - ٢٦٠
 كاراجورج ٢٣٥
 كارامازي ٧١
 كاراديف ١٨٤ - ١٨٦
 كارسون ، مخازن ٥٤١
 كارلسبار ٢٥٢
 كارلوس الاول - الملك ٢٢٥ - ٢٢٠
 كارليل ٩١ ، ٢١٥
 كارمو - مدينة ٢٩٠
 كارنجي ١٢٧ ، ٣٦٧ ، ٦١٢
 كارن ٦٤
 كارنارفون : اللورد ٢١٩
 كارنيتا ٣٢٢
 كارنو ، سادي ٣٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤
 كارولين ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٤٥٥
 كارولينا ١١٢ ، ١١٣ ، ٣٦٦
 كازلين ٥١٩
 كاسا ، الرأس ٤٤٧
 كاغوسما ٤٩٧
 كافور ٢٠ ، ٢٨ - ٢٥٢
 كافي . مثقب ١٦٩
 كافييه . فرنسوا ٣٦
 كالدرون ٧٧
 كالكوئا ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧
 كالبديونا الجديدة ١٨٤ ، ٣٠١ ، ٤٦١ -
 ٤٥٥ ، ٥٦
 كالمورنيا ٥١ ، ٥٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
 ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ :
 ١٩٥ ، ٣٥٧ ، ٣٨٣ : ٤٦١ ، ٥٠٥

٧٨ : ٨١ : ١٠٢ : ١١٥ : ١٢٥ ،

٣١٤

فينا معرض ... (١٨٣٣) ١٧٨

ق

- قادش ١٠٧
 القازاق الكرغيز ٤١٩
 قازان ٤١٩
 القاهرة ٢٢٣ - ٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٤٦ ،
 ٥٨٠ - ٥٨١
 قبرص ٢٢٩ - ٤٢٥
 قرطاجنة ٣٩٤
 قرطبنة ٦٥
 قرطجنة ٣٩٧
 القرم - حرب ٢٢٤ - ٢٢٨ ، ٣٢١ - ٣٣٩ -
 ٦٠٧
 القرن الذهبي ٤١٢
 قزوين ، بحر : انظر بحر قزوين
 قسله ٣١٨
 قساريا ٤٨٦
 قشفر ٤٢٠
 قسطنطينة ١٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 ٤٢٨
 القسطنطينية ١٨١ ، ٢٨٠ ، ٣٢٣
 القصة الشرقية ٣٣٣
 القطب الشمالي ١٦١ ، ٢٤٩
 القطب الشمالي : استكشافه ١٤٦ ، ١٤٧
 الفقاس ١٢١ ، ٢٢٨ ، ٣٤١ ، ٤١٠ ،
 ٤٢٠ ، ٥٨١
 قفاس ٥١٣
 قناة السويس ١٢٠ (راجع كذلك :
 السويس : قناة)
 الغناه الكالدونية ٤٢
 القوزاق ٢٢٨
 القيصر : اسكندر الاول ٨١ ، ١٠١ ، ٣٤٠ ،
 القيصر : اسكندر الثاني ٣٤٠ ، ٣٤٢ -
 القيصر : اسكندر الثالث ٣٤٥
 القيصر نقولا الثاني ٣٠ ، ٦٢ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٥

كروبوكتين ، الامير ١٨ ٥
 كرونستادت ٥٠ ، ٣٤٢ ، ٥٣٢
 كروتشي ، بنديتو ٣٦ ، ٥٥٤
 كروزو ١٢٧
 كروزيه ، روبنسن ١٤٢
 كروس ٥٣٨
 كروس - روس ، معامل ٨٨ ، ٨٩
 كرومر ، اللورد ٢٢٣ ، ٤٢٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨١
 كرونير ١٣٢
 كريت ، جزيرة ٣٣ ، ٣ ، ٥٨٠
 كريسي ٣٢٢ ، ٤٤٧
 كريميو ٤٠٨ ، ٤٣٠
 كستلريغ ١١٥
 كسفوني ١٩
 كسنخ ٧١
 كشمير ٤٦٥
 الكعبة ٤٠٥
 كلكتوتا ٥٠ ، ٥١ ، ١٨٤ ، ٤٠٥ ، ٥١٣ ، ٥٨٠
 كلمار ٣١٠
 كلموك ٤١٩
 كلنجر . ٧ ، ٢٥٦ ، ٥٤٢
 كلودبرنار ١٣٨ ، ١٤٠
 كلود برنار ١٣٢ ، ١٣٥
 كلوديل ٥٣٢ ، ٥٤٣
 كلوزيوس ١٣٣
 كوسفتز ١٢٧ ، ١٢٨
 كلونديل ١٩٣ ، ١٩٥
 الكلايد ٥٠
 كليفلند ١٧١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 كليشي ٥٩٦
 كليمنصو ٢١٣ ، ٤٣٣ ، ٥٩٦
 كليمان ، جان باتيست ٥٩٦
 كمباين ٢٦٧
 كمبرلي ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢١٧
 كمبريدج ، جامعة ٣١ ، ١٤٨
 كمبوانا ٢٥٩
 كمبوديا ٢٢٣ ، ٣٦٢ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٠
 كمبون ٦١١
 كنتون ، مدينة ٥١

كافنتو ٣٣
 كالفن ، اللورد ١٣٣ ، ١٣٤
 كاله ٢٦ ، ١٩١
 كاما ، نهر ٤٣
 كامرغ ٢٦٧
 كامرون ٤٤٢ ، ٤٤٧
 كاناري ٠ جزر ١٦٣
 نابت ٧٨ ، ١٤١
 كانور ، جورج ٥٢٩
 كانتون ١٣٧ ، ١٦٢ ، ١٩٧ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢
 كاندول ١٣١
 كان - سو ٤٨٤ - ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠
 كاغم ٤٤٢
 كانغ ١٠٧ ، ١١٧ ، ٢٢٢
 كايه ٩٧
 كانو ٤٣٨ ، ٤٤٢
 كايو ٥٩٦ ، ٦١١
 كايور ٤٤٢
 كيلنخ ، روديارد ١٤٢
 كشنر ١٥١ ، ٢٢١ ، ٤٤٦
 كلر ، المطران ٢٩٦
 كتلانيا ٣٢٠
 كرابتونكين ٦٠١
 كراسنو بارسك ٤٨٥
 كراسنو فوسك ٤٢٠
 كرافت ، فولستون ٣٠٤
 كراكاس ٣٨٩ ، ٣٩٧
 كراكوفيا ، جمهورية ١٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
 كرامبتون ١٨٠ ، ١٩١
 كراين ٣٧٤ ، ٥٤١
 الكربات ٣٢٦
 كربلاء ٤١٣
 كربلين ، اميل ١٣٩
 كردستان ٤١٢
 كردكابل ٤١٩
 كرستيان التاسع ، الملك ٣١١
 كركاس ١٠٨
 كرنجي ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤
 كروات . كرواتيا ٨٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢
 كروب ، معامل ١٢٧ ، ٢٠٠ ، ٢٩٨

كورسكا ، جزيرة ١٩١
 كورساكوف ٣٤٤
 كورميك ٣٧
 كورون ، اللورد ٤٦٣
 كورناليس ٢٢١
 كورناي ٨٢
 كورنثوس ، قناة ١٨٩
 كورنو ٨٣ ، ١٣٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٥٥٤
 كورنواليس وسلي ١٢٠
 كورو ٧٣
 كوروفان ٤٤٢
 كورولنكو ٣٣٩
 كوربا ٤٥٩ ، ٤٨٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ ، ٥٧٧
 كوربا ، موربا ، جزر ٢٣١
 كوريل ، جزر ٤٩٨
 كوريه دي ليل ٢١٥
 كوزيكو ٣٨٦ ، ٣٩٦
 كوزين ، فكتور ٢٨٠
 كوسوت ٣٣٢
 كوشنشين ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢
 كوشي ٥٢٩
 كوشين ٢٤٤ ، ٤٦٥
 كوفرا ٤٤٢
 كوفيه ١٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٣٤
 كوك ١٤٢ ، ١٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
 كوك ، جزر ٤٥٤
 كوكا ٤٣٨ ، ٤٤١
 كوكنو ٤٢٠ ، ٥٣٥
 كوكريل ، وليم ٦١
 كوكلوس - كلان ٣٥٧
 كوكلي ٣٦
 كوكو ٣٩٦
 كولجا ٤٨٦ ، ٤٨٧
 كولفا ، دي ١٩٥
 كولبيا ١٠٧ ، ١٦٣ ، ١٨٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣
 كولبيا ، الولايات المتحدة الكولمبية ٣٨٩
 كولبوس ١٧٨
 كولمبيا البريطانية ١١٧ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ،
 ٢١٦ ، ٣٥٥

كندا ٤٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦ ،
 ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢١٤ ،
 ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٤ ، ٤٣٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٨
 كندا ، وثيقة استقلالها (عام ١٨٦٧) ٣٥٤
 كندهار ٤١٩
 كنساس ١٦٥
 كنفاكوسا ٤٩٧
 كنفسلي ، القس ٢١٥ ، ٢٩٩
 الكنيسة والفكر الحر ٢٧٩ ، ٢٨١
 الكنيسة الكاثوليكية : ازدهارها في القرن
 التاسع عشر ٢٨٣
 كنيغوف ٢٠
 الكهرياء : عصرها ٥١٦ - ٥٢٠
 كوابرا ٢٥٩
 كوانغ-تونغ ٤٨٤
 كوانغ-سي ٤٩٠
 كوبا ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٦٤ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٦ ، ٣٨٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٦١ ،
 ٥٣٢
 كوبدن ٢١ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٥٩٣
 كوبدو ٤٨٧
 كوبر ، فينمور ١٠٩
 كوبر ، كور ١٧٠
 كوبر فيلد ٥٤
 كوبرنيكوس ٥٣٠
 كوبنهاغن ١٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣١١
 الكواكبي ٥٨٠
 كوبو ٥٣٣
 كويك ١٨١ ، ٣٥١
 كوڤ ١٣٦
 كوتنهام ٣٦
 كوراساو ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٣٩٧
 كوداروهان ٥٠٤
 كوربييه ٢٥٧ ، ٢٥٩
 كورتلين ١٤٣ ، ٥٣٢
 كورزون ، اللورد ٤٦٨ ، ٤٦٠
 كورفس ٥٩٩

الكيمياء : مجالاتها الواسعة ١٧٣ - ١٨٥

كين ٥٣٦
كيونو ٤٩٧
كيوزاي ٥٠٤
كيو - سيو ٤٩٦

ل

لابرادور ٢١٦ ، ٣٤٩
لابرين ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٤٤٠
لابروست ٢٤٦
لابلاس ٣٢
لابل جردنيير ٦٠
لابلاتا ١٠٦ ، ٢٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٣٩٣
٣٩٤
لابوات ٩٥
لابوان - جزيرة ٣١ ، ٢ ، ٤٧١
لابون ٣٧
لابوردونيه ، ماهيه ٥٥٤
لابيس ٢٥٠
لابين ٢٧٩
لاتور ، فانتين ٥٣٨
لاداك - مجاز ٤٨٥
لادوغا ، بحيرة ٤٣
لاداش ٢٢٥
لارامي ١٩٤
لاسال ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦
لاردنر ٥٠
لاراسا ١٤١ ، ٤٨٥
لشاتليه هنري ٥٢٠
لاغوس ٢٣١
لافران ١٣٧
لافوازييه ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣
لافيجري ١٤٩ ، ١٥١
لافيس ١٤٧
لافيت ٥٧
لاكورير ٧٩
لاكوندامين ١٦١
لاما ٤٦٥
لامارين ٢٨ ، ٣١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ،

كولورادو ١٩٥

كولوغي ٤٢٦ ، ٤٢٧
كولوني ، مدينة ٤٢ ، ١٨٩ ، ٢٤٥
كولونيا ١٨٣
كوليج دي فرانس ٣١
كوم ٤١٦
كومارون ٤١٩
كوماسي ٤٤٣
كومانين ٩٩

الكومون ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ،
٣١٧ ، ٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ،

كوسين - تانغ ٥٧٧
كونارد ، صموئيل ٥٠
كونب ٢٨٨
كونت ، اوغست ٣١ ، ٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
١٣٩ ، ٥٨١

كونساي ١٣٧
كونسكي ٦٠٢ ، ٦١٠
الكونفو ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٨٣ ،
٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٨٢ ، ٤٤٩ ،
٤٦٠ ، ٦١٣

الكونفو البلجيكي ٤٢٢ ، ٤٥٠
الكونفوشيوسية ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٩٧

كونكتيكت ٣٦٦
كونبوت ٤٤
كونيغ ٣٨

كوي - تشيو ٤٨٤
كونيسلند ١٩٥

كيال ، قناة ١٨٩
كيان - يونغ ٤٨٣

كيانغ ٢٨٦
كيانغ - سو ٤٨٤

كيتس ٧٢
كيتاسانو ١٣٧

كيتو ٢٩٦ ، ٥٠٣
كيرسوف ١٣٣ ، ٥٤٤

كيفراس ١٩
كيرافسكي ٢١٤

كيكويه ٣٧
كيلر ٢٥٩
كيلساني ١٧٥

لنكولن ١٢٦
لنين ٣٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٥٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥
له بلاي ٢٩٦
له كور ، الاخوان ٥٤٢
له هافر ، مدينة ١٨٦
اللوار ، نهر ٤٤ ، ١٨٣
لوب ٧٧
لوتيفسكي ٣٢
لوتي ٤٥٦
لوتر ٢٦٢
لوجندر ٣٢
لودز ٥٩٦
لودري - رولن ١٠٠ ، ٣٠٩
لودفيغ ٣٤٢
لورتيه ٤١٢
لورنس ، اللورد ٤٦٦
لوريمر ٣٠٥
اللورين ١٢٦
لوريڤ ٥٢٩
لوز ١٧٢
لوزان ٣١٥
لوشاقلية ، لويس ١٧١
لوفرييه ٣٢ ، ١٤٣
لوكونت دي ليل ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
لومبيرديا ٢٧
لومهر ، جول ١٣٤ ، ٢٦٠
لونف ١٤٦
لو والون ٢٥٩
لووس ٥٤٢
لويد جورج ٦٠٠
لويد ، شركة ٥٦
لويزيتانيا ٣٢١
لويس الاول ، ملك بافاريا ٧٢
لويس الاول ، ملك البرتغال ٣٢٠
لويس الثاني ، ملك بافاريا ٢٦٢
لويس الرابع عشر ، الملك ١٠ ، ١٣ ، ٤١
٤٢ ، ٤٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٢٤٤
٢٥٥
لويس الخامس عشر ٢٤٨
لويس السادس عشر ١٧ ، ٤٢ ، ٢٤٨

٩٧ ، ٩٨ ، ١٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥
٤١٢
لامارك ٣٣ ، ١٣٤
لامنيه ٧٩ ، ٩٥ ، ٢٨٠
لامي ٤٤٠
لانستون ٥٣٠
لانفسترون ١٦٦
لانكستر ٢٧٩
لانكشاير ٤٤ ، ١٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧
لاهاي ٦١١ ، ٦١٣
لاولسو ٤٦٢
لاوس ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
لاون الثالث عشر ، البابا ١٤٩ ، ١٥١ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٦٠٠ ،
٦١١
لاينك ، لويس ١٣٥ ، ٥١٢
لبتن ٢٠٦
لبنان ، جبل ٤١٢ ، ٥٨٠
لدلو ٢٩٩
لروا - بوليو ، بول ١٣٠ ، ٢١٥
لسبس ١٨٩ ، ١٩٠
لسنخ ٧٦
لشيون ١٠٧ ، ٢٢٥ ، ٣٢٠
لفوف (ليوبول) ٣٣١
لكسمبورج ، روزا ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦١٠
لمبروزر ١٣٩
لنجفين ٥٢٩
لندن ١٣ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،
٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٤ ،
٦٦ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٢٦ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
٢٥١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ،
٣٥٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ ،
٤٩٢ ، ٥١٨ ، ٥٤٢ ، ٦١٣
لندن ، معرض (١٨٥١) ٢١
لندندين ، لورد ٢١
لنشبورج ٤٣

لويس الثامن عشر ٨١ ، ١١٥ ، ٤٧٨

لويس نابوليون ٧٢

لويس سولر ٧٢

لويل ١١١

لوينتور ١٤٦

ليال ١٣٤

ليبرفيل ١١٦ ، ١٤٤

ليبرمان ٢٦١

ليبريغ ٤٦ ، ١٢٨ ، ١٤١

ليبنتز ٣٢

ليبيا ٤٤٢

ليبيريا ٤٤٥

ليبيغ ٦٩ ، ١٣٦ ، ١٧٢

ليتويه ٧ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦

ليتون ، اللورد ٢٢٢

ليدس ، مدينة ٦٥

ليدفييل ١٩٥

لير مونثيف ٧٢

ليست ٤٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٦ ، ١٤٠ ،

٢١٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢

ليست ، ترجمة مؤلفاته الى الالمانية ٥٠٤

ليستر ، الكونت ٢١ ، ١٣٦

ليسبه ٢٨٢

ليفربول ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٠ ،

١٥٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٥١٤

ليفربول ، الوزير ٨٢

ليفنستول ١٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩

ليفورنو - نيزا ٤٥

ليفونيا ٣٠

ليل ١٢ ، ٤١ ، ٦٩ ، ٩٠ ، ٩١

ليما ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،

٣٩٦ ، ٤٠٢

لينورمان ، عائلة ١٣١

لينييه ٣٣

ليوبولد ، ملك بلجيكا ١٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،

٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٧١ ، ٤٨٠

ليوبولد فيل ٤٥٠

ليوتي ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٣٣

ليون ، مدينة ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٨ ،

٨٨ ، ٩٣ ، ٢٥١ ، ٢٤٢ ، ٣١٨ ،

٣٦٦

ليونكا ٢٥٩

ليباج ٤٢ ، ٢٩٠

لييل ٣٣

مارب ، مدينة ١٤٤

ماتوغروسو ٢٨٤

ماتيس ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٧٦

ماتيه ، كلود ٢٦٠ ، ٢٦١

ماتيو دي دومبال ٢٠ ، ٢١ ، ١٦٤

ماجدولينا ، نهر ٣٨٤

ماجندي ١٣٥

ماجلان ١٨٤ ، ١٩٤

ماخ ٥١٢

مادسلي ١٧٥

ماديرا ٤١٨

ماديسون ١١٢

مارات ٩٦

ماراكايو ٣٩٧

مارتزا ، نهر ٣٣٦

مارتن ، كور ١٧١

مارتنز ٣٠٥

مارتينيك ٤٠٠ ، ٤٠١

مارشال ، الفرد ٥٥٤

مارشال ، جزر ٤٥٥

مارا ٧١

ماركس ، ماركسية ١٤ ، ٢٦ ، ٩١ ، ٩٣ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ،

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٥٩٨ ،

٦٠٠ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٦ ،

ماركس ، كتابه : رأس المال ٢٩٠

ماركوس اوريليوس ٣٩١

ماركيت ، معادن ١٧١

ماركيه ٥٣٨

ماريان ٢٢٣

المارينوس (عرق) ١٨

مارينوني ٥٣٠

ماريني ٥٣٢

ماير ، روبرت ٣٣
 ماين ٥٣٦
 مايو ، اللورد ٤٦٥
 مايول ٥٣٦
 مترنيخ ، ٨ ، ٥٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٥٢
 منز ، مدينة ١٢٨ ، ٥٤٠
 متشيا ونش ٨٦
 مترلنك ٢٦٣
 متوديسست ١١١
 مجدلينا ، ٣٩٦ ، ٣٩٧
 المجمع الفاتيكانى ١٤٨
 محمد النبي ٤٠٩
 محمد سعيد بن محمد علي ١٨٧
 محمد الصدوق ٤٣٣
 محمد علي ٣٤ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٨٧ ،
 ، ٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،
 ٤٤٥
 محمد بن عبد الوهاب ٤٠٦
 محمود الامين ٤٤٢
 محمود الثاني ، السلطان ٤١٤
 المحيط الهادي او الباسيفيكي او الكبير
 ، ٢٩ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٤٦ ، ١٨٦ ،
 ، ١٨٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٣٥١ ، ٤٥٣ ،
 ٤٦١ ، ٥٧٧
 المحيط الهندي ١١٥ ، ١٢١ ، ١٥١ ،
 ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٣ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٧٢ ، ٥٧٧
 المحيط المتجمد الشمالي ١٦١
 منخا (بن) ٤١٣
 مدام دي ستال ٣١
 مدراس ٤٦٤
 مدريد ٦٥ ، ١٠٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٠ ،
 ٤٣٦
 مدغشكر ١١٥ ، ١٥٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٩ ، ٤٢٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢
 مدهو سو ، دان دان ٤٧٠
 المدينة ٤٠٥
 مراکش ٢٠٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥
 مرجيان ٤٢٠
 مرسيليا ١٣ ، ٤١ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٥١
 الرسيلياز ٨٥

مازاريك ٣٣١
 ماساشوستس ٣٦٦
 ماسون ٦١
 الماسونية ١٠٠ ، ١٠١ ، ٢٨٢
 الماسونية : محافلها في العالم ٢٨٢ - ٢٨٣
 الماسونية في اميركا اللاتينية ٣٨٨
 ماك ٥٤٤
 ماك آدم ٤٠
 ماك كلور ١٤٦
 ماك لود ١٩٧
 ماكارى ١٩٤
 ماکاو ٣٥٧ ، ٤٩٢
 ماك كورميله ١٧٥ ، ١٧٧
 ماكس اوريل ٢٥١
 ماكس مولر ١٤٠
 ماكسويل ١٣٣
 ماكتوش ٧٦
 ماكندر ١٤٧
 ماکولي ١٣٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤
 ماكيه ، روبر ٧٥
 مالابار ٤٦٥
 مالاھاري / المصلح ٤٦٨
 مالارميه ٢٩٥ ، ٤٦٣
 مالقا او مالاکا ١٢١ ، ٤٧٠ ، ٤٧١
 ماليزيا ١٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٠ ، ٤٧١
 مالين ٤٦
 مانجين ٤٤٤
 ماندلاي ٤٧١
 المانش ١٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٢٩٠
 ماننخ ٢٩٧
 مانهاتن ٣٦٦
 مانيان ، فاكنتين ١٣٩
 مانيتوبا ١٦٥ ، ٢١٦ ، ٣٥٥
 مانيل ١٦٢ ، ١٨٤ ، ٤٧٦
 مانيه ٢٥٥ ، ٥٣١
 ماهان ١٣٠
 ماوري ٣٥١
 مايا ٢٨١
 ماير ارثر ٦٠٤
 ماير بير ٧٤ ، ٧٥ ، ١٤٩ ، ٢٦٢

مكسيكو ، خليج ١١٢ ، ١١٣ ، ٢٥٨
 مكسيميليان ٣٩٩
 مكناس ٤٣٤
 مكة ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٥٨٠
 مكيافيتش ١٠٣
 مل ، جون ستوارت ٨٤ ، ١٣٢
 مليورن ٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٩٣
 ملطوس او مالتوس ١٤ ، ٢١ ، ١٥٨ ،
 ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٦١٤
 الملاحه بين السفينة الشراعية والتجارية
 ١٨٤ ، ١٨٦
 ملفيل ١٦١
 ملهوز ١٢ ، ٣٦
 مليلا ٢٢٥
 منتليك ٤٤٧
 منتو ٥٧٩
 منجر ٣٠٠ ، ٥٥٥
 منجنو ٣٠٢
 مندل ، غريغور ١٣٥ ، ١٣٧
 مندلسون ٢٦٢
 مندلسوهن ٢٥٩
 مندناو ٤٧٦
 مندليف ٥٢٩
 منزوني ٧٨
 منشستر ٤٢ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٧ ،
 ١٥٨ ، ٢٤٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٤٩٢
 منشفيك ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥
 منشوريا ١٧٦ ، ٤٦١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ،
 ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٥١٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠٧ ،
 ٦١٢
 المنشورية ، السلالة ٤٨٢ ، ٤٨٣
 منسو بيشي ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢
 منصور دي بول ١٥٠
 منغيز ١٧٢
 منغوليا ٢٢٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥
 المهاجرة في اوربا ١٥٧-١٥٩ ، و ١٥٢-
 ٥١٣
 المهدي ٤٠٥
 الهرات ٤٦٣
 موباسين ٢٥٧
 مؤتمر : برلين (١٨٩٠) ٥٩٢

مرغي ، ارخبيل ٤٧٠
 مرو ٤١٩ ، ٤٢١
 مريدس ٢٥٩
 مريماك ، نهر ١١١
 مريديه ٢٦٠
 مريمه ٢٥٧ ، ٢٥٨
 مزاب ٤٢٦
 المزدية ٤٠٦
 مساجيه ٢٥٠
 متشل ٢٩٩
 مستر ، جوزف دي ٧٩ ، ٨٥ ، ٣٠٥
 مسقط ١١٥ ، ١٥١ ، ٢٣١ ، ٤١٣ ، ٤٤٨
 مسكاني ٢٥٩
 المسيحي ، نهر ٤٣ ، ١١٠ ، ١٨٣ ، ٣٥٩
 مشهد ٤١٦
 مصر ١٣ ، ٧٦ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٧٧ ،
 ١٨٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٣١٨ ، ٤٠٥ ،
 ٤١٥ ، ٤٢١ ، ٤٤٥ ، ٥١٥ ، ٥٨٠
 مطران ، خليل ٥٨٠
 المعادن الثمينه : الذهب والفضة ١٩٣ -
 ١٩٤
 المعارض الدولية : في النصف الثاني من
 القرن التاسع عشر ١٧٧ - ١٧٩
 معاهدات : ايدن - دينغال (١٧٨٦) ٦٣
 معاهدة باريس الاولى ١١٥
 معاهدة كولجار (١٧٦٠) ٤٨٦
 معاهدة اوريفون ١٠٩
 معاهدة تركمان شاه (١٨٢٨) ٤١٦
 معاهدة نانكين (١٨٤٢) ٤٦١ ، ٤٨٩
 المعتزلة ٤٠٧
 معهد الوثائق ٧٧
 المغرب ٤٠٦ ، ٤٣٨
 مقدونيا ١٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٧ ، ٤١٢ ، ٥٨٠
 مكاو ١٥٠
 مكسويل ٢٩٩
 المكسيك ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ١٦٢ ،
 ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٥١٥ ، ٥٩٥
 مكسيكو ١١٦ ، ٣٩٩ ، ٦١٢

مؤتمر فيينا (١٨١٥) ٨١ ، ١٠٢
 مؤتمر فيونا ٨١
 مؤتمر مدريد ٤٣٦
 مؤتمر لاهاي ١٦١
 مؤتمر مونيخ غراتل ٨١
 موتسو - هيتو ٤٩٩
 موتووري ٤٩٧ ، ٥٠٣
 موديسلي ٣٦ ، ١٤١
 مودين توماس ٩٧
 مودافيت ، نيكيتا ٣٠ ، ١٢١ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٨
 موردوخ ٣٧
 مورس ، ولیم ٤٨ ، ٤٩ ، ١٨٤ ، ١٩٠
 مورغان ١٢٧ ، ١٩٥
 مورغان ، بير ، بونت ٥٣٦
 مورغب ٤٢٠
 مورلي ، اللورد ٥٧٩
 المورمون ١٠٨
 مورو ، غوستاف ٢٥٧
 موروس ٤٧٦
 مودي اوقاي ٥٠٤
 مورياس ٢٦٣
 موريتانيا ٤٠٤
 موريس ، القس ٢٩٩
 موريس دي بروي ٥٢٩
 موريس ، ولیم ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٥٣١
 موريس ، جزيرة ١١٩ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ،
 ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٧
 موريسوف ٢٠٦
 موز ، نهر ٤٢ ، ٨٥
 موزارت . ٧٢ ، ٧٠
 موزامبيك ٣٨٢ ، ٤٥٠
 موند ٥٤٢
 موسكو ٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٤ ، ٦٠٤
 موسكينو ١٨٩
 موسورغسكي ١٦١ ، ٣٤٤ ، ٥٣٤
 موشليه ١٨٦
 موغانور ٤٣٦
 مولتاتولي ٤٧٥
 مولنكه ١٢٨
 مولداف ٣٣٥

مولر ، ادم ٢٩
 مولر ، فريتز ١٣٥
 مولين ٤٧١
 مولوك ، جزر ٢٢٦ ، ٤٠٤ ، ٤٧٣
 مونانا ٣٩٦
 مونتينو ٢٧٨
 مونثالفوا ٣٩٠
 مونثريال ٢٠٦
 مونتيكيو ١١٤
 مونتسوري ، ماريا ٥٣١
 مونتيوري ٤٠٨
 مونتيديو ٣٩٣ ، ٣٩٤
 مونتلبير ٥٨ ، ٨٠ ، ٩٥
 مونسخ ٥٢٨
 مونرو ١٠٧ (تصريحه عام ١٨٢٣) ١٠٩ ،
 ١١٢ ، ١٢٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣
 مونروفيا ١١٦
 مونستر ٢٢٤
 مونفولفبييه ١٧٣
 مونمارتر ٢٥٥ ، ٥٤١
 مونني ٦١
 مونينخ ٥١٧
 مونيه ، كلود ٢٦١ ، ٥٣٨
 مونيه سولي ٢٥٠
 موهل ، هوغو ٣٤ ، ٢٦٣
 مويسكوت ١٤١
 الميتو ، حزب ٤٩٧
 ميتسوي ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢
 ميشاق البنود الخمس في اليابان ٤٩٩
 الميجي ٤٩٩ - ٥٠٢
 ميديا ٤٢٧
 ميراي ٢٤٩
 ميرزا علي محمد ٤٠٦
 ميريس ، جول ٢٠٠
 الميسوري ١١٤
 ميشليه ٤٧ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٦ ،
 ٩٨ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٨
 الميكاد ٤٦٣ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٧٧
 الميكونغ ٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨٠
 ميكلو انجلو الكواسر ٧٤

ميل ، جيمس ١٤١
ميل ، جيهون ستوارت ١٤٠ ، ١٤١ ،
٣٨٨
ميلر ١٣٣
ميلهور ٦١ ، ٩٠ ، ١٦٢
ميلون ، ارمان دي ١٣ ، ٤٨
ميليكيان ٥٢٩
ميلانو ٨٢ ، ٢٠٥ ، ٣٦٦
ميلاي ٢٥٦
ميناس ٢٨٣ ، ٣٩٢
ميناسوتا ١٦٥
مينام ٤٧٨
مينيا بوليس ١٦٥
ميونيخ ٧٩ ، ٢٤٣

ن

نابولي ٢٨ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨١
نابولي ، مملكة ٢٨ ، ١٠١
نابوليون ٢٦ ، ٤١ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٠٦ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢١٦ ،
٣٢٠ ، ٣٩٠ ، ٤٣٥
نابوليون الثالث ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٨٨ ،
٢٠٣ ، ٢٥٢ ، ٥٢٢ ، ٥٣٩
نابوليون الراس (سسيل رودوس) ٢٦٧
نابير ٢٢١ ، ٤٤٧
نات ترنر ١١٦ ، ٢١٧ ، ٣٧٣ ، ٤٤٨
ناتال ١١٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٦
نادر شاه ٤١٦ ، ٤١٧
نادو مارتن ٩١
ناربونا ٥٩٦
نارد ١٤٠
ناغازاكي ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
النافار ٢٨
نافيه ٣٩
نانت ٦٩ ، ٨٩
نانسن ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٣١٢
ناكسين ، معاهدة ٤٦١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ،
٤٩١ ، ٤٩٢
النجاشي ٤٤٦

نجد ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٥٨٠
نجني - نوفورود ٤١٩
نداء الالتفاف ٢٩٧
النرويج ٣ ، ٨٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٥٩٤
نشيد الدولية : وضعه اوجيني بوتيه
٥٩٧
نصر الدين شاه ٤١٦ ، ٤١٧
نغان - هوي ٤٨٤
نغرلي ١٨٧
النفود ، صحراء ٤١٣
النقاية : نشاتها في الولايات المتحدة
الاميركية ٣٦٩
النقل البري والمائي : وسائله ٣٩ - ٤٣
النمسا ٤٧ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ١٢٥ ،
١٨١ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣١٢ ،
٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ،
٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٣٦ ، ٥٤٢ ، ٥٩٨
نوبار ١٨٨
نويل ١٢٧ ، ٢١٣ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٦١١
نوتنفهام ٢١٠
نوتويل ، سلسنتين ٧٥
نورثبروك ، اللورد ٥٥
نورثروب ١٧٥ ، ١٧٦
نورفولك ١٨
نورثكليف ، اللورد ١٦١
نورمبرغ ٤٦
نوفاليس ٧٣ ، ٧٧
نياغارا ٥١٧ ، ٥١٨
النيبال ٤٦٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥
نيبلونجن ٢٦٢
نيتشيه ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٢٥ ، ٥٠٤
نيبون ٤٩٥
نيبهور ٨٦
لينجر ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،
٥٨٠
نجيريا ١٦٢ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥
نيرون ١٨٩
نفس ١٢٦ ، ١٣٧
نيفلسكي ١٢١
نيقولافسكي ١٢١
نيقول ١٣٧

نيقولا الثاني ٦.٣ ، ٦.٤ ، ٦١٢ (راجع
كذلك : القيصر)

نيكاراغوا ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٧٦ ، ٣٨١
نيكر ٥٨

نيكر بكر ، لواشنطن اربوين ٧٥

نيكوبار ، جزر ٤٧٠

النيل ١٢٠ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٤٠٥ ،
٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥

نيم ، مدرسة ٣٠٠

نيمارك ٦١١

النيمن ، نهر ٨٥

نيوتن ٣٢

نيوجرسي ٣٦٨

نيوشاتل ٥٥

نيومان ٨٠

نيوهاموني ١١٠

نيوهافن ١٩٢

نيويدي ٣٥

نيويورك ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ،

١١١ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،

١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٣٥٢ ،

٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ،

٣٧٤ ، ٤٠٢ ، ٥١٤ ، ٥٤١

هاتراس ، القبطان ١٤٦

هارت ، روبرت ٤٩٠

هاردن ، مكسيميليان ١٦٩ ، ٣٢٦

هارسون ٣٦٧

هارفرد ١١٣ ، ٣٧٣ ، ٥٤٠

هارفي ٣٤

هارمل ، ليون ٢٩٦

هاركنس ١٢٧

هاريمان ١٦٥ ، ٢٠١

هارلم ١٩

هافاس ، شارل ٥٨ ، ٢٠٦

هاز ٦١٠

الهافر ٤٩ ، ٢٠٥

هافلار ، ساكس ٤٧٥

هالودات ٤٨٩

هاكون السابع ٣١٢

هاليفاكس ١٨١

هاملتن ١٣٢

هان ١٤٣

هانوفر ٤٧

هاواي ١٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٥١٣ ،

هان-كيو ٤٩٠ ، ٥١٣ ، ٥٧٧

هان - يانغ ٤٩٢

هانوي ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٥

هاوس - الكولونيل ٦١٣

هايتي ١٤٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

هاي-نان ٤٩٣

هايدبارك ٢٥١

هاين ٥٥ ، ٥٧ ، ٨٦ ، ٩٦

هاينو ٢٩٠

هايس ٣٧٣

هايدلبراند ٢٩٦

هايقونغ ٤٨١ ، ٤٨٢

الهبريد جزر ٢٢٤

هيسبورج ، آل ٢٩ ، ١٢٥ ، ٢٧٦ ،

٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،

الهلسون ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٦١

هرار ٤٤٦ ، ٤٤٧

هرتز ١٣٣ ، ٥٢٩

هردر ٨٥

هرسك ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦

هرزن ٩٦

هرشل ١٣١

هرميت ١٣٢

هروينغ ٩٦

هرناك ٢٨٣

هريو ٢٦٢ ، ٦٠٠

هسكنس ٦٤

هلسكي ١٣٥ ، ١٤١

هكيل ١٣٥

هلفرينغ ٦٠٦

هلمهولتز ١٢٣

همبورج ٤٢ ، ٤٧ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٣٢٦ ،

همبولت ١٨٩ ، ٣٨٩

همدان ٤١٦

هوك ، الاب ١٤٦ ، ١٤٩
 هوميروس ٧١
 هوكايدو ، جزيرة ٥٠٥ ، ٥١٣
 هو - نان ٤٩٠
 هول ١٧٥
 هولز ٥٣٢
 هولتز ٢١٠
 هولست ٢٨٤
 هولندا ٨٦ ، ١١٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٣ ، ٢١١
 ٢٢٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩
 ٢٧ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٤٠٠
 ٤٦١ ، ٤٧٢ ، ٤٩٨
 هونان ٤٨٤
 هوندوراس ٢٣١
 هوندوراس البريطانية ٤٠٢
 هومز ٣٣٦
 هونغ-كونغ ٥٠ ، ١٢١ ، ١٨٦ ، ٢٣١
 ٣٥٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢
 هونولولو ٤٥٥
 هوهنز ولرن ٢٧٨
 هوهنز شارل ٣٣٦
 هوهنلو ٢٧٨
 هويتمان ١٠٣
 هويه ٤٥٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨١
 هويتني ٣٦ ، ١١٣
 هيبيل ٢٥٦ ، ٢٥٨
 هيتورب ٢٤٥
 هيرات ٤١٨ ، ٤١٩
 هيراتا ٤٩٧ ، ٥٠٣
 هيركن ٦١٢
 هيرودو تسن ٧
 هيرو ١٧٥
 هيروشيحي ٥٠٤
 هيرولد ٢٤٩
 هيريو ٢٠١
 هيفل ٧٨ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥
 ٥٠٤ ، ٥٠٤
 هيلينا الجديدة ٢٥٠

الهند ٧٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٧ ، ١٤٨
 ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٧
 ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٣
 ٢٤٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩
 ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥٧٨
 ٥٧٩ ، ٦١٦
 الهند ، تطورها الاجتماعي والوعي القومي
 ٤٦٨ ، ٤٦٩
 الهند ، استثمارها على يد الانكليز ٤٦٥
 ٤٦٦
 الهند الصينية ١٢١ ، ١٤٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٩
 ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٣ ، ٥١٣
 الهند ، شركة ... الانكليزية ٢٠٣
 هنبل ٧١
 هندمان ٢٩٠
 هندوس ٤٠٤
 هنري الثاني ٢٤٨
 هنريغ ٣٢٤
 هنغاريا او المجر ٤٥ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ٢٢٨
 ٢٤٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٥٣٦
 هويتمن ٥٣٢
 الهلال الخصيب ٤١٢
 هوبير ١٦٦
 هوب ٥٥
 هودا ٥٠٤
 هود ، توماس ٩٦
 هودزيتا ٤٩٧
 هودسون ٣٦١
 هورن ، رأس ١٨٤ ، ٣٨٩
 هوريه ، جول ٣٦٩
 هوسمان ١٠١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦
 ٣٧٥ ، ٥٤٠
 هوغ ١٩١ ، ١٩٢
 هوفنز ١٣٣
 هوفو ٤٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ٢٥٦
 ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٣٠٥ ، ٥٢٤
 هوفبرغ ٢٤٦
 هونفا ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢

واترلو ٥٦ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩
 واسرمن ١٣٧
 واشنطن ، بوكر ٣٥٨
 واشنطن ايرفن ١٩
 واشنطن ، مدينة ٤٥ ، ٤٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
 ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٤٠٢ ، ٤٩٨ ، ١١٦
 واشنطن ، جبل ١٨٠
 واط ٣٤
 واغرام ١٢٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥
 والتر ، جون ٢٨
 والراس ١٤٠ ، ٣٠٠
 وايلد ، اوسكار ٣٥٦ - ٥٣٣
 وايلز الجديدة ٣٥٥
 وبر ، ماكس ٢٥٤
 الوائيقية ، الوائيقون ٩٨ - ١٠٠ - ٣٠٩
 ودسورث ٧٧
 ورد ٤٩١
 ورتنبر ٤٠
 ورنر ، ارنست ٤٩
 وست بوينت ٤٥
 وستمنستر ، لورد ٢٦
 ولبر فورس ٨٠
 ولتردن ٤٧٦
 ولسلي ٢٢١ ، ٤٧٢
 ولسن ، الرئيس ٥٢٩ ، ٦١٣
 ولكنسن ٣٥ ، ٣٦
 ولنفتون ٤٧٢
 الولايات المتحدة الاميركية ١١ ، ١٢ ، ٤٢ ،
 ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٠ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،

٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
 ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٥١٤ ،
 ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ،
 ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٩١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ،
 ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ،
 ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٨

الولايات المتحدة الاميركية : توسعها .

١٠٨ - ١١٠

الوهابية ٤٠٧ ، ٤١٣

وهران ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠ ،

وهلر ١٧٢

وولف ٤٩ ، ٥٨

وول ستريت ١٩٨ ، ٣٦٦

وونلت ١٤١ ، ٥١٢

ويبر ٤٨ ، ٧٥ ، ٢٥٧

ويتووتر ستراند ١٩٣

ويرستراس ١٣٢

ويزر ، فون ٥٥٥

ويكفيلد ١١٨

ويكيت ٥٣٩

ويلكس ١٤٣ ، ١٤٦

ويهار ٧١

ي

اليابان ١٤٩ ، ١٦٣ ، ٢٣٥ ، ٣٤٦ ،
 ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
 ٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،
 ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ،
 ٥٢٨ ، ٥٩٤ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ، ٦١٤

باروبا ٣٨٣

يال ، جامعة ٣٧٣

يوت ٣٤٢
 يوركشير ١٩ ، ٣٠٥
 يوسين ١٣٧
 يوغوسلافيا ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
 يوكاتان ٣٩٩
 يوكوهاما ٤٩٨ ، ٥٠٥
 اليونان ١٠٨ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٤١٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩١
 يونانفو ٤٩١
 يونغ ، ارثر ١٨ ، ١٩
 يونو ٣٩
 ييدو ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩

يامادي كيزاي ٥٠٤
 يانغ - تي ١٤٦ ، ١٨٣ ، ٤٩٠
 يسوع ٢٥٨ ، ٤٧٠
 اليسوعية ، الرهبة : اعادة احيائها ١٤٩
 اليعقوبية الجديدة ١٠٠
 يلدز ، قصر ٤٠٤
 اليمن ٤١٣ ، ٥٨٠
 اليهود ، اليهودية ٢٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ،
 ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٦
 اليهودي الثالث ، يسو ٧٩
 اليهودية ٤١٢
 يواشي-كاي ٥٧٧

فهرست الخرائط والنصاميم

ص	
٢٥ - ٢٤	شكل ١ - وافدة الكوليرا الكبرى في اوروبا ١٨٢٩ - ١٨٣٧
٦٣	٢ - عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المائة الف
٨٨	٣ - نفقات عائلة عاملة في فرنسا
٨٩	٤ - حركة الاسعار في القرن التاسع عشر
٩٠	٥ - حركة الاجور
١٤٥ - ١٤٤	٦ - اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر
١٥٣ - ١٥٢	٧ - الانتشار المسيحي
١٥٦	٨ - السكان ونسبة الولادات
١٥٧	٩ - النزوحات الكبرى
٢٠٥	١٠ - الثروة الفرنسية في الخارج
٢٢٧	١١ - البريطانيون في الهند ، والروس في آسيا الوسطى
٢٣٣ - ٢٣٢	١٢ - العظمة البريطانية في القرن التاسع عشر
٢٤٠	١٣ - توسع مدينة ليون
٢٤١	١٤ - نمو مدينة فرانكفورت على الماين
٢٤٢	١٥ - توسع مدينة تورينو
٢٦٦	١٦ - كثافة السكان الزراعيين في ألزاس السفلى
٢٨١	١٧ - توزيع اعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ - ١٨٩٠
٢٨٧	١٨ - توزيع الثروات في كل من فرنسا وانكلترا وفقاً للتصاريح الارثية
	١٩ - الاجور والنفقات السنوية ، مقارنة بين ١٨٣٣ اسرة عمالية في صناعة
٣٠١	الحديد موزعة بين ٥ بلدان
٣٤٥	٢٠ - نشاط اوروبا عام ١٨٩٠

٣٥٣	٢١ - تكون الولايات المتحدة والمنتكة الكندية
٣٦٢	٢٢ - توسع فيلادلفيا
٣٧٨	٢٣ - اميركا اللاتينية السياسية
٣٧٩	٢٤ - اميركا اللاتينية الاقتصادية
٤٢٩	٢٥ - مثال عن الاستعمار الاوروبي ، بليدا ومنطقتها
٤٣٩	٢٦ - افريقيا في القرن التاسع عشر
٤٤٤	٢٧ - نمو مدينة استعمارية : دكار
٥٣٧ - ٥٣٦	٢٨ - الجامعات في العالم في القرن العشرين
٥٣٩	٢٩ - الجامعات المؤسسة في اوروبا في القرن التاسع عشر

فهرست الصّور

- ١ - اللوحة رقم ١ - عجلة للسافرين تصل الى المحطة .
- ٢ - نقل المسافرين بواسطة البخار للمرة الاولى .
- ٣ - تجربة الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .
- ٤ - الحرية ترشد الشعب (٢٨ تموز ١٨٣٠) .
- ٥ - المجلس الثوري في (سانت اتيان) في السنة ١٨٧١ .
- ٦ - حرية الصحافة .
- ٧ - مقاعد المجلس التشريعي (١٨٣٤) .
- ٨ - اعلان الجمهورية امام قصر بوربون في ٤ أيار ١٨٤٨ .
- ٩ - باسطور في مختبره .
- ١٠ - معرض باريس العام في السنة ١٨٥٥ - مشهد لرواق الآلات .
- ١١ - مخازن (زاوية الشارع) حوالي ١٨٦٠ .
- ١٢ - مقطورة الدرجة الثالثة .
- ١٣ - تدشين قناة السويس .
- ١٤ - انجاز اول خط تليفرافي بين الولايات المتحدة وشرقها في السنة ١٨٦١
- ١٥ - طلاب الذهب الاميركيون في طريقهم نحو كاليفورنيا (١٨٤٩) .
- ١٦ - مؤسسة تجارية في مدينة لندن .
- ١٧ - جمعية المساهمين .
- ١٨ - جنون الاعلان .
- ١٩ - صف المنتظرين امام مسرح (المعنى - الهزلي) .
- ٢٠ - الزيارة عند المزارع .
- ٢١ - اجتماع انتخابي في مشغل باريس ، قبل الانتخابات البلدية .
- ٢٢ - مظاهرة نسائية في ال (كروزو) (نيسان ١٨٧٠) .
- ٢٣ - الملكة فيكتوريا تزور الاسطول الفرنسي ، في ١٣ تشرين الاول ١٨٤٤ .
- ٢٤ - الامبراطورة اوجيني ومرافقاتها .
- ٢٥ - الزحمة في احد شوارع لندن .

- ٢٦ - دخول غارييلدي الى نابولي .
- ٢٧ - الساحة الحمراء في موسكو ، في السنة ١٨٤٤ .
- ٢٨ - برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .
- ٢٩ - سنسائي في السنة ١٨٦٠ .
- ٣٠ - دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية ، (١٨٦٥) .
- ٣١ - مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .
- ٣٢ - مدينة بوينوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمر ك .
- ٣٣ - اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .
- ٣٤ - سوق لبس العبيد في مدينة الجزائر .
- ٣٥ - دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .
- ٣٦ - حمامات الفانج المقدسة .
- ٣٧ - دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ - هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .
- ٣٨ - مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .
- ٣٩ - مصائب الحرب : النزوح عن (سان - كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .
- ٤٠ - الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٢ .
- ٤١ - الافستين .
- ٤٢ - اخراج الفرش من بيت الرهن .
- ٤٣ - كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .
- ٤٤ - عظمة البورجوازي وانحطاطه .
- ٤٥ - انطلاق السيارات المتسابقة (باريس - برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .
- ٤٦ - متنزه الدراجة في غابة بولونيا .
- ٤٧ - حفلة راقصة في (طاحونة الطلمة) .
- ٤٨ - النزهة الباريسية .

فهرست عام

مدخل ٧

القِسْمُ الأول

بين الاستمرار والتغيرات المحتملة في مطلع العصر

ص

الفصل الاول . - مكان أوروبا ١١
النمو المطرد - المعدل العالي في الوفيات ، الوبئة الفتاكة والطاعون مع ملطوس وضده

الفصل الثاني . - العناية بالارض في أوروبا ، انماط الحياة القديمة والتطور ١٥
الطابع السائد في أوروبا لا يزال طابع التربة والارض - الاقتصاد الريفي لا يزال الطابع التقليدي -
الازمات الزراعية - نتائج « الثورة الزراعية » ذي النهج البريطاني - بريطانيا العظمى وكبار
الملاكين - الفلاح الايرلندي وما يعانيه من بؤس ومزلة في فرنسا مجتمع من صغار الملاكين المتواضعين -
انكفاء النظام السادي في المناطق الواقعة بين البحر الشمالي وجبال الالبين - الاطيان الضخمة على
حدود أوروبا الشرقية وفي شبه الجزر على البحر الابيض المتوسط - القرى الروسية الكبرى الخاضعة
لرق الارض

الفصل الثالث . - التقنيات الجديدة في الصناعة والنقل ٣١
سير العلم بين جيل وآخر - كشوف الهندسة الصناعية - ذروة السرعة في وسائل النقل - حمى الاقبال على
المراث والاقنية المالية - ظهور سكة الحديد - من التلغراف البصري الى التلغراف الكهربى - ازدهار
السفن الشراعية وبدء العمل بالبخار

الفصل الرابع . - الدفع الرأسمالي والبورجوازي ٥٣
حقبة تسيطر عليها حاجة ملحة للتد - الدول مصاعبها المالية ومشكلاتها - كبار رجال المال والحكومات -
ثورة آل روتشيلد - الشعور بالحاجة الى توزيع احسن في الثروة - محاولة سيطرة رأس المال على الرأي

العام ، الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة - بين تجار وصناع - الاقتصاد : تطوره ومشكلاته ، حماية الصناعة - التجارة الحرة وتطورها السياسي - مدن الامس ومدن الغد - البورجوازي في عهد الملك لويس فيليب

الفصل الخامس . - الحركة الرومنطيقية وعودة الشرعية الى اوروبا ٧٠

الروح الرومنطيقية بين جيل وآخر - بين الاتباعية والابداعية : وضع غوته - وبتوفن من بعده - الرومنطقي وحله الدفين - البيئة وادوات التعبير - رومنطيقية رجعية المفعول - ميغل واستبدادية الدولة - عودة النظام في اوروبا الى الشرعية - الشرعية الدينية - السلام الاوروبي عن طريق شرعية النظام الملكي

الفصل السادس . - الحركات القومية والقضية العمالية في اوروبا ، الروح التحررية

والابداعية المتفائلة ٨٣

الاحرار - الحركة الرومنطيقية والقوميات - وضع العمال في المصنع ، بؤس البروليتاريا - تنظيم العمال ، الاضطرابات العمالية العفوية - حرية العمال والنضال دونها - الرومنطيقية الاجتماعية وانبياء المدينة الفاضلة - ماركس وردة الفعل التي قام بها - الديموقراطيون والثوريون ، الراديكالية والوثائقية - عهد الجمعيات السرية والدساتير وثورات الشوارع في اوروبا الغربية - الثورات الاوروبية ، ١٨٤٨-١٨٣٠

الفصل السابع . - بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم - الدفع الاستعماري

الجديد بعد فترة من التمثل ١٠٥

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم في العالم الجديد - تحرير اميركا اللاتينية - حروب الاستقلال - توسع الولايات المتحدة وامتدادها - روح واشنطن وجيفرسون الديموقراطية - ضربة تنزل بالاستعمار القديم : إلغاء الرق - الاتجاه نحو امبراطورية بريطانية متحررة - عودة التوسع والتبسط في كل من البحر المتوسط والهند

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسع الاوروبيين العالمي

الفصل الاول . - المنعطف الحربي خلال القرن - الحروب القومية في اوروبا

والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة (١٨٥٤ - ١٨٧١) . . . ١٢٥

من حروب الغرم الى الحرب الفرنسية الالمانية ، حرب الانفصال وانقلاب الوضع في البر الاوروبي لمصلحة المانيا - بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للعهد الحربي - مميزات الحروب وعدد الحرب في منتصف القرن

الفصل الثاني . - عصر الايمان المطلق بامكانيات العلم ١٣٠

رسالة الغرب - مسألة الثقافة - نمو الروح العلمية : الاثر الوضعي - معرفة الكون - زمانا «مرسلين برتلو» والمورد «كلفن» : المدرسة الآلية - معرفة الحياة والانواع الداروينية - الصراع من اجل الصحة ، كود برناردو والثورة الباستوروية - المعرفة التاريخية والاجتماعية - الايمان بامكانيات العلم والعلم الاخلاقي النفعي .

الفصل الثالث . - استكشاف الارض وانتشار المثل الاوروبية ١٤٢

معرفة الارض وتقبلها - الاستكشافات البرية - معرفة الكون - دور اللغة في انتشار الثقافة الاوروبية -
انتشار المسيحية - انتشار الروح الانسانية : مواصلة مكافحة النخاسة

الفصل الرابع . - ارتفاع عدد السكان وتزوحات الاوروبيين الكبرى ١٥٤

نمو عدد السكان في اوروبا والعالم - النزوحات الاوروبية الكبرى

الفصل الخامس . - فتح المحاصيل الكبرى الحيوانية والنباتية ١٦٠

القص والصيد - استخدام الشجرة - معكاسب مشاجر المناطق الحارة - الثمار والبقول على الخوان في الغرب
- التنافس والحرب بين الشمندر وقصب السكر - توسيع مساحات زراعة الحبوب - بحاجات تربية
المواشي - انتشار الغريبين وفتائجه غير المقصودة على الانواع النباتية والحيوانية

الفصل السادس . - العبقرية الصناعية في اوج الانتاج الفحم الحجري وعند ظهور الفولاذ . ١٦٨

ترويض القوى الطبيعية وسيطرة الفحم الحجري - ارباب صناعة الحديد والفولاذ - تنوع المعادن غير
الحديدية والاصلاح - امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف - تبشير الكهرباء الجديدة - الهجوم
الآلي - المعارض

الفصل السابع . - الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار ١٧٩

انتصار الخط الحديدي - سباق الطرق البرية ودفاع الطرق المائية - تقهقر السفينة الشراعية وتفوق السفينة
البخارية - المرافىء البحرية الكبرى - فتح القعر : السويس وبناما - الاتصال البعيد

الفصل الثامن . - انطلاقة الرأسمالية في الغرب ١٩٣

رسالة الغرب الرأسمالية - وفرة المعادن الثمينة - سيادة الذهب - الخلافات والانفاقات المالية - نمو سوق
رؤوس الاموال والجهاز المصرفي - نمو المشاريع الرأسمالية - الوجوه الرأسمالية الكبرى - تجنيد
اليد العاملة المأجورة - حرية المقايضات - الحركة العالمية الدائرية للمقايضات - اعلام واسع واعلان
ناشط - دين اوروبا على العالم - ازمات الرأسمالية ، والتقلبات الطويلة الامد - السنوات الجيدة ١٨٥٠
١٨٧٣ - هبوط السنوات ١٨٧٣ ، ١٨٩٥ ونهاية الموجة ١٨١٥ ، ١٨٩٥ - القومية الاقتصادية
تستعيد مكاسبها : العودة الى مبدأ الحماية

الفصل التاسع . - الاستعمار الاوروبي ونشأة السياسات التوسعية الكبرى ٢١٢

اتفاق الظروف القومية في اوروبا والاستعمار في منتصف القرن - استمرار مذهب المناهضة للاستعمار -
ديمومة التقليد الاستعماري والخطوط الاولى لمذهب تسلطي - انحطاط الشركات الممتازة القديمة
الشركات التعاقدية الجديدة - شركة سبيل رودس التعاقدية - جمعية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية
تدخل الدول الاوروبية الاستعمارية لخدمة المصالح الرأسمالية - مثل تونس ومثل مصر - دور الضابط
الاستعماري قانع ومدير - الحروب الاستعمارية - المحميات والمستعمرات - المناقصات الكبرى
والتقسيمات - مصر السكندريين المشرف في الشطلي الاطلسي - الانحطاط الايبيري - استعمار
العظمة النيرلندية - امبراطورية الروس الاوراسية - تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة -
التفوق البريطاني - المستعمرون الاخرون - من الارث البلجيكي الى المطامع الالمانية والايطالية ...

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الفصل الأول . - المدينة ودفعها الشديد ٢٣٩

ازدياد السكان في المدن - المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة - بحثا عن مندسة خاصة بالمدن - تطور الخدمات البلدية الصحية بالمدن - الشارع في عبثه ولهوة وملذاته - بين الاخلاق الباريسية والاخلاق البورجوازية - الحضارة المدنية : مساوئها وعوراتها - الهرب من المدينة

الفصل الثاني . - استقلال الذوق ٢٤٤

استقلال كل من الكتاب والفنان - خلفات المدرسة الرومنطيقية - القيادات الرجعية ضد الرومنطيقية : الراقمية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي - المدرسة الانطباعية - واغتر والاتجاه نحو الفن اللاعقلاني - الابداع الشعري المستقل والرمزية

الفصل الثالث . - الريف يأخذ جزئيا بأسباب التطور ٢٦٤

اكتظاظ الريف بالسكان وتزورهم الى المدينة - تطور التقنيات الجديدة واستثمار اصلح الارض - التطور الزراعي يتوالى بين مواسم خصبة وسنون عجفاء - الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها - تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها والاستثمار المباشر - الفنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين

الفصل الرابع . - المدينة المتحررة بين القوى المحافظة والاشتراكية ٢٧٦

الدول القومية وعبادة القومية - الاقليات وحقوقها ضمن الامة - الابقاء على الوظيفة الملكية ومقاومة الاوستوقراطيات - تطور المصالح العامة الكبرى - مشكلات التعليم العام والتعليم المهني - مبوط في الايمان التقليدي وتطور الفكر الحر - مقاومة الكنائس لها ، مصانعتها للدولة المتحررة - من الاقتراع الضرائبي الى نظام الاقتراع العام ومن حكم النبلاء الى حكم الديموقراطية - الضرائب والموارد المالية في الدولة - ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات - اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية - الحركات الاشتراكية والفوضوية عام ١٨٦٠ الدولية الاولى وكومون ١٨٧١ - نشأة الاحزاب الاشتراكية وتأليف الدولية الثانية - عهد الاغتيالات الفوضوية - الصراع المفتوح ضد الاضرابات العمالية ضد الاشتراكية - المعاملة الابوية والتشريع الاجتماعي - آمال وحدود الحركة النقابية - الطبقة العمالية تحت وطأة مرض اجتماعي مزمن : الفقر - دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي : صحة احسن واخلاق اتمم - خطر السلام القائم على التسليح وضالة مكاسب القانون الدولي

الفصل الخامس . - بين المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط - الدول الأوروبية ٣٠٧

بريطانيا العظمى الشديدة البأس في عهد الملكة فكتوريا - كفاح الشعب الايرلندي - الازدهار يعم سكندنافيا - بحث النشاط في هولندا وبلجيكا - الديموقراطية الجبلية في سويسرا - الديموقراطية الفرنسية بين النظام والحركة - اوروبا المتوسطة وميزاتها الفارقة - تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب - مشكلات المملكة الايطالية الفتية - اوروبا الوسطى تحت سيطرة المانيا البساوكية - الريخ الالمانى مجال لتطورات عظيمة

الفصل السادس - أوروبا الشرقية وبقية القارة ٣٢٩

بروز أوروبا الشرقية - الشراكة النمساوية المجرية في حوض الدانوب ومن البحر البلطقي إلى الأدرياتيكي ، قوميات مستعمدة تتمثل وتتمطى - تقهر تركيا وبروز الدول البلغانية - العهد الاستبدادي الروسي والنظام القديم قبل حرب القرم - الازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني ، الاصلاحات وجراد الحركة الثورية - ردة الفعل ، مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني - منظران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية وفنية ممتازة وتأخر اقتصادي متصل . . .

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

الفصل الاول - المجتمعات الشمالية الخفية ٣٤٩

الفصل الثاني - التقدم السريع في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة ٣٥٠

الاعمار : مشايخ واختلافات - المساحات الفسيحة والحريات العامة : الحكم الذاتي والاتحادات مصير الاعراق الملونة - استثمار الاراضي الجديدة : من الاشكال البسيطة الى الاقتصاد التجاري الاكبر - مدينة العالم الجديد - حضارة الآلة في الولايات المتحدة والاعمال الكبرى - الفروع الكبرى لعالم الاعمال الاميركي - سياسة المصالح الكبرى في الولايات المتحدة - معارضة المزارعين في الولايات المتحدة - العامل الاميركي ونشأة النقابية في الولايات المتحدة - فاتحة الحركة العمالية في استراليا - الايمان والثقافة عند الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة

الفصل الثالث - الايام الصعبة في اميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال ٣٧٦

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة الأوروبية الجديدة - حياة السكان الهنود : بداءة وبؤس - مصير الدماء المختلطة والزواج - التطفل الاقتصادي وهزال وسائل النقل - جاذب الحياة في المدينة وبطء تطور الوظيفة المدنية - ولادة رأسمالية اميركية جنوبية رتدخل الرأسمال الأوروبي - وحدة الثقافة والتصادم بين التقليد وفكرة التقدم - تعذر الوحدة الإقليمية - مرض آخر واسع الانتشار : الاضطرابات الدائمة في قلب الامم الفتية ، حكم الزعيم الفرد وصعوبة ولادة النظام الدستوري - الاستثمار والتنوع البرازيليان - جمهوريتان راعيتان : الأرجنتين والأوروغواي - الشيلي : غرابة جغرافية ونجاح قومي - الجمهوريات الاربع في جبال انديس المرقمة : غوها السير ، فوزويلا بين سكان السهول واصحاب المزارع ، الجمهوريات الصغرى في اميركا الوسطى - ارتفاع المكسيك المتأخر غويانا والانتيل تحت السيطرة الأوروبية ، جمهوريتا هايتي - مذهب مونرو وبزوغ فجر سياسة اميركا شاملة

الفصل الرابع - العالم الاسلامي من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب ٤٠٤

نطاق الاسلام : وحدة استمرار واشباع ، التيارات الدينية في الاسلام وسلك السلم حيال المبادات الاخرى - مميزات الدولة الاسلامية وادائها - الامبراطورية التركية : تنوع الشعوب - « الرجل المريض » فشل التنظيمات والتطفل الأوروبي في تركيا - فارس في عهد سلالة الحجاز - الدولة الافغانية بين البريطانيين - خضوع الاسلام للروس - مصر : ارض خصبة وفلاح بائس ، مطامع محمد

وخلفائه ، السيطرة البريطانية - الرصايات الثلاث في الجزائر وتونس وطرابلس - عمل الفرنسيين في الجزائر - الحماية الفرنسية على تونس - الامبراطورية الشريفة قبل التدخل الاوروبي

الفصل الخامس . - بين خطي السرطان والجدي : حضارات افريقية واوقيانية . . . ٤٣٧

تأخر تطور الميشة ما بين خطي السرطان والجدي - تقدم الاسلام والنخامة في افريقيا - الصحراء الكبرى الاسلامية والنفوذ الفرنسي- الشعوب الاسلامية في السنغال والسودان - شعوب المناطق الغينية - الاستعمار الاوروبي في افريقيا وتشاد الغربية - في السودان النيلي : الاطباع المصرية وامبراطورية الدراويش - اثيوبيا - تيودوروس ومنليك - افريقيا البانتوية ونصيب زنجبار - الاستثمار الاستعماري لافريقيا البانتوية - مدغشقر في عهد الهولنديين ثم الفرنسيين - جزيرتان تنتجان السكر : موريس وريونيون - عهد المرسلين والتجار وصيادي الحيتان في الباسيفيكي - عهد المغارس والمناجم في اوقيانيا - تقويض المجتمعات القديمة وافكار اوقيانيا حتى التقسيم الاستعماري

الفصل السادس . - الهند وآسيا الشرقية امام التوسع الغربي ٤٥٨

« املق حضارة النبات » في آسيا - استمرار حالة الفقر والنزوحات الآسيوية : حاجيات الاستثمار الاستثمار الاوروبي وجاذب العالم الجديد ، قوة التقليد ، الانحطاط الفني : اثر الغرب ، استثمار الهند على ايدي البريطانيين ، تطور الهند الاجتماعي ويقظة الوعي القومي الهندي ، بورما وماليزيا البريطانيان ، شعوب الانسولند ، استثمار الهند النيرلندية ، نهاية السيطرة الاسبانية في الفلبين ، الدول السيامية ، فيتنام ولاوس وكومبوديا قبل التدخل الفرنسي-اوائل عهد الهند الصينية الفرنسية الامبراطورية الصينية القديمة - دفاع الامبراطورية الصينية عن ممتلكاتها الخارجية - تباشير التدخل التدخل الاوروبي في الصين واولى ازمان الامبراطورية الصينية ، ثورات الـ « تايبينغ » والمسلمين - نجاحات النفوذ الاجنبي الجديدة والازمة الثانية في الامبراطورية الصينية - وجه اليابان القديمة المحبوب وأزمتها - فتح اليابان للاجانب وانهار السلطة الشوغونية - الـ « مييجي » - مظاهر اليابان المتناقضة قبل توسعها

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

الفصل الاول . - وثبة جديدة الى الامام ٥١١

تكاثر البشر-زوحات السكان الكبرى وتوسع المدينة - تجدد النهضة - الاقتصادية (١٨٩٥-١٩١٤)- من عصر البخار الى عصر الكهرباء - انطلاقة الكيمياء المستمرة - من الآلة البخارية الى محركات الانفجار والاحتراق الداخلي : ظهور السيارة والطائرة - نصيب التقنيات الحربية الكبرى - تباشير ثورة علمية جديدة : الاشعاع الذاتي والنسبية - نحو الثقافة الشعبية والرياضة - الإنتاج الادبي الوفير والنهضة المسرحية - اوائل ثورة موسيقية - الاتجاهات الجديدة في الفنون التصويرية ، ردة الفعل ضد الانطباعية - من الأسلوب المصري الى هندسة العمارة الاسمنتية

المنازعة حول قيمة العالم الارثوذكس في تقدم النوع ، رفض الحضارة المصرية ودعوة الشرق الى الالغاف التقليد الروحاني والتصوفي - تمظيم الشخصية - الموقف العملي - النهضة الدينية المحافظة ضد النزعة المصرية - النفسانية والمادية امام التطور البشري

الفصل الثالث - الدور الاستعمارية والحمى القومية - اعراض التقهقر الاوروبي . . ٥٥٦

الاقلية الرأسالية تزداد بآماً وحولاً وتوسماً - ضعف أوروبا في الأسواق العالمية - استثمار أقوى البلدان الجديدة

التطور المتزامن للرأسمالية الدولية والقومية الاقتصادية - أسس السياسة الاستعمارية الوطنية - الدليل العرقي والعنصرية - العرقية اللامامية وظهور الصهيونية الدولية - الهيجان القومي في أوروبا وأهم مناطق الخطر - القوة الألمانية وسباق التسلح - ثلاث حوادث فشل تصالب بها أوروبا : الحبشة ، كوبا ، منشوريا - الدول الاستعمارية خارج أوروبا ، بروز الولايات المتحدة الاميركية واليابات - طلائع الثورة الصينية - الحركات القومية خارج أوروبا ، بوادر ردة مضادة للاستعمار

الفصل الرابع - الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي ٥٨٥

البروليتاريا ووضعا القائم في أواخر القرن - انتاجيه أكبر وظهور التخصص التقني - المزيد من المؤلفات الاساسية الحريات العامة وروح التعااضد وقضية « ديموقراطية مسيحية » الضرائبية وتطور التشريعات العمالية - الاضطرابات الاجتماعية والهجوم الكبير التي هيأت أسبابه الثقافية في أوروبا واميركا - الدفع الاشتراكي وتركة ماركس - الثورة الروسية عام ١٩٠٥ وأثرها في الحركة الاشتراكية

الفصل الخامس من السلم الى الحرب الاوروبية ٦٠٧

عدم جدوى مقاومة العالم العالي للامبريالية والحرب اولى « مؤتمرات السلام » فشل التحكيم والدعوة الى نزع السلاح

الخاتمة ٦١٤

- ٦٢٠ التوجيه البليوغرافي
مراجع عربية
جدول زمني مقارنة
جدول الاعمال
فهرست الخرائط والتصاميم
فهرست الصور
فهرست عام

انتهى المجلد السادس، ويليه المجلد السابع والأخير
العهد المعاصر

زحني بعلما

- ١- حوار الحضارات
- ٢- الميتولوجيا اليونانية
- ٣- مبادئ العلاقات العامة
- ٤- الخلدونية
- ٥- سوسيولوجيا الأدب
- ٦- الأسواق الزراعية
- ٧- الجمالية الفوضوية
- ٨- تاريخ الفنون العسكرية
- ٩- الفكر الفرنسي المعاصر
- ١٠- الأدب المقارن
- ١١- الإسلام
- ١٢- برغسون
- ١٣- سيكولوجيا الفن
- ١٤- تأملات ميتافيزيقية
- ١٥- في الدكتاتورية
- ١٦- العقد النفسية
- ١٧- دستوفسكي
- ١٨- نظرية العفو
- ١٩- الإنسان ذلك المعلوم
- ٢٠- سوسيولوجيا الفن
- ٢١- السيمياء
- ٢٢- التخلف المدرسي
- ٢٣- علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي ...
- ٢٤- مدخل إلى علم السياسة
- ٢٥- نقد المجتمع المعاصر
- ٢٦- روسو
- ٢٧- الأدب الرمزي
- ٢٨- طريقة الروايز في التربية
- ٢٩- مصير لبنان في مشاريع
- ٣٠- من ديكاوت إلى سارتر
- ٣١- الانطباعية
- ٣٢- تاريخ قرطاج
- ٣٣- باسكال
- ٣٤- المؤسسات العامة
- ٣٥- المسألة الفلسفية
- ٣٦- تاريخ السوسيولوجيا
- ٣٧- الفدرالية
- ٣٨- أمراض الذاكرة
- ٣٩- المذاهب الأخلاقية الكبرى
- ٤٠- نقد الايديولوجيات المعاصرة
- ٤١- الفلسفات الكبرى
- ٤٢- العواطف والحياة الأخلاقية
- ٤٣- المكتبات العامة
- ٤٤- منظمة الأمم المتحدة
- ٤٥- الدستور واليمين الدستورية
- ٤٦- هذه هي الحرب
- ٤٧- الممارسة الايديولوجية
- ٤٨- المواطن والدولة
- ٤٩- فلسفة العمل
- ٥٠- مونتاني
- ٥١- علم الجمال
- ٥٢- تدريب الموظف
- ٥٣- فلسفة التربية
- ٥٤- السوق النقدية
- ٥٥- الإنسان المتمرد
- ٥٦- تيار دوشاردان
- ٥٧- التربية الحديثة
- ٥٨- كيركيغارد
- ٥٩- تقنية المسرح
- ٦٠- المذاهب الأدبية الكبرى
- ٦١- النقد الجمالي
- ٦٢- الحضارات الإفريقية
- ٦٣- ديكاوت والعقلانية
- ٦٤- العلاقات الثقافية الدولية
- ٦٥- البيليوغرافيا
- ٦٦- علم السياسة
- ٦٧- الإعلام
- ٦٨- سوسيولوجيا السياسة
- ٦٩- الأدب الطبيعي
- ٧٠- الجمالية عبر العصور

٧١- فن تخطيط المدن
 ٧٢- علم النفس التجريبي
 ٧٣- أصول التوثيق
 ٧٤- دينامية الجماعات
 ٧٥- تاريخ العرقية
 ٧٦- قيمة التاريخ
 ٧٧- سوسيولوجيا الصناعة
 ٧٨- الماركسية بعد ماركس
 ٧٩- معرفة الذات
 ٨٠- تاريخ الطيران
 ٨١- التعليم المبرمج
 ٨٢- السلطة السياسية
 ٨٣- سوسيولوجيا الحقوق
 ٨٤- الخطوط الأولى لفلسفة ملموسة
 ٨٥- مدخل إلى التربية
 ٨٦- معرفة الغير
 ٨٧- القيمة
 ٨٨- عظمة الفلسفة
 ٨٩- الإنسان الأول
 ٩٠- اللحظة المدمية المتعالية
 ٩١- الجمالية الماركسية
 ٩٢- تاريخ بابل
 ٩٣- الفلسفة والتقنيات
 ٩٤- جغرافية العالم الصناعية
 ٩٥- فلاسفة إنسانيون
 ٩٦- الحرب الأهلية
 ٩٧- أصل الموحدين الدروز
 ٩٨- من الرأي إلى الإيمان
 ٩٩- التسويق
 ١٠٠- دفاعاً عن الأدب
 ١٠١- الذين يحضرون غيابهم
 ١٠٢- الجماعات الضاغطة
 ١٠٣- الأسطورة
 ١٠٤- التوفير والتشجير
 ١٠٥- الإحصاء
 ١٠٦- الوظيفة العامة
 ١٠٧- الكلام
 ١٠٨- النظام السياسي والإداري في بريطانيا
 ١٠٩- الثقافة الفردية وثقافة الجمهور
 ١١٠- توظيف الأموال
 ١١١- الأدب الألماني
 ١١٢- المحاسبة التحليلية
 ١١٣- النظام السياسي والإداري في فرنسا
 ١١٤- الأمومة والبيولوجيا
 ١١٥- الحريات العامة
 ١١٦- قانون الفضاء
 ١١٧- تلوث المياه
 ١١٨- النقد الأدبي
 ١١٩- النظام السياسي والإداري في الاتحاد السوفياتي
 ١٢٠- التلوث الجوي
 ١٢١- النسبية
 ١٢٢- السورالية
 ١٢٣- حلول فلسفية
 ١٢٤- التلفزيون الملون
 ١٢٥- مدخل إلى الاقتصاد
 ١٢٦- الأخلاق والحياة الاقتصادية
 ١٢٧- مناهج علم الاجتماع
 ١٢٨- استطلاع الرأي العام
 ١٢٩- وحدة الوجود العقلية
 ١٣٠- الأدب الإيطالي
 ١٣١- المذاهب الاقتصادية
 ١٣٢- الفن التكميلي
 ١٣٣- التربية الجنسية عند الولد
 ١٣٤- فلسفة القانون
 ١٣٥- الطقولة الجانحة
 ١٣٦- الرواية البوليسية
 ١٣٧- النقد البنيوي للحكاية
 ١٣٨- تاريخ الجزائر المعاصر
 ١٣٩- الكوميديا
 ١٤٠- تاريخ علم الآثار
 ١٤١- السيكلوجيا الصناعية
 ١٤٢- الدولة

٧١- فن تخطيط المدن
 ٧٢- علم النفس التجريبي
 ٧٣- أصول التوثيق
 ٧٤- دينامية الجماعات
 ٧٥- تاريخ العرقية
 ٧٦- قيمة التاريخ
 ٧٧- سوسيولوجيا الصناعة
 ٧٨- الماركسية بعد ماركس
 ٧٩- معرفة الذات
 ٨٠- تاريخ الطيران
 ٨١- التعليم المبرمج
 ٨٢- السلطة السياسية
 ٨٣- سوسيولوجيا الحقوق
 ٨٤- الخطوط الأولى لفلسفة ملموسة
 ٨٥- مدخل إلى التربية
 ٨٦- معرفة الغير
 ٨٧- القيمة
 ٨٨- عظمة الفلسفة
 ٨٩- الإنسان الأول
 ٩٠- اللحظة المدمية المتعالية
 ٩١- الجمالية الماركسية
 ٩٢- تاريخ بابل
 ٩٣- الفلسفة والتقنيات
 ٩٤- جغرافية العالم الصناعية
 ٩٥- فلاسفة إنسانيون
 ٩٦- الحرب الأهلية
 ٩٧- أصل الموحدين الدروز
 ٩٨- من الرأي إلى الإيمان
 ٩٩- التسويق
 ١٠٠- دفاعاً عن الأدب
 ١٠١- الذين يحضرون غيابهم
 ١٠٢- الجماعات الضاغطة
 ١٠٣- الأسطورة
 ١٠٤- التوفير والتشجير
 ١٠٥- الإحصاء
 ١٠٦- الوظيفة العامة

١٤٣- البحث العلمي
 ١٤٤- المجتمع الصناعي
 ١٤٥- التوجيه التربوي والمهني
 ١٤٦- الجوع
 ١٤٧- التخفيض النقدي
 ١٤٨- القانون الدولي
 ١٤٩- الدراما والدرامية
 ١٥٠- صراع الطبقات
 ١٥١- الامبريالية
 ١٥٢- الاستعارة والمجاز المرسل
 ١٥٣- علم الدلالة
 ١٥٤- البنيوية
 ١٥٥- الاتجاهات الأدبية الحديثة
 ١٥٦- جغرافية الاستهلاك
 ١٥٧- معايير الفكر العلمي
 ١٥٨- تاريخ الحساب
 ١٥٩- الياس أبوشبكة
 ١٦٠- آراء في السعادة
 ١٦١- تقنية السينما
 ١٦٢- العقل والنفس والروح
 ١٦٣- علم النفس الاجتماعي
 ١٦٤- الطاقة
 ١٦٥- مناهج التربية
 ١٦٦- آداب الهند
 ١٦٧- الوحدة والديمقراطية في الوطن العربي
 ١٦٨- جغرافية السكان
 ١٦٨- التقمص
 ١٦٩- حقوق الطفل
 ١٧٠- آينشتين
 ١٧١- السدود
 ١٧٢- تقنية الصحافة
 ١٧٣- الإنسان
 ١٧٤- الأدب الصيبي
 ١٧٥- تقرير الفلسفة
 ١٧٦- اللامركزية السياسية والإدارية في العالم

١٧٧- الفكر العربي
 ١٧٨- طبيعة الميتافيزيقا
 ١٧٩- الخدمة المدنية في العالم
 ١٨٠- التربية المستقبلية
 ١٨١- تاريخ الحضارة الأوروبية
 ١٨٢- حقوق الإنسان الشخصية والسياسية
 ١٨٣- المحاسبة
 ١٨٤- سيكولوجيا الذكاء
 ١٨٥- الاقتصاد في المغرب العربي
 ١٨٦- فولتير
 ١٨٧- التاريخ الدبلوماسي
 ١٨٨- الطبقات الاجتماعية
 ١٨٩- من الكندي إلى ابن رشد
 ١٩٠- الاستثمار الدولي
 ١٩١- مدخل إلى السوسيولوجيا
 ١٩٢- الحركة النقابية في العالم
 ١٩٣- المحاسبة في النظرية والتطبيق
 ١٩٤- الأدب اليوناني
 ١٩٥- تاريخ علم النفس
 ١٩٦- القوضوية
 ١٩٧- المورفولوجيا الاجتماعية
 ١٩٨- الآليات الزراعية الحديثة
 ١٩٩- التسويق السياسي
 ٢٠٠- الفلسفة الشريفة
 ٢٠١- الاسترخاء
 ٢٠٢- بحوث في الرواية الجديدة
 ٢٠٣- المواقف الأخلاقية
 ٢٠٤- مع الفلسفة اليونانية
 ٢٠٥- أعضاء عربية على أوروبا في القرون الوسطى
 ٢٠٦- الجريمة
 ٢٠٧- الأسواق المالية في العالم
 ٢٠٨- المراهقة
 ٢٠٩- الكندي
 ٢١٠- الصحة العقلية
 ٢١١- ميزان المدفوعات
 ٢١٢- الوسائل السمعية والبصرية
 ٢١٣- البنزين

منشورات هويدات ٩١٩ / ١٩٨٧

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME VI

LE XIX^e SIÈCLE ***L'APOGÉE DE L'EXPANSION EUROPÉENNE*** **(1815-1914)**

par

Robert SCHNERB

*Professeur honoraire de Premiers Supérieurs
Docteur ès Lettres*

QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

